PUBLICATION PROTEGEE

PAR LA

LEGISLATION SUR LA PROPRIETE

LITTERAIRE ET ARTISTIQUE

LOI N **57_298** DU **11** MARS **1957**)

2017-11-[illegible]



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

Volume 1

2017-11-14 Digitized by Google

MICROFILM ÉTABLI

PAR

L'ASSOCIATION POUR LA CONSERVATION ET LA REPRODUCTION PHOTOGRAPHIQUE DE LA PRESSE

PARIS

L'Exploitation commerciale de ce film est interdite. La Reproduction totale ou partielle est soumise à l'autorisation préalable des ayants droit et à celle de l'A.C.R.P.P. qui conserve un exemplaire du microfilm négatif

© 1998 A.C.R.P.P.

2017-11-15 Fonds Patrimonial

PROVENANCE DE LA COLLECTION

INSTITUT DU MONDE ARABE
Cote: 833 (051) RIW

2017-11-15 15:15:05


الرواية

MICROFILM ÉTABLI

PAR

L'ASSOCIATION POUR LA CONSERVATION ET LA REPRODUCTION PHOTOGRAPHIQUE DE LA PRESSE

PARIS

L'Exploitation commerciale de ce film est interdite. La Reproduction totale ou partielle est soumise à l'autorisation préalable des ayants droit et à celle de l'A.C.R.P.P. qui conserve un exemplaire du microfilm négatif

© 1998 A.C.R.P.P.

2017-11-15

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

ساحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
التبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٥ — ٣٠ ذي القعدة سنة ١٣٥٦ — أول فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

رجل البحر

للكاتب القصصي هـ. أ. مانهود

بقلم احمد حسن الزيات

عثرت فجأة على الجوسق [1] كما يعثر متصفح الكتاب على سورة ما كان يتوقعها. وكان هذا النزل الصغير قائماً في صدر الخليج كأنه جوهرة عليظة الصقل ركبت على هلال مشنبك. فإذا أردت أن تصل إليه سرت على الرملة أو اتخذت طريقاً ضيقة تتسلل على حافتي جلان من وحش النبات، تنشعب قبل أن تقبله إلى شعبتين تسيران مع الحوائط المتداعية للحديقة، ثم تجتمعان من وراء قصيران مواطئ أقدام تتنقل حتى تدخل النزل، فلا يسمك وأنت ترى هذا الطريق الطموس إلا أن تظن أن الذين مروا بهذا المنزل — على ندرتهم — لم يحسوا الرغبة أو لم يجدوا الجرأة ليقتحموا بابه

كان على سطحه ثلاث مداخن شواهق شقت السقف فبدا بها كأنه الكرسي المقلوب، انفتل على جنباتها خيوط دقيقة من الدخان، وعلق بهاماتها سيقان طويلة من القش، يحركها مرّ النسيم فترقص على إيقاع متخيّل. وكان ذلك السطح الصفح بالأردواز قد اصطبغ بصبغة الذهب الكاذب فشابه لونه لون التفاح على أشجاره العارشة فوق الحائط الخلفي. وفي الحديقة اعتصم بالجدران الواطئة النهارة أدغال شواجن من عنب الكشمش [1]؛ وعلى صدع من صدوعها قامت شجرة وحيدة من شقائق النعمان كانت تركع وتقوم في صلاة متتابعة ضائعة تحت عصف الريح المحملة بذرّات الرمل.

(١) الجوسق هو البيت البري المنفرد

(١) هو العنب الثاني

لا يستطيع واصف هذا الجوسق أن يقول إنه ينظر إلى البحر ؛ إنما كان يلاحظه عن عُرض ملاحظة الحاجي يعتقد أنه في أمن من ارتفاع المد مهما طغى . وكان على العشب القابل الحائل زورق أُخرج من الماء فنسجت العنا كب على جوانحه عُشّها الواهن الهش ، وقد نُقش على جانبيه بحروف لا تكاد تُقرأ : (ميكائيل سوان — بورت آن)

وعلى مقربة منه شِباك صيد قد نُشرت على أربعة أوتاد في الرمل على شكل المدرج ، تدور بينها فَراشتان أمام الثياب القاصل النافي ، وألفافٌ من النبات تزدهر تحت النافذة وتنظر خُلسة إلى البحر ، وكومة من الأوراق الصفر قد ارتفعت إلى عماد الحائط ، وعجداف غاص منحرفا في الرمل متجها إلى الجوسق ، وقد كُتب على صفحته بالحديد المحمى كلمة The كأنها الرمز المهدَّد

دفعت باب الحاجز فتنبه الحارس ، وهو قِط أصحر اللون قد رقد مستديراً في مَصْيدة عتيقة من مصايد السرطان البحري ، ثم نظر إليّ لحظة وعاد إلى نومه من غير أن يتحرك . وكنت قد جاوزت الفناء المبلط بالحجر النليظ ، ورأيت المطبخ تسطع منه روائح الوقود من اليوكاليتوس والصنوبر وقد دخله ضوء الشمس من بعض الفُرُجات فتدوَّر فوق أرضه كالدنانير ، والموقدُ تندلع في بهرته ألسنة اللهب الأزرق ، والمائدةُ ينبسط عليها رِخوان ممزق ، وامرأةٌ دقيقة النظام صغيرة الجثة قد حسرت عن ذراعيها وأخذت تكوى بعض الثياب على هذه المائدة في نشاط وهمة ؛ وكان شعرها القليل قد ردَّته بعناية إلى قذالها فانعقص خفيفاً على قفاها ، ثم فَرَقه على الجبين خط كأنه الطريق في أرض منبرّة بور . وكانت شفتاها مضمومتين مزمومتين فتحسبها تجرعت دواء مرّاً بقي مذاقه في فمها . فلما قرعت عليها الباب فزعت ، فشرحت لها سبب زيارتي إياها ، فقالت تميد ما قلت في سذاجة :

— تريد لبنا ؟ ثم وضعت مكواتها على وعاء وذهبت إلى خزانة الطعام فكشفت عن إحدى الجرار وقالت : نعم أستطيع أن أعطيك لبناً .. وبيضاً أيضاً . تفضل فادخل هنا واقعد قليلاً . ثم تقدمتني إلى حجرة ففتحت بابها وقالت : أعتذر إليك من سوء النظام فإن المنزل صغير . وأسرعت إلى الثياب المطوية الموضوعة على الكرسي فرفعتها ، وإلى نسخة ضخمة من التوراة كانت تشغل مقعداً من الشَّعر فنقلتها ؛ ثم نفضت الغبار بذيل ميدَعتها ، وأصلحت ما تهوش من الغطاء المطرز على مسند الكرسي ثم ولت وهي تقول : لن أغيب عنك طويلا . دقيقة واحدة

* * *

كان لابد أن تمر وني هزة من البرد في هذه الحجرة . كان أمامي صليب من البلور معلق على الحائط ، ونوع من الأراغين جاثم في الزاوية . فوقع في نفسي أن أعزف على هذا الأرغن الصفرّ معتقداً أنني متى أمررت أناملي على مضاربه غنى مي هذا الكاهن (١) العجول الذي يحرس الباب ، وذلك (الوردد نلسون) ، وهذا (الطفل المبذر) ، وسائر هؤلاء الذين يحدقون النظر فيَّ وهم محصورون في أُطُرهم النُّبْر فتملأ نظراتهم نفسي روعة ورهبة . لقد عددت — زيادة على عين نلسون الواحدة — ثلاثين زوجاً من العيون ، فكنت على وشك أن أعلن لهذا القاضي أني غير مذنب . وكان في الحجرة غير ذلك تذكارات وكتب تكفي لإقامة سوق : أصفاث من السرخس الجاف ، وزجاجة من ماء الأردن ، وأهرام من فواكه الشمع قد غشَّاها الغبار ، وأوانٍ وشماعدُ قد قامت على جدار

(١) كلها صور معلقة على الحائط

الحجرة كما يقوم السائلون فى زوايا الطرق . وكان الورق الملون الذى يكسو الحوائط قد حال لونه فانكمش ، وذهب لصاقه فتهدل ، وموقد المدفأة يطر من حين إلى حين رذاذاً من السناج على طاقة ضخمة من الزهر المصنوع من الورق الأبيض . وعلى مسند النافذة كان هناك شئ واحد يسترعى النظر جماله : نموذج مصغر لسفينة من سفائن القرن الخامس عشر صُنع من خشب الزان ، وصُبغ بلون الدخان ، ونُصب عليه شراع مقبَّب كأنما ملأته الريح . وعلى جوانب السفينة أمس كبيرة فيها صبَّار تدلت أوراقه على شكل السكاكين ؛ ومن وراء السفينة تبصر من النافذة المفتوحة بسيج البحر الأدهم وقد انبسط وامتد حتى التق بالأفق ؛ وعلى غوارب المواجة يجرى زورق صغير كأنه الورقة التالوية

كان يصدر عن المطبخ أصوات مختلفة كرنين الأكواب واصطدام الصينية وسقوط الملعقة . ثم دخلت العجوز الصغيرة فجأة فنشرت خواناً أبيض غير مصقول ، ووفرت عن المائدة المزعزعة ما يغطيها من الأشياء ؛ ثم مدت الخوان فوقها بعناية الورع الذى يزين بالوشى صدر الهيكل . ولما حدثتها عن الوضع الذى تسقط عليه أطراف الخوان حدقت ببصرها إلى لجأة وقالت مغمغمة وهى تفكر :

نعم ياسيدى : أجنحة من طير النورس كما قلت ؛ زوج فى كل زاوية

ثم صمتت لحظة ، وظهرت فى عينيها الوداعة والحنان كأنها كانت تجتلى رؤيا داخلية . ثم عادت تقول :

إن ولدى كان يقول مثل هذه الأشياء : كان يقول إن نسائج العنكبوت هى أشباح المجلات المحطمة والتروس المهشمة ...

ثم وضعت على الخوان كوباً وأملحها ترتجف .

فقلت لها : صورة جميلة ! لقد كنت أود لو عرفت ولدك ، فإن القليل من الناس هم الذين يسيرون فى الحياة وعيونهم مفتوحة . فاختلجت يداها وتقلصت أناملها فندمت على أن تكلمت . قالت : إن ولدى مدفون هناك على الرابية . وكأنها كانت لا تزال تسمع جَرْس الكلمات الذى خفَت فبدا عليها أثر الشك . وصوبت طرفها إلى ركن من أركان الحجرة وقالت : أنا وحدى التى أعرف أنه مدفون هناك .

ثم تألفت على الرغم منها الحروف ، ونطقت على غير إرادتها الكلمات ، فقالت :

«أنا أعلم أنك غريب ، ولكن لا بأس . إن سرى يثقل أحياناً على صدرى ، فإلى من أستريح بمكنونه وأسترفه من عبئه ؟ ليس لي إلا ميكائيل زوجى ، وهو لا ينبغي أن يعرفه مطلقاً . إن ذلك يقطع نياط قلبه البائس ! واستمرت شفتاها تنفرجان وتختلجان ولكنني لم أسمع شيئاً . ثم دلفت إلى النافذة وتناولت السفينة بيدها فى حيطة ورفق ، وافترّ ثغرها عن ابتسامة شاحبة أضاءت على شفتيها كما تضيء الشمعة الضئيلة في ركن الحجرة الواسعة المظلمة ، ووضعت أمامى نموذج السفينة ثم تطرحت متهالكة على مقعد كأنما أنصبت نفسها فى عمل لا تطيقه ، وقالت بصوت خافت متهافت : ذلك من صنع ولدى ! لقد كان ماهر اليد ثاقب الذهن خصب الخيال ، يتصور الأشياء العجيبة ، ويروى الحوادث الغريبة ، وذلك مما وقع له فى السفر أو سمع به فى البلاد . لقد كان يخيل إلى أنى أقرأ التوراة وأنا أسمعه . لماذا أخذه الموت ؟ لقد كان الله حريا أن يعلم ... ! ولكن لا ينبغى أن أشكو هذه الشكوى ، ولا أن أجزع هذا الجزع . إن ولدى جون كان لا يبرح يقول :

إن الوفاة خير من الميلاد . لقد كان يعرف ...

2017-11-11

وكانت تمسح يدها على جدار السفينة فى حال من الذهول خدّرت أعصابها ، وأنامت أوصابها ، فعاد صوتها خافتاً كحديث النفس ، وكلامها عذباً كرنين الموسيقى ، فكانت كلماتها أشبه بالورود تُنثر على قبر !

«لقد كان من الطبيعى أن يصير والدى بحاراً ، فان ملح البحر كان يلهب دمه . كان وهو صغير يتحدث عن الأمواج كما يتحدث عن أخوانه . وكان يسمى كل موجة اسماً : فهذه (الكرنبة الجلمدة) وتلك (الكلابة) وهاتيك (الكسولة) . ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى كان يعرف كل بحار العالم . لقد كان مساعد الربان فى سفينته . وكان كلما عاد من سفرة لاحظت فرقاً واضحاً فى رجولته وكفايته واستعداده ، فأقول لنفسى وأنا أنظر إليه :

إن جون والدى لا يرتاع لشىء ولا يتضعضع لحادث!

لقد صنع هذه السفينة الجميلة أثناء رحلته الأخيرة . وكأنى أسمعه الآن حين عاد وهو يثبّت هذا النموذج على لوح من الخشب يقول :

« هاك يا أماه ! تلك سفينتك قد أرست على المرفأ »

وكان يضحك وهو يقول لنا : تحققوا من وسق المركب . ولما دخلنا الدار أنا وميكائيل وجدنا رزمة من الأوراق المالية تكفى أن نعيش عليها خمس سنين ، ثم قدّراً من الطباق لميكائيل ، ومشبكاً لى . ولا تسل عما ألم بنا فى تلك الليلة من الأطياف الرائعة والأحلام الجميلة !

لبث فينا ثلاثة أسابيع كانت كلها فرحاً ومرحاً وبهجة ؛ ثم حُمّ الفراق وأُعِد الرحيل ، فصعبناه ذات صباح إلى (بورتسدون) . وطلب إلينا أن نرقب سفينته وهى تقلع فى بكرة الغد إلى عرض (المنش) ، ووصف لنا شكلها ولونها وسمتها حتى لا نضلها بين السفن ؛ وقال وهو يودعنا إنه سيعود عما قليل

وفى الحق لقد عاد بعد قليل ! فقد ثارت يوم رحيله عاصفة هوجاء زمجر فيها الرعد وهزمت البرق حتى شق على المرء أن يسمع نفسه . وكنت أنا وأبوه نرى مع ذلك أن الأمور تجرى لوالدنا فى مجراها الحسن

رصدنا سفينة (جون) وهى (سيبتنج كلود) ولكننا لم نرشيئا . على أننا رجونا أن الأمور تجرى لجون فى مجراها الحسن

ولا يزال ميكائيل يرجو !

انقضت بضعة أيام . وفى يوم سبت رأيت طيور النورس تحوّم هائجة على رأس (كنتس) . وقد ظلت نحوة النهار تتشاجر وتتطاير كأنها قصاصات من الورق تناثرت فى الهواء

لم أدر ماذا كانت تعمل ، فقد كنت من عملى فى شغل شاغل

وبعد الظهر أقبل رجلان غريبان يطلبان إلىّ لوحاً من الخشب وقطعة من قماش الشراع ، فأنهم وجدوا على الساحل تحت الرأس جثة بحار قذف بها البحر . فأعطيتهما ما سألا ، وذهبا ثم عادا بالجثة وهما يلهثان تعباً ، ويتصببان عرقاً ، فوضعاها فى مخزن الحب . وكانت تتدلى من تحت القماش الذى لفّ به الجثة بِرْقة من قميص كأنها الجناح الكسير . فلما انصرف الرجلان نضوت القماش عن الجثمان ونحصت القميص فعرفته . عرفته لأنى طالما غسلته وكويته ! لقد عاد والدنا جون !

كشطت الأصداف العالقة بحذاء جون ؛ ثم فكرت فى زوجى فسألت الله أن يعينى على إخفاء السر عنه . فاستجاب الله لى ، إذ لم يدع فى جثمان جون ولا فى لباسه ما ينم على شخصيته إلا هذا القميص ؛ وميكائيل ضعيف الذاكرة فلا يستطيع أن يعرفه . ولما رجع فى المساء ذهبت

2017-11-11

إلى لقائه ، وأخبرته أن الأمواج ألقت فى الساحل جثة بحار . فأقبل يراها . وما أنس لا أنس النظرة التى ألقاها على الغريق ! ولكنه لم يعرف ولدنا جون

ثم خشيت أن يأتى نبأ الغرق فيفوض كل ما بفيته ، فكتبت إلى النواخذة[1] أتحقق الخبر ، فأجابونى أن كل شىء كان على أحسنه ؛ وأرسلوا إلىّ ثبت الموانئ مسجلاً فيه ما تلقيه السفينة من الوسوق، فاستنتجت أن ولدنا ألوت به هبّة من الريح العاتية ، أو موجة من الأمواج الطاغية ، وهو يحاول على ما أظن أن يلقى نظرة الوداع على منزله . ولم يكن النواخذة على علم بمصرعه . ولن يعلموه هم وميكائيل إلا يوم تؤوب السفينة وعليها مساعد آخر . ولكن (اسبينج كلود) لن تؤوب ! فقد ابتلعها البحر البعيد على الشاطئ الأقصى من العالم . ونجا البحارة وتفرقوا فى البلاد شذر مذر . ويعتقد ميكائيل أن جون استقرت به النوى فى مطرح من مطارح الغربة ، وأنه سيكتب إلينا متى جمع ثروة . وأسأل الله أن يثبته داعماً على هذا الاعتقاد وذلك الأمل !

تحركت أذُنا القط الأبيض لحظة حين عبرت الفناء ، ولكنه لم يفتح عينيه تجاهلا لوجودى . وكان الخليج خالياً ، والزورق الذى رأيته منذ ساعة يجرى على الموج قد اضطجع على الرمل كأنه سمكة ضخمة ميتة . وكان (ميكائيل سوان) يحيط زنبيلاً مملوءاً سراطين بسلك من الحديد . فتقدمت إليه وسلمت عليه فهز رأسه فى ذهول وقال :

يوم سعيد ! نهار ضاح جميل !

وكان الرجل عملاقا أشيب الشعر معروق الأشاجع ، له عينان مظلمتان عميقتان تذكرانك بنرفتين مغروستين بالقطيفة القاتمة . وكان فى جوف الزورق سمكة غريبة الشكل مهشمة الجسم ، فتناولها ميكائيل بيده وقال فى هدوء وبطء :

عجيبة من عجائب خلق الله ! قنصتها فى مصيدة من مصايد السراطين ثم قتلتها أسرع ما أستطيع

وكأنما كان الشيخ يستغفر لنفسه قوة خفية . لحدثته عن سمكة تشبه هذه السمكة يجدها المسافرون فى بحر الكرايب . فنظر الرجل إلى وهو يفكر ؛ وبدا عليه أنه كان ينصت الكلام الذى يلقيه ، كما ينصت البنّاء الآجرّ الذى يبنيه . ثم قال وهو يومئ برأسه إلى الجوسق: لقد حدثتك عن ولدنا . أليس كذلك ؟ إننى أعلم كيف ترك المركب سُهساه وهى معجبة ببحاره . إنها تعتقد الآن ولا شك أنه فى جزيرة من الجزر النائية . ولا بد أن تكون قد سألتك : هل سمعت الناس يتحدثون عن جون سوان؟

إن ولدنا عاد ! ولكن زوجتى لا تعلم . إنها ضعيفة البنية هشة العظام ، فلو علمت أنه دفن فى مقبرة المجهولين لنشيتها ولا ريب صرعة الموت

إن ولدى خطفته موجة من طوافى الموج ، ثم دفع به التيار إلى الشاطئ مشوّه الوجه مستسرّ العالم . فنثرت عليه قريباً من الرأس حين تنفس الصبح ، فنزعت عنه ما بقى عليه من الأوراق والأزرار والعلائم ، وذهبت قُدُماً إلى (بورتسدون) أتلمس من يحمله ، فلم أكد أترك المكان حتى عاد بالجثة رجلان فنقلاها إلى المنزل

إنها لم تعلم حتى اليوم أن ذلك الجثمان المعزق الذى كان مسجّى فى مخزن الحب كان من لحمها ودمها .

لقد لقيتنى فى ذلك المساء فقالت لى فى لهجة تنم عن الأسى المكنون : شاب مسكين وجدوه على الساحل ! لا بد أن نبذل ما نستطيع لنعرف من هو . إن أمه تتحرق الآن شوقاً إلى لقائه ، وتسأل الرائح والغادى عن أنبائه ... !

(١) النواخذة جمع ناخذة وهم أصحاب السفن ووكلاؤهم

النبات

الرجل الذي صنع المعجزات

للكاتب الانكليزي ولز

بقلم الأستاذ دريني خشبه

أكبر الظن أن هذه الموهبة الخارقة لم تكن طبيعية فيه ، بل إنها قد جاءته عفواً ، ومن غير أن يدري عنها شيئاً من قبل ؛ فلقد بلغ الثلاثين وهو أشد ما يكون إلحاداً وكفراً ، وإنكاراً لهذه القوى الخرافية الخارقة التي تأتي المستحيلات... ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه كان شاباً قصير القامة داكن العينين ، له شارب لا بفتأ يفتل سبالبه المرهفين ، ووجه صارم به كلف خفيف ... أما اسمه فجورج مالك رَيْتر فَدَرِنجاي ... وهو اسم لا ينم بحال عن خافية صاحبه الكامنة التي تستطيع أن تأتي المعجزات . وكان كاتباً في مشرب في جُومُشْتْ يقال له مشرب التنين الطويل ، وكان لا بني يجادل أقرانه في استحالة المعجزات التي ينسبها الناس لبعض من سلف من الأنبياء ورجال الكهنوت .. ومن العجيب أن تصدر عنه أولى خوارقه أثناء إحدى الجادلات الحادة بينه وبين معارضه المؤمن العنيد : طودى بيمش صانع الدراجات الذي لم يكن يملك أن يرد براهين خصمه بأكثر من هذه العبارة القصيرة المقتضبة : « هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم !! » تلك العبارة الملولة التي أوشكت أن تخرج بصاحبنا عن طوره . وكان ممن شهد هذا الجدل الأخير بينهما شخصان آخران يدعى أحدهما كوكس وتُدعى الثانية مس ماينبردج ... وهي فتاة وَقور محترمة كانت تعمل نادلة في المشرب ، وكانت في تلك اللحظة واقفة أمام الصنبور تغسل الأكواب والأشواب ، بينما كان ظهرها إلى المجادل الثائر الذي كان يبهر زميليه بنقاشه الرائع الطريف

وقد ضاق الأستاذ فدرنجاي بجدله السيد بيمش ذرعاً ، وأحنقه منه عِيُّه وقلة فَهْمِه ، فراح يهتف به : « رويدك ياسيد بيمش ! هلم نفهم ما هي المعجزة وماذا تكون ... إنها شيء لا يتفق وقانون الطبيعة ، لأنه ضدّ لها ، ومع ذلك فهم يقولون إنه يقع بقوة الإرادة ، وبشرط أن تنصب عليه إرادة خاصة جبارة... أليس كذلك ؟؟ » ويجيب صانع الدراجات حسب عادته : «هكذا أنت تزعم !» فيعود فدرنجاي إلى حديثه وقد سره هدوء معارضه وحسن إصغائه الذي هو أول أمارات التسليم ، فيقول : « وإليك مثلاً يا صديقي بيمش هذا المصباح الذي يضيء لنا الآن وهو في وضعه الطبيعي ؛ أرأيت لو قلبناه رأساً على عقب ، فهل يمكن أن يضيء لنا هكذا ؟ هل ذلك ممكن ؟ » ويرتبك بيمش قليلاً ثم يقول : « أنت تزعم أنه لا يمكن أن يضيء ! »

— ولكنك أنت !! أنت ! ماذا تقول ؟

— لا ... لا يمكن ... لا يمكن !

— حسن جداً !! ولكن ربما جاء الآن أحد الناس، وليكن أنا، فيقول للمصباح، ولا أقول أنا له بعد أن أستجمع كل إرادتي : «أيها المصباح ! انقلب رأساً على عقب، واحذر أن تنكسر، ثم ظل مضيئاً في هدوء ... هيا !!» . وحدثت المعجزة الأولى التي لا يمكن تصديقها ... فقد انتفض المصباح من مكانه انتفاضة انقلب بها رأساً على عقب، وظل مضيئاً في هدوئه العادي، مرسلاً شعلته إلى أسفل كما تعود أن يرسلها لتضيء مشرب التنين منذ زمان وزمان ... وقد بهت أستاذنا فذر نجاي ... وظل واقفاً مكانه كأنما سحر فيه، مادًّا ذراعه، مشيراً بسبابته إلى المصباح، كأنما يتوقع أن يهوي فتحدث كارثة . وقد ذعر صانع الدراجات ففر هارباً، وكذلك فر رُوَّاد المشرب هاربين ... أما الفتاة فقد طار لون الورد من خديها، وَوَلَّت دُبُرَها صائحة صارخة مولولة ... وبقي المصباح معلقاً في هواء المشرب قُرابة ثوان ثلاث، ثم صاح فذر نجاي صيحة اليائس المختنق : «أوه ! إني لا أستطيع أن أهيمن على المصباح أكثر من هذا» ثم تراجع قليلا فتأجج المصباح، وترنح هنا وهناك، وسقط في ركن المشرب فتحطمت زجاجته، ولولا أن كان خزَّانه من المعدن الصلب لانبجس واشتعل زيته، والتهم الماخور[1] بما فيه

وقد اتهم كوكس صاحبه بالنغلة والشعوذة، واتهمه كل من كان ثمة بمثل ذلك ... أما هو ... أما فذر نجاي . . . فقد وقف مسبوهاً شارد اللب، لا يدري كيف يعلل ما حدث، وكانت في ذهنه عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة، بيد أنه اضطر أن يتهم نفسه بمثل ما اتهمه الناس مجاراة لهم . . . وأزعجه أن يقترح بعضهم طرده من المشرب حتى لا يعود إلى تكسير صفو المكان، فراح يدفع عن نفسه حتى أبقى صاحب الحانة عليه

وعاد إلى منزله في الليل ودمه يغلي في عروقه، وقد رفع بقيقة معطفه حول عنقه فشخصت أذناه من فوقها، وراح يرمق مصابيح الشارع وهي تتوقد في لحمة الظلام . . . حتى إذا خلا إلى نفسه في غرفته الموحشة في أحد منازل تشيرش رو انحط في فراشه، وطفق يفكر ويفكر ... ويسائل نفسه القاحلة الحيرانة : ليت شعري ماذا حدث . . . ؟ ! ثم نهض فخلع معطفه، وألقى بقبعته، وجلس وفي نفسه هاتف يتردد في ثورة وعنف، فيقول : «أبداً والله ما قصدت أن ينقلب المصباح اللعين أبداً !» ثم وتر في ذهنه كيف لم يستطع أن يهيمن على المصباح المنقلب ولا كيف رده إلى حالته الأولى . ولو قد عرف فيه هذا السر من قبل لهان الأمر، فهو لم يمرن على تنظيم إرادته قبل هذا، لأن المعجزة الأولى جاءت مصادفة وعَفْوَ لحظتها ... وعلى كل حال فقد بدا له أن يجرب مرة أخرى، مادام المنطق لم يسعفه بدليل ما حدث

وكانت الشمعة التي أوقدها تضيء الغرفة في هدوء، فحدق فيها ببصره، واستجمع إرادته فسلطها عليها ثم هتف بها قائل : «إرتفعي !» ... وكان يحسب أنه إنما يُشْمُوذ حين يطلب إلى شمعة أن ترتفع من تلقائها . . . لكنه سرعان ما فاء إلى نفسه حين رأى الشمعة ترتفع في الهواء فتظل

(١) ابن الأعرابي والتالي على أن الماخور مكان شرب الخمر أما صاحب القاموس فهو على أنه بيت الريبة

معلقة لحظة يسيرة ، ثم تسقط فوق مائدة دمامه[1] حين ينفل عنها لما حاول أن يتنفس صعداءه مما اعتراه من الدهش . . . وبقى يخبط فى دجور لا يكشفه إلا القبالة التى توشك أن تنطفئ .. وجلس فى ظلام الغرفة يكلم نفسه ويناجيها ، فيقول : « هاهو الشىء قد حدث مرة أخرى ! وكيف حدث ؟ لا أدرى ، ولكنه حدث على كل حال » . وبحث فى جيبه عن علبة الثقاب ليوقد الشمعة ، فلم يجدها ، فبدا له أن يجرب إرادته فى الحصول على ثقاب بطريق المعجزة فمد يده فى الظلام الحالك ثم تجهم وقال : « ليكن ثقاب فى يدى تلك ! » وما كان أعجب أن يحس جسما لطيفاً يقع فى راحته ، حتى إذا تحسسه وجده الثقاب الذى طلب ... وحاول أن يشعله فلم يفلح ، لأنه كان من الكبريت الأمين[2] ، فألقى به . ثم بدا له أن يخضعه لسلطانه الإرادى ، فأمره أن يشتعل فاشتعل ، فتناوله من فوق المائدة ليوقد الشمعة ، لكنه انطفأ قبل أن يفعل . . . وهنا اتسع أفق إدراكاته عما يحتمل أن يتأدى له على هذا النحو ، فتحسس الشمعة فى الظلام وثبتها فوق (شمعدانها) ثم هتف قائل : « ها أنت هنا فأضئى ! » وأضاءت الشمعة .. ونظر فذعر مجاى فرأى ثقباً فى غطاء المائدة يتصاعد منه دخان خفيف ، فحدق فيه بصره ، ثم رفعه إلى المرآة المعلقة أمامه فإذا وجهه ، وإذا عيناه العميقتان توحيان إليه من عالم مجهول .. وللحال ... انطلق يخاطب نفسه : « وبعد ... فما أنا والمعجزات الآن ؟ ! » . . . وكانت تأملاته من نوع عميق وإن كانت مختلطة ببعض الشىء . . .

وكان كلما مد بصره فى أغوار الوجود ازداد يقينه بما هو مضمور فيه من الإرادة الصافية النقية . والآن ، وقد شجعته تجاربه البدائية فقد طمح إلى ما هو أكبر .. وأخطر .. فأمر ورقة فارتفعت فى الهواء ، وكوباً من الماء فتحول ماؤه إلى لون القرنفل ثم إلى اللون الأخضر ؛ ثم أمر أن يكون أمامه مسمار ، فكان ، ثم أمر أن يتحى فاتحى ، وأمر أن يكون له (فرجون) أسنان ، فرآه على المائدة أحسن ما يكون (فرجون) ... وآمن بعد هذا بما استودع فيه من إرادة خالقة خارقة كانت تبدو له إرهاصاتها فيما مضى ، وإن لم يكن يؤمن بها ، وانقلب ذعره وتردده وشكه فصارت كلها زهواً بهذه الميزة وكبرياء ... وأيقظه ناقوس الكنيسة من تأملاته حين دق الواحدة فعاود خلع ملابسه لينام ، كى يستيقظ فى الميعاد الذى ينبغى أن يتسلم فيه عمله بالشرب ؛ ولم يدر فى خلده أنه بهذه الوهبة الكامنة فيه يستطيع أن يستغنى عن عمله تماماً . . . ودار فى ذهنه أن يأمر فيكون فى فراشه . . . وكان له ما أراد ! ! ثم أمر أن تنفى عنه ثيابه فانسل منها كأسرع من البرق ! ثم أمر أن يكون له قميص من صوف ناعم فألبسك فيه ! ثم أمر أن ينام نوماً عميقاً هادئاً فغط فيه للحظة ! ! !

واستيقظ فى ميعاده ، وجلس إلى مائدة فطوره وهو مشغول البال جياش الفكر ، يسأل نفسه إن كان ما حدث له أمس ضرباً من أحلام اليقظة ؟ ثم رأى أن يحاول تجاريب جديدة ، فأمر ، فأحضرت أمامه بيضتان من فوق الرف وضعتهما عليه صاحبة البيت ، ثم أمر ، فأحضرت بيضة أوزة كبيرة ، بيضت وسلقت ، ونزعت عنها قشرتها بحيث لم يحدث ذلك

(١) الدمام (التوابل)

(٢) تعريب استحسناه Safety Match

فيها إلا من خرم صغير ... وكانت أقد من البيضتين الأخريين وأشهى ... وهرول إلى الشرب وهو ما ينفك يفكر فى الأعاجيب التى صنعها ؛ ولم يعمل شيئاً ما من أعمال الشرب كما كان يعملها قبل أن يكتشف فى نفسه هذه القوة الخارقة ، فقد انتظر حتى لم يبق عن موعد انصرافه غير عشر دقائق ، ثم أمر أن تتأدى جميع أعمال اليوم ، فحصل له ما أراد ...! وحدث ما شئت مما شاع فى أعطافه من الزهو الذى طغى عليه حتى جعله لا يأبه بما تهكم عليه عرفاؤه به... بيد أنه كان زهواً مقروناً بتعجبه هو من نفسه ، إذ كيف أصبح يستطيع أن يرفع بنظرة ثاقبة مادة هشة — كتاب لفافة التبغ مثلا — إلى ما هو أكبر من ذلك وأخطر ... ؟ والشىء الوحيد الذى لم يفكر فيه هو الاستعفاء من عمله فى هذا الماخور القذر الذى أصبح لا يتفق وأعجب موهبة من نوعها فى العالم ؛ وقد رأى أن يصلح من شأنه بشىء من عزائمه ، فطلب أن يكون أمامه ماستان من أمدر الماس الموجود فى الدنيا ، فكانتا أمامه فى أقل من غمضة عين ، لكنه أمر فاكتحا عند ما شاهد جومشت الصغير مقبلا نحوه ، خشية أن يثير شكوك الفتى فى المصدر الذى وصلتا إليه منه ... وآثر أن ينطلق إلى الخلاء فيجرى هناك تجاربه.. وكان هو فى نفسه مفتقراً إلى حسن الذوق وسلامة الابتداع ، ذلك أنه رغم موهبته المدهشة لم يكن شخصاً ممتازاً فيستطيع الابتكار والتجديد ، لذلك تبادرت إلى ذهنه معجزة موسى وعصاه السحرية .. لكن فكرة الثعابين الهائلة التى تتحوى وتسعى فى ظلام هذا الليل البهيم أزعجته ، فأعرض عن تجربتها وآثر أن يجرب ما قرأه مرة فى أحد الاعلانات عن عصا (طنهوسر) لما راقه من جمال إعجازها ... فرشق عصاه فى طرف الطريق المشوشب ، ثم حلق فيها قليلا ، وأمرها أن تزهر ! تعالى الله ! فاندفق الهواء حول فذرنجاى بشذى عطرى حلو ملأ خياشيمه حتى كاد يسكره ... وطرب أيما طرب ، ثم أخرج علبة الثقاب فأشعل واحداً أبصر فى ضوئه هذه الباقة الناضرة من ورود الربيع ناميه فى رأس عصاه كأجمل ماتنمو الورود فى الجنة الفيحاء ؛ وخشى أن ينكشف سره قبل الأوان فهتف بالعصا فقال : « إرجعى ! » وكان يعنى أن تعود العصا لما كانت عليه من الانجراد قبل ، لكن ... وأسفاه ! لقد ارتدت العصا إلى وراء فى شدة وعنف ، فأصابت رئيس شرطة كان ماراً فى هذه الآونة ، فجعل يصخب ويقول : « من المجنون الذى يقذف المارة بالموسج ويديمهم بالشوك ؟ » فقال فذرنجاى مرتبكا : « آسف جداً أيها الأخ » لكن رئيس الشرطة ، واسمه ونس ، تقدم نحو أستاذنا مرغياً مزبداً ، ثم أمسك بشاربه بقوة وقال : « ماذا تعنى بهذا ؟ هيا ! أوه ! أهو أنت يا أحيمق ؟ ألم يكفك تحطيم المصابيح فى المشارب ؟ » فقال فذرنجاى : « ألا أعنى شيئاً قط ... أبداً ، أبداً » فقال الشرطى « وفيم قذفتها إذن ؟ » قال هذا وشد شارب فذرنجاى ، ثم قال أيضاً : « لقد حطمت مصباح التنين ، ولم يبق إلا أن تشاكس رجال الشرطة بمعاك ؟ » فقال الفتى بجبينه : « أنظر هنا يا مستر ونس ! الحقيقة .. أ.. نى كنت أجرب معجزة..» فقال الشرطى مستهزئاً : « تجرب ؟ ... أنت ؟ بل كنت تشاكس الناس فحسب لأنك من دون العالم جميعاً لا تؤمن بالمعجزات ... وأنا من دون الناس

جميعاً سأريك قيمة تعزياتك ... » وثار ثائر فدنجاي من غلظة الشرطي فصاح به : « أجل .. إن لدى هنا قدراً هائلا من التعزيات الخفية ، وسأريك واحدة منها ، فهلم ... إنطلق إلى هيدز .. هيا إلى الجحيم ! إذهب ! »

وفي لمحة نظر الفتى حوله فلم يجد إلا نفسه !

ولم يحاول أن يعمل معجزة ما هذه الليلة بعد هذا ، بل انطلق إلى داره من غير أن يلتفت إلى عصاه المزدهرة ، ونضا ثيابه ، واستلقى في سريره في كلال وفي ... هدوء ... وجعل يفكر في هذه القوة الخارقة المستترة فيه ، وفي رئيس الشرطة الغليظ المستر ونش ، وفي هيدز : « هيدز العجيبة التي لا أعرف عنها شيئاً ! » وخطرت له فكرة عجيبة حينما نهض من فراشه ليخلع حذاءه ، ذلك أنه شعر بألم وحسرة على ونش ، خشية أن تصيره نيران هيدز حطاماً ، فأمر به أن يُنقل إلى مدينة سان فرنسسكو ! وتبسم ساخراً من نفسه ، ونام نوماً هادئاً ، وحلم أحلاماً لطيفة عن ونش !

وفي اليوم التالي ، سمع نبأين عجيبين جعلت ألسنة الناس تلوح بهما في تَنَدُّر ودهش ، ذلك أن بعض الآلهة قد أنبت شجرة غريبة من أزهى أنواع الورد المتسلق تلقاء منزل المستر جومشوت في طريق (لولالورو) ... وأن النهر قد غار في الأرض على مدى (رولنجس ميل) من أجل رئيس الشرطة ونش ... وظل فَدَنجاي يصغي إلى كل ذلك ويستهول ما تصنع قواه الخارقة !

وظل يفكر في حاله طوال يومه هذا ، ولم يأت من خوارقه شيئاً إلا أن أرسل إلى ونش بعض ما لا يستغني عنه في سَنْ فرنسسكو من مال ولباس وغذاء ، وإلا إنجاز أعمال المشرب بالطريقة الاعتيادية

وكان يتفق أن يذهب المستر فدنجاي في أمسيات أيام الآحاد إلى كنيسة قريبة ليستمع إلى نصائح القس المؤمن المتزمت المستر مايدبي وعظاته المحشوة بالسميات العجيبة ، التي لم يكن يؤمن فدنجاي بشيء منها لما كان يساوره بصددها من شكوك وريب .. وكان القس يلقي عظة موضوعها (الأشياء التي ليست طبيعية) وقد أفاض في ضرب الأمثال إفاضة ألقت بصيصاً من النور في ذهن فدنجاي ، فخطر له أن يستفيد في أمره بعد أن يفرغ من إلقاء موعظته ، وبعد أن ينتهي من قُدّاسه[1] .. وقد عجب لِمَ لَمْ يفعل ذلك من قبل .

والقس مايدبي رجل نحيف معروق تنظر إليه فتحسب أنه نفضو ، ومع ذلك فله رقبة طويلة ونظرات متقدة مؤثرة ومعصمان مفتولان ... وقد عجب حين ذكر له رسوله أن شاباً معروفاً برقة تدينه واستهتاره في المدينة يبغي لقاءه ليتحدث إليه حديثاً خاصاً وكأنما تعمد القس أن يهمل الفتى ويستأنى عليه ، ثم أرسل إليه رسوله فمضى به إلى منظرة مجاورة أفردها القس للقراءة والاستذكار ، فجلس الفتى على كرسي فخم مريح قريباً من نار الدفأ المتأجج ، ولف سائقاً بأخرى فأحدث ظِلاً على الحائط القريب يلفت النظر بانحناءاته العجيبة ... ، ... وسأله القس عن حاجته ، فارتبك الشاب وتَندّى جبينه بعرق الخجل ثم لم يجد بداً من الكلام فقال : « من الصعب عليك يا مستر مايدبي أن تصدق ما سأرويه لك .. » ثم بلع ريقه مرة بعد أخرى ، وطفق يحوم حول موضوعه ولا يكاد يبين ، حتى إذا لاحظ ملال القس

(١) كلمة نصرانية مولدة لم تنز عليها في المراجع العربية

سكن قليلا وسأله عن رأيه فى المعجزات ... وكان المستر مايدج لايني يقول : « حسن ... حسن جداً ! » كما قال فدرنجاى شيئاً

— وأحسبك لا تصدق أن بعض الناس كشخصى الضعيف مثلا ، يستطيع وهو جالس هنا أن يصنع أشياء من قبيل المعجزات بقوة خارقة كامنة فيه »

— ولم لا ؟ إن هذا محتمل جداً

— وإذا كان لى حرية التصرف هنا فربما أريتُك شيئاً من تجاربى ... فمثلاً ... علبة طباقك هذه ... أإذا حولتها لك إلى شىء سترى أنه عجيب حقًّا ، فهل يكون عملى معجزة أم لا يكون ؟ أنظر يا مستر مايدج ... أيتها العلبة ... كونى طاسًا من أزهار البنفسج ! »

وما كاد يأمرها ويشير إليها بسبابته حتى كانت طاسًا جميلاً منضوراً بأينع أزاهير البنفسج ... وقد قفز القس مذهولاً ، ووقف ينظر إلى الزهر ولا ينبس وإن جعل ينحنى قَيْسَنَة بعد أخرى يتشمم العبير المتأرّج المبق ... ثم سأل الفتى كيف صنع ذلك ؟ فقال وهو يفتل شاربه : « ها قد شهدت بعينيك ، فماذا تسمى هذا ؟ أليست هذه معجزة ، أم هو ضرب من السحر ؟ ثم ماذا تظن فى هذه القوة الكامنة فىَّ ؟ إنى من أجلها سعيت إليك لتجاوزها لى ! » فقال القس : « حقا إنه لحَدَث فذ ليس مثله حدث ! » . فأجابه الشاب : « والعجيب أننى قبل أسبوع لم أكن أعلم أن لى هذه القوة الخارقة التى اكتشفتها عفواً ، وإنى أعزو أمرها إلى جانب شاذ فى إرادتى لا أكثر ولا أقل ! » وسأله القس : « وهل هذا الذى صنعت هو كل ما تستطيع أن تفعل ؟ أم أنك تقدر على أشياء أخرى ؟ » فقال الشاب : « أجل أيها السيد ! أنظر ... أيها الطاس تحول إلى وعاء من سمك ... أوه ! لا ... تحول إلى وعاء زجاجى ممتلئ بالماء ، وليسبح فيك سمك من ذهب ... فهذا أحسن ! أنظر يا مستر مايدج ! هل رأيت ؟ » فدهش القس وقال يخاطبه : « عجيب حقا ! هذا لا يمكن تصديقه ! إنى لأظنك ... ولكن ... لا » قال فدرنجاى : « إنى أستطيع أن أحوّله إلى أى شىء ... أنظر ... أيها الوعاء ... كن حمامة ... هيا ! » وحار الوعاء فصار حمامة زرقاء جعلت ترف فى فضاء المنظرة ، فكان يرتجف القس كلما اقتربت منه ... « قفى مكانك ! » ووقفت الحمامة مُرَتِّقَةً فى الهواء ، فأمسك بها فدرنجاى ووضعها على النضدة ، ثم قال يخاطب مايدج : « والآن أحسبك لهفان على علبة طباقك أيها الأب ! هيا أيتها الحمامة ... عودى كما كنت ... علبة طباق الأب ... ! » وانسحرت الحمامة فكانت كما أرادها الفتى أن تكون !

وكان القس ينظر مسحوراً ولا ينطق ... ثم تناول علبته فقلّبها ، ووضعها حيث كانت ، ولم يزد على أن قال : « حسن ! » . وراح الفتى يذكر تجاربه السابقة ، مبتدئاً بحادث الصباح ... وأخذ القس يهدأ قليلاً مما استولى عليه من الدَّهَش ، فانطلق يقول : « كل هذه غرائب مدهشة ... لا جدل فى ذلك ... مهما يكن فيها من الألغاز التى يصعب تعليلها ... إنها موهبة هذه القوة الكامنة التى تصنع المعجزات ... إنها قوة سادسة كالبصر أو السمع أو الشم ... ومن هنا شذوذها ونذرتها ، وحدوثها صدفةً ولأشخاص قليلين ، ولكم عجبت

لمعجزات محمد ويوجي ومدام بلافاتسكي ... ولا جرم أنها موهبة تفرد بها هؤلاء ... وقد كانت دليل الفكر الكبير دوق أرجيل ، وبرهانه الدامغ ، وحجته القاطعة ... وهنا ، يبد هنا القانون العميق الذي يتضاءل بجانبه قانون الطبيعة العادل ... أجل ، أجل ... قل ... قل ... » ... ثم وصل فدرنجاي حديثه ، وأبدى ألمه لما لحق برئيس الشرطة المستر ونش من (تعزيمته) فقال : « والذي أهنئ أكثر من أي شيء هو هذا المستر ونش ، الذي أرسلته إلى هيدز أولا ، حتى إذا خفت عليه من نيرانها بعثت به إلى سن فرنسسكو ، وهو من غير شك فيها الآن ، وقد خشيت أن تكون ثيابه قد (تشمّطت !) في هيدز فأمرت أن ترسل إليه بذلة تستره وهي من غير ريب قد وصلت إليه ... ولا بد أنه الآن منيظ محنق مما حدث له بسببي ، بل هو يحاول جهده أن يحصل على ثمن تذكرة ليبحر من فوره إلى هنا ليلقاني ... مسكين ؟ ! إنه يضرب أخماساً لأسداس في تعليل ما حصل له ... وأنا مثله في حُنُجب كثيفةٍ من عدم إدراكي لما يصدر عني ! ! » ... وهنا قال القس : « وأنا أيضاً أرى أنك تضرب في ظلمات لا أدري كيف تخرج منها ... وعلى كل حال ، فلندع مسألة المستر ونش الآن ، ولننحر المسألة الكبرى أولاً ... إني لا أعتقد أن ما يصدر عنك هو ضرب من سحر أو نحوه ، وأعتقد أيضاً أنه لا أثر للجريمة فيما تفعل ... اللهم إلا إذا حاولت أن تحوز ما للغير بهذه الوسيلة ... لا ... إنها معجزات من غير شك ، ومعجزات من نوع راق رفيع ! » وانطلق المستر مايدج يطري أخانا فدرنجاي ، وفدرنجاي عمحق فيه ، مقبل عليه ... أو قل ... ساهٍ عنه ، بدليل مفاجأته للقس بقوله : « ومع هذا فلا أدري ماذا أصنع لأنقذ المستر ونش ! ! » ، فدهش المستر مايدج وقال : « بما أن لك هذه القوة الخارقة التي تصنع المعجزات فليس أيسر عليك من عمل معجزة تعيد بها ونش ... فاطمئن وهدّىء روعك ... سيدي فدرنجاي ! إنك شخص هام جداً ، وضروري لإصلاح هذا العالم الشائه ، فهل فكرت في شيء تسديه إليه ؟ ! » وقال فدرنجاي بجيبه : « أجل ... فكرت في شيء أو شيئين ... ولكني كنت أشعر دائماً أنها أعمال مزورة ليس فيها من الحق شيء ... أرأيت الوعاء الزجاجي الذي سبحت فيه سمكات الذهب ؟ ! أمعقول هذا ؟ ! أرأيت سمكاً من ذهب قط ؟! هيذا لو كان حيًّا حقيقة فكنت أنفع به الناس ! » . وصادفت هذه الأمنية هوى في فؤاد القس فهش للفتى وبش ، وأثنى على نزعة الخير التي عبر عنها بلسانه ، ودعاها سبيل الرشاد ؛ ثم اقترح أن يأخذا في تجربة قوة فدرنجاي فيما يعود على الناس بالخير ... وتؤثر أن تسجل تاريخ تلك الليلة الهائلة ... الليلة العاشرة من نوفمبر سنة ١٨٩٦ لما تم فيها من الأمور الجسام التي لا يتصورها عقل ، ولا يمكن أن يصدقها أحد ، لأنها لو كانت حقاً — وهي حق لا ريب فيه — قد وقعت ، لجزم القارئ أو القارئة أن في وقوعها خراب العالم أو موت من فيه من الخلائق على الأقل ... على كل حال ، ليس هنا نهاية القصة ... فليتصور القارئ ما يشاء ... ونقول نحن ، إن فدرنجاي أخذ في صنع معجزاته بالمشرات حتى تشجع وقوي قلبه ، وذهب مايدج يحفزه ويحرضه ويغريه بما هو أخطر . وكانت أولى المعجزات الكبار أن طلب المستر مايدج من صاحبه الشاب أن يحضر له عشاء يُنسيه رداءة

2017-11-11

الأطعمة التى تعافها النفس والتى تطيبها السيدة منشن صاحبة بيته ... وهش فندرجماى للفكرة ، وكان مولعاً بالأرانب الأرلندية فأمر أن يؤتى إليه بطبق حافل بها ، فما هو إلا أن دعا حتى كان أمامه الطبق ، وفيه شواء الأرانب المطلوب ! وقال لصاحبه وهما بتناول الطعام : « وبناء على ذلك فإنى أستطيع أن أساعدك فى كل ماله علاقة بمنزلك يامستر مايدج ! » ... وطرب القس ، وملأ كأسه من نبيذ برغنده العتيق الذى أمر فندرجماى فجيء إليه به بطريق المعجزة أيضاً ، وبعد أن تجرعها ، وتمخط مرتين أو ثلاثاً نظر إلى الفتى وقال : « فكرة والله ! لقد طالما تمنيت أن يصلح الله من خلق المستر منشن قليلاً ، فيذهب بما يشينه ويمض الذى يجعلها قبيحة فى أعين الناس ... ولست أدرى إن كنت تستطيع أن تحدث أنت ذلك ؟ إنها الآن نائمة فى فراشها ، وقد صارت الساعة الآن الحادية عشرة ... فهل يمكن ؟ هل يمكن يافندرجماى ؟» وقال الفتى : « لا أحسب أن هذا شئ غير جائز ، مهما تكن المسز نائمة ! » . وأصدر أوامره فى سكون ، ثم أخذا فى طعامهما وشرابهما كأن شيئاً لم يحدث برغم الثورة الماثلة التى كانت تجتاح نفس القس وتطغى على شعوره ، وتشوقه الشديد إلى معرفة ما إذا كانت المسز ستتخلص من مقابحها بفضل فندرجماى أم لا ... ؟ ... ولم يطق أن ينتظر حتى الصباح ليرى ماذا تم من ذلك ، بل قام بعد أن فرغ من عشائه السحري ، وانطلق إلى منزله فنادب فيه سويعة ، وظل فندرجماى ينتظره ، ثم عاد منهال الوجه بادى البشر ، مُفْتَرًّا عن ابتسامة مشرقة ، وأنشأ يقول : « مدهش ! مدهش جداً ، وعجيب حقاً ! بَعْثٌ جديد وحياة جديدة تضرب إليها من ثقب ضئيل فى باب غرفتها ! تبدل شامل طرأ على السيدة يافندرجماى ! لقد هبت من غفوتها ريانة فيتانة فأخرجت من صندوقها زجاجة بكراً من النبيذ لتشربها جرعة واحدة ! »

واقترح القس على صاحبه جملة مقترحات عجيبة كانت فى سبيل الخير جميعاً ، فقد انطلقا فى البرد القارس ، وتحت القمراء الزاهية ، عبر ميدان السوق الكبير ، حتى إذا انتهيا إلى القسم البرلمانى المعروف بكثرة حُسَّاقه وسكيريه ، شرعا فى عملهما الإصلاحى الجليل ، فانتزع فندرجماى مافى نفوس أولئك الساكين من خبث ، وأمر فتحولت الخمور التى فى جميع الحانات إلى ماء عذب قراح . ثم انطلقا إلى الخلاء فأمر فندرجماى بركة فندرز ومستنقعاتها فاضت فى الأرض ، واهتزت وربت وأصبحت مزارع مبسوطة تزهى بنباتها وبساتينها بعد أن كانت مصدراً من أخطر مصادر الحميات والطواعين . وفى طريقهما إلى المدينة عرجا على محطة السكة الحديدية فأحدثا فيها إصلاحات شتى ، وأقاما أبنية شاهقة مكان الأبنية السقيمة التى أصبحت لا تتفق وعظمة الحى التى تقع فيه ... وكان المستر مايدج ينتظر إلى هذه الخوارق التى يأتيها فندرجماى بمجرد الإشارة والإيماءة ويكاد يزيغ بصره ... « ليت شعرى ماذا يقول الناس غداً ؟ لاجرم أنهم سيدهشون وينسبون ماتم إلى شياطين سليمان! » والتفت إليه فندرجماى فجأة وقال : « أيها الأب ... الساعة الآن الثالثة ، ولا بد لى من أن أذهب فأنام ، فإنى أتسلم عملى فى المشرب فى الساعة الثامنة ... » فنظر إليه القس مبهوتاً وقال : « وكيف ؟ إننا مانزال فى بدء مشروعاتنا يافندرجماى تذكر يا رجل أنك تسدى أحسن الأيادى للإنسانية ولصالح الناس ... بل ينبغى أن تستمر أيها الأخ ،

2017-11-11

وأن تستكثر من هذا الخير ... ألا ما أجمل هذا البدر وما أروعه ! » . فقال فذر نجاى : « حقاً إنه جميل رائع ! » فوسوس له النفس : « أليس من خير الإنسانية أن تقفه حيث هو يا فذر نجاى ؟ ! » فارتجف الشاب وتمتم يقول: « وَىْ ؟ ! أقف القمر عن دورانه ؟ ! هـذا كثير ! » . فقال الأب وقد سحرته الفكرة : « ولم لا أيها الصديق ؟ قِفْـه ! إفعل ! أى خير فى ظلام الليل وكله شرور وآثام ! سره يقف يا فذر نجاى بالله عليك ... إنك تستطيع ما هو أجل من وقف دوران القمر ... وما دمت قد خرقت قانون الطبيعة فلا بد أن تخرق قانونها فى القمر أيضاً ... إنك تقـدر أن تقف دوران الأرض التى هى أعظم منه أضعافاً مضاعفة ... ثم أنت لا تحدث شراً إذا وقفته ، ومادام كل ما تصنع من أجل الإنسانية فإذا زجمك ... ؟ » واستطاع الأب الشيطان أن يتلف كل شىء بما وسوس فى صدر الشاب ... ووقف فذر نجاى وقفة رهيبة ولـكنها مصممة وزرر سترته ، وسل سملة غريبة ، ثم استجمع روحه وإرادته جميعاً ، وحلق فى البدر النفضى حلقة شديدة ثم قال : « قف دورانك أيها القمر بإذنى ! قف ! »

بالكارثة !

لقد انقذف الأستاذ فذر نجاى فى الخواء انقذافاً هائلاً وبسرعة عشرات الأميال فى الدقيقة ، وذهل عن نفسه لحظة ثم أفاق فرآه يرف فى الفضاء اللانهائى ويرف ويطوى عالم الأثير كما يطويه الشهاب الراصد. وللحال خطر له أن يأمر فيكون فوق سطح الأرض فقال : « لأهبطن إلى الأرض سالماً آمناً ! هيا ! » ولو قد تأخر قليلا لم يخطر له أن يأمر هذا الأمر لشاطت ثيابه كلها ، ثم لاحترق جسمه ، وانتثرت رفاته جذاذا ... وهكذا كان حظه حسناً هذه المرة فلقد هبط إلى الأرض فى سرعة فائقة ، فاستوى قائماً فوق كثيب مهيل أعدته له المعجزة فى سرعة البرق لتقيه من الصدمة الهائلة ، ولتنقذه من الارتطام بالحجارة والمعادن الدائبـة التى تشقق عنها سطح الأرض فبرزت من جوفها كالحمم ، وتطايرت عن يمينه وشماله كالصواعق ، بل أشد وأنكى ... ورأى حوله أهوالا جمة ومصائب عاتيات تحدث بالقرب منه ولا يبدى حراكا ... فمن ذلك أن بقرة ذاولاً اصطدمت بإحدى هذه الصواعق فانفجرت وتناثرت أشلاؤها كأنما هى بيضة صغيرة وطئها فيل عظيم.. ثم عصفت حوله الرياح الهوج فبعثرت فى الأرض والسماء شواظاً من حديد ونحاس فوقف مبهوتاً لا يدرى أين هو ولا أبان يذهب ... ثم ذكر الله فقال: «رباه ! غفرانك اللهم ! هل أسأت أم عصيت ! إن هذه صيحة كصيحة يوم النشور ! عواصف وبروق ورعود! وقبل دقيقة واحدة كانت القمراء تنمر السهل والجبل والوادى فى روعة وبهاء : رباه ! أكشف هذه الغمة تباركت وتعاليت ! لست أنا الذى رسمت هذا ، بل إنه فسك مايدج هو الذى وسوس إلى ! ولـكن ... أين هو ؟ ! يا للورطة التى ألقى بى وبنفسه فيها ! إن السماء صافية ، والـكواكب متألقة كما هى منذ الأزل ، والقمر جميل فى أوجه ، فما لهذه الأرض عابسة بائسة هكذا ، وما لهذه الزوابع ! إنى لم أسر أن يكون فيها شىء من ذلك فماذا جرى ؟ ... أوه : ! أين المدينة يا ترى ... ؟ وأين الجسر ؟ وأين المصابيح التى كانت قبل دقيقتين تنعكس أضواؤها فى الماء ؟ ! » ... واشتدت العاصفة فسقط المسكين يتقلب فى الوحل ، وكلما حاول النهوض عاد فكبا ، وآثر أن يظل على أربع آخر

2017-11-1

الأمر ... ثم جعل دوره للريح ، وغطى رأسه ووجهه بسترته ، وعاد يهمهم ويقول : « لا جرم أنه قد حصلت غلطة هائلة ، ولكني لا أعلم ما هي ... »

وأخذت العاصفة تزمجر حوله ، وتنثر الحجارة والأشجار والخرائب فتجعلها ركاما ... ولم يعد يرى المسكين شيئاً من العيار فى الرحب الموحش الذى وقف مختلطاً بين أنقاضه ، ثم ساد الظلام فجأة ، وغاب عنه ضوء القمر الذى كان يسطع منذ هُنيهة ، فتضاعف ذعره ، وتمزقت أعصابه ، ولم يدر ماذا يصنع ...

لقد أمر فذرنجاي القمر أن يقف فعمل ؟ ففيم هذه الزوبعة وذلك التخريب ؟

أوّه ! لقد أصدر المسكين أمره الأرادي الجبار ، ولم يتخذ قبل ذلك حيطته ؛ فهو كان يحسب أن وقوف القمر عن دورانه شيء هين لا تكون له نتائجه على الأرض التى يقف هو من فوقها ... ولم يكن يعلم أن هذا الكوكب الذي يقطع فى الساعة الواحدة مئات الأميال إذا وقف فجأة ، صنع ما يصنع القطار بركابه إذا وقف بهم فى أقصى سرعته ... إنه يرميهم إن لم يسحقهم ... فما بال كوكب بأكمله ؟ ... ثم دوران الأرض نفسها ، وهي هذا الكوكب السيار العظيم الذى يقطع فى دورانه حول نفسه أكثر من ألف ميل في الساعة [1] ، فإذا تعرض القمر الذى وقف فجأة لجاذبية الأرض التى تدور أمامه بهذه السرعة الهائلة ، فماذا يكون غير هذه الزوبعة الهائلة العاتية التى مسحت وجه البسيطة مسحاً ؟ ولقد انقذف كل ما كان فوقها — بما فى ذلك القرية (المدينة) وفذرنجاى ومايدج ، وجميع الحيوانات والوحوش والشجر وأحمدة التليفونات وعرائش الفلاحين وكل ما تنأ على سطح الأرض بسرعة تسعة أميال فى الثانية (كذا) أى أسرع مما إذا قذفوا من فوهة مدفع ضخم

ولقد سدرت نفس فذرنجاى ، وسخط على القوة الكامنة فيه والتي بها صنع كل هذه المعجزات ... ووقف فى هذه الدنيا المهارة ، تحت البرد الذى أخذ برجم وجهه ويحصب رأسه ، والطوفان الذى بدأ يصب عبابه وتزخر أمواجه ... ولم يدر ماذا يكون من أمره ... ثم رق البرق فلمح موجة عالية كالجبل مقبلة نحوه فى سرعة فائقة فتوشك أن تبتلعه ، فسمع نفسه يصرخ قائلاً : « إلىّ يا مايدج ! إلى ! وأنت أيتها الموجة قفي مكانك ! قفي بالله عليك ! وأنت أيتها البروق ويا أيتها الرعود امهلني لحظة حتى يثوب إلى رشدى ... أوّه يا ربى ماذا أصنع ؟ لشد ما أرجو أن أرى مايدج ... ولشد ما أرجو أن أصلح كل ما أفسدت ... »

وكان قد نسى أن يستطيع أن يقف كل شيء لو أراد ، إذا سلط عليه شعاع إرادته الصارم ، فلما ذكر ذلك صاح مبتهجاً وقال : « أوه ! ذكرت ذكرت ! »

ثم لوى رأسه نحو الزوبعة ، وبرّق فيها عينيه ، وهتف يقول : « والآن ، ليته كل شيء ... لتسكن الريح ... ليصمت الرعد ... ليذهب البرق ... ليدر القمر دورته ... وليعد كل شيء كما كان ... لتذهب تلك المعجزات عنى فإني كرهتها ... ولتكن لي إرادة عادية كإرادة أى كائن من الكائنات ...

(١) محيط الأرض يقرب من ٢٥ر٠٠٠ ميل وهى تدور حول نفسها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، فتقطع فى الساعة أكثر من ألف ميل كما هو فى سباق القصة أى عشره أمثال سرعة قطارات (الاكسبرس)

لا أريد أن يطيعني شيء ما فى هـذا الوجود ... ليت شيئاً مما حدث من معجزاتى لم يحصل ... هذا ، ولأعد أنا إلى مشرب التنين ، وليكن كل شيء فيه كما كان قبل أن ينقلب الصباح الليمين ... حقاً إن كل ذلك لو تم لكان خيراً ولكانت أخرى معجزاتى ليكن كل ذلك حين أقول (هيا) ! ! »

ثم لصق بالأرض وأغمض عينيه وقال بكل ما بقى فيه من قوة :

« هَيَـــا »

وهدأت العاصفة ... وعاد كل شيء كما كان !!

وسمع صوتاً بالقرب منه يقول : « هكذا أنت تزعم ... هكذا أنت تقول ! ! » فلما فتح عينيه ، وجد نفسه فى المشرب يجادل صاحبه طودى بيمش فى حقيقة المعجزات ... وشعر كأن إحساساً حاداً كان يستولى عليه ، لكنه لا يدرى ماذا كان باعثه

وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه ... حتى ذاكرته وعقله ... وحتى عدم إيمانه بالمعجزات ... بل لقد فعل النسيان فيه أفاعيله ... فهو لا يذكر شيئاً مطلقاً مما ورد فى هذه القصة مع أنه بطلها

— إنى مازلت مستمسكا برأيى فى هذا الموضوع فالمعجزات لا يمكن بحال أن تقع ، وأنا مستعد لإقناعك بذلك حتى تنكرها كما أنكرها أنا نفسى !

— هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم

— إصغ إلىّ يامستر بيمش ... هل تعرف ماهى المعجزة ... إنها شيء يخرق قانون طبائع الأشياء ... إنها شيء عكسى لقانون الحدوث يزعمون أنه يحصل بقوة الإرادة

ورينى هَتشنز

شعلة الوطنية وروح الوطن

شركة مصر للغـــزل والنسج

بالمحلة الكبرى

فاقت بجودة منتجاتها كل إنتاج ســـواها

وتبيعها جميلة متينة بأسعار معتدلة

شركة بيع المصنوعات المصرية وفروعها

وتجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

الثائر الساذج

للكاتب الروسي ليو تولستوي

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

كان فيكتور فيد روفسكي نحيف الجواسيس، يتبعونه إلى كل مكان، ويتعقبون خطاه، ويقتفون آثاره، لأنه كان فيما مضى مشبوهاً (١) وكان اسمه في رأس الأسماء التي تحملها القوائم السوداء، في مكاتب «أوخرانا» (٢) الخفية. وكانت الشرطة السياسية في موسكو وبطرسبرج توقع العقوبات بالشبهات، فكل مشبوه لديها متهم، وكل متهم في نظرها مذنب. فلما هاجر فيكتور إلى لوزان بسويسرا ليلتحق بجامعتها حتى يتم دراسة الرياضيات العليا التي بدأها في كلية الهندسة بمدينة أورالوف شعر بأن وراءه جاسوساً يتبعه، وكأنه محبب من حدود روسيا إلى صميم سويسرا فقال محدثاً نفسه: لن أصبر على هذا الرجل ولن أدعه يقتفي أثري في بلاد الغربة، ولا بد من أن أرغمه على الاعتراف لي بعلة تتبعي، وأذكره بأننا في جمهورية حرة، ولسنا في شوارع موسكو أو بطرسبرج، وأن أنهده بكشف القناع عن حرفته أو أرفع شكواي إلى رياسة الشرطة، محتجاً بتحريم التجسس على الأبرياء في بلد أجنبي. فإذا ما خشي الفضيحة وهرب من وجهي عدت أدراجي إلى محطة السكة الحديدية حيث تركت فيها متاعي لأتسلق سلم المركبة الأولى التي تصادفني في أول قطار يحملني إلى مقري ومرتعي... إلى مدام جابونسكي، إلى أحضان تلك المرأة الحنون، فإذا ما سألتني عن عودتي غير المنتظرة، بعد القلق المقيم المقعد الذي ساورني قبل عيد الفصح أجبتها في إيجاز بأنني رضيت من الغنيمة بالإياب لأنني ما كنت أستطيع البعد عن بيتي. فقد اكتشفت في هذا السفر القصير أنني مصاب بداء الحنوف كالسنور الذي يملأ طهره وتنتفخ أوداجه وتبعث أعصابه الهتاجة بشعره الناعم، فيصير كالشوك، ويتحفز للهجوم على غريمه كائناً ما كان (٣)

تعريف بالقصة

من بين الناحيات المظلمة التي ساورها تولستوي بقلمه ناحية الظالم الشاملة لأبناء أمته. التي نجست في مجاهله المخيفة فأنت آثاره الخالدة: «المنحوفون السبعة» و«لم أعد أطيق على السكوت صبراً» وهو الثائر الساذج» التي تنقل إلى العربية للمرة الأولى. وقد كان مخطوطها بين الأوراق التي عنها تولستوي في مراره مع ابنته كاترينا وصديقه الدكتور حولينشوف. قبيل وفاته بأيام معدودة، وقد اعتبرها النقاد جزءاً من وصيته إلى شعبه، ضمن بها وأحلها من الأدب الرفيع أعلى مكانة، وكان الأقدار أبت إلا أن ترفع الحجاب عن بصيرته فتحققت نبوءته برؤيا الحكيم القيصري بعد وفاته بسبع سنين، ولا زال مجال أخفاء الروسي المرعوف على صفحات هذه القصة الخالدة دليلاً على قدرة الكتاب الناقد البصير على احتراق حجب العيب في أسلوب رائع جم بين دقة التصوير وجمال الفن القصصي

(١) المشبوه في الأدب الروسي هو المتهم بالثورة على حكم القيصر

(٢) إدارة البوليس السري السياسي في روسيا القيصرية

(٣)

لينشب فيه أظفاره التي تخفيها كفه اللساء ، لقد حاولت أن أمثل الجاسوس ، ولكن ذهب تدبيري سدى .

وبعد فإنني أعود أدراجي لأن بالمكان الذي وصفوه لا يقبض سجناً كبيراً ومشرحة . أما السجن فلا عجب ، لأن بأطراف المدن وبضواحيها قد تبنى السجون ؛ أما المشرحة فما شأنها في جوار هذا المنزل ، وفي مثل هذا اليوم الشديد القيظ كأنه من أيام جهنم ؟ يالله من يوم له ما بعده !

كنت عدواً داعماً لمن يخضعون للأقدار ، وأسخر من الذين ينصحون بالاستسلام للقضاء المحتوم وأوميهم بالجبن والعجز والخور ؛ وهأنذا قد لعبت بي أيدي الأقضية والأقدار كما تلعب الأطفال بالكرة... فكيف المفر ، وإلى أين المهرب ؟ ليس لدي من الوقت ما يكفي لتقليب الفكر وتدبير الأمور على على مهل ، ولم يعد في صدري متسع للصبر والتأمل . فوطدت نفسي على الحرب التي لا عوادة فيها ولا رحمة ؛ وكان الجاسوس لا يزال قابعاً في مقعده بمركبة القطار ينتظر مغادرتي إياه ليتبعني متابعة الظل ، فلم أستطع أن أخيب أمله إلا بطريقة واحدة وهي أن أبقى في القطار لأعود به ، متظاهراً أنني ما قصدت من هذه السفرة التعبة الطويلة إلا الارتياد والاستطلاع ... وهذا أمر جائز ومباح ، خصوصاً وأنا خالي الوفاض ، فلا متاع ولا أحمال توهم أنني كنت قادماً للإقامة ؛ وكانت السلامة مكفولة بهذا الحل السريع المنقذ ، ولكن كرامتي أبت عليَّ التسليم ، وكراهتي للرجل دفعت بي للنزال ، فجمعت نفسي ونهضت وثبت ، فنزل الجاسوس ، ومشيت فسار ورائي يتعقبني ... وقبل أن أستدير لأشتبك معه معاركاً وأنا لا أعلم مدى ما تؤدي إليه المعركة ، إذا بالرجل الذي ظننته جاسوساً محترفاً يقف فجأة ويقول لي : فيكتور ! فيشنكا ! ... داسكويا ... ! فيشا ... ألا تذكرني ؟ ألا تعرفني ؟ وكانت هذه كلها ألقاب تعزز وتدليل ينادينني بها رفاق الصغار في المدرسة اقتداء بجريتي وخادمي في تدليلي

وكان الرجل يخاطبني بالروسية الفصحى ، أيكون الكسندر براشكي ، أم خياله الحي ؟ فوقفت على سلم القطار وقلت له : من تكون أنت ؟ قال : أنا ... أنا ساشا براشكي ، براشكويا ... ألا تذكرني ؟ وارتمى المسكين في حضني وهو يبكي ، فلقد غادر البائس بيت الموتى ... سجن سيبيريا منذ حين هارباً من أيدي أعدائه وأعدائي . كان ساشا قروياً ابن فلاح ، ودخل في خدمة مثال اسمه بوريا كلامسكي ، لا يزيد أجره على روبلين يتقاضاهما في كل أسبوع ، وما لبث الصغير أن أظهر ميلاً تشد أزره موهبة فائقة مولودة معه ، فكان يحسن الحفر في الخشب وتأليف الألوان الزاهية والقاتمة لصبغ تماثيل العذراء ويسوع والقديسين ، وبرع في إظهار علائم الحزن وأمائر الانقباض أو الفرح التي تبدو على وجوه الشهداء كما كان يراهم في كنائس المدينة ، وكان المثال يبعث به إلى الأسواق والموالد ليبيع تهاويل الرسل والملائكة ، فيجلس ليبسطها بين يديه على قطعة من القطيفة الباهتة ، ثم يبقى في انتظار هواة الايمان ممن لا يضنون على أرواحهم بكوبك [1] أو اثنين ليشتروا بهما رمز معبود أو نصف معبود ؛ ليزينوا

(١) كوبك عملة روسية تعدل قرشين صاغاً

بها حجراتهم القروية ويشعلوا تحت أقدامها قناديل الزيت التقليدية ...

فكان الوجيك من أهل القرى يرد السوق فى حفل من أهله وجيرانه ، فإذا فرغ من البيع والشراء والأكل والشرب واللهو البرىء أو غيره ، طاف بأطراف السوق حتى إذا ما لمح « فرش » الأرباب والملائكة ، وقف على رأس الغلام ولس المبود بقدمه سائلاً عن ثمنه ، فإذا علمه ما كس ما شاءت المكاسة حتى يصل إلى الثمن الذى يرتضيه فيلتقط التمثال الذى وطأته قدمه ، فيقبله ويضعه فى جيبه بحرص وعناية ، ثم يخرج قطعة الفضة الصغيرة وينقد الصبى ثمنه وينقلب إلى أهله حاملاً تمثال ربه فى ثنايا « كازاكه »[1]

وكان ساشا الصغير يعجب لهذا المسلك ويضحك ثم يأسف على فنه الضائع بين هذه القطعان الشاحبة الكالحة التى تعد من بنى الانسان وليست منهم . ثم أخذ يثور على الديانة التى تحتسبهم من تابعيها وعلى الكهنوت الذى يصبر على عمايتهم ويستغل ما هم فيه من غفلة بالغة . وما انقضت عليه ثلاثة أعوام بين المصنع والأسواق حتى شكا إلى أمه ما يلاقيه من ألم النفس وتعب البدن ، طالباً إليها أن تحثّ أباه على إرساله إلى المدرسة

فصممت الأم على تنفيذ رغبته ، وقرّعت الوالد على رضائه بأن ينشأ طفلهما على هذه المهانة وهاهو ذا قد نما وترعرع ، ومارس الصناعة والتجارة ولم يفد منها مالاً يذكر ، لأن جهوده عائدة كلها على معلمه بوريا الذى لم يُعلمْه إلا ما رآه ملائماً لمصلحته الخاصة ، فلا بُدّ من إرساله فى بعثة تعليمية إلى بطرسبرج ليتلقى الفنون الجميلة فى « معجم المصورين القيصرى » ويتردد على متحف إرميتاج الشهير بآثاره الفالية . سافر الوالدان والولد إلى بطرسبرج فى قطار الليل بعد أن تزودوا للسياحة واستقروا فى فندق وضيع فى حى « إيليانا » وهو حُطُّ المغلوكين ، ومرتع « البوهيمية » والنوّر ، لأن ما حملوه من المال المدخر لا يقوم بأودهم أياماً معدودة إذا هم اختاروا الاقامة فى أحد الأحياء الفنية . وبعد يوم من وصولهم ذهب الرجل وولده إلى دار الفنون الجميلة وعرضا طلبهما ، فقوبلا بالازدراء من الموظف المختص ، وقد دهش لجرأتهما على ترك الفلاحة فى الحقول لإلحاق الولد بمعاهد التصوير والحفر ! فحنق براقلوف والد الكسندر (ساشا) رافعكى على « الموظف المسؤول »

وخرج يتحامل على نفسه ، وصفق الباب وراءه صفقة كانت أشد وقعاً من الصفقة على صدغ الموظف الكبير ، وقد عقد النية على أن يلحق الفتى بالأكاديمية ولو أدى الأمر به إلى بيع أرضه وإنفاق آخر كوبيك من ماله وعقاره فى هذا السبيل ، وعاد إلى الفندق حيث كانت الوالدة المسكينة فى انتظارهما ، فدفعه غضبه وكرامته المجروحة إلى أن يروى الحديث بحذافيره عليها ، وختمه بإظهار رغبته التى تتردد فى صدره ، وكان صوته يتهدج ويداه ترتجفان حتى خشيت الأم (نادیا سیبیانا) عليه أن يصيبه سوء أو ينفجر شريان فى دماغه ، فيذهب ضحية الفالج نتيجة حبه الخير لولده ، فبكت وأجهشت وقبلت يد زوجها وطيبت خاطره ولكنها أبت أن يكون ولدها سبباً فى فقرها ، وهى التى تعلم أنه ليس من الفنى بحيث يحقق أمنيته وأمنيتها

(١) سترة طويلة لا تفتح من صدرها

يبد أن الفلاح العنيد سعى فى الأمر دون علمها ، وكاد المسى يكلل بالنجاح لولا أن علم به الموظف المسؤول بإدارة الفنون ورفع إلى « المراجع العليا » مذكرة نفث فى دسمها سموم حقده ، وألقى ظلالاً من الشك على هذا الصنيع فأفشله ، فسافرت الأم مكسورة الخاطر ، موجعة القلب ، ناقمة على الدنيا ، واستمسك الشيخ بمزيته لترقية ولده ، وسعى إلى توظيفه أولاً فى إدارة صغيرة كان رئيسها قريباً له ، بوظيفة لا يزيد مرتبها على عشرين روبلاً فى الشهر (١)

وقال له : « ساشا ! ولدى العزيز ! لاتمس هذا المرتب ، بل ادخره بأجمعه وإن شئت فابعث بقليل منه إلى والدتك ، لا على أنها محتاجة إليه ، ولكن لتشعر بأنها تشرب قدحاً من الشاى من عرق جبينك وكد يمينك ، فيكون له طعم ونكهة لا يعرف حلاوتهما إلا من كان فى رامتها ونقاوة قلبها ، أما البقية فأنفقها فى شراء الألوان والصور وأجور التعليم الليلى . أما ما كلفك ومشربك ومسكنك وملبسك فأنا الكفيل بها . وتعلّم ما استطعت ، وزاول من الفنون الجميلة ماشئت ، فإن لك يوماً ينتظرك فى الأكاديمية الإمبراطورية ؛ وإن جدران الارميتاج تنتظر لوحاتك بفارغ الصبر »

ولم يكن من ساشا إلا أن بكى وشكر أباه وقبل يده وهو يقول فى نفسه : يالها من حياة كالوت : ورغ خير منه الخسارة : لقد ضاع حظى فى هذه الوظيفة ، ولكن من يدرى ؟

ولم يكن له أن يرضى من النعيمة بالبقاء فى العاصمة ، يعيش حيناً فى كنف قريبه الموظف فى الحكومة وآناً يحفزه الشباب للوثب والمغامرة فيأوى إلى نُزل صغير فى حى نيكولسكوى لقربه من الدواوين وبُعده عن مركز الثراء والزهو فى العاصمة حيث مراتع النزلاء ، ومواطن الفتنة ، ومعارض الزينة الرائعة ، ومظاهر التيه والنشب ، وكان لأول عهده ببطرسبرج (وهى دنيا عريضة بالنسبة لأورالوف وعاصمة المقاطعة الشاملة لقريته) يدهش لما اجتمع لأهل هذه الحاضرة من أسباب الترف ، ودواعى الاسراف والتبذير ، ومختلف المُتَع التى لا تنازعها إياها أية عاصمة أخرى

وكان إذا قادته قدماه إلى الأحياء الراتعة فى الثراء يتحرق على نعيم الدنيا الذى يرى آثاره المغرية فى المحلات الجارية والسيارات المتسابقة ، والشوارع الرحبة ، والمخازن الحافلة بأنواع المتاجر ، والحوانيت الزاخرة بثمين الحلى والجواهر ، والعمائر العالية ذات الطبقات المعدودة ، والحدائق الغناء ، والظلال الوارفة للأشجار المنضدة ، والمتانى الآهلة بالقوانى ، والمراقص المرددة لرنات المثالث والمثانى ، ويرمق بعين الدهشة جماعة المياسير الذين اتخذوا من الحياة تلهية ، ومن أسباب المسرات وسيلة لمدافعة الملل وإيقاظ الشهوات التى رانت عليها التخمة والسآمة فزهدوا فيها وتعلقوا بها فى آن ، يأكلون من الأطعمة أشهاها وأحلاها ، ويعيشون أرغد الحياة وأترفها ، معافين فى أبدانهم ، لا يأخذهم حر ، ولا يزعجهم برد ، ولا يصدهم عن السعى إلى مآربهم مطر ولا رعد ، إن أدركتهم علة فالأطباء والصيادلة لديهم يحضرون ، وإن طاف بهم طائف الضجر تألف وسيلة تطرده عنهم وهم لاهون ، يسيرون فى الأرض مختالين فخورين ، يكادون يهتفون بالناس

(١) الروبل عملة روسية قديمة قيمتها إننا عشر قرشاً

« أن انظروا ! وسبحوا وإن شئتم فاحسدوا » متوهمين راحة الضمير وقرة العين بما قسمه الحظ لهم من صنوف المنح على رغم أنوف الحاقدين والمحرومين...

ولو أن ساشا رافسكي كان من معدن غير معدنه لسخط وحقد ، ولاتهم الزمان والمكان والناس بأنهم سبب ما يعانى من حرمان وفقر ؛ وساءه أن أمه المسكينة كانت ترجو أن تباهى به العاصمتين[1] وهي جاثمة فى كسر بيتها القروى . ولو أنها رأته الآن لازورت خجلا من بساطة شأنه وهو يطوى شوارع المدينة الكبرى على قدميه صباح مساء ، وأعظم منه شأناً فى نظره تلك النحلة الوافقة على زهرة فى غابة لفاء تبحث فى حنايا عن رزقها المقسوم . وفى تلك اللحظات كان يتذكر ماضيه القريب وحياته فى حضن والديه وأحضان الطبيعة الساذجة ، والأحلام التى كانت تداعب مخيلته الفتية وترسم أمامه مستقبله فى معاهد الفنون كأحد طلابها النابغين ، وكان قليل الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يجد فى العاصمة ما ينذى فى نفسه عاطفة الدين

وقد كان أصدقاؤه الأولون من طبقة الموجيك مؤمنين وفى قلوبهم ذرة من الجحود الذى سببه الفقر والجهل ، أما أصدقاؤه فى العاصمة فلحدون ، وليس فى قلوبهم شعاع من الإيمان ! وكان فى وسعه أن يغشى دار قريبه ، حيث يلقى الترحيب والاكرام ولكنه كان من التعفف والاباء بحيث يعز عليه أن يفطن أحد من أقاربه إلى سوء حاله . ومن هنا تعرف الكسندر (ساشا) بطائفة من الشبان الذين ساعدهم الدهر بالانضمام إلى صفوف الأكاديمية ،

والفتيات اللواتى تحررن وغلبن آباءهن على أمرهم وأقنعنهم بمشاركة الشبان فى اجتناء ثمار العلوم العالية وتلقى العلم معهم على أستاذ واحد فى صفوف الجامعة

وفى اجتماع للطلاب والطالبات التقى بدايانا التى كانت تعاشر كهلا من كهول الثورة على مضض ، وكانت إذا التقت بساشا فى حضرة الكهل لا تعير حديث عشيرها سمعاً ولا وعياً ولا لفتة ، مندفعة فى الاستيلاء على لب الشاب الفنان بحديثها الجذاب الذى كان ينصت إليه فلا يفوته من تعاريجه والتوائه حرف واحد ، وفى تلك الفترة كان ساشا قد أخذ بأهداب الفن وعرف لدى أساتذته بحسن الذوق ، ودقة البصر ، والقدرة على تمييز الألوان ، وخلط الأصباغ ، ولكنه أبى أن يدخل الامتحان أو يعرض لوحاته . وكان يتقزز كلما تذكر الموظف الكهل ، ذلك السخيف الذى حرمه الالتحاق بالأكاديمية . وكان أبوه يبعث إليه بالرسائل ، ويأخذ عليه المواثيق أن يحتفظ فى قصره المأمول بمكان رحب ليصون فيه شيخوخة أمه من الفقر وذل المسغبة .

والأم تكتب إليه خفية أن يسرع فى إتمام عمله ليريح منه ما بكفى لإراحة والده المكدود من تعب السعى على الرزق والإكباب على الأرض التى تجود حيناً وتماطل أحياناً . فكان الولد يعد والديه وهو حانق ، لأنه ما زال فى رحاب الفن يؤمل أن يملك ناصيته ولو بعد حين . أما المرأة التى تعرفت إليه وأعجبت بفنه فقد استهوته وخدعته وحسنت له أن يوزع بين أقرانه رسالة أدبية ، وكان الكسندر سليم القلب حسن النية فلم يعلم ما تحويه الأوراق التى قبل تفريقها ، ولم تكن سوى المنشور الذى

(١) بطرسبرج وموسكو

أدى به إلى الخروج من الماسمة مكبلاً بالحديد إلى سجون سيبريا الموحشة وما زال ساشا يحفظه عن ظهر قلب كأنه إصحاح من العهد القديم ، يتلوه على مهل ، وأخذ يلقيه على مسامع صديقه فيكتور فيدورفسكي الذي أنصت إليه : « عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سوف يتلو أبناء الأجيال المقبلة صفحات من تاريخها تقطر أسطرها دماً ، لأنها كُتبت بالخناجر في لحوم الرجال ، ولا سيما العظماء منهم الذين دافعوا عن أوطانهم ضد المظالم الصارخة ، ووقفوا وجهاً لوجه حيال الدوقات (١) أهل الندر والخنا

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود ، ويَحْضُر الحقّ جل شأنه كل تلك الأمم في يوم العرض العظيم ، ستبعث بعض النفوس سوداء كالفحم ، لأنها أبت أن تخرج من الدنيا إلا وقد أساءت إلى من أحسن إليها واستكبرت !

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيُكشَفُ للذين سموا بمجدها ، وقرأوا بدهشة الاعجاب ، عن أخلاقها المزاجة ، وفضائلها المزيفة ، وعظمتها الكاذبة تلك العظمة القائمة على الباطل فانهم سيعلمون أنهم كانوا من المخدوعين ...

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيعلم الذين شهدوا وأحفادهم مصرعها أن الله قد أهلك أكبر دولة بناها الشيطان واستعان في بنائها بكل القوى الكامنة في الظلام المرعب المخيف ، تلك القوى التي لبست وجوه الخفافيش لتخفي وراءها نجاسة الأجيال ، ورجس أعوانه ، وقسوة الضواري الجائعة ، وإن الشيطان الأكبر بعد أن شاد هذا البناء المهول ودعمه وزينه وتجمّله نصب أعواد ملاعبه لتابعيه ليلبسوا أدوارهم فلبسوا ، ولكن أنصاف البشر الذين شاركوهم تفوقوا عليهم وسبقوهم واختلقوا صنوفاً من الشر وألواناً من الأذى عجز عنها أعوان الشيطان ففضب إبليس وهدم البناء على رؤوس ساكنيه

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود ستفضح قوة القوى المسيطرة على الكون أسرارهم وتنشر بين أيدي الملأ أخبارهم التي دونوها بأقلامهم ونطقت بها ألسنتهم ، وتأتي أيديهم وأعينهم وجوارحهم شاهدة عليهم

« عند ما تزول القيصرية من الوجود سيترحم الملائكة والناس على الذين نبذوهم وأبغضوهم واحتقروهم واضطهدوهم وطاردوهم لأنهم نحايا تلك الدولة وفرائسها البريئة ، فلا توجد حيلة ولا مكيدة ولا خبث ولا حيالة ولا فخ ولا نفاق ولا دسيسة إلا ووردت سجلات تاريخها المشؤوم

« لقد كان (المنبوذون) من أبناء الشعب عيالاً عليهم في طعمهم وجشعهم ولؤمهم فتجسدت هذه الفظائع في أرواح قادتهم وساستهم وزعمائهم ، فلم تعرف قلوبهم الرحمة ، ولم تذق نفوسهم الحنان ... يصفون العدل والحرية والمساواة كأنهم يشعرون بها ، ويتخذونها تُكأة ومستنداً للوجيك البائسين في عزلتهم

« عند ما تزول القيصرية الظالمة من الوجود سينادي منادٍ في السماء وفي الأرض : « ألا إنّ الأرض قد طُهّرت من المظالم التي أهرقت الدماء

(١) سادة روسيا القيصرية دوقات وغرانددوقات

البريئة . ألا إن الأرضَ قد طُهِّرَت من المظالم المفضوحة . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق والعدالة المزعومة . ألا إن الأرض قد طهرت من إجرام السياسة ورجس الحياة الملوثة ومنكرات المجتمع . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق الأسود والخبث الأصفر . ألا إن الأرض قد طهرت من اللصوصية المزوقة والخيانة المستخفية والغدر المندَسّ فى زوايا الخديعة . ألا إن الأرضَ قد أنقِذَت من الكذب المتلبب الذي قتل الصدق وضربه على أم رأسه بهراوة الباطل فصرعه وولغ فى دمه ...

« ألا إن الأرض قد خلت من مظاهر الدعوى بالفخار الكاذب والخداع الذى طال أمد حكمه وفشا ظلمه وتحكمت إرادته فى ضمائر الشعب المغلوب على أمره

« ألا إن الأرض قد نظفت من الزور والحنث في الأيمان والوعود الكاذبة

«ألا إن الأرض قد نجت من الوعود الباطلة التى سموها « كلمة الشرف »

ألا إن الأرض قد طهرت من قطاع الطرق فى البر والبحر الذين لبسوا القبعات العالية وتقمشوا بالثياب الغالية ، وأخفوا أيديهم الملطخة بالدماء بقفازات من جلود ضحاياهم فى قلعة بطرس وبولس ، وفى سجون سيبريا التى يكتنفها الجليد من كل حدب وجانب »

كان ساشا يتلو من النيب كأنه يقرأ فى صحيفة مفتوحة بين يديه ، لا يقف ولا يتلعثم ولا ينسى ولا يخطئ ؛ حتى لقد ذهل ڤيكتور فيدوسكى مما تلاه صديقه القديم ، ولكنه لم يستطع أن يقف تيار حديثه الجارف فقال له :

« وكيف استظهرت هذا كله ؟ »

قال : عمراً طويلاً قضيته فى سجون سيبريا ، كنت أتلوها صباح مساء ، حتى لقد حفظتها صلاتى لأنها سببت شقوتى وسجنى . أما المرأة دليانا فقد شقوها ، نعم شقوها فى بطرسبرج ، وأما والدتى التى كانت تنتظر البر والخير على يدى فقد ماتت ولم تذق منهما شيئاً . والآن ها قد عثرت بك لتحملنى إلى ... السجن أو إلى القبر الأبدى . واغبرّ وجهه ، وارتعدت فرائصه ، ووقع على الأرض ميتاً ، فلم يكن سلامه إلا وداعاً ، وحديثه إلا نذيراً بدنو أجله . وكان مصيره إلى ... إلى المشرحة ...

محمد لطفى جمعة

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأسعار الآتية :

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

أعصاب

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب جورج سلستي

رَجَتْ « مدام فاكسين » قرينها المهندس أن يأذن لها بزيارة كنيسة « السيدة » في (تروبستا) ليلاً ، وفاء لنذر ، على أن تعود في الصباح الباكر فلم ير بداً لدى إلحاحها من أن يلبي طلبها وينزل عند رغبتها ، ولم يجد هو بعد ذهابها مندوحة له من قضاء أمسيته عند أحد أصحابه فراراً من وحشة العزلة في منزله النفرد ، وترجيةً لوقت يلذ فيه السهر ويستطاب السمر

ولقد شاء طالعه المجدود أن يكون المنزل الذي أمّه غاصاً بالساهرات والساهرين من الأتراب والأحباب ، يتساجلون في فنون من غير تيه ، ويتطارحون الحديث سمحاً لا تكلّف فيه ، وما عتم بعد أن اطمأن به مجلسه أن ساهم معهم في فنون القول ، وخاض معهم في كل بحث ؛ ولما أثارت إحدى الغانيات مسألة قراءة الأفكار ، وتحدثت عن استدعاء الأرواح ، راح هو يتدفق في كلامه عن الأرواح ومناجاتها كالخطيب المصقع ، ويروي لهم شتى الأحاديث عن اختبارات كبار العلماء في هذا الفن وآرائهم فيه ، وعن تجاربه الشخصية التي قام بها بنفسه ، وأبى إلا أن يقرن القول بالعمل ، فطلب كأساً وخواناً ليجري عليهما تجربة أمامهم تأكيداً لما قال ، وإثباتاً لما روى ، وإن هي إلا لحظات حتى كان الأوانس قد تألبن حوله وساورنه وحتى كان الصحاب قد اندسوا بينهن حياله وكلهم يرنو إليه بطرف سادر لا يحير ، ويترقب حضور تلك الروح التي كان قد همّ باستدعائها من علياء سمائها بتمتمات إن أدركوا أقلها فاتهم إدراك جلها ، وغمغمات ماتبين أوائلها حتى تتمض أواخرها ، ولما عيل صبرهم أو كاد لفظ اسم المرحوم عمه بصوت خافت ملؤه الضراعة والتوسل ، وطلب إلى روحه المرفرفة في فضاء اللانهاية أن تتحدر من سمتها الرفيع إلى مجتمعهم الوضيع ، وأن تتنازل فتجيب إن كانت ترى مانعاً يحول دون تسجيل منزله باسم زوجته غداً قبل أن يدهمه الموت الفاجيء ، نظراً لعلة ضعف القلب التي ألمت به منذ أمد بعيد واستعصى على الأطباء علاجها

وساد الصمت الرهيب ارجاء الثوى في فترة انتظار الجواب العتيد ، ولم يلبثوا أن سمعوا جميعاً صوتاً يكاد يكون همساً إلا أنه واضح النبرات يقول: « إن كل شيء حسن في أوانه » فأدهشهم ماسمعوا وكان له في نفوسهم أثر بليغ

وانتقل بعد ذلك الحديث من مناجاة الأرواح إلى شخوصها وبروزها ، فكان للأوانس في هذا الباب القدح المعلى ، إذ طفقت هذه تذكر كيف

2017-11-11

تراءت لها روح أبيها ماثلة على الحائط بشكل يهول الرائى ويرعبه فى ليلة من الليالى الماطرة القرة ، وقد نبا بها مضجعها ، وانتفى الكرى عن مقلتيها ، وكيف أن الروح اتخذت أوضاعاً مختلفة على ضوء السراج الخافت الموضوع أمام سورة العذراء حيال سريرها مما روّعها وأثار مخاوفها ؛ وراحت تلك تقص عليهم ما سمعته عن القصر القديم المهجور من روايات أقل ما يقال فيها إنها تشيب الوليد ، ويقف لها الشعر هولاً ورعباً ، وتساءلت عن مدى الحقيقة فى تلك الأقاصيص ؛ فانبرت لها عانس شوهاء انطلقت تثبت أن للجن وجوداً ، وأن الأرواح كثيراً ما تتراءى إما بهيئات وحوش ضارية أو أناسى لا تملك رؤيتها المشاعر فحسب ، بل كثيراً ما تسقل اللسان وتكمّ الفم وترى المرء بعد ذلك بمرض عضال لا برء منه ولا شفاء ؛ وأن المقابر مراح الجن ومغداه ، والويل ثم الويل لمن تحدثه نفسه أن يجوس بين الأضرحة فى ليل حالك الاهاب فالطامة الكبرى من غير بدّ واقعة عليه

وهنا تطوع أحد الحاضرين للحديث ، لا ليزيد فى متعة الأحاديث بل فى رهبتها ؛ وكان إلى تلك الآونة منصتاً إلى ما يقال دون أن يتكلم ، فراح على ذكر الأضرحة والمقابر يروى قصة فتى غيلانى الشباب مات على ما تراءى لأهله وبناء على ما أثبت الطبيب ، فوودى الثرى بين الآهات والعبرات ؛ إلا أن عابرى السبيل حيال المقبرة سمعوا مساء اليوم الذى دفن فيه صوتاً خافتاً كخرير المياه فى جوف وادٍ سحيق بعيد النور ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى تقصى الأمر واستجلاء كنهه ، فدخلوا المقبرة وطافوا بين الأجداث متتبعين مصدر الصوت المحتضر الرهيب ، فلما بلغوا ضريح ذلك الفتى المنكود أدركوا الحقيقة المرّة ، فهرع بعضهم ينبئ دائرة الشرطة وانكفأ البعض الآخر على القبر يحفره ويرفع ماهيل على التابوت من التراب

ولما أقبل رجال الشرطة كان هؤلاء يعالجون النعش لرفع غطائه ، فأمر القائد الشرطى أن ينسحبوا من الحفرة وأن يعالج النعش بالفتح اثنان من رجاله . فخضع هؤلاء للأمر وتقدم الشرطيان لفتح غطاء التابوت ، وما كادا يرفعانه معاً حتى رفع الدفين الحى رأسه وأرسل صيحة مدوية تركا الغطاء على أثرها يقع عليه ، وأغمى عليهما .

وأقبل الحاضرون لنجدتهما ، على حين تقدم الباقون لرفع غطاء النعش مرة أخرى ، بقلوب واجفة ووجوه مصفرة ذهب بلونها هول الموقف الرهيب :

ولشدّ ما آلمهم مرأى ذلك الفتى المسكين ، محروح الرأس ، مخدّد الوجه من آثار أظافره التى أعملها فيه ، جاحظ العينين ، أزرق الأديم ممزّق الكفن . وعبثاً حاولوا إيقاظه ، فإن البائس كان قد لفظ آخر أنفاسه ، وكانت صيحته الأخيرة أمامهم آخر اختلاجة فيه ، فيا للفتى الموءود !

وما بلغ الرجل من روايته هذا الحدّ حتى كان بعض الأوانس قد امتقعت منهنّ الألوان واكفهرّت الملامح ، ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فنهضوا جميعاً يودع بعضهم بعضاً ، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى انفرط عقدهم وارفضّ جمعهم ومشى كل إلى طيّته ونفسه تزخر بشتى الأحلام والرؤى ، إلا أن فاكسين كان أشغلهم بالجنّ والأرواح ، فعاد إلى منزله المنفرد

وصورة ذلك الفتى المنكود الذى دفن حياً ما تزايل مخيلته ، وأوى إلى فراشه وخيال الجثة لم يبرح ماثلاً أمام عينيه

قال فاكسين فى نفسه : « إن الحياة لتزخر بالتراث ، وإن فى الوجود من المخاوف والمروّعات ما لا يلمّ به عدّ ولا يدركه إحصاء ، ولكن الرجل من كان حديد الإرادة ثابت الجنان ، فليست الجثث هى التى تخيف وإنما هو المجهول الناهض ؛ وأنا ما كنت فى يوم من حياتى جباناً ولا رعديداً ، ولن يعرف الخوف إلى قلبى سبيله ، والآن .. فلأنم ؛ فقد آن لجسمى أن يستوفى قسطه من الراحة »

ووفقاً لقراره هذا أغمض عينيه ، وحاول أن ينفو ، إلا أن النوم قد جفاه ، وسعى لينزع الأوهام من خاطره ، إلا أنها كانت تكتنفه فيه وتترا كم عليه قاتمة سودا

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ومازال الرجل يراوح بين جنبيه لعله يجد النوم فلا يسعده طالعه ولا ينال مأمله

وأطل برأسه من تحت وِزاره فوقع نظره على رسم عمه الفقيد الذى ناجى روحه منذ ساعة ، لا يكاد يضيئه شعاع السراج الضئيل الموضوع أمام إيقونة العذراء فى أقصى الغرفة ، وما عسى أن يضيء هذا النور الشاحب المتراقص أبداً أمام حفيف النسيم الناعم ؟ !

وتساءل فاكسين عما ينتابه لو ظهر له خيال عمه حينذاك ؛ غير أنه لم يلبث أن طرد هذا الخاطر المزعج من رأسه لأنه على ما رأى بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلاً ، لا سيما أن شخوص الأرواح لا وجود له إلا عند الواهمين ، وليست رؤى الجن إلا ثمرة العقل المخبول ولئن حق له أن يسخر من رفاقه إذ يوهمهم أنه يناجى الأرواح ويستدعيها فمرجع إليه ، إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يسخر هو من نفسه فيؤمن بما يثق كل الثقة من بطلانه ، أو يعتنق مبدأ يعده لغواً وهراء وشعوذة

تلك هى آراؤه التى كانت تجول فى فكره ، ولكن ما قيمة هذه الآراء ما دام الواقع يدحضها عنده وينفيها ، وما يجدى المرء اعتقاده أن شخوص الأرواح وهمٌ على حين يكون هو نفسه فريسة هذا الوهم ، لا يقوى على الإفلات من عقاله أو الانطلاق من إساره ؟ !

وراح فاكسين يحاول أن ينجو من براثن الأشباح ، فكان يغطى رأسه كله بدثاره ويطبق عينيه بشدة ويرغم نفسه على النوم إرغاماً . غير أن الأشباح كانت ما تفتأ تتخطر أمامه ، والرؤى لا تنفك غادية رائحة أمام باصرته ، والنوم شريد أنأى ما يكون عن عينيه

ولقد مثل له خاطره المروع رسم الدفين الحي يتقلب فى نعشه ، وتراءى له ساعياً ينفض عنه الأكفان فيرتطم رأسه بغطاء التابوت فيشج ، ويستنيث بملء فيه فلا تخرج الاستغاثة من حلقه إلا كنداء المبحوح لا يكاد يسمعه أدنى الناس إليه .

وتمثلت له صورة المرحومة زوجة عمه ساعة احتضارها وصورة أخ له حميم علق على أعواد المشنقة وصورة فتاة كانت من أحب الفتيات إليه وآثرهن عنده ابتلعها التيار الجارف وطوتها الأوذاى الصاخبة فى مهاويها البعيدة الأغوار !

وحاول المسكين أن يدفع عنه أفكاره مرة أخرى ولكنها ما كانت لترداد إلا قرباً منه فهلع فؤاده الخوار

ولقد عاوده وهو تحت غطائه شيء من الثقة بالنفس وقليل من الجرأة التي كان يتبجح بها ، وأخر في نفسه أن هذا الذي يبدو منه خور لا يليق بمثله ، وضعف من العار أن يثبت عليه ، وعزم عزماً صادقاً على أن ينهض من فراشه دون ما خوف ولا وجل ليظهر أمام نفسه بمظهر الجسور وليريها أن الشجاعة لديه ليست ادعاء كاذباً ولكنها حقيقة لا يعوزها دليل ولا إثبات ، ولكن يأبى سوء الطالع على ما يظهر إلا أن يلازمه ، فما كاد يرفع رأسه حتى لامس جبهته جديد كان قد دخل من النافذة طائراً ولجناحيه حفيف كحشخشة الأوراق المتناثرة عند ما تذروها الريح . فارتاع أيما ارتياع ، وعاد فكمن تحت الغطاء في مثل ومض البرق الخاطف ولفؤاده وجيب يتجاوب في أذنيه صداه

ورن جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة في ضاحية القرية ، رنات بطيئة حزينة تملك المشاعر ، وصر الجديد فوق السرير صريراً يكد النفس ويشجي الفؤاد على حين كانت الساعة وراء الحائط تنشد أغنيتها الموزونة من غير ونى ولا إبطاء فتزيد المكان رهبة على رهبة

أحس فاكين كأنما الثقل يحبو على ظهره ، فمرت جسمه المجهود قشعريرة هزته هزاً ، وتراءت له صورة عمه كأنها قد تجسدت وتمثلت من إطارها وأكبت عليه تنفخ رقبته أنفاسها الباردة فاستولى عليه ضيق شديد خيل معه إليه أن يدي عمه الباردتين تضغطان على عنقه حتى اختنق أو كاد فخانته قواه ، ولم يبق في مقدوره أن يتجلد أكثر مما فعل ، فتعلقت أنامله المرتجفة بخيط الجرس تحت وسادته تعلق الغريق بآخر أمل له في الحياة ، وجذبه بعنف يستدعي خادمه ليستعين بمرآه على تنفيس كربه ، وما هي إلا دقيقة أو اثنتان حتى أقبلت قيمة الدار صائحة من وراء الباب :

— « لقد أذن سيدي (لكلافديه) بزيارة أهله في المدينة وليس في المنزل أحد سواي ، فهل يريد سيدي أن أقوم له بخدمة ؟ »

وهبط هذا الصوت الأنثوي عليه هبوط الفرج على اليائس الحريب ، ووجد فيه أنساً يبدد مخاوفه بعد أن ناله منها ما ناله من عنت وضيق ، فأفرخ روعه واطمأن باله قليلاً ، وتجرأ فرفع رأسه من تحت الغطاء ، وقال وقد ضرج الحياء خديه :

— آه ! أهذه أنت يا (روزاليا كارلوفنا) ؟ لقد جشمت نفسك مشقة المجيء إلى بعد أن كنت غافية ، تفضلي وادخلي

— ماذا يريد سيدي مني ؟

— إنك حقاً ذات قلب رقيق وخلق كريم... كنت أود... آه... ولكن تفضلي ادخلي يا عزيزتي روزاليا ... ليس ثمة ما تخجلين منه ، فالقنديل مطفأ وأنا في السرير ، ادخلي

ودخلت قيمة الدار وهي ألمانية ذات جسم بدين وعليها مسحة من الجمال الأنثوي المزري ، وخطت خطوتين اثنتين ثم وقفت تنتظر أمر سيدها الذي سرى عنه لدى دخولها ، وتنفس الصعداء

2017-11-11

كمن يلقي عن كاهله عبئاً يهظه ويفدح قواه ثم قال :

— أرجو أن تجلسي يا عزيزتي روزاليا ، أتعلمين ماذا أريد ؟!

وتنحنح وهو ينظر بطرف عينه إلى صورة عمه ويفكر فيما عساه أن يطلب منها في مثل تلك الساعة المتأخرة في الهزيع الثالث من الليل ، ثم رفع رأسه إليها وقال :

— آه ... ! كنت أود أن أكلف الخادم بشراء غليون غداً ، ولقد عزب عن بالي أني أذنت له بزيارة أهله ... ولكن لا بأس ! فهل لك أن تبلغيه رغبتي لدى عودته ... ؟ ! ولكن اجلسي بربك :

— غليون ؟ ! هيه ! أقول للخادم أن يبتاع لك غداً غليوناً ؟! جميل حقاً ما تطلب يا سيدي !

وهزت رأسها باستخفاف وهزء ثم استأنفت :

— وبعد فماذا تريد ؟

— أريد ... إيه يا روزاليا ... عليك بالله أن تسترجعي على الأريكة ريثما أفكر في شيء آخر أكلفك بتبليغ (كلافديه) شرائه

— هيه ! أخطأت يا سيدي كل الخطأ فيما ذهبت إليه ... ! لا لن أجلس ! وليس من اللياقة ولا الأدب أن تجلس فتاة شريفة في غرفة رجل بعد منتصف الليل !

قالت ذلك بلهجة جمعت بين الغضب واللين ، وهمّت بالانصراف ، فاستوقفها وطلب إليها مرة أخرى أن تنزل عند رغبته فتسترجع على المتكأ ولو هنيهة واحدة ثم تذهب ، غير أنها أبت ، وفار دمها واحمرت وجنتاها وصاحت به :

أرى أنك رجل خليع متهتك ... أنا لم أسمع قبل الساعة أن خادماً يستدعيها سيدها من فراشها لأجل غليون ! أو تحسبني جاهلة ؟ إني أعلم حق العلم ما تروم مني !

ودارت على عقبيها وعادت أدراجها إلى غرفتها بعد أن أغلقت وراءها باب سيدها حانقة غضبى . فلم يُبْدِ ما كبن ولم يُعِد . وحسبه أن حضورها إليه وحديثه معها قد أزالا عن صدره كابوساً من الهم كان يرهقه وإن يكن في قرارة نفسه قد خجل من ضعفه ، وجذب الغطاء عليه وراح يتلمس النوم بعد ذلك الهدوء النفساني ... ولكن دون جدوى فكأنما تعادى النوم وأجفانه فصد عنها وجفاها

ومضت عشر دقائق سرعان ما تصرمت ثوانيها ثم عاد الخوف إلى فؤاده ، فتمتم لاعناً تلك الساعة التي فادته فيها قدماه إلى منزل ذلك الصديق الذي حفلت الأمسية عنده بالأحاديث عن الأرواح والجن والموتى ، ومد يده إلى المنضدة قرب سريره ليتناول علبة الثقاب فلم تمتد أنامله المبتسّة عليها

وتراءى له أن شيخاً عملاقاً جاثماً في زاوية الغرفة يرمقه بالنظر الشرر وينهدده بقبضة يده القوية وأن عيني عمّه تحززانه [1] بنظراتهما ، فتضاءل واستخذى ، ثم استجمع إرادته الموزّعة وعزم على أن يستدعي الفتاة الألمانية من جديد لتؤنسه ، وسينتحل لنفسه عذراً مقبولاً كالمرض مثلاً ، ويطلب منها أن تأتيه بالدواء

ودقّ الجرس ، ولكن دون جواب ، فروزاليا كانت قد غفت وراحت تسبح في نوم

(١) خرز فلاناً : نظره بلحظ عيه كبراً واستعلاءً

عميق . وكرر الدقّ ، ولكن دون جدى ، ولم تطرق مسمعيه حركة ولا نأمة اللهمّ إلاّ دقات جرس الكنيسة القائمة حيال القبرة ، وكأنما تقرع رداً على قرع جُرسه ؛ ثم ساد الصمت الرهيب ، وعراه ذعر شديد ، وأحس بأعضائه تتقرس ، فلم يجد وسيلة يتجو بها مما هو فيه إلاّ أن يقفز من سريره ويهرع إلى غرفة القيّمة يأخذ بحجرتها

ونهض من سريره فعلاً ويمم حجرتها حافى القدمين وليس عليه من الثياب إلاّ قميص نومه . وقرع بابها بيده فلم تجبه ، وناداها باسمها مراراً فما ردت عليه ، ولقد أدرك أن اللعينة تسمع نداءه وتتصامّ فقال لها بلهجة المتوسل الضارع :

— روزاليا ... أنا مريض ... أسعفيني بزجاجة الدواء ... أتفهمين ؟ ! أرجو منك أن تسعفيني حالاً فأنا العليل واقف ببابك ... إيه ... لا أفهم والله لهذا التعنت سبباً ... ولا أفقه معنى لهذه الجدة تبدر منك لى ... ولا سيما أنى محرور ، وبى صداع أليم لا طاقة لى على احتماله

— سأقص كل شىء على زوجتك يا سيدى ، وسأروى لها الخبر بحذافيره ؛ سأعلمها عن تصديك خاطرى من أجل ... آه منك يا هذا ؛ سأنبئها عن هذا كله إن لم ترعو عن غيّك وتتوب إلى رشدك ؛ ألا تريد أن تدع فتاة شريفة مثلى ؟ ! عند ما كنت عند البارون « انزيج » أقبل إلىّ حضرته كما أقبلت إلىّ أنت الآن بحجة التفتيش عن علبة ثقاب ، ولكنى وأنا الذكية أدركت ببداهة أية علبة ثقاب كان يبتغى فمنّفته وزجرته ، وهرعت إلى البارونة أطلعها على الأمر وقلت لها إنى شريفة طاهرة الذيل

— ليحمل الشيطان شرفك وطهرك ، فأية غُنْيَةٍ لى فيهما أيتها المتوحة . إنى مدنف عليل يعوزه الدواء ... أتفهمين الآن ؟ !

— أنا أدرى منك بالدواء الذى تحتاجه ، إليك عن بابى ياسيدى ، فزوجتك شريفة وإن عليك أن تحبها هى وتخلص لها الحب ؛ إنها مثال الأمانة والوفاء والطهارة والورع وهى تستحق منك كل رعاية وتقدير وإنها بهما لجديرة . أنا لا أريد أن أكون عدوتها ، وليس لى أن أنافسها فى هواك

— إنك حمقاء ، أجل إنك حمقاء ؟ !

قال ذلك وهو ينزو غضباً ، ثم أسند ذراعه إلى الباب ، ورسم إشارة الصليب على صدره ليطرد بها الأشباح من خياله الواهمة المضطربة ، وطفق يحدق فى سكون ذلك الليل البهيم بنظر تائه وفكر شريد ؛ ويفكر بما تبقى له من عقل : أيعود إلى غرفته حيث تتراقص أضواء الشمعة الشاحبة ، وحيث يرى رسم عمه الذى يفزعه بنظراته الجامدة الحادة ، وتخيُّلُ الأشباح المروعة ... و ... ؟ لا ولكن أيبقى حتى الفجر حافى القدمين واقفاً على باب القيّمة بجلبابه الرقيق ؟ إن هذا لا يليق بمثله ؛ ما العمل إذن ؟ .. إنه لا يدرى

ودقت الساعة الثالثة وهو لا يزال على وقفته تلك يفكر تحت ستار الدجى الحالك ، تساوره المخاوف وتحف به الرؤى . ولقد غدا من شدة هلعه يحسب أن للأسرعيوناً ترمقه ، وأن الأرض ملؤها الأشباح المنبثة فى كل مكان تسلب الناس راحتهم وتعكر على البشر صفوهم

وخيل إليه أن جنيناً مارداً واقفاً وراءه يصغى

إلى همسات روحه ، ويحصى عليه أنفاسه الزواخر ، وأنه عسك بذيل جلبابه يشده منه ، ثم أحس كأن يداً من جليد وضعت على كتفه ، فقفّ شعر رأسه من الرعب ودفع الباب بكلتا يديه وهو ينادى القيمة باسمها بصوت مأخوذ كصوت المبحوح ، مستطار اللب ، زائغ النظرات ؛ ودخل عرفها وأغلق وراءه الباب

كانت الفتاة الشريفة قد استرسلت فى نومها الهادئ العميق على نورسراج يرسل أضواءه الصفراء على جسمها المافى المتنعم بلذة الرقاد

ووقف فاكسين برهة يستعيد فيها بعض قواه الخائرة ثم ارتمى على عبية[1] قرب الباب تؤنسه أنفاس الفتاة النائمة ؛ وشعر بالطمأنينة تعود إليه رويداً رويداً

قال فاكسين فى سره : فلتنم هى ، وأما أنا فسأبقى حيالها حتى الصباح وأترك حجرتها قبل أن تستيقظ

واعتمد رأسه على راحته وطفق يفكر فى هذا الذى انتابه ، وعجب كيف تستحوذ عليه الأوهام ، وهو المهندس الأريب إلى هذا الحد القصى . وعزا ذلك كله إلى وهن أعصابه الهائجة وخور نفسه ولم يلبث أن استولى عليه النعاس فأغفى

وعادت مدام فاكسين من (تروبستا) فى الصباح الباكر ولما لم تجد زوجها فى غرفة نومه دخلت غرفة الألمانية لتطلب منها شيئاً من النقود كى تدفع الحوذى الذى أقلها أجرته ، فوقع نظرها على روزاليا متمددة فى سريرها وقد سقط عنها دثارها فظهر غذاها الماريتان البضتان وبانت تكاوين جسدها العابل فاتنة مغرية ؛ ورأت على قيد ذراعين منها زوجها فاكسين مستلقياً من غير غطاء ولا دثار على السيبة الكبيرة بجلبابه الفضفاض ينط فى نومه غطيط البكر !

أما كيف أيقظته زوجته من رقاده وماذا حدث بينهما بعد أن شاهدته فى ذلك الوضع الزرى الشائن فما أدع وصفه لسواى يعبر عنه بالمنطق الذى يروقه والبيان الذى يشوقه ، فأنا وقد كلّ ساعداى ووهنت قواى أرفع يدى مستسلماً وألقى سلاحى

جورج مسترى

ادرس فى منزلك

مدارس المراسلات المصرية تساعدك بمجهود بضع ساعات من وقت فراغك فى كل أسبوع على الحصول على الدبلوم الذى ينقصك للحصول على الثروة والشهرة والرقى

نحن نعد لدرجات جامعة لندن فى الآداب والعلوم والهندسة والقانون والتجارة الخ ... وللابتدائية والبكالوريا وللغات والصحافة والرسم والتصوير . تأليف الروايات . تربية الدواجن . صناعة الألبان ومنتجاتها . تفصيل الملابس . الراديو . التنويم المغناطيسى ، وجميع أنواع المهن والصناعات

كتاب طريق النجاح فى ١٠٠ صفحة يرسل مجاناً لكل من يطلبه من الادارة نمرة ١٠ شارع قنطرة غمرة بمصر تليفون رقم ٥٠٣٥٩

(١) زنبيل من أدم تحفظ فيه الثياب

أول البريك

للأديب نجيب محفوظ

في منتصف الساعة السابعة صباحاً وصل على أفندى خليفة إلى المدرسة التى هو سكرتيرها ، كعادته منذ خمسة عشر عاماً ، وباشر أعماله بالأسلوب الذى تعوده وألفه فصار قطعة من صميم حياته ، إذ أن كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتبدل ولا تتغير : يدخل إلى « حجرة السكرتارية » فيحيي زملاءه ـ الكاتب والضابطين ـ تحية الصباح ، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل بالقهوة والماء المثلج ، فيمضى فى احتسائها وهو يتحدث إلى القاعدين أو يستمع إليهم ، ثم يأخذ فى فتح الدفاتر وراجع ويكتب . ثم يخلو الحجرة حين يذهب الآخرون إلى فناء المدرسة لراقبة التلاميذ وتنظيم صفوفهم ؛ ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر لعرض الأوراق واستشارته فى بعض الأمور وتلقى الأوامر والارشادات . وإذا جاء اليوم الأول من الشهر ازدحمت حجرته بالمدرسين والموظفين وامتلأت يده بالأوراق المالية ، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى إلا وريقات معدودات يودعها جيبه ساعة ريثما يوزعها بدوره أشتاتاً على صاحب البيت والقصاب والبقال

هكذا تدور عجلة حياته فتبدأ من نقطة وتعود إليها ، ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت عن الخط المرسوم مقدار ذرة — كأن يتأخر عم خليل بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس فيعلى الضابط لحظة فى مغادرة الحجرة — لقلق واضطرب واهتز رأسه عنة ويسرة مثله مثل النائم فى ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور لعلة انتفض مستيقظاً مزعجاً ! إلا أن طارئاً من الحدثان نزل بساحته أخيراً فبدل طمأنينته رعباً وسكينته قلقاً وتفاؤله تشاؤما ، وكان الكاتب يعلم بخيبته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه وأقربهم مودة إلى قلبه ، فلما رآه فى هذا الصباح دنا منه وفنجان قهوته فى يده وسأله همسا :

— كيف حالك ... ؟ فأجابه بصوت ضعيف تمزقه نبرات اليأس :

— يسير من سيئ إلى أسوأ

— ألا يوجد بصيص أمل ... ؟

— أبداً ... أبداً ... لا بيع ولا شراء ... الحركة راكدة ... والديون متراكمة ... والتجار يطالبون ويلحون ولا يعذرون ، وبات شبح الإفلاس منى قاب قوسين أو أدنى ... فإذا وقع ـ ولا مرد له ـ خربت خراباً تاماً ودمرت حياتي وحياة أولادى تدميراً وهويت إلى أعماق السجون

فتهد على أفندى من قلب مكلوم وقال بصوت خافت :

— لا أمل فى النجاة

فسكت الرجل محزوناً ثم ذكر أمراً فسأله :

— وعمتك ... ؟

— أف ... أف ... لا رحمها الله فى دنيا ولا آخرة ... إنها تودلو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها على بال ... ولقد انقطعت عن زيارتها مضطراً منذ حين لأنها لا ترانى حتى تصيح فى وجهى : «ماذا جئت تصنع ؟ ! أنا لم أمت بعد ! » والمرأة تتبرع كل يوم بمئات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حباً فى الخير ولكن كيلا تخلف لى مالاً بعد موتها المتوقع يوما بعد يوم

هز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— ليتك يا على لم ترم بنفسك فى ميدان التجارة غير المأمون ...

— هذا هو الكلام الذى لا جدوى منه ... ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هى التى يسرت على أمرى ، وجعلت عيشى رغداً ... وأعانتنى على تربية ستة من الأبناء ؟

* * *

قبل ثلاثين عاماً كان على افندى تلميذاً بالمدرسة الابتدائية يجتهد أن يفوز بشهادتها ، وقد جرّب حظه مرّات فى سنين متتابعة ، فخاب مسعاه فيها جميعاً ، حتى نفد صبره وذوى أمله . ورأى أبوه أن يفتح له حانوت عطارة فى الغورية ، لبث فيه عامين يناضل فى معترك الحياة ، ولكن لم يكن حظه فى حانوته بأسعد منه فى مدرسته ، فاضطر إلى إغلاق الدكان ورجع خائباً إلى بيت أبيه . وهناك فكر فى أمر مستقبله طويلاً فوجد أن خير طريقة ، أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هى أن يعود إلى نبش كتبه التى نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب حظه مرة أخرى كتلميذ يجتهد وإن تقدّم به العمر ؛ وفعل ونجح ، ووظّف كاتباً فى وزارة المعارف .

واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ، وأحس فى أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة الاستقلال . ولما كان عرضة للتنقل إلى أقاصى الوطن آثر — عن حكمة — أن يتزوج . وقد جاب مختلف البلدان فى مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف رجلاً فى ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب فى وظائفها جميعاً حتى رقى إلى وظيفة السكرتير

وكان على خليفة مثالاً للرجل العادى الذى لا يخرج عن المألوف ، وأنموذجاً صادقاً للأخلاق المصطلح عليها والعادات والتقاليد التى يجرى بها العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين . وجد كل شىء جاهزاً فمضى له وآمن به واتبعه ، معتقداً مع المتقدين ، مستحسناً مع المستحسنين ، ساخطاً مع الساخطين ؛ فإن عرفت حيله فقد عرفته بغير مخالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلاً أو — وهو الأقرب إلى الحقيقة — خبرت الشطر الجامد من الجيل الذى يفتحه التاريخ إلى ما وراءه من الأحداث التى تخلق التاريخ . ولما تزوج استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ، وتكشفت له حقيقته ، فإذا به « رجل بيت » بكل معانى الكلمة ، فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هواية ولا أى شىء فى الوجود يقادر على أن ينتزعه من أحضان بيته . وحين كان يعيش منفرداً مع زوجه كانت حبيبه وأنيسه وجليسه ، فلما أن انبثت ذريته — بنين وبنات — حاميـة ساعية لاعبة مشرقة

2017-11-11

على أنحاء البيت ، كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه

وكانت الحياة تسير فى بادئ الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البيضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فوضت عليه ضريبتها التى لا تعفى منها أحداً من بنى الإنسان ، حتى صارت عواناً عليها ورمزاً لها ، وباتت الشكوى منها إنكاراً للحياة نفسها وجهلاً فاحماً بأمرها ، فمات أبوه وهو أطفاله صبياناً وغلماناً وهجروا معهم سعياً إلى المدارس الأولية فالابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوماً بعد يوم ؛ فانقلب يسر الحياة عسراً ، وراحتها تعباً ، وابتسامتها تجهماً ؛ وانسابت الهموم إلى كل جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شىء يهون إلا أن يشقى أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزة

وتذكر أن له عمّة أرملة غنية تعيش بمفردها فى بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافاها وينفر منها من طول ما بثّ أبوه فى نفسه ، ففكر فى أن يقصد إليها مضطراً

وكانت عمته امرأة فى السبعين ، مات عنها زوجها — قبل اربعين عاماً — وهما فى زهرة العمر وميعة الشباب ، وخلف لها ثروة طائلة وطفلاً وحيداً ، وقد ترك موت الزوج فى نفس المرأة آثاراً عميقة مروعة تغلغلت فى صميم حياتها ، ولم تعف مع كر الأعوام ودوران السنين . وأقبلت على العزاء الوحيد الذى بقى لها فى دنياها تمنحه كل ما فى قلبها الحنون من عطف وحدب وتفان وتضحية ، حتى شب طفلاً جميلاً ، ونما شاباً رقيقاً نحيلاً ؛ وبدأت تفكر فى أمر زواجه ، كى تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته ، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لم يقع لها فى حسبان ، فتردى الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدوراً ميؤوساً منه ، وقضى بين السعال من جانبه والتنهد والبكاء من جانبها

انتهى كل شىء وأقفرت الدنيا من الأمل والعزاء ، وماتت حيّة ودّفنت مع ولدها الحبيب كل ما ميزها الله به عن الأحجار الجامدة ، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن ، فهى المرأة العجوز القاسية المجنونة التى تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها ، وتسىء الظن بكل من يتقرب إليها ، وتخال أى زائر طامعاً فى أموالها وتقضى حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة فى بيتها المهجور كأنها مومياء فى أحد معابد الكرنك الحزينة

هذه هى عمته التى قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه ، وقد استقبلته استقبالاً بارداً جافاً فلم يأنس فى نفسه الشجاعة أن يفاتحها فيما جاء من أجله ، وبرح بيتها أشد يأساً مما طرقه

وقلّب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومى . ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التى اكتسبها فى أول عهده بالحياة العملية . فاتجر فى العطارة ونجحت تجارته ، وأقبلت عليه الحياة رغدة ، ولكن حال النجاح لم تدم ، فساءت الأمور ، وركدت السوق النافقة ، فجزع واشتد جزعه ، ولبث يداه فى الدفاتر بغير الحنى ، ولم ينفعه تلاعبه شيئاً ، وسارت الأمور من سىء إلى أسوأ ، واضطر

— تحت تأثير الخسران — إلى زيارة عمته مرّات وقاتحها — على رغم تردّده — فى طلب المعونة ولكنها كانت أشدّ عليه من حظه ومن الأقدار جميعاً ، فرفضت أن تمد له يداً أو أن تعيره أذناً صاغية . وفى ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الغيضان الذى لا يكون وراءه إلا الانفجار والهلاك ، فالمعة فى أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض ، وعلى أفندى على شفا جرف هار من الخراب والدمار ، والتجار متذمرون جزعون ، يطالبون ويلحفون ويطبعون على آذانهم فلا يسمعون ، وقد عينوا له أول أبريل كآخر موعد فى قوس صبرهم ، فان لم يسدّد دينه ويسو حالته أشهر إفلاسه ، وليكون مايكون بعد ذلك من رفضه من وظيفته أو إيداعه السجن . . . كل هذا ينتظره فى أول أبريل . . ! وما بينه وبين أول أبريل إلا أيام معدودات ! .. وقد نفدت حيلته وسدت فى وجهه المنافذ ! . . ثم ماذا يكون من أمر هذه الأسرة التى هى ثمرة حياته وسعيا آماله ؟ ! . هذه الأسرة التى تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما يهددها من الشقاء والبأساء ، اللهم إلا ربتها الصابرة القانعة التى تشارك الزوج أحزانه وتبادله همومه وتكتم فى قلبها الكبير ما لو أطلقته لأحرق الدنيا بأسرها من شدة ما به من هول ، ولأحرق أول مايحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يمرحون سادرين كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها من قريب . . . وذكر فى شدة حزنه أبناءه فهرعوا إلى مخيلته فى صورة تفيض حياة وجمالا . وكان حسين ومحمد فى المدرسة الثانوية فتيين نامين يحملان طلعة والدهما ورقة أمهما ، وهام وحافظ ويسن فى المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويتملّ هرجاً ومرجاً ما داموا فيه ، ويسكن سكون المقابر إذا غابوا عنه ، وزينب أو زوزو فى المدرسة الأولية هوية الأسرة ولبنتها ، صبوحة الوجه ، سوداء العينين ، مرسلة الشعر ، كانت بنتاً بين ستة ذكور كالياسمينة وسط باقة من الورد الندىّ ، حبيبة إلى كل قلب ، عزيزة على كل نفس ، حتى لكأن هذه الأسرة لم يتزاوج فيها الوالدان وولدا الأبناء إلا ليهيئوا المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام

فاذا يكون من أمر هذه الأسرة من بعده ..؟ بعد أن يرفض من وظيفته ويزج به فى السجن ..؟ أواه ! دون ذلك يمكن المستحيل وتقع المعجزات والخوارق . ! !

ولم يجد مناصاً من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته علّها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة ، فسار فى طريقه إليها — وكانت تقيم على مدى منه قريب فى شارع محمد على — مهموماً متمايقاً يعمل ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة . يا لله من هذه المرأة .. ! ما لها لا تموت .. ؟ إن حياتها فرض ثقيل عليها وعليه ، وإنها كالبنيان المتهدم يمنق فيه ناعق الخراب والمرض . ورغم هذا فنزول الحياة ما تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن بموتها فلم يبق الله عليها ؟ وللمضحك المؤلم أنها قد تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من ابريل بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تختار فى تعليله العقول ، وقديماً وقف موسى الكليم حياله جزعاً لا يستطيع معه صبراً ! وطرق الباب ودخل حيث قابلته الممرضة بابتسامة صفراء ذات معنى ، فسألها :

2017-11-11

— كيف حالها ؟

فأجابته ببرود : بخير

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبحوح دلت بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

— من الذى تكلمين يا عائشة ؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس الكهرباء ، وتردد ، وجد ، ثم كر على أسنانه ودخل إلى الحجرة وهو يقول :

— أنا على ... كيف حالك يا عمتى ؟

فدمدمت وقالت بتأفف وتبرم : على !

فأحنى رأسه ووقف صامتاً وعادت هى إلى سؤاله قائلة :

— هل جئت حقاً لتطمئن على صحتى ؟

— نعم

— وهل يهمك أمر صحتى ؟

— طبعاً

— إذا لم تخلط السؤال عنها بسؤال شىء آخر ؟

فضرب كفاً بكف وقال بصوت حزين :

— لا تظنى بى الظنون ... فقد عشت دهراً لا أسألك شيئاً ثم ...

— ولم تكن تريدنى وجهك بتاتاً ... ولم تكن صحتى أمراً يهمك السؤال عنه ...

— بالله أعيرينى أذناً صاغية ... لقد شرحت لك أحوالى ... أنا مهدد بالخراب بين لحظة وأخرى . اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنائى البؤساء وما ينتظرهم من شقاء ...

— لم أر أبناءك طول حياتى ...

فآلمته لهجتها الهكيبة وحمى رأسه بنار الغضب ولكنه لم يكن فى حال يأذن له باعلان مايبطن ، فنظر إليها نظرة المُر الواقع فى الشرك وقال وهو يجهد أن يجعل صوته هادئاً :

— إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة ...

وهنا هبّت قاعدة فى فراشها وصاحت فى وجهه

— فى داهية !

— عمتى ...

— لست عمة لأحد

— لا تكونى هكذا

— هكذا أنا ... أعنى عنى ولا ترنى وجهك مرة أخرى

وحاول أن يقول شيئاً ولكن لم يسعه الكلام ، فجمد لحظة حيث هو ملهب العينين ، محمى الرأس ، مرتعش الأطراف ، ثم غاب عن ناظريها . ولقى فى الخارج الممرضة واقفة تنصت ، فقابلته بنفس الابتسامة وقالت :

— ككل مرة ! ؟

فهز رأسه غاضباً وقال :

— إنها شر ما فى الوجود ... إننى أعجب كيف يؤاتيك الصبر على معاشرتها ؟

— إنى أقوم بواجبى ... وهى على كل حال لا تعاملنى نفس المعاملة ...

وتوقف لحظة لايدرى مايبنى أن يفعل ، فلاحت منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصّت عليها زجاجات الدواء فتنهد وقال بغير وعى :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة !

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها الممرضة يقول هذا القول فارتاعت لتكراره وردّدت قوله مرتعبة :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة ! !

2017-11-11

فنظر إليها بسرعة مرتجفاً والتقت عيناهما لحظة فلمع بينهما ما يشبه البرق ، ثم خرج مهرولاً وهو يتنفض من هول ما خطر على باله ، وهبط السلم مسرعاً كأنما يفر فراراً ...

وجاء اليوم الأول من ابريل ، والأيام تسير فى دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات وأهوال لا اختلاف فى هذا بين يوم التطير أو يوم التفاؤل ، ولم يكن هذا اليوم جديداً فى العام ولا جديداً فى حياة على افندى ، ولكن خيل إليه هذا الصباح أنه يستقبله لأول مرة فى حياته بل عجب كيف أمكن أن يوجد بقية الأيام وكيف أمكن أن يأخذ مكانه الطبيعى بين أيام السنة وهو يحمل له نذير الخراب ولأسرته الشقاء والفناء ! ...

أواه ! إن موعده مع التجار أصيل هذا اليوم ، ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره . وأنه ليعلم علم اليقين أى طريق هو موليها بعد حين قليل ... بعد ساعات سريعة الجريان ...

ومع هذا فها هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف القهوة ويقلب الأوراق ويشترك فى الحديث مع هذا وذاك ، وكل من حوله منصرف إلى عمله ، والتلاميذ فى الفناء يضجون ويلعبون ، والحجرة هى هى ، والمدرسة هى هى ، والدنيا كلها هى هى ، كأن شيئاً لن يحدث ، وكأن داراً مرهوباً لابوشك أن ينزل بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح ! !

والمضحك بعد هذا أن يقال إن الإنسان حيوان عاقل ، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور عقله قضاء يعجز الحيوان عن رده لانعدام عقله ؟ ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه داراً يعلم به قبل وقوعه ، وكم غير هذا الدمار — مما يجهل — قريب لا يستطيع حياله تصريفاً . حقاً إن الحياة مأساة مؤلمة مضحكة ، ما الذى ينبغى أن يفعل ؟ ... إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف ولا يملك إلا تكراره وترديده كالمخبول ... وقد سمع فجأة صوتاً يقول :

حان الميعاد ...

فارتجف جسمه وانخلع قلبه فى صدره ... الميعاد ... إنه لا يفكر إلا فى ميعاد واحد ولكن الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكا :

الساعة تدور فى الحادية عشرة فهيا إلى الوزارة لاحضار المرتبات ...

حقاً إن اليوم يوم المرتبات ، ينتظره آلاف غيره بفارغ الصبر فكيف نسى هذا ؟ وخرج متثاقلا مهموماً يولى وجهه شطر الوزارة ؛ وعلى حين فجأة وبتدبير تمهيد واع اصطدم فكره الشارد المتوزع فى محيط الشقاء بفكرة وامضة ، فتنبهت حواسه ، وشع من عينيه بريق خاطف ، وأحاط به الرعب الذى مسه حين التقت عيناه بعينى المعرضة فى بيت عمته بالأمس القريب . لاحت له هذه الفكرة فى لحظة سريعة جنونية ، رآها كمن يفتح عينين ناعستين فى الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى ، يهدد ثانية ثم يختفى تاركا خلفه الصرع والجنون . وقد جن بغير شك ، واستولت عليه الفكرة بقوة مارد مستبد . أى رعب ، أى شر ، أى مصيبة ، أى نجاة ، أى فكرة نيرة ، أى خلاص ، أى دمار ، أى هول ، انها تحمل جميع هذه المتناقضات إلى نفسه المضطربة المريضة ، وإن من اليأس ما يعجز عن قلقلة ذرة من الرمال ومنه ما يزحزح الجبال ،

2017-11-11

وقد جرى منطقه المحموم فى طريق ذى عوج : إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفض والسجن ، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفض ولا من السجن ... إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف ، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينفذ تجارته فيضمن لأسرته — وأسرته هى قطب تفكيره — حياة رغدة سعيدة ، بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم وعباً ، إنه ينوى أن يراود المرضة — بسلطان المال — على ... ! : حقاً إن هذا فظيع مخيف ... ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة ، التى تقع من حياته موقع الزائدة الدودية الملتهبة ... حقاً إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الانسانية ... ونفاذها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه . وهب أن المرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضيره إياؤها شيئاً ، وتبقى بعد هذا تجارته ، وهذا شىء مؤكد . نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات قلائل يقضيها — مع الاطمئنان على أسرته — صابراً ويخرج بعدها كى يتمتع بعيشة هانئة ثرية فى مكان سحيق ... كل هذا واضح بيّن ولا بد من تنفيذه بدقائقه ، وليكن بعده ما يكون ...

واستلم المال واستقل « تاكسى » وقال للسائق بصوت حاول ما استطاع أن يجعله هادئاً : إلى شارع محمد على . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد منسماً للتفكير والتدبير ، كم هو مرتعب خائف ، إن أسنانه تصطك ، وأطرافه تتنفض ، وأجفان عينيه تتصلب ، وريقه يجف ، وأنفاسه تبطىء وتتقل كأن يداً جبارة تخنقه

ووصلت السيارة إلى شارع محمد على ، ولو لم تصل إليه أبداً . وكان قد دبر الأمر كله فى عقله ولكنه شعر فى تلك اللحظة بأنه فى حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه كأنه لم يطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة ، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها ، رباه ! لقد أرعبه مشهد الشرطى وأثلج دمه فى عروقه ، وهم أن يأمر السائق بالرجوع ... وعلى حين فجأة سمع صوتاً ينادى قائلاً :

— بابا ...

فالتفت مذعوراً فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة ، ووجهها الجميل قريب منه ، وكانت تمسك بحقيبتها فى يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أبيها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة ، فمنعها بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :

— لم أنت هنا ؟

— أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائى وذاهبة إلى المدرسة

— حسن ... حسن ... هيا إلى المدرسة بسرعة لئلا تتأخرى

— انتظر ، عندي لك خبر سار ... هل تشترى لى شيكولاته نسله إذا قلته لك ؟

— ليس الآن ... هيا ... هيا ...

— عمتى ...

— فجمد لسانه فى فمه ونظر إليها نظرة غريبة ففرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :

— ماتت

— ماتت عمتك ! !

2017-11-11

فرت هذه العبارة من فمه فى صراخ مدوٍ ... فازداد فرح الفتاة وقالت :

نعم ... هذا ماقالته لى حميدة « الخادمة » لما سألتها عن تغيب ماما على غير عادتها

وصرف زوزو بعد أن وعدها خيراً وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة ، نعم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقيها . لقد أناله الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه فى الهاوية ، أنقذ من الافلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . وياه ! انه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبداً وما كان فى مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدّر هذه النهاية أو يحلم بها ... فالحمد لله ... الحمد لله ...

وانصرف من المدرسة سريعاً قاصداً بيت «المرحومة» ووجده كما تعود أن يراه هادئاً ساكناً لاصوت ولا نحيب . فطرق الباب ثم دخل ، وقابلته المرضة وكانت محافظة — برغم كل شىء — على هدوئها ، وقد سألته منكرة :

— أجئت مرة أخرى ؟

فنظر إليها دهشاً وقال :

— ما أغرب سؤالك ... ألست على كل حال ابن أختها !

واجتاز بها مسرعاً إلى حجرة النوفاة ... فرآها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين ، بل رآها — وهو الأدهى — تنتصب قاعدة وتشير إليه بيدها العنيفة مهددة وتصيح فى وجهه :

— كيف تجرؤ ؟ كيف تتجاسر ؟ ألم أطردك طردا ؟ أخرج ... أغرب عن وجهى ...

والظاهر أن المرأة تأثرت من الغضب الذى تملكها فجأة فسقطت على الخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوتاً جامداً كالتمثال ، ذاهلاً لا يستطيع كلاماً ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد المرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائعاً وغادر البيت دون أن يتبين بنت شفة

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مسدول عليه ، وكان البيت يخيم عليه السكون — كعادته — إذ الأولاد فى المدرسة ، فظنت زوجه لأول وهلة أنه آب من مكان عمله كعادته اليومية ، ولكنها مالبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتملكها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله أناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ؛ وفزعت إلى سؤاله وهى أكره ما تكون للسؤال :

— ما بالك ؟

فسألها بدوره باستعاض :

— أين زوزو ؟

— لعلها فى الطريق إلى البيت ...

فصاح بغضب :

— هذه الطفلة الشريرة !

— زوزو شريرة ؟

— قابلتنى فى الطريق منذ ساعتين وكذبت علىّ الشيطانة قائلة إن عمتى ماتت

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة :

— كيف تجرؤ ؟ من أين لها هذا الكذب ؟ هذا أمر عجيب .. بل إنه أعجب شىء أسمعه فى حياتى..

2017-11-11

لعل البنت وهى تسمعنا دائماً نتمنى على الله موت عمتك — أرادت ... »

وأتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو . وما إن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه ثم قالت وهى لا تكف عن الضحك :

— هل اشتريت لى الشيكولاته كما وعدت ؟

فنزع يدها الصغيرة عن رقبته بشىء من العنف ، وحدجها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره :

— كيف تكذبين علىّ ؟

فقالت وهى لا تكف عن الضحك وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاته :

— فى أى يوم نحن ؟

— إنى أسألك كيف تكذبين علىّ ؟

— اليوم أول أبريل . . . وقد علمت أنه يجب على الناس أن يكذبوا فيه .. وهكذا قالت لى بثينة ، وقد سألت (أبله) فأمنت على ماقالت بثينة ، ولكنها تبهت علىّ أن أختار كذبة سارة كى لا أوذى أحداً ... وقد اخترت لك أحسن كذبة ! »

فقطب وجهه وقال لها بشدة :

— لعنة الله عليك وعلى أول أبريل ... هل يصدق الناس طول العام كى يلهوا بالكذب فى أول أبريل ! ... »

وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقاً ، وأنها فقدت كل الأمل فى الشيكولاته ، فكفت عن الضحك وعلا محياها الارتباك ، واحمرت وجنتاها من الخجل ، ونظرت إلى أمها تستغيث بها . أما أبوها فقد قام متثاقلاً ودلف إلى حجرته حزيناً كئيباً ينوء بالهم والفكر ، ولحقت به زوجه وانتبذت ركناً من الحجرة فى صمت ووجوم ووقفت ترمقه بعينين كئيبتين وقلبها يحدثها بدنو شر مستطير ، ولكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الثقيل . انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وآذن الخراب بالوقوع

هل ينتحر ويضع حداً لهذه الحياة القلقة المنغصة ؟ لقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة ، ولكنه تغلب عليها وفندها قائلاً لنفسه : « إذا انتحرت فمن للأولاد ؟ ... » ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم المقادير

وظل الصمت مخيماً يزهق النفوس ، والمرأة واقفة حيث هى ، وهو قاعد على الكنبة مسنداً رأسه إلى كفيه ، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عيناها تدوران بين والديها ، ثم ارتدت مسرعة ، فارة مضطربة

ولبثا على حالهما لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد ، وهم يدخلون واحداً واحداً يتقدمهم ضجيجهم وجلبتهم ، وقد دبت الحياة فى البيت وتحول فى ثانية إلى سوق ، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك ، وسمعت أصوات تنادى ، وأخرى تسب وتلعن ، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية ، ورابعة تسأل عن ماما وبابا . ثم طرق الباب مرة أخرى بعنف ، ودخل شخص ما ، وساد صمت عجيب . ترى من القادم ؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل فى جلسته ، وعيناه تتساءلان ، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط ساعقة ... ورأى حسيناً يدخل مسرعاً وسمعه يقول باضطراب :

2017-11-11

بابا ... يقولون إن عمتي توفيت ...

فقام الرجل كالمجنون وحدج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن :

حضرت المرضة الآن حاملة هذا الخبر ... وها هي ذي واقفة تسأل عنك ... تفضل إلى هنا يا سيدتي ...

في ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم — يوم أول أبريل — جلس علي افندي إلى جانب زوجه وكانت ما تزال في ثوب الحداد وقد أوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت . كانت المرأة صامتة ولكن كان وجهها راضياً مطمئناً وبالها مستريحاً وقد ولى عنها الدهر الذي لازمها أياماً طالما دهراً طويلا

وكان علي افندي يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعي ، وإذا به يرى ساعة تنقض على المكان الذي كان يشغل ... قد كان السجن والرفض والدمار منه قاب قوسين أو أدنى ؛ وهاهو ذا يطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمناً بمنجاة من كل دمار ، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة ، فكم بالحياة من معجزات!

وعلى رغم كل هذا لم يكن سعيداً تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر في تأملات عميقة . لقد عاش طول عمره حياة راكده راتبة ؛ أما الساعات القلائل — القلائل !! — الأخيرة فقد ابتلي فيها بما لم يبتل به في عمره الطويل المديد إذ أثارت نفسه عقله وجعلت من بحيرة نفسه الآسنة محيطاً مضطرباً عاصفاً

لقد خلصه الله من العذاب ، ولكن هل يستحق الخلاص وهو الآثم الشرير الذي هم أن يقارف السرقة والقتل ؟ ثم عمته المرحومة ؟ إنه يدرك حالها الآن بغير العقل الذي كان يصورها له ويعطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سيين ، فقد عاشت بائسة حزينة تجتر الهموم والآلام ، وكانت حياتها فرضاً ثقيلاً عليها وعلى الآخرين . نعم كانت قاسية شديدة ، فوق كل احتمال ، ومع هذا فكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت ؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة ؟ أليس هو في أعماقه قاتلا سارقاً مدلساً ؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتتعدد فتكوّن عالم الناس ... ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هذا الشر غالباً ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس ، كما انكشف شذوذ عمته عن ترمل وتكل ، وكما ينكشف تخبطه وسوء نواياه عن عبقة فاقة لأبنائه الأبرياء ، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته ، والرحمة أسمى حلم في الوجود ، ولكنه لا يستطيع أن ينسى أيضاً أنها سبقت هنا بكذبة ابنته وموت عمته ، فكيف يكون الموت والكذب من معهدات الرحمة ؟

حقاً إنه مهما ادعى التأمل فسيبقى أمامه ما يعجز عقله ويربكه . وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذي تبسمه مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين ، ولقد ضاق صدره وأرقه السهاد فهتف من أعماقه :

— من لي بزوزو الآن ؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرتها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عني أفكار هذا الليل وتسكب في قلبي الطمأنينة والسلام ...

نجيب محفوظ

معناه البرد







"أسبرو" يمنع البرد لأنه يزيل أسبابه

ويضاهر البرد

اذا اردت ان تقضي الاعراض المضرة للبرد

اصبحت الى الدرجة الكبيرة وكلمة "أسبرو" هو الدواء الوحيد الذي يحل محل الذي عشرة دواء لانه يزيل الاسباب التي تنبه البرد. ويصور السبب في الجهاز الهاضم للعادة الذي يقاوم "أسبرو" في مكافحة وباء البرد يزيل الأمراض الطاهرة بحضور في السبب الاصلي للمرض فيزيل البرد والحمى البسيطة ويشفي اوجاع الرأس الوقتية ويخفض الحمى في البداية وهذه. وبعد الواضح اذن اذا كان "أسبرو" يستطيع ان يزيل كل هذه العلامات فهذا يعني انه يستطيع ان يشفي اوجاع الرأس والحمى وآلام الروماتزم وغيرها من الامراض التي يسببها البرد.

وبعد الهام: لا يضر القلب ولا المعدة ويعطى نتائج عالية في البرد والانفلونزا. فمنه قرصتين مع شراب الليمون قبل النوم فقد تجنبا الانفلونزا والحمى البسيطة

"أسبرو" هو الدواء العالمي

ضد الانفلونزا
البرد
الروماتزم
الارق
الصداع
التعب العصبي
الحمى
ولا يضر القلب
ولا المعدة

ASPRO
REGISTRÉE MARQUE

يباع في جميع الصيدليات والمخازن الكبرى بالاسعار:

٢ قرشان | ١٠ مليمات | ٥ اقراص | ٢½ قرشا | ٢٧ قرصا | ٥ قروش

الوكلاء ج. ب. شريدان وشركاه

55

بسمة الجيوكندا

لكاتب الانكليزي الدوس هكسلي

بقلم الأديب حسن حبشي

— ١ —

أقبلت خادمه الحسناء جانيت تعلن لمستر هتن قدوم سيدتها بقولها :

— ها هي ذي مس اسبنس قادمة على أثري ياسيدي

— شكراً لك

بهذه الاجابة المختصرة أجاب مستر (هتن) دون أن يلتفت لخادمه جانيت اسبنس التي ارتسمت على وجهها أمارات القبح الدّال على خبث الطبع ولؤم السريرة ، فلا جرم أن كان مستر هتن شديد العزوف عن التطلع إلى وجهها إلا إذا أرغمته الظروف على ذلك . وأغلق الباب ، فظل هتن وحيداً ، فأخذ يذرع أرجاء الغرفة جيئةً وذهاباً ، متأملاً بعينين نفاذتين ما تحويه من نفم المتاع وفاخر الرياش

كانت هناك صور من زخارف اليونان وأخرى من معارض الرومان ، ورسوم ملونة من أروع ماخطته يد التليان ؛ يتطق فيها بقيمتها وثمنها ؛ أما جانيت مبنس فقد كانت فتاة عاملة صريحة ، ذكية الفؤاد ، ذات ميل للفن وذوق رفيع ، وقد أكسبها ذلك معرفتها بفنان بارع ، ليس له من مأوى غير أفاريز الطرق ، رسم لها صورة رائعة ، ولم يتناول عليها أجراً سوى نصف جنيه ، على حين قد دفعت هي خمسة وثلاثين شلناً ثمناً للإطار وحده . لذلك طالما سمعها (هتن) تشيد بذكر هذه القصة . وكم كانت تتالى في ذكر تقليده رسومها الزيتية قائلة بمل فيها : « فنان من الطراز الأول لا يأويه غير الشارع ! »

وكان الحرف الأول من كلمة « فنان » يبدو واضحاً جلياً أثناء كلامها . وإنه ليخيل إليك وأنت تسمعها تتحدث عنه ، أنها قد نالت حظاً من عظمته بنصف جنيه قدمته أجراً له على محاكاته صورتها ؛ ولم تكن تنسى أن تثني على حسن ذوقها وعمق بصيرتها ، فما أزهد الدهر في مثل هذا الفنان ! وما أسعد جانيت العزيزة بما نالته من الأيام !

وقف هتن أمام مرآة مستطيلة مائلاً إليها بصدره قليلا ، ليملأ نظره من ملامح وجهه ، ثم أمرّ أصبعاً لينا على شاربه الأصفر المجعد ، كأنما مرت عليه عشرون سنة ، بينما ظل شاربه حافظاً للونه ، لايظهر فيه أثر للصلع إلا في مقدمة رأسه كأنها رأس « شكسبير » كما قال حينما رأى صقالها واتساعها فوق جبهته . وكان يقول « إن كثيراً من الناس في انتظار سؤالنا من غير سلطان عليهم ، وآخرون غيرهم على نحوهم فوق البحار ، فيالها من عظمة تزري بعظمة شكسبير حتى ولو كان معاصري اليوم ، بل

2017-11-11

قلّ عظمة « ملتن » أليس كذلك ؟ ملتن ؟ لا بل عظمة عذراء المسيح ! »

وكان النساء يسمينه « فتى الرجولة » فلا عجب أن أحبّتْـه ؛ وخاصة لأجل شاربه الأصفر وطباقه العطر

تبسم هتن ثانية ، وأخذ يتسلى بمداعبة نفسه قائلاً : «أرأني قد بلغتُ عظمة عذراء المسيح ؟ لا لا ! بل مسيح المذارى ! حسن جداً : مسيح المذارى » وودّ إذْ ذاك لو ألفى حوله من يستمع إليه ثم قال : « وا أسفاه ! إن لم تقدّر شأني جانيت ! »

وانتصب بعد ذلك قائماً ، ومسح رأسه بيده ، ثم عاد إلى تطوافه فى الغرفة متأففاً من المناظر الرومانية لخلوها من مناظر البهجة والسرور ؛ وفجأة حك الشك فى صدره مخافة أن تكون جانيت واقفة على باب الغرفة تسمع مايقول ، فهبّ مبمماً شطر الباب ، حتى ليخيّل للرائى حين ذاك أن مستر هتن قادم على عمل إجرامى ، إذ أن صدور مثل هذه الحركات الصامتة كان يثير الريبة فى النفوس ؛ وتواردت الخواطر على ذهنه تباعاً مخافة أن تكون قد سمحت كل حديثه وشاهدت حركاته وما كان منه أمام المرآة ، ثم قال على حدة : « كلا إن هذا بعيد الوقوع » بيد أن هذا لم يذهب روعه

والتفت فرآها ، فذهب نحوها مبتسما ، مادّاً يده لمصافحتها قائلاً :

— أى جانيت ! لقد ملأتنى عجباً ودهشة

فتبسمت هى الأخرى أيضاً ابتسامة الجيوكوندا — وكان يدعوها بذلك فى لحظات الدعابة والجنون — وإذ كانت جانيت قد اعتقدت فى نفسها تلك الصفة ، فقد حاولت أن تحيا وفق حياة « ليوناردو فنشى » ، وكانت إذا صافحت مستر هتن ، ابتسمت له فى سكون وهدوء كما هو شأن الجيوكوندا . . . ثم عاد هتن يقول :

— آمل أن تكونى بخير كما أتوسم

وإذ ذاك لاحت دلائل الدهشة واضحة على جبينها ... كان لها ثم صغير تضمه إلى الأمام فيشيه المنقار الدقيق وله فتحة صغيرة فى وسطه ، كأنما هيئت للصغير فكان أشبه شىء بشباة القلم تُرى من الأمام ، ويعلو الفم أنف جميل كأنه سطر بديع مستقيم ، وركّبتْ أعلاه عينان وحاجبان ، وكان يخيل لناظرهما أن بهما انتفاخاً واحتقاناً ، ولكنهما جميلتان أخاذتان ، يظللهما حاجبان مقوّسان كأنهما خطان أسودان ، يزيدان جمالها هيبة وجلالاً ، ويكسو رأسها شعر فاحم رومانىّ أشبه بحاجبيها ، فكأنها غادة رومانية

أخذ هتن فى حديثه فقال :

— أحسبنى قد ظفرت بمنم فى طريقى إلى البيت ، وإنه ليحسن بى أن أعود إلى هنا ثانياً ، ثم أخذ يلوّح بيده مشيراً إلى أمس الزهر وأشعة الشمس وما تحت النوافذ من مروج سندسية ثم قال :

— أجل ! يحسن بى أن أعود إلى الريف بعد قضاء سحابة النهار فى المدينة

ثم أشارت إليه جانيت ليجلس على كرسى بجوارها ، ولكنه أبى وامتنع قائلاً :

— حقّا إننى لا أستطيع الجلوس ، إذ أرانى مضطرًّا للعودة لأرى ما آل إليه حال « إميلى » لأنها كانت متوعكة المزاج بالأمس

لكنه جلس مواصلاً حديثه فقال :

2017-11-11

— نعم إنها مصابة بيرد الكبد الذى كثيراً ما يعاودها ، ورأيى فى الداء ...

ثم سكت فجأة ، متصنعاً السعال رغبة منه فى إخفاء حقيقة سبقه لسانه بالتلميح إليها ، وكاد أن يزل فيذكرها ... كان يريد أن يقول : « إن النساء ضعيفات الجهاز الهضمى ، وأولى بهن ألا يتزوجن » بيد أن الإشارة كانت قاسية ، وما كان هذا الرأى صادراً منه عن عقيدة . ولكن جانيت كانت فتاة ذكية ، وتصرف ما بينه وبين إميلى زوجته ، ثم قال هنن :

— إن إميلى تودّ أن تعافى لتراك على مائدة الإفطار غداً ، فهل لك أن تأتى ؟ ثم تبسم قائلاً :

— وإنى لأوجه إليك الدعوة ، فاعلمى هذا

فأطأطأت جانيت رأسها خجلاً ، فانتهز « هنن » رؤية احمرار خدّيها ، وعد ذلك غنماً جليلاً ، ثم مسح شاربه ، فقالت :

— فى نيتى الحضور لو كنت على ثقة بأن صحة « إميلى » ستمكنها من لقائنا

— أجل إن فى قدومك خيراً عليها بل علينا جميعاً ، ولثلاثة فى الحياة الزوجية أفضل عشرة من اثنين

— صه : ما أشبه قولك بهواء الكلاب !

حقاً ما كان أسرع هنن إلى الهواء خصوصاً عند سماعه الكلمة الأخيرة ، فلشد ما كانت تثيره أكثر من أى كلمة أخرى . غير أنه خالف سنته هذه المرة ، فبدل أن يسوى أخذ يعارض قائلا :

لا : لا ! إنما أقول الصدق ولو كان مرّا ، وكما تعلمين لا تأتى الحقيقة مطابقة للخيال فى كل حين ، وإن كان ذلك لا يضعف من ثقتى فى الخيال الذى أومن به بقوة ؛ وخاصة الخيال المترتب على عقد زوجية بضم خلين متآلفين ، وأكبر ظنى إذ ذاك أنه أقرب إلى التحقيق ، بل أؤكد ذلك

وقف « هنن » متأملاً فيها ينظر إليها نظر المستريب قائلاً لنفسه :

— عذراء فى السادسة والثلاثين ولا تزال غضة حافظة لجمالها ! لا بد من شىء خفىّ يحوم حولها

غير أن جانيت لم تجب على ذلك بحرف واحد ، بل ظلّت مبتسمة ، وكثيراً ما كانت ابتسامتها الصامتة تملأ صدره غيظاً ، ثم نهض قائماً وقال :

— الآن حان وقت الذهاب ، فوداعاً أيتها الجيوكوندا الساحرة !

بيد أن الابتسامة استحالت دهشة أطلت من فتحة ضيقة من بين شفتيها ، حينذاك انحنى هنن انحناءة فنية ثم قبّل أناملها المبسوطة ، وكانت هذه أول مرة نال فيها ذلك الغنم العظيم الذى لم يقابل من ناحيتها بامتعاض ، مما شجعه على أن يقول لها :

— إنى لأنظر إلى الغد بأمل فيك كبير

أحقاً ما تقول ؟

ولم يكن جوابه حينذاك إلا أن طبع على يدها قبلة أخرى ، ثم استدار ناحية الباب ، فرافقته إليه سائلة إياه : أين عربتك ؟

— تركتها عند مبدأ الطريق

— سأصحبك إليها

— لا لا ! ليس لك أن تأتى شيئاً من ذلك ، وأسارحك القول إنى أحتج على ذلك . لكنها فاجأته بيسمة الجيوكوندا ، ثم عارضته فى كلامه قائلة : « لقد عزمت على المجىء » فرفع هنن إذ ذاك

2017-11-11

يده مظهراً عدم رضاه ، وبحركة غريبة قبّل يدها قبلة الوداع ثم شرع يجرى فى الطريق على أطراف أصابعه بخطوات واسعة أشبه بالصبيان ، وكم كان معجباً بهذه المشية الغريبة ، لكن سره أن المرحلة ليست طويلة ، وعند آخر خطوة ، وقبل أن يتوارى عند منعطف الطريق ، وقبل أن يتوارى البيت عن أنظاره التفت خلفه ، فأبصر جانيت لمّا تزل واقفة على الدّرج ، وابتسامتها لم تزايل شفتيها ، فأشار إليها إشارة الوداع ، وبث إليها مع الريح قبلة رن صداها قوياً ، ثم عاد إلى وثبه العجيب . وما لبث أن دار حول آخر دوحة عالية ، وترك الوثب جانباً وعاد يمشى كعادته ، وتناول منديله ومسح به رقبته وباقته وهو يقول فى نفسه : « ما أعظم هذا الجهل ، وأشد شينه ! أما على الأرض شبيه لجانيت العزيزة ؟ أجل ليس عليها إلاّ هى

والحق أنه كان أعظم جهلاً ، حينما كان يحس بجهله ، ويأبى إلاّ أن يمعن فيه

وانتهى إلى حيث تقف عربته الفاخرة ، فقال للسائق وقد أخذ مكانه فى العربة « هيا إلى البيت رأساً يا مسترنايب ، وقف عند كل تقاطع كما هى العادة » ثم جذب باب العربة وأقبل على الوحشة التى كانت تعمّ داخلها

ولكن ما لبث أن سمع من الداخل صوتاً رقيقاً واضحاً يقول له :

— ماذا أيها الدب العظيم ؟ كم لبثت من عمرك؟

غير أن مخارج الحروف لم تكن تصل إلى سمعه جيداً ، فانحنى بجسمه الضخم ، واتخذ مكانه فى العربة كما يفعل الحيوان حين يباغت فيهرول إلى جحره ، وما إن أغلق الباب وأخذت العربة تشق طريقها حتى قال :

— تسألينى كم عمرى ؟ لعلك تتفضلين منه لو وجدته كثيراً !

ثم أسند ظهره إلى مقعد منخفض وقد احتوشه الدفء من كل جانب ، وأطل بجانبه رأس صغير ذو وجه باش يتنهّد تنهّد السالم المطمئن ويقول : « ما أعظمك من دب ! » فالتفت هتن بنفس مُلؤُها الانفعال إلى ذلك الوجه الصغير الذى يجاوره ويحاوره ، ثم أمرّ أصابعه خلال خصلات من الشعر المطرقائلاً :

— أتعلمين يا دوريس أنك أشبه شىء بصورة لورد دى كروّاى ؟

— ومن هى لورد دى كروای هذه ؟ وما شأنها ؟

وحينذاك غمر (هتن) وجه الفتاة دوريس بسيل من القبل ، والسيارة مجدة فى اختراق طريقها ولاح لها ظهر السائق كسد حجرى أو ظهر تمثال وإذ ذاك قالت لهتن :

— أسألك ألاّ تمسنى بيديك فإنهما يحدثان فى نفسى تأثيرات كهربائية . فزاد ذلك من إحساسه وشعوره ، ثم قال وقد جذبه صوتها الحنون وجسدها الأملس :

— وهل حدث فى حياة امرئ أن اكتشف مافى جسمه ؟ إن الكهربائية ليست فىّ بل فيك أنت ... آه ... دوريس ... دوريس ...

وكان يمطرها بقبلاته الحارّة ، وغمرت قبلاته عنقها الفضى الجميل الذى أسلمته إياه فى استسلام وسكون ، ثم تذكر حينذاك دودة البحر ذات الفراء الحريرى الخاص ؛ ثم أكد لنفسه أنه لابد ذاهب إلى نابل ليرى الحيوانات ذات الأصداف العجيبة الحلقة ، فقال له :

— أيها الدبّ العظيم المغرم بعلم الحيوان . إنها

حيوانات بريئة فما أعجب تكاتك ، لقد عظم سروري الآن

— وإني لجد مسرور مثلك . أليس كذلك ؟

— بودّي لو أعرف الحقيقة ، أخبرني أحقاً ترى ذلك أم باطلاً ؟

— واهاً لك ياعزيزتي ، إن طلبك هذا عسير . لقد قضيت ثلاثين عاماً في البحث عنه ولا أزال

— إنما أحب الجدّ والصراحة أيها الدب العظيم ، أود لو أعرف صحة هذا الأمر فإن يكن صواباً فسأبقى معك بنيم كلانا بحب الآخر ، ويكون في ذلك ما يمت فيّ تأثيرك الكهربائي عندما تمسني يداك

— تريدين الحق ؟ لك ما شئت ، وإنه لمن الخير أن توجد فيك تأثيرات كهربائية فوق ما عرفنا في الطبائع البشرية . إذن دونك كتابات « فرويد » إقرأيها وستجدين أن ذلك خزعبلات شيطانية .

— واهاً لك : لقد أحجمت عن مساعدتي ، فما يمنعك من سلوك سبيل الجد ؟ هل سبب ذلك أنك تعلم ما أكون فيه من الشقاء متى عرفت أن ذلك غير صحيح ؟ لعلك تعلم أن هناك جهنم وما شاكل ذلك من معتقدات ، أما أنا فقد حرمت في أسرتي ، وأحياناً أرى أنه خليق بي أن أدع حبك جانبا

— وهل يسمك ذلك ؟

— لا ، لا أستطيع ذلك كما تعلم ، غير أنه في مكنتي أن أفرّ من أمامك وأخفي نفسي عنك ، وأغلق دونها الأبواب ، وأرغما ألاّ تعود إليك

— فضمها إلى صدره وقال : ما أعجب شأنك أيها الصغيرة الغافلة !!

— آه ياعزيزي ، أود أن يكون ما أسألك عنه صحيحاً وألا يكون هناك ما يكدر خاطري وقتاً ما

وإذ ذاك أخذته الشفقة على هذه المخلوقة وتأثرت نفسه لهذه المسكينة ، ووضع خدّه على شعرها . وهكذا التفّ بعضهما ببعض ، بينما العربة آخذة في قطع الطريق ، وشقّ غباره ثم وقفت بهما عند أحد الأعمدة وترجلت دوريس ، أما هو فقد بقي في مكانه وودّعها قائلاً :

— في رعاية الله أيتها العزيزة !!

ثم انطلقت العربة بكل قوتها ، حتى اختفت في منعطف الطريق تاركة وراءها دوريس الجميلة ، خائرة القوى مشتتة الفكر من أثر رقة تلك القبل ، والشعور الكهربائي الساري فيها من أثر مسّ يديه القويتين . ثم أخذت تتنفس الصعداء لتروّح عن نفسها عناء الفكر ، حتى إذا استجمعت قواها أخذت طريقها إلى البيت وقد سارت نصف ميل وهي تفكر في حيلة كاذبة تنفعها وتدفع بها أسئلة أهل المنزل عن سرّ تأخرها حتى ذلك الوقت

أما هتن فقد ظل وحيداً في العربة

— ٢ —

كان مستر (هتن) جالساً على أريكة في صالون السيدات يلعب الورق . وبالرغم من أن حرارة الجو كانت شديدة في مساء ذلك اليوم من أيام يوليو فقد سجر التنور بنار متأججة وتعدّد أمام الموقد كلب « بومبراني » خدرته الحرارة وأخذه سوء الهضم والمدة الكتيفة ، فأغمض ... وشمر مستر هتن بارتفاع الحرارة فقال في تأفف وضجر

— أليس الحر شديداً هنا ؟

فأجابه صوت ضعيف النبرات لينها ، هو صوت زوجته « إميلي » تقول :

— لقد علمتَ أنه لا بد لى من مكان دافىء ، حتى تذهب الرعدة التى تسرى فى أوصال جسمى والرعشة التى ترتجف تحتها

— آمل أن تكونى أحسن صحة هذه الليلة !

— لقد أخذت العافية تدب قليلا فى جسدى ، بيْد أن الشك ما زال يقض مضجعى . وصمت كل منهما وانتصب (هنن) واقفاً على قدميه ، مستداً ظهره إلى مظلة فوق الموقد ، ثم نظر إلى الكلب الجاثم عند قدميه ، وأخذ يقلّبه وبداعبه بمقدم حذائه ، ويمسح صدره الأرقط وبطنه ، ثم عاد إلى اللعب . وإذ كاد ينتصر على إميلي أخذت هذه ورقةً فانحاز النصر إلى جانبها بعد أن كاد يولّى عنها ثم قالت :

— يظن الدكتور لبارد أنه من المحتم علىّ أن أذهب إلى (اللاَّ نردود ويلز) هذ الصيف !

— حسن ! فلتذهبى يا عزيزتى كيفما شئتِ

ثم أخذ مستر هنن يفكّر فى حوادث المساء وكيف قطع الطريق هو ودوريس وقد تركا العربة فى انتظارهما عند الغابة ذات الأشجار الكثيفة ؛ ثم قالت إميلي :

— الآن سأشرب جرعة من الماء لأطفىء اللهب المتّقد فى كبدى وإن كان الطبيب يحتم علىّ فى تقريره أنْ أشرب الدواء ، وإجراء بعض العلاجات الكهربائية أيضاً . وكانت إميلي ممسكة بقبعتها ، ومن ثم أخذت تجري خلف أربع فراشات زرق ، كنّ يرفرفن فوق بعض الزهور بحالة تشبه اهتزاز اللهب الأزرق ، وإن كان اللهب يفنى ؛ حتى إذا أمسكتها ضحكت وصاحت كما يصيح الأطفال سروراً ، ثم قال هنن لأميلى :

— أؤكد لك أن صحتك تتحسن يا عزيزتى

— ولكنى فى شك من مجيئك معي يا صديقى

— إنك تعلمين أنى ذاهب إلى اسكتلندا فى أواخر هذا الشهر !

وأخذ هنن ينظر إليها نظرة المؤمل المستعطف ، ولكنها بدّدت هذا السكون بقولها :

— إن التفكير فى مثل هذه الرحلة أشبه بالحلم الرّقاق يهوّم بالأذهان وهى فى سكرة النعاس وذهوله . ولست على ثقة مما إذا كان فى وسعى أن أقوم بها ، ولا يخفى عليك أنى لا أستطيع النوم فى الفنادق فضلاً مما أحمل من متاع ، وما أتكبد من آلام ... الحق أنى لا أقوى على السفر وحدى

— لكنك لن تكونى بمفردك ، إذ سوف تصحبك وصيفتك !

ثم صمت وتذكر كيف أنه تزوجها صحيحة فأصبحت مريضة ، وهكذا أخذت النسوة المريضات يحللن محل المتعافيات ، مما حدا به أن يتذكر أشعة الشمس الجميلة والفتاة اللعوب ، وما تبدلت إليه حالها حتى صارت محمومة قابعة فى غرفتها تئن وتتضجّر ثم قالت إميلي :

— أغلب ظنى أنى لا أستطيع الذهاب

— ولكن إطاعة الطبيب فرض واجب ، ولعلّ الانتقال يكسبك الصحة والنقاهة ؟

— ما أبعد ذلك عن ظنى ! !

— إنها كلمة الطبيب (لبارد) وهو عليم بما يقول !

— لا ! لا أقوى على تحمل ذلك فإنى ضعيفة

جداً ولست أحتمل الذهاب وحدى .

— إن كل ما تقولين لغو لا جدوى وراءه ، ولا بد من تحمل هذه المتاعب إن كان ثم متاعب

— خير لى أن أبقى هنا آمنة مطمئنة حتى أموت

حينئذ تأوّه هتن تأوّهاً مراً وتضرع قائلاً :

— أى ربّ رحماك رفقاً بنا وسمعاً لشكاتنا مَنّاً منك . ما حيلة المرء إزاء ما تأتى به الظروف ؟ ثم هنّ كتفيه وغادر الغرفة

ولكنه أخذ يحاسب نفسه مخافة أن يكون قد أساء التصرف ، أو ندّت منه كلمات جارحة لشعورها ؛ فقد كان فى إبان شبابه لا يشعر بعطف أو رحمة نحو الضعفاء والمرضى وذوى العاهات فحسب ، بل كان يكرههم ويعافهم ، وكان ذلك نتيجة ذهابه ذات مرة فى رحلة إلى الطوف الشرقى عاد بعدها مملوءاً بكراهية عميقة لا يمكن اقتلاعها . وبالرغم من أنه كان يعلم بادئ ذى بدء أن هذا الأمر جدّ عسير ، إلا أنه أخذ بمضى الزمن يطمئن إليه ، وترتاح له نفسه ، فأصبح لا يشعر بوخز الضمير ، بل غدا ذلك سجيّةً فيه وطبعاً . . . لقد كانت (إميلى) صحيحة حسناء عند اقترانه بها ، وقد بادلها الحب إذ ذاك ، لكن ما باله الآن يعد نفسه غير مسؤول عما آل إليه أمرها ؟ . تناول هتن الغداء بمفرده فأثر الجوّ فى نفسه ، وإذا ثورته تنقلب هدوءاً أو ما هو أشبه بالهدوء ، ولكى يكفّر عن الهجر الذى بدر منه دخل غرفة زوجته واستأذنها ، وكانت دلائل التوبة والندم واضحةً على محياه وتكاد تنطق بها عيناه ، وسألها أن يقرأ لها فأذنت شاكرة له طيب نفسه ، فاقترح أن يقرأ لها بالفرنسية فرضيت وقالت له : « تريد التحدث إلىّ بالفرنسية ؟ ما أحبها إلىّ ! » وكانت تفخر بأنها لغة « راسين » التى تحبها كما تحب طعام الفاصوليا

حينئذ أسرع (هتن) إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفر وشرع يقرأ لها فيه . ولقد أولى النطق ومخارج الأصوات كل عنايته واهتمامه حتى كان موضع الاعجاب وحتى كان لحسن نطقه أثر بالغ فى إلياس القصة التى كان يقرؤها تواً وتواً . وما أتم خمس عشرة صفحة حتى طن فى أذنه صوت كأنه حشرجة النفس ، فالتفت صوب زوجته فرآها قد أسلمت نفسها للسبات العميق ، فلبث برهة يرقب ذلك الوجه المسجّى وقد عربه دهشة خفيفة ... لقد كانت جميلة فى فجر حياتها ، فلم يكن ليتطلّع إليها إلا وهو يشعر بها للحسن الرقاق تحيط بهذا الجمال الفاتن ، أما الآن فقد تبدل كل شىء ، ودب المرض فى أوصالها حتى هزلت وصارت أشبه بالموتى ، وتجمد جلدها الأملس فوق عظام خدها البارزة وأرنبة أنفها المحدودب ، وغارت عيناها فى محاجرها العميقة ، وحينذاك ألفى الصباح ضوءه على جبينها الشاحب فتبين (هتن) ما فيه من تجاعيد وأخاديد ، حتى لا يشك من رآه فى أنه وجه ميت ، فأخذته حينذاك رعدة تمشت فى جسده ، وخطا على أطراف أصابعه وغادر الغرفة

وفى اليوم التالى نزل هتن إلى غرفة الطعام حيث كانت زوجته قد استردت بعض صحتها المفهوم كإثر نوبة أصابتها فى الليل ، اشتد فيها خفقان القلب . تحملت إميلى رغم قوتها ومضت لتشترك فى إكرام ضيفتها « جانيت اسبنس » ، وسمحت اهتمامها بأمر (اللانفورد ويلز) بنفس ملؤها الشفقة ، غير أن ما قالته قد سمع

2017-11-11

مهاراً حتى مجته الأسماع وتعودته ، ثم اتكأت بصدرها إلى الأمام ، واندفعت فى الكلام كأنما هى قذيفة انطلقت ، وكأنها استحالت إلى آلة أوتوماتيكية تطرد من أمامها وابلاً من الكلمات الدالة على الرأفة وجاراها هتن ، يبدو أنه كان يستعمل عبارات أدبية أو فلسفية من مقولات مترلنك ومسز بزانت وبرجيسون ، ووليام جيمس ، وكأن قذف الكلمات أصبح نوعاً من الدواء . وأخذت مسز (هتن) تتكلم عن الأرق وبالغت فى شأن العقاقير ومزاياها الطبية ، وكان حديثها أشبه بزهرة تستقبل الشمس

أخذ هتن ينظر فى سكون ودعة ، كأن منظر جانيت سبنس قد بث فيه دهشة قوية ، ولم يكن الرجل ذا خيال خصب ليصور لنفسه أن كل وجه يخفي تحته فناً من التقلقل ياس جمال الأشياء وغرابتها ، حتى إن حديث كل امرأة عنده وإن قل شبيه ببخار معقود فوق خليج مجهول ، فهذه زوجته ودوريس مثلا لا يزيد مظهرها شيئاً على باطنهما ؛ أما جانيت اسبنس فقد كانت من نوع آخر ، فهنا يتأكد الناظر أن خلف تلك الحواجب الرومانية وبسمة الجيوكوندا هذه وجهاً غريباً . ولعل السؤال الوحيد هو ما ماهيّة ذلك السر الذى لم يستطع هتن كشف الستار عنه ؟

ثم دار الحديث بين مسز هتن وبين جانيت التي قالت لها :

— قد لا تذهبين إلى « اللاندرود » بعد ؛ ومتى تحسنت صحتك عاجلاً فإن الطبيب البارد يرجع فى طلبه ؟

— هذا هو رجائى الوحيد ، وإنى لأحس بالعافية اليوم تدب فى أوصالى المنهوكة

وهنا تأثر المستر « هتن » حيث كان فى حاجة ملحة إلى مثل هذه الشفقة التى كان فقدها سيباً فى تضعضع صحتها يوماً بعد يوم ، إلا أنه أخذ يحدث نفسه بأن كل ما حدث إنما هو إحساس بالتقدم وليس تقدماً حقيقيًّا . إذ الشفقة لا تداوى الكبد المريضة ولا القلب الضعيف

عرف هتن أن زوجته خالفت أمر الطبيب ، فالمهمت بعضاً من الزيب فقال لها :

— لو أنني كنتُ إياكِ ما تناولتُ الزيب بعد أن حرم الطبيب كل ما له بشرة سمكة وبذور !!

— ولكني أميل إليه وأشعر اليوم بتقدم فى صحتى

فقالت جانيت : لا تتسرّعى في حكمك واتئد فى إسرافك !

ثم أجالت ناظريها فى هتن وزوجته وقالت :

— دعها تأكل ما تشاء وتشتهي ، فإن ذلك يزيدها قوة

فقالت إميلى : « شكراً لك ياعزيزتى » ، ثم نهضت لتتناول بعض الزيب المقلى . فقال هتن :

— إذن لا تلومينى على شيء إن مسك ما لا أحب من جراء ذلك !

— وهل لُمتكَ على شيء من قبل ... ؟

— لأنك غير واجدة منمزاً تلومينى عليه ، لأنى زوج وفىّ

أخذ الجميع مجلسهم فى الحديقة بعد تناول الغداء ، وهم يصوّبون أنظارهم فى هذه المروج الفسيحة المجلّلة بالزنبق والأزهار المتلألئة بنورها المعدنى ، وكان دفء الهواء المعطر قد أدخل شيئاً من السرور على قلب مستر هتن ، فتنفس فى قوة ثم قال :

2017-11-11

— ما أبهج الحياة لو كنا خالدين !

فرفعت زوجته يدها إلى الشمس ثم قالت :

— سنخلد لو كان فيها ثم خلود !

وإذ ذاك أحضرت الخادم القهوة فى أباريق فضية ، وفناجين بنفسجية ، ورتبتها على المنضدة بالقرب منهم فتادتها مسز هتن قائلة :

— أين الدواء يا كلارا ؟ أسرعى إلىّ به فى زجاجته البيضاء

فقال هتن : وسأذهب لأحضر لفافة من التبغ ثم أسرع إلى داخل المنزل . وبينا هو يسير الهويني التفت فجأة إلى الخلف ، فأبصر الخادمة تمشى فى الحديقة ، وزوجته متكئة على مقعدها منهمكة فى فتح فدام قارورتها . أما جانيت اسبنس فقد كانت مستندة على المنضدة تصب القهوة فسألت مسز هتن :

— أتحبين السكر يا إميلى كثيراً؟

— نعم ! شكراً لك يا عزيزتى . أكثرى منه لأنى سأشربها بعد الدواء ، كى تذهب بغضاضته

ثم أسندت رأسها إلى الوراء ، وأمالت قبعتها على وجهها لتخفى عن نظرها رؤية الشمس والسماء ووقفت خلفها جانيت ثم قالت لها :

— لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ستذهب حتماً بمرارة الدواء . والآن ها هوذا هتن قد أحضره معه أجل لقد ظهر هتن يحمل زجاجة خمر ملأى بشراب قاتم ناوله لزوجته قائلاً :

— ما أطيب رائحتها !

— وذلك أحسن ما فيها

ثم جرعته مرة واحدة اقشعرت بعدها وقد ارتسمت أمارات العبوسة على وجهها وقالت :

أفٍّ له ما أبشعه من دواء ! إلىّ بالقهوة كى تذهب غضاضته

فأعطتها جانيت ما طلبت وأخذت ترشف منه نهلات كبيرة وهي تقول لجانيت

— لقد سيّرته كالشراب ولكن لا بأس فذلك خير ما يكون عقب مثل هذا الدواء الشديد

وفى منتصف الساعة الرابعة أحست المريضة بشىء من التعب يخدّر أعصابها ، ولم تكن تشعر بمثله من قبل ؛ ومن ثم يممت شطر حجرتها لتنام وترتح جسدها . وكاد هتن أن يقول شيئاً عن الزبيب ولكنه تمالك نفسه وغيّر موضوع حديثه بقوله لها :

— ما أسرع تأثيره ! ألم أخبرك بذلك من قبل؟

ثم أخذ بيدها ليساعدها على الدخول وحاول أن يطمئن خاطرها المضطرب ونفسها المكدودة بقوله:

— ستشعرين بالصحة متى استرحت ، ولعلى لا أعود إليك إلا بعد الظهر وقد عادت إليك صحتك وراحتك !

— وإلام تذهب ؟

— سأذهب إلى جونسن هذا المساء كما تعلمين لنتحدث فى ذكرى الحرب

— بودّي ألاّ تذهب !

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

— أما تستطيع البقاء بجانبي اليوم فإنى أستشعر الوحدة !

— وما الحيلة يا عزيزتى وقد واعدته منذ أسابيع ، ولكنى سأمضي الآن لأبحث عن جانيت فقبلها بين عينيها ، وخرج إلى الحديقة حيث استقبلته جانيت بشوق ولهفة ثم قالت :

2017-11-11

— إن زوجتك فى شدة المرض !

— ولكنها ستسر كثيراً بحضورك

— إن ذلك الدواء مزعج فقد جعلها فى مثل هذه الحال ، وقد ضعفت قوة هضمها . حقًّا إن معدتها قد اضطربت ، وأخشى أن يحدث شىء ما !

— من يدرى ؟ ربما لم يفحصها لبارد تماماً !

ثم فتح باب الحديقة الخارجى المطل على الطريق حيث كانت عربة جانيت فى انتظارها تستقلها فى العودة إلى منزلها ثم قالت :

— إن لبارد طبيب قروىٍّ وخير لك أن تستشير طبيباً إخصائياً

— أراك تكبرين من شأن الاخصائيين

فرفعت جانيت يدها محتجة وقالت :

— إن حالة زوجتك قد بلغت حداً من الخطورة يستوجب الشفقة والرثاء ، وإنى لجادَّة فيما أقول وأخشى أن يحدث ما ليس فى الحسبان ؟

فأمسك هنّ يدها وأدخلها العربة ، وأخذ السائق مكانه فيها ، وتأهبت للانطلاق . ولم يكن هنّ يرغب فى أن يطيل الحديث معها فسألها فى رقة :

— هل تسمحين لى أن آمره بالسير ؟

فالت نحوه وابتسمت له بسمة الجيوكوندا فقال لها :

— تذكرى أنى فى انتظارك لتعودى إلى رؤيتى ثانية عن قريب

على أنه قد تضجر وإن يكن قد لزم حدود الأدب . وما إن تحركت العربة حتى ودعها بيده ، وسره أن يبقى وحيداً

* * *

مضت بضع دقائق انطلق بعدها « هنّ » إلى حيث كانت تنتظره « دوريس » عند منعطف الطريق ، فتناولا الغداء معاً فى فندق يبعد عن البيت عشرين ميلا . ولقد جمع الغداء بين الوداعة والاسراف فقد طُهِىَ فى فندق قروى أعد لسائقى العربات . وإن يكن قد ساء هنّ فقد سر « دوريس » التى لم يكن الكدر يعرف إليها سبيلا ، وطلب هنّ زجاجة من الشمبانيا . ولما أخذا طريقهما إلى البيت كانت دوريس على حال عظيمة من النشوة ، وكان الجو أدكن ، ولكن الناظر إلى الأمام كان يرى شبح السائق الساكن ، وشريطاً من الأرض تنيره أضواء المصابيح الأمامية للسيارة

بلغ هنّ منزله وقد قاربت الساعة أن تدق مؤذنة بانتصاف الليل ، فلقيه الطبيب لبارد فى بهو البيت وكان رجلا قصير القامة كريم الكتفين ، حسن الصورة ، أشبه بالنساء ، واسع العينين أخلهما . وكان يقضى وقتاً طويلاً يجانب مرضاه يخفف عنهم آلامهم بلطفه ورقته ، مما يبعث السرور إلى النفوس ، وإن كانت مسحة الاتزان لا تفارقه أبداً . سأل هنّ الطبيب :

— أى دكتور لبارد ! أراك هنا ! أما زالت إميلى مريضة؟

— لقد بحثنا عنك طويلا فى بيت جونس فلم يقف لك أحد على خبر هناك

— بلى ، لم أكن هناك إذ حال بينى وبين الذهاب إليه قاهر

ثم قال فى نفسه : « ليس هناك أشد من أن يختبىء الانسان خلف ستار من الكذب »

فقال الطبيب : لقد كانت زوجك عطشى متلهفة إلى رؤيتك

فقال هتن وقد اتجه ناحية السلم
— الآن لا مانع من الذهاب إليها
فوضع الطبيب يده على كتف هتن قائلا : رويدك تأخرك !
فأراد هتن أن يتخذ المعارضة سلاحاً يدحض به أقواله فقال : « وهل ترانى تأخرت » ثم مد يده إلى جيبه بحجة أنه يريد إخراج ساعة ولكنه أرجعها خالية
— لقد قضت مسز هتن نحبها قبل ذلك بنصف ساعة

بذلك نطق الطبيب الذى استمر صوته على لينه ولم يفارق الأسى عينيه ، ثم أخذ يقص خبر الموت وحالته كأنه يتكلم عن لعبة « الكريكت ماتش » وذكر أن شتى الحيل قد وقفت مكتوفة الذراعين لا تجدى أمام القدر المحتوم وقد انقطع كل أمل . كل ذلك وهتن لم ينقطع عن التفكير وتذكر كلمات جانيت اسبنس إذ قالت : « لابد من حصول شىء فى أى لحظة » ثم قال على حدة : « حقاً ، لقد كانت صادقة فى قولها ونبوءتها »

ثم سأل هتن الطبيب قائلاً : ما الذي حدث وماذا كان السبب ؟

فأخذ الطبيب يفصل الحادث قائلاً :

— انها سكتة قلبية نتجت عن نوبة شديدة عقب تناول بعض الأطعمة المحذورة

— كالزبيب مثلا ؟

— شىء أشبه بهذا أو هو نفسه ، وقد كانت وطأته على القلب قاسية ، وكان من جرائه تلك النوبة الخطيرة ؛ ولعل بعض الأجهزة قد تعطلت فى الداخل

وعلى كل حال فقد انقضى الأمر واستراحت فلن تحس ألماً بعد

— ٣ —

« يا للحسرة ! وافق يوم تشييع الجنازة يوم مباراة إتن وهارو »

هكذا قال الجنرال « جريجو » وكان واقفاً تحت مظلة الكنيسة ممسكاً قبعته الطويلة بيمناه ، ومجففاً العرق من جبينه وعياه

سمع هتن ذلك القول فبالك شعوره على الرغم منه بعد أن كاد يمس الرجل بأذى فى بدنه ، وقد كان بوده أن يوجه إليه لكمة قوية فى وجهه الأحمر المريض ثم قال :

— أيها الحيوان الضخم الجمد الوجه ، أليس للميت عندك حرمة ؟ أما تستحى من أحد ؟

ولقد كان الحق فى جانب « هتن » فلم يجب الآخر بكلمة ما ؛ أما مستر هتن فقد ألقى بنفسه بجانب القبر يتأوه ويتنهد ويبكي زوجته قائلاً :

— إميلى ! أيتها المسكينة ، لقد آب الجميع يا إميلى إلى دورهم ونسوك ، وعادت إلى أوجههم بشاشتها وطلاقتها ، أما أنت فقد ثويت فى قاع حفرة على بعد سبعة أقدام بيننا « جريجو » واقف يشكو سوء حظه لأنه لم يشهد المباراة ! !

أخذ هتن بعد أن هال التراب على قبرها وسواه يحدق فى الجموع السوداء التى حوله والتى أخذت تغادر ساحة الكنيسة ، إلى موقف العربات والسيارات ، وبالرغم مما كانت تنطلي به الأرض حينئذ من حشائش نضرة وأزهار متلألئة وأوراق لامعة ، فقد كانت دلائل الأسى مرتسمة على أوجه الجميع ، وشملهم الحزن . ولقد سرى عن

نفسه بعض الشجن أن الفناء حتم على الجميع

جلس (هتن) فى مكتبه ذلك المساء يطالع حياة « ملتن » ولم يكن هناك من داع يحمله على اختيار حياة ملتن لمطالعتها ، بل ان ذلك الكتاب كان أول كتاب تناولته يده . وما إن فرغ منها عند منتصف الليل ، حتى نهض من كرسيه وأغلق النوافذ وغادر المكتبة إلى الردهة حيث كان الليل صافياً ساكناً . فأخذ يسعد نظره فى النجوم يتأملها ويتأمل ما بينها من فضاء ، ثم يرد طرفه ناحية الأزهار الباهتة ، ويسرح عينيه فيما وراء ذلك من فضاء لايبدد وحشته غير القمر .

أخذ بعد ذلك يفكر فى قوة مضطربة فيقول :

« ها هى ذى النجوم ، وها هو ملتن ، بل ها هو الرجل الذى شابه الليل ونجومه فما أعظم نبله ! ولكن أحقاً أن هناك فرقاً بين النبيل وغير النبيل؟.. ملتن .. والنجوم .. والموت .. والروح والجسم .. والأرض والسماء ... لعل فى هذه بعض الشيء من النبل ... ما الذى نالة ملتن ؟ لا شيء . وأنا ... ؟ أنا ! ... أجل ! لا شيء غير صدر « دوريس » الصغير البض »

وتواردت الخواطر المبهمة على خياله سراعاً كأنما تستعرضها ذاكرته : ترى أيها أعظم شأناً : ملتن أم النجوم ؟ أم الموت ؟ أم إميلى فى قبرها ؟ أم دوريس؟ أم مستر هتن نفسه ؟ لا شك أنه أعظم الجميع !

أف له ! لقد صار أنانىّ الطبع ، لكل شيء — قل أو كثر — سلطان على نفسه . وفى لحظة سكون صاح قائلاً « لقد عزمت . لقد عزمت » غير أن صوته كان يذهب فى ظلام الليل البهيم كصرخة فى واد ، ولكن خيل إليه أنه أقسم يميناً عظيمة ، يحق للآلهة أن ترتبط بها ... « لقد عزمت ! ... لقد عزمت ... ! لقد مرت بنا أعياد رأس السنة والميلاد والأعياد المقدسة كما مرت بى تلك التوبة الكبرى عن الخلاعة والجنون، ومثل هاتيك الأقسام»

لقد ذهب كل ذلك بدداً ، حتى اليمين تلاشت كما يتلاشى الدخان فى آفاق الجو ، وصار كأن لم يكن . غير أن ما كان حوله إذ ذاك كان يوحى بالرهبة ، فآلى على نفسه أن يبدل منهاج سلوكه فى المستقبل ، فيحيا حياة الرجل العامل العاقل ، ويكبح جماح نفسه الثائرة ، ويوجهها إلى طرق الخير بعد أن ظل طويلا يضلل النسوة ويخدعهن بعبارات الحب الموهوم والأمل الكاذب ، ولكن هاهوذا قد عزم ولابد من العمل .

فكان يقضى الصباح فى تفقد أعماله الزراعية فيركب مع رئيس العمال ، ويدور حول الأرض ليرى سير العمل فيها وما اتبع من أحدث الطرق الزراعية وخاصة فى مخازن الحبوب والأسمدة الصناعية والحصاد ونحو ذلك ، وينفق باقى اليوم فى المطالعة الجدية ، إذ كان قد اعتزم منذ روح طويل أن يؤلف كتاباً عن « تأثير الأمراض فى المدينة »

ذهب هتن بعد ذلك إلى فراشه خاشعاً تملأ التوبة نفسه ، وتهيمن على جوانحه ، وتسيطر على كل جارحة فيه ، وخيل إليه أن الفضيلة قد اتخذت سبيلها إلى نفسه فنام ثمانى ساعات ، ثم استيقظ فإذا الشمس قد شمشع نورها ، وكست الأفق ضياء صافياً ، بيد أنه لم يجد فى نفسه أثراً لتلك الدوافع التى أحس بها مساء بل عاد فى الصباح إلى حياته المرحة ... حياة الخديعة باسم الحب ...

2017-11-11

وتلاشت العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ، فكأن ملين ، وكأن الموت قد تنيرا فى ضوء النهار عما كانا عليه فى ظلام الليل . أما النجوم فقد حجبتها الشمس ، وأما عزمه فقد كان يرى شبحه فى ضوء النهار كما يراه فى حجب الدجى ، لذلك امتطى صهوة حصانه بعد أن تناول طعام الإفطار وأخذ يطوف مع رئيس عماله . وعند الظهيرة تناول وجبة الغداء ثم جلس يقرأ كتاب « تكدبس » عن «الطاعون فى أثينا» وفى المساء وضع بعض مذكرات عن الملاريا فى جنوب إيطاليا . وعند ما شرع فى خلع ملابسه تذكر أن هناك قصة طريفة فى كتاب «إسكاتولد» عن الوباء الأسود ، فعزم على أن يكتب عنها فصلاً إن عثر على قلم رصاص

مرت خمسة أيام من حياته الجديدة ؛ وفى اليوم السادس عثر هتن بين خطاباته على رسالة قد كتب عنوانها بخط بين بين ، عرف منه أنه من لدن « دوريس » ففضه وشرع يتلوه ، فوجد كلمات لا ترى إلى جمع واحد ، إلاّ أنه استشف من قولها وجود حالة تشبه الحال التى ماتت بها زوجته ، فكان فى ذلك ما أزعجه ، وحدا به إلى التنهد ؛ غير أنه تمالك شعوره ، واستعاد إحساسه ، وتابع قراءته ، وهذا نص رسالتها :

« أجل ! إن الموت شىء مرعب ، غير أنى لا أفكر فيه ما دمت منه بنجوة . أما إذا حل مثل ذلك الأمر ، أو ألم بى مرض ، أو أحاط بى كدر ، فترانى لا أتمالك نفسى من التفكير فيه كأنه قريب منى ، وأستعيد فى خيالى كل ما قدّمت يداى من إثم كما أفكر فى نفسى ونفسك ، ويأخذنى القلق من جراء ما سيحدث فى المستقبل ، فيدركنى الخوف والاضطراب . لقد أزعجتنى الوحدة واستوحشت منى السعادة ، وحرّتْ فىّ أعمل وجثم خيال الموت يهددنى فلا أستطيع منه خلاصاً ، وأرانى بتعرك تعيسة شقية . انظر كيف أعجز عن التعبير عما أريد اخبارك به . أريد أن أراك إثر تلاوتك هذه الرسالة وعقب فراغك من مراسيم الحزن . إن سعادتى فى قربك ؛ وليس لى فى الدنيا أنيسٌ سواك يا كريم الطباع ، وأخا النجدة والنوث . ولست بناسية ما حييت عطفك وحدبك . إنى لتأخذنى الدهشة كيف تنزلت من عليائك فحبوتنى لطفك وأنسك مع ما أنا عليه من كآبة وغباء كانا سبباً فى ضعف حبك لى . أليس كذلك ؟ »

تأثر هتن من كتابها تأثيراً ألبسه ثوباً من الحياء والراحة ، واستكثر من نفسه أن يمدحه أو يعبده كائن ما . يا لله .. ! لقد أغرى دوريس فوقعت فى حبائله ... إنها طرفة من طرف اللعب الجنونى ! ! بل طرفة من الجهل لا يستطاع وصفها !

فرغ «هتن» من قراءة كتاب دوريس ، فإذا الجزع أقوى فى نفسه من السرور . لقد خلا عمله من الحكمة وسداد الرأى

وكثيراً ما كانت تسيطر عليه رغبات وشهوات مبهمة يكاد يخضع لها ، وإذ ذاك يذكر نفسه فى تأنيب أنه على وشك العودة مرة أخرى إلى غبائه القديم ، ويذكرها أيضاً بوجود كثيرات أمثال « ماجى » خادمة زوجته ، وأزيت ، ومسز برنجيل ، وغيرهن من الوسيفات فى لندن وغيرها ؛ غير أنهن جميعاً — وا أسفاه — قد أدركهن الكبر ، ووسمهن الهزال بميسمه . ومن يدرى فلربما يأتى عليه وقت يدركه ما أدركهن ، بيد أن كل هذه التجارب لم تؤثر فيه شيئاً

عاد هتن فتذكر « دوريس » المسكينة ، وكأن نفسه نجت من تلك الخدائع التي يموّه بها على النساء ، وعافت الخديعة باسم الحب والهوى ، فعزم على أن يكتب إليها كتابة ملؤها العطف والرحمة ، دون أن يعدها بالحضور ، ولكن الخادم قطع عليه سلسلة تفكيره ، إذ جاء يخبره بأنه قد أسرج الحصان ، فنهض وركب وذهب مع رئيس عماله الذي كانت أمارات الكآبة متجلية على محياه ذلك اليوم

مرت خمسة أيام شوهد إثرها « هتن » ودوريس جالسين على مقعد حجري في « سوث إند » وكانت دوريس ترتدي قميصاً حريرياً مطرّزاً بأشرطة حمراء يعلو وجهها البشر والسرور ؛ وكانت رجلا هتن ممتدتين إلى الخارج ، معتمدتين على كرسي ، وقد أزاح القبعة إلى الخلف ... وفي تلك الليلة بينما كانت دوريس نائمة بجواره ناعمة بالهدء والراحة وقد سرت أنفاسها هادئة تهوّم فوقهما كأنها تحرسهما ، إذ تملكه في هذه الساعة — ساعة الظلمة والتعب — ذلك الوازع الذي تملكه من نصف شهر تقريباً ، حينما أخذ على نفسه ما لم ينفذه ، وما ذهب كما ذهب أخ له من قبل ، وهكذا تتغلب الشر على الخير ، والجهل على العقل ، إذ خارت عزيمته عن تنفيذ أول خطوة من المبدأ الذي رسمه لنفسه

قضى هتن فترة طويلة من الوقت مغمضاً عينيه كالنائم يعالج خنوعه أمام دائي الخبيثة حتى تحركت دوريس في فراشها فالتفت إليها ، وقد تسرب من خلال الستارة الرقيقة الشفافة نور خفيف أظهر ذراعها العارية البضة وكتفها الجميل ، ورقبتها وجدائل شعرها الحالكة السواد ملقاة على الوسادة ، فتجلى فيها مثال من الجمال العبقري خليق أن يشتهي ، وتراءى بجمالها الساحر يثري ظمأه ، فعلام يشكو هتن ، وقد رقدت بجانبه تلك الفتنة ؟ وما الذي تفيده وقد ضاع الأمل في أن يكفكف من حدة مجونه ، أليس الأولى أن يستفيد من ضياع ميثاقه وعهده ؟

وإذ ذاك تسربت إلى نفسه فكرة براقة يحدوها الشباب الجامح ، فكرة لا تأبه بالمواقب ، ملأت عليه جميع أرجاء نفسه ، وخيل إليه أنه حرٌّ يفعل ما يشاء

وفي لحظة أسلم فيها قياده للشباب جذب الفتاة نحوه ليروي نفسه من نبع ذلك الجمال ، فانتبهت « دوريس » مذعورة ، وأفاقت على سيل قبلاته الحارة التي أودع فيها روحه الفتية وعواطفه الملتهبة !!

تحولت عاصفة رغبته إلى نوع من المرح ، وكأن الجو والعالم وكل شيء كان يشاركه في ضحكه الهادئ !

تلقت أذنا هتن سؤالاً عذباً من دنيا الحب النائية يسأله :

— ترى هل أحبك شخص مثل حبي إياك ؟

— أظن أن هناك من سألني هذا السؤال قبلك !

— ومن ذاك ؟ أخبرني ! ومن تعنيه بقولك؟

وكان الصوت صوت (دوريس) وقد اختلجت نبراته بالغضب ، فقال هتن متهدداً :

— آه !

— من ذاك ؟ أخبرني !

— لا تذهبي بعيداً مع الظنون ... هي جانيت اسبنس

— (في دهشة) جانيت اسبنس ؟ تلك المرأة العجوز ؟ يا للعار !

2017-11-11

فضحك منها هنن بملء فيه ثم قال :

— إن ما أقوله هو الحق ، وإنها لتحبني حبًّا جمًّا

وأكد لدوريس أن لا بد له من أن يزورها وأضاف إلى ذلك قوله :

— وأعتقد أنها تبغي الاقتران بي !!

— لكني لا أراك قاعلاً ولا عازماً !

فعاد هنن إلى الضحك وقال وقد خيل إليه أنه يقول أحسن نكتة قالها :

— أود أن تكوني زوجتي !

ولم يغادر « هنن » فندق « سوت إند » حتى كان قد تزوج مرة أخرى ، لكنهما اتفقا على أن يكون أمر هذا الزواج سرًّا حتى إذا حلّ الخريف وذهبا إلى الخارج ، شاع الأمر بين الناس ثم أردف ذلك بقوله :

— أما الآن فسأذهب إلى منزلي كما تعلمين أنت إلى منزلك

وفي مساء اليوم التالي مضى هنن لزيارة جانيت اسبنس فاستقبلته بيسمتها القديمة بسمة الجيوكوندا ثم قالت :

— لقد كنت متعطشة إلى لقائك

وما كنت لأستطيع الصبر عن لقائك

ثم جلسا في البيت الصيفي الجميل الذي كان فيما مضى معبداً قائماً وسط أحراج كثيفة خضراء فقال هنن يجاذبها أطراف الحديث :

— لقد عزمت أن أسافر إلى إيطاليا هذا الخريف

فقالت جانيت ، وقد أغمضت عينيها في إغماء كأنها في نشوة الخمر وقالت :

— إيطاليا ! إيطاليا ! لقد وافق عزمك ما جمعتُ عليه نيتي

— ولماذا تريدين الذهاب ؟

— مالي غرض خاص ، إنما قد يفقد المرء نشاطه أحياناً إذا أراد السفر إلى الخارج وحده لأول مرة

— أف للوحدة ! ليس في سفر الانسان مفرداً أية لذة

واضطجعت جانيت في مقعدها صامتة ، مسبلة الأجفان ، وأخذ (هنن) يمسح شاربه ، وطال الصمت بينهما ، وحان وقت الغداء ، ودُعِيَ هنن إلى تناوله فلبى على عجل ، وابتدأ حبل المزاح يزداد قوة بينهما ، ووضعت المائدة في الشرفة ، وأخذا يطلان من خلال أقواسها على الحديقة الممتدة إلى الوادي المنخفض والتلال البعيدة ، ثم فاض النور ، وعمّ السكون ، واشتدّت الحرارة وحلّقت غمامة في الأفق ، وهدرت أصوات الرعد من بعد وهي آخذة في الاقتراب ، وعب عباب الريح ، وتكاثف الرذاذ المتساقط منبئاً بالمطر وأخذت المتعة تنمر الكون ، وإذ ذاك صمت كل من جانيت وهنن ، ولكنها قطعت هذا الصمت بقولها :

— أظن أن لكل امرىء حقاً محدوداً من السعادة ؟ أليس كذلك ؟

— لا شك في هذا ، لكن ما الغاية التي تقفو أثرها ؟ ليس في استطاعة أحد أن يدلي بآراء قاطعة عن الحياة ، إلا إذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، أما السعادة ...

ثم توقف عن الكلام فجأة ، إذ عاد بفكره إلى

سابق حياته يستعرضها ، ورأى تلك اللحظات التي كانت مفعمة بالسعادة والهدوء التي لم يكن ينغصه عليه سوى سحاب جهام من الأحزان لا يلبث أن يتلاشى ... لقد كانت الأموال شيئاً عادياً . لقد كان أسعد حظاً من غيره من بني جنسه . أما الآن فقد فقد السعادة فحسب ، وعرف أن عدم الاكتراث سر الابتهاج . وكان في نيته أن يقول شيئاً عن سعادته لولا أن قاطعته جانيت بقولها :

— إن مثلي ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وفقاً ما من حياتهما

— أمثلي أنا ؟

— آه يا هنري المسكين ! إن القدر لم يعامل أحداً منا بما يرضيه

— ها أنت ذا مسرورة وذلك من شجاعتك ، لكن لا تظني أني لا أستشف ما وراء القناع

ثم تكلمت جانيت اسبنس بصوت أخذ يزداد ارتفاعاً كلما ازداد المطر انهماراً ، كما أخذ الرعد يتقطع في فترات بين حديثها فقال لها هنري :

— لقد عرفتك جيداً منذ زمن طويل

إذ ذاك طافت بها بارقة من الأمل المسول ، فاذا بنفسها قد امتلأت بالأفكار وحفزها العزم على أن تقول شيئاً ، وقد اتكأت بصدرها عليه وحدقت عيناها ، كأنهما وصاستان ثم طواها الظلام في غمراته فقالت :

لقد أصبحت وحيداً تفتقر الى عن رفيق ، وإني خليقة بالشفقة عليك في وحدتك ، بل في زواجك ...

ولكن الرعد قطع عليها حديثها ، ثم عاد صوتها إلى الظهور مرتين أخر بهذه الكلمات :

— إنك في حاجة إلى رفيقة

فردّد قائلاً : رفيقة لي ؟ ما أبعد ذلك عن الدعابة ! چورچيت ليلان رفيقة «موريس مارتلك» السابقة ...

على هذا النحو صورته جانيت اسبنس في خيالها أي أنه رفيق الروح . أما دوريس فقد مثلته رمز الكمال وأنه أكثر الناس مهارة ، ثم قالت جانيت وقد اعتمدت بيديها على ركبتيه :

— لقد طار إليك قلبي مرفرفاً وفي وسعي أن أعرف السبب ؛ لقد أصبحت وحيدة مثلك ، فما أصبرك ؟!

ثم مرت عليها بارقة أخرى فإذا بها مضطربة النفس إلى درجة ألجأتها إلى أن تقول :

— ما أراك تشتكي وأغلب ظني أنك تشكو !

— ما أعجب أمرك !

زمجر الرعد ثانية ، وانهمر المطر في شدة كأنه قهقهة المجنون فقالت جانيت :

— أما تحس في أعماق نفسك بشيء له صلة ما بتلك العاصفة ؟

ثم اتكأت على صدره بجسمها اللدن وتابت حديثها قائلة :

— إن الهوى يصير الإنسان أشبه بالعناصر الفعالة ...

فلم يجر جواباً وظل كالمشدوه ثم قال : نعم !

ثم استولى عليه الخوف على غرته ، وتحول ما فيه من جرأة إلى سكون وذهول . لقد أوعبته جرأتها وصراحتها المتناهية ، أما هو فقد قال :

— الميل والهوى ؟ إنني لا أخلو منهما

بيد أنها تصنعت عدم الإصغاء إلى حديثه ،

وأخذت تتمتر فى الحديث الذى لم يكن يسمعه أحد إلا وهو يعتقد أن الحب العنيف هو الذى ينطقها ثم همست قائلة :

— لعله لم يفهم مغزى ما أقول !

ومن ثم أخذت تسرد على مسامعه قصة حياتها فى هدوء حتى يستطيع أن يفهم ما تقول ، وفى هذه الحال أخذت فترات انقطاع البرق تطول ، وتزداد تبعاً لذلك مدة الظلام ، غير أنه كان يراها تحملق فيه بقوة متجهة بصدرها إليه مما يدعو إلى الريبة ويطل من عينيها بريق التحدى والإغراء ، وانهمر المطر أكثر من ذى قبل فالتصقت به . وأبرق البرق فرأى « هتر » وجهها يعلوه قناع جميل تتوجرج من تحته عينان واسعتان ، وفم صغير جميل ، وحاجبان عريضان ، فكانت أشبه بالرومانيات ، ولكن ما أشبهها بجورج رودى !

عرف هتر حينذاك ما ترى إليه فأراد أن ينقذ نفسه منها ، وفكر فى مهرب يتخلص به من هذا المأزق الحرج . أيدعى أنه رأى لصاً ثم يناديه أن قف ويقفز ويبدو خلف شبحه الموهوم ؟ أم يدعى أنه أصيب بخفقان فى قلبه ؟ أم يدعى أنه لمح شبحاً وليكن شبح إميلى فى الحديقة يخطر فى حلوكة الليل ؟ وشغله التفكير فى هذه الأمور الصبيانية عن الالتفات إلى جانبيت وحديثها ولم يرده إلى عالم الحقيقة إلا مسة رقيقة من يدها ، ثم قالت :

— إنى أجلك من أجل ذلك يا هتر

فقال فى سرية : ومن أجل أى شىء تجلينى؟

فقالت : إن الزواج رباط مقدس ، واحترامك إياه — برغم سوء حياتك الزوجية السابقة — يجعلنى أحترمك وأحبب بك . والآن أتسمح لى أن أقول كلمة يا هتر ؟

وعاد هنرى يفكر فى مسألة اللص الموهوم والشبح ، ولكنه وجد أن ذلك قد تأخر وقته ، فعادت هى تتابع قولها :

— نعم ، كلمة واحدة ، تلك هى إننى «أحبك» وها نحن الآن فى أتم الحرية !

— وما شأن هذه الحرية ؟

وحدثت حركة فى الظلام ، فإذا بجانيت تخر راكعة بجانب كرسيه ثم تقول :

— لقد استوحشت منى السعادة أنا الأخرى يا هنرى !

وإذا بها تعانقه فى لهفة ، وإذا به يحس من حركاتها أنها تنهد ، فأحس بالحرارة تسرى فى جسده ، وخيل إليه أنه لولا بقية من الخجل لصاحت : « الرحمة » ، وتصنع الجد ، فقال :

— عليك أن تكفى عن هذا يا جانيت ، فليس هذا وقته . فلتهدأ عواطفك ، ولتمضى إلى فراشك

ثم أخذ يربت بيده على كتفها ، وتخلص من بين يديها ، وتركها جاثمة على الأرض تندب حظها بجانب الكرسى الذى كان جالساً عليه . فأخذ يتحسس طريقه وسط الهول ، غير متذكر قيمته التى خلفها ، ثم غادر النزل معملا فكره فى أن يقفل الباب الخارجى دون حدوث أى صوت . كانت السماء إذ ذاك قد تجلى عنها الغيم ؛ غير أن الطريق كان مترعاً بالماء ؛ وكان يرن فى هذا السكون صوت المياه المتدفقة من الميازيب ، والمنحدرة إلى الحفر ، فأخذ قدما هنرى تتردیان فى تلك البرك التى لم يأبه لها

أما جانيت فما كان أشد بلواها ! لقد كانت الحسرة تطل من عينيها ، ويجثم الأسى على أنفاسها . لقد فكرت فى أن تنتحر لنفسها ، وويل للرجل إذا فكرت المرأة فى الانتقام منه !

* * *

لنرجع إلى ماقالته جانيت بشأن الهوى والميل . لم يكن هذا سوى قصة قديمة منبوذة ، ولكنها كانت حقيقة ملموسة . لقد كانت أشبه بسحابة سوداء مشحونة برعود الكهرباء ، أما هو فكان أشبه ببنيامين فرانكلين إذ أرسل طيارته إلى صدر ذلك الوعيد ، ثم ها هو ذا الآن يشكو ، وقد نجحت ألعوبته

كل ذلك وما زالت المسكينة خاشعة قابعة بجانب المقعد . تُرى ما الذى أزعجه ؟ ولم لم يتابع مداعبته ؟ لماذا تخلى عنه « عدم الاكتراث » وما الذى رده عاقلا فى طرفة عين ؟ يتحمل زمهرير الجو بلا ضجر ولا تأفف ؟ أما هو فلم يكن ليعرف لهذه الأسئلة من جواب ، ولم يعد يرى فى فكره سوى فكرة الفرار ، وكان تنفيذها شاغله الوحيد

— ٤ —

سألت دوريس هنّ قائلة :

— ما الذي يشغلك ؟

— لا شيء !

ثم ساد سكون ظل خلاله هنّ لا يتحرك ، متكئاً بمرفقة على سياج الردهة ومعتمداً بذقنه على يده ، ومطلا ببصره يشاهد فلورنسا التى اختار فيها سكنه على رابية فى جنوبها يستطيع المرء منها أن يسرح طرفه فى واد خصب يمتد فى المدينة حتى يصل جبال « مورلو » البادرة ، ثم يمتد شرقيها إلى تلال « فيزول » الآهلة بالسكان ، ذات المنازل البيضاء ، حيث يبدو كل شيء واضحاً نيراً فى ضياء شمس سبتمبر

سألته دوريس قائلة : أثم ما يشغل بالك من أمر جدّى يا هنّ ؟

— شكراً لك ، لا يهمنى شيء !

— أفصح وأخبرنى

— ليس عندى ما أخبرك به يا عزيزتى

ثم استدار ناحيتها مبتسماً وأخذ يربت على كتفها قائلا :

— أولى بك أن تأوى إلى فراشك فإنى أخاف عليك حرّ هذا المكان

— حسن ما تقول ، ولكن هلا تذهب أنت أيضاً إلى الفراش ؟

— حينما أفرغ من مضغ هذه اللفافة

— لك ما شئت ، ولكن أرجو أن تسرع

ثم أخذت تنحدر من على الدرج ببطء وتراخ واتجهت إلى الداخل . وهكذا ظل هنّ وحده يتأمل جمال فلورنسا شاكراً للظروف تلك الوحدة التى كان يتمناها للخلاص من دوريس ورغبات هواها الجامح ، التى لا تعرف حداً ولا شبعاً . لم يذق « هنّ » حتى هذه الساعة آلام الحبّ وطاغوته ، ولكنه يجرّب آلام المحبوب المطلوب ، وبذلك كانت هذه الأسابيع الأخيرة فترة التاعب ، حيث

ظلت «دوريس» ملازمة له كالرقيب، لذلك ما كان أعظم فرحه بالوحدة الهادئة

انتزع هتن من جيبه رسالة وفضها على مضض، فقد أصبح يمقت الخطابات لما تحويه دائماً من أخبار غير سارة، خصوصاً عقب زواجه الثاني. كان هذا الخطاب من لدن أخته، فأخذ يرغي ويزبد عند تلاوته وقراءة مثل هذه العبارات «بسرعة، الظالمة الطائشة، الانتحار الاجتماعي — شديدة البرد في قبرها — شخص من الطبقة الدنيا» كل ذلك كان يأتيه تباعاً في كل رسالة يرسلها إليه قريب صادق النصيحة والود، صافي التفكير. أحرجت هذه الكلمات صدره حتى كاد يهم بتمزيق الرسالة لولا عبارة لمحها في ذيل الصفحة الثالثة، اضطرب قلبه عند قراءتها إذ كانت مزعجة مثيرة للنفس الهادئة وهي أن جانيت أخذت تطوف على كل إنسان تخبره أن هتن قد دسّ السم لزوجته إملي حتى يخلو له الجو، فيبني بدوريس. ثار أشنع هذا الحقد من رجل متواضع لطيف الأخلاق كما كان يدل عليه مظهره. ومن أجل ذلك غدت نفس هتن كالرجل من الغيظ فشرع يتسلى بذكر الأسماء وسبّ تلك المرأة

وبغتة رأى سخرية موقفه فقال على حدة: «لو علم الناس مبلغ ما تحملت وما آل إليه أمري من البؤس لما صدّق أحد فكرة دسّ السم لزوجتي لأحظى بدوريس. ولكن ما الذي نالته من ذلك جانيت العزيزة المسكينة. لقد أرادت أن تلبس ثوب الحقد فلم تفز إلا بثوب النباء!»

أفاق هتن من أفكاره المتشعبة على وقع أقدام، فالتفت حوله فإذا بالخادمة في الحديقة تقطف بعض الفاكهة، وكانت شابة من نابلي شرد عقلها فأخذت طريقها نحو الشمال حتى وصلت فلورنسا. ويلوح عليها أنها من الطبقة المتسلة وإن فسدت أخلاقها كما تدل سحنتها على أنها من الطابع الصقلي، وقد ارتسمت على وجهها دلائل النباء، وليس بها من أثر للجمال، إلا دلائل الشراسة المرذولة؛ وتحت ثيابها السوداء الكثيفة تكمن هتن بوجود جسم قوي ممتلئ ثابت، فأخذ ينظر إليها في دهشة وريبة، ثم تحولت تلك الدهشة إلى رغبة، ثم أصبح ذكرها لديه كشعر نيوكريتوس القصصي حتى قال عنها: «هكذا تكون المرأة» غير أنه تأسف أن لم يكن من طبعه مناداتها، وقد أصبح يعجب بها، ولكنه صاح بها:

— أرميدا!!

فأجابته بسمة جذابة أكدت ما وراءها من معنى، فأدرك هتن الخوف من الوقوع مرة أخرى في الهاوية، فرأى من الخير أن يتراجع بسرعة قبل أن يتردّى في الحفرة، بيد أن الفتاة لم تزل تنظر إليه نظرات مبهمة، ثم نادته قائلة:

— ها! شيانو!!

فتعجب هتن ثم قال على حدة: أعقل أم غباوة؟ لا رجحان لواحد منهما الآن. على أن النباء لم يزل واضحاً ملموساً!» ثم أجابها في صوت مرتفع قائلاً:

— اسكندو!

ثم أخذ يَعُدُّ السلالم الموصلة من الربوة إلى الحديقة وهي نازلة بقوله: «إلى تحت.. إلى تحت.. إلى تحت...» حتى أتى على الاثنتي عشرة درجة،

2017-11-11

وهكذا رأى هتن نفسه يخرج من غمّ إلى غم ومن ظلمة مملوءة بريح وبرد إلى هاوية مملوءة بوحل التفكير .

— ٥ —

شغلت قصة هتن الصفحة الأولى من الجرائد عدة أيام حتى بلغت من الشهرة مبلغاً لم تصل إليه قصة أخرى منذ أن غطى « جورج سمث » على حوادث الحرب الأوربية لابتغرافه عروسه السابقة فى حمام ساخن . ولقد كان من جرّاء ذلك أن ثارت ضحكات الجمهور من أجل قصة قتل ظهرت فى الوجود بعد أشهر من وقوع الجريمة . وهنا يتجلى الشعور بأن هذه الحادثة جديرة بالاهتمام فى تاريخ الإنسانية لندرتها ، ولأنها تفصح عن تصاريف القدر فى تحريك أعنّة البشر . كان أسلوب القصة يقول إن رجلاً خبيثاً حركه هوى فاسد ، فقتل زوجته وقد قضى شهراً ملوثا بالجريمة تحت ثياب البراءة المزعومة ، لا لينجو ، بل ليقع أخيراً على أبشع صورة فى الحفرة التى أعدها لغيره . وهاهى ذى الجريمة يتكشف عنها الستار ، ويحاط عنها اللثام . وها هى ذى القضية تُعلن ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون بكل يقظة ما تجرى به يد القدر فى هذه الحادثة الغريبة

كانت هناك إشاعة مبهمة لكنها جديرة بالعناية رددتها أفواه جيرانه وقام البوليس أخيراً بضبط الحادث وإجراء اللازم ، كما أخذت ظروف القضية ترتيبها فى التحقيق ، ثم التحرى ، ثم شهادة الخبراء فالمرافعة فالحكم ، كأنها قصة روائية ، وقد استغلت الجرائد هذه الفرصة واتخذتها مادة لغذاء تتغذى به قراءها مدة طويلة

كانت حالة هتن حينما دعى من إيطاليا للاستجواب أمام هيئة التحقيق حالة غضب ، وما كان أعظم شأن تلك الغريمة المزعجة التى أدت إلى القبض عليه كأنه مجرم عاطل ، واعتزم إذا ما انتهى التحقيق — وكان واثقاً من براءته — أن يقدم دعوى أمام النائب العام طالباً الحكم على جانيت بأشد العقوبة جزاء لها على تلك الحادثة الكاذبة

بدئ التحقيق وأطلت الدلائل القوية ضده برأسها ، وبحث الخبراء الجثة فوجدوها مسممة بالزرنيخ ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون كل لفظة مما تحويه الحادثة ، كما كان القرار الأخير للخبراء أنها ماتت بالسم

بهت هتن لسماع هذا القرار وتعجب كيف ماتت زوجته على هذه الحال . بل ما كان أشد دهشته حينما علم أن هناك مستحضرات لمزوجة بهذا السم فى البيت تكفى لقتل جيش

علم هتن على أثر ذلك أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وأنها آخذة فى التعاظم كنبات من نباتات المنطقة الحارة ، ثم أخذت تشتمل وتضيق عليه حتى خيل إليه أنه سيهلك فى غابة ملتفة . وبعد فحص حالة التسمم قرر الخبراء أنها تناولته قبيل الموت بثانى أو تسع ساعات (أى حالما مضى هتن ليحضر الدواء وحينما أفرغت جانيت القهوة) لذلك وجهت جانيت هذا السؤال إلى الخبراء :

— أتقصدون وقت الغداء ؟

— أجل !

2017-11-11

فاستدعت كلارا ثم قالت جانيت

— إن إميلى كما أذكر طلبت من (كلارا) أن تحضر لها الدواء فتطوع هتن لاحضاره بدل الخادمة وأكدت الخادمة قول سيدتها فعادت مس اسبنس تقول :

— وفضلا عن ذلك لم يحضر الدواء فى زجاجته بل أحضره فى زجاجة خمر .

أثر ذلك القول فى نفس هتن فضاع غضبه وأزله عن عرش كبريائه خوفاً وفزعاً ، وغلب على ظنه أن من السخرية أن يؤخذ هذا القول كله على سبيل الجد ، وأن يصبح حلم الليل حقيقة ، بل قد أصبح فى حكم الواقع ثبوته ، ولم لا يكون ذلك وقد رآها السائق « ناب » غالباً معاً ، بل قد ساق العربة يوم ماتت إميلى ، بل قد رآها يتبادلان العتاب

أجل التحقيق . وفى مساء ذلك اليوم ذهبت دوريس تشكو صداعاً ، ولما ذهب هتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تصبح فجلس بجوارها على السرير ثم سألها قائلاً :

— ما الذى ألم بك يا عزيزتى ؟

ثم أخذ يداعب خصلات شعرها بيده ، غير أنها لبثت وقتاً طويلاً دون أن تجيبه ، قال عليها وقبلها فى كتفها العارى ، بيد أنه كان مهموماً بما شغل باله فأخذ يقول على حدة : « ماذا تم ، وكيف انقلب الهذر والفضول إلى حقيقة . كيف ماتت إميلى مسممة بالزرنيخ ؟ ما أقبح ذلك وأبعده عن الامكان ؟ لقد انحرفت نظم الحياة ! » وطفق يستدر الرحمة من الطيش وعدم الاكتراث ثم يقول : « ماالذى حدث وماذا سيحدث ؟ » وسمع صوتا قطع عليه سلسلة تفكيره وحديثه النفسانى . تأوهت دوريس فجأة وهى تقول :

— إنها خطيئتى ... إنها خطيئتى ... ليتنى لم أحبك ولم أسمح لك بحبى بل ليتنى لم أخلق

لم ينبس هتن ببنت شفة لكنه أخذ ينظر فى سكون إلى ذلك الجسد الرطب المتمدد على الفراش ، ثم قالت دوريس :

— لأقتلن نفسى إن أصابك شىء ما !

ثم اعتدلت فى جلستها وأخذت يديه فى راحتيها ونظرت إليه نظرات شاردة كأنها نظرات الوداع ثم قالت :

— إنى أحبك ! إنى أحبك ! إنى أحبك !

وجذبته إليها وهو مستسلم لا يتحرك ، وعانقته ثم دفعت نفسها إليه فى قوة ، وقالت :

— آه يا هتن ! لا أظننى أحببتك مثلما أحبك الآن فما العلة ؟

تخلص هتن من عناقها ونهض قائماً محمر الوجه قائلاً :

— كأنك تصدقين أنى قتلت زوجتى ، إن ذلك لضحك حقاً ، فأى صورة تتمثلها الأذهان جميعاً لشخصى ؟ أتظنوننى بطلا من أبطال السينما ؟

ومنذ ذلك الوقت بدأ هتن يشعر بفقد اعتداله الخلقى وتحول حنقه وخوفه وارتباكه إلى غضب شديد عليها وقال :

— ما أقبح ما أتين عليه من غباوة مرذولة ! أما عندكن إحساس بما يلائم عقلية الرجل المتمدن ؟ أما من سبيل إلى ذلك ؟ لعلك تظنين أنى قد جننت بحبك جنوناً يحملنى على ارتكاب أية

جريمة ؟ متى يجوزى عقولكن أيتها النساء أن المرء لا يذهب فى حبكن مذهب الجنون ؟ كل ما يبحث عنه الإنسان هو الحياة الهادئة التى لا تسمح لأحد ببلوغها . فمن لى بمعرفة ذلك الشيطان الذى قادنى إلى زواجك الذى لا أحسبه إلا ضرباً من الفناء . ثم أراك الآن تحومين حولى قائلة إننى القاتل . مالى على حمل ذلك صبر ولا جلد »

ثم انطلق نحو الباب مطلقاً لسانه بكلمات مزعجة ما كان له أن يتسرع بالتلفظ بها كما يعلم ، لكنه لم يبالك نفسه ، ثم أغلق الباب بشدة خلفه

سمع هتن عند إغلاقه الباب صوتاً يناديه ، فعرف فى الصوت « دوريس » زوجته وسمع صوتها تتخلله نبرات الحزن والأسى ، فهل يا ترى يرجع إليها ؟ نعم حق عليه أن يرجع . وما إن مسّ مقبض الباب بيده حتى تغير رأيه ونزع يده بشدة وانصرف لسبيله ، ولما نزل إلى منتصف السلم توقف ودار بخاطره أن ربما أغمدت دوريس على مالا تحمد عقباه ، فتلقى بنفسها من النافذة ، أو شىء من هذا القبيل ، فأصغى باهتمام فلم يسمع صوتاً ، لكن كثر حدسه وتخمينه ، فتصورها وقد رفعت مصراع الشباك ، ثم إذا بها تطل فى هواء الليل البارد بينما يتساقط رذاذ قليل ... كانت الردهة المرصوفة تقع تحت هذه النافذة على بعد خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً ، وفى أثناء سيره فى شارع « بيكادلى » قفز كلب لجأة من شباك فى الطابق الثالث من عمارة « رتز » رآه هتن وهو يقفز وسمعه وهو يرتطم بالأرض ، فتذكر دوريس وخشى أن يكون هذا نذيراً سيئاً ، أو أن تكون قد ألقت بنفسها ، فجمع العزم على أن يرجع إليها مهما كلفه ذلك من نزوله عن كبريائه . ولقد كان يستعجل الخطى ليراها ، فلما دخل البيت وقف متردداً يفكر فى ألفاظه التى فاه بها أمامها مخافة أن يكون قد جرح شعورها ، أو آلمها ؛ وشعر بالندم يحز فى نفسه ، ويهيمن على إحساسه

دفع الباب ودخل الحجرة فوجدها مستلقية على الفراش مهمومة ، فما رأته حتى تبسمت بسمة تمثلت فيها دلائل الإخلاص والحبّ الذى ينطوى عليه فؤادها له ، وما تشعر به نحوه من عطف ، فأقبل يداعبها ويستسمحها عما بدر منه

أخذت قضية مستر هتن دوراً خطيراً ، وأجمع الخبراء والأطباء رأيهم على أنها مامات مسممة بالزرنيخ كما اجتمعت القرائن والدلائل على أن مستر هتن هو الذى دسّ لها السم ليتخلص منها ويتزوج دوريس . وكان العامل الأكبر فى إثبات التهمة عليه هو حبيبته السابقة جانيت اسبنس التى دبت الغيرة فى قلبها حينما تخلى عنها وتزوج دوريس ، فدبرت هذه المكيدة ، على حين كانت تريد هى أن تكون زوجته ، وكاد أملها أن يتجمع فى الاقتران به ، ولكنه تركها إلى دوريس ، فلا جرم أن أحست بالغيرة تقطع أوصالها فدبرت ما دبرت

وفى ليلة الحكم عادت جانيت اسبنس إلى منزلها وهى لا تدرى أيسرها هذا أم يسوؤها ، فلامت على أسوأ حال من سوء الهضم ، وأخذ الطبيب لمبارد يتردد كل يوم لمعالجتها ، أما هى فقد كانت تخوض معه فى الحديث حول قضية مستر « هتن » الذى

2017-11-11

كان زواجه سبباً فى إغلاء مراجل حقدها ، حتى أنها كانت تقول للدكتور « لبارد » فى دهشة تتجلى فى عينيها :

أليس من العار أن تذكر أن شخصاً كان يُؤوى قاتلا فى بيته ؟ أليس فوق التصور أن يظل الانسان جاهلا حقيقة أخلاق إنسان آخر زمناً طويلا ؟

هكذا كانت تقول للدكتور لبارد بينما كانت هى التى دست السم لإميلى وقادتها الغيرة العمياء لأن تزج بهن أمام ساحة القضاء لتلوث سمعته وشرفه ، ولكنها كانت تعشقه . وقالت :

— ها هى الفتاة التى غرَّ بها من طبقة وضيعة لا تزيد على كونها أمةً مباعة . وها هى ذى الأخبار ترد بأن زوجته الثانية تستقبل طفلا جديداً سيكون بنيا ، إذ يولد بعد موت هذا الوالد الأثيم

وكان هذا الطفل يجرح صدرها ويؤذيها وكان الطبيب لبارد ينصت إلى كل ذلك صامتاً ، ولكنه فى آخر مرة زارها وبعد أن سمع ما قالت ، أمسك بيده القلم ، وكتب لها اسم دواء

وفى ذلك الصباح قاطعها أثناء حديثها الذى تعود أن يسمعه من سباب ثم قال لها بلهجته الحزينة وصوته المنخفض

— على كل حال فإنى أفرض أنك التى دسست السم لزوجة هنّ ؟

فحدجته جانيت برهة بعينين متقدتين ثم قالت بلطف :

— أجل فعلت ذلك !

— وربما كان ذلك فى النهوة ؟

فأشارت إليه بالإيجاب

وحينذاك تناول الطبيب القلم ، وبمهارة وحذق ورزانة كتب لها تذكرة طبية باسم دواء منوم

عمر عبتى

كتاب صحى مجاناً

الآلة البشرية وما يجب أن تعرفه عنها . العقل والجسد . العقل الباطن . التغذى . أسباب الأمراض العلاج بالمقاقير . التربية البدنية . الطب الطبيعى . التحليل النفسى . الأمراض المزمنة والعيوب الجسمية والاضطرابات العقلية وأعراضها وعلاجها. النحافة . السمنة . قصر القامة . ضعف الصدر . اعوجاج الأرجل والظهر . الكساح . ضعف الأعصاب . الروماتزم . سقوط الشعر . تجعدات الوجه . الربو . الامساك . الأرق . الخجل . الوهم الوسوسة .

١٠٠ صفحة مصورة ترسل إليك بدون أى مسئولية ولا مقابل وسوف تكون بداية حياة جديدة بالنسبة لك . أطلب نسختك اليوم الآن بالكتابة أو بالتليفون رقم ٤٤٩٠٣ أو بالحضور من

محمد فائق الجوهرى

أخصائى فى التربية البدنية والطب الطبيعى وعلم النفس

العيادة ٢٨ شارع فؤاد الأول من ١٠ — ١٢ ومن ٦ — ٨

تليفون ٤٤٩٠٣ أو ٥٠٣٥٩

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان للعرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي عنها مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مرتين في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ قرشاً في مصر والسودان
٥٠ قرشاً في البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

قتل

للكاتب الانجليزي أرنولد بنت

بقلم احمد حسن الزيات

في عصر يوم من أيام الخريف كان رجلان أحدهما لوماكس هردر والآخر جون فرانتينج يمشيان جنباً إلى جنب في ساحة البحرية «بكنجات». وكنجات شاطئ نجيل من شواطئ الاستجمام، وثغر صغير من ثغور المانش. وكان كلا الرجلين حسن البزة موفور الصحة يهدف للخامسة والثلاثين من عمره؛ وذلك كل مابينهما من شبه. فأما لوماكس هردر فكان دقيق الملامح ضخم الجبهة أشقر الشعر وثيد المشية؛ وأما جون فرانتينج فكان أغم الجبين، بارز الذقن، تشمرك نمايل وجهه بالتحدي، وبذلك جفاء خلقه على العربدة

ترى على هردر شارة الشاعر إلا أنه حليق. وفي الواقع أن هردر شاعر رقيع الطبقة في بيئته التي تجعل للشعر المكانة الأولى وللشاعر الدور الأول. ولكنك ترى على فرانتينج سيما الأفاق المفاصر الذي يجعل من جسمه بطلاً في الملاكمة، ومن قلبه دون جوان في الحب

قال لوماكس هردر وهو يزرُّ معطفه يسأل صاحبه في لهجة تنم على الثبات والإصرار: أليس لديك ما تقوله؟ فوقف جون فرانتينج أمام حانوت كتب على واجهته: «جونتل — بائع أسلحة» ثم قال: إن مالدي لايعبر عنه الكلام، فأنا أدخل هنا. ثم اقتحم الحانوت، وتردد هردر قليلاً ثم دخل في أثره

كان بائع الأسلحة رجلاً بين الممرن عليه سترة من القطيفة السوداء، فلما رأى فرانتينج بادره بالتحية على طريقة الأخصائي الذي طارت شهرته إلى لندن. فرد عليه جون التحية بصوت غليظ أجش، ثم طلب منه مسدساً. فقال له البائع وهو

يعرض عليه بعض الأنواع : لعلك خبير بأسناف المسدسات ياسيدى ! فقال : إن معرفتى بها قليلة . فقال له هل سمعت بطراز ويلى — ٣ ؟ إنه خير طراز للاستعمال المتنقل

وكانت عين السيد جونتل تطلب إلى فرانتينج أن يكفيه رأيه ويقيه اعتراضه . فأخذ يفحص المسدس (ويلى — ٣) ويستمع إلى البائع وهو يقول: أنظر ! إن له خصيصة تميزه من غيره ، وهى أنك لا تستطيع استعماله وهو فارغ . لذلك تأمن أن ينطلق من ذات نفسه فيجرح أو يقتل مرشح الموت . ثم افتر جونتل عن ابتسامة رقيقة أتم بها هذه النكتة وهى إحدى نكاته القديمة . فسأله فرانتينج فى غضب : وماذا للانتحار ؟

فقال جونتل: آه ! آه ! فطلب منه أن يريه كيف يحشى فأراه . ثم لاحظ الشارى خدشاً فى مؤخر المسدس ، فأخذ البائع يفحصه فى شئ من الألم ثم قال متأففاً : سأعطيك غيره مادمت صعب المراس شديد المماحكة . فقال له احشه إذا شئت . فحشا جونتل المسدس الثانى وناوله إياه ؛ فطلب إليه أن يجربه ، فقاده إلى قبو وراء الحانوت أعد لهذا الغرض

وبقى هردر وحده فى الحانوت ، فتردد طويلاً ثم تناول المسدس الذى رفضه فرانتينج وأخذ يَرُوزه فى يده ، ثم وضعه ، ثم عاد فأخذه ، وانفتح الباب الخلفى بنتة فذهل هردر لهذه المفاجأة ، فوضع المسدس فى جيب معطفه من غير قصد ولا وعى . وسأل جونتل فرانتينج أريد رصاصاً . فقال إن لديه خمساً ، لأنه لم يطلق إلا واحدة . وفى هذه الرصاصات الخمس كفاية الساعة . ثم دفع الثمن وخرج وفى يده المسدس فلم يدع لهردر وقتاً يقر فيه على قرار . وسأل جونتل الشاعر ماذا يريد . ففهم هردر من سؤاله أنه حسبه شارياً آخر اتفق دخوله الحانوت على أثر دخول فرانتينج . ورجّح هذا الحسبان فى نفسه أنه هو

وفرانتينج لم يتبادلا الخطاب منذ دخلا . فطلب إليه نوعاً من السيوف لا شفرة له ؛ وهو طلب ورد على خاطره فألقاه كما جاء . فنفض ذلك من كرامة جونتل وقدح فى اختصاصه . ثم تجاذبا الحديث هنيهة واعتذر هردر اعتذار الخاطئ ، ثم انصرف انصراف اللص ، وهو يقول لنفسه إرضاء لضميره : سأعود إلى البائع فأنقده ثمن المسدس ، أو أرسل إليه حوالة بريدية غفلاً من الإمضاء . ثم اجتاز الساحة فأبصر على بعد شبح فرانتينج ينسحب وحده على الرمل ، فخيل إليه أنه رآه يهز المسدس ، وأنه سمعه يطلقه ؛ ولكن المسافة كانت بينهما بعيدة فلم يستطع أن يجزم بالأمر . وقطع فرانتينج الساحل من زاوية إلى زاوية فغاب عن بصره . فظن هردر أن صاحبه انقلب إلى (المنظر الجميل) وهو الفندق الذى لقيه أمام بابه منذ ساعة . فأخذ سمته إلى هذا الفندق ؛ وكان فرانتينج قد أخذ المصعد الصغير ليرقى به الصخور العالية فكان يمشى أمامه . واطّلع هردر من إحدى النوافذ فرأى فرانتينج يدخل بهو الفندق ويجلس فى أحد المقاعد ؛ ثم بدا له فنهض وغاب فى الدهليز . فدخل هردر من الباب فى هيئة المجرم فلم يصادفه بواب ولم يقابله ساكن . حتى إذا بلغ آخر الدهليز وجد نفسه فى حجرة البلياردو ، وكان الليل قد أقبل ، وموقد المصطلى تشتعل فيه نار خفيفة ، فلم تستطع أن تكسر من برد الحجرة . ومع ذلك ظلت النافذة مفتوحة جرياً على هوى الانجليز من جهم الهواء البارد ، وتوخيهم جانب الخشونة من العيش . وكان فرانتينج قاعداً يتأمل وظهره إلى الناو ، وبقبعته معطفه إلى فوق ، وسيكارة معلقاً فى زاوية فمه . فلما أبصر هردر رفع ذقنه إليه متحدياً وقال :

— أتبغى إلى كل مكان ؟

فأجابه هردر على الفور بلهجته الرقيقة الوديعة :

— نعم . ولقد جئت لأتحدث إليك ؛ ولولا أنك خرجت من الفندق ساعة دخلت لقلت لك ما لدى ؛ ولم تكن فى طريقك على حال تسمح لى بمواصلتك الرأى . ولا بد لنا من بعض الحديث ، فإن عندى شؤوناً شتى أريد أن تقف عليها

وكان هردر هادئ النفس والصوت كدأبه ، فتقدم نحو البارد قصده فرانتينج بإشارة من يده ، وقال له فى لهجة يظهر فيها الحنق والفتور والروية : إستمع إلىّ ! إنك لاتستطيع أن تقول لى مالا أفعله . وإذا لم يكن من الكلام بد فأنا الذى أتكلم . فإذا فرغت من الكلام وجب عليك أن تخرج :

« إنى أعلم أن زوجى احتجزت محلها على الباخرة (هارويش) الذاهبة إلى كوبنهاجن ، وأنها مشغولة بجواز سفرها ومتاعها ؛ وأعلم كذلك أن لك منافع فى كوبنهاجن ، وأنك ستقضى بها نصف وقتك الثمين . وليس من همى أن أنكر فى الاقتراب منكما

« كل ذلك لا يعنينى ، فإن (إميلى) رأتك كثيراً ، وقد رأتك فى هذين الأسبوعين أكثر . لا تظن أنى أرى فى ذلك بأساً أو مضرة ، فإنى أعلم أن إميلى تشكو جفاء معاملتى وسوء سلوكى . ذلك صحيح ؛ ولكنها مسألة بينها وبينى ، لا تعنيك ولا تعنى أحداً من الناس . فإذا عجز عنها وسُئمها لجأت إلى الطلاق ؛ ونجاحها فى الطلاق أمر مشكوك فيه . ولكن المرء لا يدرى ماذا تسفر عنه هذه القوانين . وعلى أية حال ستظل إميلى زوجتى حتى يقع الطلاق . وسيبقى لى عليها واجبات الزوجية ولو كنت شر الأزواج جميعاً

« ذلك رأيى أفصحت عنه . وتلك لعبة طال عليها القدم فأصبحت لا تجوز على أحد

« لقد جاءنى منها كتاب منذ قليل . فهى إذن تعرف أنى أنا ؛ وذلك يفسر لى وجودك هنا . فقال له هردر فى لهجته الهادئة : ذلك صحيح

وأخرج فرانتينج من جيبه الداخلى كتاباً ثم نشره وأخذ يقرأ بعض فقراته :

« لقد قطعت العزم على أن أفارقك . وأنا أعلم أنك تعرف الرجل الذى يبذل مايبذل فى مساعدتى . لقد أصبح من المحال أن أعاشرك . إنك عبدتنى وبالغت فى عبادتى كما تزعم ؛ ولكننى ضقت ذرعاً بطريقتك التى تملن بها حبك إلىّ . إنها طريقة تذل النفس وترمض الفؤاد . لقد قلت لك ذلك مراراً وأنا أقوله لك الساعة لآخر مرة »

— وعلى هذا النحو من الثرثرة والهذر كمل الرسالة . ثم مزقها قطعتين ربى إحداهما وبرم الأخرى ، ثم التفت إلى النار فأشعلها وأشعل منها سيكارته وقال :

هاك صنيعى بهذه الرسالة . إنك تساعدها . أليس كذلك ؟ أنا لا أقول إنك تحبها أو إنها تحبك ، فليس من طبعى أن أجازف بالحكم القاسى ، وإنما أسألك إذا كنت لا تحبها فلماذا تجشم نفسك الأهوال فى سبيلها ؟ تُجب أقطار الأرض واحمل معك المواساة للنفوس اللاتى يزعمن أنهن يائسات ، فذلك لايشمل بالى . وكل مأبيه أن تسفر فى ذهنك أن إميلى لن تفارقنى ، فإن معها المال وليس معى شىء . فأنا أعيش حميلة على مالها كلاً عليها ، فإذا تركتنى نزلت بى النازلة التى يرفضُ لها صبر الصبور .

أليست هذه الحجة سديدة للاحتفاظ بها ؟ ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ليست هذه هى حجتى . إنها لم تَعُدُ الصواب حين قالت إنى أعبدها ؛ وتلك حجة أخرى للاحتفاظ بها ؛ ولكن ليست هذه الحجة ولا تلك مما يدخل فى منطق . إن الزوجة فى رأيى هى الزوجة . ولا تستطيع هى بهذا الاعتبار أن تخون عهدها بحجة أن طريقها ليست كلها وردا ، وأن حياتها ليست جميعها غبطة . لقد سمعتها تقول إنى فاحش الخلق دنس العرض ، ولكنى لست فى النهاية من الفحش والدنس ، فلا أزال أحترم مايسمونه العلاقة الزوجية

ثم أخرج مسدسه من جيب معطفه وقال : إنك ترى هذا المسدس ، وقد رأيتني أشتريه ، فلا بأس عليك منه . ليس في منهجي أن أقتلك . وأعمالك لا تلفت نظري ولا تشغل بالي . إنما يعنيني ما تحمل زوجتي . فإذا تركتني واتبعتك أو اتبعت سواك ذهبت وراءها إلى كوبنهاجن ، أو إلى بنجكوك ، أو إلى القطب ، ثم أقتلها بمسدسي هذا .

الآن تستطيع أن تنصرف .

قال ذلك وأعاد المسدس إلى جيبه ، ثم جذب نفساً قوياً من سيكارته وسكت

ونفرس هردر في وجه صاحبه الكهل الثقيل النذر فهم أنه يفعل ما يقول . ومثل هذا الرجل الجريء القلب لا ينكص عن غاية ولا ينكل عن جريمة . فإذا تركته إميلي فكأنها أمضت قرار موتها بيدها

ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إميلي قررت السفر ولا بد أن تسافر . ومن الشديد على نفس هردر أن يرى هذه المرأة التي وصل الحب بين قلبها وقلبه لا تبرح تعاني ما يسومها زوجها من العذاب والمهانة . فخطا بضع خطوات بجانب البيارد ، فنهض فراتينيز يلقاه ، فأخرج هردر المسدس الذي في جيبه وسدده إليه ثم أطلقه . فترنح فراتينيز ثم خر صريعاً ليديه على مائدة البيارد . ورنت الطلقة في أذن هردر رنين الوتر إذا انقطع فجأة ، ورأى نقياً صغيراً أحمر في صدغ فراتينيز البرنزي فقال لنفسه : كان لابد من أن يموت أحدهما ؛ والأولى أن يكون الميت فراتينيز لا إميلي . وشعر هردر أنه أتى أمراً مشروعاً ، ولكنه أحس مع ذلك بعض الأسف على الصريع .

ثم ما لبث أن أدركه الخوف ... أدركه الخوف على نفسه ، لأنه لا يريد أن يموت ، ولا يحب أن يكون موته على المشنقة . وأدركه الخوف على إميلي ، لأنها ستصبح بعده من غير صديق ولا سند . وشق عليه أن يتصورها وحيدة في هذا العالم عرضة للهم الجريئة ، وغرضاً للطاعن البذيئة ، فرأى أن ينصرف من فوره على عجل . أيخرج من الدهليز المؤدي إلى الهول ؟ كلا . إن ذلك آخر ما يفكر فيه . إن أمامه النافذة ؛ فنظر هردر إلى الجثة نظرة ، ثم لمح في الظلام الناشئ سيكارة القتيل تبص على البساط الأخضر فالتقطها وألقاها في النار . ثم هتك طرفاً من الستار المضروب على النافذة وأطلع فرأى النور في الفناء أضوأ منه في الحجرة . ثم لبس قفازه وألقى على الجثة النظرة الأخيرة ، وقفز من النافذة فكان في الفناء البلط بالقرميد . والتفت فإذا الستار قد عاد إلى حاله ؛ ونظر حواليه فلم يجد إنساناً يدب ولا نافذة تضيء ، فأحس نحو باب من الأبواب ودفعه فانفتح مصراعاه عن طريق غير نافذ ، فارتد عنه وجال حتى اهتدى بعد لأي إلى ساحة البحرية .

ثم أوحت إليه بديهته عفو الساعة أن يمثل مفتش أثره ، فقرر أن يعود إلى الفندق من بابه العام ، فدخل الردهة على مهل وجرأة ، فرأى بواباً تلفع بالظلام فحياه وسأله عن غرفة خالية . فقال له : ياسيدي ، إن المدير قد سافر إلى لندن ، والوكيلة قد خرجت لبعض شأنها ولا تلبث أن تعود . فهل تتفضل بالجلوس ؟ ثم أنار البواب الهول فدخله هردر مخطوف البصر واستوى على أحد المقاعد ثم قال : هل أستطيع أن أشرب كأساً من الكوكتيل ريثما تجيء ؟ فأجابه البواب : تستطيع ياسيدي ولا شك . وسآتيك به أنا نفسي ، فإن الغلام انقطع بهذه الأمور لا يعمل اليوم . ثم ولى ، وخلا القاتل إلى نفسه فقال وهو يصوب نظره في الدهليز الطويل : فندق عجيب ! أيستطيع هذا الخادم أن يديره وحده ؟ ولكن لا عجب فنحن في فصل الكساد . ثم سأل نفسه : ليت شعري ألم يسمع طلقة المسدس أحد ؟ ثم أخذته رغبة قوية في الهرب ، ولكنه راجع حلمه واستعاد جأشه . ودخل البواب

بالكوكتيل فتجرعه هردر ثم نقده فيه ثمانية عشر بنساً وشكره عليه . ثم قال له : أنا ذاهب الآن في بعض أمري وسأعود عما قليل . ثم انصرف وقيد الخطو رابط الجأش حتى غاب في الظلام .

وانكأ لوماكس هردر على حاجز الرصيف وكل ماحوله جامد وصامت ، فلا عين تراه، ولا أذن تسمعه . ومع ذلك أجال بصره حواليه فلم يجد إلا نجوم الليل تلمع في الفضاء ، وأضواء السفن تسطع على وجه الماء . فأخرج المسدس من جيبه وألقاه في اليم . ثم التفت فرأى من وراء المرفأ الصغير ذلك المدرج العجيب الذي تتألف منه المدينة الزاهرة . وسمع دقات الساعات ترن في قباب المعابر والكنائس .

إنه قاتل ، فلماذا لا ينجو بنفسه من المطاردة ؟ هل كان لقاتل آخر أن يظل على حاله الطبيعية من ثبات القلب وراحة الضمير ؟ لقد كان كل شيء على خير ما يريد أن يكون : لم يره البواب لدى دخوله الفندق أول مرة، ولم يره عند خروجه منه بعد الجريمة. كذلك لم يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، لا في حجرة البلياردو ، ولا على متكأ النافذة ، ولا فوق بلاط الفناء. ولكن هناك فرضاً واحداً ، هو أن يكون أحد الناس رآه وهو يتسلق النافذة . ذلك فرض بعيد ، ولكنه على أية حال ممكن . ولم لا يكون بعض من يعرفون فرانتينج قد رآه وهو يسير مع في الطريق فيخبر بذلك الشرطة ؟ كذلك هذا الفرض لا يؤدي إلى نتيجة ؛ فان منظر هردر ليس فيه ما يستدعي الملاحظة العرضية إلا جبهته الضخمة وهي مستورة بقبعته . إن القاتل يرتكب في العادة أمراً لا يخلو من إنكار العقل ، ولكن هردر لا يجد فيما ارتكب مخالفة لعقله ولا إساءة إلى ضميره . وكل ما شعر به بعد أن قتل فرانتينج أنه آسف على أن دفعته الظروف إلى هذه النهاية

كان من المقضي على أحدهما أن يموت . فهل يرفض العقل السليم أن يموت رجل غليظ القلب فظ الطباع ، وتحيا امرأة لطيفة الروح رقيقة الشمائل؟ لقد شغف قلبه الحب الخالص لا ميلي ، فهو لا ينكل عن قتل مائة رجل إذا كدروا عليها صفو الحياة . وهو جبل النية فلا يبنى على إخلاصه لها ودفاعه عنها جزاء ولا شكراً . وللمذكر ما صنع فرانتينج بكتابها حين مزقه وأحرقه وأشعل من ناره سيكارته ، ثأر الدم في وجهه من الغضب

ودقت إحدى الساعات دقة الربع فاتجه مسرعاً إلى الرصيف واستقل سيارة إلى المحطة . ووسوس إليه الخوف أن رجال الشرطة يراقبون المسافرين ، ولعلهم يكشفون الجريمة . وخيل إليه أن السائق ينظر إليه نظرات غريبة مريبة ، ولكنه صرف عن نفسه هذا الوساوس وتقدم إلى مراقب التذاكر فأراه تذكرة الإياب ؛ ثم صعد في عربة بولمان وتحرك القطار . فلما بلغ محطة فكتوريا ساوره شيء من الخوف والقلق ، فقد وقع في حسبانه أن البوليس السري ربما تلقى خبر الجريمة عن طريق البرق فهو يترقبه

كان القطار القائم من (فكتوريا ستريت) إلى (هرويش ماريتيم) غاصاً بالناس من كل طبقة ، فلم هردر من سقاط الأحاديث أن مؤتمراً دولياً سيعقد في كوبنهاجن ، فمن البحث عن إسماعيل في هرج القطار وفوضى الركب . وظل القاتل في أثناء الساعتين اللتين قضاهما في القطار مثاراً للخواطر السود والوساوس القاتلة . وقد ذكر أنه نسي قطعة من الرسالة على مائدة البلياردو فعجب من غفلته

كان رصيف الباخرة في المرفأ يموج بالناس موران البحر في يوم عاصف . وكان هردر من شدة الزحام لا يمشي ، وإنما يسير محمولا مدفوعاً حتى بلغ الباخرة على شيء من هدوء النفس ، لأن زحمة المرفأ على هذا النحو تجعل رقابة البوليس السري مستحيلة

صفرت الباخرة ، وفصلت عن الرصيف ، وغرت العباب في بحر الشمال ، وغدت انجلترا صفاً من النور

2017-11-11

على طول الساحل ، فطفق هردر يبحث عن إميلى في المركب من المقدمة إلى المؤخرة فلم يجدها . فظل نهاره متلدداً يتحسر من الهم ويتضور من القلق . وأخيراً تلاقيا . فقد كانت هى أيضاً تبحث عنه . وكان هذا اللقاء المرجو برداً على فؤاده وسلاماً لنفسه . لقد كان لها كل شئ في الحياة . فأخذ يدها اليمنى وجعلها في يديه ، ثم جعل يتأملها في ضوء النجوم وفي نور القمر وفي أضلاء المصابيح . وكانت إميلى واحدة النساء في السذاجة والرزانة والأمانة والعفة ؛ حُسْنها الرائع قَيْدُ النواظر ، ووجهها الحزين السعيد بهجة الخواطر ، وشبابها الغض متعة الأنفس . قصت على هردر ماحملت ، وقص عليها هردر ماحمل ، ثم قالت : وبعد ؟ فقال لها : لم أستطع الذهاب إلى هناك ، فقد ظننت أن هذا أفضل . وأعتقد أن ذلك لم يكن فيه غناء ولا نفع

لم يكن في نية هردر أن يكذبها الخبر . ولكن ماذا عسى أن يقول غير ذلك في مثل هذا الموقف ؟ لقد كذب مرة لئلا يكذب عشرين ، وآثر أن يخدعها بالباطل على أن يفجعها بالحقيقة ؛ فوافقته على قوله ، وشايعته على رأيه ، وقالت وهى تفتر عن ابتسامة ملائكية : الحق معك ، ونِعِمَّا فعلت !

* * *

كان مدير الشرطة ورجل من رجال الخفية واقفين في حجرة البلياردو في فندق (المنظر الجميل) ، وكانت أضواء المصابيح القوية تنير البساط الأخضر وتسطع على جثة فرانتينج الهامدة ؛ وكانت امرأة من خادمات البيت تنصرف بعد أن سألها رجلا الشرطة ؛ وكان يدخل الحجرة ساعة انصرافها رجل ضخم الجثة ، فحيا الشرطيين وأغلق الباب ثم قال :

أنا نازلٌ على صديقى الدكتور فورنيثال ، وقد طلبتموه بالتليفون وهو يعالج حالة من الحالات الدقيقة الخطرة ، فأردت أن أحل محله فيا تريدون . ولعلى رأيتك ياسيدى المأمور في (اسكتلنديارد) . فقال المأمور : الدكتور أوستن بوند ؟ أهلاً وسهلاً !

وتصافح المأمور والدكتور مصافحة الاحترام والود . وسمع رجل الخفية اسم رجل البوليس السرى الهاوى فارتعد إجلالاً ورهبة ، لأنه يعلم أن عبقريته نادرة في كشف الجرائم وتحقيق الحوادث ، وقد استفاضت شهرته بعد أن حل رموز « القبعة الصفراء » ، واللفة الذهبية الخ

قال الدكتور أوستن بوند بعد فحص سريع : أجل . إن المسكين قتل منذ تسعين دقيقة ؛ فمن الذى اكتشفه ؟ — هذه المرأة التي خرجت منذ هنيهة . — ومتى كان هذا ؟ — منذ ساعة — هل وجدتم الرساصة ؟ — ها هى ذى ...

فأخذها الدكتور وفحصها ثم قال : آه ! آه ! إنها نابتة ... مسطحة ... كالعادة

وقال المأمور للشرطى : ادع من ينقل الجثة فقد فرغ من فحصها الدكتور

وكان الدكتور حينئذ أمام المدفأة فقال : إن القتيل كان يدخن سيكارة . فقال له المأمور : هو أو القاتل ؟ فقال : هل اقتفيتم الأثر ؟ فقال المأمور في شئ من الزهو : نعم . وطلب من البوليس السرى مصباح الجيب ، ثم دنا من النافذة وأرى الدكتور بصبات الأصابع على الزجاج ، وآثار الأقدام على الحافة ، ومزقاً صغيرة من نسيج غليظ أزرق . فأخرج الدكتور مجهراً جميلا وأخذ يفحص هذه المخلفات بعناية ودقة . وقال المأمور بلهجة التأكيد : إن القاتل لابد أن يكون طويل القامة : يظهر ذلك من زاوية الإطلاق ؛ وقد كان يرتدى حلةً كاملةً فيها فتق صغير ؛ وكانت نعل حذائه الأيسر مثقوبة ، ويده اليسرى ذات ثلاث أصابع . ولا بد أن يكون قد دخل الغرفة من النافذة ثم خرج منها ما دام البواب يؤكد أن أحداً لم يدخل الفندق غير القتيل في الساعة التي حدث فيها القتل .

2017-11-11

ومضى المأمور يثرثر بمثل هذه التفاصيل حتى قال إنه أعطى المحققين صورة القاتل كاملة . فصفق الدكتور على رأيه بقوله : إن من أغرب الأمور أن رجلاً كهون فرانتينج يترك رجلا يقتحم عليه الحجرة من النافذة ، وعلى الأخص إذا كان هذا الرجل رث الثياب . فقال له المأمور : إنك إذاً تعرف القتيل حق المعرفة . فقال الدكتور : كلا . وانما علمت أن اسمه جون فرانتينج...

أمر المأمور الجندى باستدعاء البواب ، وأخذ الدكتور يفحص الحجرة : يبحث فى كل زاوية ، وينفرس فى كل شىء ، فوقع بصره على قصاصة ورق فى بعض الحنايا فالتقطها ونظر فيها بعين فارغة ثم ألقاها . وجىء بالبواب فسأله المأمور : كيف تؤكد أن إنساناً لم يدخل هذه الحجرة بعد الظهر ؟ فقال له البواب : لأننى لم أترك مكانى لحظة . وكان البواب كاذباً ، لأن الإدارة آخذته بنهايه البارحة من غير إذن ، فهو يدافع بالكذب عن نفسه

— وهل تستطيع وأنت فى مكانك أن ترى البهو كله ؟ فقال الدكتور بوند : كان يستطيع أن يكون هنا قبلا . فاعترض المأمور قائلا : إن الخادمة جاءت هنا مرتين إحداهما قبل أن يجىء فرانتينج ، وكانت النار توشك أن تخبو ؛ فلما عادت بالوقود راعها منظر فرانتينج فانكفأت عنه مولية . فرغب الدكتور أن يكلم هذه المرأة كلتين . فتردد المأمور ، وساءه أن يدخل بوليس هاو فيها لا يعنيه . ولكنه على الرغم من ذلك دعا المرأة . فسألها الدكتور : هل غسلت اليوم هذه النافذة ؟ فأجابته : نعم . فقال أريني يدك اليسرى . فأراه إياها . فسألها فى أى حادث فقدت هاتين الإصبعين ؟ فأجابته فى حادث اسطدام . فأمرها أن تدنو من النافذة وأن تضع كفيها على الزجاج بعد أن تخلع حذاءها الأيسر . فشهقت المرأة بالبكاء . فطمأنها الدكتور وسألها هل فى بعض ثيابها فتوق ؟ فأجابت نعم . ثم انصرفت وفى يدها حذاؤها . وأقبل الدكتور على المأمور يقول له : لقد لاحظت وأنا داخل أن يدها مبتورة الإصبعين . ويحزننى أن يحبط عملك ، ولكنى علمت علم اليقين أن القاتل لم يدخل من النافذة ولم يخرج منها . فسأله المأمور وكيف كان ذلك ؟ فقال إن القاتل لم يغادر الحجرة . فدارت عيون الشرطيين فى الحجرة يبحثان عنه . ولكن الدكتور أشار بيده إلى الجثة وقال : إن القتيل هو القاتل . فقال المأمور وأين أخفى المسدس إذا كان انتحر ؟ فقال الدكتور ذلك ما أبحث عنه . ومن أخطر الأمور أن يلمس أحد جثة المقتول قبل أن يحضر رجال الفن . أنظر إلى جيب المعطف الأيسر ! ألا تراه منتفخاً كأن به شيئاً غير عادى ؟ ابحث فيه . فبحث المأمور فأخرج منه المسدس . فزعم الدكتور وقال : هذا هو ! ثلاث رصاصات أطلقت . فليت شعرى أين أطلق الآخرين ؟ أين الرصاصة التى وجدناها ؟ أنظر ! إنه أطلق النار فاسترخت ذراعه فسقط المسدس فجأة فى جيبه

فقال المأمور متهكماً : وهل أطلق بيده اليسرى ؟ فقال له ولم لا ؟ لقد ظل فرانتينج اثنتى عشرة سنة وهو بطل اعجلترا الهاوى فى الوزن الخفيف . ومراجع فوزه إلى أنه كان يضلل خصمه لأنه أعسر . وقد رأيته يعبنى رأسى مراراً وهو يلاكم . قال الدكتور ذلك واتجه إلى المنصة فالتقط قصاصة الورق وقال : إنها كانت ولا بد عند المدفأة ، فلما فتح الباب أطارها الهواء إلى هذا الموضع . إنها شطر من رسالة ، ولا بد أن يكون الشطر الآخر محروقاً فى الموقد . لقد أشعل به سيكارته . أنظر ! إنها ثرثرة المحتضر ... هى هذه الأخيرة ! إقرأ : فقرأ المأمور « ... أكرر أنى على يقين من حبك إياى ، ولكنك قلت فى قلبى محبتى إياك . وغداً سأترك المنزل ؛ وذلك فراق الأبد » (!)

وبعد أن أثبت الدكتور أوستن بوند بطريقته

2017-11-11

من روائع الأدب الواقعي الإسلامي

كيد معاوية

يفسده الحسين بن علي

للأستاذ دريني خشبه

— ١ —

(في قصر يزيد بن معاوية ليلا)

يزيد — وبعدُ يا رقيق ؟

رقيق — وبعدُ ماذا يا مولاي ؟

يزيد — في أمر أبي معاوية أمير المؤمنين ؟ !

رقيق — أحسن أمر يا مولاي ! أبوك كاتب الرسول ، وأمير المؤمنين ، و ... و ... لا ...

يزيد — و ... لا ... ماذا يا رقيق ؟ أتخفي عليّ شيئاً وأنت وصيي المخلص ... ؟

رقيق — وقد أخذ لك العهد من بعده ، والسيوف مسلولة على رأس الحسين بن علي ومن معه !

يزيد — ما هذا قصدت !

رقيق — فما قصدت ؟ !

يزيد — قد كنت أعرف من جبل رأيه وحسن نظره في جميع الأشياء ، ما الثقة في ذلك ، والتوكل عليه ، مَنّي من البوح بما تجنجمت في صدري له وطلابه إليه ، فأضاع وترك من النظر في شأني ... فالله يجزيه عني بإحسانه ، وينفر له ما اجترح من عهده ونسيانه

رقيق — وماذا جُعلتُ فداك ؟!

يزيد — ... ؟ ...

رقيق — ألا لا تلم على تضييعه إياك فانك تعرف تفضيله لك ، وحرصه عليك ، وما يخامره من حبك ، وأن ليس شيء أحب إليه منك لديه ، فاذكر بلاءه واشكر حياءه ، فانك لاتبلغ من شكره إلا بعون من الله !

يزيد — ... هذا حق يا رقيق ... هذا حق ... وا أسفاه على ما فرط مني !

— ٢ —

(في قصر الخلافة)

حاجب — رقيق ، وصيف سيدي يزيد يا مولاي

رقيق — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا رقيق ، ماذا جاء بك ؟

رقيق — رسالة من سيدي يزيد !

معاوية — ماذا قال لك ؟

رقيق — إنه شكا إليّ فقال ، ولم أدر ما عني

الخاصة وأدلته القاطعة أن رجال البوليس السري لايعلون في الذكاء على الحمير ، ألقى التحية على المأمور ، وأومأ برأسه إلى الشرطي ، وخرج منصوراً ظفوراً !

كانت إميلي جالسة صباح ذلك اليوم في ردهة (البلاس أوتيل) في كوبنهاجن حين أقبل عليها لوماكس هردر وفي يده صحيفة إنجليزية ، فقرأ عليها تفاصيل التحقيق وقرار المحكمين بأن فرانتينيز قضى منتحراً . فقال من المرأة الشابة هذا الخبر فبكت زوجها أحر بكاء . ونظر إليها هردر نظر الحنان والعطف وقال في نفسه : إن الزمن بلسم الفؤاد الجريح . أما أنا فقد أكرهت على ما فعلت . وسيكون هذا السر بيني وبين نفسي حتى ألقى الله

« مجلة سهيان ٢ فبراير » الزيات

معاوية — ويحك ! انطلق فادعه إلى ، والله ما أضمنا منه إلا رحمة له وكراهية لما شجاه وخالف هواه (يخرج وتدخل ميسون زوج معاوية)

ميسون — لأمر ما كان رفيق هنا الساعة ؟ أمن عند يزيد أقبل ؟

معاوية — من عنده أقبل ، ولست أدري لماذا ؟

ميسون — أيكون به مرض ؟

معاوية — ما به هذا ، ولكني أعرف ما به ، إنه داؤه القديم عاوده !

ميسون — داؤه القديم ؟ ! وما داؤه القديم يا معاوية ؟

معاوية — أُرَيْنب ابنة إسحاق !

ميسون — وما في الدنيا من حي خير من أرينب فتشغله عنها ؟

معاوية — لكنه الحب يا ميسون ! أما والله ما رأيت في بنات العرب من لها لفتتها وإشراقها وحسن مبسمها وهضيم كشحها وأريج ريالها !

ميسون — لكنها تزوجت ، وعليها الآن عبد الله بن سلام [1] عامك على العراق !

معاوية — يا لك ؟ ! أيضيق بهذا معاوية وما ضاق بابن أبي طالب من قبل ؟ !

ميسون — إذن ! ...

معاوية — إذن ... فسكتي !

— ٣ —

(تخرج ميسون ويدخل يزيد)

يزيد — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا يزيد من أب ساءه ما قلت ! ماذا أضمنا من أمرك وتركنا من الحيطة عليك وحسن النظر لك حيث قلت ما قلت لرقيق ؟! قد تعرف رحمتي بك ، ونظري في الأشياء التي تصلحك قبل أن تخطر على وهمك . وكنت أظنك على تلك النعماء شاكراً ، فأصبحت بها كافراً ، إذ فرطت من قولك ما أزمتني فيه إضاعتي إياك ، وأوجبت على منه بالتقصير ؛ لم زجرك عن ذلك تخوف سخطي ، ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتي ، ولم يردعك عنه حق أبوتي ! فأي ولد أعق منك وأكيد ، وقد علمت أني مخطأت الناس كلهم في تقديمك ، وتزلهم لتوليتي إياك ، ونصبتك إماماً على أصحاب رسول الله عليه وسلم ، وفيهم من عرفت وحاولت منهم ما علمت ! [1]

يزيد — (وقد أخذته الرجفة ، وأخذ يتصد من العرق) أبي يا أمير المؤمنين ! لا تلزمني كفر نعمتك ولا تُنزل بي عقابك ، وقد عرفت نعمة مواصلتك بِرّك ، وخطوتي إلى كل ما يسرك في سري وجهري فليكن سخطك ، فإن الذي أرثي من أعباء حمله وثقله ، أكثر مما أرثي لنفسي من ألم مابها وشدته ؛ وسوف أعلمك أمري ... كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله بقاءه ، نظراً في خيار الأمور لي ، وحرصاً على سياستها إليّ ... وأفضل ما عسيت أستمدُّه بعد إسلامي المرأة الصالحة ... وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أرينب بنت إسحاق ، وكمال أدبها ما قد سطع وشاع في الناس ، فوقع مني بموقع الهوى فيها ، والرغبة في زواجها ، فرجوت ألا تدع حسن النظر لي في أمرها فتركت ذلك حتى استنكحها زوجها ، فلم يزل ما وقع في خلدي ينمو ويعظم في صدري حتى عيل صبري ، فبحتُ بسري . فكان مما ذكرت تقصيرك في أمري ، فالله يجزيك أفضل من سؤالي وذكري ! !

معاوية (وقد آله بكاء يزيد) — مهلاً مهلاً يا يزيد

(١) ابن قتيبة ، ولم يذكره الطبري

(١) يشير معاوية إلى ما صنع مع الحسين في أخذ العهد ليزيد فقد أوقف فوق رأسه وفوق كل من رؤوس أصحابه رجلين شاكي السلاح بحيث لو اختج أحدهم انقلاه !
(٢)

يزيد — علام تأسرنى بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل ؟

معاوية — فأين حِجاك ومروءتك وتُقاك ؟!

يزيد — قد ينلب الهوى على الصبر والحجا ، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتُقاه ، أو يدفع ما أقصده بحجاه ، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام ، وقد خبرك القرآن بأمره

معاوية — فما منعك قبل الفَوْت من ذكر ما بَتَلك ؟

يزيد — ما منعنى ؟ منعنى ما كنت أعرفه وأثق به من جميل نظرك

معاوية — صدقت يازيد ! ولكن اكتم يابنى أمرك بحلمك ، واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن

— ٤ —

(معاوية وميسون)

معاوية — ألم أقل إنه الهوى وحُرَق الحب ؟

ميسون — أرجو ألا تكون قد لنت له ولا أن تكون قد قسوت عليه فيجن جنونه فى الحالين !

معاوية — بل أخذته بهما معاً ، وإنى مُزوّجه من أُرينب حتى لا يعاوده هواه فيُفسد عليه أمر الخلافة .

ميسون — تزوجه من أرينب وهى نحت رجل من عمالك يا معاوية ؟

معاوية — ولم لا ؟ أمي أعقد من نصر حصلنا عليه من هزيمة مؤكدة ؟

ميسون — وزوجها ؟ ! إنه يهواها ، ولايزن الدنيا كلها بها ... ثم هى ... إنها تهواه وتخلص له الحب ...

معاوية — سترين يا ميسون كيف أملك من شيطان الهوى ما ملكت من شياطين العرب قبل

(وينادى) يا غلام ! (يدخل غلام حدث)

معاوية — قرطاساً ويراعةً يا غلام !

(يخرج الغلام فيغيب لحظة)

ميسون — هذا أمر له ما وراءه ، وإن ألسنة العرب ما تزال إلباً عليك ، والرأي أن نشغل ابننا برومية أو شآمية تخلبه ...

معاوية — أية رومية وأية شآمية يا ميسون ؟ إنها أُرينب ... وإنه الحب !

(يدخل الغلام بالقرطاس والقلم)

معاوية — (يكتب لحظة) أتقرأين يا ميسون ؟

ميسون — (تقرأ) ... وأنى لحظ لابن سلام يا ترى فى أن يُقبل ؟

معاوية — ستعرفين قصيراً يا ميسون ؟

— ٥ —

(فى قصر ابن سلام بالعراق)

ابن سلام — يا لها من رؤيا يا أُرينب !

أرينب — أية رؤيا يا عبد الله !

ابن سلام — ليل ينجاب ولكن لا يطلع صبحه !

أرينب — أكان فيه قمر يا عبد الله ؟ !

ابن سلام — ولم يكن فيه إلا نجم واحد يلمع ، تُقبل عليه أنجم مُثيلة تدخل وتطلع ...

أرينب — أجل هذه رؤيا ، وإنى صاحبتها ..

(يدخل رسول)

الرسول — السلام على عامل أمير المؤمنين

ابن سلام — وعلى رسول أمير المؤمنين السلام

(ويسلم الرسالة) (يخرج الرسول)

ابن سلام — (بعد أن يقرأ الرسالة) أُرينب ، جعل الله رؤياك حقاً ... خذى فاقرأى

أرينب — بل اقرأ أنت ، فقد أزعجتنى رؤياك

ابن سلام — (يقرأ) أَقبِلْ حين تنظر فى كتابى هذا ، لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه ، فَأعِدَّ للسير والاقبال (ينظر إلى أرينب)

أرينب — إى والله ! إنى لصاحبة رؤياك ، وإن

الله جاعلها حقاً ...

ابن سلام — ماذا يا أريب ؟ ! أمير المؤمنين يدعوني لأمرٍ حظي فيه كامل

أريب — وحظي فيه عار يا عبد الله !

ابن سلام — وكيف ؟

أريب — أما وكيف ... قـ ... عساك لم تكن تعلم بما أبدى يَزيد من الرغبة في زواجي ، وما كان من تفضيلنا إياك ، لحب تبادلناه وجاوِ رغبناعته ...

ابن سلام — أريب ماهذه الوساوس ؟ اطمئني يامنية القلب . إن أكبر ظني أنها ولاية جديدة أعظم من العراق ... لابد أن أسافر وأن آخذ المسير كما أمر مولاي أمير المؤمنين ... أريب (وينهض إلى خزانة من حديد) إليك جل مالي ، وخيرة ما ادخرت للمستقبل (يقدم إليها بدرات)

أريب — بل دعها حيث كانت يا عبد الله ... واضرع إلى الله أن يرعاك وأن يجنبك كيد ابن أبي سفيان

— ٦ —

(في قصر الخلافة بدمشق)

معاوية — مرحباً بكما يا حبيبيّ ، وصاحبيْ رسول الله ...

أبو هريرة — مرحباً بك يا أمير المؤمنين

أبو الدرداء — مرحباً بك يا صفيّ رسول الله وكاتبه الأمين !

معاوية — أما والله لقد دعوتكما لتمحصانيَ النصيحة ، وإني لأعلم أنكما من أحب الناس إلى رسول الله

أبو هريرة — صلى الله عليه وسلم يا أمير المؤمنين

معاوية — إن الله قسم بين عباده قِسَماً ، ووهبهم نعما ، أوجب عليهم شكرها ، وحتم عليهم حفظها ، وأمرهم برعاية حقها ... وقد حباني عزّ وجل بأعز الشرف ، وسمو السلف ، وأفضل الذكر وأغدق اليسر ، وأوسع عليّ في رزقه ، وجعلني راعيَ خلقه ، وأمينه في بلاده ، والحاكم في أمر عباده ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ... وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقده ، وينظر فيه فيمن استرعاه الله أمره من أهله ، ومن لا غنى به عنه ... وقد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها ، والنظر في تبعّل من يريد أن يباعلها ... وقد رضيت لها عبد الله بن سلام ، لدينه وفضله ، ومروءته وأدبه ... فاذا تقولان أنا بكما الله ؟

أبو الدرداء — إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيها ، فيا خصه به منها ، أنت ياصاحب رسول الله وكاتبه

أبو هريرة — وإن عبد الله بن سلام خير من يصهر إلى أمير المؤمنين

معاوية — إذن ، فاذكرا له ذلك عني ... وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى غير أني أرجو أنها لا تخرج عن رأيي إن شاء الله

— ٧ —

(معاوية في مخدع ابنته)

معاوية — أيْ بُنيّة !

عاتكة — أبي أمير المؤمنين !

معاوية — جئتك في تدبير فلا تفسديه ، وإنك لآنت الأدهية الأريبة !

عاتكة — لك أن تأمر يا أبي

معاوية — سيطرق بابك صاحبا رسول الله أبو هريرة وأبو الدرداء ، فاذا عرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه ، وَدَعواكِ إلى مباعلته ، وحضاكِ على ملاءمة رأيي ، والمسارعة إلى هواي ، فقولي لهما : عبد الله كفء كريم وقريب حميم ، غير أن تحته ابنة إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أستخط الله فيه ، فيمذبني عليه ، فأفارق الرجاء وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلةٍ حتى يفارقها

(يطرق الباب رسول)

الرسول — مولاى أمير المؤمنين ، لقد وصل عبد الله بن سلام من العراق

معاوية — لينزل على الرحب والسعة فى أحد منازل الخلافة ، وليكرم الجميع عنى مثواه

— ٨ —

(فى منزل ضيافة عبد الله)

أبو الدرداء — أبشر ياعبد الله ! أمير المؤمنين يؤثرك على العالمين !

ابن سلام — وماذاك جعلت فداك !

أبو هريرة — لقد تخير لعاتكة بعلاً فاختارك لها ، فيا للبشرى !

ابن سلام — أمير المؤمنين يمتحنى هذا الشرف؟

أبو الدرداء — ولهذا أرسل إليك !

أبو هريرة — وهو يحبك حبه يزيد ... أو يزيد !

ابن سلام — أما والله لقد والى علىّ نعَمه ، وأسدى ، وأسدى على من منته ... ثم هو يريد إخلاصى بنفسه ، وإلحاقى بأهله ، إتماماً لنعمته ، وإكمالاً لإحسانه ، فالله أستعين على شكره ، وبه أعوذ من كيده ومكره ! اذهبا يا صاحبىّ رسول الله فاخطبانا إليه علىّ ، وبالله توفيقى

— ٩ —

(فى منزل الخلافة)

أبو الدرداء — السلام عليك ياأمير المؤمنين

معاوية — وعليكما السلام ياصاحبى رسول الله ما وراءكما من عند عبد الله ؟ !

أبو هريرة — لقد أبدى من الجذل ما أفلج لسانه بشكرك والثناء عليك ، وقد جئنا خاطبين عاتكة عليه !

معاوية — ياالله ! لقد كنت أخبر تكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فاخلا إليها واعرضا عليها الذى رأيت لها ، ثم الله لها بخير !

— ١٠ —

(فى منزل صبية عبد الله)

أبو الدرداء — ويحك ياعبد الله ! إن عاتكة تنار ممن تحتك !

ابن سلام — عاتكة بنت أمير المؤمنين تغار من أريبة ابنة إسحاق ؟ !

أبو هريرة — هو ذاك ... ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم !

ابن سلام — وماذا تشترط عاتكة ؟

أبو الدرداء — أن تطلق ساحبتك فيعوضك الله وأمير المؤمنين خيراً منها !

ابن سلام — إذن أشهدكما على طلاق أريبة ، فانطلقا إلى أمير المؤمنين فاخطبا إليه عاتكة !

— ١١ —

(فى منزل الخلافة)

معاوية — ما وراءكما يا صاحبَىّ رسول الله ؟

أبو الدرداء — طلّق عبد الله امرأته ونحن عليه شاهدان !

معاوية — ولِمَهْ ؟ !

أبو هريرة — أبت عاتكة إلا أن يفعل ذلك إذا أرادها زوجة له . وأرى أنها كانت تحسبه لا يطيق فراق أريبة فاشترطت ذلك للتخلص منه ، لكنه فعل ، ونحن خاطباها إليك عليه إن شاء الله !

معاوية — ولِمَ لم أعلم بهذه الخطوة قبل أن تذهبا إليه وقبل أن يقع ما وقع ؟

أبو الدرداء — تالله لقد حسبنا أن هذا يسرك ، فأما وأنت عن هذا غير راض فليت ما كان لم يكن

معاوية — تالله ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بد منه ولا محيص عنه ، ولاخيرة للعباد فيه ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله لابد جار ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا !

(يسلمان ويعودون)

— ١٢ —

(فى مخدع عاتكة)

معاوية — الآن يابنتى أوشك أن ينتهى دورك ، فإذا جاءك صاحبا رسول الله برمضان خطبة عبد الله عليك ، فلا تنسى أنه ليس لك بأهل ، فامدحيه لهما وردّيهما

عاتكة — رحم الله ابن الخطاب يا أبتاه !

معاوية — وما ذاك يا بُنيّة ! ؟

عاتكة — إذ قال لقوم من المسلمين معجبين بدهاء كسرى وحسن سياسته : « لا تذكروا كسرى وفيكم معاوية[1] »

معاوية (متضاحكا) — والله ياعاتكة لقد أنسيته !!

— ١٣ —

(فى مخدع عاتكة)

أبو هريرة — لقد رضيك عبد الله يا بنت أمير المؤمنين وطلق ابنة إسحاق !

عاتكة — علمت من قبل ، وليته ما فعل !

أبو الدرداء — ولم يا عاتكة !

عاتكة — ذلك أنى كنت أرجو أن أكون له لما سمعت من حسن أحدوثة الناس عنه ، وعلو قدره فى قريش ، وجميل بلائه فى الاسلام ؛ بيد أنى حينما استبرأت أمره ، وسألت عنه ، وجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى ، مع اختلاف من استشرته فيه ... ألا وقد نزل الرجل من اعتبارى حين رأيته ينزل بهذه السهولة عن أريبة التى هى خير منى ، وأوفر جمالاً وحجبة ، بعد طول العشرة ، وصفو المودة ... أما والله إنه ما يستأهل منها ظفراً ولا قلامته ! ووالله إنه ما تهالك علىّ إلا وله مآرب عند أبى ، وفى نفسه أطماع من زخارف الحياة. فاذهبا مأجورين أثابكما الله !

— ١٤ —

(عراقيون وشاميون يسامرون)

عراقى — أرأيت يا أخا العرب كيف خدع صاحبكم عبد الله ؟

شامى — ومنذ الذى نجا من كيد ابن أبى سفيان ؟ ألم يخدع ابن العاص وهو ثعلبة العرب !

عراقى آخر — وىْ ! خدعه ابن أبى سفيان حتى طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، فبئس ما استرعاه الله أمر عباده ، ومكنه فى بلاده ، وأشركه فى سلطانه

شامى ثان — المنفل عبد الله يا صاح ! كيف نزل عن صاحبته قبل أن يتمكن من عاتكة ؟

عراقى ثالث — لقد دعاه معاوية من العراق لهذا الأمر

عراقى رابع — فانظر كيف خدعه !

عراقى خامس — وما صنع عبد الله يا صاح ؟ !

شامى ثالث — حبسه أمير المؤمنين فى جنة ما كان يحلم بها !

شامى رابع — بل هو فى لوعة وشجن ! لقد والله براه الحزن ، وأوهاه الكمد ، ولقد رأيته فما عرفته لولا أن دلنى عليه ماضيه الذى يترقرق دموعاً من عينيه ، ويصعّد آهات من صدره ! وبلغنى أنه أذهب ما كان معه من المال فى الهدايا والرشا ليخلص مما هو فيه ، ولينطلق إلى العراق ، وهو ما يستطيع !

— ١٥ —

(فى حضرة معاوية)

معاوية — ماذا يقول الناس يا أبا الدرداء ؟ أتشهد علىّ أنى خدعت ابن سلام ، وإنما والله أنا الذى لمانكة خطبته ؟ !

أبو الدرداء — والله ما شهدت بهذا أبداً ... فأنا أعرف من هذا الأمر ما لم يعرفه غيرى وغير أبى هريرة !

معاوية — إذن ، فلم لا تتكلمان فى الناس بهذا ؟

أبو الدرداء — وما يهمك من الناس يا أمير المؤمنين ما دمت براء مما يهرفون ؟ !

(١) الطبرى ج ٦

معاوية — تالله إن فى نفسى لشيئاً يا صاحب رسول الله ! أو لم تَنْتَه أقراء[1] بنت اسحاق ، فتذهب أنت إلى العراق لتخطبها على ولدى يزيد ؟!

أبو الدرداء — نِعم ورنيما يا أمير المؤمنين ! والله إنه لرأى ! وإنك لتموض أريب كف ، أكيف

معاوية — إذن فاذهب ، وافرش لها الطريق من العراق إلى الشام ذهباً !

— ١٦ —

« فى منزل الحسين بالعراق »

أبو الدرداء — السلام عليك يا ابن بنت رسول الله يا سيد شباب أهل الجنة !

الحسين — مرحباً مرحباً بك يا أبا الدرداء يا صاحب رسول الله وجليسه ! والله يا أبا الدرداء لقد أحدثت لى رؤيتك شوقاً إلى رسول الله ، وأوقدت مطلق أحزاني عليه ، فانى ما رأيت منذ فارقته أحداً كان له جليساً وإليه حبيباً إلا حملت عيناى وأحرقت كبدى أسى عليه وصبابة إليه ! (ويبكي آحر البكاء)

أبو الدرداء — (وهو يبكى مستعطفاً فى البكاء) جزى الله لُبانة أقْدَمَتْنا عليك وجَمَعَتنا بك خيراً يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — والله إنى لذو حرص عليك ، ولقد كنت بالاشتياق إليك !

أبو الدرداء — أرسلنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أريب ابنة إسحاق ، فرأيت ألا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك ، والتسليم عليك ، لأنك الآن سيد أهل العراق

الحسين — والله يا أبا الدرداء لقد هالنى ما نال ابنة إسحاق فَرَقٌ لها قلبى ، وأردت نكاحها لأخفف عنها ، لكنى قلت : أرسل لأبى الدرداء حبيب جدى رسول الله أستشيره . وها قد أتى الله بك ، وهى صدفة خير من ميعاد . فهل رحمك الله فاخطب على وعليه ، ولتختر هى من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه

أبو الدرداء — أفعل إن شاء الله يا ابن بنت رسول الله !

— ١٧ —

(فى منزل عبد الله بن سلام)

أبو الدرداء — والله يا أريب لقد جزعنا لك ، وأهمنا أمرك ، وها قد عوّضنك الله خيراً من صاحبك . يزيد بن معاوية أمير المؤمنين وخليفته من بعده ... أو ... الحسين بن على ابن بنت رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة .. وقد بلغك سناها وفضلها ، وجئتك خاطباً عليها ، فاختارى أيهما شئت ، وقد وكلانى !

أريب — (بعد صمت طويل) : يا أبا الدرداء ! لو ألف هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى ، لأشخصت فيه الرسل إليك ، وائمرت فيه برأيك ، ولم أقطعه دونك ، على بعد مكانك ، ونأى دارك ، فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاها لديك ، والله شهيد عليك ، وقاض فيه قضاء ذى التحرى التقى ، ولا يصدّنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرها عليك خفيًا ، وما أنت عما طوقتك عميًا ... أما ابن سلام ! فوا أسفاه مع ما فرط منه عليه !!

أبو الدرداء — أيتها المرأة ! إنما علىّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك !

أريب — عفا الله عنك يا أبا الدرداء ! إنما أنا بنت أخيك ، ومن لا غنى بها عنك ، ووالله لأقطع

(١) الأقراء جمع قرء بضم القاف عدة مرات الحيض ويقصد بها هنا عدة مرات الحيض المشروعة بعد الطلاق لتحل المرأة لغير مطلقها واختلفوا فى القطع ، وبعضهم يجمعه على قروء بالضم ، والعلماء على أن قروء جمع قرء الطهارة

2017-11-11

فى هذا الأمر إلا بما تشير به علىّ ، ولا أصدر فيه إلا عن رأيك !

أبو الدرداء — أىْ بُنيّة ! ابن بنت رسول الله أحبها إلىّ ، وأرضاها عندى ، والله أعلم بخيرها لك ! وقد كنت أرى رسول الله يضع شفتيه على شفتىْ الحسين يقبلهما ، فضى شفتيك حيث وضع شفتيه رسول الله !

أريب — قد اخترته إذن ورضيته ، وأنعم بابن بنت رسول الله وحبيب رسول الله !

— ١٨ —

(فى منزل الحسين بالعراق)

الحسين — انظر يا غلام من الطارق !

الغلام (بدهشة) — رجل أغبر أشعث يامولاى ، يبدو أنه يطلب سؤلا !

الحسين — ولم لا تعطيه ياغلام ؟

الغلام — خشيت يامولاى ، لأنه يلح فى لقائك الحسين — وماذا يحبسناعن الناس؟ أدعه فليدخل

(يدخل الرجل) من ؟! مرحباً مرحباً يا أخى عبد الله !

عبد الله (والعبرات تترقرق فى عينيه) السلام عليك يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — وعليك سلام الله يا ابن سلام ! أمحزون أنت ؟

ابن سلام — إى والله ! ولكنى جئتك فى مسألة حبذا لو قضيتها لى ... لقد أصفرت[1] بعد هذه النكبة التى اجتاحت يدى وقلبى معاً ، وقد كنت استودعت أريب بدرات من الدر والجوهر هى جل مالى ، فلو كلمتها فيها لترد علىّ شيئاً منها أستعين به على حالى ...

الحسين — حباً وكرامة يا ابن سلام ، فانتظر

(يخرج الحسين فيغيب لحظة ثم يدخل) هل من حرج فى أن تقدمها إليك أريب بيدها يا ابن سلام ؟

(١) أصفر : افتقر

ابن سلام — هذا تفضل يا ابن بنت رسول الله !

الحسين (ينادى) — هلمى يا أريب

(تدخل مسرية فى سواد)

أريب — السلام عليك يا عبد الله ! هاك بدراتك ، والله ما امتدت إليها يد ، وما عرفت ما بداخلها إلا منك !

ابن سلام — شكراً لك يا ابنة إسحاق (يحل رباط واحدة ويقدم لها ما فيها) لشد ما يسعدنى أن تقبلى هذه منى ! (ويبكى بكاء شديداً)

أريب — لا والله ما أمد إليها يدى ، وإنى لفى سعة من فضل الحسين !

الحسين — يا ابن سلام ! أيسرك أن تكون أريب لك ؟

ابن سلام — حسين ؟ ماذا تقول ؟ !

(تتحدر دموعه على خديه)

الحسين — وأنت يا أريب ! والله ما صنعت الذى صنعت إلا لأحتفظ بك لرجلك ، لأنى عرفت أنها خدعة من معاوية ، فقلت أفسدها عليه !

ابن سلام — (يأخذ بد الحسين فيقبلها ، وكذلك تفعل أريب)

الحسين — بارك الله لكما ... يا أريب ! أنت طالق ... وأنا الذى سوف أعقد لكما ...

ابن سلام — إذن ليُرَدّ إلى ابن بنت رسول ما دفعه من مهر أريب

الحسين — ولا ذاك يا ابن سلام ، بل هو هدية خالصة منى لها ولك ...

— ١٩ —

(فى منزل الخلافة بدمشق)

معاوية — والله يا ميسون لقد كنت أشد بَلَهاً من أبى الدرداء إذ أرسلته فى مثل هذا الأمر !

ميسون — الحمد لله الذى أفسد عليك ماحاولت ! قلت لك نشغله برومية أو شآمية فما رضيت !

جنون لحظة

ترجمها عن الانكليزية

الأستاذ عبد اللطيف النشار

لم تَعفُ « مايبل دروهام » فى لحظة من اللحظات عن « جيم بنيت » لأنه تركها وتزوج من « فيث »

وقد كانت « مايبل » تحب « جيم » فى عهد ما وهو العهد الوحيد الذى عرفت فيه معنى الحب . وكان « جيم » قوى الجسم ذا بسطة فيه تتبين المرأة فى تخايله كل معانى الرجولة

وبعد فترة من تعارفهما تزوجت « مايبل » من تاجر اسمه « مارتين سميث » فى الستين من العمر ، وتزوج جيم من « فيث وستون »

وبعد عهد قصير مات المستر سميث وقررت مايبل أن تذهب إلى مدينة « بنتود » وتقيم مع أبويها ؛ ولم يكن يبدو على وجهها فى هذا الدور شئ من الحزن الذى يبدو عادة على وجوه الأرامل . واعتادت وهى فى بيت أبيها أن تجلس أمام النافذة وتطل منها

ورأت « جيم » قبل أن يراها . ولما رآها تردد لحظة ثم تعارفا فمد إليها يده مصافحاً ، وكان قد عفا عنها لأنه كان قد وجد عوضاً عنها فى زوجته . فردت تحيته بقولها : « لقد مضى وقت طويل على لقائنا للمرة الأخيرة ، فإنى لم أرك منذ تزوجت من فيث وستون » ثم ابتسمت وقالت : « هل تذكر تلك الأيام التى كنت أنتظر فيها عودتك بالقرب من باب المحطة ؟ »

وكان صوتها فى خطابه صوت الود ونظراتها إليه كأنها نوع من الداعبة . أما نظراته إليها فكانت تخلوها من المعنى كأنها نظرات الأطفال . وقد أدركت ذلك وأصرت على أن تعاقبه على هذه الجفوة فتريه أنها وقد مضى عهدها معه لا تزال تستطيع أن تؤثر فى قلبه أكثر من « فيث » على الرغم من رابطة الزوجية ومن علاقة الأبناء . ولذلك شفعت نظرتها الأولى بنظرة تستثير كامن الحب من كل القلوب ، وسارته قليلاً ثم ودعته دون أن تأخذ موعداً منه

ولما ذهب « جيم » إلى منزله كانت « فيث » قد أنامت رضيعيها التوأمين بعد أن خرجت بهما من الحمام . ولم يكن فى نساء الحى سيدة أكثر عناية بمنزلها من « فيث » فكان الكل يدعون منزلها بالعش الأنيق . وكانت تنتهى من خدمة المنزل كل يوم قبل مجئ زوجها لتتفرغ إليه . وعند عودته فى هذا اليوم ، تلقته بما اعتادت أن تتلقاه به من البشاشة والود ، وجلسا إلى العشاء . وفى أثنائه قال جيم عرضاً إنه قابل اليوم « مايبل سميث » فانصرفت عينا « فيث » إلى المرأة وقالت ببطء : « إن ، مايبل جميلة ، يا جيم »

نظر جيم إلى زوجته وقال : أتظنين ذلك ؟ إنني لا أعجب بهذا الطراز »

قالت وقد أرادت مشاغبته : « أتقول ذلك الآن ؟ لقد كنت شديد التعلق بها يا جيم »

فكان جوابه أن وضع ذراعه حول عنقها وقال : « كان ذلك في عهد الصغر والحماقة قبل أن أعرفك وأعرف بك كيف يكون الحب »

فالتفتت إليه فجأة وقبلت فمه

وبعد يوم أو يومين ذهبت مايبل لتزور « فيث » ورأت توأمها فقالت : « ما أبدع هذين التوأمين ! »

لكن لهجتها لم تكن دالة على الإخلاص . وجرى الحديث متنوع الضروب . وعند انصرافها قالت : « إنني لم آت إلا لأرى طفليك ، ولكني تذكرت الآن أن في فندق المدينة حفلة راقصة ، فهل تأتين مع « جيم » لتتعشى هناك وتحضر هذه الحفلة ؟ »

قالت فيث : « أشكر لك هذه الرقة ، ولكني لا أستطيع أن أترك الطفلين خصوصاً وإن أمي متنحية عن المدينة . ولكني أثق بأن « جيم » يسر من حضور هذه الحفلة »

وعاد « جيم » فأخبرته زوجته بهذه الزيارة ولم تعترض على ذهابه وحده إلى الحفلة . فكانت نجوى « جيم » بينه وبين نفسه أن زوجته لا بد أن تكون بلهاء إذ سمحت له بالذهاب وحده مع جميلة مثل « مايبل » ، أم لعل حبها قليل عكس ما يبدو عليها من مظاهر الحب فهي لذلك قليلة الغيرة

وتشبث هذا الخاطر بذهنه وغا فكر مزاجه . وكأن كل من ينتظر الحب لابد أن ينتظر معه الغيرة . فذهب « جيم » إلى الحفلة وهو متم ، ولأجل تفريح غمه أطال السهرة مع « مايبل » وأكثر من التودد إليها رغبة في التسلية ...

وعاد إلى منزله في ساعة متأخرة فلم تبد زوجته أقل اعتراض

وبعد ذلك مرض التوأمان فاشتدت عناية الأم بهما واشتغلت عن الالتفات إلى حضور زوجها وانصرافه . واستمر هو يقابل خليلته كل ليلة . وكان في كل يوم يزداد تأثراً من زوجته لانصرافها عنه ، ولعدم محاسبتها إياه على موعد حضوره .

وفي إحدى الليالي كان « جيم » جالساً بغرفة في الفندق مع « مايبل » فسألته تلك : « أخبرني هل زوجتك عمياء ؟ لماذا تتركك وحدك كل ليلة ؟ »

فقال وهو يظن زوجته تنظر إليه وتسمعه في هذه اللحظات من وراء ستار : « الحق أنني أعجب من ذلك يا مايبل . وقد بدأت أشك في حبها » فطوقت مايبل عنقه بذراعيها وهمت أن تقبله لولا أن دخلت « فيث » في هذه اللحظة فنظرت نظرة حادة إلى وجه زوجها ثم إلى وجه مايبل

وخارت قوى الأخيرة فلم تملك غير أن ذرف الدموع وخرجت متسللة إلى الطريق ، وهي تقول

فى نفسها : « إن هـذه اللحظة هى التى انتصرت فيها علىّ « فيث » ولكنها مع شعورها بالانتصار قد شعرت بالذل أيضاً

وجلس الزوج وجلست الزوجة وظل كلاهما صامتاً . وأخيراً تمالك « جيم » قواه وقال بلهجة اليائس : « ماذا تريدينى أن أقول يا فيث ؟ » فقالت: « وهل هناك شىء يقال ؟ »

قال : « نعم » ثم ارتمى عنـد قدميها وقال : « لماذا تتركيننى إلى مثل هذه المرأة دون أن تشعرى بشىء من النيرة ؟ » فقالت : « وهل عدم التكلم يدل على عدم المبالاة ؟ لقد كادت النيرة أن تمزقنى ، ولكن العزة كانت تمنعنى عن الكلام . ولقد كدت أجن كلما ذكرت أنك تنتظر غيرتى ، ولا يخطر ببالك أن ترامى عزتى

فنهض « جيم » لما سمع اعترافها بالنيرة وقبلها وقال : « اغفرى لى لحظة جنون . وثقى بأنى لم أنسك فى وقت من الأوقات . فقالت : « لقد غفرت لك هذه وطويت الماضى كله . وإذا كنا قبل الآن زوجين متحابين ، فسوف نكون بعد اليوم أكثر تبادلاً للحب . وثق أن النيرة كامنة وراء الحب ولن تستطيع إظهارها من دون أن تجرح الكرامة »

عبد اللطيف النشار

شركة مصر لنسـج الحـرير
تزود بمنسوجاتها الجميلة
وألوانها المفرحة البهيجة
وأثمانها المعتدلة الرخيصة
الوجيه الكبير . والموظف البسيط . والعامل الصغير
وهى فى متناول الجميع

الموعظة الأخيرة

لإدوار كاترمير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

من لم يعرف الأب أرمان جيميه ، واعظ كنيسة شاريتيه بشارع بواساك ، بحي بيراش ، أغنى أحياء ليون وأجلها وأهدئها لم يعرف أعظم واعظها وأبلغهم ، وأنفذهم إلى أعماق النفوس ... كانت خطبه النيرة تفوق الحد والحصر ، متنوعة ، لم يطرق أثناء حياته الدينية موضوعاً واحداً مرتين ، لأن حياة الروح لديه أغنى من أية حياة سواها ، فابتلعت عالم المادة وهضمته ، واحتوت الكون وطوت الدنيا على السجل للكتاب ، ثم أخذت تجلو الحقائق بعقل جبار وممان خلابة ، وجمل عجيبة ، وألفاظ براقة ؛ فيسحر أنفس مستمعيه ، ويستميل قلوبهم بعد أن يسكرهم برحيق وعظه ، فيستل من حنايا ضلوعهم عوامل الشر الكامنة ، كما تستل المجوز الخبيرة الشعرة السوداء من العجين الأبيض ...

كان خطيب الكنيسة ، قصيراً لا هزيلاً ولا بديناً ، أصفر اللون من طول ما احترق دمه بالتفكير والعبادة ، دميم الوجه في تقاطيعه ، خفيف الظل في مجموعه خفة ظاهرة الأثر في طاعة أتباعه وصريديه من كل طبقة في المجتمع . كان يشوي الأغنياء شيًّا على السفود ويفري جلودهم ويؤنبهم لجشعهم وأثرتهم وطمعهم فيما ليس لهم على قلته ، وعدم قناعتهم بما بين أيديهم على كثرته . ولكنهم كانوا يحبونه ويوقرونه لا خوفاً ولا رهبة ، ولكن لخفة ظله وحسن تمييزه . ثم ينحى على العشاق باللائمة ، فيرسم لهم عاطفة الغرام في صورة الآثام اللاذعة ، ويبغض إليهم الغزل والرقص والخلوة والمعاقرة ، ويندرهم بعذاب النار الذي أصاب بابلو وفرنشيسكا ؛ ولكنهم كانوا يؤثرونه ، ويهمسون فيما بينهم أن جهله بالغرام ، وحرمانه مازالت العشق المحرم أو المحلل يوحيان إليه تلك الخلجات المنكرة على رعايا الزهرة وأهداف كوبيد ! ! فياله من تمثيل ! !

تعريف بالقصة

في الأدب العالمي سوابق نادرة : « نابليس » لأناطول فرانس ، و « الأب سرج » لتولستوي و « مطر » لسومرست موغام . وفي كل واحدة منها يحاول البطل اصلاح امرأة مذنبة فتسبقه إلى الهاوية وقد تتجو هي فتصير قديسة أو تغور بصرها . وفي هذه القصة الصغيرة يصنف المؤلف بيئة معينة ويضرب على سمة جديدة ، وهي حيرة المصلح حيال صاد المجتمع . وتغلب الرذيلة أحياناً على الخير ولو في ظاهر الأمور.

وفي الأدب العربي الصوفي قصة ذي النون المصري ورابعة العدوية ولكنها مبهمة ، ولم توحد حوادثها في نسق واحد ، وقد رووا أنه جذبها في مصر والتي بها في مكة فلم يعرفها لشدة ما تغيرها من حالة الرضى . ولا عجب إذا تنابه الموضوع من نفس الانسانية واحدة في كل العصور والأمكنة ، وكما قيل إن ما ليس على محطية عاشت فعلا في مصر ، فان للسيدة العدوية أشباهاً كثيرة في تمجيد الاله تجمع بينها وبين القديسة نيريزا في الغناء والمحبة البالغة ...

وحتى الفقراء والأجراء والموزين من الطبقات النازلة ، لم ينجوا من سهامه الصائبة . فها هم فريق الناقمين الساخطين الصاخبين الذين يعترضون ويتمرضون ، وينضبون كالأطفال على ما قسمته العناية لهم ، أرأيم يحاربون الأقدار ، أو يثورون على القوة الخالقة ؟ أواثقون أنتم بسعادة المحسودين حتى تنسوا عاطفة الرضى وفضيلة القناعة ؟ ليس فى الامكان أبدع مما كان ! أيها التائرون النوكى ، ولو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع . إن الأغنياء يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ويبذرون أموالهم فى مغريات النفوس من طعام وشراب وقمار ، وإن « محدثى النعم »[1] (نوفوريش) ليشعرون بالأسف على أيام فقرهم ، فتى تهيأ الفرصة لأنسال آدم أن يستلوا من نفوسهم الطمع وحب الذات ليعيشوا كما عاش أجدادهم فى عصر الذهب ، عصر الرخاء والقناعة والحب المطلق ؟ . وكانت جريدة « نوفيل دى رون » لسان حال الفاتيكان ، تنشر خطب الأب جيميه وتذيعها فى أنحاء الولاية الوسطى[2] فتردد عليها « ليون ريبليكان » صدى صوت الأحرار والمتطرفين والاشتراكيين واللاحدة ، ويشير رئيس تحريرها موسيو توزيه من طرف خفى إلى « نفاق الاكليروس » وتدخلهم فيما لا يعنيهم ، وسخطهم على سائر الطبقات والمعتقدات ، حتى لا يرضيهم إلا « الكتلكة المنعمة » التى تريد أن تحكم العالم ومن ورائها « السلطة الرمادية » المبهمة ... ويقرأ الأب جيميه أقوال خصومه ، ويلقى عليها نظرة سخرية ويبتسم ...

وكانت مدينة ليون تزخر بمئات الألوف من الرجال والنساء ، فى مقتبل العمر ، وفى ريعان الجمال ، وتموج بألوان الهوى والفتون .. وقد اشتهرت فتياتها برشاقة القدود وجاذبية الروح ، ووحى العيون . وكانت كنيسة « لاشاريتيه » مفتوحة الأبواب ، مطروقة من كل قاصد وقاصدة ، مُعَدة لهيا كل والأعراف لكل عابد وعابدة ... وقد وقع اختيار الأسقف كاميير دى لوزانج (وهو أحد النبلاء الذين فضلوا مسوح الرهبان على مطاعف الأغنياء من أجداده) على الأب جيميه ليتلقى اعتراف المذنبين والمذنبات ، ولاسيما العذارى اللواتى رزقن بثمرات العشق المحرم ، وألقت بهم أيدى الأقدار على سُرر مستشفى لاشاريتيه الملحق بالكنيسة ، وكبار الجناة من طبقة المتمولين الذى زوروا ودلسوا واحتالوا واختلسوا وسلبوا أموالاً لا طاقة لهم بادخارها ، أواعتدوا على أعراض لاذنب لهويها إلا ما حَبَتْهم به الطبيعة من جمال وفتنة ، وما سلبتهم إياه من قوة لدفع الأذى عن كنوز المحاسن وودائع الفضيلة ، فسلحتهم بالفتان ونزعت منهم قدرة المقاومة

وكان الأب جيميه يعانى الأمرين من عيشة الجفاف فى صومعته ، ولكنه مدرع النفس بالجلال والكمال واحتقار الدنيا وشهواتها ، وقد أنضجت قلبه تجارب الحياة التى رأى أثرها فى آلام الآخرين وهمومهم ..

وأحرقت نزوات نفسه نار العبادة الدائمة ، فغدا يسيربين الخلوة والمعبد ، واللجأ والسجن والمستشفى ،

(١) هؤلاء النوفوريش نشأوا بعد الحرب وكونوا الثروات الطائلة ومن مضرب الأمثال فى اليسر وسوء الخلق واسمهم واحد فى كل اللغات

(٢) مقاطعة الرون عاصمتها ليون الشهيرة بنهاها وجبلها وسلطة الكهنوت ومعامل الحرير

وله تنهدات تشق الصخر ، ولا يسمع لها صوت ، وبكاء بدموع حارة بغير نشيج ، وقد آلى على نفسه ألا يفتح قلبه للغم بالحسرات والفجائع والآلام ، إلا لمحبوبه وربه ، فيشعر وهو يسمع الاعتراف تلوَ الاعتراف ، كأنه مسؤول بذاته عن ذنوب الناس جميعاً ، لأنه أمسى وسيلتهم الوحيدة للغفران ...

كان الأب جيميه في نهاية العقد الرابع ، وما عرف النساء قط ، ولعله لا يذكر أمَّه التي ولدته ، فقد انتزع منها انتزاعاً ، ليتلقى دروس البلاغة واللاهوت ، قبل أن يحذق التاريخ والرياضيات ، لأن أباه وهبه للرب ، وسرعان ما وُفِّي بنذره ، وسلمه لمشيرة الرهبان ، في تلك البعثة الأفريقية ، التي أطلق عليها اسم القارة السوداء لكثرة من هاجر من بنيها ورسلها في سبيل هدى الوثنيين إلى الطريق القويم

فكان الأب جيميه يعيش في سجن سومعته ، وفي سجن أضيق من وصايا الدين والخلق ، ولكنه سجين يقظ للدهر ، يحصي كل لحظة ، ويحسب كل ثانية ، ويعد على نفسه الأنفاس . فعرف في يقظته المحتومة قيمة الخير والشر في خلق الرجال ، وأن المنافقين يفوزون في هذه الدنيا باسم الفضائل ، وأن معظم الجرائم تقترف وراء ستور وتهاويل من الأخلاق . فكان يقول : « لا يدخل في واجبي أن أصلح العالم ، وما عليّ إلا أن أخفف من ويلاته ما استطعت » ومذ حكت عليه رسالته العليا أن يتصل بالنساء ، صمم على ألا يخوض في حديث يتصل بالحب . ونفسه تحدثه بعد أن رأى من تعذيب الجسد أنه قد ينضت إليه ملذات الجسد بغضاً لا رجوع بعده ، وكفر بحب الجنس كفراً لا إيمان وراءه ، وهو الذي لم يتذوقه وإن تذوق الآلام التي تتركها آثاره ، وكان بعد أن يختم مطالعه على العذارى الوالهات ويتلقى من قلوبهن الجريحة وأفواههن المذنبة أحاديث الهوى والهجر والقطيعة ، بعد النوابة والوصل ، يخرج مُبلبل الفكر ، فريسة للهواجس يتلقفه سوء الظن ، وتعبث به السوداء ، ولكن أحداً لم يتخيل ولم يَهِمْ أن ثقة الواعظ المتين الخلق القوي الإرادة تزعزعت في نفسه أو في رسالته القدسية ، فقد عهدوه كالطود الراسخ

* * *

في صبيحة ليلة معطيرة غاب فيها القمر وتوارت النجوم وراء السحب المتكاثفة ، عثر عمال النظافة بجثة عارية لرجل في حدود الكهولة ، وكانت رائحة الخمر تفوح من شدقيه المفتوحين ولسانه البارز ، وكانت عيناه جاحظتين كأنهما ترى ، في البرهة القصيرة التي هي بين الحياة والموت ، منظراً بشعاً أو شبحاً مخيفاً ، وإحدى يديه قابضة على سُرَّته ، وقد تقلصت عضلات اليد الأخرى والتوت أناملها ، فهل تشير إلى نصير يدنو من الفريسة في اللحظة الأخيرة أو تهمُّ بإشتباك الأصابع لتدفع الخطر الداهم ؟

بُهت عمال النظافة ، ووقفوا يتأملون ذلك الوضع الأليم لتلك الجثة المنطرحة على الرغام ، وكأن الروح غادرتها في تردد وألم وخجل ... ولم يعلموا لمن كان هذا الوعاء الأرضي الذي أبى نازعوه أن يواروا سوأته ، وقبلوا أن يجعلوها عرضة للأنظار ! ليس في العالم شيء أدعى للحسرة والروعة من جثة منطرحة على مقروعة الطريق في وضع غريب . إنها لا تثير الضحك ولا البكاء ، ولا تبعث السلوى أو اللوعة ولا تؤدي الموعظة الأدبية ، حتى ولو كانت

2017-11-11

جثة أبلغ الواعظين ! بل تثير الدهشة ثم الروعة فالاشمئزاز فالتقيؤ، ليس أدعى إلى الحنق من صورة الإنسان الجسدية معروضة للإنظار فى حالة العجز المطلق عن النطق والحركة ، ولذا يسرع الأحياء إلى دفن الموتى لئلا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، وتهبط حرارة شجاعتهم إلى درك الجليد الذى لاسعود بعده

جاء الشرط ، وستروا وجه الرجل الطريح ، ولكن بعد أن وقعت عليه الأبصار ووطأه النظارة بأعينهم وهى أقسى فى بعض الأحيان من وطء الأقدام والنعال ... الحى الذى فقد الحياء ولم يفقد الحياة ينظر إلى الميت نظرة وقحة فاجرة ، يعجز عن وصفها أفصح الألسنة ، كبرياء يمازجها شعور الفرح بالنجاة ! كان خيراً للرحمة والفضيلة والكرامة الانسانية أن تحمل الجثة بأقصى سرعة إلى أقصى مكان ، ولكن رأى المحققون والشرط والأطباء أنه خير للحقيقة والعدل أن تبقى أطول فترة مستطاعة بأدنى موضع من مرقدها فلعله مصرعها والمكان الذى لقى صاحبها فيه حتفه حقيقة أو حكما . فليس من المستحيل أن يكون روح القتيل قد فارق جسده فى أقصى المدينة شرقاً أو غرباً ، وإن القاتل الماكر استطع حيلة النقل تضليلاً للباحثين ؛ وأن شوارع ليون فى الليل لتنطوى على أسرار أغرب وخفايا أروع من أسرار باريس وخفاياها ، لأنها مدينة مقفلة الأبواب والنوافذ مكتمة القلوب والأفواه أيضاً ، مدينة مسكونة بالرهبان ، كما تسكن القصور العتيقة بالأرواح ، ومأهولة بالجناة وحملة النمومض والخفاء أكثر مما أهلت بالسال فى كل صنعة وفن . نساؤها على أكبر جانب من الجمال ، والخلاعة والفتنة ، والدهاء والملاينة ، والسهولة التى تسبقها مداهنة ومخاتلة ، نفوسهن كالقدور التى تهدر بالنليان ، ووجوههن كالبساتين النضرة النامية على فوهة البركان ...

كانت الساعة التاسعة إلا بضع دقائق ، عندما بلغ القاضى جيرار بوتليفان موضع الجثة وهو « مكان الواقعة » بتعبير المختصين ، يتبعه كاتب التحقيق لوسيان . وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، مجدوع الأنف من الولادة ، أحمر الوجه ، شديد الطاعة لرئيسه من طول ما تلقى أوامره ونواهيه ، حتى لقد أمسى كالمطية الذلول ، وكان هادىء الطبع موفور الكرامة فى ظاهره . أما القاضى بوتليفان فشديد الذكاء ، طويل التجربة ، عميق التفكير ، لا يترك شيئاً قل أو جل لحكم الصادفات ، ولا يمرض عن افتراض ، ولا يستهين ببارقة أمل وإن ضؤلت فى رفع القناع عن وجه الحقيقة ، التى قد تتبرقع أحياناً ، وتسفر حيناً !

عند ما رفع الشرطى (جروبونوم) رئيس الخدمة الليلية فى مقر بوليس ساحة بلكور ، ذيل الرداء الذى كان يستر وجه القتيل ، وأطل القاضى وكاتبه عليه وأطالا النظر ، رفع لوسيان بذراعيه إلى أذنيه ، ومال برأسه من اليمين إلى اليسار ، ثم صرخ من أعماق صدره « آ غ ! » أما القاضى فقد صوب النظر ، ثم التفت إلى لوسيان وقال له :

— هل عرفته أنت ، كما لم أعرفه أنا ؟

فسكت لوسيان سكوتاً عميقاً ، فهز القاضى ذراعيه ، حتى أزالهما جميعاً من وراء أذنيه ، وأعاد السؤال على كاتبه فأجاب :

— كلا ! كلا ! ياسيدى القاضى لم أعرفه ألبتة !

2017-11-11

— ولِمَ صرخت إذن صرخة الرعب والفزع؟

— لأن الصورة مرعبة مفزعة ، ولم أرَ قط قتيلاً يخفي عورته بيده ويشير إشارة الخطيب باليد الأخرى ! فنظر القاضي إلى كاتبه نظرة شزرة ، ثم عاد إلى صمته ، ودعا الطبيب الشرعي روسينيول وكلفه أن يدون الوصف التشريحي حسب أصول الجراحة

في تلك اللحظة وصل مندوب الأسقف : الأب المحترم كليان جوزيه الشهير بعلمه في التاريخ والحقوق واللاهوت والفلسفة وقال إنه باسم الكنيسة المقدسة وباسم البابا الثالث الرحمات يمانع في تشريح الجثة ، لأنه وصل إلى مسامع الأسقف أن الجثة قد تكون لرجل تناول أسرار الكهنوت ، ولا تبيح الكنيسة إهراق الدماء مرتين ، لأن في الإهراق الثاني إبطالاً لحرمة الموتى ! فدهش القاضي ولكن أدبه وكرامة محدثه أزماه الصمت ، ولأنه لم يسبق في سجل التحقيق الجنائي أن أحوجه الأمر إلى تشريح جثة تلقن صاحبها « سر الكهنوت »

وبعد هنيهة أمر كاتبه لوسيان أن يفتح محضراً ليثبت أقوال الأب كليان جوزيه ثم أملى عليه :

« نحن جيرار بوتيفان قاضي التحقيق لدى المحكمة العليا بمدينة ليون عاصمة مقاطعة نهر الرون نثبت ما يأتي :

حضر الأب كليان جوزيه واحتج على تشريح جثة لرجل مجهول فسألناه :

س — (من القاضي) ألديكم في قانون الكنيسة نص صريح يحرم التشريح أو يجعله مكروهاً ؟

ج — (من مندوب الأسقف) إن للميت حرمة كحرمة الحي بل أشد ؛ ولقد وجب الكف عن شق جثته

س — حتى في حالة الوفاة الجنائية كالقتل أو الانتحار أو التسمم ؟

ج — لا يوجد نص صريح ، ولكن أمر الكنيسة يعدل النص الصريح

س — (من قاضي التحقيق) في شروح سانتنديريه التولوزي قاعدة ثابتة ، وهي أنه إذا ظهرت مصلحة راجحة في تشريح الجثة كإثبات حق القتيل قِبَل المتهم أو تبرئة متهم من تبعة الجريمة بالسم فيجوز التشريح ، وفي زمن سانتنديريه التولوزي (وهو القرن الخامس عشر) لم تكن صناعة الجراحة تقدمت كزمننا هذا

ج — هناك حالة السم ، أو ابتلاع القتيل قبيل موته جوهرة ثمينة ، وهما حالتان نص عليهما سانتنديريه المشار إليه في سؤالكم وليست هذه منهما

وهنا كتب لوسيان كلمات في بطاقة ، وعرضها على نظر القاضي ، فنظر إليه شزراً مرة أخرى ، ورفع يده إلى جيبه وطوى الورقة ودسها في جيبه ، ثم التفت إلى الأب كليان جوزيه وقال له :

س — إن أمر الكنيسة محترم كالنص الصريح وإن كان قانون الفصل بينها وبين الدولة الصادر في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٣ قد حظر عليها التدخل في أعمال السلطات الثلاث ، وأنتم لم تثبتوا حتى الساعة أن القتيل كان تائباً لكم من قريب أو بعيد وإلى أن تثبتوا تلك التبعية المدعاة ، فالسلطة القضائية أن تتناول التحقيق بحذافيره ومنها الأمر بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة

ج — (مندوب الكنيسة) إنكم تحرجون

2017-11-11

مندوب الأسقف ، ومن يحرجه فقد أحرج الكنيسة والبابوية معاً

قاضي التحقيق — ولما أمرنا نحن قاضي التحقيق جيرار بوتليثان حضرة الطبيب روسنيول بإجراء الصفة التشريحية بغير شرط ولا قيد ما عدا الأمر بنقلها إلى مكان آخر قبل أن يؤمن مع النقل إخفاء معالم الجريمة أو تغييرها أو نحو الآثار التي يكون من شأنها الاهتداء إلى الحقيقة . فاعترض الطبيب قائلاً :

أظن في هذا الأمر مخالفة للنظم المتبعة ، لأن في محافظة البوليس مكاناً خاصاً بالتشريح وإن على مرمى المورج (١) متسعاً لجميع الجثث من قتلى ومنتحرين .

فقال القاضي : إلى أن يحضر الدكتور لوكار ، فهو وحده يسمح بنقل الجثة إلى حظيرة المورج ، بعد ضربها الضرب الكافي (٢) ، فاقتنع الطبيب ورضي بالفحص الظاهر . حتى حضر الدكتور لوكار وأعوانه ، وكانوا مصورين ماهرين وكيائيين ومحللين وحملة حقائب عازلة ، وأمشاط وقناني ، وألواح معدنية وزجاجية وأكياس من المطاط ، وأخرى من جلود الثيران ، فأخذوا قلامة من أظافر الجثة وآثاراً من صماخ الأذنين ، وإفراز الأنف ، ولعاب الفم ، وشعر الرأس والصدر في أوعية خاصة ثم وضعوا الجثة في كيس كبير من الجلد السميك ، وتناول بعض الأعوان قضباناً من المطاط وأخذوا يجلدونها جلداً عنيفاً في حضرة مندوب الكنيسة الذي بلغ احتجاجه عنان السماء ، فتقدم إليه لوكار رئيس المحققين العلماء وقال له :

— سيدي الأب المحترم ، إنا لا نوقع على الجثة عقاباً ولا نحاول تعذيباً ولا انتقاماً كما ظننت وظهر من غضبك ، ولكننا ننفض عن الجثة ما علق بها من ذرات الشوائب التي لا تدرك بالحس ، ولا ترى بالعين المجردة . فسأل الأب جوزيه .

— وهذا الطبيب المشرح ما عمله ؟ لقد تكاثر الأطباء على جثة ولا ندري ما يُراد بميت ..

— إنه يبحث في أسباب القتل التي لها اتصال مباشر بالبدن ، ليحدد علة توقف الحياة ، وتعطيل أدائها ، أما نحن فنبحث أسباب القتل المستقلة عن الجسد ، أي ما صدر عن قوة خارجية مما لا بد يترك أثراً واضحاً لنا مهما خفي على سوانا

ووصف قاضي التحقيق في محضره المكان والزمان وأمر بالتصوير الضوئي من أعلى وأسفل ، ومن بعض الزوايا الحادة والمنفرجة وختم محضره ، ثم أجّل التحقيق إلى الساعة الثالثة بعد الظهر حتى يُقدمَ إليه الخبراء تقاريرهم ، وحتى يتمكن رجال الخفية ، وأفراد الشرطة السرية ، « والمباحث » المتنقلة ، والحرس الجمهوري من جمع بعض الأدلة أو القرائن التي تساعد في كشف الغطاء عن الحقيقة . وعند ما غادر القاضي مكانه كان في رأسه فكرتان الأولى أن كاتبه لوسيان يعلم أكثر مما دوّن في محضره ، والثانية أن الكنيسة تدمي أمومة القتيل وحبهات أن تدمي باطلاً في هذا الحادث الرهيب

كان شارع جيراف الذي وجدت به الجثة في منعرج من شارع بوالو المؤدي إلى « بلاس دي تورو » من اليمين وإلى ميدان « جراند تيار » من الشمال

(١) قاعة لعرض الجثث المجهولة

(٢) هذه الطريقة الحديثة لاستنفاض بعض آثار الجناة المادية متبعة في فرنسا

وقد سمي شارعاً مجازاً لاختناقه بين الشوارع الكبرى ، ولكنه في الحقيقة زقاق ضيق متحدر أسفله حلقة من سلسلة المساعد الوعرة التي عيدت في تلال عالية شيدت عليها مدينة ليون كما بنيت رومة على سبعة تلال ولا تزال آكامها ظاهرة في « فورفيير » و« كرواروس » و« رامياردينيه » . وكان زقاق « جيراف » يشبه عنق الزرافة ولذا أطلق عليه اسمها ، فهو كالسطر المطموس في صفحة مكتظة بالأحرف والكلمات ، ولكن على الرغم من ضيقه وانحداره ما جتمعت فيه عشرات من النظارة الذين تهيج استطلاعهم أنباء الجرائم ، وكانت على جانبيه بيوت منلقة[1] يطرقها رواد الملاهي في مختلف الأوقات من الليل والنهار تعرفها الشرطة وتسجلها دفاتر « بوليس الأخلاق » ؛ ولكنها أغمضت أعينها وصمت آذانها عنها ، إذ كانت كل واردة من بنات الهوى سجل العناء والرجس وراء نوافذها المنلقة ، قد تسلت من إدارة الأمن العام ، تذكرة صفراء تبيح لها مخالطة « الحرفاء » ، وتحتم عليها فحص الطبيب ، وتحذرها من الاحتماء برجل يعيش من جهودها المخزية الأثيمة ، ومن الاشتراك في جريمة سرقة الشراء (بالاتولاج)[2] وأن تبلغ بما تعلمه عنها فكان أول ما يدر إلى ذهن رئيس « البحوث الجنائية » وأعوانه أن يهاجموا تلك البيوت وأن يفتشوها ، لعلهم يعثرون بدليل في إحدى الغرف السوداء التي تخفي وراء جدرانها البؤس والشقاء وبعض معالم الجنايات الخفية

وأبى قاضي التحقيق في فترة التأجيل أن يتغدى في داره أو في مطعم ، وبقي بمكتبه في « پاليه دي جوستيس[1] » ينتظر الحوادث ويرقب الفاجآت . فأول ما صنع كان أن أوعز إلى « جريشار » أمهر البصاصين أن يقتني أثر كاتبه لوسيان ، بعيد خروجه في تمام ساعة الظهيرة ليتغدى ، فهبت الجاسوس القضائي وحدق بالقاضي قائلاً :

— أتحقق يا سيدي القاضي من ضرورة هذا الاقتفاء ؟ إن لوسيان يعرفني ، وقد تثير شكوكه بثير داع ، ولذا يقتضي الأمر أن أمعن في التفكر

فلم يكن من القاضي إلا أن قال له : أسرع ! أيها المغفل قبل أن تفوت الفرصة !

فلم ينتظر جريشار مسبة أخرى ، وكان رجلاً حقوداً بالفطرة ، ولا سيما أن ساعة الظهر ترحم الشوارع بالمنصرفين من أعمالهم فيختلط الحابل بالنابل ، وقد تفوته الفرصة حقاً فينطبق عليه الوصف الذي خلعه عليه موسيو جيرار بوتليقان قاضي التحقيق

واتصل القاضي بالأسقفية ، عن طريق التليفون ، وطلب أن يخاطب الأسقف مخاطبة شخصية ، ودهن ألفاظه بألوان التبجيل والاحترام ، وأبدى معاذيره عن مسلكه الذي لم يكن منه بد ، عند ما جيء المندوب في الصباح ، فقال له الأسقف :

— ان الأسقفية تدرك جيداً وجوب قيامك بعملك الذي وراءه سلامة المجتمع ، ولكنها لا تقبل أن تتصدى ارادة الكنيسة ، وتعمل على نشر فضيحة لا تشفي غليل أحد ، وتسيء الى ذكرى القتيل الذي كان لا ريب فريسة لغواية الشيطان ، أو ضحية لمؤامرة أعداء الفضيلة .

(١) Maisons closes إسم له في فرنسا معناه الرهيب

(٢) نوع خبيث من اختلاس المال من الرجال أثناء سكرهم

(١) قصر العدل ويقولون في مصر سراي المحكمة ولا سيما المختلطة

فقال القاضي متلطفاً :

— ولكن يا سيدي الأسقف هل يمكن التنازل بأخبارنا عن هويته ، لتحصر جهودنا في البحث عن الجناة ، فإننا قبل أن نبذل جهدنا في هذه السبيل، لا بد لنا أن نقف على شخصية القتيل .

ألو ! ألو ! ألو !

— سنترال !

— هنا مكتب قاضي التحقيق . كنا على اتصال بالأسقفية رقم ١٣٠٣٣ ك . مدنية

— الرقم لا يجيب ... انتظر ! لقد علقوا السماعة بعد المحادثة

فابتسم قاضي التحقيق وقال :

— سكوت هو الاعتراف بنفسه !

في تلك اللحظة دخل سبي سنير من أتباع جرينشار بحرز مختوم فتسلمه القاضي يداً بيد ، وحيا الصبي وانصرف ، وأسرع القاضي إلى فض غلاف الحرز فإذا به كشاكة صغيرة في حجم الكف تحمل تاريخ سنة ١٩٠٨ ، ولكن الكتابة المدونة فيها لا تتبع التواريخ ، خط دقيق وصفحات ملأى ، ألوان شتى من المداد ... الأسود والأحمر والأزرق أحياناً ... نبذ لاتينية . وأشعار يونانية ، وآيات من العهدين القديم والجديد ، أسماء حديثة وأخرى بائدة

— ١ —

يا ويلتا من بني آدم وبنات حواء ! إنهم يشغلون ذهني دائماً بصورهم التي لا عداد لها . إن أخلاقي هي الحجاب الحاجز الذي يحول بيني وبينهم ، حتى عيبت وأعيا العقل مجهودي ... بسكال . النبي دانيال ٣ : ١٤ : ٣٤ « ويل لك يا ابن آدم من نفسك ، واحتكاكها بما وراء الوجود الظاهر والقوالب والأشخاص » بسكال : العدل ...

— ٢ —

يطيب لي أن أراقب المرضى والجانين والمساجين وأشبع عيني ونفسي من آلامهم وأنواعهم . إن أحاديثهم ألذ وأنفع من حديث الأصحاء والعقلاء ، والأحرار ... الأحرار ... هذا الأبله ڤوجيرار صاحب معامل الحديد في حي بوتيو . بسكال : العدل موجود لأن العناية قررته (أفكار ١٣٤) ولكن هل هو موجود في الحقيقة ؟ ...

— ٣ —

دعاني ڤوجيرار لزيارته . وقدم إليّ زوجته وبناته . وطلب إليّ أن أبارکهن !! وسألني رأيي في راسبوتين وعلاقته بالقيصرة ! بالله من وقع جسور ! إنه أعمى يظن نفسه بصيراً ! ومقهور يحسبه قاهراً ، ومستبد يعتقد أنه طليق ! مستبد لماله وأهله وشهواته !! أنا وحدي الطليق ، لأني تحررت من قيود المال والشهوات ! ولكن من يدري ؟؟

— ٤ —

مدام لابات . شارع جارنت نمرة ٢٩ . جميلة فصيحة متدينة . تناديني « يا أبتاه أنقذني من مخالب الذنوب التي تكتنفني ، منذ فقدت زوجي ، إن حياتي محفوفة بالمكاره ... وأقاربي من الرجال ، حتى المحارم ، يتغازلونني وينصبون لي الشباك ... أتظن أن ... متعلق بي حتى أغرى خادمتي العجوز مدام « بوليه » بالمال فأدخلته إلى مضجعي خفية ... ليفاجئني ناعمة عارية . وكيف أستنيث ؟ لا وسيلة إلا التسليم ! الطعام والفرام مشكلة الحياة وشغل الناس الشاغل » وأنا وحدي فنوع في الأول ،

2017-11-11

عزوف عن الثانى ، ولما ترانى حراً كالطير ، أغرد على المنابر أيام الأحد والأعياد ، وأتنقل بين مواطن الآلام وهى أغصانى وأفنانى ثم آوى إلى عُشى وهو صومعتى . وإن لم يكن فيها أنثى ولا صغار الطير فهى تحمينى من عبث الحياة ...

— ٥ —

الأسقف ... ذلك البهيم المبهم ! إنه لا يعلم شيئاً ، لقد نحى بى على مذبح مطامعه . هل أصلح لمباشرة المجرمين والمذنبين والجانين والمرضى ؟ رجل مثلى طيب القلب عذب اللسان قوى الحجة لا يصلح إلا للوعظ .. ولكنه يريد أن يسحب منى وظيفتى بلباقة كهنوتية . لقد أشار فى حديثه معى إلى طنيان ساقو نارولا[1] فقد همسوا فى أذنه أن تقريراً وصل إلى مونسنيور « ميرى ديلفال » نفسه جاء فيه (راقب جيميه عن كثب) كلام ملتو غامض . لأننى أثرت الجدل حول مسألة الخلق القويم . إنها مسألة شائكة ، استجرت فيها رؤوس الأقلام من قديم وتبلبلت بسببها الألسنة ، من عهد رينان . آه رينان ! من لى بثقافته واعتداله ! هل كان مؤمناً ؟ هل كان ملحداً ؟ أم إنه وديع العالم وقد ازداد جهلاً ؟

ألم يُصلِّ لنيرفا فى الاكروبول ؟ بهتان ومثال!

ألم يزر موضع الميلاد والصلب والقبر المقدس ؟ بماذا عاد إلينا ؟ إنه عاد بالشكوك القاتلة التى صحبته إلى آخر حياته ! وخسر أخته هنريت فى الصفقة !

أما أنا فلا أخت لى أفتقدها ، حتى ولا امرأة بسيدة أحبتنى يوماً . كلهن يظهرن لى الاحترام الذى يقتلنى فى الصميم ! إن من الإيجاب اكراماً ، وقناطير مقنطرة ! أما الحب فلا دانى ولا ذرة

— ٦ —

الآن عرفت سبب الاضطهاد فقد قلت فى موعظتى التى تلاها تقرير « المراقبة عن كثب » : إن المنافقين ينجحون باسم الفضيلة ؛ وباسم الفضيلة تقترف الآثام . مدام رولان : آه أيتها الحرية ! كم جريمة تقترف باسمك ؟ آه أيها العدل كم بريء يظلم باسمك ! ان الثائرين على الأخلاق كالساخطين على المنتقدات . أحب أن أحارب الشياطين المستترة وراء النفاق ... بل شيطاناً واحداً كامناً فى نفسى لم تخرجه الصلاة ولا المواعظ إلى ...

كان قاضى التحقيق يقرأ مذهلاً ، لقد أمسى من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى . . بل هذه هى الحقيقة نفسها بين يديه . ولكن لوسيان كاتبه ماشأنه فى هذه اللحظة دق التليفون :

— ألو ! ألو ! سيدى القاضى بوتليفان .. أنا جرينشار اتكلم ! المفكرة التى وصلت إليك كانت فى حوزة لوسيان . نعم لوسيان كاتب التحقيق كان يحاول إلقاءها فى نهر السين ، فألقى بأشياء أخرى ، وسقطت المفكرة على الأرض لفرط ارتباكه ثم سار فى طريقه كالمجنون ، فالتقطت المفكرة . أنا الآن فى شارع لاجيوتيير ، لوسيان فى حانة يحادث إمرأة جميلة ، وفتية ، هل أقبض عليها ؟

— إننا نعرف مسكنه ولا نعرف مسكنها . من الحكمة أن تقبض عليها فى بيتها ، إنهما لا يلبثان أن يفترقا ، فاتركه واتبعها ..

(١) كاهن دومنيكى عاش فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر وثار على فساد المجتمع فأمرت الكنيسة باعدامه وحرمه وتذرية رماده فى نهر ارنو

ألقى القاضي بسماعة التليفون باهتاً .. ومنتصراً فقد تحققت ظنونه

ودخل دكتور لوكار يحمل تقريره وهو ثمرة التحقيق الدقيق

كان صاحب الجثة في أحضان امرأة قبيل وفاته ، وفي إحدى قلامات أظافره ذرات من مساحيق بيضاء وحمراء معطرة ، آثار زينة المرأة ، ويدل تقلص أنامل اليد اليسرى على أنه شرع في خنقها ، واستمساك اليد اليمنى بأسفل البطن قرينة ما أصابه بين الحصر عند ما أخفق في حمله

النتيجة : حالة عجز مصحوبة بجنون الشيخوخة المبكرة . أما سبب الوفاة فيكشف عنه تشريح الجثة الذي يقوم زميلي الدكتور روسنيول

الطبيب — إمضاء

عاد القاضي إلى المفكرة :

— ٧ —

كانت فتاة ريفية ، يجري في عروقها دم حار غزير . لقيتني باكية بعد خطبة الأحد ، وطلبت إليها أن تدلني على بيتها لتبوح لي بحقيقة حالها قبل أن أبدي لها النصيحة . بيتها . يا أسفاه ! إنه « طُلقيس » (١) . خمن للحمام ضيق . مظلم في أعلى منزل بشارع جيراف اسمها جانيت ديلابيه جرانسير (من ورثة ألقاب النبلاء !) الكنيسة وذرية الأشراف تلتقيان في عَلية بظاهر السطوح ! دخلت على جانيت في الليلة الأولى ، وكان المطر ينهمر ، بعد أن صعدت سبع طبقات ؛ قدمت يدها الرخصتين لتأخذ بيدي على درج السلم ، فارتجفت وكدت أقع لأنني شعرت كأن أسلاكا ذهبية من نور الحب تجذبني إلى الطقيس »

وكان الظلام حالكاً . فأشعلت الفتاة عقب ثمة وأجلستني على السرير ، فما لديها سواه يصلح مجلساً . وكانت باهتة ، فسألتني : هل معك يا أبتاه نقود ، فيضاً من فضل الصدقات ؟ فإنني كما ترى أحق الناس بها . فتصنعت الصمم والتعب لأرى كيف تفعل تلك الأنامل الرقاق بعد أن جذبتني إلى سريرها ؟! فكانت برهة سحرية لم أعرف لذتها من قبل ، فأخرجت كيس النقود — جزع اليتامى والأرامل — وحللت خيوطه وأفرغته في حجرها فقبلت يدي ، وانهمرت دموعها . معصية . معصية الفرار ! الفرار ... ! وقد نجوت فعلاً من حبالة الشيطان ...

أنا دنيس بني جان روسنيول جراح وطبيب بقسم الطب الشرعي التابع للنائب العام بمحكمة استئناف ليون العليا أثبت الآتي :

بفحص الجثة ، وجدت الكهل في العقد الخامس صحيح الأبصار ، سليم الأحشاء ما عدا القلب فقد وجد متضخماً . وسبب الوفاة سكتة قلبية أثناء مجهود لم يتعوده المتوفى وهو في حالة عجز جنسي تام لم تسبقه ممارسة

« نحن قاضي التحقيق أمرنا بحفظ القضية لعدم الجريمة »

وهكذا عاش ومات الأب أرمان جيميه واعظ كنيسة شارتييه .

محمد لطفي جمعة

(١) بالفرنسية mansarde علية في قمة البيوت تؤجر للفقراء

البرد والانفلونزا والروماتزم تشفى سريعاً بـ "أسبرو"



حل فصل الاصابات بالبرد والانفلونزا والروماتزم فالحاجة ماسة الى حل وان تريصا أو تصبر مدة "أسبرو" اذا اخذناه الوقت المناسب الفقد الى مدة زمنية اطول بسبب طريقة ومفعاله عملت وضاعفاً لمرضه. وقد اثبتت مئات الالوف من الناس فائدة "أسبرو" التامة فلماذا لا تجربه ؟ انك ستجد "أسبرو" صديقاً عند الحاجة وهادئاً لك، فاذا لعلى الالم فخذ أو قليلاً.

و"أسبرو" مفيد لمرضك لا يضر قلبك ولا يسبب المعدة ولا التقلب وتعتبره اعظم المستحضرات الطبية التي اخترعها النوع الانساني.



قرصان "أسبرو" في الماء سرعان ما تكون غازة مضيئة في الفم والحلق والمعدة والامعاء فتطرد الرياح والتخمر

٢ قرصان
٥ ملليمات

١٠ اقل من
٢½ قرشاً

٢٧ قرشاً
٥ قروش

الوكلاء
ج. بابا شهيرين وشركاه
القاهرة
شارع الكنيسة بالفجالة
تليفون ٤٩٦٢٢
الاسكندرية
٩ شارع طوسون
تليفون ٢٦٣٦

احذر ان تخدع بالتقليد
اطلب "أسبرو"

ASPRO
REG. TRADE MARK

2017-11-15 Egypt Gate

الآلات الموت الثلاث

للكاتب الانجليزي تيشترن

« تشترتن شاعر وقصصي وروائي ممتاز بدعابته المرحة ونكته اللاذعة كما تمتاز قصصه البوليسية عن قصص سير ارثر كونان دويل بروحها الأدبي وأسلوبها الأخاذ ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن برنارد شو وهو كتاب ينزع من الانسان نفسه ويأخذ على القارىء كل تفكيره ، وسيلس القارىء جانباً من مهارة هذا الكاتب في فن القصة وتهيئة الجو لها وخلق الشاكل الكثيرة حول أبطالها في هذه القصة التي أنقلها اليوم والى تعتبر بحق من أروع القصص البوليسية دقة وتركيباً »

عرف الأب « براون » عن طريق الوعظ والايمان أن الانسان يطهر بالموت وأن روحه تسمو بانفصالها عن الجسد ، ولكنه لم يكد يعلم بمقتل سير « أرون استرونج » حتى أحس بالألم يحز في قلبه والحزن يعمل في فؤاده . واستولى على الناس كثير من الحيرة والدهشة لاعتقادهم أن سير أرمسترونج شخصية مرحة لا يتطرق إليها اليأس ولا تبتئس لدواهم الخطوب ، فقد كان سليم الجسم صحيح العقل منبسط المزاج ، تأخذ أحاديثه السياسية والاجتماعية بعقول الناس بأسلوبه الفكه ونكته البارعة . ولا غرابة في هذا فقد انصرف عن تعاليم الكنيسة الاسكتلندية إلى خور أدنبره وقضى فيها زهرة شبابه . ثم ودع الحياتين « حياة الدين وحياة الشراب » وسلك في الحياة طريقاً خاصاً لا يدري الانسان إن كان فيه من اتباع كافن أو من رواد الحانات ، وإن كان وجهه المستدير ولحيته البيضاء وعيونه اللامعة تبعث في نفوس الناس شعوراً مزيجاً من الرزانة والمرح

عاش في بيت ريفي جميل قد شاده على نمط الفلاح القديمة قريباً من طريق السكة الحديدية ، إلا أن أعصاب هذا السيد لم تكن لتتأذى من دوي القطر أو جلجلة العربات

لم يكد القطار يدنو من المنزل حتى اندفع إليه رجل لا يكاد المرء يفرق بين سواد وجهه وسواد ثوبه ؛ وأخذ يلوح بقفازه الأسود ويصيح في صوت حادٍ مدو: قتيل ! قتيل ! لم يكن هذا الرجل الأسود إلا خادم السيد أرمسترونج ، فوقف القطار وأسرع الناس إلى المنزل فرأوا شيخاً ملقى على الأرض في ثوب أصفر قد لُف حول ساقه حبل طويل . وأغلب الظن أن الشخص الذي لف هذا الحبل قد لقي كثيراً من المقاومة والصراع من القتيل . كان ذلك الشيخ الملقى على الأرض هو السيد أرمسترونج

وفي تلك الساعة الرهيبة برز سكرتير القتيل « باتريك رويس » وهو رجل معروف من رجال الفن وأصحاب الحانات ؛ ثم جاءت في أثره ابنة الشيخ المتوفى « أليس » ترتجف وتلهث . ثم أرسل في طلب الأب براون فلبي على عجل . فلما جاء إلى المنزل رأى رجلاً من البوليس السري يدعى « مرتون » فانتحى به جانباً من الحقل المجاور للمنزل وأخذا يتحادثان في أمر هذا القتيل !

فقال مرتون : الواقع أني لا أرى شخصاً تحوم

2017-11-14 15:26:03

عليه الشبهة ، فجنوس رجل غبي أبعد الناس عن أن يكون سفاكاً للدماء ؛ ورويس صديق حميم للقتيل منذ عهد بعيد ، ثم إنه مخبود ابنته (أليس) فلا يمكن أن يرتكب مثل هذا الجرم ويهدم سعادة هذا البيت المرح

— فأجابه براون : أجل ! لقد كان بيتاً مرحاً قبل أن يموت صاحبه . أتظنن أنه سيفيق كذلك بعد غياب سيده ؟

— أجل . لقد مات ! !

فمضى الأب براون يقول : لقد كان مرحاً حقاً ، ولكن هل كان هذا المرح شائعاً في نفوس الآخرين الذين كانوا يقاسمونه العيش ؟ !

فأثار هذا الكلام شكوك مرتون وأخذ يفكر في حياة ذلك الشيخ

لقد كان المنزل فسيحاً للنفس ، وكانت غرفه عالية ضيقة باردة يسري فيها بصيص من الضوء الباهت كضوء القمر بل أشد شحوباً ! وكان كل شيء في المنزل يبعث في النفس الكآبة والضيق والنفور . كذلك كان الأشخاص الذين يقيمون فيه : فالخادم مجنوس كان يلوح في قفازه الأسود الكبير كأنه طاغوت ثقيل ؛ والكرتير رويس كان يُرى في لحيته المستديرة الكثة ، وجبهته التي ارتسمت عليها التجاعيد قبل الأوان ، مثقل القلب محطوم الفؤاد مصدوم الأماني . أما أليس فلم يكن فيها من صفات والدها شيء ، فقد كانت شديدة الحساسية مرهفة الأعصاب حتى أن مرتون طالما أشفق عليها وعجب كيف تنام تلك المخلوقة الحساسة على صفير القطر وجلجلة العربات ! !

ثم استطرد الأب براون قائلاً : إني واثق من أن المرح الذي كان فيه سير ارمستروج لم يغمر المنزل كله . قد تقول إنه ليس هناك من يفكر في قتل هذا الشيخ ، ولكنني لست متأكداً من هذا

فصاح مرتون قائلاً : « وهل تظن أن الناس لا يحبون المرح ؟ »

فأجابه براون : إن الناس يحبون الضحك المتواصل ، ولكني لا أظنهم يحبون الابتسام الدائم . فالمرح الخالي من الدعابة هو من أثقل الأشياء على نفوسهم

ثم مضيا صامتين في ذلك الطريق المخضر لا يسمعان إلا صفير الرياح وهمس النبات حتى أتيا رابية صغيرة تشرف على المنزل فوقفا هناك ، وأخذ الأب براون يتحدث كمن يريد أن يزيح شيئاً ثقيلاً عن نفسه فقال :

« إن الشراب ليس خيراً ولا شراً في ذاته ، ولكني أشعر أحياناً أن كثيرين من الناس يطلبون الكأس من وقت إلى آخر لتسكن ثائرتهم وتهدأ أعصابهم . ثم التفت حوله فرأى رئيس البوليس السري قادماً إليه ، فبادره مرتون بالسؤال :

— هل كشفت سر الجريمة ؟

— فأجابه « جليدر » وقد أخذ النوم بأهداب عينيه : « ما من سر هناك » فابتسم مرتون وقال « حسن ، ولكني أراه سراً »

فرد عليه الرئيس وهو يمشط لحيته بأصابعه : لم يمض على ذهابك إلى الأب براون دقائق حتى وقفت على الحقيقة كلها . أنك تعرف ذلك الخادم ذا القفاز الأسود الذي أوقف القطار

— أوه . يجب أن أعرفه . فقد أفزعني

— ثم استطرد جليدر قائلاً : حسن . فلما مضى القطار مضى معه ذلك الأسود

إله من مجرم ثابت ! يريد أن يهرب بنفس القطار

الذى ذهب لاحضار البوليس

— وهل أنت واثق تماماً من أنه هو القاتل ؟

— نعم يابني إنى متأكد من هذا ؛ فقد هرب حاملاً معه العشرين ألف جنيه من الورق ؛ ولكن المهم الآن هو أن نعرف كيف قتله . فقد وجدنا الحجمة مكسورة كما لو كانت مشجوجة بآلة ضخمة ، ولكنا لم نجد شيئاً حوله ألبتة . وليس من المعقول أن يحمل القاتل تلك الآلة ما لم تكن صغيرة جداً بدرجة لا تلحظ

فقال القس : ولكن ربما كان الموت بآلة أكبر من أن تلحظ .

فحجب جليدر لتلك الملاحظة الغريبة ونظر إليه يستوضح قصده

فأجابه الأب براون . إن سير أرمسترونج المسكين قد قتل بآلة ماردة جبار

آلة أكبر من أن ترى هي التي نسميها الأرض . لقد ألقى به فى هذه البقعة الخضراء التى نقف عليها الآن .

— ماذا تعنى ؟

فصوب الأب براون بصره إلى المنزل فرأى نافذة مفتوحة قرب قمته فقال وهو يشير إلى تلك الفتحة الصغيرة : « ألا ترى ! لقد ألقى به من هناك ! »

فنظر جليدر إلى النافذة وقال : من المحتمل جداً أن يكون هذا ، ولكني لا أدرى علة ترجيحك هذا !

فملق الأب براون بعينيه الواسعتين وقال : لماذا ؟ ألم تر الحبل حول ساق الرجل ؟ ألم تر قطعة أخرى من الحبل مثبتة في النافذة ؟

— إنك مصيب فى هذا يا سيدى . إنى أسجل لك هذا .

وفى هذه الأثناء كان القطار قد وصل حاملا نفراً من الجند وسهم مجنوس فصاح جليدر ، وهو يقفز إليهم فى خفة وسرعة : لقد أتوا به !

فدنا منه مجنوس وقال : أين المفتش ؟ فلما سمع الناس صوته عرفوا كيف استطاع أن يقف القطار . لقد كان ذرى الهيئة دميم الصورة لم ينق دمه بعد من لوثته القديمة ، ولكن صوته كان نافذاً قوياً قدر ما كان وجهه شاحباً ميتاً . ثم صاح بصوت مدو رنان : كنت أتوقع هذا ! ثم لوح بقفازه فى الهواء فنظر إليه جليدر بين غاضبة ونادى الجاويش وقال : ألا تنوى أن تنل يدى ذلك المخلوق ؟ يبدو لى أنه خطر

— حسن ياسيدي . ولكنى لا أظن أننا سننفذ هذا

— ماذا تعنى بهذا ؟ ألم تقبضوا عليه ؟

— أجل لقد قبضنا عليه وهو خارج من نقطة البوليس حيث أودع أموال سيده لدى المفتش « روبنسون »

فنظر جليدر إلى الرجل دهشاً وقال : لماذا فعلت هذا ؟

— لأنه من بها يد المجرم

— إن أموال السيد ارمسترونج يجب أن تترك سليمة لأسرته

وفى هذه اللحظة علا صفير القطار واشتد قرع الأجراس فناب فيه صوت الرجل الأسود ولم يسمع منه المفتش إلا هذه الجملة :

« ليس لدىّ ما يجعلنى أثق فى أسرة ارمسترونج »

— فأجابه رويس في صوت خافت : عليك أن

2017-11-14 15:26:03

تفكر فيما تقول ، فإنك ترمج مس ارمسترونج بهذا الكلام !

— إني أود هذا . فقد طالما رأيتها ترتجف ، تارة من البرد ، وتارة من الخوف . ولكني واثق من أنها كانت ترتجف من الغيظ والحنق . لقد كانت تود أن تغر اليوم مع حبيبها حاملة معها كل المال ، لأن سيدي المسكين قد رفض أن يزوجها من ذلك الحارس

فقاطعه جليدر قائلاً : صه ! فلا يسعنا اليوم شكوكك عن أسرتك مالم تدعم هذه الشكوك بالشواهد العملية

— سأقدم لك أدلة قاطعة على صحة ما أقول « فقد أسرعت إلى الرجل وهو مربوط فى النافذة فرأيت ابنته تترنح فى مشيتها ممسكة خنجراً فى يدها . أرجو أن تسمح لى أن أقدم هذا إلى الجهات المختصة ؛ ثم أخرج من جيبه سكيناً طويلاً وقدمها إلى الجاويش . فازداد حنق مرتون عليه وطلب من جليدر أن يسمع أقوال مس ارمسترونج ، فصرخت الفتاة وهي واقفة كأنما أصابها شلل ، ولم يبق فيها من علائم الحياة إلا عيناها اللتان تلمعان تحت جبين شاحب مغضن قد تهدل عليه شعر أسود قاتم . فالتفت إليها جليدر وقال :

— إن هذا الرجل يقول إنه رآك ممسكة سكيناً وأنت لا تكادين تشعرين بنفسك بعد القتل

فأجابته (أليس) قائلة : إنه صادق

وعندئذ اندفع باتريك رويس بين الجند وهوى على مجنوس بقضيب كبير من الحديد ؛ فأسرع الجند إليه وألقوا القبض عليه وصاح فيه جليدر قائلاً :

— سأقبض عليك من أجل هذا العمل

— لا بل اقبض على بتهمة القتل

— ماذا تعنى ؟

— إن ما يقول هذا الرجل صحيح ، فإن مس ارمسترونج كانت ترتجف وهى ممسكة السكينة فى يدها ، ولكنها لم تختطف السكينة لتقتل أباها بل لتدافع عنه

— تدافع عنه ! ! ضد من ؟

فأجابه السكرتير : ضدى

فنظرت إليه أليس بوجه مقعد غامض ثم قالت فى صوت خافت :

— إنى أشعر بالرغم من هذا بالفرح لشجاعتك

فقال رويس : هيا اصعدوا معى فسأريكم كيف حدثت تلك المأساة . ففى تلك الغرفة العالية حيث كان ينام السكرتير كان موطن السر لتلك الجريمة المروعة ؛ فعلى الأرض ألقى مسدس حديث الطلق ، وبالقرب منه زجاجة من الخمر مفتوحة غير أنها لم تكن فارغة تماماً . ثم إن غطاء المائدة كان مطويًا وقد وجد عليها حبل طويل شبيه بذلك الذى كان حول ساق القتيل

ثم قال رويس فى سذاجة الطفل : كنت أشرب عندئذ . إنكم تعرفون كيف بدأت قصتى وقد تنتهى إلى مثل هذه النهاية . لقد سمحت الناس يصفونى بالذكاء أحياناً ، وكان فى استطاعتى أن أعيش سعيداً ، فقد أنفذ ارمسترونج البقية الباقية من عقل وجسمى بعد أن أتت عليها الحانات والقاهى ؛ وكان دائماً يحبونى بمطعمه وحبه إلا أنه

لم يسمح لى أن أتزوج أليس . ربما كان عمّاً فى هذا . أظن أنكم لستم فى حاجة إلى مزيد ... فهاكم زجاجة الويسكى لا يزال فيها بقية ملقاة على الأرض وهاكم المسدس الذى أفرغته حديثاً ، وبقية الحبل الذى أوثقت به الرجل وألقيت به من النافذة . إنكم لستم فى حاجة إلى بوليس سرى يكشف عن مأساتى فهى ظاهرة للعيان ، وهأنذا أقدم نفسى لأستوفى جزائى ! !

فهم الجند بالقبض عليه لولا أن صوت الأب براون دوّى عالياً وهو يقول :

— قفوا . إن هذا مستحيل . لقد كنتم تقولون أولاً إنكم لم تجدوا آلات ، ولكنا قد وجدنا الآن كثيراً . فهاهى السكينة للطعن، والحبل للخنق ، والمسدس للطلق . ثم إن القاتل قد كسر رقبة ضحيته بأن ألقى به من النافذة . لا يمكن أن يحدث هذا كله ، فإن هذا القتل يتنافى مع مبادئ الاقتصاد . ثم إننا نجد أشياء لا يمكن أن تحدث . فهذه الثقوب التى نراها فى البساط حيث نفذت فيها الرصاصات الست . فهل يطلق الإنسان النار على البساط ؟ إن المخمور يصوب المسدس إلى رأس عدوه ، فهو لا يهجم على قدميه أو يرسم العلامات لقفزاته . ثم الحبل ، فكيف يصدق العقل أن إنساناً يضع الحبل فى عنق إنسان ثم يعود فيربط به ساقه ؟ إن رويس لم يكن على أية حال غائباً عن عقله حتى يفعل هذا ... ثم دنا من رويس وقال : إنى آسف يا عزيزى أن أقول لك إن قصتك تافهة بعيدة عن الحقيقة ...

ثم انتحت أليس بالقس بعيداً وأخذت تقول له : إنك رجل ذكى وإنى أعرف أنك تحاول إنقاذ رويس ، ولكن عبثاً تحاول . إن كل شىء يقف ضد ذلك الرجل الذى أحب ...

فنظر إليها براون وقال لماذا ؟

— لأنى وجدته بنفسى يرتكب جريمته

— وماذا عمل ؟

— لقد كنت فى الغرفة المجاورة لهما ؛ وكان البابان منطبقين ، وفجأة سمعت صوتاً لم أسمع مثله من قبل يدوى كأنه الرعد: « الجحيم! الجحيم! الجحيم! » ثم سمعت البابين يهتزان من أثر الطلقة الأولى . سمعت هذا ثلاث مرات قبل أن أفتح البابين وأرى الدخان يملأ الغرفة . لقد كان ينبعث من المسدس الذى كان فى يد باتريك المسكين وهو يطلق الطلق الأخير ... ثم رأيته يقفز إلى أبى الذى كان ممسكاً بالنافذة . يالله من منظر مروع فظيع وهو يزمجر ويصيح محاولاً أن يحبس أنفاسه بالحبل الذى ألقاه على رأسه ، ولكن الحبل انزلق عن كتفه إلى ساقه من أثر المقاومة العنيفة ثم أخذ يجره كالمجنون . فاختطفت سكينه واندفعت بينهما لأقطع الحبل قبل أن يستولى على الضعف والإغماء

فأجابها الأب براون : إنى فاهم . أشكرك !

ثم تركها غائبة فى ذكرياتها المؤلمة الثقيلة ومضى إلى جليدر وموتون وممهما رويس ، فقال لهم : لقد أخبرتكم أن هناك آلات كثيرة لم تستعمل للقتل، فالسكينة الملطخة بالدم والمسدس والحبل كانت أدوات رحمة وإنقاذ لم تستعمل فى قتل سير ايرون بل لإنقاذه

فأجابه جليدر — لا تقاده ؟ ومم
فقال الأب براون : من نفسه ، فقد كان مجنوناً يهم بقتل نفسه

فصاح مرتون فى نغمة المبهج المتشكك : ماذا ؟

— انها نوبة دينية تستولى عليه من وقت إلى آخر . فلماذا لم تتركوه ينفّس عن نفسه بالبكاء كما كان يفعل أباؤه . لقد ضاقت به الحيل ، وسدت أمامه السبل . إذ كان وراء ذلك القناع المرح الطروب عقل شاك وقلب خال من الايمان . فكان إذا ماجاءته تلك النوبة انكفأ إلى الشراب يصب منه ما ينسيه نفسه . وكان يعتقد أحياناً أنه فى الجحيم التى طالما أنذر الناس من شر عذابها . وهذا هو ما كان عليه اليوم فقد أخذ يهذى كالمحموم ، واندفع إلى الموت كالمجنون ، وأخذ يحتال عليه بشتى الطرق : بالحبال والسكينة والمسدس . فاتفق عندئذ دخول رويس فألقى السكينة خلفه على البساط واختطف المسدس . ولما لم يجد لديه وقتاً ينتزع منه الرصاصات أخذ يطلقها فى الأرض الواحدة بعد الأخرى . ولكن المنتحر رأى أمامه طريقة أخرى للموت فاندفع إلى النافذة . فلم يسع المنقذ إلا أن جرى خلفه بالحبل محاولاً أن يربطه من ذراعه وقدمه ؛ وعندئذ دخلت الفتاة فأساءت فهم ذلك الصراع العنيف الذى كان بين الاثنين فأسرعت إلى والدها لتنقذه ، وعملت على هذا حتى تقاطر منها الدم ، ولكنها استطاعت قبل أن تحور قواها أن تخلص والدها فهوى من النافذة إلى الأبدية !

فالتفت جليدر إلى رويس وقال : أظن أنى لم أخطئ عندما قلت لك وللفتاة أنكما بعيدان عن القتل !

— فأجابه رويس : ولكن ألا ترى أنى قلت هذا لكى لا تعرف خطأها !

— فقال مرتون : لا تعرف ماذا ؟

— انها قتلت أباها أيها المغفل !

— انها ستجن لو أنها عرفت هذا

— فقال الأب براون وهو يتناول قبعته : لا أظن هذا . إنى أفضل أن أخبرها بالأمر . فان أشنع جرائم القتل لا تسمم الأفكار كالخطايا . ثم انصرف

وبينما هو فى طريقه إلى منزله قابله أحد أصدقائه فقال له :

— لقد وصلت النيابة الآن وستباشر التحقيق !

فأجابه الأب براون : يؤسفنى ألا أحضره ! !

(م . ع)

المجموعة الأولى
للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

الفستان الأبيض

للقصصي الإنجليزي ستانلي أومونير

بقلم الأديب نظمي خليل

عند ما يبلغ كل إنسان نهاية الطريق يقف الصور والمؤلف والمهندس والمثال ، كل يشير إلى عمله ويقول : « هذه هي آثاري ، سوف أنال بها تقدير الأجيال المقبلة » ولكن لا يبقى للممثل أو الموسيقي شيء إلا الذكريات التي تعلق بأذهان من يحبونها ؛ فقد تسمع إنساناً يقول لك « إنه بيّ كان ينبغي لك أن تسمع فلاناً أو تشاهد فلاناً » ولكن لو لم تكن قد سمعت الموسيقي أو شاهدت ذلك الممثل فإن هذا الكلام لا يترك فيك أثراً ..

ولكن الممثل أسوأ حظاً من الموسيقي لأن الناس يحاولون الآن بمختلف الطرق أن يحتفظوا بآثار الموسيقي ، ولكن ليس ثمة وسيلة للاحتفاظ بتلك الحالات النفسية العنيفة التي يكون عليها الممثل في ليالي مجده . فقد مضت هذه في طيات الزمن وغابت في زوايا الأساطير

خطرت لي هذه الأفكار الحزينة لأول مرة عند زيارتي « لجيلين برامكر » . فقد قابلت هذا الشيخ المسن في إحدى دور الكتب برأسه الجميل الممتاز ، وشعره الأبيض المتموج ، قد حمل نفسه في خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده ونقوس ظهره

كنت كثير التردد على تلك الدار فألقاه دائماً مكباً على الجرائد والمجلات التي كنت أرغب في قراءتها . ثم جرنا خطأ يسير وقع في أحد أعداد « مجلة السبت » إلى الخوض في حديث عادي أعقبه لفتة منه ، ثم حديث عن الجو ، ثم انحناءة من جانبه وسؤال عن صحته من جانبي إلى أن اتفق أن خرجنا من الدار يوماً وسرنا معاً حتى نهاية الطريق

لقد شعرت بالميل إليه منذ أول مرة ، فقد ملك عليّ شعوري تعبيرُه الدقيق الواضح وما يحمله من عاطفة قوية مكبوتة ، حتى أن ميله لأتفه الأشياء كان يثير في نفسي أعمق الذكريات . فإن قال « ما أبهج هذا اليوم ! لم يكن هذا القول اصطلاحاً مألوفاً أو قولاً معتاداً ، بل كان إفصاحاً عن الفرح والنشاط لحياة الربيع ، والشمس المشرقة ، والحراف الصغيرة وهي تثب وتقفز على حافة المراعي الخضراء ! ولو قال : إني جد آسف ! جواباً لقولك : أني نسيت تذكرة السيارة فاضطررت لدفع الأجر مضاعفاً ، خيل إليك أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت في تلك السحابة من الدموع التي تطفر من عينيه !

دعاني يوماً لزيارته ، وكان يقيم في الدور الأول من منزل صغير وحيداً ليس معه إلا إمرأة نصف قد انسلت إلينا في خطى خفيفة سريعة . لقد كانت الغرف كما وصفها فقيرة ، ولكنها لم تكن بالغة حد الفقر . قد تناثرت فيها قطع الأثاث والصور التي تحمل أعمق الذكريات ، فأدركت حينئذ مكانة الممثل . فلو أنه كان مصوراً لاستطعت أن أنظر إلى بعض آثاره فأعرف قدره ، ولكن ماذا نعمل حيال

ممثل قديم فقضى أكثر عمره فى الماضى ! إن الموقف كان يثير الإشفاق والحزن

لا ريب أنه كان ممثلاً قديراً فى زمنه ؛ هـذا ما شعرت به وإن كنت لم أدد شيئاً عن حياته الأولى . ولم أرد أن أعرف أى الأدوار التى قام بها ، لأنى شعرت أنه ينبغى لى أن أعرف هذا من نفسى . ولم يكن هذا الشخص بالفخور الذى يتحدث عن أعماله ، ولكنى استطعت أن أعرف عنـه بعض الشىء من الآثار المتناثرة التى كانت فى غرفته . فقد رأيت صورة له فى دور « ملفوليو » وغيره من أبطال شكسبير ؛ ثم رأيت صوراً عديدة مهداة إليه من كبار الممثلين ، وبذلك أخذت أمسك بخيوط حياته شيئاً فشيئاً . ومهما يكن ذلك المركز الذى وصل إليه فى عالم التمثيل فيا مضى فأنه كان لا يزال محتفظاً بتلك القوة التى تهز شخصاً وتستبد به من أعماق روحه . فقد شعرت أن كل شىء فى تلك الغرفة يسمو كالخيال

وعندما أخذ يتحدث عن أمه شعرت أن صوته قد خفت كأنه منبعث من أعماق بعيدة ، واستطعت أن أعرف من كلامه أن أمه كانت ممثلة فرنسية عظيمة ، فقد رأيت على البيانو مروحة ثمينة مهداة إليها من الأمبراطورة أوجينى ؛ ولكنه لم يذكر أباه طوال ذلك الحديث

لقد اعتدت الذهاب إليه كل يوم خميس منتهزاً فرصة خروج زوجى لزيارة عمتها العجوز فكانت كل زيارة تحمل إلى قلبى اللذة والسرور . لم يعرف شيئاً عن حالى كما أنى لم أعرف شيئاً عن حاله . وأخيراً وقعت تحت سلطان رقيته ، وسرعان ما أدركنى الاشفاق على وحدته، فأرسلت إليه أنا وزوجى بعض الهدايا وبعض النبيذ ، وكانت زوجى تصغرنى فى السن وهى كلفة بالرقص والمسرح ومجالس الطرب. ولاغرابة فى هذا فهى لم تزل فى شبابها النضر وجمالها المتفتح وعمرها الغض . إن شعرها .. لا ، إنى أستطرد فى هذا ... اتفق يوماً أن تقابلنا مع الممثل فى أحـد الأزقة فرأيت تغييراً كبيراً فى البطل الذى أعبده ، فقـد كان راتعاً فى ذلك اليوم يزدى بأشد الناس أناقة وجمالا . فلما قدمت إليه زوجى أمسك بيدها ثم قال :

حقاً إنها لفرصة سعيدة !

إن هذه الكلمات لا تحمل سحراً ما دامت مرسومة فى حروف ، ولكنها سحرت «أليس» فاحمر وجهها وفاض قلبها وشعرت أنه إنسان عزيز عليها

ثم مضت الأيام وأنا دائب على زيارته كلف بالوقوف على آثاره ومخاطراته الأولى ، حتى توثقت بيننا المودة ، وقويت الألفة ، وأصبحت أجد من نفسى الجرأة على فتح أدراج مكتبه والتطلع إلى كل مايلفرفة من صور وآثار . حتى رأيت فى إحدى الليالى وقد تأخر بنا الوقت واستهوانا الحديث ذلك الفستان الأبيض الصغير . لقد كان فستان فتاة صغيرة قد وضع كما طواه صانعه فى أعلى الصندوق . فأخذته فى يدى ودنوت منه وهو يرتشف شرابه وقلت له : « ماهذا يا مستر برانكيز ؟ فحدق النظر فى الفستان وسرعان ما أدركت عليه الارتباك والدهشة وأحسست بشىء من الألم والندم يشيع فى نفسه وهو صامت ذاهل فاقتربت منه وربت على كتفه وقلت : « إنى آسف ! الا شك أن هناك قصـة ينبغى ألا ... »

فأمسك بذراعى وتمتم قائلا : « لا ، لا ، حسن

يا بني . سأخبرك بهذا فيما بعد . ثم هب واقفاً وأخذ يخطو في الغرفة جيئة وذهوباً دون أن ينطق بكلمة . ثم التفت إليّ فجأة ووضع يده على كتفي وقال : « فلتأت إليّ غداً ، ولتحضر زوجك معك . سأنتظركما على العشاء فسوف أحدثكما عن ذلك الفستان الأبيض الصغير »

لقد كانت زوجي ذاهبة إلى المرقص في ذلك اليوم . ولشد ما أدهشني أن رأيتها ترحب بزيارة مستر برانكير حتى أنني شعرت بشيء من الضيق لصاحبتي إياي . لقد كانت معتادة تناول العشاء في أحد الفنادق الكبرى ، فكيف ترضى بتناول الطعام في بيت ذلك الممثل الفقير ؟ فنصحت إليها أن تلبس أقدم ما عندها من الملابس وأن تتناول بعض الشطائر قبل ذهابها ، ولكنها لم تقبل نصحي وارتدت أفخر ثيابها . فاستسلمت للأمر إذ لم يكن الاحتجاج ليجدي نفعاً . ومن هنا كانت دهشتي الثانية :

كان برانكير في لباس السهرة فأثار في هذا اللباس شعوراً خاصاً لم يتركني طول الليلة ، فقد لاح لي أنه زوجي وبرانكير من عالم غير عالمي . فأخذا يتجاذبان الحديث في ألفة ووداد ، فيحدثها الشيخ في وداعة ولطف ، ثم تجيب عليه بنظرات مشتاقة آخذة حتى شعرت أني أكبرها بأجيال وإن كان برانكير يكبرني بأعوام

وفي العشاء كانت الدهشة الثالثة ، فقد كانت المائدة تفيض بأنواع من الأطباق التي تنم على سلامة الذوق ، وكانت الأنوار الكهربائية تسطع على أكواب الخمر وفناجيل القهوة . وبعد أن فرغنا من الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول المدفأة ثم قدم إلينا شراباً وأخذ يقول : « لقد بعث به إليّ أحد الأصدقاء الأعزاء ، ولكنه وا أسفاه قد مات ميتة شنيعة » ثم أمرّ يده على جبينه كأنه يحاول أن يدفن تلك الذكرى المؤلمة . وأخيراً التفتت إليه زوجي وقالت مازحة :

— ألست تنوي أن تحدثنا عن ذلك الفستان الأبيض ؟

فرفع رأسه الجميل المكلل بالشيب ثم مدّ ذراعه الطويل فأمسك بيد زوجي وضغط عليها وقال : « أرجوك أيتها السيدة العزيزة أن ترتشفي هذا الكأس الذكرى صديقي القديم » ثم أخذ يرتجف وهو يدني كأسه من شفتيه ولكنه كان لا يزال ثائر العاطفة فأعقب الأولى بأخرى

لقد كنت فخوراً بصداقة ذلك الممثل وما لديه من ذكريات وآثار فأشرت إلى الصورة التي كانت مهداة إليه من « هنري ارفنج » بتوقيعه « إلى صديقي العزيز ... » ولكن برانكير هزّ كتفيه وأخذ ينهد تنهدات عالية . ربما لم يكن يجد في هذه الآثار ما يدعو إلى الفخر ، وربما كانت هذه في نظره شيئاً ماضياً

ثم أعادت عليه زوجي سؤالها عن الفستان . فانحنى أمامها ومضى في صمت إلى الصندوق ثم عاد به ونشره في خشوع وتقديس على ظهر المقعد ، فحجبت أليس لمرآه ، أما هو فقد أخفى رأسه بين يديه وغاب في صمت عميق ، فبقيت أنا لا أفكر إلا في ذلك الموقف الرهيب الذي وجدت فيه نفسي ، فقد كانت الغرفة كلها مثقلة بالذكريات ، وكانت زوجي قابعة في مقعدها تسطع على وجهها الجميل الشبيه بوجوه الأطفال الأنوار فتزيدها فتنة وجمالاً . وفي الجانب الآخر من المدفأة جلس الشيخ في شعره

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

الأبيض المتموج كأنه ماثل يتحدث عن ماضي حافل بالمآسي والآلام . ثم الفستان الأبيض الصغير !!

وجأة اندفع الشيخ يقول : « كان هذا قبل أن تأتيا إلى هذا العالم ، فأنتما لا تذكران فرقة تشارلس كارسيد الشهيرة التي كانت تعمل تحت اسمينا . لقد كنا نمثل في مسارح حاشدة وكنا في تلك الأيام ...

ثم التفت إلى واستأنف حديثه قائلاً : « كان هناك ممثلون ! فالمأساة والقصة التاريخية ، كل هذه كان لها نصيب كبير من عنايتنا ، حتى لقد كنا نغير أسماءنا كل ليلة بل مرتين في الليلة الواحدة . كذلك كنا نغير أدوارنا ، فقد كنت أقوم بدور «عطيل» مرة ثم «ياجو» في ليلتين متعاقبتين . كذلك كان صديقي أوبان ، فقد كان يترك لي دور « شيلوك » ويأخذ مني دور « بسانيو » ... أوه . لن أثقل عليكما بهذه التفاصيل . آه . أوبان تيري المسكين ! صديقي العزيز تيري !!

ثم وقف عن الكلام وأطرق إلى الأرض وشملنا صمت رهيب !

ثم استأنف حديثه قائلا : « إذا ما قلت لكما إننا كنا أصدقاء فإني أعني بهذا أننا كنا أصدقاء كما يمكن أن يكون الفنانون حباً وإخلاصاً وتفانياً . لقد عملنا معاً ثلاث سنوات لم تعرف الغيرة طريقها إلى نفوسنا ، ولم يدب الحقد يوماً إلى قلوبنا

آه على تلك الأيام !!

ثم مد أصابعه البيضاء وتفرس فيها ثم التفت إلى زوجي وقال :

« أرجوك أيتها الفتاة (وقد أصر على أن يدعوها هكذا طول الوقت) أن تعذريني لما سأقصه عليك الآن . فقد كان الحب في أيام شبابي غيره الآن . لم يعد الحب اليوم إلا اغتنام فرص . ما من أحد لديه الاستعداد للتضحية . أما الحب بيني وبين أوبان فقد كان قصة التضحية والفداء . وكان الحبك لهذا انضمام « صوفي » إلى فرقتنا

ثم هب واقفاً وأخذ صوته يرتجف ويخفت حتى أصبح همساً !

ثم التفت إلى ليس وقال : لقد كانت جميلة فاتنة مثلك أيتها الفتاة ! كيف أبوح بهذا السر الهائل الآن من غير وعي !!

نظر كل منا إلى صاحبه ولكننا لم نقل شيئا . لم نشر إليها في حديثنا فقد كان كل منا حريصاً على شعور صديقه . غير أني لو لم أكن أعرف حب أوبان لها لذهبت إليها وقلت « صوفي ! معبودتي ! ملاكي ! إني أحبك . إني أعبدك ! ألا تتزوجين مني ؟ ولكن هل كان من البطولة أن أفعل هذا ؟ وأنا أعرف عواطف أوبان نحوها ! إلى أن أحسست يوماً أني لا أستطيع حبس عواطفي فنظرت إلى صديقي فرأيت في عينيه ماشعرت به في قلبي فدنوت منه وهمست في أذنه : « أيها الزميل فلتتقدم أنت ولتكسب ذلك القلب ، إنها جديرة بك ! » فأدرك ما أبغي ثم ضغط على يدي وقال : إنك حتى يا صاح . إن هذا لا يمكن أن يبقى طويلا . فلتقابلني بعد الحفلة في غرفتي

ثم دنا الممثل من زوجي وقال: «إني لا أستطيع أن أحدثكما عن ذلك الغرام الذي حفل به لقاؤنا في تلك الليلة . فقد أراد كل واحد أن يفسح الطريق لصديقه. حقاً إنها كانت ساعة رهيبة مثيرة ! وأخيراً قرَّ عزمنا على ترك المسألة للظروف . ثم انصرفنا إلى لعبة الشطرنج ، فصفقنا القطع وبدأنا نلعب ولكننا

لم نلبث أن وجدنا أن كل واحد منا يحاول أن يترك الفوز لصديقه فهمت وقلت له : « يجب أن نترك الأمر إلى القدر الذى لا يعرف التحيز ! »

ثم تناولت أكبر وردة كانت أمامى وقلت سأعد أوراق هذه الوردة فإن كان العدد كبيراً فسأتركها لك . ثم أخذت أعبث بالوردة حتى وصلت إلى الثامنة والخمسين امتقع وجهه وارتجفت مفاصله فأوصلته إلى مقعد مريح وأعطيته منبهاً . ثم التفت إلى النافذة فرأيت الطيور ترفرف حولها وأشعة الفجر قد أخذت تلوح من وراء الزجاج

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كنت جالساً إلى سوفى أبثها غرامى . ولكن هناك أشياء لها من القداسة ما يجعلنى أتردد فى ذكرها

لقد رفضت ، ولكنها كانت رقيقة عذبة حتى فى رفضها ، ومع ذلك فلم تكن قد وصلت إلى رأى حاسم فى الأمر . فاستولى علىّ نوع من اليأس القاتل . وليس هذا غريباً عنى فإن الإنسان فى تلك السن يطلب كل شئ فى وقت واحد . فبقيت أداعبها أسبوعاً صباح مساء ولكنها بقيت مترددة !

لقد كانت تميل إلىّ ولكنها لم تكن تحبنى . وفى نهاية الأسبوع ذهبت إلى أوبان وقلت له : « أيها الصديق لقد جاء دورك فقد قمت بدورى »

ثم خرجت من الميدان . ولا أزال حتى الآن أذكر ذلك الأسبوع الذى رأيت فيه أعز أصدقائى يحب الفتاة التى أعبدها !

وفى نهاية الأسبوع جاءنى صديقى يقول : « إنى لا ادرى مكانى الآن . فهى تميل إلىّ ولكنى لا أكاد أعتقد أنها تحبنى »

لن أسرد عليكما تفاصيل مناصراتنا التى حدثت بعد ذلك . ولكننا عندما رأينا الموقف متماثلاً عزمنا على أن ننزل ميدان الكفاح فى معركة مكشوفة وإلا فقدناها نحن الاثنان . فقر رأينا على منازلتها فى أى وقت وفى أى مكان . ومضينا فى هذا الشوط ثلاثة أشهر . وفى النهاية كان أوبان الفائز . فبقيت أترقب فى كل لحظة تلك الأخبار المزعجة السارة إلى أن حدث أمر كان مستوراً

ثم غاص فى كرسيه وأخذ يمر أصابعه فى شعر رأسه فى خفة وسرعة . ثم استأنف حديثه فقال : « فقد توفى عمّ أوبان وترك لابن أخيه ثروة هائلة ، ثروة لا يحلم بها البخيل ، ففرح بهذا جميع أصدقائه إلا شخصاً واحداً » . ثم نظر إلى زوجى وتنهد قائلا : « لقد عشت أعواماً طويلة ولكنى وجدت أن قلب المرأة عميق لا يمكن ارتياده وسيظل هكذا إلى الأبد ... فقد رفضت سوفى أن تتزوج من أوبان مخافة أن تتهم بأنها رضيت به زوجاً من أجل ثروته . إنى لن أنسى ألم تلك الأيام وهولها . لقد أعلنت رفضها فى صراحة وقوة ، وبقيت أنا موزعاً بين حبى لأوبان وحبى لسوفى ... إنى أستطيع أن أقول بكل صدق : إن المال قتل أوبان . فقد أخذ يسعثره فى الشراب واللعب وعاش عيشة التبذل والسرف لا لشىء إلا لأن المرأة التى أحبها رفضت أن تتزوج منه ... ثم مالبث أن أغرم بمخلوقة جميلة تسمى أماييل فتزوجا وأعقبا طفلة

كانت ألسنة النيران تتدلع وزوجى محدقة النظر فى عينى المثل وهو ماض يقول : « وهنا بدأت أنظر إلى المرأة من جديد ! فان سوفى التى رفضت أن تتزوج من أوبان لأنه غنى ، والتى كانت

2017-11-14 15:06:13

تضطرم غيظاً إذا مارأت أنابيل قد أغرمت بطفلها الصغيرة . لقد صبرت عليها كثيراً أملاً فى إرضائها وكسب قلبها ... ولكنى لم أطلق ... أتصدقان أنى أعيش عشر سنوات عبداً لها وهى تقضى هذه المدة عبدة لتلك البنت الصغيرة ؟ !

لقد نحيت كل شىء من أجل أن أصحبها فى جولة أو أتحدث إليها فى زيارة ، ولكن المرأة التى كانت تعيث بى كدمية صغيرة كانت تكرس وقتها وملها لشراء اللعب والفساتين لابنة أوبان ، أتتصوران هذا ... ؟ ! »

فأجابته زوجى للمرة الأولى : نعم . فأشار إليها الرجل برأسه وقال : ما من عمل يكون بين الرجل والمرأة إلا وتكون نتيجته ضرراً للرجل

ففى النساء إلهامات وأحاسيس خفية تتفقدها فى نفوسنا فلا نجدها ، فالمرأة مسلحة من كل جانب وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً

ولكن لم يمض عامان على زواج أوبان حتى استيقظ ذات ليلة وقد شعر بألم شديد فأسرع إلى دواء كان يتعاطاه دائماً ولكنه طاش هذه المرة فتجرع حامضاً كانت سوفى قد أحضرته لتحميض الصور . فاندفع إلى الشارع وهو يلابس نومه وأسلم روحه بين أذرع الشرط

لقد كان هول ذلك الحادث مطبوعاً على جبينه فتألمنا لمصابه حتى كادت الدموع تنبجس من أعيننا

ثم تقدمت بنا السنون وحب سوفى لابنة أوبان يزداد واهتمامها بها يشتد ، إذ كانت أمها رغم الثروة التى تركها زوجها لاتزال تحن إلى ماضيها اللوث المستهجن حتى خشينا على أخلاق الابنة منها ولا سيما أنها لم تكن دائمة السهر عليها إذ كانت تزورها من وقت إلى آخر ، فتحضر لها أثمن الملابس و أفخر اللعب ثم لا تلبث أن تنقطع عنها وتنساها . فنشأت الفتاة على طباع أمها المخورة مسرفة مستهترة ! فلم يكن يهمها فى الحياة وهى الفتاة التى لم تتجاوز العاشرة إلا الزينة والتبرج . غير أنها طفلة جميلة فاتنة ! فقد كان فيها كل جمال أمها مع بعض رشاقة والدها وخفته . تترك الفتاة وشأنها مجالس الفتيات الساقطات وتستمع إلى الكلام السوق والنكات النابية .

لقد أحببت لوسى عمتها سوفى (كما كانت تدعوها) لا لشىء إلا لأنها كانت تغدق عليها اللعب وتنمرها بحبها الغوى العنيف إذ كانت تكتب إليها كل يوم وترسل إليها الهدايا من وقت إلى آخر .

ثم جفف الشيخ جبينه كأنه كان يزرح تحت أعباء ذكريات ثقيلة مجهدة ، ثم نهض إلى إحدى زجاجات النبيذ وملأ كأساً وأفرغها فى فيه ، ثم أعقبها بأخرى ، ثم عاد إلى مكانه وهو ذاهل عنا كأنه يعيش فى ماضيه البعيد ، ثم التفت إلى زوجتى وقال :

— لدى كثير من الفساتين الجميلة التى كانت سوفى تصنعها لوسى يمكنكما أن تريا إذا سمحتما بزيارة أخرى

قال هذا فى توسل ورجاء حتى أننى أحسست أن قلبى يكاد يقطر دما ! !

أما زوجى فقد كنت أعتقد أنها ستقوم فى تلك اللحظة وتجول فى الغرفة باحثة عن باقى الفساتين ، ولكن ما أشد دهشتى إذ رأيتها صامتة فى مكانها تنظر بعين حائرة لا يعرف معناها إلا بنات جنسها ! ثم مضى الشيخ فى كلامه كأنه يتحدث إلى نفسه :

والفستانين ! أى دور تلعبه الفستانين فى حياتنا ! لقد كان كارليل صادقاً فى قوله هذا . لقد كانت سوفى ماهرة فى أشغال الإبرة وقد ساعدتها تجاربها فى المسرح على هذا فكانت تصنع أروع أنواع الفستانين . إن أزمة حياتى التى سأحدثكما عنها كان بسببها أحد تلك الفستانين التى صنعتها لوسى . ثم صمت قليلا وأخذ يدق على المائدة بيديه الجليديتين ثم قال : « كان هذا العام الفائت فى العيد العاشر لميلاد لوسى ، وكانت أماميل قد تردت فى الهاوية حتى لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الفتاة ، حتى أحسست بهذا ، أنا الذى تحطمت حياته على حب سوفي لتلك الفتاة . لقد كان قلبى يتمزق من أجل ابنة صديقى ! فقمت مع سوفى برحلة طويلة فى الخريف ، وقد كنت معها التابع المطيع . ولكن الجو كان رديئاً والمرض متفشياً . فأصابها برد ما لبث أن انقلب نزلة صدرية ، وفى أثناء مرضها جاءها خطاب من لوسى تطلب منها فستاناً جميلا يزدى بفستانين زميلاتها يوم عيد الميلاد . فتهلل جبين سوفى وشاع الفرح فى كل قلبها . إيه ربى ! لقد كانت تحلم فى أشد حالات المرض بالهدية التى ترسلها إليها . وأخيراً قالت لى : « سأصنع لها فستاناً خالياً من أى زركشة ، وإنى واثقة من أنه سيزرى بباقى الفستانين بفضل جمال لوسى . فأعجبت برأيها ومضيت معها نشترى الفستان

ثم اشتد عليها المرض فى الأيام الأخيرة حتى أنها لم تعد تتحرك إلا بفضل تلك الطاقة العصبية التى بقيت حية فيها حتى تتم الرحلة وتنجز فستان لوسى قبل مجىء السيد .

وأخيراً عدنا إلى لندن وقد اشتد بها المرض ولم نكن قد أعددنا المنزل فتركتها فى صحبة صديق لى ومضيت كالمجنون إلى حيث تقيم لوسى . فألقيت بنفسى فى إحدى المربات وألقيت بالعنوان إلى الحوذي وأسرته أن يطير بى إليه . ثم وضعت الفستان على ركبتى وانحنيت عليه فى رقة وحنان كما لو كان طفلاً يحتضر

لا أدرى كيف وصلت إلى هناك فقد خيل إلىّ أنى سائح فى الأبدية

لم تكد ترانى لوسى حتى صاحت قائلة : مرحباً لقد ظننت أن عمتى سوفى قد نسيتنى فاستأجرت هذا الفستان !

فأجبتها : بنيتى إن عمتك لم تنسك بل كانت تجود لك بآخر قطرات قلبها . هاك الفستان . فأخذته فى يديها وألقت عليه نظرة فاحصة وقالت : أفستان هذا أم جلباب نوم ؟ لست فى حاجة إليه ، ثم انسلت إلى غرفتها

فلم أتمالك نفسى من الغيظ وهممت أن أفتك بها لولا أنى تذكرت أنها ابنة صديقى القديم

كيف أعود إلى سوفى بالفستان ثانية وهى تجود بآخر أنفاسها ؟ فأردت أن أحتفظ به كأعز شىء لدى الحياة !

* * *

فلما خلوت إلى زوجى فى منزلى سألتها : ما الفارق بين الواقع والخيال ؟ فأجابتنى وهى تطفئ نور الغرفة: إنى لا أعرف ما يتفلسف به الناس ولا أعرف من الحياة إلا أنك زوجى العزيز الساذج

فقلت لها : ماذا تعنين يا أليس ؟

أجابت : أنى لك أن تدرك طبائع المرأة !

ثم أسرت على النوم ! !

نظمى خليل

أسطورة هندية

الفلاح والتاجر

للباندیت ناراشندروی

نقلها عن الألمانية

الأديب ابراهيم ابراهيم يوسف

يحكى أن تاجراً كان يسكن قرية من قرى الهند ؛ وفيما هو سائر ذات يوم فى طريقه إلى المدينة المجاورة ليستجلب بضائع جديدة لتيه فلاح يبنى هو الآخر الوصول إلى المدينة ليدفع إلى أحد أصحاب البنوك قسطاً من المال استحق عليه من دين كان قد اقترضه الجد الثانى له ، وأصبح القرض الذى كان مئة روبية عشرة أمثال ذلك بعد خمسين سنة

وكان الفلاح المسكين يسير فى طريقه مفكراً فيما عساه أن يفعل لحماية أرضه كيلا تقع فى يد ذلك المرابى

وسأله التاجر : إلى أين أنت ذاهب يا شاود هرجى ؟ ألمرابى لتدفع إليه قسطاً من المال ؟ وهلا فكرت فى طريقة تحفظ لك أرضك ؟

فأجاب الفلاح وكان مستغرقاً فى تفكيره المضنى : يا شاه جى ، ماذا عساى أن أفعل ؟ لقد اقترض جدى الثانى مئة روبية فأصبحت الآن عشرة أمثالها — ألف روبية كاملاً ... أنمم النظر فى ذلك واعلم أنه ليس فى الوسع إبقاء هذا الدين العظيم حتى لو قدمت للمرابى الأرض التى أمتلكها

فأجاب التاجر : يا شاود هرجى . لم هذا التفكير السقيم وليس من طائل تحته ؟ إن الأمور تسير كما كتبت من قبل فى لوح القدر ، وإذا ماشغلنا أنفسنا بأمور مضنية كهذه فقد يمتد الطريق ويطول إلى ما لا نهاية . والأولى أن نتحدث فيما نتسلى به

—أنت على حق يا شاه جى ، فالقضاء لامفر منه وأروح للنفس أن نقص شيئاً من الطرائف والنوادر ، ولكن مالنا لا نضع شروطاً للحديث قبل البدء به

إذاً لا ينبغى ألا يشك أحدنا فى صحة قول الآخر ، وألا يعترض قوله ألبتة ، حتى حين يتراءى له أن كلامه غير محتمل الوقوع ، أو أنه مبالغ فيه كل المبالغة ؛ وعلى الذى يخالف هذه الشروط أن يدفع للآخر ألف روبية

فقال التاجر : أوافقك على هذا كله على أن يكون بدء الحديث لى :

وبدأ التاجر فقال : أنت أدرى بأن الجد الثانى لى كان محترماً موفور الرزق

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولما أن بدأ بالتجارة وحمل إلى الصين فى مئة سفينة ، فأصاب فيها مالا كثيراً ورجع إلى وطنه يرفل فى نعمة اليسر ويسبح فى محيط من الترف والنعيم

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وأحضر من تلك البلاد النائية ما عز

2017-11-15 06:06:03

وندو . وكان من بين هذه الأشياء صنم صغير من الذهب أمره عجيب ، فقد كان يكشف هذا الصنم عن مستقبل كل من يستكشفه مستقبله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وكثر أصدقاء جدى الثانى الذين حضروا وتمكنوا بواسطة ذلك الصنم من أن يطلعوا على مستقبلهم . وفى ذات يوم حضر جدك الثانى لدى جدى الثانى ، وما لبث أن حادث الصنم فسأله:

من هم أذكى الناس فى العالم ؟

فأجاب الصنم : التجار

ثم سأله ثانية : ومن هم أغبى الناس فى العالم ؟

فكان الجواب : الفلاحون

ثم أعقب بسؤال آخر إذ قال : ومن سيكون أغبى شخص فى ذريتى ؟

فأجاب الصنم : شاود هرجى هو شيار سنج

وكان هذا اسم صاحبنا الفلاح الذى قال : لقد قلت صدقاً يا شاه جى

وكانت كلمات التاجر هذه تخز صدر الفلاح ، إلا أنه كظم غيظه وأسر فى نفسه معتزماً إذا ما جاء دوره ليقص حكايته أن يضطره إلى دفع الثمن غالياً

التاجر — وكثر الراغبون فى شراء الصنم ، ولكن أمره كان قد بلغ الملك ، فاستدعى جدى الثانى وطلب منه الصنم وكافأه على ذلك بأن جعله رئيس وزرائه

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وبقى جدى الثانى فى منصبه هذا عهداً طويلاً وبلغت شهرته العالمين . ولما أن توفى ، خلفه جدى الأول ؛ ولكن الملك لم يكن ليرتاح إليه لشدة تعصبه لآرائه . وفى ذات مرة بلغ النقاش فى مسائل الدولة حداً قصيًا . وغضب الملك غضباً مستطيراً ، وما ذلك إلا لرزانة جدى الذى كان يدافع عن آرائه السياسية ويدعم صحتها بالإثبات فى هدوء وتؤدة . فتمنه الملك من أن يتابع قوله ، ولكن جدى صرخ فى وجه الملك بصوت كالرعد أفهمه به أنه لا يفقه فى سياسة الدولة مقدار ذرة . وشعر الملك إذ ذاك بأنه أهين فى الصميم وأمر بأن يرمى جدى إلى فيل مفترس ليقتله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولكن ما إن رأى الفيل جدى حتى ذهبت عنه وحشيته ، وتقدم إلى جدى فى رهبة وخشوع ، ثم أحاطه بخرطومه ورفعه إلى ظهره

الفلاح — حسن جداً يا شاه جى ! حسن جداً

التاجر — ودهش الملك كثيراً لما وقع أمام بصره ، فاصحى قدام جدى وسأله المغفرة ورفعه إلى منصبه ومنحه لقب « من لا يجارى »

الفلاح — هذا بديع يا شاه جى ، بديع جداً

التاجر — ولما أن توفى جدى هذا عين أبى وزيراً خلفاً له ، إلا أنه فضل مهنة التجارة على منصب الوزارة ، ومكنته فطنته ومقدرته التجارية من اكتساب مال وفير استعان به على أن يجتاب العالم من مشرقه إلى مغربه . ورأى فى تطوافه هذا أشياء عجيبة ، منها أنه لاحظ ذات يوم بعوضة تتردد على أذنه وتطن ؛ ولكى يبعد أبى عنه هذه الوافدة سأل البعوضة فى كثير من التأدب ألا تضايقه ؛ فقالت له البعوضة :

— يا آكل وأشرف من رأيت من التجار ، لقد سررت بطيبتك السمحة ، ولقد أود أن أسدى إليك جميلاً

وفتحت البوصة فاها فإذا أبي يرى بين أحشائها قصراً جميلاً كل شيء فيه من الذهب الإبريز ، وقد جلست إلى إحدى نوافذه فتاة آية في الحسن والجمال ، ووقف أمام مدخل القصر فلاح يريد أن يختطف تلك الفتاة قوة واقتداراً ، فلم يطق أبي صبراً على تلك الحال ، وكان معروفاً بأنه أشجع من دب على الأرض ، فقفز فوراً إلى فم البوصة ليحمي الفتاة من اغتصاب الفلاح

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ومرت به لحظة اشتمله فيها الظلام ، ولكن ما لبث أن رأى مرة أخرى القصر والفتاة والفلاح ، فانهال على الفلاح حتى صرعه ، ولاشك أن كل عضو من أعضاء الفلاح كان يتهشم لولا أنه أخذ يستحلف أبي أن يعفو عنه وهو ينتفض من كل جسمه . والآن أتعرف من كان ذلك الفلاح؟ إنه كان أبالك بالذات . وما إن تم لأبي هذا الانتصار حتى تزوج من تلك الفتاة الحسناء التي اتضح أنها أميرة . وهكذا آل إليه ذلك القصر الذهبي . ثم التحق أبوك بخدمة أبي وصار حارس الباب ، وكان عليه أن يقف لدى الباب ليل نهار ؛ وولدت أنا في ذلك القصر ، وكنت في سن الخامسة عشرة حينما أمطرت السماء ذات يوم ماء في درجة الغليان ، فذاب القصر بفعل المطر ونشأ في موضعه إقيانوس من الماء الأجاج ، وما لبث أن اجترفنا التيار ، غير أنا بذلنا جهوداً لا يمكن وصفها وتمكنا نحن الأربعة من الوصول إلى الشاطىء

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أجلنا الطرف فيما حولنا رأينا وياللدهشة ما رأينا أننا في مطبخ . ونظرت إلينا الطاهية نظرة فزع كما لو مسها الخبل . وحاولنا المستحيل لنقنعها بأننا بشر مثلها ولسنا من الجان . فقالت أخيراً :

ما أبدع هؤلاء البشر الذين يخرجون من ماعون بتلي فينزعونني . وسألناها الصفح وقلنا لها : ما كنا نبغي أن يصبح مصيرنا إلى الماعون ، فقد خمسة عشر عاماً كنا نسكن في قصر فخم مشيد بين أحشاء بوصة

وما إن أدركت الطاهية ذلك حتى صاحت :

وي ! الآن أذكر أن بوصة عضقتي منذ خمس عشرة دقيقة ، وهاهو أثرها . ولما آلمتني عضتها أرقت دمها وسقطت نقطة منه في الماعون ، ولم أكن لأعرف أنكم بقصركم ضمن هذه النقطة

وقال أبي : أيتها المرأة الطيبة القلب ، الآن يمكننا أن نفقه سر وجودنا في الماعون دون قصد ، وذلك بعد أن ذكرت ماذكرت ، لم تكن سنواتنا الخمس عشرة إلا دقائقك الخمس عشرة . وهكذا تحققت لي هذه القوة والعظمة في خمس عشرة دقيقة ، وإن كان لي من العمر خمس وعشرون سنة فاني في الحقيقة لا زلت في سن العاشرة

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أن خرجنا من جوف البوصة علمنا أننا كنا نسكن ناحية أخرى غير التي نسكنها الآن . وافتتح أبي هنا ، وكان من قبل وزيراً ، متجراً وكنت أساعده في عمله ، إلا أن جو المكان لم يوافق صحة أبي بحال . فلما قضت نحبها حزن عليها أبي حزناً مبرحاً ولم يستطع . وقد فقد كثيراً من قوته أن يجابه الحياة عقب ذلك المصاب الجلل . فلما مات توليت بنفسي شئون المتجر . ولقد تعلم ياشاه وهرجي

علم اليقين قدر انتعاش التجارة على يدى . هذه قصتى ...

والآن اقصص على يا شاودهرجى ما شئت

الفلاح — ياسادة جى إنك لصادق فى قصتك كل الصدق . والآن استمع إلى قصتى التى لا تقل عن قصتك صدقاً

كان جدى الثانى أغنى فلاح فى القرية وكان جميل الطلعة معتدل القامة واسع العلم ذكى الفؤاد ، محبوباً أينما حل، يتسارع إليه كل ذى غرض، وكان يسدى المعونة إلى فلاحى القرية عند الحاجة فيقدم إليهم مواشيه ورجاله ، وكان يحكم بينهم بالقسط إذا ماجاءوا إليه متخاصمين . ولم يكن ليأخذ أجراً مادياً على ما يؤديه لهم من خدمات . فقدره الملك حق قدره وأفاض عليه من الأوسمة أعزها ، وكان إلى ذلك كله أعظم من بهم ورستم [1] ولهذا لم يجرؤ مخلوق أن يعترضه فى شىء

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وحدث مرة أن أصيبت قريتنا بالمجاعة بعد أن حبس عنها المطر وجفت البرك والآبار والأنهر ، وقل علف البهائم فماتت زرافات ووحدانا . ولما رأى جدى الثانى ذلك أعمل الفكر ودعا الفلاحين جميعاً إلى محفل ثم قام فيهم خطيباً وقال :

إخوانى الأعزاء

أردت أن أعرض عليكم اقتراحاً لا ريب أن فيه نجاة لكم . وهأنذا أطلب إليكم أن تتركوا لى أرضكم كافة قدر نصف سنة وأنا كفيل بفلاحتها وسوف ترون رأى العين أن نتاجها سيصير وفيراً ومن ثم لن تبقى لنا بعد اليوم شكوى

فوافقه الفلاحون على رأيه ، وشكر لهم جدى الثانى قبولهم اقتراحه شكراً جزيلاً ؛ وبدأ يستعد للعمل، ودفعة واحدة حمل القرية بأكملها فوق رأسه

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وانتقل والقرية بأكملها على رأسه من موضع لآخر باحثاً عن الماء فاجتاز العالم بأجمعه وكان كلما وجد مطراً استسقى الأرض . وبقى على هذه الحال ستة شهور حرث خلالها الأرض وفلحها وزرعها وجاء المحصول عظيما لا مثيل له ، فقد بلغت عيدان القمح والأذرة من العلو درجة لامست فيها عنان السماء .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكانت كل حبة من حبات القمح والأذرة فى حجم رأسك .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وهرع الناس من كل فج عميق تسأل جدى الثانى أن يبيعهم غلالا .

وكان الفلاح والتاجر قد وصلا فى هذه اللحظة إلى المدينة ، وتابع الفلاح قص حكايته فقال :

وكان الجد الثانى لك فى حالة من الفقر يرثى لها فعطف عليه جدي الثانى ووكل إليه بيع النلال

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكان لا عمل لجدك الثانى إلا أن يزن النلال طيلة يومه . ولكنه لم يكن موفقاً فى عمله فكان مرة يطفف الكيل ومرة يبخسه . ولزاما لذلك كثيراً ما كان يُشعر جدى الثانى جدك الثانى بيده القاسية تهوى على مواضع من جسمه

(١) هما شخصيتان خرافيتان فى الأساطير الهندية لا مثيل لهما فى القوة والجبروت

2017-11-11 16:16:13

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

وكانا قد وصلا في هذه الساعة إلى مكتب المرابي فجلسا وجلسا . ثم استأذن الفلاح المرابي في لحظة . ثم تابع حديثه مع التاجر

الفلاح — ولما بيعت كل الغلال لم يبق لجدي الثاني حاجة إلى جدك الثاني فصرفه . ولسوء حظ جدك الثاني وقع مرة أخرى في ضنك أتعس من الحالة الأولى ، فجاء إلى جدي الثاني وطلب إليه أن يقرضه مئة روبية فأعطاه جدي الثاني المبلغ المطلوب لساعته لما عرف عنه من طيبة القلب

التاجر — هذا عين الصدق يا شاودهرجي

وعندئذ قال الفلاح بصوت يسمعه المرابي :

إن جدك الثاني لم يف هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

الفلاح — ولم يحاول جدك الأول ولا أبوك إيفاء هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

ثم إنك أنت حتى الآن لم تف دينك هذا

التاجر — هذا صحيح

الفلاح — وأصبحت المئة الروبية بعد انقضاء خمسين عاماً وبعد ضم الفوائد إليها ألف روبية . ولهذا فأنت مدين لي بمبلغ ألف روبية

التاجر — هذا هذا صحيح

الفلاح — والآن وقد اعترفت أمام المرابي بالدين الذي عليك أرجو أن تتفضل بدفع هذا المبلغ نوراً حتى أستبقي لي أرضي

وذهل التاجر كمن انقضت عليه صاعقة . وما كان في وسعه أن يتنصل من كل ما ذكر ، فقد اعترف صراحة بالدين أمام شخص ثالث ، وإذا ما عارض الفلاح في كلامه فقد يتحتم عليه أن يدفع الجزاء المقرر وهو ألف روبية كما اشترطا بادىء ذي بدء ، ثم عليه وقد اعترف بالدين أن يدفع إلى المرابي ألف روبية أخرى

ومهما قلبت المسألة على مختلف وجوهها فقد كسب الفلاح المكر المعركة ، ولم تعد للتاجر حيلة ، فأخرج كيس نقوده وهو يتميز من الغيظ وقلبه مفعم بالأسى ودفع إلى المول الألف الروبية .

وعند ما افترقا قال الفلاح لصاحبه :

يا شاه جي ، يضحك كثيراً من يضحك أخيراً .

فقال التاجر — هذا صحيح

واندفع في طريقه وحيداً لا يلوي على شيء

ابراهيم يوسف

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب

أقصوصة عراقية

ثورة الجهل

بقلم يعقوب بلبول

شعور مخيف مضطرب مثير يحب الاستطلاع كان يعرو واثلاً البدوى حينما كان يستمع إلى المذياع فى مقهى قرية الحمودية ؛ فلقد كان من قبل يعجب للحاكى كيف يعيد الكلام فما بالك بهذا الصندوق الصغير ، يتلو القرآن وينشد الأغانى ، ثم يتكلم وكأنه رجل بأحاديث إرشادية أو صحية ؛ بل ربما صنى إلى نظم الأشعار صادرة عنه ؛ وهو حين يذكر « عنه » لا يدرى بالضبط ما تعنيه هذه الكلمة فى قوله ؛ فلم يكن فى هذا الصندوق أنبوب يبث الأصوات كما فى الحاكى ؛ وكان فى بعض الأحايين يسمعه ناشراً موسيقى تارة ضخمة عريضة الصوت وأخرى دقيقة رقيقة . غير أنه لم يكن ليجد بين أصواتها تآلفاً ولا نظاماً ؛ فما كان يفهم لها معنى ، أو يعتبرها موسيقى ؛ فقد كانت تنفر منها أذنه وينبذها حسه ؛ إذ أن الموسيقى التى اعتاد الاصغاء إليها والتلذذ بها ، كانت تلمس أوتار قلبه وحواسه ، فيطرب لوقعها ، وينصت إليها بشوق وتلهف .

ولقد كان يحار أشد الحيرة فى تعريف هذا الصندوق وتعليل منشأ أصواته وأغانيه وأحاديثه ؛ حتى أن الحاكى كان أقرب حقيقة من عقله الساذج المحدود ، فهو يعلم أنه يسير بمقدرة خادم المقهى الذى يدير ساعدته ، وبالاسطوانة التى يضعها فوق سطحه المستدير ، ثم بالإبرة المجددة فى كل حين . وهو يعلم بأن الحاكى يمكنه أن يعيد ما فى الاسطوانة من أغان دون القدرة على الابتكار والتجديد ؛ أما أن تنبث أصابع أبى عبطان — وهو صاحب المقهى — بلولب خشبى صغير ، فيسمع من ذلك فى كل يوم سوراً جديدة من القرآن ، ومبتكرات حديثة من الأغانى والأناشيد ، وأحاديث أخرى متباينة عما سبقتها ، وقصائد منظومة ، وأخباراً متجددة عما يحدث فى البصرة وفى بغداد وفى مكة ، فذلك ما كان يعجز عن تصديقه ، فيربك خواطره ويشغل باله !

ولقد حسب أول الأمر أن فى داخله جنا ؛ غير أنه ما لبث أن نفى هذا الحسبان لوثوقه الأكيد من أن الجن لا يعرفون تلاوة القرآن ، وإن كان باستطاعتهم إنشاد الأغانى والتهويش فأنى لهم برواية الأخبار والوقائع ؟ حتى لقد سمع يوماً هذا الصندوق يقول إن الحكومة قد شرعت فى تعبيد طريق (الحمودية — بغداد) فكان ما قاله الصندوق صحيحاً ليس فيه أدنى اختلاق ... وأنى لهم بالخطب الارشادية والصحية ومقطوعات الأشعار والقصائد يلقونها على مسامعه ...؟

وكان عقله الصغير يأبى أن يقبل أن فى جوف هذا الصندوق إنساناً هو الذى يتلو القرآن ، وينشد الأغانى ، وينظم الأشعار ؛ فقد كان يراه على صغره لا يستوعب جسم طير متوسط الحجم ؛ فأنى له أن تكون فى جوفه هذه الشخصية المحيرة ؟

2017-11-11 Facebook

وتقرب منه ذات مرة يستطلع منشأه، فما رأى سوى صندوق مستقل موضوع فوق منضدة خشبية بسيطة، غير أن الذى لفت انتباهه وجود سلك أسود متصل بناحية الصندوق الخلفية، يؤدى إلى الخارج حيث يتصل عند سطح المقهى بسلك آخر مد على عامودين متفارقين . فما هـذا الخيط الممرض تحت السماء ؟ أيمكن أن الأصوات تأتى إليه منها ؟ أم هل يمكن أن يكون هو الأصل لمصدر هذه الأحاديث ؟

وعنّ له ذات يوم، وقد أغراه حب الاستطلاع وثار به الجهل إلى استشفاف المجهول، أن يبتر السلك الممدود خلسة ؛ فتم له ذلك فى ظهيرة خلا فيها المقهى من الجالسين ؛ وعاد دون أن يشعر به أحد إلى مأواه .

ولما كان المساء، وذهب وائل إلى المقهى كعادته، راعه من أبى عبطان غضبه ووعيده، وهو يحاول عبثاً دفع الصندوق إلى الترتيل والإنشاد ؛ وقد تحقق لديه بعـد ذاك انبتار السلك الأعلى، حينما وقعت عليه عين أحد زبائنه مصادفة، فنبهه إليه . ولقد ثارت ثائرة أبى عبطان، فاتهم خادمه بحدولا . غير أن الملتفين حوله من زبائنه أفلحوا فى إقناعه بأن انبتار السلك قد حصل من جراء توتره وهبوب الرياح العاصفة عليه

وأصلح السلك فى اليوم الثانى وأعيد ربطه ؛ فـا أدهش وائلا إلا أن يعود الصندوق إلى شأنه الأول، إذن فالسلك الأعلى هو أساس كل شىء ! أى سحر هذا الذى به ؟ ! وأية قوة خارقة هذه التى تجعله يتفكر الأغانى والأحاديث ويتلو القرآن ! ؟

ومما يعجب له وائل أشـد العجب سماع أصحابه فى المقهى يتحدثون بأن هـذه التلاوة والأناشيد والأحاديث إنما تذاع من بغداد أو من مصر (وقد علم بعد السؤال بأنها أبعد من مكة) فتصل إليهم فى هذه القرية النائية بلا أنبوب أو سلك !

وغدا وائل وجل همه أن يتعرف كيفية حصول هذه الظاهرة المعجزة وسببها ؛ وأصبح يجنح للوحدة ويطيل من التحديق فى اللاشىء، مسترسلا فى تفكيره الذى كان ينتهى به إلى الثورة والتذمر ممزوجين بألم مطبق شديد، دون أن يهدىء من حدته، أو يبث إلى فؤاده المضطرب شيئاً من الراحة والاستقرار ...

ووائل هذا يا صديق فلاح من قبيلة آل فتلة، استوطن قرية المحمودية يعمل فى الزراعة والحرث . وهو شاب فى نحو الثامنة والعشرين من العمر، حميل الطلعة، مهيب الصورة ؛ له فى القامة طول وفى المنكبين عرض ؛ وهو أسمر اللون جثل الشعر فاحمه ؛ يزين وجنته السمراء الكالحة ذقن صغير ؛ وله فى كل من أذنيه ثقب نفذت فيه حلقة هى بمثابة القرط عند البدوى ؛ أما جلبابه وهو لا يرتديه إلا بعد انتهائه من العمل، فهو من القماش البسيط المخطط يتوسطه حزام قـد تدلى فى مقدمه خنجر فى غمد من الجلد

ولوائل زوجتان وثمانيـة أطفال أكبرهم فى السادسة من عمره

جلس وائل ذات يوم على حجر كبير خارج كوخه، يحدق فى الفضاء كاسفاً مبلبل الخاطر، وفى رأسه شىء مرتبك غامض ؛ فهو يرجح رأيه بين هذا وذاك، حائراً تبدو عليه الحيرة بأجلى ظواهرها؛ وهو فى ذلك حزين ساهم النظرات، مضطرب لا يستقر ؛ ولم يكن ليشعر بالاضطراب محصوراً فى رأسه فقط، بل إنه ليتمداه إلى صدره فيلج فؤاده ويعمل عمله فى قلبه ؛ ولعل هذا هو مصدر الحزن

الذى شاع فى نفس وائل ، ولعله أصل السهوم الذى ران عليه وسيطر على روحيته

لقد كان يفكر فى أمر الصندوق الصغير ... إنه ليسائل نفسه عن سر هذه الظاهرة ، أهى سحر؟ قد تكون سحراً وقد لا يكون فيها للسحر من أثر ؛ وهل يقوى السحر على نظم الأشعار ، ورواية الأخبار ، وتلاوة القرآن ؟ ثم هل يخطب السحر فى الناس خطباً دينية وأخلاقية وصحية ؟ وهل بلغ بجميع أصحابه من المستمعين الحق والجمل هذا المبلغ ، حتى لينصتوا إلى السحر دون أن يفهموا أنه سحر ؟

وكيف يكون ذلك سحراً والجميع يجزمون بأن القرآن الذى يسمعه إنما يتلى فى بنداد أو فى مصر ؟ إن أمر ذلك لعجيب والحق !

هل هى معجزة إلهية ؟

قد تكون معجزة لأنها تخرج القرآن من الخشب الأخرس فتدفعه ليتكلم ويغنى ، وقد لا تكون معجزة ما دام ذلك يتكرر فى كل يوم ، وما دام ذلك يتبع قوانين أساسية إن أهمل واحد منها فليس هناك قرآن ولا أحاديث . أو لم يجرب ذلك بنفسه فيترك السلك ، وإذا بالصندوق الناطق عيى ؟ ! فاذا لم تكن هذه الظاهرة معجزة فكيف إذن يبث الصوت فى بنداد فيسل سمعه بنفس اللحظة ؟

إنه لن يصدق ولن يعقل أبداً أن مصدر القرآن والأخبار والقصائد إنما هو بنداد أومصر ؛ فذلك سخافة وقول هراء !

فلا بد إذن من أن يكون فى جوف هذا الصندوق شىء لا يراه ولا يشف عنه هذا الحجاب الخشبى الصفيق ! ولا بد من أن يكون فى جوفه حاك أو ما يشبه الحاكى ؛ بل لا بد من أن يكون فيه حى يتبدل بتوالى الساعات ، ويجدد الأغانى والسور فى كل يوم !

فمن هذا الذى هو فى نفس الوقت المغنى والشاعر والمخبر والموقع على الرباب ؟ وإنه لينصت إلى صوت نسائى يغنى فى بعض الأحيان ، أفتكون امرأة هى التى فيه ؟ كلا ! إنه ليسمع القرآن بصوت لا يشك فى أن صاحبه رجل ؛ أفيكون من فيه رجل وامرأة أم هو شخص يتقلب بين الرجل والمرأة ؟

ربما كانت له القدرة على تغيير لهجته ونبرته ولكن ... ولكن يسع هذا الرجل صندوق صغير الحجم إلى هذا الحد ... ؟ !

ثم خطر له خاطر قلب أسس أفكاره جميعها رأساً على عقب ؛ فاذا كان فى جوفه رجل كما يزعم فما معنى وجود هذا الخيط المرض للسماء ، والذى لولاه لما كان فى الصندوق تلاوة من قرآن ولا إنشاد من أغان ؟ !

إذن فالخيط هو الأصل ! وما يكون هذا الخيط حتى يغدو الأصل فى كل ما يسمعه من غناء وأحاديث

كلا .. كلا .. لن يكون هذا الخيط إلا واسطة يحار عقله فى ادراكها ؛ ولأى شىء يمكنه أن يتوسط ؟ أيمكنه أن يتوسط للشخص الذى بداخل الصندوق ؟ وما يمكن للسلك أن يفعل مع شخص يتلو القرآن وينشد الأغانى ! ؟

وهكذا مضت على وائل ساعة وساعات ، وهو حائر مشوش الفكر مسلوب الراحة ...

وأتته إحدى زوجيه تضاحكه وتحاول أن تطرد عنه سهومه وأساه وقد حارت فى تعليل أسبابهما ؛ فعافها وائل واجتواها ، وتحاها عنه بعيداً فارتابت فى أمره ؛ ثم عادت تسأله عن سبب سهومه وحيرته فما ظفرت منه بجواب غير صرخة صعقتها بأمرها بالابتعاد ... !

ومنذ ذلك الحين ووائل يتخذ مقعده فى المقهى

قرب هذا الصندوق العجيب ، فيرى بعين الانتباه واليقظة أبا عبطان يدير اللولب ، ويهيئه للتلاوة والإنشاد ، فتسلم ذلك وأتقنه ، حتى لو طلب منه إدارته لما توانى ولما أخطأ .

وانتبه وائل ذات ليلة عند الفجر ، فاستمع عليه بعد ذاك الكرى ، وراح يفكر فى سر هذا الصندوق الذى كاد أن يذهب بعقله ، ولقد اعتراه الاضطراب ساعتئذ بشدة ، ودفعه حب الاستطلاع وثورة الجهل المتمرد فى رأسه لأن ينادر فراشه خلسة ويتفقد خنجره فيطمئن عليه ، ثم لأن يتابع سيره ميمماً شطر المقهى ...

ودنا منه فألفى السكون شاملاً له ، فدخله من بابه المفتوح ، ورأى مجدولاً الخادم يغط فى نومه حتى لقد كان يسمع غطيطه عالياً

وما كان وائل ليجهل موضع الصندوق ، فقد طالما رأى أبا عبطان يضمه فى دولاب صغير مثبت بالجدار ، ثم يقفله بمفتاح يضمه فى جيب صدريته ، فاستل وائل خنجره من غمده وجعل يغرزه بحيطة ويتيقظ فى خشب الدولاب ، فما هى إلا لحظة حتى تكسر لما كان عليه من القدم والبلى ؛ فانتزع يده الصندوق ، ومن ثم طفق يعمل فى إدارته ، مقلداً بذلك أبا عبطان كما كان يراه يفعل ، وقد غاب عن باله الخادم الراقد على مقربة منه يغط ...

وأدار اللولب الصغير فانبعثت من الصندوق موسيقى رقيقة ، أخذ وائل ينتسم لها ويطرب ؛ استطرد فى إدارة اللولب فما راعه إلا أن يسمع قرعاً مزعجاً أخافه وأرعده ، فكان يشد على اللولب ويحركه ، فما كان من هذه الأصوات المزعجة إلا أن تعلو وتشتد فتزداد خشونة وروعة

وتعالى القرع والطن إلى حد مخيف ، فندا جسم وائل برتعد وكأنه الريشة فى مهب الريح ... وكان وائل لا ينفك يدير اللولب فهمدت الأصوات ، إلا أن تلك أعقبتها أحاديث غريبة عجيبة فى لفظها ، فارتاع وخيل إليه أنه فى مملكة الجن وأن الشياطين قد برزوا جميعاً من مكامنهم ... ولم يكن ليتبين صوتاً لشخص ، بل لقد كان يسمع لغطاً لأشخاص عدة ، تارة يصرخون ، وأخرى يقهقهون بضحكات مزعجة مخيفة ... فما ارتاب وائل فى أن الجن قد تجمعوا واستقروا داخل هذا الصندوق العجيب...

فصمم ليحطمنه فيحطمن من به من الجن ... !

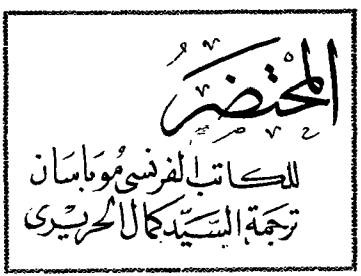
وانتزع الصندوق بكلتا يديه ، وهو فى ثورته وهلعه ، وألقاه على الأرض بكل قواه ... فتطايرت شظاياه فى أنحاء المقهى وفجأة خمدت أصواته ...

وانتبه الخادم الراقد على أثر ألم فى رأسه أصابه من جراء اصطدام قطعة حديدية ، فهب مذعوراً ليس يدرى أفى الحلم هو أم فى اليقظة ؛ ولم يكن منه حين ألفى وائلاً أمامه ، إلا أن أطلق ساقيه للريح صارخاً بأعلى صوته ، مستنجداً ومستنجداً أهل الذمة ... فهب بعض أصحاب الأكواخ والدور الراقدين على أثر هذا الصراخ وتسارعوا إلى الطريق بينما كان وائل يحاول التملص والاختباء ، غير أن القوم أدركوه وقبضوا عليه دون مقاومة بيديها ، فأسلموه إلى الشرطة

ولم تمض خمسة أيام على هذه الحادثة حتى كان وائل يسير مخفوراً بنفر من الشرطة شاكى السلاح متوجهاً به نحو السجن المركزى ...

(يتبع)

يعقوب بيرل



كانت أشعة شمس الخريف اللذيذة الفاترة ، ونسمات « ديسمبر » الرخية العاطرة ، تتسرب إلى ساحة الدار من المزرعة وتداعب فى هينة ورفق رؤوس الأعشاب النامية بأطراف الحفر وحفافى الترع ، وكانت التربة خضلة ندية خلال الأعشاب القصيرة القضيمة التى رعتها سوائم البقر وقطائع الماشية ، لا تكاد القدم تستقر عليها حتى تنوس فى برك صغيرة من الماء الذى خلفته الغوادى والسوارى

وكانت نخائل التفاح وأدواح الدراق موقرة الفروع بالثمر الشهى ، متناثدة النضون بالتفاح الأحمر الطلى ، يساطها سارى الطل ، وينثرها نسيم الصبح على العشب الأخضر فتموج سطحه بلونها الأحمر والأصفر كطرائق من الدرر واللآلىء على القطيفة الخضراء

وفى ركن المزرعة أربع بقرات ترعى العشب الندي وتقضم النبت الطرى ، فى مرح ورضى ونعمة ثم تتلفت صوب المنزل مهللة خوارها المدوي ، بينما دجاجات حول دمنة المزرعة خرجت تستنكش الحب ، وتستنبش الديدان وتستدعى أفراخها ، وديكها مجرى وراءها منهوة نخورة ، تنفى دون انقطاع أنشودة الزوج النيور على إنائه الحسان . وينفتح سياج البستان ، فيبرز منه رجل قروى فى الرابعة والأربعين من سنيه ، ولوأن وجهه المجعد وقامته المحنية كانا يدنيانه إلى حدود الستين

كان واسع الخطو وئيدها ، طويل الأذرع مديدها ، ثقيل الحركة بطيء اللفتة ، يثقل قدميه خفان غليظان امتلآ تبناً وهشيما . اقترب الرجل من المزرعة فإذا كلب أصفر صغير يحرك ذنبه فرحاً ، ثم يأخذ فى نباح قصير كأنه موسيقى استقبال ويحف بسيده المقبل ، وما هى إلا أن يزجره الرجل حتى يقفى على ذيله ويلتزم الصمت

وخرجت فى هذه اللحظة من المنزل قروية زرية الهيئة قبيحة المنظر مفرطة الطول عريضة ما بين المنكبين ، تجلببت بثوب صوف ضيق قصير ، التصق بجسمها وتهدل حتى ركبتيها ، فبان تحته جوربان خشنان أزرقان ، انتعلا حذاءين غليظين حُشيا كزوجها هشيماً وتبناً . وكان يستر شعورها الشعث المبددة ، ونواصيها النُّضر المنفلتة ، قبعة صفراء قذرة ، برز تحتها وجه هزيل أسمر ليس بالجميل ولا الوسيم ، وإنما عليه طابع القروية وسيما الريف . قال الرجل سائلاً :

— وكيف حال أبيك ؟ فأجابت الزوجة :

— يقول سيدى القسيس إنه الموت ، وإن ليلة الند لن تطلع عليه أبداً . ثم ولجا المنزل وبعد اجتياز المطبخ صارا إلى غرفة واطئة السقف مظلمة الجو ،

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

لا يكاد ينيرها إلا لوح زجاج من نافذة ضيقة . وكانت أرضها المدببة الملتوية ، وقد غمرتها الرطوبة وسالت بها القذارة ، تظهر وكأنها استحمّت في وشل من دهن . وفي ركن قصي من هذه الغرفة كانت العين تقع على سرير متهدل تنبعث منه أنة غريبة الجرس فيها النغمة الأليمة ، والزفرة الحرى والحشرجة التي تشبه انفجار قنبلة في ميدان ، أو ارتطام لجة على صخر ، وكان يفترش هذا السرير مختضر هو نحو الزوج

ويقترب الرجل وامرأته من المشرف المدنف ، ويجيلان فيه بصراً هادئاً راضياً ثم يقول الزوج :

— ليس من موته بدٌّ هذه الليلة. فتستطرد المرأة :

— منذ الظهر وحاله على ماترى . وكان المختضر منمض الجفن أربد الوجه ، اصطبغت بشرته بلون التراب ، وأشبهت سحنته غابة مقشعرة الأديم ، متيبسة الشجر ، أما فمه نصف المفتوح فكان يرسل الأنة الحبيسة والحشرجة المخنوقة يتداعى لها صدره الضعيف وتتصدع لها جنباته الواهية . وتكلم الزوج بعد صمت طويل :

— أرى أن ندعه يستوفي أنفاسه منفرداً ، فلن نستطيع له نفعا . وخير لنا أن نهيأ للمأتم المقبل والجناز المنتظر . فبدت على وجه المرأة أمارات القلق والاضطراب ، ثم فكرت لحظة وقالت :

— وما دام دفنه سيجرى هذا السبت فإن لدينا متسعاً من الوقت نهيأ فيه لحفلة المأتم . قال الرجل بعد أن تدبر قولها

— إنك على حق ، ولكن أربع ساعات لا تكفي لنعيه إلى الجيرة ، ولا لتبليغ لدعوة الأصحاب والأقرباء إلى حضور المأتم من «تروفيل» إلى ماتنو

فتبصرت المرأة كلام زوجها لحظة ثم قالت :

— لن يحوجنا أبي فيما أظن إلى أكثر من ثلاث ساعات ثم ينتهي كل شيء ، فتطوف أنت على منازل الحي ، وبيوت القرية قائلاً : لقد مات .

فظل القروي حائراً ، يقدر النتائج ، متردداً بين السألة ، ثم عالن امرأته

— مهما يكن من الأمر فليس بدٌّ من ذهابي .

وخرج من الغرفة ثم عاد يقول في تردد :

— ولأنك فارغة الشأن عاطلة من العمل ، فستقشرين البطاطس للطبخ ، وتمدين طبق التفاح لحفل المأتم ، وتضرمين النار في الفرن بأعواد الذرة اليابسة . ثم خرج من الدار فدافع كلبه الأصفر المدلل ، وتوجه إلى الطريق البعيد الذي يؤدي إلى تورفيل . ولبثت المرأة وحدها ، فانصرفت إلى ترتيب المنزل وتهيئة الطعام لحفلة المأتم : أفرغت الدقيق في المعجنة وأخذت تعجن الطحين وتفركه ، وتسحقه ثم تتركه . حتى تم لها منه كرة بيضاء شهية تركتها بجانب المنضدة . وانطلقت تقطف التفاح من البستان ، وكيلا تؤذي الشجر وتكسر الأغصان تسلقت إلى جوف الشجرة بحركة مسددة آلية ، وأنشأت تقطف وتكدس في حجرها كل تفاحة حلوة الجنى مكتملة النضج ، وفرغت المرأة من عملها ، فانصرفت إلى غرفة أبيها المختضر وفي نفسها أنه قضى نحبه واستوفى أنفاسه ، على أنها ما كادت تتخطى عتبة الغرفة حتى تأدى إلى سمعها شخيره الصاخب وحشرجته الرتيبة ، فمضت إلى المطبخ تهيئ طعام المأتم وتعد وليمة الجناز دون أن تضيع وقتها سدى بجانب مختضر تعتقد أنه إن لم يمت الساعة فكأن قد ... أحاطت كل تفاحة بصفيحة من عجين « كما

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

هى العادة عند أهل الريف يوم حفلة المأتم » ثم صفت التفاح الواحدة بجانب أختها ، حتى انتظم لديها عقد من ثمانٍ وأربعين تفاحة . وبعد ذلك توجهت إلى طبخ الحساء ، فأضرمت ناراً عظيمة وعلقت عليها قدراً كبيرة أعدتها لإغلاء الماء وإنضاج البطاطس

وآب زوجها من مهمته الساعة الخامسة وما إن وضع قدمه على عتبة الدار حتى فاجأها :

— هل انتهى كل شيء ؟ !

— كلا ويا للأسف ! فما زالت حشرجته عالية الضجيج وقرقرته ساخبة الرنين . ثم راحا يستطلعان الخبر ، فإذا الدفء على الحال التى تركوه فيها منذ ساعات : نفس مضغوط مخنوق لا يتراخى ، وقرقرة متواصلة رتيبة لا تزيد ولا تنقص ، وحشرجة مبحوحة يتلو بعضها بعضاً كتكتكة الساعة المنتظمة ، فقال الصهر وهو ينظر إلى حميه بإشفاق :

إنه كشمعة الكنيسة سينطفئ دون أن يشعر أحد أو يحس موته إنسان ؟ ويدخلان إلى المطبخ فيتناولان الحساء ، ويأكلان قطعة من الخبز المنموس بالزبدة ، حتى إذا فرغت الصحون وامتلأت البطون ، عادا أدراجهما إلى غرفة المحتضر الشرف وقد أمسكت المرأة قنديلاً أخذت تمره على وجهه وفمه وعينيه كي يثبت لديها ، إذا لم يضطرب لسان السراج ، أن النفس مقطوع ، ولكن لسان السراج اضطرب واهتز ، وراح يتراقص ويرجحنُ كأنه فى حفلة راقصة . هنالك غادر الزوجان المحتضر حانقين مغيظين ، وأسلما نفسيهما إلى النوم فى سريرين فى ناحية من الغرفة ، تحتوشهما الظلمة ، وتساورهما العتمة ، وما هي إلا أن ران الكرى على أجفانهما ، حتى دوى فى جو الغرفة الموحشة غطيطهما المختلف الناشز ، أما غطيط الزوج فقوى عميق خشن ، وأما المرأة فرقيق حاد لطيف ، فتألف منهما ومن حشرجة الليل « أركسترا » مزعجة مقلقة ليست بالشجية ولا الطروبة . ويستفيق الزوج والفجر وليد ، ونور الشمس لم يسطع على الآفاق ، فإذا المشرف فى قيد الأحياء ، فيوقظ القروى امرأته قلقاً ساخطاً ، وتستدر المرأة لحياة أبيها فتقول :

— إنه لن يمضى سحابة النهار أو أكبر الظن ، فلنهدأ نفسك وليفرخ روعك . وعندى أن من الخير أن نشيع نبأ موته بين الجيرة وأهل الحى ، كى لا يتمنت علينا المعمدة فى دفنه ، فى الغد ، وكى يتسع لدينا الوقت وتطول المدة . ويقتنع الزوج بهذه الحجة فيمضى إلى حقله ، يشيع النبأ وينعى الميت ، ومضى نصف النهار وأقبل الظهر وصاحبنا لم يعت . فبدأ المدعوون إلى المأتم يتوافدون زرافات ، ويدخلون أفواجاً ، كى يقوموا بواجب التعزية عن الراحل الهرم ، الذى أبطأت به قدمه إلى داره الآخرة

وفى الساعة السابعة حين دخل الزوجان غرفة الليل وفى نفسهما أنهما سينعمان عينيه لآخر مرة ، شاهداه ويا للأسف يتنفس نفسه المعتاد ويحشرج حشرجته الرتيبة المزعجة ، فقال الرجل وقد تلهب غيظاً وارتجف فرقاً :

— وماذا تصنعين هذه الساعة يا « فينى » بعد أن أجبرتنى على إذاعة نبأ موته بين الناس ؟

وسُمرت المرأة لا تنطق ولا تجيب . ثم انطلقا إلى المعمدة فوعدهما أنه سينمض عينى المحتضر ، ويأذن بدفنه منذ الغد . أما طبيب الصحة فقد أخذ على

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

عاتقه ، لدى توسل الزوج ، توقيع شهادة الوفاة الشرعية ، فسرّى عن الزوجين وانصرفا راضيين إلى فراشهما

وتيقظ القرويان مع الصبح ، فإذا الدفء حيّ يرزق ، فظلا ساهرين رازمين ، ينظران بقلق ورعب وحذر إلى وجه المليل وقد قرّ فى نفسهما أنه لا بد متمدد هذا الدور الخادع ، مصطنع هذه الحشرجة الماكرة ، وأنه يكيد لهما كيداً ، اشتفاء لنفسه وانتقاماً لكبريائه ، وقال الزوج :

— إن هذا مقلق مزعج ، ويزيده قلقاً أننا لا نستطيع بلاغ خبر حياته إلى الناس ، بعد الذى كان منّا من إخبارهم بموته . وفى الساعة السابعة إلا عشراً أخذت وفود المدعوين إلى حفلة المأتم تقبل أفواجاً ، مهتدية السواد ، فذعر الزوجان لهذا الموج البشرى المتراكب ، ثم راحا يستقبلانهم فى حزن وابتئاس ، وعلى حين غرة وبينما كان الفوج الأول يقترب منهما أخذا فى بكاء حار عميق ونشيج مؤلم طويل ، وكأنما خلال العبرة والزفرة يشرحان للناس الموقف المتحرج ، وبين الآهة والأنة يقصّان الفاجعة الأليمة والحال المتأزمة ثم يقدمان مع هذا كله الكراسى للجالسين ، والسجائر للمدخنين ، معتذرين لهذا طالبين الغفران لذاك ، صاخبين ضاجين منهمرين من الكلام لاهثين من الحديث مغرقين الزوّار بسيل من الكلام لم يجدوا لأنفسهم وقتاً لإجابته والرد عليه ، حتى إذا هدأت عاصفة ثرثرتهما شيئاً ، وركدت ريح هذرهما قليلاً ، أخذا ينتقلان من مدعو لآخر ويقولان :

— ما كنا نحتسب ذلك والله ولا نتوقعه ، إنه لشىء عجاب أن يصرع هذا الهرم الفانى ملك الموت القوى الجبار

وأدركت المدعوين خيبة وحسرة ، حين أخطروا أذهانهم حلوى المأتم اللذيذة ، وأطباق اللحم الحنيذة التى سيحرمونها ، ويا لحسرة بعد هذه الخطب البليغة من الزوجين . فظل فريق منتصباً ساهماً لا يريم ، ولبث ثان صمتاً نادماً لا يتحرك ، ثم هم فريق ثالث بمغادرة المنزل بصفقة المغبون ، لولا أن صاح بهم الزوج :

— وأين إذاً تتركون الحلوى المصفوفة واللحوم المرصوفة والخمور المستقة ؟ ! فهللت الوجوه الباسرة ، وأضاءت الأسارير المظلمة وأخذ بعض يهمس فى أذن بعض

— أظن أن لا فائدة من الذهاب مادامت السماء مغطاة بالغيم منذرة بالمطر ، وامتلأت ساحة الدار بأمواج الزائرين ، وأفواج المعزين من كل حدب ، حين سرى الخبر سريان البرق ، إن الوليمة جاهزة فاخرة ، والعشاء لديذ حنيئذ

ويدخل النساء غرفة المحتضر راحات على صدورهن بإشارة الصليب ، ثم يأخذن فى صلاة عميقة طويلة على روح « الميت الحى » ثم يخرجن من الغرفة ، فيُطلُّ الرجال ذوو الشجاعة واليأس من نافذة الغرفة ، على الشيخ المحتضر . أما مخلوعو القلوب وذوو الأمزجة العصبية ، فيلبثون مكانهم خوفاً من هذا الهرم الذى لا يريد أن يموت ، وحين شاهد جمع الناس هيئة المحتضر وفراشه توجهت الأنظار إلى الوليمة المنتظرة ، ولكنهم كانوا من الكثرة بحيث لا يتسع صحن المطبخ لمديدهم ، فاقترح إخراج المائدة إلى ساحة الدار ، وحين طالعت عيون الجالسين

حولها كان أول ما جذب إليها الأنظار الثاني والأربعون تفاحة المذهبة المسوَّرة بأطُر المجين ، التي جهدت الزوجة في تصفيفها ونظمها حتى عادت كالقلادة البديعة حول جيد الحسناء

وأهوت إليها الأكف كل يأخذ تفاحته في عجل كيلا تفوته حصته ولكن رغم ذلك بقي فيها أربع

قال الزوج وفي فمه لقمة ما تجد طريقها إلى حلقه :

— آه لو أبصركم عمي المرحوم أو المختضر على هذه الحال ، تأكلون خيره وتريقون ثمره الحلو إذاً لـ ... فقاطعه قروي جلف :

— لكل دوره في هذه الحياة ، وعمك الساعة لا يسيغ تفاحا ولا يشتهي ثمراً ؛ وبدلاً من أن يستاء المدعوون لهذه الكلمة الجافية الجافة ، انفجروا عن ضحكة عريضة وقهقهة عالية ؛ ولم لا ؟ وقد سنحت لهم الفرصة وأباحهم الرجل طعامه وشرابه ، وإنها لنُهزة ما تأتيهم كل يوم

وينقلب الزوج بعد فرح القلب وانشراح الصدر ساخطاً ضيق الذرع بالمدعوين ، لأن النفقة كانت جسيمة لا تقدر ، والمصاريف باهظة لا تحتمل ، ورغم هذا كنت تراه إما راضخاً بالأطباق مليئة وزجاجات « الويسكي » مترعة أو غادياً بها فارغة لا طعام ولا شراب ، ويفرغ الآكلون من الوليمة فإذا هم صاخبون بالكلام والثوبان الدنيا ضجيجاً وجلبة

وعلى حين غرة فجأ القوم فلاح هرم بهذه الكلمات :

— لقد مات . لقد مات . وران على الجمع صمت مهيب وسكوت موحش ، وتلاحظ القوم في حيرة وذهول . ثم تناهض النساء ينظرن « الميت الحي » ويتأكدن من انطفاء سراج حياته ، وحقاً كان المدعو قد لفظ أنفاسه الحبيسة فما عدت تسمع من صدره وفمه قرقرة أو حشرجة

في هذه اللحظة التي تستنزف الدمع البرود ، وتستدر العين الجمود ، ولم يبك الزوج ولا المرأة وإنما ظلا هادئين رصينين ، وكان الرجل يقول للجمع من حين لآخر :

— لقد كنت واثقاً بأن ذلك لن يطول وأحسب أن عمي لو تنازل فسلم روحه لبارئها منذ ليلتين لما أزعجنا هذا الازعاج وعكر علينا صفو المأتم هذا التفكير . ومهما يكن من شيء فقد مضى الرجل لطيته وما أظن في عزمه العودة آخر الأبد

نعم ظعن الرجل إلى دار الآخرة ، ولكن أكلافه الثقيلة لم تظعن معه . فالقروي المسكين مضطر إلى إقامة وليمة جديدة على نخب موت عمه الثاني ، وياللرزء الجسيم والكلفة الباهظة

وينفض السامر من السَّمار وتخلو بأهلها الدار ، فإذا الزوجان يقفان وجهاً لوجه ، وإذا المرأة تقول في حنق وغيظ :

— أمن اللازم الحتم أن أكد نفسي بإعداد وليمة ثانية ؟ ! آه لو طاب أبي نفساً بروحه منذ ليلتين فقط إذاً لكنا ... ويقاطعها الزوج في خضوع واستسلام .

— أفي كل يوم نحتفل نحن بمأتم أو جناز ؟!

(حلب) كمال الحريري

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي ـ رقم ٧ ﴾


الزمان


الرسالة
مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية
تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة
الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية
الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية
الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية
الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية
مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق
الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة
الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٧ | ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — أول مارس سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
١٢٢	صديق الكلاب	أقصوصة عراقية	بقلم أحمد حسن الزيات
١٢٥	صمت الهراجا أو حشيشة الهنود	الكاتبة مارى كوريلى	بقلم الأستاذ دريني خشبة
١٣٧	الخال الهندى	أقصوصة بوليسية بقلم م.ل. هويكس	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة
١٥٢	يحكى أن ملكا	للشاعر الهندى الفيلسوف طاغور ..	بقلم السيد نظمى شهاب السيدى .
١٥٨	قصة صيف	الكاتب القصصى استيفان زرايج .	بقلم الأديب أحمد فتحى عبد التواب
١٦٥	شمعدانات الأسقف	مسرحية فى فصل واحد لورمان ماكنيل	ترجمة « الناقد »

صديق الكلاب

أقصوصة عراقية

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [١] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى المطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة تخوار العجل ، ثم حشأ النار بأنامله وشيح ضرمها فى بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة المغرباء الخفرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة البر [٢] مذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلاً كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا ياعبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شىء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم مالا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ؛ لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد (٢) يريد الصحراء

قصّ علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرّنى وأسرّك لو استطعت أن أنقلها إليك بلهنته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكنتنى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تمتّ بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القومية . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق إلا أنها بلدان فى وطن واحد . والولدان جميلان بارّان يكبُر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجرٌ غير نافق

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحال طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث ! فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قُدُماً إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول إن الغلام

كان عمره اثنى عشر ربيعاً حينما سحب خاله إلى الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوي الحديث ، فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس المكاسب ؛ ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً في خدمة الجيش ، وحيناً في طلب العيش ، حتى انقطع علمُ ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجر الأخطار في كل فج ، ويصارع الأقدار في كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش في ظلال بغداد الجليلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وأسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلله قد تبدد ! فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره بضع سنين ، وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الأمل ، فما وطئت قدماه ثرى العراق القصي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ؛ ولكن شموله بلذة العودة إلى الأرض التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبَّل منها الروح ، والهواء الذي رف عليه بالصبا ، والماء الذي نضج قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التي يراه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به

عرف المحلة والدار بعد لأي كطلوس المعالم القديمة ؛ ثم قرع الباب بيد مرتجفة ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه ! فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله : هنا كان مهبط نفسي فأين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة ؛ فقل لي بربك يا سيدي أين تحمَّل بكل هؤلاء القدر ؟ . وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه . ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويعالج مضض الهموم ، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته ، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ؛ ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المختشم . فطاوعت قلب الخطيب إلى رأي الخاطبة ؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسُمي الصداق وعينت ليلة الزفاف

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال ، وأحس من ظرف ، وسمع من أدب ؛ فاقر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب العروسان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث ، حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك) ، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة

بينهما ، فضمت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل فى وجهها ، وقالت فى صوت خافت متهافت من الخزى والخوف : « الحقيقة أن ليس بينى وبين هذا الرجل قرابة ! وإنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعدما فجعنى البين فى أخى ، والموت فى أبى ، وأنا ومثلى فى حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الأسئلة من الزوج ، وتسارعت الأجوبة من الزوجة ؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الثيب حجاب امتقع لونه ، واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ؛ وكانت هى كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه فى أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قفَّ شعره وانتفخ سَحره وارتمدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! وامصيبتاه ! لقد تزوجت أختى ! ... ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها قاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره ، ثم هام فى الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه التركى بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن المخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل الزوجة الأخت عما يملك ، وأرتدى طمراً من غليظ الكرباس ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف باليدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشى فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من رشدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع . فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصم بنباحها الليل ، وأصاب الناسَ من عضاضها وأمراضها شر كبير . فأقام فى ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الصوارى وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم ينهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح

وفى نحوة يوم من الأيام أولم الوالى لأسراء ولمية السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا ناع . وجاء أبو الكلاب فرأى ألاَّفه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتملقن بعين ، ولا يصبصبن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، وليث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

الزيات

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ، فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته انتيغون

2017-11-11

صمت المهراجا أو ضيعة الهنود

للكاتبة ماري كوريلي
للأستاذ دريني خشبة

ماري كوريلي هي مؤلفة قصة أحزان الشيطان وغيرها من القصص الجميلة الرائعة التي تتفق فيها ثلاث ثقافات عظيمة ، الانجليزية والفرنسية والايطالية ... فأبوها إيطالي ، وأمها انكليزية ، وزوجها فرنسي ، وكانت ترجو لو تكون موسيقية لو لم يغلب عليها الأدب ، ولو لم ينزعها كيوبد من ذراعي أبوللو ... وأقصوصة صمت المهراجا هذه من أروع الأقاصيص القصيرة التي تصور هول الاستعمار في الهند البريطانية

كانوا يدعونها « لوالي » قبل أن تصبح حرم الكولونل كلود أنسلي ، واسمها الحقيقي هو لورا إيجرتون .. وهي غنية واسعة الثراء ، تملك ضياعاً شاسعة في انجلترا ، وقصراً منيفاً في الهند. ولقد تركت شمس الهند سفعاً عجيباً على جبينها وفوق خديها كانت تستعين عليه بالدمام والمساحيق لتجمع فيه حمرة انجلترا وسمرة الهند ، فتكتسب به سحراً وفتنة ، ما دام الجمال قد بخل عليها بطابعه غير المجلوب ... وكانت روحها وثابة خلابة مرحة ، وكانت هي طويلة ممشوقة ، ذات عينين عميقتين ، تختبىء في أغوارهما أبالسة وشياطين ... وكانت تبسم ، فتفتر عن ثناياها البيض اللامعة ، فلا يصعب على محدثها أن يستشف في القسمات المكورة حول فمها أفانين الخبث والدهاء ...

وكان زوجها الكولونل أصغر منها سناً ، ولكن كانت تبدو عليه بداوات تجعله يكبرها بسنوات وسنوات . وكان ذا جسم عظيم هرقلي ، وكان له وجه صارم اللامح ، إلا أنه كان أشبه بوجوه الفلاسفة منه بوجوه الجنود ، ولاسيما إذا جلس وحده في غرفته المنزلة ينفث دخان لفافاته التي لا تنتهي ، فيحجب عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، ويوسع دائرة تأملاته ، ويجعلها تشمل الدنيا بأسرها .. فإذا قطعها عليه قادم وثب وثبة المهر في خفة ونشاط ، وبرقت من عينيه بوارق الجذل والسرور . وكان الناس يعجبون كيف رضيت لوالي أن تتزوج هذا الكولونل ، ولم يكونوا يعلمون أنها انتظرت الكفء الذي يتقدم إليها فينقذها من هذا العنوس الذي طال حتى أفزعها وأوهى جلدها . فلما تقدم إليها كلود رقص قلبها ، ورضيته على كره أو غير كره ، ووافقته إلى الهند

وقيدته بقيد ثقيل من الذهب ، فاشترت هذا القصر المشيد الذي يهزأ بقصور الأقيال ويسخر بما بنى الراجوات ، ثم حشدت فيه الخدم والحشم بعد إذ أثثته بما تؤثث به بيوت الملوك ... وكان الكولونل يلمس الفارق الكبير بينه وبين زوجته الغنية فلا يجسر أن يؤاخذها فيما يؤاخذ فيه الرجال أزواجهم ، فهي تصادق من تشاء ، وتدعو إلى دارها من تشاء ، وتجلس إلى من تشاء ، وتشركه في الحفاوة بمن تدعو إذا شاءت ، وتهمله إن لم تشأ ... ولم لا تصنع

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

كل هذا وهى لا تكلفه قليلاً أو كثيراً مما يكلف الأزواج أزواجهم ، بل تترك له راتبه كله يتصرف فيه تصرف الراشد العاقل، فيشترى سجائره وينفق عن سعة بلا رقيب ، وله فوق هذا أن يملأ معدته بما تشتهى به معدات الملوك ، وأن ينحط فى مثل سردهم الناعمة الموضونة ، وأن يخدمه ولدان مخلدون كأمثال اللؤلؤ المكنون ... ! ليس له أن يعترض أسلوب حياتها ، فهو رجل صناعته خارج المنزل ضابط فى جيش الهند ، وفى داخله زوج ليس من مقاليد المنزل فى يده كثير ولا قليل ، اللهم إلا هذه العلاقة الشرعية التى تفرضها السماء ، وتجيء وراء الأشياء كلها فيما بين كلود ولوالى ، وفى حين تأتى أمام الأشياء كلها بين جميع الأزواج ... فهو إذن زوج دُمْية ! وهو كهذه الدُّمى التى تتخذ فى المعارض التجارية لعرض الملابس وأحدث الأزياء ، ولا يهم بعد هذا أنه دمية تتكلم وتأكل وتشرب وتنفث دخان اللفائف

وعرفت لوالى مهراجا الإقليم المجاور فى إحدى مهرجاناتها ، فراعها منه حسن احتفاء الناس به ، ومنافسة بعضهم بعضاً فى التقرب إليه ... وحسبت أول الأمر أنه ملك الجماهير يدفعها كالثياب نحو المهراجا ، ولكنه لم يلبث أن عظم فى عينيها حين سمعت إليه يتحدث بلسان انجليزى مبين ، وحين عرفت أنه تخرج فى إحدى الجامعات الانجليزية ببلندن ، وأنه طبعى عظيم من أكبر علماء الملك ، وأن له فى هذا العلم رسالة قيمة يعرفها علماء بنى جنسها

وكانت تدعى إلى دارها أهل الجاه وذوى المكانة واليسار ممن تجمعهم وإياها الأندية والمراتع ، فدار فى خلدها أن تدعو المهراجا الوجيه اللبق لا ليتناول الشاى فى دارها فحسب ، بل ليقضى أياماً فى قصرها الشاهق ضيفاً كريماً ... ولم ير المهراجا بأساً فى أن يلبى دعوة لوالى ، وأن يضرب لذلك ميعاداً موقوتاً ، وقد أثارت تلبيته الخيلاء فى نفسها ... ولما كان أهل الخيلاء لا يكتفون بأن يحسوا الكبرياء فى أعماقهم ، بل يحاولون بكل وسيلة أن يشعروا الناس بما يعزق أوداجهم من عُجْب وما يسكرهم من تيه ، فقد فكرت لوالى فى أن تدعو رفيقة صباها ادريانا زوجة الكابتن لومارشان ، من رجال جيش الهند أيضاً ، والذى يعسكر بفرقته فى إحدى المدن القريبة. ولم يكن لواحدة من صويحبات لوالى هذا الأثر العميق فى نفسها الذى أحدثته فيها الفتاة العجيبة ادريانا ، ذات العينين السحريتين ، والوجه الصغير الصارم ، والجسم الضامر الناحل ، والشعر الذهبى الجميل ... لقد كانوا يطلقون عليها اسم قصيدة كيتس الرائعة : « الحسناء التى لا تعرف الحنان ! » ، ولله ما كان أصدقهم فى هذا ! فلقد كانت إدريانا صارمة فى علاقاتها بكل من تعرف ، فلا تكاد تعرف أحداً حتى ترغمه على أن يحس أنها قائده الأعلى ، وأنه ينبغى أن يتخذها مثله ... وكان صويحباتها يدركن هذا وكن يشهدن لها به عن يد وهن صاغرات . فاذا تكلمت أصغين ، وإن اقترحت شيئاً لم يعارضن ، وإن تحدثن فى مسألة وأبدت رأيها فهو رأى الجميع . وكان ما يزال يتردد فى سمع لوالى وفى قلبها قول ادريانا فى الرجل الذى تؤثر أن يكون زوجها : « إنه هو الرجل الذى يستحق حبها وإجلالها وطاعتها ... فهو بذلك ينبغى أن يكون فذاً فى أخلاقه وفى جبلته ، حتى ليكفى أن تنظر إليه النظرة فتمنحه

قلبها وعقلها وعبادتها ... » وكانت لوالى لهذا السبب تصبو إلى أن تشهد بعينيها إلى أى حد حققت الأيام أحلام صديقتها .. فاعتزمت لذلك أن تدعوها لتقضى أياماً فى قصرها فى نفس الوقت الذى يحل فيه المهراجا ضيفاً عليها ، فهى بذلك تشهدها كيف ينزل فى دارها الملوك والأقيال إخواناً وأخداناً ، ثم ترى ماذا كان من هذه الشخصية الساحرة التى كانت فى صباها تجذب جميع الرفاق وتهيمن عليهم وتخضعهم لآرائها . وكان أكثر ما تصبو إليه لوالى هو أن تشهد هذا الزوج العسكرى ، لترى إن كان هو الرجل الذى يستحق أن تمنحه المرأة قلبها وعقلها وعبادتها !

وبينما كانت لوالى تنعش الأزهار فى الغرف ، وتأمر الخدم بتغيير بعض ما نظموا ؛ وبينما كانت تعنى كل العناية بجناح المهراجا الذى حرصت أن يكون بعيداً عن الجناح الذى هيأته لصديقيها الآخرين ، إذا بأدريانا وزوجها يدقان الباب ويفتحان البهو ، ويتسلمان حقائبهما من الحمالين ...

— مرحباً مرحباً إدريانا ...

— مرحباً لوالى العزيزة ، كيف أنت يالورا .. ؟

— أوه ! لورا ... إن أحداً لم يعد يناديني بهذا الاسم الحبيب !

— زوجى ... لومارشان ...

— مرحباً كايتن ...

— مرحباً بك ياصديقة زوجتى ... كم كنت أتوق أنا وإدريانا للقيائك !

— أنا سعيدة بكما ... سعيدة ... سعيدة جداً ... أوه إدريانا ... عمر بأكمله منذ افترقنا ... ها أنت ذى ما تزالين جميلة ... عيناك ! أوه ! عيناك يا إدريانا ما تزالان سحريتين ! وشعرك ما زال يلقى أضواء الذهب كما كان فى الصبا ... إنك ما تزالين طفلة كما كنت ... ولكنك أيضاً طفلة هائلة ... سأدعو لكما كاود ... كاود ! كاود !

وأقبل كاود ليؤدى وظيفة الزوج ، فقالت لوالى : « زوجى الكولونل كاود ... هلم يا كاود ... ها هو أخوك لومارشان ... وها هى صديقتى إدريانا التى طالما حدثتك عنها » ... وهش كاود على غير عادته وبش ، وجلس يحدث الضيفين عن سفرتهما الطويلة ، ويحدث نفسه عن النادة الصغيرة العاتنة ذات العينين السحريتين ، الجالسة أمامه ... ثم عن هذا الحيوان زوجها ، ذى الشاربين الغليظين المتصبين كشارب القط ، وذى الرقبة المتنفخة كأنها رقبة العجل ... !

وجلسوا هنيهة يتحدثون ... وبدأت لوالى تقرأ سطور مأساة مكتئمة فى عينى صديقتها إدريانا تلوح مناظر منها فوق المسرح الشاحب الحزين الذى تموج ستوره فوق جبينها الشاكى ، وفى ثنايا شعرها المسبطر الجميل ... وجاء الشاى فتشقق الحديث حول أكوابه ، وكانت نبرات الأسى ترن فى فم إدريانا ، فما كادوا يفرغون من شايهم حتى نهضت لوالى ، ونهضت فى إثرها صديقتها ، وانطلقتا إلى غرفة بعيدة فى الجناح الآخر من القصر ليتحدثا وحدهما وليتحدث زوجاهما فيما يليق بهما

— إدريانا ... ألست سعيدة ؟ أعذرينى فى أن أسألك عن وجوم كانت تتعثر فى أذيالك كلماتك ...

— والله يا أختاه ... لا ... ولكن ... هذا لا يهم ...

— لا يهم ؟ وكيف ؟

2017-11-13 06:06:03

— إى والله ... وله ؟ هل وجد الناس فى هذه الدنيا ليسعدوا ؟ أبداً ! لقد كانت أحلاماً وسرعان ما ذوت ؛ وكانت مُنًى وسرعان ماسقطت كأوراق الخريف ! هذه هى الحياة دائماً إذا ابتسمت وتبرجت فى الربيع ، فلا بد أن تتجرد من غرورها فى الشتاء ... وتلك هى مأساة الكل يا أختاه ... ومع هذا فأنا لا أشكو من أوصارها شيئاً ...

— ولكن زواجك كان ثمرة شهية من ثمار الحب يا إدريانا !

— حقاً ... لقد كان ... ولكنى كنت أرجو أن يكون حباً طويلاً سرمدياً كحب القديسين لله ! وا أسفاه على الأحلام اللذيذة التى كانت ثمرة خيال الشباب العريض ، وقصص الحب الواسع ... وأنت يا لوالى ما خطبك ؟ ألم يكن زواجك ثمرة من ثماره المرة ؟

— أنا ؟ كلا أيتها الحبيبة ! لقد تزوجت لأنه كان يجب أن أتزوج . لقد طال عُنوسى ، وكنت أتمنى زوجاً رزيناً محترماً ، فلما وجدته وضعت تخاليى فى عنقه ! »

— آه أيتها العزيزة ... أنتِ سعيدة إذن ! أما أنا ... فلم أسعد بمثل هذا الرجل !

— آسفة كثيراً يا أختاه !

— لا عليك ... لا بهم ... لا تأسفى ! أنت تعلمين يا لوالى كم كانت أحلامى خُلباً كواذب ... لا ضير ، لقد دفنتها جميعاً ، وإنى لأقف بقبرها أحياناً أندبها وأبكيها . ولقد عرفت الحياة الآن . ولقد عولت على أن أحياها كما عرفتها مجردة عن بهارجها بعيدة من سرابها الذى يخفى حقيقتها عن الغافلين !

وكانت تتكلم وقد جلست أمام المرآة الكبيرة تصف شعرها وتكوّمه ، وكان السحر كله ينشر ألغازه من فمها ، فقالت لوالى :

— لله كم أنت جميلة يا إدريانا ! مهما قاسيت فلك دائماً سحرك وروعة لفتاتك !

— حسبى هذا من دنيا الخيبة يا لوالى ! حسبى ألا أصبح قبيحة شائهة فأفقد مع شبابى شعورى بكرامتى ... ولكنك يا أختاه تذكرين جمالى دائماً ، ولا تذكرين أنك كنت زهرتنا جميعاً فى صباك ! أنا ؟ أنا جميلة ؟ !

— لا ... لم أرد أن أقول هذا ، ولكنك كما كنت دائماً ... أنت المخلوق الفاتن الذى لا يمكن وصفه ، ولا تزالين إلى اليوم هذا المخلوق نفسه ! لقد اعتقن أنطونيو بكليوباترة ، وكليوباترة هى مخلوق فاتن مثلك ، وفى الدنيا اليوم حسان فواتن مثلها ، بيد أنى لا أحسب أن فيها من هو مثل أنطونيو .. إنك لغز يا إدريانا ... وليس أحمق من الرجال فى استكناه ألغاز الجمال ! »

فتبسمت إدريانا ابتسامة موجعة وقالت : « أنا ؟ أنا لغز يا لورا ؟ أبداً ... بل أنا امرأة كسيرة القلب مهيضة الجناح ، فقدت أحسن أمانيها وأعز مُثلها ، وتحاول سد وسمها أن تكتم فى أعماقها خيبتها وأحزانها وسر بلواها ... فإذا باحت به لك ، فهى واثقة أنها تنقل سرها من قلبها ... إلى ... قلبها ... أى قلبك . ولقد شكوت إليك بثى ، وما زال لى رجاء إليك ... فلقد ذكرت لك أن زوجى ليس له ما لزوجك من وقار واحترام ... إنه ... رجل ... لا يملك حِلمه إذا شرب ، بل إنه ليفقد توازنه ، فيبدو حيواناً خبيثاً ، فهل تعذبنى ألا تشجيعه على كؤوسه يا لوالى ! إنى يؤلمنى أن أفضح فى آلامى

2017-11-14 Rotaba

فتكون ملهاة لنيرى ... فهل أنت فاعلة ؟ ...

— أوه إدريانا ! سأكلم كلود فى هذا ، إن لم يحزنك أن أفعل ... ولكنك تتركين نفسك فريسة للهموم مع ما فى ذلك من الخوف عليك يا أختاه . فهل تعديني أن تنسى أشجانك الآن ...

— أجل ... أعدك ... وسأكتم السر الهائل الذى يمزق قلبى ... سأكتمه ...

— وأى سر هائل يا إدريانا ...

— أجل .. لقد رزقت غلاماً منذ عامين

— بالله ! وهل فى ذاك ما يحزن يا أختاه ؟

— وكيف ، لقد مات منذ ثلاثة أشهر !

— مسكينة ! هذا محزن حقاً ...

— لا ... إنه لم يحزنى أن مات طفلى ، برغم عينيه اللتين ماتفتأن تشعان الحب فى قلبى من أغوار ظلمات القبر ... لقد فرحت لموته ، لأنى خفت أن ينشأ نشأة أبيه ! ...

— إدريانا ... حسبك إذن ... إنك تحرقين بقية نفسك يا حبيبتى ... لقد قدمت إلىّ لترفعى عنك بعض هذه الأحزان ، فابتسمى للحياة وانسىْ بلواك ... أشرقى أيتها العزيزة وسلمى فيما مضى لمن هو أرحم بى وبك وبالناس ... ويسرنى أن أذكر لك أن ضيفاً عزيزاً سيمشى منزلنا الليلة وسيتناول العشاء معك ، فهل تأذنين لى فى أن أذهب فأصلح من شأنى يا إدريانا ؟

— تفضلى ... تفضلى يا لورا ... وأرجو ألا تستأنى علىّ

وانطلقت لوالى ... لكنها عادت فى مثل اللمح لتقول : « أوه ! لقد نسيت أن أذكر لك أن ضيفنا العزيز هو أحد أصحاب السمو ... هو مهراجا الإقليم المجاور ، وهو رجل مثقف يحبيد الانجليزية ، ويلبس ... آه يا إدريانا ... يلبس كنزاً من الجواهر واللآلىء ... أرجو أن تسعدى بلقائه كثيراً ، وأرجو أن يسرك لقاء حاشيته العظيمة ..

انطلقت ثانية ، فلقيت لومارشان يسير بين يدى زوجها إلى غرفته ليبدل ملابسه ، فهتفت بكلود تقول : « كلود ... أرجو أن تأتى إلى غرفتى بعد أن ترى الكابتن غرفته ، فإن لى حديثاً معك »

وعاد كلود ليلقى زوجته ، فوجدها تنتظره ثم لتقول له : « كلود ! لشد ما يحزننى أن أخبرك أن ضيفنا لومارشان رجل عربيد ! إنه يشرب حتى يضيع صوابه ! » فيقول كلود فى ريبة وخجل : « لقد بدا لى أنه سكير كبير ! » ثم ينظر فى الأرض ، فتقول له لوالى : « كم أنا نخورة بك يا كلود ! كم أنا نخورة بك ! أبداً لم أرك تضع كأساً فى فك » فتصطبغ وجنات كلود بحمرة الخجل الساذج ، فتقول له لوالى : « إذن عليك ألا تمكنه من كأس يحتسيها ! وإلا ... » وذعر كلود ، وخاف أن يكون ثمة نذير بعد (إلا) هذه ، ووصلت لوالى حديثها ، فقالت ... « وإلا فانظر ماذا يكون من شأنه إذا غاب عن صوابه وأحدث شحناء بينه وبين إدريانا فى حضرة المهراجا ؟ ! » ... واطمأن الكولونل ، ووعدها ألا تصل يداه إلى قطرة واحدة من الخمر . وكافأته بأن وضعت له زهرة جميلة فى عروته ، فشكرها مستحيياً

وعجب الولدان الخالدون وهم يهيئون الخوان لم أمرت سيدتهن بألا يضعوا توابل الخمر وأكوابها ، وكانوا يضعون منها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ...

ولكنهم كانوا يحيون فى مدينة فاضلة من هذا القصر النيف ، فلم يبد العجب فى وجوههم وهم يجيئون ويروحون حاملين صنوف الآكال وأكواب الماء الزلال ... ! ولم يكونوا ينظرون إلى المهراجا العظيم بقدر مايمعنون النظر فى هذه الملكة الإغريقية الساحرة : إدريانا ، وهى جالسة وسط الجماعة ماتنبس إلا قليلاً ، وقد عقصت شعرها الجميل فوق رأسها كأنها أفروديت !! وفى الحق ... لقد كانت إدريانا فتنة المجلس ... ولم تشبع عيون المهراجا والحاشية من النظر إليها بقدر ما شبعت بطونهم من الآكال الفاخرة العجيبة ... وكانت عيناها الواسعتان السحريتان موضع فتنة القوم ولا سيما الشباب ذوى الأمانى والأطماع ...

ومضت أيام ، ولومارشان محافظ على وقاره الذى دُبِّر له أحسن تدبير وأبدعه ، حتى أحست إدريانا أن جانباً من مأساتها ينجاب عن قلبها ، وبدأت تشعر بطرف من السعادة التى افتقدتها طويلاً فلم تظفر بها ... وسرها أن زوجها استماض عن نشوة الكأس بحميا الرياضة ، وكان رياضيًّا بارعاً ، فكان يستيقظ فى البكور فيركب جواده ، ثم يمضى إلى اللعب فيبارى المهراجا فى لعبة الأكر ...

ولم يكن يعلم أحد بالنار التى تأججت فى قلب المهراجا ، والتى أودت لهيبها عينا إدريانا ... لقد ظلت هذه النار المقدسة سرًّا هائلاً يؤرق المهراجا العاشق ، ولايستطيع أن يبوح به لأحد إلا للعينين الحبيبتين اللتين كانتا تنظران إليه فى تيه وعجب ، وهو يقص غرائب أخباره عن أساطير الهند ، ومشاهداته العجيبة خلال تلسكوبه فى أديم السماء وما وقع له فى الأدغال من ملاحم بينه وبين الفهود والنمور والفيلة ... لقد كان يكتم حبه ويقاسى منه مالا قدرة لجبل على حمله ، وكان يعلم أن النجوم التى لا يراها بالعين المجردة هى أقرب من إدريانا المتروحة على قربها الشديد منه ... ولكن حبه كان ينمى فى قلبه ، فيفور دمه الشرقى ، ولا يجد محيصاً من أن يرد تحت ثلوج القنوط التى كانت تصدمه ... لأنه محال أن يجزى عن حبه بشىء مهما كان حبه عظيماً طاهراً ...

لقد سقطت أزاهير كانت تحملها إدريانا مرة ، فأسرع المهراجا العظيم بكل ما عليه من لآلئ وحلى فاهمى عليها ، وحملها للملكة ... ملكة قلبه ... مع ما فى هذا من وشك افتضاحه ... بيد أنه لم يبال ، بل تمنى لو استطاع فنمر الأزاهير بالقبل وهو يقدمها لسالبة لبه ...

وحان موعد الأوبة ... وانقضت الفترة السعيدة ... وتصرمت ليالى الأحلام ... وكان غداء فاخراً غداء الوداع المؤلم الذى أعدته لولى لأضيافها ... ولم يكن المهراجا قد برح غرفته بعد ، وكان بابها مفتوحاً قليلاً ، فشهدها تنزل على الدرج وحدها ، تخفق قلبه فى شدة وعنف ، وجعل يحلم — وهو واقف يترنح وينتفض — بهذا الملاك الفاتن والجمال العجيب ، وهذا الشعر الذهبى الذى أرسلته إدريانا يَنْدَوْدِن فوق كتفيها ، وهذا الفم الساحر القرمزى الذى خلق للقبل والحب ، وهذا الجسم الفينان الذى خلق لجنة كاملة من الهوى ، وهذا الصدر العاجى الذى خلق للضم والعناق ثم أوشك المهراجا المسكين أن يهبط وراء معبودته ، لولا أن اغرورقت عيناه فجأة ... فارتد صَعِقاً ليكفكف عبراته ، والمحط على أريكة قريبة وجعل

2017-11-14 15:05:03

يتمتم ويقول : « وا أسفاه ! الجنس ! الدين ! القانون ! كل أولئك فواصل تحول بين الرجل والمرأة أشد مما يحول بينهما الله ... وأمنا الطبيعة ... ! »

وطفق يبكي كالطفل ... ولا يد له في شيء ...

* * *

وآب المهراجا إلى ملكه ... وجلس القوم إلى غدائهم مرة ، وبرزت بنت الشيطان على الخوان من جديد إذ لم يعد داع إلى تحريمها بعد إذ ذهب المهراجا. وجلس كلود بجانب لومارشان يردعه ويكبحه ، ولا يسمح له أن يضيع حلمه ويذهب وقاره بين الكأس والطاس ... ثم نهض النسوة ، وذهبن إلى الصالة الكبرى ، ليأخذن في رقصة جميلة اقترحتها إحداهن ... ولم يمض وقت طويل حتى سمعن ضجة دخل على أثرها المهراجا المتبول بكل جواهره ولآلئه تحف به حاشيته العظيمة العجيبة ... وكان بعض خدمه يحمل عرشه المصنوع من الذهب الخالص ، فوضعوه لسموه في ركن من أركان البهو ، حيث استوى عليه ، وراح يتفرس في الراقصات ، حتى إذا رأى إدريانا سحرت عيناه في طيفها الأثيري ، ولم تريما عنها ... ثم أقبل الرجال فحيوا المهراجا وحياهم ولم يكن غريباً أن يرتبك كلود ... ويسقط في يديه

ونهض المهراجا من عرشه ، ولم يبال أن يقترب من الراقصات ليملأ قلبه وعينيه من ملاكه الحبيب ، وطمع أن تمسه مصادفة بطرف ثوبها ، أو بالوردة الكبيرة الحمراء التي تزين صدرها ... أو أن تلقي عليه ظلال شعرها الذهبي ، أو أن ترمقه بنظرة من عينيها السحريتين ... وما كاد يفعل حتى رأى ضابطاً صغيراً يدنو من أدريانا ، ويسر إليها بكلمات فيمتقع لمن وجهها ، وتنادر المرقص من فورها مع الضابط ... ولا يبالي المهراجا أن ينطلق وراءها ليكتشف السر ، ولا يبالي أيضاً أن تمتد إليه الأبصار من كل صوب لترى ما ذا يريد ... وتدخل إدريانا غرفة الطعام مع الضابط الصغير فترى زوجها ممتلئاً نشوان ... وقد شرب قارورة بأكملها من الخمر التي تسكر كأس منها أضخم فيل من فيلة الهند ، وأوشك أن يأتي على زجاجة أخرى ... وتجد زوجها المسكين قد ألقى ذراعيه ورأسه على الخوان ، وأخذ في شخير منكر ...

وتذهل إدريانا ... وتشير إلى الضابط فيتقدم إلى زوجها فيحتمله ، بينما زوجته تقول :

— رتشارد ! أتنام هنا ؟ هذا لا يليق ! ماذا تقول لولي وماذا يقول زوجها وماذا يقول الضيوف؟ قم ! استيقظ ... إصعد فنم في غرفتك لتستريح ...

ويقول الضابط الصغير : « هلم يا كابتن ... إصح ... هذا لا ينبغي ! ... »

ويصحو الكابتن الخمل ... ولكنه بدلا من أن يصعد ليتام ... يقف كالشيطان ويلكم زوجته التاعسة بقبضته القوية الجبارة لكمة ... تلقيها على الأرض ... منشياً عليها ...

وهنا ينقل الدم في رأس المهراجا ، وينقض كالصاعقة على الزوج البهيم ، فيقذف به على الأرض وينشب في عنقه أظفاره ، ويوشك أن يزهق روحه ويخمد أنفاسه... ويجري الضابط ، ويقبل مع كلود ، كلود الدمية ... الذي ينقض بدوره على المهراجا فيحتمله بين ذراعيه ، وينقذ الرجل منه ، ويقول : « ماذا ؟ ألا ترى إليه تملا يا صاحب السمو ؟ كيف تقاتل رجلا لا يملك أن يدافع عن نفسه ؟ إنك لست جباناً ولا سفاحاً ! ... » ثم أمر الضابط أن

يستدعي زوجته لوالي ... ونظر بعد ذلك إلى المهراجا بكل ما في عينيه من نبل عسكري ، وأنشأ يقول : « إنك ضيفي يا صاحب السمو ، فاغفر لي ما صنعت يداي مملك ... بيد أني عجبت كيف تمارك ثملاً ! » فقال المهراجا وعيناه تتقدان غضباً : « لقد قتل الحيوان زوجته ! » فقال كلود : « عفواً يا صاحب السمو ! إنك أحد رعايا الإمبراطورية ، وليس هذا من شأنك ! وليس لك أن تحمي إنجليزية ولا سيما من يد زوجها ... معذرة ... إنك لا شك تعرف كل ذلك تمام المعرفة ... ووجم المهراجا قليلا ، لكنه انحنى انحناءة خفيفة ، ثم غادر البهو وعاصفة من الألم تزعزع قلبه وتشتعل في عينيه ... ثم أقبلت لوالي فانحنت على صديقتها ورفعتها من فوق الأرض ولم يملك المهراجا أن ينظر خلال الباب ليرى إلى وجه معبودته الأصفر المتقع ، ووردتها القابلة المنتثرة

وحملت إدريانا إلى غرفتها وهي لا تكاد تعي ، فباتت ليلة ليلاء طويلة الآلام موصولة الأحزان ، ثم أصبحت وبها من العلة ما يوشك أن يقضي عليها

وانطلق كلود إلى حجرة لومارشان فأيقظه ، وقال له وهو عابس ثائر :

— كابتن لومارشان ! زوجتك تشكو من علة شديدة ! ... لقد سلكت أمس سلوكا شائناً لا يليق بمجندي بريطاني ... إحمد الله أنك لست في فرقتي ! يا للعار ! إنجليزي يضرب زوجته ! وأمام مهراجا ؟ فماذا يظن الرجل بمدينتنا ؟ لقد كاد يقتلك لولا أن أنقذتك من قبضته ! على أنك تعلم أنه ضيفنا وهو ذاهب اليوم ، وقد كلفني في أمرك ، وهو يريد أن يراك قبل أن يرحل ! »

— لا ... لا شأن لي به ... ولن ألقاه حتى ينزل به القضاء ما يستأهل ... الوغد !

— بل أنت الذي يُنزل بك القضاء ما تستأهله إن أبيت ! على أنه يبدو لي أنك تخشى أن تلقاه ... وإني أقسم لك بربي أني لن أسمح لبريطاني أن يبدو أمام المهنود جباناً كما تريد أن تفعل

وبرّق الكولونل عينيه ، وراح يفتل سُبالَيْ شاربه ، وفي صدره ثورة من الغيظ جامحة ... فقال الكابتن :

— حسن ... أين هو هذا المهراجا ؟

— هو في الجناح الخاص به ... وحده ... ولا بأس إذن من أن أخبرك أنه يريد أن يعتذر لك

فما سمعها الكابتن حتى ضحك وبدت نواجذه ، ونهض من فوره للقاء المهراجا ... ونظر إليه الكولونل نظر المنيظ المستهزئ ، وهجس في سره يقول : « يا وقح ! مسكينة تلك الطفلة البائسة إدريانا ! مسكينة في مُثلها العليا التي تمخضت عن هذا الفشل ! ... تعالى يا لورا فانهدي النموذج العجيب الذي كنت تشرئبين إليه ، وتتخذينه صنماً لأحلامك ! هلمي لتحمدي الله على ما وهبك ! » .

وفي الحق لقد كانت فرصة عظيمة للكولونل الذي كان يستكين لزوجه ، برغم ما كان يشعر به من الاستخذاء في صميمه بسبب ذلك ، أن يفكر في عجب لوالي وكبريائها ... وها هو ذا قد جلس يبتسم لهذه الفكرة ، وينظر إليها تتأرجح خلال الدخان الذي يتصاعد من لفافته ، وينقذف من أنفه وشفتيه كما ينقذف البخار من محبس القطار !

واستأذن الخادم سيده المهراجا للكابتن فأذن له ، وكان هذا يجلس على كرسي كبير ، ويطل من نافذة مكشوفة على الحديقة الباسمة . فلما أحس

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

بالانجليزى خلفه أوماً برأسه إيماءة هينة ، ولم يقف ليحييه ... فارتبك لومارشان ولم يدر ماذا يفعل ، ثم بحث عن كرسى ليجلس عليه فلم يجد ، فزاد ارتباكه وتضاعفت حيرته ... وكان فوق منضدة الوسط طاس به أزهار ناضرة تملأ هواء الغرفة بعبقها العطرى ، فانحنى الجندى فوقها يتشممها ، ويدفن فيها حياءه . وفى كل خطفة عين يتجه ببصره نحو المهراجا ... الذى تركه هكذا دقيقتين أو نحوها ، ثم التفت إليه فجأة مستديراً فوق كرسيه وقال :

أيها الكابتن لومارشان ! أقدم إليك اعتذارى عما فرط منى من مهاجتك أمس إذ أنت فى غير وعيك ... وذاك لأننا نحن الهنود ، لا سيما من هم فى طبقتى لم نعتد شرب الخمر ، لذلك لا نعلم من عقاربها فى ألبابكم شيئاً ... وقد فطنت إلى غلطتى بعد أن عرفت ذلك ، ولهذا فقط أعتذر »

وهنا ، بلع الكابتن ريقه ، ورُدَّ إليه قليل من ذهنه المُشَرَّد ؛ ثم وصل المهراجا كلامه فى نفس الفجأة التى ابتدأ ، وبنفس الأسلوب : « إيه يا كابتن؟ هل تطلب ترضية أخرى ؟ وهل بحسبك ما اعتذرت به لك ؟ » وكأنما فاء الانجليزى إلى خَيَالاته فتذكر أن محدثه الهندى ، وإن يكن راجا عظيماً ، إن هو إلا أحد العبيد الذين لا يصح أن يُساموا الشرف الانجليزى ممثلاً فى أحقر جنودهم ؛ فأخذ يفتل سُبَالَىْ شاربه ، ثم قال بأنف شامخ ، وخدّ مُصَعَّر : « أجل ، قبلت اعتذارك ! » وطارت العبوسة الهائلة التى كانت تُرنّق فوق جبين الراجا القطب ، ولمع فى عينيه برق خاطف ، وهتف بالانجليزى المتجرئ يقول : « والآن يا كابتن لومارشان ! ها نحن هنا ندّان فريدان ، فهل لديك الشجاعة الكافية التى تلتقانى بها نحكم شريف بوده لو حطم رأسك ، وزلزل كيانك ، لينتقم لهذه المخلوقة الضعيفة الحسناء ، التى لطمتها فى موضع العزة ، ومكان الكرامة الإنسانية ، فانطرحت فوق الأرض تتلوّى وتئن وتتوجع ، ليلة أمس ! ... مالك تنقض هكذا ؟ ... آه ... إنها زوجتك ! وأنت إنجليزى ، وهى إنجليزية ، ولا حق لهندى مثلى فى التدخل بينكما ، بَلْهَ حماية زوجتك منك ! وهـذا هو قانونكم ! » ثم أرسل الراجا آهة عميقة هائلة ، مازالت تعصف بالكابتن الواجم حتى عرف أنها انطلاقة الحب ... ولكن الكابتن لم يُحر جواباً مع ذاك ، بل ظل بارداً كالثلج ، جامداً كالحديد ؛ وانطلقت ألف فكرة تهجس فى قلب المهراجا ، فهب من كرسيه العاجى ، وطفق ينتفض ويقول : « أواه ! أواه ! أيها الانجليزى المتجرف الصَّلِف لو استطعت أن اشترى منك زوجتك الجميلة الرائعة لأسوننها عن البهيمية المتأصلة فيك ! إذن لنزلت لك عن نصف أملاكى وجواهرى ! ... إننى لو استطعت أن أضمها إلىّ ، وأخبئها فى قصورى ، بدافع الرحمة والإنسانية ، لألثم الدنيا صراخاً وعويلا ، وجعلم تذموننا وتشتموننا ، وتقولون كدأبكم ... الهنود وحوش ... الهنود غير قابلين للتمدين ، يجب أن يظل الانجليز إلى الأبد سادة الهند ... ! واأسفاه ! إننا شعب مغلوب على أمره ، وأنتم أيها الانجليز تحتقروننا ... ولكننا نستحق ، فقد ألفتنا صناعتنا عنكم ، ورسفنا فى قيود الذلة التى وضعتموها فى أرجلنا خلاخيل من ذهب أجيالاً بعد أجيال ، ودفنّا حكمتنا بأيدينا فألهيتمونا بمتاع البدع والضلالات ،

وتغشية الشموذات والخرافات ، وقلتم إنها دين الشعب ، ومذهب النالبية ، فأنتم لها حماةٌ وعنها ذادة ، وبذا ضعفت الهند ، فأنتم تحكمونها بضعفها ... ومن يدرى ؟ فقد تستيقظ الهند يوماً فتُسحِقكم[1] وتقطع دابر الذين ظلموها منكم ... ولست مع ذاك أنتقص من دولتكم ، فأمتكم أعظم الأمم ، وانجلترا سيدة العالم .. ولكن مثلك هو من غير شك عار عليها ، ولطخة دنس فى مجدها ... ولم ذاك ؟ إنك وأمثالك تشترون البنايا الهنديات لتقضوا منهن أوطاراً لئيمة ، وتنسون نساءكم ، وتطرحون زوجاتكم ... وليس بحسبكم هذا ، بل تفضحونهن بين الناس ، وبين الهنود ، كما فعلت بامرأتك أمس ! ... ولكن ما لى ولهذا كله ؟ وفيم بعثرة الكلمات مع دنس مثلك ؟ لقد اعتدرت لك يا لومارشان ، وانتهى ما بيننا ، فهل تمدنى قبل أن نفترق إلى الأبد ألا تهين زوجك على الصورة التى رأيت منك أمس ! إنها جميلة أيها الرجل ، وهي بتدليك لها أولى ، وبعجيتك واحترامك أجدر ، فلم تعاملها تلك المعاملة التى تجعلها تأسف أشد الأسف على أن تزوجتك ؟ الحق أنه لا شأن لى فى كل ذلك ... ولكن ... إنس مابيننا الآن من فروق ... إنس أننى هندى لا شأن لى ، وأنك إنجليزى لك شأن أى شأن ... إنس الجنس ، إنس الديانة ، إنس النَّعرة والعصبية ... إنس كل أولئك يا لومارشان ... واذكر أننا من صنع إله واحد سرمدى أحسن كل شيء خلقه ... إذ كرهذا فقط حين أطلب منك أن تمدنى وعد حر جدير بشرف الجنود ، أنك لن تعود إلى مثلها ! ! »

وكان المهراجا يتكلم فى طلاقة ويتدفق فى بيان ساحر ممتلئ بحرارة الإنسانية والمحبة . ولما انتهى من حديثه بسط يده إلى الكابتن ليقاسمه ، ولكن الكابتن صعر خده ، وشمخ بأنفه ، وضم ذراعيه إلى صدره فى أنفة وكبرياء وقال :

— « ألا ما أجل ما تطلب أيها الهندى ! من أنت حتى تطلب ذلك إلى ؟ »

فصرخ المهراجا صرخة مدوية ثم قال : « إنك مسيحى ! وطالما ذكروا لى أن المسيحية هى دين الإخلاص الصحيح وملة المحبة والسلام والنقاء ... على أن لنا نحن الهنود ملة أخرى غير المسيحية ، وفى ملتنا أن من عاهد على شيء وحلف عليه ، فليس إلا أن تبر يمينه ، فلا يتحلل منها ، أو يرد موارد الهلاك ! أفليس فى ملتكم شيء من هذا ؟ »

وتبسم الكابتن ابتسامة حمقاء جاهلة ، ثم نفض تراباً من كتفيه ، وقال : « لا ... » وما كاد يقولها حتى امتشق المهراجا خنجراً هائلاً من حزامه وشهره بشدة وحنق ، ورفع يده ليغمده فى صدر الكافر الذى أراد أن ينكر فضيلة المسيحية غطرسة وعناداً ... ولكن ... لقد فر الجبان أرشق ما تفر النعامة من مطارديها فى الصحراء ... وأغلق الباب دونه ... فابتسم المهراجا وأغمد الخنجر ، وقال وهو يجلس على كرسيه فى صوت متهدج : « إذهب أيها اللعين ! »

وبعد ساعتين كان المهراجا يستأذن مضيفيه الكريمين لوالى وزوجها فى الانصراف ، وقد ودع بما يليق به من حفاوة وتبجيل ، وازدحم الجميع حوله يُحيون ويُبَيِّعون ... إلا ... إدريانا ... التى بلغها أن المهراجا يوشك أن يرحل ، فهضت من

(١) تستأصلكم

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

سريرها ضيقة موهونة ، وأغلقت باب غرفتها ، ثم قصدت إلى نافذة تطل على الخارج من القصر وحديقته الفيحاء ، ففتحت أحد مصاريعها ، ثم وقفت تتنظر ، حتى إذا ما المهراجا ، اغرورقت عيناها فجأة ... وخفق قلبها بشدة ، حينما اتجه بكل وجهه وعينيه وروحه ناحية نافذتها . فلما رآها ، ولمح الدمع ينهمر على خديها الشاحبين ، زلزل قلبه وارتجفت أعصابه ، وعرف السر الرائع الأنيذ ... وانتقلت من عينيها إلى فؤاده أولى رسائل حبها ... أو ... شكرها ... أو إعجابها !

* * *

ولكن ماذا يجدي المهراجا أنها أعجبت به ... أو أنها أحبته ؟ : لقد فسر هو القضية ، وساق كل كل براهينها ! فهو هندي ، وهي إنجليزية ... وهو برهمي ، وهي مسيحية ... وهو عزب ، وهي متزوجة ... وهو عبد برغم اللآلئ الثمينة التي تزين صدره ، وتثقل كاهله ... وهي حرة لأنها من نساء الإمبراطورية ... فأي مطمع له فيها ..؟ لا شيء !!

ما كان أبدع البدر الهندي في هذه الليلة ! وما كان أعبق الهواء البرهمي بشذى النوار الجميل الممتد فوق سطح قصر المهراجا ! وما كان أشبه هذا السطح الجميل بحدائق بابل المعلقة : وما كان أشبه القمر السافر الساخر بقنديل الزيت معلقا في العلو وسط قبة السماء ، وهو يترنح في الأثير كالسائح الكسول الذي أعياه المسير عبر الصحراء : لقد كان ينمض أحياناً ، ثم يصحو ، ثم ينمض كأنه الحبيب الذي يُقبِّل عينيه وما فيهما من نعاس !

لقد كان المهراجا العاشق يجلس وحده تحت هذا الكون الهادئ ، وإلى جانبه تلسكوبه الكبير الضخم ، وقد انبطح تحته يقلب عينيه في العوالم والدنى الثنائية التي لا تتناهى ... ولا يزعجه أي شيء حوله ... فقد سكن كل شيء ، واطمأن كل شيء ! وليس شيء يلفت النظر إلا هذه العمامة الكبيرة التي جعلت ماسها الثمينة تعكس أضواء القمر والنجوم ، وإلا هذه العقيقة الحمراء كالدم تتألق في خاتمه ... وهكذا جلس المهراجا يفكر في أسمى ما يفكر فيه البشر ... في الحب ... ولكن في أسلوب ليس كهذا الأسلوب الذي يفكر به الناس ... ثم جعل يتمتم لجأة ويقول :

— ينبغي ألا أخفي هذا الشيء العظيم عن نفسي ! حقاً إنه ذنب كبير ، ونقيصة أي نقيصة ، ولكنه مع ذلك شرف وجلال ومجد ! إنه ذنب ووزر أن أحب حسناء كان لا ينبغي أن يعلق بها قلبي هكذا وعلى هذه الصورة . لقد مزجتها بدمي وروحي ، وجعلتها القديس الذي يخفق بالحياة بين جنبي ؛ بيد أنه شرف ومجد وجلال أن أموت بهذا الحب ، فأحبها إلى الأبد ، وسيقتل الموت كل ما في ولي بها من دنس ... لقد فطن زوجها إلى ما بيننا وربما أخذها به . ولقد لمحت هذا في جبينه المقطب واستوضحته في عينيه المنيظتين . فإذا فعل فستحزن إدريانا ، وسأكون أنا الذي تسببت لها في هذا الغم الذي يشبه الفضيحة ! فكيف أحتمل الحياة مع هذا ؟ وأنا إذا عشت فسيظل غرامي بها مختلطاً بدمي ، ورغبتي فيها ناشبة أظفارها في قلبي ، وهواها ساريا في أنفاسي . وسيكون في ذلك كله إيلامها ، وتوجعها ؛ أما إذا مت فلسوف تستعظم حبي ؛ وقد تبكي مرة من أجلي ، فتكون دموعها ملائكة رحمة لي ، تقف

في الهواء لترفرف حول رمادى ؛ وفضلاً عن ذلك فالحياة الحب ، وهى بدونه موت بنيض ، وإذا حييت فلا بد أن أذكرها دائماً ... أذكر ماستى الكبرى .. زبتى العزيزة البيضاء ! وسأذكرها دائماً فى ملكية زوجها الظالم الذى لا يستحقها ... وسيكون فى كل ذلك آثام وأوزار لى ... فلم لا أتخلص من هذا ، وأفكر فيها فى مكان آخر أكثر طهارة وأشف نقاء ... ؟ إن الحب لغز عميق مضل لا يستطيع تفسيره إلا الله ! ولكنى أفسره أنا الآخر على قدر استطاعتى ... على أنه إذا أحب أحد من الناس وأخلص فى الحب فسيجب مخلصاً إلى الأبد ... حتى بعد الموت ؛ وليس يخضع الحب لقانون أو عرف أو دين ! بل ليس يغيره شئ من هذا ؛ ولا يخفف سورته شئ من هذا .. بل .. ولن يطفئ ناره المتأججة هنا .. إلا الحبيب ، أو .. الموت ! وبعد الموت ماذا عساى أجد ؟ ! أجدنى إما مع أشجانى وآلامى أو ... مع الله ! » قال هـذا ، وكان يمسح بيده المرتجفة على موضع القلب من صدره ! ورفع وجهه وراح يقلب عينيه فى القمر الساحر والنجوم المتألقة ثم قال : « أوه ! أيتها الدنى التى لم تكتشف ، ويا أيتها العوالم التى يُرَجِّم الناس بشأنها ! ما أملأك بالحياة ! وما أكثر ما وراء الستار الكثيف الذى يحجب أسرارك عنا ! إنه لا يعرفك إلا الأرواح الهائمة الطليقة التى تسبح فيك بعد الموت ، والتى تجد فيك الحب الصحيح والسلام الدائم !

يا ربى ! يا إله الجميع ! أستودع الحياة بين يديك وفى أعماق الوجود ، لأسعد إليك ... ولألقاك ! »

لم تكن إدريانا تحسب أن الهراجا سيشرب السم من الخاتم العقيق الكبير ، بل كانت تحسبه يصلى سلاة هندية ، فلم تحرؤ أن تقترب منه ...

وكانت قد انسرقت فى ظلام الليل بعد أن عرفت ما به ، وعلمت طريق قصره وسط الريف الهندى من صديقتها لوالى ... فلم تبال بشىء ، ولم تأبه لشىء ... بل رحلت إليه ... ربما على فيل كبير أبيض ... لتشكر له ... ولتثنى عليه ... ومن يدرى ؟ ! فربما كان فى تصميمها أن تمنحه قبلة ...

وشرب الراجا السم ... وصمت إلى الأبد !

وتقدمت إدريانا لتشكر له ... فوجدته قد أسلم الروح ...

وكانت قد سمعت كل ما قاله عن الحب ، وعن الموت ، وعن السماء ، فجلست بجانبه تبكى ... وتذرف فيه دموعها ... لأنها واأسفاه ! ! وجدت فيه مثلها القديم الأعلى

— لا تذهبى يا سيدتى ... الوصية ... لقد أشهدنى على الوصية !

— أية وصية يا هذا ؟

— لقد أوصى لك بهذا القصر إذا فكر زوجك فى أن يهجرك . وأوصى لك بضياع ولآلئ ...

وهجرها لومارشان ... ومكثت فى قصر الهراجا ... ولكن ... كالراهبة ... وكانت لوالى تختلف إليها ، ومعها زوجها (الدمية) كلود أندلى

الشال الهندي

أقصوصة بوليسية

بقلم م. ل. هويكنس

للأستاذ محمد لطفي جمعه

حدث برماشور لال عن نفسه قال :

عند ما بعث بي والدي جابو نا لال إلى القارة الأوربية لأتلقى علوم الطب والجراحة، قال لي وهو يودعني : « كن خيراً، فإن لم تستطع فكن حذراً : »

وقال لي أبي : « خذ هذا الشال تتلفع به ليقيك برد تلك البلاد القاسي » وكان من صنع كشمير، رقيق النسج، بهيج الألوان « وإذا فقدت شيئاً فاقرأ تعويذة كال، ولقنتني تلك التميمة بالسنسكريتية، لأن أمي المحبوبة لم تكن تعرف الكتابة

وركبت البحر من بمباي في باخرة عتيقة، فلما بلغت مدينة لندن، وجست خلال طرقها، واحتواني جوها القاتم وأظلتني سماؤها المظلمة، أحسست بالوحشة، ودب في نفسي الحنين إلى الوطن، فرأيت نفسي أدفع وأدفع وأزاحم وأصادم، بين وجوه غريبة وأرواح ظمأى للمادة دائبة الحركة، لا تقف ولا تنى ولا تتأمل؛ ونظرت في الشوارع السوداء ودخان المصانع يغشى أوجه المباني، فذكرت ما كنت أنعم به في وطني، ولا سيما في قرية شنجري من بساط الثرى الأخضر، وسرادق السماء الأزرق، يتلألأ في قبته سراجه الوهاج ويتألق، وعجبت لقوم يعيشون بدون الشمس في ظلام حالك! لك الله يا أرض الوطن باندي ما ترام [1] أيتها الأم الرؤوم العطوف الودود الألوف المتحدة على كل بنيك وأولادك، يامن تشملين الغريب وابن السبيل والبار والفاجر بأنوارك الزهراء وألوانك ذات البهاء والبهجة. طوبى لمن يحلو له المقام، ويصفو له قضاء الأيام، في سهولك ووديانك، وعلى ضفاف أنهارك أو في سفوح جبالك. لقد

(١) تحية المنود لوطنهم وتعريبها عمى صباحاً أيتها الأم الرءوم !

(٢)

تعريف بالقصة

مارتين لوبس هويكنز أو هويكنز مؤلف شاب، ولد في الهند وعاش فيها قسماً كبيراً من حياته، وأتقن وضع القصة القصيرة وكان أبوه طبيباً في مقاطعة لاهور ولكنه تخرج في الآداب والفنون — ولد سنة ١٨٨٦ ونشر أدبه في مجلة ستوري مجازين ووايد وورلد مجازين وكتب القصة الاستهلالية في مجلة ستراند لأحد أعداد عيد الميلاد الشهيرة فحازت إعجاب النقاد والقراء لما حوته من صدق الوصف ودقة التحليل وهي التي نقلها إلى قراء العربية بعد اعجابنا بها واعتقادنا أنها من روائع الأدب الواقعي. فان وصف الشخصيات الهندية والانجليزية وعقدة الشال والتصويرتين من أغرب ما اهتدى إليه مؤلف، وقد جمعت من مجانب الرواية وسلاسة الاتصال بين الحوادث ما يدل على علو كعبه. وقد عن لي بعض النقاد من الانجليز (في مجلة بلاكوود مجازين) أنه لم يوفق إلى مخرج البطل برماشور لال من جريمتي راوتش، بعد أن كان سياق الحوادث يخضبه ولكن خلق لال نفسه يفسر الأسباب الخفية التي تهته عن ذلك بعد أن رأي ما حل بالكولونيل ويتكل وزوجته ومعشوقها المهندي ولعل القاري المصري يروقه الحل الذي قدمه المؤلف، دون الحل الذي اقترحه الناقد

كنت وحق كالى [١] وكريشنا [٢] وفيشنو [٣] أنظر ماء الازهار فى عروقها تجرى ، وأسمع العشب وهو ينمو ، وأطرب لتغريد الطير ، وألم الأقاحى تنساب بين الحشائش الخضراء فأطمئن لها !

حقًا لقد كانت تسرونى لذكرى وطنى هزة أى هزة ! وكنت أحياناً ألتمس الألفة والهناء فى صحبة أبناء وطنى الذين يطلبون العلم مثلى ، فكان هاردیال وشاتوپادايا وسادومال من أعز أصدقائى لأنهم نزحوا من قرية قريبة إلى قريتى ، وجمعتنى بمعظمهم مدارس لاهور ، عاصمة مقاطعتنا . ولكن هاردیال كان درويشاً ، يحب فتاة هندية رشيقة القد ، فاتنة النظرات ، ويخفى حبها عن صحبه ما عداى ، فإنه باح لى به ليلة فى شارع الصقر الأزرق بهرمسيت على طريقة غربية

كنا فى حفلة ليلية أحيتها مدام راما ودعت إليها بنات الهند اللواتى يتلقين العلم بكليات البنات العليا ويتهن تلك الفاتنة جوخالى ، فتنت أغنية « أيها الحبيب النائى ، هل نسيت ودادى ؟ » بصوت يشبه صوت الملائكة ؛ وأنا أقول لك ذلك ولم أسمع صوت الملائكة ، ولكنه فى ظنى لا يزيد على صوت تلك الفتاة حلاوة وطرباً ؛ وقد تخير هاردیال مكاناً قريباً من قدى جوخالى وجثم فيه على صورة تشبه الركوع وتشعر بالعبادة . ولكنى لم أدرك سره فى أول الأمر ، فلما انفض الحفل ، وخرجنا إلى الطريق يلتمس كل منا مسكنه ، انحنى هاردیال على كتفى وأخذ يمشى كمن يزحف ، وهو يبكى حتى بلل ثيابى ، يبكى بكاء الطفل الذى لا يعرف له أباً ولا أمًّا ولا مأوى ، فسألته فى رفق عن سبب عويله الذى آلمنى ،

فقال إنه حب جوخالى الذى ملك لبه وهو لا يستطيع أن يفاتحها به لأنه فقير من طبقة أقل من طبقتها ، وأنا أعلم حق العلم أن نفسه لا تحدثه بالزواج منها . ومما زاد فى صاحبى المضنى اشتعالاً أنه خلف وراءه فى الهند عروساً صغيرة فى السن لم تشب عن الطوق ، فقد زوجه منها أبوه وهما فى المهد الأول دون أن يحسب للمستقبل حساباً . إنها حقًا لكارثة ، وشكراً لك يا أبى على أنك لم تهف مثل تلك الهفوة فتجعلنى نهباً بين عشيرة شرعية ومعشوقة مثالية ، لا أحب الأولى ولا أنال من الثانية منالاً . فطيبت خاطر هاردیال وجففت دموعه ، ولو استطعت لحملته كما تحمل الأم ولدها

صاحب ذلك العقل الجبار فى الفلسفة ، لقد نال أعظم الشهادات وقرأ أضخم الكتب وانطوت نفسه العطشى للحكمة على أعظم المذاهب وأعمق المسائل . وهاهوذا يجانبنى يتوح ويعول كاليتيم الضال؛ فلما وصف لى شعوره وهو جاثم تحت قدميها كانت هذه الفكرة الأولى عن الحب التى دخلت قلبى . نعم رأيت أزواج الانجليز فى حديقة هايد پارك يتعانقون ويتبادلون القبل ، ويتضاجعون على الحشيش الأخضر فى ضوء القمر ، وقد التفت الساق بالساق على مرأى ومسمع بعضهم من بعض . ولكننى لم أفهم أن هذا هو الحب ، لأنه كان مبتذلاً معروضاً كما ترى الحيوان والطير فى فصل الربيع وموسم التتاج . أما البكاء والعبادة والألم المنشود وهو ضائع ، والحسرة على المشوق والتحرق وهو أمامك ، هذا هو الحب بعينه الذى قرأت عنه فى كتب الهند وورثته عن أهلى وقومى ، حب قوى كالشلال ، طاهر كقلب العذراء ، تقى كالفضة . أما شاتوپادايا

(١)و(٢)و(٣) آلهة من آلهة الهند ولها هياكل معمورة

2017-11-14 15:05:13

فكان من قرية سودي في مقاطعة باهويلي وهو هندوكي مثلنا ، وكان يحب فتاة انجليزية تنظم الشعر لأنه شاعر ، وكان أسود اللون والحدقتين والشعر ، وله شارب كشارب الصقر ، وصوت ممتلىء غليظ وقامة مديدة فرعاء وكل عضو ظاهر في بدنه ينطق بالرجولة الناضجة . وفي ظني أن الانجليزية وكان اسمها كيتي أحبته وفضلته على بني جلدتها البيض الشعر الملاسخين البادين . وكانت كيتي غنية ذات جاه ومال ، ولها قصر في جروفنور سكوير حيث كان يوافيها تحت سمع والديها وبصرهم ويجالسها في قاعة الاستقبال يشربان الشاي ويأكلان الفطائر الدسمة ، ويتطارحان الشعر ، ويتبادلان الغرام في غير تستر ولا حياء على الطريقة الانجليزية . فقد أذاعا خطبتهما ، وأخذت كيتي تتدق على شاتوبريان من نعم والديها ، فألبسوه أحسن الثياب ، وعرفوه بأرقى الطبقات ودعوه إلى أفخم الحفلات ، وصار ابن الصياد (وكانت هذه حرفة أبيه) في مصاف العشائر العليا . وكان هذا الشيطان ينشد شعره في محافلهم وفيه الطعن المرير في بلادهم وهم لا يفهمون منه حرفاً . كما كان يحفظ قصائد وملاحم من شعرنا القديم يرويها فتنحدر من حنجرته كالسيل المنهمر ، فتكاد كيتي يغشى عليها من افتتانها بذكورته الصارخة ، وهدير ألحانه

أما سادومال فكان ولداً قصير القامة ، خفيف الظل ، جاهلاً بالعلوم والآداب لم يشر فيه تعليم ولا تهذيب . لا يقرأ من كتب الدنيا شيئاً سوى الأدب الروسي (ويسميه سكاروش ، أدب موسكوفي) ويمعن في دراسة قصص الجرائم والبيوت المسكونة بالجن وخزعبلات إدجار آلان بو وإدجار والاسي ، ولكنه كان متصوفاً على طريقة راجا يوجي ، تمرن عليها في الجبال المحيطة بقريته (درسال) وهي محط رحال دراويش الهند ، حيث يتمودون الصمت وكتم النفس وتركيز الإرادة ، والتحكم في شهواتهم فلا يأكلون ولا يشربون إلا في الندرى ، ولا يقربون النساء حياتهم . وكان سادومال في أول أمره يطمح في أن يصل إلى الإيمان الذي ينقل الجبال ويجفف الأنهار ويقتلع الأشجار في الجراح ، ويدعو الوحوش والطير فتلبي نداءه كما فعل بوذا أثناء خلوته تحت شجرة التين الخالدة . فسلك مسلك « الفقراء » وعاش عيشة الزهد والعفة وحصر نفسه في أضيق نطاق

وكان من حسن حظه أو سوء بخته ، أن نجر من طول المراقبة المحتومة على كل يوجي في درجته البدائية فانحدر من الجبل وفك قيود اعتقاله باختياره ، واهماً أنه وصل ، فأدخله أبوه في مدرسة القرية فتفوق في الرياضيات ، وعلا نجمه بين أقرانه وبهر أساتذته في حل أعوص مسائل الجبر والحساب والهندسة ، وكاد يعرف بعض تلك العلوم بالغيب المطلق ، فلما ورد المدرسة مفتش المعارف الانجليزي ، أفحمه الهندي الصغير بعلمه السابق في حساب المثلثات واللوغارتمات العليا ، والهندسة الفراغية ، فأوصى به ليوفد فوراً إلى كمبردج كوفيج يلندن لتغذية الحضارة من مواهبه النادرة . فتكفلت الحكومة بنفقاته ، وتجلت عبقريته الهندسية في سماء الكلية ، وصار في مدى عام أعجوبة « كريستال بالاس » وهو الحي الذي فيه بناية المدرسة . إلى أن كان يومٌ ضاح من أيام الصيف ، فالتقى الفتى النابغ بامرأة إنجليزية

فتحدثت إليه ودعته إلى منزلها وسقته الخمر وأطعمته لحم الخنزير وعلمته أول درس من مبادئ الغرام، وكانت امرأة ضابط اسمه ريب ويتكل رتبة كولونيل، وقد زعمت أنه قضى نحبه في « ثورة لكنو » وورثت عنه مالاً ونشباً وبعض الجواهر والتحف المجلوبة من ضفاف نهر براهما بوترا . لقد استدرجته الخبيثة حتى فرط في عرضه ، وأضاع بكارته . وكانت تقول له : « لا يطفئ ظمأ الغرام في قلب فتى قد يعيه إلا امرأة في خريفها » فوقع في الحفرة التي أحكمت مسز ويتكل حفرها، وسلم نفسه إليها وأخذ يتردد عليها وينشى مضجعها ، طوال مدة العطلة المدرسية . وكانت المرأة تملك « عوامة » في نهر تيمس يسمونها « بيتاً نهرياً » جهزت وسائل الخلوة الصحيحة ومطالب الغرام ، فمن حانة صغيرة لا تصلح إلا لاثنين ، إلى فراش مكنون ، وحمام جميل مزين بالقيشاني والمدن الأبيض اللامع ، وهنا استولت المرأة على الشاب الهندي ، أمل قريته ومقاطعته ورجاء الحضارة في العلوم الرياضية ، حتى امتصت ماء الحياة من عوده ، فقال لها يوماً ، ولعلها النكتة الوحيدة التي نطق بها لسانه قبل مرضه: « لا يطفئ نار الغرام في قلب امرأة في خريفها ، إلا فتى في ربيع حياته » فوضعت يدها على فمه واحتضنته وأخفت وجهه الأصفر الناحل في حجرها وقالت وهي تعبث بشعره الأسود الجعد : « أوه دارلنج »[1] وقضى إجازة صيفية ، ما كان أحلاها في نظره ، وأجداها على المرأة المرهمة ، فقد سمنت ، واستدارت أعطافها واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها وكانت من قبل كالشجرة الجرداء في الأرض القفحة ، إلى أن أنماها النيل من أعلاها والرى من تحتها فأينعت وازدهرت ، ولكن على حساب ذلك البستاني المسكين وهو لا يدري أية جريمة وقعت عليه وأي ذنب جسيم سقط على رأسه . وكانت كلما تعاقبت الأيام ازدادت المرأة شبقاً ، وتفننت في « دروسها » المشبعة لرغبتها . وكلما بدا الهزال على صاحبها ، « علفته » بالتفانق الدسمة وأتخاذ الخنائص المدهنة ، وسقته الخمور الملهبة ، ليسترد عافيته ونضارة وجهه ويقوى على جهوده ، ولكن ما كانت تكيله له على مائدة العشاء ، تستردہ بأرباح باهظة في خلوة الغرام ، الهادمة للقوى

وعند ما افتتحت الكلية أبوابها في بداية العام الدراسي ، وعاد سادومال إلى صفوف الطلاب هنأه أساتذته وبشروه بانتصار جديد في عالم الرياضيات البحت ، ولكن المسكين كان قد جهل كل شيء وعاد لا يعلم من بعد علم شيئاً ، فقد جف عوده ، وطمست معالم النبوغ من عقله ، وأمسى كالطفل لا يدري مما وعيه فتيلا . وانطفأ سراج المعرفة من صدره . وصار يجهل الجمع والطرح ، حتى جدول الضرب راحت من ذاكرته قواعده الأولية . فكانت جهالته أعجب من نبوغه . وأحسن أساتذته الظن به وعزوا ما جرى له إلى الافراط في الاستذكار وحل المعضلات ، ولم يخطر ببال أحدهم أنه نتيجة تفريطه في عفته وصومه وصيانته وطهره . فنصحوا له بالراحة المطلقة حتى يستعيد صحة بدنه وسلامة عقله

وأمر الأطباء بتسفيره إلى ضواحي اشرنس ، في شمال سكوتلاندا ، يستجم في إحدى مصحاتها .

(١) أيها العزيز

ولم تلحق به «الطلبية» ، لا رحمة به ، ولكن خوفاً من بعد الشقة واتقاء للفضيحة . وعاد سادومال بعد ستة أشهر صحيحاً معافى ، ظاهر النضارة بادى القوة كأنه وعل خارج من غابة لفّاء . فلما فحصه الأطباء والأساتذة قالوا : لقد نجا بدنه ومات عقله ، ولم يعد يصلح للعلم . فقد محيت موهبة الرياضة من صفحات ذهنه . وخير له أن يعود إلى بلاده ليزاول مهنة آبائه وأجداده وهى «بيع العطارة» .. ولكن سادومان كان قد استطاب الحياة فى لندن ، ودرج على أكل اللحوم وشرب الخمر ، فعاد إلى «طلبته» وراعى الاعتدال فى إطفاء نيرانها المشتعلة ، وهو الآن يعيش عالة عليها ، بعد أن قطعت حكومة الهند معونته ، فهو طالب فى الاستيداع ، يتنقل بين العوامة والفيلا ، ويقضى شبابه فى قراءة وصف الجرائم ويتقلب بين أحضان تلك الأخطبوطة النهمة التى لفت خراطيمها حول عنقه وصدره وبطنه فلا يستطيع فكاكا

هؤلاء كانوا أصحابى الذين وقعت عليهم فى لندن وقد اتخذت لى مسكناً فى دار مسز راوتش فى شارع شبرد بوش ، وكانت امرأة صالحة وجدت فى بيتها دعة وراحة ، ووجدت منها ظئراً رؤوماً وعصمة وموئلاً من آفات لندن وشرورها . والبيت إذا أضاف حاجيات العيش ، والسآذج الرخيص من كمالياته كحسن البناء وشجى الموسيقى والطيب الحلال من آلات اللهو واللعب والمتع اللذيذ من الكتب والأسفار — إلى سكينة الجو وكرم الجوار ورقة آداب أصحابه وحسن مواساتهم وبشاشة قناعتهم وتحكك الزاهة ودمة الرحمة والعطف والحنان كان جبهة السرات وحقيبة اللذات . وهذا ما وجدته فى الدار التى كانت تسهر عليها مسز راوتش الفاضلة ولم تكن الدار مخنوقة بين المساكن كتلك التى لا تكاد تبصر السماء فى قلب لندن ، ولا علمت مسز راوتش أننى ابن تلك البلاد ذات الشمس المشرقة والطبيعة الضاحكة والأنهار الجارية والأطيار المغردة أحب بفطرتى رطوبة الثرى وطراوة الروض . اختارت لى غرفة مطلة على بستان الدار وإن كانت قليلة الزينة ، وحسبى بالطبيعة مزخرفاً ومنمقاً ، فأجمل الترف فى نظرى ما فرشها الزهر وعرشها الكروم وأضاءها القمر ليلا وشعاع من الشمس نهاراً (عند ما تجود بالاشراق فى تلك البلاد المظلمة !) وعطرها النسيم الساحب على الروض مطارفه ، الناعس فى كؤوس الطل وأكواب الندى مطاعله ، ولولا اختيارى المثوى فى تلك الضاحية الضاحكة النائية عن جلبة لندن وضجتها ولجب مصانعها وصخب طرقها ما توافرت لدىّ تلك النعم

ودأبت على الدرس فى ظلال تلك الحياة الهادئة وقد اخترت الطب وجعلت هدفى أن أتخرج فى الجراحة الحديثة فهى مجهولة فى بلادنا

وكانت لربة الدار بنت وحيدة اسمها جريس ومعناها فى لغة القوم النعمة والفضل واللِّينة والحسن والرشاقة ، وكانت صبية كاسمها رشيقة القد ، لطيفة الشمائل مهفهفة ممشوقة القوام ، غراء بلجاء مشرقة الطلعة وضاحة الجبين عندمية الوجنتين فى الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت هى الأخرى تدرس الطب فى « جاز هوسبيتال » على مسيرة ألف خطوة من وستمنستر ، تغدو إلى الدرس مبكرة ، وتعود قبيل الغروب لتدرك مائدة الشاى الأنيقة التى تحسن أمها إعدادها ، وكانت تخدمنا فتاة بلهاء ورجل ألمانى

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

اسمه فرنيز . وكنت ألحظ الانجليز يفرحون باستخدام الألمان ، لما فى ذلك من الشماتة فى أبناء الأجناس الأخرى ، ورخص أجورهم ، وقناعتهم فى الطعام ، وشدة طاعتهم ، كأنهم آلات صماء ، تلبى النداء ، وتدرك مطالب السادة بالاشارة والهمس دون الصياح والثرثرة . فكانت إدارة الدار فى نظرى كحركة الساعات الدقيقة التى تصنع فى جرينويتش فلا تقدم ثانية ولا تؤخر ... فما أعظم الفرق بين الحياة هنا والحياة فى أوطاننا التى تشبه آلة بخارية فقدت عقلها !

أما جريس أو نعمة التى كانت تؤاكلنى وتجالسنى وتسامرنى ولا تفارقنى إلا عند ما يأوى كل منا إلى مضجعه فما رأيت إنساناً أخف منها إلى المزاح المباح والدعابة البريئة ، ولا أروح إلى الفاكهة والمباهة التى تنم عن طهر الشباب وطموحه دون التعدى إلى الاستهتار والمنازلة ، ومأظنها استباحت ملاطفتى إلا رحمة بى وعطفاً علىّ ، فقد قالت لى يوماً : لماذا أرى بك سيما الحزن والاطراق والكآبة ، فقلت لها : إنك يا نعمة لتقولين هذياناً وسخفاً ، فأطرقت ثم قالت :

لعلك عاشق مشغول بمن تهوى فى الهند عن الناس كافة ! أهى جميلة تلك التى خلفتها فى وطنك عاكفة على عبادة أوثانها ، وعلى انتظار أوبتك ؟

فقلت لها : إنك والله لترجمين بالغيب يا آنسة . فرنت إلى طويلاً وأدامت نحوى كرة الطرف مبدئة ومعيدة ، ثم قالت :

— أرى غيرك من أبناء وطنك مفتونين بالغانيات شديدى الطلاب لهن والهيام فى أثرهن

قلت : أيروق لديك أن يفتن الطالب النريب بالغانيات وأن يهيم فى أثرهن ؟

فقالت : لا ترى نحن الانجليزيات فى هذا كبير عيب ؛ ونعلم أن السن ستكسب الشاب رزانة ووقاراً فلا ضير عليهم إذا استمتعوا فى نضارة شبابهم باللهو المباح

فقلت لها : إننى أخشى عاقبة الحب لما رأيت من أثره فى صحبى وبنى وطنى ممن طوحت بهم الأقدار إلى شواطئكم ، فقد ودعوا الثبات والحكمة والخير ، عند ما ودعوا ظهر الباخرة فى تيلبرى [1] وخلعوا عن أكتافهم ثياب الطهر والعفة

فقالت : أهذا كل ما يخيفك يا لال العزيز ؟ ألا ترى أن ما يصحب جماحتنا الشبابية ونزواتنا الصبيانية من الخوف والروع هو أمتع ما فيها بل هو لذتها وفتنتها

فقلت لها : لقد أوصانى أبى أن أكون خيِّراً حازماً فإن لم أستطع فلأكن حذراً

فضحكت وقالت : إذن كن خيِّراً وحذراً ما شئت . ثم ما لبثت أن سكتت ثائرة سرورها ، وفترت حميا فرحها ومرحها ، ونهضت إلى البيانو فأطلقت ألسنة العاج بضغط بنانها ، أنغاماً حلوة هادئة ، ثم استدارت على مقعدها الدولبى وسألتنى رأيى فى موسيقاها فأطريتها لأننى طربت حقًّا من توقيعها ، فقالت لى وقد تظاهرت بشىء من الخوف يخالجه شىء من الحياء والخفر : ألا تصحبنى مرة يا مستر لال إلى ملعب التمثيل ؟ فإنهم يمثلون على مسرح جاريك [2] رواية « تمكنت فتمكنت [3] » من وضع جولد سميث

(١) اسم ميناء لندن

(٢) مسرح شهير باسم دافيد جاريك من أشهر الممثلين

(٣) She stoops to conquer

فقلت لها : لا بأس ، فإنى أدعوك إليها غداً إن شئت

وكان فى هذا الوعد البرئ ما أفاض السرور بين جوانح الفتاة وأشاع الطرب فى فؤادها

وأقبلت على أمها تستأذنها فأذنت لها ، وفى عشية اليوم الموعود أخذت تمد ثوبها الجديد الزاهى وتجربه فألفته محكماً ، واستعرضت خيالها فى المرآة فأعجبها وراقها ، وأقرت أمها وخادمتها البلهاء أنها لم تلك قط فى أنفر حللها أحلى وأحسن منها فى ثوب السهرة . ولما حانت الساعة السابعة تأهبنا للخروج ووضعت حول عنقى وصدرى ذلك الشال العزيز الذى أهدتنيه أمى ليقينى شر البرد فى تلك البلاد القارسة ؛ ولما أدرى لماذا قلت لها ونحن نخطو عتبة الملهى : « إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق فتكرمى على بأن لا تدخلى عن فروض الآداب بينى وبينك » فصمتت ولم تنظر إلى ؛ ولما جلسنا فى القاعة المضاءة الهادئة لصقت بى وأشعرتنى حرارة بدنها الغض الدافئ ، وأخذت تشرح لى مناظر المهزلة موقعاً إثر موقف ، فأطربنى صوتها فى همسها ورخامة نغمته وقته فوق ما أطربتنى حلاوة تمثالها وخفة روحها وذكاؤها الممزوج بالسذاجة والبساطة ، فازددت إليها ميلاً وبها سروراً ، وراحت نفسى لسماع كلامها العذب ، وهفت جوانحى ؛ ورأيت فى ظلام الملهى عند ما أطفئت الأنوار كهلاً يقبل فتاة بجواره فأردت تقليده ... أنا الذى ألزمت « نعمة » فروض الأدب ، قد حاولت إسقاط الكلفة ورفع الحجاب بينى وبينها فى خلسة من جماعة النظارة ، ولكن « نعمة » نفرت وتراجعت ثم استشعرت من سيماء الوقار والجد والرزانة ما أشعرنى نوعاً من الهابة لم يخل من الطرب واللذة وقالت :

« ألست أنت يا مستر لال القائل لى على عتبة الملهى : إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق ، فتكرمى علىّ بأن لا تدخلى عن فروض الآداب بينى وبينك ؟ فما لى أراك أول من دخل عن شرطه » فسكت ولم أحاول بعد ذلك إعادة الكرة ، وقد أحسست أننى تعديت حد منطقى ومنطقتى وبرزت من ثوب الخير والحذر الذى أسبغته علىّ وصية أبي فتواريت فوراً فى حجابى وتداركت أمرى . ولما أسدلت الستار على آخر المناظر نهضنا وكان ذلك قبل نصف الليل بساعة . فدعوتها إلى « وجبة التعمة [1] » كما هى العادة بعد الخروج من الملاهي فى تلك الديار التى لا يقنع بنوها بأقل من خمس أكلات بين شروق الشمس ونصف الليل ، بعضها عزيز دسم وبعضها لا يصلح إلا للزهاد فاعتذرت وقالت : إن أمى أعدت لنا كل شىء . فلما بلغنا الدار عاودها سرورها وبشاشتها وتركتها وأمسكت بأطراف أناملى على طريقة الأطفال المراهقين . فلما أبنا إلى غرفة الخوان ونحن لا نزال فى ثياب السهرة استقبلتنا الوالدة باسمة هاشة ، وكانت المائدة منصوبة والألوان مصفوفة ومسز راوتش جالسة ، وقد تمطرت وتدهنت وتجملت وتزينت فكأنها إبريق الرحيق ، وقد شغلت نفسها بتقطيع رغفان الخبز قطعاً رقاقاً وتجزئة قطع اللحم من كتف العجل الحنيذ أجزاء دقاقاً ، وأقبلت على فتاتها وعلىّ تحيذ

(١) يأكل الانجليز خمس مرات فى اليوم الافطار والغداء والشاى والعشاء ووجبة الضحة واسمها Suhher وهى أشبه بالسحور عندنا

منا تبكيرنا إلى المثوى وجمال ثيابنا ولا سيما « سترة سمو كنج » التي كنت أختال فيها اختيال أمير ساحر خارج من صفحات ألف ليلة وليلة. وفي تلك اللحظة الباهرة تذكرت شال كشمير، فقد نسيته وأيقنت أنه ضاع إلى الأبد، ولكنني لم أنطق بكلمة ولم أنصت إلى أدنى كلمات الوالدة وابنتها ولم أعِ مما قالت كثيراً ولا قليلاً. فقد كان ذهني مشغولاً بذكرى المساء وما كان من حوادثه، وكان فقد الشال في المكان الأول. فأخيمت على نفسي بالوم والتنكير ووخزات الضمير. ثم انتقل ذهني إلى حادث القبلة التي لم أظفر بها، وعبثاً حاولت إقناع نفسي بأن مسلكي مع الفتاة نعمة لم يتجاوز حد اللياقة، وأن هذه الرغبة التي أعقبها الرفض والجفوة لن تكون لها نتائج خطيرة. لقد كان ضميري في هذه المجادلة السرية أعلى صوتاً وأقوى برهاناً من عقلي، وجعلت كلما تذكرت نصيحة والدي وهدية أبي تالي كرب وضيق. أما نعمة أورمنيّة فكانت في أشد حالات السرور والجذل تلهم اللحم والزبدة والفطائر، وتكوم أصنافها في صحن ملحة عليّ أن أطعمها لأسترد ما فقدته من قوة بالسهر والتعب خارج الدار. وأخذت الأم تسرد أسماء من عمروا في الحياة الدنيا حتى تجاوزوا المائة، وأن العلة في طول أعمارهم لم تكن إلا كثرة القضم والقطم، وحشو بطونهم بالشحم واللحم، وخصوصاً « وجبة العتمة » التي تكون أسهل الوجبات هضما إذا تلاها النوم مباشرة. وانتهت المأدبة على خير وسعدت إلى غرفتي. ومن فرط انشغالي بنعمة تراءت لي في أحلام الكرى تسبيني بسحر ألحاظها، وتصبيني بحلاوة ألفاظها كما رأيت أبي وأمي: أحدهما يذكرني بالوصية، والأخرى تسألني عن شال كشمير، والتميمة التي وعيتها. وأعادت تلقيني إياها في المنام « يا راما كريشنا وكالي وفشنو أيتها الآلهة المحجبة، بحق أسرار أنحائك، وأنغام ألحان ترتيل الكهنة في أفنية هياكلك، رُدّي عليّ ماقدمت، يالو! يالو! هالو! هالو! مستي! مستي! مستي!»

وما كاد الصباح يحدر لثامه حتى كنت قد هببت من نوى ولبست ثيابي وأسرعت إلى كلية الطب التي أتلقن علومي بين جدرانها، وأثناء ركوبي في الحافلة [1]، وهي من طبقتين لمحت عيني طرف رداء نعمة الأزرق فأهويت سريعاً إلى لقائها فابتسمت وقالت إنها سبقتني في البكور فأقبلت أثني على جمالها وحسن هندامها. وسرها ذلك الثناء فضحكت ولكنها ما لبست أن أبصرت على وجهي شيئاً من دلائل الهم والقلق، فسألتني، فاعترفت لها أن حادثتي معها بالأمس كانت زلة وخطيئة ونزوة من نزوات الطيش والنزق وأنني على مافرط مني نادم ولما بدر من غيّ واجم، وأنني قد عوقبت على ذلك بضياع شال كشمير وفقده.

فقالت إنه لا يروح أبداً عليك فان أهل بلادنا ذوو أمانة، وسأتولى البحث عنه بنفسي في الملعب وأغدو إلى مستودع الأمانات المفقودة حيث يعرض كل مانسيه ذووه وذهل عنه أصحابه سواء أكان إبرة خياط أم فيلا أبيض! فودعتها وانصرف كل منا إلى معهده. وما كدت أطوي بضع خطوات حتى تذكرت التميمة فصرت أتلوها لعل آلهة الهند تجود عليّ برد أمانتي، ولما آن وقت عودتي من

(١) سيارة عامة

الكلية أخذت أتلو « عزيزتي » ولم أكد أفرغ منها حتى لمحت شالى على ظهر امرأة تسير مرتكنة إلى ذراع رجل طويل، يلبس قبعة اسطوانية الشكل سوداء فاحمة ، فجئت الخطى حتى كدت أدركهما . وصرت منها قيد أقدام معدودة وإذا بهما يستوقفان سيارة، ثم أخذا ينهبان الأرض بها فرجعت أدراجي كاسف البال آسفاً ، ولكنني شديد الفرح بنفوذ السحر الهندي في قلب لندرة .

ولما عدت إلى الدار لقيت نعمة فأخبرتني أنها أوعزت إلى بعض الصحف بنشر إعلان صغير في عمود الأشياء المفقودة نصه هكذا « طالب طب هندي يرجو من عثر بشال كشمير صغير في ملهى جاريك أو في سيارة حافلة أن يرده إليه بدار مستر رواتس نمرة ١٧ شارع شبردزبوس هرميث وله الأجر والشكر » وكانت الصحيفة قد نشرت الإعلان في مطبوعة العصر بعد أن تقاضت أجره نقداً قيمته شلنان واسمه هاف كراون ، فضحكت كثيراً من سرعة خاطرها ولباقتها وصحبتها إلى حديقة الدار وجرت بيننا جداول الحديث سحراً ، ورضابا سلسالا ، نأخذ في شتى فنون من الهزل والفكاهة وضروب من المطايبة والمداعبة ، وما إلى ذلك مما يكون بين صديقين مؤتلفين على عفة إزار ونقاوة جيب وطهارة نطاق ونحن فيما دون ذلك على تمام حرية وطلاقة ، مباح لنا كل ما يطيب ويصفو ويعذب ويحلو تحت الجليس بالجليس ، وتلذذ الأنيس بالأنيس ، وأخذنا نرتب عودة شال كشمير ونتفكه بالتكهن بحال حامله إلينا . أيكون تلك السيدة وبعلها ، أم صانع متواضع ، أم لص فضل الجزاء الموعود على خيانة الأمانة ، ولكن انتظارنا ذهب أدراج الرياح

وفي يوم الأحد التالي وكان صباح يوم قار قارس صافي الأديم ، لا يكون إلا في بلاد الانجليز في فصل الخريف خرجت للتنزه مع صديقتي في هايدبارك ، ولما دنونا من مسارح الخيالة ، وهي طرق أعدت للفرسان دون الراجلين يصرنا بفارس ممتط صهوة جواده قد شمخ بأنفه سالفا وصعر خده كبرياء عليه قباء مسدل المهداب ، بفاقم وستجاب ، وقد لف حول عنقه شال كشمير الضائع ، وكانت نعمة هي التي رأته وعرفته . فقالت لي هيا نستوقفه ونطلب إليه شالك فقلت لها : ولو قال لنا إنه حفيد لورد عتيق حكم إحدى مدن الهند وساسها ، فورث عنه ذلك الشال ، أو أنه شراه من سوق المزاد في معرض كرايستي فاذا يكون الجواب ؟ فقالت نعلم على الأقل أن لشالك مثيلاً في بلادنا . وإذا كنا نتناصح ونتشاور ونتقاول ونتداول ونحن نرتبه عن كثب كان فارسنا اللفع بشالنا أو بشال يشبهه ، قد اختفى عن نظرنا في حجب العروق والأغصان وسجوف الورق والقضبان . فقالت لي نعمة ها قد أضعت الفرصة السانحة ومكنت ذلك الراكب على سرجه من الفرار . فضحكت وقلت لها :

— حقاً يا نعمة أننا لا نستطيع حل هذا اللغز وتفسير هذه الأحجية

وفي اليوم الرابع فرأت التميمة فرأيت الشال حول عنق كهل سمج كان يخطو بازدان في شارع أكسفورد وينتقل بين معارض المخازن والمتاجر يقلب أجفانه الثقيلة في سنوف البضائع فقلت هذه المرة لن يفلت مني ولو لقيت في سبيل استرداده وبالاً

فدنوت منه إلى أن أدركته فرفعت قبعتي أمامه وانحنيت مفرطاً في الأدب فبدرني بقوله : لست في حاجة إلى ترجمان فهذا وطني ومسقط رأسي وكفاني ما عانيته في بلادكم أثناء الخدمة المدنية والحربية . فقلت سيدي لست ترجماناً ، ولكن ...

قال: إذا أردت الاستعلام عن شيء فهناك رجل الشرطة يجيبك عن كل سؤال

قلت : ولست غريباً عن لندن ومسالكها فأنا طا ...

قال : إليك عني واقصد دار سير كيرزون فهو رئيس بعثات الهنود التعليمية ويعطف على ذوي الألوان السوداء والسمراء والصفراء

فقلت : ولست تائهاً لاحدى البعثات ، ولكن اعتماداً على مكارم أخلاقك وسعة صدرك وارتكانا على ما لبني جنسك في قلبي من لطف المكانة وثقتي بجميل صفحك ومنفرتك أريد هذا السؤال

قال : السؤال ؟ أتطمع في أن تنزع ملكيتي نهاراً جهاراً في أكسفورد ستريت ، إنك لشيوعي جريء وبك شيء موسكوفي خطر

قلت : لا يا سيدي إنه شالي الذي فقدته من بضعة أيام ، وأعلنت عنه في الصحف

فقال الرجل : وقد بدا بهيئة الدب المسلسل الذي يهدر في ساحة النظارة في حديقة الحيوان « هل غاب عنك رشدك وغرب عقلك ؟ متى كان دأبنا وشيمتنا ونحن مهذبو العالم ومؤدبو الأمم أن نختلس ثياب رعايانا ؟ »

وكان جمع صغير من المارة قد تكأكأ علينا ، فبادر رجل الشرطة إلينا ليفرق التجمهر على عادته ؛ فلما سمع روايتي قال لمواطنه المتغطرس : عليك أن لا تبدي أدنى تسخط أو غضب أو تظهر أقل تعجب أو اندهاش أو تبرم من مسلك هذا الشاب ...

فقال الإنجليزي : أظنها ألعوبة جديدة من ألاعيب الهنود الجة ، وقد رأيت في الهند مئات من أمثالها

فقال الشرطي : دعه يتأمل الشال عن كثب ، فلن يخطفه حتى ولو كان ملك يمينه إلا إذا أقر واعترف ، وإلا فهو يرده إليك بمسمع منا ومرأى

فحنق الكهل الكريه وقال : هذا كذب وبهتان . قض الله أفواهكم إن كان هذا ما تزعمون ؟ أما والله إنهم لفي غاية من القبح والسماجة . إنني لا أفرط في شالي ولا أسمح له البتة بلمسه ، ولاوجه للمقارنة بين شالي الثمين وشاله المدعى ، كما أنه لاوجه للمقارنة بيننا ، فلسنا من جوهر واحد أو طينة واحدة ! لقد كنت في الهند من كبار الدولة وذوي النفوذ والسلطة والمكانة واسمي كولونيل ريب وينكل ، حائز لنيشان شمس الهند ووسام كعب الغزال وربطة العنق من طبقة جَوَّال ... فتأخر الشرطي خطوات وضم ساقيه وقدميه ورفع يده بالتحية العسكرية ، ونظر إليَّ بزراية وكبرياء وقلة احتفاء جديرة أن تصدع قلب أشجع الرجال وأشدهم بطشاً ...

فقلت للهكل : عفواً يا سيدي ! هبني من السماجة والغرور والغباء كما وصفت ، فأين من ملكك جمالي ، وأين من أدبك سذاجتي ، وأين من رقتك وظرفك جفائي وغلظتي ، وأين من ذكائك وفطنتك غبائي وغفلتي

فأثنى الشرطي على أدبي ورمقني الجمهور بنظرات عطف مصطنع وأخذ كل يتصرف إلى شأنه

2017-11-14 Sabeel

وفى أقل من لمح البرق تذكرت إسم ريب وينكل . أليس هو نفس الاسم الذى تحمله تلك المرأة عشيقة سادومال طالب الرياسة الذى أفقد عقله وتدهورت مواهبه . ولم أشأ أن أفر من الميدان مهزوماً قبل أن أرى بآخر سهم فى كنانتى فقلت للكهل :

— إن كنت حقاً كولونيل ريب وينكل ، فقد نلت منك شالى بغير تعب ولا نصب ، وما علىّ إلا أن أوسط لديك زوجتك مسز وينكل التى تزعم أنك قضيت نحبك فى ثورة لكنو عام مساء ياسيدى

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات القليلة ، حتى رأيت شهامة الحاكم القديم تنهار وتتهدم فدلف إلى ماداً يده للمصافحة ومحى الناس جانباً وسار نى وقال : هل لك أن تشرب معى قدحاً من الشاى فى هذا المقهى وأشار إلى أحد مقاعد الشراب على مقربة من موقفنا . فاعتذرت إليه محتجاً بأن الرعية لا تجالس الملوك والعبيد لا تشارب السادة على بساط واحد ، وأن طينته الناعسة تأبى أن تخالط طينى القاتمة السوداء .

فقال : أستغفر الله يا ولدى ، وأخذ يطرقنى بسيل من المعاذير بالمندوستانى وهو لغة بلادى ، وكان المغفور الأشيب يتكلمها كأفصح علمائها الذين ملكوا ناحيتها فنال إعجابى بقدر ما حاز من عطفى . أيكون هذا الرجل المتعجرف المتكبر الملىء بالعنجهية من رأسه إلى قدمه ، السباق فى حمل السيف والرمح والواقف على أسرار اللغات ، زوجاً لتلك المستهترة الخليعة التى تصيدت أحد الهنود النجباء وأطفأت سراج عقله الوهاج ؟ وأخيراً قبلت دعوته ودخلنا إلى أحد مشارب الشاى . وكان الرجل يسألنى عن زوجته ومقرها وملجأها وهو تارة يتصنع الوقار والرزانة ويتكلف التؤدة والرصانة شأن من لا اكتراث عنده للمرأة ، ولا اهتمام ولا مبالاة ، وطوراً ينظر فى الفضاء نظرات الحنق تتطاير من عينيه الغضبى تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أقواسه وأوتاره . وأنا ألعب دورى من التشاغل وقلة الاكتراث وعزوب الذهن وأتعادى فى أساليب التصنع والتكلف أتكلم من خلال أسنانى بالانجليزية فقط ، والرجل يرسل زفرات الغيظ ولا يتبس

وأخيراً قال لى : كيف عرفت امرأتى الآبقة الناشز ؟ قلت : هات الشال أولاً وقل لى كيف وصل إليك فخلصه عن طوقه وقال : وجدته على أحد مقاعد ملعب جاريك . وكان الشال مبخراً معطراً ، ولم يمس شيئاً من بدنه سوى غلالته الناعسة اللامعة فأخذته وقلبته بين يدى وتعرفت فيه كل خيط وفلة وغرزة وزهرة منمقة

وقلت له : أتريد أن ترى امرأتك ؟

قال : نعم واهبك تعويذة هندية شريفها من فقير يوجى من قرأها على امرأة خائنة فإنها تفقد كل من يرضى بعشرتها عقله وليه ، فإذا تلاها الرجل المسحور عادت إليه قوة تفكيره شريطة أن يهجرها فى المضاجع

فقلت : هات تعويذتك

فأخرج من جيبه حجاباً مثلث الشكل وفض غلافه ، وأبرز وريقة مكتوبة بالسنسكريتى وهو لغتنا المقدسة

فقلت له : تعويذة بتعويذة ، وأخذت أتلو تعويذتى . ولم نكد نفرغ من شرب الشاى حتى

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

دخلت علينا مسز ريب وينكل مستندة إلى ذراع مواطنى المنكود سادومال الذى فقد ذاكرته وسجن حتى صار كالخنوص الخصى . وكانت المرأة مطلوة حملاً وقد أقبلت « أرملة الحى » الطروب تسبى مطرقة منكسة لاتبصر شيئاً . وكان رفيقها الهندى قد فقد ذاكرته أثم فقد وأكله فرآني ولم يتعرف على ، والمرأة تقوده كما يقاد الدب الأعمى ، وقد أمسى أداة لهوها وماء نارها التى لا تخمد

أما هى فعند ما فتحت عينيها ورفعت رأسها لترى المكان فما لبثت أن عضت على شفتها كمن بوغت بكارثة أو فاجعة ، لقد راعها وهالها أن تبصر بزوجها فى صحبة شاب هندى ، ولم تقدر أن تتغلب على ما اعتراها من الارتباك والحيرة ، وكانت قد أكست على بشرة وجهها وجادة بدنها طبقات متراكبة بعضها فوق بعض من الدهان الأبيض والأحمر وجعلت نفسها من الزخارف والحلى ما يرزح تحته البازل فنهض الكهل الحربى إليها وقال لها والهندى المجنوب يسمع ولا يبى لفرط ماعراه من الخيال :

« لقد كان من المستحيل على غيرى أن يعرف شخصك فى هيأة تلك السيدة المتنكرة فى أكثف طلاء من الأصباغ والأدهان، وقد ازدحمت عليك الحلى والزخارف ازدحام النجوم الشوابك فى أديم السماء ؛ والجلبب المتكاثر على بساط الماء . وانحنى على يدها ليقبلها غير أنه عند ما لمس أناملها خيل إليه أنها كانت ترتجف . ثم دعانى إلى مجلسهم ودعا بقطائر وقطائف ونوامير وأقداح وأكواب ليوهم الخادم وهى فتاة رائقة الحسن مرهفة الحس إنه ظفر بصديقة قديمة فرق الدهر بينهما ولكنا كنا فى شغل عن لذة الطعام والشراب إلا المسكين الذاهل سادومال فانه أكب على ألوان الحلوى والكعك واليودينة والشطائر اقتحاماً واقتفافاً وعلى أقداح الشاى ارتشافاً واشتفافاً . وجعل يمزح ويضحك من أمازيحه ويزداد هذراً وهراء من آن إلى آخر فلم يبق له من الكلام غير هذا وكان الكولونيل ريب وينكل يتحرق على محادثتى فسألنى بالهندوستانى أن ألقنه التعويذة ففعلت : مالك بها وقد تسلمت أماناتك وردت إليك بضاعتك ، ولم تقل لى كيف كان شأنى على أفقية غير فقاك الناعم المهذب

فقال : أغرضته شقيقتى ذات صباح وخرجت به إلى حديقة هايدپارك فقلت : هل كانت على رأسك قبعة عالية فى الأولى ؟ وكنت ممتطياً صهوة جوادك فى الثانية !

فقال : نعم ثم امتقع لونه وقال : لم أكن أعهد سحركم نافذاً بهذه السطوة . قلت : تراه أشد نفوذاً فى صاحبى الذى يليك ولا بى ما تقول بعد أن أفقدته تعويذتك صوابه ، وكانت المرأة تحرق الأرم ولا تدرى من أين سقطت عليها هذه الكارثة وكان غيظها على أشده ، عند ما نهضت وصاحت زوجها الذى أشمت رأسه بما كان ينقص نحيتها عند ماعاد من سكوتلاندا كالوغل الغير متبوع ... وسحبت الشاب الذاهل من كتفه وخرجت به وتركت الزوجين ينضجان فى صلصتهما !

وكان أول ما فعلته أن تلوت عليه التعويذة السنسكريتية التى تشفى من جنون الشهوة وما كان أعظم دهشتى عند ما رأيت سادومال يرتجف ويقطر جبينه عرقاً ثم يفتح عينيه على النور وقد وعى .

2017-11-14 23:03:13

فنطق بالهندوستانى الذى كان نسيه ، وأخذ يذكر أرقاماً ولوغارتمات عالية . فقد عاودته مواهبه وعادت إليه علومه كاملة ، وعند ما رجع إلى حظيرة الكلية بعد أيام ، أقبل عليه الأساتذة يفحصونه فاذا به كما كان فى بداية شأنه عقل فياض ، وفكر نافذ وإدراك لمعميات المعادلات الجبرية وحل لأعوص المسائل الغامضة فقال له بروفسور كنجزلى : الآن تستطيع الحضارة أن تستفيد بعلمك وكتبوا إلى حكومة الهند يستردون نفقاته وتخصصاته . أما أنا فقد عدت فى تلك الليلة إلى بيتى فى شبردزبوش فارّاً بشال كشمير الذى ضاع بمواطنى المسكين الذى رددت إليه عقله بالتعويذة التى اقتنصتها من زوج عشيقته وقد تملت أن كبرى النتائج قد تبنى على أهون الأسباب ، وبقى على أن أدخل البهجة على قلب نعمة بالشور بالشال دون أن أطلعها على التفصيلات الأليمة التى صحبته فما لها ولنطرسة الضابط المنكوب والزوجة الخائنة والهندى المذهول وسحر هاروت وماروت ! فهداني تفكيرى إلى هذه الطريقة ، وهى أن أزعم أننى التقيت أمام البيت برجل يحمل الشال تلبية للنداء الذى أذاعته فى الصحيفة السيارة وإن أثنى على بديهتها وأمانة شمها وأحمل إليها هدية صغيرة جزاء وفاقاً على ما قدمت يداها من خير فلت إلى دكان جوهرى ، واشتريت خاتماً ذهبياً بفص من الياقوت الأزرق ، ولما نهضنا عن المائدة مددت يدى بالهدية وقصصت على نعمة وأمها القصة الملفقة المنمقة التى نجوت بها من مأزق التفسير والشرح الطويل وذكر مساوئ الناس للناس فى وطنهم فما هكذا يكون عرفان الجميل . ففرحتا وزادنى التوفيق كرامة وعزة فى نفسيهما

وواصلت الدرس حتى جزت عقبة الامتحان الشديد فى جاز هوسبيتال ونلت أجازة الطب المخفوفة بالمصاعب والمكاره واعتزمت العودة إلى وطنى ؛ فلما استشعرت الأم وفاتها ، (وكانت هى الأخرى تخرجت وحازت لقب مولدة من الدرجة الأولى) اعتزاى على الرحيل ، أعدت مسز راوتش حفلة جميلة دعت إليها فضليات نساء الحى وبناتهن ولفيفاً من أجمل الشبان وأنضرهم فأقاموا مرقصاً ومقصفاً ، وبعد نصف الليل انتحت بى الأم ناحية وقالت لى : « خبرنى الآن يا دكتور لال ماذا ترى فى اتخاذ زوجة تحبك وتطيبك وتسنيك فى عملك وتلد لك أولاداً لطفاء يجمعون بين جمال البيض وفطنة الهنود ويبنون دعائم الجيل الجديد فى وطنك الأول ، بعد أن صارت هذه الجزيرة وطنك الثانى . ولعلك تخطب فتاة لها قرابة ملاصقة ورحم ماسة برجل من كبار الدولة وذوى النفوذ والمكانة ، يدعى سير راوتش ، وأن الاتصال بهذا الكوكب اللامع فى سماء السياسة عن طريق المصاهرة قد يجر لك خيراً كثيراً وغناً كبيراً » ، فقلت لها : « ومن تلك الفتاة ياسيدتى ؟ » قالت : « ابنتى جريس رواتش التى خالها ذلك الرجل العظيم . إنها نعم العروس يا بنى وإن لم تكن تعلقت بها فإن الحب نتيجة الزمن والمباشرة . إننا فى بلادنا نخطب لبناتنا كما تخطبون أنتم لأولادكم

فقلت لها امهليني يوماً ، حتى تستدير الفكرة فى رأسى ، فإنى لا أرغب أن أقطف زهرة الزواج على عجل ، ولا أريد أن أعكر صفاء الليلة ، ولا أعلم فى الحق بم تأتى بها مشورة الرقاد ، فالليل يحمل النصيحة الحسنة والرأى الصائب على أجنحة الأحلام الذهبية . فلا تأخذى قولى هذا على أنه قبول أوعدول

2017-11-13

فالى الند . وكان نظام الحفلة يقضى أن يختار كل فتى فتاة يخاصرها فى الرقصة الأخيرة ، فيفهم الحاضرون أنها « قلبه المذنب »[1] وقسيمة حياته فى المستقبل القريب أوالبعيد ، وسرعان ماتناول كل شاب يد واحدة من هؤلاء الشقراوات ذوات الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء و « الضب » البارز والأذقان المستطيلة ، وبقيت فى نهاية الأمر نعمة ولم يتقدم إليها أحد ، كأنها مؤامرة محكمة التدبير ، محبوكة الأطراف ... لله ما أقدر هؤلاء الانجليز على توريط الخلق وتسخيرهم لأغراضهم ! فتقدمت إليها على كره وفعلت ما فعل شباب الحى من عناق وتقبيل ، ثم دعوتها للرقص

وفى الصباح قلت للأم : « إن الزواج لم يخطر لى على بال الآن ، لا لعيب فى بنتك المحبوبة ولا لعجز فى من تأسيس بيت تكون زينته ، ولكن لأنى لا آنس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها »

فقالت : « عجباً لك يا لال ! أتبتل هذا الرفض تقابل رغبتنا . ماهكذا يكون البر والوفاء ولكننا لا نرغمك » ، وترقرقت فى عينيها دمعتان أبى كبرها أن تنحدرا إلى وجنتيها

وتسألنى عن هاردبال وشاتو يادايا وما جرى لهما. أما الأول فقد سافر إلى أمريكا واشتغل بالشعوذة والدجل فجمع مالاً طائلاً بعد أن طلق الفلسفة التى لم تمنه فتيلا ، وذلك باستغلال غفلة خواجى الجمهورية الثانية ، وعاد بالمال طليقاً حليقاً أنيقاً ، وأرغم جوخالى على الزواج منه ، ثم حملها إلى شيكاجو ليواصل عمله فى « كشف القناع عن علاقة الروح بعلم الغيب واكتشاف مناجم الذهب ورفع النقاب عن أسرار الكون وعلاقتها بالحب والفنى وكسب سباق الخيل قبل دخول المراهنة وعلاقة النجوم بحظوظ الأحياء وتحدث أشباح الموتى لذوى قرباهم عن حوادث المستقبل وفوز الحزب الديموقراطى وانتخاب برلن » ، واندمج شاتو يادايا فى المجتمع ، ورشحه جموه للانتخاب عن حى أبوستون باسم الاشتراكية الحمراء ومقاومة الاستعمار والحكم الفاشى لاريلاندا وسكوتلاندا وبلاد النال ، وأعانته زوجته الشاعرة بقصائدها الرنانة ومدح مناقبه لدى نساء المال ، ومن قولها : « إن الرجل الأسود يخدم الجنس الأبيض فى المستعمرات منذ مئتى سنة ، وقد آن الأوان ليخدمه فى برلمان الوطن فهل ترفضون؟ فأجابها الناخبون : أوه ! نثير ! نيفر ! ![2] وفاز شاتو يادايا بمقعد دافىء فى وستمنستر وقد صار حلية المجلس وزينته وتفسيرته ، كالخال فى خد الحسناء

أما أنا فعدت إلى وطنى حتى يلتئم أهلى ويبقى بعد أن نفضت فى الباخرة الانجليزية التى حملتنى من لندن إلى بومباى غبار حذائى ، وخلعت ثياب اللؤم والخداع ولبست ثوباً من « صنع بلادى » وتلفعت بشال كشمير النالى وسألتنى أمى وهى تضع فى فمى بيدها الكريمة اللينة طعام وطنى اللذيذ ، بماذا عدت إلينا يا لال ؟

قلت : بعلم الطب يا أماه ، على أحسن ما أتقنه أعداؤنا وراء البحار ، وبحاجة أخرى هى أعز من العلم وأغلى وأشرف ألف مرة

قالت : ما هى ؟

قلت : عفتى وبكارتى وعفيدتى ، فيمكننى أن أقول لك : إننى لم أعشق امرأة غير أمى ، ولم أعبد إلها غير ربى !

محمد لطفى جمعه

(١) القلب المذنب : المشوهة Sweet hert

(٢) أى كلا وحاشا



يرى كبار الأطباء، أن الخوف من الانفلونزا أقتل للناس من الانفلونزا نفسها. وسر الأمر العلمية المصرية أن الخوف يعرض جسمك للاصابة بها. وتكون اصابتك أشد خطراً! وتريد للانسان أن يخاف لا يزيد خوفه، وأنت تخاف ما تقدر ومتى وكيف الذي تخافه فأنك ترى عينيك أو تسمع وتشم. ولكن الخوف الذي لا يمكن ان تحمل الاصابة الا وأنت لا تدري سببه هو الخوف. ولكن لحسن الحظ الجانب من الانفلونزا أي الجانب الأشد خطراً يزول بتناول عمل الجلدة والأسبرو نفس عمل الجلد اذ يمنع سام فيروس الانفلونزا من الجسم ويدفعه تحديداً في الداخل. ولهذا نجد السبب أن الذين يستعملون "أسبرو" للانفلونزا قلما يصابون بتلك الآفة بسبب أن جسمهم في الفراش واقفين. لذلك لو هاجم الخوف سم الانفلونزا، فاجعل "أسبرو" دائماً معك وحسبك نفسك سم الانفلونزا. ولأن الزمن استعمل "أسبرو" لكثير غيرة ولم تحل طبيبنا وجه الأرض أحسن الأدوية

حماية الانفلونزا للعائلة كلها



كيف تعطي "أسبرو" للأطفال

سن ٣-٦ سنوات نصف قرص
" ٦-١٤ سنة قرص واحد
" ١٤-١٨ سنة قرص ونصف
أسبرو كبار الأدوية لوقاية كل فرد من أفراد العائلة

ASPRO
MEDICINE MARK

الوكلاء
ج. ب. شيريان وشركاه
القاهرة
شارع الكنيسة اليونانية
تليفون ٤٢٢٣٦ عابدين
الاسكندرية
٩ شارع فرنسوا
تليفون ٢٦٢٤



١٠ اقراص ٢ قرشاً
٢٧ قرصاً ٥ قروش
٢ قرصان ٥ مليمات

2017-11-15 Egypt Gate

يحكى أن ملكا

للشاعر الهندى الفيلسوف طاغور

بقلم السيد فخرى شهاب السعيدى

« يحكى أن ملكا كان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ... »

... لم نكن فى حاجة إلى أن نعرف أى ملك هذا — ونحن صبية صغار ... ولم يكن يضيرنا أن يدعى : « شيلادتيا » أو أن يسمى « شاليبان » .. أن يعيش فى « كاستى » أو « كانوج » ؛ فإن ما يخفق له قلب ابن سبع سنين سروراً وابتهاجاً هو : هذه الحقيقة الرائعة الجليلة « يحكى أن ملكاً ... »

ولكن قراء هذا الجيل الجديد لا يرضون بهذا وإنما يمضون في التحقيق والتساؤل ؛ إذ ينبعث فضولهم ثائراً حين تطرق أسماعهم « فاتحة » كهذه ، ويسلطون « أشعة كشافة » من النقد على ذلك الضباب الخرافى القائم ، فيسألون قائلين :

« أى ملك هذا ؟ ! »

والقاصون — بدورهم — أضحوا من المتألين المتأنقين ، لا يستسيغون ذلك الابهام ؛ وإنما أخذوا أنفسهم بالتعمق فيما يقصون ، فابتدأوا يقولون :

« يحكى أن ملكا يدعى أجاتسترا ... »

على أن فضول القارىء العصرى لا يكاد يدرك إقناع ... إذ يحدج المؤلف بنظرة فاحصة مستريبة ويسأله نادة أخرى عن هذا الملك الجديد ، فيجيب المؤلف قائلاً :

« ... وأجاتسترا هذا هو أحد ثلاثة يشتركون في هذا الاسم فى التاريخ ، كما يعلم الطلاب ؛ فأما الاول فقد ولد فى القرن العشرين قبل الميلاد ، وتوفى وهو فى غضارة الطفولة حين كان يحطم الشهر الثامن من سنى عمره الثلاث ...

« ولشد ما يؤسفنى أن يستحيل العثور على بيانات ضافية مسهبة من مصدر وثيق عن مدى حكمه[1] ! وأما أجاتسترا الثانى فمعروف لدى أكثر المؤرخين ، وفى الموسوعات التاريخية عنه الشىء الكثير ! »

... وبهذا يتلاشى فضول القارىء من العصريين إذ يستشعر الاطمئنان إلى هذا النحو من أحاديث المؤلف القاص... إنه ليحدث نفسه — حينذاك — بقصة ممتعة طلية ليس إلى الشك فى صحتها من سبيل !

* * *

آه : كم نستجيب خداع أنفسنا أجمعين ؟ !

فى حين أنا نخاف الجهل ونخشاه على أنفسنا ثم لا نزيد على أن نسلك إليه سبيلا ملتوية تطول !

هناك حكمة انكليزية تقول :

« لا تسلنى عن شىء ، وأنا زعيم بألا أكذب عليك ! »

(١) لعل الفيلسوف هنا يريد أن يلفت نظر القارىء ويسترعى انتباهه إلى هذا النوع من تلفيق المؤلفين وحيلهم جعل هذا التلفيق الذين الصريح حقائق تاريخية ناجة لتصادف أهواء القراء — على ما يظهر فى هذه السطور !

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

والصبي في السابعة من عمره حين يستمع إلى قصة من قصص « الجن » يدرك تلك الحكمة أحسن الإدراك ؛ إذ تراه ممسكا عن كلّ سؤال ، مصيخاً بسمعه إلى من يقصّ عليه ... فلذاك فإن خيال القصة الخلاب ، وما فيها من رونق أو جمال يبقى سالماً من كل ما يشوب ، يُشبه في سلامته الطفل البريء ، مجرداً عن كل ما يضير كالحقيقة في التوهج والصفاء ، رائقاً سنياً كأنه الينبوع التدفق العذب !

ولكن كذب المجدين الفنّ المصطنع سيلقى على كل ذلك غشاوة من التضليل ! وحين ينكشف للقارئ الفاضل هذا الزيف ، وتبين له هذه المخاتلات والأساليب تشمئزّ نفسه ، وينقلب المؤلف بأسوأ ضروب الخزي والعار عند ذاك !

لقد كنا — ونحن صغار — نستجلي الجمال بما كان لنا من إحساس ساذج بسيط ؛ ولم يك من همنا أن نحيط علماً بغير تلك الحقائق المتعة ، أو أن نعرف شيئاً عما يتحدث به القاصون المجدون من سفساف الأمور ...

كانت قارونا الصغيرة البريئة قد عرفت — جيداً ! — « قصرَ البلور الحقيق » وكيف يكون الوصول إليه ولكننا اليوم ... نُمرَّجَوْن في تسطير بعض صحائف من الحقائق ... بينما الحقيقة البسيطة الجليلة هي هذه :

« يحكى أن ملكاً ! »

* * *

مازلت أذكر تلك الأمسية واضحة في « كلكتا » حينما بدأت « قصة الجن » ...

كان المطر يتحدر هتوناً غزيراً ؛ والريح تعصف مستمرة ، والمدينة كلها قد غمرتها المياه مقدار ارتفاع ركبة عن وجه الأرض ...

وكنت ضيفاً بما في نفسي من أمل طالما تحقق ، ذلك هو مقدم « العلم » الذي يجب أن يتوقف على الأقل في هذا المساء ! ...

جلست على كرسيّ صغير في زاوية قصية من زوايا الشرفة أطلّ منها على الشارع ، وقلبي خافق وعيني مثبتة في المطر الهاطل لا تتحول عنه ؛ فلما بدأ ثقل انهماره ابتهلت إلى الله أن يديمه إلى منتصف الثامنة من هذا المساء !

ذلك بأني كنت موقناً مطمئناً إلى هذا اليقين القويّ الذي لا يزعزعه شيء : أن ليس للمطر من فائدة غير حماية طفل بائس مسكين قابع في ركن من أركان « كلكتا » من غائلة « معلمه » الهلكة

وإذا لم يكن انقطاع المطر السريع جواب ابتهالي فلا بد أن يكون مرجع ذلك إلى بعض قوانين الطبيعة ...

ولكن... واأسفاه ... هأنذا أبصر « مظلته » في منعطف الشارع تقترب في الوقت المين المحدد . إني أحس أن وجيب قلبي قد ازداد ، وأن ما كان في نفسي من الآمال قد خاب ... ! لوأن عقاباً أليماً يُجزى به المجرمون — بما قدمت أيديهم — بعد الموت ، لما كان دون خَنْقي « أستاذي » وخلق « أستاذي » ممن عندي من التلاميذ !

واتجهتُ مسرعاً — حين ظهرت مظلة الأستاذ — إلى أمي في غرفتها ... لقد كانت جدتي جالسة قبالتها تلعب وإياها « الورق » تحت ضوء المصباح ... ودخلت فزعاً مضطرباً ، فألقيت بنفسي على السرير ... قريباً منها وقلت :

2017-11-11 06:06:03

« يا أمي العزيزة ... هذا المعلم قد حضر ... وإني — لما ألمّ بي من صداع — لا أكاد أعي اليوم الدروس ! »

لا أظن أن طفلاً في غضارة العمر ، لم يستكمل بعد قوته ونموه ، مسموح له بمطالعة هذه القصة ... وعلى أي أومن أشد الإيمان بصلاحها لمدارس المبتدئين الصغار ! لأن ما كنت أقدمت عليه كان غاية في السوء ... ولكني لم ألق جزاء سيئاً على كل حال ... بل كان الأمر على النقيض ، وتكللت مساعي بالفوز ، إذ قالت أمي تجيبني :

— حسن يا بني ! ثم التفتت إلى الخادم تشير عليه بوجوب انصراف « الأستاذ » اليوم ...

لقد كنت راضياً مرتاحاً ، فإن أمي استمرت لاعبة — كما كانت مع أبي من قبل — ولم تأبه لهذا العارض الذي ألم بي من الصداع « البسيط » وأبقيت رأسي بين وسائد السرير وظلت أنحنك بما حدث ... لقد كنت أنا وأمي يفهم بعضنا بعضاً أدق الفهم ...

وللقارئ أن يتصور ما يلقاه ابن سبع من الصعوبة في البقاء ساكناً هادئاً زعم لأهله أنه مريض ... ولكني ما لبثت أن نهضت بعد برهة والتفت إلى جدتي أريد منها أن تقص علي بعض ما فيها من أقاصيص ! وكان علي أن ألحف في التسآل لأن أمي وجدتي كانتا مستغرقتين في اللعب غير آبهتين لما أقول ... ولكن أمي التفتت إلي — أخيراً — وانهرتني قائلة :

أيها الصبي ! لا تضايقنا ... انتظر حتى ننتهي مما نحن فيه ...

ولكني تماديت وألححت ، وقلت لأمي : إن باستطاعتها أن تؤجل اللعب إلى الغد ... وأما القصة ... فهذا مما ليس منه بد ...

وضجرت أمي من هذا الإلحاح الشديد ، فرمت أوراق اللعب وقالت تكلم أمها :

— من الخير أن تقصي عليه ما يريد

وقد يكون — في جملة ما فكرت به — أنّ عليّ ألا أزعجها بالانقطاع عن دروس الأستاذ (العقيمة السخيفة !) غداً ... من يدري ؟

وانتهزتُ هذا المجال الذي أخلته لنا أمي فأمسكتُ جدتي من يدها وأدخلتها في « كِلّتي » وأنا من فرحي أكاد أطير

فلما عاودني شيء من السكون قلت لها :

— والآن يا جدتي فلتبدأ القصة ...

... قالت جدتي مسترسلة في حديثها :

« ... وكانت الملك زوج ... »

— وكانت هذه بداءة طيبة للحديث ... فان العادة جرت أن يكون ملوك « الجن » مسرفين في الزوجات ... ونحن حين نسمع أن الملك الواحد اثنتين تهلع قلوبنا وتهبط ! فان إحداهما — لا شك في أنها من التعسات !

ولكن قصة جدتي لم يكن فيها من هذا شيء إن هذا الملك له زوجة « ليس غير »

ثم إنا اعتدنا أن نسمع — بعد هذا التقديم — أن الملك لم يكن له أولاد ... وما كنت — وأنا ابن سبع — أقدّر شقاء من ليس له ولد ... أو حاجته إلى الشقاء — بتعبير أدق — إذ ربما كان

أولاده في طريقهم إلى الحياة ...

ولم يك يعترينا اضطراب حين نسمع أن الملك قد ذهب إلى الغابة ... يَحْبُر فيها الصعاب، ليكون له ولد ! إنما يحسن الاختفاء في الغابة حين نفر من وجه « الأستاذ » هارون ...

... ولكن الملك — هنا — تَرَكَ زوجه حينما ارتحل طفلة معها تترعرع ... فاذا هي اليوم في شكل أميرة جميلة

ومضى على ذلك أحد عشر عاماً طوالاً ، والملك في تجاربه وأموره ومهامه ، لا يفكر — طوال هذه الفترة — في ابنته الحسناء ...

... لقد اكتملت الأميرة فتوة وشباباً .. حتى لكأنها في حسنها البدر المنير ! وعمر الزواج ... لقد تمضى ... ولكن الملك لم يعد من رحلته حتى الآن ...

... وهال الملكة ما ترى من تأخر زواج ابنتها الأميرة فأرسلت إلى الملك تدعوه إلى وليمة يحضرها في القصر . فَلَبَّى الملك دعوتها وجاء

كانت عناية الملكة شديدة بما هيأت لزوجها من صنوف الطعام وأنواع الشراب ... وبما حلّت به من ضروب الآنية الذهبية الجميلة ...

وكان مقعد الملك مُعدّاً له من خشب «الصندل» العطري الجميل ..

.. وقدم الملك القصر بعد غياب استغرق أحد عشر عاماً طوالاً .. وتبوأ مقعده ومن حوله الأميرة والجواري يحيّين مراحبهن ، ويزين الزفة بأشعة من جمالهن الفتان ...

وكان الملك يبصر الأميرة فيعجب بما يرى حتى لشغله ما هو فيه عما أُعِدَّ له من صنوف الطعام !

وسأل الملك زوجته عن هذه الجميلة الفاتنة : مَنْ عساها تكون ؟

وأجابت زوجه — وقد آلمها سؤاله ذاك —

— أحقاً .. لم تعرف ابنتك حتى الآن ؟

— أأصدق ؟ ابنتي الصغيرة قد ترعرعت ونمت فاذا هي اليوم في شكل الحسناء ؟

— لعلك نسيت الأعوام التي هجرتنا فيها أيها الملك العظيم !

— ولكن ما أخّرَ الفتاة عن الزواج ؟

— أنا أزوّجها وأنت لا علم لك بذلك ؟ إن هذا لا يليق ! ..

.. وغضب الملك من هذا الذي سمع وأقسم ليزوّجن ابنته أول من يصادف في الطريق

— عند خروجه غداً — من الفتيان ...

.. وكانت الأميرة خلال ذلك تحرّك مروحتها الجميلة على رأس أبيها الملك في صمت وهدوء حتى انتهى من الطعام ..

وإن الملك لخارج من قصر زوجته في الصباح إذ بَصُر بفتى من البراهمة يناهز السابعة من عمره، يحتطب في الغابة بعيداً عن القصر .. وكان هذا الفتى أول من رأى الملك عند خروجه في النهار .. وصمم الملك أن يزوج ابنته من هذا الصبي الصغير.. ومَنْ ذا الذي يستطيع أن يمتنع على الملك فلا يأتمر بأمره ولا يطيع إشارته إن أشار ؟

.. وجيء بالصبي وعُقدَ القرانُ وتم الزواج ..

التصقت بجدتي وسألتها في لهفة عما تم في أمر

هذين المرءوسين المجدودين فقلت :

— ثم كان ماذا ؟

ولقد تمنيت أن أكون ذلك الفتى الخاطب الفقير ... أو أن أستبدل به ... ولكن هيهات .. لن يجدى ابتهالاتى ... إن ذلك لبعيد ...

كان صوت جدتى قد انخفض قليلا علامة ما أصابها من كسل أو فتور ؛ وكان المصباح ينير ماحولى فيطغى على ظلام الليل ويبدد جيوشه أشتاتاً

وكان هذا الصوت الخافت الضئيل ، وذلك المصباح المتقد المنير ، يجعلان فى نفسى أنى ذلك الفتى الخاطب السعيد ... الذى لقيه الملك المجهول هذا فزوجه ابنته الحسناء الفتاة ...

... إن جدتى لو كانت مؤلفة لوجه إليها قراؤها أسئلة كثيرة يستوضحونها ، تقتضيها كثيراً من الشروح والتعاليق ...

فهذا يسأل عما أبقى الملك فى النابة هذا الدى الطويل لغير ماسبب معلوم

وذاك يسأل عما أخر الأميرة عن الزواج ...

وثالث له سؤال غير هذين ...

وإذاً فالقصة — هذه — سخيفة لا خير فيها ولا غناء !

... ونحن إذا فرضنا أنها سلمت من كل هذا فمن الزعيم بأنها ستسلم مما سيوجه إليها من أسئلة أخرى ؟ بل وما يدريك ، فربما انتهت — ظنون القراء بها — إلى اتهامها بتهمة التبشير بمبادئ هدامة جديدة لتقويض الاجتماع البشرى ... وإلا فكيف يمكن تزويج فتاة نبيلة من فتى من أبناء البرجيين الصعاليك ؟!

وإذاً ... فليكتب القراء إلى الصحف يكشفون عما وراء أقوال هذا القاص الجديد من مبادئ الهدم وعقائد الكفر والضلال !!

ولقد رجوت أن تبعث جدتى فى هذا العصر لترى ما نحن فيه من شقاء !

* * *

وسألت جدتى — وأنا مأخوذ بسحر حديثها — عما آل إليه أمر الفتى والفتاة ؟!

قالت جدتي : وأخذت الأميرة الصغيرة زوجها الفتى إلى قصر باذخ منيف ، وظلت تتعهده بعنايتها ورعاه !

... ودخل الفتى البرجمى الصغير مدرسة ، وتلقى شيئاً من الدروس فيها على أساتذة هناك ... واختلط بأقرانه من طلاب الصف ، فسألوه عن أمره مع تلك الحسناء التى تساكنه فى القصر ؟ فحار فيما يرد عليهم إذ لم يكن هو يعرف من أمرها أكثر مما كان رفاقه يعرفون ...

... إنه لا يذكر إلا أنه جئ به إلى هذا القصر — ذى الأجنحة السبعة ! — يوم كان فى النابة يحتطب ! ولكن تقادم العهد على هذا الحادث الفذ الغريب أبقى عنه فى ذهنه صورة مطموسة المعالم ، غير واضحة الأثر ...

ومضت على هذا أربع سنوات أو خمس ... وأسئلة أقرانه الطلاب تترى عليه ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه الأسئلة وعزم على أن يعرف جوابها من هذه الحسناء التى معه ...

وعاد من مدرسته إلى القصر ، وفى نفسه أن يسأل الأميرة عما يضايقه به إخوانه الطلاب ... وسأل الأميرة عما أراد ... ولكن الأميرة استمهلته وضربت له أجلاً فى غير هذه الأيام ...

2017-11-11 15:06:13

ولم يزل هذا دأبه معها : يسألها عن أمرها معه ، فتستريثه إلى أمد غير محدود ! وكان الفتى يلحف فى السؤال فلا تزداد هى إلا امتناعاً عليه !

... واعتزم أن يترك القصر الناهض العجيب إن أصرت الأميرة على عنادها هذا ، وأخبرها بما اعتزم إن لم تحدثه بما يريد ...

ضاق الفتى بالوقت الطويل ... أنه لا يكاد ينصرم إلا فى بطء شديد ؛ وكلما استعجل الأميرة ذكرته بالموعد المضروب ، فيصبر مضطراً إلى حين وفى نفسه لواعج تضطرب وهموم ...

لقد كان موعد الجواب بعد طعام العشاء ... حيث يأوى إلى فراشه لينام ... ها قد أزفت الساعة إذ تناول عشاءه وانصرف إلى مخدعه ليسمع لا لينام . قالت جدتى : ودخلت الأميرة مخدع الفتى وهى تستحضر له فى نفسها الجواب ... ولكنها ...

قلت لجدتى والخوف قد أخذ منى مأخذاً كبيراً حتى كاد قلبى يقف عن وجيبه الشديد الذى كان قد استولى عليه :

— ثم ماذا ؟ !

قالت :

— لقد كان الفتى نائماً فى مخدعه ... إنه لم ينتظر حضور الفتاة ... أو قل إن الأقدار لم تمهله ليسمع الجواب الذى تلهف لسماعه هذا الأمد الطويل إذ تسللت إليه أفعى بين الزهور المنثورة على مرقده ولدغته ، فنام نومته الأبدية .. لقد مات المسكين ..

— ثم ماذا ؟ ! لا شىء ... وما الفائدة من الاسترسال فى الحديث ؟ إن الأمر سيسترسل فى الصعوبة والاستغلاق ... إن المرء لن يصل إلى نتيجة جدية يرتاح إليها أو يطمئن ...

ولكن عقيدة الطفل لا يزعزعها الموت ! ! إنه لن يستطيع أن يدحر إيمانه القوى الشديد ... إنه يريد أن يغالب الموت فيختطف منه فريسته هذه التى أرداها ليمضى فى خياله مسترسلا ...

ثم يسمع الطفل الصغير — من جدته — ما صار إليه جسم الفتى المسكين ، — وهو بين النوم واليقظة — ... لعل الجسم دفن على شاطىء من شواطىء الأنهار تظله شجرة وارفة الظل من أشجار « الوز »

ثم يغلب النعاس أجفان الطفل الصغير فيسترسل فى أحلام النوم بعد أن استرسل فى أحلام القصص الخيالى الجميل ...

« بغداد » فتحى شهاب السعيدى

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصرلموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

قصة صيف

للكاتب القصصي إسبفان زفايج

بقلم الأديب أحمد فتحي عبد الوهاب

أمضيت أغسطس من العام الماضي بكارينثيا ، إحدى تلك الأماكن المجاورة لبحيرة كومو التي تختفي بهيجة على حافة النابات في هدوء وسلام حتى في أحب أيام الربيع

وفي تلك الأسابيع القائظة كانت هذه المدينة الصغيرة المنعزلة عطرة ، وكان فندقها الوحيد خالياً من النزلاء دائماً ، وكان كل من النزلاء القليلين يعجب في نفسه سراً : لِمَ اختار الباقون هذا المكان المنعزل لقضاء عطلهم الصيفية ، ويتساءل صباح كل يوم : لِمَ لَمْ يبرحوه بعد ؟ وكنت أعجب أنا أيضاً من سيد تقدمت به السنون ، يميزه عن الباقين حسن زيه ، ويظهر من سيماه أنه إما سياسي انجليزي سميم ، أو فرنسي جوال . مضت أيام إقامته بيننا دون أن يسمح بالإشتراك في أية تسلية محلية ، ولا يُرى إلا متأملا دخان سيجارته يتصاعد في الجو عالياً ، وفي بعض الأحايين يقلب صفحات كتاب !

وفي أحد الأيام القائظة التي لا تحتمل جمت بيننا الصراحة وشرف المقصد والحرية القلبية المتبادلة فلم يكن للفرق بين عمرينا من حساب . فهو ليفوني المولد ، بدأ تعليمه في فرنسا وأتمه بانجلترا ؛ جواب بلدان لم يستقر في مسكن دائم عدة أعوام ، وتدرك بسهولة أن لا مكان له بين قراصنة الجمال الذين يتزينون بمجوهرات المدن بأكملها أثناء رحلة واحدة من رحلاتهم . يتذوق الفنون جميعاً يجذبه نحوها هوى عميق ، ويصده عنها ازدواء واضح أقوى من حبه لها . قضى آلاف الساعات الفريدة متجولا في رياضها دون أن يهتم بأن ينفق لحظة واحدة يخلق فيها عملاً يذكره به . يحيا على هامش الحياة نافراً من الانتماء إلى أي الجماعات ، لأنه — كما يعتقد — كنتيجة لآلاف التجارب المختلفة ، تبدد الثروات المخزونة بها دون خليفة يتملكها بمجرد أن تخمد أنفاس أعضائها

حدثته في هذا الأمر إحدى الأمسيات وكنا جالسين في شرفة النزل بعد الغداء نراقب كيف يتلاشى أمام أعيننا بريق البحيرة رويداً رويداً

ابتسم وقال :

« قد تكون على حق . وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أعتقد في الذكريات . ففي اللحظة التي تفارقنا التجربة فيها ، تنتهي وتتلاشى . ألا يتبدد الشعر ويفنى أيضاً بعد عشرات ومئات السنين ؟ ولكنني سأقص عليك اليوم أمراً تافهاً يخيل إلي أنه يصلح لأن يؤلف قصة سارة . تعال ، فالرء يفضل أن يتحادث في هذه الأمور أثناء رياضة على الأقدام »

سرنا والطريق المحبوب المجاور للشاطئ تتمتعه ظلال الصنوبر والبندق السرمدية ، وتتلألأ من بين أغصانها البحيرة اللامعة ، ويقبع كالسحاب من

ورائها بيللاجيو منكسة عليه الأشعة الهادئة من الشمس وقد قاربت المغيب ؛ وهناك بعيداً فى أعلى ذرى التل القائم يلمع جدار فيللا سريبالونا وكانت الحرارة محتملة ، تحمينا الظلال منها مثل ذراع حسناء ، وقد عبق الهواء بعطر ورود غير منظورة وابتدأ قائلاً :

« سأعترف لك قبل كل شىء ، فحتى الآن لم أبح لك بسرى . فمن عدة سنين خلت كنت هنا ، هنا فى كادينبيا ، فى مثل هذا الفصل ، ومقيم فى النزل عينه . وستدهش ولا شك فقد أخبرتك أننى أتجنب استعادة ذكريات تجاربى فى الحياة

« وبالطبع كانت كادينبيا إذ ذاك منعزلة كما هى الآن . وكان يقيم هنا أيضاً ذلك السيد الذى من ميلان ، والذى يظل طول اليوم يصيد السمك ليطلق سراحه فى المساء ، وهكذا كل يوم . وكان من بين المقيمين هنا سيدتان انجليزيتان عجوزان كان وجودهما صعب الاحتمال ، وشاب ظريف وفتاة شاحبة تسحر اللب ، لا أعتقد اليوم أنها زوجته من فرط ما كان يظهر للعيان أن كلا منهما يبادل الآخر حباً مبرحاً . وكانت تقيم فى النزل عائلة من شمال ألمانيا يميزها الجد العابس ، مكونة من سيدة مسنة ، كتانية الشعر هزيلة ، قبيحة الحركات متنافرتها ، تصوب من عينيها نظرة حادة كالفولاذ ، ولها فم مستقيم قبيح كأنما شرط بميزاة ، ترافقها سيدة أخرى أسن منها ، ولا إخالنى مخطئاً إذا قلت إنهما أختان ، فالسحنة واحدة إلا أن الثانية أهزل ووجهها أكثر تجمداً . وكانتا تجلسان معاً ، ساكنتين لا تفوهان بكلمة ، عاكفتين على التطريز كأنما تنسجان السآمة والملل . وكانت تجلس بينهما فتاة تبلغ السادسة عشرة من عمرها تقريباً هى ابنة إحداهما ، وإن كان يسر معرفة ابنة أيتهما ، لأنها كانت غير مهندمة وقد بدت سحنتها القنسوية شاحبة باهتة ؛ غير أنها كانت فى الحقيقة ممشوقة القد ، نحيفة لم تنضج بعد ، لا تنمى بارتداء ثيابها فى ذوق ، إلا أن حنيناً بائساً يروعك انبعاثه من عينيها البراقتين اللتين تنعسهما مضطربة إذا حدق فيهما محدق ، ويخفق ضياؤهما فى بلادة وفتور . وكانت دأبة التطريز ، ولكن فى بطء ، كأنما الناس يدب فى أناملها التى سرعان ما تسكن ، وتسترسل فى أحلامها مخلقة فى صفحة البحيرة البراقة

« ولست أدرى ما الذى أثر فى نفسى وحرك عواطفى نحوها . أكانت تلك الفكرة المألوفة المحتمة التى سرعان ما تخطر ببال من يرى الأم الغابية القاوية بجوار الابنة ، وقد بدأت تتفتح زهرتها وتينع ؟ أم كانت فكرة أن كل خد تنتظره التجاعيد ، وكل بسمة تنتهى إلى السآمة ، وكل حلم آخرته الخيبة ؟ أكانت تلك الرغبة الجامحة الواضحة التى تحتال الفتاة جاهدة لإخفائها ولكنها تتدثر بها ويفضى سرها ما تم عليه ملامحها ؟ أم أن التى أدهشتنى هى إحدى تلك اللحظات الفريدة العجيبة الخالدة فى حياة فتاة يافعة ، حينما تحملق فى الكون يدفعها الشوق والحنين ، باحثة عن المجهول الذى تشعر أنه ينقصها ، عن الشىء الوحيد الذى تتمنى لو تعلقت به كقشة يحملها التيار ، وبعد ذلك ، تذبل وتذوى وتتبدد ؟

« وجدت نفسى مسوقاً إلى مراقبتها لأكشف

عن سر تلك النظرة الحالمة المبللة بالدموع ، لألاحظ تلك الحالة التى تعتريها فتدفع بها لمناقة كل قطة ، وتدليل كل كلب فى إسراف ؛ لأميط اللثام عن هذا القلق الذى يحرك لهفتها على عمل كل شىء ولكنها لا تتم شيئاً ، عن هذا الحماس الشديد حينما تريد أن تلهم المجلدات القليلة الموجودة بمكتبة النزل ، أو عند ما تتفرس حالة فى ديوكانى حيته وبومباش وهما الشاعران المرهفا الحس الدقيقا الملاحظة ...

— ولكن لماذا أراك تبتسم ؟

— وكان علىّ أن أبرىء نفسى فقلت :

ليست إلا المقارنة بين جيته وبومباش

«فقلت: آه ، نعم ! مضحك ولا شك ، ولكنه على نقيض ذلك . صدقنى أن فتاة صغيرة فى مثل سنها لا يهمها أن تقرأ شعراً ، رفيعاً كان أو حقيراً ، واقعياً كان أو خيالياً ؛ فالشعر للمتعمقين ليس غير كؤوس يطفئون بها ظمأهم ، فإنهم لا يعبأون بكرمة النبيذ ما داموا قد سكروا قبل أن يشربوا . وهذه الفتاة كان يغذيها الشوق الدفين ، يتم عنه وميض عينيها ، وارتعاش أناملها ، وعدم استقرارها وترددها كما لو كانت تود لو تطير ، ولكن يقعد بها الخوف . فكنت تراها تحن لمن تبادله الحديث ، عساها تنفس عن بعض عواطفها الكبوتة ، ولكن لم يكن هناك غير وسوسة الإبر تذهب باليمين ثم للشمال ، وسكوت السيدتين البارد المقصود

« هزنى الحنان نحوها ، ولكن كيف يمكننى الدنو منها ؟ وماذا يصنع رجل فى خريف حياته لفتاة فى ربيع حياتها ؟ وقد عما كل إمكان فى تقديم نفسى كراهبى للعائلة ، وبخاصة بغضى التقرب من السيدات المتقدمات فى السن من الطبقة المتوسطة

« طرأت علىّ فكرة غريبة ، فكرت أنها فتاة صغيرة طاهرة ، عديمة التجارب ، وبالتأكيد تزور إيطاليا لأول مرة التى هى بالنسبة للألمانيين (وشكراً لشكسبير لأنه لم يذهب إليها بتاتاً) أرض الحب الخيالى والحبين ، والمغامرات السرية ، والخناجر اللامعة ، والساخر والدونات ، والخطابات الرقيقة ... وبكل تأكيد إنها تحلم بكل هاته الغراميات . ومن ذا الذى يفهم أحلام فتاة شابة ، تلك الخيالات السابحة فى عقلها على غير هدى وبصيرة كالضباب ، أو كالسحب وقت الغروب عند ما يلتهب لونها مبتدئاً بالوردى مُنتهياً بالأحمر القانى ؟ ولا شك أن اعتقادها — كما هداني تأملى — أن لا شىء فى الوجود يحال تحقيقه . وعلى ذلك عزمت على أن أخترع لها حباً مجهولاً .

« ففى ذلك المساء حررت لها خطاباً رقيقاً ملأته بالبلة الحبية فى غير إسراف ، لا أطلب فيه شيئاً ولا أعد بشىء ، خطاباً مبهماً فى إبهام ولكن بتحفظ ، وبالاختصار كان خطاب حب خيالى كقصيدة من النزل ... ولما كنت أعلم أنها أول من تبادر إلى منضدة الافطار كل صباح ، فقد أخفيت الخطاب بين طيات منشفتها

« وفى صباح اليوم التالى راقبتها وأنا واقف بالحديقة ، فرأيتها وقد بغتت من المفاجأة وظهر عليها الخوف حينما قرأت الخطاب ، والتهبت وجنتاها الشاحبتان احماراً ، وتدرج الاحمرار فصبغ جيدها ونحرها ، وأخذت تتلفت حولها حائرة وقد اضطربت حركة يديها ، عند ما أخفت الخطاب وهى تتخلس النظرات ، وجلست فى مكانها هائجة مضطربة ،

2017-11-11

وحاولت أن تتذوق إفطارها ولكن هيهات ، فقد أسرعت فى الاختفاء ، ولا شك أنها خرجت باحثة عن أى مكان منفرد تخفيه الظلال كى تتمكن من قراءة الخطاب الخفى النامض مثنى وثلاث ... كما تريد أن تقول على ما أرى ... ؟ ؟ »

فقد بدرت منى حركة علىّ أن أوضحها :

« يلوح لى أن ذلك منتهى عدم التبصر . ألم تفكر فى أنها قد تستعلم من الخادم كيف وضع الخطاب فى منشفة ، أو على الأقل تظهر والدتها عليه ؟ ؟ »

« من الطبيعى أننى فكرت فى ذلك ، ولكنك حينما ترى تلك الفتاة العزيزة ، الهيابة ، الخائفة ، التى تتلفت حولها قلقة إذا ارتفع صوتها أكثر من المعتاد عند ما تتكلم ، يذهب عنك كل شك ، وإنه لوجد فتيات نقيات السريرة ، يمكنك أن تذهب معهن إلى أقصى غاياتك ، لضعفهن ، فيفضلن أن يتحملن قسوة التجربة المأمونة لديهن على المجازفة فى أخرى مجهولة

« وقد ارتحت عند ما رأيتها تخرج ، وطربت لنجاح مجربتى

« وأخيراً عادت ، وبنتة شعرتُ بالدم الحار يتدفق فى كيانى . الآن تثيرت المشية ، بل تثيرت الفتاة بأجمعها ! ! فقد دنت فى حيرة وخزى وانحنين ، ثم عنها موجة متأججة خضبت وجهها ، يناحيرة حلوة مستحبة ربكت كل حركة منها . بقيت طول اليوم على هذه الحالة ، تتفرس فى كل شباك ، كما لو كانت ستعثر فيه على السر النامض ، وتتطلع إلى كل مار بجوارها . ومرة نظرت إلىّ ، وبكل حكمة تجنبت نظرتها حتى لا أفضح سرى . وفى لحظة أحسست لهيب تساؤلها فارتبكت .. وللمرة الثانية — بعد سنين من تجاريب الحياة — أشعر بأنه لا يوجد سرور أخطر بل أفتن من وميض أول أشعة الحب فى عينى فتاة

« رأيتها مرة أخرى جالسة بين العجوزين ، تطرز بأصابع مرتجفة ، ولاحظت كيف أنها كانت تتحسس صدرها من وقت لآخر ، حيث تخفى الخطاب ولا شك

« وفى هذا المساء كتبت إليها خطاباً آخر ، وصرت أكتب إليها كل يوم ، حتى فتنى وخلب لبى التعبير عن شعور شاب فى خطاباتى ، لأخترع جوهر عاطفة نقية خيالية . وأصبحت رياضة تهزنى ، كالصيادين يسرون حينما ينصبون شباكهم لفريستهم فى الخلاء ؛ ولا يمكننى أن أصف لك جزعى من أن التجربة التى بدأتها بتحرير تلك الخطابات لا تتم

« تبدلت مشيتها فأصبحت تخطر فى خفة وسرور مطلقين ، وغطت ملامح وجهها مسحة من الجمال الشاذ المضطرب . ولا شك أنها تقضى ليلها متلهفة مترقبة خطاب الصباح ، لأنه فى وقت الافطار كانت عيناها تبدوان ذابلتين غير مستقرتين يخفق وميضهما . وقد ابتدأت تعنى بنفسها ، تزين شعرها بالورود وتتحسس كل شىء فى رفق وحنان عجيبين ، وتنم نظراتها عن تساؤل دائم ، لأنها شعرت ولا شك — من البيت الذى كنت أسطره فى خطاباتى — أن الكاتب بل الملاك الذى يُحَمِّلُ النسيم ألحاناً تُشجيها قريب منها ، ولكنه غير منظور . ونعتْ سعادتها وتزعزعت حتى أن السيدتين الخاطبتين لاحظتا التغير الذى بدا عليها ، وكثيراً ما غضتا النظر عن تورد خديها وحركة أصابعها العصبية السريعة .. وأخيراً تختلس التنهد كل منها . وقد عمق صوتها وبدا أوضح وأقوى وأجسر ، وفى حلقها نبضة

ترتجف دائماً ، كما لو أن أغنية تود لو تنفجر وتسيل منتصرة مثل ... ولكنك تبتسم مرة أخرى ؟؟ »

« لا لا أبداً !! تفضل بالاستمرار ، كنت أفكر فقط كيف إنك تجيد قص كل هذا . واسمح لى أن أقول لك أنك ذكى ، ويمكنك بكل تأكيد أن تكتب القصة كأشهر روائيينا »

« تريد أن تقول لى بكل أدب وحذر إننى أقص القصة — مثل كتابكم الألمان الأعزاء — بأسلوب مشرق ، ثرثار ، خيالى ، مطول . نعم وقد أكون أسرع !!

« وأخذت أبعد الشبهة عنى بمنتهى الحذر والفطنة . وقد أبنت لها فى خطاباتى أن المرسل لا يقيم فى كارينبيا ، بل فى إحدى الصحات المجاورة ، وأنه يأتى كل يوم إلى كارينبيا إما بالقارب أو بالباخرة . فكانت كلما سمعت رنين جرس الباخرة المقتربة ، تنتحل الأعذار وتفلت من رقابة العجوزين وتندفع نحو البحيرة ، وفى ركن الرصيف تقف — وهى ممسكة أنفاسها — ترقب النازلين

« ومرة بعد ظهر أحد الأيام الراكدة — ولم يكن لى ما أفعله أفضل من مراقبتها — حدث حادث هام : ذلك أنه كان بين القادمين شاب مهندم يرتدى زى شبان الايطاليين فى غاية الانسجام والأناقة ؛ وعند ما أدار طرفه بين المستقبلين ، التقت نظرته بتلك النظرة العميقة الباحثة فى يأس وقنوط ، المتسائلة ، نظرة فتاتنا الصغيرة ، وسرعان ما اجر وجهها الصغر من فرط الخجل

« ثرت الشاب وانتبه — كما يحصل دائماً لكل من تصادفه مثل تلك النظرة النافذة — وتنهد ثم أخذ يقترب منها ... أما هى فانسابت بين الأشجار ثم وقفت قليلا لتتحقق إذا كان هو العزيز المنتظر . ثم أسرعت فى الابتعاد متلفتة حولها ثانية .. إنه الكفاح الأزلى بين الارادة والخوف ، بين الرغبة والعار ، والأقوى فيه دائماً هو ذلك الضعف الحلو اللذيذ

« ومن الواضح أن الشاب قد تشجع ، وبالرغم من العجب الذى أصابه ، أسرع فى أثرها . فتولانى خوف من أن كل شئ قد ارتبك واختلط . وفى هذه اللحظة ظهرت السيدتان الألمانيتان على رأس الطريق ، فأسرعت الفتاة نحوهما كالطير المذعور . فتقهقر الشاب بحذر ولكنه التفت مرة ثانية والتقت نظراتهما اللهبية التى أصابت كلا منهما فى الصميم

« وفى أول الأمر انتهى هذه الحادثة إلى أن أنهى هذا الدور الذى كنت ألعبه ، ولكن التجربة كانت لم تزل على أشدها ، وعزمت على أن أغتنم هذه الحادثة . ففى المساء حررت لها خطاباً مطولاً أكدت فيه حسمها ، وكنت سعيداً جداً بأننى سأضرب عصفورين بحجر

« وفى صباح اليوم التالى ، راعتنى منها تلك النظرات الحائرة فى عينيها ، فقد خضعت تلك الجميلة الضجور لسكون عصبى غامض ، واحرجت عيناها وتندت من كثرة الدموع التى انسكبت ، وكأنما سكن فى أعمق أعماقها ألم قاتل . وخيل إلىّ أن سكونها هذا كالهدوء الذى يسبق الزوبعة العاتية ؛ وبدأت أشعر بالخيبة بعد أن كنت أبنى السرور الخالص ، فلم تطع الراقصة ولم ترقص كما كنت أود

« أنمت النظر فى كل احتمال ، ولكننى لم أهتد إلى حل موفق . وبدأ يروعنى نصيبى فى هذه المسئلة ، ولكنى أتجنب نظراتها الشاكية الباكية . لم أعد إلى النزل حتى المساء . فلما أبت تذكرت كل

2017-11-14 23:03:03

شيء . فالأسرة لم تشغل ، والعائلة قد رحلت ، وهي قد أُرغمت على الرحيل دون أن تتمكن من التنعم بكلمة واحدة يسرُّها لها الحبيب ، ودون أن تعلن لديوبها كيف أن قلبها سكن يوماً واحداً بل لحظة واحدة إلى حبيبها المحبوب . استيقظت من حلم حلو لتعيد لترحل إلى إحدى القرى القاتمة تحتر أحلامها الخائبة .

« فأنى كل ذلك ، والآن يهمي ويشعرني العار تلك النظرة الأخيرة الباكية ، وهذا المريج الخفيف من الغضب والعذاب واليأس القاتل والأسف الحاد الذي سببته لها بسوء تصرفي »

أحاطنا الليل بظلمته ، وتسرب ضوء القمر — الذي يطل بنصف وجهه من بين السحب — من بين الأشجار كالحيات تسعى ؛ وزاد المكان روعة شحوب النجوم وسكون البحيرة الميتة . مشينا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، وقد غرق رفيقي في تخيل عميق . وأخيراً قال :

« تلك هي القصة ! ألا تصلح لأن تكون قصة جيدة ؟ »

« لا أدري ، إنها قصة سأحتفظ بها بين قصص الحياة العديدة . وعلى الرغم من قصرها ربما يسترعي الانتباه فقرة جيدة تلمح من بين سطورها القليلة . إنها بداية ولا بد من خاتمة لها »

« آه ! فهمت ما ترمي إليه حياة الفتاة وعودتها إلى القرية ، والمأساة المرعبة في المكان المعلوم ... ؟ »

« لا ... ليس هذا بالمحال ، فالفتاة لم تذهب بعيداً في مسرتي . فالفتيات الصغيرات عادة لا يسبين سروراً إذ يعتبرن أنفسهن كاملات التجارب ، ولا سيما وأن موقفهن سلبي . وعلى ذلك فكلهن متشابهات . وإليك مثلاً : فالفتاة في هذه الحالة ، عند ما يحين الوقت الذي فيه تتزوج من شاب متمدن متوسط الطبقة فاضل ، لا يتألق في خيالها إلا الورود الملتهبة اليائسة والأحلام الخانقة الخانعة حول الزوج العزيز ؛ أما حقيقة الحياة ومهارتها فلن تمر لها بخاطر ... لا ... لا ... أنا لا أسر بالفتاة الصغيرة »

« هذا غريب ! ولا أدري أي سرور تجده في الشاب ، فإن مثل تلك النظرات الملتهبة تصادف كل إنسان في شبابه ، إلا أن معظمهم لا ينتبهون لها مطلقاً وبعضهم ينسونها سريعاً . ويجب أن تتقدم بالمرء السن حتى يعلم أنها ربما كانت أشرف وأعمق تجارب الوجود وأعظم امتياز مقدس لعهد الشباب ... »

« إنه لا يرضيني الشاب الصغير أيضاً ... »

« إذن ؟ »

« سأحدد موقف الرجل العجوز ، كاتب الخطابات ، وأصور مقاومته ... لا أظن أنه يوجد مخلوق مهما بلغت به السن ، في قدرته أن يحرر الخطابات الغرامية الملتهبة ويلم بالحب ثم يخشى اللوم والتقريع ... سأحاول أن أصف — مستنبطاً من مجرد الحقيقة — كيف تنعم العاطفة وتترعرع فتستبد به وتتسلط على تفكيره وتصرفاته في الوقت الذي يخيل إليه فيه أنه المسيطر على عواطفه الضابط لها ... فجمال الفتاة المشرق — في الوقت الذي يعتبر نفسه كالمتفرج اللاهي به — يجذبه ويسبيه ، ثم يؤثر فيه ويمكن في أعماقه البعيدة ، وعند ما يفقد كل مقاومة ، تتنبه فيه رغبة جامحة للنزال والهروب ولكن هيهات ... وتلك هي الملهاة ؛ وهذا الرد فعل (الانعكاس) للحب — الذي يجعل العاطفة في العجوز والشاب متشابهة تماماً — هو الذي يسرني

« سأصور شعوره بالخوف ، وسأظهره غير مستقر ، يضرب في الأرض باحثاً عنها عسى أن

يراها ، ولكنه لا يجرؤ على الوصول إليها . سأجعله يكر راجعاً لنفس المكان الرهيب آملاً أن يجدها مرة ثانية ، يستجدى القادر أن ترحمه ولكنها لم تزل ثابتة على قسوتها حتى اللحظة الأخيرة .. بهذه النتيجة وبتلك الصور سيتم بناء القصة الصغيرة ..»

« كذب ، خداع ، غير ممكن ...! »

فزعت وجفلت من صوت رفيق الذى قطع علىّ قولى بقسوة وتهديد ، ولأننى لم ألاحظ عليه من قبل مثل تلك الثورة العاطفية . وفى لمح البصر أخذت أستعيد فى خيلتى ماعساى أكون قد جرحت إحساسه به فى غير وعى منى ، فإذا به يقف فجأة وقد بدت على تقاسيم وجهه آثار الألم الذى يحسه . ورغبت فى أن انسحب سريعاً ، وأغير موضوع الحديث ، ولكنه تنبه ثانية وعاد يتم حديثه بصوت هادئ عميق ممزوج بعصبية محببة :

« قد تكون على حق ، وهذا فى الواقع سار جداً ، فالحب يكلف المجائز غالياً . وأنذكر أن بإزائك قد جعله عنواناً لإحدى قصصه الشجية المثيرة للعواطف . ولا شك أن كثيرين غيره سيكتبون تحت العنوان نفسه ، ولكن كبار السن منهم — الذين يعلمون أسرار ذلك — سيقتصرون على ذكر وقائع النجاح والفوز دون الاخفاق والهزيمة مطلقاً . إنهم يخشون أن يكونوا سخرية فى مواقف لاتنتهى حتى يسكن رقاص الزمن الأزلى . وهل تعتقد حقيقة أن تلك الفصول من مذكرات كازانوفا ، التى تصف المفاجآت التى تفجأنا فى سن متقدمة قد فقدت ؟؟ كلا ... إننى أعتقد أن قلبه ويده قد هرما قبل أن يتمها ...»

بسط إلىّ رفيق العجوز يده وقد أتم قوله بصوت ينم عن البرود والتحجر :

« ليلة سعيدة أتمناها لك ، ولو أنى أرى ، أنه من الخطر أن تحكى للشباب قصص ليالى الصيف المثيرة . إنها سرعان ما تلهب فيهم العاطفة اللاهبة ، وتتركهم نهباً للأحلام السخيفة والأمانى الباطلة ... مساء الخير ! ! »

وغاب فى ظلام الليل بخطواته التى لم تُخفت من وقعها السنون إلا قليلاً . وكان الوقت متأخراً ، ولكننى أحسست بضيق طالما يصيبنى لسبب حرارة الليل وفورة الدم فى عروقى عند المعركة أو حينما يكون المرء صريع تجربة مجهولة — فى لحظة محزنة —

فانسبت فى الطريق المظلم الموصل إلى ثيلا كارلونا ، التى تنحدر درجاتها المرمرية حتى تغمرها مياه البحيرة ، فجلست على حجر أحسست برودته ، وكان الليل عجيباً وأنوار بلاجيو التى كانت تنساب من بين الأشجار كالعود الملهب المتوهج تبدو الآن بعيدة بعداً شاسعاً تلمح فوق سطح البحيرة ، وأخذت تختفى تدريجياً واحدة إثر واحدة حتى لف المكان ظلامٌ شامل مخيف . ولم يؤنسنى فى وحشتى إلا خفقان الأمواج وهى تصطفق على درجات السلم ، وإلا خفقات النجوم اللامعة فى السماء الشاحبة اللانهائية . وبين لحظة وأخرى تنفجر إحدى النجوم وتنقضُ فى ظلام الليل المرعب كالسهام الطائشة . تُرى إلى أين تسقط وتستقر ؟؟؟ ... فى الوديان والجبال وفى أعماق البحار البعيدة . ولا شك أنها تنقذف بقوة طائشة مثل حياة أُلقيت من علٍ فى أعماق أقدار مجهولة

أحمد فتحى عبد التواب

2017-11-14 15:06:03

شمعدانات الأسقف

مسرحية فى فصل واحد

لنورمان ماكنيل
ترجمة "الناقص"

زمن القصة
أوائل القرن التاسع عشر

مكان القصة
فرنسا على بعد ثلاثين ميلا من باريس

الاشخاص
الأسقف
المجرم
برسوميه (أخت الأسقف ، أرملة)
ماري
ضابط
جند

المنظر
المطبخ فى كوخ الأسقف ، وهو نظيف ومؤثث باللازم من الأدوات .

يوجد به ثلاثة أبواب : باب إلى اليمين ، وباب إلى اليسار ، وباب فى الركن الأيسر . وتوجد نافذة فى الركن الأيمن . وفى أدنى اليمين موقد نقيل ، وأمام باب الركن الأيسر مقعد من خشب البلوط عليه مخدات ، وتحت النافذة مائدة عليها أدوات الكتابة وصليب من الخشب ، وإلى يمين النافذة ساعة تملأ كل ثمانية أيام ، وفى أقصى اليسار دولاب للطبخ ، وفى الركن الأيمن مائدة للأكل من خشب البلوط ، ويوجد غير ذلك كراسى وكتب وأشياء أخرى... ويظهر فى خارج المطبخ منظر غابة شتوية . على رف الموقد شمعدانان غابة فى الجمال يظهران كأنهما غريبان وسط هذه الأشياء

(عند رفع الستار ترى ماري وهي تلاحظ الحساء الذى على النار وبرسوميه وهى تطوى بعض الملابس)

برسوميه — ماري ألم يغل الحساء بعد ؟

ماري — لم يغل تماماً يا سيدتى

برسوميه — كان من الواجب أن يغلى الآن . إنك لم تلاحظى النار جيداً أيتها الطفلة

ماري — ولكن الذى أشعل النار هو أنت يا سيدتى

برسوميه — لا تجيبينى بمثل هذه اللهجة الجافة

ماري — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إذن لا تدعينى أعود إلى تأنيبك

ماري — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إنى لأعجب أين يكون أخى الآن (تنظر إلى الساعة) لقد جاوزت الحادية عشرة ولم يعد بعد ... ماري !

ماري — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألم يترك لى نيافة الأسقف رسالة ما ؟

ماري — كلا يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك عن وجهته ؟

ماري — بلى يا سيدتى

برسوميه — (مقلدة إياها) بلى يا سيدتى ... إذن لِمَ لَمْ تخبرينى بذلك أيتها الحمقاء ؟

الستر نورمان ماكنيل كاتب هذه الرواية من كبار عظماء المسرح الانجليزى الحديث ، لا كؤلف فانه لم يؤلف غير روايتين غير هذه الرواية ، وإنما كممثل يتزعم مدرسة التمثيل الطبيعي غير المتكلف

وقد اقتبس هذه الرواية ذات الفصل الواحد من قصة فيكتور هوجو العظيمة (البؤساء) . وقد أبدى براعة فائقة حتى ضمن هذا الفصل الواحد حادثة جان فالجان (المجرم) مع نيافة الأسقف ولكوم Welcome التى تستغرق الفصول الثانى حتى الثانى عشر من كتاب فانتين مع المحافظة على روح القصة الأصلية

2017-11-14 06:06:03

مارى — إنك لم تطلبي مني ذلك يا سيدتى

برسوميه — ولكن ليس هذا بالسبب الذى يدعوك إلى عدم إخبارى

مارى — لقد طلبت منى سيدتى هذا الصباح عدم الثرثرة ، ولذا ظننت ...

برسوميه — لقد ظننت ! آه ... يا إلهى ... لا فائدة منها مطلقاً

مارى — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألا تكفي عن « نعم يا سيدتي » هذه أيتها البيغاء الغبية ؟

مارى — بلى يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك الأسقف عن وجهته ؟

مارى — لقد ذهب إلى والدتى يا سيدتى

برسوميه — أحقاً ذهب إلى والدتك ؟ ! ... لماذا ؟ ... أرجوك

مارى — لقد سألنى نيافته عن صحتها فأخبرته أنها ليست على ما يرام

برسوميه — لقد أخبرته أنها ليست على ما يرام أليس كذلك ؟ ولذا غادر أخى البيت دون عشاء لأنك أخبرته ذلك . إنك تستحقين الشكر !

مارى — إن الحساء يبقى يا سيدتى

برسوميه — إذن أعديه فى الأطباق ولا تكثرى من الكلام أيتها الغبية (يكاد مارى أن تقول ذلك) لا ... لا ... ليس كذلك ... دعى ذلك لى وضعى أنت الملح على المائدة ... الملح الفضية

مارى — الملح الفضية يا سيدتى ؟

برسوميه — نعم الفضية ... ألا أنت صباه إلى جانب غبائك ؟ !

مارى — لقد بعت يا سيدتى

برسوميه — بعت ! (بفزع) بعت ! ... أجننت ؟ ... ومن ذا الذى باعها وله ؟

مارى — لقد طلب منى نيافة الأسقف بعد ظهر اليوم وأنت فى الخارج أن أذهب بها إلى السيد جرفيه وأبيعها منه بأكبر ثمن ممكن

برسوميه — ولكن ليس لك أن تفعلى ذلك دون استشارتى

مارى — (بحزن) ولكن ، يا سيدتى ، لقد طلب منى نيافته ذلك

برسوميه — إن نيافة الأسقف ليس إلا ... إ ... إ ... ولكن ما سبب حاجته إلى المال ؟

مارى — عفواً يا سيدتى ولكنى أعتقد أنه ما فعل ذلك إلا من أجل الأم جرنجوار

برسوميه — أحقاً الأم جرنجوار ؟ ... الأم جرنجوار ! ... تلك الساحرة التى تسكن فى أعلى الربوة والتى تكسل عن ترك فراشها للبحث عن القوت ، وما حاجة الأم جرنجوار إلى المال ؟

مارى — لقد مرّ عليها المحصل وأخبرها أنه لا يمكنه الانتظار أكثر من ذلك وهددها بالطرد إن لم تدفع إيجار مسكنها ، ولذا أرسلت جان الصغير ليطلب مونة القس و ...

برسوميه — يا إلهى .. لا فائدة .. لا فائدة .. سيضيع منا كل شىء .. فقد بيعت ممتلكاته وذهبت مدخراته وضاع أمانه ؛ ولولا مهري الصغير لتناجوعاً ... والآن جاء دور عمالحي (بتهد) ملاحاتى الجميلة ... إن هذا لكثير ... كثير ... (تتنهر باكية)

مارى — إنى لآسفة يا سيدتى ... لو كنت أعلم ...

برسوميه — آسفة ؟ ولِمَه ؟ ... أرجوك ... إن نيافة الأسقف لو أراد أن يبيع سماحه لما عارضه إنسان ... هيا اغسلي يديك فإنهما قذرتان

مارى — نعم يا سيدتى ...

(تقصد جهة الباب ... يدخل الأسقف من باب الركن)

الأسقف — آه ... ما أشدّ هـذا البخار — إنه ليستحق أن يذهب الإنسان خارجاً فى البرد القارس حتى يستمتع بالدفء عند رجوعه ثانية !

(تسرع برسوميه وتساعده فى خلع معطفه فى حين تنحى مارى لتحيته)

شكراً يا عزيزتى (ينظر إليها) ماذا حدث ... ؟ إنك تبكين ... هل ضايقتك مارى (يهز أسـبعه فى وجه مارى كأنه يهددها) آه !

برسوميه — لم تفعل مارى شيئاً ... ولـكن ... ولـكن ...

الأسقف — حسن ... ستخبرينى عاجلاً . والآن هيا إلى المنزل يا مارى ... إن والدتك أحسن من ذى قبل . لقد صليت معها وقد عادها الطبيب .. هيا أسرعى (تضع مارى جاكيت على كتفها وتهم بالخروج) وإذا كانت والدتك مستغرقة فى النوم فالزمى السكون

مارى — أوه ، شكراً ، شكراً لنيافتك

(تذهب إلى باب الركن وعند ما تفتحه يندفع الثلج داخلا)

الأسقف — مارى ... خذى كوفيتى هذه لعلها تقيك برد هذه الليلة القارس

مارى — (بخجل) أوه .. كلا ياصاحب النيافة

برسوميه — ما هذا الهراء يا أختى ؟ ... إنها صغيرة ولن يؤثر فيها البرد

الأسقف — برسوميه ! ... إنك لا تعلمين مقدار البرد فى الخارج لأنك لم تتركى المنزل .. مارى! دعينى أدثرك بها (يفعل ذلك) والآن أيتها الطفلة هيا أسرعى إلى المنزل

(تخرج مارى من باب الركن)

برسوميه — لقد عيل صبرى عليك يا أخى ... هيا اجلس واشرب حساءك فقـد برد من طول الانتظار

الأسقف — ما أبدع رائحتها !

برسوميه — إنى لأعتقد أن والدة مارى ليست مريضة إلى الحد الذى يدعوك إلى زيارتها فى مثل هذه الليلة . و إنى لعلى ثقة من أن هؤلاء الناس إنما يدعون المرض حين تزورهم دون أن يفكروا فى تعيبك

الأسقف — إنهـا لمكرمة منهم أن يحاولوا رؤيتى !

برسوميه — هذا حسن ، ولـكننى أعتقد أن الحسنة تبدأ فى منزل المحسن أولا

الأسقف — ولقد أعددت لى هـذا الحساء اللذيذ ! ما أطيب قلبك نحوى يا أختى

برسوميه — إننى أيضاً أرى أننى طيبة القلب نحوك ، ولعلنى إذا تخليت عنك لـكنت شحيحة كذلك العاطلين والـكسالى

الأسقف — إذا كذبنى الناس فهذا دليل على أنهم أفقر منى ولست أنا الفقير

برسوميه — ولـكن هذا تهور ؛ وسيأتى اليوم الذى تصبح فيه معدماً فقد بعت كل شىء ... كل شىء ! !

الأسقف — ما أكثر آلام الحياة يا أختى العزيزة ؛ وإننى لن أستطيع أن أخفف من هـذه الآلام إلا القليل (يتنهد) القليل جداً

برسوميه — حقاً إن الآلام كثيرة ولـكنك

لا تفكر فى الآلام التى تسببها لمن يحبونك ... الآلام التى تسببها لى أنا

الأسقف — لك أنت يا أختى العزيزة ؟ هل آذيتك ؟ ... آه ... لقد تذكرت أنك كنت تبكين ؛ أكان ذلك لخطأ ارتكبته نحوك ... لم أكن أقصد إلى إيذائك ... إنى آسف

برسوميه — آسف ... وهل يستطيع الأسف أن يصلح ما حدث ... ؟ هيه ... ! هيا اشرب حساءك قبل أن يبرد

الأسقف — حسن ياعزيزتى (يجلس) ولكن خبرينى ...

برسوميه — إننى لا آمن عليك وأنت بعيد عن نظرى كالطفل سواء بسواء ، فقد انتهزت فرصة غيابى وأرسلت هذه النبية مارى لتبيع المالح الفضية

الأسقف — آه ... المالح الفضية ... إنى لأذوب شفقة عليك فقد كنت ... كنت مخورة بها

برسوميه — إنها تراث عائلى قديم ، ولما كان من الطبيعى أن أخبر بها

الأسقف — إنى لأشفق عليك فقد كانت مملحات قديمة ، ولكننا نستطيع أن نستعمل مملحتان صينية بدلاً منها

برسوميه — نعم نستطيع ذلك بل ونستطيع ألا نجد ما نأكله ، وستكون هذه خاتمتنا ... إنى لأعجب من جرأة تلك العجوز الأم جنيجوار فقد وجهت إليها بضع كلمات قاسيات كنت أحسبها ستبعدها عنا نهائيًا

الأسقف — نعم رفضت طلبى حينما أردت أن تبقى بيننا بضعة أيام وقالت إن هذا ربما يسوءك

برسوميه — يسوءنى !

الأسقف — وقد رفض المحصل — وهو كما تعلمين رجل عمل لا تلين عاطفته — رفض أن تبقى ولو ليوم واحد دون أن تدفع ما عليها ، ولما فأنت ترين أنى كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار

برسوميه — كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار؟! (علامة يأس مضحكة)

الأسقف — نعم كنت مضطرًا ، ولما لم يكن معى من المال ما يكفى فقد ضحيت بالمالح ... إنه لمن حسن الحظ أن كانت عندى ... أليس كذلك ؟ (يبتسم) ولكننى آسف إذ أحزنتك

برسوميه — إنك لو استمررت على هذه الحالة الخائطة فسيأتى اليوم الذى تبيع فيه شمعداناتك

الأسقف (بعزم) — لا لا يا أختى ... ليست شمعداناتى

برسوميه — ولِمَ لا ؟ أظن أنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس

الأسقف — إنها لحسنة منك يا أختى أن تفكرى فى ذلك ولكن ... ولكنى لن أبيعها ... لعلك تعلمين أن والدتى قد أعطتنيها وهى على سرير الموت بعد ولادتك مباشرة ، وقد طلبت منى أن أحتفظ بها لأذكرها دائمًا ، ولما فلن أبيعها ... ولكن لعلى غطىٌ فى الإبقاء على مثل هذه الثروة

برسوميه — أخى ... أخى ... إنك تملأ قلبى حزناً (بصوت باك) كفى يا أخى ولا تقل شيئاً ... هيا قبلنى وأعطنى بركتك فسأذهب إلى الفراش (يقبلها ثم يرسم علامة الصليب ويضع بعض الأدوية بينما تغلق برسوميه الدولاب بالمفتاح ثم تذهب إلى الباب الأيمن)

لا تقرأ كثيراً فتتعب عينيك

الأسقف — كلا يا عزيزتى ... مساء الخير (تذهب برسوميه من الباب الأيمن ويذهب الأسقف إلى

المائدة حيث يفتح كتاباً ثم ينظر إلى الشمعدانات) إنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس ... إنها لحسنة منها أن تفكر فى ذلك (يقلب الدار ويصلح المصباح ويرتب بعض الكتب والأوراق ثم يجلس ولكن تظهر عليه علائم الراحة وتمر وعدة خفيفة . تدق الساعة فى الخارج الثانية عشرة فيجلس ليقرأ . تسمع أثناء ذلك موسيقى)

المجرم — (يدخل متلصصاً وفى يده خنجر كبير ويقف خلف الأسقف) ستصبح جثة هامدة إن حاولت الصياح

الأسقف — ولكن لِمَ أصيح أيها الصديق وأنا — كما ترى — ماض فى قراءتى ... هل من خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

المجرم — (بخشونة) أريد طعاماً فانى أموت جوعاً ... لم يدخل جوفى شىء منذ ثلاثة أيام ... قدم إلىّ الطعام سريعاً ... سريعاً عليك اللعنة !

الأسقف — (متلهفاً) نعم يا ولدى سآتيك بالطعام حالاً ... انتظر قليلا حتى أطلب من أختى مفتاح الدولاب (يقف)

المجرم — إجلس مكانك ! (يجلس الفتى مبتسما) لا شىء من هذا أيها الصديق ! لست بالطائر الصغير حتى تقتنصنى بمعض الحب . ستطلب من أختك المفاتيح أليس كذلك ؟ خدعة مسبوكة حتى تستطيع إيقاظ كل من فى البيت . ها ها ! ما أحسنها هذه المزحة ! أرنى أين الطعام فانى لا أحتاج إلى مفاتيح . إن فى بطنى ذئباً يقطع أحشائى . أسرع وأخبرنى أين الطعام

الأسقف — (مخاطباً نفسه) كم أود ألا تنقل برسوميه هذا الدولاب ! (مخاطباً المجرم) لِمَ الخوف يا صديقى ولا يوجد فى المنزل إلا أنا وأختى ؟

المجرم — وأنى لى أن أعرف صدق هذا القول ؟

الأسقف — لقد أخبرتك أنا به

المجرم — (ينظر إلى الأسقف طويلا) هيه ... سأخاطر بحريتى

الأسقف — (يذهب إلى الباب الأيمن)

المجرم — ولكن لا تحاول أن تخدعنى فانك إن خدعتنى فسرعان ما أغرس خنجرى هذا فى قلبك . ولتكن متيقناً من قولى هذا يقينك أن جهنم مليئة بالشياطين . ولتعلم أنى لن أتحسر شيئاً إذا ما قتلتك

الأسقف — إنك ستفقد روحك يا بنى وهى أغلى من قلبى (ينادى عند الباب الأيمن) : برسوميه ... برسوميه

المجرم — (يقف خلف الأسقف على استعداد لقتله)

برسوميه — (من الداخل) نعم يا أختى

الأسقف — أرجو إن لم تكونى قد خلعت ملابسك أن تحضرى لفتح الدولاب حتى أقدم عشاء لجوال فقير قد عضه الجوع بنابه

برسوميه — (من الداخل) فى مثل هذا الوقت المتأخر ؟ ما أجل هذا العمل ! ألا تستطيع النوم قليلا دون أن يزعجنا أحد هؤلاء الرجل الذين لا يجدون عملا ؟

الأسقف — ولكن الجوال جوعان يا برسوميه

برسوميه — (من الداخل) حسن ! سأحضر (عند ما تدخل برسوميه من الباب الأيمن ترى الخنجر فى يد المجرم تخطول بفزع) أختى ما الذى سيفعله بهذه السكين ؟

الأسقف — السكين ... آه ... لعله حسبنى قد ... قد بعت سكاكينا (يضحك بهدوء)

برسوميه — (مسرة إلى الأسقف) أخي ، إني فزعة ، ألا ترى نظراته إلينا يتطاير منها الشرر ؟

المجرم — ألا تسرعان ... هيا أحضرا الطعام وإلا أغمدت سكيني في جسميكما كليهما وفررت

الأسقف — أعطني المفاتيح يا برسوميه (تعطيه إياها) . والآن ، يا عزيزتي ، في وسعك أن تذهبي إلى فراشك (تهم برسوميه بالذهاب إلا أن المجرم يقفز حتى يقف في طريقها)

المجرم — قفي ! فلن يغادر أحدكما هذه الغرفة قبل أن أفعل أنا ذلك (تنظر إلى الأسقف)

الأسقف — أظن أن هذا الصديق المهذب (Jentleman) يريد أن تتعطفي وتجالسيه أثناء الطعام فهل أنت فاعلة ؟

برسوميه — حسن يا أخي (تجلس إلى المائدة وهي تلاحظهما)

الأسقف — هاك طبقاً من اللحم وزجاجة من الخمر وقليلا من الخبز

المجرم — ضعها على المائدة وقف أمامي حتى لا تغيب عن ناظري

الأسقف — (يفعل ذلك ثم يفتح درج الدولاب ويخرج منه سكينة وشوكة ثم ينظر إلى الخنجر في يد المجرم

المجرم — إن سكينتي لحادة (يمرر يده على حد الخنجر وينظر إليهما نظرة ذات معنى) أما عن الشوكة (يمسكها بيده) باه ! حديد (يرميها بعيداً) لم نكن لنستعمل الشوك في السجن

برسوميه — السجن ؟

المجرم — (يقطع من اللحم قطعة كبيرة مستعملا في ذلك أصابعه وكأنه حيوان جائع) ما هذا (ينظر إلى الباب) لم يحن الشيطان تترك النوافذ والأبواب دون إغلاق ؟ إن ذلك يجعل دخول أي شخص هنا من السهولة بمكان .

الأسقف — وهذا سبب تركها دون إغلاق

المجرم — حسن ، لقد أغلقت الآن

الأسقف — (يتنهد) للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً

المجرم — (يأكل بشره ثم يرمي بإحدى العظام على الأرض)

برسوميه — أوه ! البلاط الجميل النظيف !

الأسقف — (يلتقط العظمة ويضعها في أحد الأطباق)

المجرم — ألا تخشى اللصوص ؟

الأسقف — إني أشفق عليهم

المجرم — تشفق عليهم ؟ ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر من الزجاجة) هذا جميل ، تشفق عليهم ، ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر) (فجأة) ماذا تكون بحق الشيطان ؟

الأسقف — إنى قس

المجرم — ها ها ها ! قس ، يا للعذراء المقدسة ، قس ، حسن ، لقد أصبحتُ ملوناً .

الأسقف — تستطيع أن تكون مباركاً .

برسوميه تستطيعين أن تتركنا وحدنا وأظن أن صديقي هذا لن يمانع في ذلك

برسوميه — أأتركك مع ...

الأسقف — أرجوك ... إننا نستطيع إذ ذاك

— صديقي وأنا — أن نتكلم بحرية أكثر من الآن

المجرم — (بسبب الجوع يكون في هذه الأثناء قد تأثر بفعل الخمر) ما هذا ؟ أتتركنا ؟ نعم ، نعم ، فلتتركنا ، مساء الخير فإني أود أن أحادث القس ، القس ، ها ها (يضحك في أثناء شربه ويكح)

2017-11-11

الأسقف — مساء الخير يا رسوميه (يفتح الباب الأيسر لرسوميه فتخرج منه ولكنها عند ما تمر بالمجرم تقوم نحوها إليها)

المجرم — (يخاطب نفسه مسروراً) قس ، هاها ! حسناً ، إني ... (يرفع صوته بغتة) ألا تعرف من أنا ؟

الأسقف — أظنك أحد أولئك الذين قاسوا كثيراً من المتاعب

المجرم — قاسيت (مرتبكا) قاسيت ؟ يا إلهي هذا حق (يضرب) ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد ، ها ها كان هذا أيام أن كنت رجلاً أما الآن فلست رجلاً ، لست إلا رقماً ، رقم ١٥٧٢٩ ، وقد عشت في الجحيم عشر سنوات

الأسقف — أخبرني عنها ... عن الجحيم

المجرم — لماذا ؟ (منشككا) ألأنك تريد أن تخبر رجال الشرطة عني فيقتفوا أثري ؟

الأسقف — كلا ، لن أخبر رجال الشرطة

المجرم — (ينظر إليه متمعناً) إني أصدقك (يهز رأسه) ولتحل اللعنة عليّ إن علمت لماذا أصدقك

الأسف (يضع يده على ذراع المجرم) — أخبرني عن الوقت ... الوقت الذي سبق ذهابك إلى ... إلى الجحيم

المجرم — كان ذلك منذ زمان بعيد وقد نسيته ؛ إلا أني أذكر أنني كنت أسكن كوخاً منعطي بكرمة متسلقة (وكأنه يحلم) . لشد ما كان منظر الكوخ والكرمة تراثاً في غروب الشمس و... وكانت هناك امرأة ... وقد كانت (يفكر) أظنها كانت زوجتي . نعم (بغتة وبسرعة) نعم ، لقد تذكرت ! لقد كانت مريضة ولم يكن عندنا طعام فقد كنت عاطلاً ، وكانت سنة ما أشدها ، وكانت زوجتي ، حبيبتي جانيت ، كانت مريضة تموت (فترة صمت) ولما سرقت لأشتري لها طعاماً (فترة صمت طويلة يربت الأسقف على يده بلطف) قبضوا عليّ وكان جوابهم عن دفاعي وعن ذكر سبب السرقة الحكم عليّ بالسجن عشر سنوات في سفن السجن (فترة سكون) عشر سنوات في الجحيم . وفي نفس الليلة التي قبض عليّ فيها أخبرني السجان أن زوجتي حبيبتي جانيت ... ماتت (تضطرب كلماته من الغضب) آه ... عليهم اللعنة ... عليهم اللعنة ... فليلعنهم الله جميعاً (يبكي على المائدة وهو يبكي)

الأسقف — أخبرني الآن عن سفينة السجن . عن الجحيم

المجرم — أأخبرك عنها ؟ إسمع ... لقد كنت رجلاً يوماً ما ... أما الآن فلست إلا حيواناً ضارياً وهم أنفسهم الذين جعلوا مني ذلك الحيوان ... كانوا يقيدونني بالسلاسل كالحيوانات المفترسة ويجلدونني كالكلاب سواء بسواء . كنت أعيش على الأقذار ، وكان جسمي مغطى بالحشرات الطفيلية ... كنت أنام على ظهر السفينة وكنت أتألم . ثم أخذوا يجلدونني ثمانية . عشر سنوات ... عشر سنوات . آه يا إلهي ! لقد انتزعوا مني اسمي وروحي وأعطوني بدلاً منها شيطاناً يكمن في أعماق نفسي . وفي أحد الأيام أهملوا فلم يقيدوا حيوانهم المفترس بسلاسلهم فـ ... هربت وأصبح حرًّا ، وكان ذلك منذ ستة أسابيع ... لقد أصبحت حرًّا ... أصبحت حرًّا لأجوع

الأسقف — لتجوع ؟ !

المجرم — نعم لأجوع . إنهم يطعمونك في

2017-11-11 Facebook

الجحيم ، فإذا ما هربت فلن تجد ما تقبلع به . كانوا يتعقبونني في كل مكان ولم يكن معي أوراق لتحقيق الشخصية وكنت جائعاً ... فسرقت ثانياً . سرقت هذه الخرق التي تغطي جسدي ... سرقت طعامي يوماً بيوم . كنت أنام في الخانات والأخراج وفي كل مكان . لم أكن أستطيع العمل ، ولم أجسر على الذهاب إلى المدن الكبرى لأتسول ، ولهذا سرقت ... أصبحت لصاً ... ولكنهم هم الذين صيروني هذا اللص ... فليلعنهم الله جميعاً . (يفرغ بقية زجاجة الخمر في جوفه ثم يرميها في الدفأة حيث تتهشم)

الأسقف — لقد قاسيت كثيراً يا بني ولكن لا تيأس من الأمل

المجرم — الأمل ! الأمل ! ها ها ها ! (يضحك بقسوة)

الأسقف — لقد مشيت كثيراً وأظنك تعباً فلتستريح قليلا على هذه الأريكة . اضطجع عليها وسآتيك ببعض الأغطية

المجرم — وإذا ما حضر إلى هنا أي فرد

الأسقف — لن يحضر أحد .. وحتى لو حضر أي شخص كان ، أفلست صديق ؟

المجرم — (مرتبكا) صديقك ؟

الأسقف — لايمكن لأي أحد أن يزعج صديق الأسقف .

المجرم — صديق الأسقف ! (يهز رأسه بارتياب)

الأسقف — سأحضر الأغطية (يخرج من باب اليسار)

المجرم — (ينظر حواليه ثم يهز رأسه بارتياب) صديق الأسقف ! (يذهب إلى الدفأة ليتدفأ وإيلقي نظرة على الشمعدانات. ينظر في كل مكان ليتأكد من انفراده في الحجرة ثم يزن الشمعدانات بيديه) فضة بالطبع، وثقيلة . ما أحسنها جائزة ! (وعند ما يسمع صوت قدمي الأسقف قادما يسرع بوضع الشمعدانات في مكانها إلا أنه لسرعته يسقط أحدها على المائدة)

الأسقف — (يدخل فيرى ماحدث ولكنه يذهب إلى المقعد مباشرة ومعه الأغطية) آه ! لقد أخجلتك شمعدانك . إني أخبئ بها فإنها هدية من أبي . لعلها أجمل من أن توضع في كوخ حقير ككوخي هذا ، ولكنها الشيء الوحيد الذي يذكرني بأبي . لقد أعددت لك الفراش . ألا تنام الآن ؟

المجرم — نعم ، نعم ، سأنام (مرتبكا) ، والآن بحق الشيطان لم أنت شـ ... شفوق علي ؟

الأسقف — إني لأود لك نوماً هنيئاً يا صديق

المجرم — إني أعلم أنك تود أن تبشرني ، أن تنقذ روحي كما تقولون ، حسن ... إني لاأريد ذلك أترى ، إني لاأريد أية ديانة ملعونة ، أما عن الكنيسة ، بله ! إني أمقت الكنيسة

الأسقف — إني لأشفق عليك يا بني ، فإن الكنيسة لا تكرهك

المجرم — إنك تحاول تبشيري . أوه ! هاهاها ! يا لها من فكرة حسنة ، هاهاها ! لا ! لا يا نيافة الأسقف إنني لا أريد أي عهد أو أمل أو إحسان أرأيت ؟ إن أي شيء تفعله لأجلي كأنك تفعله لأجل الشيطان، أفهمت ؟ (ينادي)

الأسقف — إن الانسان ليعمل الكثير في سبيل الشيطان ليعمل القليل في سبيل الله

المجرم — (بغضب) لقد أخبرتك أنني لا أريد أية ديانة ملعونة

الأسقف — ألا تنام الآن ... إن الوقت متأخر

الجرم — حسن ... ولكنني لا أريد تلك النصائح الدينية ... أنا ... أنا ... (معتمداً على الاريكة) أوائق أنت من أن لا أحد يستطيع الدخول ؟

الأسقف — لا أظن أن أحداً يفعل ذلك ، ولو فعلوا ... ألست أنت الذي أغلق الباب ؟

الجرم — هيه ! إني لأعجب إن كنت في مأمن (يذهب إلى الباب ويفحصه ثم يرجع فيرى الأسقف واقفاً إلى جانب الاريكة ممسكا بيده الأغلية فيناظره بغضب) ألا تذهب إلى فراشك ... سأغطي نفسي (الأسقف يتردد) لقد قلت لك أن تذهب إلى فراشك

الأسقف — مساء الخير يا ولدي (يخرج من باب اليسار)

الجرم — (حالما يرى نفسه وحيداً يذهب إلى الباب فيفحصه جيداً) ليس بالباب قفل عليه اللعنة (ينظر حواليه فيرى الشمعدانات) هيه ! سألقي عليها نظرة أخرى (يمسك الشمعدانات ويزنها بيديه) إذا صدق حدسي فإنها تساوي مئات . لو كان معي قيمتها ذهباً ، إذن لاستطعت أن أبدأ حياتي من جديد . هيه ! ذلك العجوز معجب وفخور بها لأن أمه أعطته إياها . نعم أمه ، ولكنهم لم يفكروا في أي أنا عند ما أرسلوني إلى الجحيم . لقد كان طيباً نحوي ولكن تلك هي صناعة القسس ... الطيبة ... هيه ... أيها القلب ... لقد أصبحت ليناً ... يا إلهي ... ألا يضحك تردد هذا إخواني في السجن ؟ ألا يضحكهم أن يروا رقم ١٥٧٢٩ يتردد في سرقة شيء بمجرد أنه أصبح يشعر بالطيبة ؟ الطيبة ! ها ها ! أوه يا إلهي ! الطيبة ! ها ها ! رقم ١٥٧٢٩ أصبح ليناً ... هذه مزحة حسنة . ها ها ! كلا سآخذ هذه الشمعدانات وأذهب بها فإني لو بقيت حتى الصباح سيعطي ويزيدني ليناً ... عليه اللعنة هو وعظاته ... والآن فلأذهب ! (يأخذ الشمعدانات ويضعها داخل ثوبه ثم يخرج باحتراس من باب الركن الأيسر وبينما هو يخرج يقفل الباب بشدة)

برسوميه — (من الخارج) من هناك ؟ قلت من هناك ؟ ألا أستطيع النوم مطلقاً ؟ قلت من هناك ؟ (تدخل برسوميه من باب اليسار) إني لواثقة من أن الباب أغلق (تنظر حواليها) لا أحد هنا (تطرق باب الأسقف حينما لا ترى الشمعدانات) الشمعدانات ... الشمعدانات ... لقد ضاعت ... أخي ... أخي ... تعال ... النار ... القتلة ... اللصوص ...

الأسقف — (يدخل من باب اليسار) ما هذا يا عزيزتي ، ما هذا ... ما ذا حدث ؟

برسوميه — لقد ذهب ... ذهب الرجل ذو الأعين الشرهة وأخذ معه الشمعدانات

الأسقف — ليست شمعداناتي يا أختي ... ليست هي (ينظر إلى مكانها وينهد) آه ... هذا لا يطاق ... لا يطاق ... إني ... إني ... كان من الواجب أن يتركها لي ... لقد كانت كل ما أملك (يكاد يبكي)

برسوميه — هذا حسن ، ولكن من الواجب أن نحذر البوليس فانه لم يتمكن بعد من الذهاب بعيداً وسرعان ما يقبضون عليه ويردون لك شمعداناتك إنك لا تستحق هذه الشمعدانات لأنك تركتها أمام عيني مثل هذا الرجل

الأسقف — إنك على حق يا برسوميه ... إنها غلطتي أن أترك الرجل تحت تأثير الرغبة فيها

برسوميه — خزعبلات ... إنك لم تترك الرجل تحت تأثير الرغبة وإنما هي الفصوصية المتأصلة فيه هي التي دفعته إلى ذلك فان الرجل لص وقد لحظت ذلك في اللحظة الأولى التي رأيته فيها ...

إذهب وأخطر الشرطة بالأمر وإلا فسأفعل أنا (تهم بالذهاب ولكنه يوقفها)

الأسقف — وبذلك ترسله ثانياً إلى السجن (بصوت خفون) نسيده إلى الجحيم... كلا يا رسوميه! إنه عقاب عادل لى فقد كان من الخطأ أن أبقى مثل هذه الثروة فى حيازتى ... إنها خطيئة ... وكان عقابى عادلا ... ولكن ... آه يا إلهى ... إن هذا لا يحتمل ... إنه فوق طاقتى (يدفن رأسه بين يديه)

رسوميه — كلا يا أخى إنك مخطىء . إن لم تخطر الشرطة فسأخبرهم أنا . فلا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين بينما أراك تسرق . إنى أعلم أنك أخى وأستغنى وأحسن رجل فى فرنسا ولكنك رغم ذلك مغفل ... طفل ... ولن أستطيع رؤية طيبتك تستعمل لسرقتك ... سأذهب وأخطر الشرطة (تتجه صوب الباب)

الأسقف — قفى يا رسوميه .. إن الشمعدانات كانت تخصنى أنا وهى تخصه هو الآن . وهذا حسن لأنه فى حاجة إليها أكثر من حاجتى إليها ولو كانت أمى بيننا الآن لفضلت إعطاءها له

رسوميه — لكن ... (طرق عال على الباب)

ضابط — (من الخارج) يا صاحب النيافة ... يا صاحب النيافة ... عندنا أمر هام بك فهل ندخل؟

الأسقف — أدخل يا بنى (يدخل الضابط وثلاثة رجال من رجال الشرطة والمجرم وهو مقيد ، الضابط يحمل الشمعدانات)

رسوميه — آه ... لقد قبضوا عليك أيها الشرير!

الضابط — نعم يا سيدتى ... لقد وجدنا هذا المجرم يسترق الخطى فى الطريق ولما لم يستطع إثبات شخصيته فقد قبضنا عليه لتشككنا فيه ... يا للعذراء المقدسة ... ورغم أنه قوى فإنه لم يقاومنا مطلقاً ، وبينما نحن نقوده سقطت هذه الشمعدانات من جيبه

رسوميه — (تأخذها بفرح وتذهب بها إلى المائدة حيث تمسحها بفوطتها بحب وإعجاب)

الضابط — لقد تذكرت أن هذه الشمعدانات تخص نيافة الأسقف ولذا فقد حضرنا إلى هنا لتتمرفوا عليها وبعد ذلك نذهب به إلى حيث يسجن (كل من القس والمجرم كان فى هذه الأثناء ينظر إلى الآخر)

الأسقف — ولكنى ... ولكنى لا أفهم شيئاً ... هذا الشخص هو صديق الصدوق

الضابط — صديقك يا صاحب النيافة ... يا للعذراء المقدسة ! حسن

الأسقف — نعم يا صديقى ... لقد أولانى عطفاً كبيراً حين قبل أن يتناول العشاء معى الليلة ثم أ ... أعطيته هذه الشمعدانات

الضابط — (غير مصدق) أنت أعطيته ... أعطيته هو هذه الشمعدانات ... يا للعذراء المقدسة

الأسقف — (بشدة) تذكر يا بنى أنها مقدسة

الضابط — (محياً يده) عفواً يا صاحب النيافة

الأسقف — والآن ... أظن أنك ستترك سجينك وشأنه

الضابط — ولكنه لم يرنى أوراق تحقيق الشخصية الخاصة به ولم أعرف بعد من هو

الأسقف — قلت لك إنه صديقى

الضابط — هذا حسن ... ولكن ...

الأسقف — إنه صديق أسقفك وأظن أن فى هذا الكفاية

الضابط — حسن ... ولكن ...

2017-11-11

الأسقف — بالتأكيد (فترة صمت) (كل من الأسقف والضابط ينظر إلى الآخر)

الضابط — أنا ... أنا ... هيه ! (لرجاله) أطلقوا سراح السجين (يتركونه) إلى الخلف دُر.. إلى الأمام — بسرعة سر ! (يخرج الضابط ورجاله) (فترة صمت طويلة)

المجرم — (يبطء وكأنه فى حلم) لقد أخبروهم أنك أعطيتنى هذه الشمعدانات ... أنت أعطيتنى إياها ... يا إلهى

برسوميه — (تهز يدها فى وجهه ، ثم تجذب الشمعدانات إلى صدرها وتمسكها بقوة) أوه ... أيها المجرم ... لقد حضرت هنا حيث وجدت المأكل والطعام ثم بعد ذلك تسرق ... تسرق الذين أحسنوا إليك ... أوه أيها الشرير

الأسقف — برسوميه ... إنك عصبية قليلا فاذهبى إلى حجرتك

برسوميه — ماذا ... وأتركك معه وحدك لكن يشك مرة ثانية وربما يقتلك ... لا ... لن أذهب

الأسقف — (بشدة خفيفة) برسوميه ... اتركينا ... إنى أرغب فى ذلك

برسوميه — (ينظر إليه بشدة ثم تتجه إلى حجرتها) حسن ... إذا كان من الضرورى أن أخرج فلا أقل من أن آخذ الشمعدانات معى

الأسقف — (بدة أكثر) برسوميه ! ضعى الشمعدانات على هذه المائدة واتركينا وحدنا

برسوميه — (باصرار) لن أتركها

الأسقف — (بصوت مرتفع شديد جداً) إنى أسقفك آمرك بذلك

برسوميه — (تفعل ذلك بالرغم منها ثم تخرج من الباب الأيمن)

المجرم — (بخجل) يا صاحب النيافة ... إننى لمسرور لأنى لم أذهب بها ... على اللمعة ... إنى ... إنى مسرور

الأسقف — والآن ألا تنام هنا ؟ .. أنظر .. إن الفراش معد لك

المجرم — كلا (ينظر إلى الشمعدانات) كلا ... كلا ... إنى لا أجسر ... لا أجسر ... يجب أن أذهب الآن كى أصل إلى باريس سريعاً ... إنها كبيرة حيث ... حيث لا يستطيع أن يعرفنى أحد ... لن يجدنى أحد هناك ... ويجب أن أسافر ليلاً ... ألا تفهم ؟

الأسقف — نعم ... لقد علمت لِمَ يجب أن تسافر ليلا ؟

المجرم — لم ... لم أكن أظن أنه توجد طيبة على سطح الأرض ... والإنسان لا يمكن أن يظن ذلك إذا ما عاش فى الجحيم ... وعلى كل حال فقد... قد عرفت طيبتك ... و... ولعله يكون شيئاً عجيباً إذا ما طلبت ... ولكن ... ولكن ألا يمكنك أن تعفو عنى قبل أن أرحل ؟ إنى أعتقد أن ذلك سيساعدنى ... أنا ... (يترك رأسه يسقط من الخجل)

الأسقف — (يرسم علامة الصليب ويتمم بعض الأدعية)

المجرم — (يحاول الكلام ، ولكنه يغص دائماً بالبكاء) مساء الخير (يسرع جهة الباب)

الأسقف — انتظر يا ولدى ... لقد نسيت بعض ممتلكاتك (يعطيه الشمعدانات)

المجرم — أتقصد أنى ... أريد إعطائى الشمعدانات ؟

الأسقف — أرجوك ... إنها ستساعدك

المجرم — (يأخذ الشمعدانات وهو لا يصدق من التعجب)

الأسقف — وهناك يا ولدى طريق يمر من الغابة تجده خلف كوخى هذا وهو يصل إلى باريس.. إنه طريق موحش لا يمر به إنسان . ولقد لاحظت أن أصدقائى الجند لا يحبون الطرق المقفرة خصوصاً فى الليل ... إن هذا عجيب

المجرم — آه شكراً ... شكراً لك يا صاحب النيافة ... إنى ... إنى ... (تضطرب الكلمات فى حلقه) أوه ... إنى منفعل ... طفل يبكى ، ولكن على كل حال لقد جعلتنى أشعر وكأن ... وكأن شيئاً حل بى ... وكأنى أصبحت رجلاً مرة أخرى ولست حيواناً ضارياً (يفتح الباب الخلفى ويقف عند مدخله)

الأسقف — (يضع يده على كتفه) تذكر دائماً يا بنى أن هذا الجسد الضعيف هو معبد الله الحى

المجرم — (بحزن عظيم) معبد الله الحى ... سأتذكر ذلك (يخرج من باب الركن الأيسر)

الأسقف — (يغلق الباب ثم يذهب بهدوء إلى المذبح الموضوع عند النافذة التى حيث يجلس على ركبتيه ويخفض رأسه ويبدأ فى الصلاة)

(ستار بطىء)

« انتهت » التاقص

شركة مصر لنسج الحرير

تزود بمنسوجاتها الجميلة

والوانها المفرحة البهيجة

وأثمانها المعتدلة الرخيصة

الوجيه الكبير . والموظف البسيط . والعامل الصغير

وهى فى متناول الجميع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧)


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوى جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٢٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٨ | ١٣ محرم سنة ١٣٥٧ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
١٧٨	الدواء الذي يخلق البقرة .	للسير ماكس بيرتون	بقلم الأستاذ دريني خشبة
١٩١	إن عاد لي الحيا	للكاتب الفرنسي هنري بازنابلس .	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة
٢٠٥	الذكرى	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ
٢١٦	التحرير	للشاعر الفيلسوف طاغور	بقلم السيد ذكري شهاب السعيدي ..
٢١٩	هزيمة	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب شكري محمد عياد ...
٢٢٤	الموسى الجبلي	للقصصي الفرنسي جي دي موباسان .	بقلم السيد كمال الحريري

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

الدواء الذي يخلق العبقرية

للسير ماكريبرتون

بقلم الأستاذ زكي خشبه

... وقال الأمير وهو يضع الشمعة وراء القارورة التي بين إصبعيه فيضيء السائل الذي فيها : « على أنني لا أدري ما ذا يمنع أن يوجد عقّار يجلب الذكاء ويخلق العبقرية كهذه العقاقير التي تشفي الأجسام وتطبها ، وتجعلها قوية البناء مفتولة العضل !! »

واستولى العجب على چون ما كلسفيلد أوف برادفورد ... الرجل الساذج ... الذي كان البله يترجرج داعماً في حدقتيه ، فاعتدل وقال : « أتمنى أنه في وسعك أن تخلق عقولاً لمن ليس لهم عقول ؟ »

وكان الأمير أوتو ينتظر أن يلقى عليه هذا السؤال ، فتبسم ثم قال : « حقاً ياچون... ولم لا ؟! أبداً لم يخامرني الشك في هذا أبداً ... وإني لفتنع جداً أننا نستطيع أن نبني الأذهان فنجعلها ذكية عبقرية كما استطعنا أن نبني الأجسام فجعلناها هرقلية حديدية ... والأمر سهل ياچون ... فكما استطاع الطب أن يعالج لين العظام في الأطفال ، فكذلك نستطيع نحن أن نزيد المادة السنجابية التي تكسو تلافيف المخ في رأس الشخص الأبله فيصبح ذكياً متوقد الذهن ... وإليك مثلاً ياچون ، ابنتي حنة هذه الجالسة أمامك ، فلقد مرضت منذ اثنتي عشرة سنة مرضاً خطيراً ، أشفت منه على الهلاك ، حتى لقد قرر أطباؤها في رومة والبندقية أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر... وقد جزعت لذلك جزعاً شديداً ... بيد أني ضربت برأيهم عرض الأفق ، ثم فرغت لتطبيبها بنفسي ، معتمداً على تجاربي... فانظر إليها الآن ، وقل لي ما رأيك في هذا الشاب الريان ، وذاك الإهاب الفينان ... أليست هذه معجزة ياچون ؟ »

ولم تكن في رأس الرجل أثارة من الوعي يدرك بها الجمال المجسّد في الفتاة الجالسة أمامه ... ولم يُثر خاطره مرأى هذا الأمير أوتو ... الرجل العجيب ... الذي اشتمل الشيب في رأسه ، والذي أصبح اكتشافه العلمي الخطير حديث الأهالي في لندن العتيدة ، والذي فر من العالم الواسع الصاخب ليثوي في هذا المنزل الحصين في ركلي سكور ، ليعيش فيه كما يعيش سحرة الشرق ومشعوذوه

وهكذا جلس الرجل الساذج جلسة بلهاء لا يعنيها شيء من هذا الجو الهادىء الذي انعقدت فيه سحائب البخور ، وتهدهدت إليه نغمات الأرغون التي أنشأت ترن في بطن الوادي القريب ، فتردد أصداءها أكواب البلور وأطباق المرمر البندقي المرصوصة على المائدة الفخمة وسط الغرفة الرائعة ... لا ... لم يعن چون ، تاجر الأصواف الانجليزي الذي نزح من لندن إلى دلهاشيا ليعقد فيها بعض صفقاته التجارية ، بشيء مما حوله في غرفة هذا الأمير أوتو ... ولم يشغله شيء من جمال هذه الحسناء الايطالية المفتان التي تأسر

2017-11-15 06:06:03

بجمالها الأخاذ ... ولم يشغله أوتو نفسه بهذا البريق الخاطف المنبعث من عينيه اللؤلؤيتين ، بل ، لقد نظر حوله فى غرارة وغفلة ثم قال : « شىء مدهش حقاً أيها الأمير ... لطالما فكرت قبل اليوم فى أن يكون لي عقل عبقري راجح ليكون لي به مركز ممتاز فى الحياة العامة ... وطالما كنت أنظر إلى رئيس وزارة بلادى ، وتأخذنى الغيرة من إعجاب الناس به ، واستعظامهم له . مع أنه رجل عادي لامزية له على الجماهير إلا هذا اللسان الذرب الفصيح يخلب ألبابهم به ، وإلا عقله الراجح الذى يروّي به فى الأمور ويسيّر به دفة الدولة ويصرف شئونها ... لقد كنت أنظر إليه وقد التفت حوله الآلاف المؤلفة من الناس يصغون له ويستمعون إليه ، فتأخذنى الغيرة وتنشب أظفارها فى صدرى ... وكنت أقول : « جماهير من الدهماء يسحرها رجل بهرج القول » ولكنى كنت أرى مئات العقلاء بعد ذلك يحدقون به ليأخذوا عنه الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة فأرجع إلى نفسي ، وألبث أتمنى لو أوتيت من الذكاء بعض ما أوتى هذا الرجل الثرثار الفبق ... فإذا كنت تضمن لى ذلك بهذا السائل الذى فى قارورتك فإنك تكون رجل العجائب حقاً ... ! »

وتناول الأمير لفافة فأشعلها فى هدوء ثم أخذ يُدخن ، وينفث الدخان فى صمت ... وقال بعد لحظات « عزيزى جون ما كاسفيلد ... إذا وكانت إلىّ نفسك لمدة ستة أشهر ، فليس أيسر على من أجعلك خطيباً من أبلغ خطباء العالم ، ومفكراً عبقرياً من أعظم مفكريه بحيث تسمو على حكماء عملكتك بشرط ... أن تثق بى ثقة عمياء غير محدودة وأن تخضع إرادتك لى إخضاعاً مطلقاً ، وأن تصنع ما آمرك به من غير مناقشة ولا استقصاء ! »

ولوى جون عنقه ، فتأرجح رأسه من فوقه كالذى يوافق وإن لم يقتنع ، ثم قال :

— وعملي ؟ !

فهز الأمير كتفيه وأجابه : ألست رجلاً غنياً واسع الثراء ؟

فارتبك جون وقال : أوه ... من هذه الوجهة فأنا غنى

فقال أوتو : وقد حلمت أحلاماً طائلة بالشهرة والمجد ؟

فقال جون : حقاً لقد فعلت ، ولقد فكرت ألف مرة أن فى الدنيا أشياء عظيمة ، ومطامح واسعة غير تجارة الصوف ! »

فأجابه أوتو : إذن ليس عليك إلا أن تكل نفسك إلىّ ، وأنا كفيل بمنحك الذكاء الذى تريد ، والعبقرية الواسعة التى تشتهي !

فنظر جون إلى القارورة الصغيرة فى بَلَه وغمارة وقال : « من هذه القارورة ؟ ! » وهنا تبسم أوتو وتناول القارورة ، ثم جعل الشمعة من ورائها فاختلطت أضواؤها بالسائل العجيب مرة أخرى ، ونظر جون إلى القارورة فشعر كأن سحرها ينتقل إليه ، وكأن أضواءها تختلط بروحه ، ونظر حوله فوقعت عيناه على طاس الأزهار على المائدة ، فرآها أجمل مما عهدها وأنضر ... وخاف الرجل السانج مما أحس ورأى ، فانتصب واقفاً ثم قال : « إنك تمزح أيها الأمير أوتو .. إنك تهزل »

ومن غير أن يستأذن انفتل من الغرفة ، ثم من المنزل جميعاً ...

ولاحظ الأمير أن ابنته تتبع الرجل بنظرات حادة ، فاستطاع أن ينفذ منها إلى سرائر نفسها ، وراح يتحدث إلى نفسه هكذا : « أوه يا حنة ! لقد فتنك الانجليزي من غير ريب ! لقد رأيت الفارق العظيم بينه وبين الأجلاف الذين شهدتهم في إيطاليا ... الرجل جميل يا حنة ... وأمين ... وبناء جسمه يجذب داعي النساء ، وهذه ملاحظة لا يدركها إلا علماء وظائف الأعضاء ... أوه ! إن هذا الرجل ، إن جون ما كلسفيلد ليس في رأسه ذرة من الذكاء لكن له كاهلاً عريضاً ، وكتفين عظيمين ؛ ثم شعره ... شعره المكسوني ! مسكينة يا ابنتي ! إنها لا شك تعبده ، وتتمنى لو تتزوجه ، إذا رزقه الله قليلا من الذكاء ! »

والتفت إلى حنة فجأة ثم قال : « حنة ! ما ذا ترين في هذا المستر ما كلسفيلد ؟ »

وكانت حنة قد انصرفت إلى الأرغون ، بعد إذ انصرف الانجليزي تاجر الأصواف ، تلعب عليه بعض قطعها وكانت نار الموقد تتوقد وتلهب قريباً منها ، فلما التفتت إلى أبيها تحييه انعكس ضوء اللهب على شعرها الذهبي الأحمر ، فبدا وجهها الجميل الناصع كأنه وجه صورة فتانة أمام مصباح خافت ذي ذبالة ترقص وتنتفض

وقد يحسب الانسان أنه من الشذوذ ، أو أنها مبالغة شاذة ، أن هذا الجمال الرائع لم يجذب إليه عيني جون ما كلسفيلد .. ولكن هذا هو الذي استنتجه الأمير أوتو ، وهو أيضاً الذي كان موضع دهشته وطول تعجبه ... وعلى كل ، فقد انتظر الوالد في تلهف شديد جواب ابنته ، التي انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة خبيثة وهي تجيبه فتقول : « والله يا أبي إني لا أدري ما ذا أقول ! من يستطيع أن يفهم هؤلاء الانجليز ؟ إن براعتهم المدهشة هي في هذا الصمت العجيب ! » ، وكأنما سلم أبوها بهذا الرأي ، فقال : « إن للانجليز عقولاً . ولكنها ليست كعقولنا يا ابنتي . على أنها عقول تنتسب إلى بيئتها ومناخها الذي نشأت فيه ... وهذا هو السر في قصور عقلية ذلك المستر جون ما كلسفيلد ... فهو يعيش في دنيا كلها سوف ، وهي لذلك كلها أغنام وسروج ، وليست شيئاً غير الأغنام والسروج ياحنة .. إنه لا شك يفكر كثيراً في مزاجنا الخفيف الشعري المرح ... مزاج شعوب هذا البحر الأبيض المتوسط ... هذا المزاج الذي ترعرع في آلاف من سنين الشمس والموسيقى ... وهل المخ إلا هذا النشاء الرقيق الذي يستطيع الصوت والضوء أن يلمسا فوقه ... وليس الصوت والضوء فقط ، بل إرادة الناس الآخرين ... وذاك هو ما نسميه التعليم أو التهذيب ، الكتابة فوق غشاء المخ بيد مهذبة صناع ! فاذا أردت ، جعلت هذا المستر جون يرى ألف رؤيا عجيبة في هذه اللحظة ... الآن ... بحيث ينهض فيفتح بيديه أبواب عالم واسع شاسع لم يكن له به عهد من قبل ، فيسمع كلمات لم تتردد أبداً في أذنيه وسرعان ما يرددها هو ؛ وينطلق بها لسانه ، وقد يجتمع الناس حوله فيشهدون أنهم لم يكونوا يعرفون هذا المستر جون من قبل ... وهكذا يذيع اسمه في الآفاق ، وقد ينسى عالم

الصوف الذى يشل تفكيره ، ويغطى ذهنه بطبقة كثيفة من النيام ... وأنا لا أشك فى أنه لا بد مصح لما أشرت به عليه ، فاذا فعل فسترين كيف أبذر بذورى فى هذه الأرض البكر الخصبة فهل يسرك هذا إذا فعلته يا حنة ؟ ! »

وشاع البشر فى وجه الفتاة ، وأقبلت على والدها بكل ذاتها فقالت له : « أبى ! لقد طالما حدثتنى أنك تستطيع أن تجعل أغبى الناس أذكى الناس ، فهل هذا حق يا أبى ؟ وهل أنت تؤمن بنظريتك التى استحدثتها ، أم أنك تحلم بها وحسب ؟ أصحيح يا أبى أنك تستطيع أن تمنح الأغبياء لبابة وحسن فهم ؟ أم ... »

ولم يشأ الأمير أن يجيب على ماسألت ابنته إجابة صريحة جازمة ... إذ الحقيقة أنه لم يعد طور التجارب والأبحاث فيما انتهى إليه — وإن لم يكن قد انتهى بعد

— إن من العقاقير يا ابنتى ما يتناوله بعض الناس فيكونون سحراء ، ونحن نستخدم هؤلاء السحراء وننتفع بهم ... والذى يأكل الأفيون يحلم وهو يقظان أنه ملك ، ولا شك أن مملكته شىء حقيقى بالنسبة له ، وإن تكن خيالاً بالنسبة لنا ... ولا شك أيضاً أن ذهنه ، خلال ذلك ، يكون قوياً جباراً ، بصرف النظر عما يؤول إليه حاله بعد أن يفيق ... ولقد فهو يعرف من أسرار الحياة فى غيبوبته ، ويدرك من كنه هذه الأسرار ، ما لا يفهم منه فى يقظته قليلاً ولا كثيراً ، ولا يستطيع أن يدرك تأويله

فلم لا نجعل هذا الوهم حقيقة ، وهذا الخيال الطارئ واقعاً مستديماً ؟ إن مشروعى ليس مستحيلاً كما يتصور بعض الناس ، وهو بالضبط كالمشروع الذى أدى إلى اختراع التصوير الشمسى ... فقد كان الناس يرون صورهم واضحة جلية على الزجاج والمرايا ، لكنهم يعجزون دائماً عن تثبيت هذه الصور على الزجاج وتلك المرايا ... ثم أطلحوا ... فتحقق الحلم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى حقيقة واقعة ملموسة ، بعد أن كانت وسواساً كهذا الوسواس الذى يجول فى ذهن آكل الأفيون

وعلى هذا النحو كان اختراعى لهذا العقار الذى أستطيع أن أثبت به الصور والأخيلة فى ذهن النبى من الأغبياء ، فيكون من أذكى الأذكياء ... وسيرى الناس كيف أقلب لهم العالم باختراعى رأساً على عقب ... آه يا حنة ! لقد طالما فكرت فى هذا كله يا ابنتى ، منذ أن طردتنا الحرب الكبرى من أوطاننا ، وأخذت الحياة تسومنا الخسف فى هذا المنفى السحيق ... لقد قاست الدنيا رزايا لا حصر لها منذ جهل الناس أحلامهم اللذيذة التى كانت تخلق لهم مُثُل الفضيلة العليا ... تلك الأحلام التى كانت تشحذ الذكاء الذى لو توفر لحال دون وقوع الحرب الكبرى ... إنه لا هم للناس إلا بناء الأجسام ، وليس فيهم من حاول أن يبنى الأذهان ... وقد وقفوا جهودهم كلها على معالجة أمراض البدن ، فهم دائماً يجهدون فى منحنا لحماً وعظاماً ودماً ... وليس منهم أحد فكر فى منحنا أذهاناً ! ! وهذا لأنهم لا يحلمون ... مع أن الأحلام وحدها هى التى أدت إلى كل ما فى العالم من اختراعات كان مجرد التفكير فيها قبل أن تحقق ضرباً من الجنون

والهذيان ... لهذا يا حنة ... يا ابنتى ، لم أن أحلم وأتسامى ...

— وهل تحققت أحلامك يا أبي ؟ هل وفقت إلى ضالتك المنشودة ؟

— إنى موقن أنها قد تحققت ... وأنتى أنى أصلح رؤوس الأعباء ، بل أمنحهم ذكاء ولباقة ... فصاحبنا چون ما كسفيلد مثلاً ، قد نسى فى هذه اللحظة طواحين مدينته العظيمة برادفورد ، وهو قد اكتشف فجأة مافى هذا الليل من آيات وعجائب.. إنه لابد يرنو ببصيصه إلى نجوم السماء التى تتألق فى جونا الصحو ، ثم هو يسائل نفسه عما يخامرها من الأحلام التى تولدها فيها هذه النجوم ... وهذا كله بفضل كلماتى التى أثارت فيه تلك الأحلام ... وهو لا شك منتقل من أحلامه الساذجة إلى ضرب من التسامى الرفيع الذى سوف يشجعه ويحمله إلى تفكير أرقى ... وسيسأل نفسه لماذا هو تاجر بسيط ؟ وسينتبه إلى النفر القليل من بنى وطنه الذين برزوا من المدن والقرى الوضيعة فأصبحوا زعماء البلاد وذوى الصدارة فى المملكة ، وهو لابد سحدث نفسه لماذا لا يقتفى آثارهم ليكون مثلهم ... وبهذا ينتبه شعور القوة الكامنة فيه ، فيعمل من فوره على توجيهها لخيره ... ومن يدرى إلى أين ينتهى به التطواف ؟!

وهنا ... تنهدت حنة من أعماقها كأنها لم تؤمن بعد بما آمن به أبوها ، ثم قالت : « لقد وجدت من الحال أن أتحدث إليه ... إنه كان يبدو كأنه لا يشعر بوجودى !! »

وتبسم الأمير ابتسامة حنان وعطف

ولقد كان أوتو صادقاً فيما حدس به من أن چون ما كسفيلد سيصبح فريسة لأحلام حلوة ... تتبرها فى رأسه الفارغ تلك الصنوف الفاخرة من الأشربات والأكال التى ذهب ليلتهمها فى غدائه ... فإنه ما كاد يخلو إلى نفسه فى غرفته الفخمة فى أعظم فنادق الهايد بارك ، حتى توجه إلى النافذة ففرَّج بين ستائرها ، ووقف يملأ ناظريه من جمال الجنة الفيحاء التى تتأرج وتتبرج أمامه ... تحت قبة السماء الصافية التى أخذ الهلال يسبح فى أعماقها ، كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من نجوم الربيع فى إقباله ... يا للمنظر العجب الذى لم يكن لجون عهد به من قبل ! هل نسج إليه إذ هو يتناجى ويحلم مسحوراً بمفاتن الطبيعة

« ... يا للفكرة !! إن هذا الرجل العجيب يزعم أنه يخلق الأذهان كما يخلق الأطباء الأجسام ! حسن... ولم لا ؟! فكرة غريبة وشاذة... وأكثر منها شذوذاً أن أحداً من الناس قبل هذا الرجل لم يفكر فيها ، ولم تخطر له على بال !! وفى الحق ، أنا لا أصدق مطلقاً أن فى وسعه أن يطب أحد المغفلين البلهاء فيجعله إسحق نيوتن مثلا ، أو أنه سيزود العالم بألف أديسون جديد[1] بحيث يجعلهم (تحت الطلب !) ... ولكن هذا السائل ؟! إنه شئ خلاّب من غير ريب ... والأطباء ... لم لم يفكروا فى مثل ذلك من قبل ؟! إنه سائل لا يضر ، فلماذا لا آخذه معى !! إن الرجل العجوز يؤكد أنه يضمن لشاربه الذكاء والفطانة ، فلم

(١) لم نشأ أن نحور هذا التعبير لطرافته

لا أجعله داعماً فى جيبى ليحقق ما أصبو إليه من من شهرة ومجد

إن هذا الأمير أوتو رجل حاذق صناع ... ولقد عرفت ذلك لأول وهلة .. إن له لعينين ينفذان فى فؤاد الناظر إليه ، وبشملان النار فى رأسه ... إنه يسكن فى ذلك البيت الستيق ويحلم ... ويرسم الخطة للرجوع إلى وطنه .. الشرق ! الشرق العظيم الساحر ... الشرق الذى يلهم الغرب دائماً ... ولكن ... لله هذا العفريت الذى سجنه أوتو فى سائل القارورة ... تلك القمقم ! »

ثم ضرب يده فى جيبه فأخرج الزجاجة وراح يرنو إلى سائلها العجيب الجميل المتلألئ ... حتى إذا فتحها ، وعبقت رائحتها فى خياشيمه ، تبسم ضاحكاً وتحدث إلى نفسه فزعم أنها ستكون أعجوبة الأعاجيب فى برادفورد ... ثم وضع منها فى كوب خمسة عشر نقطة ، وجعل على النقط ماء واحتسى المزيج السحرى ، الذى لم يكن له فى حلقومه طعم ولا الرائحة التى انبعث شذاها فى أنفه ، فعرف أن الماء غير الدواء ...

وكان يضحك أثناء ذلك ... ويحمد الله أنه لا يوجد أحد من برادفورد ليستهزئ به ويتهكم عليه ، إذ يغفل نفسه بتصديق هذه الخزعبلة !

ومضت خمس دقائق نسى بعدهن العقار الذى انصب فى جوفه ، وعاد إلى النافذة يستملى جمال الهايدبارك ... ثم شعر فجأة بقوة تتدفق فى أعصابه وخيل إليه أن الهايدبارك مزدحم بجماهير حاشدة تصغى إليه وهو يخطب فيها ... ثم إنما هذه الجماهير تتدافع وراءه ، وهو على رأسها إلى دار البرلمان فى وستمنستر ... ويقف فى القاعة فيلقى خطاباً سياسيًّا يقرر به مصائر أوربا ... ويسمع بأذنيه ثناء الأعضاء عليه ، وإعجاب الناس فى الشرفات به ، وافتتان الجميع ببلاغته وقوة عارضته ... ويسمع بعض الحضور من بنى دائرته يتهامسون : « لله أنت من خطيب مصقع يا أغانا چون ! »

وكانت الساعة الثانية صباحا ... فانكفأ إلى فراشه وهو يحلم بالمجد وذيوع الصيت ... ثم تذكر الغادة ... الفتاة الفينانة ... ابنة أوتو أوف متكوقتس ... وعجب كيف لم تتراء له فى أحلامه !

« حنة ! أين أنت يا حنة ؟ ! »

* * *

وعاد تاجر الأصواف إلى برادفورد ، وكلما مضت الأيام اشتد اختلاف الناس فى أمره ، وحاروا فى هذه المتناقضات التى كانت تبدو منه فينسبها بعضهم إلى الجنون . ويردها بعضهم إلى ذكاء خارق ظهر فجأة فى چون

واشترى قصراً منيفاً فى لندن ... وأخذ يدعو إليه كبار الموسيقيين

چون ماكبسفيلد ... هذا التاجر الغنى الذى لم يكن يفقه من الدنيا غير الشاء والقطن[1] يصبح أذناً للموسيقى فلا يسمعها إلا من زعمائها الفنانين العباقرة !

ولم يقنع بتزيين جدران قصره بصور الفنانين الإنجليز ، بل كان يرسل رجاله ليدخلوا منافسين فى أسواق الصور الإيطالية ، فيشتروا له القطع الفنية التى يعجز أغنى الأغنياء عن دفع ثمنها

(١) القطن صوف النعم

جون ما كسفيلد ! هذا الكبش العظيم ! !
لا يوجد في معارض الفن من يقدر آياتها كما يقدرها هو !

وانتهى أكثر الناس إلى أنها إمارات جنون من غير شك ، ستفتح لتاجر الأسواف مستشفى المجاذيب على مصراعيه

إسمع إلى هذا العين من أعيان الشمال يقول فيه : « ينصب من نفسه خطيباً في السنترال هول بوستمنستر فيخلب ألباب الناس ببلاغة لا عهد لهم بها ، وبيان مشرق لم يسمعوه من ألسنة زعمائهم ، وفكر عميق مرتب لا يقدر عليه إلا الأفذاذ ..؟.. أفذاك هو هذا الكلب القذر ... كبش رادفورد ... الذي لم يكن لأيام قلائل يفقه من أمور الدنيا إلا النتاج والذهب الوهاج ؟ ! جون ما كسفيلد ! ! ما شاء الله »

فهذا الذي يقوله هذا العين ، ناحية مما صار إليه جون ... فهو إلى فصاحته وسمو تفكيره ، قد أصبح رجلاً ممتازاً حاضر البديهة متوقد الذهن ، لا يكاد يوجه إليه سؤال حتى يعطى جوابه الناضج المبين في أسرع من البرق ، ثم هو يستعمل في أحاديثه طرائق الأدباء المبرزين ، ولا يفتأ يُضمنها فقراً طليانية من بتراوك وبوكاشيو وأضرابهما ...

وقد حار الناس في رفيقه الذين يلزمانه كظله أينما سار وحيثما توجه ... هذا الرجل السمهري

عدد الرسالة السنوى الممتاز

بمناسبة العام الهجري

كتاب قيم خالد

يؤلفه أربعون من أقطاب البيان في جميع أقطار العروبة ،

ويشتمل على جملة من صفوة الرأى ومختار الكلام فيما يتصل

بمجد الاسلام وأدب لغته وحال أهله

سيصدر في يوم الاثنين المقبل ٢١ مارس في ٩٠ صفحة

الأشيب ، الذى يدعوه الأمير ... وتلك الفتاة الحسناء المهيفاء القسيمة الوسيمة ، التى تشيع السحر فى جو المكان الذي تكون فيه

والدهش من أمر جون أنه لم يكن أعرف من أهل برادفورد بسر نبوغه وتفوقه ، إلا أنه كان يؤمن بأنه أصبح ظلاً لهذا الأمير أوتو ، وأنه لا ينطق ولا يفكر ولا يتدفق فى خطاباته إلا بوحى منه أو إيحاء ، فإذا سأله سائل عن مسئلة اتجه بعينيه الضعيفتين إلى عيني أوتو القويتين ، حتى إذا تم بينهما الاتصال الروحى الذى لابد منه ، ولا محيص عنه ، إنطلق يجيب فى فصاحة بالغة ، وبيان عذب قوى ، بحيث يتغلغل إلى سويداوات سامعيه ، ويسحرهم عن أنفسهم ... فإذا فرغ وفاء إلى نفسه ، عرف أنه كان يتكلم بلسان جون ، ويفكر برأسه ... وأن القطرات التى شربها قبل أن يتكلم ليست هى التى واتته بهذا الذكاء وذاك البيان ، وإن تكن حقاً قد مهدت لها

ولقيه أحد أصدقائه الكهول يوماً فى شارع أكسفورد قافر باسماً وقال له : « أوه جون ! لشد ما تغيرت فى هذه الحقبة الأخيرة من حياتك ... ولشد ما نحن معجبون بك ... أجل يا ... فتى ! ... ومع ذلك ، فإنك لم تدخل الوزارة بعد ، وليس فى أعمالها من هو أكيس منك ولا أحذق ولا أصدق بياناً ... فلم لا تعمل ؟ »

وراغ جون بجواب مقتضب مؤدب ، ثم انفتل فى مفرض فرنسى للصور حيث وقف مسبوهاً أمام صورة رائعة للسيو كلنسو ... ثم باريس !

ولما لم يكن له أى إلمام بالسياسة الفرنسية ، فقد وقف حائراً أمام صورة السياسى الداهية الذى درأ عن فرنسا أيما خطر خلال الحرب الكبرى ... وهنا خطر له فجأة أن يعود أدراجه إلى مسكنه ليكتب نداء يناشد فيه الفرنسيين والأمريكيين أن يعملوا متعاونين لما فيه سلام العالم العام وأمنه وطمأنينته ، وأن يطرحوا سخائم الماضى التى ينفخ فى نارها الساسة لمآربهم الشخصية .. ولم يدر جون ماذا أثار فى خاطره هذه الفكرة ... لكنه التفت فوجد صاحبه الأمير أوتو قريباً منه ، ورأى ابنته حنة واقفة عند صورة تدقق فيها نظرها

— لقد كنت ترمق صورة السيو كلنسو بعينين مشوقتين !

— أوه .. هذا صحيح .. لقد أغرانى الاعلان الضخم ، فدخلت أتفرج بهذه التحف .. وأحسبك تذكر يا أوتو أننا كنا نتكلم عن هذا السيو كلنسو على مائدتك أمس !

— أجل . أذكر هذا

ثم لف ذراعه حول ذراع ماكسفيلد ، وراحا يذرعان المعرض جيئة وذهاباً ، والأمير أوتو يشقق الأحاديث عن الفرنسيين والأمريكيين ، فيشرح لصاحبه تاريخهم وأحوالهم وسيكولوجيتهم

— .. ومن فى الانجليز يستطيع أن يهذب معلوماتهم عن الأمم الأخرى مثلك يا مستر جون .. على أنه قد يأتى اليوم الذى تبث الدعاوة بينهم عن وطنى المنكوب ، ومبلغ ما لقى من التعاسة بسببهم فيصلحون بعضاً من أخطاء الماضى !

— أنا ؟ .. أنا لا أعرف من ذلك كثيراً ولا قليلاً أيها الأمير !

— إن كنت لا تعرف منه قليلاً ولا كثيراً ، فبقليل من الذاكرة تستطيع أن تعرف كثيراً جداً والآن ... يجب أن تذهب مع حنة إلى مطعم سيرو فقد وعدتها بذلك ... أين هي ... ؟

— أوه ! إنها هناك ... ها هي ... مالها لا تريم عن هذا النقش السخيف ... أية سورة هذه التي تقف أمامها مأخوذة مسحورة ... ؟ سبعة آلاف جنيه ؟ ! ثمن باهظ ... إني لا أشتريها بخمسة جنيهات إذا عرضت عليّ !

* * *

وذاع صيت جون ما كسفيلد في جميع أرجاء لندن .. ودهش الناس لم لا يكون عضواً في الوزارة إن لم يكن رئيساً لها ، وهو هذا المفكر العميق ، والخطيب المصقع ، والكاتب الذي لا يشق له غبار

وتكلم الناس في هذا الصدد ، وأكثروا فيه الحوار ولا سيما حينما أذيع اعتزام الحكومة عقد مؤتمر عام في قاعة ألبرت هول لبحث موضوع « تخليها عن الصناعة للأهالي » وما ذاع من أن رئيس الوزارة والمستر جون ما كسفيلد هما وحدهما خطيبا هذا المؤتمر

وحدث تغير فجائي في نفس المستر جون !

فقد ثارت فيه كبرياؤه وعز عليه ألا يكون شيئاً إلا بهذا الأمير الأشيب أوتو متكوفتش ... وصمم أن يعد خطبته في (تشعيب الصناعة[1]) بنفسه وأن يذهب إلى قاعة ألبرت هول دون أن يصحب الأمير أو ابنته معه ... « ولماذا ؟ أمن أجل هذا الوهم الذي تسلط على فأحسب أني لا أستطيع التفكير بدونه ولا الخطابة إلا بإيحاء منه ؟ ! لا ... لن يكون هذا بعد اليوم ... لا بد أن أستقل عن هذا الرجل الذي استلب إرادتي ، وقبض على آلة تفكيري ، فلا تدور إلا بإذنه ... إن هذه فرستي إلى الوزارة ، ولن أدق إليها على أكتاف الغير ... إن الناس في برادفورد مقتنعون بعظمتي ، والانجليز كلهم مسحورون بشخصي ، فما خوفي أنا ألا أكون شيئاً إلا بالعجوز أوتو ؟ أكل هذا خداع في خداع ؟ ثم تذكر السائل فصمت قليلا ، وحدث نفسه فقال: « لا بأس سأتناول الجرعة قبل أن أذهب ... إنه شراب مقو يبعث في النفس شجاعة وانشراحاً ، وفي اللسان براعة وانطلاقاً ، لكنه لا يخلق البيان ولا يوجد الفصاحة من العدم في اللسان ... إن بلاغتي هي طبع فيّ كان مستوراً ، وإن هذا السائل العجيب الذي أتجرعه من الزجاجة الخضراء هو الذي ساعد على اكتشافها ... إنه لم يصنع شيئاً غير هذا ... فلأشرب الجرعة إذن ، ولأذهب بمفردي ... »

ثم شعر فجأة بالاحساس السحري يتلبسه ... وبالقوة الخفية الهائلة تشيع في أعصابه ... وهنا يتنير تفكيره ، ويحس بحاجته الشديدة إلى أوتو متكوفتش ... وتذوب حماسته السابقة ، وتتبخر ، ويؤمن من جديد أنه ليس شيئاً مذكوراً بغير هذا الرجل الأشيب الهائل ، ويحس كما تعود أن يحس من قبل أنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة إلا إذا أوحاها إليه أوتو ... ويذكر حاله قبل أن يلقاه في

(١) أي أن تنزل الحكومة عن الصناعة للشعب

دلمشيا فيبتسم ضاحكا مما كان فيه من غباء وغرارة وجهل ، ثم يرى إلى نفسه الآن رجلا يشار إليه بالبنان ، ويجرى ذكره على كل لسان ... وهـذا بفضل الأمير أوتو !

« لا ... أنا هازل ... لا بد لى فى ذلك اليوم الموعود من أوتو متكوفتش ... إنه رجل عبقرى .. وأنا لا أكون شيئاً إن لم يصحبنى إلى هناك ... هو ... أو ... حنة ... لا بد لى من أحدهما ... ولا بد أن يجلس فى الصف الأمامى ليكون أثره بالغاً حده الأقصى فى وجداني ... »

ثم سمع هاتفاً يردد فى روعه هذا النداء : « أجل . أجل يا جون ما كاسفيلد ... إياك أن تذهب إلى المؤتمر بدونى ... إنى أرغب أشد الرغبة أن أكون معك اليوم كما كنت معك بالأمس وقبل الأمس وفى كل مرة ... إن لدي أفكاراً وإن لدى خططاً سترفعك إلى الذروة ... أسمعت ؟ إياك أن تنسانى ... إحذر أن تتحرك إلى قاعة ألبرت دون أن تصحبنى ... »

ولم يكن هذا الهتاف وهماً ... لقد كان يتردد فى أذنيه كأن أوتو واقف أمامه ... حتى أنه وقف وشكره ، وأكد له أنه لن يذهب وحده ... ثم مد إليه يده فصافحه ... وحينما فتح عينيه ... لم يجد أحداً فى الغرفة معه !

وعرف أنه الوهم مرة أخرى ...

وعاد يفكر من جديد فى وجوب التخلص من هذا الخداع .. فصمم على أن يذهب إلى المؤتمر وحده وأن يبنى مجده بيديه ... وأن يرفع اللبنات التى تشيد هرم مطامحه فوق كتفيه هو لا فوق كتفى شخص آخر ... وكان هذه المرة جاداً فى تصميمه ، معتزماً ألا يعتمد على أحد فيما يصبو إليه من رفعةٍ ووزارة ومجد ...

ولم يبق على المؤتمر إلا أيام ، وكان يذكر صاحبه أوتو فتشرق أساريره مرة ، وتظلم وتحتلك مرات ... ثم سمع من أحد معارفه أن الأمير مريض ، فكان أول ما خطر له أن ينطلق من فوره فيزوره ... فلما كان فى طريقه إلى شارع شارل ، حيث منزل أوتو متكوفتش ، جعلت الذكريات تتردد فى خاطره وتلح فى ترددها ، ولم يستطع جون أن يتذكر أيادي الأمير عليه .. والشهادة له بأنه صانعه .. وإن كانت كل تلك المواجس تجعله في حيرة من أمره ...

— أبى مريض يا مستر جون ... إنه مريض جداً .. وهو مايفتأ يشكو بذات الرئة .. والأطباء يؤكدون أنها حادة ... لقد ضعف وهُزل حتى قد لا تستطيع أن تعرفه إذا رأيته

وبدا النم فى وجه الرجل ، وشاع فيه الحزن العميق ... ثم نظر إلى حنة فى غير عمد ، فبهره منها هـذا الشعر الأحمر الذهبي ... وإن لم يثر فيه إلا الاشفاق عليها ، والرثاء من أجلها ، والتفكير فيما يؤول إليه أمرها إذا مات أبوها

— حنـة ! لابد من استدعاء إخصائى فى الأمراض الصدرية ... وأظن أن السير سبيريان هو عمـدة الأطباء فى ذات الرئة ... أليس لكم ممرضة يا حنة ؟!

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

— أنا هنا للمرضة والابنة يامستر جون ... إن أبي يأبى أن يمرضه أحد غيري

وناقشها المستر جون فى قيامها بتمريض أبيها ، ومع أنه أقنعها بأن السهر على صحة المريض مرهق لشبابها وأنه لابد من ممرضة أخرى خبيرة بفنون التمريض إلا أنها لم تشأ التخلى عن هـذا الواجب المقدس ولم تقبل أن تنزل عنه لأحد

وعاد المستر جون ماكلسفيلد إلى فندق (وتر هوتل) ... وعاد أيضاً يفكر فى خطبته المزمعة فى قاعة (ألبرت هول) ، وهى تلك الخطبة التى ترتكز عليها كل آماله فى دخوله عضواً فى الوزارة ... ثم بدأ شىء من الأسف يخامره لمرض الأمير أوتو متكوفتش ... وتمنى لو عوفى قبل الموعد المضروب لإلقاء الخطبة ... ثم تخيله جالساً فى جميع الأندية والمسارح والمجتمعات التى كان يلقى فيها خطبه فى الصف الأول من المستمعين ، وتخيل عينيه المميتتين تشعان السحر والكهرباء فى نفسه فيتدفق بياناً كما يتدفق صيّبٌ من السماء فيحيى الأرض بعد موتها ... ثم تخيل ضرورة حضوره هذا المؤتمر ليتم له النجاح المنشود وليفوز بعضوية الوزارة ... وأخذ يشك فى النجاح إن لم يحضر أوتو ... وأخذ الشك يكبر ويتعاظم حتى ملأ على نفسه ، وعلى أفكار الزهو والكبرياء التى ثارت فى رأسه وصدره قبل ساعات ، ثم وقعت الواقعة ... ! فقد توفى أوتو متكوفتش ، الأمير الشرقى الساحر قبل موعد انعقاد المؤتمر بليلة واحدة ... فلما سمع المستر جون خبر وفاته فزع أيما فزع ، وأصيب فى تفكيره بطائف من الشلل قضى على كل ملكاته وكفاياته ، وتناول الخطبة المكتوبة فلم يستطع أن يقرأ منها حرفاً ، ثم حاول أن يذكر الغرض الذى من أجله ينعقد المؤتمر غداة غد فلم يستبن من ذلك شيئاً ... ووقف ليرتجل الخطبة فلم يقدر على صوغ عبارة واحدة .

وتذكر السائل السحرى فجأة فبادر إلى أخذ الجرعة التى حددها له المغفور له الأمير أوتو متكوفتش ...

ماذا أصاب السائل أيضاً ؟ ! أين الشذى الجميل الذى كان يفعم الخياشيم ويجرى حديداً فى الأعصاب ؟ مالهذا السائل ينحط فى المدة كما ينحط الدواء الخبيث ، تعافه النفس ويتقزز منه الفم ؟ آه ! لقد ذهب السر الهائل بذهاب الأمير أوتو ؟! يالله ! لقد كانت نهاية المستر جون ماكلسفيلد الخطيب والمفكر السياسى الداهية أغرب من بدايته ! وعند ما اقتربت اللحظة الرهيبة المهمة فى حياته ... ابتعدت عنه كالبرق عوامل النجاح ... يا للموت !

ووقف المستر جون يلقى خطبته ... فماذا حدث ... ؟

« ماهذه الفهاهة ؟ ماذاك الهى ؟ ماهذا التفكير السقيم ؟ من الذى دعا ذلك الهيم لينهق فى ذاك المؤتمر ؟ ما لنظرائه تترجرج كالزئبق هكذا ؟ » ... ومثل هـذه العبارات القاسية أخذ المستمعون يلقون جون بألسنتهم الحداد . وفى الحق ... لقد

ظل الناس حيارى فى أمر هذا الرجل ... يعلو ويعلو ويعلو حتى لا يكون علو... ثم يهوي ويهوى ويهوى حتى لا يكون سُفل ... لقد ارتفع بالأمس القريب حتى لم يعد فى انجلترا كلها من يدانيه بلاغة وفصاحة وإشراق بيان وسمو تفكير ، فما باله الليلة قد هوى من حالق ؟ ! ليس أحد يدرى ! حتى ولا جون نفسه ... فلقد وقف فوق المنبر يبرق ويحملق ... ويبحث عن كلمة أو كلمتين يقولهما ، ولكن الكلام كله التاث عليه ... حتى ريقه جف فلم يستطع أن يبلعه ، وكان رطباً أبداً ! وأخذت العيون ترمقه ، والألسن تلقه ، ووقف مسكيناً حائراً كالطفل الضال في المدينة الصاخبة ... وذكر أوتو فتمتم بصلاة خافتة ، ودعاء حار أن يدركه الأمير الشرق من عالم الأرواح ببعض سحره ... ولكن ... هيهات! فلقد سادت قاعة المؤتمر صمت يشبه الموت... وتبددت نفس المسكين لهفات وحسرات !

— « إنطق يا صاح ... تكلم ... إن برادفورد بريئة إذا طال هذا الحصَر[1] ... تكلم ... إنك موشك أن تقضي على شرفنا ! »

من كان يرسل هذا الصخط فى جو المجلس ؟ آه ! إنه رجل من برادفورد ! وهكذا سقط الستر جون ما كسفيلد من عالم السياسة والمجد البراق سقطة لاقيامة له من بعدها ... ودخل إلى هذه الدنيا الهادئة المتواضعة ... دنيا المراعي والأغنام والأصواف ... ولم يعد يدور فى خَلَده قط أن يضع إحدى قدميه فى دار البرلمان العتيدة ، ذات البريق وذات السنا... بل آثر برادفورد الساكنة ، ولم يعد يقبل إلى لندن إلا مرة فى رأس كل شهر ، حيث يقيم ليلة أو ليلتين فى فندق ألزتر هول ، ليشرف من النافذة الجميلة على الهايد بارك ... ويجتر هناك أحلامه

وتذكر السائل العجيب السحرى مرة بعد وفاة الأمير أوتو بستة أشهر ... فراح يجمجم فى نفسه ببعض العبارات : « يا له من سائل ! لقد كان خداعاً عظيما ... ومع ذاك فما أظنه كان خداعاً صرفاً ، ولا وهماً محضاً » — وكان يجلس عند النافذة المطلة على الهايد بارك ، وهو يرسل هذه الكلمات ، وفى يده الزجاجة الخضراء التى كانت ما تزال تحوي قطرات من السائل السحرى ، كانت تشع سناء حلواً مشبعاً بالذكريات ، رغم الأشهر الستة الطويلة

ولما نام أخذت الأحلام تسبح فى رأسه المضطرب ، وسمع هاتفاً عجيباً يأمره أن ينهض من فوره ، فينطلق فى شوارع لندن لأن حظاً جديداً ينتظره ... وقد يكون فيه إسعاده ...

وهب من نومه ليضحك ملء شدقيه لهذه الرؤيا الشاردة

وكان الليل جميلاً مقمراً ، وكانت ليلة من أخريات الصيف اللندني العجيب ، فخطر له أن يحقق مدى ما فى هذه الرؤيا من صدق ... من أجل ذلك لبس ثيابه ووضع فوق رأسه القبعة ، وهرول على الدرج وانطلق يذرع حدائق الهايد بارك إلى محطة فكتوريا ، وهو لا يدرى ما الذى يدفعه ليسير فى هذا الطريق بالذات ... ولما بلغ كنتدرائية وستمنستر ... وقف وجهاً لوجه ، حائراً مرتبكاً

(١) الحصر الى وعدم استطاعة الكلام

أمام فتاة نحيلة ، منهوكة الجسم ، متشحة بملابس سوداء ... ما كاد ينظر إليها حتى عرفها !

ولكن الفتاة انفتلت فى شارع ضيق ، ثم دخلت منزلا حقيراً ، فقال جون :

« يا لله ! إنه لا يمكن أن يكون هنا مسكنها »

ولم يدر ماذا يصنع ...

ثم رأى كأنه يحلم ... وها هو شبح الأمير أو تو يدفعه نحو باب المسكن الذى انفتلت فيه الفتاة .. وها هى يد الشبح تمتد إلى الباب فتفتحه ... حيث رأى جون ماكسفيلد حنة ، ذات الشعر الأحمر الذهبى ، واقفة خلفه !!

وصاحت حنة مذعورة : «مستر ماكسفيلد!»

ويتم المستر جون قصته فيقول :

— « حقاً لقد كنت غراً أيها لا أعرف ما الدنيا قبل أن أعرف حنة .. إنها خير من السائل العجيب السحرى الذى اخترعه أبوها ألف مرة !! هأنذا أخطب خطباء أهل الأرض وأعمق مفكريهم بعد إذ تزوجتها »

دمرى فتشية

كل ثوب مصرى علم من اعلام الحرية
تغزلها وتنسجها لنا
شركة مصر للغزل والنسج
وتبيعها جميلة متينة رخيصة
اطلبوا منتجاتها من
تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

إن عادت الحية ...

للكاتب الفرنسي هنري باربابلس

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

إياك واحذر من الاعتزاز بمواهبك كما كنت أفعل . فقد كنت أفاخر بما يسمونه قوة الذاكرة ! وأزعم أنها صديقة وفيّة لا تخونني أبداً . وما زلت كذلك أغبط حيناً وأحسد أحياناً على تلك النعمة المؤاتية سواء أكان ذلك ذكاء أو فطنة . تقول عقلاً واعياً أو عقلاً باطناً .. قل ماشئت ، ولكن ثق ياصاحبي أنني أعتقد أن في الكائن الانساني سراً كامناً ، بل قوة خفيّة ... سمّها شيطانة أو ملكة ... كما شئت ... فهنا السر (وأشار الأستاذ بيرون إلى رأسه) الذي يعجز العلماء عن تعليله ومعرفة كنهه .

كنت مسافراً من مرسيليا إلى باريس في قطار الليل السريع في عمل هام ينتظرني ذووه على أحر من الجمر ... نعم عمل سياسي سيأتي خبره في سياق حديثنا . وكان في صحبتي موسيو دربال الكاتب الشهير الذي قضى نحبه بفاجعة أليمة ... كان قصاصاً وشاعراً ولكنه من ذلك النوع المتبرم بالحياة . كنت قرأت كتابه « من الأعماق » وهو حافل بأنفس الخواطر والأفكار عن خفايا الضمير وخبايا النفس من الشهوات والوجدانات والعواطف . وكان دربال يأكل ويشرب وينام ويصحو بثيابه كاملة ، ويأبى أن يغتسل أو يحلق ، ويقول إن الأسد والفيل والنمر لا تغسل شيئاً من ذلك فلا حاجة به إلى الزينة . فتصور هيئة ذلك الإنسان المتوحش الذي وهبته الطبيعة تلك العبقرية النادرة وهو ينشدك شعره في فلسفة الحب وهو حافل بالبديع الرائع من شذرات النزل الرقيق والنسيب العذب ، ولو رأته فتاة أو كاعب لفرت من وجهه فزعاً

فسألت رفيق السفر : كيف صار إلى تلك الثورة وذلك القلق حتى أمسى متوقداً معذباً وهو الذي أفاض نفثات السحر على آمة الحب فكساها أجمل صبغة وأحسن رواء ، واجتنى من شجرة الأحزان والأشجان ثمار الفصاحة غضة يانعة . فقال لي : خيانة المرأة . خيانة المرأة هي التي ساقت إلى قلبي الحزن الدائم والشقاء المقيم ، فأصبح قلبي مجال الشك والريبة وموطن التهمة وسوء الظن

تعريف بالقصة

هنري باربابلس ، كاتب قصاص على نسق جي دي موباسان قليله يغني عن الكثير ، وكثيره رائع . جعل قصته (إن عادت الحية ...) على لسان موظف سياسي ، يحمل حقيبة دبلوماسية بين باريس ومرسيليا . وفجأة التقى في القطار بصديق قديم هو القصاص الشاعر كايهان دربال الذي كان شبه مجنون بحالة رثة . وراء على غناه وتلؤلؤ مواهبه يعيش عيشة الفلاكة ، فاستدرجه حتى قص عليه سبب قنوطه من الدنيا وزهده في الحب وسعادته الموهومة . وكانت القصة تتفصل وتتصل تبعاً لحركة القطار وبلوغه محطات الطريق وهو ابتكار في فن الرواية . فان القصة ليست سوى قطعة من حياتنا تلازمنا ونعيشها وتأخذ منا وتعطينا كالسفر نفسه الذي يغلقنا ويطوي المكان والزمان والأعمار معاً . أما اسم المرأة فهو لورا ، ويكتب أحياناً لورا وهكذا كتباه على الصورتين .

فسألته : أيلأن امرأة واحدة خانتك ، جعلت الجنس الأنثوى كله فريستك وضحيتك ثرت على نشاء العالم ثورة حنق وحقد عنيفة هوجاء وشئمت على النوع الإنسانى غارة شعواء ؟

فتهد ديربال من أعماق قلبه وحدجنى بعينين قويتين ثم قال : لقد ثبت عندى أنك لم تعرف خيانة النساء ولم تذق مرارتها ولم تكتو بنارها . إنك يا سيدى لا تعرف حقيقة قلب المرأة ... ولذلك لا تزال تظنها بهجة الدنيا وزينة الحياة وقسيمة الرجل وأداة سعادته ووسيلة هنائه . ومن العجب أن معظم الرجال يرون رأيك ، فليتهم يعرفون بعض ماعرفت ، إذن لتمنوا انقراض جنس المرأة انقراضاً لا رجوع بعده ، وإذن لساد الأمن والسلام فى الدنيا وانفسحت ظلال النعيم فى العالم ، وكف الناس عن التدافع والتنازع والتحاسد والتحاقد ، ولم تلق على ظهرها وغداً ولا شريراً ولا لئيما ولا خبيثاً ؛ إذ يصبح الرجل لا يرى لنفسه أدنى ثمرة فى الزام الرذائل والخبائث وارتكاب الإثم والجرم واقتراف الشر والنكر . هذا لا شك ما يحصل لو أن الطبيعة فى ساعة من ساعات تعقلها قضت بطمنة واحدة على بنات حواء كافة وأراحت الرجال من الجنس « اللطيف » . فابتسمت ثم ضحكت ثم ساورتنى المخاوف فقد دخل فى روعى أن بالمؤلف العظيم لا شك جنة لا تعرف علتها ولا يفهم سرها . ولعله كان أصيب إثر داء أو لوعة بأشنع أنواع الجنون ، أعنى ذلك الذى يكتسى ثوب العقل ويلبس زى الحجة والبرهان ! ! وقد تمكن بعقله الجبار أن يجعل من الجنون جمالاً ، وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كلألاء الشعاع ، يبهر عيوننا ؛ تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان . عند تمام الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وقف القطار فى محطة ديجون فدعوت الشاعر إلى شرب قدح من نبيذها المعتق ، فأبى إلا أن يشرب أقداحاً من الأبسنت وهو ما يسميه « بالشيطان الأخضر » ويتنزل فى لونه قبل أن يتجرعه . وفى الحق أن تلك الخمرة الخبيثة التى طالما ضللت العقول ، وحرقت الأكباد ، وأذابت المواهب النادرة ، كانت فى الأقداح كالزمرد الفائب تجذب النظر وتسرى النفس بارتشافها . وقد لمح ديربال إعجابى وتردد وهدش من اكتفائى بالنبيذ ، وهو شراب برىء إذا قارنته بشيطانه الأخضر الآثم فقال لى :

— إذا أرقتنى الأوجاع وسهدتنى الأوصاب ، خففت عنى وطأة الداء بهذه الكؤوس المترعة ، فتحول ذهنى عما أعانيه من الألم بذكرى أيامى الخالية وحوادثى الماضية ، وما انطوت عليه من المواطف والحسرات والتلهفات ، وخواطر التوبة والندم

فقلت له وأنا أتأمله : ترى ياصاحبى ديربال أى أدوار حياتك هى الآن أكثر تردداً على خاطرك فى ساعة الذكرى ؟

فقال : لم يكن دور الشبيبة وعصر الصبا ... كلا ! فلقد كانت ملذاته قليلة نادرة ، مشوبة فى معظم الأحيان بمرارة الألم ، إنما خيانة المرأة هى التى تتردد على خاطرى ، وفى أمثال هذه الساعة إذا خطرت ببالى الخواطر عن باريس وأحوالها وحوادث العصر ، وعن شهرتى وسمعتى ، أسرعت إلى طردها من رحى خاطرى لتوفير نفسى على ما تألم له من الوجدانات والأشجان ، التى تحركها ذكرى خيانة المرأة

كان الشاعر ديربال يتكلم ، وأنا أتحرق على قصته ، ولكنني لم أحاول قط أن أشعره بتلهفي ، فقد عهدت هذا النوع من الرجال يروغ منك ويعرض عنك ، إذا أحسّ بر غبتك في استطلاع دخيلة نفسه ، بل إنه ليفقد وحيه ، ويطفئ مُصباحَ إلهامه عامداً ، إذا ألزمته أن يروي عليك حديثه . يجب أن تتركه يفيض من تلقاء نفسه ، وإن عواطفه الجيّاشة لتطغى على هدوئه وتلجئه إلى الكلام ، ليخفف عن قلبه وطأة الألم ، فخير سبيل لك أن تتركه ، وإن أردت الإبسان في إهاجة شعوره ، فلتعرض عنه ، ولتظهرن عدم اكتراثك بالوقوف على سره ، وإلا فإن كل إشارة أو عبارة تنم عن اشتياق لحديثه تسد في نفسه مسالك القول ، ولقد فقد تصنعت الإغضاء وتعمدت التجني ، وما زلت سالكاً معه سبيل الدلال حتى عدنا إلى مركبة القطار ، وقد بثت فينا أقداح الخمر دفئاً وأحلاماً عذبة ، فاضطجع ديربال على المقعد الطويل ، واتخذ منه فراشاً وثيراً ، وأخرج من أعماق جيوبه المختفية وراء أردية لا عداد لها ، علبة مستديرة من الذهب ذات غطاء لازوردي مزدان بصورة لم أتبينها في بادئ الأمر ، ثم نقر على غطائها ورفعه ، وتناول على مهل بين أطراف بنانه مسحوقاً معطراً مما تحتويه العلبة وقال : هذه علبة زينتها وقد نقشت عليها صورتها ، صنعها لي كلود ياسيه ، ووراء الصورة مرآة صغيرة طالما نظرت إليها وهي تتزين بما فيها فانطبعت على صفحتها محاسنها ... أتصدق ذلك ؟ إنني عند ما أشتاق لرؤيتها ، أنظر إلى خيالها في المرآة ... لأنه لا يزال باقياً ، فأراها !! ثم أنشق عطرها ... أتصدق ذلك ؟ إني قادر على استحضار مباهجها وعبقها ، بعد أن ماتت واستقرت في جوف الأرض الندية في غابة قريبة من شارونيير ، تلك القرية الجميلة التي قضيت فيها أسعد أيام حياتي في صحبتها قبل أن أكتشف خيانتها التي استحقت عليها الموت . نعم الموت

— إذن ماتت تلك التي حملتك أعباء الحزن والنيرة ، وأسخطتك على الدنيا ومن فيها ؟

— نعم . ماتت

— وإذن كنت سعيداً حقاً بحبها في حياتها ؟

— كنت سعيداً ... وأعترف أني كنت أشعر أحياناً وسط هذه اللذائذ الرائعة بضئولة أحلامي وأوهامي وأحس أن أخيلتي كانت قاصفة حقيرة ، لأنني كنت أرى في عينيها بريقاً يوشك أن يكون لهباً . فأسألها فلا تجيب جواباً . كانت اللعينة سكوتاً آنيها الصمت الطويل والتفكير العميق ، فأسكرتها ذات ليلة سكراً شديداً فكانت تلك الشيطانة الانسية تزداد محواً ونمماً ، وكلما أمعنت في إغراق حرصها في كؤوس الخمر لأحل عقدة من لسانها أمعنت هي في اليقظة ، كأن خمرة وورجونيا وشمانيا وكونياك[1] عصرت خصيصاً لتزيدها حذراً وتكتماً ، ولكنها في آخر تلك الليلة بعد أن لا ينتها وداعبتها وعبثت بشعرها ومناعم صدرها وهصرت عودها وعصرت قلبها بما يقبل عليه كل عاشق مجنون في خلوة يحسبها لفرط عطشه وداع الحب ونهاية الغرام ، وقد جلست في الفراش عارية ، وكانت أشبه الأشياء بتمثال من

(١) أسماء مقاطعات فرنسية اشتهرت بعصر الخمور المروفة بأسمائها

المرض المشرب بلون الماج ، وقالت لى بعد برهة من وصالنا :

أى كليان . كليان دبريال... ماذا تطلب منى ؟ أراك لا يهدأ روعك منذ عرفتنى ، ولا تستقر على حال . تدأب تسألنى عن الماضى ، كأنك لا تقنع بحاضرى الذى بين يديك . ما ذا عليك من الماضى وما جرى فيه . أتظن أشد النساء بلاهة وزقاً تفضى إلى حبيبها بحقيقة حالها مهما برح بها هواه وسلمت له قيادها فقلت : هل بعد الذى نحن فيه سر يصان ، وهل وراء ما نرى وتتذوق خفاء ؟

— وهل يحب الرجال أبداً هتك الأستار ؟ هب معشوقة مفرطة فى السذاجة والصدق أفضت إلى عاشقها بكل ما رأت وعاينت وتألت أو فرحت وسعدت . أتراه يتقبل اعترافها بالتصديق والتسامح ؟ أم تراه يصاب بداء الغيرة التى تقتل الحب فى مهده يافعاً وفتياً . وإن هى صدقته وكان هو أول من أحبت ، فليس لها منه سوى الشك الباعث على اتهامها بما هو أشد من التصنع والكذب

فقلت لها : تضربين يا لور المحببة الأمثال بغيرك وتحومين حول لباب الحديث وخلاصته ويأبى حذرك أن تتكلمى عن نفسك ؟

فقالت : لو أن وراء الكلام الذى تقصد إليه خيراً لك ولى ، وحقك ما ترددت لحظة فى تسليمك مفاتيح قلبى ، وجعلتك فى حل من مغاليقه . ولكن واأسفاه ! ليس لدى ما أبوح به غير أنى امرأة شقية بائسة ، لقيتك فى وقت كنت فيه أحوج ما أكون للعناية والرحمة والمواساة والحب ، فأحببتنى وعنيت بى ورحمتنى وواسيتنى ، وفرجت أزمة نفسى التى كادت تسحقنى وتمحقنى ، حتى لقد اعتقدت أنك مرسل إلى من السماء ، فإنى على الرغم مما وقع بى من كوارث الحياة ونكباتها ، لا أزال بى بقية من الإيمان الذى نشأت عليه وأظلتنى شجرته

فقلت لها : عجباً يا لور . لم أسمع منك قبل هذه اللحظة أنك كنت فى ضيق وألم وأنى خففتها

فقالت : أكنت تريد أن تمن علىّ وتتطاول وتحاول إذلالى

قلت : من أين لك هذا الظن السىء ، ولِمَ لم تحسبى أنى أشاركك الأسى وأترفق بك ، وأتلطف فتخف لوعتنا معاً ، فإنى أنا الآخر وليد شقوة وحليف آلام وأليف أحزان

فاطمأنت المرأة قليلاً ووهمت أنها همّت بالكلام الصريح ثم عادت فأطرقت ونظرت إلى الفراش بعينين واسمتين ثم صوبت نظرها فىّ وسعدت . وأنا أتحرق من التيظ والصبر الطويل وأتعجب لهذا السر الذى انطوت عليه أضلاعها وأنظر إلى فمها المتلئ بأقفال الصمت القاتل ، ثم قالت : إسمع الآن يا كليان ... لقد عرفت قبلك رجالاً ، صناراً وكباراً ، فلم يسدوا حاجتى ولم ينفعوا غلتى ولم يمنعنى حبهم المشتعل من الاسترسال فى التمنى والتطلع والتخيل ؛ وكنت أحس فى نفسى فراغاً مجهول العلة ، لا يملأه شىء ألبتة ، وأجد فى مهجتى تلهفاً على نوع آخر من السعادة لا أفهم كنهه ولا أعرف ما هو ، ولكنى أشعر بشدة الحاجة إليه ... إلى أن التقيت بك فأحببتك وأخلصت لك وها أنا ذى أقسم لك ...

فقلت لها : لورا ! لورا العزيزة المحبة ! بالله عليك لاتقسمى ، ليس من وراء القسم إلا القطيعة ، فإن المرأة المحبوبة لا تقدم على الإيمان إلا إذا أحست بدبيب السأم فى قلبها فتريد أن تستوثق من دوام حبها ، وتمحو فكرة الشك من نفس عاشقها . وبدأت الخليفة تبكى وتنتحب وتمرغ خديها على صدرى ووجعى وتنفرس أظفارها فى لحمى حتى كادت تدمى يدى فقلت لها :

لورا ! لورا ! لا تؤذى عينيك الجميلتين بالبكاء ناشدتك الله ! عيِّنى مدامعك وكفكفى عبراتك فوالله ما قصدت إلى إيلامك أو إيذاء عواطفك ، ولا الفضول والتطفل على خصوصياتك وأسرارك ودخائلك وإن كنت أجدنى مدفوعاً بأقوى عوامل الرغبة إلى الاهتمام بنفسك والسعى وراء مصلحتك

عندئذ نصبت المرأة قامتها وقذفتنى بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه من البغضاء والكراهية وقالت لى : أتحسبنى من النساء اللواتى تستدرجهن النغمة ، إن قلبى أيها الرجل لايباع ولا يشترى ، إننى أعز وأعلى من أن أكون سلعة ، إن الرجل الذى يستطيع أن يدفع ثمنى لم يخلقه الله بعد . إياك تسخر منى وتهزأ بى ، ولكن اعلم يا كليان أن قلبى إن نازعنى فى هواك لأخلعنه من صدرى لأسحقه تحت قدمى . ولم تكد تتم قولها حتى راعنى وآلمنى ما أبصرت من شدة اصفرارها وامتقاع لونها ، فأيقنت صدقها ولم يبق فى ضميرى أثر من شك فى إخلاصها وصدق مقالها

فقلت لدبريال الذى كان يروى حديثه :

— ألم تكن صادقة بعدالذى وصفت ؟ فنهض دبريال ووقف بقامته المديدة وسط مقصورة القطار حتى كاد يصدم برأسه مصباح السقف الذى كان يشبه بطيخة من الزجاج الأزرق ، وصرخ :

« صادقة ! مخلصة ! ما ذا تقول يا هذا ؟ إعلم هديت الرشد — أنه ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء أنهما ووزرها ، وعلى رؤوسهن تيجانها ومسؤوليتها . فقلت له: موسيو دبريال هدئ روعك ! فقال : تكاد نفسى تطير شعاعاً كلما التقيت بساذج مثلك ، لا زال يحسن الظن بالجنس اللطيف . إن النساء أغلظ أكباداً من أن يتألمن شديد الألم أو يكترثن عظيم الاكتراث عند رؤية مناظر الشقاء ومشاهد البلاء والمحنة — فهن ينظرن إلى مأساة الحياة تمثل على مسارح الدنيا ولا يكاد يخفق لهن بالأسف جنان ، أو تسيل لهن من الرحمة والرثاء أجفان . ولكن دموعهن تنهمر من أعينهن كالمطر إذا أردن أن يمثلن دوراً باهراً . على أننى لا أحب أن أفسد سياق القصة بهذا الاستطراد .. عند ما رأيت بكاءها وغضبها ، آمنت بصدقها ولكن هاتفاً كان يهتف بى من أعماق نفسى أنها كاذبة . كذلك كان شعورى ، وإنه لشعور صادق وهو مزية لم تزل تميز أسرة دبريال منذ أقدم الأزمان ، وقد ورثتها عن أبى الذى ورثها عن أبيه ، وما زلت فى كل مسائلى وشؤونى أأتمر بأوامر هذا الهاتف فأهتدى إلى الصواب وأوفق إلى أحسن المواقب . فقلبى حدثنى بأن لورا خادعة خائنة ، ولكننى كنت جد حريص على إتمام سعادتى فى تلك الليلة وأخشى أن تكدر صفوها بالمويل والنواح ، فدنوت منها وأخذت يدها بين راحتى وضممتها إلى صدرى وقلت لها :

أنظرى إلىّ واصغى لقولى ! سيأتى يوم تعلمين فيه أن سلوكى معك الآن لم يصدر عن رغبة فى إسخاطك أو إساءتك ، وغايتى أن أبذل كل ما فى طاقتى لإسعادك ورد الأذى عن شخصك المحبوب ، أتوخى بذلك أن أكون أصدق صديق لك وأنصر نصير فى حياتك . وكنت أحسب هذا القول اللين الذى صدر عن إخلاص وشفقة يصل إلى أعماق نفس تلك المرأة التى ألقت شباكها على قلبى ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عند ما قالت : كلكم سواء . لا فرق بين الواحد والآخر ؛ كلام عذب ووعود معسولة ، وقلوب سوداء . فقلت لها : كلكم ؟ كلنا ؟ إلى من تقصدين يا لور ؟

فقالت : أقصد إلى جنسكم جنس الرجال الخائنين ، فأنتم تبذلون قصارى الجهد حتى تنالوا مآربكم من المرأة التى تخدعونها بحبكم ثم تعرضون عنها . فذعرت من قولها لأن الدهشة كانت أقل من أن تكفى فى مثل هذا الموقف وقلت لها : هل أستحق منك هذا التأنيب وأنت التى قلت إننى ملأت فراغ قلبك ، وفرجت أزمة نفسك وبكيت منذ هنيهة حتى عميت وبللت صدرى بدموعك ؟

فقلت لكاليان دربال الشاعر : كان عليك أن تكتفى بهذا القول منها ثم تقطعها إلى الأبد فاذا ينفصك بعد هذا البرهان على اعوجاجها وتقلبها ، أنت يا من تقول إن سريرتك تهديك ، وهاتفك يدلك . فلم يتحرك دربال فى مضجعه وقال :

— أنت رجل سياسى ناضج . ولكنك طفل فى حياة الحب . لو أن الإنسان كان خالياً من العواطف لأبصر الأشياء كما هى وعلى حقائقها البحتة المجردة ، ولكن الإنسان لا يتأمل الدنيا وأشياءها وشؤونها بقلب فارغ وفؤاد خال وشعور بارد جامد مثلكم أيها الساسة . ولكنه فى معظم حالاته إن لم يكن فى كلها ينظر إلى الدنيا وأشيائها بنفس مشغولة بعاطفة واحدة أو أكثر ، فإذا نظر رجل مثلى إلى إنسان أو شىء من وراء عاطفة الحب متخذاً من هذه العاطفة منظاراً ومجهراً يتأمل به ذلك الشىء كان خليقاً ألا يبصره على حقيقته وكنهه ، بل يراه منحرفاً مُزَيِّناً يشتى صفات الوهم والخيال ، ولكنها أحق فى نظره من الحقيقة ، فهى وإن كانت فى نظر غيره وهمية لكنها فى نظره كائنة موجودة بل مرئية ملموسة

— إذن كنت يا موسيو دربال تحبها إلى الحد الذى يحجب عنك الحقيقة وراء ستار من الأضغية والأوهام

— أحبها ؟ لم أكن أحبها بذاتها ، ولكن كنت أحب الحب فيها . وإنها لعاطفة أقوى من حب المرأة لأنها أحدثت فى نفسى شعوراً غاية فى الحدة والشدة ، كان يلهب فى قلبى ويتأجج فى سويدائى فأضيق به ذرعاً ، وكنت أبرز ذلك الشعور فى شعرى وقصصى التى فرّجت عن نفسى وكشفت غمى وسرّت هى . فكنت أشعر كمن أخرج جمرة من بين أحشائه ، أفاهم أيها السياسى ؟ جمرة من بين أحشائى

وفى تلك الليلة التى بدأت كأسعد ما تبدأ ليالى الغرام ، وأوشكت أن تنتهى كأسوأ ما تنتهى مآسى القطيعة صحت عزيمتى على مفارقة تلك المرأة فراقاً لا لقاء بعده ، فنهضت مترفقاً وارتديت ثيابى فى هدوء

قلت لك إننا كنا نعيش فى قرية شاربونيير ، إحدى ضواحى جرينوبل فى منزل صغير جميل أعدته لنا مدام بوديه ، وهى امرأة من أهل البيوتات الكريمة قمد بها الدهر ، فانقطعت للرزق من سبيل إيجار المساكن المؤثثة على أجمل طراز وأرشقه . وكنت أحب أن أطلعها على حقيقة أمرنا لعلى أفوز منها بمشورة ناصحة لأنى لمحت فى عينيها وميضاً يوشك أن يكون إفصاحاً بشفقتها على من تلك المرأة المتقلبة المتحكمة ، ولكن سكون الليل الذى كنا فى آخره وحرمة الهدوء السائد على الكون وذكرى الساعات القليلة التى قضيتها فى جنب لورا ، وقد تكون من أشد وأمتع ساعات العمر ، دعتنى إلى التريث والصبر حتى يتنفس الصبح

فلما رأتنى لورا ألبس ثيابى قالت : أتتركنى هكذا آخر الليل ؟ أو يطاوعك قلبك لأنى أفضيت إليك بمصارة قلبى وأطلعتك على ما لم أطلع عليه أحداً قبلك من خلق الله ؟

فنظرت إليها فإذا بى أراها وقد تغيرت معالمها — وجه حسن الملامح حقاً ولكنه جامد التقاسيم ، كأنه قد صب فى قالب من حديد ! فلست ترى به أدنى دليل على رقة المواطف أو أقل شاهد على ذكاء القريحة ، فكان هذا الجمود فى عينى أسوأ أثراً وآلم موقعاً من مقابح الخلقة ومساوئ التقاطيع

فقلت لها : أجادة فيما تقولين يالور ؟ أم هازلة عابثة ، تبذلين القول الجميل لتستبقينى بجانبك حتى الصباح ، فإنى أعلم أنه ليس شئ أشق على نفس المرأة من أن يهجرها عاشقها فى مضجعها ... ولعلك تخشين أن يتجدد حبك — إن كان فى قلبك حب فى تلك الفترة القصيرة التى سوف تشعرين فيها بالوحدة بعد انصراف من هذا البيت ، وسوف تساورك الشكوك وتستأذن النيرة على قلبك ، حاسبة أننى ما غادرت فراشك إلا لأندس فى أحضان غانية أهواها ، أو أتصيدها نكاية بك وانتقاماً منك . ولعل الذهن المريض أو الخيال السقيم يصور لك أننى ارتجلت تلك الشادة ، وابتكرتها وارتجلت الشقاق وفتحت باب الشجار على مصراعيه لألتمس لنفسى عذراً ، ولأبرر موقفى منك إذا عاتبتنى أو حاولت إرضائى . فأنت يالور كظلى إن تركتك بعتنى ، وإن تبعتك تركتنى ، تعملين خلاف ما أريد ، حباً فى مماكستى

وكانت المرأة صامتة . وجعلت نظرات الحنق تتطاير من عينيها الناشبتين تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أوتاره ، وقد حاولت أن تتظاهر بسدم الفطنة إلى إشارتى وعدم الشعور بها ، فقلت لها : من ذا الذى أغراك يا صديقتى الحبيبة بأن تمثلى هذا الدور المنكر أمامى ؟

ودنوت منها وهى لا تزال رابضة فى فراشها وجلست على حافة السرير متلطفاً وقلت لها :

— إن شئت بقيت ، وإن شئت ذهبت ، وأنا على الحالين راض عنك مادمت لا تحملين لى بين جنبيك الناعمين حقداً ، فقالت :

— أحمل لك حقداً ؟ وعلام ؟ ألأنك تغادر بيتى وبيتك كما يغادر العشراء مضاجع المحظيات قبيل الفجر ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن يفضحهم نور النهار ؟

ابق إن شئت ، ولكن على ألا تمسنى بخير

بشر ، ولا تقاسمني في أمر من الأمور التي أستطناها من حسابنا . ثم بدا بوجهها من آيات السخط والضجر والتبرم ما لم أر مثله قط فجعلت لا أدري أي مقدار من هذا السخط والاكتئاب كان فطرياً غريزياً في خلقها وأي مقدار كان طارئاً لعلة من العلل حتى أزالت هذا الشك ، بأن تناولت من جانبها طرحة من حرير ليون الفاخر ، كنت أهديتها إليها فظننت أنها تريد أن تتلفع بها ، ولكن الفتونة تناولتها بيد عنيفة خرقاء ، ومزقت حواشيها كل ممزق — فنهضت من جانبها وقد علمت أن ما كان يلوح على وجهها من دلائل السخط والاشمئزاز إنما كان من غريزة شر وشراسة ، ونحيزة غلظة وجفاء ، وليس لسبب حادث أو علة طارئة

وقصدت إلى الباب أعالج رتاجه لأغادرها خشية أن يزداد شرها فيحدث بيني وبينها مالا تحمد مغبته وبورث الندامة ، فانتفضت من الفراش وطارت إليّ ، وقبل أن أدرك ما تريد طوقت عنقي بذراعيها وهي تجهش بالبكاء وقالت :

— كليان ! كليان ! بربك لا تتركني وحيدة . عد إليّ وأنا أعاهدك على أن أجعلك أسعد المشاق ! ألم تفهم يا غادر ؟ إنني أحبك من أعماق قلبي المحطم ، ولكن كبريائي أقوى من حبي ، فلا أستطيع أن أبوح لك أو أسترحمك . هل أنت أعمى فلا ترى شدة وجدي ولوعتي عليك ؟ ثم لم تلبث أن ركعت وتشبثت بساقي كما يتشبث الطفل الخائف بركبتي أمه ودفنت وجهها الناري في ثنايا معطفي وقالت :

«ها أنا ذي أمرغ خدي في تراب رجليك ، وأنا التي لا أستحق أن أربط شراك نعليك ، فاعف عني واغفر لي واصفح وراجعني فجدني أطوع من بنانك لا أطيق هجرك ولا أستطيع الحياة بدونك ...

فوحقك يا صاحبي بكيت ، وانفجرت في قلبي ينابيع الرحمة وأهويت عليها تقبيلاً وضماً وحملتها بين يدي كالحمامة الوادعة إلى الفراش الذي كان لا يزال دافئاً من أثر رقادنا ، وما زالت ترتمش بين ذراعي وتبكي وتناوه ، وتئن وتمن وتشهق حتى صالحتها وضممتها إلى صدري وجففت دموعها براحتي

وقلت لها : عديني وعاهديني !

قالت : أعدك وأعاهدك على ما ترغب ! أنا جاريتك وأسيرتك وملك يمينك فاصنع بي ما شئت وكن قاسياً فلا أستحق رحمتك

قلت : لا أطلب شيئاً من هذا ، بل عاهديني على ألا تعبسي ولا تقطبي جبينك ، ولا تكرهي محاسن وجهك ، ولا تستشيطي غضباً ، ولا يجن جنونك بعد الليلة ...

فقالت : أعدك وأعاهدك ، ثم نهضت وخلعت عني ثيابي في عطف وحنان . وكانت لها طريقتها في تناول أردية حين ألبسها وحين أخلعها حتى لتشعر أنها تهبها شيئاً من حبها لصاحبها . وتقدمت نحوي وعلى وجهها نور البشر والطلاقة ، وفي شمائلها معنى الصراحة والحفاوة والفرح بالصلح الذي تم فملأ شمائلنا بعد شتاته ، ثم أخرجت من قطرها قدحاً فضياً كبيراً إغريقي الصنعة وملأته بما احتوته القناني من النبيذ الأحمر وقبضت عليه بكلتا يديها وسقتني ثم شربت وجلست أمامي وأخذنا بأطراف الحديث فما لبثت أن وجدت في سهوله حديثها وعذوبته

2017-11-13 06:06:13

ما أزال سؤر ريبتي ونفي حشالة شكوكي، وبعد هنيهة أخذت تنبسط وتنطلق وتتحلل من قيود الكلفة السابقة إلى أن بلغت حدود الثرثرة والهذر والاسترسال في سخافات القول وتفاهاته، والمرء منا نحن الشعراء يستملح هذه المفاتن من الأنثى الجميلة إذا كان في حلاوة الفم الناطق بها ووميض ثغره ورخامة صوته عوض عن تفاهته وقلة قيمته. فأفرغنا أقداح الشراب مثنى وثلاث وما زلنا نشرب حتى روينا. ثم رشفنا ما شاء الهوى من أقداح الغرام ...

* * *

وقف القطار في محطة ليون ونادى المنادي بأن مهلة الانتظار أربعون دقيقة كاملة وأن بالمحطة مقصفاً للطاعمين والشاربين. فنهضت ودعوت دربال إلى النزول فتململ في فراشه ثم تحمل الأعذار، زاعماً أنه يحب تلك المدينة ذات الدوي والطنين تحت أروقة الظلام وسرادق الظلماء، فقلت له: إنك تصف ليون منذ عشرين عاماً، أما الآن فهي عروس المدائن وبهجة المواسم، ومسرح الفوانين، وقطب دائرة المغاني، وما زلت به أغريه حتى نهض إلى خوان المقصف وعاد إلى مساقرة شيطانه الأخضر ثم عدنا إلى مقصورتنا في القطار قبل أن يدق ناقوس الرحيل بفترة وجيزة. وعاد دربال إلى حديثه بلسان دافق وقلب خافق، وما زالت عجلات القطار يسمع صريرها وهي تقطع بنا مئات الأميال في عالم الليل القديم، فقال:

— لعلك لو زرت شاربونيير تعرف جمال ما يحيط بها من الحراج والغاب. وكانت لور عقيب مصالحتنا تحثني على الخروج بقية اليوم، فنراعي السير، ونسي رويداً نلتمس في أعماق الغاب مكاناً قفراً وبقعة خالية، لا يبصر بها عاذل، ولا يشاهدنا رقيب؛ ثم نبتني بين الأشجار اللفاء عجلاً غامضاً خفياً، نكون أول من أفضى إليه من بني الإنسان، فنأوي إليه، ونطمئن فيه، آمنين ألا نصاب بثالث يضايقنا بدخوله بيننا وبين الطبيعة. وفي تلك البقعة كانت عروس الطبيعة تتجلى في أجل منظر وأحسن زينة، وتخيل إلينا، أنها تجدد صورها وتبدل أشكالها وألوانها، في كل آن ولحظة. وإني لا أكتمك أنني في أوقات تلك الخلوة كنت أتصور وجه معشوقتي كأحدى بدائع الطبيعة، يزيدك حسناً كلما ازددته نظراً، وكأن جمالها من تجدده متنقل للعين في صورتها متعاقبة، فلا تسأمه العين ولا يمله المتأمل مهما طال النظر إليه. وكان في جلال الأشجار وفي أنواع الريحان والأزهار ما يملأ أعيننا جمالاً، ولشدة ما ارتبطت روحانا كنا ننطق بعبارات متحدة في اللفظ والمعنى. وهذا توارد الخواطر الذي يمثله امتزاج الروحين واندماج الذهنين كقولي لها: إذا ضرب الدهر يا لور بيني وبينك، وكان الفراق على الرغم مني منك ثم افتقدتني، فالتمسني يا نور عيني في هذا المكان الذي نما فيه حبنا وترعرع، وازدهى زهر غرامنا وأينع

فصاحت في نشوة الفرح وقالت:

— صدقني يا كليمان، إنني صنت هذه الجملة بألفاظها ومعانيها وهممت أن أقولها لك «فالتمسني يا نور عيني ...» فسبقتني إليها ...

* * *

مر الربيع وتلاه الصيف وأقبل الخريف وولى

وجاء بعده الشتاء ، وكنا قد هجرنا الغابة وموطننا الخفيّ ، وانقطعنا عن الذهاب إليه بضعة أسابيع . وعدت يوماً من جرينوبل إلى شاتونيير قبيل الظهر وقصدت إلى عش غرامنا فى الثوى القصي نقطنه ، وكنت أحمل بين يدى هدايا وتحفاً وأزهاراً للورا كعادتى كلما وجدت رزقاً فى خزائن باعة الكتب المتلاعين ، أو وصل إلى يدى نقود من دخل أبي التى تجد وتكد فى حرث مزرعتنا فى الهوت مارن ، أو فاضت بعض حقوق التأليف المسرحى من بين أنامل هرتز ذلك اليهودى الشحيح الذى كان يدير ملعب سلستان ، ويمثل بعض قطعى على خشبة مسرحه . وفى ذلك اليوم الذى لا أنساه تجمعت لدىّ أرزاق من مصادر ثلاثة ، ففرحت بها وحملت الهدايا إلى لور التى تخيلتها تنتظرنى كعادتها متكئة على إطار النافذة لتحيينى عن كثب ، إذا ما دنوت من سور الدار ، وكنت أشعر بالشباب والعافية ، وأحس دفء الحياة التى ينفخ الحب فى نارها . وأعتقد أننى لست وحيداً فى هذه الدنيا ولا شقيًّا ، وما أنا بحاجة إلى إيناس الأصدقاء والخلان ، ما دامت هذه المرأة تحبني . فلما دنوت من الباب رأيت مدام بوديه وزوجها يتهامسان على سورة لم أعهدها وكان الإشفاق والحنان بادين على وجه المرأة ، والسخط والحيف مرسومين على سحنة زوجها . كان ذا وجه مُدَّكر قبيح ، ملتف اللحية ، كث الحاجبين ، ذا صوت غليظ أجش . وكان أهل الضاحية يسمونه الصنم ، والقطب المتجمد الشمالى ، وبرذون عازار[1] . فكان أول ما قاله لى على غير عادة سابقة : كم الساعة وهل تمطر السماء اليوم ؟ وهل تناولت غداءك ، وماذا أعددت للفاجآت ؟ فابتسمت لزوجته التى كانت مثال الوقار والحسن القابل ، فلم ترد على ابتسامي بمثله ، بل ألقت على زوجها نظرة كطلعة الخنجر بل أحد ، ثم قالت : ضع حملك الجميل ها هنا أيها الشاعر الظريف ، ولا تكبد نفسك مشقة الصعود به ، فهذه وظيفة تؤديها الوصيفة

فأطعتها وقلت وأنا على أحر من الجمر للقاء لور: حتى أجيب على أسئلة بملك المحترم !

فقالت : لا عليك يا سيدى ! فإن للقردة والسنانير لغات كما لشعوب البشر ، وإن لضفادع هولاندا نقيقاً أشبه بأصوات بعض الرجال ، ولملك لا تعلم أن الاسم الذى يحمله يدل على...[1]

(١) إشارة إلى اسم الجحش وفى أسماء القرنجعة كثير من هذه الغرائب

(١) كلة Baudet وهى اسم الرجل سماها جحش وهو الحمار الصغير

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

فضحكتُ . ولكنها لم تضحك واستمرت فى تأنيب زوجها بالمجاز والتورية والكناية وأسلوب الحكيم « وعندى أن كل إنسان لا يضبط منطقه وليس له على لسانه سلطان يصرفه فى وجوه الصواب من القول ، ويجريه على أصول الحديث المشروعة وقواعده المألوفة فإنما هو مقلد لأحد أصناف تلك الأنعام ، يحكى عجمتها ، وعلى هذا القياس يكون القرار المهذار كالقرد والببغاء ... »

وقد شرب زوجها (وديه) هذه الكأس حتى الثمالة ، ولم ينبس ببنت شفة !

فلم أفهم طبعاً سبب هذه الحملة من المرأة المؤدبة على زوجها الرزين ، وإن كنت عهدتها لا تقيم له وزناً ، وتعاشره على حساب الماضى ، وقد ولى الشباب وذوى الجمال وهدأت ثائرة الهوى فى نفسها واقتنعت أنها لن تكون فتنة للعالمين ، فأخلق بها أن تخلد إلى الراحة بجوار مذود هذا الذى اسمه وصوته من أنكر الأسماء والأصوات

ثم دعتنى السيدة للجلوس وأمرت الخادم أن تخفف عنى عبء الهدايا التى أحملها . وكان المطر بدأ يهطل ثقيلاً ثم انهال البرد بسرعة فائقة ، فعجبت من تكهن « الجحش » بالمطر وهنأت نفسى ببلوغ الدار قبل تساقطه ، ومنيتها بالدفء فى الركن الركين حيث تنتظرنى لور بالطبقة العليا من الدار

ولكن مدام وديه اكفهر وجهها وتجهم ، وكلما زاد انهمار البرد زاد وجهها تقطباً وعبوساً . أما زوجها فكان قد ولى الأدبار بعد أن عبث بلحيته الكثة الكثة بأنامله الطويلة القذرة ، فدنت مدام وديه فى رفق ونظرت إلىّ ، فقلت لها : لِمَ أراك مقطبة الجبين على غير عادتك وقد عهدتك أبداً هاشة باشة ؟ أيقبض نزول البرد نفسك حتى هذا الوجوم ؟

فقالت : إن الآنسة خرجت منذ الضحى ولم تعد ، فأخشى أن عنتاً يصيبها لدى عودتها ، لأنها لم تتخذ لهذا المحبوب المغامج عدته

فقلت : الآنسة ؟ ابنتك ؟

قالت : كلا : الآنسة لور صديقتك

فكدت أصعق ، لا من وقع الخبر ، ولكن من شماتة بهيمة الأنعام السيور[1] وديه ، فقد أدركت الآن سر تهكمه وسؤاله عن الساعة والمطر والنداء

فقلت لمدام وديه وقد لمحت فى عينيها دليل الشفقة علىّ : وبم تشيرين علىّ فى هذا الموقف الحرج ؟

فقالت : إما أن تنتظرها وإما أن تبحث عنها ، فقد رأتها جانيت تسلك السبيل المؤدى إلى خان « الجواد الأبيض »

فقلت : الجواد الأبيض ... آه ! إنها ذهبت إلى الغابة التى تخلو بها أحياناً ، ونهضت أقصد إلى الباب فاستهلتنى مدام وديه حتى أحضرت مظلة بالية أتقى بها البرد الذى ما زال مستمراً على شدته

ولما بلغت خان الجواد الأبيض واستدرت فى الطريق الواصلة إلى الغابة كان الثلج إذ ذاك يتساقط فى فضاء الجو ، والريح تصرخ وتعول ، ومصاريع النوافذ يشتد اهتزازها ويرتفع صريرها ، وكل شىء صادف عينى وصافح أذنى ينسج بالشؤم طائره ، ويجرى بالنحس فأله . وكنت أقطع الطريق فى أيام الصحو فى ساعة ، فما بالى اليوم والريح تضرب

(١) يقال سيور الرجل الذى لا يسوده المتكلم بلفظ موسيو

وجهي كأنما تريد صدى وردي ، وتملأ فراغ المظلة فتحطم أسلاكها الدقيقة وتمزق قماشها البالية ، وتجذب بأطراف ردائي كأن لها عندي ثأراً ، فرأيت عجلة لبان يقصد إلى المزارع النائية ، وهو بلا ريب يمر بالنباية فاقترحت عليه أن يسمح لي بمصاحبته لقاء الأجر الذي يطلبه ، فتلطف وقبل ؛ وظننت أننا نبلغ النباية في نصف الوقت الذي يقتضيه الراجل ، ولم يكن في طاقتي أن أحادثه أو أسأله واكتفيت بأن تسلقت المركبة وتخلصت من المظلة مستهدفاً لأخطار الطريق ، فإنها لم تكن تقي حيال هذه العاصفة الهوجاء . ولم نكد نخرج إلى العراء حتى ارتفعت الريح وهبت علينا زوبعة ثلجية أعشت أعين الجواد وقائده فلم يبصرا شيئاً ألبتة ، واختفى عليهما الطريق وسدت في وجهيهما المذاهب ، وغابت الكائنات أجمع ، وكل شيء في ضبابة كثيفة سفراء جملت شظايا الثلج خلالها تتساقط وتتهاوى ، واختلطت الأرض بالسماء ، وسار الجواد بالعربة على رسله وكما شاء ، لا وجهة ولا قصد ، وفي كل لحظة يثير في كثيب من الجليد ، أو تنزلق حوافره في جحر ، فكانت العربة لا تزال تقلب وتكب ، ووجدت أني بالرغم من انقضاء نصف ساعة أو أكثر لم نصل إلى النباية ؛ ومضى نصف آخر وما لاح لنا شبح النباية فصممت على الانطلاق على أقدامي مستهدياً بالإلهام الرباني ، فإن الله أكرم من أن يتخلى عني في هذا الموقف الحرج . ونفحت اللبان بما أطلق لسانه بالشكر فنهاني عن مطاوعة الوهم وأنذرني بالموت المؤكد . فلم أعبأ بإنذاره وتوجلت أخوض غمار الثلج بإرادة قوية وعزيمة مدهشة . كل هذا والعاصفة في أشدها لم تفتر ولم تسترح والجو مريد الجوانب مكفهر النواحي لم يستعد أدنى شيء من صفائه ، وكان الكلال قد دب في وسري إلي الآن والإعياء وأقبل العرق ، نعم العرق يتحدر من جبيني قطرات كباراً بالرغم من أنني كنت لا أبرح مدفوناً إلى ساق في الجليد المتراكم . وأخيراً لاح على بعد شبح أسود ، فتوجهت نحوه حتى إذا دنوت منه ألفيته النباية المنشودة والنباية المقصودة فتنفست وحمدت الله الذي قرب البعيد وهوّن العسير ، ثم سرت بمحاذاة سف من أشجار السرو راجياً أن أعثر بالمسلك المؤدي إلى المستقر الذي كنا نلجأ إليه . وما لبثت أن أصبته فأخذت فيه وأمعنت في ظلمات النباية ، وكان الشتاء قد جرد الشجر من ملاحفه ، ولكن جوف النباية بقي من عبث الرياح مصوناً

فاستردت طرفاً من نشاطي وميتي واستجم لي بعض جأشي وطمأنينتي

فقد كان أخوف ما أخافه أن تفاجئ العاصفة تلك الفتاة المسكينة فترعبها وترهقها ، حتى إذا أيأسها الرعب سقطت مغشياً عليها ولا تزال كذلك حتى تدفن بالحياة تحت ركام الجليد . ولم يخطر ببالي أن طائفاً من الشرداء ، أو وحشاً في صورة إنسان من المجانين أو طرداء الشرطة يفجأها فيفترسها

وما إن بلغت المكان المعهود حتى رأيت منظراً أتخلع له قلبي ؛ فقد رأيت لور ... في أحضان رجل بأمس من الثلج والجليد ، لأن جوف النباية كان مصوناً من عبث الرياح وحصيناً من عبث العاصفة . كانت التاعسة مجتمعة بين ذراعي الرجل وصدره كما كانت تطمئن إلى ذراعي وصدري

وعند ما دنوت من مرقدهما نهض الرجل وقال بأعلى صوته : من أنت وماذا تريد ؟ فتنهدت المرأة ورأتني فجزعت وارتاعت وزايلها الرجاء واستلكمها اليأس ، ثم استردت شجاعتها وعادت إليها قحتها

2017-11-14 15:03:13

وخورها ووقفت كالبلوة التى تدفع الأذى عن أشبالها . وقالت للرجل :

اسكت أنت ولا تتكلم فهذا زوجى

فرفع الرجل قبعته ، وقال له :

استبق غطاء رأسك يا سيدى فليس المقام مقام احترام .

فقالت : قبل كل شىء لا يحملك الغيظ على الشر قبل أن أشرح لك حقيقة الحال . ثم شرقت بدموعها وسالت عبراتها على خديها وأقبلت تسير نحوى وهى تقول : إنه رفيق صباى وأليف وحدتى قبل أن تمتحنى السماء نعمة التعرف إليك

وفى تلك اللحظة انقلبت الدنيا فى عينى بلون السماء ، وهممت أن أتناول عنقها بيدى فأقضى على حياتها فى طرفة عين ثم أحطم رأسها بحجر . ولم أكن أبالى بالرجل الواقف أمامى ، ولكن الله أنزل السكينة على قلبى وقلت : إنك لست زوجتى كما زعمت لهذا الأحمق لتزيدينى حقارة فى نظره وتشهديه العبث بشرف القران فى سبيل حبه . لقد انقطعت من الطريق ، وقد انتهى ما كان بيننا . وإنى لا آسى أن أفتك إلا لأنك أحط وأدنأ وأرخص من أن أدفع ثمن دمك بساعة فى السجن أو بحبر فى جريدة ، فأسجل الغفلة على نفسى وأهبك منحة الاستشهاد والتضحية . لن أعود إلى البيت الذى عاشرتك فيه ولملك تخلصين إلى هذا القديم بأكثر مما أخلصت لى . وعدت أدراجى لا ألوى على شىء

وفى هذه الأثناء كانت العاصفة قد سكنت والنيوم تقشعت ، وامتد أمامى على مدى البصر سهل منثى بالجليد ، وقد صفا أديم السماء ولاحت الجوزاء لناظرى ، فأبصرت على كثب منى قرية صغيرة فيها أربعة منازل أو خمسة فأخذت سمتى إليها حتى إذا بلغت أول كوخ جربت إلى النافذة وطفقت أدق على بابها بيدى . فلم تكن إلا هنيهة حتى فتح مصراعها الخشبى وأخرج شيخ مسن لحيته البيضاء فسألته المأوى حتى أستريح من وعثاء التعب وشقة الخوض فى الجليد . فدعانى إلى كوخه وأكرم مثواى ، وكنت فى شغل شاغل فلا أشعر بالبرد ولا بالقرى ، ولكننى كنت متعباً فأعدت لى ربة الدار فراشاً فى إحدى الغرف فقضيت ليلة أرق وقلق . وفى الصباح سمعنا أجراس كنيسة القرية تدق دقات الفزع ، فلم تكن وفاة عادية ولا صلاة ولا زواجاً . فخرج الشيخ فيمن هلموا فهرعوا ليقفوا على الخبر ، ثم عاد يخبرنى بأن حرس الغابات عثر بقتيلين فى الغابة امرأة ورجل ، وأن أحدهما قتل صاحبه ثم انتحر ، والبحث جار عمن يرفع القناع عن سر هذه المأساة

* * *

وعند ما نطق ديربال بهذه الكلمة تذكرت الحقيبة الدبلوماسية ، تلك التى أثقلها معى فقد نسيتها فى مقصف ديجون عند ما كان الشاعر المغرم يتجرع عفريته الأخضر . إن أوامر كي دورسى [1] تحتم إن كنا على سفر ألا تفارق حقيبتنا التى تحتوى رسائلنا يدنا وعيننا لحظة واحدة ، فأنسانيها شيطان المرأة الخؤون . وقد كنت أفاخر بقوة ذاكرتى وقد صدق ديربال فى قالته « ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء أتمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها » ففارقته وعدت إلى ديجون أبحث عن حقيبتى وقطعت حديثه ولم أعد أراه . ولكننى فطنت إلى أن المرأة التى أحبها وجن بها كانت أحد القتيلين اللذين دقت عليهما نواقيس القرية

محمد لطفى جمعه

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس

لماذا تنتظر لترى؟

وقبة آن الوقت لإيقاف نتائج البرد

باسبرو



لم يستطع شخص ما أن يوقف حالة البرد بإتباع سياسة "انتظر لترى" واذا بحث، فالبرد والانفلونزا والدنج وغيرها لا تنتظر الى ان يعثر الناس أمرهم. فالعمل السريع "باسبرو" يصد أسرع وسائل الملاحم وأشدها تأثيراً في محو الآلام.

ويعتبر صيدو من أوائل "باسبرو" يؤخذان عند ما يبدأ شعور المريض بالبرد أو الحمى بأيمان بالغين تأثير وأسرع. فتجعله الآلام قد زالت كما تزول حالة القلق، والآلام المركبين وضعفها.

واذا اخذت قرصين آخرين عند ما يلزم خلال ثلاث ساعات مع ليمونادة ساخنة أو وسكي كل الصفار عند الصباح تقضي على البرد بأحس الوسائل التي يدريها العالم. ولهذا السبب العلمي اذ بعد أن تمتص الجسم ويصبح طبيعياً وتأمل الاجراثيم وتخفف للحمى وسكلاً للملاحم البوليه - ان الآلام الزور والسعال والصداع قد أزالت هذه الأيام فاوقف هذه الآلام "باسبرو" فليس هناك طريقة أسرع أو أأمن من "باسبرو".

ASPRO

ليس هناك طريقة أسرع وأضمن

"باسبرو"

يباع "باسبرو" في جميع محلات الأدوية والأجزاخانات

١٠ قرصات ٢٧



بسبب كفرغرة

قرصان "باسبرو" في الدم مدة ٢٤ ساعة تكون غرغرة مضيفة في الفم والحلق والتهاب الحنجرة.

جرب "باسبرو" في الحالات الآتية

الانفلونزا وأوجاع الرأس وأوجاع الظهر والتهاب المفاصل	عرق النسا والعرق	السعال الصدري والتهاب الشعب الهوائية	تأثير الخمر والتدخين
الزكام والتهاب الحلق	وجع الظهر والتهاب الأعصاب	وجع الأسنان والتهاب اللثة	آلام الزور والصداع

"باسبرو" أكيد الأدوية وهو نوعه - رواجاً في العالم. جميع دوله أفضله البريطانيات ورخصاء الموزارات وأثبت صلاحيته بمحن جريمة فائقة العظمة.

قرصات أقراص ٢٥ قرصاً

صلبيات قرصاً ٢٥ قرصاً

2017-11-15 15:05:03

الذكرى

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

إذا لاحت فى الأفق القريب بشائر عيد الفطر خفت وطأة رمضان على النفوس ، وهوّن الفرح الموعود من جفاف شهر الصوم ، واهتزت صرامة التقشف فى الصدور تحت موجة طرب آن انطلاقها . هنالك تجد ربات البيوت أنفسهن فى مكانة الساحر يتطلع إليهن الصغار بأعينها الحالمة هاتفة بهن أن يبدعن آيات الكمك اللذيذ وأن يخلقن من العجين كهيئة العرائس والحيوان والطير

أما جماعة الموظفين الذين تقضى عليهم أشغالهم بالتغرب فى أقاصى القطر فلا يشغلهم فى تلك الأيام مثل إعداد الحقائب والتأهب للسفر إلى بلدانهم حيث يسعدون باليد بين أهليهم وحيث تتحقق للأطفال ولهم أحلامهم

وكان من هؤلاء الأستاذ يوسف زيتهم المدرس بمدرسة أسيوط الثانوية وأسرته المكونة من زوجه وابنتيه الصغيرتين ؛ فما أتى يوم الوقفة حتى كان الأستاذ وأسرته فى القاهرة بل فى القاهرة العزية حيث يقع بيت الرحوم والده فى (المراسة) قريباً من مسجد الحسين . وكان البيت من البيوت القديمة باهت الجدران رث الهيئة ، يصعد إليه الصاعد على سلم ضيق متهدم الدرجات بنير درابزين ، حلزونى الشكل كمئذن المآذن . ويتكون البيت من طابق واحد ذي ثلاث حجرات صغيرة الحجم . ولكنها كانت سفرة سعيدة ، ودواعى قدتها متوفرة من التنقل واستقبال البيد ورؤية الأهل والأحباب

ومهما يكن من أمر البيت من التفاهة والضعة فقد كان يوسف لايطأ بقدمه أول درجة من سلّمه حتى يرفرف قلبه فى صدره وتمتلئ عيناه بالأحلام وقلبه بالحنين ، ويذكر لفوره ذلك الطفل الصغير ذا الجلباب والطاقية الذى كان يقفز على هذا السلم ساعداً هابطاً كل يوم حافى القدمين ...

أي ذكرى وأى أيام ... !

وكان كل مكان فيه يحفظ لقلبه ذكرى تنعش النفس وتشرح الصدر سواء أكان ما تحمل نوعاً من مسرات الصبا أو لوناً من متاعبه وهمومه . وكثير من آلام الصغر التى يضيق بها الأطفال يحدونها إذا كروا إليها فى الكبر متعة والذة وتفكهة فكان لهذا يطوف بحجرات البيت حالماً متذكراً كأنما يطوف بضريح ولى من أولياء الله ثم يستقر مدة إقامته فى أعزها عليه وأحبها إلى قلبه : فى الحجرة التى عاش فيها من عمره اثنين وعشرين عاماً بين عبث الطفولة وأحلام الصبا وآمال الشباب

والذى يقيم فيها الآن أخوه سامى وهو ابن عشر ويختم فى هذا العام دراسته الابتدائية . ويخيل إليه — أى إلى يوسف — كلما شاهده أنه يعيد تمثيل الحياة التى حييها مرة أخرى ، وأن الحجرة تشهد للمرة الثانية نفس فصول الرواية ولعلها بدأت تبسم وتسخر وتسأم ... وكان سامى يتخلى عن حجرته سعيداً مغتبطاً لأخيه الأكبر الذى ينزل من نفسه

منزلة الأب ويتولى من بعده جميع أموره ويتعهده بالتربية والمحبة

وقد لاحظ يوسف أن أخاه غيّر من نظام الحجرة ، وأنه نقل المكتب القديم إلى غير موضعه الأصلي وكان يجب أن تبقى الحجرة محتفظة بصورتها القديمة ، فسأله عن هذا ، وأجابه النلام :

— إني جعلت المكتب بحيث إذا جلست للمذاكرة جاء نور النافذة من الجهة اليسرى كما أوصانا مدرس علم الصحة

فابتسم يوسف وقال :

« ما أسعد حظكم يا تلاميذ اليوم فإن لكم من مدرسيكم آباء رحماء يودون لكم الصحة والعافية ويشفقون عليكم من الأذى ؛ أما على أيامنا فكان الحال غير الحال والمدرسون غير المدرسين . وإني لأذكر المنت الذي كان بصيدنا — في نفس مدرستك خليل أفا — وما كانوا يلزموننا من حفظ البلدان والتغور والجزر والمحاصلات . وكم من مرة مددنا على الأرض وألهبت الحمى الفاسية ظهورنا وبطون أقدامنا ... تلك أيام خلت ... أما أيامكم ...! »

ثم استلقى الأستاذ على كنبة واستسلم لتيار التذكر العذب التسلسل تاركا زوجه وأمه تتحادثان ما شاء لهما الحديث ، وساميا يجالس ميمي وفيق الصغيرتين ويلاعبهما

ولم تنس أمه أن تأتي بمدفأة وتضعها في ركن من الحجرة لأن الشهر كان ديسمبر والجو شديد البرودة يزيد من شدة قساوته الصيام ؛ وكأن السماء أشفقت من البرد فتلفعت بأردية من السحب — أضاء بعضها عن لون أبيض ناصع بهيج وأظلم البعض عن كتل دكناء كالجبال عند الغروب ، فانكمش جسده ، وتحفزت روحه للوثوب وحلقت على رأسه الأحلام . وسرعان ما كرت نفسه راجعة عشرين عاماً في خط الزمن غير المتناهي ، وذكر عهد هذه الحجرة أيام كانت رفيقة صباه وشبابه وشريكة أحلامه وأهوائه وشاهدة أفراحه وأحزانه ومستسرة خباياه ومرجع نجواه . رباه ... إنه ليدير عينيه في أنحائها طمعاً أن ينفذ إلى تضاعيف جوها الخفي ويقرأ ما خط من حياته وما سجل من نوازع قلبه وعقله ووجدانه ... ولقد تأتى عليه أوقات يتمره تيار الحياة وتكتنفه متاعبها فينسى ذكريات الماضي في هموم الحاضر ويخيل إليه أن ذاك الصبي الذي عاش وفرح وتأمل وأمل ويئس شخص غريب عنه لا تربطه به رابطة ألم أو أمل . وقد تأتى عليه ساعات أخر يثوب فيها إلى نفسه فينسى حاضره هارعاً إلى الماضي البعيد ؛ وتقدم إليه حافظته الثائرة أزاهر الذكريات واحدة فواحدة حتى يخال أنه لم يعبر الماضي إلا منذ ساعات قلائل وأنه لم يحيَ إلا به وله

وها هو ذا الآن تنشأ ساعة من تلك الساعات الحالمة فتحلق روحه في آفاق بعيدة كالذاهل في غيبوبة مغناطيسية ، وتتدفق عليه الصور الحالمة في غير ترتيب زماني ، فيذكر كيف كان يستيقظ — في نفس الحجرة — عند الفجر ، ويدف إلى النافذة يشاهد بهاء الفجر المتشل الكون بثوبه الأزرق والنجوم من فيض الحياة بها تكاد أن تتكلم بأحاديث الأزل ، ويرى البيوت كالأشباح النائمة ، ومئذنة سيدنا الحسين في المكان الأوسط منها كالحارس الحفيظ ؛ ويستمع إلى صياح الديكة المنتشية ببشائر النور وقطر الندى حتى يشق الفضاء صوت المؤذن داعياً « الله أكبر » فيهبط على القلوب هبوط الصحة والطمأنينة فيملأها نشوة وبهجة وحنيناً ، ثم يصلي الفجر فاذا انتهى

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

أشعل المصباح وقعد يذاكر ويحل تمرينات الحساب ومسائل الهندسة

وإنه ليذكر لهذه المناسبة عهد التلمذة الغريب، الذى كان يرسف فى أغلاله كالسجين أو الأسير المذب، يجهد عبثاً أن يقوم بما يفرضه عليه البرنامج الثقيل الرهق، وتضطرب أعصابه خوفاً ورعباً من المدرسين وعصيهم الذين كان يكفى تذكرهم لتجميد الدم فى العروق أو قطع الأنفاس فى الصدور. ولا عجب فقد كانت القسوة هى السياسة المرسومة لتربية التلاميذ، وكان يظن أنها الطريقة المثلى لخلق الرجال الفضلاء، فكان عهد التلمذة عهد رعب وإرهاب وعنت.

وإنه إذا جاز له الآن أن يشبه المعلم بالفنان يحاول أن يبدع من مادته أجمل الآيات وأمتعها فلا يستطيع أن يشبّه مدرسيه القدماء إلا بمحصل الضرائب الأتراك ... ولكنه بالرغم من هذا لا يذكر ذاك العهد حتى يعلوه الابتسام وينمره الفرح كأن مافيه من مسرة فهو له ومافيه من ألم فهو لغيره؛ يراه كإحدى المشاهد الرواية التمثيلية الحزينة فيتمتع بأثرها الجميل

وفيما هو سابح فى بحر أحلامه انتبه فجأة على يد ابنته الصغرى ميمى وهى تهزه، فالتفت إليها متبرماً وصاح بها منهراً:

« إيه يا بنت ؟ ... »

فسألته بصوتها الرفيع المتقطع وهى تشير إلى حائط الحجرة :

«هل حقاً أنت الذى رسمت هذه الصورة يا بابا؟»

وتتبع ناظره إصبعها إلى هدفها من الحائط فى المكان الذى كان يشغله المكتب قبل أن ينقله سامى فرأى صورة طفلة صغيرة فى نصف الحجم الطبيعى مرسومة بالفحم على الحائط، فعاد بذاكرته إلى ماضٍ بعيد، وتذكر كيف شاءت المصادفة أن تنبه ابنته إليها ساعة تهيم روحه فى سماوات عهدها الخالى المنطوى فكأنما سخرت الصورة الطفلة الصغيرة لتذكير أبيها الناغل

قال سامى :

— لاشك أنك أنت يا أخى الذى رسمتها فأنت صاحب الحجرة القديم، وأنت الذى تستطيع أن تجيد الرسم ...

وقالت ميمى مرة أخرى :

— بابا ... اشترِ لى عروسة مثلها

ودلف يوسف إلى قريب من الصورة وتأملها بعين لو رأت زوجه نظرتها المشوقة لسألت باهتمام عن الصورة وتاريخ رسمها وأجرت فى ذلك تحقيقاً عسيراً، وكان ما يبقى منها ظلا خفيفاً طمست منه بعض معالم الوجه، ولكن بقى منها محافظاً على وضوحه مفرق الشعر النزير المرسل فى عبث فتان، وما يبين عن جمال الأنف الصغير الدقيق. فالشكر لله إنه كان يجيد الرسم منذ الصغر، وإلى جانب الصورة كانت مكتوبة هذه الأبيات :

أفنى قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ
ـهوى واستمرت بالرجال المرائر
زع النفس واستبق الحياء فإنما
تباعـــد أو تدنى الرباب القادر
أمت حبها واجعل قديم وصالها
وعشرتها مثل التى لا تعاشر
وهبها كشىء لم يكن أو كنازح
به الدار أو من غيبته المقابر

إن للصورة والشعر قصة قديمة كانت حياة قلب ناشىء اصطرع من جرائها فيه الأمل والألم، وتيقظت بسببها عواطف شتى وغرائز نائمة، وإن عفت آثار تلك الحياة من قلبه الآن كأنما فاضت من

غير منبعه واصطخبت فى غير ميدانه . وإنه لمن المؤلم المضحك أن يكون الحائط الحجرى أحفظ للود وأرعى للذكريات الجميلة من قلب الانسان العاقل .. وإن تلك الصورة وهذه الأبيات الشعرية لتذكره بأجمل ما وهبت حياته المنطوية بل أجمل ما تهب الحياة لبنيها ؛ تذكره بوهم الحب الطاهر ، الحب الذى يفيض من قلب طاهر لم تعركه التجارب ، ويحيى أغراضه المرسومة منذ الأزل خلف وجه ملاك سام ، ويخفى أنات الأرض وراء لحن سماوى ساحر ، ويغشى على الطين ستاراً كثيفاً من السحاب الأبيض الجميل

نعم لا يكاد يذكر التفاصيل ولا يحضره الترتيب الزمانى ، ولكن تندلع فى قلبه ألسنة من اللهب بين الحين والحين فيكشف نورها التقطع عن صور عزيزة فاتنة من الماضى

كان المرحوم والده طاهى الوجيه سليم بك عامر — من سراة القاهرة وأعيانها البرزين — وكان يوسف يتردد عليه أحياناً كثيرة ، وما زال يذكر القصر العامر بحديقته الغناء وجدرانه الشاهقة وأبوابه العالية ونوافذه ذات الستائر المختلفة الألوان ، كما يذكر البناء الصغير المنعزل فى ركن من الحديقة ذا المدخنة الطويلة حيث كان يباشر أبوه عمله . وكان إذا زار أباه يجلس فى ركن من المطبخ يشاهد عملية الطهى الغريبة ، وفن تحويل الخضروات واللحوم والطيور إلى أصناف شهية بهيجة اللون لذيذة الطعم ويلهم ما يعطيه من اللحم والحلوى ويسمع فى دهشة الخدم وهم ينادون أباه بقولهم « يا عم زينهم » وما كان يظن أن شخصاً كوالده العظيم الذى يمتلئ قلبه رهبة منه والذى تقف له أمه وإخوته كلما جاء أو ذهب يمكن أن ينادى بمثل هذا النداء الذى يخاطب به باعة الفول السودانى « وعزيل البنات » ... ولكنه ما لبث أن اعتاده مسامحه وألفته نفسه ، وطفق يدرك شيئاً فشيئاً مكانة والده من القصر العظيم وتبين البون الشاسع الذى يفصل بين واحد مثله وبين أهل ذاك القصر الذين لا يدرى على أى وجه من الحياة يعيشون خلف تلك الجدران الهائلة

وهو لا يكاد يذكر تاريخ أول لقاء على وجه التحديد ، ولكنه يرجح أنه وقع لأول عهده بزيارة قصر سليم بك وهو فى الثانية عشرة من عمره . وكان مطمئناً إلى مكانه المختار من المطبخ وفى يده قطعة (البقلاوة) ، وعلى حين فجأة دخلت إلى المكان طفلة فى مثل عمره لم ير مثلها من قبل ، كانت مستديرة الوجه ، مليحة القسمات ، خمرية اللون ، رشيقة القامة ، ينتثر شعرها الأسود الحالك خصلات على كتفيها ويلتقى وسط الرأس فى (هونكه) حمراء ، ثم تنزل منه شعرات رفيعة مستقيمة على الجبين كرذاذ النافورة ، وتردى فستاناً أبيض شفافاً ذا منطقة حمراء يكشف عن ركبتيها الصغيرتين ، فأثاره منظرها ، وجمدت عيناه عليها فى إعجاب ورهبة بعد أن أخفت يده بحركة غريزية قطعة (البقلاوة) وانتبه أبوه إليها فانحنى باحترام وهو يقول مبتسما .

— أهلاً وسهلاً يوسف هانم

ولاحظ الرجل أنها تنظر إلى ابنه نظرة غريبة فقال يقدمه إليها :

— هذا خادمك يوسف ... إبنى

فدارت عيناها الجميلتان بينه وبين أبيه فى صمت وسكون ثم ولت مسرعة فى خفة أغاذة ، وأسرع يوسف وراءها زحفاً على يديه وقدميه كالصغدع ،

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

فلما بلغ باب المطبخ أرسل بناظريه خلفها يشاهدها وهى تجرى فى الحديقة حتى أخفتها عن عينيه طرقاتها المتوية . إنه يذكر هذا المنظر على توغله فى الماضى كأنما لمس حواسه بالأمس القريب ، ولا ينسى كيف أنه أيقظ نفسه وقلبه وخياله وبدل موتها حياة حارة وركودها ثورة هائجة . فلما أن رجع إلى البيت ورقد — ربما حيث يرقد الآن — استحضر صورتها وخلا إليها واستغرق فى حسنها وبهائها ... أى حسن وأى بهاء ... رباه ... هل تحوى الدنيا مثل هذه الفتنة وهذه النظافة ... لقد عاشر من جنسها كثيرات ، منهن أمه وأربع أخوات — تفرقن الآن فى بيوت أزواجهن — شتان ما بينهن وبينها ، إنهن من طين وهى نور ، وما كان يظن أن لها لحماً ودماً كالحمهن ودمهن ، أو أن يكون بداخلها معدة وأمعاء كبقية الإنس ، فنزهها عن هذا وعن غيره ، ونزلت من نفسه منزلة الملائكة فى نفوس العابدين ...

وكان يوسف رقيق العواطف متوثب الخيال دقيق الحس كجميع هواة الرسم والفنون ، وكانت غريزته ما تزال راقدة فى سباتها الذى فطرها الله عليها فدبت فيها الحياة بعد أن نفخت فيها صورة سوسن من روحها العذب ، وغاب عنه حينذاك أنه يمثل فصلاً من رواية تكررت مشاهدها آلاف السنين ، وأنه يقع فى الأحبولة المنصوبة منذ الأزل لبنى الإنسان ، فظن أنه يكشف عالماً روحياً جديداً يطير إليه على جناحى الحب . إنه ليذكر هذا الآن فيتعجب لهذا الحب الغريب ، الحب الذى هو فلسفة الشباب الشاملة ، والذى يتسامى إلى معارج التصوف والتبتل وينحط إلى مهاوى القسوة والأنانية والغدارة وتكمن خلف جميع أوجهه تلك الغريزة التى هى أمضى سلاح فى يد الحياة ... واقتطفت ذاكرته صورة أخرى من الماضى الجميل لا يحسن معرفة موقعها من حوادث تلك الأيام ، ولكنه يذكر جيداً أنه بعد اللقاء الأول غير مجلسه من المطبخ إلى مكان قريب من الباب ، بحيث يستطيع أن يشاهد منه الحديقة طمعاً أن يرى العروسة الصغيرة التى استبدّت بأحلامه وأمانيه ، وإنه كان يراها فى صحبة أخوين لها فى مثل عمرها يركبون الدراجة أو يلعبون « بالبلى » أو يستبقون فى ممرات الحديقة الرملية !

ففى جولة من جولاتهم عثروا به ، فلفت منظره الغريب أنظارهم وتساءل عنه الصغيران فأجابتهما سوسن بأنه « ابن عم زينهم » فدنوا منه وأنعموا فيه النظر : فى جلبابه الباهت ، وطاقيته السوداء ، وقبقابه الصغير ، فخفل قلبه وهم أن يولى فراراً لولا أن صاحت به سوسن بصوتها العذب :

— لا تخف ... ولتبق حيث أنت فلن يؤذيك أحد

وسأله أحد الصبيين : وقد نسى اسمهما :

— هل أنت ابن عم زينهم ؟ ...

فأحنى يوسف رأسه أن نعم . فسأله الثانى وعلى فمه ابتسامة :

— هل أنت تلميذ ؟ ...

فأحنى رأسه مرة أخرى أن نعم ، مما أثار دهشة بين الثلاثة ، فسأله الأول :

— وما مدرستك ؟ ...

— خليل أغا

— فى سنه إيه ؟ ...

— فى السنة الرابعة

ثم سكت يوسف لحظة يغالب رغبة فى الحديث

حتى غلبته ، فسأل الأخوين قائلا :

— وما مدرستكما ؟ ...

— الناصرية

— ولم لم تدخلا خليل أنا وهي قريبة من البيت ؟ ...

فبدت فى عيني الشقيقين نظرة إنكار وقال أكبرهما :

— الناصرية هى مدرسة الأغنياء ؟ وقال الآخر وكان أشد سلفا :

— أما خليل أنا فهى مدرسة الفقراء

وقالت سوسن :

— ماذا يهم بعد المدرسة إذا كانا يذهبان إليها فى السيارة ! ...

فردد يوسف عينيه بينهما وقد غلب على أمره واستخذى خجلاً ومهانة ، وكرهت نفسه المهزمة فقال بدون داع ولا مناسبة وبصوت يدل على التحدى :

— أنا أول فرقتى ... وأجيد الرسم إجادة فائقة ... إلى بورقة وقلم ! ...

فنظر إليه الأخ الأكبر بعين المزء وأخرج من جيب بنطلونه ورقة وظماً وقال له :

— إليك ما تريد ...

وزاد اهتمام سوسن فاقتربت خطوة منه وقالت :

— إن كنت شاطراً حقاً فارسم كلباً

فبسط الصبي الورقة أمامه بثقة واطمئنان وجرت يده بالقلم فى ثبات وخفة ومهارة فصوّرت كلباً لا بأس به . ولما انتهى منه نظر إليهم نظرة فوز وظفر ، ونظر إليه الأخوان باحتقار وغيظ ، أما سوسن فقالت وعلى فمها ابتسامة رقيقة :

— الكلب موضوع سهل ... إن كنت شاطراً حقاً فارسم أوزّة ...

ولكنه لم يقهر أيضاً وذاق لذّة الفوز مرة أخرى ، فقال الأخ الأصغر :

— الرسم مادة تافهة

— ولكني الأول فى جميع العلوم ...

— وهذا أمر تافه ...

فقال يوسف بحدة :

— إذا فما المهم ؟

فوضع الصبي الآخر يديه فى جيبى البنطلون وقال وهو ينظر إليه من عل :

— المهم أن تكون ابن بك ... وأن يكون لك مثل هذا القصر ...

وولّوه ظهورهم وذهبوا

هذا ما يذكره من تلك المنافرة الصبيانية ، ويذكر فوق هذا أنه عاد إلى بيته ذاك اليوم ينتفض من الغضب والحقد ويتمثل كراهية للصبيين . أما سوسن فلم يكره منها قولا أو فعلا إذ كانت حبيبة عزيزة جميلة وكان حبيباً عزيزاً جميلا كل ما تقول أو تفعل . وكان مستعداً فى أعماقه أن يكره الخير ويحتقره إن وجد منها كرهاً له أو احتقاراً ، وأن يحب الشر ويعظمه إن آنس منها له حباً أو تعظيما ، إذ كانت تتبوأ من نفسه مكانة المثل الأعلى فى كل شئ ، فالخير خير بالإضافة لأفعالها ، والجميل جميل على قدر مشابهته لصورتها

إنه يذكر تلك اللوثة الهيامية كالستفيق الذى يتذكر فعاله حين السكر الشديد ولم يتصل الحديث بينه وبين الأخوين بعد تلك المعركة الكلامية ، ولم يرهما إلا قليلا ، وكانا إذا مرا به مرا مقتحمين كأنهما لا يرانه ، أما سوسن فكان يراها كثيراً ، ولم تكن متكبرة قاسية كأخويها فكانت إذا التقت عيناها

2017-11-14 06:06:03

بعينيه ابتسمت إليه أو بادلته كلمة ناعمة كانت لديه أثمن من الصحة والعافية

وكان مرة جالساً القرفصاء وكانت تلعب في الحديقة على بعد قريب منه ، قافزة على حبل تديره خادمتان من طرفيه ، فلبث يراقبها بعينين مشتاقتين وبعد قفزاتها على دقات قلبه الولهان . وحدث أن ذهبت إحدى الخادمتين لبعض الشئون ، فنادته أن يحل محل الخادمة ، ولبي مسرعاً سعيداً منتبطاً ظافراً وود من قلبه لو لم تنته تلك الساعة السعيدة أبداً ، ولكن الصغيرة تعبت فتوقفت تستريح ، وخشي يوسف أن تنتهي سعادته ويعود إلى مكانه وكان شديد الرغبة في أن يحادثها وأن يستمع إلى صوتها العذب الذي يفعل به فعل التعويذة بالمسحور فسألها :

— هل تذهبين إلى المدرسة ؟

وكان يخشى ألا تتنازل وترد عليه ولكنه سمعها تقول :

— نعم ...

— أي مدرسة ؟

— لا مبرديديه

— إنه اسم غريب

فافتر ثغرها عن ابتسامة ظريفة يرى وميضها الآن منيراً في ظلام السنين المنطوية وقالت :

— إنها مدرسة فرنسية

— ألا تتعلمين اللغة العربية ؟

فضربت بقدميها الأرض وقالت :

— بلى ... يدرسها لنا شيخ ... هي ثقيلة كريهة ... هل تحبها أنت ؟

— إني أذاكرها برغم صعوبتها وأحفظ النحو حفظاً جيداً ... وأحب الشعر ... لماذا تكرهينها ؟

— هي ثقيلة جداً ، وقلما تستطيع ذاكرتي أن تحفظ شيئاً من قواعدها ، ومدرسها رجل ثقيل الدم يضع على رأسه عمامة مضحكة ...

فاضطرب وصعد الدم إلى وجهه وذكر طاقيته السوداء وما عسى أن تقول عنها ، ثم قال :

— كثيرون يؤثرون العمامة على غيرها

— هي في نظري على كل حال مضحكة ... ثم إن هذا الشيخ قذر ... لمحت مرة يده فرأيت أظافره سوداء كالطين

وهنا قبض يديه وود لو يخفيهما

ومن ذاك اليوم كان إذا نوى الذهاب إلى القصر قص أظافره وخلع طاقيته ولبس الحذاء بدلاً من القبقاب . ومضت الأيام وهو على تلك الحال ، يرنو بالنظر ، ويسعد بالحديث الذي لا يمس الهوى ، ويعاني حباً مكتوماً ينمو يوماً بعد يوم .

وكانت سوسن تستأثر بحياته جميعها ، الظاهرة والباطنة ، اليقظة والغافلة ، فكانت مثار أحلامه حين العمل وحين اللعب ، ولدى اللقاء ولدى الغياب وأوقات الفرح وأوقات الحزن وعند الصحة وعند المرض ، وكانت آخر فكر مودع عند النوم ، وأول خاطر مرحب عند الاستيقاظ . وكان حبه طاهراً سامياً ارتفع به من العالم الصاخب إلى حيث يطلع على العالمين كما تطلع الآلهة على المخلوقات ، إلا أنه لم يخل من الألم واليأس ، بل الحقيقة أن الألم واليأس كانا من مقوماته الأولية لأنه لم يتغفل لحظة مما يفرق بين طبقتيهما ، ولم ينس الحقيقة المرة التي جعلت أباه يقدمه لسوسن فيقول : «هذا خادمك يوسف» فهو خادمها ما في ذلك من شك ، وهو وأهله من المحسوبين عليها والعائشين على فتات مائدتها .

حقاً إن الحب من دوافع النشاط والاجتهاد والتطلع إلى المجد ولكنه شك في قدرة الحب على

خلق معجزة عظيمة مثل ربط آنسة جميلة كسوسن بابن خادمها البائس يوسف بن زينهم ...

كانت تلك الأفكار السوداء تعصر قلبه عصراً وتسكب السم فى دمه والمرارة فى ريقه ، ويلوح به الحزن أنه كان يرمق أباه أحياناً بنظرات الغضب والسخط لأنه كان القضاء الذى حكم عليه بالضنة وأزله حيث هو من الذل والهوان ...

ولكن كانت تبسم السعادة فى لحظات أخرى فيسأل نفسه : لم ترضى بالحديث معى ؟ لم تداعبنى وتسألنى ؟ لماذا لا تتعالى عن مصاحبتى ؟ لماذا تبسم فى وجهى تلك الابتسامة الشرقية التى تقتل اليأس وتهلك الأحزان ؟ أليست هى على كل حال إنسانة قبل أن تكون سوسن رببية المجد والشرف ؟ أليست تخضع لسنن الحياة المستبدة الناهضة التى لا تميز بين كبير وصغير ؟

ويغريه بالأمل أنه الصبى الوحيد الغريب الذى تراه مرات فى الأسبوع وأنه وسيم الطلعة جميل القسمات على رغم فقره وضعته ...

ولكن هذه اللحظات السريعة كانت تمر به مرور النشوة بالسكران وتتركه سريعاً إلى الحقائق المحزنة . وهكذا فأغلب ما يذكر عن تلك الفترة كان خليطاً من الهيام والنسيان والألم واليأس ولحظات قصيرة من السعادة والطمأنينة ، وإلى جانب هذه تبرز له من غياهب الماضى واقعة مسلية يذكرها بتفاصيلها جيداً ، وكان فى السنة الأولى أو الثانية من المدارس الثانوية وبلغ الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب ، وكان ينتظر مقدمها فى مكانه المعهود إذ جاءته وعلى فمها الابتسامة الملائكية وفى يدها كراسة تقبضها وتبسطها فى ارتباك ظاهر فأقبل نحوها متشوقاً بالفرح والبهجة وكأنه أراد أن يخلق أسباباً للحديث فسألها :

— ما هذه الكراسة ؟

— كراسة العربى ...

— داعماً العربى ... العربى ...

فتنهدت وقالت :

— أعوذ بالله من هذه اللغة ... أتعلم أنه لا يكدرنى فى الدنيا شىء إلا هم حفظها ... فلا الفرنسى ولا الحساب ولا التاريخ بالعلوم التى تعجزنى ، فجميعها كوم والعربى كوم ...

ثم فتحت الكراسة وأنشأت تقلب فى صفحاتها وهى تقول :

— أملى علينا الشيخ سؤالاً صعباً ...

— ما هو ؟ ...

فكان جوابها أن طلبت إليه أن يتبعها إلى أريكة فى بعض منحنيات الحديقة ثم جلسا جنباً إلى جنب لأول مرة وقرأت السؤال قائلة :

— اشرح ما يأتى وأعرب ما تحته خط :

أشوقا ولما يمض لى غير ليلة

فكيف إذا خب المطى بنا عشرا

وظن يوسف أن السؤال غاية فى السهولة وأن فى استطاعته أن يجيب عليه فى غمضة عين فقال :

— إنه سؤال بسيط وهذا البيت موجود بنصه فى كتاب قواعد اللغة ...

فهزت كتفيها استهانة وقالت :

— لا علم لى بكتاب قواعد لتلك هذا ... أما ما يهمنى فهو ألف عمل علىّ على مهل الاعراب والشرح ...

ثم استعدت للكتابة ... فاعتدل فى جلسته وقطب جبينه استحضاراً لفكره الشارد ثم أنشأ يقول :

لا حرف جزم ... ويمض فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف آخره ...

ثم سكت لحظة يختار ديباجة الشرح، ثم استطرد:

أشوقاً ولما يمض لى غير ليلة ... يقول الشاعر: أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة على الفراق ...

واضطر إلى قطع الشرح لأنه اكتشف فجأة أنه يجهل معنى خبّ والمطىّ: فنادى ذاكرته ولكنها لم تسعفه، فاضطرب وارتبك واشتد به الخجل وكاد الهم يتفجر من خديه. ولحظت سوسن صمته واضطرابه فسألته وقد قل صبرها:

— والشطر الثانى؟ ...

فاشتد به الاضطراب والارتباك والخجل، وأشفق من أن يفقد مفخرته الوحيدة فى الدنيا وهى ما يزعم من التفوق على الأقران، فآثر الكذب والتحايل على التسليم بالجهل فقال:

— خبّ بمعنى طال ... والمطىّ هو الفراق.. فمعنى الشطر كله فكيف إذا طال الفراق عشر ليال لا ليلة واحدة؟

وأغلقت سوسن الكراسة فى ارتياح وطمأنينة ونظرت إليه متشفّية شاكرة، فأغضى أمام نظراتها الساحرة خجلاً وخزياً، متألم الضمير من تضليله لها وعبثه بثقتها فيه، وذكر فى رعب مفاجأتها المتوقعة أمام الشيخ حين يشطب بقلمه الأحمر على شرح الشطر الثانى ... فاعسى أن يكون رأيها فيه أو شعورها نحوه؟ ...

وكاد يغرق فى أفكاره لولا أن سمعها تقول بصوت هادئ عذب:

أأشتاق ولم يمض لى غير ليـــلة
فكيف إذا طال الفراق عشرا

ثم ضحكت وسألته:

— لمن قيل هذا البيت .؟.

وكان قد سرى عنه الهم سماع صوتها وضحكها وقال:

الذى يفهم أن الشاعر يخاطب حبيبته

وكانت هذه أول مرة يجرى بينهما فيها ذكر لإحدى اشتقاقات الحب، فنظر إليها مرتبكا ومعاله أن يرى حمرة فى خدّيها وارتباكا فى عينيها ... لم؟ ... لم؟ ...

وكانت الابتسامة ما تزال متعلقة بشفتيها الجميلتين المفترتين عن در نضيد، وخصلات شعرها مبعثرة على الجبين والخدين كما هب النسيم حملها من حسن إلى حسن، ففنى الوجود، وما عاد يرى الأشجار والأزهار ولا يحس بهبات النسيم ولا يشعر بهمومه وتأنيب ضميره، وما عاد يذكر من هو ولا من هى، واستقر وجدانه فى هالة من النور تشع من وجهها الجميل، فأنعم فيها نظراً وهياما

ولم تقو على نظراته فأسبلت جفونها وتدفق الدم إلى خديها كأن تلك الكلمة الساحرة التى أفلتت من لسانه عن غير قصد أروتها فأنبتت هاتين الوردتين، فلجّ بها الهيام. واستشاره ما تدل عليه هيئتها من الاستسلام فمال بهامته حتى مس جبينه خصلة من شعرها وأسكره أريج أنفاسها ... وتردد لحظة ... ثم لثم فاها ... وعلى حين فجأة انتفضت الصبية فى جلستها كمن يستيقظ على ضربة فى أم رأسه، وقد اتسعت عيناها، وصرخت فيهما الدهشة والذعر، ثم اقتصبت واقفة وفرت هاربة ...

رباه ... ما الذى أفزعها ... ولماذا فرت على تلك الحال؟ وما عسى أن تفعل بعد ذلك؟

وامتلأ قلبه رعباً فقام من فوره واندفع جارياً فى اضطراب شديد إلى باب القصر ثم ترك قدميه للريح، لا يلوى على شىء، حتى انتهى إلى حجرته

هل يمكن أن تشكوه سوسن إلى أبيها ؟ كم كان أعمى مجنوناً ! كيف آتته الجرأة ! يا ويحه فقد خدع فظن عطفها محبة وعبثها وداً ، وإذا فضحته عند أبيها فماذا يكون مصيره بل ماذا يكون مصير والده نفسه ؟ ولكن رجع أبوه إلى البيت كعادته وسمح أيام دون أن يوجه إليه أى تهمة أو يتعرض للفصل من عمله ، فهدأت نفس يوسف وعاودته العواطف التى غاصت فى قلبه لحظات خوفاً وذعراً ، ونازعه الشوق إلى الوجه الجميل وصاحبته ، ورأى أن ما يمكن أن يصيبه من ذهابه لن يعدل ما هو فيه من ألم الشوق مهما ساء وغلا . فحمل نفسه إلى القصر بعد احتجابه تلك الأيام وانتظر ونفسه حيرى ، وجاءته الصبية تسعى ، ولما وقع نظرها عليه بدا على محاياها الغضب فتقدمت منه خطوات ووقفت متحدية ، فأغضى أمام نظراتها خجلاً وألماً ، وانتظر فى يأس الكلمة القاضية ، واشتد عليه الحال فقال بصوت تمزقه نبرات الألم :

كانت غلطة شنيعة ... هل أنت غاضبة ؟ فأجابته بلهجة حادة : « طبعاً ... ماذا كنت تنتظر ؟ »

— اعفى عنى ...

— لن أعفو ...

وهنا رفع رأسه بحركة سريعة وقد تبدل وجهه من حال إلى حال ، لأنه خيل إليه أنها فاهت بالعبارة الأخيرة بلهجة رقيقة وهى تتألق ضحكة ، فلما وقع نظره عليها وجدها تبسم إليه بثغر فتان غفور رحيم ...

وهمّ أن يتقدم منها خطوة ففرّت منه هاربة ! كانت تلك الأيام أسعد أيام حياته على الاطلاق ، لا يذكر أنه سعد سعادتها من قبل ولا من بعد رغم تنوّع الظروف واطراد التجارب . وبعد تلك القبلة وذاك الرضا لم تعد تقابله فى علانية وسذاجة ، بل اقتصر التبادل الروحى بينهما على النظرات والهمسات أو اللقاء المختلس تحت الخمائل أو خلف جماعات الشجر ، وسترعليهما تمارضهما ترأى أطراف الحديقة وعدم إمكان تسرب الشك إلى قلب من يراهما معاً ، فعاشا زمناً سعيداً فى غفلة من الناس والدهر حتى وقع ما قضى عليه بالخروج من جنّته مقهوراً مغلوباً على أمره : كانا جالسين على الأريكة التى قبّلها عليها لأول مرة وقد انساق الحديث إلى المستقبل ، قال يوسف :

— هل يمكن أن تنسينى فيما يقبل من الأيام ؟ فنظرت إليه نظرة إنكار وقالت :

— أنا ... مستحيل ...

— ولكنى أخشى أن يبدّد أهلك أحلامنا ... فتنهار آمالى وأفقد سعادتى

فردت عليه وقد كشّرت عن أنفة وكبرياء :

— أبداً ... لن أسمح بهذا ما حييت ... فصمت يوسف لحظة يمتع نفسه بمحياها الفاتن ولكن لم يطل به الصمت السعيد لأنه تذكر العقبات الأوابد التى تسد عليه الطريق، فتنهد وقال وكأنما يحدّث نفسه :

— ترى هل أبلغ أمنيتى يوماً فأتزوج منك ؟

وكانت تلك المرة الأولى التى ينطق فيها بتلك الكلمة الخطيرة ، ولما أنكرتها أذنه وخيل إليه أن قائلها غريب عنه ؛ أما سوسن فقد ارتجفت شفتاها عن اضطراب وتدفق الدم إلى وجهها فصار كالجمان ... ولم يكن يطمع أن تجيبه بأكثر من هذا ... وبعد هنيهة ذهبت فى التفكير والأحلام فسألته :

« أى مستقبل تبتغى ... ! » . فأجاب : « أنا ما زلت فى مستهل الطريق ومبتدأ العمر ... وكل

2017-11-11 Egyptian Book

صعب يسير مع الجهد والعزيمة الصادقة ، فعليك الاختيار وعلى الاجتهاد ... » ففكرت لحظة تختار لزوج المستقبل ما تحب من المهن والأعمال ثم قالت : « ألا تستطيع أن تكون من الأعيان ؟ إنني أسمعهم دائماً يقولون عن بابا إنه من الأعيان فلم لا تكون مثله ... ؟

— من الأعيان ... ولكنها ليست وظيفة ولا مهنة ... الوظائف التي أعني مثل المهندس والمدرس والضابط والطبيب ...

وعادت مرة أخرى إلى التفكير والمفاضلة ، وكانت عيناه لا تفارقان وجهها ، فرآه تضيق عيناه وتنفرج شفتاه من الذهاب مع التفكير ، ففتنته منظره وأنساه نفسه كما فعل به في المرأة الأولى ، فاقترب منها وهوى برأسه يريد أن ينال منها قبلة... ولكنه أحس بنتة ... نعم بنتة بشيء يصيب رأسه وسمع صوتاً يصرخ به :

— أتجرؤ يا كلب .. والتفت مذعوراً فرأى أخاها الآنسة الأصغر ينهال عليه لكما وضرباً . وأراد دفع السوء عن نفسه فأمسك بتلابيبه ، فتضاعف غضب الأخ وضاعف له الضرب ... ووقفت على بعد قريب سوسن تشاهد ما يقع أمامها بعينين محملقتين ووجه شاحب كوجوه الرضى . ولا يدري كيف نمى الخبر إلى أبيه فجاء يجري مضطرباً وأمسك بيوسف بعيداً عن الصبي الآخر وسأله بصوت ملؤه الاحترام « لماذا تجدُ عليه يا سيدي ؟ ماذا فعل ..؟ » فأجابه بصوت عال مغيظ : « رأيته يحاول أن يغتصب ... قبلة من سوسن بالقوة ! ! .. » فصرخ الرجل : « يا للفظاعة ... هل حقاً هذا يا سيدتي ؟ » وكانت سوسن ما تزال ملازمة لحالة الباغتة التي استولت عليها ... فلما سمعت سؤال الرجل اضطربت ثانية ... ثم بلمت ريقها وقالت بصوت خافت : « نعم ... » وفرت هاربة من الواقفين ومن عيني يوسف خاصة

بعد هذا شد الرجل على يد ابنه وساقه أمامه..

وقدم يوسف أن يتكلم فما أحس إلا بيد أبيه تصيب مؤخر رأسه فيقع على وجهه بين الإغياء الشديد والاغماء .. وهكذا كان ختام حديث الحب والمستقبل ... وهكذا كانت نهاية مغامرته في قصر سليم بك عامر

لقد بدا له تصرفها أول الأمر غدراً وخيانة . ولكنه لم يلبث أن انتحل لها الأعذار ... وما كان الغضب ولا الموجدة ولا الاعتقاد في غدرها بمستطيعة أن تزحزح الحب عن قلبه قيد أنملة ، فانزوى في حجرته يعاني الحرمان والألم واليأس المميت شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، حقاً لقد كان حباً عجيباً رهيباً ...

وإنه لن ينسى ما عاش تلك الأعوام التي شهدت آلامها وساعاتها ودقائقها معاناته الألم الشديد واليأس والحب الخائب ، وفي بعض ساعات اليأس والشوق رسم صورتها على حائط حجرته التي شهدت آلامه جميعها وكتب إلى جانبها تلك الأبيات الشعرية وجعل يرددها كل حين علّه ينسى ويتعزى

وما كان يستطيع أن يتصور أنه ينسى ...

ولكن للأيام أحكامها وقد تسرب النسيان إلى طيات قلبه نقطة نقطة حتى برئ وشفي وعفا من قلبه الهوى . ثم تقدم به العمر ووظف ثم تزوج وخلف وصاق بالحب ...

وكم سخر من حياته ومن دنياه ... إلا ذكرى واحدة إذا زارته انبسطت أسارير وجهه ولاحت في عينيه الأحلام ... وبعد فحسبه أن تذكر... لأن التذكر للقلب كالحفر في باطن الأرض يفجر الماء فياضاً غزيراً ...

نجيب محفوظ

التحرير

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم السيد فخري شهاب السعيدي

أفاض سكان المدينة فى الحديث عن هذا الاختلاس فى خزينة الملك ، وتهامسوا بما سيلقاه « رئيس الحرس » من عقاب صارم إن لم يهتد إلى ذلك السارق الجرىء !

... وكان بالمدينة رجل غريب يدعى « فجرازن » جاءها متجراً بما معه من الحيل ، فاتهم بهذه السرقة ... واقتيد مصفداً بالأغلال إلى السجن !! وإن المسكين الساثر — فى أغلاله — وسط زحمة من المتفرجين إذ بصرت به « شياما الفاتنة » حين جلست تطل من شرفتها على الطريق ... فاضطربت لما رأت واستدعت إليها الوصيف تسأله عن هذا الشاب الماجد النبيل ، الذى يقتاده الشرط اقتياد اللصوص المجرمين ، من عساه يكون ؟ ! ثم أمرته أن يستدعى « الضابط » — باسمها — ليحضر إليها السجين

* * *

قال الضابط :

— جاءت متأخرة مساعدتك — ياسيدتى ! — وعلىّ أن أسارع بتنفيذ ما أمر الملك به ؛ ليس إلى غير ما ترين من سبيل

ولكنها ظلت صامتة ما تنعم بلفظة ولا تجيب وأجاب السجين مخاطب هذه التى حسبها تَتَنَدَّر بالحديث عن أمر إفراجه ، قال : أى فضول هذا الذى يلح بك أن تحضرينى أمامك لتستفكهى بالحديث عنى والعبث بى ؟

قالت ، وقد آلمها خطأه الذى وقع فيه :

أحقاً ما تقول ؟ إنى لو استطعت أن أستبدل بأغلالك حُلِيّ لفعلت !

والتفتت إلى الضابط ترضاه بالمال عساه أن يفرج عن هذا البائس المسكين ... ولكن الضابط انحنى لها وقال :

— ليس فى الامكان هذا ... إنه ضحية لهذه التهمة التى ألصقت به ... غير أن أمر الملك واجب التنفيذ !

قالت : فأنا أسألك أن تؤجل ذلك إلى يومين آخرين ...

فرضي الضابط بهذا ... واستدار خارجاً والسجين معه !

* * *

انتهى « فجرازن » من صلواته وأدعيته وجلس ينتظر الصباح لينفذ أمر الملك فيه ... وإذا باب السجن يفتح بنتة فتظهر « المرأة » تحمل مصباحاً ينير أمامها الطريق ؛ وإذا « الحارس » يتقدم باشارة منها فيكسر الأغلال عنه

قال « فجرازن » :

— لقد أشهت — أيتها الرحيمة بجيبتك هذا — نجمة الصبح تبشر المريض ، وقد أغمى عليه الحمى ، بطلع الشمس وانجلاء ظلام الليل البهيم ، فشكراً .

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

قالت : أأنا حقيقة «رحيمة» ؟ وقهقهت ضاحكة حتى اغرورقت عيناها بالدموع من شدة الضحك ثم تنهدت وقالت :

— بل ليست فى هذا السجن صخرة أقسى من هذا القلب !

ثم أمسكت بيده مبتعدة به عن السجن ...

أشرقت الشمس على شاطئ « ڤارونا » ولم يك بالمرفأ غير قارب صغير كأنه كان بانتظارهما

قالت « شياما » تخاطب صاحبها :

— تعال .. تعال أيها الشاب الغريب واركب.. لا عليك أن تعرف شيئاً ! وبكفيك — الآن — أن تعلم أنى «حررتك» من أغلالك ؛ ثم ها أنا ذي أقذف بنفسى فى القارب معك ...

وانطلق الزورق يجرى سريعاً فى التيار الزاخر قال « فجرازن » :

— حدثينى أيتها الحبيبة ... عن المال الذى بذلته فأنقذت به حريتى ، وافتديت حياتى ؟ !

قالت : صه ! « ليس حديث هذا الآن ... »

وارتفعت الشمس فى السماء وجاء الظهر ... فرجع النساء القرويات وقد ملأن الجرار وأكملن استحمامهن ، فبقى شاطئ المسبح قفراً تتمرء أشعة متوهجة كالنار ...

قال « فجرازن » يهمس فى أذن « شياما » — وقد كشفت الريح الهابة الشديدة قناعها فجلت محاسن وجهها :

— لقد « حررتنى » من أغلال لتوقعينى فى أغلال أشد منها وأحكم ؟ إنى لشديد الحيرة مما أنا فيه !

فأعادت المرأة نقابها على وجهها وقالت :

« وليس حديث هذا الآن » ... أيها الحبيب !

ثم يرخى الليل سدوله ويشمل بظلامه هذا العالم فتهدأ فيه الحركة وتضمحل الأصوات ، ولا يبقى فيه من آثار النور غير هذا الهلال النحيل ...

جلست « شياما » وقد أسندت رأسها إلى كتف صاحبها الشاب ، وأرخت ذوائب شعرها الفاحم الطوال ، فجللت جسدها ... وبدت كأنها منه فى ليل حالك داج ... قالت تحدث فتاها عن « تحريره » من السجن :

— إن ما فعلته من أجلك كان شيئاً مروعاً... وأروع منه التصريح به إليك أيها الفتى المحبوب... وكانت « شياما » وهى تحدث الفتى ممتقعة اللون واطئة الصوت من فرط ما استولى عليها من الاضطراب والهلع الشديد ؛ قالت : ولكنى سأجعله لك فى بضع كلمات ...

— لقد أنقذتك فتى آخر لا تعرفه ... أتهم نفسه لينجيك ، وتقدم بحياته هدية لى فافتديتك ... إن خطيئتى التى اقترفت كان حبك داعياً لها ... أيها الفتى العزيز !

وكان الهلال قد غاب مساد المكان ظلام حالك رهيب ، وغمرته لجة عميقة من السكون ...

وسحب الشاب يده من خصر الفتاة ، وقد استولى عليه وجوم وحيرة أذهلاه عن الكلام ، وعما هو فيه...

وعلى غرة منه ... أهوت المرأة على قدميه تستغفره قائلة :

— إغتفر لى خطيئتى هذه ... ودع العقاب لله فسيجزينى بما قدمت يداى من إثم أيها العزيز ...

قال — وقد سحب رجله من بين يديها فى عنف وثورة جامحة وغضب ، ظهرت آثاره فى صوته المبحوح :

... وتكون حياتى الشريفة هذه قيمة لخطيئة اقترفتها ؟ وإذن فالنفس الواحد على منها محرّم لا تجوّز فيه ؟!

... وطفر الشاب من القارب وأوغل فى الغابة يبتعد ... حتى تأدى به السير إلى مكان فيها كثيف الأشجار ملتف الغصون ، استوقفه قليلاً ، فجلس على الأرض تعباً قد أعياه الطواف الشاق الطويل..

ولكن من ذا الذى كان يقتفى أثره جاداً فى السير فى هذا الظلام لا تنثيه شدة التعب ، ولا طول الطريق ؟ كأنه فى اتباعه إياه ظله الذى لا يغيب ؟؟

* * *

صرخ « فجرازن » هائجاً متذمراً :

— ألست بتاركنى أنفرد وحيداً ؟

وفى لحظة خاطفة سريعة انثنت عليه فضمرته بوابل من قبلاتها وأحاطت جسمه بأنفاسها الحرار وقالت تجيبه :

— كلا ... لن أتركك أيها الحبيب ... لقد أتعبْ وكان هذا فى سبيلك أنت .. فاصنع ماتراه .. اضربنى إن بدا لك .. أقتلنى إن أردت ! !

... واعترت ظلام الشاب « رعشة » سرت فى جوانبه . . حتى وصلت إلى ما تحت الأرض من جذور .. وارتفعت فى الفضاء شهقة .. وسقط على الأرض جسمه .. ثم عاود الغابة وجومها العميق..

وبرزت الشمس من خدرها ، وأرسلت شعاعها يتير أمام « فجرازن » الطريق ، فخرج من الغابة — على غير هدى — يسير على الشاطىء الرملى مسرعاً لا يبى ، ولا يرتاث فى السير ... حتى بلغ القارب الصغير . وقد مضى النهار وظهرت كتائب الظلام فى الفضاء ... وينظر فى القارب فإذا حجل [1] موضوع على الفراش هناك ... وإذا هو يجذب « الحجل » إلى صدره فى عنف شديد يخدش من شدته صدره ... ثم يدفن وجهه فى طيات ملاءة من الحرير كانت فى زاوية من زوايا القارب الصغير ... ليستروح عبير جسم عزيز عليه حىّ ... واحتجب القمر وراء الأشجار فعمّ الظلام الفضاء وساد الهدوء ...

ووقف « فجرازن » وأدار وجهه نحو الغابة وصرخ:

— تعالى أيتها الحبيبة ... تعالى إلىّ

وعاد السكون كما كان عميقاً يسود الفضاء فإذا شبح مقبل يسعى من الغابة حتى انتهى إلى شاطىء النهر .

— تعالى أيتها الحبيبة !

— ها أنذى جئت أيها العزيز ... إن يديك العزيزتين قد حاولتا أن تقتلانى ، ولكن عمرى فى الحياة قد امتد

ووقفت « شـياما » قبالة الشاب فألقى إليها بنظرة ، وتقدم خطوة إلى الأمام ليأخذها بين يديه ... وهم أن يفعل ذلك ... و ... ولكنه دفعها عنه صارخاً وارتد :

— كيف ؟ كيف جئت إلىّ ؟

وأدار وجهه ... وقال :

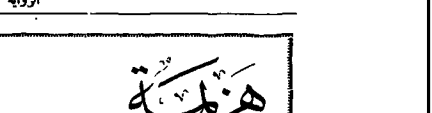
— ابتعدى ... اذهبى عنى

وبقيت الفتاة جامدة مكانها برهة ثم انحنت أمامه ... ورجعت سائرة تختفى فى الغاب اختفاء الأحلام ...

و « فجرازن » فى القارب يبصرها مكلوم القلب محزون النفس مما يجد من ألم والتياع !

فخرى شهاب السعيدى

(١) حلية من ذهب أو نحوه تزين بها النساء أرجلهن



— عبد الكريم !

فأجاب الرجل مضطرباً :

— نعم ياسيدى

— ماذا جاء بك ؟

فلمس الرجل لبدته السوداء الطويلة مرتبكاً ، وقال متلعثماً :

— لا شيء ياسيدي ... إنما أتنزه قليلاً

— أنت كاذب ! لقد أرسلوك هذه المرة أيضاً . اذهب فقل لهم إنى لست بمجنون ! وإذا رأيتك بعد اليوم فسوف أقتلك قتلا

— سيدي ... سيدي ... سيدي حضرة العمدة أمرني

— قلت لك اذهب . إنهم يغرضون علىّ الرقابة كأنى حقاً مجنون ! لم يبق إلا أن يسير ورائى كلما خرجت من باب البيت خفير !

فابتعد الرجل وجلاً وعلامته الصغراء تلمع فى ظلام الليل المنطبق . وتابع صبرى السير وشفتاه مازالتا ترتعدان من الغضب . لقد أصبح البقاء هنا لا يحتمل . فهم جميعاً يعاملونه كأنما هو مجنون . أبوه ، أمه ، إخوته ، كلهم ينظرون إليه مشفقين ، متحسرين ، خائفين أحياناً ! لا يكاد ينغض أو يثور حتى تبكى أمه ، ويضرع أبوه إلى الله أن يلطف به ، ويهرب منه إخوته ؛ ويظل البيت باكياً ضارعاً وجلاً حتى يهدأ . والرجال جميعاً غدوا لا يعاملونه إلا بحذر ؛ حتى نساء البلدة يكاد يسمعهن يقلن : « سى صبرى ابن العمدة حصل له لطف ! » كلا . إن هذا أكثر مما يطيق . إن هذا وحده كافٍ لأن يذهب بأرسخ العقول . وإنه ليسائل نفسه أحياناً : « أصحيح مايرى ويسمع ؟! هل هو حقاً مجنون ؟! » كلا . إنه أدرى بنفسه من كل هؤلاء . لاشك أنه ضعيف الأعصاب ، ولكن ليس معنى هذا أنه مجنون ! حسبه أن يقوم بالليل فيغني أو يصلى ، وأن يبكي ويتشنج لأقل سبب ، لسماع غناء أو لزيارة غير منتظرة . وهو أحياناً يكون غريب الأحوال وحتى الضحكات ، كثيراً لغير داع ، أو مسروراً بغير علة . ولكن ذلك لم يبلغ بعد حد الجنون ! إنما هو ضعف فى الأعصاب لا يحسن الذين هنا أن يعالجوه . لقد كان في القاهرة وهو غريب أحسن حالاً مما هو الآن بين أهله . كان هناك على الأقل صديقه « ابراهيم » ، وأعظم نعم الله على الكروب صديق يفهمه . وكان لا يحس فى الجو المحيط به هذه الكآبة وهذا التعبيس . وكان يذهب ويجيء حراً طليقاً ، لا يحاسبه أحد على مايقول أو يفعل . أما هنا فهم لا يكادون يتركونه لحظة يخلو فيها إلى نفسه ، ويذكر ما أصابه تلك السنين الطويلة من يأس وخذلان . لقد كانت له آمال وأمانى كبار . كان يرجو الحياة السعيدة بالحب والمجد والمال ،

2017-11-14 Egyptian Books

وذلك الشيء الذى طالما بحث عنه ، ذلك الشيء الذى لا يستطيع أن يسميه ، لأنه لا يستطيع أن يحده ، لأنه لا يستطيع أن يفهمه . ولكنه يحس برغم ذلك أنه خلق من أجله ، خلق ليبحث عنه ، خلق ليفنى فيه . وهو اليوم يقف فى ربيعه الخامس والعشرين على أطلال حياة محطمة بائسة . سنون كان ملؤها الكفاح والقوة والأمل ، فما عاد منها بغير اليأس والضعف والخذلان . أىُّ حلم صدق ؟ أىَّ غرض تحقق ؟ أىَّ أمل حقق ؟ لا شيء ! لا شيء غير الخيبة فى كل ما أمله ورجاه . خاب فى الحب حين أحب ، وخاب فى المجد حين طمح ، وخاب فى الحياة كلها حين اضطرب فى الحياة كلها . ولم يفد من كل ما كافح وناضل وأمل غير نفس مظلمة وأعصاب واهية وقلب مرير . ليته ما كافح ولا ناضل ولا أمل ! إذاً لما عرف الضيق ولا اليأس ولا الخيبة ! إذن لعاش كما يعيش كل الناس ، ولسعد كما يسعد كل الناس ، ولضحك وعبث كما يضحك ويعبث كل الناس . لقد أسرف فى الأمل ، فأسرف عليه اليأس . وارتد قلبه جاحداً بعد شكران كافراً بعد إيمان

وأحس كأنما ضاقت الأفكار السود أنفاسه ، فهز رأسه فى عنف وضيق كأنه يطرد عنه أشباح فكره ؛ وأرسل عينيه فى الروج المخضرة حوله ، كأنه يستهويها ويلهيها . كان الليل قد بسط على الكون جناحيه ، وكانت النجوم تلمع فى سماء الصيف الرائعة ، والنسيم يهب رخياً ندياً ، نسيم أمسية من أماسى الصيف . وكانت العصافير تسقسق على الأشجار المنتثرة حواليه ، سقسقتها الواحدة التى لا تنتهى . هذه الطبيعة قد تبدو جميلة أحياناً ، ولكنها لا تستطيع أن تهبه بعض ما ينزع إليه فؤاده . هى لا تكاد تغير نغمتها الواحدة أو تعزف على غير وترها الفريد . هى الأخرى لا تستطيع أن تملأ قلبه ، أو تشعره بمعنى الحياة . لا شيء فى الدنيا يستطيع أن يشعره بمعنى الحياة . وأراد ثانية أن يذود الأفكار عن رأسه . ولكنه كان يحس كأنما هو مدفوع إليها دفعاً ؛ وكان النسيم الرخى يثير فى ذهنه ذكريات بعيدة . ورأى الجميزة التى شهدت غرامه الأول منذ تسع سنين . لقد كان إذ ذاك على بدء الطريق ، ورأى « منى » وهى يومئذ بارعة الحسن ساحرة الطرف رائعة الملامح ، وما كانت إلا قروية تملأ الجرة وتحمل الغداء إلى الحقل . ولكن عينيها الصافيتين الصادقتين كانتا تحملان معنى عميقاً بليغاً بعيداً . وكان وجهها الطلق السمح الصغير يبعث فى القلب لذة روحية لا تقوم ، وينفى عن النفس الرجس والإثم والشك . فكانا يتقابلان عند هذه الجميزة كل يوم فيتحدثان فى أى شيء إلا الحب . ثم تركها خشية أن يتسامع بهما الناس ، ولكن قلبه ظل ممتلئاً بها ، آسياً عليها ، حافلاً بذكراها . وإنه ليذكر آخر لقاء لهما . لقد بكت يومها حتى بل الدمع ثيابها ، وبكى هو أيضاً ، بكى كثيراً . فقد مزق الفراق قلبيهما الصغيرين . ويومها فقط جرؤ على أن يقبلها ... فى وله ويأس وفى سيل من الدموع ...

وتزوجت « منى » بعد ذلك وأنجبت ولم يعد يراها إلا قليلاً . ولكن ذكرى غرامه الأول بقيت محفورة فى قلبه طوال تلك السنين : ساذجة صادقة خالصة صافية كقلب منى . ولقد أحب بعد منى وتفلسف فى حبه ، ولكنه سوف يذكر أبداً

تلك القبلات الواهمة الخجلى ، وذلك الوجه الملائكى الجميل ، كصباح فى ضباب كثيف لا يستطيع أن يبدد من ظلمته شيئاً . وساءل نفسه هل عرف الحب حقاً بعد مُنى ؟ إنه يذكر الكثيرات اللاتى أحب وأوجى إليهن قلبه الحائر الشاعر المتلمس . كلهن عبثن به حيناً وتركنه ، ولم يعرف قلباً أصدق حباً ولا أخلص وداً من قلب مناه الصغيرة ... حتى عائدة التى كان يخيل إليه أنها غير من رأى وعرف ، أنها النور الذى أضاء لقلبه السادر ، أنها الملاك المبعوث رحمة للبشر ؛ كان يخيل إليه أنها تستطيع أن تبعثه مرة أخرى ، أن تنفخ فى روحه الأمل ، أن تملأ قلبه بالحياة والحب ، فطاوعها وطاولته ، حتى ملها ويئس منها ، وملته ويئست منه ، وانصرفت عنه إلى فتى أملس الجلد مذهب الحاشية مخنث الشمائل . ولم يجرب بعدها أن يحب ، ولم يخل به قلبه إلى حب ، فقد يئس من كل شىء وتبدلت نظرته إلى الحياة ، ولم يفد من حبه غير الضيق والتشاؤم واضطراب الأعصاب . وقيل له إن فى العمل سلوة المهموم والمحزون والشاكى ، فانصرف إليه بكل ما فى قلبه اليائس من قوة حتى نال متفوقاً إجازة الآداب ووقف حائراً يفكر ماذا يعمل . أبوه يريد له شرف الوظيفة والعمل الحكومى ، وهو لا يجد من نفسه القدرة على احتمال ما تمليه الوظيفة من مهانة وضعة . وكاد الأمر يؤدى إلى نزاع بينه وبين أبيه ، لولا أن خضع صبرى ، وترك أباه يدأب ويسعى ، يطرق بابَ كل مظنة للجاه أو للنفوذ أو للمنصب ، حتى استطاع أن يكسب له وظيفة بمائية جنيهات ونصف ، وعاد يحسب نفسه فاتحاً مجدوداً . وتسلم صبرى مهام وظيفته غير متوقع نجاحاً أو بقاء فيها ، فقد قال له رئيسه وهو يشرح له سير العمل : « إن شبان هذه الأيام لا تعجبهم أساليبنا فى العمل ، وكأنهم يظنون أنهم ما داموا قد تعلموا فى المدارس العالية ، فمن حقهم أن ينتقدوا رؤساءهم الذين عرفوا سير الدولاب الحكومى قبل أن يعرفوا هم نور الحياة » . وكان ورود صبرى إلى الديوان محل همس ولغط بين الزملاء فكانوا ينظرون فيما يكتب باهتمام ويبتسمون حين يرون تخبط هذا الشاب المثقف خريج الجامعة ! وأراد رئيسه أن يملى عليه إرادته فصادف منه عوداً لا يلين ؛ واتصل النزاع بينهما ، فراح زملاؤه يبدون أمامه إعجابهم بشجاعته ، ويتعجبون أمام الرئيس من جرأته ووقاحته . ولم يكن من دأب صبرى أن يتملق أو يكذب ، ولا كان فى مقدوره احتمال ذلك ، فخنق على كل شىء حتى على أبيه الذى ألقى به فى ذلك المحيط القذر . وضاق به الضيق حتى هان عليه تقديم استقالته وإن أغضب بذلك أهله وأباه .

وعاد إلى القرية فرأى وجوهاً ملتوية وألسنة زافرة وألسنة لا تكف عن ذكر خيبته وضيعته . فلم يطل به المقام وارتد إلى القاهرة يبتغى الرزق من طريق الصحافة . وكان رأيه أن الصحافة مرشدة الجمهور ومثقفته بالصدق والاستقلال والإخلاص ، فرآها إما لسان حزب أو أداة حكومة أو بوق مهرج . ورأى وسيلة النجاح فيها كوسيلة النجاح فى الحياة بأسرها : خداع ونفاق وكذب . وإنه ليذكر كلمة قالها له زميل من كبار محررى الصحف : « ليس من الضرورى مطلقاً أن أثق بصحة الشىء لأحمده وأشيد بصفاته ؛ إنما العبرة بما أفيده أنا

وتفيده الجريدة من ذلك كله . ولقد أكون اليوم من أنصار هذا الحزب ، إذا أنا من أنصار ذلك الحزب الآخر . وليس فى هذا من بأس إذا أنا ربحت وإذا أنا استطعت — من أى طريق — أن أصحح موقفى فى عيون الناس .. » ولم يستطع صبري أن يروض نفسه على هذا الاعتقاد الجديد ففكر فى الاشتغال بالأدب . وكان له غرام به واطلاع فيه ، فألف مجموعة أقاصيص أعلن عنها فى الصحف قليلاً ، وتحدث عنها النقاد قليلاً ، ثم مضت لم يعجب بها أحد ، ولم يسخط عليها أحد ، ولم تثر ذماً ولا استحساناً ولا مدحاً ولا قدحاً . وثوت فى رفوف المكاتب حتى نسج عليها العنكبوت من خيوطه أكفانا

وألقى السلاح قانطاً ، وعاد يفتش عن الوظيفة مرة أخرى

وظل منذ ذلك الحين يتردد بين القرية والقاهرة يطلب العمل هنا ويطلب الراحة هناك ، فلا يوفق إلى أيهما . واكتأب وامتلأ قلبه أسى وحزناً أن أن رأى الحياة خيبت كل ما أمله فيها ، ووهت أعصابه فتصرم له أصدقاؤه أن يتسلى . وسألهم ما معنى السلوان ، فابتسموا وأرشدوه إلى دار امرأة من أولئك اللائى يتحملن خطايا البشر . وازعج صبرى فما كان قد طرق هذا السبيل من قبل . اللهم إلا فى ظروف كانت تسلبه إرادته ثم تعقبه ندماً ؛ ولكن الصدمات المتوالية كانت قد ذللت قياده ، فبات من اليأس مستسلماً لكل علاج . وأقبل على هذه الحياة الجديدة يريد أن ينسى نفسه فى لذائذها ، فكان يظل كالمخمور حيناً ثم يفيق فكأنما قذف به من حالق ، ويحاول محاولة المستميت أن يطفو إلى السطح فتعى قواه وينوص إلى الأعماق . وكان أشد ما يشقيه سرور مختلق وسعادة كاذبة وهوى رخيص

وتواردت على خاطره صور النساء اللائى عرف ، بوجوههن الشاحبة وعيونهن المتعبة ودلالهن المقيت . ولقد كانت تجمح به نفسه فيثور على كل شىء ثم لا يلبث أن يعود إليهن يحاول أن ينسى ، حتى مل هذه الحياة المضطربة فعاد إلى القرية منذ أسابيع ، يتلمس فيها ذكريات الصبا ، ويشتم منها روائح الطفولة ، ويلتمس فيها أثراً من « منى » . وبالأمس رآها سائرة تحمل الغداء لزوجها ، وما استطاع أن يتعرفها إلا بصعوبة ، فقد ترهلت واصفر لونها وغاض البشر من محياها ، وذوت فيها تلك النرجسة التى عرفها منذ سنين ، فعادت امرأة كسائر نساء الريف . وكان يجرى فى أعقابها صبي قذر اللابس زرىّ الهيئة لا شك أنه ابنها . وحين رأته ظل وجهها جامداً كأنها لا تذكر من قديم أمرها شيئاً ، تخيل إليه أن ليس لها بماضه رابطة ولا صلة . وأين هذه من تلك ؟ إنه لو سمعها نوديت بهذا الاسم لأنكرها ، فليست « منى » لديه إلا ذلك الكائن السماوى البعيد ، بقى ساكناً هذا الجسد حيناً ثم مله واجتواه ، ولم يبق له منه غير ذكرى تعاوده الحين بعد الحين ...

وفيم يقاؤه هنا بعد ؟ أفليس من الخير له أن يذهب إلى صديقه إبراهيم يطلب الراحة فى البوح إليه بكل مايضنيه ويشقيه ؟ سيسافر فى الغد ، فهذا خير له ؛ وسيقابله صديقه بالبشر والترحاب كما ألف منه دائماً ، بوجهه الطلق السمح وقلبه الصادق الخالص ، ونفسه الراضية المطمئنة . وسوف يلقى إليه بكل أحزانه فيشاطره حملها بغير ضجر ولا ضيق ؛ ثم لعله يوفق بعد ذلك إلى عمل . أما البقاء هنا فليس يجديه شيئاً

وبدأت سحب اليأس تنجاب عن نفسه .

2017-11-11

وعاوده الأمل وإحساس الراحة وهو آيب إلى المنزل . وكان البدر قد طلع وكلل بنوره هام الأشجار ، وانتظمت أشعة الشمس الأرض كلها ، فكست بالجمال كل ما عليها . حتى الأكواخ الصغيرة إلى جانبها حقول الذرة كانت تبدو « كومات » من فضة . وأحس صبرى كأن كل شىء حوله يرقص وينمى . وامتلأ قلبه بالأمل على حين غرة كما امتلأ قبل باليأس . وبات تلك الليلة هادىء الأعصاب مطمئن النفس فصفا البيت معه واطمأن . وفى الصباح استأذن أباه فى السفر فأعطاه جنيهين ، وقال له : « ليس معي الآن غيرهذين . فإذا احتجت إلى شىء بعدها فارسل إلى . وفقك الله يابنى وسدد خطاك ! »

وهبط صبرى إلى محطة القاهرة فى نحو الساعة العاشرة وقد بدأ يحس قلقاً مبهماً وتردداً ، أين يذهب ؟ أإلى شبرا حيث صديقه إبراهيم ، وحيث الأستاذ حسين حلمى الذى يعتمد عليه فى الحصول على وظيفة ؟ أم ؟ وظل برهة حائراً . ثم نكس رأسه فى حزن ويأس ، واتجه صوب عطة (الأتوبيس) رقم ١٤ فركب إلى ميدان الاسماعيلية ، ومنه ركب (الأتوبيس) رقم ٦ إلى الجيزة . وسار قليلاً فى شارع سمد زغلول ، ثم عاج فى عدة أزقة ملتوية ، ووقف أمام بيت صغير لا يدل ظاهره على نعمة . وتردد قليلا ، ثم أقبل على الباب يطرقه . لن يذهب إلى شبرا بل سوف يبقى هنا ما واتاه الوقت والمال . وارتفع من الداخل صوت مألوف يسأله :

— « مين » ...

— إفتحى يا عزيزة ... أنا صبرى ...

شكرى محمد عياد

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

لأبى العلاء المعري

قصد أبو العلاء بهذا الكتاب الافادة والتعليم ، فتناول فيه عدة علوم ومعارف من شتى الفنون ، وتحير لذلك أجل مظهر وهو تمجيد الله وعظة الناس ؛ فحسب من لم ير الكتاب أنه انما ألفه ليجاري به القرآن الكريم أو يعارضه . ورتبه على فصول بعدد حروف الهجاء ؛ أما الغايات فهى خاتمة كل فقرة منه ، وهى عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وقد ظل هذا الكتاب مفقوداً هذا الدهر الطويل حتى انتهى إلى المرحوم تيمور باشا ، ووفق الله لضبطه بالشكل الكامل وشرح غريبه والتعليق عليه الأستاذ :

محمود حسن زناتى

أمين الخزانة التركية (سابقاً)

وطبعه على ورق جيد ، وتبلغ صفحاته ٤٩٤ ، ووضع به لوحتين بالفوتوغراف من النسخة الأصلية التى طبع منها وهى المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهو يطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ، ويباع فى جميع المكاتب الكبيرة

وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

الجوسق الجبلي

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم السيد كمال الحريري

لم يكن جوسق چاوراباش ليمتاز من بقية الجواسق « الألبية » فى نسق أوطراز ، شغله كثير على أقدام الجليد وفى حدود الجبل الصخرية ، التى تؤدى إلى ذرى الألب الثلجية ، إنما كان يفرده عن أنداده أنه فى الطريق المنتهية إلى « جه ى » ، وأنه الملاذ الذى يفىء إليه السائحون فى غدوهم ورواحهم

كان يظل نصف السنة مأهول الربع بسكانه ، مأنوس الساحة بأهله ، حتى إذا ابتنى الثلج قبابه فى الوادى ، وأقام الجليد سدوده على مسالك « لوه ثى » ظعن عنه « الأب هوسار » مع امرأته وأولاده ، تاركاً على حراسته دليلين أمينين : هما « كاسبار هارى » الكهل ، و « أورليك » الشاب ، ثم « سام » كلب ضخم من كلاب الجبل . فى هذا السجن الثلجى الموحش كان يقيم الرجلان حتى إقبال الربيع ، وليس لديهم من متع الحواس ومرائى النظر غير مُهضب من الثلج لا محدَّ ، وكثب من الجليد لا تنتهى ، وغير القمم الشمّ اللامعة ، والذرى البيض الساطعة ، تمتطى هضبة « بالمورن » بسور من زمهرير وصقيع . لقد كانوا طيلة شهور الشتاء فى حصار هائل من جيوش الثلج اللجبة : تحدق بهم من كل مكان ، وتأخذ عليهم كل قطر ، ثم لا تكتفى حتى تزحف على الجوسق بقضها وقضيضها ، فتغمر الباب والنوافذ ، وتجلب السطح والجدُر ، وتترك الرجلين فى قبر بارد موحش ، كفنه هذه الثلوج الرحبة الآفاق .

فى هذه الستة ، وقد أقبلت طلائع الشتاء ، وخلت الطرق من المارين والسائحين ، تحتم على أسرة « هوسار » مبارحة الجوسق كمادتهم كل شتاء ، فكنت ترى ثلاثة بغال تترك الفندق الجبلى ، مُوقرة الظهر باللابس والأمتعة ، مُحملة بالثياب والأحزمة ، يستاقها أبناء الموسيو هوسار وتتبعهم الأم جان هوسار وابنتها لويز ، وقد امتطتا بغلاً رابعاً ، على حين سار الأب « هوسار » على أثرهم مصحوباً بدليليه الأمينين ، وقد كان عليهما حراسة هذه القافلة ورعايتها حتى حدود القمة التى تبتدىء منها طريق « لوه ثى »

أحدقوا أولاً بالبحيرة الصغيرة المتجمدة ، فطالعت أبصارهم أمواهها البراقة وجليدها المتألق ، وهو يلتمع فى أعماق سهل ضيق يمتد وسيعاً أمام الجوسق . ثم ساروا الوادى المتلألىء وقد التمع فى جنباته سناء الثلج ، وشع فى حواشيه بريق الجليد ، وتحلقت حوله قمم بواذخ وذرى شوامخ غرقت كلها فى بحر لجى أبيض من جليد وصقيع

وكانت أشعة الشمس وهى تسترسل على بسط الثلج الوسيعة ، وحزم النور وهى تنسكب على صحراء الجليد البديعة ، تتماكس وتتراقص وتموج بعضها فى بعض ، حتى لتكاد تخطف البصر وتمشى النظر

2017-11-14 15:05:03

لم تكن نأمة تتحرك وسط محيط الغمم الثلجية ، ولا ركز يحس خلال هذه الصحراء الجليدية ، إنما هو السكون العميق والعزلة الساكنة تضربان بجرانهما على كل شئ

وتستمر القافلة فى تسيارها ، فإذا «هورليك» الدليل السويسرى ذو السيقان الطويلة المتصبة يخلف وراءه زميله الكهل «كاسبار» والأب هوسار ليلحق بالبغال الأمامية التى كانت تقل الأم جان وبنتها لوز

وتنظر الفتاة إليه يدلف نحوها ، فتكاد تهم باستدعائه بين قيها التوسل والحزن . كانت كاعباً قروية شقراء . فى خدودها النضر لون الحليب ، وفى غدائرها الصفر تموجات باهتة لا لون لها ، صبغتها بها إقامتها الطويلة وسط الجلامد والثلوج ، ووصل الفتى إليها ، فوضع يده على كفل دابتها وراح يطابق خطاه الشديدة على خطاها الوئيدة . وتأخذ الأم جان فى الحديث إليه عن شئون الجوسق وتدبير الفندق الجبلى الذى وكل إليه ورفيقه أمر حراسته ورعايته . كانت هذه هى المرة الأولى التى يعتزل بها العالم فى أعالى هذا الجبل الثلجى ، على حين أن زميله الكهل كان قد استمر فى هذه السنة خمسة عشر شتاء قضاها سجين الثلوج أليف الجليد فى هذا الجوسق القصى النائى الذى يدعونه جاورانباش . لذلك كان الفتى السويسرى أورليك يعنى لتعاليم الأم وأوامرها دون أن يفقه لها معنى . وبينما كان يجيب الأم من حين لآخر قائلاً :

— أجل أيتها السيدة ، كما تشائين أيتها الأم «هوسار» ، كانت نظراته عالقة بوجه الفتاة لا ترتم

وبلغوا بحيرة دوب فبدت لهم فى غور الوادى السحيق الضيق بحيرة مستطيلة الصفحة منجمدة السطح مشمشمة الضوء

وبينما كانوا يقتربون من حنية «جه ى» حيث ينحدر الطريق إلى لوه شى ، انكشف لهم الأفق الرحب عن واد سحرى رائع ، لا يتمثل لخيال ولا يتراءى فى حلم : هو وادى الرون ، توشى جنباته أطرزة الشفق ، وتموّه حواشيه ألوان قوس قزح . وعلى البعد من هذا الوادى الحبيب ، حيث يتناقر النظر فى مسافة لا تنتهى ، كانت تقوم طائفة من قنن جبال ثلجية ، مختلفة التكوين متباينة الشكل : فهذه قمة ميشابل قد طعن قرناها فى أديم السماء ، وتلك كتل ويسهورن الهائلة تملأ الرحب ، وهاتيك أهرام « سيرفين » تسد الفضاء ؛ وهناك تحت هذه المشارف العالية والقلاع المرتفعة ، تراءت لهم قرية لوه شى ، وهى تتبع فى هاوية هائلة بعيدة كانت تظهر فيها أبنيتها ومساكنها كأنها حبات من الرمل الأبيض نثرت فى مغارة واسعة سوداء

وهنا تقف البغال على جانب الطريق المتعرجة المتموجة التى تتقاطع وتتحوى ، وتتمسح وتتلوى ، حتى ينتهى بها المطاف إلى هذه القرية المخبوءة المستترة ؛ وتقفز المرأتان فى خفة قرويات الجبل على بساط الثلج ثم يتبعهما الزوج « هوسار » وهو يقول للدليلين :

— إلى اللقاء أيها الصاحبان فى السنة المقبلة ، إنى لأتمنى لكما إقامة هنيئة هذا العام ، ويتمانق الشيمون والظاعنون كل بدوره ، حتى إذا جاءت نوبة أورليك الدليل الشاب غنم فى أذن الآنسة لوز وهو يعانقها :

— لا تنسى أن هناك فى الأعلى رجلين وحيدين . فتجيب الآنسة فى همس : كلا ، كلا . وحين أزف الترحل أشار الأب بيديه تسليمة الوداع ، ثم هبط

وأسرته المتحدر ، وما هى إلا دقائق حتى ابتلعهم الطريق بين طواياه

وينثنى الدليلان إلى الجوسق الموحش جنباً إلى جنب ، بخطوات ثقيلة وصمت طويل . لقد انتهى كل شىء ، وسيظلان خمسة أشهر منعزلين فى هذه الجبال الثلجية المتناثية الأرجاء ، وراح الكهل يقص حكاية حياته الجبلية على زميله الشاب . لقد كان قاطناً هذا الجوسق بصحبة رفيق قديم قصدت به الشيخوخة عن معاودة هذه الحياة ، لأن حادثاً من حوادث القدر قد ينكبه فى جسمه الموهون بين هذه الجبال الثلجية . لم يتطرق السأم إلى نفسيهما ولا أفسد النزاع ما بينهما من الود فى ذلك المقام . وفيم النزاع والشجار ، وكل يضطلع بأكلافه ويقوم بواجبه ؟ على أنه بالرغم مما كان يحدق بهما من مُطْبِق السآمة والوحشة ، فقد خلقا لنفسيهما ملاهى للفراغ ومسليات للحواس . كان أوريلك يصغى لقول زميله والطرف خفيض والنفس واجمة والفكر شارد ، يفكر فى أولئك الراحلين الذين تحملوا منذ قليل

ويقترب الرجلان من الجوسق ، فاذا نكتة سوداء لانكاد تبصر ، تسجد فى خشوع تحت أقدام الثلج الجبارة ، وتتمرغ فى ضراعة على ساحل محيط الجليد الثلج الوسيع

ويلجان باب الجوسق فيتلقاهما «سام» وهو كلب ضخم جبلى ، ثم يتمسح بهما ويقرع الجو بنباح صاخب ، ثم يتواثب عليهما فى نشاط ومرح ، ويقول الكهل كاسبار وقد استقر به المكان :

— وطن نفسك يا صديقى على أعمال المنزل ، فليس لدينا نساء لادارته . نحن الآن فى حاجة إلى النداء ، فهيا فشر البطاطس . ثم جلس الاثنان على مقعد خشبى وأنشآ يطبخان الحساء

وفى صبيحة اليوم التالى كانت الساعات تمر ثقيلة مسئمة أمام أورليك ، وبينما الكهل كاسبار يدخن فى سرور أمام الموقد ، كان الشاب أورليك يطل من خلال النافذة على جبال الثلج وهى تلتمع وتتوهج ، وكثبان الجليد وهى تضىء وتتموج

ثم خرج أورليك من الجوسق ، فأعد رحلة البارحة ، وجعل يتعرف على الأرض آثار حوافر البنال التى راحت بلوز الشقراء . حتى إذا بلغ منشعب الجبل ، وشارف الطلف الذى يطل على قرية لوه شىء انطرح على شفير الهاوية وراح يرقب فى نشوة ولذة بيوتها المبعثرة . لم تكن جيوش الثلج قد دهمت تلك البئر العميقة بعد لأن غابات الصنوبر الشجراء ، وأدواح السرو الخضراء ، كانت تقوم كالجند المدافع عن هذا المضيق الذى لاذت به القرية ؛ وكان الثلج لا يسعه إزاء هذا السور من الشجر إلا أن يتساقط ساغراً على أقدام الأدواح ، دون أن يجد ثلمة ينحدر منها لغزو القرية . وإذن فان لوبز الجميلة هناك الآن فى إحدى هذه الأمكنة الدكناء . كم يقوم بنفس الفتى أن يهبط إليها ما دام ذلك بمكنته هذه اللحظة ! ولكن وا أسفاه لقد انحجبت الشمس وراء قمة ويلسترويبل الهائلة

وآب الفتى إلى الجوسق فألفى الأب كاسبار ينفث دخان سيجاره ، وحين شاهد الكهل رفيقه عائداً قدم إليه ورقاً للعب ، ثم جلسا إلى طاولة وجهاً لوجه وطفقا يلعبان « البرسيك » حتى إذا سئما اللعب انكفآ إلى المطبخ فطعما ثم رقدا

وتوالت الأيام على هذا القرار : مضيفة باردة من غير ثلج جديد ، وعقيب كل ظهر كان الأب كاسبار يروح عن نفسه بصيد النسور الجبلية ، أو قنص نوع من العصافير يقحمها طيشها هذه الجبال ، على

حين كان أورليك يعيد بدأه على عوده أو عوده على بدئه فيقصد إلى ذلك الطنف الذى يشرف على القرية ليجلم هناك ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى الجوسق فيلعب الورق أو « الدومينو » مع زميله كاسبار ، ويكسب أو يخسر مئات قليلة كانا يجعلان عليها مدار اللعب لبعث نشاطه وإذكاء حدته

فى ذات صباح وقد استيقظ الكهل قبل زميله الشاب ، دعاه إلى النافذة ثم أشار إلى غمامة شهباء تزحف إليهما فى سرعة وهول ، وتأخذ على الجو منافذ الأقطار ، وما هى إلا أن أقبلت خرساء عمياء حتى انحطت بكلكلها على الجوسق المسكين ، وإذا فرش الثلج الوثيرة الثقيلة تنطلى الباب ثم تزحف على النوافذ ثم تصعد إلى السطح فينرق الجوسق كله فى موج من الثلج والصقيع

استمرت هذه العاصفة الثلجية أربعة أيام بلياليها ، حتى إذا انقشعت حدتها وهدأ غضبها تحتم على الدليلين — كى يريا نور الحرية — أن يزحزحا عن الباب والنوافذ الثلج المركوم ويحتفرا فى صخور الجليد مسالك للمرور ، ويتم لهما ذلك فى بضعة أيام فيلزمان الجوسق ، ويقيمان أمام المدفأة إلى أن يأذن الله بفرج من عنده

لم يكن أحد منهما ليفتات على زميله فى مزاولة أعمال المنزل أو ممارسة شؤون البيت ، فقد أخذ أورليك الشاب على عاتقه غسل الملابس وتنظيف الأوانى وتكسير الحطب ، واستقل الكهل بشؤون الطبخ والطعم ؛ على أن هذه الأعمال المنزلية المهينة كان يتخللها أوقات طويلة للعب الورق ورصف « الدومينو »

أبداً لم ينشب بينهما خصام ، أو يحتدم جدل ، أو تسوء كلمة ؛ وكيف يختصمان وكلاهما هادئ الطبع ساكن القصد حلو الشمائل ؛ ثم هما فوق ذلك راضيا نفسيهما على مكروه هذه الحال ، وأخذاها باحتمال حياة الجبال

وفى بعض الأحايين كان الأب « كاسبار » يتنكب بندقيته وينطلق بها إلى صيد الوعول فيعود منها من حين لآخر بطائفة صريعة . ولا تسل حين ذاك عن الوليمة الفاخرة التى ينعم بها الرجلان فى جوسق جاورانباش على شرف هذا الصيد

فى أحد الأيام انطلق كاسبار إلى الخلاء لهذا الصيد ، وكانت درجة الحرارة ترقم الثانية عشرة تحت الصفر ، والشمس لم تبرح خدرها بعد . وظل أورليك الشاب راقداً حتى الساعة العاشرة ، فلقد كان نؤوماً لا يمنعه من متابعة النوم إلا خجله من رفيقه الذى اعتاد أن يفيق باكراً . وتباغ الساعة العاشرة فيستيقظ صاحبنا ويتناول إفطاره مع كأبه سام الذى ألف الرقود بجانب الموقد سحابة النهار وسواد الليل ؛ ويفرغ أورليك من الطعام ، فإذا الوحشة ترين على قلبه والوحدة تسود نفسه ، وإذا هو يحس فراغ زميله ويأسى لفراقه هذه الساعات القصار ، ثم ... ثم يمد يده إلى ورق اللعب فلا يجد من يشاركه فيه . وعلى هذا فقد خرج من الجوسق ليروّح عن نفسه ولينجو من وحدته بضع ساعات قبل أن يعود زميله من صيده

كان الثلج قد ملأ جميع الأودية والأهضبة ، وساوى بالبقاع التلاع والنجاد الوهاد ، فلم يعد يطالع العين منظر البحيرتين الزجاجتين ، ولا يلفت النظر بروز الصخور السوداء ؛ فالقمم الشم خاشعة لجج الثلج ، والقلل الهائلة متكفنة الجسم بكفن الجليد لا يفصل قمة من قمة إلا أقبية هائلة منتظمة من ثلج ، أو حفر واسعة ممرّدة من جليد

ويتوجه أورليك صوب اليمين ، ويسرع خطاه إلى لوورن ضارباً جلامد الصخر بعصاه الحديدية

2017-11-14 06:06:03

الصلبة ملتمساً ببصره تلك النكتة السوداء المتحركة التي كانت تلوح على البعد بين تلك البسط الثلجية الواسعة . وإنه لكذلك وإذا الشمس تتضيف للغيب فتنتشر خدود الثلوج البيض بلون الورد ، ثم تدع للرياح اليابسة الصافية سبيلاً إلى أحضان الثلج تنشر رغاءه وتبعثر نثاره وتطوح بمندوفه أباديد ، ويطلق « أورليك » نداء حاداً طويلاً مهزاً فإذا رجع الصوت يدوى ويتراجف خلال سكون مهيب هائل ، وإذا رنينه يسافر إلى تلك الأمواج الساكنة الساكتة من الثلج ، واللجج العميقة السحيقة من الجليد ، ثم يضل ويفنى في بهماء رحيبة متناهية من الصقيع . وأرعدت فرائص أورليك لهذا السكون الروع تخيل إليه أن ذلك الصمت الموحش ، وتلك الرياح المتجاوبة ، وهاتيك الوحشة الرائثة ، تنفذ إلى كيانه وتزلزل جنبانه ، ثم تجمد الدم في عروقه وتحيل منه كائناً ساكناً لا يتحرك ولا يرى . فلم يجد وسيلة للنجاة من وحشته وخوفه إلا أن يبتدر الجوسق ، فمضى إليه وهو يردد في نفسه : إن « كاسبار » قد عاد من صيده ولا شك ، وكأني به قد جلس إلى مقعده أمام الموقد المضرم وتحت قدميه ما اصطاده من وعول . وبلغ الجوسق فلفت نظره أن خيطاً من الدخان ولو دقيقاً لا يتصاعد من المدخنة ، ففتح الباب في سرعة وقلق ، وإذا الكلب « سام » يلدف إليه ويحييه ولكن أين هنري كاسبار ؟ ويضرم الشاب النار ويتضح الحساء آملاً أن يعود رفيقه كاسبار فيجد الطعام مريئاً والجو دافئاً ، لكنه لم يعد . فكان « أورليك » يخرج من آونة لأخرى كي يتبصر شبحه يلدف أو يسمع صوته يدوى . ولكن الليل أقبل بظلمته المشوبة بلألاء الثلج ولم يعد « كاسبار »

وانقلب المسكين إلى الجوسق يائساً فجلس إلى الموقد يصطلي وقد ذهبت به الأظانين والشكوك كل مذهب

أيمكن أن يكون كاسبار ضل طريقه وتشابهت عليه مسالكه ؟ أيحتمل أنه قابع الآن في أخدود عميق من الجليد كسير الرجل أو مهشم الذراع ؟ يرجفه الفر وتوالي فوق رأسه تواكل الريح الصاردة ؟ أيجوز أنه يوالي الصرخات ويتابع الاستغاثات فلا يجد صريخاً ولا منقذاً ؟ وكيف ينقذه إنسان أو يمد له بشر يداً والجبال موحشة عالية ، والوديان رحيبة خالية لا تتحرك فيها نأمة ولا يتنفس ذو رئة

ومع هذا فقد أجمع « أورليك » أمره على البحث عن صاحبه إن أقبل نصف الليل ولم يؤب من صيده . ويأخذ في تهيئة نفسه وتحضير زاده وعتاده فيتناول كلاّبه الفولاذي ويتمنطق بحبل متين دقيق ويعتنق صلابة قضيبه الحديدي ومقاومة فأسه المد لحفر جلامد الجليد . ثم ينتظر إلى نصف الليل بينما الحطب يتأرث في الموقد والكلب يغط على ضوء النار ، والساعة ترسل في الجو خفقات « بندولها » الراعب الراعش . كان الفتى يرهف السمع إلى عويل المواصف وهي تلطم وجوه القمم البعيدة ، ودمدمة الريح الغاشية وهي تصفع جدران الجوسق وتوافذه ؛ حتى إذا دقت الساعة الثانية عشرة استوى على قدميه وأيقظ كلبه « سام » ثم فتح الباب وانطلق في الظلمة لجهة ويسار وبيل . وفي خلال خمس ساعات كان يصعد كثيباً ثم يهبط إلى هوة ثم يعود ويتسلق تلمة أو جبل من ثلج أو جليد . وفي كل ذلك لا ينفل عن تعليق كلابه في صخور الجليد أو احتفار طريقه بين جنادل الثلج ، أو تعليق حبله بكلابه

الفولاذى إما لإسعاده بنفسه أو نزوله ، أو لجرّ أو إزال كلبه المسكين . وأخيراً وفى الساعة الخامسة بلغ القمة التى اعتاد زميله « كاسبار » أن يختلف إليها لصيد الوعول . فجلس هناك ينتظر تبلج النور كانت السماء حين ذاك مشمشة الأديم مستضاءة الصفحة قليلا ، ولكن على حين غرة أضاء الآفاق نور وهاج لم يعرف مصدره فتمرت الجبال بسناه اللألاء ، وغرقت الكثبان بنوره الوضاء ، ثم أخذ هذا الضوء يمتد ويفترش حتى تلألأت جبال الثلج وتلاع الجليد بسناه الوهاج الرجاف ، إلى مسافة مائة ميل ، وكان يخيل للعين المتبهرة ، أن ليس ثمة إلا واحدة تلك التى تطلع كل هذه الأضواء ، وإنما بلورات الثلج ، ومرايا الجليد تبثن كل واحدة منها شموساً لا تعد وأنواراً لا تحد . ثم أخذت قمم الثلج العالية البعيدة تتراءى للنظر واحدة بعد أخرى بحللها الحمر الوردية التى نسجتها عليها خيوط الشمس ، فاستحال الكون كله إلى سنى وسناء وجمال وسحر ، وينسرح أورليك بعد إذ أخذ حظه من الراحة ، فى الأودية والمضاب ، والأخاديد والشعاب ، محى الظهر يتعيَّف الآثار ويتلمس مواقع الأقدام ، وهو يقول لكلبه :

— ألا فتش أيها الكلب الضخم عن آثار « كاسبار » سيدك . فيرود الكلب ويجوس ، ويتخلل الحفائر والمضائق والمقابر والأخاديد ثم ... ثم لا يجد لا هو ولا صاحبه شيئاً

ويقبل المساء ، فإذا صاحبناهو وكلبه قطعا فى يومهما مسافة خمسين ميلاً ، وإذا هما من الإجهاد والتعب بحيث لا يقويان على مواصلة السير إلى الجوسق البعيد ، فيلجآن إلى حفرة منعزلة فى قاصية الوادى ، ويبيتان فيها ليلتهما وقد أضنى « أورليك » عليه وعلى كلبه لحافاً صغيراً ، ثم التصق بكلبه المتعب كى يدرأ عن جسمه زمهرير البرد الذى بات ينفذ إلى عروقه طيلة الليل . لم يتمتض له جفن فى تلك الحفرة الصاردة المظلمة ، لأن الأشباح المخيفة كانت تراود عينه وخياله ، والريح اللاذعة ترعد أطرافه وأوصاله . وينهض صاحبنا مع الفجر مُصلَّب الأطراف من القر ، مجمد العروق من البرد ، خافق القلب مرعد الفرائص ، يظن كل همسة أو رعشة أو هزة نذيرموته فى هذه الأصقاع الثلجية التى لا يعيش فيها إنسان

ويبلغ « أورليك » منزله هو وكلبه الأعرج ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، فإذا المكان خال موحش ، فيأكل الشاب طعامه ثم ينام تعباً منهوكاً لا يفكر فى شىء . استغرق فى نوم طويل عميق غلاَّب مما قضاه البارحة من عناء ووعثاء ومشقة ، ولكن أترآه يحلم ؟ ! أترآه يسمع هتفة طائف النوم الذى يهتف فى أذن النائم المجهود والحالم المكدود ؟ إنه ليسمع هذا النداء الضاج الصارخ بجميع حواسه ومشاعره : نداء هائل مزعج ما إن ينزلق من أذنيه حتى ينفذ إلى أعماق أعصابه المرتجفة الثائرة ، وإذاً فإن صوتاً يناديه ويدعوه إليه ، ويهيب به من النوم ؟ ذلك حق لاريب فيه ، وهنا يذعر الشاب ، فينتفض من سريره إلى الباب ويروح يصرخ عالياً :

— أهو أنت يا كاسبار ؟ ولكن أحداً لم يجبه ، وصوتاً أو رزءاً لم يتأذ إلى سمعه ، إنما هو الليل الطويل المتكر وشمشمة الثلوج المتماكسة ، وأنين الرياح النادبة ، ثم صفير العواصف الناهضة على الجبال والوهاد والحفر ، ثم سكون الموت ووحشة الفناء ، ولا شىء بعد ذلك . ويصرخ « أورليك » : كاسبار ، كاسبار ! ثم يصغى ويصيح ، ولكن كل شىء يظل أخرس لا يجيب

وصامتاً صمت الموت ، فتستقل رواعد القدر عظام الشاب ويتكفىء إلى مُنعزله الموحش ، فيسقط المزاليج ويحكم قفل الباب ، ثم يتهاوى واجفاً راجفاً على كرسى أمام الموقد ، ثم يأخذ فى التفكير : إن « كاسبار » الآن رهين حفرة عميقة من الجليد منذ ليلتين ؛ إنه فى أخدود سحيق ، هو فى نصاعة بياضه أهول منظراً من قطع الليل الفاحمة ، أوعتمة المقابر الموحشة ؛ إنه ليحتضر فى هذه الحفرة منذ يومين ، وسيموت البائس وحيداً جامد الدم . سيموت وهو يفكر فى صاحبه الشاب ، ثم لا تكاد روحه تخرج إلى فاطرها ، حتى تحلق فوق الجوسق وتدعوه إليها بدعاء رهيب غامض لا تعرف سره إلا أرواح الموتى حين تتصل بأرواح الأحياء . إن روحه الآن لتهتف بروحه النائمة ولكن فى غير نجعة ولا صوت ؛ إنها لتودوداعه وداعاً أخيراً ، أو قل إنها تبغى تعنيفه تعنيفاً مؤلماً ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنها لتعب على رأسه لعناتها سباً ، لأنه لم ينقذ صاحبها من حفرته السحيقة . كان « أورليك » يحس هذه الروح الهائمة الغاضبة فى كل ما يحيط به من مكان : وراء الجدار ، وخلف الباب ، وفى صحن الطبخ ؛ وقد كبر فى وهمه أنها تحلق وتطير فى جو الجوسق كطائر مذعور ليلى يتهافت على نافذة مضيئة ليلجها . ولقد بلغ الذعر بالفتى لهذه الخاطرة أن كان متهيئاً للهواء من خوفه ورعبه ، يريد الهرب والنجاة بنفسه ، ولكن أنى له الجرأة على ذلك ؟ ! لن يجسر على الهرب من الجوسق ، لأنه سيلقى الشبح المهيب خارجه يتربص به الغوائل حتى يكتشف جسد زميله فيواريه حفرة تدفأ فيها عظامه ويستريح رفاته . وطلع النهار فهدأ روع المسكين قليلاً ، واطمأنت نفسه الراعشة إلى شعاع الشمس ، يؤنسه من وحشة ويؤمنه من خوف . فطعم وأطعم كلبه ، ثم جلس أمام الموقد جلسة البارحة يفكر فى زميله المنطوى فى غياهة الثلج . وبدهمه الليل فيستاده الذعر ويلم به طيف الأمس ، وإذا هو واجف راجف ، وحيد فريد كأوحش ما تكون الوحدة ، وأهول ما يكون الانفراد . هو وحده فى هذه الصحراء الثلجية الرحبة على بعد ألفى متر فقط من العمران ، والسكان ، والحياة والحركة والضجيج ؛ وهنا يخطر له أن ينجو بنفسه من هذا القبر الثلجى الوسيع ولتجرّه قدماه إلى حيث ألفت ... ولكن أنى له هذا وهو لا يجرؤ حتى على فتح الباب ؟ . وعند منتصف الليل ، وحين أعياه ذرع الغرفة ، وأنهكت أعصابه خطرات الطيف ، نام المسكين على مسند المقعد ، لأنه كان يخاف سريره كما يخاف مغارة مسكونة بالأرواح . ولكن يا لهول هذا الصوت ! إنه ليقرع أذنيه مدوياً عجلجلاً صاخباً غاضباً حتى ليلقى المسكين أرضاً هو ومقعده ، ويفيق الكلب فزعاً لهذه الضجة فيأخذ فى نباح مدوّ ثم يدور بأركان المنزل ، ويجوس نواحى الجوسق كى يعرف مأتى هذه الضجة ومرجع هذا الصوت ، ولكنه حين لم يجد أحداً أتفى بجانب الموقد حذراً قلقاً منتصب الرأس ملتمع العين يزجر ويدمدم . وثاب إلى أورليك هدوؤه قليلاً فراح يلتمس من « البوفيه [1] » زجاجة من العرق طفق يجترعها كأساً كأساً حتى إذا أتى عليها عاودته شجاعته الآزبة ، وراجعه حظه القاهب ، ثم تلاشت مخاوفه فى جو من الإبهام والغموض

وأقبل الند فلم يذق أورليك طعاماً وإنما اكتفى بجرعات « الكحول » تلهب عروقه الجامدة بحميا

(١) استعملنا هذه اللفظة لأننا لم نجد مقابلها فى العربية

2017-11-11 Facebook

النشاط ، وتقيم حول دماغه وحواسه سوراً من نسيان ...

وتوالت الأيام على هذا الحال لا يطرق مسمعه هاتف رفيقه الموعود حتى يأخذ فى الاجتراع والعب والعل والنهل ، ثم ... ثم يسقط على الأرض سكران لا بى ولا يحس ، ولكن ما يكاد يستفيق إلى نفسه حتى يدوى فى أذنيه النداء الهائل المرعب : « أورليك ، أورليك » فينتصب المسكين على قدميه الراجفتين كأن هذا النداء رصاصة تنفذ فى دماغه ، ثم يترنح سكراً ويعيد فزعاً فيستدعى كلبه « سام » إلى مجدله ، ويتراكض الحيوان وقد أصبح مجنوناً مسموراً كسيده ، إلى الباب يخدشه بأظفاره المرهفة ويقرضه بأنيابه الحادة اللامعة ، على حين ينتصب سيده أمام « البوفيه » مصطع العنق متزاول الرأس مرتع العطف سكراً يعب جرعات العرق الحارة كما يعب مسابق مجهود كؤوس المرطبات الباردة ، ثم هنيئاً ونسيان وغيبوبة ليس معها فزعه المهوم وطائفه المدوم

ومضت أساسيع ثلاثة ، فنفد ما عنده من خمر ، وما فى « البوفيه » من « كحول » ، وأصبح المسكين وقد اجترع آخر نقطة من العرق أشد تهيباً للنداء المدوى وأرهف شعوراً بالطيف الهاتف : فإن إدمان شهر على الخمرة ما زاد مخاوف المسكين إلا تيقظاً وتركزاً فى عقله الباطن . فهو يندو الآن ويروح مفزعاً مروعاً لا يفتأ يلصق أذنيه على جدار الجوسق ، أو يرهف سمعه على باب المنزل ، والصوت مع ذلك لا ينقطع دويه ولا يفتر هتافه : « أورليك » « أورليك »

فى ذات ليلة قد أخرجه هذا النداء الملح عن طوره جينه ، ابتدر الباب كى يتعرف ذلك الشخص الذى يناديه ، وكى يرغم ذلك الصوت الترثار على الصمت والخرس . ولكن ريحاً مثلجة ترجف العظم وترعد الفرائص ، أرغمته على إغلاق الباب وإسقاط المزاليج . فأغلقه دون أن ينتبه إلى أن كلبه « سام » ألقى بنفسه خارج الباب . وترجف أورليك رواعد البرد وهزاهز الفزع فيسرع إلى المدفأة يؤرث نارها ويذكى ضرامها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يقف شعر جسده هولاً وذعراً ، لأن يداً خفية كانت تخدش الباب وأنيناً مروعاً كان يعقب هذا الخدش . ويصعق الخوف « أورليك » فيصرخ : أخرج من هنا ، إليك عنى . فلا يجيبه إلا أنين ضارع وعواء باك

وهنا . هنا فقط يتأدر رأسه كل ما بقى فيه من رشد وصواب فيدور كالمجنون على نفسه ويقول:

— إليك عنى ! أخرج من هنا ! ولكن العواء الباكى ، أو البكاء العاوى لا يلتفت لأوامره بل يدور حول الجدران ، ويحدق بأركان الجوسق وينفذ من تحت الباب . وامتلأ قلب الشاب فرقاً ورهقاً فأسرع إلى منضدة « البوفيه » الملوءة صحوناً وكؤوساً ، ثم رفعها بين يديه بقوة الجبابرة المجانين ثم وضعها أمام الباب ، ثم له بذلك متراس هائل حصين أخذ يكدس فوقه أدوات المنزل ، وأشياء المطبخ ، ثم فراشه وسريره ووسائده ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من آنية أو آلة أو كرسى حتى لقد تهرم أمام الباب تل ينطح السقف ويسد منافذ الهواء

ولكن نداء الكلب الصارخ أصبح الآن خارج المنزل عويلا مبكياً وأنيناً مشجياً لم يلبث « أورليك » نفسه أن أخذ يجيبه بمثله

وانقضت أيام وليال وهذان العواءان لا ينقطعان عن الترداد والدوى : عواء منتقل سيار من الخارج يخدش الباب ويلطم النوافذ ويهم بتقويض

2017-11-14 15:03:03

الجدران ، يقابله عواء من الداخل ، لا يفتأ صاحبه وهو يتبع حركات الأول ينشر أذنيه على الحائط أو يكدس الأشياء على الفراش ، أو يبادل العواء الخارجي : نباحاً بنباح وأنيناً بأنين

ويمسي المساء ، وإذا صاحبنا « أورليك » لا يسمع البكاء الدوي ولا الأنين العاوي ، وإذا سكون طويل عميق طويل يرين على جو الجوسق . هنالك يتهافت المسكين على مقعد خائر العزم موهون القوى مصموق الرأس ، ثم يسلم نفسه إلى نوم عميق غلاب ... ويستفيق «أورليك» بعد ساعات ، وقد تكون أياماً ، فارغ الرأس من الرشد ، خالي الذهن من الذكرى ، كأنما أفرغ كل ما في دماغه في هذه النومة التي غرق فيها ، ويحس بالجوع ينهش معدته فيقبل على الطعام إقبال الهيم

وأقلع الشتاء بقصفه وقضيضه وثلجه وبرده ، فعادت المسالك ممهدة والمصاعد معبدة ، وأصبح ممر « جه مي » سالك الطريق ذخار الحركة فتتخذ أسرة «هوسار» سبيلها إلى جوسقها الجبلي . وكانت طيلة الطريق في حديث الدليلين اللذين تأخرا هذه السنة عن النزول لاستقبالها مع أن ذلك دأبها كل عام . وأخيراً لاح لأسرة « هوسار » شبح الجوسق مغموراً بالثلج محاط الجهات بالجليد ، ولكن بابه كان منفلقاً ، وخيوط دقيقة من الدخان كانت ترتفع من مدخنته . ويقترب الأب هوسار من عتبة الجوسق فإذا هيكل عظمي لحيوان نافق يطالع بصره . ويحدق العائلة في هذا الهيكل العظمي الذي تناوشته قشاعم الجبال ثم تقول الأم « هوسار »

— لكأني به هيكل كلبنا «سام» ! قالت هذا وراحت ترتد :

— أيها الأب كاسبار ، أين أنت يا كاسبار ؟

وهنا أجابتها من داخل المنزل صرخة مدوية لا تخرج إلا من فم ثور هائج . وأعاد الأب هوسار النداء فارتدت الصرخة المرعبة تجلجل في آذان الأسرة . ويعترم الأب وأبناؤه اقتحام الباب المسدود ؛ غير أن الباب صمد لهم أولاً ثم خضع وانكسر حين دفعوه بقائمة خشبية ، ولكن ما كاد ينفتح حتى ارتفعت في الجو صرخة مدوية ، ثم أبصروا ويا هول وأغرب ما أبصروا : أبصروا وسط الغرفة رجلاً مسترسل الشعر حتى الكتفين ، طويل اللحية حتى الصدر ، أغبر أشعث ممزق الثياب زائغ البصر هائل الرأى .

لم تعرف الأسرة أولا هذا النول البشري ، ولكن الابن لويس قال :

— إنه أورليك يا أماه . ثم أمنت الأم على قوله :

— نعم يا بني إنه بعينه رغم شعوره البيضاء .

وسمع أورليك لأسياده بالاقتراب منه ، وأذن لهم بلمس جسده ولكنه لم يجب بكلمة على الأسئلة الملقاة عليه . على أن الطبيب وضع حداً لكل هذه الشكوك حين أعلن للأسرة في الند أن «أورليك» مجنون .

ولكن أين رفيقه الكهل كاسبار ؟ أي حادث عصف بمقل المسكين ؟ ثم من قتل الكلب الأمين ؟ ؟

تلك أسئلة لم تجد لها الأسرة أجوبة وا أسفاه !

« حلب » كمال الحريري

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ ﴾

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

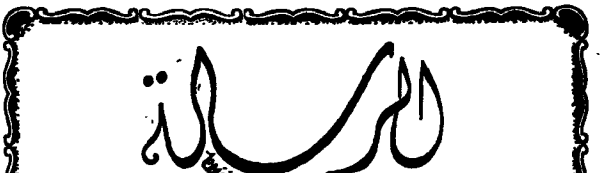
العدد ٢٩ — ٣٠ محرم سنة ١٣٥٧ — أول إبريل سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

			صفحة
بيتي	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني	٢٣٤
حذار إلك مراقب	لجوزيف بلاكبيرد	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة	٢٤٢
ايولانتا — و — مرشكا أو الحساء والجبال	لويس جولدنج	بقلم الأستاذ دري خشبة	٢٥٣
الصورة الفتنة	للكاتب الانجليزي جيمس ماجونن	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ..	٢٦٨
الحية العاشقة	للكاتب الفرنسي إميل زولا	بقلم السيد صلاح الدين المنجد	٢٧٤
الخادمة	للكاتب الفرنسي بيير لويس	بقلم السيد عز الدين عزوزي	٢٧٨
الأعمى الذي ارتد بصيراً ...	القصص الانجليزي أدون بو	بقلم مظهر خليل	٢٨٩

2017-11-11 Tuesday 06:03



مجـــلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـــة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصـــور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

بمجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معـارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

فيفي

قصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

تلقت « فيفي » نبأ — بالتليفون — بأن فى وسعها الآن — إذا كانت لاتزال راغبة فى ذلك — أن تزور « الضحية » وتراه وتجالسه وتحادثه . وكانت تتوقع هذه الدعوة التى ألحت فى طلبها ، ولكن سرورها بها كان مع ذلك عظيماً . وكانت تتمالك نفسها وتزعم أن فرحها إنما هو بشفائه وزوال الخطر عنه . ولم تكن تعرف أن هذه مغالطة ، فما رأت ضحيتها إلا هنيهة قصيرة على ضوء مصباح السيارة وهو ملقى على الأرض أمامها وقد فقد وعيه من الصدمة . وكان معها أخوها — وهو ضابط فى الجيش — فأسرع إلى المصاب ليرى مبلغ ما حل به ، وانحنى عليه بجسمه وإذا بصوت يقول : « الذنب ذنبه . لقد قطع الشارع من غير أن يعنى بالتلفت والنظر ، ورأيت أنا السيارة مقبلة بسرعة فخفت عليه ودفعت يدى لأرده ولكنه كان قد مضى ... هو هكذا أبداً ... » ومال على صاحبه ثم رفع رأسه وقال : « لا أظنه أصابه شىء خطير ... لعل الصدمة التى أصابته من وقوعه على الأرض أقوى من صدمة السيارة ... على كل حال تعال نحمله إلى البيت ومن هناك ندعو الطبيب »

وجاء الشرطى وهما يحملانه إلى السيارة ورأى بزة الضابط فخنع إلى التساهل ، وساعده على ذلك أن صديق المصاب كان يهوّن الأمر ويؤكد أن لا شىء هناك يستحق وجع الرأس . وكانت فيفى هى التى تقود السيارة فمضت بها إلى حيث أشار الصديق . وكان المصاب لا يزال مغشياً عليه ، فدعى الطبيب وخلا به وشرع يفحصه والصديق معه وفيفى وأخوها فى غرفة أخرى يتمشيان ولا يطيقان الجلوس أو الكلام من فرط قلقهما على الشاب المسكين ، وقد كبر فى وهمهما من طول التنبيوبة أنه لا محالة ميت . وخرج عليهما الطبيب بعد دهر طويل فابتسم لهما وقال : إن الذى أصاب الرأس طفيف لا قيمة له ، وإن الخدوش الأخرى لا خوف منها ، ولكن الذراع مكسورة ؛ وإنه سيبعث إليه فى الصباح بطبيب يجبر الكسر إلا إذا آثروا المستشفى ، ولكنه هو لا يرى حاجة إلى ذلك

وانصرف الطبيب بعد أن اتخذ من تدابير الوقاية والعلاج ما رأى أنه لازم ؛ وبقيت فيفى وأخوها زكريا مع طاهر نحو نصف ساعة ، فعلما منه أن اسم المصاب « حمادة » وأنه طالب فى السنة الأخيرة من كلية الطب ، وأنه ابن عمه وهو يقضى أجازته الصيفية ضيفاً عليه — أى على طاهر — فى الاسكندرية ، حيث يعمل فى بنك مصر . وقد سر الأخوين أن طاهراً أبى أن يبعد أحداً غير حمادة نفسه مسئولاً عما وقع . وكانت فيفى تحدث نفسها بأن تعرض على طاهر أن تقوم هى وأخوها

2017-11-14 15:26:03

بنفقات العلاج ، ولكنها خجلت أن تخاطبه فى ذلك بعد الذى رأته من مروءة نفسه وحلاوة طباعه ، وآثرت أن تشاور أخاها أولاً عسى أن يستطيع أن يحتال للأمر من غير جرح إحساس هذا الرجل الكريم

وكانت فيفى وزكريا أشبه بالصديقين الحميمين منهما بالأخوين ، فقال لها وهما عائدان : « غريب... لقد استلطفت حمادة ... بمجرد وقوع عينى عليه وهو ملقى فى الطريق »

فلم تقل فيفى شيئاً فقد كانت تحس أنها مشغفة على البكاء

وعاد زكريا يقول — أو يصيح على الأصح — بعد قليل : « لماذا لم تدوسنى واحداً ممن لا خير فيهم ..؟ لماذا حطمت هذا المسكين ..؟ »

فقالت : « لو لم أمر بك لأخذك ... لو كنت مضيت إلى البيت مباشرة ... لما حدث هذا ... فظاعة ... أوافق أنت أنه سيفيق من هذه النيبوبة ؟ »

فقال زكريا : « الطبيب يؤكد .. فلنصدقه .. وسنرى غداً .. اسمعى .. إنى أريد أن تقوم بنفقات العلاج .. إنه طالب وابن عمه موظف متوسط الحال .. وقد دسناه على كل حال وكسرنا له ذراعاً فما قولك ؟ »

قالت : « لقد فكرت فى هذا ولكنى خجلت أن أعرضه على طاهر ... اسمع ... تعال نقتسم النفقات ... واسمع ... لا داعى لإخبار ماما ... ألا توافق ؟ »

قال : « بالإجماع .. »

وهكذا كنا الأمر عن أمها اتقاء لازعاجها من ناحية وخوفاً من أن تنغص على فيفى حياتها اذا عرفت ما وقع

وقالت فيفى لطاهر وهى تدخل ووراءها زكريا : « ألم تقل له إننا آسفون جداً جداً لما حصل ؟ »

فقال طاهر بابتسام : « لقد تركت لك هذا ... كان على واجب آخر لهذا المهمل الذى لا يعرف حتى كيف يقطع الطريق »

وتقدمهما إلى الغرفة وصاح وهو يلتفت عن الباب لتدخل فيفى وأخوها : « ضيوف يا حمادة ... افتح عينيك »

وألفت فيفى نفسها جالسة على حرف السرير تبتسم لحمادة فى عينيه ، وقد سرها أن أخاها استأثر بطاهر فقالت : « لا أحتاج أن أقول إنى آسفة ، فان هذا لا يكفى ... فقد جنينا عليك ولا أدرى فى الحقيقة كيف تطيق النظر إلينا وقد كسرنا لك ذراعك »

فنظر حمادة إلى ذراعه وقال : « أوه هذا ... إنى أكاد أعد طبيباً فصدقينى حين أقول لك إنه لا شىء ... ثم إن هذه فرصة لى سأغتنمها »

فلم تفهم فيفى مراده وزوت مابين عينيها فقال : « صحيح ... بعد أن أعود إلى الكلية سأستبدل بها ذراعاً صناعية خيراً من الطبيعية »

فقالت فيفى : « إيه ... هل ... هل ... »

فأسرع حمادة يقول : « لا لأن يدى هذه أصبحت لا خير فيها ... كلا ... بل لأن الأعضاء الصناعية أصبحت من الدقة والإتقان بحيث تفوق

2017-11-11

الطبيعية ... مثلا إذا كنت أريد أن أشتغل بتفريغ الدجاج فما علىّ إلا أن أتخذ ذراعاً خاصة أتبعها وأطيع وحيها »

فحدقت فيه وفمها مفتوح ... أتراه يتكلم جاداً ... هل بلغ تقدم العلم هذا المبلغ المدهش ... أم هو يمزح ليؤنسها ويصرف ذهنها عما أصابه منها ؟

وسمعت حمادة يقول : « أعرف رجلاً بترت له ساقاه على أثر حادثة ترام ... وكان يحب الألعاب الرياضية فركبوا له ساقين مدربتين على هذه الألعاب ... ويمكنك أن تتصوري بسهولة أنه أصبح الآن وليس أبغض إليه من هذه الألعاب ، لأن ساقيه لا تتركان له يوماً يرتاح فيه من الوثب والجرى وما إلى ذلك

فلم يبق شك فى أنه يمزح ، ولم يسعها إلا أن تضحك وإلا أن تعجب بروحه الواسعة الكريمة

وقالت ، والتفتت إلى أخيها وطاهر: « زكريا ! يجب أن نحتفل بحمادة أفندى فى أول يوم يخرج فيه ... يتغدى عندنا هو وطاهر أفندى ... أليس كذلك ؟ »

فهمس زكريا ودنا من السرير وقال يخاطب حمادة : « اسمع يا سيدي .. هذه الفتاة سريعة النسيان .. لقد اتفقنا أن نكتم الأمر كله عن الأم لئلا تسود لغيني عيشها .. فليس من المناسب أن تدعوك إلى البيت على الرغم من رغبتنا فى ذلك ، ولكنى أقترح أن تتغدى يوم تخرج فى سيدى بشر .. إلى أن نهيء لاطلاع الوالدة المحترمة على الحقيقة تمهيداً نأمن به الشر الذى نخشاه وإن كنا نستحق أضعاف أضعافه »

ولم تسؤ حمادة وطاهراً هذه الصراحة . وراقهما ما بين الأختين من الحب وما يتبادلان من الرعاية ، وخطر لطاهر وهو ينظر إليهما أن فيني كانت خليقة أن تشوق زكريا عشق المرأة للرجل لو لم يكن أخاها

وحرصا على التخفيف فانصرفا بعد قليل ، فقال زكريا لأخته فى الطريق : « هيه »

قالت : « هيه »

قال : « لقد قلتها أولاً »

قالت : « أحسب أن معنى ذلك بعد الترجمة هو ما رأيي فى حمادة ... الجواب مدهش »

قال : « هاتيه »

قالت : « قلت لك مدهش ... : ألا يكفيك هذا ؟ »

قال : « طيب آمنا ياستى ... وأنا مستعد فادهشيني ... تفضلى ... »

قالت : « ماهذه البلادة ؟. قلت لك إنه مدهش.. ميم ... دال ... »

فقاطعها : « أيوه ... أيوه ... فاهم ... بس أريد أن أسمع هذا الجواب المدهش »

فلما كفت عن الضحك قالت : « يا أبله ... إنما أعنى أن حمادة هو المدهش »

فهز رأسه موافقاً وقال : « وأنا من رأيك .. وأحب أن أقول لك أيضاً إنى أتمنى أن أراه لك زوجا »

فقالت : « على مهلك ... على مهلك ... طول

بالك ... ولا تنس الوالدة المحترمة »

فقال : « أوه ... إذا كان هذا هو كل مافى الأمر فدعيه لى ... أنا أدبر المسألة »

* * *

وتوثقت العلاقة بين الفريقين وارتقت من الصداقة إلى الحب — نعنى بين فيفي وحمادة — ولكن الأم ظلت لا تعرف من الأمر شيئا ، فقد كان الأخوان يعلمان أن أمهما تأبى أن تزوج بنتها لواحد من غير أهل اليسار والغنى مثلها . وكانا قد عرفا أن حمادة رقيق الحال وإن كان المرجو — بل المحقق — أن يكون مستقبله خيراً من حاضره . ولكن الأم لا تقبل كلاماً كهذا . وكانا يحبانها ويعز عليهما أن يصدماها أو يخيبا لها أملاً فيهما ، فرأيا أن يستعينا بالصبر عسى أن يفتح الله لهما فرجا

ولاحظت الأم أن الأخوين أصبحا لا يفترقان — ولم يكن هذا حالهما من قبل — نعم كانا كالتوأمين لا يعرف ما بينهما إلا الله ، ولكنه قلما يمضى الآن يوم لا تخرج فيه فيفى مع أخيها . فهل ترك زكريا إخوانه جميعاً ... ثم إلى أين يذهبان ..؟ كلما سألت تلقت جواباً من زكريا فيه من الغموض والإجمال أكثر مما فيه من الوضوح واليان . ويبدو أن تزيد فيفى على الابتسام ، وما أكثر ما تلجأ إلى تقبيل أمها واحتضانها كأنما تريد أن تصرفها عن السؤال . وإذا قالت شيئاً كان قولها : « ألا يكفيك للاطمئنان أن أخى معى لا يفارقنى ؟ » ولم يكن هذا هو الذى يقلق الأم وإنما كان يثقل عليها أنهما لا يريدان أن يقولا لها شيئاً ، وكان هذا يثير رغبتها فى المعرفة ؛ ولم تستبعد أن يكون زكريا قد ذهب يساعد فيفى على غرامها لما فإنها تعرف عظم ما بين هذين الأخوين من الحب ؛ ولكن إخفاء الأمر عنها معناه أنهما يدركان أنه لا يبعث على رضاها ؛ ومن هنا كان قلقها

وكأنما أرادت أن تقطع العقدة بالسيف . أعلنت يوماً أنها قررت العودة إلى القاهرة غداً ؛ ولم يكن زكريا فى البيت فتعبت فيفى فى محاولة إقناعها بالعدول عن هذا القرار ، ولم يجدها أن تبين لها أن الصيف مازال باقياً منه أكثر من شهر ، فتظاهرت بقلة الاكتراث وهزت كتفيها وقالت : « على كيفك .. إذا كنت قد اشتقت لمصر فلنذهب إلى مصر .. وما الفرق ؟ سيان عندى فى الحقيقة .. وأقول لك الحق إنى لم أضجر من الأسكندرية كضجرى فى هذا العام .. »

ومضت إلى غرفتها وقد شق عليها أن تترك الأسكندرية وتترك فيها حمادة . ولم يسرها أن حمادة سيرجع إلى مصر لا محالة وأن فى وسعه أن يرجع الآن أيضاً .. كلا لم يسرها هذا الخاطر فاستلقت على السرير وهى تجيل هذا وما إليه فى نفسها . ودخلت عليها أمها فرأتها ساهمة فسألتها ماالها فقالت : « لا شىء .. تعب بسيط .. »

وكانت الأم رقيقة القلب جداً وقد مات لها ثلاثة قبل أن ترزق هذين ، فهى ضنينة بهما جداً لا تطيق أن ترى أحدهما مزكوماً أو مصدعاً أو به فتور ؛ وكان يقلقها ويزعجها أن ترى زكريا يؤثر أن يبقى فى البيت لأنها تتوهم أنه مريض فتروح تلح

2017-11-14 16:16:13

عليه أن يخرج ويتنزه ويشم الهواء ويضحك مع الإخوان وينعش نفسه

وقالت لفيفي : « مالك .. لقد كنت قبل ساعة كالوردة النضيرة فماذا جرى ؟ »

قالت فيفي : « لاشيء يا ماما .. تعب قليل .. يزول بالراحة .. اطمئني »

فقالت الأم : « سأدعو الطبيب .. حالاً »

فلم ترتح فيفي إلى هذا وألحت على أمها ألا تفعل، ولكن الأم أبى لها قلبها الرقيق الضعيف إلا الإصرار ، فخرجت إلى التليفون والتفت في طريقها إليه زكريا فسألها وقد رأى وجهها المتقع : « ماذا جرى ؟ »

قالت : « فيفي .. مريضة .. سأدعو الطبيب »

فاستغرب زكريا، فقد ترك أخته على أحسن حال وقال لأمه وقد ساورته الشكوك : « انتظري حتى أراها »

وأسرع إلى فيفي فقصت عليه ماحدث ، ففرك كفيه وعيناه تلمعان وقال وهو ينهض : « هذا خير ساقه الله ويجب انتهاز الفرصة التي أتاحتها لنا الأم المحترمة .. لقد كنت حائراً جداً وأسبني التفكير في التماس الحيلة حتى يئست ، فالآن فتحت لنا الأم الباب بورك لنا فيها .. عليك الآن أن تلزمي السرير .. المرض يثقل عليك شيئاً فشيئاً .. وعليّ أنا الباقي »

فرمت فيفي إليه قبلة وعاد إلى وجهها الاشراق والوضاءة

وقال زكريا لأمه : « نعم يجب أن ندعو الطبيب .. كليه وسأذهب أنا إليه بالسيارة .. هذا أسرع »

فكادت المسكينة تقع على الأرض لأنها أيقنت من لهجة زكريا وهيئته أن الأمر جد وأن بنتها مريضة حقاً وإذا كان زكريا قد قلق إلى هذا الحد فياويلها هي ...

وجاء الطبيب — وكان هو طبيب الأسرة في الاسكندرية — وكان رومياً هرماً ذا لحية كثة بيضاء ، ولكنه دائم البشر والبشاشة ، حاضر النكتة وإن كانت نكتته كثيراً ما يفسدها أو يحجبها عجزه عن التعبير باللغة العربية . ودخل على فيفي ورد الباب وراءه ، فارتدت الأم راجعة وكانت تشتهي أن تكون حاضرة وهو يفحص ابنتها وقرة عينها وحبة قلبها

واستمر الفحص نحو نصف ساعة فكادت الأم تجن وأيقنت أن الأمر أخطر مما كبر في وهمها إلى الآن . فلما خرج الطبيب خفت ناهضة اليه وقد ارتسم القلق والفزع على وجهها وفي عينيها

وقالت له وهي تتناول طيش سترته بكفيها وتشده منهما : « طمئني يا دكتور »

فقال بلهجة الجد ما معناه : « اطمئني على كل حال ولكن هذا المرض جديد عليّ . لم أتول علاج مثله من قبل . ولست أعرف إحصائياً لهذه الحالة المعينة سوى رجل واحد يجب أن تبعثوا إليه وتستقدموه »

فدهشت الأم وقالت : « مرض لا تعرفه أنت ! »

قال مبتسما : « أعرفه ولكني لا أعالجه ... علاجه عند غيري »

2017-11-14 06:06:03

فسألته : « ما هذا المرض ؟ ما اسمه ؟ »

قال : « أما المرض فأعراضه كثيرة : اضطراب، خفقان ، حالات متناقضة من النشوة والكآبة ، والسرور والحزن ، نادراً يكون المريض أسبح من مصارع ، وطوراً يكون كالذي أجريت له عملية جراحية تركته أصفر باهتاً وضعيفاً متهافتاً كالورقة البلولة ، حالاته وأطواره غريبة وشرحها يطول . وأما اسمه فلا أعرفه بالعربيـة ولـكنه بالفرنسية « مال دامور » ، عجل باستشارة هذا الرجل وثق به واطمئن إلى النتيجة »

وخرج ومعـه زكريا وقال له فى السيارة : « يا صاحبي هذه أول مرة أركب فيها هذه الحديمة ولا أدرى كيف أطمئنك . ولولا أنى أعرفكم من زمان طويل وأعدكم كأبنائى لما كان ممكناً أن أجاريك فى هذا العبث ... والآن أرجو أن يكون هذا آخر عهدى بهذا الموضوع وإن كنت أحب أن أطمئن على النتيجة »

وبينما كان زكريا فى طريقه إلى حمادة ليجيء بهذا الاخصائى فى مرض (المال دامور) كانت الأم تحاول أن تتذكر هذا الاسم الغريب الذى لم تسمع به قبل اليوم . ولما كانت لا تعرف لغة أجنبية فان لها العـذر إذا كان الاسم قد طار وأعياها أن تقتنصه .

وجاء الطبيب الاخصـائى مع زكريا ودخلا على الأخت التى كانت تنتفض من الاضطراب والفرح والخوف ، وبعد قليل تركهما زكريا ورجع الى أمه

وما لبث الاخصائى أن خرج فتقدم الى الأم وأنبأها أن الحالة ميسورة العلاج جداً ولكنها تحتاج الى وقت وراحة تامة ...

فسألته : « لقد كان فى نيتنا السفر غداً »

قال : « هذا مستحيل الآن ... ربما أمكن بعد أسبوع أو اثنين ... تبعاً للحالة ... سأعود مرة أخرى فى المساء »

وجعل يعودها مرتين فى اليوم — مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ، ولا يمكث فى كل مرة أكثر من دقائق . وظل الحال على هذا المنوال نحو أسبوع فقلقت الأم وتمنت فيئ — أنسبها الانتقال الفاجئ من الضحك حين يكون معها أخوها أو طبيبها إلى الجهامة والفتور المتكلفين حين تدخل عليها أمها ، إذ كلفها هـذا التمثيل جهداً شاقاً جداً وهذا فضلاً عن الاضطرار الى ملازمة الفراش

وأحس زكريا أن الأمر زاد تعقيداً لا سهولة ، وأن المخرج أصبح عسيراً . فليس كل المراد أن تبقى الأسرة فى الاسكندرية وأن يتيسر بذلك لقاء الحبيبين بل أن ترضى الأم زواجهما

وقالت فيئ لأخيها يوماً : « وآخرتها ؟ »

قال : « الحق أقول إنى لا أدري »

قالت وهى تتجلد : « ألم يبق لهذا الرأس قدرة على التفكير ؟ »

قال : « اسكتى يا فيئ ... لا تزيدينى ألماً ... ما أردت إلا الخير وقد كانت النتيجة ماذا ... هذا الموقف الذى لا نعرف وجه الخلاص منه ... أقول لك أركي الأمر للمقادير ... عسى أن تفتح الباب الذى لا نراه الآن »

قالت : « إنى مستعدة أن أترك الأمر للمقادير

ولكن هذه الزندة تطير عقلي ... أنقذني منها على الأقل »

قال : « مسكينة ... »

وخرج يمشي مطرقاً ، ورأته أمه فأقبلت عليه وجرته إلى مقعد وقالت : « اسمع يا ابني . هذا حال لم يبق لي صبر عليه ولا بد من استشارة أطباء آخرين ويحسن أن يجتمعوا هنا »

فربع زكريا وأيقن أن كل شيء قد فسد ولكن الخوف استحث خاطره فقال :

« لا تتعجلي ... إنك لا تعرفين الأطباء ... ليس كل طبيب صالحاً ... والأولى أن تسألي طبيبنا رأيه فيمن يحسن أن يستشار »

فقالت : « هذا ما كنت أنوي أن أصنع ... إذهب إليه وكلمه »

فذهب إلى الطبيب الروحي فتململ هذا وقال له : « ألم أقل لك إني لا أحب أن أحشر في هذه الحكاية ؟ لقد اضطررتني إلى الكذب وتضليل هذه السيدة الساذجة الطيبة القلب . ثم اضطررتني أن أشير عليها بالاستعانة برجل ليس بطبيب وهذه جريمة أخرى ، واضطررت هذا المسكين أن يدعي أنه طبيب وهو ليس إلا طالب طب ... والآن تريد أن أدلك على على رجل آخر — طبيب في هذه المرة — ليساعدنا على الكذب البغيض »

فقال زكريا : « ولكن المسألة ليست مسألة مرض ... إنها كلها فكاهة .. وأنت تعرف ضيق عقل السيدات مثل أمي ... تريد رجلا لبنتها يملك ضياعاً وعقاراً ... وهذا شاب فقير ولكنه صالح جداً ... يحب أختي وهي تحبه ... أما أخوها ... أكبر منها ... أقرر أن هذا الزواج يجب أن يتم لمصلحة الاثنين ... على الأقل يجب أن يتم الاتفاق عليه حتى يفرغ من الامتحان ... وأنا أطلب معاونتك على خير »

فقال الطبيب : « من رأيي أن أذهب إلى والدتك وأطلعها على الحقيقة كلها بصراحة »

قال : « إنك تنسى أن أمي من الجيل الماضي »

قال الطبيب : « قد تصغي إليّ إذا كانت لا تصغي لابنها »

قال : « إني أخشى غضبها وعنادها ولا أطيق أن أرى فيّ تتعذب »

قال الطبيب : « إن الفشل من هذا الطريق خير من النجاح من طريق الخداع ... ثم إني لا أطيق أن أظل أخادع هذه السيدة الساذجة »

قال زكريا : « وما العمل الآن ؟ »

قال : « سأذهب إليها وأكلمها ... إنكم أيها الشبان لا تأنون البيوت من أبوابها أبداً ... تعقدون البسيط ثم تروحون تبحثون عن حلول مستحيلة ... لماذا تفرض أن أمك ستعارض حتماً في زواج فيني من هذا الشاب ... لماذا لم تقدمه إليها وتتركها تفطن إلى مزاياه على الأيام ... ؟ »

قال زكريا : « لأني أعرف أمي »

قال : « بل لأنك لا تعرفها ... تتوهم أنك تعرفها وتبني سلوكك على أوهامك ... تعال »

* * *

بعد أن قص الطبيب الحكاية كلها على الأم وهي واجمة من فرط الدهشة قال :

« لقد أدركت أن ابنك لا يعرفك ... هو يظن أنه يعرفك ولكنه يخطئ ... توهم أنك عنيدة

وأنك تجرين وراء المال ... وغاب عنه أنك لاتطلبين لابنتك مالاً بل رجلاً صالحاً ... لأنك تدركين أن الرجل الصالح لايقوّم بمال ، وقد أقنعته بخطئه ... غريب أن أعرفك أنا الغريب خيراً مما يعرفك ابنك ، ولكنه شاب وأنا رجل مجرب ... وأظنك توافقين على أن لى فراسة فى الناس ... والآن صار عندنا الرجل الصالح ... ولكنى أنصح لك بالتمهل حتى تختبرى هذا الشاب بنفسك وتعرفى أهله وتطالى على سيرته ... على أنى كصديق قديم لكم أنصح أيضاً بوجوب الحرص على كتمان هذه الحكاية ... حكاية المرض والطبيب إلى آخر ذلك لئلا تدور على ألسنة الناس وتصبح مادة للسخرية منكم ... ولا أدرى كيف أعتذر لك عما كان منى ولكن حبى لكم هو الذى أفقدنى الرشد لحظة ندمت بعدها أشد الندم ... على كل حال أرانى تداركت الأمر وأصلحت ما اشتركت فيه من الغلط ... سامحينى ... وإلى اللقاء »

ولما أقبل ابناها يعتذران إليها بعد أن انصرف الطبيب ويطلبان الصفح لم تزد على أن قالت :

« خوف الفضيحة فقط هو الذى يجعلنى أبلع هذا البيت منكما ... لقد كنت داعماً أقول إن الأخوين لا يكونان هكذا ... وكنت أخشى عاقبة ذلك ... لابأس ... الأمر لله »

ولكنها ما لبثت أن أحبت عادة بعد أن عرفته ، فلما أنست فينى منها الميل إليه سألتها عن رأيها فيه فقالت الأم وهى تقبل بنتها : « الحق أنك معذورة ... إنه آية ... فلتة ... الله يوفق »

ابراهيم عبد القادر المازنى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

قريباً :

توفيق الحكيم

فى كتابه الجديد

عصفور من الشرق

قصة روائية كبرى تضع الشرق وجهاً لوجه أمام الغرب ، متجردين عاريين ... من يطالعها يجد المفتاح المفقود لسر الشرق وروحه ... يطبع الآن بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى طبعة محدودة

احجزه من الآن بالمكتبة التى تعاملها

حذار! إنك مراقب

لجوزيف بلاكيرد

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان موعد العشاء في مطعم كلاردج قد حان ، وهو ذلك المطعم الفخم في غرب لندن ، في حي وستمنستر الشهير ، يطل على نهر التيمس وميدان الطرف الأغر ، ويسمع رُوّاده دقات (بيج بن) وهو ناقوس كبرى ساعات العالم . وفي أحد أركان قاعة الطعام وراء أحد الأعمدة البيضاء الموهة بلون الذهب ، جلس رجل من الطاعمين رِقب الموائد الأخرى ويسترق النظرات إلى الجالسين ، ويأخذهم ببصره وهم لا يرونه ؛ ينظر إليهم ويدرس حركاتهم وسكناتهم وهو في نجوة من أنظارهم . وكان الرجل ضخماً ، ذا عينين خبيثتين قد أخفاهما وراء عوينات من الزجاج الأصفر القاتم ، وله من ورائها نظرة ماكرة . وقد جلس أشبه شيء بالسنور الوحشي ، يفتل شاربيه تارة ، وطوراً يمشط بأنامله المرتجفة لحيته الكثة السوداء ، التي كانت لا شك مستعارة

فلما تقدم إليه الخادم يصحن اللحم الثليظ وقنينة الجعة ، ووضعهما أمامه ، وهم بالانصراف ليباشر خدمة غيره من الآكلين استمهله الرجل بإشارة من يده ، ثم أخرج من جيبه ورقة مالية وستر وقاع ، وراح يقول للخادم في صوت خافت :

— أترى هذه الورقة المالية؟ فأطرق التادل بإيماءة الاعجاب : أي نعم أراها ياسيدي

فأشار الرجل التامض إلى ناحيات المطعم فيا وراء العمود الذي اختفت في ظله مائدته وقال للخادم :

— أترى هذه الموائد الست المرصوصة بجانب الحائط ؟

فالتفت الخادم إليها ، فرأى إلى مائدة منها يجلس رجل منفرداً ، وعلى المائدة الثانية رجلان ، وإلى كل من الموائد الأربع الباقية قد جلس رجل وامرأة

فقال الخادم : وماذا تريد ياسيدي من هؤلاء الأضياف ؟

قال الرجل : أريد أن تذهب إلى كل مائدة

تعريف بالقصة

جورج بلاكيرد من كتاب القصة القصيرة الروعة ، وهو نوع من الرواية الحديثة ، اكتسب حق الاقامة في مدينة الأدب . وليس كله وهما ولا خيالا ولا تسلية ، فكثير منه مؤسس على فكرة ورأي ومعرفة عميقة بأطوار النفس البشرية . وكان ستيفان زفايغ ، أحد أدباء الألمان العلماء المتين إلى أحد الأجناس السامية ، قد وضع قصصاً في وصف الخوف والحيرة والهوى ، تطبيقاً على مبادئ أستاذه سيجموند فرويد ، فلقيت نجاحاً لاستوائها على أسس من الحقيقة الثابتة والأمور المشاهدة . وقد تناول جورج بلاكيرد في قصته « حذار إنك مراقب » التي نضرب في سنة ١٩٣٦ موضوعاً عماله علاقة بعلم النفس الرسمي وعالجه بمهارة فائقة ولم يعمل جانب العواطف والاجتماع فجاءت القصة جديرة لشروط التوفيق التي من حيث العقدة والحبكة وتناسب الأجزاء وتحليل الشخصيات الناهضة

منها قطعة رقعة من هـذه الرقاع أمام الجالسين وتقول : « من صديق ! » ثم تمد إليّ تلك هذه الورقة المالية تنعم بها ، أفهمت ؟

فنظر الخادم حوله وهو خائف من عين صاحب المطعم تبصره ، وهو من نظرات الرجل الغامض أخوف ... فلما اطمأن تناول الورقة المالية والرقاع وتولى مسرعاً ليرجع المال الذى فى يده ، وراح يوزع الرقاع ، وجعل الرجل يراعيه ويرقبه وهو يمشى من مائدة إلى مائدة

كان جورج أديكت دراج انجليزياً عائداً من المستعمرات ، وقد أدمن التخدير بالأفيون ، ذلك النبات الرهيب ، باعث الألم واللذة . ولم يكن يفقه مسماه حين سمع اسمه ، إلا كما يفقه معنى اللن والسلوى . وكيف له بفهم ما لم يحط به علماً ؟ أما الآن ، بعد أن مضى عليه عشرون عاماً فى نعيمه وجحيمه فما أعجب معنى هذا الاسم وأغربه ! وما أقرعه فى فؤاده لأوتار الحزن تارة ، ولأوتار السرور طوراً ! وما أبعثه لأليم الذكرى مرة ، وللذيذها أخرى !

وكان جورج أديكت دراج لا يزال يذكر ذلك اليوم الذى فتحت له الأقدار فى آخره باب الفردوس والجحيم

كان العصر قد دنا فى مدينة كلكتا فى موسم « المونسون » والجو ممطر مكفهر ، وليس فى طاقة الأرض أن تعرض منظراً أبعث للانقباض والكآبة لعينى أغرب معذب من ذلك اليوم الهندى البعوس القمطرير ، فصادف فى سبيله ، وهو فى أشد حالات الأسى والسوداء ، دكان عقاقير ، وكأنما استحسن صاحب الدكان أن يقاسم الجو فى عبوسه وكآبته ، فتراءى لجورج أديكت دراج أبلد ما يكون ، وأثقل ما ينتظر ؛ فلما أن طلب منه الأفيون أعطاه إياه ، ومن الروبية التى دفعها إليه رد دراهم مضروبة من النحاس قد أخذها المقاربي بيده من صندوقه الخشبي . فتحول جورج عن بائع المخدر ولم يصبر عن ازدراده حتى يصل إلى ناديه أو مسكنه ؛ وشمر بعد برهة بتلك اللذة الثابتة المقيمة التى توهم أنها أدخلت على ملكات ذهنه الأسير أتم النظام والترتيب والائتلاف ؛ وأحسّ فى ظلمات نفسه الحزينة الولهى بشيء يشبه الضياء الساكن السوىّ . وعادت إليه تلك الحالة التى يسترجعها الذهن عقب خلاصه من براءة آلام طالما حاربت نزعات نفسه ، وأخلّت بميزانها . وهكذا قيّد جورج أديكت دراج اسمه فى سجل المدمنين . فلما عاد من الهند إلى لندن ، وهى مسقط رأسه ، لم يستطع الفكاك من أغلال تلك العادة . وقد ألف أن يتناول العشاء فى مطعم كلاردج بعد أن يكون أدخل السكينة والطمأنينة والاعتدال على ملكات نفسه بجرعته المخدرة ؛ وكان فى تلك الليلة يشعر كأنه نشط من عقال ، وقد عهد الأفيون مورثاً للخفة والنشاط ، ولطالما حداه إلى الملاعب والأسواق فاغتبط بحولاته تُمّتَ ، وكان اغتباطه فى تلك الليلة مضاعفاً بفضل ذلك السم الذى ابتلعه ، فجلس يأكل وحيداً ، لا صديقة تؤانسه ولا رفيق يؤاكله ، وكان فى بزة نظيفة على طراز هواة الأفيون يلوح عليه أنه من الخاصة ، ويأنف أن يمس النسيم شعرة من رأسه . فلما التقط الرقعة من فوق المائدة تصفحها فى لهفة ،

2017-11-11 Egyptian Book Organization

فبدا عليه الخوف ، وظهرت فى وجهه دلائل الجزع ، وجعل يشد على شفته العليا بأسنانه يريد أن يمنعها من الارتجاف

* * *

وعلى المائدة الثانية يجلس رجل وامرأة ، فلما وضع الخادم بين أيديهما الرقعة ، كانا فى شغل شاغل بحديثهما عما حولهما ، فلم ينتبها للخادم وهو يضعها . وكان الفتى اسمه ڤيكو واسم الفتاة بيليس [1] وهما فى مقتبل الشباب ، وكانا حديثي العهد بالحب . ومن سُنَّة الطبيعة أنها منحت الشباب للبشرية ليكون باعثاً لها على الولوع بمحاسن الجنس ، حتى تصبح هذه المحاسن فى عينها أجلى مظهر لروح الجمال ، حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشمتها جميع الخلق وتضيء الكون أجمع بسناها الباهر . كان يبدو على الشاب أنه طالب علم فى إحدى كليات جامعة لندن ، أما الفتاة فلم ترد على أن تكون رفيقة من يور كثير لم ينقض على ورودها شاطىء الحياة أكثر من شهر ، فلا تزال نضارة الخضرة وطراوة الماء وجمال الروج الزمردية ، وصورة السعادة البيتية ماثلة لذهنها . ولكنها كانت ثرثارة ونهمة فى الحب نهمها فى الطعام والشراب ، كما كان فتاها جائعاً محروماً من الاثنين معاً ، ولذا بدا أصفر الوجه بلون العاج هزيلاً ساوياً ، وتجلت هى غضة بضة هانئة هادئة ، لولا حركة لسانها الذى كان كبندول الساعة لا يفتأ ذاهباً جائياً ، رائحاً غادياً ، بين شدقيها الرقيقين المطاطين

* * *

(١) بيليس اسم يونانى الأصل معناه عصن

وكان الرجل الجالس إلى المرأة فى المائدة الثالثة ممسكا بيدها يلاعبها ويشدها خفية تحت غطاء المائدة وقد اشتبكت أقدامهما والتفت ساقاها كأنهما لا يصبران على الانفصال فترة الشتاء الوجيزة . فلما قرأ الرقعة الموضوعة أمام عينيه ويده لا تزال فى مكانها ، أفلت يد صاحبته من يده بسرعة كأنما يفلت من يده قطعة من الحديد محماة على نار مشتعلة لذاعة . وكانت الكلمات التى احتوتها الرقعة هى : « حذار إنك مراقب ! » فسحب الرجل ساقه وقدمه من مكانهما القاصى ، ودفع إلى جليسته بالرقعة وهو يرسل ضحكة عصبية مضطربة ... فتأملتها قليلاً ثم قالت فى هدوء تام : أهذا أفلت يدى وسحبت رجلك أيها الغلام الجبان ؟ والله إنك لابن أبيه ! وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فضحك الرجل ضحكة أخرى أشد عصبية واضطراباً من الأولى وأجاب منشجعاً : لاشىء حقاً ! ففى صحة الحب نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ؟ وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها وعادا إلى اشتباك كهما السفلى

* * *

على المائدة الرابعة جلس رجل وسيدة من أهل الشمال ، وكان الرجل عابساً مقطباً كأن به مللاً أو سآمة . فلما قرأ الرقعة استضحك وقال لصاحبته التى تؤاكله : ليت شعرى من منا المقصود بالفلتات بهذا التحذير يا ماتيلدا العزيزة ؟ ياوح لى أن شرلوك هولز فعل ذلك لكى ينعمنا أن لندن فى عاداتها وآدابها غير منشتر تقيضاً نقيضاً !

فأجابت المرأة : إنها لفكرة جميلة من مستر هولز ليخيل إلينا أننا فى فصل من رواية شرطية !

2017-11-14 15:06:13

فضحك الرجل وقال لها : وإننا كما تقولين ، فان ذلك الوغد برلسكو لقادر أن يبيعنا الأسلحة ، ثم يشرى بنا سكوتلانديارد [1] ، ليصادرها فتعاود الشراء منه ، ونحن لا نعلم أنه المصدر المجهول المتصل برجال الخفية اتصالا وثيقاً

فقالت ماتيلدا : ومتى كان شراء الأسلحة بالجملة محظوراً فى هذه البلاد ؟ أهى تقود مزيفة أم بضائع مهربة ؟ فقال : التجارة حرة فى بلادنا ، ما فى ذلك شك ، ولكن أسلحتنا لا تحمل علامة المصنع الذى يخرجها وقد عثر المحققون عليها فى كل حادثة من حوادث القتل التى وقعت فى برمنجهام وليفربول ومنشستر لثلاثة أعوام منصرمة . فما قولك فى هذا الدليل علينا بأننا نشارك الجناة بالمساعدة والاتفاق ؟

أجابت : إنه ليس دليلاً ، ولكن قرينة حال ، حتى ولا قرينة ، بل شبهة ، والشبهة قد تعلل بالصادفة أحياناً . لسنا مسئولين عن كل سلاح نارى لا يحمل علامة المصنع . لو أن كل قتيل ممن ذكرت كان يحمل على جبينه أو معصمه علامة الثلث المزدوج وضبطت أداة الدمغة فى حيازتك أو حيازتى ، إذن لحق القول علينا ، ولكن السلاح وحده لا يكفى ، ولا يثبت المشاركة

— قد تكونين على حق ، ولكنك بلا ريب جريئة ، أتصبر على أنفسنا حتى نضبط لدينا الدمغة والأسلحة ، ولا نمعط بهذا التحذير الذى صادف وقته ...

(١) إدارة الأمن العام والبحوث الجنائية ووكر التجسس الانجليزى

— ومن يدرينا أنه ليس استدراجاً واستطلاعاً من أحد خصومنا يريد أن يثبت من شىء وينظر أن يبدو علينا ما يؤيد ظنونه ليبطش بنا ، فما علينا إلا أن نظهر الثبات والتؤدة وعدم الاكتراث بتلك الرقعة الفاترة

— كيف يكون الثبات فى لندن ، وفى معلم كلاريدج ؟

— كالثبات والبرود فى منشستر وفى معلم ليونز حذوك النعل بالنعل . إبدأ بتمزيق الورقة شذر مذر أو أشعل بها غليونك ثم اشرب كأسك وانحك بقهقهة عالية

فتشجع الرجل وأجاب : الحق يبدك دائماً ، ففى صحة الثلث المزدوج والسلاح المُغل من ماركة المصنع نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها

وعلى المائدة الخامسة جلس رجل وامرأة . فلما قرأ الرقعة راح يقول لها وهى إزاءه :

— أدب رائع من هذا الرقيب المجهول ، ولكنك تعلمين أنه كلما بادر زوجك إلى إدراك سرنا استطعت أن تتخلصى منه وتروحى طليقة

فقالت : وما بالك لا تخشى فضيحة المحكمة وشهود الاثبات ؟ ألأنك رجل تضمن إعجاب الرجال بك وتنسى ما ينتابنى من التشنيع وهتك أستار حياتى الخاصة

أجاب : حياتك الخاصة ؟ بل حياتنا . أقرأت فى صحيفة قضايا الطلاق اسم امرأة غير مقترن الى اسم شريكها . وماذا علينا إذا لم يتمكن زوجك من

2017-11-11 Egyptian Book Organization

مفاجأتنا متلبسين فى بيت الزوجية المحترم ، وهذا ما لن نقع فيه أبداً ، فالخير كل الخير فى الفنادق والسيارات !

— وأهلى وعشيرتى وأصدقاء أسرتى ؟

— أهلك وعشيرتك وأهلى وعشيرتى ؟ كلهم يفعلون ما نفعل ويستترون ! قد يكون فى مسلكنا بعض الاستهتار ، ولكن الناس لا يحقدون على الشاق لأنهم يستترون فى الهوى ، ولأن الدنيا تكره الوقار

— الحق بيدك . فهذه مسز تريفلان على جلالة قدرها وضخامة اسم زوجها وشهرة أبيها ، لم تخف غرامها بسائس خيلها بعد المصارع جيمى والملاكم دوجار . ولادى كوبثر التى كانت معروفة بالتقوى وغشيان الكنيسة فى كل أحد من آحاد السنة ، فوطت فى عرضها لذلك الشاعر المفلوك كوبكر ، وعرضت شرف أجدادها وأسلاف زوجها لسخرية الشهود والمحامين والقضاة والجمهور الهازئ ، وهى لا تؤمل أن تتزوج منه ، ولا تطمع فى حمل اسمه الحقير ، بعد أن حملت اسم زوجها النبيل عشرين سنة كاملة

أجاب : الآن تتكلمين عن عقل وتصدرين عن منطق . ألم تقولى فى أول حبنا : من راقب الناس مات غمًّا ، ونصحت إلى أن نفوز بالذات . أنصبر حتى نكمل خشية العار المزعوم ، وما رأينا أحداً يخشاه سوانا ؟ العالم كما كان ... اقتناص المال واللذة

فقالت : ولكن ربك قل لى : من يكون ذلك المحذر اللبق ؟

أجاب : لعله البصاص الذى دفعه زوجك ، ودفع له — ليراقبنا — أجره الرفيع ، وقد خانه !

فقالت : ولم يخونه وهو مأجور منه ومدسوس علينا ؟

أجاب : لعله أشفق علينا أو استغل ظل زوجك . إن مجرد عاطفة حنان نحونا ، أو اكتشاف حقيقة زوجك ، وأنه أكبر نطع فى الإمبراطورية ، كافٍ لتحويل دفة الجاسوس من العداء الخفى إلى المحبة الظاهرة . من يدرى ؟ لعل الجاسوس هو نفسه عاشق امرأة متزوجة وهو يؤاكلها الآن ويشرب معها كما نشرب

— وهل تراه ينفق مال زوجى فى خدمته فيخلى بحب امرأة ويحذرنا فى وقت واحد ؟

— نعم ... نعم يا عزيزتى ، فيضرب طيرين بل ثلاثة أطيار بحجر ، فماذا علينا لو كنا مراقبين ؟

فتضجعت صاحبته وقالت : لا شىء حقًّا ، ففى صحة الجاسوس الرحيم نشرب . ورفعت الكأس فاشتفتها ، وفعل الرجل مثلها فاجترع كأسه

* * *

ولما قرأ الرجل الجالس إلى المائدة السادسة قال لصاحبته مغضباً :

— أرأيت ما كان أغنانا عن الدخول فى مطاعم الطبقة العالية ؟ وما لنا والجلوس فى هذه المطاعم الفخمة ؟ لقد رأك وحى السماء صاحب الطعم وأنت تلهمين الفاصولية بالسكين ، وتلتقطين الحب المنتثر فوق غطاء المائدة فترمينه فى فمك كالطير ، ثم تلعقين أصابعك وتكادين تلعقين الوعاء كأنك موكولة بتنظيفه وتنقيته من بقايا الإدام ... ! وتشربين الأقداح حتى الثمالة ، فتعود الأطباق والكؤوس

فارغة ، فأرسل إلينا بهذا التحذير الغريب . ألا ترمين بالسكين جانباً ، وتأخذين الفاصولية بالشوكة وتتنبئنا عن هذه الفضيحة الصارخة ؟

فقالت : كما لك أنت وحدك الحديث النعمة ، لم تصبك الثروة إلا من أرباح الحرب ، فتخشى انتقاد أصحاب الطاعم وهم لا يلتفون شأو الخدم فى قصرنا . ومَن من طبقتنا أتقن الأكل بالشوكة والسكين كما أتقنا ؟ ألم تأخذ دروساً خصوصية على يد بريدج ذلك الجرسون الماهر فى مطعم والدورف ؟ لقد تكسرت أناملى حتى تمكنت من تلك الطريقة المؤلمة التى تحتم الضغط بالسبابة ورفع البنصر والشواء الخنصر وتصويب أسنان الشوكة إلى الشواء وحزه بالسكين بمنتهى الأناقة ، ولكن لماذا يذهب ذهنك إلى نقصى فى أدب المائدة ، ولا يذهب ذهنك إلى تزوير دفاترك ، لتجعل الدخل أقل مما هو ، حتى توفر مبلغاً ضخماً من ضرائب الايراد ، فتبعث إدارة المكوس وراءك من يقبض عليك بتهمة خيانة الخزانة العامة ؟ ليس أكل الفاصولية بالسكين جريمة ، ولكن سرقة مال الدولة بعد استلاب مال التموين هو الجريمة الكبرى والطامة العظمى .

فامتقع لون الرجل ووقعت الشوكة من يده . وقال : بالك من منذرة بالسوء ! ألا تخشين أن يكون الرقيب متسمعاً ؟ إن دفاترى دقيقة ، وقرينة الصدق والحقيقة . ومن لم يقل لك ذلك فقد خدعك ، حتى ولو كان أخاك ذلك الحوذى اللئيم الذى رفعته إلى رياسة المحاسبة فى متاجري .

— قد يكون أخى حوذياً كما تقول ، ولكنه لا يشى بك ؛ وإن وشى بك فلأنك بلا شك تستغل مواهبه وتظلمه ولا تقدره قدره

— أنا ؟ أستغل مواهب ذلك الفدم الذى لا يعرف الفرق بين الصفر وشراع السفينة ! سأطرده غداً فى أولى ساعات العمل . سأرسل به إلى حيث ينتفع بمواهبه ، إلى اصطبلات هوايت شابل ، أو مرابط الخيل فى دربي شاير . سيجنى أخوك يا حلوة الشمائل ثمار أعماله وأقوالك ... بئس الصهر هو ، وتعساً للنسب الذى يجر وراءه الفضيحة والبلاء والتهمة والوشاية يتلوها الوعيد والنذر !

— كل هذا يا جاك لأننى أكلت الفاصولية بالسكين ؟ أم لأنك تحمل هم الحساب العسير بعد العشاء . والله ، لقد كرهتنى فى الفن المفاجىء ! أنسيتَ إذ كنت عاملاً ، وأنا موظفة صغيرة ، نُنفق أجرة الأسبوع مساء السبت لنستريح يوم الأحد ونشارك أبناء طائفتنا الضراء والسراء ونوامى أهلنا ؟

— لا جرم أننا لقينا آنفاً من آلام الفقر أكثر مما أود أن تذكرينى به . وأما مسرات الفقراء وآمالهم ودواعى عزائمهم وسلوتهم واستراحتهم من الجهد والنصب ، فانها ما لا يمكن أن يقاس بما نحن فيه من النعمة .

— إذن وجب عليك ألا تتخذ من سعادتك الحاضرة وسيلة لإلحاق الأذى بأقرب الناس إلىّ . وإلا ...

— وإلا .. ماذا ؟ أتمى كلامك . فانى لا أتحمل تهديدك .

— وإلا فإننى أكون المبلغة عن دفاترك وغيرها .

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

— أنتِ يا سلمى ؟ أتحسبين جاك مكدوجال يبيت فى أحضان حية مثلك وهو أعزل ؟ لقد أعددت لك أداة مادية تزج بك فى أعماق السجون . فأنتدى بك قبل أن تتشبث بى . فذعرت المرأة ولكنها لجأت إلى الحيلة . فضحكت ضحكا عالياً . وقالت : لعلنا نندم على مادار بيننا ؛ وقد نكون واهمين فى مخاوفنا مبالغين فى تقديرها ولم يصبنا سوى مرارة الأنفس من رفع القناع عن عواطفنا التى كانت مرتعة وقابعة فى حنايا أضلاعنا . . وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فتشجع صاحبها وأجاب : لا شىء حقاً ، ففى صحة الفقر القديم والغنى الطارىء ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها .

هذا ، وكان الرجل النامض صاحب هذا التدبير ، القابع وراء العمود الأبيض يرقب رفاقه وقارئها فى لهفة ودقة بصر ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما دار على الموائد ، لأن الذين قرأوها لم يلبثوا أن وضعوها جانباً فوق الموائد ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من الأكل والسمر ، إلا جورج أديكت دراج الجالس إلى المائدة الأولى وهو مدمن الأفيون فقد بدا عليه من دلائل الاضطراب والجزع ما بدا . ثم راح يلتفت يمنة ويسرة وهو فى أشد حالات الخوف وشفتاه ترتجفان ؛ والتقط الرقعة مرة أخرى فقرأها ثم وضعها فى خوف ووجل ، ورفع يده إلى جبينه ونظر إلى الجلوس ثم لم يلبث بنتة أن استوى واقفاً كأنما لُطعن فى صدره ، فجاءه خادم المطعم مسرعاً فقال له : علىّ بقائمة الحساب ! أسرع ! وقدحاً من الكونياك . ولم يتم كلامه حتى نهض من مجلسه ثانية . وإذ ذاك التقت نظراته بنظرات الرجل النامض صاحب الرقاع ، فعاد إلى الجلوس كأنما قد خانته قدماه وخذلته قواه ومضى يصرخ على الخادم : أسرع ! الحساب وكأساً من الكونياك .. كأساً كبيرة من الكونياك ، ثم الحساب ! هلم ! أسرع . فلما جاء الخادم إليه بالحساب والشراب أطلع من جيبه رزمة كثيفة من الأوراق المالية التى جلبها من الهند ، ورمى للرجل بالحساب والبقشيش متمهلاً ، ودفع بقية أوراقه المالية إلى جيبه مسرعاً وهو يطبقها تطبيقاً ويلويها لياً عنيفاً ، واشتف الكأس دفعة واحدة وخرج من المطعم متعثراً يحمل رجليه حملاً . وكان جورج أديكت دراج قد هجر الخمرة من زمن طويل ، منذ تعود الأفيون ، لأنه ألف اللذة المتولدة من الخمر التى عهدها نشوة تدريجية لا تزال فى سرعة حتى تبلغ القمة ، ثم تأخذ تنحدر وتهبط فكأنما هى لهيب مضطرب يشوش الذهن ويشل الإرادة ويسلب ضابطة النفس ، وتحدث اختلالاً فى ملكة التمييز والحكم . ولكنه شرب الكونياك مرغماً مضطراً ليعينه على مقاومة الخوف والاضطراب

ورآه الرجل النامض فدفع حسابه للخادم ، وتناول قبعته ومضى من المطعم وأدرك جورج أديكت دراج وهو فى أشد اضطرابه أن الرجل النامض يطارده فعلا وهو متخاذل القوى إلى سيارة مأجورة ، ولكنه ما كاد يستوى فى مجلسه منها حتى أبصر من خلال زجاجها وجه الرجل الآخر ينظر إليه ، فصرخ صرخة رعب شديدة وقفز إلى إفريز الطريق وانطلق يعدو صوب إحدى حدائق النزهة ، ومشى الآخر فى أثره يتبعه فعلا ريد محطة الترام ، ولكنه ما كاد يعطف فى الشارع حتى

2017-11-14 15:26:13

رأى ذلك الرجل واقفاً أمام حانوت بدال ، فانسل مسرعاً حتى بلغ المحطة ، وابتاع تذكرة ووقف ينتظر القطار ، وقد ظن أنه أفلت من ذلك الرجل الذى كان يتبعه ، ولكنه لم يكد يلتفت وراءه حتى أبصر به واقفاً فوق إفريز الشارع يبتسم ابتسامة شنيعة وهو يفتل شاربيه المشوشين ، فخالس الرجل حتى إذا ظن أنه لا يراه انفلت من فتحة هناك فى جانب الطريق إلى المحطة ، وكان القطار متدانياً ، فكبر أمله وتشجع قلبه ، ولكنه ما كاد ينظر إلى اللوحة المعلقة فوق الجدار وهى : — القطار الأول لا يقف بهذه المحطة — حتى تولاه اليأس مرة أخرى ومات الرجاء ، والتفت فأبصر الرجل المخيف وراءه يبتسم ابتسامته المرعبة ، فاشتد قنوطه ، وحاول أن يتدفع صوبه ويصيح به : « أسألك بأى حق تطاردنى ؟ » ولكنه عاد فخشى أن يتعجل الحوادث وصبر على جمر حتى أقبل القطار التالى الذى يقف بالمحطة فوثب إليه وهو يكاد يسقط . فلما استقر به مكانه فى المركبة ظن أن الرجل قد ابتعد عنه وأنه قد أصبح فى نجوة من تعقبه . ولكنه إذ وقف القطار ونزل منه لمح الرجل ينزل من المركبة الأخرى فعاد فوثب إلى القطار مرة أخرى وهو فى أشد حالات الرعب ، وجعل فى كل محطة يحاول النزول ، ولكن خوفه من أن يكون الرجل الذى يطارده فى القطار جعل يمسكه عن النزول ، ولكنه إذ بلغ محطة بعيدة عن المحطة التى كان ينبغى أن ينزل عندها بحكم التذكرة التى ابتاعها ، لم يجد مطارده فى غمار الركب والجمهور المزدحم عند الأفريز ، فمشى إلى باب المحطة مسرعاً حتى وصله قبل المسافرين ، فاطمأن قليلاً واعتزم أن يتخذ القطار المكان الذى يقصد إليه فى ريتشموند ، فابتاع تذكرة من الشباك وانطلق مسرعاً يريد الركوب ، ولكنه ما كاد يخطو خطوات قلائل حتى أبصر الرجل الغامض قد ابتاع تذكرتين إلى ريتشموند ، فاشتد به الجزع ، واستولى عليه القنوط ، فدلف نحو الرجل وقال بصوت مرتجف ووجه مرتعد : « بحق السماء تنبئنى ياسيدى ماذا تريد منى ؟ أتريد مالاً ؟ » فنظر إليه الرجل الغامض بعين ماكرة ونظرة خبيثة وقال : « لم يضرب إلى الآن المال الذى يستطيع أن يُغرى مثلى بترك واجبه »

فاه بهذه الكلمات بكبر وخيلاء ونظر إلى الرجل نظرة سطوة وعزة ، وكأنما أراد أن يسمع الجمهور الذى حوله تصفيقاً له على ما قال ، وإذ ذاك عاد المسكين يسأله : « إذن فما الذى تريده منى ؟ وسهما يكن فافصل ما تريد منى فوراً ، بلا تردد : » وإذ ذاك رفع يده تضرعاً وعاد يقول : « افعل بى ما شئت ياسيدى حالاً ولا تتمهل ! انقذنى من ألمى وعذابى »

فابتسم الرجل الغامض وأجاب : لم يحن الوقت بعد ! الناس حولنا كثيرون ، والطريق غاصة بالسابلة . إنك تستطيع أن تقاوم بضع ساعات

وهنا كان قد وصل القطار ، واندفع الناس صوب الأفريز يطلبون ركوبا ، فالتفت جودج أويكت دراج وراءه فرأى شرطياً يمشى تمّت ، فهرع إليه وهو يصرخ : أنقذنى أيها الشرطى ، إن إنساناً يطاردنى . فنظر إليه الشرطى ملياً بيرود نادر المثال

ثم قال : خلِّ عنك أيها الرجل وسر هادئاً إلى بيتك وخذ فنجاناً من الشاى ثم ادخل سريرك ، فإن الشاى والنوم كفيلان بأن يذهبا عنك سكرتك

فصاح جورج باكياً : كلا ! لست فى صرعة شراب ، إنني مطارد ! إن رجلاً يطاردنى . قال الشرطى : هل تريدنى أن أقبض على أحد ؟ قال جورج مرتعشاً : نعم أريد أن أسلمه إليك . فأجاب الشرطى : إذن فأشر إليه ودعنى على مكانه من غمار هذه الجماهير ، فنظر جورج أديكت دراج حوله نظرة ذهول ورعب لا يُقدران ، والناس متدفقون من المحطة ولم يكن الرجل الملثمين فى غمارهم . فقال الشرطى ضاحكا : ألم أقل لك إن الشراب لا يزال آخذاً بلبك ، خير لك أن تستشير طبيباً يداويك من علة الأعصاب ! وما كاد الشرطى ينتهى من كلامه حتى أشاح بوجهه وولى المكين ظهره وانطلق فى الشارع ممرضاً

والتفت الهارب حوله فأبصر عدة زوارق عند ضفة النهر واقفة وأربابها يرتقبون عملاً فجرى جورج إلى أقرب رجل منه ، وألقى فى يده عشرة شلنات وصاح به : أسرع بى إلى أى مكان ، وسأخبرك بالجهة التى أقصد إليها بعد أن تتوسط بنا الماء ... هلم ... ادفع الزورق ...

ولم يكن هناك أثر للرجل المخيف ولكن ما كاد يجلس المكين فى القارب وقد تملكه التعب فاستلقى على ظهره ، حتى أبصر عدوه الذى يطارده قد انحدر يطلب الركوب فى نفس القارب وقد وقف يكلم صاحب الزورق وسمع هذا يقول للرجل المخيف :

— معذرة أيها السيد فقد تعهدت لهذا السيد أن أروح عنه بنزهة صغيرة فى النهر مايه من تعب ولهذا لا أستطيع أن أسير بك ... فأتى الرجل الناهض فى يد رب السفينة ورقة مالية وقال : « لا تخير ولا صوه من ركوبى ، فلن يحرم السيد نعمة النزهة ، ولملك مستطيع أن تضاعف السرعة بنا فأجاب صاحب الزورق : إذا كان ذلك ، فهلم اركب ياسيدى .

وانطلق الزورق بالرجلين ، فدعر جورج وحاول الكلام فلم يستطع ، ولكنه إذ استطاع أن يملك صوته جعل يقول : كيف اجترأت أن تركب معي فى زورقى الذى استأجرته ؟ وإذ ذاك جدت الكلمات على شفتيه فلم يتم ، وكان الرجل جالساً بجانبه لا ينظر إليه كأنه غير شاعر بوجوده . فلما تكلم التفت إليه مبتسماً وقال : « لم يحن الوقت بعد للكلام » ووصل الزورق إذ ذاك إلى الضفة الأخرى فعدا جورج يطلب النجاة . هناك لاح بيت صغير فوق رابية ذات شجر ، وكان هذا هو المكان الذى يطلبه والدار الآمنة التى يعتصم بها لو أنه استطاع وصولا وهو يجرى ويلهث ويشهق ويزأر ويبكي ، لأن بينه وبين تلك الدار ثلاثة أميال . وهنا التفت وراءه فألقى الرجل قد حسر عن رأسه ووضع قبعته تحت إبطه ، وكان شعره يتطاير مع الهواء وشارباه مرتفعين فى الريح وقد انعدمت المسافة الآن بينهما ، والرجل الناهض الضخم قد تصبب عرقاً وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وأخذ جورج يسائل نفسه : أى أمر وأى جرم يخشاه ؟ وأية جناية ارتكبها ويشفق من الاعتقال من أجلها ؟

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

وكان الرجل الضخم على مسافة خمسين ياردة من فريسته ، ولكنه لم يستطع أن يقرب شيئاً من هذه المسافة ، وكأنما كانت الهمهمة المخيفة التي كانت تصدر منه وهو في جهاده العنيف يطارد الهارب تدفع هذا السكين إلى الأمام ؛ وأخيراً وصل جورج اديكت دراج إلى الدار وكان بابها مفتوحاً فقفز إليه وعدا يصرخ طالباً النجاة ، ووصل الرجل النامض بعده بقفزة ، وأبصر من خلال باب الحديقة داراً مضيئة فصرخ صرخة ألمية ، وأدار وجهه وقد علته سحابة من الحزن ، ثم انطلق على آخر سرعة كأنما قد شطحت وراءه الشياطين تتبع أثره

قال جورج اديكت دراج للطبيب سكوار فارس في حجرة الاستقبال في تلك الدار وقد هدأت ثائرته قليلا : هأنذا قد عدت إليك ، فدعني في كنفك بحق السموات . دعني في حراستك ، لقد عادت إليّ النوبة ، إن رجلاً يطاردني . إن قوة مخيفة تجري في أثري ...

فجعل الطبيب يتفحصه ثم أنشأ يقول ملاطفاً : أؤكد لك أنك قد شفيت الآن من أوهامك وأخيلتك وتأثير المقاقير التي كنت ملحاً على تناولها لقد كان رعبك غريباً ، رعب المجهول والخوف من النامض والبهم ، رعب الوهم والرعدة التي تسري في البدن من الخيال الذي تخلقه الأعصاب الضعيفة

فتشبث جورج بالطبيب خائفاً يرتعد وهو يقول: بالله عليك لا تطردني من مستشفاك ، دعني أظل في حراستك . فقال الطبيب مخففاً من آلامه : هوّن عليك ! سأذهب معك فإن هذا الحادث غريب طل وسنعود غداً إلى معلم كلاريدج ، ولعلي مستطيع أن أثبت لك أن ما رأيت اليوم كان حقيقة لا وهماً وواقعاً لا خيالاً

* * *

في جلسة العشاء بذلك المطعم مساء اليوم التالي كان الرجل الضخم النامض جالساً في مكانه الذي كان يشغله ليلة الأمس ، وكان يرقب الموائد التي أمامه ، والرقاع نفسها ، رقاع المشية الماضية أمام مائدته ، وكان يلوح عليه الغضب ، وكان محنقاً لأن الرجل الجالس على المائدة السادسة كان مولياه ظهره ، وكان الرجل جالساً وحده ، وفي المائدة القريبة منه جلس رجلان قويان شديدا الأسر ، وقد كان الماشقان اللذان كانا بالأمس في شغل شاغل بالتنزل والنجوى والسمر عن كل شيء حولهما ، في مكانهما الذي كانا يجلسان فيه بالأمس فلم يحفلا بالحادثة والخادم يضع أمامهما الرقعة . ولكن بدا على الرجل الجالس إلى المائدة السادسة أمارات الاضطراب ، فتحفز الرجل الضخم النامض صاحب الرقاع في مجلسه ، وتطاول ومد عنقه ليدري أثر رقعته في معارف وجه الرجل ، فرأى الرقعة تسقط من يده وإذ ذاك نهض الرجلان الجالسان إلى المائدة القريبة ومشيا يريدان الخروج ، ونهض الرجل الجالس إلى المائدة السادسة وهو يتعثر في أذياله مضطرباً راجفاً ، وهنا بدت على الرجل النامض آثار السرور وابتسم ابتسامة خبيثة وأصدر صوتاً غريباً لعيناً أشبه بهرير الكلاب ومشى في إثر الطريدة . وإذ ذاك انقض عليه الرجلان القويان المفتولا السواعد وحملاه إلى

2017-11-11 15:26:03

سيارة واقفة بباب المطعم وهو يصرخ ويرغى ويزبد وألقيا به مكتوفاً وانطلقت به السيارة عادية ؛ وعندئذ عاد الرجل الذى كان يتصنع الاضطراب والخوف إلى مائدته فاسترسل فى عشائه ، وإذ ذاك انضم إليه جورج إديكت ورفيق له

قال الرجل وكان هو سكوار فارس طبيب الأمس لجورج اديكت : أرأيت يا صاحبى أن الرجل الذى يطاردك حقيقة لا شبحاً ولا خيالا ولا وهماً .. هذه رقعته التى تود أن يكتبها : حذار ! إنك مراقب ! هذه هى الحيلة التى جعل بها يخرج الفيران من جحورها ، فصل الهرة بالفأرة . ذلك الرجل كان مريضاً وكنت أعالجه وقد مكث أشهراً لدىّ فى الستشفى . وتفصيل قصته أنه وضع قصة تمثيلية عن التجسس فى روسيا القيصرية ، فنجحت ورخ من ورائها مالاً طائلا . وقد قام بتمثيل الدور الأول فيها وهو دور الجاسوس فجنى عليه النجاح والكسب ، لأنه لم يستطع منذ ذلك العهد أن يكف عن تمثيل دور الجاسوس فى الحياة ، وذلك بتأثير أخيلته وأعصابه . وهكذا مضى يخيل إليه أنه لا يزال جاسوساً ، وأنه لا يزال موكلا بإخراج الفيران من مكامنها . فلما عالجته استأصلت العلة من أعصابه ، ولكن العلة مالبثت أن انتكست عليه فعاوده المرض ، ألا فاحمد الله أن هيأ لك عشية أمس أن تسبقه بيضع يادرات فقد شفيت من مرضك الذى دهاك من إدمان المخدرات والعقاقير السامة .

يا غلام ! علينا بقائمة الحساب :

محمد لطفى جمعه

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

من لويس جوليني

إيولاندا - وفرنشسكا

أو الحسناء والخيال

بقلم الأستاذ دريني خشبه

كانتا توأمتين ، وكانت إحداهما تشبه الأخرى فى الخلق والخُلق ، ويكاد يكون لهما قلب واحد ، ولب واحد ، وأسلوب فى فهم الحياة يجرى على نمط أهل الجنوب من هذه المملكة الجميلة ... إيطاليا

أما أبوهما ، الكونت دى سانت أجاثا ، فرجل محافظ نشأ فى أسرة من أعرق الأسر التى تترعرع منذ أجيال مع ورود الابتهج ، والتى يعطر نارجها مشارف الجبال الضاربة حول نابلى

وماتت أمهما وهما ما تزالان فى المهد ، قبل أن يتما شهرهما السادس ، فعنى بهما أبوهما عناية كان يوزعها دائماً بينهما وبين كرومه التى ورثها عن أسلافه ، والتى كان يتمنى لو تصبح جنة من جنات بوردُو[1] تجرى من تحتها أنهار من نبيذها الصفى

وانصرف الكونت إلى عمله ، وغرقه ما تلى من نجاح ، فاعتزل الدنيا العريضة الواسعة ، واتخذ من كرومه منفى اختيارياً كان يشركه فيه ابنتاه الجميلتان . وهو لهذا كان ينقبض عن الناس ويعزف عن مجتمعاتهم ، ولا يبالى أن يكون شذوذاً فى جبلة البحر الأبيض المتوسط ومناهجه التى من خواصه المرح والانطلاق

ولم يكن دى سانت أجاثا يقارف من الخمر ما يخرجه عن وقاره أو ينسيه حلمه واحتشامه بل كان معتدلاً حتى فى ما كله... وكان وجدانه مشبوباً دائماً ، وكان لذلك يعيش فى عالم فسيح من أحلامه الشاسعة ، تزيد فى تهاويله ابنتاه الجميلتان — إيولاندا ، وفرنشسكا — اللتان كانتا تخشيانه أكثر مما كانتا تحبانه

ولم تكن إحدى الفتاتين تعرف أنها شىء ، وأن أختها شىء آخر ، بل كانتا تحسان إحساساً عميقاً أنهما شىء واحد غير منفصل . فهما تأكلان طعاماً واحداً وتشربان شراباً واحداً ، وتتثنيان أغانى واحدة ... ولا يكاد يصيب إحداهما صداع أو نحوه إلا يصيب الأخرى مثله ، بل يبالغ العارفون فيذكرون أن الشوكة لا تكاد تصيب يد إحداهما ، وهى فى أول المزرعة حتى تتأوه الأخرى من ألم فى يدها وهى فى آخر المزرعة

ومضت عشرون سنة فلم يحدث أن افترق الأختان مرة واحدة ، بل كانت الشمس تشرق عليهما معاً ، ثم تغرب عنهما كما أشرقت ، وكأنهما نغمة خالدة متزنة فى سلم الوجود الموسيقى

ثم أصيبت فرنشسكا بمرض فى زورها أورثها آلاماً مبرحة ، فرأى أبوها أن يرسلها إلى نابلى ، عند واحد من أطبائها الجراحين ليُجرى لها العملية اللازمة ، وكان طبيعياً أن تصحبها إيولاندا لتسهر

(١) مدينة فرنسية تشهر بأجود أنواع العنب وأفخر الأنبذة

2017-11-13 06:06:03

عليها ، وتُعنى بها ... فما كان أعجب أن تصرخ من ألم شديد فى زورها هى الأخرى حينما كان الطبيب يُعمل مبضعه فى زور أختها ... بل كان أعجب من ذلك أن يسيل الدم من نفس المكان الذى كان ينبجس منه فى جرح فرنسكا

تشابه فى الخلق بوشك أن يكون أسطورة ! !

بل هو أسطورة بالفعل ، أسطورة غريبة حقيقية !! وموضع الخرافة فى ذلك أنهما هما أيضاً كانتا لاتصدقان أنهما شخصان لكل منهما وَحدته واستقلاله ، بل كان شىء من هذا لايدور فى خلدهما مطلقاً . فليست مبالغة إذن ما رواه العارفون من أنهما حينما كانتا تتنادیان لم تكونا تعرفان من منهما فرنسسكا ، ومن عسى أن تكون إيولاندا ؟ ! وفى معظم الأحيان كانتا تتبادلان الاسمين بسبب ذلك !!

وحُمَّ الفراق بين الأختين فجأة ... وذلك أن نبأ محزناً ورد من سورّنتو يقول : « إن أباهما سقط من عربتى عال بينما كان يعالج واحداً من كرومه ، فكسرت ساقه ، وأنه لا بد من وجود إيولاندا بجانبه ... » ولم يرح الجراح مانعاً من الاذن لها بالسفر بعد أن طمأنها على صحة أختها ...

وكانت ليلة الوداع ليلة من ليالى الجحيم تأججت نيرانها وسط الجنة !! وكان عذابها مزيجاً عجيباً من اللذة المشوبة بالألم . المنضوحة بالدمع ، المُنْضَجَةُ فى جمرات القلبين اليافعين المعذبين

وكانت الأشهر الأولى عراماً[1] على نفس إيولاندا ، فقد شفى أبوها ، ولكنه كان شفاء أشبه بالنزع ... ثم تأخرت عودة فرنسكا عن أجلها المضروب أسابيع عدة حتى ثارت الشكوك فى نفس أختها عما كان يلقى لها من الأنباء عن تقهقر المكذوب

ثم حدث الانقلاب الكلى فى حياة إيولاندا فقد لقيت فتى غريض الشباب ريان الإهاب فوق رُبى (أجيروولا) ، فدخلت من عينيه القويتين الساحرتين إلى دنيا باهرة زاهرة غير هذه الدنيا التى يعيش فيها الناس

لقد رنا إليها الشاب ورنت هى إليه ، فأحست فى رأسها وفى قلبها بدوار شديد كالذى يحس به راكب البحر ... ووقع كل منهما فى فؤاد صاحبه ، كأنه دنياه ، وكأنه جنة أحلامه التى ليس له سعادة فى غيرها

وكانت إيولاندا ثمرة ناضجة قد حان قطافها ، إذ سلخت من الحياة عشرين عاماً بتمامها ؛ وكانت ربيعاً كاملاً فى إبانه ، يتبرج بوروده ورياحينه ، ويسبق بشذاه فيملأ الدنيا الباسمة عطراً ، ويوقع فى آفاقها المشرقة ألحانه

وكان الشاب فى ميعة صباه وعنفوان أيامه ... قد قارب الثلاثين ... وتسلح لمغامرات الحب بالقلب الفارغ والعضل المفتول والشعور المرهف ، والنفس التى برزت من الظلمات كالفراشة ، لترف على هالات النّوار

وشعرت إيولاندا بشىء ينفذ فى صدرها كالسهام المحمى ، وذكرت فى هذه النمرة المفاجئة أختها ، وشهدتها فى حلم من أحلام اليقظة مسجاة فى سريرها بالمستشفى وانية شاحبة ، فخجلت من هذا الطائف النوابى الذى غزا قلبها ، فأشاحت بوجهها عن الشاب ، وقد اشتملت حمرة الحب فى خديها ، فتفتحا عن وردتين ناضرتين ... ثم ولت مدبرة من

(١) الغرام العذاب الشديد والشر الدائم

طريقه ، وحثت الخُطا ، حتى إذا غابت عن ناظريه انطرحت فى غيضة من آس ... وأنشأت تبكى !

ولقيته بعد هذا مرة أو مرتين ، وعلقها الشاب بل جن بها ، وجعل يذرع الطريق الذى لقيها فيه لقاءه الأول عسى أن يسعده الحظ بلقياها ، وكان يترنح فى ظلال الشاهبلوط ، ويستنشى الشقائق اليانعة التى ترخرف بها الطبيعة حاشية الطريق كأن قصة حبه قد سجلت فى أوراقها !

وعرف من أهل سانت أجاتا من هى حبيبته وأين يقع بيتها من كروم الكونت الواسعة ... وحثه الحب ، فلم يتورع عن أن يزور الكونت من غير ما معرفة ... ويبدو أنه كان من أهل كابرى فقد كان يحضر كل مساء إلى سورنتو على زورق من زوارق نابل ، ليلتمس عبير الحب فى وادى أحلامه

لقد كان إنريكو دى ساروللا يعيش وحده فى فيللا أبرونال ، هذه الفيللا المنيفة الشاهقة ، النائمة فى حَيْد من أحياد أنا كابرى ، مشرفة على خضرتين مائجتين من بحار الطبيعة ، هما خضرة البحر الموهة بالفضة ، وخضرة أشجار الزيتون الموشاة بأذناب الطواويس ... وكان يحيا هناك حياة الناسك المتعبد الذى اعتزل العالم لسر غامض دفين ، لم يعرف الناس منه إلا أن الشاب قد نزغ الشيطان بينه وبين أمه العجوز الحزينة فترك لها الدنيا تتجرع ثمالتها الشقية وحدها فى قصر أجداده فى سالرنو ، ثم سافر إلى باريس يطلب الحكمة فى معاهدها فلبث هناك ستة أعوام عاد بعدها ليقيم فى فيللا أبرونال ... ولم يغادر الفيللا طوال هذه السنين إلا مرة واحدة منذ أسبوعين ، حين سافر إلى سالرنو ليدفن أمه ،

وليخلص يدفنها من شجو طويل هو السر الذى لم يقف عليه أحد ؛ وليعود بعد أن حثا عليها التراب حراً لا يرى يأساً فى أن ينشق عبير الحرية من جديد .

فبينا كان سائراً فى هذا الطريق المنصور بين سالرنو وسورنتو ، لقى فتاته الغيانة إيولاندا ، فجن بها ، وذهب إلى أبيها الحطم فعرفه عن نفسه ، وكأنما وافق شَنٌ طَبَقة ، كما يقولون ، فقد وجد فيه الكونت رجلاً تتفق طباعه معه ، وتنسجم سجاياه وإياه . فلما خطب إليه إيولاندا على نفسه لم يرفض طلبه ، بل هش له وبش ، وإن يكن قد أسقط فى يده لما يعلمه من تعلق الأختين كل منهما بالأخرى ولما يدركه من استحالة فراقهما بهذا الزواج الوشيك

— إنى أبارك هذا الزواج يا بنى ، ولكن فرنشسكا ! فرنشسكا يا عزيزى إنريكو ما ذا يكون خطبها ؟ ! إنها لا تسمح لأحد أن يفصلها من إيولاندا إلا بحرب !

— أنا لا أظن أن فرنشسكا تقف فى سبيل سعادة إيولاندا ، إذا كانت تحبها حقيقة ... إن هذا لا يجمل بها أيها السيد ... إنه لا يجمل بها بحال !

— أنا معك يا إنريكو ، لكنى أعرف من أمرها مالا تعرف ، وأحب أن أحسن ما يجملهما تتفقان هو أن تتزوجا كلتاهما من رجل واحد

وتضاحك الكونت حتى بدت نواجذه ، ظناً منه أنه أرسل نكتة نابغة ! وتضاحك إنريكو ، أو قل ، إنه قد تصنع الضحك ثم قال :

— بل قل إن العلة هى إيولاندا نفسها ، ولكن ، كيف ؟ إنها تحبنى كما أحبها ، وقد صرحت لى بذلك !

2017-11-14 06:06:03

ولم يكذب الفتى فى الذى باح به ، فقد كانت إيولاندا تحبه حقاً ، وكان حبها له هو العاطفة الوحيدة التى دخلت بينها وبين أختها فلم تشركها فيها ، وأحست هى أنها لا تود أن تشركها فرنشسكا فيها ، وكان حبها حباً صارخاً مضطرماً يتأجج فى قلبها ، وتبدو لهبه فى عينيها ... بيد أنه كان حباً لا يعدل حبها لأختها بعد، لأن حبها لأختها كان يتدفق مع الدم فى جميع كيانها طوال هذه السنين ومن قبل أن ترى الدنيا ... وقد ساءها أن يصرح إريكو بما بينهما لأبيها ، فتجهمت فجأة ، ثم انهرته بقولها : « أبداً ، أبداً ، إنى لا أقبل أن أتزوجك ! كيف تريدنى أن أنفصل من فرنشسكا ؟ إذهب من هنا ! لماذا أتيت إلينا ؟ »

وقد بهت إريكو ؛ لكنه تناول يد الفتاة مع ذلك ، ثم راح يقبل الحرارات الحمراء التى انتشرت فوقها من العينين الحبيبتين ، وقال : « رويدك يا حبيبتى ! لا تثيرى إذن ! سننتظر حتى تعود فرنشسكا فهى وحدها التى ستضع كل شىء موضعه ... إنها ستعود بعد أسبوع أو أسبوعين ، وإن شئت فلا بأس من أن نذهب الآن فنزورها »

فقالت إيولاندا : « كلا ، كلا ! بل أذهب أنا وتبقى أنت مع أبى ، وسأظل هناك حتى يأذن الأطباء لفرنشسكا بالعودة ، فإذا عدنا ، فلا يجب أن تبقى هنا لحظة ... »

فقال إريكو وهو يتبسم : « فإذا قالت فرنشسكا إن أسعد أيامها هو ذلك اليوم الذى ترانا فيه زوجين سعيدين ، فهل تخمنين لحكمها ؟ أما أنا فخاضع لهذا الحكم من الآن ، وأنا متأكد أيضاً أنها ستقضى بهذا ! »

وقالت إيولاندا إنها ستصدع بما تقضى فرنشسكا ثم قالت إنها ستذهب إلى نابلى بعد يومين ؛ لكنها لم تفعل ؛ فقد خرجت فرنشسكا من المستشفى ، وعادت أدراجها إلى سورّنتو بعد يوم واحد من ذلك الحديث ...

— إيولاندا ، إيولاندا ، لقد عدت أدراجى من أجلك ! من أجلك أنت ! إنى لم أطق أن أحس بك ، على هذا البعد الشاسع ، غير سعيدة يا أختاه !

— أوَقد عرفت يا فرنشسكا ؟ أوقد عرفت ؟

— إيولاندا ؟ ! كيف تسألين إن كنت قد عرفت ؟

— أيتها الشقية ؟! إنك ما أقبلت إلا لتراجعينى !

— إيولاندا ؟! غفر الله لك ! وأقسم لك يا أختاه أننى ما قدمت إلا من أجلك ، وإنه لا مطمع لى فى شىء ... إننى أعرف أكثر مما يعرف الأطباء يا عزيزتى ... إننى أموت يا إيولاندا ... إننى أموت!

— أوه ! فرنشسكا ! فرنشسكا ! لا تقولى مثل هذا مرة أخرى ! إنك ترجعيننى ! إنك تقولين ما تقولين لأننى سمحت لنفسى بالسباع إلى هذا السالِرنى ! لن أصغى إليه بعد اليوم يا أختاه ... سأطرده غداً ، بل الليلة ... !

— لا . لا يا أختى العزيزة ، إياك أن تفعلى ! إنكما يجب أن تتزوجا ، ولكن بعد أن أموت أنا . قولى له لينب عن هذا النزل يوماً أو يومين ، أو أسبوعاً أو أسبوعين ... أو ... شهراً أو شهرين ، فلن أعيش أكثر من ذلك ... ثم ليحضر بعد هذا ولتتزوجا !

— إن كنت حقاً ستموتين فإنى ميتة لا محالة !

— إذن فلن أموت ما دمت حية يا إيولاندا !

2017-11-14 15:06:13

وإذا تزوجته ، فإني سأتزوجه كذلك ! أفهمت ؟

— فرنشسكا ! إنك تحطمين فؤادي !

— ياحبيبتي ! إنني لست فرنشسكا فحسب ، بل أنا إيولاندا كذلك ؛ وإنك لست إيولاندا فقط ، بل أنت فرنشسكا أيضاً !

— أجل ، أجل يا حبيبتي ! إن كلاً منا فرنشسكا وإيولاندا ، ولذا فإنك ستغفرين لي إذا أنا تزوجت من إزيكو !

— وإذا تزوجت منه ، فإني لن أموت !

وماتت فرنشسكا بعد سبعة أسابيع ، وبعد سبعة أشهر زفت إيولاندا إلى إزيكو دي سارولا

وسيء الكون دي سانت أجاثا بموت الأولى وزواج الأخرى لأن كلا الحادثين كان شراً عليه...

— ٢ —

ولم يكد يتغير الحال في ڤيلا أبونال ... فقد بقيت سجناً لا باب له كما كانت ، وكأنما فتح إزيكو في أحد جدرانها ثغرة لتدخل منها إيولاندا حتى إذا دخلت سد الثغرة بحجارة مسومة فساد الجدار أقوى مما كان

ولم تشعر إيولاندا بالوحشة في هذا القصر الرهيب فهي لم تعتد الحياة الجماعية من قبل ، وقد قضت حياتها كلها في رفقة شريك واحد أو شريكين إن يكن رجل مثل أبيها شريكاً

وكانت سلواها تلك الشعاف الشاهقة تتسلقها وتهبط في منحدرها ، وهذا البحر المتمطخ تملأ عينيها وأذنيها من أمتاجه وجرجراته ، فالمنظر واحد هنا وفي سورنتو... ثم هي قد أحبت زوجها ومالت إلى ما كان يأخذ به نفسه من عمل ... وقصارى القول لقد سعدت إيولاندا سعادة لم تسعدها من قبل ... سعادة استمرت عامين كاملين كانا كلمح ناشم في الفردوس ، إن كان أحد في الفردوس ينام ، أو يغمض عينيه !

وفي خلال هذين العامين ، لم تزر إيولاندا أباها إلا مرة واحدة ، بعد أشهر من زفافها ... وكان أبوها قد عوفي مما حاق بساقه ، وفرغ لكروميه التي كان يود لو تصير جنة من جنات بوردو

ثم تغير الحال فجأة — فقد لاحظ إزيكو أن زوجته تلحف في زيارة أبيها حتى لا يكون بين الزيارة والأخرى غير أسبوعين ؛ ومع بعد الطريق الذي يقطعه الزورق في ساعات ذهاباً وجيئة فإنها كانت تمود في نفس اليوم الذي كانت تمضي فيه ، أي أنها لم تكن تمكث عند أبيها إلا ساعة أو ساعتين

وقد يُظن في سبب ذلك ظنون شتى ، إلا أن الوالد الذي تقدمت به السن كان يستأهل من وحيدته كل تلك الزيارات

ولم يكن إزيكو يُعنى بأن يصحب زوجته إلى سيف البحر ، أو أن يذهب إليه لقائها حين عودتها ، لأنه كان يمقت هذه القرية أنا كاپري ، بقدر ما كان يمقت القرية المقابلة كاپري ، ولم يكن يود أن يرى أحد من أهليهما . ثم هو كان إلى ذلك عجباً للشيلا أبونال ، فكان لا يرحبها أبداً ، وكان يعدها الدنيا التي لا يمكن الخروج منها ، لأن كل ما عداها كان في رأيه يباباً لا خير فيه

ومضت سنة ثالثة على هذا الحال لم تكن أقل سعادة من السنتين الأوليين ولا أقل بهجة ... بل كانت السنوات الثلاث تعدل بمباهجها إيناس مائة سنة ، وإن لم تعدل بطولها يوماً واحداً وليلة

وبينما كان إريكو مكباً على كتبه فى مكتبه إذا صداع شديد يضطرم فى رأسه فيصرفه عن القراءة ويحسب أن هواء الحديقة ينفعه فيمضى إليها ، ويضطرب فيها ... لكنه يزداد ألماً ، ثم يحس فى صميمه بضيق شديد ، ويشعر بكمد يجثم على روحه لا يعرف مصدره فيفتح باب الحديقة ، وينطلق فى الطريق الموحش الشاحب المؤدي إلى كابرى

ويذكر إولالندا ، فيؤلمه ألا تكون بجانبه تواسيه وتسليه ، وتمسح الضيق عن فؤاده

وكانت إولالندا إذ ذاك ترور أبناها ، فتحتلك نفس إريكو بأفكار سوداء قاتمة ، وينتبه إلى تعدد هذه الزيارات وكثرتها فيؤلمها

ثم يمضى فى طريقه حتى يكون عند حدود يشرف منه على المرفا فيقف ، ويكون الزورق الكبير القادم من سورنتو قد ألقى مراسيه ، وقد أخذ القادمون وأكثرهم من النساء ، ينزلون فى زوارق صغيرة توصلهم إلى البر ... وأرسى الزورق الأول ، ولكن إولالندا لم تكن من راكبيه ... ثم أرسى الثانى ... ولكنها لم تنزل كذلك ... ثم أرسى الثالث فالرابع ... حتى لم يبق فى الزورق الكبير أحد ... يا عجبا ! لم لم تعد إولالندا يا ترى ؟ !

وانتصب إريكو فوق ذرى الشاطىء ، ورواح يحملق هنا ويحملق هناك ... وقد أخذت مطارق الصداع تدوّى فى رأسه بشدة وعنف ... ثم خطا خطوات فكان فى المرفا ، وبدا له أن يسائل الناس لم لم تعد زوجه فيمن عاد إلى كابرى من سورنتو !

ثم ثارت في خاطره فكرة متعكسة ! ذلك أنه ظن أنها ربما تكون قد نزلت من أحد الزوارق الصغيرة إلى البر لكنه لم يرها ، فصعّد جؤاة فوق الحدور إلى الصخرة المشرفة على المرفا ، ورواح يبحث بناظريه المتعبين فى الطريق ... فلم ير شيئاً ...

والحق ، لقد كانت الظلمات تتسدجى فى عينى إريكو لما استولى عليه من الهدش ، ولما كان يقاسيه من التعب ... فقد صعدت إولالندا من الزورق ، وهى الآن فى طريقها إلى الفيلا ، بل هي قد وصلت إليها ، وهى الآن تنتظره قلقة ساهمة ... أما هو ، فها هو ذا فوق الصخرة يضرب أخماساً لأسداس ، لا يدرى لم لم تعد إولالندا « ... أين هى إذن ؟ ومن يدرى ، فقد تكون لم تذهب إلى سورنتو أبداً ، وإذا لم تكن قد ذهبت فأين تكون يا ترى ؟ ومع من تجلس الآن ؟ أوه ! أتكون الآن فى حضن جسد المسيح ؟ ! »

وهتف السيرين (منادى السفينة) : « ألا من هو ذاهب إلى سورنتو فليتفضل ... ألا من يريد الأوبة إلى سورنتو فليتفضل ! »

وكان الظلام قد أوشك يرخى سدوله على البر والبحر ، وأخذت القوارب تنقل المسافرين إلى الزورق الكبير ، ووقف إريكو يحدق ويحملق فى كل الراحلين ... حتى إذا لم يبق إلا القارب الأخير شعر كأن سكيناً تشق حشاشته وتستقر فى قلبه .. ذلك أنه رأى إولالندا تتهادى فى رشاقة وظرف متجهة نحو القارب وها هى ذي تثبت فتكون فيه

« إنها هى ... هى إولالندا من غير ما شك زوجتى ... حبيبتى إولالندا ... أين هى ذاهبة يارب ؟ ... إنها لم تذهب قبل اليوم إلى سورنتو ليلا ، وإذا كانت هى ، فأين كانت طوال هذا النهار يا ترى لقد خرجت صباح هذا اليوم لتذهب إلى سورنتو ، فأين قضت نهارها كله إذن ؟ أوه ! إن فى الأمر

سراً رهيباً ... إيولاندا ! إيولاندا ! تعالى ! هأنذا إيريكو ! إرجعى ! ... »

لكنها لم تلتفت إليه ؛

بل نظرت إلى السماء نظرات كنظرات الملائكة ثم وقف النسيم فداعب عقارب صدغيها ... وجلست هادئة ساكنة ... ولم تتكلم

وهرول إيريكو نحو المرفأ ، وجعل يهتف ويهتف ... لكنها لم تنبس ، ولم تلتفت إليه ... وأخذ القارب يبتعد ويبتعد ، حتى كان عند الزورق الكبير ، فوثبت إيولاندا فيه وأخذت مكانها ، صامتة كالطيف ... ساكنة كالليل ... غامضة كالروح ...

وقبل أن يتحرك الزورق هبت إيولاندا واقفة ، ولوت وجهها شطر الشاطىء حيث وقف إيريكو ، وجعلت ترنو إليه !

« إيولاندا ... إيولاندا ! »

وابتعد الزورق ... ولم ترد إيولاندا ... فانهمرت الدموع من عيني إيريكو

— ٣ —

ثم ئاب إلى رشده ، وصحا مما كان فيه ، وودع البحر بنظرة حزينة ، وضرب فى الطريق إلى أنا كابرى ، فبلغ الفيلا بعد مسرى طويل خيل إليه أنه بلغ به أميالا وأميالا ... ولحته الكلاب فلم تتحرك ولم تبصبص كدأبها حينما كانت تراه ، بل ظلت ساكنة هادئة كأنما تنتظر إلى شبح يتهدى فى الظلام

وكان البيت من وراء يضرب فى ديجور دامس ، يزيد البحر فى روعته ، وكان كل شىء هادئاً ، والريح توسوس فى سكون فى أغصان الدوح وأفنان الشجر ، فلما عرج إيريكو لِيلج فى القصر ، لمح ضوءاً خافتاً ينبث من غرفة الجلوس ... فدهش أول الأمر ، ثم زال دهشه حينما علل وجود الضوء هناك باجتماع الخدم ليمثوا ساعة فى غيبة السادة أصحاب الفيلا

وفتح باب الغرفة فى سكون ودخل ...

يا لله ! ! من هذه السيدة النائمة فى الكرسى الفاخر قريباً من المصباح ، يكاد يقر رأسها فى حضنها ؟ !

أوه ! ! إنها إيولاندا ! !

— إيولاندا ، إيولاندا ! !

ولكن إيولاندا لم تتحرك ، بل ظلت غارقة فى سُباتها تتنفس فى بطء

وأحس إيريكو بنصف جسمه الأعلى يلف ويصيبه الدوار ، وبالنصف الأسفل يبرد ، ويقف دمه ، ويتحول إلى ساقين من ثلج

— إيولاندا ... أبداً ، أبداً ، لا يمكن أن تكونى هنا ...

لكنها لم تتحرك ، بل ظلت نائمة حالة ، وضوء المصباح ينعكس على جبينها الجميل الباهت ، وأهدابها الطويلة الساحرة مُنَشَّرة ظلالها فوق خديها !

— إيولاندا ! ! أبداً ... لست إيولاندا ! لقد رأيتك تركبين فى القارب وتنزلين منه فى الزورق ... أنت ... لا أحد غيرك ... أنت لست إيولاندا أبداً ...

ولم تسمعه إيولاندا ، ووقف تلقاءها ساهماً واجماً ، وقد انتشرت ضبابة كثيفة من اللاوعى أمام عينيه ، وبدأت غيبوبة عجيبة تستولى على

مشاعره ، وأخذ رأسه يتفصّد من عرق بارد كأنه ينبع من مستنقع ، وكلما تزت منه قطرة جمدت واستحالت إلى حَبّةٍ من بَرَد ! !

ثم رفعت رأسها ببطء آخر الأمر ؛ وفتحت عينيها الواهيتين ، وجعلت تنظر فى غير جهة معينة وبغير وعى ولا شعور

ومرت لحظة بعد أخرى ، وظلت نظراتها غامضة زائغة ، كأنها لا تقع على نفس الأشياء التى تقع عليها نظرات إنريكو ... محفظة الكتب المسندة على الحائط ، والمنضدة ، والطاس البرونزى العامر بالأزهار

ثم نظرت إليه واستطاعت أن تتبينه

وكانت نظراتها هذه المرة نظرات العارف الواثق ، الذى يرنو إلى شىء حبيب يود أن يملأ به قلبه

ووثبت من كرسيها فجأة وأخذت تصيح :

« إنريكو ! إنريكو ! أين كنت طوال اليوم يا حبيبى ! ؟ أين كنت لقد تنظرتك طويلاً ، فهل حدث شىء ؟ لِمَ لم تخبر الخدم أنك ذاهب خارج المنزل ؟ »

ووقف إنريكو جامداً كالتمثال ، وقد طاف سرب من الهواجس فى قلبه ، وأخذ يفكر فى المتناقضات التى حاول القدر الساخر أن يشغله بها...

فلقد وثق وثوقاً تاماً أنها لم تذهب إلى سورنتو فى زورق الصباح ، لأنها لم تعد فى زورق المساء ...

بل حصل العكس ، إذ شهدها بكلتا عينيه تسافر إلى سورنتو فى زورق المساء ! وليس محتملاً أن يتسرب الشك إلى ما حدث وتحققه هو بنفسه ...

لقد رأى إيولاندا تركب القارب ، وتنتقل من القارب إلى الزورق ، وبهم الزورق ويحتويه الماء إلى سورنتو ... فكيف عادت إذن إلى هذه الغرفة قبل أن يعود هو ؟ وما هذا الذى يسمع ؟ : « أين كنت ، ولم خرجت دون أن تخبر الخدم ؟ » وما هاتان العينان النجلاوان الجميلتان البريئتان اللتان تنفذان فيه فى طهر وسذاجة؟ هل هذه إيولاندا حقاً ؟ وإن لم تكن هيَهْ ، فمن تكون يا ترى ؟ ... ولكن ما هذا السؤال وها هى ذى إيولاندا الجميلة المشوقة الهيفاء ، وها هو ذا فمها الدقيق ، وها هو ذا صوتها الموسيقى الساحر ، وها هى ذى نظراتها النافذة .. وها هو ذا كل شىء يضحك ويقول أنا إيولاندا ؟ !

لقد أوشك المسكين أن يجن ... وعاد الصداع إلى رأسه المختلط كما يعود الوحش الهائل زائراً مزمجراً إلى كهفه السحيق ... وانعقد لسانه فلم ينبس بكلمة ... وأشاح بوجهه عنها فقالت له : « إنريكو ما ذا بك ؟ هل تشكو من شىء يا حبيبى ؟ إنك غير عابس ، أليس كذلك ؟ أأنت مريض ؟ »

فقال لها وهو منتفض من الحمى : « لا ، لا إنه صداع بسيط ، لا تكلمينى أرجوك . هلمى بنا إلى الفراش »

وأحست بما يأكل قلبه من ضغن لم تعرفه فيه من قبل إلا مرة أو مرتين لم يلثنا شيئاً من أمره الآن ، فقالت فى صوت حزين :

— « إى يا حبيبى ... هلم بنا ... إنى آتية ! »

ولم يفه بكلمة وهو ينضو ثيابه ، وكانت أصابعه ترتجف فوق أزراره ضعيفة موهونة وانية ، وسبقته إلى الفراش فتطرحت على ظهرها وأسندت رأسها على الحشية ، وراحت تبحث بعينيها فى سقف الغرفة وقد هرب الدم من وجهها الرائع الشاحب

لم تتحرك إيولاندا ... لم تولِه ظهرها حتى لا تثير

2017-11-14 06:06:03

غضبه ، ولم تولِه وجهها حتى لا يظن أنها تحاول إغراءه عما فى نفسه ... وكان مرآها هكذا يثير الحنان ويثير الشجون ويثير كل المواطف العلوية فى أقصى القلوب وأشدها تماسا

ثم شمر عن ساعده بضميره ويؤنبه ، فقال لها :

« أحسب أنها غلطة يا إيولاندا ... غلطة مجردة ... فأنا آسف جداً ! »

فأجابته ، وفي نفسها لهفة شديدة : « أجل . أجل يا إزيكو ... إنها غلطة »

فتراجع إزيكو مشدوهاً وقال : « أى غلطة ؟ كيف عرفت أن هناك غلطة ؟ ! تكلمى ! خبرينى إني أعتبر ذلك اعترافاً بكل ما حدث اليوم »

فقالت له : ولكن يا حبيبى ... لقد قلت هذا فقلته معك ...

فقال : هل حقيقة قلت ذلك ؟ ربما ! لأسلم أنني مغفل ! بل إنى أومن أنى مغفل ... تنحى ... إفسحى لى مكاناً ! أنا آسف يا إيولاندا

وتنحت قليلاً فانطرح جانبها وقال : قبلينى يا إيولاندا ! لماذا لا تقبلينى ؟

فقالت : لأنك ... لأنك ...

فقال لها بلهجة الآمر : لا . لا . قبلينى !

وانحنت تقبل شفتيه المرتعشتين ، فما كادت تمسهما بشفتيها الذابلتين حتى شم فيهما رائحة غريبة لم يكن له بها عهد من قبل ... رائحة رطبة كرائحة أزهار النيلوفر[1] التى تنمو عادة في المياه الآسنة ... وكانت شفتاها باردتين مُثلجتين ، فسرت منهما رجفة فى جسمه ، وقشعريرة زلزلته زلزالاً

— ماذا بك يا حبيبى ... ماذا بك ؟

— لا شىء ... صداع خفيف

— هل ... ؟ ...

— لا ... ليس القبلة ... هلمى ننم يا إيولاندا ... عمى مساء !

— عم مساء يا حبيبى ...

وانطبقت أهدابها كما تنمض الزهرة الذابلة الوسنانة ، وبدت لإزيكو فتنة فى فتنة ، وجمالاً ناعماً معه فى سرير واحد ، لا يمكن أن يكون من هذا الجمال الفانى الذى تمتلىء به دار الغرور

إنه جمال سرمدى كجمال الملائكة ... نور على نور أبداً لم تكن إيولاندا هكذا أبداً ...

وهكذا لم ينمض له طرف ، وكيف ينام من هو فى مثل حيرته ، ومن يضطرب خاطره بمثل وسواسه ؟ ! كيف تكون هذه النائمة بجانبه إيولاندا ، وقد رأى إيولاندا تركب القارب إلى الزورق ، ثم تركب الزورق فيهم بها ، ويتمدد فى جوف البحر والليل أميالا ، وهو واقف يشهد ، وقد وقفت إيولاندا كالطيف ترنو إليه ولا تتكلم !

المعقول ألا تكون هذه إيولاندا ... والمعقول أن تكون إيولاندا الآن فى سورّنتو ... أو فى نابلى ... فإذا لم تكن هذه إيولاندا ، فماذا إذن ؟ لم ذهبت إيولاندا إلى نابلى إن لم تكن قد ذهبت إلى سورّنتو ؟

ولكن هذه النائمة هنا من تكون إن لم تكن إيولاندا ؟

ألا يعرف الإنسان زوجته التى عاشرها ثلاث سنين ؟ هل معقول ألا تكون هذه إيولاندا ؟ حقاً إنها جميلة جداً هذه الليلة ، وإن لها لجمالاً ليس بمكن

(١) البشين (اللوتس)

2017-11-11 23:26:13

أن يكون من جمال هـذا العالم الفاني ... لـكنها كانت جميلة هكذا فى جميع الأحيان .. ولا تناقض فى أن يكون جمالها الليلة أكثر نورانية :

اشتدت الآلام فى شق إزيكو الأيسر ، وأخذ التعرق يفيض مع القلب فى كيانه ... ولم يفتأ يسأل نفسه أيهما إولاندا زوجته التى ركبت البحر إلى سورّنتو ... أم هذه الناعمة معه فى سرير واحد ، ذات الأنامل الغضة اللينة التى تكاد تنعقد ؟ !

وتحركت إولاندا حركة فتحرت كتفها العاجية الجميلة الفتان ...

وكأنما أثار مرأى الـكتف الشيطان الساكن بين جنبى إزيكو ، فمد يده القوية الجبارة وأمسك اللحم الأبيض الخصيب فى عنف شديد وصاح قائلاً :

« ألا من أنت ... ؟ قولى ! تكلمى ! من أنت؟ من أنت ؟ ! »

ففزعت من نومها وأخذت تصيح :

— إزيكو ! إزيكو ! دع كتفى ! إن يدك القاسية تؤلمنى

فقال لها : بل قولى مَن أنتِ ... من أنت تكلمى : من أنت ؟

فقالت له : إزيكو! ماذا أصابك ؟ أمجنون أنت؟ دع كتفى واتركنى أنام :

فقال لها وهو ثائر كالمحموم : كيف أتيت إلى هنا وقد رأيتك تركبين الزورق ؟

فقالت له : لم أكن أنا التى رأيتها ! إنها واحدة سواى !

فقال : واحدة سواك : عجيب جداً ماذا تمنين ؟

فقالت : أعنى أنك أخطأت ... لقد غمّ عليك يا إزيكو :

فقال : وما هذا التعبير الغريب الذى عبرت به « إنها واحدة سواى ! » فمن هى ؟

فقالت : لا أعلم !

فقال لها : « كيف لا تعلمين ؟ إذن فمن أنت ؟ أريد أن أعرف من أنت ؟ ثم تناول المصباح القريب وأدناه من وجهها ، وراح يحدق ببصره فيه ثم قال : ولـكنك إولاندا ؟ ! كيف أتيت إلى هنا ؟ حقاً إنك إولاندا !

فقالت له : حقاً أنا إولاندا ... وها أنت ذا ترى !

فقال لها : لـكنى رأيتك تركبين الزورق إلى سورنتو هذا المساء ، فكيف عدت ؟

فقالت له : إزيكو ! ما هـذا الذى أصابك ؟ دعنى أنام ياحبيبى ! إنه صداعك الذى يقلب رأسك نم نم ! ستعافى فى الصباح !

ثم مدت ذراعيها وتثاءبت ، وأنشأت تقول :

إنى متعبة يا إزيكو فدعنى أنم ... لقـد تنظرتك طويلا قبل أن تعود :

وكأنما لمح شيئاً غريباً فى فمها لم يعرفه من قبل فصاح بها : « إفتحى فمك ودعينى أنظر إليه » فتبسمت وقالت : « ولِمَهْ ؟ ! » ثم فتحت فمها الجميل فبدت ثناياها المؤشرة المذاب ، وراح إزيكو يحملق فيهن ويحدق ، كما يحدق العالم فى أنبوبة اختبار تحوى كشفاً من كشوف العلم

آه : يا للا كتشاف العجيب ! لقد لمح إزيكو فَلَجاً بين الثَّنِيَّتين[1] العلويتين لم يكن بين ثنيتى إولاندا مثله ...

لـكنه يذكر أنه رأى مرة فتاة جميلة تشبه إولاندا ، كان لها هذا الفلج الرائع بين ثناياها العليا

(١) الفلج تباعد بين الأسنان والثنايا فى الأسنان

ترى من تكون هذه الفتاة ... ؟

أوه ! لقد تذكر إزيكو ! إنها فرنشسكا من غير ما شك !

إن ثنايا هذه المرأة النائمة معه فى السرير هى ثنايا فرنشسكا .. ذلك حق لا ريب فيه .. فرنشسكا الميتة ... التى دفنوها فى سورنتو منذ ثلاث سنوات وليست ثنايا إيولاندا ... إيولاندا الحية ... ولا بد أن تكون هذه هى فرنشسكا أيضاً ... هذه المرأة الجميلة النائمة فى سريره ... لأن إيولاندا قد ركبت الزورق إلى سورنتو ، وهو لا يستطيع أن يكذب عينيه ...

إذن ؛ لقد اجتمعت لأزيكو آيتان فى هذه المرأة النائمة فى سريره ! كما اجتمعت له آية ثالثة ، تلك التى رآها عند المرفأ ، وإيولاندا تركب البحر !

أما الآية الأولى فهذه الرائحة العجيبة الآسنة التى عبقت بها شفتاها وهى تقبله ، ثم هذه القشعريرة التى انتشرت منهما فى جسمه فزلزلته ... لقد كانت رائحة كرائحة المقابر لا تكون إلا للنيلوفر الذى ينمو فى الماء الراكد ...

وأما الآية الثانية فهذا الفلج فى ثناياها .. الذى لم يكن فى ثنايا إيولاندا شىء منه ، والذى كان الفارق الوحيد بين إيولاندا وفرنشسكا ، حتى كان أوهما لا يميزها إلا به !

وازعج إزيكو ... وامتلأت خياشيمه بسهك[1] كريه لا يكون إلا فى ريح المقابر ... ثم انتفضت جلدة رأسه وانتصب شعر فروتها فصار كالأبر وصاح كالمجنون الذى التاث عقله وضاع صوابه :

« أخرجى ! أخرجى من هنا ! أخرجى ... أخرجى ... أخرجى ! »

ولم يستطع أن يقول غير هذا ... أخرجى ، أخرجى ، أخرجى !

فانتفضت إيولاندا مذعورة تقول : « إزيكو ... إزيكو ... ماذا أصابك ؟ ! لماذا تصيح فىّ هكذا ؟ ! إهدأ يا حبيبى ! »

فقال لها : « أهدأ ؟ وكيف ؟ خبرينى من أنت أولا ! »

فقالت : « من أنا ؟ أنا إيولاندا ! »

فقال : كلا ! لست إيولاندا ، لقد رأيت إيولاندا يذهب بها الزورق إلى سورنتو ... لست إيولاندا أبداً

وتنفست تنفسة عميقة ، ثم أرسلت زفرة حارة ظن أنها تسكت نأمتها من بعدها ... ثم امتثرت أنامله فوق الملاءة البيضاء الحريرية كأوراق الورد القاوية ... وقالت : « بل أنا إيولاندا ! »

وكانت تقولها ، وكأن الصوت يتردد فى أذنىْ إزيكو من عالم بعيد قصى ... من عالم غير هذا العالم ... من الآخرة ... ثم قالت :

— « أجل ... أنا إيولاندا ! والفتاة الأخرى التى شهدتها هى إيولاندا أيضاً ... وكل منا إيولاندا . هى إيولاندا ، وأنا أيضاً إيولاندا ، هى مثلى وأنا ... مثلها تماماً ... »

فقال مذعوراً : « إذن أنت فرنشسكا ! ... لا ، لا ... ليس هذا حقاً ... أرجوك ... قولى إنك لست فرنشسكا ! قولى إنك لست فرنشسكا ! »

وهنا ... حلقت فيه بينيها البريئتين الجميلتين وقالت له :

— بل أنا فرنشسكا .. وهى أيضاً فرنشسكا ..

(١) السهك محركة ريح اللحم المنتن

الفتاة التي رأيتها تركب في الزورق إلى سورّنتو ! »

فاشتد ذعره وقال :

— إنك ميّتة ! أنت شبح ! أنت روح شريرة !

فتبسمت محزونة وسكبت دموعها وهي تقول :

— « إنها لا تستطيع الحياة بدوني ... وأنا لا أستطيع الحياة هناك .. هناك ! هل تعرف ..؟ .. في الدار الآخرة ... إلا إذا كانت إيولاندا معي ! ولهذا فهي تزورني هناك في الغيبة بعد الغيبة ، وأنا أيضاً ... أزورها هنا ! »

فقال إزيكو : إذن فما شأني أنا ؟ ! ثم هي ؟ ألم يكن أحجى بك أن تتركيها وشأنها ... إيولاندا التي أحببتك أكثر من كل شيء ؟ !

فقالت : لقد حاولنا ذلك فلم نستطع إليه من سبيل ... لقد تحققنا أننا لا نحيا إلا معاً ولا نموت إلا معاً ! وأننا لا يمكن أن نحيا أو أن نموت مفترقين ! وأنه لمعالجة ذلك وجب أن نقتسم الموت والحياة على السواء !

وعند ذلك أنَّ إزيكو وبكى ، وخبأ عينيه بيديه وراح يسكب دموعه ويقول : « آه ياحبيبتي إيولاندا ! آه يا عزيزتي ... تعالي يا إيولاندا ! » وكأنه ينشج نشيجاً مؤلماً ، ويدوّي بصوته البلل بالعبرات في سكون الليل ...

ثم سكت فجأة ، والتفت إلى الفتاة النائمة في سريره طيفاً روحانياً بلا مادة وأنشأ يقول :

— ولكن لا ... إنها كريهة ممقوتة مثلك ... لقد خدعتني طوال هذه السنوات الثلاث كما أنك خدعتني ... لقد تسببت لي في الكارثة العظمى التي حاقت بقلبي ورانت على نفسي وثلمت شرفي ! إنكم شياطين يا آل دى سانت أجاثا ! إنكم شياطين ! هيا ... هيا ... إلى الجحيم التي أقبلتما منها ! »

ثم مد ذراعيه الجبارتين وقلص أسابعه ، وأخذ يقترب من عنقها ويقترب ... لكنها تبسمت في غير ذعر ولا خوف ، وقالت له :

— أوه أيها المسكين ! مكانك ! إنك لا تستطيع أن تلحق بي أذى ! إنما النائمة في سريرك هذا طيف . طيف ! أسمعت ؟ ! خيال ! أتستطيع أن تخنق الطيف ؟

وقبضت كلتاهما في عضده فتهاوت ذراعاه ، وتهافت هو فوق الكرسي الذي كانت نائمة فوقه من قبل هذا .. ثم دفن وجهه في راحتيه ، وجعل يتأرجح من ناحية إلى ناحية ذات اليمين وذات الشمال لحظة تلو أخرى ... ثم راح يكلم نفسه :

— « ماذا أصنع يا ربي ؟ ! ماذا عساي أصنع ؟ من يدريني ؟ من يهديني ؟ من يعينني في هذه الوحدة القاسية ! من نصيري يارب ! ... »

ثم وقفت الكلمات فوق شفتيه كالأشباح ... ونهض إلى مشجبه ، وأخذ يرتدي ملابسه كما يرتدي ملابسه رجل ذاهب إلى المشنقة لينفذ فيه حكم بالإعدام !

— إزيكو : ماذا أنت صانع ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ !

— إني ذاهب إلى سورّنتو ! ينبغي أن أعرض الأمر على الكونت دى سانت أجاثا !

— إزيكو ! أرجوك ! أتوسّل إليك ! من أجل إيولاندا الحبيبة لا من أجلي ! من أجلي أبي الضعيف ! لا تذهب !

2017-11-11 06:06:03

— بل ليس بد من الذهاب ! كيف يحتمل واحد من بنى الموتى كل هذا ؟ !

— أرجوك ألا تذهب ! إنه لا جدوى من ذهابك ! بل بالعكس ، فذهابك يقتل أبى المريض الذى يمشى درا كا إلى القبر ، ويطرق بابه بكلتا يديه !

— إن شئت فتمالى معى !

— هذا لا يمكن ... إن هذا يكسر قلبه ويحطم روحه !

— كان الأولى أن تفكرى فى ذلك من قبل !

— أرجوك ألا تذهب ... أرجوك

— صه ! أيتها الهولة ! (١) ياسلالة جهنم ! (٢) أسكتى ! من دعاك إلى هنا ؟ !

— إذن أنت مصمم على الذهاب إلى سورنتو !

— طبعاً ، فى زورق الصباح !

— إذن ستلقى إيولاندا حين تنزل إلى البر !

— لا إيولاندا بعد اليوم !

وصمتت فرنشسكا ... فلما فرغ إزيكو من لبس ثيابه قالت له :

— هل تعنى ما تقول يا إزيكو ؟ !

— أجل ... لا إيولاندا بعد اليوم ... إنها ميتة مثلك

ثم أردف وهو ينفتل من الباب : « إذهبى إلى العالم الجدير بك ! »

— ٤ —

ورأى إيولاندا وهى تنزل من الزورق إلى البر لكنها لم تره ! واختبأ حتى تمر .. وغابت عن الأنظار ثم تركت الطريق المؤدى إلى أناكابرى ، وسلكت السبيل الآخر المحفوف على جانبيه بشقائق النعمان ... المؤدى إلى الفيلا من جهة البحر ... والتى كانت تلتقى فيه بطيف أختها ليتم اتحادهما قبل أن تذهبا إما إلى إزيكو ، وإما إلى سورنتو !

وهناك ... كانت تنتظرها فرنشسكا !

وبعد أن أخذت يديها الصافتين فى يديها المثلجتين ، قالت لها :

— هذه آخر مرة نلتقى فيها ههنا يا إيولاندا ؟

— أختاه ! لا تقولى هذا يا فرنشسكا ! مالك شاحبة هكذا ؟ إن فى نظراتك شيئاً غريباً لا أفهمه

— لقد عرف يا إيولاندا ؟ !

— عرف ... ؟ ... أبداً ... هذا لا يمكن ... هذا غير صحيح يا أختى !

— بل ... صحيح يا عزيزتى !

— أرجوك يا فرنشسكا ! قولى إنه غير صحيح ! أتوسل إليك !

— بل هو صحيح ... إنه الحق لا ريب فيه !

وصمتت إيولاندا ... وراحت تبحث بعينيها فى السماء ... وفى البحر ... وفى شقائق النعمان ... وفى الدوح ؛ ثم قالت فى صوت ضعيف وان :

— وماذا نصنع إذن ؟ !

— لا شىء ... إلا أن نذهب معاً الآن يا إيولاندا

— أنا وأنت يا فرنشسكا ؟ !

— وهل تؤثرين البقاء وحدك فى هذا العالم يا إيولاندا ؟ !

— وهل أترك إزيكو وحده يا أختاه !

— إنه لا إزيكو بعد اليوم !

— إذن ... نذهب معاً ... لن أتركك يافرنشسكا (٥)

(١) الهولة HarPy من مخلوقات الأساطير نصفها حيوان ونصفها إنسان (امرأة)

(٢) Hell - hag

— لنذهب الآن !

— ولكن ... ألا نبقى قليلاً ؟ لحظات ..

— نبقى لماذا ؟ ! إننا لم نعد لنا فى هذه الدنيا لُبَانة !

— وهل نمضى بالطريق الوعر من تحت الصخرة ؟

— أجل ... إن زورق النور ينتظرنا ...

— حيث سعدنا معاً أياماً طويلة وأعواماً !

— أجل يا أختاه !

— هلى ... لنذهب الآن !

— هذا خير ... يجب ألا نبقى فى هذه الدنيا الكريهة الظلمة أكثر من ذلك !

ثم هبطنا إلى الشاطئ ، ونزلنا فى الزورق ، ورفعنا مراسيه

— كونى أنت عند السكان [1] يا إيولانثا ، فانه يبدو عليك أنك متعبة ... وسأعمل أنا فى المجاديف

— حسناً يا أختاه ! عليك أنت بالمجاديف ...

واتجه الزورق نحو المغرب ... متوانياً فوق الثبج ... متأرجحاً فوق الموج

وذبلت أغنان الدوح فوق الشاطئ الباكى

وذوت شقائق النعمان فوق الصخور الحزينة

وليس فى الوجود إلا ماء وسماء ...

وكل هذا من أجل الأختين الجميلتين اللتين لم تعودا قط من رحلتهما إلى المغرب !

دمشق فضيلة

(١) الدفة

كل ثوب مصرى علم من أعلام الحرية

تغزلها وتنسجها لنا

شركة مصر للغزل والنسج

وتبيعها جميلة متينة رخيصة

أطلبوا منتجاتها من

تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

وردت أنباء عن الإنفلونزا في القاهرة

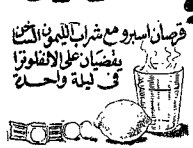
أسبرو يفعل فعله

وصلتنا أنباء تفشي الإنفلونزا في مناطق مختلفة. وتهاجم الإنفلونزا الأشخاص الذين لم يعتنوا أنفسهم منذ. فهل وهيأت نفسك عندها؟ في استطاعتك أن تقي الأعصاب بأن تعمل في متناول يدك «أسبرو» وستقاوم عنك شر أول عدوى للأعصاب بذلك تتقي نفسك سوء العذاب أسابيع طويلة. وقد أثبت الذين استعملوا «أسبرو» أنهم مضوا القضاء بأسرع وأسلم وأسبوع دواء ضد الإنفلونزا أحرزه العالم. فإذا عرف أن هذا الدواء لم يجئ مدة قصيرة إلى أصعب العذاب، لأن الفرق كبير جليل للإنفلونزا «فأسبرو» يزيل الفرق فوق ليساعدك بسرعة لتقدير مدى فعلك بأنك تستطيع التخلص سوء الإنفلونزا... فلا حاجة إلى الفرق منذ. قرصان «أسبرو» مع شراب الليمون الساخن يفعلان عجباً في ليلة واحدة



٢ قرصان أسبرو مع شراب الليمون الساخن لإزالة البرد والرطوبة الصحية بجمي أو الإنفلونزا في ليلة واحدة

في أقصر وقت وأسلم الطرق



«أسبرو» بعمل كفرغرة



ج. ب. شرديدان وشركاه
القاهرة: ٣ شارع الكنيسة الجديدة

٢ قرصات	٥ مليمات
١٠ أقراص	٢½ قرشا
٢٧ قرصا	٥ قروش

أسبرو لا يضر القلب ولا يحدث اضطرابات للجهاز الهضمي

2017-11-15 Egypt 6 of 8

الصورة المقنعة

للكاتب الانجليزي جيمس ماجوق
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

لشد ما كان يسيطر عليّ العجب وأنا أشهد عرما كا عنيفاً ما تنطوى دواعيه ، بين ميندو رئيس الشرطة وبين عصابة اللصوص ، فهو ما يهدأ إلاّ أن يكشف ما يحيكون فى الخفاء ، ثم هم لا يستطيعون أن يظهروا عليه ، وهو عدوهم الذى يلقى الرعب فى قلوبهم ، وتزلزلهم زلزالاً شديداً بما فيه من خفة ومهارة تفوقان ما كان يبديه زعيمهم دافيان . وفى الحق لقد كان ميندو مبعث الخوف والفزع فى قلوب اللصوص جميعاً لأنه كان يحمل لهم بين حنايا ضلوعه ضغينة ثائرة لا تستقر إلا أن يدفع بهم إلى غياهة السجن

وتراءى لى أن ميندو — وهذا شأنه — رجل قد نزعت من قلبه الرحمة والشفقة ، حين رأيته — مرات ومرات — يؤدى واجبه فى صرامة وشدة ؛ غير أن القصة التى أقص الآن تبرهن على خطأ ما زعمت ...

* * *

فى حجرة ضيقة مضيئة فى الطبق الأعلى من منزل فى ميدان (ميلين) جلسا يتسامران فى رقة كأنهما صديقان حميان برغم تفاوت ما بينهما فى السن والطبقة : أما الأولى فهى مسز ليون التى تسكن هذه الغرفة ، استقرت هنا بعد أن تناوحتها أعاصير الحياة ثم قذفت بها إلى هذا المأوى الحقير تُسقى بكأس مريرة من الفاقة والعوز والوحدة ، بعد أن كانت ترشف من رحيق الحياة رضاباً سائغاً ؛ وأما الثانى فهو والتر هُوتن طالب طب أولع بفن التصوير والرسم ، أرسلته جمعية المواساة إلى هذه العجوز المريضة ليرعاها ، وهو نبيل النشأة والمربى فيه الرجولة والكرم والشرف والفتى جميعاً ، وأحس فى المرأة التى إلى جانبه عاطفة شريفة فياضة تتأجج تحاول جهدها أن تكتمها عن الناس ، غير أن الشاب لمس بعضها فى رنّات صوتها وعذب حديثها وعطفها وحنانها ، فاطمأن إليها واطمأنت اليه

وجلس الطالب الشاب — ذات مرة — إلى صديقته العجوز يحدثها يقول وعلى فمه ابتسامة : « إننى أعتذر إليك — يا سيدتى — فلقد كان يتراءى لى أنك غير من عرفت ، فما كان لى أن أفحم نفسى فى حديث هو بعض قلبك ، غير أن ما أحسست به من حنانك وعطفك بث فى نفسى أنه كان لك ابن شئلت به زماناً عن كل شىء » وتدفقت الكلمات من بين شفتى الشاب فى غير روية ولا أناة ، غير أنها تساقطت على قلب المرأة كأنها شواظ من نار ، فراحت تحدّق فى الفتى علها تستكشف ما وراء ، ثم وضعت يدها على مكان القلب من صدرها كأنها تمسك به أن يفر وهو ينتفض انتفاضاً سريعاً ، وأرسلت زفرة حرّى تتلهب أذعلت الفتى ... ثم ساد السكون ... لقد أثارت كلمات الفتى أحزان قلبها وآلام ماضيها فبدت على وجهها غضوناً غضوناً ، وفى عجيرها عبرات تترقرق ؛ ثم انطوت على نفسها كأنما تنشر

2017-11-14 06:06:03

أمام عينيها صفحات من تاريخها فيها الألم والسرور في وقت معاً ... واستطاعت — بعد لأي — أن ترتد إلى الفتى تحدثه وفي صوتها الأسى والقوعة :

« آه ، يا بني ، اطو هذا الحديث ، حقاً لقد كان لي ابن ... ابن جميل طاهر كأنه بعض ملائكة السماء ثم ... ثم ذهبت فيه » ثم غلبتها العبرة ... فقال الفتى في رقة : « لعله قد مات ! » قالت : « نعم ، ودفنته في قلبي .. لقد فقدته منذ زمان .. لقد خبروني أنه أسبح لصاً فيه الضراوة والشراهة فاصدقتهم .. أصبح لصاً يستلبني ويستلب غيري من متاعه ومن ماله ثم هو يهبط إلى السجن بين الحين والحين ... تلك خواطر تضطرب في خيالي فتذهب بصوابي وخير لي أن أعتقد أنه مات ... مات في طهره وجماله كما يبدو في هذه الصورة » ثم مدت يدها المضطربة إلى ستر تزيحه فبدت من ورائه صورة هي بعض آيات الفن الجميل ، فقال الطالب : « يا عجباً ! إن هذه الصورة تبعث في النفس السلوة ! أتأذنين فأنظر إليها حيناً ، فأنت تعلمين أني أغرمت بهذا الفن منذ زمان ؟ » فقالت في هدوء : « نعم ، فأنا لا أستطيع أن أرد طلبتك جزاء ما حبوتني من عطف »

وكشف والتر هوتن النقاب عن الصورة ثم ارتد إلى وراء وقد تعلق بصره بها يردده هنا وهناك في جوانب الصورة ... إنها صورة صبي يتألق حياة وجمالاً وتشع سمات السعادة والرضا من وجنتيه وقد انسدل شعره السبط الذهبي على كتفيه وهو في مرح الطفولة ونشاطها يتوارى خلف شجرة من أشجار الكرز وفي يمناه غصن أثقلته ثمارها الحمراء وفي أسفل الصورة سطر :

« في نضوج الكرز ! جيمس ليون في السابعة من عمره »

وسيطر على الحجرة صمت عجيب ، وقد راع الشاب ما رأى من جمال الصورة وفتنتها ، والمرأة تضطرب في ماضيها ... ثم بدد الطالب هذا الصمت بقوله : « ما أجمل ! إنها فوق الوصف ! أتطلعين ، ياسيدتي ، أن ثمن هذه الصورة قد يبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر ؟ » وابتسمت العجوز لما سمعت ثم قالت : « هذا حديث سمعته مراراً حين كنت أعيش في النبطة والسعادة ، إلى جانبي وحيدي جيمس، أما الآن فلا سبيل إلى ذلك لأنني لا أستطيع عنها صبراً ؛ فهي رفيقتي بعد وحدتي ، وهي وحي الهوى والحب لأنها آخر ما رسم زوجي الفنان ، فهي عندي ترجيح مال الدنيا » وتهدم أمل الطالب حجراً حجراً ثم ارتد يحدق في الصورة ويقول : « ما أريد أن أشتريها إلا لأن تأذني ، ولكنني أريد أن أرسم أخرى مثلها » قالت « وهذا أيضاً لا أرضاه فما أطيق أن تتناهبها الأبصار » قال الشاب : « إن عيناً لن تراها ، وسأحرسها بعناية هي فوق عنايتك . ولا ضير ، فأنا أدفع ثمن إذنك غالياً » وكانت الكلمات تضطرب على شفتي الشاب لأنه كان يستشف الرفض من نظرات العجوز . قالت : « أنا لا أستطيع النأي عن هذه الصورة لحظة من عمري » قال : « ولكن المال ... ! » قالت : « إنك تحاول عبثاً » وانطوى الفتى على نفسه في صمت بعض الأنامل من الغيظ وقد شاعت حمرة الخجل في وجهه من أثر الخيبة ، ثم قال : « لا بأس ، فأنا أقل عنها هنا ! » قالت : « ولا هذا أيضاً ، وإنه ليحزنني أن أحول بينك وبينها أبد الدهر » ثم

أسدلت على الصورة ستارها وهي تقول : « والآن أطلب إليك أن تمحو ذكرى هذه الصورة من خيالك ، وأن أرى فى صمتك عنها البرهان على أنك رجل ... »

ووجد والتر هوتن فى المرأة إصراراً وعناداً فانطلق من لدنها وهو يحدث نفسه قائلاً : « لا ضير فسأنال بتيتى .. سأنال بتيتى .. وإن أعجزتنى الأيام فسأجد من يسرقها ! »

وابتدأ هو — فى اليوم التالى — يتحدث حديث الصورة فراعه أن يجد فى مسز ليون الفتور والجفاف والصمت ، فهى لا ترد جواباً بسوى ابتسامة فيها السخرية ، أو نظرة فيها الازدراء ، أو كلمة فيها الاستهزاء ، وحز فى نفسه أن يرى فى مرببته ما رأى ، فراح يقلب الأمر بين يدي عقله فيداله أن يكف عن زيارتها . وفى اليوم الثالث حدثها حديثه فى رقة وظرف ، فقبلت وهى تقول : إنها شفيت وأصبحت فى غنى عن الطبيب . وفى الحق لقد وجدت هى الفرصة لتكيح فيه رغبة تأججت حيناً ، وبدا هو نبيلاً كريماً فأطاع ، فما تلاقيا ...

* * *

وتصرمت أيام ... وإذا والتر هوتن فى نديّ يلعب (البلياردو) مع صديق له ، وعلى حين فجأة راح صديقه يحدثه : « أفتراك تعرف أن هذا المسجل (بوب) هو من شياطين اللصوص نزع عن السرقة واطمأن إلى الأمانة ، غير أنه يستطيع أن يستلب مال أى رجل هنا فى سبيل دريهمات معدودات أو زجاجة من الجعة ليريك بعض مهارته ودقته ، ثم هو لا يهدأ إلا أن يرد المال إلى صاحبه ؟ » فابتسم هوتن للفكرة التى اضطربت فى خياله ، ثم تشعب الحديث فنوناً ... وقبل أن يبرح الطالب المكان انطلق إلى (بوب) يسر إليه ببعض أمله فى خشية وحذر ، ثم قال : « و .. وإنه ليغريني أن يبنك وبين رجال ممن كانوا رفاقك صلات متينة تستطيع أن ترشدنى إلى واحد منهم فيه الكفاية والدقة » ودهش المسجل لحديث الشاب وهو يدوغنياً شريفاً أميناً : « ماذا ؟ أتريد ..؟ » قال الشاب فى تؤدة : « لا ، ما أريد ذلك إنى أنشد شيئاً ليس هو بالسرقة وإن بدا كذلك .. إنها صديقتى ، وهى تملك صورة فيها الروعة والجمال ، ولقد ضنت بها علىّ حين لا أريد منها إلا أن تعيرنى إياها فأرسم أخرى مثلها ، وأنا رجل فنان ، والصورة قد بلغت فى الإتقان والدقة ذروة الفن ؛ فإن أنا استمنت بك فما أطلب إليك سوى أن أستعيرها بالقوة أياماً ثم أردها ... » قال بوب : « نعم ، الآن استطعت أن أفهم ما تريد ؛ وإن أنت قضيت وعدك فستقامى وبال أمرك » قال الشاب : « لا تخف فما كان لى أن أغتصب شيئاً هو لغيري يحله من قلبه فى المحل الأول » قال الرجل : « إذن أستطيع ... إن كودنج چيم هو الرجل » قال الشاب : « ومن عسى أن يكون ؟ » قال بوب : « هو أحد أعضاء عصابة رافيان ... وهو شاب فيه الذكاء والنشاط ، وفيه الجرأة والفتوة ، وإنه لقدير » واندفع الشاب ينشر الأمر كله على عينى الرجل فقال : « لا ضير ، فسأصل بينك وبين چيم ، ولكن حذار أن يكون فى الأمر ما يزعج العجوز أو يودى بحياتها ! » قال الشاب : « لا ، لا ؛ إن شيئاً من ذلك لن يكون ؛ غير أن الصورة هى التى جذبتنى إليها فهى قد سمت فوق كل فن هنا ... هنا فى اسكتلنده »

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

وكان الحديث بين الرجلين همساً فى مكان خلا من الناس سوى رجل زرى الهيئة ، رث الثياب أشعث أغبر ، وقد استلقى على نضد بازاء الدفأة ينط غطيطاً ويتوسد حزمة من الصحف اليومية . وحين انطلق الطالب وصديقه إلى الخارج ، رفع الرجل النائم رأسه فى حذر ورقبة وقد شاع فى وجهه السرور ، وفى جسمه النشاط ، وفى عينيه سمات المكر ؛ ووجد سيمن بنباوك نفسه وحيداً فقفز من على النضد فى خفة ورشاقة يقول فى نفسه : « ها هى ذى مؤامرة أخرى تفيد ميندو ! إن كورنج جيم رجل ظريف إلا أنه قد هوى . يا أسفا ! أهكذا تكون النهاية ؟ إن غاية كل من يسلك سبيله أن يتردى ... » ثم انطلق يشتد إلى دار ميندو وبلغ الطالب وصديقه دار كورنج جيم ...

أفيكون هذا الشاب لصاً وهو يتزى أدباً ولطفاً ورقة وطلاقة ؟ لشد ما أذهل هوتن أن يرى فى الفتى الظرف ودماثة الخلق وذلاقة اللسان فهو لا يتلفظ فى حديثه ولا ينحط بكلماته إلى العامية الممقوتة وهى لغة أشماله ! إن على وجهه سمات الإجرام ، ولكنها لم تسترع نظر الطالب فهو قد رأى رجلاً مهذباً مصقولاً دونه بعض ذوى المناسب الراقية ... وخيّل إلى الطالب أنه رأى الرجل من قبل ، ولكن أين ... ؟ متى ... ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم

وألقى اللص السمع إلى الطالب وهو يحدثه حديث الصورة ، ويطلب إليه أن يستعيرها له بالقوة ويختلف فى مكانها قصاصة من ورق تنبئ عن الخبر كله ... ثم قال : « ولن تضل الطريق فأنا أهديك إلى هناك ، وهى فى الطبق العلوى ... » قال جيم :

« لقد قلت إنها عجوز شمطاء ، فماذا عساى أن أصنع إن هى حاولت أن تدفع عن ذخيرتها ؟ » قال الطالب : « إذن فلا تمسها بسوء ولا تبعث فى قلبها الرعب فخير لى ألا أنال صورة من أن يصيبها أذى ... » قال اللص : « لا ضير ، فما أجرى إذن ؟ » قال : « خمسة جنيهات ، أفيكفيك هذا المبلغ ؟ » قال : « نعم ، وستنال بنيتك بعد ثلاث ساعات »

وتصدّع الجمع ، فانطلق الطالب إلى داره ، ويوب إلى عمله . أما اللص فطار بهيء أدواته ومصباحه ثم اندفع صوب دار العجوز فى ميدان ميلين وقد انتصف الليل . وفى هذه الآونة كان ميندو وبنباوك يقتشان عنى ... ثم انطلقنا جميعاً نشتد علّنا نستطيع أن نقبض على واحد من عصابة رافيان

بلغ جيم الدار وقد ماتت الحياة فى كل حى ، فخلع نعليه ثم أخذ يرتقى الدرج فى صمت حتى وقف بازاء الباب ، ثم دفعه دفعة فاذا هو على مصراعيه فى غير عناء ولا جهد ، فوقف عند عتبته يتسمع فما سمع سوى صوت غطيط العجوز ، ولمع الأمل فى ناظريه حين ردد بصره الحديد فى أرجاء الحجرة فرأى على ضوء نار الدفأة الصورة المقنعة معلقة فراح يحدث نفسه : « لا بأس ، سأختطفها ثم أرتد إلى الخلاء ، وستلم هى كل شىء عند إبلاج الصبح ! » ثم سار الهوينى فى حذر وخفة كأنه شبح

لشدّ ما أفزعه أن يسمع غطيط العجوز ينقلب فجأة إلى أنات اليقظ وهو على قيد شبر من الصورة ! لقد اضطرب قلبه وانتفض جسمه ووقف فى مكانه لا يستطيع حراكا ؛ غير أنها ما لبثت أن اندفعت فى غطيطها ، فأمسك هو بالصورة ينزعها عن مكانها

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

ووقعت الواقعة ... لقد أبصرت بالشبح من خلال الضوء المتثيل المنبعث من نار المدفأة، أبصرت به وهو يريد أن يستلب الصورة ... وفي غمضة عين أرسلت صيحة دوّت في أرجاء الحجرة ثم ألقت بنفسها على الضيف الثقيل تتشبث به ، فهمس هو في أذنها : « دعيني أيتها اللعينة ... دعيني وإلاّ صببت عليك صوت عذابي ! » قالت : « لا ، لا أستطيع » ثم صاحت : « العون ! هيا ! اللص ! القاتل ! آه ! » ثم ماتت الصيحة في أضعاف أنة ضعيفة واهية حين دفعتها يد اللص القاسية فانحطت على أرض الحجرة كأنها قطعة من حجر . وانفلتت الصورة من يده فأضاء مصباحه وهو يقول لنفسه وقد آله ما كان : « لا ضير ، فهي ستنال الصورة بعد أيام . ولكن ... ولكن لماذا قسوت عليها ؟ الآن أستطيع أن أنطلق ... » وساد السكون مرة أخرى فراح يبحث عن الصورة ... ووقع بصره عليها ...

وانتفض اللص انتفاضة المحموم تعركه الحمى عركا شديداً ... انتفض حين رأى في الصورة طفلا فيه الجمال والطهر والمرح في وقت معاً . لشد ما آلمته الصدمة فأذهلته عن نفسه فانطلق إلى العجوز الملقاة على الأرض لا تئن ولا تحس وهو يتحدث وفي رنات صوته معنى الأسى والحزن « أماه ؛ آه ، يا أماه ! يا روح نفسي ! لقد قتلتها ! قتلت أمي ، يارباه ! » ثم أمسك بيدها الباردة وراح يحاول عبثاً أن يردها إلى رشدها ... واستطاعت العجوز — بعد لأي — أن تحدّق في الرجل الذي إلى جانبها ، فانبسطت أسارير اللص فصاح : « أماه ! أماه ! إنه أنا جيم ابنك ! » وانفرجت شفتا المرأة في عناء عن مثل الهمس : « لا ، لست أنت ، لقد مات ! » ثم انشمرت في ذهول شديد ...

وعلى حين فجأة اندفع الباب بشدة وصوبت أنا المصباح نحو اللص وارتمى عليه ميندو وبنبارك في وقت معاً ليحولا بينه وبين أن يفر . غير أن الرجل لم يرتد إلى وراءه ، ثم ينقض علينا كأنه النسر الكاسر يدافع عن نفسه شأنه في كل مرة ؛ بل ظل في مكانه هامداً لا يتحرك وهو يقول في حزن وانكسار : « لقد قتلتها ! قتلت أمي ! خذوني إلى المشنقة واشنقوني تحت سمع العالم وبصره » وصاح بنبارك في طرب : « آه ها ! » ثم أخذ يتهادى في بهجة وسرور وهو يعبث بقطعتين من النقود ذهبيتين في يده ويقول : « لقد هددتني يا مستر جيم بالقتل ولكنه يخيل إليّ أن السكين قد قطعت في الناحية الأخرى . والآن وقد ضيقت عليك الخناق فلا تجد مهرباً فخذ هاتين القطعتين مكافأة ذهبية لك »

ولكن اللص في ذهوله لم يبع من ثمالة خصمه حرفاً ، فهو يردد كلماته ما يمسك عنها

وأمر في ميندو فوضعت في يدي اللص غُلاً ثم سقناه إلى دار الشرطة على حين استدعينا طبيباً يعالج العجوز

وفي صباح اليوم التالي بدت مسز ليون معصوبة الرأس من أثر جرح في جبهتها أصابها حين انطرحت على الأرض وهي تحاول أن تنقذ الصورة من بين يدي اللص ، وهي تتوكأ على امرأتين . وحين استقر بها المقام طلبت إلينا أن نرى السجين وهي تقول : إن خطأ قد وقع بالأمس تريد هي أن تكشف عنه ...

وتصرمت ساعة من زمان وهى فى حجرة اللص فاذا كان ؟ إن واحداً لا يستطيع أن يعلم ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ وخرجت من لدن اللص لتجلس على كرسى بإزاء المدفأة وعلى وجهها سمات الهدوء والطمأنينة وفى عينيها آثار عبرات مهراقة...

وأقبل ميندو عند الظهر فعادته تسر إليه بحديث طويل ويده بين يديها ودموعها تتدفق فى غير هوادة ولا رفق ، وهو يسألها حيناً ويسمع حديثها حيناً آخر وفى النهاية قالت له : « لا تنس أنى أمه وهو وحيدى ، فاعف عنه واصفح كما تنتظر أنت الغفران من الله » فتطلق وجه الرجل من عبوس وحيّاها فى احترام ، ثم انطلق ...

ثم ... ثم نودى جيم للمحاكمة وأقبلت مسز ليون خلفت اليمين وسئلت أول من سئل

قال النائب : « أتعرفين هذا الجانى ؟ »

قالت : « نعم ، وهو ابنى » فأرسلت هذه الكلمات دوياً من الهياج والهمس فى أرجاء المحكمة

ثم سألها النائب : « أفتهمينه بالتسلل إلى دارك والتعدى عليك ؟ »

قالت : « لا ، إن جيم لا يستطيع أن يجد فى قلبه القسوة فيرفع يده ليضربنى وأنا أمه »

قال : « كأنك تريدين أن تقولى إنه ليس هو الذى اعتدى عليك ، فكيف إذن أصيبت جبهتك ؟ »

قالت : « لست أدرى ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننا لم نتلاق منذ سنوات وسنوات فلما رأيته إلى جانبى ألقيت بنفسى بين ذراعيه وذهلت فما أفقت إلا والطبيب يضمد جرحى »

وسمع السجين كلمات أمه فما استطاع أن يكتم فى نفسه أمة محزون يندم على ما فرط منه وفى وجهه أثر الخزي والعار

قال النائب : « أليس حقاً أنك كنت فى وقت ذات مال فرفه هذا السجين بدداً وخلفك بين براثن الوحدة والفقر ؟ »

قالت : « إن مالى هو ماله ، غير أن رفاق السوء دفعوا به إلى الهاوية فتردى . وإنى أطلب إليك — وقد علمت كل أمره — ألا تسألنى عن شىء ... » ثم أجهشت بالبكاء

فقال النائب نحوى وهو يقول : « إن المحلوز تصر على ما تقول فادع ميندو »

وجاء ميندو فسأله النائب : « أتعرف هذا الرجل ؟ »

قال : « نعم ، إنه كورنج جيم »

قال : « أفتعتقد أنه اقتحم باب مسز ليون بالأمس ليسطو عليها ؟ »

قال ميندو : « لقد خيل إلىّ ذلك غير أننى لمست خطيئتى حين علمت أنه كان يزورها »

وألح النائب على ميندو يريد منه اعترافاً ولكن من ذا يستطيع أن يرغم هذا الرجل الصعب — وهو سائد اللصوص — أن ينزل عن رأيه ؟ لقد كان عبثاً كل ما بذل النائب من جهد ، فألفيت النهمة وانطلق كورنج جيم ليسدل على نفسه الشريرة ستاراً كثيفاً من النسيان . ثم ليكون ... ليكون هو جيمس ليون ، وليستقر فى قرية على مسافة نائية منا رئيساً لعمال مصنع النسيج هناك ، يعيش إلى جانب أمه الحنون فى هدوء وطمأنينة وقد سكن إلى الجد والنشاط والأمانة والشرف . لا يحيد عن الطريق المستقيم

فاضل محمود حبيب

الجنية العاشقة

للكاتب الفرنسي أميل زولا

بقلم السيد صلاح الدين المنجد

في سنة ١٨٦٤ كتب أميل زولا أقاصيص رائعة صدرت تحت عنوان « أقاصيص إلى نينون Contes à Ninon » صور الكاتب فيها صفحة من صفائح صباه ، إذ كان في البروفانس إلى جانب فتاته نينون ينشد السادة ويذوق الفتنة ، وذكر كيف كان يمضي عليها ، كل يوم ، فوق الهضاب ، وبالقرب من البيوع وبجانب الموقد ، أقاصيص طريفة : هي ذكرى لشباب فاتل وحب خالد

وزولا من أكبر الكتاب الذين عرفتهم فرنسا في القرن الماضي ، كان مفناً ، إذا قرأت كتاباته وجدتها تفيض بالحياة وتعتنق بالشعر ؛ وقد كان يميل إلى الابداعيين ، ويحنو عطوفاً ؛ وألف قصصاً كثيرة ، يظهر لك من خلالها أسلوبه المشرق ، الذي جمع بين سحر الفن وجمال التصوير

أرهني أذنك يا نينون ! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج ، والهواء يرسل أنينه ، ويردّد شكواه .. إنها أمسية من الأماسي الباردة ، التي يقضقض البائس فيها من القر ، أمام قصر الغنى الغارق في الفوائد تحت توهج الذهب ! ... إخلعي حذاءك هناك ... وضعي حليتك الثمينة هنا .. وتعالي إلى أحضاني ، فسأروي لك قصة من أروع قصص الجان

نينون ! هناك في ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه .. ما ترين إلا أبراجاً ساعدة نحو السماء ، وأسواراً مهيبة شماء ، وجسوراً متحركة جُهزت بالسلاسل ، وثُلثت برجال أولي بأس شديد ، لبوسهم الحديد ، يسهرون الليل والنهار على الشرفات ، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار ، الكونت أنكيران

لو كنت رأيت ذلك الكونت يا نينون ، وهو يتنزه في مماشي القصر الضيقة ، وسمعت قرقعة سوطه ينذر بالوعيد ، إذن لأصابك الجزع ، واضطربت كما تضطرب أوديت ابنة أخيه ؛ تلك الحسناء الرعيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة ، كما تتفتح زهرة الأقاح ، إذا تنفس الصبح ، تحت قبلات الشمس الضاحك بين أشواك الجبال

كانت وهي طفلة ، إذا أبصرت عمها الشيخ ، وقد ضمت إلى سَحْرِها الدجوّرت[1] عيناها وهبت مذعورة تذرف الدمع . أما الآن فهي في ربيع الحياة . إن تدبيها يفتأ في يثنان الشكوى ويرسلان الآهات . ومازال القدر يستولي على نفسها كلما طلع أمامها هذا الحاجب القديم ...

وكانت تأتي إلى برج بعيد ، تتلهى فيه بوشي أعلام ورايات . فإذا أعياها هذا العمل الوئيس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه ، أو قلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في الروح الحادرة ... وكم من المرات ، يا نينون ، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم ... وكم من المرات كان قلبها يخفق لهذا المشهد الساحر ،

(١) يقال زرت عينه إذا توقدت من خوف أو غيره

ويحن إلى تلك الروح المتواثبة نحو الأفق البعيد ، ثم تساءل الكواكب عن ذاك الشيء الذي يتلاعب بروحها ويثير شجونها ...

ودت بعد تلك الليالي التي ساهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوماً عنق هذا الفارس الهرم فوَصَلَتْها [1] ولكن ، وا أسفاه ! ما كان لها حول ولا قوة ... إن كلامه جاف يرعب ، وإن نظراته جامدة تفزع ... فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق !

إنك تأسفين ، نينون ، لتلك الحسناء ! إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذي التي يصدف الناس عن رائحتها ويلهون عن جمالها ... !

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين إلى فريقين تريدان العرب من الحسن ، فسمعت صوتاً عذباً يتمالى عند باب القصر الكبير ، فانحنت من الكوة ، وإذا شاب حلو القسمات وسيم المنظر ، تأنس العين لمرآه ، يطلب المبيت ، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ، ما فهمت لها معنى ولكن خفق لها قلبها . ورأرأ الدمع في عينيها ، ثم فاض ... فساقطت درا من ترجس ، وبللت غصناً من المارجولين [2] كان بين يديها ..

وساد سكون عميق ، وبقيت الأبواب مغلقة . ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلا :

إذهب وشأنك أيها الغريب ، فليس هنا سوى فرسان محاربين ..

وهمّ الطارق أن يذهب . ولكن أوديت ، التي علق بصرها به ، فما يطرف أو يتحول ، تركت النعمن رطباً بالدمع ، يفلت منها ، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه ، فاذا وجه صبوح يطل عليه ... والتقط النعمن ليشبهه لثماً وتقبيلا . ثم ابتعد عن القصر ، وهو ينظر كل لحظة إلى الفتاة .

فلما غيبه الطريق المنحدر قامت أوديت تدعو الله وتصلي له ، ثم شكرت للسماء وأحست السعادة فرقصت فرحا ، وهي لا تدري لكل ذلك سبباً ..!

وإذ كان النسق جلست إلى راية تصلحها ، وهي تفكر في ذاك الفتى ، ثم داعب النعاس أجفانها فأذبلها وارتمت على فراشها ... واستسلمت لنوم غرق مضطرب ، ورأت حلماً ... إنه حلم ساحر يا نينون! خيل إليها أنها ترى غصن المارجولين الذي أفلت من يديها ، وإذا بجنيّة ، ما رأت العين أجل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق النعمن المرتعشة . ولها أجنحة من الشب ، وتاج من الأزهار ، تتدثر برداء أزرق ، لونه رمز الأمل ، وتناديها بصوت حلو النبرات :

أوديت ! أنا الجنية العاشقة ! أنا التي أرسلت إليك لرئيس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون ... أنا التي ، وقد رأيتك تتدفقين الدمع ، جئت لأجففه .. أضرب في الأرض ، وأؤلف بين قلوب العاشقين .. ! ... أزور الكوخ ، كما أزور القصر ، وأجمع عصا الراعي إلى صولجان الملك . أنا التي أذرع الورد تحت أقدام المحبين .. ! ثم أربط بينهم بعنين مختلج القلوب لهم فرحاً . أعيش بين الأعشاب ، وفي جني الموقد المتأكلة ، وتحت رفارف أسرة الأزواج ... ! وحيث أضع قدمي فهناك يقوم حديث المنزل ، ويكون همس القبل ! لا تبكي أوديت ، فقد أتيت لأجفف دموعك ...

وعادت الجنيّة إلى الزهرة التي خرجت منها ، واختفت هناك ...

(١) وقصتها أي كسرتها يقال وقص الرجل إذا دقت عنقه

(٢) Margolaine : السسق ، وهو نبات طيب الرائحة له أزهار كأزهار الياسمين ..

أنت تمرحين يا نينون أن جنيتنا في الوجود .. انظري إليها ترقص في الموقد ، وتألي لن لا يفكر بها واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها والعصافير تصدح بالأغاني والنسيم الصافي يداعب شعرها المنسدل الأشقر ، وقد حمل عبير القبلة الأولى التي سرقها من الأزهار على عجل .. فنهضت والنفس مفعمة بالفرح ، وقضت يومها تغني تارة وتنفض[1] الحقول أخرى ، وترسل ابتسامة رقيقة لكل عصفور يحلّق ، والأماني تثيرها فتقفز هنا وترقص هناك ، ثم تضرب كفيها الصغيرتين بعضهما إلى بعض بقوة وسرور ...

فلما كان الطفل تركت مخدعها ، وهبطت إلى ردهة القصر الكبرى فوجدت فارساً يصغي إلى حديث عمها الكونت ، فصمدت إلى مِعزفها واقتعدت مكاناً إلى جانب الموقد تسمع إلى صُرصُر يغني .

ونظرت إلى الشاب ، فإذا غصن المارجولين بين يديه ، يا لله ! إنه لوئيس ... وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، وكادت ترسل صرخة تدوّي في فضاء الردهة ، ولكنها انحنت على الموقد تؤرث النار فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان ، ويتأيل اللهب ، ويفور الموقد ، وتهيج النار . وفجأة يتبجس من الموقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة ، وقد افتر منها الثغر ، ومال منها الجيد ... فتجمع ثوبها الأزرق بين يديها ، وتنطلق في الغرفة دون أن يراها أحد إلا أوديت ...

أما الكونت فكان مسترسلا في حديثه يقص نبأ معركة هائلة وقعت مع الكفار ، ويقول :

— ... فتحابوا يا أولادي ... ودعوا أشباح الشيخوخة الزاهدة . أبقوا لها الأقاصيص بجانب النار المشتعلة ، ولا تجموا الآن إلى زفير النار سوى وسوسة القبل ... ! سيكون لكم يا أولادي من ذكرى هذه الساعات التي ذقتم بها اللذة ما يخفف أحزانكم وهمومكم فيما بعد ... والمرء عند ما يحب وهو في السادسة عشرة من عمره ، فالكلام لا يجديه أكثر نفعاً . إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل .

تحابوا يا أولادي واتركوا الشيخوخة تتكلم .. !

وأظلّت الجنيّة العاشقين بأجنحتها ، فغدا الكونت لا يرى لوئيس الحبيب ، وهو يطبع قبلته الأولى على جبين أوديت الحبيبة المرتعشة !

نينون ! يجب أن أتكلم لك عن أجنحة جنيّتي.. لقد كانت شفافة كالبلور ، دقيقة كأجنحة الذباب ، ولكنها أيضاً كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف فلا يتجاوزها عندئذ رنين القبلات ووجيب الأفئدة ... ليكون العاشقان بنجوة من العيون ! وهكذا ... وبينما الشيخ غارق في حديثه عن معركة المؤمنين والكفار ، كانت معركة القبل قائمة بين لوئيس وأوديت ... !

لقد حضن الجسم الريان ، وقبل الخد الأسيل ودغدغ النهد الناعم ، وتمتع بالطرف الوسنان ... والشيخ في حديثه غارق مسترسل ... !

ليت شعري ما تلك الأجنحة ... ؟ إن الفتيات ليجدنهن أحياناً — كما قيل — فيأمنّ شر الأبوين ويتمتعن بالحبيب ، أحقاً ما يقال يا نينون ... !

واختفت الجنية العاشقة ، وقد أنهى الكونت قصته ، وذهب لوئيس شاكراً لمضيفه الكونت... ونامت الفتاة تحفها السعادة ، والأماني حولها حوّم ترفرف ، والعين قريرة والبال هادئ

(١) تعني الرجل المكان : إذا نظر إليه ليرى كل ما فيه

أما هذه الليلة ، فقد رأت جبالاً كلها أزاهير ، زينت بألوف من الكواكب المصابيح نور كل منها أشد وضاءة من نور الشمس

وأصبح الند ، فلما متّع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثمّ بفارس حياها فردت له التحية ، ولما ابتعد عنها نظرت إليه ، فإذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع . وها هي ذي أوديت تلتقي بالحبيب مرة أخرى ... لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزي فارس . أواه يا نينون ! لشد ما يكون السرور عظيماً عند ما تلتقي الحبيبة فتاها في وضح النهار ...!

وأجلسها على مقعد مخصوص من العشب تحت ظلال السنديان ، واللسان صامت والعقل شارد ، وراحت العيون تتناجى ... والأفئدة تصغى ...

لن أقول لك يا فتاتي ما تحدثت به شجرات السنديان عند ما رأت الحبيبين . إن في سماع الحبيبة وهي بين يدي الحبيب لذة ما فوقها لذة ، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب ، وتبنى أعشاشها فوق تلك الشجرات ...

وسمعت الفتاة ، على حين بغتة ، وقع أقدام الكونت ، وهو يمشي في الممر الطويل ... فأسابتها الرجفة وانتظرت شراً مستطيراً ... ولكن... إن النبوغ لا يزال يرسل خريره الحلو الشجي ، وها هي ذي جنيتنا الحسناء تأتي فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخيّ ، ويختفيان عن الأبصار ، ويعاودان حديث القبلات ... ويقترب الكونت ، فيأخذه العجب ! إنه ليسمع أصواتاً ولا يرى أناساً !

وانبرت الجنية الحسناء تقول :

— أنا حامية الحب ، أضرب على بصر من لا يحب غشاوة فلا يسمع أو يرى ! لا تخافا بعد اليوم أمراً ، أيها العاشقان الجميلان ... بل أحييا دعاي الحب في وضح النهار ، والجو صاف ، وفي الليل والنسيم يرف ، ويجاوب الينابيع والأوراق تحف . أرسلني الرب لأصرف عنكم أذى الرجال ، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة ، وحباني بأجنحة من لهب وقال : « اذهبي ... ولتنحاب القلوب ! » فيا بشركم ... إني هنا ، أحرس الحب وأرعاه ...

ثم ذهبت تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين ، وقد عانق فم بفم واشتبكت كف بكف ... !

وبقيا حتى الليل ، فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى في نظراتهما فأسرت الجنية إليهما بقول يخيل أنه راقهما ، فانبسطت أسارير وجههما إذ سمعاه . ثم رجواها شيئاً . فأخرجت قضيباً معها ، ولمست به جبيني العاشقين

وفجأة ... أوه ! يا نينون . مالك دهشت هكذا انتظري سأتم قصتي ...

وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين ! نعم من المارجولين النضر الزاهي. نبتا جنباً إلى جنب ، ولامست أوراق الأول أوراق الثاني ، واشتبكا . هنا يا فتاتي ... تتفتح أزهار لن يعد الذبول إليها يده ، بل تبقى ... ويبقى أريجها متضوعاً إلى الأبد !

* * *

والآن يا نينون ، عند ما نعود عند المروج الخضراء . سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها في أية من الزهرات تختبئ الجنية الحسناء . إن لقصتي يا صديقتي مغزى ، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذي يلطم الزجاج وأبث فيك هذا المساء شيئاً من الحب ... نحوي ... أنا !

صفوح الربيع المعبر

النافذة

للكاتب الفرنسي بيير لويس

بقلم السيد عز الدين عزوزي

سأحدثك في هذا المساء يا صديقي العزيز عن سبب امتناعي عن الزواج ، لأنني طالما رأيتك مهتماً لمعرفة ذلك ؛ وإن سؤالك هذا لأحب إليّ من صمت الآخرين الذي أجد فيه من الخفايا ما يجرح كبريائي

ليس أحد في الواقع يجهل ما عليه أسرتي من الغنى وما خلفه والدي من الأموال الكثيرة ؛ وإذا لم تتزوج فتاة غنية مثلي فإن سبب ذلك يكون في الغالب : إما طمعها ، وإما قبحها ، وإما عاداتها وأخلاقها . وأنا أترك للناس محض الاختيار في أن يحكموا عليّ بجميع تلك الفروض ، أو أن يختاروا واحداً من بينها

ثق بأنني ما رفضت يد الراغبين في الاقتران بي لشيء في أنفسهم ؛ لا ، لا ... إنني ابتعدت عن الزوج الشرعي وعن الخليل ؛ وكان ابتعادي عنهما عزوجاً بخوف لا أدري له تعليلاً ، ولكن هذا الخوف أخذ يقل في هذه الأيام ؛ ذلك من فعل الأربعين ، وطمأنينة الكبر ، وشعوري بأن الناس قد انصرفوا عني انصرافاً كلياً ، ولم يعد يعنيهم من أمري شيء

إن قصتي ليست قصة حب بائس . لا ... أنا لم أحب في حياتي أحداً قط

لقد أصبحت ، يا عزيزي ، عجوزاً في مساء يوم كان عمري فيه سبع عشرة سنة ! أصغ إلى ما سأقوله لك فإن قصتي سوف لا تكون طويلة فتمل استماعها !

قد تستغرب وتتساءل لماذا سلبني هذا الحادث البسيط كل أفراح المستقبل ، وإنك لتقرأ كثيراً من أمثاله في الصفحة الثالثة من كل جريدة !

لقد كنت متأثرة به في كل حياتي ، لأنني شهدته أمام عيني وعلى بعد خطوة مني ؛ وأنا متأكدة من أنك سوف لا تشعر بشيء مما شعرت به لأنك ستسمعه كما تسمع حكاية من الحكايات أو قصة من القصص !

وضعت الآنسة «ن» جبهتها على يديها وابتدأت تقص عليّ الحادث ونظرها مثبت في الأرض لا ترفعه إلى وجهي لحظة قالت :

«منذ خمس وعشرين سنة كنت أقيم مع والدتي في نزل قديم مقابل كنيسة « سانت سُلبيس » في ضواحي باريس ؛ وكان هذا النزل خاصاً بالطبقة الراقية ، على بساطة في مظهره وتواضع ، وكانت جميع نوافذه تطل على شارع ساكن كسكون ممر في غابة من الغابات .

كان الفصل فصل صيف ، وكانت غرفتي التي أنام فيها مع والدتي شديدة الحرارة ذات مساء ، حتى أنني لم أستطع أن أنام ، فخطر لي أن أفتح النافذة ، ولكنني خشيت أن أوقظ أمي . وبعد أن

2017-11-14 06:06:03

أرقت ساعة بكاملها نهضت من سريرى ولبست جوربى ، ونزلت السلم العريض مرتدية قميص النوم حتى وصلت إلى ردهة الطابق السفلى . ولا بد من أن تعرف جيداً موقع الردهة كي تتبين الحادث كما وقع بحذافيره .

كان للنزل سابقاً حديقة تمتد على موازاة الشارع ، ثم بيعت هذه الحديقة لبعض البنائين ، وأخذت البلدية منها قسما جعلت به الشارع فسيحاً أكثر من ذى قبل .

كانت نافذة من نوافذ الردهة تنفتح عن زاوية مظلمة خفية لا تصل أشعة (الغاز) إليها ، ولا يستطيع المرء أن يتبين ما فيها ، ولو خرجت عينه من محجرها لشدة التحديق !

لما وصلت إلى الردهة التفت فرأيت أنهم لم يغلقوا هذه النافذة الرهيبة ، وإنما أغلقوا مصراعيها الخارجين ، فصعدت إليها ، وجلست فوق عارضتها إذ كانت قوية قد وهنت من شدة الحرارة ، وأخذت أستنشق برودة الليل بنهم ، فأحسست أنها سرت فى جميع جسدى ، من أم رأسى إلى إخمص قدمى !

لقد كانت هذه اللحظة هى الأخيرة من لحظات حياتي التى شعرت فيها بسرور صاف لا يكدره أسى ولا تشوبه شائبة ذعر أو قلق !

لم أكد أترك مكانى حتى رأيت فى الجهة المقابلة للمكان الذى أنا فيه شخصين : رأيت رجلاً يقود فتاة إلى هذه الزاوية المظلمة الخفية !

كان الرجل من أولئك الذين يعملون ثلاثة أسابيع ويتعطلون بعدها ستة أشهر ، لأن جالهم يحولهم احتقار العمل الشريف ، وكانت الفتاة جميلة رباقة فاتنة فى الخامسة عشرة من عمرها ؛ تحبها أمى وتعطف عليها وتغمرها باحسانها ، لكثرة ما تشترك معى فى أعمالى

كانت لابسة ثوباً أسود قصيراً جداً ، وقميصاً رمادياً ، ورافعة ضفيرتها الصغيرة فوق رأسها الأشقر ، وكان الرجل ممسكا بكتفيها يقول لها فى لهجة المستعجل :

— وهنا هل تريدين ؟

فتجيب جواباً مذعوراً :

— دعنى ... دعنى

يا عزيزى ، لو قدّر لك أن تسمع جوابها له لقلت إنها تعيده للمرة الثانية

قال لها الرجل : ألم تقولى نعم ؟ لماذا تنقضين قولك ؟ إننا هنا فى مكان مناسب ، لماذا لا تودين ؟

— لا ... ليس هنا ... ليس هنا

— إذن أين تريدين ؟ أنت لا تحبيننى ، كما أنى أصبحت الآن لا أحبك !

أشارت الفتاة إليه إشارة السلب ؛ فاشتد غضبه وصاح بها : « تى تين ، انظرى إلىّ . تكلمى فى وجهى . هل تصدقينى فى حبك ؟ نعم أو لا ؟ إذا كان لا ، فأنت تعلمين أن لدىّ كثيراً غيرك من الفتيات الجميلات

لم ينته الرجل من كلامه حتى انفجرت المسكينة تبكى بكاء مرًّا طويلا ، وهى متكئة على عارضة الشباك حيث كنت مستندة بكتفى ثم قالت له :

— نعم ، إنى أحبك حباً جماً ، ولكن ليس لهذا الأمر ، ليس لهذا الأمر ... آه لا أدرى كيف أتكلم ، ولكن ليس هذا هو الحب . أحبك لأنك لطيف ... لأنك تكلمنى على غير ما يكلمنى الآخرون ؛ لأننى أشعر بسرور وفرح عميق ساعة أراك عائداً إلى النزل فى المساء . إننى أحب أن أعانقك . أعانقك قدر ما تريد فى كل مساء ، فى أى وقت تحب . ولكن منذ أخذت تكلمنى فى هذه الأمور ... لا ... لا أريد . على الأخص مع رجل مثلك يخيّل إلىّ أن العاقبة تحمل فى طياتها شرًّا مروّعاً ! !

رفع الرجل أكتافه ولفت رأسه لفتة استخفاف ورحمة وقال : لك الله من ساذجة مقدسة !

وحدثها بكثير من الأقوال التي أخجل أن أذكرها لك ؛ ثم سحب من وسطه سكين جزار تشبه سيفاً وغرزها في النافذة في محاذاة صدري وقال لها بصوت يخنقه الاضطراب :

— والآن ... إذا وثبت من هذه النافذة فإني أخزك !

كان مشهد الفتاة وقد توترت أعصابها وتقلصت أطرافها قاسياً ، وكان الشارع خالياً من كل إنسان والحقل ساكناً سكوناً عميقاً ، والساعة تدق الثانية بعد نصف الليل !

كل شيء نائم في هذا الحي إلا هذين الشخصين ، وإلا أنا المتفرجة المفزعة ؛ كانت الفتاة أمامي حتى لو أني مددت إليها بعض أصابعي لاستطعت أن أمسها وهي تقاوم الرجل بشدة وعنف

ثم انطوت على نفسها وحنت رأسها الصغير الأشقر ، واصطكت ركبتاها ، وأخذت تلهث كالحيوان النتب ؛ وكانت كلما أمسك الرجل بذراعيها ضمت فخذيها ، وكلما مس ثوبها نازعته بيديها . ولقد ظلت على حالها هذه زمناً طويلاً أكثر مما تتصور ، ولكنها غلبت أخيراً على أمرها كما غلب (كارون) الراعي وأرداه صريعاً

عند ذلك أخذت السكينة تضرب الفضاء بيدها وتتعلق ببعض النبات المزروع فوق النافذة

لم تكن الفتاة لتعلم أنها تمسك بيدها سكيناً وأنها تدفع بها للمرة الأخيرة ذلك الرجل الذي جرحها في جسدها وفي روحها جرحاً لا يلتئم . إنها فعلت ذلك دون قصد منها ولا وعي

يا أسفا ! أي شيء هو جسد الانسان ! إنه طين رقيق مائع يسيل من ضربة واحدة !! لقد دخلت السكينة في عنقه وخرجت تلمع من طرفه الآخر !

ثم انبثقت نافورة دم وخرجت من شقوق النافذة وانصبت على مثرى لترويه

غص الرجل بالسكين فحظت عيناه وفتح فماً عريضاً ، ولم يتنفس الصعداء ، ولكنه لما وقع على وجهه ، أرسلت — هي القاتلة — في سكون الشارع ثلاث صرخات كلها ذعر وهول . ثم تراجعت إلى الخلف وأخذت تشب في مكانها كما يشب عصفور أسود

وأيم الله لم أسمع في حياتي كلها صرخات تفعل بالنفس مثل صرخات الموت هذه !

أما الذي حدث بعد ذلك فإنه لا يهمك كثيراً أليس كذلك ؟

إن أبي استيقظت وهي مذعورة ، وانطلقت تبحث عني خائفة وجلة ؛ ولما التفتت إلى سريري ووجدته خالياً نادتني باسمي في جميع نواحي المنزل فوجدتني واقفة فوق ذلك الشباك ، وثوبي ملوث بدم القتيل الأحمر فخالته دمي للوهلة الأولى ... ولكنني لم أقض عليك هذا الحادث لأبين لك هول موقفي من أبي

إن بقية الحادث وتفاصيله الدقيقة لا تزال تروى أعماق ذكراي ...

كانت سني سبع عشرة سنة ، وفي نصف ساعة تعلمت فيها من هذه الفتاة كل شيء . أنا الطفلة التي كنت أجهل كثيراً من أمثال هذه الحقائق

تعلمت فيها كل أسرار الحياة والحب والموت وكل ما تسميه القصص بـ « الأمنية » . تعلمت منها من هو الرجل العاشق ، وأخيراً من هو الرجل الذي يموت !

يا عزيزي إذا كان كثير من الناس يجهلون لماذا فضلت أن أعيش دون شريك ، فلتكن أنت وحدك الذي يعرف سبب ذلك !!

هنري بيرو

الأعمى الذي ارتد بصيرا

للقصصي الإنجليزي أدوز بو

بقلم نظمي خليل

قيل إنه ولد أعمى فانفرد في عالم من الظلمة الطاخية منذ اللحظة التي حاول أن يرى فيها وجه أمه بين ذينك الظلمتين وقلبه الحائر بأشواق الطفولة الجائعة وأسرارها الخفية النامضة، ولكن هذه اللمحة التي قضت عليه أن يطوي حياته كلها من المهد إلى اللحد في ظلام دامس لم يكن قد ورثها عن والديه، فقد كانت أمه ابنة أحد سراة المزارعين على جانب كبير من الجمال، زرقاء العينين، دقيقة القسمات، قوية التركيب؛ وكان أبوه شريف الأصل كريم الأرومة لم يعرف في حياته مثل هذه اللمحة التي حار الناس في تعليلها والكشف عن حقيقة أمرها

ولكن الحقيقة المؤلمة هي أن صاحبنا كان إحدى هذه الضحايا فلم يشعر يوماً بأشعة الشمس اللينة إلا أنها نوع من أنواع الدفء الطبيعية، ولم يفهم من الأزهار المتفتحة إلا أنها روائح وعطور!

أما أحبابه فقد طالما استمتع بأصواتهم الرقيقة وجلساتهم المؤنسة وحنانهم الناعم وهم يدللون خده الناعم بدموعهم السخينة الدافقة

لقد كان طالعه المخفي مليئاً بالصعاب التي طالما آذت جسمه وأدمت أطرافه. يزعجر بالأصوات المرعبة والصيحات المدوية حتى أن أسنانه كانت تصطك وتتلاصق كلما لمست أطراف أصابعه الحساسة إحدى تلك النتوءات البارزة، فالنور والظلام، والليل والنهار، واللون والشكل، والأبعاد والنسب، والجمال والقبح، كل هذه لم تكن في نظره إلا كلمات لا يدرك معناها إذا كان المال عنوان الثروة، أمكننا أن نعتبر صاحبنا من الأغنياء؛ إلا أن العطف الذي كان يلقاه من أمه وأخته اللتين عاش معهما كان يفوق كل غنى وثروة، فقد مات أبوه محطوم القلب، مكلوم الفؤاد، لأن آماله قد خابت في ابنه الوحيد؛ فنشأ الابن في أحضان أمه حتى أصبح شاباً منضور الشباب ورجلاً مكتمل الرجولة مع رقة في الروح وليونة في الطبع ودماثة في الخلق

لقد كانت الموسيقى بهجته في الحياة وسلوته في المحنة، تفضي له جوانب نفسه المظلمة وتحمل البلسم إلى روحه الحزينة في أشد حالات اليأس والألم، فيغني على أنغام البيان والقيثار في صوت شجي مايبدد وحشته ويخفف كربه؛ وكان صاحبنا ميالاً إلى الأدب كلفاً بالخيال منذ طفولته، راغباً في صحبة الإخوان ومجالسة الندمان، يأخذ نصيبه في الشراب والنكتة اللاذعة والضحك الصاخب في غير تمنع منه أو دفع من غيره

فكانت حياته مزيجاً من المأساة الدامية والملهاة المازحة، إذ كان سعيداً راضياً، الهم إلا عند ما كانت تعاوده تلك الأفكار القديمة فتذكره بمصابه الأليم فينكفئ إلى بيته مهدوم الأركان متداعي البناء.

قضى الشطر الأكبر من حياته في بيت قديم على الشاطئ يمتع نفسه بموسيقى البحر المتجددة

ونسيمه العليل ؛ يفزع من المدن ويخشى ضجيجها ، فلم يكن ليتقاد إلى كل هذه المخاوف والتيرات . وكان كلما مضى إلى منزل أحس بشعور غريب إذ يشعر أن قدمه ستزل به وأنه سيهوى على وجهه ، أما الشوارع الصاخبة ذات الرائحة الكريهة النفنة ، فقد كانت تؤلمه وتؤذيه وتحمل إلى أذنيه الخائفتين المرتجفتين أشد أنواع العذاب

وكثيراً ما كان يضيق بحياته الراتبة فينفر إلى الجبال الشم الرواسي ، فيجد في صمتها الرهيب الدائم تسكيناً لأحاسيسه الثائرة المهتاجة ، ولكن هذا الصمت الدائم لا يلبث أن يثقل عليه فينزع من تلك الوحدة الموحشة ويفر من تلك العزلة المقفرة إذ يشعر أن الأفكار التي تدور في خلده إن هي إلا أجراس تقرع في رأسه !! فيأمر خادمته أن تعود به إلى البيت القديم حيث يجد في زئير البحر ورشاش الماء الذي يصافح وجهه ويلامس يديه الهدوء والاطمئنان

هكذا قضى صاحبنا أربعة وعشرين عاماً بعد أن فقد كل أمل له في رؤية عجائب الأرض والبحر والسماء

لقد جاءوا إليه بأساطين الطب ولكنهم جميعاً وقفوا حائرين أمام هذا المرض العجيب ، وبالرغم من ذلك فقد كان صاحبنا يحتمل كل أنواع المنت والاجهاد التي كان يعانيها في الفحص والعلاج من أجل أمه وأخته ، وكان يشعر في قرارة نفسه — وهو الرجل القوي دائماً — أن التشبث بالآمال الكاذبة هو اليأس بعينه ، وأن الاعتراف بالحقيقة والتسليم للواقع راحة للضمير وسلوة

وفي سن الخامسة والعشرين جاءه نبأ ذلك الطبيب الايطالي العظيم الذي شفى كثيرين ممن وفدوا عليه ، فأرسل فردينانت صديقه ويمان ، وهو طبيب للعيون أيضاً ، ليتحقق مدى صدق هذه الاشاعة . فلما عاد ذلك الصديق تحدث إلى فردينانت عن ذلك الطبيب الشهير « بيرايرا » قائلاً : « إن بيرايرا ليس رجلاً ظريفاً ، إلا أنه ليس دجالاً كما يشيع عنه خصومه وحساده . لقد شاهدت بنفسي ... » ثم مضى يصف تلك المعجزات التي رآها بعينيه ، وهو يرغب في معالجة فردينانت إلا أنه يشترط لهذا شرطاً واحداً

فتنهدت الأم وقالت : وهو ...

— إنه لا يضمن شفاء فردينانت شفاء تاما إن كان قد ولد هكذا . فامتقع وجه الأم ثم قالت في صوت متهدج مضطرب : « لقد ولد أعمى »

فقال الرجل : ومع أنك « بيرايرا » لم يرَ فردينانت إلا أنه لا يجزم بشفائه . لقد أخبرني بما أعتقد أنه صواب ، وهو أن شفاء الانسان الذي يولد أعمى أندر ما في الوجود حتى ليعد من السير . إن فردينانت يستطيع أن يبصر إن كان قد وقع في تلك المحنة بعد ولادته ببضع ساعات

— إنا لا نعرف بطبيعة الحال ، فأنا نفسي لم أرتب في تلك الحقيقة المحزنة إلا بعد يومين كاملين من ولادته ، وكنت أتطلع إليه طيلة تلك المدة

— إن بيرايرا يضع نفسه تحت تصرفك ، ومع أنه رجل عظيم إلا أني أخشى أن يكون نفسياً بعض الشيء . لقد قاسى كثيراً من البؤس والفاقة فيما مضى ، ويخيل إلى الآن أنه يحمل في جعبته نصف الفكاهة التي تدور على ألسنة المجانين في هذا العالم ، إلا أن هذه الفكاهة لم تزده إلا مهارة وألماً

— إني أرحب به على أى حال إذا استطاع أن يشفى فرديناند . عليك الآن أن تسرع فى طلبه ، فمهما يكن من أمر فإن النتيجة لن تكون أسوأ مما هى عليه الآن

ثم أرسل فى طلب الطبيب ، وأسرعت الأم والأخت إلى تهيئة الشاب لهذا اللقاء المنتظر . فلما دنت الأم من الابن صاح فى صوت حزين مؤثر : « ماذا ؟ أطبيب آخر ؟ كنت أعتقد أنه لم يبق هناك أحد . ولكنه لم يأت الطبيب حتى أسلم إليه نفسه أسبوعين كاملين فى عزم قوى وصبر عجيب

وفى نهاية الأسبوعين خرج الطبيب قائلاً : هناك أمل قوى فى الشفاء . ثم اندفع فى تفاصيل علمية صحيحة لم أع منها إلا ألفاظاً قليلة ثم عن نفسه بنفسه ورسوخه فى ذلك العلم ، إلا أنه لم يكن فى كل ذلك بالمتفاخر أو الواثق من النجاح إذ ختم كلامه بقوله : « وأظنك تعذرنى فى هذا . ولكنى أعتقد أنك رجل تستطيع أن تحتمل حقيقة أمرك

— أجل

— تستطيع أن تحتمل شر الصدمات

— أجل ، لقد تغلبت على كثير منها

— إذن أرى لزاماً على أن أفضى إليك بما أعتقد وهو أنى أستطيع أن أعيد إليك بصرك إلا أن هذا قد لا يكون دائماً ، ثم تردد ... فقاطعه فرديناند : نعم ؟

فاستأنف الطبيب كلامه قائلاً : « إنى لا أخفى عنك الحقيقة ، وهى أن هذا الشفاء ربما يكون إلى أجل معين . فهل تستطيع أن تحتمل هذا ؟

— إن هذا ثقيل لاشك ، ولكن يمكننى احتماله

— أتدرى أثر إعادة بصرك لمدة معينة فى نفسك ؟ إنك الآن لاتفهم أثر فقدك لبصرك تماماً ، فانك لا تفكر قط فى فائدة عينيك لك ، ولكنك لو أبصرت فجأة مدة ساعات ، بل قد تكون دقائق معدودات ، ثم عدت إلى حالتك الأولى حيث لا يكون لك أمل فى الشفاء ثانية ... ثم توقف فجأة عن الكلام :

فأجابه فرديناند : إنى مستعد لأية تجربة تجربها علىّ ما دام هناك أمل فى النجاح

— إنه أمل قوى إذا قمت بما أفرضه عليك

— لك علىّ هذا

لقد كان العلاج كثير الألم بطىء السير ، فقد قضى فرديناند ستة أسابيع مستلقياً على ظهره فى غرفة مظلمة داجية ، معصوب العينين وعلى جبينه بعض الأربطة المبللة المشدودة ، وقد حيل بينه وبين الرياضة ، يتبع نظاماً خاصاً من الأكل . ولكنه احتمل هذا الوضع الشاذ المؤلم لا يتحرك ولا يذوق النوم إلا لماماً ، فى شجاعة نادرة وصبر عجيب . فلم يشكُ ولم يحاول أن يفلت من العلاج يوماً ، بل لم يتجلَّ نبله ومتانة خلقه إلا فى تلك الأيام العصيبة القاسية

وفى نهاية الأسبوع السادس من العلاج لم ينزل الطبيب كعادته إلى مائدة الإفطار فذهبت الخادم تبحث منه ولكنها ما لبثت أن عادت حاملة أسوأ الأنباء ، فقد سافر الطبيب على غرة بعد أن حزم أمتعته بيديه وحملها بنفسه إلى المحطة

فاندفع الدم إلى وجهى الأم والأخت وأخذت

كل واحدة تنظر إلى الأخرى نظرة الدهشة والحيرة والذهول ، فقد نال منهما هذا الحادث حتى كاد أن يحطم قلبيهما ، فهل كانت هذه هي نهاية أحلامهما المرجوة ؟

وأخيراً قالت الخادم : « لقد وجدت هذا الخطاب ، ثم ألقته بجانب طبق الأم »

ولكن الدنيا كلها كانت تضطرب وتهتز أمام عيني المسكينة الناشيتين ، إلا أنها استجمعت قواها وتناولت الخطاب وفضته فانبجس الدمع من عينيها وجرى على خديها فلم تستطع أن تفسر تلك السطور التي جرى بها القلم في عجلة واضطراب ، فناولته ابنتها في صمت ، ولكن الفتاة لم تكن أقل من أمها ألماً وحسرة إلا أنها تظاهرت بالجلد وأخذت تقرأ :

« الدكتور بيرارا له أن يخجل من نفسه . فان منادبته كانت لضرورة ملحة ، وإن واجبه نحو نفسه في تلك الفرصة النادرة التي واتته كان يحتم عليه هذا السفر الفجائي . فقد عرض عليه أحد أصحاب الملايين من الأمريكيين ماتين وخمسين ألف ريال إذا ذهب إليه لمعالجة ابنه الذي فقد بصره » ثم مضى يشرح نوع ذلك المرض الذي أودى ببصر ذلك الابن فعزاه إلى مرض بسيط يصيب العصب البصري من السهل علاجه كما يتضح هذا من قول طبيب آخر في البرازيل . وعلى ذلك وجد نفسه ملوماً إذا هو ترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده !

وفضلا عن هذا فانه لم يبق له عمل مهم مع فردينانده ، فبمجرد أن تزول « اللزقة » المشدودة على الجبين يمكن فك بقية الأربطة التي على العينين ، وعندئذ يستطيع فردينانده أن يبصر إذا كان مقدراً له ذلك . ثم ختم خطابه باعادة تبصيره الأول وهو أن الشفاء قد يكون إلا إلى مدة معينة . !

فتنفست الأم والأخت الصعداء إذ لم ينعدم الأمل بعد في شفاء فردينانده . ثم ذهبتا إلى حجرة الشاب ليفضيا اليه بجملة الأمر ، فاستمع اليهما في هدوء وثبات ، وأخيراً قال : « لم يعد هناك شك في أن الرجل دجال . ولكني لن أحكم عليه بهذا حتى أعرف النتيجة ولم يبق بيني وبينها إلا بضعة أيام .

يا لها من أيام ثقيلة جافة أيام المحنة !

وأخيراً أخذت « اللزقة » تجف وتتساقط شيئاً فشيئاً ، ولكن « بيرارا » كان قد حذرهم من فك الأربطة قبل أن تجف اللزقة كلها وتسقط عن الجبين .

وهكذا قضت تلك القلوب الثلاثة الحائرة الأيام الخمسة تمدها بالساعات والكل ينتظر ختام تلك القصة الدامية التي تعيد للمريض بصره وتدنيه من أعز ميراث للانسانية ، أو تطيح به بعيداً عن عالم النور والجمال للأبد .

فلما جاءت تلك الساعة ألفته حائراً متردداً ، فقد استولى عليه نوع من الذعر من ذلك المستقبل المجهول الذي يواجهه ، جعله يمسد يده عن الأربطة فكيف يستطيع أن يتحمل صدمة الإبصار لأول مرة فيرى عالم الناس العجيب ، أو كيف يقابل أسوأ الصدمات فيقف على تلك الحقيقة القاتلة : فقده بصره للأبد !

أما الأم والأخت فقد وقفتا بجانبه تشاهدان هذا التردد بقلوب واجفة وصبر مساوب .

ثم ابتسم الابن بيأس وقال : « لا ، إني لا أجرؤ على هذا . إني خائف ياأمي . آه ، ربما كان الأفضل لي ألا أنوه تحت هذه التجربة الخاطرة فقد كنت سعيداً

من قبل ، سعيداً على أى حال ، ولكن لو قدر لى ألا أبصر بعد هذا فلن أعرف السعادة إلى الأبد

فمدت الأم يدها ووضعتها على رأسه فى خفة وحنان فأخذها الابن بين يديه وقبلها ، ثم صاح وهو يمسك بها : إنك أنت يا أبى وكذلك أنت يا أختى اللتان قوضتا حياتى . كيف أستطيع أن أحدثكما عما فى نفسى الآن . ثم أخذ يتمتم فى صوت خافض كأنه يتحدث إلى نفسه : « هل تدركان بعض ما أنا فيه الآن ؟ إنكما لا تقدران ، وأنى لكما بهذا ؟ لقد سمعتكما تتحدثان عن الطيور والأزهار ، عن الألوان والصور ، عن الأطفال الصغار والشمس والقمر والسماء والبحر . آه ! ولكنى أستطيع أن أشم رائحة البحر وأسمع هدير أمواجه . إنى لا أخاف البحر قط ، ولكن فكرى أيتها الأم ... » ثم عرته قشعريرة راجفة وهو جالس فى مقعده ، ثم عاد يقول فى نغمته السابقة : « ولكن إن كان لا بد من احتمال هذه التجربة كما يجب على الرجل فانى أفضل أن أكون وحدى »

فصاحت الأم والأخت فى نفس واحد : « وحدك ! »

— ولم لا ؟ إن أفضل صلاة للإنسان هى عند ما يخلو إلى نفسه إذ يكون أقرب إلى ربه . لذلك أرى أن أكون وحيداً . لقد صليت منذ لحظة وهذا الإلهام هو الجواب . لقد قضى علىّ أن أكون وحيداً عند إجراء هذه التجربة ... أجل . أجل . الأفضل أن أفعل هذا لمواجهة تلك التجربة التى تمتحن عزمى وصبرى

وعبثاً حاولتا أن تثنياه عن عزمه فلم تجد دموعهما ولا توسلاتهما لديه شيئاً ، إذ أجابهما فى صوت المصر العنيد : « سأبقى وحيداً حتى أهيئ نفسى لمواجهة وجهيكما الحبيبين لأول مرة . يجب ألا تدخلا على حتى أبلغكما ذلك ، بل لا تحاولا أن تفتحا الباب . سأغلقه دونكما وعليكما أن تنتظرا إلى أن أدعوكما

فحاولت أمه أن تستعطفه ، ولكنه قاطعها قائلاً : « آمجبين أن أسرع فى عينى أمامك ؟ قد أصرخ أو أتوجع . لا أريد أن يطلع أحد حتى أحب الناس إلىّ على ضعفى . لا . سأكون وحيداً . إن ساعة اللقاء هذه لهى امتحان قاس لنا كلنا فلنته فيها على أى وجه ، فقد نحتاج إلى كل قوانا حالا ... »

ولما كان من عادتهما الخضوع لإرادته فقد تركاه كما أمرهما ثم تمناه إلى الباب ، وأوصده دونهما ؛ ثم قال لها وهو يدير المفتاح : « تذكرا ألا تدخلا على حتى أدعوكما »

ولما شعر بوحدته أخذ يفك الأربطة ولكن أصابعه كانت تضطرب ويداه تهتزان حتى أنه لم يستطع أن يحل اللفائف الأولى إلا بعد لأى

ولكن هذا الرجل الذى بقى صابراً على بلواه ربع قرن قد نفد صبره فى تلك اللحظة ، فأخذ يضرب رأسه فى أنات الفرقة فى كفاح عنيف ، ويصرخ من شدة الألم كأنه طفل رضيع مع أنه احتمل مثل هذه التجارب من قبل فى غير تشكك ولا ألم . وأخيراً تمكن من انتزاع جميع الأربطة فصاح صيحة محتبسة مكبوتة !

إنه يبصر ! !

لقد شعر بأهداب عينيه الجامدة المخيفة تتحرك

إلى أعلى وإلى أسفل ؛ ولم يبق فى تلك الحقيقة الرائعة أدنى شك . لقد أبصر !

لم ير أول وهلة إلا سحابة شاحبة تتحرك فيها الأشباح الناعمة الساكنة ، ولكنه مالبث أن وضع بصره فرأى الأشياء على حقيقتها فى سورها وأحجامها ، ثم أخذ يجول فى الغرفة يهوم بيديه فى الفضاء ويحاول أن يبطش بكل المقبات التى كان يظنها تهدده أينما سار ثم ارتمى فى أحد المقاعد بجانب النافذة مرتجف النفس متزايل الأركان

لقد حدث ما كان يخشاه ، فقد استولى عليه نوع من الذعر شديد ، فأحس أن هناك دافعاً يدفع به إلى الباب ولكن ما الباب من بين تلك الأعاجيب والألغاز التى كانت تحوطه وتتمره ؟ ثم انقض عليه بيديه وأخذ يصيح منادياً أمه وأخته ، وربما كان مستعداً لأن ينقاد إلى ذلك الدافع ويسىء إلى كرامته وكبريائه لولا أنه شعر أن كل أعضائه قد التصقت بذلك المقعد الذى كان جالساً فيه ؛ وعلى ذلك لم يكن ليستطيع أن يأتى شيئاً إلا أن يجلس ويحملق وينصت إلى تدفق الدم فى عروقه وخفقات قلبه العالية المضطربة

كان اليوم لا يزال داكناً فالبحر والسماء لا يزالان غارقين فى هذا اللون الداكن الكئيب ، فلم يستطع أن يرى من تلك النافذة إلا ذلك الجزء من الشاطئ المثلث الشكل الذى تغطيه الرمال الرمادية الداكنة ، ثم رأى سفينة تمخر البحر وتمر أمام ناظره فعجب لمرآها وحار فى فهمها، أهى عصفور يرفرف فوق الماء ؟ ثم رأى أسراباً من الطيور تحلق فى السماء الناشية فعرفها ولكنه لم يعرف ذلك الشىء الأبيض الطافى . لقد كانت لديه معرفة نظرية عن السفن ، ولكن تلك المعرفة لم تساعده على تمييزها فى عالم الحس . لقد كانت هذه الساعة الرهيبة تحمل فى ثناياها قصة عالم غريب لرجل حديث العهد به . ثم أخذت مخاوفه تتركه ، وأخذ هدوؤه يعاوده، ولكنه لم يشعر بالرغبة فى استدعاء أمه أو أخته . لقد كان مغموراً بجو من السعادة الحسية الدافئة فتر عقله ولم يعد قادراً على التفكير حتى أنه لم يستطع أن يربط هذه الأحاسيس بأحاسيسه السابقة ، بل لم يستطع أن يصفها فيما بعد

ثم لاحت أمامه صحيفة عصفت بها إحدى الرياح الموج فعجب لأمرها وظنها شبحاً لرجل قادم . ثم أخذ هدير الموج يدوى ثم يختفى فى رمال الشاطئ الرابضة فيصل إلى أذنيه قوياً واضحاً . ثم رأى زبد البحر تقاذفه المياه وتلقى به إلى الشاطئ فعرف بذلك البحر . ولكن هل البحر هو سر ذلك الصوت المدوى والزبد الطافى أو هو يشتمل على تلك البقاع الفسيحة التى تقع على أبعاد عظيمة من البصر ثم تصطبغ بتلك الألوان الأرجوانية الزاهية حتى تتيه فى ذلك الأفق الغارق فى الضباب القاتم الحزين ؟

ثم رأى أمامه شبح غلام يمرق فى تلك الرمال ويختفى ، فارتاب فى فهمه . ثم عاوده خوفه واضطرابه

لم يكن يدرى شيئاً عن المرآة . ولم يرغب فى استشارة غيره ليعرف منه ذلك لأن بيرارا قد أوصى أمه ألا تدعه ينظر إلى مرآة حتى يقف على أسرار عالم الحس الجديد ويتعلم تقدير المسافات وانكسار الضوء لأن بيرارا كان يعرف كثيرين ممن فقدوا عقولهم عند أول عهدهم بالإبصار

ثم مضت ساعة . فاشتد القلق على الأم حتى دفع بها إلى الباب وأخذت تدق فى خفة فسمع

2017-11-14 15:26:13

دقاتها وعرف معناها وأدرك أن هـذا هو الباب . فحدجه بنظره إذ كان هذا أول عهده به . ثم أعادت القرع فأجابها من الداخل « لم أنته بعـد . إنى مخير وأستطيع الابصار . ولـكنه سمع أمه تصيح غاضبة « ولـكنك لم تنته بعد ... » فلما أحس أنها بدأت عن الباب هب واقفاً فى حذر ، ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بكيانه ، فهوى على يديه وركبتيه وأخذ يحبو على البساط واستولى عليـه نوع من الخوف جديد

ولـكن الخوف لم يلبث أن تركه ، وسرعان ما عاد إليه رشـده وهدوءه فهاله أمره وخشى على نفسه منبـة ذلك التخاذل والاضطراب حتى خاف أن يؤدى به إلى فقد عقله بعد أن استعاد بصره . فنزل الهدوء على قلبـه كما تنزل قطرات الندى على الأزهار المتفتحة ، فارتجف عند شعوره التام بعظمة تلك المعجزة التي حدثت له ، فخفق قلبه ، وجف حلقه ، وأخذت أنفاسه تخرج من بين أسنانه كأنها صفير عال ، ورعشاه تتحشرجان فى صدره كأنه طائر مذبوح

ثم عادت أمه إلى القرع ، وعاد هو إلى جوابه الأول « لم أنته بعد » لقد سمعها تناديه باسمه فى شوق وحنان ، ولـكنه كان يعرف أن الوقت لم يحن بعد لمشاهدتها ، فلم يتجاسر أن يهدئ من هزة الفرح التى تثيرها فيه أمه المحبوبة لأول مرة . فعاد إلى التحديق فى البحر والسماء

قضى فى صحبة نفسه ساعتين حتى خف انفعال الخوف الذى شعر به عند ما أبصر لأول مرة ثم استلقى على الفراش بين الوسائد فى حالة من الهمود الذى يشل الارادة ثم عادت إليه أمه تناديه من جديد ولـكنه كان فى كل مرة يردها عنه فتنصاع لإرادته مرغمة حانقة . ثم اطمأن إلى نفسه وابتسم ابتسامة مشرقة عريضة ولـكن هذه الابتسامة لم تلبث أن انتزعت من وجهه انتزاعاً

ما سبب هذا ؟

لقد رفع يديه إلى عينيه ومسحهما فى خفة ورقة لأنهما كانتا لا تزالان تؤلمانه ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يحدق النظر فى تلك الأشياء التى أمامه ، ثم أقفل عينيه وفتحهما فلاح له أن البحر والسماء أقل زرقة ووضوحاً . ولم يمد يتبين حدود الأشـياء تماماً . هل يعاوده عماه من جديد ، ؟ إنه لم يعد يشك فى هذا فقد كان منذ برهة قادراً على تمييز أشكال الأشياء وأحجامها ، أما الآن فقد فقدت لونها وشكلها ولم تعد تبدو فى نظره إلا بقعاً غامضة على منبطح من الرمال ؛ ثم إنه كان يرى الأمواج الصاخبة ترتفع وتنخفض ثم يراها تثور وتزيد وتفور على الشاطئ ثم ترتد عنه إلى مكانها الأول — كان يرى كل هذا . أما الآن ...

ثم قبع فى مكانه فى هدوء وصمت يدير عينيه فى حيرة وقلق فى الغرفة . فأصبح يرى ورق الحائط والأبسطة وكذا الصور التى على الحائط والسقف وجميع أثاث الغرفة تختفى من عينيه ويلفها الظلام الداجى !

عندئذ تذكر ما كان الطبيب الايطالى قد أخبره به وهو أن عودة بصره قد تكون إلى مدة قصيرة ربما تكون بضع ساعات أو بضع دقائق . لقد نسى هذا فى غمرة الفرح التى غمرته أولاً ، أما الآن فان الحقيقة المرعبة المميتة تظلله كسحابة كثيفة قاتمة . فلم يعد يؤمل إلا فى الموت بعد أن شالت عنه أحلام المستقبل البهيج !

2017-11-14 20:03:03

يجب أن يعود ثانية إلى حياة الظلام ! يجب أن يرجع إلى وادى الظلال العميق ! لم يعد له بعد هذا القبس الضئيل إلا الظلام السرمدى !

ولم يبق له بعد الكشف عن عجائب هذا العالم إلا ليل أشد قتاماً يغمره حتى الموت ! إذ كان يشعر وهو جالس يتلوى ويتألم أن نور عينيه يخبو وشيكا وشيكا !

ثم تفجرت أعماق ذلك القلب الكبير حتى تحطمت فأخذ يصب اللعنات على ذلك القدر الملعون الذى يسخر منه إذ لم يكد يذيقه طعم الحياة الفاتنة حتى حرمه منها وقد نضجت وطاب أكلها !

فصاح وهو يتحسس طريقه إلى الباب فى ذلك الظلام الذى ألفه

ثم أدار المفتاح وفتح الباب على مصراعيه ومزق بصوته المتألم الفجوع ذلك السكون الذى كان يخيم على المنزل ثم سقط على الأرض مغشياً عليه ...

فلما عاد إليه رشده ظن أنه قد انتقل من هذا العالم إلى عالم القبر ، لأنه لاح له أنه يستطيع أن يبصر مرة ثانية ، ولكن ليس كالمرة الأولى ؛ وأحس أن نوعاً من الضوء اللامع الناعم يملأ المجو ، ورأى وجه أمه التى كانت حانية عليه كأنه شبح مخيف !

أتستطيع أن ترانى يا عزيزى ؟

— نعم . فأنا ميت الآن . أستطيع أن أبصر من جديد . فدنت منه وقبلته ثم تمتمت قائلة : « عزيزى فرديناند ، إنك حى ، إنك لا تزال فى عالمنا العزيز . إنك .. لا . لا . يجب ألا تناقشنا بل عليك أن تصدق ما نقوله لك . كان ينبغى لنا أن نعدك لهذا ولكن كيف نتنبأ به ؟ !

— لقد ظننت أنى أبصر . لقد كان هذا حلماً ثم عاودنى المعى ثانية ! فصاحت أمه : لا . لا . إنك لا تزال حافظاً لبصرك

ثم أردفت أخته قائلة : وسيبقى لك مادمت حياً !

ثم استطردت الأم : نعم . ستكون قادراً على الإبصار بعد الآن . إن ما عاودك ليس المعى ! إلهى كيف أقنعك ! إن الشمس كانت على وشك المغيب والضوء يخبو داعًا عند كل غروب . إنه لم يكن إلا ما نسميه نحن الغروب أو الليل ! ولكن كان لابد من مضى بضع ساعات قبل أن يتحقق الشاب من هذا بنفسه .

نظمى خليل

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ـ رقم ٧ ﴾

من أقاصيص الحب في عصر الرشيد

بهيرة

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاي

— إن حلاوة وإيقاعه ليلبثان عن ظرف بارع وسيماً نفر

— لعلها قينةٌ في زورق من زوارق المغنين[1] ترفُّ على لهوم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ فلطالما رى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذي سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر الفحمة على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك ؛ أما رفيقه الذي أجاب وأطاع فكان مساوياً له في السن ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء من وراء لفظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد في أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاهما بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ في أيام العروس[2] من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا بهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهي أشمة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر ، ونسمات من الروح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومُتَع من نسيم التمدن الإسلامي القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ، وراحة النفس والناس

اتجه الرجلان وتاسُهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الكاسية بأمشتات الرياحين والزهر جارية في وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن النزلي الشجي الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجي به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق :

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز عليّ أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد في الهواء ويضيع في هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك . وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك . وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة في الغناء وبراعة في

(١) كان يطلق هذا الاسم في بغداد على أهل الترف واللهو والدعوة (٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد زهرته وجماله أيام العروس

الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة

— ولمن تكونين ؟

— لسيدي علي بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس الروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية يا جعفر

— إنما شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الند

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجَ الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السراري والقيان زهاء ألفي جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات ، يرفلن فى الأنواف الوشاة بالذهب ، والعصائب المرسعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من المسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوَائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع ...

أحلها مسرور الخصي مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[1] وأفاض عليها من الوشي والزينة والحلي ماجعلها قطعة من الفن الجمالي الخيالي لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانقمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ! ولكن هذا القصر الذي لا أنى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الفائق والسرور المتصل والهو المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدُّمَى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الناشبة ولا هذا السهوم المليح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة الفارهة فى السرور الطافحة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حولها يزدهي وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب ، وقد تذرع هذا بالطب والحيلة والقول أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همًّا على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويصرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آسف ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالي المنتظر لفتى من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تتغلل فيه تتغلل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والأحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة . فباع كل ما يملك . ثم عاش على الأماني فترة

(١) من أغاليط الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث من سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترياها الثلث

من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الاخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه على ابن وهب

وداب يزورها يوماً بعد يوم وهي في قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السور وهي تنتظره في العريش الذي رآها فيه الخليفة يوم تتكشّره ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباها اللاهي ، وشاهداً على حبهما الخالص ؛ وكيف نظر إليها الدهر الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل المجمع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتغفل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم

كانت بهيرة وهي في قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك للأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذي يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هي تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر في الأول وقبر في الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة . فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد في هذا الزي فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها في الظلام أو في الغفلة ، فيقضي معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل يتضاحكان فيه غرامهما المسمور بالحديث المسول والقبل الندية

وفي ذات ليلة طفى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتواثبت فيهما نامئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد في نظر بهيرة الساجي :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلماني فالبسيه واخرجي تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون في انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنديت يا سليمان أني ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق !

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— ربك يا بهيرة أخفق هذا الصوت في نفسك ، وفكري قليلاً في بؤسي وبؤسك . ليس لي غيرك وليس لك غيري ؛ أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب في الحب عذب ، والموت في سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة

التي تلتقي فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— أطيعي الهوى يا بهيرة واعصي العقل . فان العشاق لا يعيشون بعقول الخلقين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالي وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الآثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجابه بصحته ، واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة المجرَّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالي إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة في حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصَّلها الذهول عن الورى . ثم رأت بعينها فيسكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمي الخليفة وهي تقول :

مولاي : إني أعلم أن الجريمة إنما مست الشرف ضاق بها العفو وقصُرت عنها الشفاعة ؛ ولكني أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب وعفوك لا يشاطره ذنب . فهب لي دم سليمان فقد جنى عليه حبي ، وسعى إلى عدمه وجودي . وهو يا مولاي يرى الساحة صادق النية سري الخلق

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فأسألينى ما شئت إلا العفو ، فاني لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تمدني يا مولاي ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضي قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها في السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته في نواحي البستان ، وفي جوانب المكان ، وفي مرايا الجدران ، وفي حلمها الذهبية ، وفي حليتها اللؤلؤية ، وفي وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها في محجريها فاقتلعت بهما عينيها

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه ما رأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعيني حبيبي يا مولاي

— وكيف ذلك يا حمقاء ؟

— ألست وعدتني يا مولاي ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل !

كان أثر هذا الحادث بالغاً في نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة في ظلال نعمته . وقنعت الفادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفي كنف الحبيب !

الزيات

2017-11-15 15:03:13

من التاريخ الإسلامي

ليلة الوداع

للأستاذ علي الطنطاوي

وفي نهار الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة ...

وخلف مكة وهي ثكلى ملتاعة، محطمة القلب، مخلة الأضلاع، قد غرقت في دماء أبنائها الذين ضربتهم يد الدهر ففرقت جمعهم، وشتت شملهم، فراحوا فريق مصرّعون على أرض الحرم... وفريق تحت رايات أميّة قد أرمضتهم هذه الحرب الطويلة التي حلوا عناءها، وقاسوا لأواءها سبعة أشهر لم تدع لهم أخضر ولا يابساً، فتسللوا من مكة لواذاً، ثم تسللوا هذه الجلاميد التي انتشرت عليها جيوش أمية الغازية، فاستسلموا إليها وأخذوا لأنفسهم أماناً أنّهم كانوا عوناً لها وجنداً فيها؛ وفريق أقاموا على الولاء لابن الزبير، يذكرون من مات من أهليهم فيغصّون بالماء حزناً وألماً. ويذكرون من فرّ من إخوانهم فيوارون وجوههم حياء وخجلاً، ثم إنهم ينتظرون الموت بين كل لحظة وأختها، ويعيشون خائفين في مقام ابراهيم (ومن دخله كان آمناً!)

وأتى الليل غلائله السود على هذه المدينة التي عضتها الحرب بنابها وأصابتها بأوصابها، فباتت تتنفس الصعداء من شدة يوم قاس عبوس تحالفت فيه الطبيعة الساتية والبشرية الطاغية، على حرب هذا البلد الحرام، فلم يكن ينجو من حجارة المنجنيق إلا إلى شر الصواعق، فكأن الطبيعة قد شمرت عن ساقها للقتال، فهي ترى المهاجين والمدافعين والآمنين من صواعقها ورجومها بشواظ من نار تصيب به الدور والمنازل فتدعها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس. والحجاج ما ينفك مجاداً مقارعاً يقذف بأحجار منجنيقه وجنوده بيت الله فيهدم جدران بيت الله، ويرمي بيوت الناس فيهلك من بقي فيها من أشياخ عجّز لا قبل لهم بالحرب وأهوالها، وأطفال رمداء لا يد لهم في جرائمها وأوزارها، فيختلط عويلهم وصراخهم بهزيم الرعود وزئير الطبيعة، ثم تضيع هذه الموسيقى الروّعة في جلبة الانهدام، ويخفى الغبار الثائر حول المنازل المهدودة هذا المشهد المرعب لحظة من زمان، ثم ينجلي فإذا التراب قد حوى كل شيء، وإذا المدينة العامرة المقدسة مقبرة من القبور!

وامتد رواق الليل فنامت الطبيعة وكفت عن هياجها وجنونها، وصفت السماء وأطلّ البدر من عليائها ونامت الحرب. وكانت ومنذ طفولتها لم تستكمل ما تراه من شراستها، ولم تتم أشياءها ولم يستطر شرها كما استطار اليوم فغدت لا تنام ولا تنيم، وكان في نفوس المتحاربين شرف ووفاء فاستراحوا وأراحوا، ونام هؤلاء الأبطال المدافعون نوم الأسد في آجامها كما نام هذا الجيش الجرّار الذي امتد زحفه حتى ساقب أبواب الحرم.. سكن الليل ونعم شوارع مكة المقفرة الخالية حيث كان جيش ابن الزبير يروح ويغدو بطبوله ورايته، فطوت كف الردى

رايته وطبوله . وهذه الأوعار الصم التي انتشر عليها جيش الحجاج بكبريائه وعنفوانه ... عمها كلها صمت عميق وهدوء شامل ، فلا تسمع في ثناياه إلا صيحة حارس يتنقل شبحه خلال السواد ، أو صرخة جريح معذّب ، ثم يعود السكون

نامت العيون ، واستسلم المتحاربون إلى سبات أعمى لا تبصر فيه مقلة حلم ، وأراق القمر عذوبته وهدوءه على هذه الجبال فبدت جميلة فتانة ، لفّها فراشه سيدُ الموقف ، وبطل الجيوش المظفرة وقائدها ، وانسلّ في خفية كيلا يشعر حرسه وأعوانه ، فجلس على باب الفسطاط يتأمل هذه السماء الصافية ، ويحدّق في النجوم المتوقدة المتلألئة ، فتفتح عليه باب الذكرى ، فيلج منه سالفات أيامه فيعيش فيها ويتنسم أريجها ... وحملته هذه النجوم إلى ذكرى بعيدة ، فأحس بأنها عزيزة عليه حبيبة إليه ، فطفق يتأمل صورة تلك الليلة (١) التي قضاها في الصحراء وحيداً فريداً قد هجر بلده وحياته ، ليقدم على بلد لا يعرفه وحياة لا عهد له بها ، ويستعيد خواطره التي كانت تتلجج في نفسه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أيامه في تلك الأعالي الباذخة ، حين كان معلماً لصبيان الطائف ، وأمانيه التي لم يكن يأنس إلا إليها والتي يحاول أبداً أن يستشف خيالها من وراء حجاب الغيب ... واستمر أ بقايا تلك اللذة التي أحس بها وهو خارج من دار (مستشار الدولة) روح بن زنباع وقد قلده شارة الشرطة ، فكانت عنده أكبر من شارة الخلافة ... أين ذلك الشرطي من قائد الخميس العرمرم الذي ترك جنات الشام الأنف وسهوله الفسيح ، وأبى أن يقطف ثمرة النصر وأزاهر المجد إلا من جلاميد مكة وصخورها ، فأمّ برحله رءوس الجبال ، ثم هبط نحو مكة ، يستذري براية الظفر ، حتى امتد برحله هذا الذي كان يحسبه مجيداً إلى أبواب الحرم ...

وألقى نظرة القائد الشاب (ابن السبع والعشرين) على الحرم فرأى الكعبة ، وقد أضاءها القمر بشعاعه الكابي ، فبدت مهدّمة مصدّعة الجدران رهيبة ، فراعه ذلك وأخافه ، وعراه ارتجاف شديد هزّ كيانه كله ، فماض ذكرياته وأعرض عن المجد والأماني ، ولم يبق في فكره إلا صورة بيت الله المهدّم تظل ماثلة له بعد أن أغمض عينيه عنها ، فيحس بأنها تثقل على قلبه حتى لتكاد تسحقه سحقاً ؛ ويكبر هذا الذي أقدم عليه وغلاّ نفسه خشية الله ، فيندم ويشتد به الندم ... ثم يذكر وعده الذي وعده للخليفة ، أن يقضي على ابن الزبير . ويعيد إلى الدولة سلامتها ووحدتها ، ويشعره جلال هذه الغاية وسموّها استصغار ما أتى ، ويذهب يلتمس لنفسه المعاذير

أليست وحدة المسلمين وسلامة دولتهم دعامة حياتهم ورأس دينهم الذي قام على توحيد الخالق ، ووحدة المؤمنين ؟ أليس ضمان هذه الوحدة من واجبات الخليفة ؟ وما ذنبه هو إذا أمره عبد الملك بضرب الكعبة لتحقيق الوحدة ، وما هو إلاّ جندي في طاعة عبد الملك ؟ بل ما ذنب عبد الملك وهو أمير المؤمنين المسئول عن مصالح المسلمين وسلامة دولتهم ؟ أيدع المملكة شطرين يعبث فيها المفسدون ويهلكها الخلف ؟ وأي جسم يعيش إذا انقسم جسمين ، وغدا قطعتين ؟ أوليس على عبد الملك أن ينقذ المسلمين من هذا الخلاف ولو دفع ثمنه حياة ابن الزبير وسلامة حصونه وقلاعه ؟ فما ذنب عبد الملك

(١) راجع قصة (هجرة مسلم) في العدد الممتاز من الرسالة

2017-11-12 12:08:13

إذا اتخذ ابن الزبير بيت الله حصناً له واحتمى به ، واستغل حرمته ؟ ... أمن حق البيت الحرام على عبد الملك أن يدعه آمناً في ظله ، يدّعي مُلكاً وينشر راية ويتخذ جيشاً ، فيلتقي في مشعر الحج ملكان مسلمان ، وراياتان وجيشان ، ويأبى الله والاسلام إلا راية واحدة لجيش واحد يسيره خليفة واحد ؟ أولم يكن أخلق بابن الزبير لو جنب بيت الله أوحال الدنيا وأوضار المطامع وخرج بجيشه إلى الحلّ ؟

وانطلق القائد الشاب يفكر في ابن الزبير وعبد الملك ، ويعود به الفكر إلى رحلته الأولى يوم صافح سمعه للمرة الأولى اسم ابن الزبير ، فإذا هو اسم ضخم مجلجل وإذا هو ينطوي على السيادة والظفر ، والملك الواسع الذي يظل ثلاثة أرباع البلاد الاسلامية ، وإذا اسم عبد الملك ضاو هزيل ، فازال هذا يضخم وينظم ، وما فتئ ذاك يهزل ويضؤل ، حتى انتزع عبد الملك الذي كان قابعاً في زاوية قصوره في الشام ينتظر أن يناله عليه ابن الزبير — انتزع العراقين والحجاز ، ونازل عبد الله في قرارة داره ودارة ملكه . أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن ابن مروان أحق بالخلافة من ابن الزبير ، وأقدر عليها وأولى بها ؟

وأفلتت منه نظرة فوقعت على الكعبة ، فأعادت صورتها الرهيبة إلى صدره ، وأحس بوجل شديد ؛ فذكر تهيّبه الإقبال عليها ، إذ كانت مثابة الأمن ودار السلام ، منذ الزمان الذي يضيع أوله في طفولة البشرية ؛ وذكر كيف فزع جنده وأحجموا ، فشد من عزائمهم ، وهوّن الأمر عليهم ؛ وكيف عبست السماء وبسرت حين شرعوا يتسديد الرماية إلى صدر الكعبة ، وألقت رجوسها وصواعقها ، فقتلت منهم مقتلة ، فارتدوا وامتنعوا ، وظنوا أن الله مهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم ، فانصدعت قلوبهم وطارت نفوسهم شعاعاً ، فقام فيهم يطمئنهم ويهديهم :

— (أنا ابن تهامة ، وهذه صواعقها[1]) فلا تخافوا ولا تراعوا

سنة الله التي لا تبديل لها ، وقوانينه في كونه لا تمنعها أمور البشر ولا تبدلها حوادث الأرض ، وما قيمة جند الشام حتى يدع الفلك من أجلهم سيره ، وتخرج الطبيعة عن سننها وتخالف طريقها ؟ وانطلق يحدثهم حديث رسول الله ومعلم العالم حين استأثر الله بابنه إبراهيم فكسفت الشمس فظنوا أنها كسفت لموته ، فنبأهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يمنعهما موت أحد ولا حياته ...

فاطمأن الجند وعادوا إلى تسديد الرماية وضرب الكعبة ، فعادت السماء إلى زمجرتها وزئيرها ، وانقضت صواعقها ، ولكنها أصابت من جند ابن الزبير مثل الذي أصابت من عسكر الشام ؛ فأمن الجند وأقبلوا يرمون قذف الحجارة ...

إنه لم يضرب الكعبة على أنها بيت الله ، ولكن ضربها على أنها قلعة من قلاع ابن الزبير ؛ ولم يقدم مكة فاتحاً ، ولكن قدمها حاجّاً معتمراً ؛ وحج بالناس ولكنه لم يطف . . . ولم يكن له إلا الوحدة الإسلامية غاية ، فهو يعلم أن المسلمين كرجل واحد ، فأي رجل هذا الذي له رأسان . . ؟ ولقد نهاه فقيه المصر وإمامه (عبد الله بن عمر) أن يضرب الكعبة فيؤذي الطائفين بها ويعطل مناسك الحج ، وشدد عليه في النهي ، فأطاع وامتنع وترك الناس وحجهم ، حتى إذا استكملوا مناسكه وفرغوا من عبادتهم ، نادى فيهم بالرحيل إلى بلدانهم وعاد يحارب ابن الزبير ...

(١) هذه الجملة من الخارج

2017-11-15 15:05:03

وسكن الحجّاج إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها ، واقتنع بأنه لم يأت منكراً ... فماذ يتأمل هذه النجوم الصافية ، وهو عازم على بناء الكعبة ، وسد هذا الخرق الذي خرقه ، وإصلاح ما أفسدته الحرب ؟ وراح يحدق في القمم الشاهقة التي تلوح له عن بعد ثائبة أعالها في الشعاع الفاتر الذي يسيل من صفحة القمر ... فذكرته كرة أخرى بيته ومدرسته وقريته الصغيرة فأحس كأن قلبه ينازعه إلى أيامه التي سلخهن فيها ...

— سلاماً أيتها الأرض الغائمة في طريق السماء ... لقد وفيت لك بنذري ، فقد إليك المجد ووهبت لاسمك الظفر . وخرجت منك معلم صبيان ولكني عدت إليك قائد الجيش العرمرم ، فثبّتْ اسمك على صفحات البطولة ، فلا يذكر التاريخ عودة الوحدة الإسلامية إلا ذكر معها (الطائف) !

ثم استغرق في تأمل عميق ...

في تلك الساعة كانت تهدف في طرقات مكة الخالية ، عجوز طويلة ، لا تبالي هذا الظلام الثقيل الذي يحف بها ، لأن عينيها المتطفئتين قد ألفتا هذا الظلام منذ أمد طويل... وكانت تؤم منزلاً من هذه المنازل المقفرة ، فتمضي إليه قُدُماً كأنما هي قد ألفت طريقه ، وحفظته بذاكرة قدميها لكثرة ما تتردد عليه في الصباح والمساء ، فهي تتخطى هذه الأنقاض ، وتدور حول الجدر ، لم تقف حتى غيبتها مداخل المنزل المهجور ، فقبعت في زاوية من زواياه جامدة لا تتحرك ولا تهمس ، كأنما هي بعض أثاثه القديم المرمم الذي تركه أصحابه زهداً فيه ... وجعلت تجيل عينيها الهامدتين في أرجاء عالم مجهول ، فيبدو لها متوعراً بالألوان القاتمة ، زاخراً بالصور البارعة ، فلا تمل التحديق فيه والتجوال في أرجائه ، تفتش عن هذه الفتاة التي عرفتها في سالفات أيامها ، فلا تلبث أن تخيل خيالها فتطمئن إليه وتجد فيه صباية نفسها وبلغة أمانيها ... وترى هذه الفتاة وقد أهديت إلى بعلها الذي خلا كيسه من المال ولكن نفسه فاضت بالحب ، فشاركته حبه وفقره ، وأقامت من نفسها أنيساً لنفسه وخادماً لبيته ، وسائساً لفرسه ، تلتقط لها النوى ثم تدقه ، وهي سعيدة هانئة تعيش لبيتها وزوجها التي تنهل السعادة من نظراته وكلماته وتقبس الهناءة من حبه وإخلاصه . فاستراح قلبها إلى هذا الخيال الذي ترى ، وشعرت كأن دم الشباب قد عاد يجري في عروقها بحرارته وتوثبه وفورانه ، وأحست بالنور قد عاد يضيء في عينيها ؛ فاستقرت على شفتيها بسمة عريضة ، طفت صورتها على جبينها المجعد فأومض فيه بريق من السعادة خاطف ورجع إلى وجنتيها ظل من حمرة الشباب الآفل ، حتى لو أن إنساناً رآها في تلك الساعة لما رأى عجوزاً تتخطاه عمياء ، ولكن فتاة في السابعة عشرة ...

ونفضت عنها العجوز غبار السنين السالفة ، وانطلقت تعيش في بقايا ليلة من ليالي زواجها الحافلة بالغرام والنبل والسعادة ، فتصغي إلى أغاني الحب تبعث همساً من فم ذلك الزوج المسهود ، وتذوق بين ثناياها حلاوة قبلاته المسولة وتسمع بأذنيها وسوسته الناعمة . وتبالغ في التخيل ، فتمد يديها تعانقه وتخفي وجهها في صدره العريض وتلقي برأسها على قلبه الكبير الخافق الذي يخفق أبداً للحب والمجد والإيمان ... ولكن برودة الحجر الذي ألقت عليه رأسها أطفأت جذوة أحلامها ، وردتها إلى حاضرها ، فإذا هو ينشر أكفان الموت على مسراتها ومباهج حياتها الماضية فتنسى كيف استقادت إليها

السعادة كاملة على يد هذا الزوج الذى تبسّه الدنيا حين تبع دين محمد فغدا يحمل على ألف فرس فى سبيل الله بعد أن كان ماله كله فرساً تسلقها زوجه النوى . وتثيب صور هذا الماضى فى الليل السرمدى الذى غمر حياتها وأترعها بالآلام والأوجاع فتمنت لو أنها ماتت وهى بنت الخليفة البكرى ، الذى صحب رسول الله وخلفه فى أمته . ووقف وحده حين كانت الردة فى وجه الناس كلهم . ثم ظفر بهم وساق المرتدين عن دين محمد ليقاتلوا فى الشام والعراق تحت راية محمد . . . أو لو ماتت وهى زوج البطل الذى ملأ حياته بطولة وشرفاً ومجداً ثم ذهب فمات فى ساحة الشرف والبطولة والمجد ، أو لو ماتت وهى أم الخليفة الذى عنت له الحجاز والجزيرة والعراق وخراسان . . . وكاد يدخل دمشق مظفراً منصوراً — فضاع منه كل شىء ، حتى كادت أمية تدخل عليه مكة مظفرة منصورة واستيأست من طلوع الفجر الذى يزيح ظلمة هذا الليل فانطلقت تناجى الموت وتدعوه بأحب الأسماء وأجملها ، وتذكرها الموت أحبتها الذين طواهم فى أحشائه ، فاشتهت قرب الأحبة — وكان من أقوى رغباتها فى هذه الليلة أن تقف على قبر أبيها الذى يجاور أشرف بقعة فى ملكوت الله الواسع فى الغرفة الصغيرة التى بنيت من الحجر والطين وسعف النخل فى المشايا الأولى لاستقرار الاسلام فى يثرب ، فكانت مقر أختها الصغيرة ، أحب زوجات الرسول إليه وأفضل أمهات المؤمنين وعالمة النساء ومعملة الرجال . ثم كانت مهبط الوحى وصلة الأرض بالسماء ، ثم كانت دار الحكومة ، فيها نظمت خطط الحروب ، وأعدت قوانين المجتمع ، وعقدت مجالس الشورى ، ومنها خرجت الكتب إلى شيرويه ملك الفرس كسرى شاهنشاه .. وهراقليوس قاهر كسرى وسيد الدنيا فى عصره ، ثم خرجت الجيوش لنحو ملك شاهنشاه ، وتخلف سيد الدنيا فى أرضه وتمود بأسلابه ، وفيها عاش النبى صلى الله عليه وسلم حياته حتى إذا مات دفن فيها . ثم أغلق بابها لا إلى سنة ولا إلى عشر ولكن إلى ... يوم القيامة . وكان من أمنع أمانيها هذه الليلة أن تقف على قبر زوجها الماثل فى آخر البادية . فى الزاوية التى تلتقى فيها بادية العرب بسواد العراق ، بيساتين السجم ... بالبحر ! فتجدد بزيارته عهد الماضى ...

* * *

وكانت تتناهى إليها بين كل آونة وأخرى صرخة من صرخات الحراس ، أو أنّة من أنات الجرحى . فتردها إلى وعيها فتتأمل هذه الشاعة الواحدة التى بقيت لها من شمس حياتها الآفلة ابنها عبد الله الذى تجد فيه عبق عزاها بزوجها ، وعطر الامجاد التى عاشت فيها والمارك النبيلة التى شهدتها ، وتذكر فيه تاريخاً طويلا تلتقى حواشيه الكبيرة بهذا التاريخ الصغير الذى تحفظه لابنها ؛ وتتفانها الذكرى إلى هذا التاريخ ... فاذا هى فى دنيا قريش ، وبدا قريش فى حيرة وقلق . قد خابت وفشلت فى رد هذا السيل الأتىّ بأكفها الضعيفة . ورأت الاسلام ينتشر ويمتد ولا يثبت شىء أمامه فاتتمت بابى تقتله ... ولكنها لم تجده فى بيته ، ولا علم أين هو ... لا يعلم أين هو إلا رجل فى مكة وامرأة . أما الرجل فعلىّ ، وأما المرأة فأسماء ... يالروعة هذه الذكريات !

لقد كانت فى بيتها تعد اللحم لتحمله إلى رسول الله (فان رسول الله يحبه اللحم [1]) وإذا باللملأ من قريش يدخلون عليها ، وهم يرعدون ويبرقون ، يزهون بكبريائهم الفارغة ، وعنفوانهم المزيف وتياههم الزاهية

(١) جملة من التاريخ

فقال لها أبو جهل بلهجة حاول أن يجعلها نخمة عالية ، ولكنها جاءت أقرب إلى التصنع والاضحاك :

— أين أبوك ؟

— وما يدريني أين أبي ؟ لا أعلم ؟

فلم يترفع هذا السيد الذي عجز عن ردّ محمد ، عن أن يرفع يده على امرأة ... لقد لطمها لطمة أطارت قرطها ... ومدت العجوز يدها تتلمس أذنها على غير شعور منها ، ومسّت بيدها بطنها ، فقد كانت بومئذ حاملاً ... بالبطولة هذا السيد القرشي الذي يضرب امرأة حاملاً !

ثم استدار المشهد فإذا هي قد انطلقت من دنيا قريش الضيقة المحصورة ، إلى دنيا محمد الواسعة الفسيحة . لقد هاجرت تقطع الصحارى والقفار ، حتى أشرفت على نخيل المدينة ، فوقفت على هذه الجنبات الطاهرة ، الذي أسس فيها أول مسجد بني على تقوى ، فسمعت وحدها هذا النشيد العلوي ، الذي أصغت إليه الدنيا كلها من بعد ، والذي يتردد الآن خمس مرات في كل نهار ، تتجاوب به المنابر في كافة أرجاء الأرض ...

وهنالك وسط هذا النشيد الذي يتألف من كلمتين اثنتين لم تعرف ألسنة البشر أقوى منهما هديراً ، وأشد في النفس تأثيراً ، هما : « الله أكبر » ! صاح البشير أن (أول مولود في الإسلام) قد استهل ، فانشرحت به صدور المسلمين حتى كان كلّ واحد منهم كان أباه ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وبارك عليه ، ودعا له ...

وتمثلت عبد الله وهو صبي يبايع رسول الله . ورسول الله يبتسم له ابتسامة تفيض بالحب والرضا ..

ورأته وقد شبّ حتى صار يلعب مع الصبيان في الطرقات . وإنه لفي لعبه وإذا بعمر القويّ المهيب يمرّ فيفرّ الصبية ويتوارون ، ويبقى عبد الله واقفاً ..

— لِمَ لم تفرّ كما فروا ؟

— ولِمَ أفرّ وما أنت ظالم فأخشى ظلمك ، ولا أنا مذنب فأرهب عدلك ؟

فيعجب به عمر ، ويكبر جرأته وبلاغته ...

ثم تبصره وقد علا ، واستعلن أمره ، وضخم سلطانه ، فانقادت إليه الأماني طيعة ، وتبعته الدنيا خاشعة ... ثم انهار هذا كله ... ثم انهار هذا كله ...

وراحت العجوز تحدّق بعينيها اللتين حرمتا النور في أفق مجهول ، وتفكر في غير وعي ، فقادها الفكر إلى دنيا تحبها وتألفها ، فإذا هي ترى كرة ثانية بداية هذا الصباح الذي غمر الكون ضوؤه ، وغسلت أنواره الأرض من أرجاس ليل طويل مات في ظلامه الفضائل والمُثُل . . . وتفكر في قوة هذه الرسالة التي انتصرت على العالم كله ... وترى حاضرها المض فتشجى وتتألم . ما أسرع ما نسي الناس هذه المبادئ وأجدبت نفوسهم منها ، وهذه أسلاك حراء ، وهذه جلاميد ثور ، لا تزال مخضبة مخضرة ... أفتكون هذه الحجارة وهذه الجلامد أوفى وأحفظ من قلوب البشر ؟ وإذا نسي الناس أفلا تذكرهم هذه الجبال الشاهقة التي شهدت عزلة محمد وإيواءه إليها ليالي بطولها يفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويفتش وراء مظاهر المادة عن مبدع المادة ... ثم شهدت منبثق الوحي ، وأشرف عليها هذا الفجر فأضاء جنادلها وصخورها ، قبل أن تسطع أنواره في السهول والقرى . وسمعته وآمنت به قبل أن تسمعه ، هذه الذائن العظيمة المنثورة في الأرض ، أو لا تذكرهم ساحة الحرم ... ومثلت لها (حين ذكرت ساحة الحرم) الكعبة

المهدمة ، فمالها أن يبيت المسلمون بحرمة الكعبة وهي التي كان المشركون على جهالتهم وكفرهم ، أكثر لها إجلالاً ، وأشد احتراماً ، وصبّت سخطها على ابنها وعلى الأمويين جميعاً

أيستحلون البلد الحرام ، في الشهر الحرام ، ويفسون مبادئ الرسول والدين على وفاته إلا ثلاث وستون سنة وينقضون عرى الأخوّة بينهم ، ويقاتل بعضهم بعضاً في بطن مكة ؟ ولمه ؟ أولم يبق في الأرض ظالمون ولا طغاة يقاتلونهم ؟ أينقض المسلمون أيديهم من هذا الإرث العظيم ، ويهملونه حتى يبدو في عيونهم مجداً ، وهو الذي بلغ من خصبه أن أترع أيام البشرية الماضية بالحياة ، وهو كفيل بأن ينمر أيامها الباقيات حياة ومجداً وفضيلة ؟

وآلمها من ضياع هذه المبادئ أكثر مما آلمها من خذلان ابنها وضياع عرشه ، بل هي قد نسيت ابنها ، ونسيت هذا الملك الذي رتع في بحبوحته تسعة أعوام جاء يتجرع الآن مرارتها ، ونسيت ماضيها الأفل ، بل لقد نسيت نفسها وذهبت تفكر فيما هو أعز عليها من حاضرها وماضيها ، وابنها ونفسها ، في هذا المبدأ الذي أخلصت له ، إنه لا ينتصر هذا المبدأ وعلى الأمة والبان يصطرعان ويقتتلان ، فلا بدّ من ذهاب أحدهما ، فاذا لم يذهب عبد الملك فليكن ابنها هو الذي يذهب ولتشتر حياة الأمة بحياة ابنها ...

وكان عزماً خطيراً ، وكانت فكرة هائلة يرتجف لها أقوى القلوب ، ولكن قلب أسماء الذي يحمل قسطه من الإرث الأخلاقي الذي صهرته شمس هذه البلاد في الألوف المؤلفة من السنين وأنضجه الاسلام وهذبه لم يرتجف ولم يخف ... كان همها أن تسترجع هذه البلاد المقدسة ليلة آمنة — إثر نهار ملؤه بالخطوب لتستيقظ مع الفجر قوية نشيطة . فتفيء إلى ظلال وحدة هانئة تستجم فيها ، وتفرغ لنفسها لتفرغ من بعد لأعدائها ... ولكن العجوز عقلت لحظة عن عواطفها التي خنقتها في صدرها ، فانطلقت صارخة صاخبة ، فتصورت العجوز نفسها بعد عبد الله فلم تطق أن تتصور ... وعادت إليها أنوثتها فمظم عليها أن تفرط بولدها الحبيب وهي على عتبة الموت وهو عمادها وعونها ، وحاضرها ومستقبلها وهو كل شيء لها ، وعادت تعرض ذكرياته مذ كان طفلاً إلى أن غدا شيخاً ، فتحس أن أمانيها كلها تختصر هاساعة تضم فيها ابنها إلى صدرها ، ثم تنسى نفسها وهي بين ذراعيه ، حتى تسلم الروح ، إنه حياتها وهو كل شيء لها ... وراحت تبكي بعينيها المنطفئتين بكاء موجعاً

وفي تلك الساعة كان في الحرم طائفة من الناس تحت علم منصوب في ظل الكعبة ، أولئك هم بقية هذا الجيش اللجب الذي كان منتشراً بين أقصى خراسان والبحر الأحمر ، وهذا هو العلم الذي خفق على هذه البلدان تسعة أعوام كاملات ... وليس أروع من الجيش القوي الظافر الذي يسدّ منافذ الفضاء ، ويحجب الشمس ، وتنوء له الشوامخ الراسيات ، وتميد بثقله الأرض ، إلا هذه الحفنة من الرجال الأشداء الصابرين ، الذين تخيرتهم شجاعتهم وعبقريتهم ، فكانوا بغية السيف ، وطرائد الموت ، ثم آثروا الموت أجمادا على الاستسلام والهوان ، وتلك هي حال هذه الطائفة من الناس

وكان في الجمع شيخ مستند إلى جدار الكعبة ، توميض شعوره البيض في شعاع القمر ، يفكر ، أو هو يبدو كالمفكر على حين يتجرع مرارة خيبة

قاتلة ، ويحسّ من حوله زمهريراً بارداً ، فكان بحاجة إلى صدر دافئ ، يقبس من حرارته الحياة والأمل ، ولقد كان شيخاً فى الثمانين ، ولكنه لا يزال حيال أمه ذلك الطفل الذى يترعرع فى أحضانها ثم يضطجع فيها ويرفع وجهه الصغير إلى وجهها ويقطف بعينيه ثمرات الحب الحلوة من عينيها الوادعتين ، ويمسح أصابعه تمسح بوجهها وشعرها ...

وملأت نفس هذا الشيخ سورة أمه ، فنسى اليوم العصيب ، وغفل عن تصور النصر الذى أفلت منه كما يفلت الطائر الجميل من قفصه ، ثم يوغل فى مسارب السماء ، وخيبته التى جعلت حياته سوداء فارغة كظلام الليل ، ولم يعد يفكر إلا فى هذه الصورة التى أعارته من بهائها وسموها جناحين طار بهما إلى أيامه الخوالى فتخلل فى رحابها الواسعة ...

... لم يبق له من سورة هذا الماضى العظيم — من عالم أبى بكر والزبير — إلا خط واحد ضعيف كاب ، يوشك أن تمتد عليه الأيام فتمحوه اليوم أو غداً ، لم يبق إلا ذات النطاقين أمه ، أسماء العظيمة التى كانت تاريخاً حيّاً ، وكانت الفضيلة المجسّدة ، فانطلق إليها يودعها قبل أن يموت ، وكان الموت الشريف أجل أمنية لهذا الشيخ البطل الذى خسر الملك والجيش ولكنه لم يخسر الشرف ولا البقية ؛ بيد أن هذا الشيخ يخشى أن يدع هذه العجوز تحمل معها آلام الثكل والوحدة ، حتى تبلغ بها قبرها القريب ... فكيف السبيل إلى إكراهها على التسليم به ، والرضا بموته ؟

* * *

وقام الشيخ من مجلسه يسلك هذه الطرق الموحشة التى سلكتها أمه فى المزيع الأول من هذا الليل ، فلم يقف فى طريقه على الأطلال ، ولم يثره مشهد الملك الضائع ، لأن أفكاره كلها قد تعلقت بأمه ، فهو يحب أن يصل إليها ، فيمضى مسرعاً ، حتى إذا دنا من هذا المنزل المظلم الموحش تباطأ فى سيره ، حتى إذا بلغ بابه تهيب الدخول عليها وأحس بالعجز عن مواجهتها بعزمه ، وهو الذى لم يحس العجز عن مقابلة الخميس العرمرم ، ولم يشعر بالضعف عند مجابهة الشدائد والخطوب ، فوقف وأطال الوقوف ، وتقاذفته الأفكار حتى أحس كأن رأسه خلية نحل ... كيف يقول لها : دعينى أذهب إلى الموت ؟ وكيف يملك قلبه أن يتخاذل ويضعف أمام بكائها وتوسلها إليه أن يبقى ، أن يبقى إلى جانبها فى أيامها الأخيرة ... ؟

كانت الأفكار تصطرع فى رأسه ، وهو هادئ ساكن لا يبدى حراكا ، قد تعلق بصره بهذه العجوز القابعة فى الزاوية ينيرها شعاع ضئيل من أشعة القمر يسقط عليها من خروق السقف المتهدم ، وكانت أذنه مرهفة مائلة إليها فسمعها تردد اسمه فى خفوت ، بلهجة يقطر منها الحب والشوق واليأس والحزن ، فلم يتمالك نفسه هذا الشيخ أن صاح : أمى ! وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فمرغ لحيته بوجهها ، وخلط أنفاسه بأنفاسها ونفسه بنفسها ، وغابا معاً فى حلم ممتع نشوان ...

ثم تنبهت العجوز ، وذكرت نذرها الذى نذرته للوحدة الإسلامية وعزمها الذى اعتزمته ، فخلصت من عناقه برفق وقالت له :

— ما جاء بك ؟

فحار فى جوابها ولم يدر كيف يعلن عزمه على الموت ، ثم آثر أن يرى ما عندها وقال لها :

— (يا أماه ، قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير من أصحابى ومن

ليس عنده أكثر من سير ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ (١)

— أهذا ما جئت لأجله ؟ .. أجشمت نفسك عناء السير فوق أنقاض المدينة المقدسة التي هدمتها وتركتها أطلالاً لتقول لي إنك جبنت وفقدت حينك وشجاعتك ؟ أجئت تحتمي بصدري من الموت الذي سقت إليه هذه الألوف المؤلفة من المسلمين ؟ أهذه هي خاتمتك يا ابن الزبير ويا من من جده أبو بكر ، ويا من جده عبد المطلب ؟

ولم يكن عبد الله يتوقع أن يسمع منها ما سمع فطفق ينظر مشدوهاً يودّ أن يصيح من الفرح لأنها رضيت له بالموت في معمعان المعركة ، وذلك أقصى ما يريد ، ولكنه لا يدري إلى أيّ غاية ترمي فيكتم صيحته ويصمت ...

— مالك يا عبد الله ، أنسيت أمجاد أبيك الذي يجري دمه في عروقك ... فتسال قرب أحدثك بأمجاد أبيك :

في عشية من عشايا الاسلام الأول خرج أبوك من بيته هذا ، فتنكب طريق الحرم حيث تمثل قريش بجبروتها وشركها ، وأمّ هذه الجبال القريبة يحمل في نفسه بهاء هذا الدين الجديد فهو يحب أن يفيء إليه وأن يستمتع بمزلة هاتفة ، فلم تكد تحتويه أعالي مكة حتى طرق أذنيه همس مرعب ارتجفت له أضلاعه ، واضطرب قلبه ، وأنساه غايته التي خرج من أجلها . لقد سمع أن محمداً قتل ، وانطفأت هذه الشعلة التي أضاءها الله ليقبس منها العالم ضياء نهار دائم ، وجنّ هذا البنبوع ووقف الاسلام الذي جاء للدنيا كلها من عند هؤلاء النفر القلائل الذين أسلموا ، وكان أبوك يعلم أن قريشاً التي قتلت محمداً ستمحو هؤلاء النفر وتبيدهم ، ولكن أباك لم يخف ولم يفرّ بل ثارت في نفسه حماسته ؛ وصرخ في عروقه دمه الذي يحمله ميراث عصور طويلة من النبل والشرف ، وتوثب إيمانه في صدره وأشعره أنه يقدر بهذا الإيمان على العالم كله ، فسلّ أبوك سيفه ورجع يريد أن يثأر لمحمد فإذا محمد صلى الله عليه وسلم حيّ يبلغ دعوة ربه

فكان أبوك أول من سل سيفه في سبيل الله ، فسطع من سيفه الوميض الأول لهذا الصباح الذي غمر الكون بالضياء الذي أشرق من سيوف المسلمين في بدر وهوازن والقادسية واليرموك ونهاوند ...

أفلا يهز حماستك حديث أبيك ؟

فلم يجب عبد الله ، وآثر أن يظل ساكتاً

فرجعت تقول :

— يا أسفي ، لم يعد يثيرك حديث أبيك ، فلن أحدثك عن أمجاده ... فهل تثير حماستك شجاعة جدتك صفية بنت عبد المطلب ؟ إنك تعرف حديثها ، وتروى خبرها مع حسان بن ثابت في الحسن ... فهل أطفأت الدائد الحياة لهيب الحماسة في صدرك ، فأنت في حاجة إلى قبس تقتبسه من امرأة ؟

فبرقت عينا الشيخ واشتعلت النار في عروقه ، ولكنه أوجم السكوت لمنفى العجوز في حديثها ، فألمها أنه ساكت لا يجيب ، وحسبت سكوته جبناً وهلعاً ، فراحت تبالغ في تحميسه ... قالت :

— أخبرني ... أنسيت ذلك الدم الزكي الذي أهريق على عتبات المجد ؟ سرعان ما نسيت صورة مصعب ابن أبيك ، ذلك الذي حاز الشباب والمال والرفاهية ، وجفا عقيلتي قريش ، عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وذهب ليموت شريفاً مجيداً تحت راية الخليفة عبد الله بن الزبير

إذا كنت تعلم أنك تدعو إلى باطل ، فلم فرطت

(١) هذه الجملة من التاريخ

بهذه الأرواح ... هذه الألوف من الأرواح التى زهقت فى سبيلك ؟ أ كان جنى هذه المعارك النبيلة أن يحمل الخليفة الذين ماتوا تحت رايته ، ليزدان به موكب الحجاج ؟

ما كان جدك أبو بكر ولا كان أبوك الزبير جباناً ولا رعديداً ، أفتنتمى إلى هؤلاء الذين أترعوا التاريخ بأحاديث المكارم ثم ترضى أن تساق وأنت شيخ أبيض اللحية إلى دمشق ، ليلعب بك صبيانها وليشيروا إليك بأصابعهم ، يقولون : هذا الذى كان

ولم يمد عبد الله يملك صبره ، فصرخ :

أماه ! كفى ... إننى جئت أودّعك ...

وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فتحسسته فاذا هى بالدرع . قالت :

أتخدعنى يا عبد الله ؟ (ما هذا صنيع من يريد الموت [1])

قال : ما لبسته إلا لأحميك ، وما إلى به من حاجة ...

ونزعه فألقاه ... ثم تخلص من ذراعيها برفق :

— أماه ... وداعاً (ولا تدعى الدعاء لى ، فوالله ما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه ، وإنى مقتول فى يومى ، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله ، فإن ابنك لم يتعمد إثماً منكراً ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ... اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله تسرية لأمى) [1]

وأسرع فخرج وأمه تدعو الله :

(اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى ، اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبنى ثواب الصابرين الشاكرين)

وسكتت العجوز ، ومدت يديها تتلمس عبدالله لتودعه الوداع الأخير ، فلما أحست أنه قد ذهب ، ثارت أحزانها دفعة واحدة ، وهوت على الأرض

وأسدل الستار يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة على هذا الشاب الذى هجر مدرسته وصيانه ، ونزل من الطائف وحيداً شريداً فهدت له عبقريته سبيل المجد ، ووطّأت له أكناف العظمة ، فأعاد إلى الأمة الاسلامية وحدتها وسلامتها وبنى فى صرح أمجادها ركناً ضخما ، ما كان أعظمه وأزهاه لو لم يلطخ بدماء الأبرياء ... وهذا الشيخ البطل الذى سمت به نفسه حتى صارع الخليفة فى الشام ثم صارعه حتى سلبه ملكه وسلطانه . ثم خسر كل مارابح ، ولكنه مات أشرف ميتة وأمجدها فكان موته منتوجاً ظفراً بارعاً ونصراً مؤزراً ... وهذه العجوز التى لم يعرف تاريخ بنات حواء من وقفت مثل موقفها أو ضحت مثل تضحيتها أو دانتها فى نبلها وشرف نفسها ، وإخلاصها لوطنها ودينها

رحمة الله على الجميع !

على الطنطاوى

(١) هذا هو النص التاريخى

منار الرشـــد

كتاب حديث يكشف عن أسرار الوجود ويشرح الحقائق ويرى القارئ الروح ويعرفه بالله لمؤلفه ابراهيم السيد بشارع كنيسة الراهبات نمرة ٣١ ويباع فى المكاتب الشهيرة

فاسينوكين

القصصي الفرنسي أونوريه دي بلزاك
يقلم الأستاذ دريني خشبة

حدث أني كنت أسكن مرة في شارع صغير يسمى شارع لامبجيير ، متفرع من شارع سانت أنطوان من ناحية النبع القريب من ميدان الباستيل ، وينتهي عند شارع السير زاي . وكنت أقضي ليالي في غرفتي الموحشة فوق السطح مكباً على كتبي مستغرقاً في مذاكراتي ؛ كما كنت أقضي سحابة النهار في مكتبة أورليان الغربية من مسكني

وكنت آخذ نفسي بحياة التقشف والزهد ، وهي حياة لا محيص منها لكل عامل مجد ، فكنت أستكثر أن أخرج للنزهة المجردة في البوليفار بوردون إذا ما صفا الجو واعتدل

ولم تكن قوة في العالم تغريني بالانصراف عما أخذت به نفسي من المطالعة والدرس ، إلا هذه القوة العجيبة التي كانت تبعث في ميلاً غريباً إلى لون آخر من ألوان الدراسة مختلف أشد الاختلاف عن دراساتي . . . أما ما هو هذا فهو شغفي العميق بملاحظة أهل هذا الحي — فبورج — ودرس أخلاقهم وطبائعهم . ولم أكن أتأنق في ملبسي بل كنت أبدو بينهم في زي أهل الأعمال وسمتهم ؛ فكان ذلك يعينني على الامتزاج بهم ؛ والانسجام كلما عادوا أدواجهم بعد الفراغ من العمل ، أو اجتمعوا لبعض شئونهم .

ومن هنا أصبحت قوة ملاحظتي لهم غريزة في نفسي ، وملكة أنفذ بها إلى صميم أرواحهم ، وأتنقل بواسطتها في أدق شئونهم ، كما كان يتنقل دراويش ألف ليلة وليلة بكلمات سحرية وتعاويذ يرددونها في جوانح فرائسهم ودمائهم

وكنت كثيراً ما أتفق أثر عامل عائد مع زوجته إلى بيته بعد الحادية عشرة مساء أو قبيل منتصف الليل ، بعد خروجهما من الأمبيجو كوميك لأسلي نفسي بالضرب وراءهما من البوليفار دي بونت أوشو إلى بوليفار بومارشيه

وكانوا يبدأون أحاديثهم عادة عما شاهدوا في الملهى من التمثيل ، ثم يتدرجون من ذلك إلى أمورهم الخاصة . ولم يكن الأمهات يبالين أن يجذبن صغارهن ليلاحقوهن ، وهن يكلمن أزواجهن ، ويحسبن مصروفات اليوم التالي ... وهنا ترتفع شكواهن من غلاء أثمان البطاطس ، ومن طول الشتاء وارتفاع أسعار الوقود ، والمطلوب للخباز ومن إليه ... يتماطون ذلك في حوار بورجوازي ملىء بالصياح ، يشف عن طبائعهم وطبائعهن ، وغرائزهم المكبوتة وغرائزهن

وكنت أصغي إليهم فأحس كأني أحدهم ... بل كنت أشعر كأنما أتحالهم على ظهري ، وتتعالهم المخصوفة تتقطقط في قدمي ، وبهم يجلجل في صدري

* منزلة بلزاك في الأدب الفرنسي كمنزلة دكنز في الأدب الانكليزي . وهو من أقدر الكتاب على التصوير وتحليل المجرمين وخلجاتهم ، وهو يلذ في ذلك حتى يحببه القارئ من المنحطين ولاسيما حين يتناول الأدب المكشوف . وقد يشعر القارئ بملال من طول مقدماته لكنه حين يخلص إلى القصة ينتفض الصمداء . وأقصوصة فاسينوكين أحسن ما تمثل به أدب بلزاك ، ولهذا السبب اخترناها برغم مافي مقدمتها من ألفاظ . ولد بلزاك سنة ١٧٩٩ ومات سنة ١٨٥٠

وشكاوهم تتردد فى قلبى ، وأرواحهم تسرى فىّ كما تنساب فيهم روحى

وعلى هذا النمط كانت أحاسيسنا كأحلام اليقظة ، تذوب معاً كما تذوب الشمعة تحت اللهب ، أسفاً على ما يصيب الانسان من ظلم أخيه الانسان ... وهكذا كنت أفرج عن نفسى بالانطلاق من دراساتى الخاصة إلى هذه الرياضة الذهنية التى كانت موهبة عظيمة منت بها السماء على ، فأصبحت لى بمثابة حاسة من البصر الروحانى ، كهذه الحاسة التى أرى بها الملموسات عن طريق عينىّ

على أننى حرصت فى تحليل هذه النعمة الجديدة فلم أدر ما باعثها ، ولا القوة الناعشة التى تصدر عنها ؛ وكان أكبر ما يخيفنى منها أن تكون إحدى هذه القوى الكامنة التى تنتهى إلى الجنون حين يُساء تصريفها . ولم أحاول استكناه هذه القوة ، وكان بحسبى أننى أمتلكها ، وأننى أدلها لمآربى ... وكفى ؟

ومما يجدر بى أن أشير إليه هو أننى كنت قد بدأت فى تلك الأيام تحليل الكتلة البشرية الماثلة إلى عناصرها الأساسية ، وتقدير مافى هذه العناصر من خير ومن شر . وكانت هذه الضاحية التى اخترت مسكنى فيها أحسن حقل لاستنبات مجاربى واستنباط قوانينى ، فقد كان يعيش فيها الأبطال والمجترعون والعلماء الأعلام ، جنباً إلى جنب مع الأوشاب والرعاع والهمج ؛ وكانت الفضيلة فى أسمى مدارجها ، تختلط بالرذيلة فى أحط دركاتها ؛ وكان الفقر يكم أنفاس الجميع ، والحاجة تهيمن على الأقدار والكرامات ، والخير هى طبيب الكل ، والنفوس الثائرة المشبوبة تتبدد فى جحيم من الآلام والغموز

لله كم ألف مأساة وألف فجيعة كانت تمثل صامتة فى ظلمات هذا البلد البائس المكتئب ! ولله كم ألف حسناء وألف قلب مضطرب لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى أغواره ليطلع على العجب العاجب من مضاحكه ومآسيه ثمة ! !

ما أشد جهلنا بقصص الحياة فى هذا الحى ، تلك القصص التى لا تصلنا رواياتها إلا بطريق الصدفة ، وبلا اتفاق !

على أننى لست أدرى كيف احتفظت بقصتى التالية كل هذا الزمان الطويل دون أن أنشرها على الناس ! ربما كان هذا لكونها من الصفحات العجيبة التى تظل مطوية فى ذاكرة المرء حتى تخرج منها بطريق الصدفة ، كما تخرج (الخمرة) الرابحة من صندوق النصيب ... وكم فى الذاكرة من أمثال تلك القصة ، وستظل مختبئة تحت مثلها ، حتى يأتى دورها فلا يكون بد من خروجها منها كما خرجت

كنت أستأجر امرأة مسكينة كانت تحضر إلىّ صبيحة كل يوم لتنهض بشئون غرفتى ، فتصلح سريرى وتمسح حذائى ، وتنفض ملابسى ، ثم تمد فطورى ؛ وتذهب بعد ذلك إلى مصنع قريب كانت تعمل به فى إدارة آلة لقاء عشرة صلديات فى اليوم فى حين كنت أدفع أنا لها أربعة فرنكات شهرياً . وكان لها زوج فقير يصنع صناديق الطعام فيحصل منها على أربعة فرنكات يومياً ، وذاك هو الذى اضطر زوجته إلى العمل ليعولا نفسيهما وأبناءهما الثلاثة ويعيشا عيشة بين الرخاء وبين الكفاف

ومع ما كانا فيه من ذلك الضيق فانى لم أر مثلهما أمانة وعفاف يد . ومما أذكره لهما بخير هو وفاؤهما وحبهما لى . فى الخمس السنوات التى تركت فيهن مسكنى ، كانت الأم ثيلان تحضر إلىّ كل عام فى يوم ميلادى حاملة باقة من الورد ، وبضع برتقالات ، تحية لى فى هذا العيد ... وكنت أعلم أنها لم تكن تدخر فلساً لهذا الغرض ، ولما كنت

أضطر — حين تأتى بالورد والبرتقال — أن أقترض ورقة مالية بعشرة فرنكات لأدسها في يدها مساعدة لها ، مدفوعاً بعامل الحاجة الذى شرينا معاً بكأسه

إذا عرفت ذلك من أمر هذه المرأة البائسة ، فاعلم أنباك الله أنها جاءت إلىّ ذات يوم لترجوني في أن أشرفها بالذهاب إلى بيتها للمشاركة في عرس أختها ، وهو عرس تعرف أنت بما قدمت لك مقداره من الرونق وضيق الاستعداد

وقد وعدتها أن أذهب ، وكان أول ما فكرت فيه هو المبلغ الذى أستطيع أن أعينها به بعد أن أتدجج في العرس المتواضع كواحد من أهله

وأقيم العرس في الطابق الأول من بيت قديم فوق مخزن للخمور بشارع شارتون ، في غرفة كبيرة أضيئت ببضعة مصابيح زيتية ذات مرايا من الصفيح ؛ وصفت فيها مقاعد من الخشب مجللة بسواد كئيب هو سواد القدر من غير شك ، وقد اشترك في العرس ثمانون مدعواً لبسوا أحسن ما يلبس في يوم الأحد ، وحملوا أغصاناً من الزهر اليانع ، ثم أخذوا من الرقص بنصيب مبالغ فيه ، ومن المرح بكأس دهاق ، حتى لكأنما كانت الدنيا موشكة أن تنتهي لميعاد

هذا ، وقد جعل الرجال وأزواجهن يتبادلون تحيات خبيثات ، ويتراشقون بآهات فاتحات ... وكذلك كان يفعل الفتيان والشباب والكواعب الأتراب ... وكان يبدو على وجوه الجميع أمارات عجيبة من نشوة الفرح لا يسمو إليها الوصف ، ولا يستطيع تصويرها القلم

أفرأيت إذن إلى هذه المقدمة الطويلة المملة ؟ ! إنها لا تمت إلي قصتى بسبب ، فدعها جانباً ، ولا تذكرنها إلا أثراً طفيفاً يكون كالهواء الذى تتنفس فيه القصة ... فقط ... يجمل أن تذكر المنظر ... ومخزن الخمر الشاحب الأرجواني ... ورائحة الخمر التي تنفوح منه ... وصرخات الفرح والمرح ... وأن تتخيل أنك في هذه القاعة وسط القوم ، بين العمال المساكين والمقبرات البائسات ، تشرهم في عرسهم المتواضع

أما فرقة الموسيقى فكانت تتكون من لاعب على كمان ، وعازف فى ناى ، ونافخ فى مزمار ، وكانوا جميعاً من أعضاء ملجأ السيمان القريب . وقد دعوا لهم سبعة فرنكات أجراً كاملا عن هذه الليلة البهيمة ؛ وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن يسمع بهذا الأجر الطفيف إلى يتهوفن أو روسيني ... ولذلك كان عزفهم (حينما اتفق !) لأن أحداً من الموجودين بالغرفة لم يكن يعنى بإحصاء النغمات الموسيقية ، وأخطاء النوتة ، وسائر ألوان النشاز التى كان يقع فيها عميانا المحترمون ... أما أنا ... فلى الله ! لقد كانت موسيقاهم وقراً فى أذنى ، وكابوساً على قلبى ، وقد تلفت من الضيق فوقع نظرى على الثالوث الأعمى وقد رئيت لحالهم فغضضت الطرف عن ملابسهم المرقعة ، وثيابهم المرفوة ، وقد كان من السير علينا أن نتبين سحنهم لأنهم وقفوا يمزفون فى نافذة عالية ، فكان الضوء يسقط على أقفيتهم تبعاً لذلك وكانت أوجههم فى الظلام ، ولم أدر ما ذا دفعنى نحوهم ، إلا أن تكون القوة الكامنة التى حدثتك عنها فى المقدمة الطويلة الماضية . لأننى وجدتنى أتنقل بروحى فى كيان الأعمى العجوز الذى كان يعزف على الناى . وكان الموسيقيان الآخران فى مرح دائم ومرور مستمر . بعكس صاحب الناى الذى ما أحسب مخيلة فنان أو عقل فيلسوف قد اتفق لها مثل خلقه أو حياء ... وتستطيع أنت أن تتخيله إذا رسمت فى ذاكرتك طيفاً لمانتى ، ودلّيت على على وجنتيه غابة كثيفة كثة من الشعر الأشيب

البراق ، ثم موّهت وجهه العبوس الصارم بما يتبع العمى من مرارة وحزن ولأواء ... لقد كانت عيناه البيضاوان تتأججان بلهيب خفي ، تشمله رغبة ثائرة ثائرة ، فتنضمن جبينه ذو الخطوط والشقوق والأسارير ويبدو كأنه حائط أُثرى لعبت فوق ملامحه تصاريف الزمان

وكان الرجل ينفخ في ناية في غير مبالاة وبدون اكتراث ، غير معنى بأحد ممن سعى إلى العرس ؛ وقد كانت أمامه تتبختر فوق مفارخ الناى في ارتخاء وحينما انتفق ... ولم يكن يأبه بألوان النشاز التي يحدثها بعدم مبالاته ... وكأنه كان في واد والراقصون والراقصات في واد ... فلم يكن عزفه يؤثر في حركاتهم أو حركاتهن ... وقد استنبطت أنه إيطالي الأرومة ، وكانت المرارة التي يكتمها في أعماقه تجعل منه هوميروساً عجوزاً ، يكبت في صميمه أوديسة قد مسختها يد الفناء وهالت فوقها تراب النسيان ... ومع شقائه الذي ليس كمثله شقاء فقد كان عظيماً في مظهره ، وكان جور الزمان يزيد في منظره روعة أي روعة !

إن من المواطف القوية ما يدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر ، فإذا كانت الأولى خلقت منه بطلاً منواراً ، وإذا كانت الثانية جعلت منه مجرماً أثيماً ... وقد تضافرت عواطف الشر كلها فنحتت وجه هذا الأعمى الإيطالي الصارم الجبار !

إنك لو رأيته لمالك أن ترى بداوات النقمة تنبثق كالشهب المحترقة من جفوني عينيه ، أروع مما ترى إلى عصبة من قطاع الطرق شاهرة خناجرها في فتحة كهف سحيق ، أو كما تنظر إلى سبع جائع يقضم قضبان قفصه

لقد كبت يأس اليأس في صدره ، وبردت الحلم المتقدة على جبينه ، ولكن أثراً من دخان ذلك الماضي المؤلم كان ما زال مكوماً تحت آية على الشقاء القديم ... فمن هذه الجذوات الخامدة هذا القبس الذي بدأ يتضرم به قلبي ، وينساب بالحميم والمُهل في عروق !

أما المازغان الآخران فقد كانا يهشان للخمر ، وكانا كلما انتهت وصلة أفرغا من الزجاج في كأسيهما فإذا شربا ما هو حسبهما ، ملآ لصاحبهما كوباً فاحتساه في تأدب وشكر لهما بإيماءة من رأسه ... وكانت حركاتهم في كل ذلك محكمة مضبوطة حتى لتحسب أنهم غير عميان ... والعجيب من أمرهم أنني حينما دنوت منهم أحسوا بي ، بل وتفوا أن بالقرب منهم رجلا ليس من المال الذين تكتنظ بهم الغرفة الفسيحة ، ولذا فقد فاءوا إلى وقار مصطنع ، وتسلوا الهدوء ونبل السمت

وقلت أخاطب صاحب الناى :

— من أي أطراف الأرض سمت بك قدماك يا صديقي يا صاحب الناى ؟

فقال في لهجة إيطالية : « من البندقية ! »

فقلت : « وهل ولدت هكذا أعمى ، أم ابتليت بهذا عن عَرَض ؟

فقال : بل ابتليت به قريباً ... نقطة لعينة ذهبت بنورها !

فقلت : إن البندقية مدينة جميلة ، ويا طالما حلت بالسفر إليها !

وقد هاج ذكر البندقية شجون الرجل ، فقد رقصت أساريره وبدا عليه التأثر ، وقال :

لو أنني ذهبت إليها معك لوفرت عليك كثيراً من وقتك !

وهنا تدخل صاحب الكمان فقال : « لا تكلم الدوج عن البندقية ، وإلا فانك تخرجه عن طوره فيلهم كل هذه القناني ... » وقال صاحب المزمار :

« هـلم فلتعزف الآن يا دادى كنارد ! » وانطلق الثلاثة يعزفون للرقصة الرباعية ، لكن أخى صاحب الناي لم يفكر فى البندقية بدليل ما بدا على جبينه المجعّد من الأشراق وما شاع فى وجهه الهائل من الجذل

وقلت له : « وما عمرك يا صاحبى ؟ »

فقال : « ثمانون وثمانون ! »

فقلت : ومنذ كم سنة عميت ؟

فأجاب : ها ... منذ خمسين ! تقريباً !

وكان يرسل جوابه فى حسرة وتلدد عرفت منهما أنه كان يأسف لشيء تعين أعز عليه من عينيه ضاع من يديه

وقلت له : إذن فلم يدعونك دوجاً !

فافتر باسماً وقال : « أوه ! إنها مزحة ! ومع ذلك فأنا نبيل بندق ، ولو أردت لكنت دوجاً أعظم من أى دوج آخر »

وقلت له : وما اسمك أيها الأخ ؟

فقال : هنا ـ فى باريس ـ أعرف باسم بير كانيه وهو اسم أردت به تسمية المسجل . أما فى إيطاليا فاسمى ماركو فاسينو كين أمير قارسيه

فقلت متعجباً : ماذا ؟ أنت حفيد الزعيم العظيم فاسينو كين الذى انتزع أراضيه دوقات ميلان ، بعد إذ استولى عليها بحد السيوف ؟!

فصاح متأثراً : «مرحى ! لقد تمرضت حياة والده للخطر فى ظل القيسكونتى فغر إلى البندقيه وسجل اسمه فى الكتاب الذهبي . والآن لا كين ولا الكتاب الذهبى فى هذا الوجود ! » قال ذلك وبدت عليه علائم الانفعال والتأثر ، وكانت حماسة الوطنية تهيج فى أنفاسه ، ثم يذهب بها الضيق من الحياة

وقلت أسائله : ولكنك إذا كنت فى البدأ نبيلاً بندقياً فلا بد أنك كنت مثرياً واسع الثراء ، فكيف إذن بددت ثروتك ؟

فقال : فى أيام الشدة !

وكان زميله صاحب الكمان يعرض عليه كوباً من الخمر فنحاه عنه ... لأن الحديث المؤلم عن ذاك الماضى المليء أفقده شهيته إلى الشراب

مسكين هذا النبيل البندق الذى ابتلاه الله فى ليرده فجأة إلى ذكريات ماضيه البعيد ، حين الشباب غض والصبا فى إبانه ...

فينيس ! هذه البندقية ! عروس الأدرياتيك !

لقد شهدت خرائب وآثاراً فى وجه هذا البندق الذى كان كله خرائب وآثاراً ، ولقد رأيتنى أرتد إلى ما قبل نصف قرن فأمشى جيئة وذهاباً فى المدينة الجميلة التى يمشقها ما كنوها ... وهأنذا أنطلق من الريالتو إلى الجراند كنال ، ومن الريفا دجلى شيافونى إلى الليدو ، ثم أرتد إلى السانت ماركس ... تلك الكشدرائية التى لا تطاولها كشدرائية فى حسن البناء وروعة التركيب ... وهأنذا أردد الطرف فى نوافذ الكاسا دورو ذات النقوش والتصاوير ... وها هى ذى القصور الباذخات وعجائب النباتات التى تنطبع فى الذاكرة فتظل أنوارها إلى الأبد فى صفحتها كالأحلام العظيمة التى لا تقوى الحقائق المجردة على محوها

ثم هأنذا أرى تيار الحياة الجارف يرتد فيكتسح بمآسيه وأحزانه هذا النبل الذى يتطاير كالشرر فى تضاعيف الزمن !

لا جرم أن أفكارى هذه كانت تضطرب فى نفس صاحبى البندق الأعمى ... بل هى كانت تخطر فيه أسرع ما كانت تخطر فى بالى ، لأن فقد حاسة البصر يساعد السميان على حضور البديهة وسرعة التفكير ، وتركيزه تركيزاً عجيباً

ثم ترك فاسينو آلته وموسيقاه ، ونزل عن مجلسه فى النافذة ، وقال : « هل تخرج من هنا ! » وقد سرت كلماته فى أذنى سريان الكهرباء ، فأعطيته

2017-11-14 Dar Al Hilal

ذراعى وانطلقنا من غرفة العرس ، حتى إذا كنا فى الشارع التفت نحوى فى انكسار وقال لى : « ألا تعيدنى إلى البندقية ؟ ألا تأخذنى معك إليها ؟ ألا تتنازل فتكون قائدى ؟ ألا ترد إلى ثقتى وإيمانى ؟ إنك إن فعلت فإنك تصبح أغنى من عشرة يونانات مالية من يونانات أستردام أو يونانات لندن . إنك تصبح أغنى من روتشيلد ! وقصارای أنك تحصل على أضعاف هذه الثروات الخرافية التى ربما تكون قد قرأت عنها فى ألف ليلة ! »

لقد كانت بداوات الجنون تلوح فى مخايل الرجل ، ولكن حرارة الإيمان التى كانت تفيض من منطقه جعلتنى أطيعه ، بل جعلتنى أتق إليه زمامى — أنا البصير ! — فذهب يدلف بى نحو ميدان الباستيل فى وعى عجيب ، حتى إذا كان عند بقعة موحشة دانية من النهر ، عند ملتقى ترعة سانت مارتن بالسين ... وقف قليلاً ، ثم جلس فوق صخرة ثمة ، وجلست أنا تلقاءه ... وهنا ... كان منظره رائعاً وقوراً ، وكان شعره الأشيب يتلألأ فى ضوء القمر كسلوك من فضة ! وكان كل شىء ساكناً ، ولم تكد تسمع إلا نحيج الحركة الخائبة فى ظلام البعد ... وكان النسيم الليلى الليلى يزيد فى سحر المكان ، ويضفى إليه أستار الخيال

وبدأت الحديث فقلت له : « إنك تتحدث عن الملايين إلى فتى يافع ابن عشرين ؛ أخشيت أنه يهاب الردى فلا يقتحمه للحصول عليها ؟ ولكن ... ليت شعرى ، ألم تكن تهزأ بى ؟ »

فأجابنى فى اهتمام : « ألا لاطلعت على شمس غد إذا كان حرف واحد مما سأقوله لك غير صحيح ... حينما كنت فى سن العشرين كما أنت الآن غض الأهاب فينان الشباب ، كنت نبيلاً بمولدى ، غنياً ضخم الثراء ... ثم ... نبض قلبى بالحب ، وجرفنى تيار الغرام ، وكان ذلك سنة ١٧٦٠ ، حين ملكت لبى خريدة من صبايا أسرة فندوام ، جميلة الخلق ، فتانة الجسم ، ساحرة القفنات ، متزوجة من أحد رجال مجلس الشيوخ الذى كان هو الآخر يعبدها عبادة ... وكم كنت ألقى فى سبيل غرامى هذا من أهوال لا تصبر على بعضها الجبال ... وكم عرضت نفسى للقتل المحقق من أجل قبلة سحرية أطبعها على شفتيها الرقيقتين ... فبينا كنا نتساقى كؤوس الحب الصافى كملكين طاهرين إذا زوجها يفجأنا ، وإذا به ينقض علىّ بسلاحه يود لو أغمده فى صدرى فيسكت به أنفاسى ؛ وأتيت بحركة سريعة جعلته يخطئ الأصابة ، ولم يكن معى سلاح مثله ، فتمكنت لحسن الحظ من عنقه ، وقبضت عليه بكلتا يدى ثم ضغطت ضغطة هائلة ، فسقط البائس ميتاً ، فى سبيل الدفاع عن عرضه ... وشرفه ... ثم أغريت بيانكا — وهذا هو اسمى حبيبتى — على الهرب معى ، لكنها رفضت — ولم يكن هذا جديداً من حال النساء ... فذهبت على وجهى فى الأرض وحدى ... وصدر الحكم علىّ غيابياً بالشنق واستصفاء أملاكى ، بيد أننى كنت أعرف هذا المآل من قبل ، فحملت معى جواهرى وأموالى ، وخمس صور تيشيانيات — بندقيات — انتزعتها من إطاراتها ثم لذت بالفرار إلى ميلان ، ولا أنيس لى ، ولا من حبيب واسيلنى إلا ... ذهبى ... ذهبى الكثير الذى أحببته قبل أن أحب أحداً آخر ... وللذهب معى قصة تبدأ من قبل أن أنشق نفساً واحداً من هواء هذه الدنيا ، فقد قيل إن والدتى وحمت عليه وهى حامل بى ، وقد أثرذلك فى جنينها ، فلما نزل إلى الدنيا لم يكن يعشق شيئاً عشقه للذهب ... فلما شببت كنت أزين بالجواهر واللآلئ الغالية ، وأحمل معى كيساً يحوى مائتين أو ثلثمائة من الدوقيات أبددها بغير حساب »

وحينما قال ذلك ضرب يده فى جيبه ثم أخرجها

2017-11-11 Facebook.com/Books4All

مملوءةً بجعنة من الذهب ووصل حديثه فقال :
« الذهب ! آه من هذا الذهب الذى أصبح دعامة الحياة فى هذا العصر كما كان فى كل عصر ... إنى أستطيع أن أحسه على بعد وإن كنت أعمى ياسماح ! ومن غريب ما يحدث لى أنى أقف بالبديهة أمام دكان الجواهرى أشبع شيطانى الكامن بمواجهة اللآلئ وإن كنت لا أرى منهن شيئاً ... وهكذا كان هذا الشيطان رائدى إلى الخراب ، لأنه قادنى إلى القبر لأنسب بالذهب ، فما زال يخدعنى حتى حطمنى ، وفقدت جميع ثروتى ... ثم عاودنى الشوق اللح لقاء بيانكا ... فاسترقت الخطى إلى البندقية ، ومازلت أطوى إليها السبيل مستخفياً حتى لقيتها ... وخبأتنى الحبيبة عندها ستة أشهر مرت كالحلم فى أحسن ما يكون بين العشاق ... ووقر فى روعى أن أنهى الحياة على هذا النسق السهل الجميل الموانى ، لولا أن شعر بحالها البروفيدوتور ، فبث عيونه وأرصاده ، حتى فاجأنا يوماً فى فراشه العاشق ، وهى غارة فى حضنى السعيد ، فكانت بيننا معركة هائلة ، لأنها من أجل الحياة ! ! على أنى لم أقتل الرجل ، بل جرحته جرحا بالغاً ... فلما صاح بالخدم أقبلوا مسرعين ، وهنا اشتدت المعركة ، وساعدتنى بيانكا فى الاجهاز على الرجل ... بيانكا التى رفضت من قبل أن تهرب معى ... ها هى ذى تقف إلى جانبى لتناضل عنى ، ولتتلقى عدة طعنات من أجلى ، وتتمنى أن تموت معى فى تلك المعركة الحامية ... ولما ضاق الخدم بى ، ألقوا على عباءة كبيرة ولفونى بالقوة ثم حملونى إلى قارب — جوندولا — وأسرعوا بى إلى سجون البوزى ، حيث قذفوا بى فى إحدى (زنازينه) بعد أن احتفظت بقبضة سيفى المكسور وقطعة من صفحته ، احتفظت بهما ، وصممت على حمايتهما ولو بروحى ، لعلى أنهما أنفع لى يوماً من الأيام — ولم تكن جروحى بذات خطر ، والناس يقولون إن الجروح تندمل فى الشباب أسرع مما تندمل فى غير هذه السن

« وعرفت أنى لا بد مشنوق بعد حين ، أو فاقد رأسى . وكان القبو الذى حُبست فيه قريباً من البحر كما وهمت ، فعولت على الهرب بنقب الحائط والفرار برقبتى وروحى جميعاً .

« وكان الحارس كلما فتح باب القبو دخل بصيص من النور كان يكشف على ضآلته جدران سجنى ، فرأيت مكتوباً على كل منها : (ناحية القصر) و (ناحية الترعة) و (ناحية الأقبية) . ثم لمحت رسماً على هذا الجدار الأخير لم أهتم كثيراً به ، وعرفت بعد أنه صورة للقصر الدوقى . وقد أشار فى تلهوق إلى النجاة ذكاء حاداً لم أعهده فىّ من قبل . وقد جعلت أتلمس الحائط بأصابعى وأتحسس ما عليه من النقوش ، وكان الظلام دامساً شديد الحلك . واستطعت آخر الأمر أن أتهجى كلمات عربية عرفت منها أن حافرها يخبر من يجىء بعده أنه قد قلقل حجرين كبيرين فى أسفل أساس البناء ، ثم أفرغ أحد عشر قدماً فى الأرض مما يلى الحجرين . وأنه كان يستعين على إخفاء آثار الحفر بنثر التراب المنتخف فوق أرض القبو حتى لا يكشفه الحارس . وكان هذا احتياطاً لا داعى له من السجين البائس ، فقد كانت أرض القبو عميقة بعدة درجات من بابه بحيث لم يكن يُمنى السجانون بتفتيشها ، ولا بإلقاء نظرة مجردة عليها ، ولم يكن منظرها فى هذا الظلام الدامس يثير شكوك من ينظر إليها

وا أسفاه ! ! لقد جهد السجين كل هذا الجهد لينجو ، لكن جهده لم ينفعه لأنه قتل ! ومما نقش فى حائط القبو عرفت أنه كان عربياً أو من أصل عربى ، فلولا إلمامى ببضعة لغات شرقية لما استطعت أن أصل ما انقطع من عمله الشاق ، لأنجو أنا بنفسى ... فشكراً لهذا الدير الشرق فى أزمير . حيث تعلمت

2017-11-11 Egyptian Book Organization

هذه اللغة الكريهة التي بها أفلت من سجني ! لقد ذكر المسكين في نقشه أن الحكومة البندقية قد قبضت عليه واستصفت أمواله ثم حكمت عليه بالإعدام ... فيالله ما أشبه الجدود الموتى !

«ووصلت ما انقطع من عمل الرجل، ولبثت شهراً كاملاً أحفر بقبضة سيفي العزيز والقطعة التي بقيت من صفحته ، وكنت أنسرق في السرداب فوق بطني وصدري، وأعمل أظافري في التراب .. وكلما ذكرت دنو الموعد الذي تبقى لي لأمثل أمام قضائي ، وأن ذلك سيكون بعد يومين اثنين ضاعفت مجهودي لدرجة الاستماتة حتى أسمعني الحظ ، وأدركتني رحمة السماء، فرأيتني أصل إلى غاية لم أكن أحلم بها ..!

« وهنا .. يلعب الذهب دوره من جديد ياصاحبي العزيز ! الذهب واللآلئ ... ثروة البندقية كلها .. ذهب ... لآلئ ... ماس ... كل هذا يا صديقي خطف بصري وأذهل شيطاني

ولم يكن يحجزني عن هذا الكنز إلا عارض من الخشب كان لابد أن أزيله لأصل إلى هذه الثروة الطائلة ... فخلعت ملابسي وعملت عارياً بكل قواي حتى أزحته قليلاً ... ثم تسبت فجلست أستجم ، وسمحت لباب الكنز بأن ينفتح فجأة ، فنظرت فإذا دوج البندقية نفسه يدخل ويدخل وراءه عشرة من رجاله الأقوياء ، فينظرون إلى أكوام الذهب وزنابيل اللآلئ ، ففهمت من حديثهم أن هؤلاء نجيي الجمهورية ثروتها العامة وغناءها من النزو والحروب

وفكرت وفكرت ... فهداني التفكير إلى ضرورة إشراك السجان معي في حمل ما نستطيع حمله من هذا الكنز ، والهرب إلى أقصى آفاق الأرض ... ولم يتردد المسكين في قبول اقتراحي ، بل أقدم عليه بقلب أشجع ألف مرة من قلبي ... واتصلنا بجيبتي بيانكا فقامت من جانبها بمساعدة هائلة ، وأعدت هي والسجان قوارب النجاة ، وبعدأن اتخذنا كل الاحتياطات الواجبة في مثل هذا التدبير دعوت صاحبي فهبطنا إلى كنز الجمهورية الثمين!

« يا لها من ليلة ! لقد وقف السجان مسبوهاً أمام زنابيل اللآلئ وصناديق الذهب ، ثم انطلق فجأة يرقص ويغني ، وينتقل كالفراشة من غرفة التحف الفضية إلى قبو الذهب ، فما شككت أن المسكين قد أوشك أن يجن ... وقد خفت أن تفلت الفرصة من أيدينا بهذا النزق وذاك الطيش ، فلم أتركه يستمر في تحكمه ورقصه وجنونه إلا ريثما أملأ جيوبي وكل جيوب ملابسي بخير ما رأيت ثمة من لآلئ وجواهر ومأسات ، ثم صحت به أن يتزود ، فانكفأ يقذف في جيوبه هو الآخر ما اشتهت له نفسه ثم أمرته أن يملأ أكياساً كانت ملقاة في زاوية فأقسمها ذهباً ... وحذرته أن يمس اللآلئ لأنها تنم عن حاملها فيضبط وينال جزاءه ، فعزف عنها ، في حين كنت أنا أغافله وأمتق منها لنفسي ما أشاء فأدسه في ثيابي بين البطانة والظهارة ، وبرغم ما كان يستولي علينا من جشع قاتل لم نحمل من الذهب إلا ما قيمته ألفا جنيه إذا ما وزن ، وقد رشونا الحارس الواقف كالصفريت عند البوابة بكيس فيه وزنة بمشرة جنيهات ، فأما اللاحون فقد أوهمناهم أنهم إنما يخدمون الجمهورية بمساعدتنا ، على ذلك أبحرنا حينما تنفس الصبح أو كاد

وحينما كنا بمأمن في عرض البحر ، عاودتني أشباح الذهب واللآلئ . واضطربت في ذهني صور الكنز العظيم الذي خلفناه وراءنا ، وبدأت أذكر ذكريات الملايين التي كانت منذ ساعة في قبضتنا ، فقدرت قيمة الفضة بثلاثين مليوناً ، والذهب بعشرين مليوناً ، واللآلئ والماسات بأضعاف ذلك ... وهنا ... شعرت بحمى الذهب تسيطر على مشاعري وتتسلط على وجداني ، وتسري في نخاعي !

ثم رسونا إلى أزمير ، وركبنا البحر ثانية إلى فرنسا ، وكم شكرت لله وصليت حينما ركبت في

السفينة الفرنسوية لأنى أصبحت بمأمن من كل عين ولأنى تخلصت من شريكى المجرم فى الجريمة ... ولم أعد أفكر فى العواقب المحتملة لهذه الفعلة الشنعاء ، بل لم أكلف نفسى قبل أن نفترق بمكالمة شريكى عن هذا الجرم ، لأنى كنت ألحظ أنه يكاد يجن من الفرح بما أفاءت السرقة عليه ... فانظر كيف اقتصت المقادير منى وقد يشدهك أن أذكر لك أنى ما عرفت شيئاً من هدوء البال حتى بت ثملى ما حلت من اللآلئ والماس فى لندن وفى أمستردام ، وإلا حينما تخلصت من التبر الذى منى بأن استبدلته بكل أحمر رنان وقد لبثت مستخفياً فى مدريد ما يقرب من خمس سنوات ثم رحلت إلى باريس بعد ذلك محت اسم اسبانى مستعار ، حيث عشت عيشة كلها سعة وبلهنية

وفى هذا الجو الفردوسى من السعادة ، وفى ذاك العباب الزاخر من اللذة التى تجليها ثروة ستة ملايين من الجنيهات ، قضت المقادير أن تبلونى بالمس ! وقد علموا الساعة التى نزلت بعينىّ من إقامتى فى مكان موحش — الزرانة ! — يد أنى علقته بما هو أدنى من ذلك إلى الحق ... ويلاه ! لقد فقدت بصرى من طول ما بكيت على بيانكا ... فقد ماتت !

ولكن لا ! ... ليس ذاك أيضاً ! فاصغ إلى تلك القصة : « لقد وقعت فى شراك حب جديد ! سيدة من نمانيات باريس بحت لها فى نوبة جنون عرباى باسمى وسرى ... ولقد كانت هى صديقة من صديقات مدام دى بارى ... وقد كانت هذه العلاقة سبباً فى ربط أسبابى بأسباب لويس الخامس عشر ...

وقصارى القول ... لقد ألقيت بالى كله إلى حبيبتى الجديدة التى أشارت علىّ بشد الرحل إلى لندن لاستشارة طبيب من أطباء العيون المشهورين فيها ، فسافرنا من فورنا . وبعد عيشة راضية منمقة بالقبل ، منسولة بدموع الحب ، هجرتنى حبيبتى فجأة فى الهايدپارك ... أواه ياصديقى ! لقد هجرتنى اللعينة بعد أن ابتزت آخر دانق منى ! ومع ذلك فلم أجسر أن أحتج بكلمة ، لأنها وقفت على سرى ، ولأنها إذا باحت به ، فقد عدت إلى عدالة مملكتى لتقتص منى قصاصاً مضاعفاً ... وذاك الذى أخافنى فلم أقصد إلى أحد من معارفى لأستمده يد المساعدة ولم تتركنى الشيطانة لشأنى بل بثت على العيون والأرصاد الذين صنعت بهم ذرعاً ، فأخذت فى مقاومتهم ، لكنهم اتخذوا تلك المقاومة حجة على اختلال قوای العقلية ، فتقدمت المرأة الخاطرة إلى مستشفى المجاذيب (جيل بلاس) تطلب زجى فيه ، فنجح مسعاها ، وحللت عليه ضيفاً غير كريم حيث ألفت بين مجانينه عامين كاملين ...

— وكأنما ثارت فى قلبها الشفقة من أجلى فأخرجتنى من هذا البيمارستان وزجت بى فى ملجأ للعميان... أواه ! لقد عجزت أشنع العجز عن قتلها ! بل عجزت إطلاقاً عن رؤيتها ، وكنت على شراء سلاح ينقمنى أعجز منى فى الحالين !

« ولو قد كلت سجاني بنسرتو كاربى قبل أن أتركه فى أزمير ، لعرفت منه موضع القبو الذى كنت مسجوناً فيه ... إذن لعدت مرة ثانية إلى الكنز ، ولانتهزت الحقبة التى عزما فيها نابليون البندقية ومحاهامن الوجود .. وإذن .. لعدت غنياً من جديد ! !

« هل سمحت ياصاح ! إنى برغم هذا العمى الذى طمس عينى مستعد للذهاب معك إلى البندقية ... وكلى ثقة أننا إذا ذهبنا ، فلا بد أن أعرف مكان الكنز ... إنى ما زلت أرى الذهب برغم عماى ! إنى لم أفقد حاسة النظر إلى الذهب .. إنها حاسة سادسة فى طبيعتى ؛ إننى أستطيع أن أرى ذهب البندقية ولو كان مطموراً تحت الماء ... لقد دفن خبر الكنز اللعين مع جثمان فندرامين ، أخى بيانكا ... هذا النبيل الذى أنبأته به ليجنى خصومات العشرة[1]

« اسمع ياصاح ! لقد كتبت بخصوص هذا

(١) مجلس جمهورية البندقية

الكنز إلى القنصل الأول[1]، ثم إلى امبراطور النمسا فسخرامتي، وكتبا إلى السلطات بضرورة مراقبتي أو زجي فى بيمارستان ... فهل أنت ... هلم بنا إلى البندقية ... لنذهب إليها فى زى شحاذين، لنسود منها من أعماب الملايين ... إنني أستطيع بذلك أن ارد أملاكي، وستصبح أنت وارثي ... إنك ستكون أمير قارنزى !! »

وسكت الرجل، ودارت بي الدنيا ...

ونظرت إليه، ثم إلى السين، ثم إلى الترعة، فخيل لي أنني أنظر إلى قنوات البندقية؛ ثم رددت فى وجهه المفضن عيني، فخيل لى أنني أنظر إلى جدران الباستيل، غائصة فى مياه البندقية كذلك

وتلبثت برهة لا أنبس، ودار بخلدي أن الرجل قد أخذ يستريب بي، وبظن أنني أرثى له كمجنون كما رثى له الآخرون، فبدأ وجهه يتقلص، وتمثل بالأسارير، ويعبر عما يشيع فيه من فلسفات اليأس، وخلجات القنوط

ومن يدرى؟ فلربما جاءت هذه القصة ذكريات البندقية فى قلب الرجل، فطفق يبكى شبابه وبنى حبه ... آية ذلك أنه أدنى يديه من شفتيه، وأخذ يلعب لحناً مؤلماً، حنوناً، لم تقع فيه لحنة أو نشوز ... ولاغرو ... فقد كان لحن حبه الضائع، وشبابه المولى

ثم امتلأت عيناه العمياوان بالدموع .. وسرت الموسيقى فى هواء السين تجلجل وتتكسر مع أمواج النهر .. ولو أن عابراً سهماً تحجر قلبه لو قذف بنفسه إلى موسيقى الذكريات .. موسيقى لحب المنفى .. الذى يرسل من مزماره آخر صرخة من صرخات الألم وراء اسمه

(١) نابليون قبل أن يكون إمبراطوراً

النسى المتزوج بذكريات بيكاندكا !! ولكن سرعان ما علا ميزان الذهب، وشال ميزان الحب ... ونكس ميزان الشباب !!

وقال فى صوت متهدج : « إنى أرى الذهب دائماً، فى منامى وفى يقظتى ... وإن روحى لا تنى تسبح فى عالم متلألئ بأضواء النضار والجواهر واللماس الثمين ... إنى لست أعمى كما عساك تظن، فالذهب واللؤلؤ يضيء لى ظلمك ليلى الدائم ... ليل فاسينو كين القديم الشاب، لا أنا ... فقد تقلص عنى لقبى إلى مسمى !! آه يارنى !! لقد حل عقابك بالقاتل فلم تفلته ... بوركت ياقدوس ! ...

ثم ذهب يردد سلوات كثيرة لم أعن بالتثبت منها ... فلما هب واقفاً قلت له : « هل ستذهب إلى البندقية ؟ إنى مستعد ! » فتهلل وجه الرجل وصاح : « إذن لقد لقيت رجلاً بمد طول اليأس ! ». ومددت له ذراعى فلف ذراعه عليه، وذهبت معه ملجأ العميان . وقد لقينا فى الشارع جماعات المدعوين يصيحون ويصخبون فى طريقهم إلى منازلهم

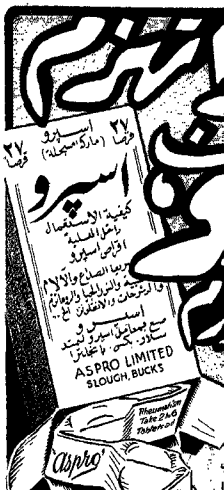
وقال لى وهو يضغط على يدى : « هل تبدأ رحلتنا من غد ؟ » فقلت له : « بمجرد أن يتيسر لنا مبلغ من النقود ! » فقال : « بل نتطلق على أقدامنا ! إنى سأشحذ ! إننى مازلت قوياً . وأنت، إنك ماتزال شاباً موفور الشباب، وستتدفق القوة فى كيانك حينما تنظر إلى قناطير الذهب تخطف عينيك

وتوفى فاسينوكين قبل أن ينقضى الشتاء بعد شهرين طويلين قضاهما فى مرض عضال ..

لقد أصابه برد شديد لم يمهله ... مسكين !

الانفلونزا خطر مميت

في كل حالة من حالاتها "أسبرو" يحمل الكمية اللازمة



نزل الاطباء الوارده من جميع انحاء البلاد على ان "أسبرو" قد قدم للانفلونزا وقرصة الانفلونزا لهذا العام فى سنكلين (١) اجتماع الحلق (٢) أوجاع الرأس . السعال . الرشاش . الحمى . الضعف . فاستعمل قرصين من "أسبرو" غرغرة عند الشعور باحتقاق الحلق المزمن وتمضمض العدوى وما يتبعه عليه بالماء فى ساعات وخذ قرصين من "أسبرو" وتناولا أخرى كذلك اليوم أو قبلها بساعة لو سكن كما يرون لك . بهذه الطريقة تزيل الاصابة بالانفلونزا فى ليلة واحدة حتى اسرعت دون ابطاء الاكثر الحالات الدور الاولى من الاصابة وانك لتتعجب من قصر المدة التى تزيل بها "أسبرو" الام المركب الناجم من ارتفاع درجة حرارة الجسم . كذلك تزيل "أسبرو" الالم الذى يصحب الاصابة وتجد الصفاء الى النفس . وتحل النوم اللذيذ محل الارق والعناء فحين المواظبة على استعمال

المبادرة بطرد الانفلونزا

جرب "أسبرو"

فى الحالات الآتية

الانفلونزا	عرق النسا
أوجاع الرأس	الربو
الزكام	وجع الظهر
الرشح	الآلام العصبية
التهاب الحلق	

الوكلاء ج. ب. شريدان وشركاه

الاسعار ٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ اقراص ٢٠ قرشا ٢٧ قرصا ٥ قروش



"أسبرو" يحمل كمية غرغرة

قرصان "أسبرو" فى اربعة سنتيمترات ماء تكون غرغرة منعشة فى التهاب الحلق والتهاب اللوزتين

جرب "أسبرو" اليوم

قرصان بخمسة مليمات

الحب والقتل

للكاتب الفرنسي أرمان بيكير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

قال إدوار ديبون ، وكان رفيق فى المدرسة الثانوية ، وقد ضرب الدهر بيننا أكثر من ثلاثين عاماً :

من شأن الحزن أن يرجع بصاحبه إلى العصر الماضى ، فيُشهده فى عالم الخيال كل نعمة كان فى سالف الأيام باشرها ، وكل مسرة لابسها ، وكل لذة خالسها ، وكل غبطة عاقرها ، وكل متعة لامسها . ويطيل به الوقوف على أخيلة تلك اللذات والمطايب ، ويكثر به التلوم على أشباح هاتيك المباهج والمطارب ، مبدياً ما بها من طريف المحاسن ، مما كان قد خفى على المرء منها أيام يباشر حقيقة هذه النعم واللذائذ ...

وكذلك الذكريات تذيع بعد انتقاد الأشياء للوهم ، غوامض أسرار كانت أيام وجدانه تغيب عن الفهم ، فلا يدركها الفهم ولا يحيط بها العلم . فمن ذلك ترى يا صاحبى أن الحزن تخيم من فوقه اللذة ، وأن البلاء الذى نحتمله إذ ذاك لا شبه له بالألم المطلق الذى لا يكون قط إلا بغيضاً منكراً ، والذى ما نزال نبتغى الخلاص من ربقته

فقلت له : لم يكن هذا عهدى بك يا ادوار ، فقد كنت باقعة المرح ، ومقدمنا فى الأفراح ، وقائدنا إلى كل لهو بريء . فما الذى طرأ عليك حتى غيَّر طبعك وبدَّل خصالك وأصبحت تنعت الماضى نعت المصاحب ، وتندب بلواك وتبكى شجوك وأشجانك ... ؟ أما أنا فلا أحب إدامة الإطراق والتفكير والهم ، ولا الاسترسال مع الخواطر المحزنة والاندفاع فى تيار المواجس المترحة ، وشأنى أن أفرق بين الخاطر المحزن وأخيه بالفكرة السارة ، والذكرى المفرحة .

فقال إدوار :

— إن هذه الخواطر الحزينة التى تعمل فطرتك الطروب على مطاردتها ، مع ما طويت عليه من حزن ، واحتوته من شجن ؛ لتكسبنى لذة وتورثنى متاعاً . ومنذ لبست يد الحوادث بمقدراتى ، وأوردنى حسن الظن بالدنيا وناسها ، ووفرة الثقة بصدقهم وإخلاصها ، والانخداع بظواهر الأمور ، سجل الشقاء والألم ، صبوت للحزن ، وتاقت نفسى إلى الأسى ؛ فسرَّحت خاطرى فى أودية الذكرى ، وإن من الحنين ما يستحب ، ومن الدموع ما يستعذب

تعريف بالقصة

« ارمان بيكير Armand Bickert كاتب فرنسى ليونى (نسبة إلى ليون) المولد والنشأة . درس القانون ودخل الجندية ، وخاض غمار الحرب العظمى وتخصص فى كتابة القصص التى تكشف عن نفسية بعض رجال الجيش وقد أكسبته دراسته رقة فى الأسلوب ودقة فى الوصف . وقد ترسم خطى بعض كتاب الروس ، لأنه عكف على تمحيص ما طالعه من مؤلفات تورجنيف وتشيكوف وتولستوى ودوستويفسكى وأندريف . لما ترى أدبه متأثراً لأبعد مدى بالنفوس والحقاء والحزن والطيرة . وقد نال جائزة فيمينا Femina بعد أن نصرتك القصة التى دلت على علو كعبه ، وهو يرى فى المرأة من التقلب وعدم الوفاء ما يجعلها أداة الغدر فى السخرية من الرجال وعدم البقاء على الحب ولو كان الحبيب الأول »

فقلت له : لقد تركتك وقد أحرزت إجازة التعليم الثانوى من «لسيه لوى تريز» وكنت تنوى أن تتم دراستك فى إيكول سنترال ، فقد كانت مواهبك الرياضية جد متألقة

أجاب : نعم ... ولكن والدى ألحقنى بكلية سان سير الحربية ، لأن لأسرتنا تقاليد من عهد بونابرت ، وكان لى جد وعم وخال حملوا السيوف وعرضوا الرماح ، وخاضوا غمار الحرب تحت لواء الأمبراطور نفسه ، فلم أعص له أمراً . وبعد أن تخرجت برتبة الملازم فى سلاح المدفعية ، تمهيداً لترقيتى إلى صفوف أركان الحرب ، عينوا إقامتى فى بلدة « آنسى » ولعلك يا أخى لا تعلم كيف تكون عيشة الضباط فى الجيش ، ففى الغداة التدريب العسكرى وامتطاء صهوة الجياد ، ثم الغداء مع القائمقام فى مطعم يهودى ، وفى العشى الراح والسمر والميسر فى الأيام الأولى من الشهر ، عند ما تكون أكياسنا عامرة بالرتب . ولم يكن فى بلدة آنسى فى ذلك العهد بيت واحد مفتوح ؛ ولا فتاة واحدة صالحة للزواج ؛ فكان دأبنا التراور ، وأن نتلاقى فى مثوى أحدنا ، حيث لانبصر إلا وجوه الرفاق ! ولم يكن يخالطنا لا رجل واحد من المدنيين (هكذا كنا نسمى كل شخص خارج الجيش اعتزازاً بأنفسنا وازدراء بالآخرين !) وكان هذا الرجل الملكى يناهز الثلاثين ، فصدناه — لحداثة أعمارنا — شيخاً كبيراً . يا للغرور ! وكان يتاز علينا بفضل حنكة وتجربة ، وكان لما انفرد به من طول الصمت وعمق السكوت وعبوس الوجه ، وذرابة اللسان (حين يسمح لنفسه أن يتكلم) وصرارة النهكم ، وقع فى نفوسنا وأثر بليغ . وكان يخيل إلى أمنيتنا الفتية الطائشة أن لهذا الرجل ، لاريب ، نبأ خفيًّا وشأناً غامضاً ؛ وأن سراً مجهولاً يحيط بحياته . وأظنك يا أخى لا تزال تذكر دروسنا فى علم النفس ، فأول وأقرب مايعنو لنا من خصائصها هو الوجدان المسمى بالتطلع ، والميل إلى استكشاف الجديد والتلذذ به ؛ وقد علمنا أن كان له سابق خدمة عسكرية فى الهوسار ، حيث أبلى بلاء حسناً . ولم يعرف أحدنا العلة التى من أجلها ترك الجيش وهو فى مقتبل العمر ، وطاب نفساً بالاستقار فى آنسى ، حيث عاش عيشة جمعت بين الفقر من ناحية ، وبين التبذير والإسراف المهلك من ناحية أخرى ، فكان لا يزال يسير على قدميه ، لا يركب قط مطية ولا ينفك فى كساء رث قديم ؛ ولكن طعامه كان بين أصحابه مشاعاً مشتركاً ، وكان خوانه لإخوانه مستباحاً ، وساطه للدانه منتهكاً ... لا أقول إن مائدته كانت رداحاً ، ولكن المجرة كانت تفيض من دنانه فيضاً وتهطل من أقداحه هطلاً . وكان أشد ولعه وشغفه بالرماية ، ينصب الأهداف ولا يزال يرميها بطلقات بندقيته ... وقد بلغ فى الرماية مبلغاً لم يُسمع به ، ولا يكاد يصدقه إنسان ! وكان حديثنا كثيراً ما يدور على النساء والقمار والمبارزة ؛ ولكن سيلفان (وهذا اسمه) لم يكن يشارك فى هذا الحديث قط ! وكنا إذا سألناه : « هل بارز قط إنساناً ؟ » . أجابنا بإيجاز وجفاء : أىْ نعم قد فعل ذلك ! . ثم يأبى ذكر التفاصيل فاستنتجنا أنه لابد أن يكون قد قتل رجلاً فى مبارزة ، وأنه يحمل دمه المسفوك فى عنقه ، ويشد وزره وإثمه إلى نياط ضميره .. وسهرنا ليلة للقاهرة وجلس ليوزع الورق بعد أن وضع على المائدة الخضراء ألف فرنك ذهباً . وكان من عادة سيلفان

2017-11-14 15:05:03

إذا تصدر مجلس اليسر أن يلزم تمام الصمت ، فلا يجادل ولا يخاصم ، ولا يلج بابَ حوار أو مناقشة .

وكان بيننا في تلك الليلة ضابط جديد ، ورد حديثاً فرقتنا فأتى في خلال القلب بهفوة غير مقصودة بأن زاد رقماً واحداً في حسابه . فتناول سيلفان الطباشير في سكوت سكسوني وقيَّد العدد على صحته كما دونه ، وحسب الضابط الجديد المخطىء أن سيلفان أخطأ فشرع يناقشه الحساب ، فلم يحفل به صاحبنا واستمر يوزع الورق دون أن يعيره التفاته ، فنفد صبر الضابط . وتناول الأسفنجة ومحا بها ما ظنه خطأ . فتناول سيلفان الطباشير وصحح الحساب ثانية ، وكان الضابط قد لعبت الخمرة برأسه وأحمت الدم في عروقه ، وهاج الغيظُ عواطفَه ، وأثار خاطره فحمكُ القوم ، فطار الغضب في دماغه وعدها على رب الدار إهانة ، وأمسك بشمعدان نحاسي كان على المائدة وقذف به رأس مضيفنا ورئيس منضدة القلب فراغ الرجل وأفلت ، وقد كاد الراجم يفلق جبهته كعلق النوى .. عند ذلك تولانا الذعر والروع والفشل ، ونهض سيلفان في سكينته وهو يحرق أنيابه حنقاً وعيناه تتأججان غضباً ، ولكنه ملك زمام نفسه وأحسن القبض على لجام أعصابه الهتاجة في وقت لا يملك فيه أقوي الرجال مشاعره وقال للمتدى : سيدى العزيز ! تكرم عليَّ وتفضل بالانسحاب من القلب ، واحمد الله أن هذا الحادث قد وقع في داري ! فانسحب الضابط وهو يقول إنه مستعد أن يبارز خصمه بأي سلاح يختاره . ولم يشكَّ أحدنا في عاقبة هذا الأمر ، وحسبنا صاحبنا الجديد المنهور في عداد الموتى . واستمر القلب دقائق معدودة ، وشهدنا انقباض صاحب الدار وضجره ، فانسحبنا واحداً إثر واحد . ومضت ثلاثة أيام ولم تقع المبارزة والضابط المتدى لا يزال على قيد الحياة فقلنا : أمن الجائز أن سيلفان لن يبارز خصمه ؟ إنه إذن لمولود من جديد ، وكأنه ورد سجل الأحياء ليومه . واقتنع سيلفان من الضابط بمعذرة واهية ، ثم صالحه وصافاه ، فسقط سيلفان في أعيننا مستر الضباط الشبان ؛ لأننا رأينا الجبن رأس المساوىء .

ولكن هنالك رجالاً يكفي مجرد النظر في وجوههم لأن تنعقد فيهم الشجاعة ، وكان من بينهم ذلك الرجل النامض . وما برحت الأيام أن محت من صفحات أذهان رفاق ذكرى الحادث . واستعاد سيلفان نفوذه بيننا وسابق هيبته ، ما عدايَ أنا وحدى ! فقد زالت كرامته من نفسي ، وأصغرته وأزلته حتى تنكرت له وجعلت أخجل من النظر في وجهه ؛ وآنست منه الرة بعد المرة أنه يهم بمفاتحتي ليشرح لي حقيقة حاله ، فجبلت أروغ منه إلى أن مَلَّ وانصرف . وما لي برجل أغضى على القذى ، واحتمل الإهانة ، وترك صحيفته ملطخة بالعار دون أن يحرك ساكناً لتنقيتها من تلك الوصمة ؟ وكنا معشر الضباط الفتيان نرى الشجاعة كبرى المحامد وعُليا المناقب وفُضلى الخصال ، وقد يجعلها بعضنا ذريعة إلى كل منكر ، وشفيعاً في كل وزر وماثم ؟ !

وفي يوم من الأيام زارنا في ديوان الثكنات وقال : « أيها الأخدان إنه قد طرأ عليَّ ما يوجب رحلتي من الثو والليلة . وإني لمسافر الليلة وأرجو ألا تضنوا عليَّ بهزا كأسي على مائدة الوداع في بيتي فانها المأدبة الأخيرة التي أحظى فيها بشرف الاجتماع بكم كسابق عهدنا » فقبلنا دعوته ، وفي الموعد

2017-11-14 15:05:03

المضروب ليبت دعوته فألفيت تمّت كل إخواني ، وكان سيلفان في أحسن حال من الانشراح فسرى إلينا جانب من سروره وطربه ، وجعلت أبارين الرحيق تفض أختامها ، والدنان يتدفق مدامها . ولما همّ القوم بالانصراف أذن لهم جميعاً وقبض على يدي واحتجزني ، فلما خلا المكان من الجمع أجلسني إزاءه وقال لي : لعلنا لا نلتقي بعد اليوم ، فأرى قبل الفراق أن نتفاهم في أمر بيننا قد غشيه الشك واعتوره الغموض . لعلك عجبت من إمساكي عن مبارزة السكير الأحمق رودولف . على أن حياته كانت في قبضة يدي ، مذ جعل لي حق اختيار السلاح ، ولكن لو كنت أضمن حياتي كل الضمان لما أعفيته قط من المبارزة ، ولما ترددت لحظة في استلال روحه من بين جنبيه ، ولكن ليس من حقي أن أعرض حياتي للهلاك قبل الأخذ بثأر قديم وسبب ذلك أني قد لطمت على وجهي منذ ستة أعوام ، ولم أشف نفسي بعد من اللاطم الذي ما زال حياً يرزق

وما كنت ممن ينام عن الثأر حتى الموت . ثم جعل سيلفان يتحرك في مجلسه كالحائر القلق ، كمن به هم باطن وألم عميق ، ولم يبق في وجهه أقل أثر مما كان فيه آنفاً من الجذل والحبور ، وكانت صفرة لونه وبريق عينيه وكثافة الطباق النبيث من غليونه وقد أعارت شخصه هيأة الشيطان ، وصورة من مردة الجحيم ! وأخيراً تكلم فقال :

قد علمت أني كنت ضابطاً في فرقة الهوسار ، وكان الفسق والفجور والدعارة هي المذهب والعرف المألوف في أيامنا ، فكنت شيخ الفاجرين وإمام الفاسقين وزعيم أهل الفراغ والخلاعة ، فاتفق في بعض مجالسنا على الشراب أني ضربت برتو الشهير الذي قد تغنى بذكره الشاعر الفريد ديفيني فصرت موضع الاعجاب ومحط التكريم ووصفني المشير دزيريه في أحد تقاريره الرسمية بأني « أذى ضروري للجيش وبلاء لا بد منه » ، وانضم إلى فرقتنا في حديث من أسرة نبيلة ، ذو جمال وذكاء وفتنة ، فزعزع من مكاني ، وتهدد سلطتي ، ولكنه شرع يخطب ودي فتلقيته بانقباض وجفوة ، فأحجم عني واستشعرت له نوعاً من البغض الكامن ، ولما رأيت حظوته لدى النساء ألحّ علي الكرب وأكل الشيظ شغاف قلبي ، ثم التقينا في مرقص بدار سري من أعيان أورليج ، وقد خصته ربة الدار — وكانت صديقة لي — بالحفاوة والعناية والملاطفة ، فدنوت منه وهمست في أذنه بلفظ جارح ، فثار عليّ ثورة الأسد ، ولطمني على وجهي ، فقبضت على قائم سيفي ، وأخمى على النسوة ، فافترقنا لنلتقي في الليلة نفسها بميدان المبارزة وكان الوغد إذ ذاك قليل الاكتراث بالموت ، فحدثت نفسي : « أية فائدة هنالك في انتزاع الروح من شخص لا يجمل للحياة شأناً ولا يقيم لطول العمر وزناً ؟ »

فقلت له : الظاهر أنك غير متأهب للموت الساعة وأراك تستمد للقاء صديقك وما كنت عن ذلك بمانعك

فأجابني : إنك لا تمنعني من ذلك . وعلى كل حال فسأبقي لك على طلقة تطلقها متى شئت وسأبقي أبداً مستعداً للاستهداف لما تحت مشيئتك

فأخبرت الشهود أني لا أريد الاطلاق اليوم ، وبذا انقضت المبارزة وفقاً لقانونها [1] ثم اعتزلت

(١) وفقاً لقانون المبارزة لا بد أن يكون اللاطم أطلق وأخطأ

2017-11-15 Egyptian Book

الجندية وتسترت فى أنسى ، ولم يمر بى يوم إلا فكرت فى الانتقام ، والأخذ بالثأر . والآن قد آن الأوان ، فقد وردت إلىّ رسالة من أحد أصدقائى بباريس يخبرنى أن خصمى الجبيل الفاتن قد اقترن من فتاة حسناء . فمنذ متوجه إلى باريس . وسوف ترى هل يستقبل الموت غداً وهو مستمتع بالزواج بمثل تلك الشجاعة التى استقبله بها يوم أسلفنى الطلقة الباقية وتعهد باستعدادى لتلقيها من غدارتى فى أى يوم أشاء

فقلت له : إنه انتقام متأخر يا صديق سيلفان ! فضحك ضحكة جهنمية شيطانية ، وبدت نواجذه حتى لكأنه مفستو[1] يسخر من الدنيا وما فيها وقال : كلما تأخر الثأر كان أشهى وأعذب وأوقع ، وما قيمة حياته أستلها من جنبيه وهو لا يعبأ بها ، مذ كان فى ميعة الشباب وعدم اكتراث الفتوة ؟ الآن ، والآن فقط ، قدعرف قدر الحياة وذاق طعم نفسها ! فلشد ما يكون الموت ألماً فى حسبانه ، عند ما يرى أنه يغادر هذه الدنيا تاركا وراءه المال والجمال وفسحة الآمال ، والشهرة والاقبال ، وعمراً طويلاً يرجو أن يقضيه فى أحضان قرينته الفاتنة ! فى قصرها الفخم . ثم نهض سيلفان ورمى بقبعته على الأرض وأخذ يقبل فى الحجرة ويدبر ، كأنه النمر الضارى فى قفصه الضيق

ثم قال : لقد عشت ما مضى من عمرى بعد الصفعة التى تلقيتها على خدى كظليا ، على أمل تلك الطلقة المتقدة لشرفى ؟ وأراك تهونها وأنت الذى ازدريتنى إذ رأيتنى أعفو عن صاحبنا الأخرق ...

قلت : أواثق أنت من إصابته ؟ فضحك ثانية وقال : إن حياته فى قبضة يدى ؛ ولو أنت اقترحت أن تحمل على قلنسوتك تفاحة ثم رشقتها لما امتنعت ثقة بتسديد رمايتى ، وإنى لن أصيب إلا الهدف ، ومن المحال أن أخطئه أو أتعداه ، إلى ما دونه من أجزاء بدنك وأوصالك

قلت : إن هذه لتجربة لم يقلع فيها غير غليوم تيل فيما أعلم

قال : غليوم تيل ؟ إنها لأسطورة ابتدعها أهل سويسرا تمجيداً لبطلهم الوطنى . أما رمايتى فحقيقة لا ريب فيها . ثم قال : « انظر ! » ، وكان قد حزم كل أمتعته وحاجه ، وربطها استعداداً للشحن ، فلم يبق بالدار إلا جدرانها العارية المتقبة من آثار مراميه ومراجه . وقد نُقشت فيها الخروق طولاً وعرضاً ، فكأنها الأسفنجة أو قرص من شمع العسل

وكنت أصغى إلى حديثه فى سكوت وقلبى موزع بين عواطف متضاربة ومشاعر متكافئة

ولكنه أيقظنى من ذهولى بقوله : ما تقول فى مصاحبتك إياى ، لتكون شاهدى ؟ وفجأة خطر ببالى خاطر عجيب ! لماذا لا أصحب هذا الشيطان الذى يمثل الموت فى شخصه ، لعلى أمنع الخطر الداهم عن الشاب المسكين وزوجته الجميلة اللذين ما عرفتهما إلا من وصفه لعلى أعفو أيه الموت التى أثبتها ذلك المتمرد على الحياة والسعادة باسم الانتقام عن تلك الأسرة الناعمة بأشهى أيام الزواج فى مقتبل العمر . ولمحت فى وجه سيلفان أنه كان يدرك خفايا نفسى فأسرعت بقبول دعوته قبل أن يفكر فى العدول عنها ؛ وأخذت إجازة شهر من السكولونيل دييوا الذى ظن بى الظنون ، وغمز بعينه وهو يهمر إذن التسريح المؤقت ، حاسباً أنى سأقضى الأسابيع

(١) اسم إبليس فى قصة فاوست الشهيرة

الأربعة فى منافى باريس ومباهجها أمتع الروح والجسد بين غوانيها ، ولشد ما ندمت على أنى لم أستشره وأشركه فى أمرى ! فلعله كان ينهانى عن طيشى واندفاعى وقد جلبا سعادتى وشقائى ؛ فلما بلغنا ضاحية ڤوكويسون على مقربة من باريس استأذنت سيلفان أن أسبقه إلى العاصمة حيث كان يقطن خصمه فى بولفار دى تواپلس ، لأتعرف إلى الزوجين قبيل وصوله ، وأمهد السبيل لبلوغ أمنيته ، فقبل وقال :

— حسن ! سأختفى كما أشرت ، فأنت كفائى وطليعتى ونذير الهلاك إليهما ، ولكن احذر أن تقع فى شباك جمال تلك الأنثى فتفسد علىّ السعادة التى تتذبذبى وهى اختطاف روح زوجها من بين جنبيه . فلم أعتب على فكرته بجواب واكتفيت بابتسامة حائرة رسمتها على شفتى يد الاشفاق والخوف معاً ، وإن كنت أتلهف تلهفاً وأتحرق تشوقاً لرؤية الزوجة التى ظننت أنى أسعى لإنقاذ بعلها من الموت المحقق . وكان سيلفان قد دلى على معالم القصر ولم يمح لى باسم صاحبه

ولما بلغت القصر قادنى أحد الخدم إلى حجرة المكتبة ، ليعلن مقدمى ، وكانت الحجرة مزدانة بكل آلات الترف ، فالجدران مبطنة بقاطر الأسفار ، محلاة بالتماثيل والدمى ، وعلى صُفّة للوقد المنحوتة من المرمر المسنون ، مرآة عظيمة ، والأرض مفروشة بالدرابى والطنافس . وأخيراً فتح الباب ودخل رجل بهى الطلعة جميل الصورة بناهز الثانية والثلاثين من العمر فتأكدت أنه خصم سيلفان ورب الدار . فما كان أعظم حيرتى عندما تقدم إلىّ محتضناً يقبلنى ! ! لقد كان هنرى بوربيتوا كونت دى لافيسيل لاڤيه ، وصديقنا ورفيقنا فى الدوسة بنفسه ! فحاولت تمكين جأشى ، وزعمت لتبرير قدومى أنى عرفت مقره مصادفة ، فقدمت لزيارته . وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث ، فما لبثت أن وجدته كما عهدناه سهل الحديث ، عذب الكلام ، مرح الطبع ، خالياً من التكلف والتعمل ، فزادنى وحشة وهيبة وارتباكا . وكنت كلما همت بمصارحته بسر زيارتى أرتج علىّ واعترانى خبال لا عهد لى به ، فلم تكن الخيانة من طبعى ، وإن كانت فى سبيل إنقاذ حياته ، وتخييب آمال ذلك الوحش الرابض المتربص فى ڤوكريسون ولا يلبث أن يظهر على مسرح تلك الحياة الهادئة ليورد ذلك الصديق الفريد والزوج السعيد موارد التلف ، من أجل صفعة ساخرة سقطت جريمتها بالتقادم . وتأكدت فى تلك اللحظة أن الحياة مأساة معقدة بعيدة الغور وإنا لا نعدو أن نكون ممثلين مسخرين لأدوارنا التى نتقن لعبها على الرغم منا.

وإذا بالكونتيس قد دخلت بنتة فأسرع إلى احتشامى وخجلى فقد كانت مفرطة الجمال ، ناعمة الطرف ، فارعة القد ، فقدمنى إليها الكونت بأحلى عبارات الاعتزاز والترحيب وهما لا يعلمان أنى نذير الموت . فقد كنت كلما أمعنت فى الحديث تضاءل أملى فى إنقاذ الرجل لما أعلمه من غليان التغضب فى قلب ذلك الجبار المنتقم المتبرم بالحياة ، المحروم من الحب . وأخذت أنظر إلى الجدران فاستوقفتنى صورة تمثل مشهداً طبيعياً ولكن الذى أدهشنى من هذه الصورة لم يكن جمالها وبديع صنعها وإنما وجود ثقوب متجاورة فى أديمها على أثر طلقات نارية ، فقلت للكونت : تالله إنها لرميات مسددة !

2017-11-11 ...

فقال : أجل ، إنها رميات سائبة ! إنك لا شك تحسن الرماية مثلي

فسرني انتقال الحديث إلى لباب الموضوع ، وتمنيت أن أجد منه مدخلاً لقصدي وقلت :

— أحسنها بعض الشيء . إني أستطيع أن أقرطس بطاقة من بطاقات الزيارة من مسافة عشرين خطوة ، بشرط أن تكون الندارة مما قد تعودت الرمي به

فقالت الكونتيس بلهجة المكترث بالموضوع : « حقًا ؟ » ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

— وأنت يا عزيزي أتستطيع أن تفعل ذلك ؟

فأجاب : لعلي فاعل ذلك يوماً ما ! وعلى كل حال سأحاول هذا . على أني لم أكن في أيامي السالفة بالرامي الأخرق ولا الطائش السهم ، ولكنه قد مضى الآن أربعة أعوام على آخر عهدي بالرماية . فأسقط في يدي ، لأنني افترضت أنني قد أصل في مفاوضتي مع الوحش المتربص في آكام فوكويسون إلى تبادل طلقتين بدلاً من أن يدفع الكونت حياته ثمناً للطلقة المعهودة الباقية ديناً في عنقه ، وأن يكون هو البادئ بالطلقة فيصرع سيلفان قبل أن يتمكن من إزهاق روحه . ولكنني تجلدت وقلت :

— حقًا ؟ إذا كان الأمر كما قلت فما إخالك قادراً على أن تصيب بطاقة على مسافة عشرين خطوة فإن الرماية — كما لا يخفى — تحتاج إلى التدريب اليومي ؛ وهذا سلاحه نظيفة بالخبرة ، فإن أهملنا التمرين فقدت يدنا الحذق والتسديد . وقد أذكر أن أمهر من رأيت من الرماة كان لا يزال يتمرن كل يوم ثلاث مرات قبل تناول غدائه وكان قد تعود ذلك تعوده الأكل والشراب

فقال الكونت : وماذا كان من مهارة ذلك الرامي وحذقه ؟

قلت : لقد كان وحقك ، ربما أبصر بالغبابة على الجدار — إنك تبتسمين يا كونتيس كالرتابة في صحة قولي — أقول : لقد كان ربما أبصر بالغبابة على الجدار فيصيح بخادمه قائلاً : « جوزيف هات لي المسدس » فيأتيه جوزيف بالمسدس فيطلقه فاذا الغبابة قد انسحقت على مكانها ؟

قال الكونت : هذا مدهش ! وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ . قلت : سيلفان

فصاح صديقي منتفضاً في مجلسه : سيلفان ؟ أتعرف سيلفان ؟

قلت : كيف لا أعرفه يا صاحبي وقد كان صديق الحميم ولا يزال ؟ لقد عاشرنا عشرة الأخ إخوته ، على أنه قد مضى الآن أسبوع على آخر عهدي به أو تعرفه أيضاً ؟

قال : إذن لا يزال على قيد الحياة !

قلت : وعلى قيد عشرين ميلاً من باريس وأظنه يقيم في ضاحية فوكويسون

فامتقع وجه الرجل وجمد في مكانه كأنه أصيب بطلمة تجلاء في ظهره . فأدركت الكونتيس ما طرأ على زوجها من التغير وقالت : أتعرفه أنت أيضاً يا عزيزي ؟ فقال : أجل أعرفه حق المعرفة ! ألم ينبئك قط بنبأ عجيب وقع له في حياته ؟

قلت : أتشير يا هنري إلى حادثة اللطمة التي أصابه بها رجل نذل خسيس في بعض المراقص ؟ (قلتها لأبعد عن ذهنهما دنوهما من الخطر وأثبت لهما جهلي المطلق بما ينتظر الزوج)

فقال : ألم يصرح لك باسم هذا النذل الخسيس ؟

قلت : كلا إنه ما ذكر لى اسمه قط !

فابتسم الكونت ابتسامة ساهمة حزينة وقد غادره بشره ، وحدثته نفسه ببعض ما وراء الأكمة وقال وقد عراه أشد الاضطراب والانفعال : أنا هو ذلك النذل

فقلت متمتماً الأسف : معذرة ياعزيزى وعفواً فقد أخفى عنى الأمر

وكانت المائدة قد أعدت وقال الخادم فى أدب : «إن الطعام ينتظر آكليه ياسيدى الكونتيس[1]» فهضنا واكتفيت فى هذه الليلة بهذا القدر من الكلام الذى هيأته لى المقادير ، وقلت فى نفسى وأنا أقوم متلكئاً لأجلس على خوان هذين الزوجين : إلى هنا ينتهى مشهد من مشاهد تلك الرواية ، وإن الرواية لم تتم فصولاً . وقضيت فى ضيافتهما أسبوعاً وأنا لا أملك أن أفاتحهما فى نبأ الكارثة التى سترميهما بها فوكريسون

وفى ذات مساء خرجنا على خيل لها تتنزه فى غابة بولونيا وشرع جواد الكونتيس يمرح ويتموج فى عطفيه ويتنزى ، ولعله لمح فرساً راقه منظرها ، وكنا فى موسم الربيع عند ما يحلو للذكران من سائر المخلوقات أن تسقى لتنتج فتضاعف عدد الضحايا من الطير والحيوان والإنسان . فذعرت الكونتيس وترجلت وأسلمتنى زمام جوادها وعدنا إلى القصر فى مركبة ، غير أنا سبقناها إليه إذ كانت فضلت السير على الأقدام لقرب المسافة بين الغاب والمثوى ، ولتذهب الروع الذى أصابها من «حنجلة[1]» الحصان . فلما بلغنا ساحة الدار بصرنا بمركبة وخبّرنا أن رجلا فى انتظارنا بغرفة المطالعة ، فسألت قبل صاحب القصر من هو وما اسمه فقيل لى : إنه أبى أن يتسمى وأكتفى بقوله إن له مع الكونت حديثاً فى مسألة خطيرة ، فلم أرتب طرفة عين فى أنه عدونا استبطأنى فجاء يتقاضى روح صاحبى من زوجته ومنى . فأسرعت إلى الغرفة فألفيت فى الظلام رجلا أشمث أغبر لا عهد له بحلق ذقنه منذ أسبوع ، وكان واقفاً قرب صُفة الموقد فدنوت منه وتفرست فى وجهه وإذا ظنى لم يخطئ قيد شعرة : سيلفان نفسه ! !

فصحت قائلاً : سيلفان ! ولا أنكر أنى أحسست إذ ذاك أن شعر رأسى يقف وينتصب ، فما أدراك بحال الكونت ! ولكن سيلفان كان بقاً وخبيثاً ، فلم يد حقده علىّ بعد أن تركته يتقلى ، وقنع بأن حدجنى بنظرة أبلغ من العتاب وأشام تفسيرها : لقد طاب لك المقام يا غادر ؟ ولينك على الأقل لم تُفضِ بسرى . وبادره الكونت بالتحية ودعاه إلى الراحة والاستجمام والعشاء . فأجابه :

— ما لهذا جئت أيها السيد النبيل ، فإن مأموريتى لا تمكننى من قبول ضيافتك . والرجل لا يؤاكل من بعزم مصمماً على قتله

فقال الكونت متجاهلا : على رسلك ! استرح أولا ثم افعل ما شئت فإن فى الوقت سعة

فقال سيلفان وهو يحرق الأرض : إن لى عليك طلقة ، وقد أتيت أطلقها فهل أنت مستعد ؟ وكنت من فرط هلعى وروعتى لا أفكر إلا فى مقدم الكونتيس أرجوه وأخشاه

(١) الحنجلة كالزعزعة والخلخلة والمضغة

(١) يقول خادم الغرفة Madame la Comtesse est servie أى تمت لها الخدمة بإعداد المائدة

وكان مسدس سيلفان بارزاً من جيبه . وكأنني قد سمعت واستحلت سخراً لا أملك أن أفوه بكلمة ووددت لو أنهض على هذا الشيطان المتجسد رجلا لأعدمه الحياة بحجة الدفاع عن النفس أمام الخطر المؤكد . ولكن الندم لم يكن من طبعي . وكان الكونت أسرع من البرق قد قاس اثنتي عشرة خطوة وأخذ موقفه في أحد الأركان ورجا خصمه أن يسرع بإطلاق مسدسه عليه قبل قدوم زوجته. فتردد سيلفان لحظة عاد إليّ فيهـا بعض الرجاء ، ولكنه طلب نوراً فأحضرت الشموع وأغلقت الأبواب ، وأمر الكونت ألا يدخل علينا أحد ثم رجاه أن يطلق مسدسه . فاستخرج سيلفان المسدس من جيبه ثم صوبه نحو صدر صديقي وسدده وكنت أعد الثواني . وتذكرت الكونتيس ونحن في تلك الحجرة التي كانت روضة من النعيم فانقلبت في لحظة قاعة للاعدام . ومرت بي دقيقة أهول من يوم القيامة وعند ذلك فتح الله عليّ وحلت عقدة من لساني ونطقت متلطفاً :

يخيل إليّ أن هذه ليست مبارزة ، ولكنها جريمة قتل مصحوبة بسبق الإصرار والترصد . وأنت يا صاحبي سيلفان لم تتعود والله أن تفاجيء بتسديد سهامك إلى صدر رجل أعزل أو رأسه .

فخفض الشيطان يده وقال :

— بماذا تفتي إذن وأنت صديق الطرفين ، كما أرى ؟ ولا أخفي عنك أن الكونت رماني وأخطأ فالدور عليّ . قلت : أولى لكما أن تبدآ الأمر من أوله مرة أخرى وإن كان مديناً لك بطلقة :

فقال : نزلت على إرادتك ، فهيا بنا نسيد القرعة لنعين البادئ ، فأحسست كأن الأرض تميد بي وتتأرجح . ثم إنهما حشوا مسدسيهما ، وعملنا القرعة ثم اقترعا فوقعت للكونت النوبة الأولى كما حدث في القرعة السالفة[1] ففرحت بنتة ، ثم عدت فذكرت الفرق بينهما في الرماية فان صاحبي مضى عليه أربع سنين لم يتمرن خلالها مرة ، أما خصمه فكانت الرماية غذاءه اليومي

وقال سيلفان عند ظهور القرعة : ما أسعد حظك يا كونت ! وتناول هنري مسدسه وأطلق فأخطأه وقال : الحمد لله إنها لم تصب ضيفي ؛ فاني أفضل الموت لنفسي على أن أمس شعرة من رأس من أقبل عليّ زائراً ولو كان مصمماً على قتلي . وكنت أعتقد صاحبي مخلصاً في قوله . وتمنيت لو تصل تلك الكرمة إلى أعماق قلب سيلفان فيخجل ويعدل ، ولكن أنى لأنسال ابليس أن تصفح أو تنسى ؟ فقد رأيت سيلفان كأنه الشيطان فرفع يده بالمسدس يسدده ... وفي تلك اللحظة فتح الباب بنتة ودخلت الكونتيس ، فأبصرت وجهها يتوهج من الوجد توهج القبس المشتعل . أما الكونت فقد عاد وجهه من تأثره أبيض من منديله . وصاحت الزوجة الشابة صيحة منكرة وألقت بنفسها على عنق زوجها ، فأعاد حضورها إلى زوجها كل قوته وجلده وقال لها : مابالك ياحبيبتي ! ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد فزعك ورعبك ! إذهبي فاشربي كوبة ماء ، وعودي إلينا فسأقدمك إلى صاحبي القديم وزميلي . فلم تفلح كلماته هذه في إزالة الشك منها وبقيت مرتابة حيرى فالتفتت إلى سيلفان الرهيب وقالت له :

— خبرني بالله أحقاً ما يقول زوجي ؟ أحقاً أنكما تمزحان ؟ إن غريزتي لا تخطيء في رعي

(١) هذا يؤيد رأينا في قانون المبارزة الذي يقتضيه السياق

وكانت كلمات لو قيلت لصخر لذاب وتفتت ، ولو قرئت على حديد للان وسال

ولكن سيلفان الذى لم يعرف قلبه الشفقة قال :

— إن زوجك يا سيدتى لا يزال يزحر ، فلقد لطمنى مرة على حر وجهى وهو يزحر ، وأطلق علىّ رصاصة أنفذها فى قبعتى وهو يزحر . والآن إذا رمانى فأخطأنى إنما كان يزحر ، فلا حرج علىّ الآن إذا رأيتنى أيضاً أريد أن أمزح

وعلى أثر هذه الكلمات رفع مدسه ليسدده إلى صدر صاحبى فألقت الكونتيس بنفسها على قدميه فظل الدم فى عروق وهممت أن أنشب أظفارى فى عنقه حتى تزهق روحه قبل أن يشهد زوجها مصرع كرامتها ولكن الكونت تمجاني بنظرة غاضبة وصاح بها :

— انهضى ياماتيلده أما تستحين ! أما تخجلين ؟ وأنت يا سيدى هلا كففت عن السخر والاستهزاء بامرأة ضعيفة مسكينة ؟ مسكينة ! خبرنى أأنت مطلق أم ممسك ؟ فقال سيلفان : بل مطلق

وفى تلك اللحظة أطلق ، وأصاب الكونت فى رأسه ، فخر صريعاً وكانت الزوجة قد أغمى عليها من الذعر وهمّ سيلفان بالخروج بعد أن انحنى يحيينى فقلت له : مكانك واقترع . وخرجت القرعة لى : فتناولت مدس الكونت وصوبته وأطلقت طلقة مجلاه سبقتنى إلى تسديدها يد العناية واخترمت صدره . وتكوّم كالأفعى وخلصت إلى ساحة القصر ونديت الخدم والحوذى الذى جلبه ونقلنا الكونتيس إلى فراشها وعهدت إلى وصيفتها أمر العناية بها حتى يدركها الله بلطفه والطبيب بعلاجه . وركبت المركبة فانطلقت بى قبل أن أستفيق من تلك الغمرة ، إلى دار المحافظة فجيت الضابط النوب وأفضيت إليه بكل ما جرى . فدوّن أقوالى وانتقل إلى مكان الحادثة وطلب من قاضى التحقيق أن يفحص الاتهام ويمحص الأدلة .

وشهد خادمان بما جرى كما رويته ، فأطلق سراحى وقرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى فقد كانت المبارزة مباحة فى الفرق بين رجال الجيش . وقال قاضى التحقيق وهو يهنئنى بالنجاة من غدارة ذلك الوحش القاسى : دقة بدقة . إن القانون فوق العرف ، والعدل فوق القانون . وبعد شهر علاج وعناية فائقة ، استعادت الكونتيس وعيها وقوتها . وكانت إجازتى قد انتهت فاستأذنتها فى الانصراف ، وأنا أحسب أنها تقرن مقدى عليها بشر ما أصابها فى أعز إنسان لديها . ولكنها استمهلتنى واستبقتنى قائلة : لقد فقدت بعلى وحبيبى ، ولم يكن لك فى مصابه يد ، بل لقد تأثرت له فى الثر والساعة ؛ وإليك سبقت القدر بمسدسك إلى خصمه وخصمك

ولكننى علمت أنها تكون جناية قتل لا مبرر لها ، وأن المرحوم لم يكن لينفرها لك لما أعلمه من إبائه الغدر بطبعه ، فان شئت جددت إجازتك ولو أياماً معدودة .

قلت لها : بأى عذر ؟ وإن إجازة الضابط لا تمتد إلى أكثر من ثلاثين يوماً ، إلا لعلة واحدة . قالت : وما هى ؟ قلت : الزواج . قالت : فليكن هذا عذرك على بركة الله . قلت : إنها لأكذوبة غليظة فلا أتنوى أن أعقد على عروس لم أختبرها وما زال قلبى خالياً . قالت : من يدرى ؟

فما كنفيت بهذا التلميح وطفر قلبى فرحاً . وتناولت قرطاساً وقلماً وكتبت طلبى ، فقالت وهى تداعبنى مداعبة حزينة

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

— وإن سألوك عن اسم تلك التي ستسعد بمعاشرتك ، أولا يسألونك ليشاركوك أفراح زفافك ؟

— قلت : هذا الذي لا أعلمه وكاد القلم يقع من يدي . قالت : أكتب : الكونتيس بورنيواه دي لانجيسيل لانيه ! فأهويت على وجهها وبدها وعنقها أقبلها وأنثم رائحتها العطرة ، وأذرف الدمع السخين من فرط سعادتي وحزناً على سالي . وهنا سكت ادوارد يبون ، فظننت أنه وصل إلى آخر القصة ولكنه عاد فقال : « وقد قضينا ثلاث سنين أسعد ما يكون زوجان وأوهشتني سرعة النسيان الذي جر ذيوله على ذاكرة الزوجة . وكنت أغالب نفسي كلما شعرت بالقلوم يتعثر في خيالي ، فإنها لم تنس قرينها ، إلا بسببي . والمرأة إن فقدت الأمل في أحب رجل إليها ، فإنها بحكم الطبع والطبيعة ، تبادر إلى التنقيب عن غيره لتتعلق به ، وقد عشنا في جو من الصفاء والحب لم تشبه شائبة ، غير أنها كانت أحياناً ترى مني فيا يرى النائم أشباحاً ترعبها فتنهض مذعورة تبكي . فاذا ما فتحت عينيها ورأتني بجانبها عاودها اطمئنانها والتصقت بي ، كما يلصق الطفل الخائف بصدر أمه . وقد أوهشني أنها كانت تحتفظ بكل مافي القصر من ذكريات المأسوف عليه زوجها الراحل ، فقيدي وقيدها ، فهذه صوره الفخمة في البهو وغرفة الطعام ، وتلك ثيابه التالية وبزته العسكرية على المشجب ، وكتبه وأوراقه لا تزال حيث تركها ليلة مصرعه ، وخيله المطهمة ماتزال في اصطبلها العامر بأمهر السائسين وأجود العلف

وفي يوم من الأيام نهضت زوجتي وجمعت الخدم في قاعة الاستقبال وأمرتهم أن يقلبوا القصر رأساً على عقب ، فتناولوا تصاوير المرحوم وثيابه وأسلحته وكتبه وأخفوا كل ما كان يذكرها بشخصه ؟ وقالت لي وهي ترتجف : قد آن لرب الدار أن يحل منها محله ، كما حل من قلب زوجته ؛ فامتعضت في قرارة نفسي ولكنني وافقتها في تنفيذ مشيئتها وقديماً قالوا : « إرادة المرأة من إرادة الرب[1] » والقول قولك وأنت الآمرة الناهية في قصرك

وبعد هذا الانقلاب بشهر واحد ، محوت من نومي وكنت أعتزم أن أصحبها في نزهة خلوية فقبلتها قبلة الصباح ، ولكن شفتي ارتدتا جامدتين فقد كانت جثة هامدة وقد أسلمت الروح ، على ما زعم الطبيب أثناء النوم ، بعد رؤيا فاجعة سيئت بنتة وقف دقات القلب . ومضت على هذه الحوادث أعوام كانت أمرّ وأدهى ما حييت من العمر ، فاشتغلت بالزراعة وجعلت أثناء ذلك آسف على ما فات من لذة العيش في الجندية ، وآسى على ما سلف من حياة الزواج والحب . أما زوجها الأول وخصمه الذي قتله ، فقد دفنا متجاورين

محمد لطفي جمعة

(١) مثل فرنسي سائر Ce que femme veut, Dieu le veut

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

من تاريخ الهند

رانـدا

بقلم محمد محمد مصطفى

.. وانقلب رسول أمير « جوبال » إليه يحمل نبأ رفض « رانده » ملكة البنغال الزواج به

واستطار الأمير إذ تهدم آماله ، وأقسم ليدخلن بلادها فاتحاً غازياً

ونفخ فى صور الحرب ..

وانقضت جحافل الأمير على جيوش الملكة والتحم الفريقان عند حصن « ثانيا » وانتشر جند العدو فى الوادى يعمل يد النهب حتى ترك المنطقة التى احتلها خراباً ..

وانكفأ شيجارا قائد الملكة إليها راجياً منها أن تفتدى بنفسها بؤس الشعب وويلات الحرب قائلاً لها بصوت يستدر روافد الدموع :

— لو رأيت إلى الدماء تسيل فى ميدان الحرب ، ولو سمعت إلى أنين الجرحى وبكاء الأم ونواح الزوجة وصياح الولد ، لأخذك الجزع على مصير شعبك

— إنى لا أكره أن أكون زوجة الأمير ، ولكنى لا أريد خداعه . ولكم أود لو أنتفض قلبى من حب حارسى أبد الدهر ، ولكن الأمر خرج من عقلى إلى قلبى

— تستطيع مولاتى أن تستخلص عقلها من بين يدى هواها ولا تدع للحب سلطاناً على نفسها

— أبلغك أيها القائد نبأ من أحب فدفع عن قلبه هواه ؟

قال : لا

قالت : فوالله لو ملكت أن أنزع طيفه من قلبى لفعلت

وسكن كل شىء فى القصر الملكى لا يسمع إلا وقع خطوات حراسه ، ونام كل من فيه إلا الملكة فقد ظلت ساهدة الجفن تتقلب فى فراشها كالهموم ، وكان الحب المكتوم الذى تحمله لحارسها قد أعياها وودت لو أفضت به إليه

ماذا يعنيها وقد علم الناس أنها مستهامة به ولم يبق من يجهل هذه النار التى تستعر فى صدرها سواه

وقامت إليه متنكرة فى ردة الليل ترتدى ثوب وصيفة ، ورمت بطرفها فرأته يمشى إلى شاطئ غدير القصر فدلفت إليه ، وما وافت مكانه حتى ترنحت كأنما تمشى على الصراط ، وكلته فى رقة اهتزت لها أشجار الحديقة طرباً وقالت إنها وصيفة الملكة أصابها الأرق فجاءت إلى الحديقة لتقتل بين أشجارها ما بقى من الليل

ومضت تحدثه عن الحب والحرب ، وقالت فجأة :

— صرت بك الملكة ذات يوم فعجبت لهدوئك ولعينيك اللتين تقمران من ينظر إليهما بسحر هائل ، وحدثتك فلم تضطرب ، وحاولت إغراءك على النظر إليها فيئست وهى التى تهتم نظرات الجنود إذا مرت بهم ، فكيف كان ذلك ؟

— تلك طبيعتى لا أحفل بشىء سوى واجب حراستها كما ترين

— أتحب الملكة ؟

— إني أجلها لعلمها ولأني جندي في حرسها

— فإذا ما أمرتك أن تفتح لها جوانب نفسك وتجلسها في سويداء قلبك ؟

— .. مالي إلى ذلك سبيل ؛ ولو دخلت الملكة إلى قلب حارسها البسيط لضاق بجلالها وملكها وقلوب الملوك والأمراء الهالكين على أقدامها ، وإني لأقنع بكوخ يحويني وزوجة أنظر فأجد رأسي يعلو رأسها — ما أظنها تريدني إلا زينة في مجلسها ودمية لقصرها ، لا أملك لنفسي حقاً وهي تملك كل حق ، فإذا خاست أو غدرت فذلك من أحكام نفسها

— أترفض يداً تمتد لرفعك إلى عظماء رجال البلاط في القصر ؟

— ما على وجه الأرض شيء أبغض إليّ من مجد ينشأ على كتف امرأة

قالت : من أي صخرة من الصخور أو هضبة من الهضاب نحت هذا القلب الذي ينطوي عليه صدرك ؟

وزفرت زفرة كادت تتساقط لها أضلاعها ، وعدت من لدنه كما يعود القائد المهزوم من ساحة الوغى لا تملك حتى دمعة تفرج بها عن نفسها

* * *

وتلفتها وصيفتها بقلب هالع وقالت تخفف عنها ما بها :

— ماذا يعنيك يا مولاتي من أمر جندي في حرس رياضك ؟

قالت : « ذهبت بي إليه نفسي اللعينة فردها إلى صدري حزينة باكية » وتهافتت على خدعها ومضى الليل لم تطعم خلاله المنمض . وفي الصباح رحلت إلى قصرها في جنوب البنفال على فلها يتبدل إذا ما أبدلت سكناها . وقضت ثلاثة شهور كانت تقاوم خلالها ناراً تستعر في صدرها وشوقاً كالجنون إليه ، وكانت كلما هاجها الوجد جلست إلى نفسها تسكب من عينيها الجميلتين قطرات لتطفئ هذا اللهيب الذي يتوهج من قلبها ؛ وسقطت مريضة وعلمت أنها مشرفة على الخطر ولا سبيل لها إلا جواره ، فرحلت إليه

* * *

وشعرت الملكة أن قلبها قد انخلع لما قيل لها إن القائد قد قذف بحرس القصر إلى ساحة الحرب ونظرت إلى القصر خلواً منه نظر الغريب الحائر إلى بلد حل به ، وتخاذلت أعضاؤها واستندت إلى متكأ وتمتمت بصوت خافت :

— أيخوض « نوجا » تلك المعارك التي يطلقها الموت ؟

فاسفر وجه الوصيفة وتمتمت : نعم

قالت : إني ليحزنني أن يموت

وقامت إلى الميدان تنهب الأرض وتنتقل من مجد إلى وهد حتى وصلت إلى جبهة القتال ، وعلمت بقربه من الخنادق الأمامية فاندفعت إليها كالظبية الطريدة تتخطى الأشلاء والدماء

وإذ رأته على جواده الأشهب يثير الهلاك على جمع الأعداء نسيت ما لقيته في سبيله من أحزان وآلام ، وجرت تستقبله بين ذراعيها لكنه أبعدها في رفق زاده فتنة وزادها جنوناً

قالت بصوت يفيض أسى :

— ألا زلت يا نوجا على خلالك القديم ؟

— نحن في ميدان حرب لا ميدان حب . ولا يليق بملكة ...

— .. أيكون ملكي عقبة بيني وبين آمالي ؟

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

إنني فتاة يا نوجا وفي صدري قلب هام بك ودفعني اليوم إليك لأقول لك إني أحبك وإنني لا قيت في كتمانه عنك أوصاباً وأسقاما

ترى هل تضمر لي يا نوجا من الوجد مثلما أضمر لك ؟

— فإذا ما أقسمت غير حانث أني لا أحمل بين جنبي سوى الإخلاص لمالك

واستيقظت فيها كبرياء الملك وكبرياء الجمال فرأته أهون على نفسها من أن تذوق لأجله ألوان الشقاء ، وابتعدت بنفسها عن طريق الحب ونسيت أنها كانت مستهامة به فأمرت به أن يشرد في آفاق البلاد

ومضت كليلة الذهن تقطع الطريق إلى قصرها وفي صدرها نار تحس أثرها اللاذع في السويداء من قلبها

وقطع عليها العدو سبيل العودة فكمنوا لها وفروا بها لائذين بالتلال والآكام ، وهنالك على حدود البنغال أودعت حصناً تحوط ناحيتين منه بحيرة « الراجاديت » حتى تهيأ لها سفرة أمينة إلى قصر أمير جوبال

الشمس في وقت الظهيرة بركان تنفجر من فوهته النيران ، وأخذ نوجا تحت خيوطها النارية يضرب في بطون الوديان وقمم الجبال . وقلب طرفه يبحث عن ظل يتفيأه فنثر به على مرمى البصر تحت دوح يدور حول بناء شامخ كأنه درع مسرود

وما اقترب منه حتى سمع أنين فتاة متوجعة فدنا منه مترفقاً في مشيته وقلب طرفه فلم يجد راعياً ولا غادياً فاعتلى دوحة فرعاء وتدلى من غصن فيها إلى سقف البناء

تولى النهار ورائدا في منتقلها تتقلب على نار مما يساورها من آلام ، وتمخضت ثورة قلبها عن حب رابض يهز كيانها لحارسها الشريد وعظم يأسها وفتت حيلتها وبانت لا تقترح على دهرها شيئاً إلا رحمة لنفسها برحمة حبيبها ، وأخذت تنظر إلى ماء البحيرة بنظر ساهم وقد قام في نفسها نزاع رهيب بين الإقدام على إلقاء نفسها فيه أو الابقاء على حياتها

وطرق أذنها صوت أقدام تقترب منها فأدركت أن جنود الأعداء قد أتوا لأخذها

وخفق قلبها خفقة الرعب ... والفرح لما رأت نوجا ... نعم نوجا بلحمه ودمه بين يديها يسألها ما شأنها وما مقامها في هذا الحصن الغريب

ونفضت إليه جملة حالها

ورأى نوجا أن الشجاعة في غير موضعها جنون ؛ فهناك حارسان مسلحان بالباب وليس ثمة طريق للنجاة سوى البحيرة

وحملها وألقى بنفسه في الماء

وأخذت رائدا ترقب الجهاد الهائل الذي يبذله ليصل بها سابحاً إلى الشاطئ الآخر وكانت تنظر إليه كما ينظر الأطفال إلى آبائهم وهم يصرعون

دب الشفق في حاشية الأفق لا تسمع إلا دمدمة الرياح تطاحن رؤوس جبال الهند . ومشيا طويلا لا يتبين أحدهما كائناً قد انتقل سكون الليل إلى فؤاديهما ، وأمسناها السير فحملها نوجا فودت لو ضل الفجر سبيله ليظل حاملها ما ظل الظلام

وبلغ قصرها وتسلل عائداً إلى ميدان القتال

سقط حصن فانيا وما حوله من القرى تباعاً

واستول جنود العدو على جميع الخنادق المحيطة به

وشعر نوجا أنه قد بدل من نفسه نفساً غيرها فرأى الملكة بعين غير عينيه ، ورأى فيها التضحية له فازدادت فى نظره حسناً وملأته فخراً ، وهبّ يصول فى الميدان كالليث أوشك السيادون على اقتناصه وانتشر من روحه إلى أرواح زملائه الجنود حمية هائلة فكروا على الأعداء بخيلهم ورجلهم

وانهز نوجا ذعر العدو المفاجئ فضرب بهم الفرية القاصية واندفع وراء فلول الأعداء وهو واثق أن النصر لن يخطئه حتى انجلى آخر جندى عن أرض الوطن العزيز

وحفلت حياة نوجا الجديدة بما تحفل به حياة رجل عظيم

ألم يهزأ بالخطوب ويتخطى الأهوال ..؟

لقد أبقى على الملكة وعلى تاجها ..

إذن « فليحى نوجا منقذ الوطن »

هكذا هتف الجنود

الشوارع يومئذ تزخر بجموع الشعب على جانبى الطريق والمدينة فى حلة زاهية من الأعلام وأخذ كل يرقب فى لهفة قدوم نوجا على رأس جيشه الظافر

وأكلت الغيرة قلب « شيجارا » قائد الملكة فأضمر له بين جنبيه شراً مستطيراً

ها هى ذى الملكة قد استوت على عرشها ترقب فى شوق قدوم رجلها — ها قد ابتسم لها ثغر الحياة ومالأها القدر .. وترجل نوجا عن جواده واقترب منها متهلل الوجه . وهمس « شيجارا » فى أذن صنيعة له أن الساعة قد دنت . وسجلت « رائدا » أن الدهر قد بدأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته ، وساخها نوجا فأحست بحرارة يده تلهب كل جارحة فيها ، وشعرت فى تلك اللذة سعرت إلى جانبها عزة الملك ، وودت لو عاشت فى ظله تنعم برجولته الفذة وجماله ...

وانشقت حناجر الشعب تهتف بحياة « نوجا » واهتز كيانها جذلا له وهمست فى أذنه بصوت حالم

— هلم إلى التاج يا نوجا أحلمه عليك لأعيش فى ظلك فتاة تهواك من أعماقها

وفزع نوجا لهذه المفاجأة وقال :

— جميل أن تهزأ بى الأقدار فتهبى لى عرشاً أنبوأه وقصراً أسكنه . ويفتح الدهر عينيه فيسلبنيهما أشد ما أكون بهما سعادة ، وأعود من هذا القصر الكبير إلى كوخى الحقير . فاذا ما أخذت على الأقدار عهداً ألا تسترد ما وهبته فإنى فاعل ما تأمرين ...

لقد أديت ما علىّ لك وللوطن لم يدفعنى لذلك التاج الذى تظنين أنى أصبو إليه . وهنالك على شاطئ غدير القصر سأواصل حراستى لك كما كنت من قبل

ورأت فيه الملكة من معانى الرجولة ما زادها به كلفاً ، فأخذت تحادثه وتدور حول قلبه علها تجد منفذاً لوصوله ، لكنها أخفقت

وبعثت أرسل الرجل الجامد أنة خافتة غالتها رائدا زفرة حب

وعقد الهلع لسانها لما رأته يسقط بين يديها صريعاً فى دمه ، وتعالت الأصوات : القاتل .. القاتل

لقد كذبت راندا عينيها وإلا فكيف يموت حبيبها فى لحظة

ونظر إليها نوجا والدم يتدفق من ثقب سهم رائش نفذ من ظهره إلى قلبه وفى عينيه بسمة الرضا فجثت راندا إلى جانبه جثو العابد فى صلاته ، وسرى من روحها الحزين تيار قوي انتقل إلى شعور الجميع فجمدوا كأنهم نصب

وأشفق أحد الجنود أن تخرج نفسها فقال لها : رحمة بنفسك يا مولاتى . فأجابت شاردة :

— ماذا لقيت من الدنيا لأحرص على البقاء فيها ؟

واعتمدت ذراعه حتى بلغت غرفتها وتهالكت على مقعد ، وقد شعرت أن نفسها تتسرب من بين جنبيها ، وظلت بين دموعها وأحزانها حتى انبلج الصباح وسقط خيط من شعاعه إلى جبهتها الساهمة فإذا بها بيضاء العارضين متجعدة الوجه كأنما مرت على جلستها سبعون عاماً أو تزيد

واستبدت بها الذكرى وذهب بلبها الحزن ، فأخذت تهيم على وجهها فى المدينة وما جاورها تسأل الغداة والروح : ماضل الله بحبيبها . والناس بين مشفق راث لا يعرفون كيف الجواب عما يسألون

ومر أحد الرعاة يوماً بمقبرة المدينة فرأى بينها امرأة قد احتضنت قبراً جديداً فارتاع لمرآها وسألها عن شأنها فلم تجبه ، فدنا منها وقلبها فإذا بها جثة باردة ... يا لقسوة القدر !!

إنها الملكة !

محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس

كل ثوب مصرى علم من أعلام الحرية
تغزلها وتنسجها لنا
شركة مصر للغزل والنسج
وتبيعها جميلة متينة رخصية
أطلبوا منتجاتها من
تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

النافذة

للأستاذ محمود خيرت بك

... نعم يا صديقي كانت تلك النافذة موضع الداء والدواء . وكنت وأنا متجه في الصباح إلى عملي أجدها مقفلة فأسير قدماً لا تتحرك لها نفسي ولا تأخذ كثيراً أو قليلاً من التفاتي . وكان يستوي عندي أن أجتاز الزقاق المطلة عليه أو أن أسلك طريقاً آخر

وكثيراً ما كنت أسمع من إخواني أن في الحياة قوة خفية تسوق الانسان أحياناً إلى حيث لا يريد أو تدفعه إلى عمل هو بعيد عن التفكير فيه ، فكنت أثور عليهم وأحتد متعصباً لرأيي في أن الإنسان بحواسه وعقله مسيطر على أعماله نفسه حر في حركاته ؛ حتى إذا كان يوم تهيأت عنده للذهاب إلى الديوان أخذت طريقي إليه دون أن أجتاز ذلك الزقاق . ولكني بعد إذ تركته خلفي بنحو أربعين متراً انكفأت راجعاً وأنا أحس في أعماق نفسي حافزاً إلى العودة بغير أن أقوى على دفعه . وما كدت أسلك الزقاق بعد ذلك حتى وجدت النافذة مفتوحة وسمعت كأن بالغرفة حركة فوقفت أمامها لحظة ثم استأنفت سيري

وإذا كانت ساعات العمل بالديوان قد أنستني تلك النافذة وما كان من أمر عودتي إليها رغماً مني ، فإنني لما حان موعد الانصراف وجدت قدمي تسبقاني إليها كأن بها قوة مغناطيسية تجذبني نحوها . وكانت على ما عهدتها في الصباح فتركتها إلى منزلي وأنا أفكر فيها

وقد بلغ من أمري أنني كنت أتمنى كل يوم لو أن ليلتي لا تطول فأسارع إلى الوقوف تحت تلك النافذة وأنا ذاهل مشرد أشعر في ضباب خواطري بشيء مشوش لا أتبين حدوده ولا أصل إلى فهم معناه

ما كانت تلك النافذة إلا إطاراً خلا من صورته ، أو عيناً مفتوحة من عيون تلك الغرفة ، ولكني لا أستطيع أن أنفذ منها إلى قرارها

وكنت على عادتي أسمع من أمامها فلا أسمع ولا أحس شيئاً ، حتى طرق أذني ذات يوم صوت من داخلها ناعم أغن فظننت لا ريب في أنه صوت ربة الدار وقد امتلأ منه مسمعي وأخذ يلعب بي كما تلعب الراح بالشارب

وكثيراً ما كان وهمي يحاول أن يصورها لي ، فأضحك على غفلتي إذ قد تكون سورة ناطقة بالدمامة وإن خدع صوتها السامع كما يخدعه صوت الكروان . ولكني أعود فأكذب خيالي لأن القبح لا يتلازم معه جمال الصوت ، ولأن الأقدار التي تخلق الجميلة قل أن تبخل عليها بمثل هذا الصوت العذب الرخيم

وعند ذلك ينفسح لعيني أفق الخيال من جديد فأراها معجزة من معجزات الحسن وآية من آيات الفتنة ، وكأني أنظر إلي عينيها وخديها وقدها فلا يصادفني إلا لحظ ساحر وورد ناضر وغصن متأود مياد ، حتى كنت إذا مررت أمام دارها أكاد أهم باقتحام بابها لأملأ عيني منها وأشبع حدة الهواجس التي كانت تزيد في عذابي

2017-11-14 15:26:18

وبينما أنا ذات يوم أجتاز ذلك الزقاق سمعت حركة عند النافذة ، فما أن رفعت بصري إليها حتى خفق قلبي وساخت روحي لأنها كانت فوق ما تخيلت ؛ وكانت تسق أسيساً به غصن يحمل قرنفلا ، فلما أبصرتني غلب عليها الحياء وحاولت أن تتراجع فاندفع الأسيس يهوي من فوق ولكني تلقفته قبل أن يصل إلى الأرض . ويظهر أنها ارتاعت خشية أن يصيدني ، فلما رأتني أحمله أسرعت إلى الباب ومدت من فجوته ساعداً بضاً كالعاج تتناوله وهي تقول : « كتر خيرك » . قلت لها : « بس كده ؟ » وعند ذلك برزت لي برأسها الجميل وناولتني قرنفلة قبلتها وشممتها ، فأخذت تركز فيّ نظرات طويلة كلها فتنة وسحر ، وجسمها يرتجف وأنفاسها تتلاحق . ثم أسرعت ترد الباب رويداً رويداً ولكنها عادت ففتحته وكنت لا أزال في مكاني حائراً ذليلا فقالت لي : « كفاية كده » ، وهي تبتسم ثم ... اختفت

ولقد أخذت مجلسي أمام مكتبي وأنا لا أشعر إلا بأني في الزقاق أجدّق في النافذة وأتلقف الأسيس ... ثم تلك القرنفلة وتلك الابتسامة العذبة وفيها كل أسباب النبطة ومعاني الرضى . على أنني انتبهت من حلمي والقرنفلة لا تزال بين أناملي فقربتها من عيني وفي أرديتها بعمي وأمطرها قبلي ، ثم أخذت أتأملها وقد خيّل إليّ أنها فرع من ذلك الغصن الدان الناعم يحمل إلى أرج أنفاسها . وبعد ذلك ينتقل بي تأملي إلى أنها زهرة لا تعمر أكثر من يوم . فهل ما بدأت أشعر به من إقبال الحظ لن يتجاوز هذا المدى ؟ أم أنها ستمنحني زهرة أخرى أشهى منها هي زهرة الحب ؟

أصبحت هذه الفتاة غرامي وشغلي ، وأنا كلما مررت تحت نافذتها تحيتني بابتسامة أو ألقت إليّ زهرة ، أو أرسلت لي في الهواء قبلة فأذهب إلى عملي نشوان سعيداً

وكثيراً ما كنت أراها في الصباح بعد حلم نمت بطيفها فيه حتى كأنني لم أستيقظ منه . وقد مضى على ذلك شهر وأنا أستقبل عند مطلع كل شروق شمس وجهها الصبوح تبعث في نفسي نشوة جديدة تزيد في ناري وتضاعف حرقتي فأتمنى لو أنني أصل معها إلى آخر كتاب الهوى الذي تتبادل مطالعته كل صباح ، حتى إذا غلبني الوجد وخانني الجلد عولت على أن أضع بينها وبيني حداً بالزواج وكانت سنها لا تتجاوز سبعة عشر ربيعاً ، فهي إذن لا تزال عذراء ، كما أنها لم تفتح قلبها لغيري وإلا كانت أهملتني وصدقت عني . فاستقر هذا الرأي في نفسي وأرجأت تنفيذه إلى الغد

وقطعت تلك الليلة مضطرباً أتقلب في فراشي وأقلب ما فكرت فيه على كل وجوهه إلا وجهاً واحداً هو : من عساها أن تكون ؟ ومن هم أهلها وعشيرتها ؟ نافراً من محاولة البحث في ذلك . إذ ماذا يهمني من نسبها مهما اتضع أو مالها مهما ارتفع وما أردتها إلا لذاتها : لجمالها وسحرها وفتنتها

وقد عولت عند الصباح على ألا أسلك ذلك الزقاق لأتفرغ إلى إعداد نفسي لتحقيق تلك الغاية ، وكذلك عند عودتي لداري . وبعد أن ارتحت في مضجعي قليلا قمت فقصصت منزلها ، وأنا أهتز من الفرح بلقياها

ولكني ما كدت أدنو منه حتى ألفيت نافذتها منغلقة وعلى الأرض من تحتها ذلك الأسيس مطروحا مهشماً ، فانقبض صدري وأظلمت الدنيا في عيني . على

2017-11-14 15:26:48

أنى أخفت أطرق الباب طرقاً متوالياً فلم أظفر بجيب ، وعند ذلك أقف مبهوتاً حائراً أسائل نفسى لم أقمت هكذا بهذا الأسيس ؟ وإذا كانت قد عزمت على الرحيل فلم لم تكاشفنى به وأنا أمر أمام نافذتها كل صباح ؟ ثم أقول لابد أنها فوجئت بهذا السفر وأنها انتظرتنى ، فلما لم ترنى كمادتها لم تر إلا أن تلقى بوعاء زهرها ليكون شاهداً على انتظارها ويأسها

وبينما أنا أطرق الباب أطلت عجوز من منزل قريب وقالت : إن أهل هذا البيت انتقلوا منه . وعند ذلك دار رأسى وتصبَّب عرقى ولا سيما عند ما قالت لى إنها لاتعلم عنهم شيئاً لأنهم كانوا لا يختلطون بأحد من جيرتهم . وهكذا تحطم قلبى كما تحطم هذا الأسيس . وأخذت أرجع إلى تلك القوة الخفية فأراها هى التى جعلتنى أنكص على عقبى يوم صادفت النافذة مفتوحة ، وهى التى جعلتنى لا أمرّ من تحتها فى صباح هذا اليوم فترحل بغير أن أودعها ، فهى إذن التى أرادت بكل ذلك أن تسخر منى وتتسلى على حساب ألمى !

وأخيراً جمعت حطام تلك الآنية وحملته معى إلى دارى

كنت أذهب بعد ذلك إلى عملى وأنا أسلك هذا الزقاق لعل تلك النافذة تفتح يوماً ما مصراعيها لتضم بينها نظراتى . وكنت أتمنى لو أن عينىّ تثبان من حفرتيهما إلى مصراعيها لتنظرا من خلالها أخشابها أو أرض تلك الحجرة التى طالما نعمت بخطواتها

أما ذلك الأسيس المحطم فقد عنيت بصيانته فى قمطر كتبى . وكنت دائماً أملأ منه عينىّ كأنى أمام متحف يضم بقايا آنية قديمة ثمينة . على أننى استبدلت به سواه وأخذت أتعهد تلك الزهرة التى سقتها يداها . وكنت كلما انبثقت منها قرنفلة تمرونى هزة لا تلبث أن تتلاشى ، وقد حرمت تلك الأنامل الرخصة التى كانت تقطفها وتقذف إلىّ بها ومن خواطر الحب التى كانت تختلج فى صدرها بسببى عند كل حركة من تلك الحركات

أما عملى بالديوان فقد أهملته إهمالاً ولذلك اعتزلته ، ولى من يسارى ما يكفينى . وقد ورثت عن أبوىّ نحو مائتى فدان من أجود الأرض بمزية النخل ، غير بستان واسع مكتظ بمختلف الأشجار المثمرة

ولعلك تذكر يا صديقى أنك يومئذ نصحتنى بذلك لأتولى شؤونها بنفسى ، ولأسترجع بالهواء الطلق ومناظر الريف ما ولّى من عافيتى على أثر تلك الصدمة التى كنت عنك سببها

ولكم حاولت بالعمل أن أنسى فأخفقت محاولتى . ثم أنى لمثلى النسيان والجرح الذى أصابنى فادح لا يندمل ، فأخذت قواى تنحلّ يوماً بعد يوم حتى اصفر لونى وشحب وجهى وغارت عيناى وكاد جلدى يلتصق بعظمى

وعند ذلك فكرت عمتى فى الكتابة إليك لتسارع إلى الاتفاق مع طبيب قدير ينتقل إلىّ . فلما فحصنى صرّح بأنه لا يجد علة ما لضيقى . وساد بعد ذلك صمت قطعته بقولى : إنى أعلم أن علتى لا يرجى لها برء . فقال : أنت إذن تعرف علتك فلم لا تذكرها فلعلى أوفق إلى شفائك أو على الأقل إلى درء خطر هذا الضعف عنك . وعند ذلك عدت إلى صمتى ، فاقترب منى وأخذ كفّى بين يديه وهو يقول : لمَ تكتمها عنى . إن المحامين والأطباء قلّ أن ينجحوا فى عملهم مستقلين عما يملء أصحاب الحقوق والمرضى من قصادهم . على أن أسرارهم دائماً فى حرز مكين من صدورهم وقد أقسموا على ذلك قبل مباشرة مهنهم

2017-11-15 15:26:48

وعند ذلك ظلت صامتاً وقد تضعضعت نفسي وأنا لا أرتضي أن آخذ من هذا السر الدفين مجازاً إلى إجابته . ولكنه استمر في عتبه قائلا : كيف تصرّ على كتمان أمرك عني ؟ إنني الآن لم أعد طبيبك ، فقد انتهت مهمتي معك فلذلك تكرمني باعتباري أخاً لك أو صديقاً . ثم اعلم أنني لن أقوى على العودة دون أن أقف على ما يعذبك لأن ما أصبحت فيه من سوء الحال مما يحزنني ويحزّ في قلبي . تكلم يا عزيزي ، تكلم يحق هذه الصمة الطيبة الرحيمة .

وعند ذلك فاضت نفسي بالشجون ، وانهمر من عيني الدمع ، وأخذت أقص عليه ما رويته لك في هذه السطور وأنا أحييه بأني لا أعلم من أمرها شيئاً لا اسمها ولا أسرتها ولا مكانها

ومن الغريب أنه بعد أن سمع عني هذا البيان المبهم انبسطت أساريره وارتاحت نفسه . بل لقد كان يخيّل إليّ أنه يبتسم وهو يحاول ألا ألحظ ذلك . ولما انتهيت من حديثي قال : إن حادثتك هذه عجيبة ، ومع ذلك فقد وقع ما يشبهها لكثيرين أعرف منهم شابة جميلة كاد يعصف بحياتها الحزن . ولكنني أقنعتها بالكف عن الجرى وراء أمل لا فائدة منه ، وقد سمحت لأرشاوي فلم لا تضع نفسك في موضعها يا سيدي وهي فتاة ضعيفة وأنت شاب قوي ؟ ثم إن مثل هذا المرض النفساني وخيم العاقبة على من لا يكون قوي الإرادة ماضي العزم . وإني لأعرف أن لك مذهباً طالما كنت تمتّ به وتنتصر له ، وهو أن لكل إنسان لو شاء سلطاناً من نفسه على تصرفاته . وكثيراً ما كنت تحتج بهذا المذهب على إخوان لك ولى وإن كان الزمن واليأس الذي أنت فيه جعلاك تنساني وقاما سداً بين ذاكرتك ويبني

على أنني مع هذا سأضع لك نظاماً دقيقاً تتبعه في طعامك وشرابك ورياضتك وأرجو أن تكون عند حسن ظني من قيامك عليه واتباعه . ومع ذلك فسأرسل إليك من الند ممرضة في مستوصفي بل إنها رئيسة ممرضاته ، وليست إلا أختي وستحمل إليك تفصيل هذا النظام ، فأكرر رجائي ألا تعارضني فيه . وعما قريب تعلم كيف أنني بفضل مساعدتها سأردّ بإذن الله حياتك إليك من جديد . وعند ذلك انصرف فأرسل إلي في صباح اليوم التالي برقية حدد فيها موعد قيامها وساعة وصولها ، فأرسلت بعض أتباعي لانتظارها

وبعد تلبي ساعة طرق أذني صوت جلبة في عرصة الدار فأدركت أنها أقبلت ، ولكن عمتي أسرعت إليّ وأخذت تضرب كفاً على كف وتقول : كيف يا ولدي يرسل طبيبك بمثل هذه الممرضة ، وهي أولى بالتمريض منك لأنها لا تكاد تخطو من شدة ما هي فيه من الضعف والهزال ؟ وعند ذلك دخلت وهي تتحامل على نفسها مستندة إلى أحد الخدم حتى إذا وقفت على مقربة مني وحدقت في سقطت مغشياً عليها فأسرعت نحوها ورفعت رأسها بيدي فإذا بها ... تلك الصورة التي كانت تزين ذلك الإطار القديم ...

أما الآن فالحمد لله على ما استرجعنا من العافية وعلى ما كتب لنا من السعادة . وهاهي ذي وأنا أخط لك هذا إلى جانبي تنفذ نظراتي من عينيها إلى قلمها الذي أصبح عراب حبي ، وما كانت من قبل لتنفذ إلى حجرتها من تلك النافذة .

محمود غنيمت

2017-11-14 09:29:48

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المؤلف

يا قارئى العزيز :

لو أنك قرأت روايتى «حاجى بابا فى اصفهان» لوجدتنى فيها قد عاهدت القراء على ألاّ أعود إلى الكتابة مالم أجد تشجيعاً . فإن وجدتُ هذا التشجيع وصفت له حياة « حاجى بابا » بعد سفره إلى انكلترا سكرتيراً للسفارة الفارسية

هذا ما عاهدت عليه . ولكننى بهذا العهد وضعت نفسى أمام مشكلة لا أعرف كيف يكون حلها لأنى والحق أقول لا أعرف ما هو التشجيع ، وإنما هى كلمة تورطت فيها . فإذا كان التشجيع هو ثناء الصحف فإن الأكاذيب لا تشجع ؛ وإن كانت إشارة المجلات فهى لا تتناول الكتب وإنما تتلمس من عنوانها موضوعات تكتب عنها وليس لها بالكتب علاقة ؛ وإن كان التشجيع من القراء فإنى أعترف لك أن معظم القراء فى انكلترا يشترون الكتب ولا يقرأونها ، والطبيعة الأولى من كل كتاب ستباع ، صالحاً كان أو غير صالح . ولا يستطيع المؤلف أن يعرف أهل نجح كتابه أم لم ينجح ، ولو أن الآلاف من النسخ قد بيعت منه

ولما كانت هذه هى الحالة فانى كما يقول «حاجى بابا » وضعت ذراعى البلادة على صدر الاهمال ولم أتمم القصة . بل عنيت أن أقول إنى لم أترجمها إلى الانكليزية . لأن أصلها الفارسى كما تعلم موضوع بقلم حاجى بابا . وإن لم توجد منه نسخة غير التى عندى ... ثم طرأت على أعذار خاصة اضطررت معها إلى عبور المحيط إلى أمريكا . وهناك كدت أنسى كل شىء فى العالم القديم

ولما عدت إلى انكلترا وجدت خطاباً ورد علىّ من فارس من موظف كبير فيها ، فعادت إلى ذهنى الذكريات الآسيوية . ولما قضيت الكتاب وقرأته لم أتمالك نفسى من الصياح : « هذا هو التشجيع ! إن هذا الخطاب القصير أكثر تشجيعاً لى على الاستمرار فى كتاب « حاجى بابا » من أى مشجع آخر . وسأتلو عليك هذا الكتاب ثم أخبرك لماذا رأيته مشجعاً . وقد كان الكتاب باللغة الانكليزية وبهذا الأسلوب الغريب :

صديقى العزيز :

أنا غضبان عليك ، وليس غضبى بغير سبب . لماذا وضعت كتاب حاجى بابا يا سيدى ؟

الشاه غضبان عليك ، وقد حلفت له أنك لم تكتب هذه الأكاذيب ولكنه قال : بل كتب كل الناس غضاب عليك . إن الكتاب كله أكاذيب فمن أخبرك بها يا سيدى ؟ لماذا لم تسألنى ؟ هذا سيئ جداً منك

تقول إن الشعب الفارسى قد يكون كذلك ولكن الشعب الفارسى لم يسىء إليك ، فلماذا تتعمد

بتلك الصفات سواء أكانت فيه أم لم تكن فيه ؟ ولقد أرسل الشيخ عبد الرسول خطاباً طويلا إلى الشاه يذكر له فيه أنك تحدثت فى الكتاب عن مقتل زوجة الشاه ، فلما سألنى جلالته عن ذلك حلفت له أن الشيخ عبد الرسول رجل كذاب . ولقد علمت أنك أسميتنى فى كتابك باسم « ميرزا فيروز » وأنك طعنت فىّ . علمت ذلك وأنك وصفت كلامى بالسخف ، فتى كان كلامى سخيفاً يا سيدي ؟ أنت تظن أن كتابك يدل على حذق ، ولكن الواقع أن كتاب حاجى بابا عمل فى نهاية الحماقة . وأعتقد أنك أسفت على تأليفه

الانكليز يقولون إنه كتاب عظيم ، ولكننى أرى أنه ليس عظيماً . وأنا صديقك القديم فلا بد أن تكون حاقداً على جداً لصارحتى إياك برأيى ، ولكنى مخلص فى صداقتى . وأرجوك أن تضع رواية أخرى تمدح فيها الفارسيين ؛ وسيبرر كتابك هذا أعمالى المكررة أمام الشاة بأنك لم تضع كتاب حاجى بابا

أرجو عدم المؤاخذة . فأنا لا أعرف كيف أوافق ، ولتنى داعماً هى اللغة البسيطة وأنا صديقك المخلص ... ولكن لماذا كتبت عنى ؟ الله أعلم !

حاشية :

« اشتريت منزلاً جديداً يا سيدى وأنا الآن أحسن كثيراً مما كنت تعرفنى . ويقول الإنكليز إن أمريكا مملوءة بالفضة والذهب وإنك غنى جداً . وأنا أحب الزهور الانكليزية لأغرسها فى حديقة منزلى الجديد ، وقد أخذ الشاه كل أوانى الخزف التى كانت عندي ؛ وبما أنك كتبت سخافات كثيرة عن « ميرزا فيروز » فابعث إلى بيذور بعض الزهور لأنى دافعت عنك أمام الشاه وحلفت باطلاً ، وإذا أرسلت لى بعض الأصص الغالية كان ذلك جميلاً منك »

التوقيع

ولقد تسألنى أيها القارئ لماذا أجد التشجيع فى خطاب مثل هذا . ولقد تظن أنى كالرجل الذى أراد أن يعرض جواده للبيع فأخذ يمدحه بأحسن صفات الخيل ، ولكن الجواد رمحه أمام المشترين فلم يخجل من ذلك بل قال إن جوادى يحب المداعبة

لكننى أؤكد أننى لست مثل هذا الرجل ، وأؤكد أن فى الخطاب تشجيعاً كثيراً . ذلك لأنه يدل على أن كتابى أثر تأثيراً كبيراً فى شعب حى كالشعب الفارسى . وقد يكون هذا التأثير حافزاً له على التفكير . وأنت إذا أصبت الفارسى فى كبريائه فإنك تصيبه فى أقدس شىء لديه . حاول أن تسخر من فارسى ثم انظر إلى حد يصل به الغضب إليه ، لكن التفكير يحيل تلك الخلة إلى دأب على محاولة الاصلاح . فإذا استطعت أن تبين للشعب الفارسى عيوبه فإنه لا يلبث أن يصلحها ويحيلها إلى محاسن ، بعكس الشعوب الخانعة التى تعرف أن بعض صفاتها معيب ولكنها ترضى بها على أنها كذلك ... ولقد حاولت فى الصحائف التالية أن أبين أوجه التناقض بين الفارسيين اليوم وبين الشعوب المتحضرة . وفى رأيى أن المواهب الطبيعية فى الفارسيين لا تنقص شيئاً عن مواهب أرقى الأمم ؛ فإحساسهم حى ، وذكاؤهم متوقد ، وأنفسهم عالية ، وهم أهل شجاعة ونخوة ، ولكنهم — على الرغم من كل هذه المحاسن — فى نهاية الجهل . فإذا وجدت فيهم حكومة صالحة تعنى بالتعليم صاروا كما كانوا فى وقت من الأوقات من أكبر الأمم . ولقد حرصت على محاكاة لغة صديقى فكتبت إليه الرد الآتى :

2017-11-14 15:05:48

لندن فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٦

صديقى العزيز :

تسلمت خطابك وأرجو ألا يقصر الله ظلك . أما عن كتابى « حاجى بابا » فلماذا لم تقرأه يا سيدى قبل أن ترسل إلى خطابك ؟

إن الشيخ عبد الرسول كذاب كبير وغبى جداً ، ولكنك « ما شاء الله ! » ... ولكنك رجل ماهر ياسيدي . فأنت وزير وأنت تعرف القراءة والكتابة ياسيدى ، وأنت تقول إن كتاب « حاجى بابا » كله كذب . نعم كذب ، وكذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » وجميع الكتب الرواثية فى فارس وفى غيرها . لماذا تغضب على إذن يا سيدى ؟ تقول إن الشعب الفارسى لم يسىء إلىّ ... نعم فلهم لم يقتلونى ولم يعتدوا على دينى وهذا حسن ، ولكن هل هذا هو كل شىء بينى وبينهم ؟

وتقول : إنك صديق وإنك كذبت على الشاه وحلفت على الكذب ، وهذا حسن جداً ياسيدى ؛ ولكنك قلت شيئاً غير لطيف : قلت : إن أصريكا مملوءة بالذهب والفضة وإنى من أجل ذلك يجب أن أكون غنياً . لماذا يا سيدى ؟ أيلزم بالضرورة أن تكون أنت غنياً لأن الشاه غنى ؟ هذا غير لطيف يا سيدى وأنت وزير كبير وعندك قصر جديد ، ولكنك مع كل حال فى حاجة إلى بذور للزهر لتزرعها فى حديقتك فسأبعث إليك بها وبالأحص إذا ما حلفت مرة أخرى أمام الشاه من أجلى

أرجو الصفح فانى لا أعرف كيف أتأنق ولكنى أتكلم فى صراحة . لماذا كتبت إلىّ هذا الخطاب وأنا صديقك القديم ؟ الله أعلم !

حاشية :

عندى الآن زوجة ياسيدى وعندى أولاد وأنت وزير كبير وعندك ذهب وفضة ، وبما أنك كتبت لى خطاباً سخيفاً وقلت : إنى أكذب فابعث إلىّ بذهب وفضة ؛ وإذا أرسلت لزوجتى وأولادى بعض شيلان كشمير كان ذلك جميلا

جيمز موير

عزمت بعد ذلك على إتمام القصة على لسان « حاجى بابا » أو بالحرى عزمت على ترجمة ما كتبه « حاجى بابا » باللغة الفارسية فى وصف إقامته فى انكلترا وحرصت على روحه وأسلوبه . ولدى القارئ صورة واضحة فى خطاب ميرزا فيروز تبين شخصيته ولكن هذه الصورة ستزيد وضوحاً بما سيعلم عنه فى أثناء القصة ، ولست متحيزاً للانكليز ولا مضطغناً على الفارسيين ؛ وسأكتفى ببيان أوجه التناقض على حقيقتها وللقارئ حكمه ، ولن أطيل إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك لأن شر ما أخشاه ويخشاه الكاتب أن يراه القارئ مطيلاً عملاً ، وكل رجائى إليكم أيها القراء الأعزاء إن رأيتم أنى أطلت فى بعض المواقف أن تذكروا أنى مضطر إلى الاطالة

الفصل الأول

حاجى بابا يجمع الهدايا من اصفهان

أرسلنى الشاه إلى أصفهان مبعوثاً من قبله لأجمع من أهالى المدينة الهدايا التى سيبعث بها جلالته مع إلى إنكلترا بعد أن صدرت إرادته بتعييني سكرتيراً فى لندن للسفارة التى تعين فيها فيروز خان سفيراً ووزيراً مفوضاً ومندوباً سامياً لجلالته

وأصفهان هذه هى مدينتى التى نشأت فيها ابن

حلاق وفارقتها فقيراً معدماً ولكنني أعود إليها الآن رجلاً عظيم الأهمية

دخلت شامخ الأنف أنظر فى كبرياء وعظمة إلى أهلها كأنهم تماثيل من الأحجار . ومن حسن حظى أن أبي وزوجها فقيه الكتب كانا قد بارحا المدينة ، وأقاما فى قرية بعيدة عند سفح الجبل . أما صديق القديم «على محمد» بواب الخان الذى لو كان حياً لصحبنى فى كل مكان ولمنحنى بمرافقته إيّاى من إظهار الكبرياء ، فانه قد مات عليه رحمة الله

وكنت أتعجب السير فى الطريق الذى كان فيه حانوت أبي الحلاق فى أيام طفولتى حتى لا يرانى أحد جيرانه القدماء . ولم أمر كذلك فى الطريق الذى كان فيه منزلنا القديم

وكان حاكم المدينة يجهل أصلى فاحترمني من أجل المهمة التى بعثت بها ولم ينقص من احترامه شيئاً . وكانت المهمة سامية جداً لأنى أمثل الشاه ولأنه خول لى أن آخذ ما أشاء من أى إنسان وأدرجه فى قائمة الهدايا . وكنت أقول فى نفسى : « أنت سعيد يا درحاجي بابا » ولا بد أن يكون الكوكب الذى ولدت ساعة بلوغه الأوج هو أسعد كوكب فى السماء ، فان ذقون أهل أصفهان وأهل شيراز أصبحت كلها فى يدى ، ولى أن أختار أية لحية فأنتف من شعراتها ما أشاء . ولكن تجاربي الماضية جعلتني أمنع يدالحكمة على ظهور الاعتدال . ولا يفوتنى أن أذكر أن لقبي الرسمي أصبح « عالى الجاه » أى صاحب الجاه العالي . وهذا اللقب مطمح أنظار الفارسيين فلا يوجد فارسى لا يتمنى أن يناله ، ولكنني مع ذلك فضلت أن يلقبنى الناس باللقب السابق وهو « عالي الشأن » وهو لقبى قبل الحصول على رتبة « بك » وتسميتى سكرتيراً فى السفارة

وما زلت حريصاً على التأدب فى مخاطبة الناس فلا أقول لإنسان «أنت» بل «أقول أنتم» ولا أقول لزائرى « اجلس » بل أقول « أرجو أن تشرفنى بمجالستك » ومع أنى كنت راغباً فى ألا أغير هذه اللغة فإنى ما كنت أستطيع تنبيرها لو أردت لأنى اعتدتها . ولأن الكلمات اللطيفة كانت أحلى فى أذنى من الأنغام

وكان مبى أمر من الشاه بين حدود مهمتى . وفيه أن حاجى بابا لما هو معهود فيه من الحكمة وسداد الرأى قد كلف من قبلنا بجمع رؤوس من العبيد والإماء لإرسالهما هدية منا إلى شاه بلاد الفرنجستان . وليكن هؤلاء العبيد والإماء ممتازين بصفات خاصة حاذقين فى مختلف الفنون أقوياء ليرى فيهم هذا الملك الكافر مثالاً حسناً من عبيدنا

وعهدنا إلى « حاجى بابا » بأن يجمع رؤوساً من الخيول العربية والتركمانية لإرسالها إلى شاه الفرنجستان أيضاً ليعجب رعاياه الكفار بما فى بلادنا مما لا نظير له عندهم ، وليكن فى جملة ذلك مهرة أصيلة لتلد فى بلاده سلالة من الخيول الشرقية ، ويكون ذلك برهاناً على حسن صداقتنا

وعلى « حاجى بابا » أن يجمع ما يليق بجماهنا الشاهاني ، ونحن ملك الملوك ، ما يستطيع جمعه من المنسوجات الحريرية ومن القطيفة ومن مصنوعات يزد وكاشان ما يدل على أنه لا يوجد فى العالم ذوق سليم مثل ذوق رعيتى ، ولكي ينسج عباد عيسى على منوال ما نغسجه نحن فيحفظوا لنا جميل تعليمهم . وليكن بعض تلك المنسوجات للرجال والبعض نساتياً ليكسو ملك الفرنجستان زوجاته ومحاظيه بما

2017-11-14 09:09:48

لم يعلم بشأنه . وليكن مع هذه الأقمشة بعض الأحجار الكريمة ومقدار وافر من الحناء والكحل والأقراط والأساور والدبابيس والمناطق والخواتم واللآلئ اللائقة بأن تهدى إلى ملك أجنبي من الملوك ؛ فلا تستعملوا شيئاً من هذه اللآلئ ولو أرسلتم كل ما فى البحرين

وعليه أن يجمع الزمرد والعقيق والزبرجد ليتعود ملك الفرنسجتان بالتحلي بذلك من كل عين شريرة ، وليجمع فوق ذلك كل ما اشتهرت به فارس من الدروع والسيوف ونماذج الخطوط الجلية والصور والتماثيل ، والطلاسم التى تطرد الشياطين . وبالجملة كل ما يفرح به المهدى إليه ويليق بمكانة المهدى

الفصل الثانى

« حاجى بابا » يصف جهد المستطاع

عرضت هذا التفويض على حاكم المدينة فوجم ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف . وحاكم المدينة هذا هو ابن وزير المالية ، وقد أدهشه أن يكلف بهذه المهمة أحد غيره وأن يكون التكليف من غير أبيه

ولما كان رئيس الوزارة عدواً لأبيه وله فقد ظن الحاكم أن هذه إهانة متعمدة . ولما قلت له إننا نريد البدء بالعمل قال : « كيف تتمكن من جمع كل هذا ؟ إن أهل المدينة فقراء ، والذى تطلبه لا يوجد فى مدينة واحدة من مدن العالم »

فقلت : « لو كان الرأى لى وحدى فإنى أقل من التراب . ولكن متى أمر الشاه وأمره يجب أن ينفذ بغير مناقشة »

قال الحاكم : « هذا ما لست أشك فيه يا « حاجى بابا » ولكن اصفهان ليست بلاد النوبة فكيف نأتى بالرقيق ؟ وليست مثل نجد فمن أين لنا بالجياد ؟ وكذلك لسنا فى بلاد البحرين فأين هى الجواهر ؟ ولسنا فى خراسان فكيف نحصل على الحرير ؟ »

لما سمعت هذا القول من الحاكم عرفت ما الذى يريده لأنى أعرف الفارسيين وأعرف كيف تنشأ المصاعب وما وسائل تذليلها بينهم . فهمست فى أذنه بأنى لست بالرجل الذى يريد الاستئثار بالنفع وأنى سأقاسمه ما يزيد على الحاجة . فما كدت أنطق بذلك حتى ابتسم وتلاشت المصاعب . وفى ساعات قلائل كان القصر مملوءاً بالعبيد والإماء والحرير والشيلان والسجاجيد ؛ وجاء التجار من كل مكان يقدمون لنا خاضعين أحسن ما عندهم

ولكثرة المعروض من الرقيق ، ولأنى عضو فى السفارة رأيت أن أختار ما ليس له شبيه فى مزاياه لأنى مسؤول عن روعة الهدية . فاخترت الجوارى من الشركسيات الموجودات فى أروقى بيوت اصفهان لتكون لهن قيمة فى حريم شاه الانكليز . وكان بينهن حبشية واحدة امتازت بخفة نومها ؛ وإذا نامت فإنها تبقى مفتوحة العينين ؛ وقلت إن الشاه الانكليزي سيسر بها سروراً كبيراً لأنها تنام عند بابه فتحميه من دسائس الحريم . وكان من مزاياها أيضاً أنها ليس لها غطيط فهى لا تزعجه فى نومه

وكان من بين الجوارى أيضاً واحدة تحسن الطهى حتى لقد سمعت أن الذى يتعود الأكل مما تطبخه يعيش ضعف العمر المعتاد . وهل يريد الملوك أكثر من التمتع بطول العمر مع جودة الأكل

أما العبيد فكان بينهم زنجى قوى جداً لا يغلبه أى إنسان فى المصارعة فهو يستطيع أن يحمل رجلاً

2017-11-14 15:26:48

ويلقى به على مسافة طويلة كما يفعل غيره بسلة خفيفة ، فهو يأكل كبشاً كاملاً فى الوجبة الواحدة

وأما إماء الحرم فقد اخترت منهن اللآلئ الساحرات العيون الوافيات الأجسام . ولما لم يكف من تتوافر فيهن شرائط الجمال فى أصفهان فقد جئت بأجمل الجميلات فى شيراز ، وجمعت بعد ذلك من الجواهر والثياب وغلف الأصناف أحسن ما هو موجود فيها وعنيت عناية خاصة بالثياب والمجوهرات التى ستهدى للملكة الفرنجستان ؛ ومنها البراقع المحلاة بالذهب والحبرات وأقراط الأنف والكحل والأصباغ للشفتين والخدين والعنبر ليوضع منه على الخد شكل الخال

واخترت فتى جميلاً من الخصيان الشركسيين لتكون الملكة فى حراسته « أغا » وهو قوى ماكر لاتستطيع الملكة أن تفلت من رقابته سواء أكانت من الشياطين أم من الملائكة

وقبل عودتى إلى طهران اقتسمت مع الحاكم ما زاد على الحاجة ؛ وخصصت جانباً لأهديه إلى رئيس الوزارة وخيأت ما جعلته من نصيبى بين أمتعتى وآليت ألا أطلع أحداً على هذا السر

الفصل الثالث

سفير انكلترا يعترضه على الهدايا

وصلت سالماً إلى الحاسة والهدايا محمولة على البغال والجوارى على الهوادج فوق ظهور الخيل والعبيد يمشون حول موكبى ، فقصدت توًّا إلى منزل رئيس الوزارة ، وفى أقل من لحظة صدر لى الإذن بمقابلته فقدمت له النصيب الذى استخلصته من الهدايا ، وأقسمت أنى لم أحتفظ لنفسى بشىء . ويعلم الله أنى كنت أضحك بهذا القول على لحيته . ثم عرضت عليه الهدايا التى جمعت لإرسالها لشاه الفرنجستان

فسُرَّ رئيس الوزارة وقال لى : أنت ياحاجى بابا جدير بالثقة ، ولكن ليس معنا الآن أحد فى هذا المكان وأريد أن أنبهك إلى أن « فيروز خان » الذى سيكون سفيراً ورئيساً لك يحسدك على قيامك بهذه المهمة التى كان يريد أن يكلفه الشاه بها لينفذها بنفسه أو ليرسل أحد أتباعه ، فاحذر من عداوته لك وأخبرنى بأعماله عند ما تصلون إلى الفرنجستان

وأخبرنى رئيس الوزارة أنه تحادث مع سفير انكلترا عن الغرض الذى أرسلت من أجله ، وأن هذا السفير المبين حديثاً أبدى رغبته فى رؤية الهدايا قبل إرسالها ، وقبل أن يكتب الخطابات التى سترسل على لسان الشاه ووزرائه إلى انكلترا ، لأنه ليس فى الحكومة الفارسية من يعرف اللغة الانكليزية ، كما قبل أن يأتى لنا بمترجم انكليزى يعرف اللغة الفارسية لكى يكون مترجماً للسفارة الفارسية فى لندن

دُعىَ السفير بعد عودتى إلى زيارة الشاه ليرى الهدايا ، وحضر هذه الحفلة « ميرزا فيروز » الذى تعين سفيراً ، وقد كان كلا السفيرين لايعرف ما هى هذه الهدايا قبل أن تعرض عليهما

اجتمع الوزراء والسفيران فى « الديوان خانه » وهى قاعة الاستقبال فى قصر الشاه ، وقد زينت القاعة فى هذا اليوم كأحسن ما تكون الزينة وحليت النافورة بالأزهار وأديرت فكانت مياهها تتناثر على الزهر كالدموع على خدود الحسان . ثم أديرت الفواكه والمثلجات وأعرنى رئيس الوزارة بعرض الهدايا فجئت بالجوارى والعبيد وبالخصيان وعرضتهم

2017-11-14 09:09:48

فوقف السفير الانكليزى منتصباً وقال: «ماهؤلاء؟ إن الانجليز لا يقبلون الرقيق في بلادهم »

قال رئيس الوزارة فى هدوء : « ما هذا القول يا فخامة السفير ؟ أليس عندكم عبيد ؟ كيف إذن تقومون بالأعمال ؟ »

قال السفير : « إن كل من فى بلادنا أحرار وكل من يدخلها يصير حراً »

فقال رئيس الوزارة : « ولكن هذه الهدايا للشاه الانكليزى نفسه ؛ وإذا لم يكن مسموحاً فى بلادكم لأى فرد بامتلاك العبيد فلا يمكن أن يكون شاهكم كسائر الأفراد . من الذى يطبخ له ؟ ومن الذى يدخل معه الحمام ؟ ومن الذى يحرسه حين ينام ؟ أليس هذا من عمل الرقيق ؟ »

قال السفير : « ليس لمكنا الحق فى امتلاك الرقيق ، فهو فى ذلك كأى فرد من رعاياه ، وهو يستأجر من يخدمونه والملك نفسه من أشد الناس عداوة للرقيق فهو لا يكتفى بمنعه فى بلاده ولكنه يستعمل نفوذه وقوة دولته فى منعه من البلاد الأخرى »

فتح الوزير عينيه وفمه وقال وهو شديد الدهشة : « أظن النشوة لا تصل بكم إلى هذا الحد . كيف تمنعون الرقيق ، وكيف يعيش هؤلاء المساكين إذا حررتاهم ؟ إنهم لا يستحسنون سعادة أكبر من بقائهم معنا . فاذا تركناهم فانهم يموتون جوعاً ، وهم أبناؤنا وأجزاء من عائلاتنا »

قال السفير الانكليزى: « ولكنكم تستطيعون قتلهم » فقال رئيس الوزارة : « أبن هو الأحمق الذى يحرق منزله بيده ؟ كيف نقتلهم ونخسر ثمنهم؟»

قال السفير : « مهما تكن الحال فإنكم تستطيعون ضربهم ولا مسئولية على أحد كم فى ذلك »

فقال رئيس الوزارة : « ومن الذي يمنعنا عن ضرب الخادم ولو لم يكن رقيقاً ؟ إن كل إنسان معرض للضرب ممن هو أكبر منه إلا جلالة الشاه حماه الله . فالشاه يضرب الوزير ، والوزير يضرب الموظف ، والموظف يضرب الناس »

ولما رأيت أن مجادلة السفير على هذه الطريقة لا تؤدى إلى إقناعه تلطفت وقلت له متواضعاً : « ولكنك يا فخامة السفير لم تعرف بعد مزايا هؤلاء الأرقاء ؛ فإحدى الجوارى تحرس باب الملك عند نومه حتى لا تخونه نساؤه الأخريات ، والأخرى تطيل عمره بجودة ما تطبخه »

فقال السفير : « إن الأحوال فى بلادنا تختلف عن الأحوال فى بلادكم ، فإن الشاه الانكليزى ينام هادئ البال كأى فرد من رعاياه ، ولا يخاف من الاعتداء عليه وهو نائم ، وهو يأكل من أى طعام ، ولا يخاف من أن يدس له السم فيه ، وهو يثق بطباخه كما يثق برئيس وزرائه »

قلت : « وهـذا الزنجي يا فخامة الوزير مثل « اسفانديار » فجسمه من النحاس وذراعاه من الحديد ، ولا شك أنكم لا ترفضونه فهو ضرورى جداً فى حاشية شاهكم »

فقال السفير : « إن عندنا مصارعين من جنسنا ، ولكنهم إذا سلبوا حريتهم فقدوا قوتهم . إننا لا نقبل الرقيق بحال من الأحوال »

عند ذلك هتفنا جميعاً : « هذا عجيب جداً ! » وارتجع ميرزا فيروز من احتمال سفره بلا هدايا . وقد كنا نعتقد أن نجاحنا فى لندن يتوقف على قيمة الهدية التي نهديها كما هي الحال عندنا

وقال الوزير : « وعلى كل حال فأظنكم لا

ترفضون هذا الخصي الشركسي فهو لا يقدر بثمن»
فقال السفير : « إنني لا أعرف مهمته فما هي ؟ »

قال الوزير : « إن للملك زوجات وجواريَ كثيرات وهن بالطبع في حاجة إلى مراقب أمين ، لأن المرأة لا تستطيع الخروج من المنزل إلا تحت مراقبة أحد من أتباع زوجها فالنساء غير مأمونات ولا محل للثقة بهن »

فأدهشنا السفير عند ما أجاب بقوله : « ليس للملك عندنا إلا زوجة واحدة وجميع الرعايا يراقبون حسن سلوكها لأنها ملكة وليست في حاجة إلى خصي »

صحنا جميعاً : « لا إله إلا الله ! هذا غريب جداً ! » وقال رئيس الوزارة : « وكيف يكون ملكا وله زوجة واحدة ؟ وما هي الفائدة إذن من كونه ملكا ؟ ما الذي يفعله شاهكم إذا مل من زوجته ؟ »

فقال السفير : « إن الجواب على هذه النقطة بعيد عن فهمكم لاختلاف عاداتنا وعاداتكم . إن المرأة عندنا مثل الرجل في حقوقها وفي احترامها وقد تولي الملك عندنا كثير من النساء »

فكر رئيس الوزارة ثم قال : « هذا غريب جداً ! إن عاداتنا تخالف عاداتكم مخالفة كبيرة فالنساء عندنا في حكم العدم ، ونحن لا نثق بهن ونعتقد أن المرأة لم تخلق إلا لقضاء حاجة الرجل ونحن لا نفهم خضوع الرجال لحكم المرأة إلا كما نفهمون خضوع الثور للنعاج »

وقال فيروز خان : « إذا لم يكن للشاه الانكليزي غير زوجة واحدة ، فلديه بلا شك نساء كثيرات لحفظ ثيابه وللرقص والغناء ولقنص النوادر ولمرافقته عند نومه ولخدمة زوجته وتربية أولاده ، وكل هذا العدد من النساء في حاجة إلى خصي لأننا لا نفهم أن جميع النساء في بلادكم يختلفن عن نساء بلادنا فلا تكون لكم حاجة بمن يتجسس عليهن ... فقال السفير : « مهما بدا لكم غريباً فان هذا هو الواقع . وليس على نسائنا رقابة ، ومع كل ما للملك من السطوة فانه لا يستطيع إخضاع امرأة لرقابته أو منعها من الخروج من المنزل أو مقابلة الناس . ولو فعل ذلك لكان حكمه كحكم من يعاقب النير بنير محاكمة ، وقوانيننا تمنع ذلك . ومن المستحيل أن يكون في بلادنا من يتجسس على المرأة لزوجها . ثم أريد أن أعرف من أين تأتون بهؤلاء الخصيان ؟ »

فقال رئيس الوزارة : هل تظن أننا نأتي بأناس يخلقون كذلك ؟ كلا فان كل موظف مغضوب عليه أو كل أسير حرب نفعل به كذلك »

انزعج السفير الانكليزي من هذا القول أيما إنزعاج وأسر على ألاّ يقبل الخصيان في بلاده

وكان الشاه يسمع ذلك ولا يتكلم ، وقد بدا على وجهه الغضب لرفض جانب من الهدايا . وفي ذلك مالا يدل على حسن النية ، لأننا نحن الفرس نرى رفض الهدية من أكبر علامات الاحتقار ، وهو بين الملوك من بوادر الحرب . لكن لما عرضنا على السفير الانكليزي قبول الجياد وافق وأبدى علائم الشكر والسرور . وكذلك قبل السيوف والدروع ومنها سيف « تيمورلنك » وآخر لنادرشاه وهو الذي كان معه لما فتح مدينة « دلهي » وخوذة جميلة للشاه اسماعيل ، وقميص طرز بآية من القرآن كان لمحمد شاه

قال الشاه للسفير الانكليزى : « اكتب لأخى ملك الانكليز بأن يضع القميص تحت ثيابه كلما خرج إلى الحرب فإنه يضمن له النصر فى كل موقعة »

وقبل السفير كذلك مع الشكر أن نبعث إلى ملكه بالمنسوجات الحريرية والشيلان والسجاجيد والجواهر والمصوغات والهدايا المرسلة باسم الملكة ؛ وقد ابتسم عند رؤيتها وقال إن جلالتها ستسر بما أهدى إليها وإن كان من المستحيل أن تلبس شيئاً من ذلك »

ولما تم الاتفاق على ما يرسل وما لا يرسل عاد السفير بعد شكره للشاه وتركنا نعرب عن دهشتنا لنزاهة أهل البلاد التى يسكنها هؤلاء الفرنجة

الفصل الرابع

خطاب من كبيرة زوجات الشاه الى ملكة انكلترا

كان من أهم الأمور التى يجب قضاؤها قبل سفرنا أن نكتب خطابات إلى شاه الفرنجستان ووزرائه كالتى وصلت إلينا عندما جاء سفير انكلترا إلى طهران — الخطابات التى ترجمها لنا السفير ولكننا لم نعجب بانشائها ولا بخطها ، ويظهر أن الانكليز ليس عندهم ذوق فى الانشاء . ولقد أدهشنا وحيرنا شكل ختم به على غلاف الخطاب الانكليزى للشاه ، لأن عليه رسم رجل على ظهر جواد يقتل حيواناً مفترساً . ولقد جمعنا العلماء ليفسروا لنا هذا اللغز فكان جوابهم بالظن أن هذا الرسم يمثل بطل التاريخ الفارسى « رستم » يقتل الشيطان الأبيض ؛ ولكننا لما سألنا فيما بعد من أحد الفرنجة قال : إن هذا الرجل عظيم من كبار الفراويش الانكليز اسمه « القديس جورجيو » وأنه يقتل وحشاً يهاجم شاه الفرنجستان . وهذا الرسم معناه أن يلادم آمنة . وقد كان مثل هذا الرسم على شريط من الحرير فى أسفل الخطاب الذى بداخل الغلاف ؛ وكان وضع هذا الخاتم فى أسفل الخطاب سبباً فى مناقشة حادة بين السفير الإنكليزى وبين رئيس الوزارة لأن الأخير رأى أن وضعه كذلك يعد اعترافاً من ملك الانكليز بأنه أصغر من شاهنا ملك الملوك . وقد ظهر لنا من هذه المناقشة أن هذا الملك يعتبر نفسه أكبر من كافة الملوك حتى الشاه الفارسى نفسه

ولما جاء دور الكلام على الخطاب الذى سنرسله إلى ملك الانكليز قال رئيس الوزارة : إننا سنضع خاتم الشاه فوق العنوان فرفض السفير ذلك ونحن رفضنا أن نضع الخاتم فى ذيل الخطاب ، ثم تم الاتفاق على أن يكون العنوان وخاتم الشاه فى سطر واحد

وأمر الشاه باحضار أكبر المنشئين وأكبر الكتاب لإنشاء الخطاب وتسطيره بخط جميل ، ثم يترجم السفير الانكليزى الخطاب ، وترسل الترجمة مع الأصل لجمال خطه . وقد اختار المنشئون لهذا الخطاب زهرات اللغة التى تروق ويصعب فهمها على الرجل العادى ، ولكن تتناقلها الأفواه لجمالها . ولست أنذكر من كل هذا الخطاب إلا الجملة الآتية

« عند ما تتعرض حديقة الأزهار التى أعوادها كلمات هذا الخطاب والتى روائحها معانيه ، ونسيمها الاخلاص المتجلى فيه — عندما تتعرض هذه الحديقة لنجنى عينيك المتألقين فى سماء وجهك ، وعندما يسطع عليها ضوء نفسك من هذين النجمين ، وعند ما نستنشق عبير هذا الاخلاص ، عند ذلك أتمنى أن

تكون على عرش الصحة متوجاً بالسعادة والرفاء »

هذه جمل من الخطاب البليغ . فكيف يفهم عقل الرجل العادى أن معنى هذه الكلمات هو : « عند ما يصل إليك خطابى أرجو أن تكون فى صحة جيدة »

بقى خطاب كبيرة زوجات الشاه إلى ملكة انكلترا رداً على خطابها . ولقد كانت هذه الملكة تجمل عوائدنا فلقبت زوجة الشاه بلقب ملكة إيران وأهدتها صورتها فى إطار محلى بالجواهر

وبالرغم من أن زوجة الشاه ذات نفوذ فى القصر فإنه ليس لها أقل نفوذ فى الدولة . والشاه أن يقتلها ويأتى بغيرها دون أن يشعر بذلك أي إنسان . ولكنه كان من الضرورى على كل حال أن يصل إلى ملكة الفرنجستان رد على خطابها

وبعد أن حاول كتبة القصر أن يضعوا نص هذا الخطاب جيء بمنشىء الدولة لوضع الصيغة النهائية ، وهذا هو نص الخطاب :

« أدعو لجلالتك دعاء طاهراً كعرض مريم العذراء البرىء من كل تهمة . وسلاى إليك كشهادة عيسى لأمه . وبعد فيا لؤلؤة الجمال المكنونة فى أصداف العظمة ، ويا كوكب المقل المتجلى فى سماء الحكمة ، أطال الله ظلك ، وأكد روابط المودة بين بلادنا وبلادك بحق جبريل عليه السلام ، وعطر علاقتنا بروائح الاخلاص

وقد كان تبادل السفراء سبباً فى فتح باب الصداقة على مصراعيه فلتزن بلابل الأقلام ، على أعواد الحب والوئام ، ولتنبت زهرات العطف على أغصان الصداقة والسلام » .

« البقية فى العدد الآتى » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأجزاء الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

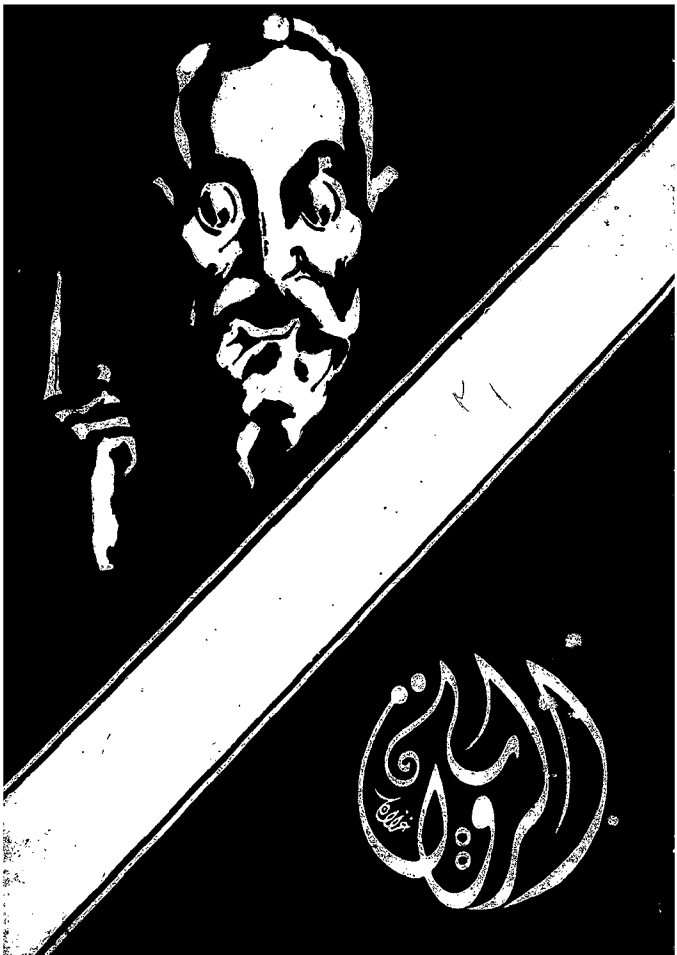
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


أنور السادات

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العدد ٣١ | أول ربيع سنة ١٣٥٧ — أول مايو سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٣٤٦	الخاتم	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبرهيم عبدالقادر المازنى
٣٥١	الصقر	القصص الايطالى بوكاتشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٣٥٥	أمنية	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب عبد الحميد جودة السحار
٣٥٨	شجار أطفال	الكاتب التركى الكبير رشاد نورى	بقلم الأستاذ السيد خلف خوقى الساودى
٣٦٤	مؤذن بغداد	من القصص العربى	بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف
٣٧٨	ماريونو	الكاتب الايطالى ماسوشيو سالرنيتانو	بقلم الأستاذ دريني خشبة
٣٨٣	يوم القضاء	من التاريخ الاسلامى	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
٣٨٠	الزوجة المزورة	الكاتب الروسى استفان بوريانف .	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة
٣٩٢	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

2017-11-14 12:25:26

الخاتم

أقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« خبئي خاتمي ... بسرعة ! »

« ماذا ؟ »

« خذي ... أخفيه ... ألا ترين هؤلاء الثلاثة المقبلين في مثل ثياب الأوشاب ؟ أسرعي ... يا لك من بلهاء ... لا بأس ، سأتركه هنا ؟ فما أظن أحداً يلمس هذين أو يدس يده بينهما »

ودست الخاتم بين ثديي أختها الناهدين الراسخين وتركتها ومضت

وكان الثلاثة الأوشاب ، أو الذين آثروا أن يتنكروا في هذا الزي يتنقلون بين السيدات على عجل ، وينزعون عنهن ما يسهل نزعه من الحلى ، ويتركونهن ما بين ذاهلة مفتوحة الفم جاحظة العين ، ومغشي عليها من الخوف ، وصارخة تستغيث وتصيح : « أدركوني ... يا بوليس ! » وكان بعض الرجال قد حاولوا أن يصدوا هؤلاء الأوباش ولكن فوهات المسدسات ردتهم وأرخت أيديهم إلى جنوبهم وألصقت ظهورهم بالجدران

وتقدم أول الثلاثة من جليلة ، وهي واقفة تنتفض ولا تكاد تقوى ساقاها على حملها ، وترى الكرسي إلى جانبها ولا يخطر لها أن تقعد لفرط ما اعتابها من الاضطراب والجزع ، وتناول كفيها ورفعهما وهو يتأملهما ثم صعد عينه إلى وجهها وقال : « غريب ! فتاة جميلة مثلك لا تلبس حلياً ؟ وهؤلاء جميعاً محشودون هنا احتفالا بك ؟ غريب ! »

وهوى بكفيه إلى نحفيها يتحسس ثنية الجوربين عليهما عسى أن تكون قد خبأت هناك شيئاً ، ولما لم يجد شيئاً انصرف عنها وهو يهز رأسه مستغرباً

وغادر الثلاثة البيت ، كما دخلوا ، من الباب ، صفاً واحداً لا متريثين ، ولا مجلين ، ولا متلفتين ، كأنما كان دخولهم وتفتيش السيدات أمراً عادياً مما يحدث كل يوم ! فعلت الأصوات وانطلقت ، بعد طول الاحتباس ، وتصادمت الأجسام بعد أن استردت قدرتها على الحركة

ودخل صاحب البيت وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب وانحط على كرسي خف به الموجودون وألحوا عليه بالأسئلة ، وهو لا يجيب . ثم انتظمت أنفاسه فقال :

« اطمئنوا ... لم يضع شيء ... كل ما أخذوه ألقوه في الدهليز ... يظهر أنها مزحة . ألا قبح الله هذه المساكن الخلوية ... لو لم يكن بيتنا بعيداً عن المساكن لما اجترأ هؤلاء الأشرار أن يركبوا بهذا المزاح البارد المزعج ... ولكن لا بأس ... والآن سيداتي وسادتي ، تستطيعون أن تعودوا إلى الرقص والمرح »

وتفرق الدعوون يستعيدون ما فقدوا ، وأقبلت « إحسان » على أختها تقول لها :

« هاتي الخاتم يا جليلة ... »

ولم تتم كلامها ، إذا صح أنها كانت تريد أن تقول غير ذلك ، فقد دخل بينهما في هذه اللحظة

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

شاب فى زى شيطان ، وأحاط خصر جليلة بذراعه وهو يقول :

« هذه رقصتى »

فهزت إحسان رأسها وقالت لنفسها : « لا بأس ولا داعى للسجلة ، فان الخاتم فى أمان ولن يخطفه مراقصها وإن كان عفريتاً »

وقال المفرت لجليلة وهو يطوف بها : « ما أحلى أن ترقص الشياطين والملائكة معاً ! » وصوب عينه وهو يهمس بذلك إلى صدرها ، وكان يدنيها منه ويشد عليها ، وكانت هى تحاول عبثاً أن تتخلص من هذا الذى يشبه العناق ، فيخيل إليها أن حدقتيه البادیتين من ثقبى القناع تومضان ساخرتين ، فتقول له بصوت كأنما يراه الضعف والتفتر والخوف والرغبة وهذا الخدر الذى صارت تحسه يدب فى جسمها : « أرجو ... إسمح لى » ثم تميل عينيها فيما حولها وهى تحدث نفسها أن عليها أن تتفلت من أسر يديه فلا يزيدها ذلك إلا اضطراباً

وأسر إليها : « آسف ... هل نخرج إلى الشرفة ؟ »

فقالت : « نعم ... من فضلك لا أريد أن أبقى هنا ... سأذهب إلى غرفتى »

فقال : « سيكون ما تريدين ياعصفورتى الجليلة »

وظل يراقصها وهو يتخلل بها المدعوين حتى خرجا الى الشرفة ، ثم مال بها يسرة حتى وقفا عند باب ، وهناك انحنى عليها ، وحناها على ذراعه ، فانقطع رباط ثديها ، وسمع هو الصوت فابتسم واعتدل ، ودفع أصابعه بسرعة وخفة والتقط الخاتم ، وقال وهو يلثمها : « والآن أستودعك الله ... سأذهب أنا أيضاً ، فما أريد أن أراقص أحداً غيرك ... ولكنى أرجو أن تقولى لإحسان حين ترينها فى الصباح إن الشيطان لا بأس ... وإلى اللقاء يا فتاتى الحسناء »

واستيقظت جليلة عند الضحى ، فكان أول ما تذكرته هذا الشيطان الذى لم تر وجهه ، ولكنها لا تزال تشعر كأن ذراعه على خصرها ، ودخلت عليها إحسان وهى تحمل بهذا وعيناها مفتوحتان ، فاحتاجت أن تهزها — وإن لم تكن نائمة — لتردها إلى هذا العالم ، وقالت لها : « الخاتم ... هاتيه »

فأفاقت جليلة جداً لما دست أصابعها بين ثدييها فلم تجده ، وقالت وهى تنهض وتهز قميصها وتنفضه : « لقد كان هنا ... لا أذكر أنى أخرجته ... لقد كنت أرقص مع أحد ضيوفك (واضطرم وجهها لهذه الذكرى) ثم عدت إلى غرفتى ونمت ... »

فصاحت بها إحسان : « من كان هذا ؟ إن المدعوين ليسوا لصوصاً ... تذكرى أين وضعته »

قالت جليلة : « لا أعرفه ، لقد كان فى زى شيطان ... ورجا منى وهو يودعنى أن أقول لك إن الشيطان لا بأس »

فقالت إحسان : « لعنة الله عليه ... لن أرى الخاتم بعد ذلك أبداً . لقد نجح حيث فشل لصوصه الذين جاء بهم »

فقالت جليلة : « لست فاهمة ... إنه أحد الضيوف ... وإذا كنت تعرفينه فلا شك أنه سيعيد إليك الخاتم »

فصاحت إحسان : « يا بلهاء ... إنه ليس

ضيفاً ... هو ابن زوجي ... أسعد ... وهذا خاتم أمه ، وكان يريد أن يحتفظ به ، ولكني أغريت أباه بأن يعطينيه ؛ فهو يكرهني ويحقد علي ، وقد فسد ما بيننا بعد ذلك فآثر أن يعيش وحده ، فإن به غنى عن أبيه ، ولا يزورنا قط ... والآن قد استرده ... »

ولم تر جليلة أن تنهض عن سريرها فبقيت مستلقية عليه تفكر ... إذن لم يكن أسعد يراها جيلة ، ولم يكن يدعوها عصفورته ، ويهمس في أذنها بألفاظه المسولة إلا ليخدعها ، وكان الخاتم همه الوحيد ... وكل ما يعنيه هو أن يسترده ، على حين كانت هي لبلاهتها تتوهم أنه مفتون بها !

ودار في نفسها خاطر آخر أوجع وآلم ، ذلك أنها عاشت إلى الآن بعيدة عن أختها أكثر الوقت لأنها كانت في المدرسة ، فهل كل ما دفع أسعد إلى مغادرة بيت أبيه هو انتزاع الخاتم منه ، وإيثار امرأة أبيه به عليه ؟ ! ألا يمكن أن يكون قد رأى من إحسان ما جعله يفر منها حرصاً على كرامة أبيه ؟ ولكن جليلة نفت هذا الخاطر المنكر الذي أثارته الغيرة في نفسها

ولكنها لم تكن مخطئة ، فما فرّ أسعد من بيت أبيه إلا لأن إحسان تطارده فيه ، وإن كانت لم ترد على التودد

وهكذا اتفق في ذلك اليوم أن كانت اثنتان تفكران في أسعد — جليلة وهي راقدة على سريرها تتمنى أن يعود لتراه كما هو لا في زيّ شيطان ، وإحسان وهي تروح وتجيء في البيت ، تدعو الله أن يظل أسعد بعيداً مخافة أن يفتن بأختها الحسناء الصابحة الوجه ...

ومضت الأيام ، وفي نفس كل منهما أمنيتها ، وكانت جليلة تجد نفسها على الأيام عاجزة عن إحسان الظن بأختها إحسان ، وكان استبداد هذا الخاطر بنفسها وإلحاحه عليها على الرغم من مجاهدتها له وثورتها عليه ، يثيران غيرتها ويدفعانها إلى العناد ، فتأبى أن تقبل من أختها وزوجها شيئاً ، وترفض أن ترافق أختها إلى حيث تذهب ، وتصر على البقاء ، وتطيل خلوتها بنفسها

وفي مساء يوم ، دخلت غرفة المكتب لتعيد كتاباً وتستعير غيره ، فاتفق أن لمست أصابعها أوراقاً على المكتب فأطارتها ، فانحنت لتعيدها إليه ، فاذا بها تقرأ في واحدة هذه الرسالة الوجيزة إلى زوج أختها :

« آسفة جداً ، وقد تركت لك رسالة وردتني من أسعد وهي تقص عليك القصة كلها ، فلا حاجة بك إلى شرح مني ، فأستودعك الله

إحسان »

فقرصت جليلة أسنانها ، ومزقت الرسالة على غير عمد منها ، ثم نظرت في الورقة الأخرى التي ذكرتها إحسان في كتابها فقرأت فيها :

« عزيزتي الجامدة المتعبة

لقد يئست ، وإنك لتعلمين أني لا أستطيع أن

أزورك فى هذا البيت ، ولكن فى وسعك أنت أن تزورنى ، ويجب أن تزورينى ، فان هناك أمراً أريد أن نتفق عليه . واعلمى أنى لم أذق طعم الراحة منذ استعدت الخاتم »

ففهمت كل شىء ، ولم يخف عليها أن هذه الرسالة لها ، لا لأختها ، ولكن الذى لم تستطع أن تفهمه هو أن تخاطر أختها على هذا النحو ، وتهجر بيتها وزوجها وتذهب إلى من لا يريدها ... إذن يجب أن تذهب هى إلى بيت أسعد لتتدارك الأمر ، وتصلح الخطأ وتمنع الفضيحة

ولم تجد عناء فى دخول البيت بلا استئذان ، فقد كان بيتاً صغيراً ، تحيط به حديقة ، ومن السهل التسلل إلى أية غرفة ، إذا كان هناك شباك أو باب مفتوح

ودخلت حتى صارت فى غرفة تتصل بأخرى بباب موارب ، فوقفت وراءه ساكنة فقد سمعت أصواتاً ، وإذا بأسعد يقول :

« إنى لم أكتب إليك هذه الرسالة ، وأنت تعلمين ذلك »

وقالت الأخت المتنمرة : « بالطبع أعرف هذا . إن هذه الفتاة التى تفتنك وتسبيك وتسلبك لبك ، لم ترد على أن تضحك مقهقهة لما قرأت رسالتك إليها ... إن قلبها من حجر ... أو هو لوح من الثلج ... »

فسألها : « هل تعنين أنها لا تبادلنى حبًّا بحب وأنها لن توافق على الزواج ؟ »

فضحكت وقالت : « إنها لا تشعر أنك موجود فلا تخدع نفسك ، وخير لك أن تقصر ... »

ونهض أسعد — فقد سمعت جلية حركة تدل على ذلك — وقال وهو يتمشى فى الغرفة :

« إنك لست أختاً لها ... لا يمكن أن تكونى أختها ... أنت ... أنت ... لا أعرف ماذا أنت ، ولكنى أعرف أنك ماكرة خبيثة ، وكل عجبى أن تكون هذه الفتاة الطيبة الساذجة أختك ... مستحيل »

وفى هذه اللحظة دق الجرس ففتح الخادم الباب؛ ودخل الزوج — زوج إحسان — يمشى مختالى سريعة ، ومن حسن الحظ أنه دخل من ناحية أخرى فلم ير جلية ، وأبصر زوجته على أريكة ، والسيجارة بين أصابعها ، وابنه يتمشى مطرقاً ، فوقف ونظر منها إليه ثم قال :

« هل هذه الرسالة منك يا أسعد ؟ »

فنظر إليها أسعد ثم قال : « نعم يا أبى »

وفى هذه اللحظة خطر لجلية خاطر بمثل سرعة البرق ، ففتحت الباب وهى تقول : « هذا أنت يا عمى ! ! أوه ما هذا الذى بيدك ... رسالة أسعد إلىّ ؟ أشكرك ... لقد خفت أن تكون قد وقعت فى يد أختى ، فتبعنى إلى هنا »

فنظر الرجل إلى الرسالة التى فى يده ، ثم رفع عينيه إلى ابنه ، وتنفس الصعداء ، ثم التفت إلى جلية وسألها :

« أهى رسالة منه إليك ؟ »

2017-11-15 20:20:48

فقالت : « بالطبع ! ولن تكون غيرى ؟ إن أختى لا تحبه ، فهو لا يجىء إلى بيتك ، ولهذا طلب منى أن أجىء أنا إليه ، ولما رأيت أن أختى جاءت اختبارك ، لأن أسعد أشار علىّ بذلك ووعد أن يتخلص منها بسرعة فانها تعترض جداً على أن أتصل بأسعد »

وهنا تناول أسعد يد جليلة وقال : « إذا كان لا مانع عندك يا أبى من زواجنا ، فأرجو أن تقنع زوجتك بالموافقة »

فقال الرجل : « إن اعتراضها لا يمكن أن يكون إلا سخيفاً . تعال يا إحسان . لماذا لم تحدثينى بكل ذلك من قبل ؟ كان يجب أن تشاوريني فان جليلة كبنتى ولها علىّ حقوق ... على كل حال حصل خير ... تعالى نخرج ... ولندعهما ... »

وسأل أسعد :

« أظنك لم ترى رسالتى إلا بعد أن خرجت أختك »

فقالت جليلة : « صحيح ، وقد مزقت كتابها إلى أبيك ، ولكنها لا تعرف ذلك ، فستظل قلقة لا تدرى هل عرف زوجها أنها همت بهجره أو لم يعرف »

فقال أسعد : « إن هذا القلق أقل ما تستحق. هاتي قبلة ، ولنخرج إلى السينما ... »

ونزع الخاتم من إصبعه ووضعه لها فى أصبعها

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة فى أثمانهـــــا .. جميلة فى ألوانهـــــا

فبادروا بأخذ طلباتكم

الصقر

للقصصي الإيطالي بوكاتشيو

بقلم الأستاذ محمد كامل الحجاج

كان بفلورنسا شاب من النبلاء الأغنياء يدعى فريدريك ألبيريني من أسرة عريقة في المجد، وقد هذب الفن والطبيعة وجعلا منه فتى كاملا كيساً لا نظير له بين أبناء النبلاء التوسكانيين، وقد وقع في حبائل الحب كما جرت العادة بين أترابه ممن هم في سنه من اليسراء، فهام بسيدة من الأعيان تدعى جان كانت تعتبر من أجمل وأحب نساء فلورنسا، ولم يدع وسيلة لاستمالتها إلا نفذها، من ولائم فاخرة وألعاب فروسية باهرة، وهدايا عظيمة. كانت هذه السيدة متمسكة بالتقوى والفضيلة ولم تحفل كثيراً بهذه النفقات الجنونية، ولكنها لم تحتقر قط هذا الشاب الظريف. لم يتطرق اليأس ولا الملل إلى فريدريك واستمر في طريقه وإسرافه حتى أضاع ثروته ولم يبق لديه إلا شيء قليل يعيش به في حالة بؤس لم يدخر من ماضيه الفخم غير بازي مدرب على الصيد، ولقد أصبح أشد تعلقاً بحبيبته رغم فقره المدقع الذي أوقعته فيه، ورأى أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة تليق به في المدينة، فصمم على الاعتكاف في البقية الصغيرة الباقية من أملاكه في الريف، فكان يصطاد في أغلب الأحيان بصقره ليسري عن همومه وليكفيه مؤونة السؤال. استمر على تلك الحال ردحاً من الزمن مرض في أثنائه زوج حبيبته ثم مات، وقد أوصى بثروته العظيمة إلى ابنه الصغير، وبموته دون أن يعقب ينتقل الميراث إلى أمه التي كان يحبها زوجها حباً يقرب من العبادة

أقبل الصيف فذهبت الأرملة كعادتها لتصطاف في أملاكها في الريف وكان بينها قريباً من بيت فريدريك. وبمناسبة هذا الجوار تعرف ابنها بفريدريك وكان يتردد عليه ويلهو بكلاب سيده وطيوره، وقد شاهد البازي الذي تحدث الناس عن مهارته ففتن به، ولم يستطع أن يطلبه منه لأنه كان يعرف شدة تعلق فريدريك به، ولما علم أنه يستحيل عليه أن يحوزه ساوره الهم والقلق حتى مرض، ثم عرف والدته بسبب مصابه قائلا: «أماه، لو كنت تتمكنين من الحصول على بازي فريدريك لعاجلني الشفاء وعاودتني الصحة» صمتت الأم هنيهة وسبحت في أحلامها وتأملاتها فماذا تعمل مع من أحبها طويلا وبدد ثروته لاسعادها وهنائها فكانت تقابل منه هذا العطف بالفتور، وكيف تستطيع أن يطلب منه أعز شيء لديه وما به يعيش ويحصل على قوته من الصيد به، وهل يحسن أن تحرم نبيلا من أنفس شيء لديه؟ احتارت في أمرها ولم تدر ما ذا تجيب ابنها والتزمت الصمت، ولكن الطفل ما فتئ مهموماً ملحاً في طلبه، وفي نهاية الأمر تغلب الحب البنوي على كل اعتبار وعزمت على إرضاء ولدها بأي ثمن كان وسمعت أن تعرفه بأنه سينال البازي وستذهب في طلبه وقالت له: «لا تحزن يا بني وفكر في شفائك وصحتك، وأول شيء سأعمله في الصباح هو

الذهاب لإحضار الصقر قبل الولد لهذا الوعد وتحسنت صحته في المساء

وفي الصباح ذهبت أمه وإحدى السيدات إلى بيت فريديريك ، ولما دخلت وجدته في الحديقة ينظمها لأن هذا اليوم لم يكن مناسباً للصيد بالبازي، وقالت للخادم أن يبلن مجيئها لتحدثه في شأن من الشئون . تصور أيها القارىء دهش فريدريك ومفاجأته بهذا الخبر السار ، فطار من الفرح عدواً لاستقبالها، وسلم عليها بكل احترام من بعيد، فتقدمت إليه مدام جان وحيته بكل لطف وأدب ، وبعد تبادل التحية قالت له : «لقد أقبلت يا سيد فريديريك لأكافئك على العناية التي بذلتها حيال أحبتي حباً يزيد على المقول، والمكافأة هي حضوري أنا والسيدة لتتناول الغداء معك » فأجابها بكل لطف وتواضع « إنني لم أخسر شيئاً قط لأجلك، بل بالعكس فانك أعددتني لكثير من المزايا ، ولن عرفت بشيء منها فالفضل راجع إلى العواطف التي نفحتني بها ؛ وهذه المكرمة التي منحتنيها اليوم لجليلة جداً وقد أثلجت صدري وشرحت فؤادي ؛ ومع أني فقير فإني لا أريد أن أبيع هذه المنة بثروتي التي فقدتها» وبعد هذه المجاملة اللطيفة صحبها إلى الحديقة وترك بصحبتها البستانية وصاحبتها التي أقبلت معها ، وذهب ليهيئ الطعام . وهذا النبيل الشريف لم يشعر في حياته بقسوة وطأة الفقر مثل ما شعر بها في هذا اليوم الذي أقبلت فيه أعز الناس لديه ، وكان بوده أن يهيئ لها وليمة فاخرة ، فما باله إذا لم يجد شيئاً لديه في هذه اللحظة الحرجة ؟ فاستشاط غضباً ولعن ثروته الضائعة وأخذ يهرول في أنحاء البيت، والأدهى أنه لم يكن عنده درهم ولا شيء يقوم بقيمة حتى يرهنه . ولما اقتربت ساعة الغداء حار في أمره فوقع نظره بغتة على البازي الذي كان معلماً في قفصه فصمم على تضحيته ليقدم شيئاً مناسباً للأم التي شرفته بزيارتها ، ثم لوى عنقه ونتف ريشه ثم وضعه في النار . ولما نضج الطعام ذهب إلى الحديقة ليدعو السيدة وصاحبتها للطعام ؛ وبعد انتهاء الغداء دار حديث لطيف، ثم رأت مدام جان أن تطلع فريديريك على سر زيارتها قائلة : « أتذكر أيها السيد كل ما صنعته من صنوف العناية وحيالي الشديد الذي جعلك تظن بأني قاسية متوحشة ، ولا أشك في أنك تدهش حينما تعلم السبب الحقيق الذي دفعني إليك ، ولو كان لك أولاد لكنت تعرف قوة الحنو الأبي ، وإني واثقة أنك ستعذرني ، ولكنك لا أولاد لك، ولي ولد واحد ولا أستطيع أن أهرب من القوانين العامة للأمهات . وهذا الذي يضطرني أن أتعدى المعقول وأخالف إرادتي وأطلب منك شيئاً أعلم أنك تعزه كثيراً لأنه أصبح لك العزاء الوحيد لضياع ثروتك وما هو إلا بازيك الذي أطلبه . إن ابني مريض وهو توأق للحصول على الصقر وأختي إن لم أحضره له أن يقتله الحزن ، ولذلك أتوسل إليك لا بحق الصداقة فلست مديناً لي فيها بشيء بل أتوسل إليك بطيبة قلبك وحبك للخير العام الذي لم يكذب فيه الظن قط والذي يميزك عن جميع الناس ، وسيكون

لك ابنى مديناً بصحته وربما بحياته ، وستتمك بهذا الصنيع قلبه وقلبى مدى الحياة »

ولما رأى فريدريك أنه لا يستطيع إرضاء هذه السيدة لأنه أطعمها ما تطلبه خنقته العبرات قبل أن يفوه برد ، فظنت السيدة أنه يبكي حزناً على فقد بازيه وكادت تثير رأيها فيه وفضلت أن تتريث إلى أن يجيب فقال لها : « إنى منذ فتنت للمرة الأولى بمحاسنك تيقنت أن الثروة كانت تناوئني فى كثير من الأمور وكنت أشكو من شدة ما تفرضه على ولكن كل ما مر علىّ من بؤس وآلام لم يك شيئاً بجانب بلية اليوم ، وستترك فى قرارة نفسى مرارة لا تفارقنى . هل تستطيع المصائب أن تسدد إلى طعنة أفظع وأقسى من صدمة اليوم حينما أرى أنك تفضلت بزيارتى فى هذا البيت الحقير مع أنك لم تتنازلى بزيارتى حينما كنت غنياً ثم تطلبين منى شيئاً لا أستطيع أن أحضره لك . ما أقساك أيها الحظ العاثر الذي ما فتىء يضطهدنى . لقد تحملت بصبر جميل أصناف الرزايا والمحن ولكننى رزحت تحت هذه الصدمة إذ ليس عندى الآن بازى ، وبمجرد ما شرفتنى وأظهرت رغبتك فى تشريفى بالغداء مى فكرت أن أحضر غداء أرقى مما اعتاده الناس فذبحت الصقر دون تردد لمهارته العظيمة في الصيد ؛ ومن سوء حظي لم أوفق لأن أقدمه لك حياً . وبعد هذا الحديث رأى أن يقنعها بأن أحضر الرأس والريش والمخلبين

دهشت مدام جان ولامته لوماً شديداً لذبحه صقراً ثميناً ولكنها ارتاحت لهذا المثال العظيم فى الكرم الحاتمى الذى لم يؤثر فيه الفقر والبؤس وقالت له : « إننى لا أنسى مدي حياتى هذه التضحية مهما كان تصرف العناية الآلهية فى ولدى » . ثم استأذنت من فريدريك وانصرفت شاكرة له شرفه وحسن نواياه ، وذهبت إلى ابنها حيري حزينة لا تدري بماذا تجيبه ، وقد اشتدت وطأة المرض عليه ومات بعد بضعة أيام وهى لا تدري إن كان الموت نشأ من شدة حزنه على البازى أو كان المرض بطبيعته قاتلاً

وقد آلمها مرض ابنها ووفاته وطفقت تبكيه عدة أيام . ثم توسل إليها إخوتها أن تتزوج لأنها فتية وغنية جداً . لم تجد عندها رغبة فى الزواج ، ولكن أقاربها وأصدقاءها طفقوا يلحون عليها ويحثونها ، فعاودتها الذكري وفكرت في مكارم أخلاق فريدريك من شرف وثبات وكرم وكيف قدم لها صقراً ثميناً للغداء . ثم قالت لأقاربها : إنى أستطيع أن أبقى أيما سيدة إن كان هذا رضيكم ، ولكن احتراماً لرغبتكم لا أقبل زوجاً غير فريدريك البيربى . فصاح إخوتها بلهجة التهكم . « هل أنت جادة فى قولك ؟ إننا لا نستطيع أن نتصور ذلك . هل تجهلين أن هذا النبيل أصبح فى فقر مدقع ؟ »

— إني أعلم ذلك ولكنى أفضل رجلا محتاجاً إلى المال على ثروة محتاجة إلى رجل . ولما رأي إخوتها أنها مصممة ألا تتزوج غير فريدريك وأنهم لا يستطيعون أن يثالطوا أنفسهم أنه شريف

كيس صادقوا على زواجهما ، ولقد أقاموا عرساً في منتهى الفخامة

لقد صير البؤس الزوج الجديد حكيما بصيراً بعواقب الأمور فأصبح مقتصداً يدبر شؤون الثروة الحديثة بحكمة وفطنة وعاش مع زوجته التي أحبها عيشة سعيدة هنيئة متمتعاً بعطفها وحنانها

محمد كامل حجاج

إن أردت أن تحترف مهنة التنويم المغناطيسي وتصبح منوماً بارعاً

وتؤثر بالمغناطيس عن قرب وعن بعد وتحصل على دبلوم في هذا الفن

(٢) تستبدل مرضك بصحة ، وبؤسك بسعادة ، وفشلك بنجاح (٣) وتستغل مواهبك وتستخدم قواك المغناطيسية لتذلل عقبات الحياة وتسيطر بها على الطبيعة وتؤثر بها على من حولك في حالة البيع والشراء والخطابة وتصبح ذا شخصية بارزة وتحقق كل أمل تنشده (٤) إن أردت التخلص من العادات الضارة كشرب الدخان والادمان على المخدرات ولعب الميسر والنورستانيا والهستريا (٥) ومعالجة أمراضك العقلية والاضطرابات النفسية والعصبية ، (الخوف . الوهم . الكآبة . الوسواس . الأرق . التلعثم (اللجلجة) . الإمساك المزمن . النحافة . السمنة ضعف الذاكرة والإرادة) (٦) أو إن كنت محامياً أو خطيباً أو ممثلاً أو وائماً وتريد أن تكون موضع ثقة ويخرج كلامك مشبعاً بالتيار المغناطيسي ، أو أردت معرفة مستقبل أمورك (٧) وإن كان لك حاجة عند شخص تريد التأثير عليه عن بعد فاستخدم قواك الخفية التي سندربك على استعمالها واكتب إلينا حالاً فنرسل لك تعليماتنا مجاناً بالبريد . فقط ارفق ١٥ مليما طوابع بوستة للمصاريف واطلبها من الأستاذ ألفريد توما مدير معهد الشرق لعلم النفس ٣٢ شارع الملك بحدائق القبة بمصر



الضابط النبيل الدكتور أحمد سليم عيسى الحائز على دبلوم معهد الشرق بدرجاتها العليا : الغرف الثقة والكفاءة ، وقد تخصص في الفنون المغناطيسية واستحضار الارواح ومعالجة الامراض النفسية فنهنئه ونتمنى له النجاح

أمنيـــة

أقصوصة مصرية

للأديب عبد الحميد جودة السحار

تناول نجيب صحيفة الصباح وأخذ يتصفحها ، وكلما قابل مقالة قرأ عنوانها وتفرس فى اسم مؤلفها حتى انتهى من تقليب جميع صفحاتها ، ثم أخذ يستعرض الصور التى تزين الصفحتين الأولى والأخيرة ، وطوى الصحيفة ووضعها على ركبتيه وراح يفكر فى أصحاب تلك المقالات والصور ... « أليسوا بشراً مثله ؟ ولكن لم يتمتعون بتلك الشهرة العريضة على حين لا يسمع به أحد ؟ ولم لا يسعل على نشر صورته ، أو على كتابة اسمه بحروف الطباعة على الأقل ؟ » ثم أغمض جفنيه وراح يحلم ؛ فرأى صورته تحتل الصفحة الأولى من إحدى الصحف فشعر بنشوة وهزة ... واستغرق فى أحلامه فرأى الأعمدة الطوال تكتب من أجله ... نعم من أجله هو ... ولكن فى أى موضوع يا ترى ؟ إنه لا يدرى ... ولماذا يتعب نفسه فى ذلك ؟ ها هى ذى صورته ، وهذه أعمدة الصحف تفيض بذكره وكفى ...

نادى نجيب بائع الصحف واشترى منه مجلة أسبوعية وقع فيها بصره على صور بعض الفائزين فى إحدى المسابقات فراح يتأملها فى حسرة وهو يردد : « يا لحسن حظهم ! يا لحسن حظهم ! » ثم تابع القراءة ، فمر على مسابقة جديدة وعد فيها المحرر بنشر صور الفائزين ، فأسرع نجيب فحل المسابقة واستخرج من جيبه صورة حديثة فوضعها مع الحل فى غلاف ، بعد أن استوعب شروط المسابقة عشرات المرات ، لئلا ينسى شرطاً قد يفسد عليه الفرصة المواتية .. ثم أخذ يحصى الأيام ، ويترقب صدور المجلة على أحر من الجمر ... وقبل اليوم المشهود بأيام أوصى بائع الصحف بإحضار نسخة له

نادى بائع الصحف نجيباً ، فنزل مسرعاً بقلب يخفق ، وتسلم المجلة وراح يقلب صفحاتها بلهفة ظاهرة ، حتى وقعت عينه على صور أشخاص ، ولكنه شعر بضيق شديد وألقى بالمجلة حانقاً وهو يقول :

« إذا كان نشر صورتى صعباً فلا أظن كتابة اسمى تحت مقال بهذه الصعوبة » ثم تناول قلماً وورقاً وراح يقدح زناد فكره ، فلم يسعفه فكره ، فتناول صحيفة يستمد منها العون ، فوقع بصره على عنوان « حكم وأمثال » فقال فى نفسه : « لم لا أجمع حكماً وأمثالاً أضع تحتها اسمى كما فعل صاحبنا ؟ » وبعد لأى وفق إلى جمع مئتين اثنين وحكمة واحدة ، أضاف إليهما من عنده : « الصبر مفتاح الفرج » وأرسل كل ذلك إلى إدارة تلك الصحيفة

وشاء ربك أن تظهر الحكم والأمثال مذيلة بإمضاء « نجيب » فطار فرحاً وابتاع عدة نسخ صار يوزعها على الأقارب والأصدقاء ، وأسرع إلى مكتب البريد وأرسل إلى أخيه الموظف بوادى مدنى نسخة ، بعد أن وضع حول حكمه إطاراً وسود كل ما عداها ... لو كان محرر تلك الصحيفة يعلم

2017-11-14 15:26:48

هوى ساحبنا لنشر له كل يوم حكمة ، فيضمن رواج صحيفته بفضل ما يقوم به نجيب أفندى من الدعاية والتوزيع

ومن ثم استمر نجيب يرسل المقالات إلى جميع الصحف والمجلات ، ولكن بدون جدوى ؛ فليس من هذه الطريق وراح يفكر فى طرق أخرى ، كأن يترقب وفاة أحد أقربائه فيظهر اسمه فى إعلان الوفاة بين أسرة الفقيد العزيز ... ولكن الموت بعد عن الأقارب ومد الله فى أعمارهم نكاية به ! فكر نجيب طويلا ، فهداه تفكيره إلى تناول مادة سامة ، وبذلك يضمن ذكر اسمه فى حوادث اليوم ، فاشترى (حامض الفنيك) وخففه بالماء ، وتناول جزءاً يسيراً منه فسقط يتلوى ويصرخ . وأسرع الحلاق المجاور لمنزله فيمن أسرع وتمكن من إسعافه دون إخبار رجال الإسعاف ، زعماً منه أنه بذلك يؤدى خدمة إلى نجيب افندى . فلما أفاق نجيب أوسع الحلاق سباً وشتما وقال له : « أنت مزين حقاً ، تتدخل فيما لا يعنيك ! » . ومنذ يومئذ يكره هذا الحلاق الثقيل الذى فوت عليه فرصة ذهبية !

وحدث أن سافر إلى الاسكندرية ، وجلس على الشاطئ فى يوم هاج فيه البحر ورفعت الراية السوداء ، وأخذ يتأمل الأمواج المتلاطمة وهى تتكسر على الشاطئ ، ثم رفع رأسه فرأى فتاة طائشة استخفت بالموج ونزلت إلى البحر وراحت تسبح بغرور إلى بعيد ، وفجأة علا صراخها تطلب النجدة ... ها هي الفرصة تسنح ... هيا أيها البطل واغتنمها ... ولكنه وا أسفا لا يعرف السباحة . وقف على الشاطئ والأسى يهصر قلبه ... لا على الفتاة المسكينة ، بل على الفرصة السانحة التى لم يهيئ نفسه لاستغلالها . أسرع عامل الإنقاذ وعاد بها إلى الشاطئ ؛ وكان أحد مصورى المجلات يتجول هناك فأراد أن يلتقط صورة للعامل فجاء نجيب يتمسح حتى وقف إلى جواره وهو يردد فى نفسه : « شىء خير من لا شىء » ؛ وواظب نجيب على شراء كل المجلات ولكن الصورة لم تظهر

وبينما هو يتصفح إحدى المجلات قرأ : « أهدى الوجيه إبراهيم ... إلى الراقصة جيلة ... قرطاً من الماس ... » فتعجب فى نفسه : كيف لم يهتد إلى ذلك قبل الآن ؟ إن التعرف إلى راقصة وإغراقها بالهدايا يجعل المجلات تردد اسمه . ألم تذكر المجلات اسم إبراهيم ... لأنه أهدى إلى راقصة قرطاً من الماس ؟ فما بالك لو أهدى إليها أقراطاً وأساور وغيرها ... ؟ نعم سيهدى إلى جيلة الهدايا التى ستذكرها المجلات كما ستذكر اسم الوجيه نجيب ومنافسته لإبراهيم

تودد نجيب إلى الراقصة ، فتوطدت العلائق بينهما ، وصارا يظهران فى شارع عماد الدين معاً ، ويقضيان الليالى فى الحانات ودور اللهو . وتطورت العلاقة على الأيام وأحب نجيب جيلة حباً جارفاً ، وراح ينفق عليها ببذخ ، فتدهورت حاله ولم يعد يستطيع مواصلة الانفاق ، فأصبح كلما ذهب لزيارتها أعلمت خادمها بنبابها ، وكلما لقيها ازورت عنه . إلى أن لقيها ذات ليلة بعد انتهاء الرقص فأخذ بيتها غرامه ، فسخرت منه ، فثار وهدد ، لكنها لم تأبه له وابتعدت ساخرة

أظلمت الدنيا فى عينيه ، وشعر بالدم يفور فى عروقه ، فاستل مدية وجرى خلفها وطعنها طعنة أعقبتها صرخة شقت الفضاء وسقطت مفرجة بدمائها

وأقفل وراءه باب السجن ، ورأى نفسه وحيداً فى الظلام ، فأخفى وجهه بين راحتيه ، وأخذت

الصور تتتابع فى مخيلته سراعاً ، فكان يرى أطوار حياته يتلو بعضها بعضاً إلى أن رأى جنايته وكيف أقدم على ارتكابها ، فتقلصت عضلات وجهه ، ثم فكر فى الند المظلم ، وما يجتبه له من عذاب ، فتململ ، وفجأة تذكر الصحف ... نعم ، ستكتب الصحف عنه ... !

والتمعت فى عينيه ابتسامة ... وأسفا ! لقد دفع الثمن غالياً ، ولكنه ظفر فى النهاية . ستنشر الصحف صورته بلا ريب ، وستتحدث عنه كثيراً وتنشر المقالات الضافية ، ولكنه دفع الثمن حريته وحياته ... !

عبد الحميد عودة السحار

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الأديب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هـذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

النموذج

تأليف

محمد جلال

رئيس قلم الترجمة بوزارة الزراعة

خريج مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الفنون الجميلة

يحتوى فيه الآباء والأمهات وسائل تكوين الأخلاق وتقويمها وطرق التربية الوطنية والاستقلالية والأخلاق والإرادة

ويجد فيه الأدباء الصراع بين القديم والحديث (مسرحية) وفلسفة الضحك وعشرات الضحك والانفعالات النفسية ودراسات أدبية خاصة بالمتنبى وعمر أبى ربيعة

ويجد فيه السياسة فن الإمارة

يجب على كل من يريد تربية أولاده تربية صحيحة أن يقرأ هذا النموذج

الثمن عشرون قرشاً صاغاً على ورق أبيض

وأربعون قرشاً صاغاً على ورق كوشيه

يباع بمكتبة الهضبة ومكتبة الانجلو المصرية ومكتبة زيدان ومكتبة مصر

أحسن القصص التركية

شجار أطفال

للكاتب التركي الكبير رشاد نوري

بقلم السيد خلف شوقي الداودي

— إذن ستعودين في قطار المساء ! مع أني كنت أتوقع أن تبقي عندنا يومين أو ثلاثة . وكم كنت مسرورة لذلك ! فاذا بك مسافرة هكذا على عجل

— معاذ الله ! أنا أبقى هنا ؟ ولو بقيت لا سمح الله فلا بد لي من أحد أمرين إما الموت وإما الجنون

— وما ذا أقول أنا ؟ ألست ذات روح ؟

— لا، ولكنك لا تملكين عقلاً تدركين به ! وإلا فكيف تستطيع الواحدة صبراً على هذه الحياة الموحشة واستانبول على مقربة منها ؟ وأين تلك الملاهي والمراقص ودور السنما والحدائق الغناء من هذه الحياة القفرة في ذرى الجبال وبين أكوام الثلوج وبطون الوديان ؟

— لا تقولي هذا يا عزيزتي (فرخندة) ! ولا تكثري اللوم ! فأنا لست قانعة بهذه الحياة المملة ولا راضية عنها ، ولكن ما العمل و « الحاجة » هي التي تحملني على ذلك ؟

— كلام فارغ ... متى ضاقت مدينة « فروق » الكبيرة بك وبزوجك حتى تضطرا إلى السكنى في هذه البقاع البعيدة والصقع الموحش !

— دعك من هذا المزاح يا فرخندة إنك تتجاهلين حالنا ! وإلا فانك تعرفين بما لا تعرفين ! إنك لا تعرفين الحاجة بل الفقر المدقع ، وإذا كنت تجهلين حالنا فاعلمي أنه على أثر خروج زوجي من وظيفته جعل الدائنون يطالبون بحالم علينا ويهددونه دفعة واحدة ... فأصبحنا بين عشية وضحاها عاجزين عن دفع كراء الدار التي نسكنها

— أنا لا أجهل ذلك . لقد أخطأت في زواجك من هذا الكهل المتقاعد . لا أدري أية ميزة له أطمعتك فيه ؟ أجماله أم ماله ؟ أحسبه أم نسبه ! أمركزه أم وظيفته ؟ إنه ليس سوى كهل متقاعد قارب العقد الخامس من العمر . فلا مال ولا جمال ! وعدا هذا لديه ابنة من زوجه الأولى المتوفاة .

— أسكتي بالله عليك . . فأنا أيضاً لست صغيرة ! ولدي من زوجي الأول بنتان لا واحدة

— أنت لم تبلغي خمسة وعشرين عاماً بعد وأنت جميلة كالوردة ! ولو لم يتزوجك هذا الرجل لكان هنالك العشرات ممن هم خير منه يتقدمون إليك لترضى بأحدهم بعلا ويكرمون ابنتيك من أجلك ! وهذا السأم الذي تشعرين به بل هذه الحسرة التي استولت على حواسك إنما هي من تتائج رعونتك ! وعند ما نصت نحن إلى نغمات الموسيقى وأنغام الجازبند في ملاهي استانبول تنصتين أنت إلى طنين الذباب في النهار وعواء الكلاب في الليل

* * *

(١) نقلا من مجموعة (أحسن القصص التركية) لعام ١٩٢٧ نشرت لأول مرة في مجلة « الهلال المصور الرسمي آي » التركية التي تصدر في الآستانة

2017-11-15 Dar al-Kutub

كانت هذه المحاورة تدور بين أختين فى الرضاعة وقريبتين من بعيد ، قضتا أعوام طفولتهما بالقرب معاً ، وبعدها دخلتا مدرسة واحدة . ولما أصبحتا على أبواب الزواج تقدم « سلم عود » إلى فرخندة فتزوجها بحب ، وها هى ذى سعيدة بزواجها تقضى أوقات فارغها فى مشاهدة الروايات السينمائية والمراقص وتحيا حياة عصرية

أما ناجية هانم فلم تكن ذات حظ سعيد كأختها إذ أنها تزوجت من ميكانيكى ظهر أنه غير كفؤ لها ، وأنه مقامر سكير ، وبعد أن قضت معه ثلاثة أعوام بالشجار والجدال طلقها وفر هارباً مع احدى الراقصات إلى سورية ! ولقد أثرت هذه المصيبة تأثيراً سيئاً وكبيراً فى ناجية هانم ولقنتها دروساً فى الحياة كان من أثرها أنها لم تبال بما كان يتظاهر لها به أحد شباب الجيران من حب ، وبما كان يحاول به لفت نظرها من غناء وضرب على العود ! وفضلت الزواج من كهل يدعى على رضا عضو محكمة على الشاب المدلل بحبها ...

أما هذا البيت « القفر » « الموحش » كما وصفته السيدة فرخنده فلم يكن سوى بيت ريفى واقع فى حديقة كبيرة وفى معزل عن البلدة اضطر على رضا إلى سكناه على أثر إحالته إلى التقاعد لأسباب اقتصادية وجعل يقضى أوقاته فى حرث الأرض وزرعها .

وبينما كانت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث كان الأطفال يلهون ويلعبون فى أقصى الحديقة وصراخهم يكاد يصم الآذان ، وهم فرحون جذلون على ما يظهر من أصواتهم وألفاظهم . ولكن سرعان ما تبدلت أفراحهم أتراحاً وانقلب سرورهم إلى شجار ... ولو استرق السمع أحد لسمع سوتاً رقيقاً يدل على أن صاحبه يجهش بالبكاء .. ولقد أثار هذا الصوت غضب السيدة ناجية وأثار أعصابها ، وكانت قد حركتها ذكرى السينما والملاهى والمسارح والمراقص فى الآستانة ، فقامت من مكانها مقطبة الجبين والحاجبين وهى تقول :

« الحق أننى أهضم كل شىء هنا ، وليس لدى ما أشكو منه ، ولا يضيرنى الفقر كما أنى لا أشكو من كبر سن زوجى ، ولكن الذى لا أستطيع الصبر عليه هو هذه الفتاة « باكيزة » ابنة زوجى .. إنها سترى بأولادى السل بما تسببه لهم من هم وغم .. من يدرى ماذا صنعت بهم حتى حلتهم على الصراخ »

لم تكن باكيزة غير طفلة فى العام الثامن من أعوام حياتها .. لقد كانت جدتها تكفلها إلى ما قبل ستة أشهر ، لكن العجوز المسكينة توفيت بذات الرئة فاضطر أبوها إلى أخذها عنده ..

لم ينقطع صوت بكاء الطفلة فلم تستطع ناجية هانم الصبر فقامت غاضبة إلى شجرة جوز كبير حيث اتخذ الأطفال من ساقيها أرجوحة يلعبون بها ويقضون فيها أوقاتهم . وكانوا مجتمعين تحت ظل الشجرة الوارف .. لقد كانوا أربعة أو خمسة أطفال بينهم فتاة فى السادسة من عمرها تبكى من دونهم ، وكان التراب الذى يعلو وجهها يختلط بدموعها وينحدر على خديها تاركاً آثاراً تشبه السواقى الصغيرة .

ما الذى صنعته بالأولاد أيتها الحية الرقطاء ؟!

2017-11-15 Egyptian Book Organization

هكذا قالت السيدة ناجية هانم تخاطب ابنة زوجها قبل أن تتحقق من مبلغ المتدى ؛ مما يدل على رسوخ الاعتقاد فى نفيلها بذنب الفتاة إن صدقاً وإن كذباً .. قالت لها ذلك وهى واقفة أمامها وبداها فى خاصرتها محدقة فيها النظر تريد منها جواباً ؛ أما باكيزة فلم تجب بنير رفع حاجبيها بامتعاض نافية صدور ذنب منها ؛ ولقد حمل هذا الطفلة (آفسر) على التعلق بأذيال أمها والتشكى لها من باكيزة واتهامها بعدم هزها فى الأرجوحة :

« أماه أحلى هذه الصبية المتحوسة على أن تهزنى فى الأرجوحة » قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المصطنع ..

— هزى أختك قليلا ياهذه ! . ما الذى يضرك ؟ .

—

— الظاهر أن ذلك يمس كبرياء الهانم ! ؟

—

— ولكنك تسرفين ارتداء الملابس التى أصنعها لك بإذابة نور عينى وتسرفين أكل الأطعمة التى أقضى الساعات الطوال فى إعدادها لك ؟ !

—

لم تكن السيدة ناجية هانم تقول ذلك بلهجة أم تؤنب ابنتها ، بل بلهجة عدو منتقم يصدر أوامره الى عدو من أعدائه الألداء أوقعه سوء طالعه تحت أسره .

كان وجه السيدة ناجية يحاكى وجوه الأمهات باصفراره عند ما مدت يدها الى طفلتها وحملتها لتجلسها على الأرجوحة .. ولما أتمت ذلك أمسكت بطرف الحبل وأدته من ابنة زوجها اليتيمة وصاحت بها تأمرها أن تهز الطفلة أختها . .

أدركت باكيزة أنها ستنال ضرباً مبرحاً من زوجة أبيها إن لم تهز أختها ، فأطاعت مكرهة ومدت يدها بحركة آلية الى الحبل فأخذته من يدها وشرعت تجره وتهز الأرجوحة والدموع تترقرق فى مآقيها . وكاد الأمر يقف عند هذا الحد لولا حادث بسيط . فقد وقعت الطفلة « آفسر » من على الأرجوحة وبان على شفتيها أثر دم ! . ومع أن الوقعة كانت قضاء وقدراً الا أن ناجية هانم إعتقدت كل الاعتقاد أن ذلك لم يكن إلا إنتقاماً وتشفياً من باكيزة .. فقامت القيامة وفار التنور ... وأخذت تولول وتثور وتهددها بمظالم الأمور .

عاد على رضا بك بعد الحادث بقليل إلى داره وكان أول ما بادرته به زوجه الشكوى من ابنته . فقال لها :

« رويدك ! لاتهتمى كثيراً فانا أعرف أن جدتها ربتها تربية سيئة وأنها الآن بحاجة الى من يربيها تربية صحيحة » قال ذلك وصاح بابنته بصوت أجش .. فجاءته خائفة وجلست وهى تعلم مايضمره لها أبوها . فأمسكها من يدها كما يمسك الشرطى بيد المجرم وذهب بها الى شجرة الجوز الكبيرة وأوقفها أمامه يحاكما يحاكم المجرمون ... جلس على رضا قبالة ابنته باكيزة .. وجعل يمثل الدور الذى كان يقوم به لما كان عضواً فى المحكمة وشرع يحقق مع باكيزة بتلك الروح : روح « المستنطق » القديم . أجل إنه كان كما كم حقيق فى هذه الساعة .. أمامه « متهمة » وهنالك مدع. أما « التهمة » الموجهة اليها فتنحصر فى :

« تمددها إسقاطاً أختها الصغيرة من الأرجوحة وتسببها فى جرح شفتيها » وأخيراً صاح بالتهمة الصغيرة بصوت خشن يقول :

— أتحبيك هذه الأعمال ؟

—

— لقد أصبحت فتاة مراهقة وفى الثامنة من عمرك فهلا استحييت قليلاً ؟ وهل تعامل الأخت أختها هذه المعاملة ؟

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، ولكن لم يمر أسبوع من الأشهر الستة التى حلت فيها عندنا دون شكوى أمك منك ... رحم الله جدتك ... يظهر أنها كانت تاركة لك الحبل على الغارب ولم تردعك عن هذه الوقاحات وأمثالها ... والآن لنترك ما مضى إلى ما مضى ... وهيا عديني بأنك سوف لا تعيدين سيرتك الأولى وستكونين ساكنة هادئة راضية مرضية مطيعة أوامر أمك تفعلين ما تؤمرين لم تجب يا كيزة أباها . وكل ما فعلته أنها رفعت حاجبيها الكثيفين ونكست رأسها إلى الأرض بذل وانكسار شأن اليتامى . أما وجهها فقد كان يصعب تبين اللون الذى كساه لظلمة المساء التى سادت

لقد فسر على رضا بك الوالد هذا السكوت بالعصيان ... فزاد ذلك فى حنق الحاكم القديم وحدته فما كان منه إلا أن مد يده إلى الفتاة وأمسكها من كتفها الأيسر وهزها هزاً عنيفاً وصاح بها والغيظ آخذ منه مأخذه :

— إنى أكلك يا شريرة ، فلم لا تجيبينى ؟ وهل أصبحت صماء بكماء !

عند ذلك رفعت يا كيزة رأسها وعيناها ممتلئتان بالدموع وقالت :

« إنى لم أعص أبى أبداً فلقد كنت أعمل كل ما تأمرنى به ، وفوق هذا ألاحظ إخوتى وأخواتى كأحد الخدم ... وإننى لم أقم بأية حركة تدعو إلى الشكوى ؛ ولكن مع هذا كله لا ترضى عنى ولا أدرى ما الذى أعمله حتى أجلب رضاها ... ؟ »

قالت يا كيزة ذلك وهى ترفع يديها نحو أبيها مسترحمة سائلة أن يدلها على طريقة لإرضاء زوجه والدموع تسيل على خديها ... « إنهم يتعدون على ويضربوننى أشد الضرب ... ولكنى لم أشتكهم إليك ، وسوف لا أشتكى لأنى أعلم أنك لن تصغى إلى شكواى ! » وأردفت قولها هذا بالكشف عن ذراعيها وصدرها ورقبتها وطلبت من أبيها أن ينظر إلى آثار العصى والضرب المبرح الذى كانت تتلقاه من أخواتها وأمهن . وشكت إلى أبيها ما تقاسيه من ظلم أخواتها اللواتى أصبحن أقدامهن مقلدات أمهن ! وكيف أنهن يعاملنها معاملة ظالمة : « إنهن منعنى من الجلوس فى الأرجوحة ... لا لسبب سوى أننى أعز نفسى فى الهواء عالياً أكثر منهن ! لقد أبحن الجلوس فى الأرجوحة لجميع بنات المحلة إلا إياى ... زيادة فى النكاية بى ! . وكلما حاولت التقرب من الأرجوحة يهاجمنى بالعصى والحجارة والسب والشتم ... وفوق كل هذا يأمرننى بهز البنات الغريبات ، والويل لى إن رفضت لهن أمراً ! هذا قليل مما أقاسيه من الأطفال وأمهن كل يوم ... لقد كنت أتلقى كل هذه المعاملات وأنا

صابرة ولم أنفس بنت شفة لئلا أسبب لك آلاماً بل كنت أكتمها عنك ... ولكن يظهر أن كل هذا لم يرد لهم غليلاً فأرادوا أن يزيدوا في الإيقاع والتنكيل بي فوشوا بي إليك ... »

كان على رضا بك ينصت إلى ابنته باكيزة وهو يكاد يتميز من الغيظ من هول ما يسمع ... ولقد لام نفسه لوماً شديداً لعدم اتصاله بفتاته باكيزة كل هذه المدة ... رفع بصره إليها فخيل إليه أنه لا يرى طفلة في الثامنة من عمرها ، وإنما يرى سيدة رزينة عاقلة ، ورأى عينيها السوداوين تفيضان بالدموع كما يفيض الينبوع بالماء . لقد رأى من بين أهدابها الطويلة المبللة بالدموع صورة أمها المرحومة تبتسم وهي ترنو إليه بعينيها الجميلتين

كيف ذهبت عن بالك يا باكيزة ؟ ... كيف قصر في السؤال عنها والدفاع عن حقوقها وهو الذي سلخ ثلاثين عاماً من حياته في الدفاع عن المظلوم وإحقاق الحق وردع المستبدين ؟ وكيف يجوز لرجل كعلي رضا بك أن ينصت لهذه الاعتداءات التي وقعت على ابنته ؟ !

لقد انتبه ضمير الحاكم السابق ، وامتزج بالحنان الأبوي الذي لا يصبر على حيف يلحق بثمرة فؤاده . فنظر إلى ابنته وهو يحاول أن يخفف من التأثير الكبير الذي استولى عليه وراح يدمدم ويكرر ما قاله له قبل لحظة :

« وسوف لا أشتكي لك لأني أعلم أنك لن تصغي إلى شكواي ! »

إن هذا ليس بصحيح يا بنيتي . من قال إن الآباء لا يستمعون إلى شكوى أبنائهم ؟ إن هذا هراء ! !

فحكت الطفلة عندما رأت أباها يتأثر لمصابها . وقالت : كانت جدتي المرحومة تقول لي دائماً :

« تعتبر إحدى عيني الأب عمياء في حياة الأم ، أما بعد وفاتها فيصبح أعمى ولو كان بصيراً .. »

وأما سبب عدم بث شكواي إليك يا أبت فهو أنني لم أشأ أن أسبب لك آلاماً . وهب أني فاتحتك بكل هذه الاعتداءات فماذا تستطيع أن تصنع ؟ ..

كان علي رضا بك منحنياً رأسه إلى الأمام ينظر إلى الأرض غارقاً في بحر عميق من التفكر ... لقد تصور حياته التي يحياها مع زوجه الثانية ، وكيف كان ضعيفاً أمامها ضعفاً لا يكون إلا من الذين قد تجاوزوا سن الكهولة ، ضعفاً هو أقرب إلى الذل منه إلى الضعف ، وكأن باكيزة الطفلة قد أدركت هذا الضعف في أبيها عندما قالت :

« وأنت ماذا تستطيع أن تصنع ؟ » ولكن لا ، إن هذا الموظف العدلي القديم لا يشبه غيره من الرجال ... وليس من الذين يقبلون أن يحيوا في ذل وخنوع واستكانة وعبودية ، فقرر لساعته أن ينفض عنه غبار الذل . والتفت إلى ابنته وقال لها وفي نبرات صوته حزم ظاهر :

— اسمعي يا بنيتي ! إنني أنا أبوك ، فلا تيأسي ولا تخافي ولا تحزني ! لن يعتدي عليك أحد بعد اليوم . قال ذلك ومد يده إلى الطفلة ورفعها في الهواء بلاطفها ، ومن ثم أدناها من فمه يقبلها وهو ينغرس في عينيها يتخيل فيهما صورة زوجه ويطلب منها العفو على ما فرط منه في جنب ابنتها باكيزة .

لقد انقلب علي رضا بك في ثوان معدودات إلى

2017-11-15 Egyptian Knowledge Bank

شخص آخر فلقد تبدلت معاملته لزوجته وتغير حاله مع ابنته يا كيزه . طلب من جميع من في البيت أن تعامل يا كيزه معاملة ممتازة كما لو كانت أميرة صغيرة . لقد جعل يسأل ابنته مساء كل يوم عند عودته إلى البيت عما إذا كان قد اعتدى عليها أحد في غيابه . لقد كان يريد أن يقف منها على كل صغيرة وكبيرة تخصها ... وعندما يبلغ مسامعه وقوع اعتداء عليها أو أن أحداً تطاول عليها باللسان تقوم قيامته وينهال على زوجه وبناتها لوماً وتأنيباً وضرباً إذا اقتضى الأمر

لكن هذا الحال لم يدم طويلا فلقد ضاقت ناجية هانم بهذه الحياة ذرعاً ولم يبق في قوس صبرها منزع فتصادمت مع زوجها وتشاجرا وتقاذفا بأنواع السب والشتم ! ومرة بلغ الجدال بينهما حداً لم تطق معه صبراً فأغمى عليها من شدة التأثر وأخيراً قرّرا الفراق بالطلاق

كانت آخر ليلة من ليالي ناجية هانم في البيت ، فهذا الأثاث مرفوع وهذه الملابس قد حفظت في الصناديق ، وبيوت البيت سكون يشبه سكون المقابر

كلاهما مصران على الفراق .. فالسيدة ناجية قد قررت مغادرة البيت مع طفليها إلى « استامبول » وكانت ملامحها لا تدل على رغبتها في هذا الفراق ، أما على رضا بك فكان وجهه أشد اصفراراً من وجوه الموتى .. وعيناه غائرتين في المحاجر .. ها هو ذا يقطع الحديقة ذهاباً وإياباً لا يستقر على حال من القلق .. فهو لم يدخل غرفة نومه إلى قبيل الفجر . ولقد حمله فرط يأسه على الاضطجاع على الأريكة وقضاء ليله عليها بدلا من السرير

وهذه يا كيزة قد انكشفت في جلدها — كمن ارتكب ذنباً يخاف العقاب عليه — وقبعت في مكانها خائفة وجلة غير جاهلة بأنها سبب كل هذه «الزوبعة» التي ثارت في البيت فهدمت أركانه ...

لم ينمض لها جفن طول الليل . ولما انبلج الفجر بنوره ولاح ، نزلت إلى الطابق الأول ومرّت في طريقها بغرفة أبيها وكان لا يزال مضطجعاً على الأريكة غارقاً في منامه . فنظرت إليه نظرة كلها حبّ وامتنان وتذكرت أنه قد قام بحقها ونحى براحته في سبيلها ، وتذكرت أنها وإن كانت ابنته وأنه يحبها حباً جماً إلا أنه سوف يتأثر جداً لفراق امرأته .. وربما لا يتحمل آلام الفراق ...

لقد أراح النوم على رضا بك فذهب عنه الغضب فانبسط وجهه وكان المتأمل يرى فيه الاضطراب والألم المحض ...

وقفت يا كيزة تفكر ... وبعد التفكير العميق قرّرت في نفسها أن تعمل من أجل راحة أبيها فتختفي عن الأنظار حفظاً لأركان هذا البيت من الانهيار وإكراماً لأبيها ... فدخلت إلى الغرفة تمشي على أصابع رجليها حذراً من أن توقظ أباها ، فقبلت جبينه وغابت عن الأبصار ... ولم يقفوا لها على أثر حتى كان اليوم الثالث من اختفائها ... ففي ذلك اليوم ، وجدوا جثتها في بئر مهجورة قرب قصر قديم ... لقد شاهدوا صخرة كبيرة مربوطة في عنقها بثوبها ، واتضح لهم أنها تعمدت ربط هذه الصخرة بيدها خوفاً من أن يكون الماء ضحضاحاً فلا يكفي لقتلها ...

المنيب — «العراق» ع . شرقي الدواوري

2017-11-15 09:09:18

من القصص العربي

مؤذن بغداد

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

حدّث عنه أحد الذين انتهى إليهم خبره قال:

لقد كان حميد السيرة ، واضح السريرة ، اسمه « صالح » وهو اسم وقع على معناه ، واتصل بمسماه ، فما عهد الناس عليه إلا التقى والصلاح ، ولا عرفوا عنه إلا الورع والاخلاص ، وما رأوه إلا قائماً في المحراب يدعو الله ، أو على سطح المسجد ينادي لله

كان يؤدي واجب الآذان في مسجد بغداد العظيم ، وكان ندي الصوت عذب النبرات ، حلو المقاطع قويها ، يخرج نَفَسه من نَفْسه ، وينبعث صوته من قلبه ، فكان طيّبة للعابد ، ورهبة للجاحد ، وزجراً للفرط . وأكثر ما كان يتضح فيه ذلك ويظهر إذا ما هب مع نسيم الفجر البليل والكون خاشع منصت ، حتى لقد كان يخشاه أولئكم الساهرون في بغداد على الكأس والسامرون بانهاب اللذات ، فاذا ما الليل ضربه بذنب السرحان نهضوا عن مجالسهم قبل أن يدركهم « صالح المؤذن » فيفزعهم « بندائه » لله ، على ما فرطوا في جنب الله !

ولقد سلخ في أداء مهمته أربعين عاماً كاملة ، فظل هو هو على ما عرفته مهمته من أول يوم وفاء وإخلاصاً ، ما ونى ولا أهمل ، ولا أخل بواجب المهنة وما يليق لها من مظاهر الجلال والورع ، وكأنى به ما كان يستطيع أن يحيد عن ذلك ، فقد استغرقت المهنة شعوره ، واستبدت بعواطفه ، وطبعته على غرارها في ميوله ورغباته ، وصقلته على هواها في سماته وتقاسيمه ، فكنت إذا ما اشتملته بنظرة ، ثبت في قرارة نفسك أن هذا الرجل إنما يعيش عيش الصالحين ، ويهيج هيج الزاهدين ، فكنت تقدر له نهاية شريفة ، وخاتمة حميدة ، وآخرة حافلة بالأجر والثواب

ولقد كان أهل بغداد يقدرون له هذه النهاية ، ولكن للقدر تقديراً هو النافذ ، وقد شاء الله أن تكون نهاية هذا الرجل الصالح نهاية الآثم الفاجر ، وخاتمته خاتمة المرتد الكافر ، فانه لفي يوم وقد اوتى سطح المسجد ينادي على الصلاة الوسطى كعادته ، وكان قد سكن بجوار المسجد نصراني هبط المدينة منذ أيام ، فلمح ابنة ذلك النصراني على سطح المنزل وكأنها طلعة الصبح ، أو فلقة القمر ، فأخذته رقتها وفتنته خفرها ، فانتهى من أذانه وهو يتحدث بصنع الله الجميل ، ويلهج بذكر الحور العين . فلما صعد للأذان في اليوم الثاني كان من حظه أن رآها كما رآها في اليوم الأول ، وقد عمل في قلبه أن رآها تهش لرؤيته ، وتبتسم لنظرته . ومضت أيام تكلمت فيها العيون وخفقت القلوب ، وتيقظت العواطف ، وأحس الرجل بإحساس غريب يدخل على قلبه ، وشعر بطائف يجول بين جوانحه ، واعتراه مثل الذهول فكنت تراه حائم النظر ، سادر الفكر ، شارد اللب . حتى لقد انصرف بالله عن المحراب وقل جهده في الطاعة وسار كل وقته يقضيه على سطح

(١) لهذه القصة حقيقة في كتب الأدب وقد توسعنا في وضع حوارها على ما تخيلناه

للسجد يرقب طلعة صاحبته ، ولقد كان يؤدي واجب الأذان فما يدري أأداه على التمام أم قصر ، وهل تحرى فيه الوقت أم تأخر ، فكان كما يقول القائل :

وأصلي فأغلط الدهر فيما ... بين سبع وأربع وثمان

ومواقيت جئتها لست أدري

ما أذان موقت من أذان

وفي ليلة من الليالي ، انطلق الرجل على سجيته وانفلت مع طبعه ، واستكان لغريزته ، فتربص حتى سكنت تأمة الناس ، وأيقن بخلو المنزل إلا من فتاته فدلف إليها في وناء واحتراس ، حتى وافاها موافاة المهجور للواحة الظليلة .. وقال الرجل فيما قال لفتاته : ها هو ذا جسمي قد انتقل إليك بعد أن عصفت بقلبي ، وسلبتني اللب والرشاد ، وما أحسبني منتعشاً بنفسي إذا ما تحطم أملي عندك وخاب رجائي فيك . فيا منى النفس ، ويا ربيع القلب ، ويا مجال الهوى ، ويا مسلاة الكئيب ، ارحمي صباً قد تعذب في هواك

واستيقي أن قد كلفت بكم

ثم افعلي ما شئت من علم

قالت الفتاة : أهكذا أنتم يا أهل الأمانات ! ! تخدعون الناس بظواهركم ومظاهركم ، وما أنتم من وراء هذه الظواهر والمظاهر إلا نفوساً مرتطمة بأوحال الرذيلة ، وأقذار الشر . لقد غششت الناس في حقيقتك يا مدعي الصلاح ! فحسبوك في كثير من صفاء الروح ، وطهارة النفس ، ولو تكشف لهم باطنك لرأوا فيك أخا الشيطان ، ولعلموا أن ذلك الصوت الذي ينطلق بإسم الله فيحضهم على البر ، ويهيب بهم إلى الطاعة ، ليس إلا صوت منافق ، أولى به أن يكون واعظ نفسه ، وزاجر قلبه ، فلا يجف إلى مضجع الفتاة الشريفة في غير مبالاة ولا حرج ، كأنه قد أمن الرقيب ، واستخف بالحامي ، ونسي الله ...

قال الرجل : مهلاً يا فتاتي ، فما جئت إلا على وعدٍ من ناظريك ، وما أحسبني أذنبت إنما كان قلبي قد سمع النداء فلبى ، وإني لأحس أنك تبادليني عاطفة بعاطفة ، وشعوراً بشعور . ولقد انطلق لسانك بنقيصتي وهي نقيصة لا أقبلها منك إقراراً لحق ، وإن كنت أرضاها إشباعاً لرغبة الدلال فيك ، فالدلال من شيم الحسان ، والدلال كما يقولون هو روح الحب به يحيا وبه يدوم ، وكل ما أرجو ألا يكون كلامك عن عقيدة ، فماذا الله أن أطلب في حبك نهوة البدن ، أو رغبة الجسد ، ولكني أطمع أن تصلي بين قلبي وقلبك ، وأن تمتزج روحي بروحك ، وأن تغمريني بفيض رضاك وعطفك

نصيبك من قلبي كما قد عهدته

وما لي بحمد الله منك نصيب

وما أدعي إلا اكتفاء بنظرة

إليك ودعوى العاشقين ضروب

قالت الفتاة : كأنك قد فهمت خاطر نفسي ، فأنا ما أردت إلا اختبار هواك ، ولن يرضى منك أكنت تكتفي بالنظرة ، أم كنت على مذهب « فتى قريش [1] » في البث والفتك ، فقديماً قال صاحبكم :

وقد زعمت ليلى بأني فاجر

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

ولكن قل لي يرعاك : كيف أستطيع أن أقرب بين قلبين باعدت بينهما العقيدة ، وأن أمزج روحين فرق بينهما الدين ، وكيف يمكن أن أبدلك ما تريد

(١) هو عمر بن أبي ربيعة

من عواطف الغرام ، وأنت تعلم أن الحب والعقيدة صنوان ينبتان فى جذر القلب ، ويستويان على الصدق والإخلاص ، فمن الواجب أن يكونا على غرار واحد من التوافق ، وفى لون واحد من الصفاء . وها أنا ذي بين يديك لك قلبي ، ولك روحي ، ولك جسمي ، ولك منى كل ما تريد فى الحب على شرط أن تكون لى على ما أرغب من العقيدة والإيمان !!

قال : وما رغبتك فى عقيدتى وإيمانى

قالت : رغبتى أن يتحد قلباناً فى الحب والإيمان ، وأن يكون اتجاهنا نحو السماء اتجاهاً متفقاً فى الشكل والصورة ، حتى إذا ما دعونا الله ، دعوناه بصوت واحد ، وبلفظ واحد ، فهات يدك لنكون على هدى المسيح حبًّا وإيماناً ، وليبارك لنا حبنا وإيماننا ، وليشملنا برعايته وحياطته ! !

قال الرجل : عفا الله عنك أيتها الفاتنة ، ولا كان علىّ من إثم قولتك ، وأرجو ألا تكوني مصرة على رغبتك ، فأنها رغبة نائية ، وأنا ما أردت أن أعرف قلبي فى الحب لأنكره فى الدين ، ولا رغبت فى قربك لأبتعد عن الله إلى هذا الحد ، ولكنى هويتك على أن الدين لله ، والحب للقلوب . فحرام عليك أن تطمسى علىّ أربعين عاماً قضيتها قائماً فى نواشيء الأسحار أدعو الله وتله ، فإذا ما نظرت إليها فى أطواء الماضى تراءت لى كأربعين خريفاً من نور تمتد إلى مثلها فى ثنايا المستقبل ؛ وإن روحى لترف فى وسط هذا النور كالفراشة ساعدة هابطة ، فرحة جذلة ، وناهيك به من نور ربّانى يغمر الجوارح ، وينفذ إلى الجوانح ، ويخف بالإنسان إلى عالم كله الطمأنينة والراحة والخلود ، فلا كن أنا أنانى عقيدتى ، وكونى أنت فى إيمانك ، ولتكن سويًّا فى الحب ، قلبي وقلبك يخفقان بالشعور المتوافق ، والإحساس المتبادل ، إحساس الحب النبيل ! !

قالت الفتاة : ما كنت أعلم يا صاحبي أنك من الإصرار على عقيدتك إلى هذا الحد ، فليتك فى مثل ذلك من الإخلاص للحب الذى تزعمه ، ولكن يخيل إلى أن لسانك يقول شيئاً وقلبك يطوى شيئاً . ولو كنت كما تزعم من الغرام بى لما أبيت رغبتى . وما دمت تزعم أن الدين لله ، والحب للقلوب ، فلا يسعنى إلا أن أكون كما تحب ، على أن تعرف لقلبك حقه من المتاع واللذة ، فميا انبعثى إلى النافذة التى تطل على دنيا الحب وعالم الغرام ، وليست هذه النافذة إلا كأساً من بنت الكروم ، أو إن شئت فقل من رحيق الحب ، تقبلها بشفتيك ، فإذا أنت فى دنيا من النشوة والأنس والسرور ، وإذا أنا لك بروحى وقلبى وجسمي ، فما الحب إلا للروح والقلب والجسم وما أداة ذلك إلا الصبوة تذكيها الكأس:

ما بيننا رحم إلا إدارتهـــا
والراح حرمتها أولى من الرحم

قال : ويحك يا ماكرة ! لقد أردت لى ما هو أشنع وأفظع ، وجردت علىّ سيفاً هو أمضى وأقطع ، كأنك تريدين أن يكون مثلى فى الناس كمثل ذلك الناسك الذى تحداه الشيطان بدخول سومعته ، فراهنه الناسك على أن يكون له منه ما يريد إذا استطاع ذلك . فلما كان بعد ذلك بأيام ظهر الشيطان قريباً من الصومعة فى صورة طائر مهيض الجناح ، يحاول أن يطلع فلا يقدر ، ويتحامل للنهوض فلا يستطيع ، فلما رآه الناسك اخلع قلبه شفقة عليه ،

2017-11-14 15:26:48

فهم فاحتمله حتى إذا صار به إلى جوف السومعة ، ظهر الشيطان فى صورته ، فلم الناسك أنه غلب على أمره ولم يسعه إلا أن يجيب الشيطان إلى رهانه فخيره الشيطان بين الزنا أو القتل أو الخمر ، فقدر الناسك فى نفسه أن الخمر أخفها احتمالاً ، ورأى أنه إذا شربها فلايضر إلا نفسه ، ولكنه لما شرب سكر ، ولما سكر عربد ، ولما عربد انطلق إلى قرية قريبة فأغوته امرأة بالزنا ففعل ، فصادفه زوجها فوكزه الناسك فقضى عليه ، ثم عاد وهو يتوه بأوزار الموبقات الثلاث : الخمر والزنا والقتل ، وكانت الخمر هى التى دفعت به إلى كل هذا ، وألقت على ظهره هذا الوزر الثقيل !

قالت الفتاة : كأنك تريد أن تدخل دنيا الحب وأنت روح الناسك وقلب المتحنث وتزمت العابد ، فخير لك أن تعود إلى المأذنة والمحراب لا تريحهما إلى نور الدنيا ... ويلى الله أنى ما مكرت بك يا صاح ولكنى طلبت لك أمنية المتمنى ورغبة الراغب : وكم قالوا : ثمن ! فقلت : كأس

يطوف بها قضيب من كثيب
ونعمان تساقطنى حديثاً

كلحظ الحب أو غض الرقيب

قال الرجل : ماذا ؟ كلحظ الحب أو غض الرقيب ! لا ! والله إنك لأغض فى القلب والناظر ... وأمتع للنفس والخاطر ...

... وسمع صوت والدها يطرق الباب ، فنهضت الفتاة فزعة ، ونهض صاحبها مروعاً تقول: لقد ذاع السر ، ويقول : لقد انكشف الستر. وسرعان ما دفعت إلى السطح ليختفى ، وفتحت الباب لوالدها ليدخل ، وحسب المؤذن أنه لا بد مدرك من والد الفتاة ، فألقى بنفسه من سطح الدار يريد النجاة ، ولكنه سلك الأرض سكة قوية كانت القاضية ...

وأصبح الناس من الند وفيهم حديث المؤذن ذائع شائع ، على أنه قصد إلى ابنة النصرانى بالفاحشة فأبت عليه حتى يقول كلمة الكفر ويأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ، فكفر وأكل وشرب ، فلما دب فيه الشراب احتجزته فوق السطح حتى يحضر والدها فسقط فمات ! واحتشد الناس حول جثة الرجل فحجبوه على وجهه حتى انتهوا به إلى منزلة كما يقول الرواة

محمد فهمى عبد اللطيف

تصويب

أخطاء مطبعية فى قصة (ليلة الوداع) فى الرواية عدد ٣٠

الصفحة	العمود	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩٤	٢	٢	شر الصواعق	شرى الصواعق
٢٩٥	٢	١٥	الخليفة	الخليفة
٢٩٦	١	٢٣	الرهبة	الرهبة
٢٩٧	١	٩	التى	اللائى
٢٩٧	٢	٢٢	تبعث	تنبعث
٢٩٧	٢	٢٦	يخفق أبداً	يصفق أبداً
٢٩٩	٢	٢٦	أشرف	أشرق
٣٠٠	٢	٣	عقلت	غفلت
٣٠٠	٢	٢٤	بشية السيف	بقية السيف
٣٠١	١	٥	يضطجع فيها	يضجع فيه
٣٠٢	١	١٦	قرب	اقترب
٣٠٢	١	٢٨	من عند	عند
٣٠٣	١	٨	جبانها	صبيانها
٣٠٣	٢	١٤	صارع	ضارع

2017-11-15 15:15:18

مَارْيُوتُو

للكاتب الإيطالي ماسُوشيو سالفينانو

للأستاذ دريني خشبه

أحبها ماريوتو ماجنانلي من أعماق قلبه ، وجعلها أغنية روحه ، ومزج غرامها بدمه ، وجعل اسمها الحبيب إنجيله المقدس الذي يردده ويهتف به في يقظته وفي منامه ... ثم راح ينشدها في أنفاس الصباح ونسمات الأصيل ، ويتخيلها في لألاء النجوم وصفحة البدر ... وكلما لقيها فوق سيف البحر أرسل عليها حبه وآلامه متوسلا له تحت قدميها الجميلتين وتطلب له الشفاعة .. حتى عرفت أنه يحبها

وآنست فيه الفتاة طهارة ونقاء وصدقاً فرقت له ومالت إليه ، وجزته على دموعه وحُرقته بابتسامة بريئة ماد لها قلبه ، وازّلزل من شدة أسرها كيانه ، وفتحت له أبواب السماء يطلع منها على عالم من الحب سرمدي ، لأنه من صنع اللطيف البارئ ... سبحانه !

وباركت قلبيهما يد الله ، وأخذا يلتقيان خفية ليتعاهدا على الحب وليرويا بدموعهما ، وليقطفا من ثمره إذا أينع ... قبلة أو قبلتين ... ثم ليأخذا في حديث ألذ من قطع الروض ، وأبهى من وَشْيه يرف على شفاههما رفيف النسيم ، ويتدهدى من أعينهما الظامئة كأنه رُقّ السحر

وكان ماريوتو من أسرة متوسطة من أهل سينا وكانت الفتاة من أسرة ساراسينغي التي هي في الثراء من أهل المدينة فكان هذا التفاوت بين الأسرتين سبب عذابهما ونبع مأساتهما ، والهوة السحيقة التي تحول بين أطماعهما في الصلة المقدسة التي تقرب ما بين الجسمين كما قرب الحب بين الروحين

ولا ريب أن القبلة هي أشهى ثمار الحب وأطيب جناه ، لكنها كما يقول الشعراء تلهبه ولا تعافه .. ومن الشعراء من يدعوها رسول الأبالسة ، لأنها أول النيث ...

من أجل ذلك لم يستطع الحبيبان على هذا الهوى الذري اصطباراً ، ومن أجل ذلك سما أن يكونا زوجين برغم ما بين الأسرتين

وكان لها صديق راهب أو غسطي ، ما كادا يشكوان له حالهما حتى انبجست الرحمة في قلبه ، والدموع في عينيه ، وانطلق بهما من فوره إلى الكنيسة فعقد لهما واستمان على إنجاز ذلك بالكنان. وهكذا ظل ما بينهما سرها وسر الراهب . وهكذا تم لهما ما أبته التقاليد والطبقات . فقطفا من ثمار الجنة على غفلة من الأفعى حتى استيقظت ، فذهبت تسعى بينهما وبين الناس لتخرجهما من فردوسها الجميل .

ذلك أنه كان بين ماريوتو وبين أحد النبلاء من سادة سينا عداوة ، فاستطاع الشيطان النميط أن يؤجج جذوتها بالوقيعة بين الخصمين ... ولم يلبث الجدال أن سار نضالاً ... ثم تماسكا ... ثم وكزه ماريوتو فقضى عليه ...

2017-11-15 06:06:48

وكان عليه بعد هذا أن يفر من الدولة أو يدفع رأسه ثمناً لجريمته ، فلبث حيناً مستخفياً عن أعين الناس ، فلما ضاعت جهود رجال الشرطة سدى فى البحث عنه صدر الحكم عليه بالنفى المؤبد ...

وقد تكاثمت الهموم ساعة الوداع ، وضم الحبيب حبيبه يتنفس فى صدره ، ويتزود لفراق طويل لا تنتهى مرارته ، وليس معروفاً مداه !

يا لقسوة المقادير توقظ المحبين من سبات عميق كله أحلام !

لقد راح كل منهما يرنو فى عينى صاحبه المغرورقتين بالدموع ، وكلما هما بالفراق انجذب بعضهما إلى بعض فى لوعة وفى شجن ، فترف الشفاه المدنية على الخدود المحترقة ، هائمة حائرة تلتمس العزاء ولا عزاء ، وتتشد السلوان ولا سلوان !

ولقد كان صدر أحدهما يكلم صدر صاحبه بدقات القلب وخطرات النفس ووجيب الروح ... حتى سكتت القبل ... لأنها لا تنبئ فى ذلك الحال شيئاً ، وصمتت الأعين ... لأن الفراق الذى لم يكن منه بد قد حم ...

وطمأنها مارپوتو ، فذكر لها أنه نازح إلى الاسكندرية ليقيم عند عمه المثرى الغنى ، وأنه سيكتب إليها من هناك ليتصل القلبان على ذلك البعد ، ثم أكد لها أنه لا بد عائد إلى إيطاليا الجميلة وواصل وإياها حبه ، ولو كلفه ذلك حياته

وفى غمرة من الحزن ، وثورة من الأسى والفجيعة ، افترق الحبيبان ، وفى نفسيهما مرارة ، وفى حشاهما هم ووجد وألم .

وانطلق مارپوتو إلى شقيق له فكاشف له عن سره ، وبثه شكواه ، وتوسل إليه أن ينشر ظل حمايته على زوجته ، وأن يكتب له عن أحوالها ، وأن يكون حارسها بالنيابة عنه ... حتى يعود .

ورکب البحر إلى الاسكندرية ، فتلقاه عمه بالبشر والبشاشة ، ووجد فيه مؤنساً له فى دار الغربة ... ولما باح له مارپوتو بسره ، لم يشأ الرجل النبيل أن يثرب عليه أو أن يعنفه ، بل أذهب عنه الحزن بكلمات طيبات ، وغلا فناء بصلاح الحال وتلافى ما وقع بينه وبين أسرة القتيل من خصومة وعداء ... ولم يكن ذلك من الجد فى شىء ، لكنه كان مبالغة فى إكرام مثوى الفتى ، الذى استطاع أن يخلب لب عمه بأسلوبه الفرنسى الحزين الحنون ...

وعهد إليه عمه ببعض مهامه التجارية لتشغله قليلاً عن أحزانه ، ثم أشركه معه فى منزله الجميل على شاطىء البحر الأبيض ، فكان مارپوتو كلما فرغ من عمل النهار ، خلا إلى نفسه فى الليل ، ففتح النافذة المطلة على البحر المتيد ، وراح يتنسم أنفاسه ، ويستروح سباه ، ويقرأ من حبيبته أو يكتب إليها ، ويسل ذلك كله بدموعه الحرار الطاهرات ، فكانت هذه اللحظات على ما فيها من ألم وما بلغت به من عذاب وهم ، أسعد لحظات حياته ، لأنها شعر الماضى وأحلامه ، تطفو على سطح الحاضر ، وتعلل بالآمال ظلام المستقبل

وتحالفت الهموم على جيانوزا فزادتها جمالاً ، وهام بها شباب المدينة هياماً جعلهم يتزامون على قدميها فى كل طريق ، كما يتراءى الفراش فى اللهب . وذهب كثير منهم إلى أبيها يخطبونها على أنفسهم ، ويحمونها بكل ما يملكون ، وكان الوالد كلما كلمها فى أحدهم تسلت وانتحت المعاذير ؛ فكان الأب الحائر يترفق بها ويتلطف ، ثم ينزل عند مشيئتها بغير ما حجة ولا برهان مبين ، ثم يصرف شباب المدينة فى حدب وفى استحياء

وهكذا ظل السر الرهيب دفيناً فى صدر الفتاة يعذبها ، ولكنه مع ذلك كان مصدر سعادتها

الباكية ، ولفتها الحزينة ، والنبع ذا الخرير الذي تختلط فيه آلام الماضي وآلام الحاضر لتثير مخاوف المستقبل

وضاقت بها أفانين المعاذير فلم تعد تدري ماذا تلفق منها وماذا تدع ، فلما أحست أن الشكوك أخذت تساور أباها من جراء هذا التمنع ، وأنه يلح في معرفة سرها ، قلق قلبها الخفاق ، وسدرت نفسها المسهامة ... ثم ذكرت الراهب الصغير الذي في وسعه أن يصنع كل شيء ... فانسرقت إليه ، وذكرت له ما كان من فرار مارپوتو إلى الإسكندرية وما كان من إلحاح أبيها عليها بالزواج ، وما حرصت عليه من كتمان زواجها على أبويها ، وكرهها أن تبوح به خشية ما يجر إليه من عواقب ... ثم سكبت عبراتها بين يدي القس ونثرتها على قدميه ، وتوسلت إليه أن يخلصها مما هي فيه بجرعة من السم المقدس تريحها من هموم الحياة ، وتحول بين الفضيحة وبين سرها وحبها (١)

وقد تردد الراهب أول الأمر ، لكنه سرعان أن رق للفتاة ، ولان قلبه للحبيب النازح ، فتناول كأساً روية من الخمر وجرع ما فيها ... وكأنما شرب منها شجاعة ، وعب حماسة وإقداماً ... فتهلل وجهه ، وربت على كتفي چيانوزا ، ثم وعدها عدة جميلة ، وأمرها أن تنطلق إلى ذويها فتسلس لهم فتلقاها القياد وترضى عن يختاره أبوها بملأ لها ...

وسجدت الفتاة وشكرت له ، وانطلقت إلى دارها فتلقاها أبوها بمثل ما كان يتلقاها به كل يوم وكل ساعة ، وما كاد يكرر عرضه عليها حتى قبلته ، فطفر قلبه من الفرح ، وطبع على رأسها قبلة العطف والحنان

وذهبت في الموعد الذي حدده لها القس ، فأعطاها زجاجة صغيرة تحوي الجرعة السحرية الهائلة ... ثم ذكر لها أنه لم يصنع لها السم الذي رغبت فيه ، بل صنع منوماً يدع شاربه في حالة تشبه الموت لمدة ثلاثة أيام ... « فإذا حسوت هذه الجرعة وتنشاك الناس ، وظن أهلوك أنك ميتة ، حملوك إلى قبورنا لتدفني فيه ، وسأزورك في اليوم الثالث وأتولى إيقاظك بنفسي ، وبهذا يكون ما بينك وبينهم قد انقطع ، فتستطيعين السفر إلى الاسكندرية حيث تلقين زوجك ، وحيث تكللُ كما عين السعادة ... »

واغرورقت عينا چيانوزا بدموع علوية ، ثم قبلت يد القس ، وانطلقت إلى بيتها تحلم أحلاماً رائعة جميلة

وجلست تكتب كل ذلك لحبيبها مارپوتو ، فلما فرغت أهوت على الخطاب تلثم اسمه الحبيب في كل سطر ، وخرجت تتدفع بالخطاب إلى من يوصله إلى السفينة الشرقية ، فلما عادت ، فتحت النافذة ، وصلت صلاة قصيرة ، وتمتمت باسم مارپوتو ، ثم شربت الجرعة الثمينة ، وانطرحت في سريرها .. وأغمضت عينيها

ودخل الخدم في الصباح بالورد والبنفسج ورياحين الريحين لمولاتهن ، فلشد ما ذعرت قلوبهن وجمدت نفوسهن لأن سيدتهن لا تستيقظ

وأهرع أبوها وبعض ضيفه فوقفوا فوقها مبهوتين مأخوذين ، ثم استدعوا أطباء سينا فما نفع طبهم ولا أفلحت حيلهم ، بل ذهبت جيماً أدراج الرياح

(١) يلاحظ القارئ حينما يبلغ هذا الحد من القصة ذلك الشبه الكبير بينها وبين روميو وجوليت لشاكسبير ، وقد ولد الكاتب سنة ١٤٢٠ ومات سنة ١٥٠٠ وهو بذلك قد سبق شاكسبير بحقبة كبيرة ، ثم هو أيضاً منفي هذا الضرب من الأدب الذي استقى منه كاتب قصة جوليت لويجي داپورتو (١٤٨٦ — ١٥٢٩) التي أخذ منها شاكسبير موضوع مأساته الخالدة . وسنقابل قصة لويجي لقراء الرواية بعد هذه القصة إن شاء الله . أما شاكسبير فقد كتب دراماته بين سنتي (١٥٩١ — ١٦١١)

وقرّ رأيهم على أن يتركوها حتى اليوم التالى ، « فقد تكون نائمة بتأثير شلل فى المعدة لا يزول إلا فى هذا الميعاد ! » لكن الميعاد فات ولم تستيقظ جيانوزا ، فلم يعد بد من دفنها ، لأنها ميتة ما فى ذلك شك

وخرجت جميع عذارى سينا يتهادين وراء الأران ، ويحملن أفنان الزهر إلى مقابر سانت أوجستين ... ثم عاد الجميع وكل قلوبهم حُرّق ، وملء نفوسهم أشجان وأحزان ...

وخشى الراهب أن تستيقظ جيانوزا فى ظلام الليل البهيم فتذعر ، ولا يكون من موتها لهذا السبب من بد ، فمضى إلى القبو هو ورفيق له ، ونقلا التابوت الحيّ إلى غرفتة الخاصة

وحانت الساعة الموعودة ... واستيقظت جيانوزا من سباتها العميق بين يدى الراهب الفزوع ، وأخذت فى الاستعداد للرحلة ... الرحلة المنشودة إلى فردوسها المفقود ... إلى ماريوتو ... إلى الزوج العزيز الذى افتحمت فى سبيله أصرم العقبات !

وقد دبّر لها القس ثياب راهبة . وبعد أن دعا لها بخير ، انطلقت إلى ميناء بيزا ، حيث ركبت فى سفينة متجهة إلى الاسكندرية مع كثير غيرها

وقد لعب البحر بهذه الحفنة من السفن شهوراً طويلة ، وكأنما كان ذلك لتمام المأساة . وذاك أنه لما علم جارباتو — شقيق ماريوتو — بما كان من وفاة الفتاة ، فانه أرسل إلى أخيه كتاباً طويلاً ينعيها إليه ، ويطلب له الصبر والسلوان . وقد وصل الخطاب قبل أن تصل جيانوزا ، وقبل أن يصل خطابها الذى سطرته إليه قبيل تجشيها الجرعة ... فواهاً للحبين إذا عثر بهم الحظ ... وإذا لج بهم الشار ! !

مسكين ماريوتو ! ! لقد فض خطاب أخيه بيدين مرتجفتين ، ومتمناه أن يتلو فيه خبراً يسره ... فاذا قرأ ؟ ...

« جيانوزا ... لقد ماتت جيانوزا يا أخى ... فتجلد ... وهذه غاية كل حى ! ...

« لقد كنت أوثر ألا أبعث إليك بهذا النبأ .. لكننى اضطررت أن أخلك بالحق ليهدأ قلبك ، وتستريح نفسك ، وليمرعها الله بالايمان ! ... »

ولم تنحدر عبرة واحدة من عينى ماريوتو ... وأنى له أن يبكى ، وليس أعصى من الدمع فى هذه المآسى التى تزلزل النفس ، ولا تنبجس لها العين ...

وشاع فى نفسه الحزن الصامت الذى ليس أنكى منه مرارة ولا أحر وَجْداً ...

وعبثاً حاول عمه أن يواسيه ... وسمم الزوج الحزين أن يبحر من فوره إلى إيطاليا ، ليقف على ثرى حبيبته ، وليسقيه بدموعه ، ولينشق هذا الهواء المريض الذى نشقته قبيل موتها من أجله ، وفنائها بسبيله ... ولأنه لا يليق به أن يخشى شيئاً فى سينا بعد أن قضت حبيبته ، وتحملت الأذى والهوان من أجله

وأرست السفينة فى نابلى ، وانطلق ماريوتو فى ثياب حاج إلى سينا ، واشترى آلات رأى أنها لا بد منها لينقب بها حائط القبو ، حتى يتيسر له الدخول إلى حيث تقر رفات معبودته ، فيجزيها حزناً بحزن ووفاء بوفاء ، ثم لينام جنبها إلى الأبد ، لأنه لا يطيق البقاء بعدها

واختبأ فى الكنيسة إلى أن جنّه الليل ، حتى إذا نام الجميع ، وأمن أن يعثر به أحد ، أخذ فى نقب جدار القبو ، وأعمل فيه آلاته ... وقبل أن يفرغ من هذا شعر به حارس المقابر ، فنفخ فى صوره ... وظل ينفخ فيه حتى استيقظ الرهبان ، واجتمعوا عليه ... لكنه كان قد فرغ من عمله ، وانفتل داخل القبو ... وفى ظل شمعتين صفراوين

شاحبتين ، وقف على رمس ِ فلته رمس حبيبته

وكانت التقارير السرية قد انتشرت فى أيدى الجواسيس تملن وصوله ... فلما قبض عليه ... وسيق إلى قضائه ... باح لهم باعتراف جامع ناجع ، وساعدته دموعه التى كان ينضح بها كلماته ، فهاج شجون النظارة وفجر فى قلوبهم شآبيب الحنان ، حتى إن كثيراً من النساء وبعض أعضائه ، عرضوا على المحكمة أن تسمح لهم بمشاركته فى جريرته ، أو إلقائها كلها على كواهلهم ، إذا كان ذلك شافعاً لإطلاق سراحه ... ولكن ... هيهات ! ... لقد زجر كبير القضاة ، وتهدد الحضور إن تدخلوا فى إجراءات العدالة ، أو اعترضوا سبيلها ... فصمتوا ... وانتهت المحاكمة ... وصدر حكم الظالمين القساة بالاعدام ! !

ووصلت جيانوزا بعد لأى وبعد عناء شديد إلى الاسكندرية ، وانطلقت من فورها إلى بيت العم العزيز الذى تلقاها كابنته ، وأعز الناس عليه

ولم يشأ أول الأمر أن يفجأها بسفر ماريوتو ، بل تركها تسرد عليه قصة موتها المدّعى ، حتى إذا فرغت منها تبسم الرجل الخيّر ، وترفق ثم ترفق ، ثم ضحك ضحكة عالية مبالغة فى ترقبه ، ثم ذكر لها أن ماريوتو قد تسلم رسالة من شقيقه ينبيها له فيها وأنه منذ ذلك اليوم لم يعد إلى البيت ، وأن أكبر ظنه أنه رحل إلى الوطن ...

يا آخر الأنباء السود ما أشأمك !

مسكينة جيانوزا ! أبعد طول النضال فى البر والبحر ، وبدلاً من أن تضم إلى صدرها المذنب حبيبها المشوق تحضر إلى الاسكندرية فيدهمها هذا النبأ ...

يا عين ! اسفحى شئونك ! ويا قلب ! لا يقف خفقانك ! ويا نفس ! تساقطى فى محيط الأحزان أنفساً !

وأخذ الشيخ يواسى جيانوزا ... ثم عرض عليها أن يرحل معها إلى نابلى ثم إلى سينا ، ليلقيا ماريوتو حياً أو ميتاً .. فاستخرطت الفتاة فى البكاء وشكرت للعم العزيز ما غمرها به من عطف ولطف

وتنكرت جيانوزا من جديد فى مسوح الرهبان وعبرت شط الشاطئ لتركب البحر فى كنف الرجل الطيب ... وهمت بهما الفلك إلى الشاطئ التوسكانى حيث أرست عند ليوميتو ... وحلت الفتاة ضيفة عزيزة على السر نيقولا ... نيقولا الغنى صاحب فيلا نيقولا ... عم ماريوتو ... التاجر الأسكندري ... وهى فيلا بهجة قريبة من سينا

وكانت نهاية الفجيعة أن ماريوتو المسكين قد نفذ فيه حكم الإعدام قبل وصول زوجته وعمه بثلاثة أيام ! !

وما ذا يكتب القلم فى هذه النهاية المشئومة ؟ !

أوه ! لقد سكب العم الطيب مواساته فى دموعه بين يدى جيانوزا ... فماذا صنعت بهيه ؟ !

وقبلت أن تقضى البقية الباقية من حياتها المنكودة فى كسر دير !

ولم تستطع أخواتها الراهبات أن يواسينها بشىء فذبلت جيانوزا

ولم تزل تذبل وتذوى كل يوم

ولم تفتأ تسهر قلبها ودموعها بالبكاء على ماريوتو حتى لفظت نفسها الأخير ! ورثى مشيبة

من التاريخ الإسلامي

يوم اللقاء

للأستاذ علي الطنطاوي

لما خرج (عبد الله) من المنزل المهجور، كان الليل قد عسعس فانجابت ظلمته عن سنا السحر، والصبح قد تنفس فتضوّعت أنفاسه الناعشة في أرجاء هذا الوادي المقدّس، وكان الكون لابساً ثوب شاعر مُدَّله، أو عابد متبتل يضمر النفس بحسٍّ سماويّ لا تصل إلى الإحاطة بوصفه لغات البشر ... ولكنّ عبد الله لم يلتفت إلى شيء من ذلك، ولم يلق إليه وعيه، لأن الدنيا قد ماتت في عينيه منذ عزم على الموت وسلك سبيله ... وماذا ينفع السحر وجمالُه رجلاً فرغ من ذلك كله وخلفه وراءه ليستقبل حفرة الموت التي لا تضيئها أشعة الشمس، ولا يصل إليها رواء السحر؟ وماذا يرى المسلول اليائس في صفاء العيون، وضحك الورد، وغناء العصافير، وهو يعلم أنه سيموت ويحتويه هذا القبر الموحش ... فلا تدري به الينابيع ولا تكفّ عن وسوستها وتغريدها، ولا يحفله الورد ولا يمسك ضحكه حزناً عليه، ولا تأبه له الطيور ولا تقطع من أجله غناءها ... والشمس لا تفتأ تطلع من بعده تنير الكون بلألائها، والقمر لا يزال يريق على الدنيا وابلا من نوره الفضيّ .. وكل شيء يبقى على حاله بيننا يكون هو قد ذهب وانمحى؟ وماذا يرى المحكوم عليه وهو يساق إلى حبل المشنقة في بهاء الشمس، وابتسام الربيع، وضحك الروض؟ إن المرء لا يجد في الكون إلا سورة نفسه، وخيالة عواطفه، فأي شيء يجده (عبد الله) وليس في نفسه إلا ذكرى ماضٍ يلوح قطف ثماره أمداً طويلاً، ثم عصفت به رياح الفناء فصوّح نبته، وذوت غصونه، وصورة مستقبل غامض يسلم إليه أمه المسكينة، لا يدري من أمره شيئاً ولكنه لا يثق به ولا يطمئن إليه، وهو بينهما يمشي طائماً مختاراً إلى ... الموت!

وبلغ (عبد الله) أبواب الحرم، وهو في ذهلة عميقة فإذا هو بأبي سفيان عبد الله بن سفيان بن أمية بن خلف، فألقى عليه نظرة فارغة كأنه ينظر إلى رجل من العالم الآخر لا يبصره ...

— سيدي! أمير المؤمنين!

...

— لقد استطاع رجالي أن يفتحوا لك طريقاً إلى العراق وهذه هي ركائبك، وهؤلاء هم حرسك. فتلفع يا سيدي بهذا الثوب وسر في أمان الله!

فلبث (عبد الله) صامتاً، شاخصاً إليه بعينيه، يردد هذه الكلمات التي سمعها تردد من لا يفقه لها معنى، كأنما هو قد أضل فكره وفقد ذكاءه، أو كأن هذه الكلمات قد خلصت إلى نفسه بعد أن اطرحت معانيها فجاءت خالية لا تدل على شيء ... فربع ابن سفيان وأشفق أن يكون قد أصابه سوء، وجعل ينظر إليه بعينين تجلّى فيهما الإخلاص

(*) انظر (ليلة الوداع) في العدد (٣٠) من الرواية

للأمير ، والحب للوالد ، والوفاء للصديق . ولا عجب فى ذلك فلقد كان يرى فى (عبد الله) أميره ووالده وصديقه ، ووليّه من نفسه الحبّ والإكبار . وجعل ابن سفوان يحدّق فيه فيراه دائباً على ترديد هذه الكلمات ، ولكنه يرى وجهه تنبسط أساريره ويخطف على جبينه نور الذكاء ، وتبرق عيناه ببريق العبقرية ، فيطمئن ابن سفوان ويعلم أنه قد عاد إلى نفسه ...

نشط (عبد الله) واستبشر استبشار غريق رأى خشبة النجاة ، وعاشت فى نفسه آماله ، وأورق غصن ماضيه الذاوى فبسط ظلاله الندية على حاضره القاحل المقفر . فأحس كأنه يسمع أبواق النصر التى كان يسمعها فى سالفات أيامه ، وانتهى إلى أذنيه صدى أناشيد الظفر التى كان يهتف بها جنده تحت رايته المنصورة ، وشعر كأن قد عاد إلى إسمه عطره وجلاله ، فرجع ينفق من أفواه الكتاة المساعير الذين ذهبوا ينشرون عبقه فى بلاد العرب والعجم ... وكرّت الأيام راجعة فإذا هو يرى عبد الملك وقد روّعه اسمه وأرّقه ، ويبصر رأى المختار الذى ظفر بعامل الأمويين يسقط على قدى عامله وأخيه مصعب ، ثم تقوى هذه الصور فى نفسه وتجيش وتموج حتى تبلغ هذا الحاضر الذى يعيش فيه ، ثم تمتد إلى آفاق المستقبل ، هذا المستقبل الذى ولد وغا واستكمل نموّه فى لحظه ...

وطغت موجة الفرح على نفسه فأحس كأنه فى حلم ، واختلطت عليه الحقيقة بالوهم ، فأخذ بيد ابن سفوان ، وسأله نشوان فرحاً :

— هل قلت إن الطريق مفتوح ؟ أأستطيع أن أخرج من مكة ؟

ولم يكن ابن سفوان ينتظر منه الرضا ، فاستخفه الطرب لرضاه ؛ ونسى أنه يكلم خليفته وآمره . فجعل يهزّ يديه بشدّة :

— نعم ، نعم يا سيدى ، أسرع ، أسرع بالله ، أخشى أن يفوت الأوان . إن الفجر سينبلج !

فينساق (عبد الله) فى الطريق الذى أراده له ابن سفوان ، ويكاد يمضى فيه ؛ ثم يذكر أمه ويعود إلى نفسه مشهدها وهى قابعة فى زاوية البيت ، حزينة ملتاعة ... هل يدع أمه وحيدة بين براثن هؤلاء الذين يراهم وحوشاً ؟ لا . وتوقف ، وبدا عليه التردد

— سيدى ! إن الوقت قصير

— لن أدع أمى !

— وكيف تدعها يا سيدي ؟ إن الجند سيحملونها معك إلى حيث تمضى ، أو يضعونها حيث لا تنالها أيدى الحجاج

فعاودت عبد الله حماسته ، ولكنه وقف مرة أخرى يفكر ... هَبْهُ وصل إلى العراق فماذا ؟ هل تكون العراق خيراً له من الحجاز ؟ لقد ضاعت العراق يوم ضاع مصعب . فهل يذهب إلى خراسان ؟ لقد مد الأمن رواقه على هذه المدن ، أفيقلبها ساحة حرب ؟ لا ، لن يقتل الآلاف من المسلمين ليعيش هو !

وراح يعرض البلاد كلها فى لحظة ، فلا يجد بقعة لم يبلغها ملك أمية ، أفيمضى إلى بلاد الكفر ؟ وضاقت عليه الأرض بما رحبت فاستصغرها وزهد

2017-11-14 15:26:48

فيها وفترت همته . وانطفأ هذا اللهيب الذي وقد في نفسه وخطف نوره على جبينه ، فاستل يده من يدى أبي سفوان ، وقال له بصوت رهيب :

— اسمع يا أبا سفوان :

فأدرك ابن سفوان أنه سيسمع نبأ لا يسره — فقد نطق وجه (عبد الله) بأنه عازم على الموت قبل أن ينطق به لسانه ، ولكنه أرهف أذنيه وذهب يستمع ، فقال له (عبد الله) :

يا ابن سفوان... أخبرني . أفي طوقك أن تردّ على العالم بهاء الشمس ونورها إذا غمره الليل بسواده القاتم ؟ إن لكل نهار ليلاً ...

فقاطعه ابن سفوان وقد رأى بارقة سنحت من أمل فحاول أن يتمسك بها

— ... ولكل ليل فجر يا أمير المؤمنين

ولكن هذا الفجر لن يسطع على من بين رايات الأمويين استظل بها . ولا تتسرب خيوطه من خلال هذا الثوب الذي رضيت لي الغرار فيه ... بل إنه سيسطع . إني لأري تباشيره تلوح ببيضاء زاهرة من وراء باب الموت . ولا بدّ لي من ولوج هذا الباب يا ابن سفوان ، فلماذا تأبى عليّ أن أجله حراً مجيداً ، وترضى لي أن أطبع على لحيتي البيضاء وصمة العار الحمراء ، وأن أختم سفر حياتي الماجدة الحافلة بالبطولة بأبشع خاتمة وأبعدها عن البطولة والمجد ؟ أنأبى عليّ أن أموت ميتة أبي ؟

في تلك الرملة التي تتكسر على جوانبها أمواج البحر كل مساء ، ويحمل الرافدان دجلة والفرات العذب النمير من أعالي بلاد الروم ليغسلا به حواشيها الأخرى ، وحيث تلتطم رياح الجزيرة ، وتتراقص نسائمها اللينة ... هنالك يا ابن سفوان يثوي قبر منفرد منعزل : هو قبر أبي !

لقد مات أبي شهيداً . ولكنه لم يمت في المعركة الحمراء ، وإنما مات على يد وغد دنيء ، فضاع قبره في تلك الفلاة ... أفيسوؤك أن يموت ابنه وسط المعمعة ، فيقوم قبره في بطن مكة ، فيشير إليه الناس قائلين : هذا قبر الشيخ الذي مات شهيد المعركة اللاهبة ، وتمتد أيديهم إلى السماء يسألون لي الرحمة والغيث ، ثم يمسكون بقلوبهم مخافة أن يهزّها هذا الهدوء الصامت ، فتنفجر من الحماسة !

لماذا تأبى عليّ أن أموت ميتة أخي البطل مصعب ، وأنت الذي مجد مصرعه ، واتخذه مثالاً للبطولة والتضحية والشرف ؟ ألا يسرّك أن أشتري بدمي حياة هذه الأمة ، فتعود السعادة إلى هذه البقعة الطاهرة ، ويخيم عليها الأمن ، وتستعد لتحمل رسالة الله إلى الدنيا ... مرة ثانية

إنك لن تستطيع أن تردّ ما فات . أرجع إلى الزهرة الجافة رواءها وعطرها . ردّ على الشيخ الهرم شبابه وقوته . أعد للنهار الآفل ضحاه !

لقد انتهى كل شيء !

ظن تكون خاتمة حياتي أن أفرّ تحت ثوب امرأة ...

وأخذ الثوب بقلبه بيده ، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة ، فيها آيات القنوط المرعب ، والاستهانة الهائلة ، والاقدام المخيف

— لا . لا يا ابن سفوان ، إن عبدالله بن الزبير

أكرم من أن يتشح بثوب امرأة . لا لن أفرّ (يئس الشيخ أنا إذن فى الإسلام إن أوقفت قوماً ثم فررت عن مثل مصارعهم[1])

— سيدى !

— ابن سفوان !

ثم التفّت الأذرع فى عناق جمعت فيه الصداقة والمحبة والتضحية أروع قطوفها ، ثم تخلص الشيخ من ذراعى ابن سفوان وأمسك برأسه فقبّله بين عينيه

— جزاك الله خيراً يا ابن سفوان ، فلقد والله وفيت لى حين غدر الناس بى ، ولزمتنى حين تركنى ابنائى ، فكانت صداقتك أوثق من الولادة ، وأثمن من البنوة ، ولقد كنت رفيقى فى اليوم الأسود كما كنت رفيقى فى الليالى البيض ، ومنذ وأجزلت ولم تدع لى إلا حاجة واحدة ، فاخبرنى هل تقضيها لى ؟

فترقرق نفس ابن سفوان ويطفر الدمع من عينيه

— ولو كان فى قضائها موتى !

— بل فيها حياتك إن شاء الله ، فأنا أعزم عليك إلا ما نجوت بنفسك

— معاذ الله يا سيدى !

— أنى لتقرعينى فى حياتى ، وتسكن عظامى بعد موتى ، إذا أنت نجوت بنفسك . قل إنك فاعل !

— معاذ الله يا سيدى ، أموت معك كما حييت معك !

وكان الفجر قد انبلج وأرعدت هذه الأوعار والصخور وأبرقت ، فضاع هذا الحديث الخافت فى جلبة الجيش المنتصر وإرعاده . فقطع (عبد الله)

(١) هذه الجملة فقط من التاريخ

الحديث وانثنى نحو الكعبة يأمر مؤذنه باعلانه الفجر ، وكان محتفظاً بمظمته وجلاله ، فكأن هذا الفشل المتتابع وهذه الخيبة الشاملة ، لم تنل منه قليلاً ولا كثيراً . وكان جنده الأوفياء ينظرون إليه فيمدهم بمجلده واحتماله ، وتسرى فيهم هذه العزّة ، فيطوون جوانحهم على قلوب ملؤها القوة والأمل . وهل فى الدنيا أقوى من عصبة تريد أن تموت ؟ إن العدوّ يفزعها بالموت ، والموت أكبر أمانيها ، فكأن عدوّها خادم لها ، مسخر لرغباتها !

ودوّى صوت المؤذن قوياً واضحاً ، فجاوبه من تلك الأوعار صوت آخر واضح قوىّ : الله أكبر ! الله أكبر !

— الله أكبر من هذا الجيش وهذه الدنيا ، ولكن هؤلاء قد نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها

ذلك ما كانت تنابى به نفسها هذه العجوز وراء سور الحرم

وكانت قد أوت إلى هذه الزاوية لتودع ابنها ، وتحتفظ بذكراه الأخيرة ، وتسمع جرسه ، تختزن فى نفسها هذه الصور التى ستكون من بعد ينبوع حياتها ، وستعيش بقية أيامها بذكراها . وقد لبثت هذه العجوز فى مكانها من المنزل المهجور ، بعد أن ودّعها ابنها ، تبكى وتتقاذفها شتى الأفكار ، حتى نالت منها متاعب اليوم ، وأوقار الشيخوخة ، فاستسلمت إلى نوم مزعج متقطع تضطرب فيه الأحلام المرعبة ... فرأت ابنها بأيدى الجنود الشامبين تنوشه رماحهم وسيوفهم ، فوثب قلبها من صدرها وجعلت تصيح وهى نائمة : دعوه .

دعوه لى ، لا تقتلوه ، قد ترك لكم الخلافة فاتركوه لى ...

وأفاقت مذعورة وقد طار النوم من آماقها ، فلم تطق البقاء وابنها على عتبة الموت ، فقامت تحمل آلامها وأوجاعها ، وأثقال هذا القرن الكامل الذى يجثم على عاتقها ... هذه السنين الثلاث ... وتوجهت تلقاء الحرم ، وكانت تفكر فى ابنها ، ماذا عليها لو أنها أخذته من بين مخالب الموت ثم عاشت معه فى ركن منعزل من أركان هذا الكون الواسع ؟ أيؤذى عبد الملك وقد تم له الأمر وأطاعه الناس كلهم أن تعيش عجوز بجانب ابنها ؟ ألا يجد لذته إلا فى ألمى ... وهمت العجوز باستنزال اللعنات على عبد الملك ، ثم رجعت إلى نفسها تفكر فى عبد الله فاذا هو لا يقر ولا يهدأ ، وإذا هو ساعتة حيثما نزلت خربت ، وقلبت الأرض عاليها سافلها ، فلا يقر لهذه الأمة قرار ...

وكانت قد بلغت الحرم فسمعت صوت المؤذن يردد التكبير ، فيعود الصدى من هذه الأوعار يمثل تكبيره ، فأسعفت فإذا ما حسبته صدى أذانُ أهل الشام ، فألمها هذا الانقسام وجعلت تتكلم همساً كأنما تخاطب نفسها :

— يا لهؤلاء الذين نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها ...

وفى تلك اللحظة تقدم هذا الشيخ الذى كان أمير المؤمنين ، ووارث كسرى وقيصر ، ليصلى آخر صلاة له فى ظل الكعبة ، فسمعته العجوز ، ولم يكن بينها وبينه إلا اجتدار قصير ، فنازعتها نفسها إليه ، واشتاقت إلى عناقه وشمه ! ، ولم يكن يكلفها ذلك إلا همساً خافتاً يسلم منه موضعها ، فكادت تهمس باسمه ، وقويت هذه الرغبة فى نفسها ، حتى لقد توهمت أن ابنها قد دلف إليها بعناقها ، فدت يديها تعانقه فسقطتا على جنبيها ... وكان قلبها يرتفع فى صدرها حتى يبلغ حنجرتها ، يذوب حزناً وكمداً ، ويسيل من عينيها المنطفئتين قطرات من الدمع ... ولكنها لبثت ساكنة صابرة على قضاء الله

انتقل هذا الشيخ من صلاته ، وقد رق الظلام ، وانبثت فيه أشعة الفجر ، فأراقت على الحرم ظلالاً من النور ، فاستطاع أن يتأمل فى أصحابه الذين لبثوا على وفائهم له لم يخذلوه كما خذله ابنه حمزة ، فمرت على وجهه سحابة من غم حين ذكر أن حمزة قائم فى هذه الساعة تحت رايات الحجاج ينتظر أن يرى أباه معلقاً على خشبته ، ليرقص فى مأتمه ، ويظفر باسلابه ، وكاد يجارى غضبه ويقذفه بلعنة حمراء تتسلسل فى أسلاب ذريته ، فلا ينجو من جناها المسموم جيل ؛ ولكنه أمسك ولم يحب أن يكسب أولاده هذا الشر المستطير فى آخر لحظة من حياته ... وينظر إلى هؤلاء الفتية فيروقه شبابهم الزهر ، ويضنّ بهذا الصبا الغض على الموت ، ويعلم بأنه ميت لا ينفعه دفاعهم شيئاً ، فأرادهم على الحياة وزينها لهم ، وابتغى إلى إقناعهم شتى السبل ، وأفانين الأساليب ، فأبى لهم وفاؤهم ومروءتهم ودينهم وما كانوا يعتقدون من ضلال الأمويين إلا الموت ...

فرقت نفس هذا الشيخ ، وغمرها الحب

والرضا ، فأحب أن ينظر إلى هذه الوجوه ، وأن يجعل سورها زاداً له من دنياه في جولته الأخيرة ، فقد كانوا تمثالة ذلك الجيش العظيم ، وبقية أولئك الأبطال النطاريف ، الذين كان في وسعهم أن يقلبوا قيصر من كرسيه في القسطنطينية كما قلبوا كسرى من عرشه في المدائن ، لولا أن ألقى بأسهم بينهم ، فأصبحوا يحسبون مجد القائد المسلم في الانتصار على القائد المسلم ، ويرون المعركة الظافرة هي التي فاكل إخواتهم في الدين وفي النسب ، ويرون الفتح الأغر في استباحة مدينة الرسول ، أو العبث بقصبة الخلافة

وكان هؤلاء الفتية قد لبسوا الحديد واتخذوا المغافر لا يبين منهم إلا الحدق . فلما أرادهم (عبد الله) على كشف وجوههم أزاحوا هذه المغافر فأضاءت وجوههم كما تضيء الأقمار ، ولكن شعاعها وميض الجمال الفاضل ، وبريق الإخلاص والذكاء ، فأشجاه أن تكون هذه الوجوه فريسة السيوف بعد ساعة واحدة ، وأن يذهب هذا الشباب الناضر وأن يخسر جيش المسلمين هؤلاء الفتيان الأشاوس : ومن ستصيبه سيوفهم الماضية ينالونه بها قبل أن يموتوا . فعاد يدعوهم إلى الحياة ورجموا يأبون

— قال : أما إذ أبيتم (فلا يرعكم وقع السيوف فان الدواء للجراح أشد من ألمها وقعها . سوفوا سيوفكم كما تسوفون وجوهكم . غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عني فمن كان سائلاً عني فاني في الرعيل الأول . احملوا على بركة الله[1])

(١) هذه الجملة من التاريخ

فهتف هؤلاء الجنود هتافاً عالياً ، وأنشدوا أناشيد الحرب ... ولكن أصواتهم ذابت في هزيم الرعود التي تفجرت من حلوق الأمويين وهم متحدرون من أوعارهم وأسلادهم التي اعتصموا بها يتدفقون نحو أبواب الحرم . ودارت المعركة في البقعة المقدسة التي كانت ملجأ الناس ، ومثابة الأمن في الجاهلية وفي الاسلام !

بلغ هذا الزحف أبواب الحرم الأقدس ، واشتركت في حمل وزر هذا الزحف مدن من الشام تعاونت على العبث بحرمة المسجد وإراقة الدم الزكي على أرضه الطاهرة ، فكانت حمص بجندها على الباب الذي يواجه الكعبة تحاول أن تقتحمه لا لتطوف بالبيت العتيق ، ولا لتقوم فيه لرب العالمين ، بل لتستبيح فيه حرمة الدم الحرام في الشهر الحرام في المسجد الحرام ... وكانت دمشق على باب بني شيبة ، وكان أهل الأردن على باب الصفا ، وأهل فلسطين على باب بني جمح ، وأهل قنسرين على باب بني تميم ، وكان الحجاج قائد هذا الجيش الذي هدم بيت الله في ناحية الأبطح ... تدفقت هذه الجموع برايتها وكبرياتها وقوادها وجندها ، وسلاحها وعتادها ، وحماستها وهتافها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم. ردها وحده هذا الشيخ !

هذا الشيخ الذي أدنته الأيام من الثمانين فكان من حقه أن يستريح أثر حياة صاخبة ، وأن يقضي بقية أيامه في دعة وهدوء .. قد جعل راحته وهناءه ووقف وسط الحرم كالأسد الهائج يدافع عن عرينه بلبدته البيضاء وشيبته المهيبة قد دارت مقلتاه

الفتان تنفضان الشرر على هذه الأبواب ، فكلما رأى باباً انفتح كرّ على أهله فردهم على أعقابهم ، فكان يحمل مرة هاهنا ، ومرة هاهنا ، حتى ارتفع الضحا ولم يقرّ الشيخ ولم يهدأ .. فأحس بالوني في أعصابه وكلت يداه . وأي رجل يستطيع أن يجالد مثل هذا الجلاد ؟ وأي رجل يقدر أن يقف وحده في وجه هذا السيل الطامي من البشر ، لو كلما أزاح من طريقه واحداً حلّ في مكانته مائة ... فوقف لحظة يستريح وتلفت فاذا هو بابن صفوان لم يفارقه

— أبا صفوان ، ويلمه فتحاً لو كان له رجال ! والله لو كان قرني واحداً كفيته[1]

فيقول أبو صفوان :

— أي والله وألف ...

وتدور رحى الحرب من جديد قد دفعها الحجاج دفعة انطلقت على أثرها مدوية مرعدة تسيل على جوانبها الدماء ، وتزهق الأرواح فيدوران معها ..

حتى إذا زال النهار وتلهبت شمس مكة فجمعت على الناس نارين : نار الحر ونار الحرب ، ضاق ابن الزبير وأصحابه ذرعاً فجمعوا بقية عزمهم ، وأقدموا إقدام المستميت فلم يرجعوا حتى أجلوا هذا الجيش العرمرم عن الحرم وردوهم حتى بلغوا بهم الحجون وكان في طوقهم أن يردوهم إلى أبواب الشام ، ولكنهم كانوا عشرات من الناس يحاربون الوغا مؤلفة !

ورجع عبد الله إلى الحرم وقد خلت ساحته . إلا من الحجارة التي نثرتها المنجنيقات من جدار الكعبة ، وأشلاء القتلى ودمائهم وهذه البقية الباقية من جنده ، تتلب عليه الألم لما حلّ بالمسلمين ، وعزف عن الطعام والشراب فلم يفكر فيهما ولا في الراحة المسعدة أثر هذا الجهد الحاطم ، وإنما أقبل يريد أن يصلي في ظل الكعبة فيناجي ربه ويستغفره ويودّع دنياه ... ولكنه لم يدن من الحطيم حتى وقف مرتجفاً قد اهتز من مفرقه إلى قدميه كما تهتز القصبة في الريح النكباء ، وفتح عينيه يحدق ... إنه لا يشك في أنها هي ...

— يا إلهي ... ما الذي جاء بها إلى هنا ؟

ودنا منها متلصصاً يمشي على رؤوس أصابعه فاذا هي صامتة جامدة لا تتحرك ولا تتنفس

— أهي ميتة ؟

واقترب حتى حاذاها فأحست به وصاحت :

— من أنت ؟

فلم يجب ، فعادت تصرخ :

— من هذا الذي يمد يده إلى امرأة عجوز ؟ ويلكم أما كفاكم أن دفعتم إليكم ابني لتقتلوه ... آه أين أنت يا عبد الله ؟

وسمعها تبكي بكاء خافتاً فتحرك ، فعادت إلى تصريخها :

— قلت لك ابتعد أيها الوغد ، أنسيتم أخلاقكم ومروءتكم ، واستبدلتم بها هذه الأخلاق التي ترى البطولة في البطش بعجوز عمياء لا تريد أن تؤذي أحداً ؟ آه لو أن عبد الله كان حياً ؟ أين أنت يا عبد الله ؟ عبد الله ...

وراحت تنشج نشيجاً ألياً ، حتى لقد ظهر أنها ستشرق بدمعها ، وخال روحها ستزهق في نشيجها ،

(١) هذه الجملة من التاريخ

وأحسّ كأن قلبه يقطع بسكين ، ونسي الحرب والنضال ، وهمّ بأن يلقي نفسه بين ذراعيها كما فعل في ليلة الأمس ، ثم يحملها إلى بقعة من أرض الله الواسعة تقضي فيها لياليها الباقيات ، ثم يردّه الحفاظ والدين وهذه النابة التي باع نفسه من أجلها ...

وكان يسمع اسمه يرتجف في غضون الزفرات يخرج بصوت مكلوم ، يلهب قلبه كأن فيه قبساً من قلبها المحترق ، تخاف أن يغلبه ضعفه البشري . وانتهى إلى أذنيه هتاف أهل الشام وقد أقبلوا كرّة أخرى كما يقبل البحر بعدّه على الساحل بعد أن نأى عنه في جزر طويل ، فعاف مكانه حيال أمه ، وذهب يستقبل الموت ، وقد مات من قبله مراراً...

* * *

وكان في شعب من شعاب مكة النائية عن الحرم ، شيخ جليل قد اعتزل الحرب هو وأصحابه ، لأن دينه لم يبح له أن يحارب أبناء دينه ، ومروءته تحتمه من تجريد سلاحه في وجوه إخوانه ، وذهب ينتظر في هذا الشعب النائي

كان عبد الله بن عمر معتزلا يحسر لأصحابه عما يخامر نفسه من ألم لتفرق المسلمين ، ويحدثهم حديث الرسول الذي جاء بالإسلام خالف بين القلوب ، وجمع الناس جميعاً ... ويرقب انكشاف هذه الغمّة . فسمع التكبير (ظهر يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٤) يتجلجل في حلوق الشاميين ، فاسترجع ومدّ يده إلى عينيه الهامدتين فمسح دمعة خال أنها تترقرق فيهما ، وأقبل على أصحابه فقال لهم :

— ألا تسمعون التكبير ؟ والله لقد كبر المسلمون مثل ذلك من قبل ، في ليالي الهجرة الأولى ، وارتجت لتكبيرهم حرّة المدينة وتمايد نخيلها ، وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لولادة هذا الرجل الذي يكبر المسلمون اليوم لموته ! ...

رحمة الله عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، ولقد كنت والله سواماً قواماً وصولا للرحم[1]

لما أقدم عبد الله ، تساقط الشاميون تحت سيفه كتساقط أوراق الخريف ، وانزاحوا من بين يديه ، ولكنّ رجلا ممن عجز عن مواجهته في المعمعة ومقابلته بالسيف ، قذفه بآجرة ضخمة ، فعل الجبان الرعديد ، فأصاب بها وجهه وهشمه ...

أحس عبد الله كأن أعصابه كلها قد مزقت واستلت من جسمه دفعة ، وشعر في رأسه بأشد من لهب النار ، ودار الكون من حوله وتداخلت في عينيه المشاهد ، فزاغ بصره ولم يعد يرى شيئاً ، ثم هوى ولكنه نهض بعد لحظة واحدة . نشيطاً سليماً يكاد يتوثب من الصحة والنشاط ، فأقدم عجالاً ، فلم يعرض له أحد ، فجب ، وأغار على القوم ، فلم يرعه إلا أنه يخترق الجموع ، لا يعنه أحد ، حتى جاز الجيش كله وصار إلى الفضاء والحرية فوقف يفكر ويذكر أمره ... فلم يعرف منه شيئاً ، ولم يجد في أعماق نفسه إلا لغة لا توصف ، وطرباً لا يحد ولا يعرّف . فرجع يوغل في هذا الجيش ، فإذا هو يخترقه كرّة أخرى ، ويتغلغل بين كتائبه وفرسانه ، ثم ينتهي إلى الفضاء ... فينظر حوله ويتمنى أن يعلو هذه الجبال الشاهقة ، ثم يجلس على قنة من قننها البواذخ يفكر في أمره . فلا يكاد

(١) هذه الجملة من التاريخ

ينتهي من أمنية حتى يصير في أعلى الجبل من غير أن يتجشم عناء . أو يقاسي تعباً ، فيزداد حيرة وعجباً ، وينظر حواليه فيحسر له البصر عن عوالم عجيبة تموج بالنور ، وتمور بالمشاهد البارعة التي لم ترها عين بشر ، فيأنس إليها ؛ ثم تنقلب عليه حيرته المحبوبة اللذيذة ، فيحجب عينيه بكفه ويتطلق يفكر ، فإذا كفه تشف عما وراءها كأنما ينظر من خلال زجاج صافٍ شفاف ، فيجفو مكانه ويمر هائماً على وجهه فإذا هو يمضي بسرعة البرق ، يخترق الصخر ، وينفذ من الجبال ، فيزداد دهشة وبالغ في مروره ، ثم يسمع من يدعوه باسمه ، فيقف ويلتفت فإذا هو بابن سفوان ...

فيقبل عليه فرحاً بلقائه .. ولكنه يرتد فجأة ..

— أنت ابن سفوان ؟

— نعم يا سيدي ...

— ولكن ...

— ماذا ؟

— إن بصري ينفذ من خلال جسمك !

— وأنا يا سيدي أرى ما وراءك ؟

— ويحك ، ما هذا ؟ أين نحن ؟

— لست أدري !

— ألا تتذكر شيئاً ؟

فيفكر ابن سفوان ، وينظر حواليه :

— بلى ، أذكر الموقعة ؟

— الموقعة ؟ أي موقعة ؟ ها . لقد ذكرتها ، لقد عادت صورتها إلى نفسي ، ولكن ... أين نحن ، وأين جيش الحجاج ؟

— هو هناك ... أترى هذه النقطة الدقيقة الماثلة في أقصى الحضيض ؟

عبدالله : من المتكلم ؟

ابن سفوان : من هو الذي يتكلم ؟

— أنا ؟

يضطرب عبدالله وابن سفوان ، ويجيلان بصريهما في أرجاء الكون فلا يريان أحداً

عبدالله : من أنت ؟ أقول لك : من أنت ؟

— هأنذا ! (ويظهر لهما)

عبدالله : زيد ؟

— نعم : أنا زيد !

عبد الله : ولكنك قدمتَ منذ زمن طويل !

زيد : نعم ، لقد مت منذ زمن طويل

عبدالله : كيف تكون ميتاً ، وأنت حيّ تنطق ؟

— كما تنطق أنت !

— ولكني لم أمت ...

— نعم يا سيدي ... ولكن تعال معي !

وينحدرون بخفة البرق وسرعته ، كأنما كانوا يطيرون بغير جناح ، فلا تمضي لحظة حتى يشرفوا على مكة ...

زيد : ألا ترى يا عبدالله ؟

عبدالله : ما هذا الذي أرى معلقاً على رمح ؟

زيد : رأسك ؟

عبدالله : رأسي أنا ؟ هل جُنَنت يا زيد ؟ عهدي بك رجلاً لقناً حاذقاً . هذا هو رأسي لا يزال مركباً بين كتفيّ !

زيد : وهذه هي جثتك مصلوبة !

عبدالله : (وقد أخذته حيرة ، فجعل ينظر في

جسده، ويجسّه ...)، لا أشك فى أنك قد جننت يا زيد، إن جثتى صحيحة ...

زيد : إنها جثتك، ألا تسمع ؟

يصيخ عبدالله بسمعه، فيسمع حديث القوم حول جثته المصلوبة، ولكنه لا يصدّق ...

عبدالله : مستحيل، إن جثتى كاملة ألا تراها ؟ تلك بقايا حشرة حقيرة، أأنا ويحك أدخل فى جسم حشرة ؟

زيد : ولكنك عشت فيها أكثر من سبعين سنة !

عبدالله : قلت لك، مستحيل ... لن أرضى أبداً بهذا السجن الضيّق الخانق

زيد : ألا ترى إلى هؤلاء الذين يحفون بالجثة ؟

عبدالله : بلى، أرى حولها كثيراً من هذه الحشرات الوضيعة ...

زيد : هذا هو جيش الحجاج !

عبدالله : أأرواح بشر تدخل هذه الأجساد الحقيرة وتسجن فيها ؟ إنى لأختنق من تصوّرى الحياة فيها لحظة ...

زيد : كما يحس هؤلاء بالاختناق إذا تصوّروا أنهم عاشوا لحظة فى بطون أمهاتهم . لقد نسيت سجنك الثانى، كما نسوا سجنهم الأول !

عبدالله : ولكننى لم أمت، أنا فى غمرة الحياة ...

زيد : إن هذه الحشرات تسمى الحياة الحقيقية موتاً ...

عبدالله : يا للنباوة ! ولكنى لم أمت، بل أنا لم أعرف الحياة إلا اليوم

زيد : ذلك لأنك مت !

عبدالله : أليس فى الموت قيد ؟

زيد : بلى، وكانا مطلقون (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون)، والآن ... هلمّ بنا !

عبد الله — دعنى أرى أبى وأحلها معه

زيد — لا . إنه لم يجىء أهلها فهلم بنا

فينطلق الثلاثة إلى النعيم المقيم فى السماء . كما تنطلق العجوز إلى العذاب الدائم فى الأرض !

حل السلام فى هذه البقعة التى خلقها الله للسلام الدائم . ونزل الحجاج يزيل الأوشار عن الحرم، ويرفع القواعد من البيت، ومرت الأيام سراعاً فورورى ابن الزبير فى لحده، واستغفر الحجاج من جريمة صلبه كما يصلب المجرمون والمفسدون، وكادت الجروح تندمل، وأوشك الناس أن يستعيدوا هناءتهم وسعادتهم، بعد هذه الحرب الحاطمة الضروس، ولكن أشعاء لم تسترح ولم تهنأ، ولم يبق لها من الدنيا إلا قبر عبد الله، تلبث الليالى والنهارات عاكفة عليه تبكى وتدعو وتنادى عبدالله، وكانت تتخيل كأن شخصاً قد ألم بها فتصرخ فيه :

— من أنت أيها الوغد ؟

فينطلع الصمت صيحتها ولا تسمع من مجيب، فتعود إلى تجرع آلامها وأحزانها . وإنها لفى مقامها على القبر فى وسط ليلة ساكنة، وإذا هى بيد تلمسها لمساً رفيقاً، فيذكرها مسها بعالم غامض يفيض باللذة والأنس، ويردها إلى ماض بعيد لا تتبينه ولا تعرفه، عالم عبد الله والزبير . فتحاول أن تمسك

2017-11-15 Darakutub

بهذه اليد لترفعها إلى شفتيها فاذا هي لم تمسك إلا الهواء . فيختلط عليها الأمر وتتمتم بالله وتمد يديها إلى كل جهة تتلمس صاحب هذه اليد فلا تقع يدها على شيء ... ثم تشعر بصوت مستمر يطن في أذنيها ثم يقوى حتى يشبه هزيم الرعود ، ثم يستحيل إلى نجمة هائلة تحسب أن لم تسمع مثلها الأرض وتشعر بزلزال عظيم . فتميد بها الأرض وتهتز بشدة وعنف ، ثم تحس بيد تقبض على خناقها ، وتطير بها مع الرياح الأربع ، لا بل الرياح الأربعين . فتحوم في أرجاء الكون بسرعة البرق الخاطف حتى تصير الدنيا كلها خلاء في نظرها . لأن نظرها لا يستقر على شيء . ثم تلقيها هذه اليد في أعماق هوة سحيقة فلا يبقى عضو من أعضائها إلا أصابه كسر أو حطم ، وتجتمع عليها البرودة القاتلة والصمت المرعب والظلمة المتكاثفة ، فلا تعي من بعد شيئاً

ولكنها تستفيق على صوت محبب إلى نفسها يذكرها جرسه ورنينه بعوالم تعرفها وتحبها . فاذا هي في دنيا عبد الله قريبة منه ، بل هي تسمع صوته يدعوها . يدعو أمه بأحب الأسماء إليها . فتمد يديها تمسح دمعة الفرح ، فاذا هي مفتحة العينين تبصر عالماً من النور كل ما فيه جميل ساحر ، وإذا هي ترى (عبد الله) وقد عاد شاباً يفيض وجهه بشراً فتمد ذراعيها تعانقه ، تعانقه حقيقة ...

— أهذا أنت يا عبد الله ؟ ... كلا كلا . إن عبد الله قد مات . فمن أنت وبلك ؟

— أنا عبد الله ! سرعان ما نسيتني يا أماه . أما تذكرين ليلة دفعتني إلى الموت ؟

— بلى ، بلى ، ولكن ... رباه . ما ذا أرى

— لقد حسبوني مت . ولكني ذهبت لأحيا الحياة الحقيقية مع أبي بكر والزبير . تعالى يا أماه ، تعالى !

— هأنذي قد جئت ... عبد الله ! أدركني إني أحس كأني أطير . بل أنا أطير حقاً لقد عدت شابة ... ماذا أرى ؟ عبد الله ... عبـ ...

— سهلاً يا أماه . سنلتقي لقاء لا افتراق بعده

— أقلت أ ... أ ...

ولما مر الناس في الصباح على قبر أمير المؤمنين وجدوا أمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق ميتة على القبر !

علي الطنطاوي

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الزوجة الموروثة

للكاتب الروسي اسطفان لورانف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

نعم ! هو نفسه ذلك المغني العظيم الذي ذاعت شهرته في أنحاء العالم، وطبق صيت عبقريته الخافقين ، فلا كاروزو ، ولا شاليابين نالا شأوه . لقد كان صديق صباي ورفيق شبابي ، وأليف فتوتي وبنوتي .. لا أذكر بالدقة اسم القرية التي كانت مسقط رأسه ، ولكنني متأكد من اسم المقاطعة التي ولد فيها وهي بادولي، واسمها كيف . هل كان يهودياً لا أدري .. لا أظن ذلك ... ربما ! غير أنني أعلم أنه نشأ فقيراً وقاسى من آلام الحاجة ما أورثه مرارة القلب وشدة الحقد على المجتمع . وأذكر أننا كنا ذات يوم في معبد من المعابد فألفينا المصلين قائمين يضرعون لتمثال معبودهم يلتمسون منه قضاء الحاجات ، وكان من بينهم مرضى وذوو عاهات وبائسون تملقت آمالهم بربهم تملقاً اتصلت بسمائهم ، فتأثرت نفسه ، وجال في خاطره أنه لو استطاع أن يرشد هذا الجمع إلى كذب ما يعتقد ، وإلى أن معبوده لا يسمع ولا يبي ، لما فعل ، حرصاً على هذا الأمل ، أن يزول .. وهذه الفكرة ، لا تجول إلا بخاطر وثني أو يهودي .. لأن هذين التعبدين — الوثني واليهودي — يتمسكان بمعتقداتهما وتقديس معبوداتهما .

أما الوثنية فلا أظنها كانت عقيدة .. لا أدري كيف أغلب الفكرة على الأخرى ... لقد كان راسكي ذلك المغني العظيم مجنوناً في شبابه . ولعل أشد أنواع الجنون ، جنون الشباب ، إذ كان يتندى من حرارته ، ويستمد غلواءه من غلوائه ، ويأخذ ضرامه من منطرم عواطفه ، ولا عجب شباباً خلواً من رائحة الجنون ، إذ كان الشباب شعبة منه . لقد بدأ جنونه بعد أن قرأ قصة الآباء والأبناء لتورجنيف . نعم ماذا تقول أهو ذلك الرجل الذي أثر في ذهن راسكي أكبر الأثر . لأن تورجنيف كان عاقلا وكلامه معقولا . فإن طلاب الجامعات والمدارس الفنية العليا قدمت

تعريف بالقصة

استفان يورانف من كتاب الغد الأول من القرن العشرين وهو حفيد زورادياك جي للمصور الروسي الشهير الذي عاش أمداً في مقاطعة جنيف (شاتو دو يزه فير) وقد علقت صورته الشهيرة «الجولوجاه» في متحف جنيف للتصاوير الحديثة ثم منعت مشاهدتها على الجمهور وهي تمثل الصلب وقت الغروب في ساحة التنفيذ الشهيرة في الانجيل

أما الحفيد استفان فقد حقق الغايات ولا سيما الألمانية والفرنسية وقضى شطراً من شبابه في جبال فيفي وليفردون وقرية تونون وتعلم ضروباً من الموسيقى وفنوناً من الأدب ونشر أولى قصصه « هل كانت أمي مجنونة » في مجلة « داشتوت كرونيكلاي » ثم كتب قطعاً مسرحية منها « قطار الحياة السريع » والرقصة الغجرية » وأحب في العشرين من عمره إزيدورا دنكان الراقصة الأمريكية الشهيرة تلك في حبها وتهتك وصحبها أمداً وتهيجرت بناييع مواهبه فأنتج إنتاجاً غزيراً ، ولكن أدبه أمسى مطبوعاً بطابع الحزن والخيال ، ومصبوغاً بصبغة الألم الدفين ومن أظهر قصصه «الزوجة الموروثة » وفيها من التهكم والحق للكيوت على الفدر والأنانية واختلاط النبوغ بالقوة أحياناً وامتزاج الحب بالاعظام وجريان دم الفضل والفسق في شريان واحد مما يشهد لهذا الكاتب الفذ بالتفوق . هذا ولا يزال هذا الأديب على قيد الحياة في ديفون ، وهي قرية فرنسية ملاصقة لحدود سويسرا

2017-11-15 Dar Al Hilal

للعالم مناظر جديدة مدهشة . فإن فتياناً نشأ وفتيات شواب ، بدأوا يسخرون من الاعتقادات العامة والتقاليد المصطلحة والعادات المحترمة في الحياة الاجتماعية ، وشرعوا يتباحثون في تهذيب المجتمع وتأسيسه على قواعد علمية ، وكان من ذلك أنهم قلبوا النظام القديم حتى في أتفه الأمور وسفسافها . فأما الذكران منهم فأعفوا شعورهم ، وأما الأناث فقصصن فروعهن . فكانت ظواهرهم وأزياؤهم وأحاديثهم عرضة لسخرية الناس وهزئهم ، ولكنهم كانوا يهزأون بذلك ولا يكترثون ، إذ كانوا قد رضوا أنفسهم عن مستوى ما يسمونه بالرأي العام ، واحتقروا الرسوم والطقوس ، وكانوا لا يعترفون إلا بمذهب العمل الصالح لصالح الجماعة ... وصرحوا .. أي وحق الشباب والجنون ـ صرحوا بأن الاسكاف المتفوق في صنعته للفتن في حرفته خير من بوشكين أو شكسبير وأعظم قدراً ، لأن الإنسانية أحوج إلى الأحذية منها إلى الشعر ولها أطلب ...

— لا ! لا . ملحداً ... كان راسكي ملحداً ؟ من يدري ؟ ولكن الذي أعلم عن ثقة ويقين هو أنه كان يكره الفقر ، بعد أن رأى الفقراء يثورون على جور الأغنياء ، والضعفاء يرضون بظلم الأقوياء . وقد سمعته مرة يقول في حالة أشبه بالعبادة : «ليسعفني الأغنياء على هذه الأرض ، وليرهقني الأقوياء ، فاني لواقف يوم القيامة على باب الجنة ، أحول بينهم وبين عرائسها ومقاصيرها ، شاكياً إلى الله سوء ما لقيت ، راغباً إليه النظلامات التي عانيت » .. هل هذه صلاة ملحد ... ؟ هل يذكر الملحد يوم القيامة وباب الجنة والإله ... ؟ ولكن راسكي هذا نفسه قال لي ذات ليلة ، وكنا ندور حول كنيسة نوتردام دي باري ، على مقربة من معرض جثث القتلى والغرق والمنتحرين : « ألا إن في الاجتراء على السماء والتسخط من مظالمها لترويحاً عظيماً للقلب المغم بالهم ، المترع باليأس . يحلو لي يا دوشنكا ! أن أخصص كل يوم بضع دقائق للسماء أتمرد فيها وأثور ، فأسترجع الذي ! » . هل أحب ؟ نعم أحب في لوزان امرأة اسمها زينا ، أعني زينا بيد كانت طالبة في الجامعة ، ولكنها من ذلك النوع الذي نشأ في أوائل الجيل ، الطالبات المتزوجات من طلاب زواجاً حراً . وكانت زينا رخيمة الصوت جداً ، وزوجها يتقن التوقيع على الكمان ، والنفخ في الناي ... وكم يوم مشرق بهيج قضاه راسكي في دار زينا وزوجها ! ؟ وكم من لقاء حلو وحديث لذيذ ! ؟ حتى أصبح راسكي أعز عزيز في البيت ، وأحب زائر ، وأخلب جليس ؛ وكانت زينا تميل إليه وتحب قربه وتصبو إلى سمره ، حتى لقد كانت توصيه بشراء الفطائر والحلوى لتأكلها في غيبة زوجها كالأطفال . أنا أقول لك دار ... وبيت ... تساعاً ... أو مبالغة ... لم يكن لهؤلاء الطلاب والمهاجرين الثائرين دور ولا بيوت . إنما كانت غرفاً معدودة مؤثثة بأبسط الأثاث وأفقره . زينها جمال المرأة ووفرة الكتب وجنون الشباب الذي كان ينتفر كل شيء ولا يلقي إلى المستقبل نظرة . كانت الدار مكونة من غرفتين مطلتين على البحيرة ، وعلى محطة السكة الحديد ، بجمال في النهار والليل ، وحركة دائمة يقابلها سكون مدهش وجلال متجل في طبيعة الجبال والأمواه وأضواء الأشعة الثلاثة ووجه زينا الشرق ، وصوتها العذب الجنون . فلم يلبث أن أصبح الشاب راسكي من المتحمسين للموسيقى ...

ولم يكن هو يدرس شيئاً معيناً في جامعة لوزان سوى التوقيع على الماندولين والغناء أحياناً مصاحباً لزينا في اغريدها قطعاً من موسيقى فاجنر . نحن الروس شعب عجيب غريب الأطوار . لأن الذي تبرع ببناء الجامعة في لوزان أحد عجائبنا الأغنياء لينال شهرة خاصة على حساب العلم والوطن ، قد تهافتنا عليها ، حتى حسبناها ميراثاً لنا عن آبائنا ، وحتى سنت حكومة مقاطعة (فو) قانوناً يحرم التحاقنا بالجامعة ..

كانت الحوادث التي أرويها لك قبل هذا التحريم ولكن راكوفسكي زوج زينا شعر بتعقب البوليس السري له ، لأنه كان من المشبوهين المتهمين في مؤامرة تشاركوى سيلو التي قتل فيها دي ويت بطل تاميلوف ، ففر بليل إلى فرسواه على مسافة ميلين أو ثلاثة من جنيف . وهو حين فر لم ينبئ صاحبه الأعمى بفراره ، فلا تسل عن حزن راماسكي وابتئاسه ، فقد حرم سلواه الوحيدة ، ولقاء زينا وسمر هاوحديثها الرطب الجميل .. وكان هذا الرحيل تمهيداً للجفاء بين راكوفسكي وراماسكي ومدعاة للقطيعة والعداء .. على أن راكوفسكي كان رفيقاً بصاحبه ، حدباً عليه مكرماً له ، وكان يهتم بشأنه ويعنى بحاله ، وقد نصح له قائلاً : «تزوج وسافر» ولكن هذه النصيحة كانت فكرة أفلاطونية محضاً . لقد كان الزواج بغير حب مستحيلاً . ولم تكن امرأة تملأ قلب راماسكي سوى زينا .. ولهذا فإنه بعد ذلك الفراق المبتئس مرض مرضاً شديداً ، فانتقل إلى جنيف وسكن في غرفة حقيرة في شارع كاروج — ذلك الشارع الذي اتخذه المهاجرون الروس مستقراً لهم ، وكانت تلك الغرفة فوق «مقلى حشب» مطلة على جدار قائم مشوه بالاعلانات السخيفة ، وكان راماسكي يعيش أحشن العيش ويحيا حياة البؤس ؛ وكنت أنا نفسي أقطن غرفة لا تفضل غرفته في شيء «وابور النور» وكنا نجهز طعامنا الثقيل بأيدينا «على موقد الكحول» .

وكان راماسكي معرضاً للصداع ، فإذا انتابه يأتي بنفسه بعد العشاء ملتمساً على التكأ غير مستصبح بمصباح ، وكان بعض جيرانه يتشاورون في أمره قائلين : «إنه لفقير ! لا يستطيع أن يشعل ولو شمعة واحدة» أي والله ! حتى جاءوه يوماً بمصباح ، فكان بشكرهم ويشرح لهم أوجاعه وعذابه ، ولكنهم كانوا لا يقولون عنه إلا «جارنا القديس !» ولم يعلموا بأن في نفسه من الأحقاد والمرطقة ما يكفي لتكفير جميع القديسين وزندقتهم !

وفي تلك الآونة تلقى دروس الموسيقى في معهد فيلهارموني بجوار معبد اليهود ، ذلك السيناجوج العتيق الذميم الذي يحمل في أعلاه خاتم سليمان ، كما يحمل المذنب القديم علامة سوابقه . وكان الأستاذ كريستانوف يلقي دروسه متطوعاً متبرعاً ، فلما رأى راماسكي وسمع صوته أيقن أنه عثر بكنز ثمين ، فانقطع لتعليمه وتدريبه ، وسعى حثيثاً حتى ربطت له إدارة المعهد مرتباً ضئيلاً يكفيه بالكد طعاماً وكساء .. ولكن أستاذه لم يلبث أن عرّفه إلى أعيان المدينة وهواة الفنون من الطبقة الغنية فكان راماسكي يمزح في خيرهم ويحقد عليهم ، ويلعن النظام الذي قضى عليه بالحاجة إليهم ، وكنت أخفف عنه وطأة الغم والهم زاعماً أن هؤلاء الأغنياء بحاجة إلى جمال صوته . وقد تعرف بآنسة بولونية تدعى منسكا ، وكانت سيدة حلوة المحضر ، جذابة الحديث ، لها في الأدب قسط ومن الفن نصيب ، ولقد فرح بها راماسكي فرحاً عظيماً فاقترحت عليه وهو في وحدته تدعوه للاقامة معها في بيتها في

2017-11-14 Facebook

بولفاردى ماى، فأذعن.. وكانت ترأمه، كما ترأم الأم وليدها، وتعطف عليه وتهتم له، وتريد أن تجد له زوجة تكون رداً على روحه الحزينة الوحيدة وسلاماً، بل إن رامسكى كتب يقول لها: «لا أكذبك حاجتى، أنا لا أريد إلا امرأة!».. من كان يظن؟ هل سلا رامسكى فاتنته زينا وهى على قيد ميلين منه؟ أم أن الفقر واليأس قطما نياط قلبه ومحوا ذكريات الحب والسفة من صفحة ذهنه المشتعلة بنار الألم؟

بيد أن الآنسة منسكا وجدت من توسمت فيها الخير لهذا الفتى الغريب الأطوار، وهى الآنسة جوزال دريبيه والمولودة من أم روسية لوالد سويسرى، وكانت حسناء فاتنة لم تجز العشرين؛ فأوقع بصر رامسكى عليها، حتى توهم كل من رآه أنها نزلت فى حبة فؤاده وأنه راح فى جمالها صباً مدلهاً. ومضى شهر فسألها الزواج، ولكنها قابلت ذلك بالرفض، فظل مع ذلك فى قربها شهرين آخرين. ولكن لم يلبثا أن تقاطعا وتهاجرا بتتة، ولا يعرف أحد حتى الناس ماذا يجرى وراء الستار، لأن جوزال نفسها والآنسة منسكا سكتتا عن ذلك، ولم تشرحا لأحد أسرار هذه المأساة المنزية بالحزن والسخرية. ولم يخسر رامسكى هذه الرفيقة الحسناء التى أراد أن يظفر منها بالزوج المخلصة العطوف، بل خسر من أجلها صداقة أستاذه كريستانوف لأنه اتهمه بالخيانة وارتاب فى سلوكه مع جوزال

وفى يوم من الأيام اختفى رامسكى فجأة من مقره، وعلمنا بتتة أنه قتل كرافسكى صديقه القديم وزوج زينا الجميلة. وكنت قد تخرجت محامياً، وأتيحت لى ممارسة تلك المهنة الشاقة فى مقاطعة جنيف، ولكن قاضى التحقيق لم يكتف بتبرعى للدفاع عن صاحبى وأمر بانضمامى إلى بام ودمستر وهما محاميان يهوديان لم يشتهرا بشىء سوى القضايا التجارية ودعاوى الإفلاس؛ وهذا الذى جعلنى أعتقد أن رامسكى يهودى، وأن اليهود فى جنيف هم الذين اكتتبوا فيما بينهم بأتعاب هذين المدرعين الذين لم يحذقا الدفاع فى قضايا القتل — غير أننى كنت مدفوعاً بصداقتى وحبى وإعجابى، وذكريات الشباب والألم — أكثر من الدوافع الفنية، فلم تكن معلوماتى القانونية لتزيد عن معلومات الطالب الحديث العهد بالتخرج من الكلية بتقصى التدريب وتقصى الحنكة، ومهارة الاختبار فى الحياة... فقدمت لقاضى التحقيق عريضة تقتضى استيفاء بعض نقاط التحقيق، وقد استهلتها قائلاً: «إن حادثة القتل التى وقعت فى جنيف، نمرة ١٩ شارع فيوجيرانديه، ليست من السهولة كما يبدو للنظر السطحى المتسرع، ليست من تلك الجرائم العادية التى تقود إلى السلاسل والأغلال، وتسوق الجانى إلى الاشتمال بألبسة المجرم، وسترة القاتل، بل إن فى مصرع رالوفسكى المنسوب إلى صديقه رامسكى لمنصراً رهيباً أرهب وأغرب مما يظن الباحث السطحى أو المراقب المستهتر» وكأنى بهذه المقدمة لعريضتى قد فتحت أفقاً جديداً لقاضى التحقيق موسيو بوا تليفان، ذلك الفاحص المدقق الرعب، الذى لم يطبق قواعد الرحمة يوماً على أحد ممن أوقعهم سوء الطالع فى مخالبه. وكانت تلك العريضة مقدمة لاعتراف رامسكى الذى قال للقاضى:

«إن الرجل الذى قتلته أى دينجرى رالوفسكى، كان رفيقى فى المدرسة وقرينى فى الجندية، وابن

2017-11-11 Facebook

قريبتي ، وإن كانت وجهة درسي غير وجهته ، فهو رياضي وأنا موسيقار . ومحال أن يقال عني أني كنت أبغضه ، لأنه كان في نظري بطلاً ، وكيف لا يكون بطلاً وهو المتهم في مؤامرة تشارلز كوي سيلو التي قضت على حياة دي ويت أحد أبطال تاميلهوف ؟ لقد قيل لي من أقرب الناس إليه أنه متقلب في آرائه وعواطفه ومشاعره ، وإنه شديد التطرف في أفكاره المتحولة المتغيرة ، فكانت زوجته وأسدقاؤه يعتبرونه تارة طفلا وتارة امرأة ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحبونه وينغرون له هناته وهفواته

وكان راكوفسكي يوم مقتله في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان متزوجاً من هذه السيدة زينايدا التي ادعوها توردا — زينا — وإذ كنت رأيتها يا حضرة القاضي وهي أرمل محزونة فما أنت بقادر على أن تعلم كيف كانت قبل القتل . إنها فقدت كثيراً . هذه وجنتها قد ذبلت ، وهذا خدها الأسيل قد أظلم ، وبشرتها الناعمة قد ظهر فيها التخدد والتغضون ، وعينها لا تشرق ولا تبرق كما كانت بالأمس ، ولم تعد تضحك ، وكانت أبداً مومضة ضاحكة . وقد رأيتها عرضاً في « ساحة الخطى المفقودة (١) » فكدت أسوق للتيتر الذي طرأ عليها . إنها لم تستطع أن ترمقني إلا بلحظة ساخطة متوحشة . واها للسكينة !

لقد غضبت زينا يوماً على زوجها البطل ، بطل مؤامرة تسار كوي سيلو ، وفرت من بيته والتجأت إلى غرفتي الحقيرة بشارع كارويج ، وكنت أعلم أن زواجهما ارتباط عرفي لا عقد شرعي ، وأنا نفسي من دعاة هذا الارتباط العرفي ، فاحترمت أنوثتها ووحدتها ، وتركت لها فراشي ونمت على مقعد عتيق في دورة المياه . فلما رأت عفتي واحترامي لها أكبرتني ، فسألتها عن نيتها في العودة إلى دار صاحبها فأقسمت بأنها لن تعود إليه ، فتهيأت هذه الفرصة فسألتها يدها على نفس طريقة عشرتها لراكوفسكي ، فأعرضت عني وجعلت حرارة الرفض تصيبني ... ثم ضحكت ضحكا طويلاً عالياً وأنا الرجل القوي العنيد الذي لم يسكب عبرة واحدة ، ولا ذرفت يوماً دمعة منحدرة ، ولم أعرف الرعب ولا الخوف ، وقفت أمامها مرتجفاً مرتعداً ... ولكنها عادت بعد ضحكتها فاعتذرت قائلة — أتوسل إليك أن تصفح — فابتسمت أنا ، ولو استطعت الآن أن أصفح عن ضحكها ، فما أنا بمستطيع أن أصفح لنفسي عن تلك الابتسامة . إنك يا سيدي القاضي لم تجد أي باعث على ارتكاب الجريمة فهل تجد اليوم باعثاً ؟ هل تزعم أنه الغيرة ؟ إن الغيرة من شأن الطبيعة الحادة ، والمزاج المستعر الناري ، وليست من شأن رجل هادئ المزاج رصين العقل ، بارد العاطفة كشأني . إذن فهل يكون الباعث هو الانتقام ؟ هذا أقرب إلى الحق وإن كانت إلا كلمة قديمة لإحساس جديد وشعور غريب مجهول . لا بد لي إن أقول أن زينا خيبت أملي وفضحتني أمام نفسي مرة أخرى ، كنت أعتقد أنها بعودتها إلى بيت ديمتري راكوفسكي — بطل مؤامرة تسار كوي سيلو — لن تجد العناء ساعة واحدة ، وأنها ستندم على رفضها مطلبي . ولهذا السبب اجتهدت في تسجيل صلحها . ولا تنفس أني لم أحاول السطو على سعادة أسرة ، فإنها لم تكن قد رزقت منه بنسل . ولكن ديمتري قد راح بها سباءً ، فأي فرق بين سب وسب ما دام الأمر خالياً

(١) ساحة الخطى المفقودة Pas Perdus اثناء المحكمة لأن الناس يروحون ويجيئون في انتظار مجالس القضاء لعل هذا أصل التسمية والله أعلم

من الندية والعقد الشرعي في الحالتين ؟ ألا ترانى أكثر جمالاً وشباباً وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ؟ غاية ما فى الأمر ، لعلها لم تجدنى مطواعاً أو خروفاً كالآخر . فهى لم ترفضنى لأنها تبغضنى ، بل لأنها لا تستطيع أن تركبني بغير سرج ولا لجام كما ركبت الآخر . فلما كنت فى جنيف فى المرة الأخيرة وكنت زائراً بريئاً لا أفكر فى شيء من الماضى ، وذلك قبل مقتله بشهر جهى قائلا : « إنى مدين لك بهذه السعادة ! ثم التفت إلى زوجته وسألها : أليس كذلك يازوجتى العزيزة ؟ وما أكثر اتجاه المتحابين من شرائط الزواج الشرعى إلى هذا الوصف ، كأنهم يطمئنون به إلى تسوية مركزهم أمام أنفسهم . ما أعظم أثر التقاليد فى العقل البشرى حتى لدى الذين تحرروا منها أو زعموا ذلك ... فنظرت إليه ثم تمتمت (نعم !) وضحكت عيناها فضحكت ، وضحكنا جميعاً وديمتري يضمها إلى صدره ، وكانا لا يستحيان من شيء أمامى . ثم قال ديمتري نعم ! إنك يا صديقى قد خسرت الصيد الذى كنت تبغى بعد أن أحكمت فخك !

هذه النكتة الباردة المؤلمة الثقيلة قصرت من حياته أسبوعاً كاملا . كنت أري وجهها المبتسم وعيناها الباهر المشرق الناعم فكنت أقول لنفسى : أنا سبب كل هذا ! أردت أن أرسفها فى أغلال زوج مغفل بعد أن أفلتت من قيوده ، لكى ترى بنفسها مبلغ خسارتها يوم رفضتنى فاذا بى أراني قد أعدتها إلى الرجل الذى أحبت . لقد بدا لى موقفى غريباً ، كانت زينا تحب حديثى ومنازلتى فاذا انتهينا من الحديث والنزل تركتني فى رفق مبتهجة إلى ذراعى ذلك الوغد ديمتري يطل مؤامرة تسارکوى شيلو ! فأردت أن أنزل بزينا العذاب والألم ففكرت فى قتل زوجها ، وقد ألفت هذه الفكرة حتى لكأنها ولدت معى . ولكنى أردت أن تعلم زينا أننى أنا الذى قتلت زوجها وأريد أيضاً أن أتجنب عقوبة القانون ، وإن كان عقابى لن يفنى زينا عن نكبتها شيئاً . وقد زرتهما المرة الأخيرة وكان ذلك قبل العشاء ، ومضينا نخوض فى حديث عادى وكنت أتكلم بدقة وإيجاز ، وجعلت عينى تستقر على عقرب الساعة وقد عزمت على أنى إذ تدق السادسة يجب أن أكون قاتلاً . حتى إذا بقى على الميعاد سبع دقائق نهض ديمتري عن المتكأ متثاقلا متبلداً وغادر الحجرة وهو يقول : سأعود بعد هنيهة . وهنا أخذت زينا ترتعش وتتأبل حتى أوشكت أن تقع كأنما سمعتها تلك القوة المتوحشة المفترسة المرعبة التى كانت تطل من عينى ؛ ثم وثبت إلى جانب زوجها وكانت فى تلك الآونة قد رجع وتمتمت (ديمتري ديمتري ... إنه ...) فقال : ماذا تريدين ؟ فقلت فى صوت خشن مخيف إنها تعتقد أننى أريد أن أقتلك بهذا التمثال النحاسى . ورحت أرفع فى سكوت وخفة وصمت ، التمثال وتقدمت رويداً نحو ديمتري فشخص فيَّ ببصره مصفراً مذهولاً مبهوتاً وهو يكرر هذه الكلمات : « هى تعتقد » ورفعت ذراعى فى رفق وأنا أشير بالتمثال وألوح ، وبدأ ديمتري فى مثل رفق يرفع ذراعه وعيناه لم تغادرا وجهى فصحت به فى غلظة أن قف ! وعند ذاك تراخت ذراعاه وبقيت عيناه مستقرتين علىّ ، وبدت على شفتيه ابتسامة ضعيفة ذابلة وصرخت زينا صراخاً مرعباً مزعجاً ، ولكن الوقت قد أزف فأهويت على رأس صاحبى أضربه فوق جبهته وقد أبى الطبيب أن جمجمة القتيل مفتتة مبددة ، مع أننى ضربت ديمتري ثلاث ضربات ليس غير واحدة

إذ كان واقفاً ، واثنتين وهو مطروح على أرض الغرفة . لقد كانت الضربات الثلاث شديدة قاسية ولكنها ثلاث لا تزيد » مكسيم رامسكى

لقد كان حلماً مروعاً ، انتقل فى طرفة عين من عالم الخيال ، إلى الحقيقة ، وتنظر القضاة بعين الملم إلى رامسكى ، وخشوا أن يوقعوا به العقاب الذى يستحقه القتلة ، لئلا يكون معدوم المسؤولية فيقعوا فى جهالة تفسد شهرة العدل . لقد وجد ديمرى راكوفسكى مقتولاً حقاً ، ولكن زينا زوجته وهى شاهدة الرؤية الوحيدة قالت إنه سقط من أعلى الدرج فجرح رأسه بحديد الدرابزين ثم اصطدم فى حجر السلم ، ولم يكن رامسكى حاضراً ، ولكنه عند ما علم بمصرع صاحبه توهم أنه قاتله ، وهيأ له الخيال رسم هذه الصورة . وهذا الاعتراف الطويل البليغ ليس إلا وليد تلك المعقولية السليلة . وقد نعتها وهو متوهم أنه يدخل السرور على نفس القاضى براتشان ، الذى بدأ باستجواب الشهود بعد اعتراف المتهم فكذبوه جميعاً وفى مقدمتهم الأرمل المحزونة زينا . وقال الدكتور درداى : « إن فرحه بخلاص المرأة التى كان يحبها من ربقة الزواج السابق ، وتأكده أنها سوف تكون له بلا منازع ، أذهب عقله بنشة . هذا نوع من الجنون المؤقت العارض ونزول حتماً إن الطمأنين المريض إلى نتيجة الحادث الذى أفقده صوابه » ولا يكون الاطمئنان المذكور إلا بزواجه زينا ولو زواجاً من ذلك النوع الذى يتم فيه التفاهم بالاتفاق العرفى ، ما دامت هى لم تكن تعرف سواه . ولكن من ذا الذى يشفع عند أرمل محزونة لم يمض على فقد بعلها بحادث مروع سوى بضعة أيام بحجة الحب الذى ملك على العرس لبه وأفقده صوابه حتى تخيل أنه قاتل الزوج الهالك

لقد كان كريستانوف الموسيقار النابغ أول أساتيذ رامسكى ، لا يزال مقيماً فى جنيف . ولكنه تحول عن بيته الأول بجوار معهد الموسيقى ، إلى بيت جديد فى خط سان جورج ، فقصدت إليه وشرحت له كل ما وقع لصاحبى ، فأوزل فى قصاصات من جورنال دى جنيف و « تريبون » وغيرهما فيها بعض أخبار تلميذه القديم وقال لى : « لو أسلم هذا الأحمق حنجرته وأذنيه إلىّ ، لكان الآن من كواكب اسكالاف ميلانو وأوبراهاوس فى نيويورك ، ولكن ذكورته كانت أقوى من ميوله إلى الشهرة ، وعلى كل حال فإن الذكورة اليقظة دليل على المواهب وأرى نظرى فيه لم يخب ... ولكن يا سيدى لم أعلم بعد سبب تشرفى بزيارتك »

قلت : أن تمنع مدام راكوفسكى بالزواج من صديقنا الذى يكاد يجن حباً بها

قال : آه زينا ؟ ولكن ألا تعلم أن هذا المجنون رامسكى كان انهمى بمنازلة خطيبته الأولى التى كانت عرفته إليها الآنسة منسكا البولونية ... وكانت تدعى الآنسة جوزال ديرميه

— إنه غيور فظيع . وحسناً فعل القدر بالتفريق بينهما ، فقد كانت البنت تتقن الغناء من طبقة سوبرانو ، ولو وقعت لى لجلستها تتغنى سالوميه وتوسكاولوسى دي لامرمور ... والجمع بين نوابغ الموسيقى من رابع المستحيلات

وكان الأستاذ كريستانوف قد لبس معطفه وتناول قبعته وعصاه ، واستقللنا سيارته الفخمة التى أهداها إليه راجا كوترالا بعد أن علّم بحظيته (ممتاز بيجوم) أسرار الغناء الإفرنجى . وبعد دقائق معدودة كنا فى المصحة التى أعدت إحدى غرفها فى شيان دى لاروزيره فى حى شامبل لتمريض العاشق

2017-11-15 Egyptian Knowledge Bank

الفنون ... وما أن وقعت عين كريستانوف على رامسكى حتى صرخ قائلاً : « لا ! لا لا لا ! رارا دى دى صو ! سالو مون دير نيه مان » فرفع المحموم بالحب والثناء عقيرته بتلك الأنشودة الخالدة المنتزعة من إحدى أوبرات فاجنر يردّد ألفاظها وألحانها وأنغامها كأنه مجموعة من البلابل تغرد فى دوحة فى أحلى أوقات الربيع

وكانت زينا لا تزال تقطن البيت الذى قضى فيه زوجها نحبه ، قرارها الأستاذ وعزاها واستدرجها حتى روت له خبر رامسكى وكيف أنه يتهم نفسه باطلاً بقتل زوجها ، لأنه كان يحبها ويطمع فى الاقتران بها ، فلما أخفق فى أمله اختل ميزان عقله ؛ فأشفق كريستانوف على هذا المنكوب المضنى ، ولما تمض ساعة على افتراقها ، وسأل زينا عن سبب إعراضها عنه فقالت : لقد كنت سعيدة السعادة كلها . وأما ديمترى (أى المرحوم بعلها) فلم يكن حبه لى فى أعشار قلبه ، لأنه كان يعجز عن أى حب عميق (فتنفس كريستانوف تفاؤلاً لأن بداية ذكر مساوئ الزوج المتوفى تدل على نهاية طيبة لصالح العاشق الذى على قيد الحياة) وكان القدر ملهماته يؤثره على مناعم البيت ومباهج الزواج ، ولكننى لم أكن أحب سواه ، لأنه كان أبداً متوعك الصحة ينتابه الصداع وينهكه الأرق . وكنت أرى فى تمريضه والعناية برعايته أعظم السعادة وأكبر النعمة وهذا الضعف ناشئ من حاجتى للأمومة

فقال كريستانوف : أى نعم ! المرأة يوم تحب تفقد شخصيتها والحمد لله ، لقد عوضك بازينا مريضاً بمريض وعليلاً بعليل ! لعلك لم تعطفى على رامسكى لأنه كان قوياً صحيح البدن معافى ... فلا تجدينه فى أقل حاجة إلى عنايتك . أما الآن فهو فى حال من تأصل الداء وتغلغل العلة تدعو إلى بروز رحمتك من خدر الكمد والحزن على زوجك الراحل لتتجلى فى حلل الجمال والجلال بالإحسان إلى هذا الطبيل الملهوف » فاغرورقت عين زينا بالدموع وسألت :

— أين هو الآن ؟ فأشار إليها كريستانوف بالاستعداد لاتباعه . فلما بلغنا المصحة حيث كان الدكتور إدوار كلابارديه يدرس حالته النفسية ليعنى بصحته على أساس علمى ووقع نظرنا عليه وجدناه شاحب اللون نحيفاً مرعباً ، وكان جبينه غارقاً فى لجة من العرق البارد . فلما أخذ بصره محبوبته المرجوّة ضحك وفتح ذراعيه وقال لها : تعالى تقبليني. فضحكت زينا نحكة بلهاء وظلت جامدة فى مكانها ، فقال رامسكى : تعالى ! فارتجفت ، ثم احمر وجهها وبدت فى عينيها أمارات العطف وأقبلت نحوه ، فاتكأت على الخوان فى مظهر الذليل الخاضع المتوسل ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تبكى بكاء الفرح

فنظر كريستانوف إلينا وقال : لم يعد لنا مكان هنا ، فقد اتصل العاشقان ، ولم يعد للشاب مكان فى هذه المصحة فقد شفى بوفاة زوج المرأة التى كان يحبها ...

وبعد ربع ساعة خرجت من نمرة ٢٤ شيان دى لاروزريه يحى شاميل سيارتان تسيران ببطء ؛ الأولى تقل رامسكى وخطيبته التى لم يمض على ترملها عشرة أيام ، وفى الثانية الأستاذ كريستانوف الموسيقار أستاذ رامسكى وطبيبه الذى تعهد بإعداده لغناء فاوست ولوهنجرين بعد ستة أشهر ، وقد برّ بوعده .

هكذا الحياة ... وهكذا الحياة ...

محمد لطفى جمعة

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس

السفير وحامي بابا يسافران

أخذنا غير الخطابين المتقدمين خطابات أخرى من وزرائنا إلى وزراء الفرنجستان . ولم يبق علينا قبل السفر إلا أن نستأذن الشاه فاستشرنا المنجمين في الساعة المباركة التي يكون فيها سفرنا ، فاختاروا اليوم الذي مات في مثله عمر بن الخطاب لأننا نحن الشيعيين نتبرك بهذا اليوم .

وقبل ذلك الموعد بيوم استأذنا الشاه . ودعا الشاه السفير الإنكليزي وكان جلالته جالساً على عرش مرصع بالجواهر، وكذلك كان البساط والوسادة التي يتكيء عليها ، وكان رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الخارجية واقفين على سلم العرش عندما دخل « ميرزا فيروز » ودخلت من ورائه . فاستدعى الشاه أولنا وتركت واقفاً بالباب

وقد رأى « فيروز خان » أن واجب اللياقة في هذا اليوم يقضي بأن يتصنع هيئة الحزين . وجثا أمام العرش بحالة تدل على أنه مجرم يطلب العفو أكثر من دلالتها على أنه سفير عين ليمثل الشاه

قال الشاه : « لماذا يبدو عليك الحزن ؟ هل تريد التخلص من المهمة التي عهدنا بها إليك ؟ » فتصبّبت الدموع من عيني السفير وقال : « كلا . كلا ، ولكني آسف يا جلالة الشاه على فراقكم »

سر الشاه من هذا الجواب وقال : « أحق هذا ؟ إنه ليرضيني منك أن تذهب إلى حيث وجهتك فتبيض وجهي في بلاد الفرنجة »

قال السفير : « إن شاء الله ! » وردد الوزراء الثلاثة هذا الدعاء » ثم ابتسم الشاه وقال : « إنك ستتعرض في أثناء السفر لأخطار البحر وستتعرض في أثناء الإقامة لمعاشرة غير أبناء دينك . ولكنك سترى العجائب والغرائب من العادات والأخلاق . وسترى كل ما يخطر ببالك وأنت مقيم في فارس »

فقال ميرزا فيروز : « أطال الله عمر مولانا الشاه ولا قصر ظله . إنني أقل من التراب . وكل ما أتمنى أن يبيض وجهي في تلك البلاد لترضوا جلالتكم عني ، ولي قبل السفر أمنية أضعها على أعتاب عرشكم — ثم سكت منتظراً جواب الشاه . فقال الشاه بعد فترة : « قل ! »

قال فيروز خان : « إنني أطال الله عمرك سأتعرض للموت في البحار المتلاطمة الأمواج بين مملكتك السعيدة وبين الفرنجستان . وخطر البحر لا يذكره فارسي إلا وقلبه يرتجف . وأمنيتي أنه عند سفري يكون أهل منزلي وابني الصغير موضع عطفكم ورعايتكم وقد بسطت هذه الأمنية وجلالتكم الرأي فيها »

فقال الشاه : « أقسم برأس الشاه أن أحقق

هذه الأمنية . ضع رأسك على وسادة الثقة لأنه مهما يحدث لك فابنك عندي بمكانة ابني . وقد عينته منذ اليوم بوظيفة في القصر على الرغم من صغر سنه . وسيتلقى العلم مع أبنائي على أن يتسلم فيما بعد مقاليد عمله . وأجريت منذ اليوم رزقاً على أهل منزلك فكن مطمئناً »

عند ذلك جثا « فيروزخان » مرة أخرى حتى لمس الأرض بجبهته وهتف الوزراء الثلاثة : « ماشاء الله ! ما شاء الله »

وهنا حضر السفير الانكليزي ومعه شاب من أبناء جنسه وهو الذي عين مترجماً للسفارة الفارسية في لندرا وجعل « مهتداراً »

أذن لهما الشاه في الجلوس فانحنيا ثم جلسا . وقال الشاه : « هذا اليوم سعيد الفأل على الدولتين يا جناب السفير . وإني لأرجو أن يؤدي تعيين السفير الفارسي عندكم إلى الزيادة في حسن التفاهم »

فانحنى السفير الانكليزي مرة وقال إنه يتمنى دوام العلائق الحسنة بين دولته وبين إيران . فقال الشاه : « أرجو أن ينال سفيرنا الحظوة في دولتكم وأرجو إبلاغ حكومتكم أنه حائز لثقتي وإني إظهاراً لهذه الثقة أخلع عليه هذا البرد »

ثم خلع الشاه برده وأعطاه لفيروزخان فليسه وقبل الأرض . وهنأه الوزراء على هذا الشرف الرفيع ، ثم سأل الشاه السفير الانكليزي هل هو راض عن الهدايا التي سترسل إلى ملكه ؟ فأجاب السفير على ذلك بكلمات لطيفة وقال إنه لا ينقص هذه الهدايا إلا صورة الشاه في إطار جميل

عد الشاه هذا الجواب بديهاً ، وقال إنه كان ينوي ذلك وإن صورته لديه الآن في إطار مرصع بالأحجار الكريمة . ونحت هذه الصورة أبيات من الشعر نظمها شاعر الدولة « عسكرخان » وقال إن هذه الصورة مرسومة على مرآة حتى إذا ما نظر إليها شاه الانكليز رأى وجهه بجانب وجه الشاه الفارسي . وقال إن هذا الخاطر البديع من مقترحات عسكرخان . وإنه فأل لتوثيق العلائق بين الملكين ودولتيهما

ثم أخرج الصورة التي تقدم ذكرها من تحت الوسادة . وأمر باحضار عسكرخان ليقرأ الأبيات أمام السفير فحضر وأنشدها انشاداً جميلاً كجمال الخط الذي كتبت به . وهذا معنى الأبيات :

« اذهبي أيتها الصورة المحمودة مزدانة برسم ملك ، فإذا ما وصلت للملك الآخر صرت مزدانة برسم ملكين . وكما ترتسم عليك رأسان متوجان فكذلك سترتسم على مرآة المحبة دولتان صديقتان ، وسيكون صديق كل دولة منهما صديقاً للدولة الأخرى والمدو عدوها جميعاً

« إذهبي أيتها المرآة المحمودة واجعلي على صفحتك الصافية بين الأخوين »

دهش الجميع من جمال هذا الشعر ومن افتنان قائله . وأكد السفير الانكليزي للشاه أن الملك « جورج الثالث » سيسر كل السرور بهذه الصورة وبالأبيات

كنت في أثناء هذه المدة العويلة واقفاً عند الباب لا أجرؤ على الدخول ولا يدعوني أحد ، فلما كاد المجلس أن ينتهي وأمر الشاه « فيروزخان » بالانصراف أشار إليّ بأن أتقدم فتقدمت وقبلت الأرض ، ودعوت لجلالته بطول الحياة فأمرني بالوقوف وقال لي : « كن دائم اليقظة وتعلم الأشياء

النافعة لنا .. تعلم أكثر ماتستطيع تعلمه من الفلتات الفرنجستانية لتترجم بعض كتبهم فإذا فعلت ذلك كنت مستحقاً عنايتنا الشاهانية

قلت : « على العين والرأس كل ما تأمرون به ياصاحب الجلالة »

ثم تقهقرت وخرجت مع فيروزخان . وكان أول مكان ذهبت إليه قبر حبيبتي « زينب » فدفنت عند ذلك القبر مائة « طومان »[1] لعل فقيراً مستجاب الدعوة يجدها في وقت من الأوقات فيدعو لصاحبة القبر بالرحمة

الفصل السادس

أعضاء السفارة

كانت السفارة الفارسية في لوندرا مكونة من : ميرزا فيروز خان (سفيراً) . ميرزا حاجي بابا بك (سكرتيراً) . محمد بك (تشريفاتي) . إسماعيل بك (أمين مشتريات) . أغا بك (رئيس الوكائب) . هاشم بك (رئيس الخدمة) . عباس بك (ياور) . حسين بك (ياور) . تقي الدين (فراش) . صادق (سايس) . فريدون (حلاق) . حسن (طباخ) . محبوب (رقيب وأمين صندوق) . سيد (حاجب السفير)

وفضلاً عن هؤلاء فقد كان معنا عدد كبير من خدم الاسطبل . وكان معنا أيضاً هذا المترجم الإنكليزي الذي اقتبناه بمعتمدار السفارة ؛ وكان قليل الإلمام باللغة الفارسية حتى لا يكاد يقوم بواجب الترجمة قياماً صحيحاً

ولقد كنت أقل الأعضاء أسفاً على فراق فارس لأنه ليس لي قريب فيها ، وكان أكثرنا حزناً على فراق فارس هو السفير نفسه لكثرة من ترك من الباكين على بعده ، وهم السيد والجواري وزوجته وابنه وأصدقاؤه

وكانت بلاد الفرنجستان في نظر الفارسيين بلاداً تكاد تكون خيالية لا وجود لها إلا في القصص . سواء أكانت حقيقية أم خيالية فإنها في نظرنا بلاد ممقوتة لأن أهلها يأكلون لحم الخنزير

ولقد اشتهر عني شهرة لا أعرف سببها ، أنني ملم بأخلاق الأوربيين وعاداتهم ، ولعل منشأ هذه الشهرة أنني كنت وضعت تقريراً عن أوربا وقدمته للشاه مستعيناً على وضعه برجل تركي كان موظفاً بالآستانة

وكان أعضاء السفارة يسألونني : هل في البلاد التي سنذهب إليها طعام غير لحم الخنزير أو شراب غير الخمر ؟ وأخذ أمين المشتريات مقداراً عظيماً من الأرز خشية ألا يوجد شيء منه في تلك البلاد كما أخذ عدة زجاجات من شراب شيراز . وأخذ حلاقنا يتساءل : هل في انكلترا صالون ؟ وتساءل الطباخ : في أي نوع من الأواني ينضج الأوربيون طعامهم ؟

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن المترجم الإنكليزي أرسل لحيته وشاربيه منذ أن انضم إلينا . وكان أغلب ظننا من قبل ذلك أن الفرنجية خلقوا وليس في وجوههم منابت للشعر كأنهم بعض نسائنا

وكنت منذ عودتي من (أصفهان) أفكر في الوسيلة التي أعامل بها «فيروز خان» بعد أن وثقت أنه يسيء الظن بي ويحسبني سأتجسس عليه لرئيس الزيارة الذي اختصني دونه بهمة جمع الهدايا والذي هو عدو له لا يتكتم العداء

رأيت أمام ذلك أن أسلك مع السفير مسلكاً

(١) عملة فارسية

حسناً لكي يزيل من ذهنه هذه المخاوف ، وكنتُ أعرف الجانب الضعيف من نفسه ، فسهل ذلك أمر إرضائه علىّ ، فإن تجاربي السابقة دلتني على أن النفاق هو أحسن الوسائل لاستجلاب ود الإيرانيين ، فإذا ما استطاع أي إنسان أن ينطق بالكلمات المسئولة فلن يصعب عليه اقتياد أي إيراني من لحيته

ولأجل أن أتمكن في كل فرصة من مناقشته التزمت أن أسايره في كل طريق ولا أعترك إلا وفق حركته ، ولا أسير حتى يأمرني بالمسير ، ولا أذهب إلا حيث يوجهني ، وأن أواقفه على كل رأي وأطريه عند كل مناسبة . وقد كان يحسب نفسه خطيباً مفوهاً ويفتخر في كل مكان بأنه إنما ندب سفيراً لفصاحته ولذلاقة لسانه وقوة جنانه . وهو يعلم وكل الذين حوله يعلمون أن رئيس الوزارة إنما بعث به للسفارة ليستريح الناس من ذلك اللسان

لكنني آليت على إرضائه قصرت أفسح له طريق القول بكثرة الاستفهام وحسن الاستماع . وكان كثيراً ما يجره الكلام إلى الاندفاع في التعبير عن ضغائنه والتهور في وصف خصومه . وكان في هذه الحالات يترك الحذر فيتكلم أمام الخدم والأتباع بكل ما يروقه ، فقبل سفرنا بساعات قلائل ذكر اسم رئيس الوزارة فقال : « أرجو الله أن يحرق عظام أبيه في قبره ! أرجو الله أن تتزوج أمه من حمار مثل أبيه ! أدعوه تعالى أن يسلط عليه مائة كلب تمزق لحمه وتنهش عظامه ! إن شاء الله سأتمكن من الأخذ بثأري فأنه السبب في بعدي عن أهلي ونفيي من هذه البلاد »

ثم نظر إليّ وقال : « أنت يا (حاجي بابا) رجل عرف الدنيا وخبر أهلها فهل تظن أن الشاه سيذكرني بعد أن أغيب عن بلادي ؟ وهل سيمتنع رئيس الوزارة عن دس الدسائس وإثارة الوشايات ؟ »

فقلت : « إن كل ما تظنون هو الصواب ، وإن كل كلمة تقولونها هي الحق ، وإن اشتهاركم بذلك هو الذي جعل الشاه يختاركم للسفارة . وأنت تعرف الوزراء والأعيان فقل لي بالله من فيهم يصلح لتمثيل الشاه أمام الملوك الأجانب غيرك ؟

إن الذي أعتقده أن الشاه قد اختارك من تلقاء نفسه بغير تأثير ولا اتباع مشورة لما يعرفه عنك . وإلا فقل لي إذا هو لم يختارك فأي إنسان كان يختار ؟ »

قال فيروز خان : « لا أحد يا حاجي بابا ... لا أحد يصلح لها غيري ! لقد صدقت »

وقال النشريفاتي : « ما شاء الله ! مَنْ مثل مولانا فيروز خان في صفائه ؟ إنه أذكى الأذكياء وأفصح الفصحاء »

وقلت : « نعم ! نعم ! لقد اختاره الشاه من أجل ذلك ، وإذا كنا جميعاً نعرفه فالشاه لا يجهله ، ولذلك كان اختياره في موضعه »

وقال النشريفاتي : « إن جلالته ثاقب النظر صائب الرأي » . وقلت : « ليس لمولانا فيروز خان نظير في العالم كله » . وقال النشريفاتي : « أنظر إلى شخصه ! ما شاء الله ! إنه أجمل الشباب وأقوى الرجال فهو الذي يمثل الشاه وليس أي إنسان سواه بصالح لتمثيله »

وفي أثناء ذلك كان ميرزا فيروز خان يصغي إلينا وغضبه يتحول إلى سرور . والتفت إلينا بوجه متهلل بشراً وقال : « الحمد لله على هذا المنصب فان الذي قلتموه أعجبني وقد رأيته صدقاً »

الفصل السابع

سافرنا من طهران ، فلما وصلنا إلى تبريز أقمنا بها بضعة أيام جمعنا في خلالها هدايا أخرى . ثم سافرنا إلى بلاد الأرمن وهي بلاد جرداء قاحلة قامت مدنها على سفوح جبال مكللة قممها بالثلوج . ثم تجاوزناها إلى بلاد الكرد فأرضروم . وهذه بلاد تابعة للترك يحكمها باشا يلقب نفسه — للإرهاب — بلقب البابا ذي الثلاثة الأذناب . وقدزارنا وأكرمنا وقدم للسفير هدية مثل هديته . لكنه حدث في اليوم التالي حادث أوجد سوء التفاهم بين السفير وبين الباشا . وذلك لأن السائس صادق تخلف عنا بتبريز إذن ، ثم اتضح أنه ذهب إلى بلاد الأرمن لغرض من الأغراض فغضب السفير وأقسم أن يقطع أذنيه

ولما عاد سجنته أعضاء السفارة حتى ينفذ السفير حكمه فيه . ولكن الباشا التركي علم بالأمر ، ورأى أنه ليس من حق أحد غيره أن ينفذ الأحكام في هذه المدينة ، فأرسل أحد موظفيه لإقناع فيروزخان بالعدول عن عزمه حتى يندر الأراضي التركية

كان السفير محاطاً بأتباعه عندما جاء الموظف التركي ، وكان السفير لا يزال في حدة الغضب والسكلمات القاسية تتدفق من شفتيه ، فحياه الموظف بالسلام ثم جلس أمامه باحترام

قال السفير : « لماذا جئت ، وماذا تريد ؟ » فاستغرب التركي لهجة السؤال وقال : « لا شيء ! »

قال السفير : « هل علمت ماذا فعله هذا الكلب ؟ لقد غاب بشير إذني ليرتكب المنكرات في بلاد الأرمن . إنني لن أترك هذا الذنب بغير عقاب . إنني لا أترك الخير يمون أن أؤديها ، وقد حلفت لا أشرب الماء حتى تصير أذناه في جيبي . فاطمئنوا إلى ذلك يا أفندي »

قال الأفندي التركي : « إن مولاي الحاكم يهدي إليكم سباحاً شريفاً ويبلغكم أن هذه العقوبة غير مسموح بها في هذا البلد » فاحتد السفير وقال : « ما هو غير المسموح به ؟ ما هو ؟ ألا أقطع أذنيه ؟ أنت لا تعرف ميرزا فيروز . أقسم برأس النبي وبالخبز الذي أكلته عند الشاه وأقسم بروح الباشا وبقبرك أيها الأفندي ، وأقسم برأس علي أيضاً ألا أذوق الماء حتى تكون أذنا صادق في جيبي . إننا فارسيون ولا يردنا عما نريده كلمة من الباشا »

قال التركي ولم يهتم أقل اهتمام بحدة السفير وانفعاله : « ولكن الباشا ذا الثلاثة الأذناب أمرني أن أبلغك بأنه لا يسمح لأحد بقطع آذان الناس في بلده » فصاح السفير الفارسي كالمجنون ! « ثلاثة أذناب ! هل يهددني بأذنابه الثلاثة ؟ قل له إن أذناي خمسة عشر ! قل له إنها سيمون ! قل له إن لي ألف ذنب ! وما دامت أذنابه قد دخلت في الموضوع فان أذن صادق ستقطع — ستقطع — ستقطع »

ثم نادى بالفراش أن يأتي في الحال بأذني صادق ولمنه ولعن سائر أعضاء السفارة . ثم التفت إلى الموظف التركي وقال وهو يتكلف الهدوء : « أبلغ الباشا تحياتي وقل إنه إن كان له ذنب واحد فلي خمسة عشر »

عند ذلك وقف التركي وانحنى ثم خرج وهو يقول : « لا إله إلا الله ! » وسرى في الردهة بالفراش عائداً وفي يده طبق به أذنان يسيل الدم منهما ، ففهم أنهما أذنا صادق

2017-11-15 15:05:48

وبالرغم مما أبداه سفيرنا من الجرأة، فانه أدرك أن البقاء فى المدينة أكثر من ذلك يعرضه للخطر فقرر الخروج منها فى نفس اليوم ، فخرجنا ما عدا صادق فانه أعيد إلى طهران بأمر السفير ، وقد علمت أنه عاد وأذناه فى رأسه لأن الفراش قطع أذنى تيس وجلهما كشكل أذني إنسان إرضاء للسفير فى حقده

وصلنا إلى الآستانة فرحبت بنا السلطات التركية وخصصت لنا قصراً فى اسكوتارى وعينت لنا مترجماً تركياً فى أثناء وجودنا بالعاصمة . وفى هذا الوقت تركنا مترجمنا الانكليزى ، وأقام فى السفارة الانكليزية التى زرناها . ورد لنا السفير الزيارة . وبعد بضعة أيام سافرنا إلى أزمير التى يسميها الأتراك أزمير الكافرة ، لنركب منها السفينة التى تقلنا إلى بلاد الفرنجستان

وقبل مغادرتنا الآستانة زار سفيرنا « الصدر الأعظم » وأهداه هدية مثلما . وبالرغم من العداوة المتأصلة بين الأتراك وبين الفارسيين ، فقد أظهر الوزير التركي عطفه علينا لما أخبرناه بأننا سنسافر إلى بلاد الانكليز . وحذرنا من مكرهم وخداعهم وقال إنهم دهاة يتلاعبون بأقوى الرجال

لكن الاتراك أقدر منا على كتمان ما بأنفسهم ولذلك لم يظهر لنا أحد الأتراك عداوة بمكس فيروزخان الذي أظهر عداوته للترك فى عدة مواضع . فمن أمثلة ذلك أنه اجتمع فى حفلة مع بعض الأتراك المصريين الذين يشربون الخمر ويستمعون إلى الغناء فى السهرات العامة . فقال أفندى تركى إن الموسيقى التركية قد أصبحت من أرقى موسيقات العالم لتطورها وتشبهها في العهد الأخير بالروح الأوربية وقال إنه يسمع الموسيقى الفارسية فيخال أن المطر يتساقط

فأجابه سفيرنا محتداً : « وأنا أسمع الموسيقى التركية فأخال أن الحمير تنهق »

الفصل الثامن

التركيبة

كان ممن زارونا أيضاً مدة وجودنا فى الآستانة وزير الخارجية وكبار الموظفين فى تلك الوزارة ،وكان وزير الخارجية مشغوفاً بآداب اللغة الفارسية فأهدى سفيرنا نسخة مذهبة من ديوان حافظ الشيرازى . وكان هذا الوزير واسمه باراك افندى من أرق الناس وأكثرهم أدباً وظرفاً ، وقد أهداه السفير جواداً لما علم من محادثته أنه من هواة الخيل . ولكن هذه الهدية أوقعته فى حيرة لأنه لم يعرف كيف يرد لنا الهدية التى تقابلها . فعندنا منسوجات أجود من المنسوجات التركية ، وكذلك الشيلان والسجاجيد ولا يليق أن يهدينا من البضائع الانكليزية ونحن مسافرون إلى انكلترا . ولكنه بعد تفكير وجد ضالته وعزم على أن يهدى السفير الفارسى جارية شركسية أجمل من القمر ليلة النصف ، وقال إنه اشتراها من تاجر من تجار الرقيق يدعى « خرسيس أوغلو » ، وإن ذلك التاجر أخبره بأنها أميرة من أميرات بلادها ، ولكنه لا يصدقه وهو يرجو على كل حال أن يسر « فيروز خان » بهذه الهدية

طلبنى هذا الوزير التركى وعرض علىّ أن يرسل هذه الهدية إلى مولاى فتظاهرت بأنى أجهل ذوقه ووعدته بأن أستشيره وأخطره برأيه

ولما عدت إلى السفير أخبرته فرفض الهدية فى

بادئ الأمر ثم تردد فى قبولها ، ثم رأى أنه لا يليق رفضها ، فوافق على شرط إخبار الوزير بأنه كان يود أن تكون الهدية من نوع آخر

وعند انتهاء هذا النهار جاء خادم الوزير يقود جواداً على ظهره هذه الشركسية مبرقعة لا يظهر شىء من وجهها ولا من جسمها فأعطى السفير الخادم التركى مبلغاً كبيراً من المال . وذهبنا للزور الشركسية ثم اجتمعنا بعد ذلك ولم يكن السفير بيننا فقال التشريفاتى : « لو كانت زوجة السفير حاضرة لضربته حتى مزقت جلده على قبول هذه الجارية »

وقال تقى الدين : « إن السيدة بعيدة عنا الآن وستتغير الأحوال قبل عودتنا »

وقال سعيد : « لو أن الجارية من أى جنس آخر لكان شرها مأموناً . أما وهى شركسية فإن خطرها شديد لأن هذا الجنس ملعون »

فقلت : « ليس لنا إبداء رأينا فى هذا الشأن فالجارية متاع خاص من أمتعة السفير وهو وحده صاحبها »

قال الجميع : « نعم نعم وإنا لنكون أحط من الكلاب إذا ظننا غير ذلك »

وفى الصباح التالى أخبرنى السفير بقصة الجارية كما سمعها منها ، وهى أنها بنت زعيم شركسى كان يقيم بالقرب من شاطئ البحر الأسود . وكان لقسوته على قبيلته يلقب بابن الشيطان ، وكان سكيراً يندفع وراء عواطفه إلى النهايات ، وكانت المناصرة أحب شىء لديه فهو يضحى من أجلها بكل شىء ، وقد تراهن مع زعيم قبيلة مجاورة وهو أغنى وأقوى منه ، فجر على نفسه الدمار ، لأنه اضطر بسبب الخسارة التى لحقت به إلى بيع كل شىء من أملاكه وأرقائه على أن ذلك لم يكف فلجأ إلى وسيلة لا يلجأ إلى مثلها إلا شيطان مثله . وذلك بأن دعا عدداً من أفراد القبيلة إلى حفلة شراب فلما سكروا استدعى تاجر الرقيق لحملهم بواسطة أعوانه إلى الشاطئ ونقلهم على السفن . ولكن التاجر نقل معهم بعض أفراد الأسرة ومنهم زوجة الزعيم وأبناؤه وابناء وأخوه

وفى أثناء الطريق رأوا كاهناً يمشى فنقلوه أيضاً مع الرقيق ، وقد بيعوا إلى أفراد مختلفين . وكان حظ الشركسية فى بيت الوزير ، وعرف أن اسمها مريم ولكنه أصر على تسميتها باسم «دلنريب» أى مستعبدة القلوب لما لجمالها من سلطان

وقد وصف السفير جمالها بأنه أروع ما رآه . ووصف ذكاءها بأنه نادر ، وقال إنه سيعلمها الفنون المختلفة التى تجعل لها مكانة ممتازة فى بلاد الأوربيين وقد وجد عندها أنهم استعداد لتعلم الخياطة والطبخ والرقص والموسيقى والغناء ، وكل ما تمتاز به امرأة على أخرى . وقال إنها لا تعرف شيئاً عن الدين ، ولكنها قبلت أن تكون مسلمة ونطقت بالشهادتين

قال السفير : « من يدرى ؟ لعلها تكون سبباً فى سوء حظى أو رفعته »

الفصل التاسع

أعضاء السفارة يغادرون أزمير على ظهر الباخرة

وصل إلينا الخبر بأن باخرة انكليزية تحرسها مدرعة حربية فى انتظارنا بأزمير لتقلنا إلى لندن . فسافرنا إلى تلك المدينة ووجدنا فيها — خلافاً لما نعهده فى البلاد الأخرى — عدداً كبيراً من التجار الأوربيين والبونان والأرمن . ولعل الأتراك سموها

2017-11-14 15:25:48

من أجل هـذا السبب بالمدينة الكافرة . وأهلها يشربون الخمر جهاراً فى الأماكن العامة والخنازير تمشى فى أزقتها . وقد نزلنا فى هذه المدينة بمكان أعدته لنا الحكومة

نقلت أمتعتنا وخيولنا إلى السفينة التى سنسافر عليها كما نقل إليها مقدار عظيم من الماشية والتبن والطيور والماء

وسئل السفير هل يجب أن ينام على سرير ثابت أو متحرك ؟ فعجبنا من هذا السؤال لأننا لا نعرف مكاناً للنوم غير المراتب المحشوة بالقطن والتى ننقلها ونبسطها على الأرض وننام فوقها . وتركنا الاجابة على السؤال حتى نعاين النوعين فى السفينة واتضح لنا فيما بعد أن السرير الثابت فى السفينة هو الملتصق بحائطها ، وأن السرير المتنقل يثبت من أطرافه الأربعة فى الحائط وليس بينه وبين الأرض قوائم

وقد كنا نجهل شكل السفن لأننا لانعرف فى بلادنا غير الزوارق . ولكننا لما رأينا السفينة دهشنا لأنها مدينة صغيرة ، ففيها غرف وشوارع وأماكن للخيل وأخرى للبضائع وأماكن خاصة بالآلات البخارية

ولمعرفة الترجمان بعاداتنا أوصى بأن يجعل فى السفينة مكان للشركسية بعيد عن أنظار الرجال . ولما طلب إلينا الاستعداد للسفر استدعى السفير التشريفاتى « محمد بك » وهو على علم بعبادىء الفلك . وأمره أن يبين لنا الوقت المناسب للسفر . وقبل أن يجد الفرصة الكافية لأبحاثه فى النجوم جاء ربان السفينة مع الترجمان واستعجلنا وقال :

إن هـذا أنسب وقت للسفر فالريح ملائمة . لكن السفير رفض أن يتحرك حتى تدله النجوم على الساعة الميمونة . وإنه مهما تكن أفكار الانكليز فانه غير مستعد للمخاطرة بحياته فى البحار وبسفينة يقودها الكفار إلا فى ساعة ميمونة

وعبثاً حاول الترجمان والربان إقناعه بأنه ما دام الأمر متعلقاً بالسفر بحراً فالساعة الميمونة هى التى تهب فيها الرياح الملائمة . وإنه إذا أصر على التأخر فربما تغير الجو واضطرت السفينة إلى التأخر لموعد آخر قد يكون أيضاً ملائماً للرياح ولكنه لا يلائم علم الفلك

وعندما يئس الانكليزيان وهما بالذهاب حدث حادث عدداه فألاً واستنتنبا به عن علم الفلك ، وذلك أن السفير عطس مرتين ، وكل فارسى يعرف أن هذا الفأل الحسن يدل على أن الساعة مناسبة للسفر فقال السفير : « الحمد لله القد أذن الله لنا بالاقتلاع » وأعلن موافقته على السفر

فلم ينتظر الانكليزيان حتى تضيع هذه الفرصة بل طلبا إلينا القيام فى الحال ، فمشى السفير ومشيت بجانبه ووراءنا الربان والترجمان ثم سائر أعضاء السفارة فلما وصلنا إلى الشاطىء سمعنا صفيراً يصم الآذان ، ثم رأينا على سوارى السفينة أناساً من الانكليز كالبهلوانات يمشون فوق الحبال (كالشيخ على) بهلوان شيراز ؛ وفى أقل من لحظة رأينا هؤلاء البهلوانات يرفعون الأعلام على السوارى ، والغريب أنه على كثرتهم لم يقع أحد منهم من الحبل وإن فيهم عدداً من الصغار فى السن لا يقلون مهارة عن كبارهم

ولما صعدنا سلم السفينة ازعجنا أشد انزعاج لأن مدفعاً فيها أخذ يطلق القنابل فكادت أرواحنا تفيض من الفزع ، وقال السفير : « بسم الله الرحمن الرحيم ! ما معنى إطلاق المدافع الآن ؟ هل أعلنت الحرب فجأة ؟ وسكتنا جميعاً لأننا لم نجرؤ على الكلام

حتى انقطع دوي المدافع ووقف الترجمان الانكليزي أمام السفير وقال : « إن المدافع أطلقت تكريماً لسعادته وأن الانكليز لا يحيون بهذه التحية غير الملوك وممثليهم »

فقال السفير : « أشكر لكم هذه التحية وإن كنتم أزعجتموني . ولكن لماذا هذا الاسراف في القنابل ؟ إن عدد الطلقات التي أطلقت تكفي لتخريب مدينة « طوس » فكم عدد المدافع التي تملكونها ؟ »

فأجابه الترجمان : « في هذه السفينة ٤٤ مدفعاً وهي مدافع صغيرة لا تستعمل في الحرب وعدد المدافع التي تملكها الدولة لا يحصى »

قال السفير : « هل تعني أربعاً وأربعين بالعدد أم على سبيل التقدير كما تقول ستين يوماً مثلاً أو أربعين ليلة ، والقصد أنها أيام وليال كثيرة ؟ »

فقال الترجمان : « كلا بل أقصد إلى العدد بالذات » وقال ربان السفينة بواسطة الترجمان : « إن بعض السفن تحمل أربعة أمثال هذا العدد أو أكثر وأحجام مدافعها أكبر كثيراً من أحجام هذه المدافع »

قال السفير : « لا إله إلا الله ! » ثم التفت إلينا وقال : « ألم أقل لكم إن الانكليز يجدون المدافع بهذا الشكل في مناجمهم ؟ لقد صدق رأيي فان مئات من الأعوام لا تكفي كل الحدادين لصنع هذا العدد من المدافع

فقلنا : « نعم نعم نحن آمنا وسلمنا بما قلت ساعة أخبرتنا به . إن هؤلاء الانكليز كالشياطين ليسوا كالرجال ، وسنجد أحاديث غريبة نتحدث بها عنهم عندما نرجع إلى إيران »

ولم تكد تفرغ من حديث قصير أقل من التية للصلاة حتى رأينا السفينة تتحرك على ظهر الماء فقال السفير : « لقد أصبحت أراوحنا في يد الله فمن يدري هل نعود إلى أهلنا سالمين ؟ »

ثم تلا كل منا الشهادتين استعداداً للموت

(يتبع)

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالاثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

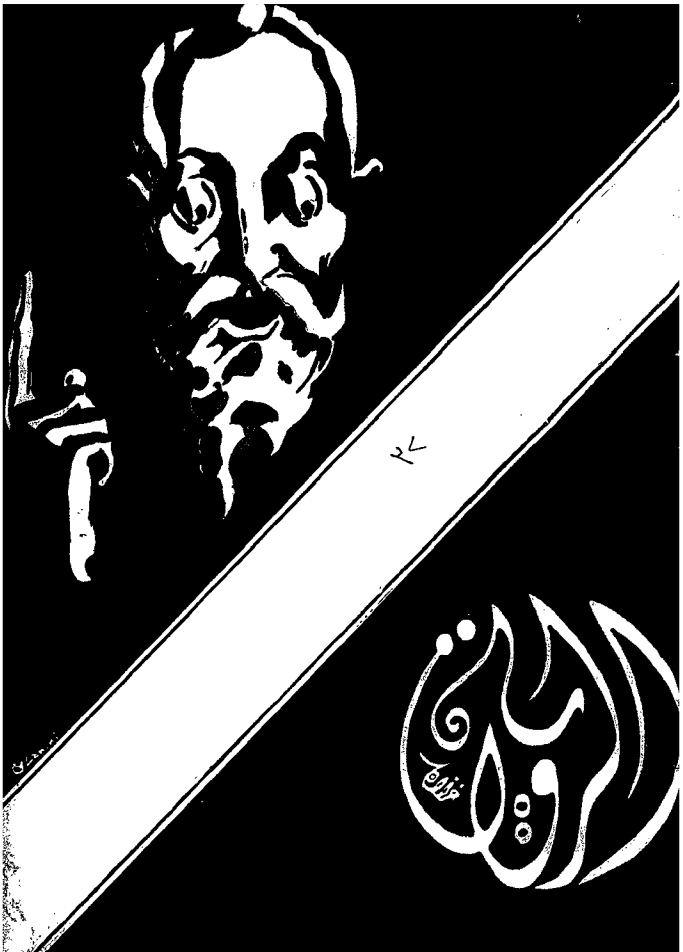
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ ﴾


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجـــلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـــة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصـــور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
الحبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٢ | ١٥ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

			صفحة
بقلم الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني	أقصوصة مصرية	مبنى	٤٠٢
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...	الكاتب الاسباني بوكاشو	شجرة الكمثرى المسحورة .	٤٠٧
بقلم الأستاذ محمود بك خيرت	أقصوصة مصرية	سوسن الثورية	٤١١
بقلم الأستاذ علي الطنطاوي	أقصوصة من التاريخ الاسلامي. ...	ابن الحب	٤١٩
بقلم الأستاذ عهد لطفي جمعة	بقلم وتمريد ستانلي شيز	الملك والدرويش	٤٣٠
بقلم محمد عبد الفتاح محمد	الكاتب السويسري سولومون جسنار	غيرة	٤٣٧
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...	تأليف جيمز موير	حلبي بابا في انكلترا	٤٤١

2017-11-15 Page 2

مِيمِي

اقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

جلس « طلبة » فى القطار المائد به من مصيفه فى الاسكندرية يفكر فى « وردة » ، فما استطاعت الاسكندرية بمن حفلت بهن من الفتيات اللائى جئن من كل مدينة وقرية ليمرضن جالهن وفتنهن على شواطئ البحر أن تنسيه سحرها ودلها أو تصرفه عنها وتحوّل قلبه إلى سواها . وإن الاسكندرية لمفسدة أى مفسدة — كذلك جعل يقول لنفسه وهو يهتز فى مقعده من فرط السرعة التى يعدو بها القطار — ماذا يظن هؤلاء الآباء الذين يتركون بناتهم يتجردن على الشاطئ ، ويصبحن لاهين كاسيات ولاهين عاريات ؟

ولم يكن طلبة من الطراز القديم أو المحافظ ، فقد كان ابن عصره الذى لم يشهد سواه ، ولكنه كان فتى أكسبته حياته وعمله اتزاناً قلما يتاح فى مثل هذه السن ؛ فقد كان سيدلياً ، والصيدلى يرى كل صنوف الناس ، ولا يسمه وهو يستقبل الزبائن ويرحب بهم ويتلقى «أوامرهم» ويصغى إلى حديثهم ونوشتهم فى أحيان كثيرة إلا أن ينظر ويفكر ويقارن ويقابل ، وإلا أن يقف على كثير مما يخفى على الشبان أمثاله فى أعمال أخرى ، وإلا أن يلم بحالات قلما تمر نظائرها بأعداده . وقد أفاد من عمله فى الصيدلة صبراً وحلماً وتسامحاً وحكمة ومقداراً من « الحصافة » تمنع أن يغتر المرء بالظواهر . وتلك بعض ثمار المعرفة التى اكتسبها فى ذلك المرض الذى يسميه الناس : « الصيدلية » ولا يخطر لهم أنه يمكن أن يُرى فيها غير العقاقير

وخطر لطلبة والقطار ينهب به الأرض أن من الحماقة أن يتوهم الآباء أن عرض بناتهن على الشواطئ يعجل بتزويجهن . ورجه القطار وهو يفكر فى ذلك فكأنما دج ما فى رأسه أيضاً فعاد يسأل نفسه : « ولكن هل هم يعرضون بناتهم ليزوجوهن ؟ أليس الأصح أن يقول إن تيار الزمن جرفهم ، وإنهم لم يستطيعوا مقاومته ، فهم لا يعنون شيئاً ولا يريدون أمراً ، وإنما ينزلون على حكم التيار ؟ على أن المهم على كل حال أن هذا العرض يزيغ العين ، والرجل يستطيع بعد أن يرى كل هذا الجمال المتنوع المحشود أن يروض نفسه على الصبر على طعام واحد . وطبيعى أن يقنع بالفجلة وكسرة الخبز اليابسة من لم يجلس إلى الموائد المثقلة بألوان الآكال الشهية ، ولكنه إذا جرب هذه الطعوم المترية فإنه لا يكون آدمياً إذا ظل بعد الفجلة نعمة من الله ! »

وسأل نفسه مرة أخرى : « ولكن هل معنى هذا أن الأولى أن تُرد البنات عن حمامات البحر وما إليها ؟ » وهز رأسه وقال لنفسه : « مستحيل . ثم إن الحياة لا تطيب بذلك حتى لو تيسر ... كان يمكن أن تطيب لو أنا ظلنا لا نرى على الشاطئ كل هذه المفاتن ، ولكننا أكلنا من شجرة المعرفة فلا

2017-11-15 05:05:48

قناعة لشيء بعد الآن ، ولا سبيل إلى الصبر على الحرمان ... »

واعتدل في مقعده وسأل نفسه هذا السؤال « إذا كان الزواج هو الغاية ... لا تقل الغاية ... فانه على كل حال ليس إلا واسطة . ولكن نقول إذا كان هذا الزواج هو النظام المقرر فأيهما خير للرجل المدرك المفكر ... أن يتزوج واحدة من أولئك الحواني لا يخرجن إلى البحر في ثياب الاستحمام ولا يعرفن السينما ، ولا يبرزن للرجال ، ولا يعرفن من الحياة إلا الأكل والكسوة والجلوس على الخشايل ، ولا تخشى عليهن الفتنة لأنهن لا يتعرضن لها ، أم أن يتزوج واحدة من هؤلاء المرحات ، السابحات الوجوه ، البضات الأجسام ، الرشيقات القوام ، الحواني يحسنّ الحديث والسمر ، ويعرفن كيف يُتعنن ويتمتعن ، ويجعلن الحياة كلها فرحة دائمة ، ونعيماً بقياً ، ومتعة مستمرة ، لكثرة تعاطيها من التنوع ؟

وهز رأسه مرة أخرى وقال : « مشكل والله ! وعقدة لا أعرف لها حلا ... فتلك الجاهلة لا تكون إلا عملة ، وإن كان المرء يسعه أن يطمئن وأن يسكن ، وتلك المثقفة المدنية البرزة أحلى وأمتع ، في أول الأمر على الأقل ، ولكن السكرة تذهب ، وتزول النشوة ، وتجيء الفكرة ، ويحتاج المرء إلى السكون والرضى والاطمئنان ... الراحة على العموم ... وأين الراحة مع الخفة والتقلقل الدائم والشك الذي لا سبيل إلا إليه ولا حيلة فيه ؟ »

وطال تفكيره في هذا وما هو منه بسبيل ، ولم يجد في هذا الراحة ، ولم يستطع أن يهتدي إلى رأي فيما عرض على نفسه ، فانتقل إلى « وردة » وشرع يتصورها على هواه . وكان يدرك وهو يفعل ذلك أنه يُفيض عليها من خياله ، ولكنه كان يقول لنفسه ان الخيال أمتع من الحقيقة ، وإن الجمال الذي لا يحرك الخيال لا قيمة له ، وإن الجمال الحقيقي هو الذي يجدد نفسه في خاطرك ، ويعرض عليك من صوره وتقنّعه ألواناً ومعاني لا ينضب لها مَعين . وهذه مزية وردة ، وإن كانت هذه أيضاً آفتها ، فانها زئبقية ... لا تستقر حقيقتها — إذا كانت لها حقيقة — ولا تستطيع أن تتناولها وتقول هذه هي في يدي ... كلا ... مستحيل ...

وارتفعت لعينه وهو يفكر في « زئبقية » ووردة صورة « ميمي » الوديعة ... ميمي البتيمة التي لم يبق لها من الأهل سواه ، فهي في بيته — مذ جاءت بها أمه — كالأخت ، أو إذا شئت ، كالخادمة ، تقضي له حاجاته ، وتمد له أشياءه ، وتتعهد البيت ، وتدبر أموره ، في سكون ومع الابتسام الدائم ، ومن غير تأفف أو تبرم ، ولا تطلب إلا أن يكون راضياً ناعم البال قرير العين ... أتراها تحبه ؟ ؟ إن هناك ما يشير إلى ذلك ويشي به ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تجترئ على أكثر من ابتسامة السرور حين يسرها ، ويخيل إليه أحياناً أنها كانت تبكي أو أن الدمع يتحير في عينيها ، ولكنه لا يدري ... لا يدري ... ثم إنه لا يريد أن تحبه ، كلا ... فانه يحب غيرها ...

وجرى بباله البيت المشهور وهو يتناول حقيبته وينزل من القطار في محطة القاهرة :

« جننا بليلى ، وهي جُنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها »

فقال بصوت مسموع : « أعوذ بالله ! ما هذه السخافة ؟ قد تكون ميمي مجنونة بي ، وإني لمجنون بوردة ، ولكن وردة على التحقيق لا تحب أحداً غيري ... نعم لا يبدو أنها تحبني كما أشتهي وأتمنى . ولكن من فضل الله أنها لا تحب سواي ... هذا شيء على كل حال ... يمكن أن أقنع به الآن ...

ومع الارتياح ... ولكن من يدرى ... ؟ »

وساورته الشكوك وهو يشترى فى طريقه طاقة من الأزاهير البيضاء التى يعرف أن وردة تحبها ، وظلت تساوره وهو يدخل شقته ويلج بالحقيبة ، ويتلقى تحية ميمى بفتور لا ينبه . وقد سخط على نفسه وأوسعها تقريعاً وذماً ، وقال لها : « هذه وردة يشرق وجهها لك ، وتكاد تفتح ذراعيها ، وتبدو كأنها تريد أن تضمك إلى صدرها أثناهد ... الحق أن صدرها جميل ... وأنت تقابلها بهذا الفتور ؟ ... إن هذه خسة ! ماذا جنت الفتاة حتى تصدها هذه الصدمة ؟ وتدفع فى صدرها بجُمع يدك ؟ آه صدرها ! ... الحق أنه جميل ... قدها كله جميل ، فيها لين ، تنساب كالماء الرقراق ... ثم إنها وديعة ، راضية ، حلوة الطبع ، لماعة العين دائماً ، أوه ميمى .. ميمى ؟ إنه يجب أن أفكر فى وردة ... »

وكانت ميمى فى هذه اللحظة تمنع الورود فى الزهرية ، فزعق طلبة : « ماذا تصنعين ؟ »

قالت باستغراب : « أرتب الورد ، أليس ... »

ولم تتمها ، فقد انتزع منها الأزاهير وهو مقطب ولفها فى ورقها كما كانت ، وتمم وهو يفعل ذلك : « ترتب الورد ! أتراها تظنني جئت به لأزين به بيتي ؟ » وقال بصوت عال : « دعيه هكذا ... إنه لوردة »

فأحست المسكينة بمثل شكة الخنجر ... يعود من الاسكندرية بعد خمسة عشر يوماً قضاها هناك نائياً عنها ؛ ولا يذكرها بزهرة واحدة ، ومعه هذا « الحوض » كله ، يحتفظ به لوردة ! ولا يخطر له أن من الرحمة الواجبة ألا يخزها على هذا النحو ! ماذا كان عليه لو اتفق أن يجيء به إلى البيت ؟ ولكن .. »

ولم تسترسل فى هذه الخواطر المؤلمة ، فقد كان عليها أن تهيء له ثياباً أخرى يلبسها ليزور وردة ! وإن ميمى لتعلم أن وردة مشغولة عنه بغيره ، وأنها لا تفكر فيه ، ولا تبالى أجاءها بهذه الأزهار الجميلة أم نسيها ولم يخطرها بباله . ولكن ميمى لا تستطيع أن تقول له هذا وإلا ظن بها الظنون

وأحست ميمى وهى تنفض لطلبة ثيابه التى يجب أن يرتديها بثورة نقمة على وردة ، وشعرت كأن وردة تخون طلبة لأنها مشغوفة بسواه . وصحيح أن وردة لا زوجته ولا خطيبته ، ولكن هذا لم يمنع ميمى أن تسخط على وردة وأن تشعر لها بكراهية شديدة يزيدها علما أنها غير محقة فيها

وخرج طلبة ، ومعه طاقة الزهر الأبيض ، وبقيت ميمى وحدها ، لا أنيس لها إلا خواطرها . نعم هناك أمه ، وأخته ، وخادمة ، ولكن ما أنسها بهؤلاء ؟ وهى مضطرة أن تكاتم أمامهن الابتسام وأن تتظاهر بنير ما تبطن ، وهذا بلاء آخر ...

ولم يطل غياب طلبة ، فقد عاد ، ومعه طاقة الزهر الأبيض التى خرج بها ، ففتحت له ميمى الباب وارتدت مذهولة .. أذهلها تجهمه ، وأذهلتها طاقة الزهر التى تتدلى بها يده ؛ فارتدت ولم تقل شيئاً ، وتركته يدخل وهو مطرق لا ينظر إليها ولا إلى شيء ، ويرى بطاقة الزهر على المائدة ، ويذهب إلى غرفته ، ويردد به حتى لا يدخل عليه أو يزعجه أحد

وبعد قليل صفق ، فذهبت إليه أخته فردها وقال لها : « ابعثى إلىّ بميمى » . ولم يكن هذا مستغرباً فقد كانت ميمى هى الموكلة به فى الحقيقة ، وكانت أمه يسرها أن ترى ميمى تقوم له بحاجاته وتتكفل بأموره ، وكان رجاؤها أن يفطن ابنها إلى قيمة ميمى فيتخذها زوجة

وذهبت إليه ميمى فقال لها : « اجلسى ، واصدقينى »

قالت : وهى تجر كرسياً : « نعم »

قال : « وردة ... إنك تعرفينها كما أعرفها ، فلا

2017-11-11 Egyptian Knowledge Bank

تخفى عنى شيئاً ... ما هى الحكاية ! »

قالت : « أى حكاية ؟ »

قال : « إن المرأة تعرف عن المرأة أكثر مما يستطيع أن يعرف الرجل . ثم إن النساء يتحدثن فيما بينهن بما لا يتيسر العلم به للرجال ، فأخبرينى ما هى حكاية وردة ؟ »

فكررت قولها : « أى حكاية ؟ »

قال : « ألا تريدين أن تخبرينى ؟ إذن سأعرف كل شىء وحدى » ونهض فخرج ...

ولم تستطع ميمى أن تكتم ما بنفسها ، فحدثت أمه بما سألها عنه من خبر وردة ، وتركتها تتصرف كما تشاء . على أن الأمر لم يحتج إلى تصرف من الأم أو سواها ، فقد أراد طلبة أن يقف على جلية الخبر وأن يعرف من هذا الشاب الذى رآه خارجاً معها من بينها يوم عاد — أى طلبة — من الاسكندرية ، وذهب إليها ليسلم عليها ويقدم لها الورود البيضاء التى تحبها وتؤثر بجالها على سواها من ضروب الزهر . وكان هو يهم بالنزول من الترام فى محطته أمام بيتها ، فلما رآها خارجة ومعها هذا الفتى الغريب الذى لم يره قط من قبل بقى على سلم الترام إلى المحطة التالية ، ثم عاد إلى بيته . وما خير أن يذهب إليها وهى خارجة ؟ ومع فتى ؟

وكان « طلبة » ممن يؤمنون بأن الخط المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، فذهب إلى أبيها وسأله عن هذا الفتى من عسى أن يكون . وكان بين أسرة طلبة وأسرة وردة من الصلات الوثيقة القديمة ما يسمح له بمثل هذا الاستفسار الذى كان خليقاً أن يعد — لولا ذلك — فضولاً غير مقبول . وكانت وردة وحيدة أبيها ، وقد ماتت أمها ، فرق لبنته جداً أو دلها تدليلاً شديداً . فقال الأب : « هذا حسنى ... خطيبها ... وعلى فكرة ... أظن أنه من الأوفق ... تعرف ما أعنى ... ولا مؤاخذة »

فهز طلبة رأسه وقال : « نعم أعرف ... يحسن بى أن أكف عن زيارتكم حتى لا أثير وساوس الخطيب ... ولكنى يا عمى من عسى أن يكون هذا الخطيب ؟ إنه طارئ ولا شك ، فانى أعرف كل معارفكم ، ولا أذكر أنى رأيته أو سمعت به وما غبت عنكم إلا خمسة عشر يوماً . أفى خمسة عشر يوماً يعرف وردة ، ويخطبها ، وينتهى الأمر ؟ »

قال : « ولم لا ؟ ؟ يوم واحد يكفى ما دمنا قد قد سألنا ووثقنا أنه شاب طيب حسن السيرة »

قال : « وهل سألت يا عمى ووثقت ؟ »

فقال الرجل بلهجة المتأفف : « ما هذه الأسئلة ؟ »

فقال طلبة وهو ينهض : « أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تكذب ... وأستطيع أن أعرف أنك لم تسأل ولم تستوثق ، وإنما نابت عنك وردة فى هذا كله ... مبارك على كل حال ... وأستودعكم الله »

ومضت الأيام وطلبة يعالج نفسه ، ويروضها على الانصراف عن وردة ، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يقنع نفسه بأن الخيرة فى الواقع ، وأن الزواج لا يكون مؤدياً إلى السعادة إذا كانت الفتاة مدللة كوردة كل هذا التدليل ، حتى لتخطب لنفسها من تشاء ، ولا يسع أباها إلا الموافقة . وعاد — شيئاً فشيئاً أيضاً — إلى ما كان يفكر فيه وهو عائد من الاسكندرية ، ويسأل نفسه عنه : « أى الفتاتين خير ؟ واحدة نشأت على الطاعة والعفة أم أخرى مدللة تعرف حمامات البحر والخروج مع الرجال ؟ »

وزاد السؤال تحديداً فجعله هكذا : « أيهما خير لمثلى : فتاة وديعة كيمى تحبنى وتطيعنى ولا تعرف سواى ، أو تفكر فى غير واجباتها لى وإن كانت

2017-11-15 15:05:48

تنقصها مظاهر الطراز الحديث ؟ أم أخرى كوردة تخطب لنفسها من تشاء ولا يسع أباها إلا الموافقة ؟ »

وانتهى من هذا إلى التفكير الجدى الرزين فى ميمى ، ولم يخالجه شك فى أن ميمى ستفرح حين تعلم أن رأيه استقر على الزواج منها . وقد خاطب أمه فى الأمر ففرحت ، وحدث أخته ففرحت ، وكاد يحدث الخادمة ، وفى يقينه أنها لاشك ستفرح فقد رأيت — أى الخادمة — فى بيته

كل امرئ فرح لإعطيي ، حين كلمها أمه . وفى قولنا إنها لم تفرح شئ من التساهل فى التعبير ، ذلك أنها فرحت لأن هذا هو الذى كانت تطمع فيه وتتطلع إليه ، ولكنها كانت تعلم أن طلبة يحب وردة ، وآلمها أن يشقى طلبة ، وأن تندم به وتحزنه وردة ، وسرها أنه لم يفز بها ، وحز فى نفسها أن طلبة إنما التفت إليها ورغب فيها لأن أمله فى وردة خاب . وكان هذا أوجع ماعانته من الاحساسات ، وتنازعتها الرغبة فى إرضاء حبها بالقبول والرغبة فى إرضاء كبريائها بالرفض ؛ وكانت أحياناً تميل إلى الرفض وهى تشتهى ويكاد قلبها يتمزق من فرط الحب ، ثم تميل إلى القبول ، ولكن الألم يمزق أعصابها ويتلفها ، فتبكى

وترى الأم والأخت هذا منها فتستغربان وتنكران هذا البكاء ، ويخطر لهما تارة ان هذا بكاء السرور ، وتارة أخرى أن ميمى لا تريد طلبة زوجا لها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفض لأنها يتيمة لا أهل لها ولا بيت إلا هذا ...

وكان هذا بعض ماتخطر ليمى وتقلع قلبها ، وزادها حيرة ، فهى إذا قبلت الزواج لا يسعها أن تنسى أن قلب طلبة مع وردة ، وإذا رفضت ، فقد قضت على حبها ووجب عليها فى هذه الحالة أن تترك البيت ، ولكن إلى أين فى هذه الدنيا الطويلة العريضة الزاخرة بملايين الخلق ، والتى تضيق مع ذلك بفتاة واحدة ؟؟

وطال التردد ، ومضت الأيام ، والسكل حائر ، حتى طلبة بدأ يستغرب ، وظن أن ميمى لا تريده ، وأنه كان غلطاً فيما توهمه وليلا على ميلها إليه وتعلقها به ؛ وكان من فضل هذا أن صدها إليها بقليه ، شيئاً فشيئاً أيضاً ... حتى كانت ليلة فناداها ، فلما دخلت عليه صارحها بما نابت عنه أمه قبل ذلك فى الكلام فيه

فقالت له : « لا ... إنك تحب وردة ، فأنا لست لك »

قال : « أهو هذا ؟ » وسرته هذه الغيرة وأيقن من حب الفتاة وقال : « اسمعى يا ميمى ، لقد كنت أتوهم أنى أحب وردة ، ولكن المرء قلما يعرف نفسه . ولو أنى كنت أحبها بالمعنى الصحيح لما استطعت أن أسلوها بهذه السرعة . وقد كنت أعمى ... الدمعة تحت عينى وأنا لا أراها ... »

فقاطعته : « لأنك لم تكن ترى إلا وردة »

قال : « نعم » فلما خلت منها حياتى استطعت أن أتفتح ببينى . ومن واجبى أن أشكر الله ، فلو لم أتعلق بوردة لما استطعت أن أفطن إلى الدمعة التى كنت ذاهلا عنها ... وإذا كنت تحبيننى كما أعتقد وأرجو ، فان من واجبك أن تحمدى أنى افتتنت بوردة أياماً ، فكانت هذه الفتنة سبيل المعرفة ووسيلة الهداية ... أليس كذلك ياميمى ؟ »

وأراد قلب ميمى أن تقتنع ، فاقتنعت ، ولم تندم قط بعد ذلك على أنها أطاعت قلبها ولم تطع كبرياءها . وقد كان من الممكن أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، ولكن طلبة كان صادقاً حين قال إن فتنته كانت سبيل المعرفة ، وإنه عرف نفسه بعد أن ضل قليلا .

ابراهيم عبد القادر المازنى

شجرة الكمثرى المسحورة

للكاتب الشهير وكاتبة
للأستاذ محمد كامل حجاج

كان بمدينة أرجوس اليونان نبيل تقدمت به السن ، فأراد أن يبحث له عن زوج تكون له عوناً على شيخوخته ، فتزوج من ليديا وكانت من أسرة عظيمة جميلة محبوبة . كان الرجل غنياً جداً ينفق بسخاء ؛ وكان مولعاً بالصيد ؛ وكان له عدد كبير من الكلاب والصقور والخدم . وكان من بين حاشيته شاب حسن الوجه أنيق المقتدام يعمل كل ما يطلب منه بمهارة وسرعة ، فكان موضع ثقة سيده

شغفت زوجة البيت بهذا الشاب ، فكان لا يهدأ بالها إلا إذا رأته أو تحادثت معه . ولقد زاد حبها ضراماً فلم تقو على كبحه ، وصممت أن تفاتحه به . وكان من بين خدمها امرأة تدعى لسك تميل إليها وتثق بها ، فقالت لها ذات يوم : « إن ماسنيته مني من الجميل وتعلقك بي يشهدان بطاعتك واحتفاظك بالأسرار ، وآمل ألا تبوحي لأي فرد كان بما سأسره إليك . إني فتية قوية كما ترين ، لا ينقصني شيء من الجمال والمال ، ولو كان زوجي من سني أو كنا متماثلين في المزاج لأرضى رغباتي . وأعترف لك بأني لست عدوة لنفسي حتى أبحث عما لا أجده عند زوجي . وما وجد الزواج إلا لتتمتع بلذات الحب التي حرمت منها . وقد وقعت عيناي على بيروس ليحل محل زوجي من هذا الوجيه ! وهو شاب شريف محبوب . ولقد رأيت أنه أجدر من غيره . ولقد تيمني حبه وأصبحت لا أفكر إلا فيه ، وإن لم أتمتع بحبه فإنني أموت كمداً . وأظن أنك لا محجمين عن مساعدتي . فصفيه بالطريقة التي ترين أنها مناسبة بما أكنه له من العواطف المتأججة ، واجتهدي في إقناعه بالمجيء إليّ عند ما أدعوه

طمأنت الخادم سيدتها ووعدتها بتنفيذ رغبتها ، ورأت فرصة سانحة لمخاطبة بيروس ، وكان ذلك في نفس اليوم ، فأسرت إليه بما دار بينهما من الحديث فدهش الفتى من هذه المفاجأة مع أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك قبل هذا اليوم ، وخاف أن يكون هذا شراكا منصوباً لاختباره فقال لها : « إنني لا أفتتح بصدق ما تقولين ، ولا أظن سيدتي تكلفك بهذه المهمة . وإن كانت أرسلتك حقاً فلا أظن ذلك إلا مزاحاً . وإني أرى عهد سيدي فلا أسمه بهذه الأهانة ، فلا تكلفي نفسك مشقة معادلتي في هذا الموضوع مرة أخرى . فأفهمته لسك بقسوة رفضه وقالت له : « مهما كان ذلك يضايقك فانني لن أتأخر في إخبارك بما تكلفني به سيدتي . وقصاري القول أرجو أن تكون بصيراً حكيما »

ولما علمت السيدة ليديا جواب بيروس فضلت الموت . وبعد بضعة أيام خاطبت خادمها في حبها المتأجج فقالت لها : « إن الشجرة لا تقطع بضربة واحدة . ويجب أن تعيدي الكرة مع بيروس الذي

2017-11-15 Egyptian Knowledge Bank

يريد أن يكون مخلصاً لسيده. ترقبي الفرص المناسبة لتصوري له فرط غرامي وتباريح آلامي، فليس من فائدتك ولا من فائدتي أن تهمل هذا الموضوع فانك تجازفين بحياة سيدتك

فمزت الخادم سيدتها ووعدتها بأنها ستحاول إقناعه بكل الوسائل. ثم ذهبت إلى بيروس فوجدته مستقل المزاج مسروراً فقالت له: « لقد فاتحتك منذ بضعة أيام وقلت لك إن النار اشتعلت في فؤاد سيدتي وإن استمررت في رفضك فانك ستخاطر بصحتها وحياتها، ولا تكون عديم الشعور أمام آلامها: أي خير أن تكون محبوباً من سيدة ذات شأن كهذه! ترى في أمرك فستصبح في مأمن من الفقر، وسيكون لك أفخر السلاح وأجود الخيل وأجل الثياب وأغلى الحلي بخلاف الذهب والفضة. وستقابلك اليوم بذراعين مفتوحتين، فلا تنزع ذراعيك منها إن كنت لا تريد أن تكون لها عدواً أو تصبح فقيراً معدماً تتخبط في دياجير البؤس والفقر. إنك تضحكني حينما أفكر في أوهامك وخزعبلاتك

فكر بيروس طويلا وتأمل في كلام لسك وقال لها: « إني طوع أمرها إن كانت تقنعني بحسن نيتها لأني أعلم طباع زوجها. ولربما اتفق الاثنان على أن تتصنع لي الحب لتختبر أمانتي؛ ولدى وسيلة إن هي نفذتها اطمأنت إليها وسلمت لها قيادي، وهي أن تقتل بلشن زوجها في حضوره، وتنزع خصلة من شعر ذقنه وترسلها إليّ، وتخلع سناً من أجل أسنانه » وقد وجدت الخادم وسيدتها أن هذه الشروط الثلاثة لا يمكن أداؤها ولكن الحب لا يعدم الوسائل للحصول على رغباته. فأرسلت إلى بيروس تنبئه بقبول هذه الشروط. ومادمت تظن أن سيدك حكيم بصير بالأمور كثير الشكوك فسأريك كيف أخدعه على مرآى منه وأجعله يظن أن ما شاهده لم يكن إلا وهماً. دهش بيروس مما قالته سيدته وانتظر بفارغ الصبر طريقة التنفيذ.

وفي ذات يوم أولم زوجها وليمة فاخرة لأصدقائه فأخذت زوجته الباشق ولوت عنقه أمام بيروس وجميع الحاضرين، فصرخ زوجها قائلا ماذا عملت؟

فلم ترد عليه والتفتت إلى النبلاء الحاضرين وقالت: « انني انتقمت من هذا الباشق لأنه سبب لي كثيراً من الآلام مما لا يمكنكم أن تتصوروه، فطالما أبعد عني زوجي إذ يأخذه ويخرج للصيد قبل طلوع الشمس كل يوم تقريباً، وقد صممت من زمن على قتل هذا الطائر، ولكنني انتظرت هذه الفرصة السانحة لأشهدكم أكنت محقة في عملي أم لا؟ فظن الحضور أن الزوجة ما أقدمت على هذا العمل الفظيع إلا لشدة تعلقها بزوجها وطفقوا يضحكون. ثم التفتوا إلى زوجها وقد كاد يتميز من الغيظ وقالوا له: « أتفضل هذا الطائر على زوجك؟ ولقد أحسنت بأن تخلصت من مزاحها. ولما دخلت الزوج إلى غرفتها تحادى الحضور في مزاحهم حتى أن نيكوسترات فارقه حزنه وطفق يضحك مثلهم من هذا الانتقام الوحيد في بابه

وقد استبشر بيروس من تنفيذ الشرط الأول وغرق في بحار أمانيه

وبعد أيام كانت الزوج تداعب زوجها وكان متهللا مستبشراً فرأت الفرصة سانحة لتنفيذ الشرط الثاني فجعلت تدلله وتمانقه ثم نزعت خصلة من ذقنه فتألم الرجل أيما ألم وغضب وقال لها فكري ماذا تعملين يا سيدتي؟ فقالت له: « أتتألمّ يا سيدي من خمس أو ست شعرات وأنا لم أغضب حينما جررتني

من شعرى منذ هنيهة ؟ وقد أرسلت الخصلة فى نفس اليوم الى بيروس

والشرط الثالث هو بلا شك أصعب الشروط ، ولكنه لا يصعب على الشاق ذوى العقول الراجحة . وكان زوجها حاجبان من أسرتين عظيمتين أحدهما يشرف على شرابه والآخر على طعامه ، فاوهمتهما سيدتهما أنهما أبخران وأوصتهما بأن يمدا رأسهما إلى الوراء حينما يقدمان إلى سيدهما شيئاً ففعلا بوصية سيدتهما

وبعد بضعة أيام قالت الحسناء لزوجها : ألا لاحظت سحنة حاجبيك حينما يقدمان إليك شيئاً ؟

— نعم لاحظت وقد أردت أن أسألها عن السبب

— لقد لاحظت ذلك من زمن ، ولكنى خشيت أن أفاتحك فى الأمر . والآن قد لاحظ ذلك غيرى فقد رأيت أن أحدثك ، ولا أعلم سبب ذلك ؛ وإني أصارحك بأن رائحة فمك كريهة جداً ، وربما كان ذلك من سن نخرها السوس . ثم استطعمته إلى الكوة وفتحت فمه ثم قالت له إن سنك منخورة ومتعفنة ، وإن خلعتها أبعدت الضرر عن أسنانك الأخرى .

— سأبحث فى غلب الجراح ليقلعها

— إن هؤلاء كالجلادين ولا يستدعى الأمر حضورهم وسأخلعها أنا بنفسى دون أن أحدث لك ألماً . ثم أخرجت الخدم ولم تترك إلا السك وأوصدت الباب ، ثم أنحيته وجعلت رأسه فى حجر الخادم لتمسك به لئلا يتحرك ثم فتحت فمه وخلعت أجمل أسنانه بشكل عنيف تركه يصرخ من الألم وليث هنيهة كالمغشى عليه . وفى هذه الأثناء أخفت السن الجيدة التى خلعتها وأبدلتها بأخرى نخرة متعفنة ثم قدمتها له قائلة : « انظر إلى السن التى احتفظت بها طوال هذه المدة ؛ ومن الحق أنها لو تركت أفسدت جميع أسنانك . وقد نزف الجرح كثيراً من الدم ، ثم شرب أكسيراً مقوياً وارتمى على سريره كالميت

ثم أرسلت زوجه السن إلى بيروس دون أن تضيع شيئاً من الوقت . فاطمأن لها وقال إنه طوع إشارتها .

كانت الحسناء لا تألو جهداً فى إظهار حبها ؛ وكانت تعد الساعات كالسنين ولم يبق عليها إلا إرضاء حبها على مرأى من زوجها ، وأخبرت لسك بيروس بالدور الذى سيلعبه . ثم تصنعت المرض ، وذهب بعد الظهر لمقابلة سيدته ، وفى هذا الميعاد يجلس رب البيت مع زوجه . ولما رأت الاثنين مجتمعين أظهرت رغبتها فى استنشاق الهواء فى الحديقة ورجتهما أن يقوداها إلى ، فأسندها زوجها من جهة وبيروس من الأخرى وذهبا بها إلى شجرة كثرى وجلس الثلاثة على بساط جميل من الخضرة . وبعد آونة اشتهت السيدة أن تأكل من الكثرى فرجت بيروس أن يتسلق الشجرة ويقطف بعض الثمار الناضجة فأطاع وصعد وتصنع أنه رأى سيده يداعب ويعانق زوجه وصاح : ما هذا ياسيدى ؟ وكيف تسول لك نفسك أن تعمل هذا فى حضورى ؟ وأنت ياسيدتى أما تخجلين من مثل هذا اللعب ؟ كفى ، فان هذه الأمور لا تجرى أمام الناس . أليس الليل طويلا ؟ هل خرجتما إلى الحديقة لأجل هذه الأعمال ؟ ألم تكن عندكم غرف وأسرة كافية ولائقة ؟ فقالت المرأة لزوجها : ماذا يعنى بهذا القول ؟ هل فقد حجاه ؟

— لا ياسيدتى فانى لست بمجنون . إنى أرى جيداً ما أراه . ثم قال له الزوج بعد ما ضحك من قوله : « إنك تحلم حقاً »

— إنى لا أحلم مطلقاً .

ثم قالت زوجته : ربما تراءى له مايقول

— تأكدى من قولى يا سيدتى فلست واهماً

— إذن إذن !

— ولما نزل قال إنى أراك الآن منفصلا عن سيدتى وبيداً عنها

— إنك تحلم يا مسكين ، لأنى لم أبرح مكانى

ثم قال بيروس: ربما كانت هذه الشجرة مسحورة

فأراد الزوج أن يتحقق بنفسه من هذه المسألة ليتأكد إن كانت الشجرة مسحورة. فصعد بدوره، وما كاد يستوى فوق أغصانها حتى قام بيروس وزوجه بتمثيل دورهما من عبث وعناق

— ماذا تصنعين ياسيدتى ؟ ! وأنت يا بيروس أتخدم سيدك بهذه الصفة ؟

ثم أسرع فى النزول فرجع العاشقان كل منهما إلى مكانه والتزما السكون والحشمة

— ما هذا يا سيدتى ، أتقترفين هذه الفضائع أمام عينى ؟ وأنت أيها الوغد ... فقاطعه بيروس :

« إنى أعترف أنكما كنتما حكيمين عند ما صعدت على الشجرة. والذى ظننت أنى رأيته لم يكن إلا سحراً . والذى يكمل إقناعى أن سيدى ظن أنه رآنى شيئاً لم يكن

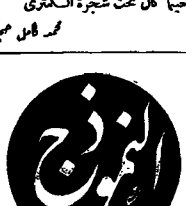
— لا تحاول أن تعتذر فما رأيته لم يكن سحراً ولكنه حقيقة . ثم قالت امرأته إنه مجنون مثل بيروس . وأظن أنك قادر أنت تتصور مثل هذه التصورات على حسابى ، وإن كان الأمر كذلك ، فانى أثور

ثم قال بيروس : « أتهين سيدتي بمثل هذا الكلام، وهى مثال الاستقامة والعفة؟ ثم قامت الزوجة متصنعة الغضب لتضلل زوجها الأبله وهي تقول :

— أتظن أننى بعد هذه الأعوام الطوال أتجرأ على اقتراف هذه الفضائع على مشهد منك ؟ وتأكد أننى إذا كنت أريد شيئاً من هذا القبيل لا أعدم الوسائل لارتكابها دون أن تشعر . وإذا كانت كل هذه المصائب من هذه الشجرة المسحورة فانى لا أريد أن تؤذينى بعد هذا أو تضر امرأة غيرى . ثم التفتت إلى بيروس وقالت له : « أحضر فأساً واقطع هذه الشجرة واحرقها » فصدع بالأمر . ثم التفتت إلى زوجها وقالت له : « وحيث أنى أرى الآن عدوة فضيلتى ممدودة على الثرى، فانى أعفو عنك وأساعدك وأوصيك من الآن فصاعداً أن تكون عندك فكرة أحسن من تلك عن امرأتك التى تحبك أكثر مما تستحق ألف مرة . ولقد سر الزوج أن رأى عقيلته تعفو عنه واعتذر لبيروس عما فرط منه من الشك ودخل الثلاثة القصر منتبطين مسرورين

وبهذه الطريقة خدعت المرأة زوجها وخانته وفضحته . ومن هذا اليوم عاش بيروس مع سيدته بدون كلفة ينعم معها بلذات الحب بحرية أوسع من حريته حينما كان تحت شجرة الكشرى

محمد كامل حجاج



سوسن النورية

للأستاذ محمود دياب خيرت

جرّنا الحديث فى بعض ليالى سمرنا إلى طائفة من الناس لا تتصور المرأة وتنفر من ذكرها لأنها فى نظرها شيطان . وقد احتدم حولها الجدل وتشعبت الآراء حتى صاح أحدنا وكان يسمع ولا يشترك فى الحديث :

أراكم تصورتم عليها وأسرفتم ، مع أن الله حين خلق آدم خلق حواء إلى جانبه ليطيب بها ولتسكن نفسه إليها . أما أنها شيطان فقد يكون فى بعض النساء شياطين ، وكذلك فى بعض الرجال ، والانسان يحمل فى مطاوى نفسه الخير والشر معاً ؛ فإذا رجح أحدهما كان ملكاً أو شيطاناً . ولولا ذلك لما جاءت الشرائع بتعديل نسبتى الخير والشر بين الناس

على أنى لا أتصور كيف يستغنى رجل كائناً من كان عن المرأة وقد ركّز الله فى كليهما الشهوة ليصونا كيانهما وليتحقق بقاء النوع . إننا نحسّ الحاجة إلى المرأة كما نحس الحاجة إلى الطعام والشراب . إلا أن من الناس من يهيم بها هياماً فلا يملك الصبر عنها كالهم يحمل معدته فوق ما تطيق فتتخم . كما أن منهم من ينظر إليها كوسيلة وقتية من وسائل الاستمتاع حتى إذا بلغ غرضه منها زهد فيها — ولكنهم جميعاً لن يجدوا مفراً منها وإلا كانوا شاذين على الطبيعة ، لأن حاجة الرجل إلى المرأة وحاجتها إليه من بعض نواميس الغريزة التى لا تخضع لسلطان

ولقد عالج هذا الموضوع كثير من الكتاب انتهوا فيه إلى الحد الذى ذكرته . ومع ذلك ألم يقرأ أحدكم قصة نابيس ؟

قلنا وما هى قصتها ؟ فقال :

إن هذه الفتاة ابنة خمّار وتهيأ لها أن يُعنى بها ، حتى إذا آنست (مروا) المجوز فى حنجرتها مرونة وفى قوامها ليناً أقبلت عليها تعلمها الغناء والرقص ، فخرجت زهرة ناضرة وخليعة خلاّبة ، أقامت فى أنطاكية وإسكندرية دولة للشهوة خدامها الأمراء والحكام ، وفجّرت فيها بحراً للفسوق تموج لجبه بالنضار تطوّه بقدميها اللتين ما عرفتا غير أوحال الفقر . وظل هذا شأنها : كأساً مترعة تطوف بها يد الليالى على الشفاه التى أعطشها الهوى حتى بلغ بافنوس الناسك مدينة اسكندر الأكبر فقام فى نفسه أن يصدها عن سبيل الغواية وينتج قلبها إلى دين الله

ومن أعجب الأشياء أن هذه الفتاة الهيفاء الناعمة المتحكمة فى كل ذى سلطان تفدّت إلى نفسها التى تتلظى الشهوة فيها أوارُ الهداية فهان عليها أن تتبعه وأن تحرق قصرها وما ضم من متاع ونعيم حتى لا يبقى أمام عينيها أثر فانٍ من ماضيها

أما ذلك الناسك فكأنما أفرغ فيها كل ما وعت نفسه من هدى وتقوى ، حتى إذا وجد الشيطان عنده مرعىً خصيباً نفخ فيه من روحه غوايته فأشعل قلبه بهوى تلك الصالحة ، وهكذا

هداها ولكنه ضل ومات خاسراً . والشهوة الثائرة قد تعصف بالناسك كما تردّ تقوى الله الضالين إلى حظيرة الهدى

ويلوح أن أناتول فرانس واضع هذه القصة أراد بهذه المقابلة بين الهدى والضلال فى نفسين متنافرتين أن يضرب لنا مثلاً على أن محاربة الرهبان نفوسهم لقتل ما غرسه تكوينهم فيها من الشهوة إنما هى خروج على الطبيعة البشرية التى لا يُقهر سلطانها

نعم إن هذه الشهوة كانت أكثر تمكناً فى نفسها منها فيه ، وله من صلاحه ونسكه رادع ولها من ماضيها المضطرب مُنفر ؛ إلا أنها فى الواقع سئمت معدة حواسها تكرار هذا اللون من طعام الشهوة فعافته . ولذلك كان انتقالها إلى نور الهداية طبيعياً ؛ وكذلك يا فنوس الذي ظل طول حياته يحارب شهوته ويضغط عليها حتى انفجرت؛ فقد كان نزوله على حكم الغريزة طبيعياً أيضاً

وعند ذلك صاح أحدنا : وما قولك فى أخينا الحلو وهو مع حُسن صورته وشبابه وميسرته يعفت المرأة مقتاً، حتى أنه ليستثقل أن يمرّ ذكرها بسمعه . بل إنه ليغادر المجلس الذى تُذكر فيه . وربما كان هذا هو الذى هيّأه إلى الاندماج فى الفراويش ومشايخ الطرق فانقطع عنا . فاستمر فى حديثه قائلا إن هذا لا يغيّر من القاعدة التى ذكرتها . وانما تعرض أحياناً احداث الدهر للانسان وتصدمه فى بعض خصائص عقله فيقوم بين ذاكرته وبينها سدٌّ . إذ لكل عاطفة تجيش فينا ويشعر بها منّا مكانٌ بين تلافيفه قد يتأثر بمثل هذه الأحداث فتفقد هذه العاطفة ون أن نفقدها جاورها . وإنى لأعرف عالماً فى مصر كان علماً من أعلامها صادفته ظروف قاسية أصبح على أثرها يجهل القراءة والكتابة كأنه لم يتعلمها . بل إنه كان لا يذكر اسمه ولا يعرف كيف يكتبه . وهذه مسألة ثابتة من مسائل الطب الشرعى . فمن يدريك أن بعض هذه الظروف وقعت لصاحبك وكان سببها المرأة . بل من يدريك أن المرأة أيضاً قد تهدم فى يوم من الأيام هذا الموس الطائفى الذى تمكّن منه وصرفه عن العمل النافع الذى خلقنا الله له ؟

وعند ذلك طرق أسماعنا وقع أقدام تقترب منا ثم دخل علينا حسن أفندى الحلو نفسه وهو يصيح : على شرط ألا تتمرّضوا لذكر المرأة . فضحكنا وأخذنا نحيّيه ونعتب عليه لانقطاعه وقد لفّ حول طربوشه عمامة خفيفة تُرك ذؤابتها تتدلّى على إحدى كتفيه . وكانت أسابه تمرّ على حبات سبحته حتى إذا ما فرغ قال : والله لقد هزنى الشوق فاستأذنت إخوانى الليلة لأزوركم

كم كنت أودّ لو أنكم أخذتم عهداً مثلى فكنتم تقطعون الليل والنهار بالعبادة بدلا من هذا الهذيان الذى أنتم فيه . إنكم تجهلون مبلغ حلاوة الأيمان بالتوجه إلى الله والفناء فيه . لا تبحثوا عنه فى المساجد أو غيرها ولكن ابحثوا عنه فى بواطنكم . استمعوا إلى الصوت الذى ينادبكم بين جنوبكم . وليكن لكم قاض من أنفسكم هو الضمير ، ورادع يحول بينكم وبين الزيغ هو خشية الله . ثم إياكم أن تنفلوا عن ذكره فانه بذكر الله تطمئن القلوب . انى أصبحت أحتقر هذا الوجود الفانى وزخرف هذه الحياة الكاذب . أشعر وأنا فى حضرة الله كأنى ملك أسرح فى ملكوته وأسبح فى سمواته . أصبحت

أحسّ أنني لم أعد مادة بل معنًى . لا يشغلني عنه شاغل من أمور الدنيا ولا يستهويني بريق ضلالها وباطلها . على أنني لم أبلغ هذه الرتبة إلا بعد جهاد عنيف مع حواسي ، وحرب طويلة بيني وبين نفسي. والحمد لله على أنها ماتت . لقد ماتت . إنها ماتت . الله أكبر الله أكبر ! لا إله إلا الله ..

وكان يردّد ذلك بصوت عالٍ ، وقد أخذ يدور في الغرفة وجسمه ينتفض وبصره زائغ ، ثم سقط وقد غاب عن صوابه وتصلبت أطرافه ... فأسرعنا إليه ننفخ وجهه بالماء والخل ونداعبه بالكحول وحركنا أطرافه برفق ، حتى إذا عاد إلى صوابه وفتح عينيه تملكه الغضب وأخذ يصيح : لم أيقظتموني ؟ لمَ لم تذروني وشأني ؟ إنني كنت في الحضرة القدسية ، وقد ارتفعت من دوني أستارها وغمرتني أنوارها ... والله لا شتمنّي وليّ كم جلس . ثم انفلت من بيننا وصدى تكبيره وتهليله يصل إلى أسماعنا ثم يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقطع

* * *

وكان حسن افندي يملك غير أطيانه قصراً في الزمالك أعده لأسرته ، ومنزلا بالجيزة يطل على ترعة السواحل قريباً من محطة السكة الحديدية ، وهو قديم شيده أجداده ، وكان يقيم به ويستقبل في فنائه الفسيح إخوانه في الطريقة ، فكان في أغلب الليالي ومخاصة في ليالي الحضرة يموج بهم وتدوي أصواتهم في أركانه بالصلوات والأذكار

على أنه للترويح عن نفسه كان في كل أسبوع يستقلّ عقب صلاة العصر ترام الأهرام إلى كازينو مدينة الجيزة ، حتى إذا استراح به بعض الوقت صعد إلى الصحراء يستنشق هواءها قليلاً ثم يعود

وفي إحدى تلك المرات بعد ذلك الحادث الذي وقع له عند أصدقائه أمسى عليه الليل وكان الهواء رطباً عليلا والقمر قد برز من جانب الأفق ينشر على الصحراء غلالة رقيقة من نور هادئ لطيف ، فطاب له السير أمامه على غير وجهة . وكان كلما ابتعد عن الأهرام لاحت أشباحها من خلفه كالخيام الجبارة تشرف على فضاء هذه الصحراء التي مرت عليها القرون وأشرق في روعها العلم والبأس والحكمة من عهد الملوك الأقدمين . وعند ذلك يفكر في عظمتها وعظمة من شيدوها . ولكنه لا يكاد يرفع بصره إلى السماء وإلى هذا القمر الذي يسبح فيها من ملايين السنين حتى تلوح له ضئيلة حقيرة في جانب عظمة الله وقدرته . وتأخذه هزة ساحرة فينطلق لسانه بالتكبير ، وكأن الأهرام من مضخمات الصوت ترجع صدى صوته عالياً يدوي في أجواء هذا الفضاء

وكان في أثناء سيره تعثر قدماه بعظام أوفر طولاً وحجماً من عظام الانسان فيذهب إلى أنها من بقايا الجمال الناقفة

وعند ذلك ينتقل بخاطره إلى هذا الحيوان العجيب فهو ساكن رابط الجأش على عكس الخيول يقطع لجج الصحارى التي لا تنتهي بثير أن يقف ودون أن يأكل أو يشرب . لا يؤثر فيه التعب أو أنه يتحمله صابراً . وإذا مرض كتم مرضه لا يبديه وقائده الذي يسمع من بعيد زئير الوحوش وصهيل الخيول وأصوات الناس لا يسمع وهو على قيد خطوة منه غير شهيقه وزفيره دون شكوى أو أنين ، حتى إذا أفقده الجهد وغلبه الألم وأوهى جلده الحرمان وشعر بأنه موف على الهلاك هوى إلى الأرض ومد

عنقه فوق الرمل ثم أغمض جفنيه مستسلماً لمصيره كان حسن يلمس عظمة الله فى السماء وشموسها والأرض وما فوقها وما في جوفها وما فى نفسه وما هو دونها وهو يقول :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سرقه جمال الطبيعة وسحرها فكان يسير أمامه لايلوى على شىء . حتى إذا ابتعد عن الأهرام وأحس التعب فكر فى العودة لولا أن صوت مزمار (أرغول) طرق أذنيه وهو يظهر ويختفى فى تموجات الريح ، وكأنه أنة حزين تشق سكون الليل ، فقام فى نفسه أن يقصده فلعله فلعله حفلة ذكر قامت فى وسط الصحراء ، وتحت قبة السماء الصافية بعيدة عن ملاهى المدينة وشرورها

وأخيراً بلغ مكان الصوت فإذا به سورة مصغرة من قرية متنقلة متواضعة تتكون من ستة أخبية من الشعر على مسافات متقاربة وقد انتثر من حولها فرسان وبعض حمير وعدد من خراف ومعز غير قرد وكلب كان ينبح عند قدومه . وعلى مسافة غير بعيدة عربة كبيرة يظهر أنها معدة للتنقل

ولما دنا من أهلها حياهم فهضوا لتحيته ثم أعدوا له فروا غزير الصوف جلس عليه . أما رئيسهم وهو شيخ أبيض اللحية طاعن فى السن فصاح ليعدوا له القهوة . وكانت البقعة تموج بالرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى صوت المزمار ، كما أن فتاة حلوة القسمات فى العشرين من عمرها كانت ترقص على صوته ، فلما وقع بصرها عليه فرت لتختفى خلف تلك الأخبية

— شرفت يا حضرة الأفندى

— الله يحفظك . لعلى لا أكون ثقلت عليكم .

ولكنى سمعت صوت مزماركم عند الأهرام فشغفنى فجئت

— أهلاً وسهلاً ! يا مرحباً يا مرحبا !

— وهل هنا مقامكم دائماً ؟

وعند ذلك ضحك الشيخ وقال :

— كلا يا سيدى . إننا قوم رحّل نطوى الأرض ولا نقيم حيثما نحط إلا مقدار ما نأخذ قسطنا من الراحة . إنك ترى هناك وسائل عيشنا نطرق الحديد ونطلى النحاس . ومن أولادنا من يحسن السير فوق الحبال المشدودة والوثب والدوران فى الهواء وغير ذلك من الألعاب البهلوانية كما أن منا من يطوف بهذا القرد وذلك الجحش أزقة القرى التى نستقر فى ضواحيها . على أن من نسائنا أيضاً من يجدن قراءة الحظوظ بالودع ...

— بالودع ؟ ... أنتم إذن ... ؟

— قلها يا سيدي ولا تخف ... إننا من النوَر ؟ من هؤلاء الذين يصب أهل المدن عليهم سواعق احتقارهم ومقتهم ، والله وحده عليم بما تنطوى عليه نفوسنا من الوداعة والأنصاف ، ورعاية الجميل ؛ لا تقبل الضيم ولذلك ليس لنا وطن يأوينا ويقيدنا ، ونهيم على وجوهنا فى طلب الرزق طليقين لأننا نعشق الحرية ونقدسها . أما سخط أهل الحواضر علينا فلأن فريقاً من الناس — وليسوا منا — يعيشون ويسرقون تحت ستار هذا الاسم الذى يضم طوائف النور جميعاً فى الشرق وفى الغرب ...

— وفى الغرب ... ؟

— نعم وربما أدهشك أنى أجيد اللغة التركية وأتكلم الاسبانية قليلا لأنى طفت فى شبابى بالأندلس وبالأناضول واختلطت بالنور المتجولين

فيها . بل رعا أدهشك أني أتكلم بلغة عربية لاعيب فيها لأني حفظت القرآن صغيراً وقرأت الكفراوي والأشموني بالأزهر ، بل إن ابنتي لتقرأ وتكتب لأني علمتها . ولو لم يمت أبي لكان لي اليوم شأن آخر . وهكذا اضطررت إلى أن أخلفه على هذه القافلة

وعند ذلك انطلقت من خلف الأخبية صرخة شقت الفضاء فلفت الشيخ ومن معه وإذا بسوسن ابنته (وهي تلك الفتاة التي كانت ترقص) تمدو حتى ارتمت في حجر أبيها وهي تقول : ألم أقل لك وله إنه لم يعد زوجي ؟ ثم انهملت دموعها فأخذ يلاطفها ويداعب خديها بأصابعه النحيلة ويقول : نعم يا سوسن لقد طلقته فلم يعد له بك صلة . طيبي نفساً واقصدي إلى الخباء فناي ، وعند ذلك مسحت دموعها بطرف ثوبها وصدعت بأمره . أما هو فنادى على ذلك الزوج (واسمه برى) وأنّبه وحذّره من الاستمرار في غوايته وإلاّ طرده . فتراجع مخذولا حزيناً ثم اختفى . وبعد ذلك التفت الشيخ إلى ضيفه وكأنه أدرك ما يتردد في نفسه فقال : إن الزواج عندنا سهل يا سيدي يكفي فيه رضى الطرفين وشاهدان منا

— حسناً ، ولكن هذا الطلاق ... ؟

— والطلاق عندنا حق لها . ألم تجز الشريعة أن تكون العصمة بيد الزوجة ؟ ذلك كان جارياً في طائفتنا التي نشأت على المساواة والحرية . وهكذا لا يتحكم الزوج في امرأته وهو يرى نفسه مهدداً بهذا الحق فيجتهد أن يصون علاقته معها بالاحسان والحب !

— وإذا كرهها أو كرهته ؟

طبيبي عندئذ أن يستعمل كلٌّ حقه ، فأنت لا تتصور كيف يطيب الزواج عند نفسين يقوم بينهما سد من الكراهية والبغض

وكان حسن افندي يتألم في نفسه ويستغفر الله في سره ، ولكنه مع ذلك أكبر هذا الرجل وأعجب به فنهض وهو يقول : ليت يتيسر لي الاجتماع بك مرة أخرى . ومع ذلك فلم لا تشرّفني أنت بزيارتك ... ثم دلّه على منزله وحيّاه . وكان الشيخ قد أعد له إحدى الفرسين وأثنين من رجاله يرافقانه ولكن كم كانت دهشته لما بلغ الكازينو وقد رآى سوسن .. أمامه !

إذن هي لم تنم كما أوصاها أبوها . ولعلها كانت أيضاً تنصت إلى ما دار بينهما من الحديث . ولكن ما الذي دفع بها إلى تعقبه ؟ أتعلها أرادت أن تمتّع عينيها بسحر ذلك الليل الفاتن ؟ ولكنها كانت تنعم به أيضاً وهي إلى جانب أبيها . ومع ذلك فقد كانت وهو يصعد إلى عربة الترام واجمة مشدوهة تكاد عيناها تفلتان ما حبستا فيهما من الدمع ، وتكاد صرخة الألم المكتومة في صدرها تنطلق من شفتيها

ومرت به كذلك حادثة برى معها وانصرافه ذليلا من لدن حضرة أبيها ، ولكنه كان يكره المرأة ويجهل معنى الحب ومعنى العذاب فيه ، فما كان يشعر بما شعر به ذلك الفتى من الحزن ولا بما كانت تحسه من النشوة وقد أصبح فؤادها طليقاً

كانت هذه الخواطر تتزاحم في نفسه على أثر وصوله عند منتصف الليل إلى داره . ولكن التعب الذي عاناه كان فوق احتماله فانحدر إلى فراشه واستسلم للنوم

وكان حسن أفندي يحرص على أداء الفروض

2017-11-15 Dar Al Kutub

فى أوقاتها ولا سيما صلاة الفجر . ولكنه لما استيقظ كان النهار قد ولّى ودخل الليل ، وهو مع ذلك لا يستطيع الحركة محيطا خارئاً كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، وكانت أعصابه مشدودة وخواطره مفككة . على أنه نهض أخيراً وصعد إلى سطح الدار فرآى القمر يبدو قرصه عند حدود الأفق ولكنه لم يأبه له وهو الذى حين رآه بالأمس انتقل به نفسه إلى قدرة الله وعظمته ، ثم مدّ بصره إلى الغرب فإذا بالأهرام تلوح أشباحها الشاحبة من بعيد ، فتذكر الليلة الماضية ورحلته إلى تلك القافلة وتذكر ذلك الزّمار الذى كان يعزف على نقرات الدف وتلك الصبية التى كانت ترقص كأنها عروس الصحراء

وعند ذلك انبسطت نفسه واستقرت خواطره وأحس دبيباً يجرى فى جسمه ، ونشوة تتمشى فى مفاصله ، وهو لا يهتدى إلى سبب ذلك . ولكنه يعود فيذكر تلك الفتاة الجميلة الرشيقة الليّنة فلا يشعر نحوها بتلك الكراهية التى تناولت فى عينيه كل بنات حواء . بل إنه كان يجد فيها دليلا ناطقاً بعظمة الله . وهكذا ينتقل بتلك النظمة من الكون بأسره إلى تلك الفتاة التى أصبحت شغله يراها إذا نام وإذا استيقظ وإذا صلى وإذا سبح ، وهو على كل حال سعيد راض ما دام أنها صارت وسيلته إلى الاتصال بالله ...

غير أنه يعود فيذكرها وهى ترقص ، وقدها ينثنى كالغيزانة ورد فاها يترجرجان كأنهما الموج ، ونهداها يطلان من فتحة قميصها كأنهما هرمان صغيران ، ثم يتدرج إلى عينيها وما تشعانه من سحر الفتنة ، وإلى أنفها الحلو الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين الشهيتين ، وابتسامتها التى يبتسم الوجود كله فيها فيزيه طرف خياله فى محاسنها ويؤمن بالله وعظمته فى صنعه . ولكنه يكون قد انتقل بها هذه المرة من صفاء الروح إلى كثافة المادة

ثم يذكرها حين لحقت به وهو يهم بالعودة والدموع حيرى فى عينيها وهى حزينة خاشعة لأنها أعجبت بومال قلبها إليه ، فيشعر كأنها أخذت تهبط رويداً رويداً إلى أعماق نفسه . ولكنه يذكر أيضاً موقف ذلك الفتى اليائس معها وما أسابه من الانكسار والذلة عندها فيقول : سبحان الذى أذله بها وأذلها بى . ولكنه يعود فيخيل إليه أن شيخه الذى عاهده على التقوى عند رأسه ينظر إليه شزراً ويؤنبه على ما فرط فى حق الله فينتبه مذعوراً وقد انتفض جسمه وضلت نظراته ، ويدرك أن الشيطان إنما يوسوس له ليخرجه من رحمة الله كما أخرج آدم من جنته فيعود يلوم على نفسه الأمارة بالسوء ويسارع إلى البكاء والندم والاستغفار

وظل حسن أفندى على هذا أياماً ينساها ثم يحن إليها ، ويصرف نفسه عنها ثم يعود إلى ذكرها ، كأنها حمى متقطعة تذهب وتعود ، وكأن لعودتها مداً وجزراً فلا تكاد تنحسر عن خياله حتى تطغى عليه إلى أن جاء يوم دخلت عليه فيه وهى تتخطر كالغصن فانفرجت أساريره وأشرق وجهه وقد مد إليها ساعديه ليضمها إلى صدره وهو يقول : تعالى يامستودع شقائى ونحيبى ، وياخيال يقظتى وحلمى ، لم أخلف أبوك وعده فلم يزرنى ؟

قالت : لقد انتقلنا إلى مقربة منك . أنظر . ثم أخذته إلى نافذة قبلية تطل على فضاء استقرت القافلة فى وسطه ، ثم قالت : ولكننا لن يطول بنا المقام هنا فقد عزم أبى على الرحيل مع الصبح غداً ؛ ولهذا

2017-11-15 15:25:48

أسرعت إليك فقد لا أراك بعد ذلك ... ولكنها حدقت فيه كأنها تتحسس ما يجيش فى صدره وقد حدثته نفسه أن يخالسها قبلة فسبقته إليها وعند ذلك طوّقها بساعده وضمّها إلى صدره فدبت حرارة جسمها الدافئ فيه واستيقظت الشهوة المكبوتة فى نفسه وقد توترت أعصابه واحتقن وجهه وانتست حدقتاه وتلاحقت أنفاسه فحملها إلى منضدة قريبة وقد أخذ العراك العنيف يضطرم بين فجوره وتقواه حتى تغلب شيطانه فهمّ بها ، ولكنها دفعته بساقيها إلى بعيد ، ثم قفزت إلى مقربة من الباب تضحك بملء فيها وتقول : لقد أخطأ حسابك فما كنا نحن بنات النور لنؤخذ غصباً ، ولكن إذا كنت إلى هذا الحد تحبنى فلم لا تتزوج بى ؟

— فقال :

رضيت يا سوسن وستكونين هنا ملكة على عرش قلبى ، وصاحبة الأمر والنهى فى هذه الدار وفى كل ما تملك يدى ، وستغرقين بعد الذى أنت فيه فى الديباج والذهب والحلى ...

ولكنها عند ذلك أشاحت بوجهها عنه قائلة : مالى ولكل هذا الذى ذكرت ؟ إننى لن أغيّر هذه الأسمال التى علىّ ولن أستعيض عن هذا العقد بغيره وإن كان من الخرز ، ولا عن هذا القرط وهذه الدمالج بسواها وإن كانت من النحاس . لقد درجنا على القناعة . حسبنا بالشمس والهواء والحرية نعيا نمرح فيه ، ومع ذلك فان بينى وبينك من فوارق البداوة والحضارة سداً ... إلا إذا زلت على دينا وعشت معنا كأنك منا . ولكنك لن تفعل فخير لك ولى إذن أن ننسى ما كان . ثم انطلقت نحو الباب ...

... خرجت بغير أن تتردد أو تلتفت قوية عزيزة وهى التى ليلة تعقّبته كانت تغيض عيناها بالدمع وملاعمها بالأسى خائرة ذليلة

ولا ريب أنها كانت تحيّه وتنهال عليه وقد فرغ قلبها من برمى . والطبيعة تنفر من الفراغ ، فقلبها لن يعيش بغير الحب ؛ ولا يفتأ عاصراً به لأنه غذاؤه وجنته

على أنها لم تكرهه أيضاً ساعة غادرته على تلك الصورة . وإنما وجدت نفسها بين دافعين من حب تمكن منها وتقاليد ورثتها واستقرت فى دمها . ولو أنها كانت من غير بنات النور لاحتفظت بحبه ولسخرت من تلك التقاليد القاسية الجافة وأمامها من متاع الدنيا ضياع وقصور وحلى ومال وترف ونعيم ، ولكنها آثرت على كل ذلك أسمالها البالية وحليها الرخيص الكاذب . بل إنها عافت نفسها أن تتزوج من غير قبيلتها بغتى لا يحمل فى نفسه وفى ذمه عاداتها وتقاليدها . ولذلك هان عليها ذلك الحب ونعيمه فى سبيل رعايتها والقيام عليها

ولو أن حسن أفندى كان تأثر خطواتها عند رحيلها لرأى كيف أنها أسرعت إلى خباء أبيها وارتمت عند ركن منه تتململ وتئن وعيناها تسكبان الدموع السخينة وصدرها يرتفع وينخفض تحت تأثير أنفاسها المتسارعة الحارة ، ولعل إلى أى حد هو عزيز على نفسها ، وإلى أى حد هى تحبه وتجود بحياتها فى رضاه . ولكنها هان عليها أن تحطم عناءها بيدها على أن تكفر بتلك التقاليد

أما هو فكان عند انصرافها حائراً ذاهلا وقد صدمه شرطها إذ يستحيل عليه أن يخضع له أو يفكر فيه؟ وله هو أيضاً من كرامة تقاليده ما يقف

ما يقف حائلا بينه وبين الاسترسال فى هذا الحب . والتقاليد عقيدة كالدين من خرج عليها كان كالمرتد . ولذلك حمد الله على أن وقف بهما الأمر عند هذا القدر وعلى أن قافلتها سوف لا تقيم أكثر من سواد ليلة ثم ترحل فلا يعود يفكر فيها ولا يلبث أن ينساها

وقد كان من أسباب الترفيه عنه أن تلك الليلة كانت من ليالى الحضرة وقد أقبل إخوانه فانخرط فيهم وأخذوا يذكرون الله ويتلون الأوراد ويرتلون دلائل الخيرات . ثم انتصبوا للذكر فما كاد يرتفع صوت الناى وينى المنشد : يامليح اللى وحلو الثنى . حتى انتقل خاطره إلى الصحراء ينصت إلى صوت ذلك الأرغول وهو يثير الحنين . وينظر إلى تلك الفتاة وهى تملأ عينيه بسحر تأودها وتثنيها . وعند ذلك ذكر ما كان من أمرها معه فصرخ صرخة هزت المكان وسقط على أثرها يثير وعى فتفزعه إلى غريزته ثم انصرفوا وهم يهللون ويكبرون لأن روحه الصالحة النقية فازت بالحظوة عند الله وتجلت عليها أنوار السماء ...

ولم تلبث هذه النشية قليلا حتى أفاق فأخذ يبكى كالطفل وقد أدرك أن حبها قد تمكن منه وأن علته بها أصبحت بحيث لا ينفع فيها طب ولا يسرفها عنه صلاح أو تقوى . وعند ذلك انتقل إلى تلك النافذة فإذا بالسكون شاملا وبالخيام التى كانت تموج بالحركة ساكنة هاجعة فيحدق فيها كأنه يتبين أيها تحوى تلك القاسية التى نعم جفناها بالنوم وهو بعيد عنه

ولكن لم يواصل التفكير فيها وقد انقطع كل ما بينهما ، ولم لا يحاول النوم هو أيضاً فيضع به حداً لهواجسه وعذابه ؟ وهكذا عاد فانطرح فوق سريره وغلبه سلطان النوم ، ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً حتى استيقظ فجأة عند الفجر على ضوضاء وجلبة من جانب ذلك الفضاء فأسرع إلى النافذة ولكنه لم يجد للأخبية أثرا . ورأى العربة تهيأ للرحيل يتقدمها أفراد القافلة ومن خلفها شبح لم يكن غير شبح سوسن لأنها كانت تلتفت إلى جهته كأنها تتزود منه وتودعه، فطارت نفسه جزعا واندفع كالسهم إلى الطريق . ثم أخذ يعدو وينادى حتى لحق بها ...

« القاهرة » محمود غنيمت

مؤلفـــات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشية (محلى بأحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بجيدان ابراهيم باشا

من التاريخ الإسلامي

ابن الحب

للأستاذ علي الطنطاوي

(الطائف) ... تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم — كما تروى الأساطير[1] — سارت من روبع الشام بينابيعها وجداولها وبساتينها ورياضها وزهرها وثمرها فطافت حول الكعبة ، ثم تسلقت الجبال حتى استقرت في أعالي جبل (غزوان) ، وهجعت على سرير من السحاب حالة بالسهول والأنهار والنعمة والخصب ، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة ، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة ...

(الطائف) ... مدينة الحجاج ...

نامت (الطائف) في تلك الليلة الساكرة القمراء ولفها الليل بنلالة رقيقة ، ينفذ من خلالها شعاع القمر فيبدى محاسنها الفاتنة ، ويحسر عن بيوتها المختفية بين الأشجار كأنها أسراب من المشاق قد تنلفلت في هذه البساتين ، لتقوم إلى عزلة سعيدة ، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي ، وتحلم بلقاء جديد .. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم ، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال الفاتن في هذه الجبال الكاسية بالعشب والزهر ، ولم يبق في المدينة عين ساهرة ... إلا عين سيد غريب يذكره هذا الليل الساجي ، وهذا البدر المطلّ ، بلده وحبيبه فيؤرقه الشوق ، فهو يطوف بهذه الرابع ويده على قلبه ... وعيوناً أخرى خلال هذه البيوت البعيدة التي تسكن فيها الرذيلة وراء هذه الأضواء الكاذبة التي ترتجف من الخجل ، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في استحياء أجساداً عارية تطفح بالشهوة ... ينتظرن عابراً يسوقه القدار إليهن فيمنحه اللذة ، ويطعمنه من لحمهنّ ... ليطعمهن دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء ، ولا يكون نصيبهن بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز مبجونة بالدم والشرف والوحل ...

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الاسلام !

فلما مال ميزان الليل ، وغلبهن التعب ، ولم يطرقهن طارق ، تسللن إلى بيوتهن فنمن على فرش العار ، إلى الصباح ، ليستقبلن من يقذف به القدر اليهن من الرجال ... ولم يبق إلا فتاة صغيرة ، تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء ، تفيضان بالطهر ... رغم أنهما في وجه بنيّ ، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه الرقيقتان ، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنان الخالدة ، غير أنها لا تذوى ولا تذبل ، وأنها من لحم ودم ، وأنها تشمّ بالفم ، وتلمس بالشفاه ... وأنف إغريقي جميل كأنه أنف فينوس ، وشعر أشقر متموج يبرق

(١) راجع (الياقوت) في (معجم البلدان)

2017-11-11 ٢٠:٤٥:٤٩

تحت أشعة القمر كبريق الذهب ، وجسم أبيض فتن ، له لون العاج ، ولين الحرير ، وسحر الحب ، وفعل الخمر ... فهي وردة نمت في غير أرضها فزادت إلى جمالها جمال الندرة ، وهي ملك هبط من سمائه فوقع في هذه البقعة الممتلئة بالرجس . ولو أن للحياة أسلوبنا نحن البشر وتفكيرنا لكان مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تضمها إلى صدرها الفياض بالتضحية والاخلاص ، أو زوج يذيقها الحبّ والوفاء ، ويكتم سرّ هذا الجمال أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة ، والأيدي المجرمة ... ولكنّ الحياة لم ترَ لها إلا هذا المكان الذي تعرض فيه الأجسام البشرية لكل وحش بشري ... أفرأيت الزهرة الياسمة تلقى بين ألسنة اللهيب ؟ والحمل الضعيف يرمى بين أنياب الذئاب ؟ كذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل وَبْش فظ غليظ من ذئاب البشر وكلابهم ... هي زهرة ، ولكنّ الرياح العاتية قطفتها من غصنها ثم ألقتها بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكنّ النهر الجياش اختطفها من منبتها ثم رمى بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والبشر ... هكذا صنعت بها الحياة . إن للحياة أسلوباً لا نعرفه ، ولا تصل إليه مداركنا البشرية ...

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذي يعبث بعينها الناعستين من غير نعاس ... تأمل أن تجد أمراً يدفع إليها المال الذي فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه الحياة الفاجرة ... فزلزلت على إرادته ، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع ... وهل تستطيع له مقاومة وهي أمته وملك يمينه ، حملها من وطنها البعيد فهل من كأس جالمها حتى شبع وروى ، فصبّها على قارعة السبيل تلغ فيها الكلاب ... إنه يصرّفها كما يصرّف دابته ، ويصنع بها ما يصنع بثوبه يلبسه أو يرميه في الطريق ، أو يهديه إلى صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ... وذكرت عرضها الذي مزقته مطامع سيّدها — وجسدها الذي أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل شكل ولون ، فانطلقت تبكي ... وذهبت هاتُه على وجهها ، حتى ابتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هي بشبح يسير في شعاع القمر ، متشحاً بثوب أسود لا يبين منه شيئاً ، فظنته من رجالها ... ومشت إليه ... فلما رآها ارتاع وارتد ، وعجب أن يرى فتاة صغيرة كأنها هي حوراء من حور الجنان تسير عارية تحت ذوائب الليل ... وسألها : مالك أيتها الفتاة ؟

— مالي ؟ ماذا ترى فيّ ؟

فلم يجب وجعل يحدق فيها تحديقاً شديداً ، مأخوذاً بجمالها ، وهي تنظر متعجبة لأنها كانت من السذاجة والصفاء بحيث لا تدري جمالها وفتنتها ، ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ، وإنما جلهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ... فما بال هذا الرجل ؟

وسرت دقائق حسبها كل منهما دهراً طويلاً ، ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن تنال رودة الليل من هذا الجسم الفتن الناعم الذي خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟

فأجابته هذا الجواب الذي ألفته حتى ما تفكر في معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها تؤديه كآلة جامدة :

— بعشرة دراهم ... هل تدخل ؟

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظبي أفلت من شبكة الصياد ، وتبعها حزيناً متألماً يفكر في هذا الجمال الطاهر كيف تهوي الرذيلة على تدنيسه ، ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق الطهر والعفاف ... حتى بلغت الدار ، فدخلت ودعته إلى الدخول ثم أغلقت الباب ، ووقفت بين يديه تنظر ما يريد ... يا لهذه المسكينة التي عاشت وسط الرجس ولكن قلبها ظل تقياً طاهراً ، لأن الخطيئة لم تصل إليه ... فلم يمد الرجل حراكاً ، فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون . ماله لا يصنع ما يصنع سائر الرجال ، يأخذونها عارية كشعاع القمر ، فيعشون بها ، ويسخرونها لذاتهم كأنها هي أداة لا تعقل ولا تشعر ، ويضطرونها إلى فتح صدرها وشفتيها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم ، ثم يلقونها بعد أن تكل أجسادهم الجشعة ، كما يلقى المرء برقالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة ممزقة خالية من الماء ...

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه ينزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ، فيبدو من ورائه شبابه وجماله ، وثيابه الحريرية الثالية ، ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه ، وينطلق يسائلها عن أصلها ومنبتها في لطف ودعة ... ويلقى في أذنيها أحاديث الحب السامي التي لم تسمعها من قبل ، فيحيي في نفسها الطهر والفضيلة ، وينسلها من أدران هذه الحياة الداعرة ، فتحس كأن جناحيها اللذين حطمتهما يد الأيام قد نبتا من جديد ، وتحس بأن هذا السيد الذي هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك الرحمة ، يطير بها في آفاق لم ترها بعد . ولكنها آفاق واسعة كلها نور وعطر ...

وتذوق للمرة الأولى لذة القبلات المسمولة ، التي تمتزج بها النفسان وتتحدان ، وتعرف حرارة الصدر المحب ، وحلاوة العناق اللذ ... فتلقى بنفسها على صدره ، وتمنح للمرة الأولى قلبها وجسمها معاً ..

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور ، تنسل الأرض بالنور ، بعد أن خلعت عنها رداء الظلام . فوقفت الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب يغسل نفسها ويطهرها ، وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته ، وتنبهت في نفسها ذكريات ماض بعيد حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد أكسبه الحب يقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضي تتدافق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كتلألؤ الصباح ، وحياتها في تلك الخمائل البعيدة ، في أرض فارس ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات ضبيبة . لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها .. ثم تفكر في حياتها الحاضرة ، التي تخوض حمأتها الدنسة ، وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التي مست جسدها ، وعانقته وقبست منه لذتها ، فيمروها ارتجاف شديد ، وتوارى وجهها بكفيها حياء وخجلا ... ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ؛ فتعزم على التوبة لتصل ماضيها البعيد الطاهر ، بمستقبلها الذي طهره هذا الحب الوليد ...

وبزغت الشمس ولم ينمض للفتاة جفن . فدخلت منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها

يتمنى أن تمنحه اللذة فتأمل فى وجهه فإذا هو بكر الثقفى أشد شباب الطائف وأقواهم ، فيرعبها مشهده ، ويروّعها كأنها هى عذراء لم تفارق خدر أمها ، فتبتعد عنه مضطربة . . . فيجبه ذلك منها ، ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ فى الاقتراب منها ويأخذ بيدها ، فتحس لمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها ، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها وتصرخ به :

— ابتعد عنى ! فيضحك الرجل ويكركر من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه . .

فتعود إلى صراخها . . .

— ما النزال نافراً هذا اليوم ... تعالى

— قلت لك دعنى ... دعنى ... لست لك

فيصيح بها ساخراً : لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول ؟ ألزوجك ؟

ويوغل فى الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه وتوغل فى الصراخ ، فينضب الرجل ويقسو عليها

— ألم تقل لك إنها لا تريدك ؟

صوت هادىء متزن ، جعل بكراً يرسل الفتاة ويلتفت إليه ، فيرى سيداً كامل الشباب ، موفور الرجولة ، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنى ، وتطمئن الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقذها . ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أى رجل هو بكر ، ذلك الذى لا يقوم له شاب فى هذا البلد ولا كهل ، وتنتظر نهاية هذا العراك ، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها

ويصيح به بكر منضباً :

— من أنت أيها الرجل الذى يتجرأ على بكر الثقفى ؟

ويرفع يده عليه ، ولكن الرجل يقبض على ذراعه ، ويقول له هادئاً :

— أتحب أن تعرف من أنا ؟ اقترب لأخبرك

ويلقى فى أذنه ذلك الاسم الكبير ، فتسقط يد بكر على جنبه ، ويتعثر لهذا السيد ، ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عمّن يبيعه اللذة .

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التى أعدّها لها ...

وعقد الحب رباطه المقدس بين قلبيهما ، فأصبحت هى حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون معها ، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة فى عينيها ، وملأت نفسه هذه الفتاة التى ظهرت له فجأة ، كما تظهر الشمس فجأة من وراء الجبل فتملأ الوادى نوراً وحياة ...

لقد نسى هذا السيد المجد الذى ينتظره فى مكة والمعركة الكبرى التى ترقب فيه قائدها ومديرها .

ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق ...

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه ، والفضيلة والرذيلة ، والطموح والحسد ، ولكن لا يمحوه شىء ...

الحبّ أحجيّة الوجود ، ليس فى الناس من لم يعرف الحبّ ، وليس فيهم من عرف ماهو الحبّ ..

الحبّ مشكلة العقل التى لا تحلّ ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى ...

الحبّ أعذب مخلوق وأقواه ، يختبئ فى النظرة الخاطفة من العين الفاتنة ، وفى الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية ، وفى البسمة المومضة من الثغر الجميل ... ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً ، فيبنى الحياة ويهدمها ، ويقيم العروش ويظلها ، ويفعل فى الدنيا الأفاعيل ...

2017-11-14 Dar al-Kutub

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرهما ، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها ، فكان هذا التكاشف طريق الوحدة ، والفناء فى الحب ، حتى إذا لم يبق لأحدهما سرٌّ يكتمه عن الآخر لم يبق له (أنا) ينفرد بها عنه ...

لقد طهرها بحبّه ، وصهر ماضيها الملوث فأحاله بنار الهوى جوهراً خالصاً ، ورفعها من الحضيض الضيق الذى كانت تتقلب فى ظلماته إلى سماء عالية رحيبة . وليس كالحب إذا خلص مطهراً للنفوس ، ومصلحاً للأمم ، وحافزاً إلى الفضيلة ...

الحب مدرسة الله الكبرى ، وقانونه الأقدس

لولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض بنور ربها ، ولا منحتها الحياة والنور . ولولا الحب ما التف النصن على النصن فى الغابة النائية ، ولا عطف الظبى على ولده فى الكناس البعيد ، ولا حنا الجبل على الوادى المتزلل ، ولا أمدّ الينبوع الجدول الساعى نحو البحر . ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض ، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع ، ولا كانت الحياة . . .

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها الأولى ، فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة على البساتين القريبة ، والغفار البعيدة ، فيشاركان العصافير غناءها ، والورد ضحكه ، والنسيم همسه ، والنور طهره وصفاءه ، فيتحدثان ويتناغيان كحمامتين ضمّهما وكر ، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة ينثون أغانيهم الساحرة أو ينفخون فى الناي تلك النغمة الفاتنة التي يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جالها ، فاذا انبسطت الشمس وتصرّمت الظلال أووا إلى الدار فعاشا روحاً واحدة في جسمين ... حتى إذا وقفت الشمس الوداع خرجا مرّة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس ، فينظر كل منهما بأربع عيون ، ويهمس فى أذنها وهى فى حضنه ، صدرها إلى صدره ، وخدها مستريح إلى خده ، بأناشيد الحبّ العذبة فتسمعها روحها وتجيب عنها بلغة عينيها ، حتى تغيب الشمس ويلق الليل ذوائبه السود على الدنيا فيودعان

الحب ربيع الحياة المزهر ، ولكن الربيع ينتهي ويأتى الصيف بحرارته ، والخريف بشحوبه ، والشتاء بزمهريره ، ولابد أن ينتهى الربيع ! أيام الحب كأس مترعة بالخمرة الأخيرة ، ولكن الكأس تفرغ ويحسّ الانسان بالظمأ ، ولابد أن تفرغ الكأس !

عاشا فى ليالى الحب ما عاش الصيف ، فلما بدت طلائع الخريف وغمرت الطائف وصخورها ، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد .. لم يبق بدّ من الفراق ... إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة ، يخوض قومه لظاها أفيبق فى نجوة من لظى الحرب ، وهو السيد الشريف والفارس العلم ؟ أيتقلب قومه فى غمار المعركة الملتهبة ويتقلب هو فى أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الخمر ؟ لو أن رجلا من قريش لم يكن فى العير ولا فى النفير رضى بهذا القرار لكان له سبّة الدهر ؛ فكيف بسيد العير وبطل النفير ؟ لم يبق بدّ من الفراق ... فليمزق قلبه

2017-11-11 ٢٠١٧-١١-١١

شطرين ، فيدع شطراً فى هذه الأعالى الخضراء الساحرة يحلم بالحبّ ، ويتجرع غصص الذكريات ، ويذهب بالشطر إلى ميادين الجد ليألم فى سبيل الوطن ويحمل جرحه الدامى ليأسو جرح أمته ، ويضحى بالحب فى سبيل الواجب ...

وتهيأ للوداع ...

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحبّ ، فيودعها ذكرياته وقلبه حتى انتهى بهما المطاف إلى هذه الصخرة المشرفة على الصحارى النائية ، فجلس إليها وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفى وجهه فى عنقها وخلال ثيابها ، ويتمتع عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام الفراق . وأخذت هى بنشوة الحب فجعلت تشد يدها عليه وتمسح بشعره ، وتريح رأسها على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحبّ يصنع المعجزة التى ينتظرها المحبون أبداً ... أن يمحو هذه (الأنا) و (الأنت) ويجعل العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة ، وترى وهى بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين ...

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرأته يحدق فيه ، وفى عينيه دمعة ، فراعها ما ترى ، وانطلقت تسائله ...

— اسمعى يا فتاتى ...

— أنا سامعة ؟

— أريد أن تنفرى لى ؟

— ومم تستغفرنى أيها الحبيب ؟

— لقد كان حبّى وبالاً عليك . لقد كانت حياتك ساكنة ساجية كليل الطائف ، فلأما حبى زمهريراً وبرقاً ورعداً . لقد كانت مثل اللجة الهادئة ، فهجت فيها الأمواج . لقد أورثتك الألم — والألم حصاد الحبّ ، فهل تغفرين لى ؟

أى ألم يا حبيبى ؟ أنا سعيدة — سعيدة جداً .

وانطلقت تقبله فى فمه —

— ولكن الواجب يدعونى إلى الذهاب —

— بودّى ألاّ أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ، ما ذا يصنع الانسان يا حبيبتى ؟ .. أتحبين أن يقال أنى فررت من المعركة ؟

— وأنا ؟

— سأعود إليك ، أحلف لك أنى سأعود —

— وهذا الذى فى أحشائى ؟

— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت حامل ؟

— نعم

— آه . إبنى !

واستطاره الفرح فأقبل يضع قبلاته من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه .

— ليتنى أبقى حتى أراه . ليتنى أبقى . هذا إبن الحبّ —

— إبق ، إبق ، أتوسل إليك ، ماذا تخشى ؟

— أخشى العار ، انها سبّة الدهر ، فدعينى أذهب . سأعود إليك ، أفتنسينى إذا انا ذهبت ؟ أتثقين بنفسك فى أحضان غيرى ؟ لا لا ، إنك لن تنسى . إنك ستقومين على تربية ابننا . ستنشئينه على العظمة والمجد ، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث أبيه — وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه . دعيه ينشأ مستقلاً كالزهرة المتبقة فى الجبل ، ويعش حراً كالطائر الذى يغرد على كل غصن . لا تخبريه من هو أبوه ، بل أعدّيه لفهم هذه الحقيقة ، حتى إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوا لحمل هذا الاسم

2017-11-11 Page 18

كنت أنا الذى يخلعه عليه ، وان لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه اسمى ...

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر فى هذا الطريق الضيق ، الذى يختفى حيناً وراء الصخور ، ثم يظهر ويوالى سيره نحو الرمال حتى غاب عن ناظريها ، فتلفتت تلقاء البلد ، فاذا هى تتكرها وإذا هى لاتعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد ان غابت عنها دنيا الحب فخفق قلبها واضطرب ، وجعلت تنادى حبيبها وتلح في النداء . وتشير إليه وقد غاب عن ناظريها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيباً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً . فخرت على وجهها باكية منتحبة

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذى ولد شاباً قوياً ، ولكنه مات طفلا صغيراً وهذا المال الذى أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها وترضى به سيدها ليدعها آمنة مطمئنة إلى حياة شريفة لا تدنسها الرذائل ، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل فى الهوا الخالى ، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها. لم يكن لها إلا الحب ، فكانت تعانق الحب فى الليل وتسايره فى الطريق ، وتناجيه فى الصباح ، وتناغيه فى المساء وتصحبه إلى هذه الأماكن التى عرفت فيها السعادة ولكنها لا تجد فى كل ذلك إلا الألم . إن كل ماترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالى السعادة تستحيل إلى آلام ، فيا ليت الانسان لا يذكر ، إذن لما تألم ، إن ذكرى اللذة مؤلمة . وذكرى الألم لا تسر .. أو ليس من أكبر النعم على الانسن أن ينسى ؟ ولولا النسيان كانت الحياة لا تطاق !

لقد قوى حبها واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص فى شعاع الشمس ، يلهو بالألاعيب إلى شيخ يائس يتأمل فى الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهى ، ولبس ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها فى أمر واحد هو التفكير فى الحبيب الذى أكسبه طول التفكر سورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التى استقرت فى خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكله الحقيق لما أعجبها !

أرادت أن تغرق غرامها فى لجة السيادة فكانت تؤم معبد قومها فى الصباح الباكر ، لتنفى إلى صلاة عميقة ، فلا تجد فى هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يثير فى نفسها الورع والخشوع ، وتمثل لها مطرقة النحات الذى صنع هذا الآله ... فتضاف عبادته ، ولا يروقها منها ما كان يروقها وهى صغيرة من نار الدهقان الذى نشأت فى داره ، ولكنها نسيت عبادة هذه النار منذ زمن بعيد ، فبقيت حائرة لا تطمئن إلى عبادة

ما أشقى المحبين ! يعشون كما يعشى الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم يعيشون فى دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها ، تضيق الدنيا بالحب إذا جفاه محبوبه حتى ليكاد يختنق فيها على سمعها ، ويجد فى العش الضيق الذى يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة ، ويتألم الحب فى اللذائذ ، إذا لم يذقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة سواد فى عين الحب قاتم إذا لم تعرها مقلتا المحبوب

كان عمل هذه الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التى ولد فيها حبها ونما . فتبكى وتتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوهم أحياناً فتظن

بأن الحبيب حاضر معها . فتهم بمناقته وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة ، فيجب قلبها ويشتد خفقانه ، وتسقط على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدري بها إلا الله ، وكانت تأمل أن يعود فتنظره على الطريق وترقب الدقائق فاذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى منزلها آيسة محزونة ...

وانتفخ بطنها من الحمل ، فباتت تحمل أثقال الحب في بطنها وقلبها ، وعزفت عن الطعام والمنام ، فرق جلدها وتهافت جسدها ، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها ، ومنازل هواها ، فكانت تحيي الليالي ساهرة مؤرقة ، تناجي النجم ، وتسائل الليل عن حبيبها ، وتخاطبه من وراء الصحراء كأنه معها

« أين أنت أيها الحبيب ؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً ، أم أنت بين ذراعي غيري ؟ قد نسيتني ومحوت من نفسك ذكرى هذه البنى التي طهرتها بحبك ، ولكنها لوثت شرفك وجدك بمانيها الدنس ؟ لقد كان حبك لي نقياً كماء السماء ، ولكن شهوتي المضطرمة عكرت صفاءه ... أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام ، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء ، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها ، ولكن هذا التراب الذي ظل عالقاً به قد غبّر جناحك أيها الصقر ، أفلا تعفو ؟

قد قنعت بك من الحياة ، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت ، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت ؟

أتذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين ، والطير ترتل صلاة المساء ، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء كأنها مريضة غاص رأسها في عشرات الوسائد ، ونحن متعانقان صدري إلى صدرك ، وعيناي إلى عينيك ، وخدي ملصق بخدك ، أقبل عنقك وتمرغ شعثيك بشعري ، ثم نهتني إلى مشهد الغروب ، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين ، حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...

أتذكر ... ؟

أتذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة ، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها حين تمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الذي يربط بين قلبينا ، تتلفت حولنا فلا ترى إلا جذوع الأشجار المتأنقة ، تتسلسل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها ، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معي ، وهل كنت أبتغي من دنياي أكثر من ذلك ؟ حسبي أنت من الدنيا ... أتذكر ذلك ... ؟

أتذكر تلك الشجرة المنزلة الوحيدة التي كان لها في تاريخ حبي أجمل الآثار ؟ أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها ...

لماذا أذكرني لذة الحب ؟

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها ، أعيش في الظلام ، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهي اللذة ... فلا النور دام ، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام ! »

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت ، لأنه مكتوب في كل قصة غرام ، وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها ؟ وهل تمر ليلة على

بلد فلا ترى فى أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينما ينام الناس آمنين لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شىء لا يدرى به إلا المحبون !

ولبثت الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك فى بطنها ... فذهبت تدفع وحدها ثمن هذه اللذة التى شاطرها متعتها الرجل ...

واستهل الوليد جميلا كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كضلع الربا ، تبدو فى عينيه كبرياء أبيه ، وجمال أمه ، كما يبدو خيال السماء الصافية فى البحيرة الساكنة ، فتمتلئان بهما كما يمتلئ الجدول بمياه الينبوع الصافى ، ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعى فى مسارب الوادى العميق ...

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، ونذرت له حبها وحياتها ... وعزمت أن تكون له أماً لأنه ابنها ، وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على الكبرياء والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذى أحبت ، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير ...

وتكامل مثلما يتكامل القمر فى أوائل الشهر فلم يلبث أن صار بدراً فى كل عين ، ونما مثلما ينمو الغصن الغض فى خمائل الروض ، يرتفع فى الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله وزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بسطوه كل أنف ، وتزايد كأنه أغنية حب بدأها همساً فى جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء ، فلم تلبث أن صارت أغنية الحب على كل لسان ، ويقوى كأنه الحب ينبثق فى القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً فى كل قلب ... كذلك أصبح هذا الغلام ...

كان ملء العيون والأفئدة ، ثمر السنون فلا تزيده إلا ذكاء ونبوغاً ... وكان سعيداً بنعم بحب أمه ومالها ، ولكن أسراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة ، ويؤلمه أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه ... وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولوّن لها الأساليب . فكان يمنعها من أن تخبره إرادة أبيه . فتظل معتصمة بالصمت ... وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدى ! ...

فأزمع أن يكون بفعاله أبا نفسه ... وأن ينزل من هذه الجبال فيناضر فى الحياة ...

ظل ذلك السيد القرشى يفكر فى الفتاة ويصلها بالمال ويتعرف أخبار ابنه ويقوّم سبيله ، ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له فى حياته مكان. إن على عاتقه عبئاً ضخماً ، إنه يقود إحدى الفئتين فى أعظم معركة عرفها تاريخ الانسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة ... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستبداد ، بين المستقبل المتنظر والماضى القديم ، بين الحضارة والبداوة ... وكان هذا السيد قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا النور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضىء الجزيرة ثم يخرج إلى الشام والعراق ، فترفرف عليها رايات محمد ظافرة منصورة ؛ وإذا أبو سفيان هذا السيد القرشى جندي صغير فى جيش محمد ... ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على الكفاية ، ولا يعرف الطبقات ولكنه يقرّ المساواة . فهبط أبو سفيان ، حتى صار

2017-11-15 20:20:48

جندياً ، وارتفع هذا الرجل الذي لا يملك نسباً في هاشم ولا أمية — وليس له جدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فإذا الدعوة التي كانت تكافح لتغلب مكة ، قد استخدمت مكة وأهلها والجزيرة كلها ، في حرب الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب وعبثوا بتراث الانسانية ، وإذا القرية التي كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبة الأرض ووارثة للدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية في بلادها . وإذا هذا المسجد الصغير المبني من الحجارة والطين وسعف النخل ، ينقلب الايوان العظيم بشرفاته ودعائمه ، وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ، ومدرسة العالم . . .

في ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع في هذا المسجد ، وكان المسجد دار السياسة كما كان دار العلم والعبادة — فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد وقدم إليهم شاباً لم يروه من قبل يدعى زياداً ليصف لهم هذا الفتح الذي جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان في أصل المنبر إلى جانب علي خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد — ابن الحبّ — وحبس أنفاسه ليصغي إليه ، وقد خاف عليه الفضيحة ، فإذا الفتى الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب ، ويستهوي القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلي :

— (أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟)

— (نعم)

— (أما إنه ابن عمك)

— وكيف ذاك ؟)

— (أنا قذفته في رحم أمه سميّه)

— (فما يمنعك أن تدعيه ؟)

— (أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد عليّ إمامي[1])

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية ، وقد استيقظت في نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء سبعة عشر عاماً إلى تلك الفتاة التي أذاقته السعادة ، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علناً ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد ، إن اسم أبي سفيان لا يحمله إلا قائد كبير ، أو وال أو أمير ، فليتربص وليتظر ؛ ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد فمن هو الذي يحمله هذا السر الذي يضيق به صدره؟ ليس له إلا صدر معاوية ، وذهب يلقى معاوية (كسرى العرب) ...

إسمع يا معاوية ... أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك ... أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التي جمع الله كبر النفس ، وكرم الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة ، واختلفنا ... وتحاكما إلى بعض كهان اليمن ... وجزعت أمك وخافت ، فقال لها عتبة :

— (اني أرى ما حلّ بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك)

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب

(١) جمل من التاريخ

ولا آمنه أن يسعى مبيتاً يكون علىّ سبّة)

— (قال : انى سوف أخبره لك[1])

وخبأه حيثما شرفها ، ثم قدموا إليه أمك فى نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب يده على كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من أمك ، فقال لها ، انهضى غير متهمة ولا جانية ، (وستلدين ملكا يقال له معاوية[1])

فنهض إليها فاحتمله فأخذ يده ، (فنثرت يده وقالت إليك عنى ، فوالله لا حرصنّ على أن يكون ذلك الملك من غيرك[1])، فكانت امرأتى ... وكنت ابنى ...

فاذا سمعت بشارة الكاهن ، فاعلم أن لك شريكا فى ذلك الملك ...

فى ذلك اليوم تسمع صوت أبى سفيان أبيك الذي يستصرخك من أعماق قبره ، ومن فى أعماق قلبك ، لترفع ابنه الذى انبثق من قلبه وحبه وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك وإرث أسرتك الماجد ...

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ أتعرف زياد بن عبيد الذى خطب على منبر المدينة بين يدى عمر ، خيراً بالفتح ؟ ذلك هو ابن أبيك ، ذلك هو (ابن الحب) فاجزنى هل تحفظ وصيتى ؟

— نعم يأبى نعم

— إذن تقرّ عينى وهى تحت التراب

وذهب أبو سفيان يذكر ليالى الحبّ !

على الطنطاوى

(١) جل من التاريخ

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة فى أثمانهـــــا .. جميلة فى ألوانهـــــا

فبادروا بأخذ طلباتكم

الملك والدرويش

بقلم ولفريد ستابلشيز

للأستاذ محمد لطفي جمعة

كان فى بعض أقطار الفرس — آذربيجان — ملك اسمه فضل الله ، وكان عادلاً رحيماً ، رؤوفاً برعيته ، كريماً على فقرائهم ، ساهراً على سعادتهم ، شاهراً سيوف جنده للذود عن حياضهم . يجوس خلال ديارهم لينصف المظلوم للظالم ، قائماً بواجب الحكم خير قيام ، ناصباً ميزان العدل والاحسان . ومن حسن سيرته وسماحة نفسه أنه كان يعيش على أتم وفاق ووئام مع زوجته الحسناء أنوشروان . وكانت الملكة أنوشروان نموذجاً للوجه الضاحك المستبشر الطلق المتهلل ، الناطق بما تجيش به الروح من مشاعر الفرح والطرب وعواطف الرقة والظرف والدعابة ، فأجال فى صفحات ذلك الوجه الفارسى البديع ماء البشر والبشاشة ، وكساه رونق الأنس والابتهاج ، ونضرة النعيم والأمن والطمأنينة وكالبدر ينبئها تودد وجهها

إلى كل من لاقت وإن لم تودد

هـذا البشر والبشاشة والابتهاج التى هى أهم عناصر الحسن والجمال فى المرأة لا تجتمع إلا مع الأدب والتواضع والرقة ، ولا تتوافر إلا لمن ينعمن بعيشة هنية وحياة رضية

وكان الملك فضل الله صالحاً ورعاً ، تقياً مؤمناً ، يقرب من يتوسم فيهم الاخلاص ويثق بمن يظهرون التقوى ، ويلين لهم ويصدق عليهم تزلفاً إلى الله وقربى. فقدم على بلاطه يوماً درويش من المتصوفين حديث السن ، جميل الصورة ذو فطنة وذكاء وأدب وظرف ، فأقام أياماً بين الحاشية والبطانة ، فاستطاع أن يجتذب إليه القلوب ويفتن الألباب برقة شمائله وحلاوة طبعه ، وظرف خصاله ، وعذوبة حديثه . وكان الفتى المتصوف جم التواضع ، كثير الاطراق ، ذا قناعة وعفة ، غزير المعرفة ، فنمى خبره إلى الملك وبالغ الأمين الذى وصفه فى حسن تقديمه فى غيبته

فتاقت نفس الملك إلى رؤيته وسماع حديثه والسرور بارتشاف سلافة محادثته ، فأوفد أمينه

تصريف القصة

ويقرر ستابلشيز كاتب انجليزى عقل ، أحب الأسفار فى الشرق وكان ذلك عقب قراءته قصة « حاجى بابا الأصفهانى » التى كانت لها شهرة فائقة . فسار فى إيران وجذبه إليها شعر الخيام ، وآداب الجلهى وحافظ والفردوسى ، وقد دون أسفاره فى مجلدين وكتب بضع قصص قصيرة منها قصة الملك والدرويش التى جعلها على نمط البوليسيات الحديثة ، وإنما المعركة بالعقول بين الأرواح ، لا بين الأجساد . ووصف الحياة الشرقية على هـذا الأسلوب البارع نادر فى الأدب الأوروبى . فالمحرر « بلاكوود مجازين » الذى تنقل عنه هذه القصة الرائعة « إنها خارجة من أعماق الشرق كلية من ألف ليلة ، عليها مسحة من أحلام الوديان الهادئة والجبال الشاهقة ، وفيها ألوان من حياة الملوك الدعاة وبعض الدراويش الحادعين الذين يتجرون بالأرواح ويسرقون الأجساد وينصبون شباكهم لأحبابهم قبل أعدائهم ، ويصيدون نفوس من أحسنوا إليهم ، ثم يخفون تحت مرقعاتهم نفوساً أسود من غياهب الجب وأعمق من الآبار الخاشية » ولذا آثرنا تعريبها لقراء الرواية علهم يجدون فيها من المتعة ما ذكره نافدها الأريب .

الذى ذكر محاسنه وفضائله فدعاه إلى مجلس العرش فتلطف الملك فى استقباله ، وأقبل عليه حتى أزال وحشته ، فوجد ما شاء علماً وأدباً ، ثم شجعه فأصاب مالم ينتظر ، دهاء وأريباً ، وسعة حيلة ، وجمال وسيلة ، وبُعد غَوْر ، إلى نجربة وحنكة وغزارة حكمة . وألفى حقيقة الرجل فوق الذى ذاع ، وأبصر فى سورته وعقله وبصيرته وبصره بالأمور أكثر مما قَصَرت فى نقله الأفواه للأسماع . ففرح الملك بهذا المتصوّف الناشئ أعظم الفرح ، وكأنه ظفر بتلك الأمانى ، ونادرة الدهر ، ورائع المستحيلات . فتمسك به وأدناه ونسى بهذا الضيف الجديد كل الندامى والسُّمّار ، وأكتفى به عن جميع الوفود والزائرين . وأراد أن يختص به نفسه وأن يستبقيه فى بلاطه ، ليستمتع به ما بقى من أيام عمره التى تخيلها صحراء عجيبة بدون استمرار مودته ، فعرض على الدرويش السعيد أسمى ما لديه من المناصب والرتب ، وبذل أقصى ما يملك بذله من المال والنشب ، وحسّن له أعلى مناصب الدولة ، حتى رياسة الوزارة وجلال الإمارة ، لم يبخل بهما عليه ، وهى تلك الوظائف التى رأى سادة البلاد ومشيختها وصفوة خيارها وزعمائها يتكالبون عليها ، ويتهافتون على لهبها تهافت الفراش على النار ، مهما بلغت بهم السن وقطعوا من أشواط الحياة ونالوا من مفاخر المجد فى السلم والحرب ، فما زالت بهم حكمة تدعوهم إلى مساوتها ، ولكن الدرويش اللبيب تنحى شاكراً ، وأبى معتذراً قائلا :

— مولاى ! لست وربى سبحانه أرفض بطراً ولا أتردد مطلاً ، ولا أتصنف تصنعاً . ولا أحرم نفسى من جميل عطفك ترفعاً . أستغفر الله وأستمحيك عفواً . ولست وحقك بالذى يظهر التواضع الكاذب ، ليزداد فى نظرك قدراً ، فما أنا بحاجة إلى هذا كله ، أو بعضه ، ولست ممن تخفى عليه حقائق الأمور ، ولكنى عاهدت الله ونفسى ألا أتقلد منصباً ، ولا أكبّل روحى بسلاسل الأعمال فى هذه الدنيا ، لأننى قد آثرت الحرية على كل ماعداها . فإن صدقتنى ، ولا إخالك إلا متفضلا علىّ بثقتك ، تركتنى أعيش فى أكنافك ناعماً برحمة الله ورضاك ، كما أنا وكما كنت دخلت أول يوم فى رحابك . وإلا فأطلقنى أذهب أنى شئت ولك الشكر على ما أوليتنى من فضلك السابق . فلما أمسى الملك العادل الرحيم فضل الله إلى حديث نديمه ودرويشه ، تضاعف إعجابه به ، وَرَبَتْ ثقته فى ورَعه ، نخصه بأوفر نصيب من الحظوة والقرب ، حين أعياه أن يجعله وزيره ومشيره

ولما كان الدرويش يتقن ركوب الخيل ويحسن الكر والفر ، ويجيد الرماية ، مما لا يتوافر إلا للأبناء الملوك وخاصة الخاصة ، فكان يدعوه أحياناً إلى صيد الظباء على صهوة الجياد ، فيرى من ضروب الفروسية عجباً . وفى ذات يوم خرجا يلهوان فى بعض الحراج ، وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع وأنس الدرويش من الملك ميلاً إلى سماع حديثه فأنشأ يقص عليه بعض نوادر أسفاره ومخاطر أيامه السالفة ، ومناصرات ماضيه ، فساق فى عرض أخباره أنه كان فى جزيرة « ديسكا » من جزر الهند الشرقية ، فصحب رجلاً من شيوخ البراهمة ، وإماماً من أئمتهم ، وقطباً من خيرة أقطابهم ، هو مركز دائرة الوصول عندهم ، ومنبع نهر الحقيقة فى عرفهم ، وجمع أسرار الطبيعة لديهم ، سادن الهيكل ، وأمين خزائن الحكمة . وقد

شاء الله الواحد القهار والفعال لما يريد أن تكون وفاة هذا البرهمي بين ذراعي الدرويش

فلما جاءته سكرات الموت ، وبلغت روحه التراقي ، ولم يبق بينه وبين «الانفصال عن جسده» ونوبه الأرضي والانسلاخ عن جلده والوثب عن كثب إلى العالم الثاني ، سوى بضع ثوانٍ ، أو قُلْ بعض أنفاس تتردد ، أوماً إلى أن أصغي إليه ، فخاطبات رأسي حتى لامست فمه فباح لي بسر من أخطر أسراره ، وأخذ عليّ عهد إليه وميثاقه ألا أبوح به ما بقيت فيّ نابضة

فوقف الملك مذهولاً من إفراغ الخبر في قالب التشويق حتى طارت نفسه شعاعاً في سبيل الوقوف على حقيقته . فقال للدرويش على سبيل التخمين والحدس « لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة ، أو حجر الفلاسفة »

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله نبع الحياة الذي إذا شرب منه الشيخ جرعة عاد إليه شبابه ورجع إلى صباه وأقبل على اللذات يرتشف كؤوسها كما كان فتياً

قال الدرويش : كلا ! يامولاي بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله بساط سليمان أو فرس نعمان الذي ينقلك من مكان إلى مكان في طرفة عين

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب !

قال الملك : لعلك تستطيع رؤية من تحب وتخاطبه وتعاتبه وأنت منه على بُعد شاسع ومسافة تطويها الجياد في أيام

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

فضحك الملك وقال : إلى هنا وكلّت غزالة ذهني فلا تجري وراء ذلك ، وهبط طير العقل فلا يحلق فوق ما ظننت

فقال الدرويش ، وهو عابس لا يفارقه الوقار ولا يجاري الملك في سروره : إنما السر هو إحياء جثةٍ ميتة بنقل روحي إليها

فهبت الملك وقال : التقمص أو التناسخ

قال الدرويش : فليسمه مولاي بما شاء من من الأسماء . إنما هو البعث والاستبدال وقهر الموت

فقال الملك : ان الذي يؤمن به يكفر بدينه ، فقد كان عقيدة المجوس وأتباع زاردشت . إن البعث لا يكون إلاّ مَرةً واحدة ، يوم القيامة . ومعجزة إحياء الموتى لم يهبها الله إلا نبياً واحداً

فقال الدرويش : لادخل للكفر والايمان ، فإنها صناعة وذريعة ، لا كرامة ولا معجزة .

فقال الملك : إن في كتبنا خبر حسن بن صباح الذي رأى حماراً يحمل حجارة ، ويتلكأ في الطريق وسائقه يلكزه والحمار يبكي ، فدنا منه وتحدث إليه ثم قال : إنه صاحبي فلان ، رفيق صباي وزميلي في المدرسة ، قد تقمصت روحُه جلدَ حماره . ولكننا نقرأه كما نقرأ شعر صاحبه الخيّام على أنه حديث خرافة وتسلية النساء ومزاح الأغمار

قال الدرويش : والملك آسر حدّون قلبه الله أنانا ترعى العشب وتمزق الكلأ بأسنانها وأنيابها وتطرد الذباب بذنبها ، وكان ذلك تهذيباً له وإذلالاً لنفسه بعد طغيانه وظلمه ، وقد كان ملك آشور ، فنزا دياره الملك ليالي ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة

للنار وحبس عدوه المظلوم فى قفص من حديد .

فقال الملك : لقد حسبتك تمزح ولكن إيراد المثال يضع حداً للقيل والقال . قل لى بربك أيها الدرويش أين تذهب الأرواح عندما تغادر الأشباح ؟ أيذهب الملك العادل والحكيم الخبير والشاعر الأديب والجمال الناضر إلى حيث لاعودة ، إلاَّ يوم النشور ، حيث يردون دار النعيم أو دار الشقاء ؟ وعلام العلم والأدب والتفكير والأحلام والرجاء إذا لم تطل حياة الانسان أكثر مما نرى فى هذا الوجود ؟

فقال الدرويش : حذار يامولاى فقد كنتَ تُحَذِّرُنِي منية النظر فى هذه الحكمة الإلهية ، وها أنت ذا تندب حظ البشر ، لأنهم يعيشون على سطح الأرض مرة واحدة ، وتستكثر على الموت أن يطوى صفحاتهم قبل أن يستمتعوا ، أو توافيهم آجالهم فى الوقت الذى آن أن يجنوا ثمار جهودهم ، وينتفع الناس بخيرهم ... ولعلك أيضاً تجد الزمان الذى يذهب بين الموت والبعث أطول مما يستحقه الفضلاء من السجن فى البرزخ والأعراف وما إليها

فقال الملك : ماأسرع تنقل الفكر الإنسانى ! فأين نحن من صناعة البرهى التى لقنك إياها . هيا بنا إلى الصيد يادرويش العزيز ، فإن فيه انصرافاً عن مزالق الزندقة ومنجاة من الوقوع فى مهاوى المرطقة .

وفى تلك اللحظة سنح لها ظبي ، فرماه الملك فأصابه ، ثم أقبل على الدرويش فقال :

— دونك جثة هذا الظبي الغرير ، فأرنى آيتك وأثبت لى براعتك وأعده إلى الحياة أو أعد الحياة إليه ، بعد أن أوردته بسهمى مورد الحتوف .

فلم يك إلا كلمح البصر حتى رأى الدرويش قد خرج من جسده ، فغادره جثة هامدة ملقاة على الصعيد ، وانسلَّ فى جثة الظبي فتقمصها ولبسها وأحياها بروحه ، فأنهضها وإذا الظبي حَيٌّ يتنزى مرحاً ، ويتوثب طرباً ، حتى أقبل على الملك يتمسح بهو يحوم حوله ، ليثبت له أنه درويشه ونديمه وأنيسه ، وأنه لو كان ظبياً غير الذي أصاب الملك ، لأسلم سرابه للريح ، وتعلق بأذيال الفرار

ثم انبرى الظبي المبعوث للعشب والكلأ يرعاها ماشاء . فاغرورقت عين المليك الطاهر الطوية بالدموع على « غزاله » الذى كان منذ برهة نديمه وأليفه وعشيره . ولكن الظبي ما لبث أن خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفى نفس تلك اللحظة تحرك جسد الدرويش بعد هموده ، وبدت عليه دلائل الحياة ، ثم نهض كأصح ماكان وأنشط ؛ فأقبل عليه الملك يقبله ويهنئه وقد دهش من تلك المعجزة الخارقة وأقسم عليه بكل عزيز ورفيع ومقدس ، إلا ما لقَّنه هذا السر العظيم . فاعتذر الدرويش وتأبى وادعى أن شيخه البرهمى لم يأذن له فى تلقينه أو البوح به دون سابق رياضة ومران ، فإن مثل هذا السر ليس بالشيء الهين ... وما زال كذلك حتى بدأ مولاه يتذلل إليه ويهون لديه ، فوقف عند هذا الحد من التأبى والتيه ، وماعتم أن أذعن ثم لقنه سر الآية مضمناً لفظتين بالسريانية . وأراد الملك أن يجرب المعجزة لتوه وساعته . وكانت جثة الظبي لا تزال طريحة على الثرى ، فسمد الملك نحوها ونلا اللفظتين ، فما هو إلا كلمح البرق حتى انتقل روحه إلى جثة الظبي وخر جسده إلى الأرض ميتاً

فى تلك اللحظة أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك وهى خلاء من الروح ونقل إليها روحه بسرعة

البرق الخاطف وتناول قوس الملك وكنانته وسدد سهمه إلى شخص الظبي المشتمل على روح الملك يريد إصابته وإعدامه، حتى إذا زهقت روح الملك من جثة الظبي بهذه الكيفية ثم لم تجد جسماً تلتجئ إليه، ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح أو ذلك البرزخ الذي كان الملك يحجب لاختزان النفوس الفاضلة في أكنافه. وهذا هو الموت الرؤام بعينه. وبذلك يكون الملك قد مات موتاً لا مراء فيه ولحق بالأعراف أو عليين. وقد أصبح الدرويش هو الملك ولا يفطن أحد إلى حقيقته إذ كان يتقمص جسد الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويحمل الأكرة والصولجان ويلبس التاج ويجر ذيول القباء القرمزي، ويقبض على أعنة الحكم، ويتصرف في الدولة كما يشاء، له الأمر والنهي والعزة والجلال. وقد أدرك الملك الحبيس في جثة الظبي هذه الحيلة البعيدة الغور، وكشف له عن سر الدرويش الشرير وما كان يضمر له من سوء جزاء له على إحسانه إليه وبره به وتفضيله على رجال بلاطه وأهل حاشيته، فحنق الملك الظبي وحرق الأرض، ولكنه لم يكن يملك الانتقام من عدوه وهو في موقف الفريسة من المفترس، والصيد من الصائد المسدد سهمه إلى جسده ليهريق دمه. ولكنه بدلاً من أن يذيب كبده غيظاً وعجزاً راغ من السهم، فأفلت من شرك الردى وهام على وجهه في الآفاق... وكل الصيد في جوف الفرا. فاكتأب الدرويش هنيهة ثم أخذ في مطاردة مولاه والبحث عنه في الآكام حتى أعجزه التنقيب فعاد من حيث أتى راجياً أن يلقى الظبي حتفه على يد صائد آخر، فإن الظباء السمينة قصيرة الأعمار

وعاد الدرويش في شخص الملك إلى قاعدة ملكه وعاصمته، يترنح طرباً ويختال تيهاً، فتناول الصولجان وتبوأ عرش الدولة. ولكي يأمن ضياع العرش المغتصب والتاج المستلب، أصدر أمره إلى الرعية بإعدام كل ما تحويه الآجام من وحوش الظباء حتى يهلك فيما يهلك هذا الظبي الذي تقمصت فيه روح الملك الحقيق. ولكن الأقدار أعانت الملك فأفلت من سهام الرماة والمتنقبين بتقمصه في جثة بليل ميت كان قد بصر بها ملقاة على الأرض عند جزع شجرة تين مثمرة

وفي هذا التقمص الجديد طار الملك سالماً إلى بستان قصره الذي كان الدرويش يعمره مع الملكة وكانت تشعر نحو الدرويش المتقمص في جسد زوجها بنفور أوحته إليها الفطرة الشفافة والحس المرهف والنفس المشرقة بالنور الروحاني على بعض الخفايا فلم تبذل فراشها لروح غير روح زوجها. ولم تقبل على الدرويش الخائن يوماً.

هنالك وقع الملك البليل على فنن أيكة بجوار نافذة الملكة وشرع يغرد ويرتل حتى هز رنين صوته أركان المكان، وأرقص بشجا حنينه النسون والأفنان، وحتى فتن الملكة واستهواها، فدنت إلى النافذة طرباً بألحانه واشتياقاً إلى نغمه. فأحزنه من الملكة أن رآها قد سرت بمحنته، وابتهجت لأنينه، وقد كان مراده أن يهيج أحزانها وأشجانها ويستثير رحمتها ورأفتها. وما كان أعظم ضيقه وألمه وهو عاجز أعظم العجز عن الانتقام من عدوه والاستمتاع بزوجته والعودة إلى ملكه. وزيده كمداً أنه غير قادر على شرح حقيقة حاله لأقرب الناس إليه، وهيهات أن يصدقه أحد حتى إن هو

ملك زمام النطق البشرى أو وهبته الطبيعة فصاحة سحبان وحكمة قس . فرضى من الدنيا بنصيبه الجديد ولبث ردحاً من الزمن ينعش نفس زوجته بالألحان فى كل صباح ، حتى استدعت صاحب طيرها وأمرته أن يبذل أقصى ما لديه من الحذق لاقتناص ذلك البلبل السداح . غير أن (البلبل الملك) لم يحرج صاحب الطير إلى بذل أدنى مجهود لاقتناصه ، بل وقع فى يديه طائعاً مختاراً منتهزاً فرصة الأسر للدنو من زوجته

فلما عرضت عليها ومعها حاشيتها من الوصائف اندهش الجميع لما رأينه ينفر منهن إلا الملكة فإنه سقط عليها يتمسح بها ويتشبث بأردانها ثم اختبأ فى جيبها ففرحت بما أبداه البلبل من التحبب إليها والتحدب عليها دون سواها، وأمرت به أن يجعل فى قفص من الذهب المرصع بالجوهر فى غرفتها بشرط أن يبقى مفتوحاً حتى لا يشعر بضيق الأسر وذلك جعل البلبل بفضل منزلته الجديدة وزلفاه ، يبدى للملكة من أساليب الملاطفة والمداعبة ماتسمح به طبيعته وخلقته . وجعلت الملكة تقضى الساعات المديدة الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته؛ ووجد البلبل الملك سلوة وعزاء فى حاله هذه مع الملكة ... لو لا ما كان يكدره أحياناً من دخول الدرويش عليها فى ساعات اللهو والطرب ومنازلته الملكة وهى تبدى نفورها منه وتغلق الأبواب دونه

وكان غاصب العرش (الدرويش) كثيراً مايحاول استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ كان كلما ازداد تقرباً إلى الطائر ازداد الطائر منه بعداً ونفرة ، بل ربما أوسعه لكزاً بمنقاره وقهراً بمنقاره مما كان فيه ملهاة للملكة ومسجبة

وكانت الملكة أنوشروان كلفة أيضاً بكلب مستأنس يبيت معها فى حجرتها ، وكان صديقها الأبكم وتابعها الأمين ، ومازال لها ولياً وفياً والذكرى زوجها حافظاً حتى كان يشاركها النفور من الدرويش المتغلغ فى جسد الملك . وكان الكلب بحكم الاختلاط قد ألف رائحة سيده وميزها من غيرها ثم تسود رائحة الدرويش مذ كان ينشى القصر على صورته القديمة . فلما وجد فيه رائحة لا تشبه تلك التى تسود شمها راح يعطس وينبح ولا تهدأ ثائرته حتى يفارق الدرويش غرفة الملكة . والكلب أقوى شماً من الانسان، ولهذا كان أعرف باختلاف روائح الناس من الناس أنفسهم . فاتفق أن مات هذا الكلب ذات ليلة وأهل القصر كلهم رقود إلا البلبل الذى أبصر موت الكلب ، فاقت نفسه إلى التقمص فى جثته ثم ما لبث أن صنع ذلك فترك جثة البلبل وأحيا جثة الكلب التى حل فيها

فلا تسل عما أصاب الملكة من برحاء الوجد وحرقة الكمد عندما استيقظت صباحاً فرأت حبيبها البلبل ميتاً وكان سلوتها وعزاءها . فانفطر بموته وانقطاع صوته عقد هنائها ونفدت البقية الباقية من صبرها

فاستدعى الملك الكاذب (الدرويش) وصائفها وأقبل معهن يحاول إقناعها ببطلان حزنها ، لأن تافه كهلاك طير حقير . ولكنه عبثاً حاول وحاولن. وجعلت الملكة تبكى وتندب مما أذاب من كبد الدرويش رحمة بها ورثاء حتى وعدها أن يرد الروح إلى بلبلها . فإنه مازال يطمع فى رضاها ، وتحدثه نفسه الخبيثة بعدم اليأس من خداعها ، حتى ينال منها مأربه وهو فى نظر العالم كله زوجها إلا فى

2017-11-15 Facebook.com/Dvd4arab

نظره لعله بحقيقة أمره ، وفي دخيلة نفسها لشعورها بالنفور منه .

وقال لها : ولكن علينا أن نتفاهم أولاً قبل أن أخطوَ هذه الخطوة الخطيرة ، برد الروح إلى بلبك الذي تؤثرينه عليَّ .

إن ما أخفته عليك في عهدنا الأخير من طبيعة الصخب والقسوة وميلك إلى مخاصمتي والتبرم بي وإرسال الزفير والتنهيد ، وسَكب الدموع ، لما يحزن النفس ويدميها ، ومما يدعوني إلى انهماك إياك بسوء الخلق وحب الشر ، ولم يكن هذا عهدي بك منذ خرجت إلى الصيد وفقدت بدبي ذلك الدرويش المسكين الذي جندلته بسهم خاطئ فأصاب أحشاءه فمزقها .

فقالت له : إن بعض هذه الطباع التي تكاد تسخطك وتحملك على انهماك بسوء الخلق وحب الشر إنما هي ثمارٌ أنتجتها نفس هذه التربة التي أنتجت الحلوَ الطيب من الخصال ومحامد الصفات كالرحمة والحب والرقة ، فإذا رأيت الضدين من الخلق النامض حيناً ، وعنصر التضحية وخالص الوفاء أحياناً ، فلا تحسبنَّ هذا التناقض مظهراً من مظاهر العناد الكاذب والاستبداد الباطل ومحض الدلال والتجني . وعليك أولاً أن ترد روح بلبل إليه . فوعدها بذلك وعد الواثق ، فجست طوفان دمعها وتساءلت مندهشة : أنَّى له ذلك ؟ ولم تعهده من قبل رد الأرواح ويعيد الموتى إلى عالم الأحياء حتى ولو كانوا طيوراً ، وإن ملك هذه الموهبة الخارقة ، فلِمَ لم يرد روح درويشه العزيز الذي كان بؤثره على كل من عَدَّاه من الندمان والبطانة ؟

ولكن الملك الكاذب لم يجبها ، غير أنه انطرح على مقعد ثم أرسل روحه في جثة الطائر فعاش بإذن الله المحيي المميت البدئ المعيد . وبلغ العجب من الملكة أقصى مبالغه

وكان الملك الحقيق يرى ذلك كله بعيني الكلب الذي تقمص جلالته في بدنه ، فما كاد يبصر الدرويش قد خرج من جسمه (وهو الجسم الذي كان الدرويش يختال فيه مذ تقمصه في النباية يوم الصيد) حتى خرج هو من جثة الكلب كالسهم المارق ، فاسترد جسمه قائلا : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ثم هجم على البلبل الكاذب (المتضمن روح الدرويش) فلوى عنقه وقصف رقبته

عند ذلك عاودت الملكة بكاءها ونحيبها ، ولكن زوجها الملك مالبث أن أفهمها حقيقة الأمر من أوله إلى آخره مؤيداً قوله بحجتين دامغتين الأولى جسم الدرويش الذي مازال متروكا في النباية ، والأمر الذي أصدره الدرويش بإعدام جميع ما احتوته البلاد من ظباء الوحش . وهكذا تنعم الملك بزوجته بقية العمر في رغد وصفاء .

محمد لطفي جمعة



من أحسن القصص

غيرة

للكاتب الفرنسي سولومون جسنار

بقلم محمد عبد الفتاح محمد

لا ريب أن الغيرة هي أخبث العواطف جماء بين الناس ، وأسرعها تشبثاً بالصدور وأقواها على التعلق بالأفئدة ؛ بل هي كالأرقم ينفث السم بوخز من الناب بسيط ، وكالمقرب تسرح الهلاك بضربة من ذنبها الواهي الضعيف . وبرى القارئ في هذه القصة كيف تستبد هذه العاطفة الخبيثة بالمرء فتقيمه وتقعده ، وتفعم حياته باليأس وتُترع قلبه باليأس ، وتعرض على صفحة ذهنه المضطرب سوراً متتابعة من الوساوس والأوهام

كان « أليكسيس » فتى ذا مروءة ، غريض الشباب ، بادي الفتوة ، أسمر الإهاب ، يزخر بالرجولة الناضجة الكاملة ؛ وكانت « دافن » كاعباً فتانة ، ساحرة ريانة ، مياسة كالغصن ، مشرقة كالبدر ، طاعمة كالزنبقة ، وقد تعاهدا على الوفاء في الحب ، وأقسما على الاخلاص في الهوى . فلذلك أترعت « فينوس » مع سائر ربات الحب كأس حبهما بالسعادة والهناءة ، فراحا ينعمان بحياة رغيدة وعيش مُخْضرج في ظل غرامهما العذري الفياض

وإذ تماثل أبو أليكسيس للشفاء من مرض عضال كاد يعصر عوده الواهن ، ويطفئ سراج حياته الخافت فقد استدعاه يوماً وقال له :

— بُني العزيز . إن لربة الصحة عليّ لنذراً : ستاً من الشاء الكناز فاذهب بني بها إلى مسبدها وقدمها قرباناً على مذبحها

وكان المسبد يمد بصيرة يومين متتابعين ليس غير . بيد أن أليكسيس وقف من حبيبته موقف النازح إلى سفر طويل دونه الخيطات والبحور . وبالدمع السخين يسح من عينيه ، والحزن العميق يرتسم على شفتيه ، بدأ سفرته والشاء أمامه تدب دبيبها المضطرب البطيء . سار يتهد تنهد المحزون ويزفر الزفرات الحرار . فضت أشجار الصفصاف على طول الغدير تشاركه التأوه والأنين ، ومر بالمناظر التي حوله من سندس جميل منثور بأنواف الزهور الفواحة المعطار كأنه حالم لا يأخذه سحرها ولا يناله عبيرها . وكيف ينتبه إلى تلك الجنان وهو هكذا حزين النفس جريح القلب مكلوم الفؤاد ؟ وهل لمن كتب عليه النوى عن حبيبه والبعد عن أليفه أن يفكر في غير هواه ، وأن يحس سوى الحنين إلى لياله ؟ وهل يرى العاشق المدنف الصب التيم في كل ما يرى من جمال الطبيعة وسحر المناظر إلا وجه حبيبه النائي يزيد في ألاعيب الحب ويسجر نيران الغرام ... كان يراها بين سيره وحيداً مع غنمه ... كان يراها في جوسقها ناعسة وسنانة ، أو مضطجعة يقظانة في ظل صخرة مشرفة على الغدير الرقراق . بل كان يسمعها تناديه وتردد اسمه . وبعث التفكير والخيال في قلبه نار الجوى ، فتنهد . وظل

2017-11-15 Dar al-Kutub

هكذا حاله وهو يسير وراء غنمه . ولم يكن ليثنيه من هذه الأفكار ويثوب إلى نفسه إلا ليلمن هذه الشاه البطيئة المكسال . وود لو كانت طيراً يطير أو غزالا يطوى الأرض طياً . وأخيراً بعد طويل من التفكير والسير وصل إلى المبعد المقصود

ونحرت الغنم وقدمت الأضاحى ، فعاد من حيث أتى طائراً على أجنحة حبه المظيم . وبينما هو يجد فى السير على أرض حطيبة . تقحّمت شوكة قدمه وانتزعت فيها فسبّبت له ألماً شديداً قعد به حتى عن الجثو إلى الكوخ الجاثم على كثب منه . والتقطه زوجان طيبا القلب وتوليا علاجه من جرحه الذى الأليم يمض الأعشاب البرية بينا دأب هو على أن يتمتم بين الفينة والفينة : « يالبؤسى وشقائى ! » . وأخذ يستبطئ الساعات ويتعجل الدقائق ، ويناشد الشمس أن تحث السير نحو المغيب ، حتى إذا مادلكت راح يضرّع إلى الليل أن ينجاب وينجلى . ولم يكن ذلك وحده هو الذى أقض مضجعه وأقلق باله ، بل راحت بعض الآفة الثاوة القساة يتمرن فى قلبه بذور الغيرة . فجاشت فى قلبه الوساوس وتقلب على فراش حشوه الفكر والمم . ولطفت الأوهام تُوغل فى رأسه القلق الحيران ، وراح يقاول نفسه فى تحتمة أشبه بالهذيان :

« إيه أيتها الآفة ! ما هذه الأفكار السوداء ؟ أتندر بى دافن ؟ محض وهم وافتراء ... ولكن المرأة هى المرأة ... ودافن جميله حُسّان ... من ذا الذى يراها ولا يشتهيها ؟ من ذا الذى لا يسبيه دلّها وتجنيها ؟ . . ألم يدأب جارها « دافيس » على التقرب منها والتنزل فيها ؟ . . وهو لا تكران وسيم جذاب ، له صوت سُرنّ خلاب ، إذا ما تكلم سحر ، وإذا ما أنشد وتغنى بهر ، وإذا ما عزف على قيثارته مَسّ أوتار القلوب ، وهز كوامن الشجون ، وبعث إلى الأنشدة الحنين إلى العشق والهيام . ثم إن بيته مُلاصق لبيتها ولا يفصلها عنه غير الجدران ... يا للوغد الجميل لقد شغفها حباً ... أوه . . خذينى أيتها الأوهام الباطلة . . دعينى أيتها الأفكار الآثمة . . »

ولكن تمعقت جذور الغيرة فى ذهنه وأترعت سمومُها شغاف قلبه ، ودفنت السحاب الثقال والنيوم الكثيفة إلى سماء حبه اللازوردية الصافية ، وسلبته الراحة والهناءة آناء الليل وأطراف النهار . ففى أحلامه بالليل ، وفى تخيلاته وأوهامه بالنهار ، كان يرى حبيبته تخطر كنسمات الصبح المنوّر ، وتميس كالغصن الفينان ، نحو الندى زى الحرير ، تحت ظلال الأشجار الشجراء الفياء لتقابل دافيس الذى يروح يغنى للقائها بصوته السماوى الساحر فيشنف أذنيها بحلو أنغامه ، ويطرب جسميّها برخيم ألحانه ... ورآها بعين الغيرة تبثه ما تحبه له من الحب عن طريق لحظها الفاتر ، وتشرح له هواها بلغة العيون السواحر ، وصدرها الناهد الأشم يعلو ويهبط مع أنفاسها اللاهثة التى تعبر عن شدة العشق الدفين . ورآها كرة أخرى نائمة تحت ظلال الأغصان الوارفة النشوى بينا يدب دافيس دبيب السارق فى جنح الليل الناعس فيقترب منها ويقترب حتى يطوق بصره بدنها الطرى الفينان فيتأمل جمالها الوسنان ويتملى من حسنها الفتان ... وينحنى عليها ثم يلثم يدها فى توثّق فلا تنتبه ، فيقبل خدها فى شوق فلا تفيق ، فينهال على فمها الوردى فى حرارة ووجد فلا « تستيقظ »

هنا يصرخ اليكسيس بأعلى صوته : « يالى من بائس مسكين ! ما هذه الأفكار السود التى تخلقها خيالي ؟ لماذا أراني لا أحيد عن هذه الأفكار قيد أنملة ، ولا أراها تنفك أسارى مقدار لحظة ؟ لماذا أشقى نفسى بهذا الوهم الباطل وتلك الصور الزائفة التى أتوهم بها طهارتها وأتألم بالإبقال فيها من إخلاصها ووفائها ؟ »

وتصرمت ستة أيام طوال ولما يشتم جرحه بعد ، فلم يستطع الصبر أكثر مما صبر ؛ وعبثاً حاول الزوجان أن يثنياه عن السفر .. فواصل رحلته بعد أن عانق مضيفيه وشكر لهما صنيعهما . . واصل السير على قدر ما سمح به جرحه الحى .. وكان الليل قد وقب حينما انتهى إلى حيث يقوم مثوى حبيبته التالية . وكان القمر الزاهر يترجل رويداً رويداً فيلقى بضوئه الناعس على الأرض الشجراء .. وقاول نفسه وهو يغذ السير نحو الحبيبة : « إليك عنى أيتها الأفكار القواتم . هاهى ذي حياتى تنتظر أوْبتى . وسأسكب دموع الفرح الندية لقياها ، وأضمها إلى صدرى الظامئ اللهفان » وفى بمشى حديقة بينها رآى طيفاً يتثنى تثنيها فتمتم : « إنها هي .. هى دافن بذاتها . فهذه قامتها المهيبة ، ومشيتها البانية الرائعة ، وثوبها الأبيض المفتاف .. إنها هى أيتها الآلهة .. ولكن أين تذهب وقد غسق الليل ؟ ليس من سداد الرأى أن تخرج عذراء وحيدة إلى هذا المكان الموحش فى ذلك الليل المنطس . ألا تكون قد خرجت للقائى ؟ بيد أنه رآى شبحاً يسير وراءها حتى لحق بها .. شبح رجل .. ثم سمعها تضحك وهى تتناول يده فى يدها وتأخذ منه سلة الزهور فتطلقها فى ذراعها الأخرى ، والآن هما يسيران جنباً إلى جنب تحت ضوء القمر الشاحب الحزين كأبدع ما يكون عاشقان

وتسمر اليكسيس فى مكانه يرتعد من الرأس إلى القدم ، وراح يفكر : «ماذا أرى ! إذن فقد صدقتنى الآلهة .. وتحققت أوهامى .. إذن لقد أعدتنى الآلهة الرحيمة العادلة للصدمة فأحاطتنى بكل شىء علماً .. يا لى من بائس تعس ... أين الرية التى أتمنتنى تلك الحقائق؟ هكذى أيتها الإلهة فساعديني على الانتقام، على الانتقام من ناكثة العهود .. الغادرة الكنود هكذى فاسحق هذين الخائنين ثم عفّى بى أنا الآخر

وتأبط الشاب ذراع الفتاة وسارا تحت ضوء القمر متجهين نحو جنة من الآس والبنفسج حيث يقوم تمثال فينوس .. سارا يتناقلان الحديث ويتجاذبان الكلام بينا طفح وجهها بمعانى السعادة والنبطة .. وقال اليكسيس فى نفسه : « آه ! إنهما ذاهبان إلى جنة الآس حيث تساقينا — أنا وهي — كؤوس الحب مترعة .. حيث باحت لى بسر قلبها، وأسكرتنى بخمرة حبها. هاهما يدخلان إلى الحرج.. لقد غابا عن بصرى .. لعلهما الآن فى ظل شجرة يتناغيان ، أو على ضفة الغدير يتشاكيان .. ولكن لا .. لقد عادا إلى الظهور ثانية . إنى ألمح فستانها الأبيض ينعكس عليه ضوء القمر من خلال الفروع والأغصان .. لقد توقفا عن المسير إذ أتيا على بقعة سندسية يكسوها العشب الطويل والحشائش الكثة النامية .. يا للخيانة والغدر .. كيف لعمرى تسمح ربة الحب لهذين الغادرين بتدنيس جلال الليل الساجى وجمال القمر الثلجى الزاهر .. بلى .. إجلسا يشهد القمر خيانتكما وغدركما ، وتنصت النجوم إلى كلمات الحب الآثم التى بها تتناجيان .. ألا لعنة الشيطان عليكما .. ولكن ما هذا ؟ .. أبليل يغرد وحمام

2017-11-14 Egyptian Knowledge Bank

يسجع وأطيار تشدو ؟. وكيف ذلك وفى تلك البقعة الطاهرة يجلس هذان الانسان الفاجران !. أراهما يتحركان .. أجل ، إنهما فى سبيلهما إلى معبد فينوس . سأمضى فى أثرهما فأنصت إلى حديثهما وأقتص حركاتهما

واتخذ سبيله وراءهما لا يلوى على شىء، واقترب منهما فى حذر حتى أصبحا قاب قوسين أو أدنى من أعمدة المعبد الرخامية التى تشق الفضاء ... وعاد إلى تمتمته «ماذا !! إنهما يدخلان ... أو هل تسمح الربة أن تبارك هذين الفاسقين » ... ورأى الفتاة تنزل الدرجات القليلة وفى ذراعها سلة الأزهار ... بينما استند الشاب على أحد الأعمدة ينظر إلى « فاتنته » ... واقترب اليكسيس خلسة إلى ظل عامود ووقف ثمة يترقب ويتجسس . رأى دافن تبلغ تمثال فينوس الذى يقوم هناك فى حلته الرخامية الناعسة تحت ضوء القمر الشاحب ، والذى بدا كأنه تراجع ثمة ازدراء لتلك النظرات الحيرى التى شمت من عيون هذين المجرمين اللذين تقحما مسبده للتضحية على مذبحه ... وجثت دافن تحت قدمى التمثال حيث وضعت ما تحمل من الأزهار النضيرة والورود الفواحة ، وراحت تتمتم بصلاة حارة بين نشيج يهزها ودمع يخنقها « إصغى إلى صلواتى واستجيبى لدعائى أيتها الربة الرحيمة العادلة ... واقبلى هذه الزهور التى أقدمها قرباناً على مذبحك ... وإن ندى الليل الذى يبللها لممتزج بدموعى الغوالى ... ها قد تقضت ستة أيام سوياً منذ نأى عنى اليكسيس الحبيب ... أوه ! أى فينوس الحلوة الطيبة . أسألك باسم هاته الأزهار التى أضحى بها على مذبحك المقدس أن تصونيه وترعيه وتهديه سواء السبيل ، وتردديه إلى ذراعى سالماً من غير سوء . وتبعثيه إلىّ عجلاً مخلصاً وعاشقاً وفياً كما تركنى .. آمين .. آمين ..»

وأصغى اليكسيس إلى صلاتها فى ذهول وتعجب ... هنالك فقط سدد نظرة فاحصة إلى الشاب الذى معها . وكان آنئذ فى وضع بدا فيه وجهه تحت ضوء القمر ... لقد رأى الحقيقة الآن! وما الشاب إلا أخو دافن ... وقد رافقها ولا ريب فى مجيئها إلى المعبد لعلمه أنه من الخطر على عذراء رعيب مثلها أن تخرج وحيدة فى ذلك الليل المدلهم الداجى

وبرز اليكسيس من مخبأه ... فقاض الفرح على دافن لرؤيته ... وامتلأ فؤاده هو بالسرور ... والخجل أيضاً ... وتعانقا طويلاً ... ثم اتجها إلى الربة ثمة يصليان ويشكران

محمد عبد الفتاح محمد
بالساحة والنابم بينها

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موبير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل العاشر

علم الفلك عند الفارسيين وعند الانكليز

عندما مضى تأثير الدهشة الأولى دخلنا الغرفة المعدة لجلوسنا فوجدناها فاخرة الرياش محلاة بالصور وعلى كل حائط منها مرآة في إطار مذهب؛ أما الأتباع والخدم فقد جلسوا في غرفة أخرى وعلقوا مسدساتهم وسيوفهم على حوائطها

وعند ما حان وقت النوم اختار كل منا سريراً يلائم ذوقه لاختلاف أنواع الأسرة كما تقدم. ولست أريد أن أذكر ما أصاب كلا منا من الدوار والقيء وغير ذلك من متاعب البحر

استيقظنا في الصباح فلم نر البر فدهشنا وفزعنا لانقطاعنا عن العالم. وكان نظرنا مهما امتد لا يقع على غير الماء. فأين طهران وأين أصفهان وأين الاستانة؟ أين الجبال وأين السهول؟ لا شيء من ذلك يبدو لنا غير الأمواج المتراسية، وشككنا في إمكان الوصول إلى انكلترا لأننا لا نعرف مكانها ولأنه لا يظهر لنا في الماء أي دليل نهتدي به. ثم لما قيل لنا إن انكلترا ليست إلا جزيرة في وسط بحر كهذا زادت دهشتنا وقلنا إنه يستحيل أن يكون بها حكومة منظمة أو شاه قوي. ويستحيل أن تجبى بها الضرائب أو تصدر الأحكام. وقد تساءلنا عن بعض ما بدا لنا من الخواطر فظهر لنا أن القوم لا يفهموننا ولا نفهمهم، فقد قالوا إنهم يعرفون من علم الفلك نوعاً يعلم على اتجاه السفن، ويبين المسافات بين بعض البلدان وبين بعضها الآخر، ويبين موقع كل منها بالنسبة لغيره. مع أن علم الفلك كما نعرفه يدل على الطالع الحسن والطالع المنحوس ويبين الساعات الموافقة للحجامة والسفر والزواج والحروب

وقد ظهر لنا أن علم الفلك عندهم سهل، فان الصبيان الذين في السفينة كانوا يستعملون ما يشبه الاسطرلاب عندنا ولكنهم لا ينصبون خيوطاً. ثم هم يقولون في الحال نتائج بحثهم بهذه الآلة. والعجيب هو تسلمهم شيئاً من هذا العلم في مثل هذه السن لأن الفلك عندنا وإن كان مخالفاً لما يعرفونه عنه فهو صعب جداً لا يحيط به إلا طوال الأعمار الذين قضوا في تعلمه عشرات السنين

وقد أمر السفير صاحبنا «محمد بك» بأن يبين لنا موقع أصفهان على طريقتهم فقال: إن النجوم تغيرت وإنه لم يعد في وسعه مزاولة العلم الذي تعلمه على ميرزا قاسم في أصفهان، وقال: إنه لم يعد في وسعه حتى ولا استقراء الطوالع

تألم السفير من ذلك ألماً شديداً لأنه كان يريد تعاطي الدواء، فكلف شاباً من البحارة الانكليز أن يبين له بما يعرفه من علم الفلك هل تعاطي الدواء في هذا الوقت مناسب أم لا؟ ففتح الانكليزي فمه وعينيه كالأبله وقال: إنه لا يدرك الصلة بين الدواء وبين

« التليسكوب » وقال ان الحساب الذى يجريه ليس بمحوف الجلل عن أسماء الأشخاص ولكنه عن خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية

فلم نفهم قوله ولكننا نسبنا غموضه إلى جهله وزاد احترامنا لمحمد بك وسائر علماء الفلك فى فارس

لكن الفلكيين الانكليز من بحارة السفينة أدهشونا بدقتهم الغريبة فى معرفة الأبعاد ، فانهم نظروا بآلاتهم الفلكية وحددوا الساعة والدقيقة والاتجاه اللواتي تظهر فيها اليابسة وقد صدقوا فى تحديد كل ذلك . ولما جددوا بذلك فى نفوسنا شيئاً من الثقة بهم كلفنا محمد بك بمباحثتهم فى علمهم الفلكى ، فأجابوا بما قضى على تلك الثقة بتاتاً حيث زعموا أن الأرض كروية وأنها متحركة وأن الشمس هى الثابتة وأن القمر يدور حولها . ونحن نعلم عكس ذلك على خط مستقيم من أيام (جمشيد) .

وختم محمد بك مجادلتهم بقوله : إنه لو كان الآن فى فارس لاستطاع أن يأتى لهم بالكتب التى يقتنعهم بها

الفصل الحادى عشر

فى مالطة

فى الصباح التالى وجدنا السفينة الحربية التى تقودنا إلى شاطئ جزيرة « مالطة » وأخبرنا الترجمان أنه كان يقيم فى هذه المدينة جماعة من الدراويش النصارى فى عهد حروب قال لنا إن اسمها الصليبية وإن الشرق اشتبك فيها مع الغرب . وقال إن المسلمين احتلوا هذه الجزيرة فى وقت من الأوقات وقتلوا من فيها من الدراويش

وقال إن الدراويش الذين تقدم ذكرهم مذهباً خاصاً فى الدين فهم لا يتزوجون طول الحياة

ولما أشرق النهار ونظرنا إلى الجزيرة وجدنا صوراً جديدة لكل مظهر من الحياة ، فالأبنية غير التى نعرفها ، والنساء غير النساء ، والرجال غير الرجال ، وهلم جرا

وسمعنا فى الصباح أجراساً تدق دقات عالية متوالية ، فحسبنا قافلة كبيرة عندهم تهم بالسير ، ثم قيل لنا إن هذه الأجراس عندهم بديل من الأذان فى مساجدنا ، وذكرنا إسماعيل بك بأن مثل هذه المعابد ذات الأجراس موجود فى قرى البلاد الأرمنية

وبعد وقوف السفينة على الشاطئ تبودلت التحيات بينها وبين إحدى قلاع المدينة بإطلاق المدافع ، ثم قيل لنا إنه غير مسموح بالنزول إلى المدينة لأن البلاد التى نحن آتون منها بلاد غير نظيفة . فأخذتنا العزة وقلنا لهم إننا آتون من بلاد إسلامية وإننا لا نسمح بوصفنا بهذا الوصف . فأجابنا الربان جواباً لم نفهمه أيضاً إذ قال إن عدم النظافة هو المرض وإن فى الهواء ببلاد الترك حيوانات صغيرة جداً تحمل من يستنشق هذا الهواء غير نظيف .

فلم يقنعنا هذا التعليل غير المعقول وطلبنا إعادتنا إلى فارس احتجاجاً على هذه الاهانة أو السفر بنا فى الحال إلى بلاد الفرنجستان

لكن السفير عاد فقال : « إننى مع استيائى من هؤلاء الانكليز أرى أن عوائدهم بعيدة جداً عن عوائدنا وعقلهم ليس كعقلنا فينبغى أن نفهم وينبغى كذلك أن ننفذ أوامر الشاه كما هى . وقال لنا ليرضينا إن ترجمة مايقوله الفرنجستان عن الحيوانات الهوائية أن فى بلاد الترك عدوى الطاعون

وأنهم يخشون أن ننقل العدوى إليهم . وقال إنهم لكفرهم لا يسلمون الأمر لله ويعتقدون بوجود العدوى .

وقال لنا الترجمان إن المرضى بالأمراض المعدية فى داخلية البلاد يحجزون فى أماكن أحسن من السجون ، وإن الذى يحاول الفرار من بينهم قد يرمى بالرصاص كما يفعل بالأسير الهارب . ومن هذا القول فهمنا أنهم يعاملون المرضى مثل معاملة المجرمين وليس هذا أول شىء غريب بدا لنا من جانب الأوردسيين

لكننا عولنا على الرضى فيجب علينا نحن أن نؤمن به فلا نحارب القضاء الذى شاء تأخيرنا أربعين يوماً فى المحاجر

وفى فترة التأخير زرنا السفينة الكبيرة التى تحرسنا فراعنا كبر حجمها ومدافعها وكثرة هذه المدافع ؛ واعتقدنا أن إخواننا الفارسيين لن يصدقونا عندما نقول لهم إن بالبحر سفناً بهذا الحجم وهذه المناعة . وظننا مادام هذا هو استعدادهم الحربى فلا غرابة إذن فى امتلاكهم الهند . ولم نكد نصدق — وهذا هو وصفهم — أنهم يخضعون لحكم سيدة ويترفون بها ملكة عليهم .

وكان بجوار السفينة سفن أخرى كثيرة عجوزة لأنها غير نظيفة . ولاحظنا اهتماماً فى تلك السفن بسفينتنا ، فقد كان كل من فيها يحاول النظر إلينا ؛ فلما سألنا عرفنا أنهم علموا أن بيننا سيدة شرقية بثيابها الوطنية فأرادوا أن يروها وهى بتلك الثياب . ويظهر أن القوم يعدون ثياب نسائنا من الأعاجيب .

وكانت الشر شسية طول هذا الوقت لم تنتقل من الركن الذى أجلست به عند صعودنا إلى السفينة ولم تنطق بحرف مدة السفر إلا عندما وقفت السفينة فى مالطة فعند ذلك سألت عن علة الوقوف .

وفى أثناء هذه المدة زارنا حاكم المدينة وحيا السفير . وأشار إلى العلم الأصفر الذى يرفرف على الحجر وأبدى علائم الاعتذار ، وأفهمنا المترجم أنه يعرب عن أسفه لاضطراره إلى حجز السفينة وأنه لولا ذلك لسُرَّ من زيارتنا إياه ولأرانا المدينة وما فيها من المعاهد والآثار

وقال لنا إن نظام المحاجر لا يمكن التساهل فيه ، وإنه لو كان الملك نفسه آتياً من بلاد ملوثة لما استطاع مخالفة نظام المحاجر . وقال إن وصف البلاد المصابة بالعدوى بأنها غير نظيفة لا يمس أهلها وأن الملائكة أنفسهم يعتبرون ملوثين إذا جاءوا من بلاد بها عدوى

ثم ختم الحاكم كلامه بالسؤال عن الأحوال فى فارس وعن صحة الشاه — وما إلى ذلك من الأسئلة . وقد رأى فيروز خان أن اللياقة تقضى بأن يرد على هذه الخطبة بخطبة مثلها فأكد للحاكم أن الشاه يتمتع بالسعادة الكاملة وأن جنوده جاءوا إلى قصره فى السلطانية بشرين جملاً محملة برؤوس العصاة والمتمردين من خراسان ومازندران ، وأنه خرب قرى الثوار وقضى عليهم القضاء الأخير . والفضل فى الانتصار لخمسة وعشرين أميراً من أبناء الشاه قادوا جيشه فى هذه الحملة . وقال إنه يرجو أن يسر الحاكم بهذه الأخبار لما بين الدولتين من الود

ولكن ظهر لنا من مراقبة وجه الحاكم عند سماع هذه الخطبة أن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا نحن من خطبته . وقد قال لنا المترجم إن الحاكم

2017-11-14 Page 443

مسرور من انتصار الشاه . وأخبرنا أن فى بلاده ما يسميه بالحرب الانتخابية وأن تأخيرنا فى الحجر كان فى مصلحتنا لأننا لو وصلنا إلى انكلترا قبل انتهاء هذه الحرب لما سررنا من الحالة هناك . وقال إنه يأمل أن يبشرنا قريباً بانتصار الشاه الإنكليزى على خصومه الذى سماهم الحاكم « بالمعارضة »

وقد أراد المترجم أن يشرح لنا معنى المعارضة فذكر أشياء لم نفهمها مثل قوله « الضمانات الدستورية والحقوق البرلمانية » وما إلى ذلك من ألفاظ لا معنى لها فى لغتنا ، وكل الذى فهمناه أن هناك شغباً فى البلاد وأن الحكومة قد لا يكون مركزها وطيداً ، وأن أعضاء سفارة مثلنا لا يكون وصولهم ملائماً إلا عند وجود حالة مستقرة

ولكننا لم نفهم معنى قول الحاكم إن المعارضة تنهزم كل يوم ولكن أعضاءها لا يتفرقون ولا يقتلون . ولا أعرف كيف إذن يكون انهزامهم

والأعجب من ذلك أن المكان الذى تدور فيه المعارك مكان واحد لا يتغير ، اسمه (البرلمان) ويظهر أنه ميدان حرب

ولكن الحاكم استنكر أن تسيل الدماء بهذا الميدان .

وقال محمد بك يظهر أن الفرنجستان على غرابة أطوارهم لا يمرنون معنى للحكومة القوية فهم لذلك يتركون خصوم الشاه على قيد الحياة

ونظر الحاكم إلى سفيرنا وقال : « إنك بلا ريب ستعلمهم أنظمة الحكم الصالح فتساعد الشاه الفرنجستانى على التخلص من خصومه »

عند ذلك بدا السرور على وجه السفير الفارسى وقتل شاربيه وقال : « إننى على بركة الله سأعلمهم ما هم فى حاجة إلى تعلمه

ثم غادرنا الحاكم ونحن ننظر إليه مندهشين وهو مندهش منا أيضاً

الفصل الثانى عشر

السفينة الحربية

احتفل بنا قائد البارجة الحربية احتفالاً عظيماً عندما انتقلنا إلى سفينته . ومن عجائب هؤلاء القوم أنه قابلنا ورأسه مكشوف وقبعته فى يده . وقد أفهمنا المترجم أن هذه العادة عندهم دالة على الاحترام . ولم يكتف فى تحيتنا بالكلام بل أمر كذلك بإطلاق المدافع .

وقد وجدنا عدد الجنود الذين فى هذه السفينة يكفى لتسيير مدينة من مدن الفرس . وكان فيها نساء قيل لنا إنهن يقمن ببعض الأعمال فى الحرب . ولا أعرف ما هى هذه الأعمال ولا أى شأن للنساء فى الحروب

وجيء لنا بالفواكه الشهية وبالأطعمة اللذيذة

وقال سفيرنا إنه لو كان عند الشاه سفينة واحدة مثل هذه لسحق روسيا سحقاً . وإن شاء الله متى وصلنا إلى انكلترا فاننا سنتعلم صناعة هذه السفن . ولن يكون ذلك سهلاً علينا لأننا نحن الفارسيين لا نجيز عما يقدر عليه الأتراك ؛ ومادام الاتراك قد شادوا مثل هذه السفن وهم بشهادة العالم كله أضعف الناس ذكاء ، فاننا سنشيد أسطولاً بلا ريب

ثم عرفنا ربان السفينة الحربية بمساعديه ومن بينهم طبيب ، ومن بينهم أيضاً قسيس هو العلامة الوحيدة على تدين هؤلاء القوم الذين ينقضى النهار ووراءه الليل ولا نراهم يركعون ولا يسجدون

2017-11-14 15:26:48

ولا يمتاز القسيس عنهم إلا بأن ثيابه سوداء . أما فيما عدا ذلك فهو يشبههم أتم الشبه وخليقٌ عاوقة وكذلك شاراه

وطبيعي كذلك لا يلبس ثياباً تميزه ، ولكنه يثير ريب على جانب عظيم من العلم فانه لما جس نبضي ورأى لساني أشار لي بالدقة على مواضع الألم في رأسي . وقال لي إن في عيني ألماً وإني قليل الشهية للطعام . ولقد صدق في كل ما قاله

ولما أعطاني الدواء وجدت ثمرته الناجعة وهو لا يكتب حجاباً ولا ينتمين بعلم الفلك كبيرنا أحمد الطبيب الفارسي

ثم نزلنا مع الربان إلى الطبقة السفلى من السفينة فوجدناها لا تنقص في الضوء ولا النظافة ولا حسن الترتيب عن الطبقة العليا . ووجدنا بها سيدة إنكليزية في نهاية الجمال . ولكن جمالها يخالف الجمال الذي نعرفه في بلادنا فإن شعرها أصفر مثل أسلاك الذهب ووجهها في استدارة القمر . ولم تحاول إخفاء وجهها عندما رأتنا . ولم يكن في يدها برقع ولا منديل تتقي به الأعين الناظرة لو هي أرادت ذلك . ولقد كلمتنا دون خفر ولا دلال كأنها رجل مثلنا . وأفهمنا الترجم أنها تسأل عن الشركسية فأجابها السفير أنها ليست إلا رقيقة وأنها لا ترجو أكثر من أن تترك في مكانها

وكان مع هذه السيدة سائح أبيض الشعر كثير التجارب لم نفهم الغرض من رحلاته إلا أنه يقول إنه يصيد الطيور والوحوش والأسماك . وهذا السبب الذي يزعمه لا يبرر إنفاقه النفقات الطائلة في الرحلات ، فلا بد أن يكون له غرض آخر يخفيه وعندما وقع نظره علينا أخذ يصعد فينا نظره ويصوبه من الرؤوس إلى الأقدام كأننا مواش يريد أن يشتريها . ولست أشك في أنه لو كان يستطيع امتلاكنا لفعل بنا ما يفعله بالحيوانات التي يصيدها ، فقد قال إنها تعرض في بلاده في حدائق عامة ليراها الناس

وكان معهما شاب قال لنا الترجم إنه « شاه زاده » أي ابن ملك من ملوك الفرنجستان في جزيرة تدعى صقلية ، ولكن ملك هذه الجزيرة وأمراءها قد طردوا منها ، فهم الآن ينتقلون من بلد إلى بلد ويشتغل بعضهم بالتجارة والبعض لا عمل له . وقد اعترانى الدوار لما قلت في نفسي إن أبناء الشاه سيكونون كذلك جوابين في الآفاق إذا طردوا من بلادنا

وكان هذا الأمير متواضعاً لا يستطيع الانسان أن يعرف أنه أمير إذا لم يسمع عنه ذلك . وكان في صحبته أحد الوزراء

ومنذ ركبنا السفينة جعلت همي أن أتعلم اللغة الانكليزية فأخذت أسأل الترجم عن اسم كل شيء وكل مكان وأحفظ هذه الأسماء . وكذلك لاحظت أن السفير يحاول تعلم هذه اللغة بقدر الامكان . وكان في استطاعتنا أن ننطق ببضع كلمات انكليزية عندما قابلنا السيدة التي تقدم ذكرها في السفينة الحربية . فكانت تبتسم عندما ننطق بهذه الكلمات . وقد أدهشنا من أمرها أنها تحسن القراءة والكتابة وتفهم ما نقرأ كأي رجل من الرجال . ولكننا لم نعرف هل خطها بلغتها جميل أو غير جميل ، لأننا لا نعرف قواعد الخط الفرنجستاني . لكن الذي أستطيع أن أؤكده أن الخط الفرنجستاني قبيح في جملته لأن الخطوط عندهم كلها متشابهة ولأنهم يكتبون على عجل . ولم ألاحظ توقيعاً من

توقيعاتهم على شكل طغراء ، ولم أشاهد كذلك تركياً جميلاً كالتلث عندنا ، وأغرب ما فى خطوطهم أنهم يكتبون من اليسار إلى اليمين . ويبتدىء الكتاب عندهم من آخره فى الجهة اليسرى .

وهذا الخلاف بيننا وبينهم ذكرنى بتقاليدهم البعيدة عن تقاليدنا فى الطعام ، فإن آدابنا فى الأكل بسيطة خالية من التكلف . ولكن لا نسل عن مقدار دهشتنا عندما دعينا لتناول الطعام فى السفينة أول مرة .

رأينا على المائدة أنواعاً متعددة مما لا يصلح استعماله إلا فى الحروب : رأينا سكاكين من أحجام مختلفة وآلات تشبه السكاكين ، ولكن أطرافها كثيرة مدببة تدل هيئتها على أنها تستعمل فى السجون لقلع عيون المجرمين . ورأينا أصنافاً كثيرة من الأدوات على المائدة وعدداً جسيما من الأطباق

ولقد كانت السكاكين من الكثرة بحيث تكفى لتزيين جميع الأحزمة فى حاشية الشاه بدلا من الخناجر

وتوجد غير الشوك والسكاكين ملاعق كثيرة .

وقد خطر ببالى أنه لابد من انقضاء زمن طويل فى تعلم طرق استعمال هذه الآلات لنقل الطعام بين الأطباق وبين الفم خصوصاً بالنسبة لأناس متقدمين فى السن مثلنا تعودوا منذ الطفولة أن ينقلوا طعامهم بأصابعهم إلى أفواههم دون احتياج إلى هذه الاسلحة الحادة

وقد أصر السفير على أن نسلك مسلكا يقلل من ضحك هؤلاء القوم علينا وسخريتهم بنا ، فأمرنا باعتياد عاداتهم . لكن أول تجاربه فى ذلك كاد يجر علينا خطراً مستطيراً ، وذلك لأنه ما كاد يمسك السكين ليقطع بها قطعة من اللحم حتى جرح أصابعه

وكنت فى أثناء الطعام أسهو فآخذ بأصابعى بعض القطع وأدسها فى فمى ثم أنتبه فأدور ببصرى لأعرف هل رآنى أحد وأنا أرتكب هذا الخطأ الذي يرونه لا يغتفر

ولاحظت أن لديهم آداباً فى الطعام تخالف آدابنا. منها أن أمام كل فرد على المائدة طبقاً خاصاً لا يجوز أن يأكل من طبق غيره ، وأنه ليس مسموحاً بالشرب من الزجاجة أو الآنية ولكن يسكب الانسان منها فى الكوب على قدر ما يريد . ولكل فرد كوب خاص به . وكذلك لا يجوز له استعمال الملعقة أو السكين أو الشوكة التى لغيره ولا أن يستعمل سكين الزبد فى قطع اللحم ولا سكين اللحم فى أخذ الزبد . وهم يعتبرون إمساك البطة أو الدجاجة بيد وقطعها باليد الاخرى جريمة شنيعة . ولهم طريقة خاصة فى قطعها بالشوكة وبسكين كبير . وليس من الآداب عندهم أن يقدم الانسان إلى جاره قطعة من اللحم . وبالجملة فقد رأيت متناقضات مدهشة لا يسعها هذا الكتاب وسأقصها على إخوانى متى عدت إلى إيران إن شاء الله

الفصل الثالث عشر

أعضاء السفارة يغادرون مالطة

أخيراً تحركت بنا السفينة من جزيرة الدراويش فرأينا البحر مملوءاً بسفن من أحجام مختلفة وكلها فى اتجاه واحد هو الذى نقصد إليه . وقد لاحظنا أنهم يستعينون بآلة كالتى نعرف بها القبلة يسمونها (البوصلة) وهم يقولون إنها تبين لهم الشرق والغرب حتى فى الليل .

2017-11-15 05:05:48

وقد سمعنا أن كل السفن التي رأيناها محملة بالبضائع وأنها تقصد إلى بلاد الانكليز، فدهشنا وقال السفير الربان : « هل بلادكم مصابة بمجاعة أم الانكليز عاجزون عن صنع أي شيء لأنفسهم فهم دائماً في حاجة إلى من يمونهم ؟ »

فأجابنا الربان بواسطة الترجم أن الانكليز ليسوا في حاجة إلى كل هذه المتاجر ولكنهم سياسة يقومون بين الدول بمهمة الوسيط ، وهم صناع فهم يأخذون الخامات من بعض البلاد ثم يردونها إليها مصنوعة ؛ فلم يقتنعنا هذا القول وأصررنا على أن بلادهم فقيرة . فقال لنا : إن هذه المهمة التي تقوم بها هي أشرف المهمات ، وإن المجد أن تبلغ أية دولة مثل هذه الغاية . واستشهد على صحة قوله بأرقام كثيرة . وقرأ لي قصاصات من الورق لم أفهم منها شيئاً

وبعد أيام قضيناها في البحر وصلنا إلى صخور وراءها سهول واسعة . وقال المترجم إن هذه الصخور هي جبل طارق وإن البلاد التي وراء هذه الصخور كانت مملوكة للمسلمين في وقت من الأوقات . وإن اسم طارق الذي سميت به الصخور هو اسم لأحد قواد المسلمين ، وقص علينا المترجم قصة طارق هذا وتحدث عن بلاد الأندلس، فعزمت على كتابة هذه القصة ونشرها في إيران لأدل قومي على عظمة التاريخ الإسلامي

ولما استأنفت السفينة السير وجدنا أحد البحارة وهو شاب يضع على رأسه أصباغاً خاصة ليجعل بياض شعره سواداً ، فعجبنا من طريقته لأننا لا نعرف في بلادنا شيئاً من هذا القبيل غير الحناء . لكن الحناء لا تميد الشعر إلى لونه الأسود بل تجعله محمراً . أما الأصباغ الأخرى مثل النيلة الزرقاء فما لا يجوز صبغ الشعر به

وقد قدم ذلك البحار جزءاً مما معه من الصبغة إلى السفير ليصبغ لحيته إذا أراد ، فشكره على ذلك وسأله عن اسمها ليشتري من انكلترا شيئاً منها ويبعث به هدية إلى الشاه

ولكن لحسن الحظ لم يتبع السفير مشورة البحار ولم يصبغ شعره ، وقد وجدنا شعر البحار في اليوم التالي شديد الاحمرار بدل أن يصطبغ بالسواد ، ولما سألناه عن السبب قال : إن رطوبة البحر أثرت في الصبغة فأفسدتها ، ولذلك جاء لونها كذلك . ورأيناه شديد الخجل لأن الشعر الأحمر شنعة في بلاده

ثم بدت لنا الأرض عن بعد فهالنا البحارة . وبدا عليهم الطرب . وعلمنا أن هذه الأرض هي انكلترا . ولما اقتربنا منها لم نجد ذلك الإشراق الذي يجده الإنسان وهو مقبل على مدينة في قاموس . بل رأينا كسفاً من الضباب كسواد الليل كشف عن مناظر غامضة لأبنية ومنائر . وأدركنا عند ذلك علة ما نعرفه عن قلق الانكليز في بلادهم وميلهم إلى الاسفار ، لأن الانسان بطبيعته لا يحب أن يوجد إلا حيث توجد حرارة الشمس وضوؤها . وقد حاول المترجم أن يقنعنا بأسباب أخرى لميل الانكليز إلى الاسفار ، وبالمصالح التي تقتضي ذلك في أسماء ما يسميه بالامبراطورية . ولكننا وجدنا هذه الأقوال نافية لا يراد بها إلا التنصل من وصف بلاده بأنها غير صالحة للسكنى . ولم نفهم كلمات غامضة كثيرة كقوله « العلاقات الأجنبية . والتوسع الاستعماري » ولعله يعني بذلك غارات الحدود . وقد

أفهمناه أن ذلك لا يستدعي المهاجرة وأنه يكفي أن ترسل الحكومة الانكليزية بعض قبائلها لنهب المحصولات في الجهات المجاورة واختطاف الرقيق والغنم والماشية

ولما أفهمنا المترجم الانكليزي ذلك أصر على عناده وأبى أن يفهم وأصر على أن النظم في بلاده خير نظم في سائر الوجود وعلى أنه ليس أحسن من حكومته وشاهه وقال : « انتظروا حتى تصلوا إليها فترون بأعينكم ما لا تستطيعون إدراكه بالسماع ، وسترون هل فارس أكبر أم انكلترا ؟ »

الفصل الرابع عشر

أعضاء البعثة في بوشهر

رست بنا السفينة أخيراً على الشاطىء . ولطول المدة التي قضيناها بالبحر لم يفكر أحدنا فيما اعتدناه من قبل من استشارة المنجمين . ولم يخطر ببالنا هل الساعة ميمونة أو غير ميمونة بل تأهبنا للنزول في الحال . وقد أطلقت المدافع عند نزولنا ورفعت الأعلام . ولكننا لم نجد أحداً من قبل الحكومة في انتظارنا فانتهز السفير فيروزخان

ولما أبدى هذه الملاحظة للمترجم قال إن العاصمة لا تزال بعيدة عن هذه المدينة بعد طهران عن اصفهان ، وقال إن المدينة التي نحن فيها هي بلاعوث

كان يوم نزولنا من السفينة يوماً سعيداً لأننا والحق يقال لم نطمئن يوماً على أنفسنا قط ونحن في البحر . وقبل نزولنا كلفنا أتباعنا بجمع أمتعتنا . وأعانهم البحارة على ذلك وحمل كل منا سلاحه فوضعه في حزامه وحمل ذوو الرماح منا رماحهم

وودعنا البحارة ورؤساءهم ومشينا في المرفأ كأننا فصيلة من الجيش . ولكن الانكليز قابلونا بالابتسام الذي مظهره الترحاب وحسن النية وإن لم يخف علينا أنهم كانوا يضحكون منا

وكانت الشركسية تمشي وراء موكبنا بين « سعيد » و « عبوب » وقد استلفت أنظار الانكليز نساء ورجالاً فاحتشدوا حولنا أينما سرنا . والعجيب أنهم لم يلتفتوا مثل هذا الالتفات إلى السيدة الجميلة التي كانت معنا في السفينة ، فاهتمامهم في الحقيقة لم يكن بالمرأة من حيث أنها امرأة ، بل من حيث أنها عجوبة . ولاحظنا أن نظراتهم لنسائهم السافرات كانت نظرات عفيفة . ولقد ذكرت عندما خطرت ببالي هذه الحقيقة قول شاعرنا السعدي « إن الفاكهة المنوعة هي أشهى الفواكه إلينا وأحبها » وقلت في نفسي إن الشاه في فارس يرسل المنادين في الطرقات قبل نزول زوجته من قصره إلى مكان آخر منذرين بإخلاء الطريق ممن فيه ويقتل من يعصي الأمر . وذكرت أنه بالرغم من ذلك فانه لا يكاد يوجد رجل واحد من أهل طهران لم ينظر وجه الملكة خلسة من ثقب النافذة . ولكن هنا في بلاد الفرنجستان تمشي ملكة الانكليز فلا ينظر إليها أحد غير النظرة العادية التي ينظرها الرجل إلى الرجل

ومما استلفت نظري في هذه المدينة عظم المباني وكثرتها وحسن زينتها . ولقد قدرنا أن كثرة المارين في الطريق سببها رغبة الناس في مشاهدة سفير الشاه ملك الملوك إلى الملك الانكليزي . ولكن ساءنا أنه لم يتقدمنا فراش من قبل حاكم المدينة يطرد الناس من أمامنا كما فعلنا نحن عند ما وصل إلينا السفير الانكليزي . وأقول إنه لو كان بعض

2017-11-14 15:25:48

الفارسيين تحكوا من ثياب ذلك السفير يوم قدومه كما يضحك الآن بعض الانكليز من ثيابنا الأعدهم الشاه إرضاء لضيفه أو لجلاوزه إن رأى الضيف الاكتفاء بذلك

ولما خرجنا من المرفأ أعدلنا للترجمان عربات لا تشبه العربات التي رأيناها في الآستانة لأنها كبيرة الحجم مريحة حسنة المنظر وفضلاً عن ذلك فلا تجرها الخيل بل يظهر أن بها آلات كالتي بداخل السفينة تساعدها على الحركة . وقادتنا هذه العربات إلى مكان قال عنه الترجمان إنه خان . ولكننا لما رأيناه وجدناه أفخم من قصر الشاه

دخلنا فكان أول ما رأيناه عند الباب ردهة كالتي في قصر الملك بها مرآة عظيمة وآلة توضع عليها القبعات، ووجدنا سيدتين جميلتين على مكتبين منخرفين وليس على وجههما براقع . ووجدنا رجلاً في ثياب أنيقة في استقبالنا فررنا بغرف مقفلة لم نر أبواباً أجمل من أبوابها، ثم أرانا جناحاً به عدة غرف مخصصة لنا . وقال لنا الترجمان إنه غير مسموح لنا بأن نصفق أو ننادي بهذا المكان . وأرانا تنبأ بالحائط فيه زر صغير قال إننا إذا لمسناه سمع البواب دقة الجرس بالقرب منه فيأتي . وفعلنا ذلك على سبيل التجربة .

فلما تبينا صدق قوله تذكرنا القصص التي تقال عن بلاد الجن . وكان كل شيء أمامنا يبهر النظر حقاً فإننا في قصر لم يقم في مثله أي ملك من ملوك الفرس من عهد أبو شروان . ولا يرى الفارسي ولا في الحلم مثل الذي به من أسباب الراحة

ولما استرحنا قليلاً في غرفة الاستقبال جاءت فتاة انكليزية ساحرة الجمال وقالت لنا بواسطة الترجمان إن أماكن النوم قد أعدت لنا ، فذهبنا لنراها ، ووجدنا لكل واحد منا غرفة خاصة . ولست أستطيع وصف الأسرة فإنها لجمالها لا تكاد تختلف شيئاً عن عرش « الطاووس » الذي يجلس عليه الشاه في الأعياد . وقال لنا الترجمان إن السرير الذي أعد للسفير قد اختير عن عمد من الأسرة المصنوعة على الطراز المغولي المعروف بعرش الطاووس

قال السفير : « لا إله إلا الله ! إن الحظ لم يكتف بإرسالنا إلى الفردوس حتى يجعل الحور في خدمتنا ! »

ثم حدثت حركة غير عادية في الفندق عند ما علم القيمون به بوصول الشركسية فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن يراها . ويظهر أنه لم يعتقد أحد منهم أنها ليست إلا جارية . ولذلك حيّاها الجميع كتحيتهم للسفير نفسه . حتى مترجمنا الانكليزي صار كأبناء جنسه يؤدي لها من الاحترام ما ليس من حقها وصار يطلق عليها كلمة « اللادي » ولما سألناه عن معناها عرفنا أنها تعني كلمة « الهانم » فاستاء السفير من هذا التعبير وطلب إليه ألا يعيده لأنه يعلم أنها جارية

ولقد كانت دهشة الانكليز عند رؤيتها أشد من دهشتهم عند رؤيتنا نحن حتى كان القيمون بالأبنية التي أمام الفندق ينظرون من النوافذ لعلهم يبصرونها . وكانوا يتحدثون بأصوات عالية لم نفهم منها شيئاً ولكن أحاديثهم بغير شك كانت عنا وعنها

وقال السفير : « إذا كان الجواري يعاملن هذه المعاملة في انكلترا فكيف تعامل الزوجات ؟ لا غرابة إذن مع احترامهم للنساء أن يستكفوا خروج الخصي مع إحدى الزوجات ليحرسها »

الفصل الخامس عشر

حاكم المدينة يزور السفير

كان « ميرزا فيروز » شديد الغيظ لأن أحداً من رجال الحكومة لم يأت ليزوره ، وقد كان ذلك أقل واجب له بعد أن أهملوا حفلة استقباله مع أنه يوم وصول السفير الإنكليزي إلى طهران أقيمت حفلة لأجله لا يقام مثلها إلا للملوك

ولم يخف السفير شيئاً من غيظه عن المترجم بل قال له في صراحة : إنه آسف لمجيئه هذه البلاد التي لم يكن ينتظر أن يعامل فيها مثل هذه المعاملة وأنه مع اقتناعه باختلاف العادات فإنه يأبى أن يصدق أن إهمال الحفاوة بتاتاً من العادات الانكليزية

لكنه لم تطل إقامتنا بالفندق حتى أخبرنا المترجم بأن حاكم المدينة آتٍ لمقابلتنا . ولقد جاء وحده لا يصحبه أحد من رجال حاشيته ولا يتقدمه الفرسان ولا حملة المشاعل ولا حامل « الشوبك » ولا الفراشون ليطردوا الناس من الطريق . بل كان هذا الحاكم في نهاية البساطة يحمل عصاه في يد وقبعته في اليد الأخرى

وبعد أن حيانا جلس على أقرب مقعد أمامه ، فدهش السفير من ذلك كل الدهشة لأن رجلاً كبير المقام لابد أن يجلس في صدر المكان . ولولا أن المترجم قال لنا إن هذا هو الحاكم لاستحال علينا أن نعتقد ذلك . وزادت دهشتنا عندما علمنا أنه صاحب سفن كثيرة وأنه بطل من أبطال الحروب وأنه لا يزال محتفظاً بقوته بالرغم من أنه تجاوز السبعين .

ورأى سفيرنا — ما دام هذا هو أول حاكم انكليزي نقابله — أن يكون الأثر الذي نتركه في نفسه جميلاً بقدر الامكان . وبذلك استجمع كل ملكاته الخطابية ليلقي أمامه أبدع ما يمكن أن يقال

وبعد أن سأله ثلاث مرات عن صحته وحالته ، وقف وطلب إلى المترجم أن ينقل أقواله إلى الانكليزية . وألقى الكلمة التالية :

« الحمد لله إذ رأينا فيك يا حاكم المدينة رجلاً غض الشباب موفور الصحة قادراً على القتال ممتعاً ، فضلاً عن مزاياك النفسية العالية بصفات تحبب في الاقتراب منك ، فالعين لا تنصرف منك إلا إليك لجمال طلعتك ، ونحن سعداء بالوجود في حضرتك . وإن من حسن الطالع أن تتعرف بك فان رؤيتنا إياك دلتنا على أن ملك الانكليز أحسن الملوك رأياً في اختيار الحكام ، وأن ملكاً حوله أعوان متى أمثالك لجدير بصداقة فارس »

كنا ننتظر أن يرد على الخطبة بخطبة مثلها يبالغ فيها في مدحنا . ولكنه وجم كأنه لا يستطيع الكلام . وبدت على وجهه علائم الحيرة كأنه يستنكر مدحنا إياه بما يعرف أننا لا نصدقه وإن كنا نقوله

وقد بقي السفير عدة دقائق ينتظر الرد . فلما لم يسمعه أخذ يفتل شاربيه ويدخل أصابعه في لحيته . وأخيراً فطن الحاكم الانكليزي إلى أن السكوت لا يليق فقال : إن الجو جميل

رضي السفير بعض الرضى لأنه فهم أن الحاكم يريد أن يقول إن الجو جميل بوجودنا كما نقول نحن في فارس إن الشمس مشرقة بوجود الضيف . ونظر كل منا إلى الآخرين

ولما انصرف الحاكم قال لنا السفير : هل

رأيتم حماراً مثل هذا ؟ إن أحد السوقة فى فارس أذكى من هذا الحاكم الانكليزى وأنصح منه لساناً . فأخذنا نطرى فصاحة سفيرنا وذلاقة لسانه وسرعة خاطره ، وقلنا إنه يبض وجوهنا ووجه الشاه الذى أحسن اختيار من يمثله فى البلاد الأجنبية . واتفقت كلتنا على أنه ليس فى العالم كله حاكم أشد عجزاً من حاكم بلاريوث

كان الشاه فى الفندق على منوال الشاه فى السفينة سوى أن الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين كانت كلها من الفضة . فسألنا المترجم هل هذا هو منوال الحياة العادية فى الفندق أم زيد فى الاستعداد حفاوة بنا . وقلنا له إن الفنادق عندنا لا تقدم الطعام للنزلاء بها بل بجوار كل خان بدال يأخذ منه النزيل ماشاء من طعامه . على أن الطعام الذى قدم لنا هنا جدير بأن ينسى المرء ما يقال عن كرم حاتم

أكد لنا المترجم أن هذا هو منوال الحياة العادية بالفنادق وأنهم لا يقدمون لنا الطعام كرماً فهم بمداه عما نفهمه من معنى الكرم ، وأن أصحاب الفندق سيقدمون لنا عند ما نرحل عنهم قائمة الحساب يدرج فيها ثمن كل شىء مهما كان تافهاً . وأننا إذا كسرنا لوحاً من الزجاج أو كأساً فانهم يحتسبون ثمنه علينا . وقال لنا أكثر من ذلك إنهم لا يقبلون المجادلة فى الأثمان التى يذكرونها بقوائم حسابهم ولا يصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى النزاع على الأثمان فان كلمة أصحاب الخان مصدقة ، وأن الذى يرفض دفع ثمن ما يأكله أو أجر إقامته تصادر أمتعته ، وقد يسجن أيضاً

ولما حان وقت النوم وجد كل منا فى غرفة نومه موقداً ، ووجدنا الفراش سخناً فكدنا ننسى أننا ببلاد شديدة البرد . ولما انقضت ساعات من الليل فزعنا عند ما سمعنا صوت السفير يصيح فخرجنا لنعرف حقيقة الأمر فوجدناه فى ثياب النوم يمشى وفى يده شمعة فى الممر الذى بين الغرف وهو يلعن الفندق وأصحابه ، وجاء أصحاب الفندق وخدمه والنائمون فى الغرف الأخرى وفيهم سيدات ليروا ما ذا أصاب سفيرنا فقال جملا بعض كلماتها فارسى والبعض انكليزى معناها أنه كاد أن يموت وأنه يظن أن أصحاب الفندق يريدون قتله بشدة الحرارة التى فى غرفته

وقد تبين من جواب أصحاب الفندق أنهم عرفوا أن نزيلهم آت من بلاد حارة فأدفؤا الفراش وزادوا من حرارة الدفأة على أن يقللها هو إلى الحد الذى يريده قبل أن ينام

ولما منعنا السبب الذى يتأذى منه السفير عاد كل منا إلى غرفته وهو يفكر فى غرابة أطوار الانكليز الذين يختلط نساؤهم برجالهم حتى وهم فى ثياب النوم والذين ليست لديهم أية فكرة عما نسميه نحن بأماكن الحريم . وقد وجدنا نساءهم بالليل أقل جمالاً منهن بالنهار لأن كل واحدة منهن تضع على جبينها وخديها قطعاً صغيرة من الورق لعلها أحجبة يقصد بها إلى الوقاية من الحسد والسحر

ولقد أتعبتنا فى هذا الفندق صعوبة الحصول على الماء لأننا لا نستطيع أن نأمر الخادم باحضار ما نشاء من الماء إلى غرفة النوم للوضوء أو إلى غرفة الطعام لنسل أيدينا بل علينا أن ننتقل نحن إلى مكان الماء . ويظهر أن الماء عندهم قليل لأنهم يجعلونه فى أنابيب دقيقة بالحوائط ويفرغون منه بمقادير قليلة . وقد

حاول السائس مرة أن يأخذ مقداراً من الماء الساخن في حمام الفندق ليشل الخيل في الاصطبل فضج أصحاب الفندق . أما فيما عدا ذلك فان فندقهم أفخم من قصور الشاه

ولكي أقرر الحقيقة يجب أن أعترف بأننا بالقياس لهم أناس في نهاية السذاجة

الفصل السادس عشر

في الطريق الى لندن

طلب إلينا المترجم أن نستعد للسفر إلى لندن ، وقد امتعض السفير من ذلك لأنه كان يتوقع أن ترسل الحكومة إلينا مندوبين يرافقوننا إلى تلك العاصمة ، وكان يظن أن تأخرها عن ذلك إلى الآن إنما يرجع إلى رغبة الوزراء الانكليز في جمع الهدايا كما حدث عندما جاء السفير الانكليزي إلى طهران

وكذلك حمل تأخرهم على أنهم يصنعون عدداً كبيراً من الرايات الفارسية ليرفعوها على طول الطريق وعرضه بين بلاءوث وبين لندن

لكن المترجم قضى على كل هذه الآمال بتحديده ساعة السفر في صباح اليوم التالي. وقال إننا سنسافر في عربات عمومية تنقلنا وتنقل غيرنا ، وأن السائق لن ينتظرنا إذا طلبنا إليه الانتظار ، فيجب أن نكون متأهبين في اللحظة المحددة للسفر . وقال إن كل شيء في انكلترا بمواعيد معينة ، وإن أي عمل من الأعمال لا يتعطل بسبب التأخير ولو كان هذا التأخير صادراً من الشاه الانكليزي نفسه

ووجدنا المترجم صادقاً فيما يقول لأن العربات ما كادت تقف على باب الخان حتى نفخ السائقون في الأبواق ، فبدأنا نحشد ذخيرتنا وهم أحدنا بأن يصلي ركعتين فنفخوا في الأبواق مرة أخرى . وأنذرنا المترجم بأننا لو تأخرنا دقيقة واحدة فإن العربات تتركنا وتسير

قلت : « لماذا هذا التعجل ؟ إن الشمس ليست حارة هنا مثل بلادنا حتى يكون لكم عذر في التبكير قبل أن تشتد الحرارة »

فقال المترجم : « نحن لا تهمنا الحرارة والبرودة ولكننا نزن الزمن بأدق الموازين ولا يفرط أحدنا في لحظة من عمره »

وقال محمد بك : « وهل من التفريط في العمر أن نصلي ركعتين ؟ » فقال المترجم : « قد لا يكون ذلك من التفريط في عمرك ولكن لماذا تترك السائق في انتظارك ؟ صلِّ ألف ركعة إذا شئت واترك السائق وعربته ؟ »

عند ذلك سمعنا الأبواق تنفخ مرة أخرى وصاح السفير بنا أن نسرع ، ولمحنا ولمن الساعة التي رافقناه فيها ، فتبعناه إلى الطريق

ركبت أنا والسفير والمترجم في عربة ، وسعيد وعبوب والشركسية في عربة أخرى، وسائر أعضاء السفارة في عربة ثالثة ، وكان في كل عربة من هذه العربات مسافرون آخرون

وكان بجانبي فتاة إنكليزية سافرة الوجه لم تتحرج من ملامسة جسمي لجسمها مع اختلاف ديننا كما نتحرج نحن من ملامسة اليهود . ويظهر أن من صفات الانكليز أنهم لا يعرفون الطهارة والنجاسة في الآدميين فهم يمسكون بيد اليهودي ثم لا يرون ضرورة للاستنجاء كأنهم يمسكون بيد واحد من أنفسهم . على أن هذا في الحقيقة لا يدعو إلى الدهشة ما دام القوم يأكلون لحم الخنزير

2017-11-15 09:09:48

وإذا كنا نمتاز عن الانكليز فى كل شىء فانهم بغير ريب يمتازون عنا فى صنع هذه العربات لأن « التختروان » عندنا وهو « هودج » يحمل بين فرسين لا يمكن أن يكون كالعربة ، فهو دائماً يرتج ويهتز بعكس العربة التى يمكن أن يشرب فيها الماء فنجاناً من القهوة دون أن تسقط قطرة منه على ثيابه. بل يستطيع أن يقف فيها ويصلى ويستطيع أن يدخن فى الزحلية وأن يتناول الغداء وقد فكرت فى إدخال صناعة العربات بالبلاد الفارسية عندما أعود إليها

وقد عجبت من نظافة الشوارع ، فليس بها قطع من الأحجار ولا أكوام من الأقذار وهى منسولة كأن الجن قاموا بتنظيفها فى الليل ، ومثل هذه النظافة لا تكون فى بلادنا إلا فى الطريق الذى يسلكه الشاه فى يوم الجمعة للصلاة . وأخذ بعضنا يسائل البعض هل أعد ذلك خصيصاً لنا ، فأخبرنا المترجم بأن هذه هى حالة الشوارع كل يوم

وقد صدقناه لأننا لم نر علامة على الاحتفاء بنا، فالناس هنا ينظرون إليه ويضحكون منه مع أن الفارسيين كانوا يأسر الشاه يركعون عند رؤية السفير الانكليزى

استرحنا فى أثناء الطريق بخان لنتناول فيه الغداء ، وقد دهشنا إذ أخبرنا المترجم بأن المسافة التى قطعناها هى ثلاثون فرسخاً وهى مسافة تقطعها فى فارس فى أربعة أيام . ولكن سرعة العربات البخارية فى انجلترا لا يكاد يتصورها عقل الفارسى فى بلاده

ووجدنا السوق فى القرية التى تنديدنا بها خالياً من المحتسب ، والمشترون على أتم اتفاق مع البائعين

الفصل السابع عشر

مدينة الحمام

استأنفنا السير فوصلنا إلى مدينة (باث) ومعنى هذه الكلمة باللغة الإنكليزية هو (الحمّام) فاسم المدينة إذن هو مدينة الحمام لأن بها حمامات كثيرة ليست تشبه حمامات الماء الساخن عندنا ولكنها آنية من ينابيع يقولون إنها معدنية . وهم يقولون إنها تشفى من الأمراض مثل مياه بروصّه بالقرب من الآستانة . وكان السفير يشكو وجعاً فى الظهر فأشاروا عليه بالاستحمام فى هذا الماء، فلما قبل قادونا إلى بحيرة ينزل فى مائها الرجال والنساء معاً .

ولقد كانت مشاهدة الحمامات الانكليزية سبباً فى إثارة المناقشة بين السفير وبين المترجم فى موضوع النظافة والطهارة عند الفارسيين وعند الانكليز. فالفريق الأخير لا يعرف الطاهر والنجس ولكنه يعرف التنظيف والتقذر . فالخمر عند الانكليز طاهرة لانها نظيفة ، والماء لا يكون عندهم طاهراً إذا لم يكن نظيفاً . وقد غضب السفير فى نهاية هذا الحديث وقال : « أنتم قوم لا يحق لكم التكلم عن النظافة مادمتم تأكلون لحم الخنزير ، وكل الحمامات التى فى العالم لن تطهركم من نجاساته »

فقال المترجم « لا تكثر من الكلام فى هذا الموضوع فانك ستأكل من لحم الخنزير قبل أن تغادر هذه البلاد، ولن يكون فى وسعك أن تميز بينه وبين اللحوم الأخرى »

وبعد الاستحمام بهذه المدينة استأنفنا السفر إلى العاصمة وقد وجدنا عند بابها عربتين من عربات الشاه الإنكليزى فى انتظارنا كما وجدنا اثنين من

موظفي قصره ، فركبنا إلى المكان الذي خصص للسفارة

وقد سرّ السفير من إرسال هذين المندوبين وانتظر إجراء حفلة استقباله في صباح الغد . ولذلك أعدّ ملابس الحفلة والخنجر ذا المقبض المرصع بالجواهر ليضعه في حزامه والقلبق الذي عليه الريشة المجوهرة

وقد لاحظت أن الإنكليزيات لم ينفرن من النظر إلى عيوننا السوداء ووجوهنا المستديرة ، ولذلك حرصت على نظافة ثيابي وجمال منظري ، وارتديت « الطقم » وهو أجمل ثوب عندي ومشطت شعري وجعلت خصلة طويلة منه وراء أذني وهذه الخصلة يسمونها بالسالفة في فارس ، وهي من لوازم الأناقة ...

حلق لنا « فريدون » وساوى ذقوننا ، وجيء للشركسية بثوب جديد من ثياب الفرنجستانيين ولكن بتفصيله على الطراز الفارسي

وأفهمنا المترجم أننا سنتبع في الاستقبال عادات بلادنا فتمشى على مهل شديد ونلقي خطباً طويلة كثيرة وأنه سيقدمنا في الطريق بعض الأتباع ليطردوا الناس من أمامنا ، وطلبنا إليه إفهام السلطات الإنكليزية ذلك

ومما رأينا في لندن ولم نكن نتوقعه أن على حوانيتها « لوحات » كثيرة لا شك أنها من مأثور القول عندهم . وعزمت عندما أتعلم اللغة الإنكليزية على استظهار هذه الأقوال لكي أتمثل بها في كلامي

ولكن المترجم قال لي فيما بعد إن هذه ليست أقوالاً حكيمة وإنها عنوانات للحوانيت التي هي معلقة عليها . فعجبت من ذلك وقلت إنهم لم يعلقوها على كل حال إلا مباهاة بحسن خطها وإلا فأية فائدة من تعليق العنوان ؟

وأدهشتنا من هذه المدينة كثرة المارة في شوارعها فإنها في أيامها العادية أشد زحاماً من الأسواق عندنا في أيام المواسم . ولولا ما شهدناه من قلة اهتمام الناس بنا لقلنا إن أهل المدينة خرجوا لاستقبالنا كما خرج كل أهل طهران ليروا السفير الانكليزي يوم وصوله . قال السفير للمترجم : إني لقلة ما أرى من مظاهر الحفاوة لا أكاد أصدق أنني سفير من حقه الاكرام فانكم تدخلون بي البلد خفية كأني بضاعة مهربة . فنقل المترجم هذه الملاحظة إلى الموظفين الانكليزيين فلم يفهما في بادئ الأمر ما الذي يريده السفير لجهلهما بعوائد الفارسيين ؛ فلما أفهمهما المترجم قالا إن هذه هي عوائد البلاد وإن السفير الفارسي يقابل كأي سفير آخر

قال فيروزخان : « إذا كانت هذه هي عوائدكم فأقسم إنها عوائد سيئة فإنه لا فرق عندكم بين استقبال سفير وبين استقبال امرأة عجوز . ثم نظر إليّ وقال : « أقسم يا حاجي بابا أني لو كنت أتوقع ذلك لما قبلت أن أكون سفيراً . لقد كان حلق لحيتي أهون عليّ من مغادرة بلادي والعيشة بين الكفار . ولا بدّ لي من الانتقام من رئيس الوزارة الذي بعث بي إلى هذه البلاد حيث لا تقام حفلة الاستقبال . وإذا لم أنتقم منه فاني غير جدير إذن باسم فيروزخان

وجم الموظفان الانكليزيان وقد أزعجتهما هذه اللجة التي يتكلم بها السفير . وفي أثناء مرورنا بالعربة أشار أحدهما إلى حديقة وقال إن هذه الحديقة إحدى متنزهاتنا العامة . فقال السفير بلهجة دالة

على الغضب : « أغلقوا النافذة فانى لا أريد أن يرانا أحد فيزداد افتضاحنا »

فلم يسع الانكليز غير الصمت

الفصل الثامن عشر

دار السفارة

نزل السفير إلى الدار المخصصة للسفارة فلم يقدم إليه أحد هدية ولم يرحب به أحد . فعلت وجهه مسحة من اليأس . وقال إن الشاه أمره بان يبيض وجهه فى هذه البلاد ، ولكنه سود وجهه ووجه الفارسيين جميعاً . وقدم له المترجم طعاماً فأبى أن يأكله ، وقال إنه لن يأكل الخبز والملح مع الانكليز حتى يأتى مندوب من قبل الشاه الانكليزى ليقول له الحمد لله على سلامتك

قال المترجم : « ولكن ألا تريد أن تعتبر لمجيء المندوبين الانكليزيين أية قيمة ؟ فقال السفير : « لا تقل لى ذلك فأنت نفسك حضرت حفلة استقبال السفير الانكليزى فى طهران . إنكم سودتم وجهى وسودتم وجه حكومتكم أيضاً والحمد لله على ذلك »

ولما رأيناه على هذه الحال تركناه . واستأذن المترجم الانكليزى كذلك فى الذهاب . وكان المترجم فى الأيام الأخيرة يتغيّب عنا أحياناً ليرافق رجلاً جميل الثياب ظاهر الوجاهة كان يقيم أمامنا . وقال لنا الطباخ إنه جاء مرة مع المترجم الى دارنا . وكان الطباخ مريضاً فوصف له دواء شفاه فى الحال

اعتقدنا من ذلك أنه طبيب . وفى عصر ذلك اليوم عاد إلينا مع المترجم فخرجنا إليه مادين أيدينا ليجس نبضنا مخرجين ألسنتنا ليرى لونها ، فلما رآنا المترجم كذلك استغرق فى الضحك وسألنا لماذا نفعل ذلك ؟ فقلت لأن صاحبه طبيب ، وقال الطباخ نعم وقد شفانى

قال المترجم إنه ليس طبيباً ولكنه عمى . فقلت ما معنى ذلك ؟ هل هناك ما يمنع الجمع بين كونه طبيباً وبين كونه عماك

قال : « هو على كل حال ليس طبيباً ولكنه لورد وهو من رجال السيف ولم يعالج قط صناعة الطب »

وقال الطباخ : « وكيف تميز الآن بين أطبائكم وبين اللوردات ؟ »

حار المترجم فى الاجابة على هذا السؤال . والحقيقة أن الناس متشابهون فى هذه البلاد على اختلاف أعمالهم ودرجاتهم حتى الخدم والكناسون يلبسون ثياباً كالتى يلبسها الأعيان والوجهاء . وقد هالنا اتحاد المناظر فصممنا على أن نهتم بمجمل السير ونفتح عيون الدهشة فى وجوه الجدة

ثم نظرنا إلى القصر الذى خصصه الشاه الانكليزى لسكنى السفارة الفارسية فقلنا إن هذا القصر لا بد أن يكون منتصباً من أحد اللوردات لأن . أى إنسان لا يسمح باعطاء مكان مثله عن طيب خاطر . وإنه ليخيل لى أن الأثاث أغلى كثيراً من البناء . وقد سألنا المترجم عمن قدم هذا القصر فقال إنه اللورد أمين الخزانة . ولست أستطيع أن أصف الأثاث قطعة قطعة ، فان كل جزء منه يحتاج فى وصفه إلى مجلد ضخم ، فالأسرة والسجاجيد وأدوات الزينة والدواليب والكراسى ، كل ذلك مما لا تقع العين على مثله . وهناك أشياء كثيرة جداً لا نعلم فائدتها ولا كيفية استعمالها

ولقد كانت الكراسى ذات أشكال مختلفة

عجيبة فبعضها له جانب واحد والبعض له جانبان والبعض ثلاثة جوانب . وبعض الكراسى ذو ظهر يصل إلى الرأس والبعض لا ظهر له . أو له ظهر قصير

وهناك مناضد خاصة بالأكل وأخرى خاصة بالكتابة وأخرى للحلاقة وغيرها لنسل الوجه . وكذلك الغرف مقسمة إلى أقسام، فالذى يأكل فى غرفة النوم يكون قد أتى بأمر منكر وكذلك الذى يغتسل فى غرفة النوم .

وقد حار السفير فى تخصيص مكان لجاريته الشركسية .

وعلى ذكر الشركسية أقول إننا استكشفنا أخيراً أن بعض السيدات الإنكليزيات يضمن على وجوههن نوعاً من البراقع ولكنه لا يحول دون رؤية الوجه بل يبقى من النبار فقط .

وقد أنسينا فى قصر السفارة أننا لا نستطيع الاستقرار فى مكان، فاذا أردنا أن نأكل انتقلنا إلى الطابق الأرضى، وإذا أردنا أن ننام انتقلنا إلى الطابق الأعلى، وإذا أردنا أن نعمل أو نستريح انتقلنا إلى الطابق الأوسط . وقد استنتج محمد بك أن أرض بلاد الانكليز قليلة المساحة جداً ولذلك يبنون بيوتهم من عدة طبقات، على العكس من الحال فى فارس فان أرضنا واسعة ومن أجل ذلك نبنى بيوتنا من دور واحد

وقد علمنا أكثر من ذلك أنه ليس فى انكلترا أرض زراعية ، وهذا يدل على شدة ضيق بلادهم فانهم يبنون البيوت حيث كان يجب أن تكون المزارع . والملكية المنازل عندهم نظام غريب فهي تنتقل بالميراث إلى الابن الأكبر ولا تقسم بين الورثة ، ولعل ذلك لضمان إصلاح المنازل وترميمها لأنه عندما يتعدد الشركاء فى المنزل الواحد يتشاجرون ويتركونه بغير إصلاح . . أما الثياب والأموال فانهم يقسمونها بين الورثة فهم لا يحرصون على بقائها حرصهم على البيوت لضيق أرضهم

« يتبع » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالاسماء الآتية

٥٠	السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


٢٢
الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل سنون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٣ | ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — أول يونية سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٤٥٨	البديل	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك تيمور
٤٦٥	قلب أم	القصص العالمي الحديث	بقلم الأديب صلاح الدين المنجد ...
٤٦٩	لقد أحضرت الزكية	الكاتب الفرنسي تيودوردي باجيل	بقلم محمد عبد الفتاح محمد
٤٧١	الوالد	القصص الفرنسي موباسان	بقلم الأستاذ علي الطنطاوي
٤٧٧	سر الخطية الصفراء	الكاتب الروسي سيدرياك ديتروف	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة
٤٨٩	صلاح الدين	القصص الابطالي بوكاشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٤٩٥	المرأة المدبرة	من القصص العربي	بقلم الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف
٤٩٧	حاجي بابا في انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

2017-11-14 15:29:48

البديل

أقصوصة مصرية

للأستاذ محمود تيمور

نشأت يتيم الأب والأم ، أعيش مع عمي في منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التي أرويها . وقد أخبروني أن أبي قدمات وأنا رضيع ؛ أما أمي فقد توفيت ولي من العمر أربعة أعوام ؛ فلا أذكر منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلا ما زارني وسرعان ما اختفى . وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيوشة » من أقارب عمي ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلى . هي نحيفة طويلة ، صعبة جافة الطبع ، لها نظرات كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز في النفس

وكان عمي يعاملني بشدة ، ولكنه يشعرني بعض الأحيان بشيء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه في التحفظ ، ودقته البالغة في النظام . بليغ الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ، يسير في خطوات عسكرية متناقلة ، يلتزم في حياته نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ؛ فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً في أبحاثه القضائية

كنت في ذلك الوقت في مستهل الإجازة الصيفية أقضي يومي ، إما في حديقتنا الصغيرة ، أتسلق الشجر مع أولاد الجيران ، أو ألعب بالكرة معهم وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيت سيدة تخترق الشارع ؛ فلما رأتنا نتقاذف الكرة ، وخشيت أن يصيبها منها أذى ، سارت على الرصيف بجوار الحائط متجنبة سهامها . كانت حسناء في مقتبل العمر ، ذات شعر أصفر يلمع لمعان الذهب ، تجذب الأنظار بأناقتها وزينتها ، وتمسك بعصا في يمينها تعبث بها بحنة ويسرة

وما هي إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقت صوب السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاق بها ، وتحويل سيرها . ونظرت إلينا السيدة نظرة بين الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع على حتى توقفت عن السير وأخذت تلاحظني ، ثم ابتسمت لي في رقة ، فلم آبه بها ، واستأنفت لعبي ، ورأيتها واقفة مكانها بضع دقائق تتبعني بنظرها الشغوف حينما تنقلت

وفي مثل ذلك الوقت من اليوم التالي ، رأيت سيدة الأمس تسير على مقربة منا في خطوات متمهلة ، فما إن وصلت إلى شجرة على جانب الطريق حتى وقفت في ظلها ترقبنا ونحن نلعب ، وشمرت بها تخصني — دون رفاق — بنظرتها . وبعد برهة لمحتها تشير إليّ بيدها تستدعيني إليها ، فلم أستجب وواصلت لعبي . وظلت السيدة تلاحظني في اهتمام ؛ فضايقتني هذه الملاحظة بعض المضايقة فارتبكت ، وهجم على وقتئذ زميل أوقعني وانتزع الكرة مني ، ورأيت السيدة تهرع إليّ ، وتساعدني على النهوض وتنفض التراب عن ملابسي ، ثم امتحت بي ناحية وسألتني :

— هل أصابك ضرر ؟

فأجبتها : كلا !

وأخذت تدقق النظر فى ثم قالت :

— يالله ! أنت مجروح !!

— مجروح !

— جرح خفيف ، خفيف جداً كخدش الدبوس

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربنى ، فأصغيت لها . وأخرجت منديلها ، وأخذت تمسح جرحى ، وتجفف عرقى ، فانبعث من المنديل عطر جميل أمتعنى وقالت لى :

— أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب بضرر ؟ !

فابتسمت . وشعرت بأن إعجابى كانت جافة ، ورفعت بصرى إليها ، فوجدتها تحدق فىّ ، وقد بدا عليها حنو غريب ، فاختلج قلبى وقلت :

— نحن نلعب بالكرة داعًا ، وكثيراً ما وقعنا

— أين تسكن ؟

— هنا

وأشرت إلى منزلنا وجعل أحد رفاقى ينادينى :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

— نعم

فانحنت على جبينى تقبله ، وأمرّت يدها على رأسى تلاطفه ، ثم قالت :

— انطلق إلى أصدقائك يا حبيبى .

وانطلقت ألعب . أما السيدة فشيعتنى بنظرة طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفى المساء اجتمعت كعادتى بعمى و « الست عيوشة » على مائدة العشاء . وكان الصمت مخيما علينا ، كشأننا فى كل ليلة : « الست عيوشه » فى جلستها العسكرية لا يفارق وجهها الطبق ؛ تتحرك كأنها آلة تزنبرك ، وعمى بملامحه الصلبة ، ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينه الجريدة ، ولا يبادلنا حرفاً . . . وأخيراً نظر إلى الست عيوشة وقال لها .

— أسمحت بجارتنا الجديدة ؟

فتقلص وجه الست عيوشة وقالت ، وجسمها لم يتحرك قيد أنملة :

— أى جارة تعنى ؟

فابتسم عمى ابتسامته الذكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم « رؤوف بك » فى الشارع المجاور لشارعنا ! !

وصمتت الست عيوشة كأنما أخجلها أن يثيب عنها هذا الخبر . فقال عمى :

— يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا . إن خبرها شاع وذاع فى حلوان .

فقالت الست عيوشة : وما أمرها ؟

فأجاب عمى ، وما زال على فمه ابتسامته الذكراء :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر فى هذا البلد الصغير وباءها ؟ — وباءها المهلك المبيد ! !

فجحظت عينا الست عيوشة ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

— أمريضة هى ؟

— وأشد من مريضة . . . ! إنها من النوع المدمر الذى يخرب البيوت ، ويقوض سعادة الأسر . إنها . . . إنها ، ألا تفهمين ؟ !

— . . . فاهة ! !

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولها شعر أصفر لابد أنه مصبوغ . . .

— مؤكد إنه مصبوغ ! !

— وقد رأوها تسير بعصا فى الطريق .

— كيف ؟ أعجوز هى ؟

— أجهل عمرها .

— لابد أنها تخفى سنها تحت طلاء المساحيق الثقيلة . . . يا لله ! . . . ! ما أبشعها . . . ! !

وكان قلبى فى أثناء ذلك يدق دقاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعت عمى يقول :

— أرأيت سيدة تسير بعصا فى الطريق ! ؟

فقلصت الست عيوشة شفتها مستنكرة ، وسمعت عمى برهة ثم تكلم فى حزم وتشدد قائلا :

— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة ، أو اتصالكم بها ! !

فقالت الست عيوشة وقد زوت مابين حاجبيها :

— معاذ الله أن تتصل بهذه الفاجرة !

وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة ، كأنه يقول لى : أفهم أنت ؟

وعند ما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا قالت الست عيوشة :

— عجيب أن يتعامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها ! !

— وما شأنك وهذا ؟ أرأيتها أنت ؟

— أنا ! أبداً . . . ولكن خبريني ، إذا حدث مثلا أني رأيتها تسير فى الطريق الذى أسير فيه ، فاذا أفعل ؟

— تجعل رجلك تخلى لك الطريق .

— وإذا رأيتها تقترب منى وتحاول أن تكلمنى ؟

فرمقتنى الست عيوشة بنظرة فاحصة ؛ فاختلج قلبى ، ورأيتها تبتسم بنتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

— أراهن أنك رأيتها وكلتها . . .

فانطلقت أنكر فى تحمس ؛ ولكنى أحسست بأن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت نفسى بعد حين أقول للست عيوشة :

— أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ، ولن أكلمها بعد اليوم . لا تخبرى عمى بشىء

وتشبثت بجلبابها مسترحما ، فوقفت صامتة تحدجنى بنظرها البغيض ، ثم سارت متئدة الخطوات مرفوعة الرأس إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفاديا لاحتمال مقابلتى تلك السيدة . أما عمى فقد ذكرها مرة أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سخط وثورة ، فآليت ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ، ويريد فرض سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى أمل غامض إلى لقائها ؛ وتجاهلت ما أمر به عمى ، بل شعرت بشىء من الزهو والسرور فى تحديه ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها . ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرت إلى الشارع المجاور حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما اقتربت من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت

2017-11-15 15:26:48

تقطف الأزهار ؛ ووقفت أمام الباب ساكنا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يثمر قلبى بحنوه وعطفه وطيبته . كانت تتنقل بين شجيرات الورد فى فستانها البديع ، وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إلى أنى أشاهد ملكا من سكان السماء .

ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب فرأتنى . ولشد ما كانت فرحتها ! فألقت بزهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول :

— واصف ! تعال . ادخل ياحبيبى ، أدخل .

وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى . يالله من ذلك الشعور الناعش اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة ! !

وأخذت بيدى ودخلت بى الحديقة ، وجمعت ما انتثر من أزهارها ، وقدمته إلى وقالت :

— اختر لك منها ما يحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحسنها ، ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول :

— هى لك ياحبيبى

وكان فى الحديقة دكة فجلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجعلت تحدق فى وجهى طويلا وتمسح رأسى وا كتفى وجهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيها بحركة خفية ثم قالت :

— لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية ؟

فطأطأت رأسى وقلت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن ، من أخبرك بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

— ذهبت بنفسى حيث تلعبون وكنت أنتظرك كل يوم .

فجيشت من هذا الاهتمام وشعرت بشىء من الخجل ... ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمرا أشعرنى بخوف ، وتلفت حولى فرأيت « كشكا » بعيدا عن الأنظار ، فرفعت بصرى إلى السيدة وقلت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هذا الكشك بعيدين عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :

ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ ... فلى شىء أريد أن أريك إياه .

وقامت وهى ممسكة بيدى ، وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستنى فى الردهة الداخلية فاذا بها حسنة التنسيق بديعة الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفى ركن من أركانها « بيان » كبير . وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقا جميل الصنع عليه نقوش طريفة ، وفتحته أمامى فوجدته يحوى مجموعة متنوعة من الحلوى الفذيذة الغالية الثمن ، وقالت لى وهى تقدمه إلى :

— كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك

فنظر الأمر علىّ وقلت متلعثما :

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه سأعدنى ذلك منك

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى وقالت لى :

— إفتح فمك ! إفتح !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت

تضحك ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً ، وبعد أن أكلت الفطيرة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدرك ، ولكني سأبقيه عندك ، وسآخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه

فنظرت إليّ مليّاً ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلاريب عمن أعطاك إياه . فانني أن أفكر في ذلك

ثم صمتت برهة وهي تحدق فيّ وقالت :

— أتحب عمك ؟

— أحبه قليلاً ، ويحبني قليلاً !

— والست عيوشة ؟ !

— لا أحبها ولا تحبني

ونظرت إليها مدهوشاً وقلت :

— أتعرفينها ؟

فقالت في لهجة طبيعية :

— وهل من الصعب أن يعرف الجار ما يهمه عن جاره ؟ ... تمال

وقمت إليها ، فذهبت بي إلى « البيان » وجلست على مقعده ، وأجلستني على ركبتها ، واحتضنتني بإحدى يديها ، وأخذت يدها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على « البيان » فيصدر عنه نغم هادئ لطيف ، وأحسست بغمها يلمس رأسي ويقبل شعري ، ثم قالت في صوت موسيقي هادئ :

— كان هناك طفل يسألني دائماً أن أعزف له هذا النشيد ، وأن أغنيه له . طفل جميل كان يحبني وأحبه ، فجاءنا ليلة زائر كريه ممقوت يلبس السواد ، مقنع الوجه بقناع حالك وانتزعه مني ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدق أمامي :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت في صوت مختلج النبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود...

وتابعت كلامها ويدها تنقر على « البيان » هذا النغم الهادئ اللطيف

— سأغني لك هذا النشيد علّه يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمس شعره بفمي ، وأملأ صدري بعبير شعره الذهبي ... اسمع . اسمع

وأخذت تغني الأنشودة في صوت عذب حنون ، ونغمات « البيان » تصاحبها في تناسق جميل فتكون من امتزاج الصوت بالعزف وحدة تامة حتى ليعسب على السامع أن يفرق بينهما ، فيخيل إليه أن « البيان » هو الذي يغني ، أو أن السيدة نفسها هي مصدر ذلك النغم ، تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أي شعور هذا الذي كان يغمرني في ذلك الوقت ؟ شعور عذب تخلى بالطمئنان هادئ لطيف ؛ شعور آثار بين جوانحي ذكرى عجيبة لمشاهد مزوية حرمتها من قديم

وبينا أنا على هذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُّ — وكانت غبشة الظلام قد أخذت تشيع في الحجرة — فوقعت عيني على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت إلى ذهني على الفور حكاية ذلك الزائر الملعوث الذي يلبس السواد ، ويقنع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذي اقتحم منزل السيدة في إحدى الليالي وانتزع

2017-11-14 Page 46

الطفل الذي تحبه ويحبها من بين احضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

— كلا ! لا تأخذنى ... !

... وأثير المكان ورأيت عمى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخطواته المتثاقلة ، عبوس الوجه ، يصوب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

— ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبق يده على يدي بشدة وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناء الناس ... ؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتسند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ؛ ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

— كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد تراءت إليك بكل ماهو مخزٍ لى ومشين فى قصدها . ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام.

فرن صوت عمى قائلاً :

— عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حدتك يا سيدى ؛ فليس أمامنا الآن مايثير الغضب إلى هذا الحد . إن الغلام غلامكم وليس لى فيه أى حق

— حق ؟ هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافض :

— ألا يمكننا أن نتفاهم ؟ تفضل بالجلوس يمنع دقائق ، ولا أطالبك أن تطيل

فقال عمي :

— أفضل الوقوف . تكلمى من فضلك وأوجزى

فخلعت السيدة حلية مستديرة دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاة على صدرها ، تصلها برقبتها سلسلة ذهبية ، ثم فتحتها وقدمتها إليه وهى تقول :

— أنظر فى هذه الصورة !

فتناول عمى الحلية ، ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحاً . فقالت وهى ما تزال تبتسم ابتسامتها الساكنة :

— كلا يا سيدى ، ليس واصفاً . دقق النظر فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يشيب عنك ...

— ... إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلة التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلم ؛ ورأيته يجنو أمامى، يجنو رويداً رويداً حتى انطفأ نوره كل انطفاء . لقد مد الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة

وشعرت بيد عمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يسدل سلسلة الفتحة ، ومضت السيدة فى قولها :

— لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين ... كان يشعر قلبى

بهجة وتملأ عيني نوراً ، وكان صوته وهو يضج باللعب يبث في البيت الحياة والإيناس ... آه ! كم كنت سعيدة به ... ! كم كنت مخورة به ... !

ورأيت عمي يتحرك ، ليتدلل في وقفته ، ولكنه ظل صامتاً يستمع بانتباه . وتابعت السيدة قولها :

— ... وعند ماحضرتُ إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقت المقادير إليّ «واصف» فكأنما بُعث ابني من جديد . رأيته يعود إلى بعد طول اغتراب ، بشكله وذكه ، فآخذه بين ذراعي ، وأضمه إلى صدري ، وأضع رأسه على موضع قلبي ؛ ليصغي إلى دقاته المتتابعة ، وألمس بفمي شعره الذهبي ، ثم أقبله وأشمه ...

وسكتت وقد أخفت وجهها في المنديل . وبعد حين تمتمت قائلة :

— والآن يا سيدي ، ليس عندي ما أقوله بعد هذا

ووقف عمي يدور بعينيه أمامه في حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها . ظل كذلك وقتاً وهو يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم تقدم نحو السيدة وحنى هامته أمامها في خشوع وخرج وحده في خطوات سريعة

محمود تيمور

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهي : الحاج شلبي . الاطلال

أبو علي عامل أرتست . الشيخ عفا الله

الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء

القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر في نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة الشتوية (على باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من

شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

قصة أم

للقصصي الدانمركي أندرسن
بقلم الأديب صلاح الدين المنجد

جلست الأم بقرب وليدها واجفة القلب ، واكفة الدمع ؛ يذهلها الخوف عليه من شر الموت وقد استعصى داؤه ، وغمض دواؤه . تنظر إليه وقد غشيت محياه الوديع سفرة كئيبة ، واكتحلت عيناه بزرقة قاتمة . وترى إلى صدره يهبط ببطء ، ويعلو بصعوبة ، وهو مستلق على ظهره ، ما يتحرك إلا ليرسل زفرة موجعة ، أو آهة محرقة ، من حين إلى حين

وطُرق الباب ، فإذا شيخ قد تَسَمَّسَح[1] وهرم ؛ هو شبح أو يشبه الشبح ، ما عليه إلا جلد فوق عظم ، وما فيه إلا روح تتردد بينهما ، ملتفعاً برداء يتقي به رعشة البرد ، فرحبت الأم به ، وقادته إلى الموقد ليطرد عنه العناء ، ويتلهى بجمرات من الجمة يُشيع في جسمه الدفء بها . ثم تركته يرسل في الأرض نظرات ساهمة ، من عينين مظلمتين عميقتين ، كأنها تخرق حجب الغيب ، وتتفذ إلى سرائر الخبايا . وعادت إلى ابنها تُنهنه دمعه ، وتهدهد آلامه ، وترسل له الأناشيد ...

وسكتت الأم فجأة . وقالت : ترى يا شيخ هل يُشفى ولدي ويبقى لدي ؟ ... فتمتم الشيخ في سرّ موحداً في اللطف وقال : كلا . فاكفهرّ وجه الأم ، وطأطأت رأسها تذرف الدمع وترسل زفرات تفيض حسرة وأسى . وسرّ بخاطرها ما تلاقيه من همّ ملح وضنى لا يشفى . فما هي ذي منذ ثلاث لا تعرف عيناها سَجْو المنام ولا طعم الهناء ... ثم التفتت إلى وليدها ، فإذا بالوليد قد اختفى ، وإذا بالشيخ قد غاب ... وإذا بساعة الرهبة تنقلب إلى الأرض متحطمة متكسرة ، فيسمع لها أنين محزن كأن مناه أن النجم قد خفق[1] وأن البلبل قد مات !

ونظرت الأم في الغرفة ، فساد بصرها مذعوراً شاكياً . فقفزت إلى الباب قالقة الجنان ، مستطيرة الشعاع ، صارخة يا ويلتاه ! لقد اختفى الوليد ، وقلبي قد قضى ... ! وكان الشتاء قد كلب[2] ، فهبت

(١) يقال خفق النجم : أي غاب
(٢) يقال كلب الزمان أو الشتاء إذا اشتد

(٢)

تعريف بالقصة

أندرسن قصصي وشاعر دانمركي كبير . اشتهر بأقاصيصه التي تتفجر منها الحياة ، وتتراءى لك منها صور الألم والشقاء ... بأسلوب حار منسجم ، يغمى كما تغمى العروس ليلة الزفاف

وهو في أكثر قصصه يحلل لك المواطف البشرية تحليلاً دقيقاً يبهرك ويسحرك . وما يزال يفيض عليها من خياله الخصب ، ومعانيه الشعرية ، سحراً وجمالاً ، حتى لتحسب أنك بين يدي شاعر جبار ، وأنك تقرأ شعراً لا نثراً . وقد تفنن في هذا النوع من القصص الذي تمتزج فيه الأسطورة الرائعة والخيفة الخيال

ومن روائع قصصه : عذراء الجبال — ورقة من السماء — ابنة الملك . وغيرها ...

(النجد)

(١) تسمس : بلغ من الكبر عتياً

تلوحه ، وامتد جليده ، والريح قد ثارت فهي ما تنفك ترسل الزئير وتردد الأنين ، وما تني تلطم الخدود وتصفع الوجوه ... واندفعت الأم في طريقها لاتأبه لريح ولا تخشى شتاء . فلقيت امرأة قد ارتدت سلاياً (١) فضفاضاً ، فسألتها عن شيخ يحمل طفلاً صغيراً . فقالت المرأة : نعم إني رأيت الشيخ ... ذلك هو الموت ... رأيته يخرج من تلك الدار ومعه طفل صغير ... إنه يجري كالهواء ... إنني أنا ...

— الموت ... ؟ لكن ... أين ذهب ؟ . تكلمي بربك ... عجلي ... تكلمي ...

— إني أنا الليل ... أعرف الطريق التي تؤدي إلى مأوى الموت ... ولكن تعالي قبل أن أدلك عليها ، وأسمعيني أغاني الأمومة السِلاب (١) وأناشيدها السواحر ... إنها سدى لوجيب قلبك ، ونورة عواطفك ... لشد ما كان قلبي ينشي لدى سماعها ويطرب .. ! لقد أصغيت إليك وأنت تغنين وليدك ، ونظرت إليك ترسلين مدامعك ، وقد نشرت على الكون السِلاب هذا ... تعالي إلى وغني لي ... يا حبيبة ... !

— أواه ! أواه ! سأغنيهن لك كلهن ... نعم كلهن ... ولكن بعد حين ... بعد أن ألقي طفلي الصغير ...

وصمت الليل ... وبكت الأم ... وراحت تغني من قلب مفجوع . لقد غنت كثيراً حتى مل الليل الغناء ، ولكنها بكت أيضاً وما ملت البكاء ، تحت الثلج المتناثر كأزاهير من ياسمين مبعثر جميل ..

قال الليل : اذهبي ... واتخذي هذه الطريق ، حتى تصلي إلى غابة الصنوبر فلعلك تجدين الموت...

وانطلقت الأم مسرعة تنهب الأرض ، تلفحها ريح صرصر عاتية ، حتى إذا كانت في غابة الصنوبر

(١) السلاب : ثياب الحزن أو السواد

وجدت طريقين لم تدر أيتهما سلك الموت . فلكنها الحيرة ، وجاءت إلى شجيرة وردية ، مافيها سوى أشواك غليظة ، وعيدان سحيقة ، وقالت لها :

« أيتها الوردة ! ... هل تعرفين السبيل إلى مقر الموت ... ؟ »

قالت الوردة : نعم ! إني لأعرف السبيل إلى مقره . ولكن ... لن أدلك عليه حتى تضميني قليلاً إلى صدرك ... وتضميني هناك بين نهديك ، فأدفأ قليلاً ، وتدب في الحياة . لقد سوّح الصقيع نضرتي ، وجردتني الريح من أوراقي ، فهل تقبلين؟

وفي صمت عميق تقدمت الأم من الشجيرة ، وأدنت الأغصان من صدرها . هذا فوق النهد ، وذاك فوق الحلمة ، وثالث بينهما ... وراحت تضغط برفق وعلى مهل... فينفذ الشوك في الندى ويتدفق الدم غزيراً وينهمر الدمع سيلاً ... وتحس الأغصان حرارة قلب ملتاع ... فيجري الدم في العروق ، وتتفتح البراعم عن أوراق خضراء وورود حمراء ، بين الثلج المتناثر والهواء النوّاح

قالت الوردة آنئذ : هاهي ذي طريقك ياحسناء ، اسلكيها فلعلك تجدين الموت ! ...

ومضت الأم تتمثل في خاطرها صورة ابنها ، فترتعد من فرائصه ، وتهذي لبعده ثم توفض في مشيها وتسرع كمن أصابه مس ... حتى وقفت أمام بحيرة كبيرة ، ماترى على صفحتها الضفدعة قارباً وماتجد زورقاً . فقالت في نجواها : لم لا أشرب هذا الماء وأشتفه ، فإذا نضب هبطت إلى قعرها ، ومشيتها حتى أصل إلى الضفة الأخرى .

وانحنت لتشرب ، فتهيبت البحيرة ، وراحت تقول :

رويداً ... رويداً ياحسناء... إنك لن تستطيعي شرب مائي ... كوني صديقة لي ... وهبي لي هاتين

2017-11-15 05:05:48

العينين الجميلتين ... إنى أشتهى لؤلؤتين ثمينتين أحلى بهما صدرى . إن عينيك لساحرتان ... وإن لهما وميضاً مغرياً جذاباً . اذرفى الدمع سخيناً أمامى حتى تسقط عيونك فى قاعى ... فأحملك آنئذ إلى حيث يكون الموت

— آه ! كلا لن أعطيك ماتطلبين ... أيتها البحيرة ... بل سأبقيهما لأرى ولدى ...

— إذن هذا فراق ما بينى وبينك ... اشربى مائى ، وافعلى ما تشائين

— كلا ... كلا ... تعالى أيتها البحيرة ، تعالى فسأعطيك ما تودين ... !

وراحت الأم تبكى ... حتى سقطت عيناها وتدحرجتا إلى قاع البحيرة العميق ... وانقلبتا لؤلؤتين ماأروع الملكات مثلهما أبداً ...

وفى طرفة عين حملتها البحيرة على ظهر موجة واحدة ... إلى الشاطئ البعيد

— لقد قالت لى البحيرة : إن مقر الموت هنا ، ولكن كيف لى برؤية الموت وقد أصبحت عمياء ؟

قالت عجوز شمطاء سمعت ما تقوله الأم :

— مالك والموت؟ ... ومن دلك على الطريق ؟ ثم ماذا تريدين ؟ ...

— إنه ربى ... قادنى وأعانى ... إنه رؤوف رحيم ... أشفق على أنت أيضاً يا أماه ... وقودينى إلى حيث يكون الموت لأرى طفلى الصغير ... !

— أنا ماعرفتُ طفلك أبداً ... وكيف تريدين رؤيته وأنت عمياء ... هنا حديقة الآجال ، لقد ذهب الموت؟ اليوم ، ليقبض من جاء أجله . فإذا عاد قطف زهراتهم ...

— زهراتهم ؟

— نعم يابنتى ، إن لكل مخلوق زهرة هاهنا ، هى رمز لحياته وأعماله ، وهى تموت إذ يموت ... إذا رأيتها حسبتها زهرة كالأزهار ، وإذا لمستها شعرت بوجيب قلب ... تعالى ، ثم انسى هذه الأزهار ، علك تعرفين وجيب قلب طفلك ... ولكن ما الذى تعطينه يا حسناء ؟ ...

— ليس لدى شىء .. ولكن سأحضر لك كل شىء ..

— مالى حاجة لكثير سوى شعرك الأسود الجميل .. ! أتبادلينى بشعرى الأبيض شعرك الأسود الأثيث ؟ ...

— نعم .. خذى .. خذى ماتشائين .. ولكن عجلى بربك !

وأخذت العجوز تلك الشعور ، وأعطتها شعرها الأبيض ، تذر الشؤم والفناء .. ثم قادتها إلى الحديقة الكبرى وراحت تقول :

— هنا ينبت الورد إلى جانب الشوك .. وهناك النسرين إلى جانب النوسج .. وتلك أزهار كالمانضرة وحياة ... وهذه أزهار أسابها المزال وألوى عنقها الذبول ، وأحاطت بها أعشاب وحشية سوداء .. وهناك .. قامت أشجار من نخيل وأعناب ، إلى جانب الصعتر والزعرور والأقاح .. إنها تمثل حياة الخلائق من الصين إلى غرولاند .. وهذه الـ...

وبينما كانت الشيخة تقص على الأم نبأ هذه الأزاهير ، وتلك الأشجار ، كانت الأم غارقة فى عالم بعيد .. بعيد جداً .. لقد كانت تصغى إلى خفق القلوب ! .. وفجأة .. ارتجفت يداها .. وخفق فؤادها وقالت بحسرة ولهفة :

— إنه قلبه .. بالله لماذا أنت ذابلة أيتها الزهرة؟ حدثينى بالله ..

— لاتلمسيها الآن .. ولكن تضرعى للموت عند ما يأتى ، وأذرفى الدمع أمامه . هدئيه بعطف

2017-11-11 Pdf Pdf

الأزاهر إن اقتطف زهرة وليدك ، وادعى ربك يا صبية ، فمشيئته فوق كل شيء ..

وهبت عاصفة هوجاء ، أوصلت الموت إلى حديقته؛ فسجب إذ رأى الأم وقال :

— كيف أتيت إلىّ ؟ .. أوصلت قبل أن أصل؟ ما الذى فعلتِه ! ..

— أريد ولدى يا موت .. أضرع إليك .. إعطف علىّ .. رحمة بى !

— هيهات ! هيهات ! .. أنا لا أملك من دون الله ضراً ولا نفعاً .. أنا أتعهد حدائقه بالعناية .. فإذا جاء أجل أولئك الناس منيت لأنقلهم من عالمهم هذا .. إلى عالم آخر .. مجهول ..

— ناشدتك الله يا موت إلا رحمت . يا للحزن الدائم والشقاء المقيم ! . .

وراحت الأم ترسل الصرخات شاكية متضارعة ، والتوسلات الحزينة المبكية ، والموت صامت لا يجيب .

— مهلا يا موت لا تقتطف زهرته . . . وإلا قطفت هذه الزهرات . . .

— ويحك إنها زهرات لأطفال !

— أطفال ؟ كلا .. كلا .. أنا لا أريد أن أجمع أحداً ! . . .

— ما الحياة . . إنها صور حلوة فيها السعادة والهناء . . تعقبها أخرى كلها تعاسة وشقاء . دعيه دعيه . . .

— لكن أتعلم يا موت ما قدر على ابنى ؟ هل يعانى كثيراً من الآلام . . إنك لا تجيب . . آه ! هل يميش مطمئناً فى السموات .؟ هه .؟ ألا تجيب يا موت ؟. كلا .. لن أدعك تأخذه . أيها الجبار ! لكن .. حنانيك .. ارحم هذه الأم ..

— . . . !

— خذه .. خذه .. أليس ذاهباً إلى الجنان .. ! غفرانك اللهم ! تلك مشيئتك !

وانحنى الموت وقطف تلك الزهرة وانطلق بها إلى العالم المجهول (١) . . .

أما الأم . . فلها الله ! لقد سقطت على الأرض لا ترتعز ولا تبى ، وقد علق بصرها بتلك الزهرة الذاهبة إلى السماء . . . !

دمشق « صموع الدين المنير »

(١) تنتهى هذه الأقصوصة فى بعض النسخ بنتيجة أخرى سارة : تلك ان الموت عند ما يرى ما لاقته الأم من عذاب وآلام ، يدعو ربه ، فيشفق الله على تلك الأم ويهب لطفلها عمراً جديداً ، فترجع الأم مع طفلها إلى الدار ويميشان عيشة كلها سعادة وهناء . . .

رحلة المحيط الهندى
فى سفينة مصرية
رددت أخبارها صحف العالمين
الوف صورة فى ستى مظاهرها نظمتها من صفحات
سندباد عصرى
بقلم
جين فورى
١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

لقد أحضرت المركبة !

للأديب الفرنسي نيودور دي بانفيل

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان « جانوتي » موسيقياً فقيراً مغموراً. وكانت مؤلفاته وألحانه لا تجد سوقها الرائجة إلا في الملاعب الشعبية والمسارح الوضيعة ، ولكنه كان مع ذلك ينعم بعيشة راضية وحياة هانئة مع زوج محبة مخلصة تبث فيه الأمل وتبعث فيه الطموح وتصور له المستقبل نيّراً خلاباً ، فضلا عن تدبيرها البيت وحسن قيامها على شؤونه حتى جعلته على فقره غنياً من الوسرين ، وعلى خوله وثاباً من الطاعمين . . وكان ينظر إلى زوجه نظره إلى النعمة الواحدة التي وهبتها له الأقضية ، وأتاحتها له الأقدار

وكانت « كوليت » — وهذا اسمها — شابة جميلة رياة فتانة تحب زوجها وتثق به وتستقد في نبوغه وعبقريته ، لذلك وهبته قلبها وروحها . والمرأة إذا منحت قلبها رجلا أنزلته من نفسها منزلة الروح ، وأحلته من روحها محل النفس فأخذت تهيئ له أسباب الراحة والرفاهية فتتجهز له من الطعام أحب الألوان إليه ، وتتوفر على ترتيب الأثاث وتنسيقه في محال وأوضاع تدل على حسن الذوق وسلامته ، حتى إذا ما انتهت من شؤون البيت جلست إلى « البيانو » وأمرّت أناملها البضة الناعمة على أسنانه العاجية عازفة ألحانه مرددّة أناشيده ، وتبدئ فيها وتعيد وهي بغنه ونبوغه جد سعيدة معجبة ، وكانت تمضي إلى السوق كل صباح لابتياع ضروريات البيت ولوازم الطعام وتساوم الباعة وتماكس التجار حتى تنزل بهم إلى أبخس الأثمان

ثم حدث فجأة ما غير هذه الحياة السعيدة الهانئة وقلبها جحيما لا يطاق وإليك كيف كان ذلك :

نجحت « تانا » نجاحاً كبيراً في إلقاء مقطوعة جانوتي الأخيرة . وذهبت يوماً إلى منزله لتبدي بعض ملاحظات فنية على الأنشودة الجديدة قبل أن تتنبها ، وجانوتي موسيقي بارع له دراية تامة وإلمام واسع بما تقتضيه هذه الأغاني من فن في التلحين والنغم . . وفتحت لها كوليت الباب وقد انفلتت لتوّها من غسل الآنية وتنظيف الصحون ولما تزل المنشفة في يدها فقالت « تانا » عند رؤيتها

— أهلي للسيد قدموني

ثم تركت من يدها ذيل فستانها المذهب الطويل فأعلنت كوليت مقدمها « للسيد » ثم عادت أدراجها إلى المطبخ

وبينما كانت « تانا » تعرض على جانوتي جملها وتنفث فيه سحرها وتسدد إلى قلبه سهام لحظها المتكسر الفاتر إذ تفتحت مسارب عيون السماء عن مطر كالسيل الجارف أعاد إلى الأذهان مطر الشهر الماضي الذي كان له أكبر الأثر في إتلاف القبسات وتفتيح الورود والأزهار . فقالت « تانا » وقد رأت المطر الهتون والسحاب الثقال :

— يا لسوء الحظ ! لقد أكفهر الجو بغتة ، أرجو — إذا سمحت — أن تأمر خادمك فتبحث لي عن مركبة .

الآن كان يجب على جانوتي أن يبدو شجاعاً فيقول مثلا « أوه ! أرجو المذرة ! ليس عندي خدم . إنها زوجتي » ولكنه كان جباناً إذ أجاب :

— أجل ... أجل بكل سرور

ثم ذهب وهو يعبث بإبهاميه إلى غرفة المائدة — التي جعل منها أيضاً صالة لموسيقاه — حيث كانت كوليت منهمكة في غسل الخضر وتجهيز الطعام كأحسن ما تكون زوجة وأروع ما تكون ربة بيت . قال الرجل

— إن الآنسة « نانا » تخشى على فستانها وحذائها الساتانين[1] من التلف في هذا المطر الغزير ولهذا أرجو أن تذهبي ...

فأنعت كوليت عبارته وهي تسدد اليه نظرة هائلة ود على أثرها لو تنشق الأرض وتبتلعه

— فأحضر لها مركبة ... حسن ! اطلب نفساً فسأبحث لها عما تريد

وخلت كوليت بعد لحظات حذاءها المبلل وأخذت تنظر إلى النقد النحاسي الذي فتحتاه « نانا » نظير البحث عن مركبة

ومنذ تلك اللحظة تبدل الحال غير الحال ، إذ أن كوليت التي كانت تقوم بكل أعباء البيت وخدمته قائمة راضية ، مخلصة وفية ، أمست لا تنادر فراشها قبل الحادية عشرة كل صباح إذ تقول وهي تتمطى وتتثاءب « أوه ! ألم يطلع الصبح بعد ؟ ! » وأصبح البيت المنظم النسق النظيف أشبه الأشياء بمدينة ايطالية وقعت غنيمة باردة في أيدي القوط . فنسجت العناكب خيوطها القذرة على الحوائط والصحون ، وعششت الحشرات الطفيلية في الساعة الكبيرة . وأهملت الملابس والجوارب . فاذا انقطع زر فلا يعاد إلى مكانه ، وإذا تمزق جورب فلا يرتق بل يترك وشأنه

(١) الساتان . نسبة إلى قاش « الساتان »

وتبدلت مقطوعات « واجنر » بمؤلفات زوجها وأغانيه

وراحت يداها المتمطربتان تجريان على البيانو فتأتي بأنشز النغم ، وترفع عقيرتها بالغناء فتخرج أنكر الأصوات فلما فاض بها وتوقع صبره صرخ فيها قائلا

— إن هذه الموسيقى تجلب الصداع ...

فأجابته كوليت فوراً :

لقد أحضرت المركبة ! . وكانت هذه العبارة هي الرد على كل ما يوجهه اليها من حديث

— كوليت ! إن الحساء بارد ! — لقد أحضرت المركبة — لقد تقطعت أزرار قميصي — لقد أحضرت المركبة — أراك لا تقبلينني الآن . لقد انطوى حبك لي وزال

— كلا يا عزيزي ، ولكني أحضرت المركبة

محمد عبد الفتاح محمد

النموذج

تأليف

محمد جلال

رئيس قلم الترجمة بوزارة الزراعة

ضريح رتبة البحر العليا ورتبة الفروسية

يحتوي فيه الآباء والأمهات وسائل تكوين الأخلاق وتقويمها وطرق التربية الوطنية والاستقلالية والأخلاق والإرادة

ويحتوي فيه الأدباء الصراع بين القديم والحديث (مسرحية) وفلسفة الضحك ومثيرات الضحك والانفعالات النفسية ودراسات أدبية خاصة بالمتنبي وزمارة مشو

ويحتوي فيه الساسة فن الإمارة

يجب على كل من يريد تربية أولاده تربية صحيحة أن يقتني هذا النموذج

الثمن عشرون قرشاً صاغاً على ورق أبيض

وأربعون قرشاً صاغاً على ورق كوشيه

يباع بمكتبة النهضة ومكتبة الانجلو المصرية وبمكتبة وهبة ومكتبة مصر

الوالد

للقصصي الفرنسي موباسان

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

كان موظفاً في وزارة المعارف يذهب إليها كل صباح في عربة (الأومنيبوس) من داره في (الباتينيول) إلى مكتبه في قلب باريز، وكانت عاملة في مخزن تذهب إليه في تلك الساعة نفسها؛ وكانت سمراء حلوة السمرة، شابة غضة الشباب، ذات عينين سوداوين ساحرتين، وكانت تُرى كل صباح في زاوية من الشارع لا تحيد عنها، واقفة تنتظر العربة، فإذا رأتها عدت إليها بخفة ورشاقة، فأدركتها وقفزت إليها قبل أن يقف السائق خيولها البطيئة. ثم دخلت فأجالت عينيها فيما حولها، وجلست في مكانها الذي لا تتيسّره قبالة صاحبنا (فرانسوا تاسّه) الذي أحس منذ المرة الأولى التي رآها فيها بإعجاب بها لا حدّ له؛ وود كما يود المرء أحياناً لو يطوقها بذراعيه، ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة، بل لقد شعر أنها فتاة أحلامه التي أعدّ لها في قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التي هام بها خياله الشاب، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه، فإذا تضايقت من نظراته واحمرّت خجلا، حاول أن يصرف بصره عنها، ولكنه لا يستطيع فيظل محدقاً فيها؛ ولم يكلمها قط، ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما، تالتقتا وتفارقتا منذ التقت نظراتهما

وازدحمت العربة يوماً بالركاب ولم تجد الفتاة مكاناً خالياً، فنزل لها عن مكانه وظل واقفاً، فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نوراً، ولم يعد يظهر عليها الضيق من تأمله فيها، وإن كانت لا تزال تغض بصرها حياء، وانتهى الأمر بهما إلى الحديث، وكان حديثاً لذاً كأنه قطع الروض يستمر نصف ساعة كل يوم، كانت أشهى إليه من أيام العمر كلها وما فيها من لذائذ ومتع. وكان يفكر فيها أبداً وهو جالس إلى مكتبه في ساعات العمل الطويلة المملّة، ويستعيد ذكراها في نفسه، ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه في وحدته

لقد كانت سعادته وأمله ومثله الأعلى الذي يسمو عن حقائق الحياة وعن ترّهاتها!

وتأكدت بينهما المعرفة فأصبحا يجتمعان ويفترقان على مصافحة باليد لا يقتاً يحسّ إلى المساء بأثرها في يده، كأنما لمستها الكهرباء لولا أن أصابعها الفضة اللينة تحمل إلى جسده هزة أقوى من هزة الكهرباء، يعيد لها جسمه كله، ويشعر أنها تركت على كفه أثراً يحسسه النهار كله، وينتظر بصبر فارغ صبيحة الغد ليلقاها في العربة (السيدة) ويرى أيام الآحاد — على رغم أنها أيام راحة ودعة — مضجرة محزنة لأنه لا يبصرها فيها

ولقد كانت تحبه هي، ولم يعد يشك في ذلك بعد أن قبلت دعوته إياها للغداء في (لافيت) يوم أحد جميل من أيام الربيع

وكان ذلك الأحد، وجاء إلى محطة (الأومنيبوس)

2017-11-15 05:05:48

بكرة لينظرها فإذا هي فيها تنتظره ... فدهش من بكورها ، وهم بالتحدث إليها ، ولكنها قالت له :

— قبل أن نخطو خطوة واحدة ... أريد أن أقول لك شيئاً ، فهل تسمعه ؟

واهتز جسمها وهي مستندة إلى ذراعه وشخب وجهها فأطرقت بنظرها إلى الأرض وقالت :

— لا أريد أن أخدعك عن نفسي — إني فتاة شريفة — ولن أصحبك حتى تقسم لي أنك لن ... أنك لا تفعل ... إلا ما هو .. أعني ما ليس ... لائقاً

وأكلت كلماتها بجهد ظاهر . وعاد وجهها كالوردة الحمراء ... وسكتت ولم يدر هو بماذا يجيب، وشعر بالخيبة والسرور يتلقيان في نفسه ، وتراءت له أحلامه في الليلة المنصرمة — احلامه التي ألهبت النار في عروقه وملأت رأسه بالخواطر الجنسية التي تفيض بها رؤوس الرجال ... فلم يقل شيئاً

فعادت تقول بصوت مضطرب وفي عينيها دمعة تترقرق :

— إذا كنت لا تعدني باحترام ... عفافي ، فاني عائدة إلى البيت لا محالة !

فطوقها بذراعه في رفق وحنان ، وقال لها :

— أعدك ألاّ أفعل إلا ما تريدين

فأشرق وجهها سروراً وقالت :

— أحق ما تقول ؟

— نعم . وإني أقسم عليه

— إذن فلنركب !

ولم يتكلما في الطريق أبداً . لأن العربة كانت مزدحمة . فلما بلغا (لافيت) توجها نحو (السين) وكان النسيم يهب عليلا يبث الارتخاء في الجسم وفي الروح ، وكانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى النهر الفياض والخمائل الفاتنة ، فتثمر النفس نشوة وسكراً فشعرا كأن نفسيهما قد سبحتا في بحر السعادة الذي يزخر في سماء الأحلام بعيداً عن الدنيا وشرورها كما تسبح أسراب السمك التي وقفا ينظران إليها حالين مأخوذين

وانتبهت أخيراً ، وانتبه على صوتها وهي تقول له:

— لقد كنت حمقاء !

— ولم بالله ؟

— لأني صحبتك .. أما تراها حماقة أن تصحب فتاة رجلا لا تعرفه في نزهة خلوية

— أبداً بالعكس . هذا أمر عادي (١)

— كلا كلا . ليس هذا بالعادي ، بالنسبة لي أنا على الأقل ، أنا التي لا تريد أن تزل بها القدم ، بمثل هذا زل الأقدام ، ويسقط الناس في هوة الرذيلة ... ولكنها حياة جافة تلك التي أحياها حياة متشابهة لا أثر فيها للجدة . تمر الأيام ، وتمضي الشهور وهي هي : غدوّ إلى العمل ورواح منه . وليس لدي إلا أمي الكئيبة الحزينة التي أعمل لأدخل على قلبها الظلم خيطاً من ضوء السرور ، ولكن على كل حال ... لقد أخطأت بالمجيء معك

وكان جوابه على كلامها أن عانقها بشوق فأفلتت منه كالظبي النافر ، وصاحت به منيبة :

— أوه مسيو فرانسوا . ابعد ما أقسمت لي ؟

وقفلت راجعة نحو (لافيت)

وتنديا هناك في مطعم جميل متربع في حضن النهر وقد جعلهما الهواء الطلق والدفء والخمر التي تعاطياها فتوردت منها وجنتاها ، جعلهما صامتين فيما صدورهما بشتى العواطف المحبوسة ... التي

(١) أمر عادي !

انفجرت بعد تناول القهوة فاستحالت قوة وفرساً واندفاعاً هائماً يجتازان (السين) ويسيران بإزاء الشاطئ إلى قرية (لا فريت)

وسألها فجأة :

— ما اسمك ؟

فأجابت :

— لوزيتا

فردد اسمها بصوت خافت ولم يقل شيئاً

كان ذلك الصف الطويل من الدور البيض القائمة على الشاطئ يبدو كأنه غارق في النهر . عاليه سافله ، وكان على الشاطئ كثير من زهر الأقاحي فراحت تقطفه وتصنع منه باقة ، أما هو فراح يغني بملء صوته نشوان من الطرب كظمآن وقع على الماء العذب ، وظهر إلى يسارها كرم جميل على أكمة صغيرة تنحدر إلى الشاطئ ، فتأملها مشدوهاً وصاح بها :

— انظري

ثم بدت لهما أرض واسعة تنحف بالنهر من جانبيه مكسوة بزهر (الليلك) الجميل كأنما هي ملتفعة ثخينة صنعتها يد الله تمتد إلى حدود القرية الجاثمة هناك على ميلين منهما أو ثلاثة — فلبثت شاخصة فاغرة وهمست :

— يالله من منظر فاتن !

وسعيا إلى هذه الأرض التي تفيض على بارز من هذه الأزهار الجميلة فيتسابق الناس إلى اقتنائها، ويسرع البائعون من أصحاب العربات إلى عرضها، واجتازا عجلة ضيقة إلى بقعة صغيرة خالية فجلسا فيها ، وكانت قبائل من الفراش والذباب تطن فوقهما طنيناً مختبئاً ، والشمس مشرقة تملأ المكان بأشعتها الناعشة كما تملؤه الأزاهير بأريجها المنطر

ورن من بعيد ناقوس كنيسة

فأصابهما ذهول فاتن وتعانقا وطوقها بذراعه بقوة وارتميا على الأرض عارقين في قبلة طويلة على غير شعور منهما — وكانت عيناهما مغمضتين وذراعاهما ملفوفتين حوله ، وقد تخدر جسمها كله وارتعش ، وعيل صبرها فأسلمته نفسها ... وهي لا تدري ماذا تصنع !

أفاقت الفتاة أخيراً ، فهالها ما صنعت ، فنظرت وجهها بكفيها وشرعت تبكي وتئن أنيناً مؤلماً ، فحاول أن يفريها ويهون الأمر عليها فلم تستمع إليه ونهضت ولسانها يدور في فمها لا يهدأ ، تهمس همساً متواصلا :

— يا إلهي ! يا إلهي !

فعاد يقول لها :

— لوزا ، تريثي قليلا ، أرجوك يا لوزا

ولكنها أبت عليه ، وانصرفت عنه دون أن تلق عليه تحية الوداع — وكانت عيناها شاخصتين ووجنتاها حمراوين كالجمرة المتوقدة

والقيها في العربة غداة الغد ، وكانت شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فهمست في أذنه :

— انزل ، إن لدي ما أقوله لك

فنزل وسارا على رصيف الشارع حتى إذا انفردا بنفسيهما قالت له فجأة :

— اسمع ! يجب أن نفترق ، لم أعد أريد أن أراك

فسألها بصوت خافت :

— ولكن ... لماذا ؟

— لأني لا أريد ... لا أريد ... لقد كنت مجرمة

فأله جوابها ، وتنبهت في نفسه خواطر الأثرة

الجنسية فتصور هذه الفتاة الجميلة بين يديه يستمتع بها فى ليالى الحب الوادعة الهنيئة ، وأحس بالرغبة الملحة فى الاستحواذ عليها ، فأثبتته هذه الأفكار وكاد رأسه ينفجر من ضغطها — وعلم أنه لا يستطيع البقاء خلواً من (لويزا) فصمد إلى استصفائها والتضرع إليها :

— أرجوك يا لويزا

— كلا . لا أقدر ، دعني

— إننا سنتزوج ، هل تقبلين بى زوجاً

— كلا

وذهبت مسرعة

ومرت ثمانية أيام لم يرها فيها ، ولم يكن يعرف لها مستقراً ، فحسب أن لا مطمع له فى رؤيتها مرة ثانية ، وتناساها ... فلما كان اليوم التاسع سمع قرعاً على بابه فذهب ينظر ، فاذا هى ترتمي بين ذراعيه وتبيحه نفسها وتصبح خليلته !

واستمر ذلك ثلاثة أشهر ، ثم أحس بالجنين الذى تحمله فى أحشائها فتبرم بها واجتواها ، وحاول أن يجد إلى الخلاص منها وسيلة — ولكن الوسائل أعجزته ، فاختفى

وكانت الضربة على الفتاة قاسية فلم تفتش عن هذا الذى أغواها ثم تخلى عنها ، بل عادت إلى أمها فوقعت على قدميها ، تشرح لها حالها ، وتسألها رحمتها وحنانها

وبدد شهور أخرى ... وضعت غلاماً

كرت الأعوام وحياة (فرانسوا تاسه) تكر معها على نمط واحد ، ليس فيها لذة الأمل ، ولا روعة الانتظار . حياة موظف يغيق كل صباح فى الساعة التى اعتاد أن يغيق فيها ؛ ويسلك كل يوم الطرق التى سلكها بالأمس ويسلكها فى الغد ويدخل المكتب ذاته ، ويعمل الأعمال نفسها ... حياة حالكة جافة ، وعزلة كاملة . يكون فى مكتبه بين أقرانه نهاراً ولكنه منفرد بنفسه عنهم ويأوى فى الليل إلى داره وليس له فيها قرين ... وقد أعانته عزلته على توفير المال فكان يدخر من كل مرتب مائة فرنك لهرمه

وكانت مسلاته الوحيدة أن يخرج فى الآحاد فيجول فى (الشانزليزيه) يشاهد مباهج الدنيا ، ويرى الفتيات الجميلات وهن يجزن به أسرابا ، ويعود فى الغد إلى عمله فلا يذكر من أمسه شيئاً أو يذكره بكلمة يهمسها فى أذن جاره :

— لقد كانت أمسيتنا أمس بهية

وكان مرة يجول على عادته فى صباح أحد صائف فقادته رجلاه إلى حديقة (مونسو) حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن أولادهن يسرحون ويمرحون على الحمائل ، ولكنه لم يكد يخطو إلا خطوات حتى اعترته رعدة . لقد لمح امرأة تجر بيد صبياً فى العاشرة من سنيه وباليد الأخرى بنتاً فى الرابعة

وكانت هى بعينها

وازداد اضطرابه فارتمى على كرسى قريب منه وانتبهت فى نفسه — فجأة — ذكرياته الماضية وهاجت فى صدره عواطفه الحبيسة فجعل يرقب هذه المرأة وهى جالسة وإلى جانبها الصبي هادئاً ساكناً فى حين أن البنت لا تفتأ تلعب وتلهو

ورفع الصبى رأسه فخفق قلب (ماسه) خفقاناً

شديداً ، وأيقن أنه ابنه ، ولكن ماذا يصنع ؟ هل يتعرف إليها ويذكرها بنفسه ، إنها ستعرفه لأنه لم يتغير إلا قليلا عما كان عليه منذ عشر سنوات . غير أنه ليث جاثماً فى مكانه وراء الشجرة ينتظرها حتى تذهب ، ليتبعها

مرت على (فرانسوا) ليلة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التفكير فى هذا الغلام الجميل ... كان يعلم أنه ولده ويود أن يصل إليه ولكنه لا يدرى من أين السبيل ، وإن كان قد عرف دارها وعرف أنها اقترنت برجل مستقيم شريف ، رضى لحالها وغفر لها زلتها بعد أن اعترفت له بكل شىء

ولبث يتردد على حديقة (مونسو) فى كل أحد ، وكلما رأى ولده تثور فى نفسه رغبة جامحة فى أن يأخذه بين ذراعيه ، ويقطع خديه لثما وتقبيلا ، ثم يحمله ويفر به ، ولكنه لا يفعل شيئاً ، ويبقى واقفاً ينظر إليه حتى يذهب ، فيعود إلى عزلته محطماً حزيناً ، تمزق فى نفسه الآلام وتحرقها شتى العواطف

وعزم أخيراً على اقتحام المصاعب التى تعترضه وعلى أن يصل إليها مهما كلف الأمر ، فاقترب منها يوماً فى الحديقة ، وقال لها وشفتاه ترتجفان :

— ألم تعرفينى بعد ؟

فرفعت إليه عينيها ، فلما تبينته ندّت عنها صرخة رعب وفزع ، وأخذت يدى ولديها وولت مسرعة تجرهما وراءها جراً

أما هو فقد رجع إلى منزله يبكى ، وافتقدها منذ ذلك اليوم فلم يعد يراها لا فى الحديقة ولا فى غيرها ، ولكنه لم ينسها أبداً ، ولبث يفكر فيها داعماً ويكتب إليها حتى بلغ ما بعث به إليها عشرين رسالة ولم تجب ، فعزم على أن يخطو الخطوة الأخيرة ، فأخذ ورقة وكتب إلى زوجها :

سيدى

قد يكون اسمى مبعث إزعاج لكم ، ولكنى يائس حطمته الآلام ، وليس لى فى غيركم مأمل . فأرجو أن تسمحوا لى بمقابلتكم عشر دقائق وتفضلوا بقبول . . .

فجاءه الرد صبيحة الغد :

سيدى :

أنتظرك يوم الثلاثاء الساعة الخامسة

وكان ذلك اليوم فارتقى المدرج إلى منزلها وقلبه يخفق فى صدره خفقاناً شديداً ، وقد ضاقت أنفاسه وأحس من نفسه بالإعياء فأمسك بالجدار كيلا يسقط ، ومشى ببطء ومشقة حتى بلغ الطابق الثالث فخفق الباب ولبث ينظر

— هل السيد (فلامل) هنا ؟

— نعم . تفضل يا سيدى

وأدخلته الخادم إلى بهو كبير فوقف فى وسطه مأخوذاً كالذى ينتظر أن تحل به مصيبة

وفتح الباب ودخل منه رجل وقور مهيب بمعطف أسود فأشار (لتاسه) أن يجلس وارتقب ما يأتى به

2017-11-15 05:05:48

فاعتدل (فرانسوا) فى جلسته وقال بصوت مرتجف :

— سيدى ... سيدى ... أنا لا أدرى إذا كنتم تعرفون اسمى أو ...

فقاطعه الرجل قائلاً :

— لا فائدة من هذا الكلام ... لقد أخبرتنى امرأتى بكل شىء

وكانت لهجته جافة استشعر منها (فرانسوا) غضبه المكتوم ، فعاد يقول :

— عفواً يا سيدى ... أكاد أموت من الألم ومن تعذيب الوجدان ومن الخجل ولا أريد إلا مقابلة ابنى مرة واحدة ... مرة واحدة فقط

فنهض الرجل واقترب من الموقد فقرع الجرس يدعو الخادم ، وأمرها أن تأتيه بلويس

وبقيا صامتين لا يجدان ما يقولانه حتى دخل الصبى يسعى إلى هـذا الذى يحسبه أباه فلما لحظ الغريب وقف ، فقبّله السيد (فلامل) فى جبينه وقال لفرنسوا :

— لك أن تعانقه إذا شئت

فنهض فرنسوا وألقى بقبعته على الأرض ، وحمل ولده المدهوش يقبله فى جبينه وعينيه وفمه ، والغلام يتلوى ويدير وجهه ليدفع عنه شفتى هذا الرجل الغريب . أما السيد (فلامل) فقد ولاهما ظهره ، ووقف ينظر من النافذة

حتى إذا ضاق الغلام بذلك ذرعاً ، ألقاه (فرنسوا) على الأرض وفرّ كأنه لص وهو يصيح به :

— وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !

على الطنطاوى

الصيف خفيف هـــذا العام
لأن
شركة مصر للغزل والنسج
تقدم لكم المنسوجات القطنية
الخفيفة على اختلاف أنواعها
معتدلة فى أثمانها جميلة فى ألوانها
فبادروا بأخذ طلباتكم

سر الحقيبة الصفراء

للكاتب الروسي سيدريك ديمتروف

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

سيدريك ديمتروف ابن غير شرعي لجورج ديمتروف أحد أعداء الحرب والفاشية ؛ وقد ولد في أوائل هذا القرن من إحدى سيدات البلاط القيصري مدام ستيلا توفيكوف ، ونشأ الصبي في بطرسبرج ، ثم تلقى العلم في سويسرا وألمانيا وإيطاليا وماتت أمه قبيل الحرب العظمى وتركت له ثروة ضخمة تبرع بها للثورة واعتمد على أوراقه وأقلامه فأخرج « مدينة الصفر » و« آتون الثورة » و« لا تكتبوا الشهادة » ، ومن قصصه القصير : « سر الحقيبة الصفراء » وفيها من تحليل النفس ، وحبك الوقائع وعقد الحوادث ما لا يقدر على مجاراته إلا هؤلاء الكتاب الروس المتفردون في العالم بطراقتهم الفذة . ومؤلفنا في وسط العقد الرابع ويعيش في لندن

إسمع ! إن نصف أعمالنا قبل وقوع الحرب المقبلة يقوم على التجسس ، وينهض على استراق أسرار الأقران والأعداء ؛ وقد بثثنا عيوننا وأرصادنا ، ونشرنا آذاننا ، ونثرنا أسماعنا ، في ناحيات الدنيا وبلادها كافة ، فما تركنا بلداً ولا مدينة أو قرية في دولة قوية أو مملكة ضعيفة ، نظلها ستور في وجوهنا إذا وقعت الواقعة إلا ملأناها بعيوننا ... أنظر إلى هذه الخريطة الجغرافية وقل لي ماذا ترى ؟

— أرى دوائر صغيرة تمثل البلدان ، وخطوطاً غليظة وأخرى دقيقة ، تدل على سكة الحديد وطرق السيارات ، وعلامات مبهمة وتصاوير بعض النبات والحيوان ورموزاً شتى

— إعلم أنه من برلين إلى أمستردام ، ومن دنكرك إلى شربورج ، ومن هارتيش إلى بريستول ، ثم من كاليه إلى بيلفور ، ومن باريس إلى تواسكون ، شباك عبوكة وحبائل مفتولة ، أعينها وخيطانها وسداها ولحمتها ، رجال ونساء من أذكى بني الإنسان ، وأجلهم وأعمقهم دهاء ، وأوسمهم حيلة ، وأغناهم موارد ، وأقدرهم على فنون الكلام والكتابة والأخذ والعطاء . وستكون مدينة بازيل قاعدتنا ومركز دائرتنا وعمد رجال أعوانها كما كانت برن وبيارتز في الحرب الماضية . وستعلم عما قليل من رئيسك المباشر لم وقع الاختيار على بازيل . ويمكن أن تعلم الآن أنها مرتبطة بيولونى عن طريق شالون ، وأوستند وباريس وانتورب وبروكسيل وروتردام ولوزان بخطوط حديدية ثابتة وقديمة !

— فهمت لماذا اخترتم بازيل

— لا تقل « اخترتم » بل قل اخترنا ... ولكنك لا تعلم « مأموريتك » المباشرة . لقد ضاعت من رسولنا في « تشانهاوزن » مجموعة مدهشة تنطوي على حقائق غريبة ثابتة لا يشوبها الريب شائبة ، تدل على صحتها بتقارير مهولة اختلسها جاسوس فرنسي أثناء تجسسه على مندوبنا بعد أن قتله اغتيالا في فندق عتيق في شامونى . وإن مالدينا من الأخبار يقنعنا بأن القاتل لا يزال في تلك الناحية ، فسددنا عليه الطرق وضيقنا الخناق ، وأحطناه بسياج من الرقباء في أنحاس

2017-11-15 09:26:48

وكيلوز وشامبيري وتورينو وسانتيا وأورنا ودوموسولا ، ولن يفلت من براثننا سهما كلفنا اقتناصه من مال ونصب وأعمار رجال

— حتى أعمار الرجال ؟

— نعم وأعمار الرجال ، فان في تلك المجموعة المختلسة مصورات يدوية عن المواقع والأماكن والحصون والثغور والشواطئ والمناقل الفرنسية والانجليزية التي كان رجالنا يدأبون — هذه السنين الطوال من بعد الهدنة إلى الشهر الماضي — على تصويرها ، وأنباء وزارات الحرب في أوطان ماريان وجون بول ، عن دقائقها وعظائمها . ونحن نطلب هذه الوثائق ولا نطلب الثأر الآن

— وهل يطل دم صاحبنا الذي راح نحيبة واجبه ،

— نعم .. ولكن إلى حين . لأننا نطمع في استلالة هذا الجاسوس الينا ، فنضحي بشهوة الانتقام في سبيل احراز خدمته وتسجيل اسمه في جدول أتباعنا . واليك الآن هذه الجوازات التي تنطبق على الشخصيات المتعددة التي ستتخذها أثناء تنقلك في مختلف البلدان ، وهذا دفتر الشيكات الذي يبيح لك أن تنفق ماشئت فيما شئت ، وهذه وسيلة الاستنابة عند بلوغ الاخطار اقصى غايتها ، وهذا المسدس الموعود الذي يطلق النار دون صوت أو دخان ؛ ومع السلامة ! نحن لا نراقبك ، ولا نقتفي أثرك ، ولا ننسى ، الظن بك ولا نسترقل مساعك ولا نبخسك جهودك . ونكافئك سواء أنجحت أم لم تنجح ، ولكننا نقتلك شر قتلة إذا اقترفت خيانة بعد أن تأتمنك

بدأت عملي في نفس اليوم الذي تلقيت فيه الأوامر والتعليمات ، فسافرت من فلورنس (فيرنزه) إلى باريس ، في قطار الليل السريع الذي قطع الحقول والوديان واخترق الانفاق ومزق أحشاء الجبال في سيمبلون وسان جوتار بسرعة مائة كيلومتر في الساعة ماراً بيولونيا وبارما وفيدانزا وميلانو وتوفارا ولونيو وبريج وسان مورتيز ولوزان وجنيف . وهنا — في جنيف — قطعت خطة السفر لأستريح — ولأقضي بضعة أيام في أحضان « جوتي » حبيبتي الروسية التي بعثت إلي ببرقية تقول فيها : « لن أستطيع على سكوتك صبراً بعد اليوم . فأين أنت ومتى أراك ؟ » فلقطني ساعي البرق في شارع ليونارد وافقني عند ٦ قبل سفري بساعة واحدة في منزل سينيورا ماريا ستمبريني الذي اتخذته مستقراً وملجأ خفياً . فجعبت من توارد خاطرها وخاطري لدى السفر ، ولكنني لم أشأ أن أجيبها ببرقية خشية الرقباء ، فصبرت على الصمت وكان أحر من الجمر

وعند ما وصلت إلى محطة جنيف في صباح ذلك اليوم السعيد الذي حددته الأقدار للقائنا ، شعرت بحزن شديد عند ما رأيت الأهل والاخدان ينتظرون أصدقاءهم وذويهم على الأفارز ويقابلونهم بالقبل وباقات الأزهار . ولا يقدر هذه اللذة إلا الذي يحرم منها ؛ ويكون الألم شديداً بقدر نصيبه في العمل على الحرمان . فأنا الذي لم أكتب لها ولم أشعرها بقدمي ، وإلا كانت أول قادم وأبكر منتظر . فعلى وحدي تقع مسئولية هذه الوحدة التي شعرت بها لدى النزول من القطار . ولم يكن لي متاع أحمله أو أشغل بنقله ، فقد وكلت أمر الحزم والشحن و « الشيل والحط » والرفع والخفض والتخليص والتفتيش ، إلى وكلائي في شركة هوز ومونتفردي ، التي اشتهرت بالحذق في هذه الأعمال . ولم يكن في حراستي

2017-11-15 15:15:49

سوى حقيبة صغيرة من الجلد الأصفر الناعم ، وليس فيها شيء سوى أدوات الزينة والحلاقة والمبادل وقنينة من المداد المطر أملأ به أنابيب أقلامي. فلما بلغت موضع التفتيش الجمركي مددت يدي بالحقيبة بمنتهى السأم والضجر وعدم الاكتراث . ولم أشأ أن ألقي نظرة على وجه الموظف المختص . ويظهر أن ذلك المسكين لخفته الصوتي من ضجري وعدم اكتراثي فلم يأبه لفتح الحقيبة ، وقنع بأن وضع عليها علامة المرور بالطباشير ، فتناولت الحقيبة وكان في نفسي رغبة قوية أن أتخلى عنها واستغني عن محتوياتها ، لم يبقى عن هذه الهفوة — التي لم يكن في الوجود وسيلة لتفرانها إن كنت وقعت فيها — إلا منظر رجل غريب الأطوار أخذ يحدق في الحقيبة ويريد أن ينقض عليها كالباشق؛ ولم يمنعه من خطفها وإلا نظرة سريعة ألقاها على حقيبة صفراء أخرى كانت في يده ، وقد وضع عليها الفاحص الجمركي حرف P علامة الإذن بالمرور — فلما خفت أن يخطفها ذلك الرجل، لمجرد الطمع فيها لمماثلتها لحقيبته تحركت رغبتي في الاحتفاظ بها ، لا لأنها ملكي وتحتوي ما أحتاج إليه في حلي وترحال ، بل ضناً بها على الطامع . وخرج الأخرق صاحب الحقيبة الصفراء وخرجت في أثره أتعلى ، وأنا لا أعيره اهتماماً ولا أجعل له أقل شأن . وكان كل اهتمامي واكتراثي وانشغال بالي وحسابي وترقبي محصورة في لقاء (جوتي) التي أرسلت إلي تقول إنها في شارع ڤيوجرينا دي ڤيه[1] وعندما صرت في نهاية الأفرز خطر ببالي أن أشتري جرائد الصباح ، فملت إلى معرض الكتب والصحف التي تتمهده فتاة شقراء، وأخذت منها ما أشتهي ودفعت ثمنها باسماً للحسناء البائعة ، فابتسمت هي الأخرى وقالت في صوت خافت :

« موسيو إيه تريه جانتي » أي إنك ظريف ياسيدي . فلمحت زرقانة التليفون بجوارها وخطرلي أن أبعث عن وسيلة تصل بيني وبين جوتي قبل أن ألقاها ، فما أحب أن أفاجيء الحبيب أو العدو . ولكنني لم أعلم كيف أخاطبها فتجاسرت وتحاملت على المصادفة والحظ ودخلت وحصرت نفسي وأخذت أبحث في دليل التليفون وأقلب صفحاته وأقرأ الأسماء والألقاب والأرقام والشوارع والأزقة وأغرق بين الأسطر ، وأسرح بخيالي دون أن أشعر وأدفع بالدرهم بعد الدرهم في خرق ضيق ، وأسأل مركز المخابرات — ولا أدري كم طالت وقفتي — وعندما خرجت وألقيت نظرة على وجه بائعة الصحف الشقراء ، رأيته مبتسماً وقد مدت إليّ يدها بورقة مطبقة ، وكانت حركة الحياة في المحطة لا تزال ضئيلة لبكور الوقت — ففتحتها على مهل ، وأنا أظن الفتاة الطائشة تستدرجني إلى موعد فإذا فيها أن رجلاً طويلاً أسود الشعر يتعقبك ، وقد عاد يبحث عنك كالمجنون وهو يحمل حقيبة صفراء، وقد ضاقت حتى لا يقع عليك بصره . فانزل إلى الممر السفلي لتصعد في شارع مونبلان فلا يدرك خطاك ؛ وهو الآن في المقصف . فانحدرت في الطريق الذي اختارته لي وأنا بجنيف جد خبير ، وأطمت الشقراء بائعة الصحف وعملت برأيها الشعوري بعاطفة الحنان تنمو في قلبها نحوي ، كما أن منظر الرجل الطويل المجهول لم يَرُقْها ، ولعله أزعجها كما أزعجني . وفي تمام الساعة التاسعة كانت قوتي خارت من الجوع الذي يعقب

(١) رماة تقابل اليد القدماء — واسم تقابل اليد مأخوذ من الرمان للسابقة

السفر الطويل ومن تعب الأرق الذى يصحب اهتزاز القطار . وللمرة الأولى رأيت باب الفردوس مفتوحاً أمامى . وما الفردوس سوى « أندياهاوش » مشرب الشاى الشهير ، وفيه من الفطائر والحلوى والزبدة والقشدة والشهد مايعجب الأعين والأفواه ، فدخلت إليه وأفطرت إفطاراً فخماً ، وكان أول مال أنفقته على سد رمقى من مال الوثائق المفقودة

وكان بجوارى رجل يجرع الشاى الهندى العجيب ويقرأ جريدة « جورنال دى جنيف » وهو يقلب كفاً على كف كمن خسر مائة ألف فرنك فى سوق القراطيس المالية . وكان يخالسنى النظر كأنه يريد مهاجمتى فى حصن صمتى ، وكنت إذ ذاك مشغوفاً باستطلاع أمور الناس لا سيما كل من كان غريب الأطوار مثله ، فابتدرته قائلا :

— حقاً أن هبوط الأسعار فى سوق الأوراق لكارثة لها مايبررها . ولا تنس أن أمريكا هى البادئة بالاخفاق فى المضاربة ، وغداً يصير أرباب الملايين وملوك المعادن عالة على العمال والفلاحين

فبدت الدهشة على وجه جارى الذى كان يتجرع الشاى الهندى وقال :

— نعم ؟ هل تتحدث إلىّ ياسيدى ؟ فذبت خجلاً واستحياء ، ولكننى تذكرت أن مهنتى تحتاج إلى صفاقة الجلد وبرود الطبع وتحمل الأذى ، فاستجمعت فلول شجاعتى التى شتت شملها سؤال الرجل وقلت : نعم إليك ، لأننى أدركت أنك تفهم جيداً قيمة القراطيس وتحمل همومها . فقال متجلداً متصعداً مقاطعة حديثى :

أى قراطيس ؟ أنا أندب حظ العالم ، لأن شبح الحرب يخنق شيئاً فشيئاً ، وحمامة السلام «بسلامتها» تطل من وكرها المملوء بالثعابين والأفاعى ...

فدهشت وأيقنت بجنونه وخوفه ولوثته وقلت : أظنك تريد عكس ما تقول ، وتمدح السلم وتقدح فى الحرب . فألقى الرجل جريدته والتفت إلىّ محدقاً وقال : وأنت سخيف آخر تمجد السلم وتنفر من الحرب . ألا تعلم ياسيدى أن السلم إذا طالت فى الأمة دهر ألم تلبث أن تتسلط فيها المآرب الشخصية الحقيرة والأغراض الدنيئة المريضة ، وتقوم الفتن والمكايد ، ويمحو الترف آثار الكمال الاجتماعى ، ويحتكر المال قوة متطرفة غير شريفة ولا مشروعة ، ولا تجد الشخصية الكبيرة الاحترام اللائق بها ؟ إن زهرة الانسان لتذبل ، وجذوره لتموت ، فى زمن السلم وعهده ، وتذوى الشجاعة وتحتضر فى ظلال الراحة وخمائل السكون . إن الهدوء والمساواة والطمأنينة (التى تجعل الناس أنداداً وأشباهاً) للهاة العاجز ... ولكن الحرب تظهر شجاعة الرجال وتعلى النفوس الوضيعة ، وإن الجبان والرعديد والخائف والمرتجف (ونظر إلىّ نظرة قاسية كأنه يقصد إلىّ بهذه الخمازى ليتناسى اسمه حيال حماسة الحرب

فقلت له : أنا على رأيك ، ولكن لايغب عن فطنتك وأنت بمارك هذا الزمان أن الحرب التى تشيد بذكرها ، وتتحرق فى انتظار اشتعال نيرانها تجر فى أعقابها نكبات مادية وذهنية ؟ وترعب قلوب الناس والملائكة ، ولا تطرب بدويها إلا أهواء الشياطين والمردة التى تسردها الفظائع الوحشية التى تقع فى القتال

فاندلع فى عينى محدثى لهيب عجيب وقال :

— لا شك أنك تنتمى إلى بعض ذوى تلك

الألقاب الكاذبة ، والمراتب الجوفاء التي تربت في أحضان السلم ورتعت في بحبوحة الرخاء زماناً طويلاً. فأنت وأصحابك تخشون الحرب لأن الشخصيات الكبيرة تحل فيها الحمل الأرفع ، وتخطو القوة والاخلاص والصدق والشرف إلى الطليعة لتلعب دورها الواجب ، ويتجلى الثبات والعطف والعظمة والبطولة والرحمة والاحسان

فضحكت ضحكة كادت تفقد الرجل صوابه وتخرجه عن دائرة الصبر ، ولكنه تجلد وأخذ يحرق الأدم ويمضغ لسانه فقلت له : والمزعة ؟ المزعة ياسيدي، ألا تذهب بجمال ماوصفت المزعة النكراء، خيبة المغلوب وإذلاله تحت أقدام الغالب ؟ هل نسيت قول القائل :

« ويل للمغلوب ! » فكان الويل للغالب ؟

فقال الرجل الذي يتجرع الشاي :

حتى المزعة ! المزعة نفسها فيها ثمرات غالية سامية ، فهي وإن ساقت غالباً الضغف والبؤس والشقاء ، مؤدية كذلك أحياناً أخرى إلى إحياء جديد وانتعاش قوى ، لا سمة للفتور أو العلة فيه . وهي كذلك واضعة أساس نظم حيوية جديدة . قلت له : إذاً لا أخطئ إذا ثبت في ذهني أنك تناهض أماني السلام التي تتردد في خواطر الأمم : فقال حبيب الحرب :

يجب أن نقضي على تلك المذاهب الخيالية الواهية الواهمة ، ويجب أن نشهر بها أمام الناس ونفضح أسرها ونعلن حقيقتها ، وإنها فكرة خيالية ضعيفة عليلة طائشة ، بل ثوب من أثواب الرياء السياسي وحجاب من حجبه . ينبغي أن يعلم الناس في كل مكان أن بقاء السلم لن يكون غرضاً للسياسة العالية بل يجب أن نكرر ونسهب في فضية الحرب ونماها ووجوب وقوعها والمثل العليا التي تنطوي عليها . ينبغي أن نلقي في وجوه « رسل السلام » ودعاتها شعراً قديماً :

« أأحلام بالسلم وعهوده ؟ ألا فليحلم به من يشاء ، أما نحن فليكن صراخنا الحرب ! الحرب ! وهلموا إلى النصر » وأنشد بجوته

ونهض الرجل بعد أن ألقى بالجريدة وألقى علي نظرة استهتار شفعها بتحية: «عم صباحاً ياسيدي » كانت أقسى من السهم وأحد من السيف وأوقع من الصفعة على صدغ الئيم . وقد أردت أن ألحق بالرجل وأطلعه على حقيقة شخصي ، وإنني من طلائع الحرب المقبلة ، لا من دعاة الهزيمة كما توهم وتخيل . وقد نهضت وحاولت النداء عليه ، ثم عدت فتذكرت أنني من رجال الخفية ، وقد وكل إلي عمل دقيق ، وإن في جيب صدارتي غلافاً مختوماً مشتملاً على الأوامر والنواهي التي سأخضع لها حين أفض الغلاف وأتلوها وكأنني أتلقاها من رئيس مطاع. ومن يدريني أن هذا الرجل الذي وقعت عليه مصادفة لم يكن هو نفسه من أعيانهم ومن آكابرهم؟ والحمد لله الذي أطلعه علي في ثوب رجل مسالم ، مبغض للحرب فراح يحتقرني ويزدريني

ثم رفعت عيني إلى الساعة الكهربائية الدقيقة التي تنبض عقاربها بتيار متحد يحرك عقارب سائر الساعات المعلقة في أفرع «أنديا هاوس» في نواحي المدينة كافة . وكانت العاشرة فنهضت ودفعت الحساب بين يدي الصيرف . ولما صرت في شارع مارتن لوثر المحاذي لساحة وليشار قفزت في سيارة وقلت للسائق بصوت عال : إلى باستيون (وهو بستان عام في ميدان ملعب الكومبدي يؤدي إلى الجامعة — وكانت غايتي أن أضلل أي رقيب قريب

وأن أسير على قدمي من حديقة بلستيون إلى شارع ڤيو جرينا ديبه حيث تقطن جوتى . وفى أقل من خمس دقائق بلغت بى السيارة باب الحديقة فترجلت ودفعت وأخذت سمتى إلى مقهى «كاتر كوان دى ڤان» الذى يتوسط الساحة ويشرف على الشوارع الأربعة كادروج وكوراترى وجنرال ديفور وفيلوسوف[1] وشربت قهوة سوداء ، لا تشوبها قطرة من الحليب الذى لا يشربه إلا الأطفال والنساء . ثم قمت أسير متلكئاً وكأنى نسيت الحب الشديد الذى كان يملكنى من أثر الحوادث التى رفعت الأقدار غطاءها منذ نزلت من القطار فى المحطة

كان شارع ڤيوجرينا ديبه فى هذه الساعة الصباحية هادئاً فنظرت إلى الرقم الملتق على الباب؛ فلما أخذ بصرى بعدد ١٧ خفق قلبى ، وأسرعت بالتصعيد فى الدرج . ودققت البـاب دقة لطيفة ففتحت لى خادم عجوز ما رأتها عيني قط؛ فسألتنى عن طلبي، فلما ذكرت لها إنى أغلقت الباب فى وجهى حتى تخبر مولاتها ثم تعود إلى فتأذن لى أو تطردنى . فشعرت بحزن عميق وأحسست المهانة تحز فى قلبى كالمدية ، وصممت أن أطرد هذه الجحرش جزاء على أنهـا أقفلت الدرفة فى وجهى ، حتى كأنى لا أؤمن على نظرة خلال المواربة بين درفتين، فوقفت مشوهاً شارد اللب ، لا أدرى كيف أعلل ماحدث. وقامت فى ذهنى عاصفة هدارة من الأفكار المتعثرة. وبقيت فترة الانتظار ودى يغلى فى عروقى وقد صممت على ألا أسير على هذه الذلة ولو عدت أدراجى ، فرفعت بنيفة معطف حول عنقى ، وأدرت وجهى لأهبط الدرج كما صممته ، وإذا بيد قوية تقبض على ذراعى فرجعت بعنيي فاذا جوتى خارج الباب بوجه باهت ممتقع ، وجسم مرتجف ، وهى تقول : أنت ؟ تقف بالباب وتنتظر الاذن بالدخول ؟ فأخذتها بين ذراعى وجففت بيدي دموع الفرح التى ذرفتها عيناها

من البث أن أسف لك ألوان السعادة التى تذوقتها فى عشرة هذه الحبيبة الوفى ، التى بدأت تشعرنى بالهناء العائلى وتسكب فى شغاف قلبي أقاويق السرور واللذة، وتسكرنى برحيق حبها وحنانها حتى كانت الدموع تنبجس من عينى كلما فكرت أن سعادتنا هذه موقوتة وموقوفة على سفرى لمطاردة ذلك الوغد المحبوس المحاصر بين مدن ست ، لا يملك النفاذ من آفاقها . لم تقف جوتى على شىء من أسرارى ، ولم تعلم مقدار ما أحمل من النقود، أو نوع ما أخفى من السلاح ، أو عدد ما أملك التقمص فيه من الشخصيات . فكانت إذا سألتنى عن سبب حضورى المفاجئ قلت لها : لأحضر دروس الجامعة فى مدرج الغرباء ، وأرقب أعمال جمعية الأمم عن كثب ، ولا أريد أن أرى أحداً سواك ولا وجهاً غير وجهك ، ولا أتناول طعاماً إلا ما تعده يداك وتطهينه بنفسك ، ولا أنظر فى عينين غير عينيك ، ولا أنعم فى الليل والنهار بجسم غير جسمك، ولا أسمع صوتاً غير صوتك ، ولا أشعر بسعادة غير التى توحيها رقة شمائلك، وذلك إلى أن يحين وقت عودتى إلى مقر عملى فى فيرنزة . وكانت جوتى تحسبنى لا أزال فقيراً ، فكرست وقتها ومالها لتوفير راحتى وهى لا تسألنى شيئاً ولا تحاول الوقوف على دخيلتى . فقلت فى نفسى : إن فى النساء المامات وأحاسيس خفية تتفقدها نحن الرجال فى نفوسنا فلا نجدها ،

(١) فى خريطة جنيف التفصيلية شارع إسمه بولفار دى فيلسوف ، وهو المؤدى من الساحة إلى الجامعة

والمرأة مسلحة من كل جانب، وهي أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً، فلما تعرف كل شيء وقد تعرف أكثر مما أعرف. من ذلك أنها كانت قد أعدت لى عدة زينة وحلاقة وعطوراً، حتى الباذل وثياب التفضل (وكانت من صنف غالر). وهذا الذى حدانى لاهمال حفيظتى الصفراء ونسيانها مهجورة فى أحد أركان غرفة النوم الأنيقة التى أنشأتها حبيبتى وقسيمة روحى، ووصلتها بهو الجلوس والمطالعة، وزينتها كل صباح ومساء بالأزهار اليانعة، ووضعت فى إحدى زوايا البهو مذياعاً صغيراً بحجم اليد، ولكن صوته كان كصوت الجن قوة، فشبهته بمقعم يحتوى عفريتاً ينشد ويلهو ويضحك ويختلس الأخبار من أقواس الدنيا وأقطارها ليرويها لنا. وفى إحدى الليالى قالت لى جوتى بعد أن خرجت من الحمام وعصبت رأسها برباط من الحرير الأزرق وبدت عيناها اللوزيتان بلون الزيتون الأخضر القاتم وليونة القطيفة الناعمة:

— نفسى تحدثنى أننا لن نفترق بعد هذا اللقاء، وأن الحياة ستجمع بيننا إلى آخر العمر. وقد تعودت من نفسى أنها لا تخدعنى ولا تكذبنى

ثم أخذت تمر أصابعها فى شعر رأسى فى خفة وسرعة

فضحكت على الرغم منى لعلمى بما تبطنه الأيام لنا من فرقة، وإننى قد ظرت إليها خلسة ولحقت بها طيشاً ورغبة فى اقتناص أيام ممدودة، قبل أن يستحيل اللقاء علينا. ولن أغادرها حتى أترك لها نصيباً من المال يكفى لنفقتها أعواماً حتى ولو اشتعلت نار الحرب ودامت أمداً، ولكننى لم أشأ مفاتحتها بشىء من هذا لترسل أتوالها وأضالها على سجيتها، فقد عشت أعواماً طويلة وجدت خلالها إن قلب المرأة عميق، لا يمكن ارتياده، وسيظل هكذا إلى الأبد. وكنت أنظر تارة إلى نفسى وما يجول بها، وطوراً إلى وجه جوتى الحرى الهادئ الجميل الندى فأشعر بالحزن وتأنيب الضمير حيال كتمانى وسراحتها. وكانت جوتى لا تحول عنى عينيها كأنها تحاول أن تلتهمنى بهما

وفى تلك الليلة طرق بابنا للمرة الأولى شيخ مسن عرفته جوتى من أبناء وطنها فدخل كاشفاً عن رأسه الجميل الممتاز وشعره الأبيض المتموج، وقد حمل نفسه فى خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره، فشرب الشاى وتسمى باسمه المتحمل جيروم بادولسكى وتكلم فى الأدب والسياسة والفنون والتاريخ إلى أن دنا من موضوع الحرب المقبلة فبردت عروق وتفككت أوصال مفاصلى، لأن الحديث أعاد إلىّ ذكرى مأموريتى التى سوف تشتت شملى وتهد دعائم البيت الذى بدأت أحبه وآلفه وأركن إليه فى نومى ويقظتى

قال الشيخ المسن:

« إن الحرب يا سيدى لا شك مقبلة، وإنى أراها بعين الخيال تهرول مسرعة إلينا تخب خبباً مرعباً فى دروع من الحديد والنار وقد ربطت رأسها برقعة ملطخة بالدماء، أكاد أسمع قعقعتها، وأرى لهب مدافعها جاءت لتخبط خبطها الأخيرة. أتظن الجوع أو التناحر على السلطة يسبب هذه الكارثة الشوهاء؟ كلا إن سببها الفروق بين الطبقات والنفور المستحكم بين العامة والخاصة، وكلاهما راجع إلى زهو الأغنياء من جهة وخشونة الفقراء من جهة أخرى. والاختلاف فى التربية أكثر فى التنفير من الاختلاف فى الثروة. أما نحن الروس فقد رأينا فى شبابنا هدم بعض النظم المعطلة للتقدم الحقيقى الدين والحياة

الزوجية والامتلاك والحكومة المركزية

فقلت مندهشاً للشيخ المسن : وكيف تعيش الانسانية بدون هذه الدعائم العريقة القويمة وهي بمثابة العُمُد السلحة التي تحمل السقوف العالية وبدونها ينهار البناء ؟

فابتسم الشيخ وقال : أما الذين فيجب عندنا أن تقوم على أنقاضه العلوم العصرية ؛ وأما الحياة الزوجية فيجب أن تستبدل بالاتحاد الحر بين الذكر والأنثى ؛ وأما الامتلاك فبالاشتراكية ؛ وأما الحكومة المركزية فبمجموع ولايات مستقلة .

كانت هذه أحلامنا منذ خمسين عاماً ، فلما تحققت أسفنا أشد الأسف، لأن الحقيقة لم تنطبق على الخيال. وقد جنت علينا الفوضى أشد من جناية الظلام؛ وإن نفسي تحدثني أن أكتب قصة كتلك التي كتبها مواطني وصديقي تشرنشفسكي . فقالت جوتي : آه متتو ديالاتي ؟[1] إن الأفكار الثورية قد استحوذت على جميع الطبقات والأعمار والصناعات والمهن هنا في سويسرا وفي أوربا الغربية بأسرها ، حتى لندن وباريس وروما الفاشستية وبرلين التي يحكمها هندنبرج ، في كل مكان تعلن الثورة جهاراً في الطرق ، وتلقى علانية في الشكنات وتذاع في إدارات الحكومة ومصالحها ، بل إني لأعتقد أن الشرطة أنفسهم يغضبون لها ويثورون »

لقد كان كلام الشيخ المسن عجباً من عجاً ، حتى لقد شعرت أنني أخون وظيفتي وأنا أصغي إليه ، وإن كنت أستطيع أن أسفه بالطرف لأتخلص من وزره ، ولكن غاظني أن جوتي تعرف أمثاله وتأويهم وتسقيهم الشاي . ولكني لم أملك أن أقطع حديثه ، وصممت في نفسي أن أناقشها بعد انصرافه في ضرورة الخلاص من تلك الصداقات المريبة

وشرب الشيخ المسن جيروم بادولسكي أقداحاً من الشاي ، وكأنها مترعات خمراً معتقة صفراء يسكر بها فقال :

— كان الشاب منا صلب المكسر ثابت الجنان رابط الجأش متأهباً لتحمل التضحية في سبيل فكرة؛ وكنا نتزيا بزيّ العمال لندخل في دينتنا الطبقات الجاهلة من العمال والزراع ونسر لهم في آنائهم أن الواجب أن يتخلصوا من موظفي الحكومة وملاك الأرض وهم أسباب الحالة الحاضرة التي آلت إلى أشد الفساد وأنكر الفوضى. وهنا دق الباب دقاً عنيفاً، وكان قد مضى على إقامتي في الدار أربعة عشر يوماً ، ولا يعرف مخلوق اسمي وعنواني سوى عامل مكتب البريد في بلا نزيله فقد أفضيت إليه بهما لأنني كنت أنتظر إشعاراً من خدمة النقل البخاري « من الباب إلى الباب » التي عهدت إليها في توصيل حقائبي من فيرنزة إلى جنيف؛ ولم أكن أعلم أن عادتهم أن يفاجئوا عملاءهم في أي وقت من أوقات الليل أو النهار فانتفضت ونظرت إلى جوتي نظرة لم تفهم معناها . وتخيلت الرجل المجهول الطويل الذي تمقتني في المحطة، ثم البحاثة الساخب الذي يريد الحرب مهما كانت شعوب الأرض من عناء وبلاء وهلاك ؛ ولم يخطر ببالي غيرهما ، حتى ولا رئيسي الذي أبلغ لي « بطاقة بيضاء » في المال والوقت والتدبير. ونهضت جوتي إلى الباب وسمعت الفتح والهمس ، ثم خطواتها وهي تسود حاملة بياناً بحقائبي التي كانت في سيارة بأسفل الدار فحملها الرجل وتقدته الحلوان ولم تقل له أكثر من أحسنت بالبادرة فقد كنا في الانتظار

(١) بالروسية ماذا نحن فاعلون ؟

وقد رأى الشيخ المسن أن ينهض فقالت له جوتى : لا تقل إلى اللقاء بل الوداع يا عزيزنا چيروم فقد صحت عزمتنا على السفر ، وها هى الحقائب قد أعدت وأنت تراها . فهز الشيخ بدهاء وغرورقت عينه اليمنى بدمعتين جالتا ولم تذرفا وقال والعبرات تخنقه :

— ها هو البيت الأخير الذى كان يأويني ويظلني يقفل فى وجهى إلى الأبد . فنظرت جوتى إلىّ ورأت تأثرى وقالت : اننا لن نلبث أن نعود فلا تبتئس يا صديقى .

قال : تعودين ، ولكن هل أكون هنا ؟

— أتنوى السفر أنت أيضاً ؟

وخيل إلى أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت فى تلك السحابة من الدموع التى تطفر من عينيه وقد أجاب:

نعم : قد أسافر ... سفرة بعيدة جداً جداً . لا يعود منها أحد قبلى ولا بعدى .

ولما نزل چيروم وغاب صدى وقع أقدامه ، عادت جوتى وكانت تودعه ، وجلست على الأرض أمامى ووضعت رأسها فى حجرى وبكت وكنت أفهم بكاءها وأندم على انى سببته ، ولكننى فى الحق انهمت نفسى بتبرير جريرة . فقلت لها لم تبكين يا جوتى ؟ ألأن وصول هذا المتاع فى الحقائب قد يكون نذير الفراق ؟

قالت : كلا إنك باقى بجانبى إلى النهاية . ولكن أبكى لأننى أشفقت بأبى فى وجه هذا الشيخ المسن المسكين الذى ليس له أحد .

— وما الذى دعاك إلى اختراع فكرة السفر ؟

— لأننى لمحت أثناء حديثه أملا يروقك ولا يرضيك وقد يقلل من سعادتك أن يمشى مجلسنا من وقت إلى آخر .

فلم أملك حيال إخلاصها الا أن اعترف لها بالواقع وألتمس الاعذار لنفسى .

وعدنا إلى السعادة نقتطف ثمارها الدانية ، وأنا واثق انها أبلى الأخيرة فى عالم الفناء الصافى من الأكدار . وكنت أشبع رغبات جوتى ، وأثرأ صحف الأخبار ، واتتبع أحاديث المذياع المكنونة لأستخرج الصدق من بين ثناياها ، وأتثقف أنباء عصبة الأمم التى كانت فى ريعان شبابها والسقم يدب فى مفاصلها ويعجل بالقضاء عليها الحسن نية والفيها وعاشقيها وخاطبى ودها الذين دسوا لها السم فى الدسم . وكنا حينا نلهو باخراج الثياب والكتب من الحقائب ونصفها فى الصناديق والأدراج لنوهم أنفسنا بأننا باقون فى الدار بقاء استقرار وإقامة .

وكانت هذه البلهاء جوتى تضحك فى وجهى وتطيل النظر إلىّ وتقول :

— أعطنى طفلاً يشبهك ! لا تنادرنى قبل أن أله لك ولداً . فكنت أضحك من فكرتها وأعجب كيف تحدثها نفسها بهذا الخاطر . ولما كانت جوتى واسعة الخيال وشديدة التعلق بالكتب كانت تداعبنى حيناً قائلة :

— أريد نسخة طبق الأصل منك بلا تنقيح . ألا ترى أن المطبوعات الأولى هى الأصيلة التالية لأنها نادرة ؛ لقد كنت متعطشة لقبلاتك ولا أستطيع صبراً على بعدك

فقلت لها : وإذا أرغمت على السفر ؟

قالت : قد توافق عزيمتك ماجمت عليه نيتى لأنه ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة . إن لكل إنسان حقاً محدوداً من السعادة ، وإن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما ، فليكن من الآن فصاعداً

وقد اتكأت على جسمى بجسمها اللين اللدن وقالت :

لقد طار إليك قلبي مرفرفاً وكلما زدتني اتصالاً زدت اشتعالاً ، إنني لا أروي ولا أقنع . في وسعي أن أعرف السبب ، إنني لا أشبع منك إلا إذا الحاحاً قت إلى بقائك بجانبي

وكنت في تلك اللحظة أقرأ ديلي ميل التي كانت تنشر في أعمدتها رسائل « قلبنا الخاص » . فوقع بصري على هذه الرسالة الغامضة « إلى رجلنا في ا و ك و ش و ت و س و ا و د . إن أمك المنشود لدى امرأة مديدة القامة سوداء الشعر ، وحارس الكنز يحمل حقيبة صفراء لا تفارقه . كل شيء بشأنك على ما يرام فاتبع خطة السير التي رسمها لك الكواكب السيارة »

فذهلت من غموض الرسالة أولا ، ثم رأيت بارقة الأمل في حل رموزها . وكانت جوتي تتابع حديثها قائلة : إن الحب يحملني كالريح والمطر والبرق والرعد وأنت كذلك ، فظلت كالمشدوه

وأخذت جوتي تتوثر في الحديث الذي أيقظها به الحب العنيف

وأخذت تسرد على مسامعي قصة حياتها . وكانت تحدق فيَّ بقوة منتجة بصدرها وخصرها إليَّ ، ثم إذا هي تعانقني بعنف ولهفة وتنهد . ففكرت في مخرج من هذا الموقف حتى يعاودني هدوئي . فقلت لها : إليك هذا الغز ، أتعرفين كيف يكون حله ؟ وقرأت لها الرسالة الغامضة فأصغت إليها في سمت عميق وقالت : وما يهمك من أمر هذا الغز أو الرسالة الرمزية ؟

قلت : تسلية محض ، لا أكثر ولا أقل

قالت : إن المقصود بالمرأة المديدة القامة رجل مثلها ، والرجل الأول هو بلاريب رسول أو وكيل أو متندب ، والكنز أوراق أو وثائق ، لأن الحقيبة لا تحمل أكثر منها ؛ أما الكواكب السيارة فهم الرؤساء المتنقلون . وأظن هذه الرسالة من الخدمة السياسية السرية في إحدى الدول العظمى ، أما حروف الهجاء فهي أوائل أسماء بعض المدن ، فلو أنها حددت لرجل لوقف عليها . فتناولت خريطة لأوروبا الوسطى وتركتها تمتع يدها على البلدان فأخذت تقرأ حتى ذكرت أثينا وكيلوز وشامبيري

ولكني كنت غبياً فلم أفهم شيئاً . وقد أحسست بحرارة تسري في جسدي ، ولعل الحب الشديد الذي شعرت به فجأة جعل على بصري غشاوة فأخذت أنظر في سكون إلى ذلك الجسد الرطب الممتد على ركبتي وصدري !

فقالت : هل فهمت شيئاً ؟ إن الرجل الذي تقتني الخدمة السرية أثره في إحدى دول الوسط يحمل وثائق ثمينة جداً في حقيبة صفراء وهي تنبه رسولها لصفاته وتطمئنه ... ثم اعتدلت في جلستها وأخذت يدي في راحتيها ونظرت إليَّ نظرات شاردة وقالت : كأني أكتب في لوح مكتوب أنك أنت المقصود بهذه الرسالة ، وأن هذه الوثائق أمامك وملك يمينك ، وأنك لن تتكبد في الوصول إليها مشقة لأنها عندك وتحت يدك . ولكنني مجنونة أية علاقة بينك وبين الخدمة السرية في الدول ، في هذا الجو القاتم المليد بشيوم الحرب ؟

وقبل أن أتمكن من القول لها : استمري في قراءة هذا اللوح قالت لي :

— إني أحبك ! إني أحبك ! إني أحبك ! وجذبتني إليها وأنا مستسلم لا أتحرك وعانقتني ثم دفعت نفسها إليَّ في قوة وقالت : آه ان اللوح يختفي عن عيني شيئاً فشيئاً . إن حبك قد علمني قراءة الغيب ، وفي تلك الليلة على الرغم من اشتعالنا

2017-11-15 15:26:18

بنار واحدة لم أستطع الدنو منها

وعند شروق شمس الغد، نهضت جوتى وقالت: إن نفسى تاقت لنزهة قصيرة فى إشردون أوفرسوا، ولكن البحيرة لا توافقها فهى تفضل سكة الحديد، فرضيتُ اقتراحها. وإذ كنا على الأفريز حانت منى التفاتة نحو مستودع الصحف والكتب والفتاة الشقراء الباسمة، فدنوت منها واشتريت حزمة من المطبوعات الطازجة التى تحمل عبق المداد، وعطر الأشجار التى صنع الورق النفيس من جذوعها وفروعها. فلما دفعت لها الثمن قالت: آه سيدى! لقد أوذيت لأجلك، ولكننى لم أبك، فان الرجل الطويل الأسود الشعر الذى كان يقتنى أثرك منذ شهر عاد يتهمنى بتضليله، ويسألنى إن كنت رأيتك تحمل حقيبة صفراء بيمينك. فقلت له: إن الحقيبة الصفراء كانت بيمينك أنت، وما رأيت معه شيئاً فلم يصدقنى، وزعم أننى تسترت عليك حين استبدلت حقيبته بحقيبتك، وشكانى لرؤسائى، ولكنه عجز عن تقديم الدليل على صحة زعمه، وإنى أخاله ذا قيمة عالية، لما رأيت من اهتمام الرؤساء بشأنه، ولكنهم يسمونه جاكًا موسيو إس S فهل هو سوشاچ أو سيريان أو سراسان؟ (١)

وكانت جوتى تسمع طرفاً من الحديث، دون أن تشعر الفتاة بمصحبتنا. فلما فرغت الشقراء من ثرثرتها الغبية قالت جوتى: ألا تزال مصمماً على نزهة ثرسوا؟ أما أنا فلا، لأننى شعرت بدوار مفاجىء، ولابد لى من الرجوع إلى البيت لأعالج صداعى باستكمال النوم حتى الظهيرة أو بازدراد جرعة من البرومير المسكن

قلت فى نفسى: هكذا النساء يتعرضن ويقلقن راحتنا ثم يبدلن عن فكرهن فيظلمن الرجال ...

وكدت أغضب، ولكننى كظمت غيظى، لولا أن ابتدرتنى بقولها: لن تندم على عودتنا بقدر ما كنت تندم لو أصررت على زهتك ... فلم أملك نفسى وقلت لها:

— نزهتى أنا أم نزهتك أنت؟ ما أقبح ماعليه بعض النساء من غباوة مرذولة. أما عندهن إحساس بما يلائم مقولية الرجل المتحضر من الجنس الأبيض ... أما إلى ذلك من سبيل؟ لعلك تظنين أنى جننت بحبك جنوناً يحملنى على طاعتك فى السفر والإقامة

فابتسمت جوتى وقالت: لم أراك غاضباً غير هذه المرة ... ما ألطفك فى سخطك؟ أتعرف خرافة الأم التى قتلت الكلب الذى كان يحرس ولدها حين رأت خياشيمه ملوثة بالدماء

فنظرت إليها فى كدر شديد وقلت: إن ما أعرفه ولا أجده، وأبحث عنه ولا أعثر به، هو الحياة الهادئة التى لا يسمح الزمان بها

وكنا بلغنا الدار، فلزمت جوتى فراشها مريضة أو متمارضة؛ وعند ما أفاقت حوالى الظهر سرقت الخادم العجوز ومنحتها أجازة نصف يوم. ثم قالت لى إنها لم تتعود أن تتجرع أدوية من الصيادلة، وخير لها أن تبحث فى الأدراج والصناديق والعلب القديمة، وجلست بجوارى على السرير وأخذت تداعب شعرى بيدها ثارة عليها وقبلها، ولكنها مالت عنى بسرعة وقالت:

— أتأذن لى أن ألتمس دواء فى إحدى حقائبك المهجورة

قلت: أتحتاجين إلى سؤالى وإذن؟ ماذا جرى؟ وكيف انقلب المذنر حقيقة؟ فنهضت جوتى إلى غرفة نومى ثم عادت تحمل الحقيبة الصفراء التى

(١) أهو وحشى أم تمبان أم بدوى وكلها على حرف S

لم أرها منذ وصولي وقد استثنيت مما تحتويه بما أعدته لي تلك الحميمة الحنون

ففتحتها ... ثم نظرت فيها وأطلت النظر ... ولم تمتد لها يداً ...

فنظرت بدوري ... فلم أجد مبادل ولا أدوات حلاقة ولا مرآة ولا قناني عطر . بل أوراقاً ودفاتر في أشكال شتى ومصورات وخرائط وأشرطة فوتوغرافية وألواحاً زجاجية ورسوم مواقع وحصون وتصميمات مدافع وطائرات وغواصات ، وجداول إحصاء ورموز كيائية وخرائط جوية ...

فقالت جوني : هل هذه أدوات الزينة ، أم محتويات الحقيبة الصغراء التي لم تكن تفارق الرجل الطويل الأسود الشعر ، وقد وقعت في يدك خطأ يوم وصولك مدينة جنيف ؟

فأشرقت الحقيقة فجأة على ذهني وارتبطت حلقات الوقائع ببعضها البعض حتى صارت سلسلة متينة . لقد نقلت الأقدار تلك الوثائق بحقيبتها من يد صاحبها إلى يدي أثناء تغيير القطار في دوسو دوسولو أو أبربرو . ولعله وضعها بجوار حقيبتي وغفل عنها مدفوعاً بسرعة النزول . وهكذا حلت لي الأقدار ما كنت عاجزاً عن حله إلا بشق النفس وتكبد الأذى ؛ وإذن صحت نبوءة جوني ، إن الدهر لن يفرق بيننا . فنظرت إلى وجهها فوجدته تائهاً فقالت :

— عند ما سمعت حديث بائعة الصحف أيقنت أن الحقيبة الصغراء المهجورة هي حقيبة الرجل الذي وصف في عمود الأسرار في « ديلي ميل » فسارعت بالعود متعارضة خشية أن تسرق أو تختلس أثناء غيبتنا في إيفردون أو تيرسواه . ولكن غيظك وغضبك وسخطك مما لا أتحمله . وقد قتلت الحب في مهده وأطلقت لسانك بكلمات مزعجة ما كان لك أن تتسرع بالتلفظ بها كما تعلم ، ولكنك لم تمالك نفسك . فهذا فراق بيني وبينك ...

وعبثاً حاولت مصالحتها والافضاء لها بسر مهنتي ومكاني في الخدمة المخصوصة ، ودفتر الحوالات الذي أملكه ، والمال الذي لا حد له ، والاجازة الطويلة التي نلتها ، وان الانتفاع بهذه النعم راجع إلى فطنتها وسرعة بديهتها ، وحسن الحظ الذي لازمني منذ انتويت السفر إليها قبل أن أباشر عملي . وقد اطلعتها على جفر المراسلة وملاحن الحديث[1] وقانون المخاطبة السرية ، ووقفتها على أمور لو علم رؤسائي أني أذعتها لم يكن يكفيهم قتلي بالرصاص عقاباً عليها ، ولكن قلب جوني الذي كان يتفطر شوقاً إلي إن غبت عنها ساعة أمسى كالجلمود وقالت :

— لم يسؤني شيء كما ساءني طرد الشيخ المسن جيروم باودلسكي ، وهذا تأوه تقتنص له الطبيعة مني ، لأنني أقصيته وحرمته المأوى في كل أسبوع مرة مراعاة لكمال راحتك . والآن الوداع ياساحي

فنهضت وأنا أشعر بالندم يحز في نفسي ويهيمن على إحساسي . وقلت : أهذا آخر ما تقولين ؟ إن كان حقاً ما نويت فاعلمي أني أغادر جنيف دون أن أمس شيئاً من هذه الحقائب والوثائق . وسأترك لك المال والحوالات فلم يعد لي في الحياة مطمع بعدك وأن الدنيا هينة عندي في جنب رضاك . وإذ ذاك لاحت علائم الدهشة واضحة على جبينها . ثم تبسمت ابتسامة تختلط فيها دلائل الحب والاخلاص اللذين كان ينطوي عليهما فؤادها وما شمرت به نحوي من عطف فأقبلت أداعبها وأسألها الصفح عما بدر مني ، فأجهشت في البكاء ولم تتكلم حتى الصباح

محمد لطفي جمعة

(١) أي الشفرة والسر وما سروفان

صلاح الدين

للقصصي الإيطالي بوكاتشو

بقلم الأستاذ محمد كامل الخطاب

حينما تولى الامبراطور فريدريك الأول — إذا صدقنا كثيراً من المؤرخين — استعد المسيحيون لاجتياز البحر لفتح الأرض المقدسة . ولما بلغ الخبر السلطان صلاح الدين ، وكان أميراً مزدانًا بأنواع الفضائل وملكا لبابل ، عزم على مشاهدة استعداد الأمراء المسيحيين ليتمكن من حسن الدفاع . فدبر أموره بمصر وتظاهر بالذهاب إلى الحج وسافر متنكراً بملابس التجار ، ولم يصطحب غير صديقين وثلاثة من الخدم . وبعد ما جاب عدة بلاد مسيحية توغل فى لومبارديا ليصل إلى جبال الألب . وعند ذهابه من ميلان إلى باڤى صادف شاباً نبيلا يدعى توريل ديستري قبيل المساء ، وهو من أهالى باڤى . وكان وراءه عدد عظيم من الخدم والكلاب والطيور ليقضى بضعة أيام على ضفاف تيزان فى بيت يملكه فى تلك الجهة . فظن هذا الشاب أن هؤلاء ليسوا إلا أمراء أجنبيين يسيحون فى الأرض ، فعزم على مقابلتهم بكل احترام . وحانت لذلك الفرصة إذ انبرى أحد أتباع صلاح الدين ووجه هذا السؤال إلى خادم من خدام الشاب : ماذا بقى من المسافة إلى باڤى ؟ وهل فى الامكان الوصول إليها قبل إقفال أبوابها ؟ فرد توريل موجهاً الكلام إلى صلاح الدين :

لا تستطيع ذلك مهما حاولت ياسيدى

— دلنا أين نمضى ليلتنا هذه لأننا غرباء ولا نعرف هذه البلاد

— بكل ارتياح وسرور . ولقد كنت عازماً أن أرسل فى هذه اللحظة أحد أتباعى إلى باڤى لقضاء أمر وسيقودكم إلى مكان ترتاحون إلى الاقامة فيه

ثم أسر إلى أذكى خدمه بأن يقودهم إلى منزله عن طريق آخر بينما يسير هو فى أقرب الطرق . وبمجرد وصوله أعد عشاء فاخراً فى حديقته ونسق الموائد ثم وقف بالباب ينتظر ضيوفه . وفى هذه الأثناء كان الخادم يضلل الضيوف من طريق إلى طريق دون أن يشعروا . وفى النهاية دلف بهم إلى البيت . ولما شاهدهم سيده هرع إليهم قائلا : «مرحباً وأهلا وسهلا !» وقد كان صلاح الدين وشدة فطنته فهم الحيلة وقال له : « إذا كان فى الامكان أن يُشكر أحد لشرفه وكرمه وجدنا ما نشكوه منك لأنك أطلت طريقنا لتتمكن من حسن الضيافة ولطف المجاملة التى أسرتنا بها ولسنا لها أهلا . فأجاب الفارس الظريف وكان حكيما فصيح اللهجة : « إن ما قابلتك به من الاحترام وحسن الضيافة لقليل بجانب ما تستحقه أيها السيد الجليل إن لم يخدعنى ظاهرك . ولو كنت فى غير باڤى لساء نزولك . فلا تأسف إذا طالت طريقك » وفى أثناء الحديث أقبل رجال توريل ليكونوا الاحتفاء بهم جميلا نفخا واصطحبوا الأجانب إلى غرفهم التى أعدت لهم ، ثم تناولوا العشاء ودارت عليهم الرطبات وسامرهم

(٥)

مضيفهم بأله الأسمار وأحبها

وكان صلاح الدين وصاحباه يجيدون اللاتينية فأعجبوا بفصاحة مضيفهم الذى لم يروا مثله فى آدابه وبلاغة قوله ورقة شمائله . وكانت لدى توريل أعظم فكرة عن ضيوفه . وأمسى مهموماً لأنه لم يتمكن من إعداد وليمة فخمة يدعو إليها البلاد ليزيد فى بهجة الضيافة ، ولكنه عزم على إصلاح ذلك فى الغد

ثم اصطحب ضيوفه إلى الحديقة وأرسل رسولا إلى زوجه وكانت نبيهة كريمة . وفى أثناء السمر سأل بكل تأدب ضيوفه عن سفتهم فأجاب صلاح الدين :

« نحن تجار من قبرص ، وسنسافر إلى باريس لقضاء أعمالنا » فأجاب توريل بصوت جهورى :

حمداً لله الذى جعل بلادنا تنتج ظرفاء يشبهون تجار قبرص ! »

واستمر الحديث إلى أن جاء وقت العشاء وتركهم يأخذون مجالسهم على المائدة كما يريدون . ولم يكن العشاء فخماً ولكنه كان جيداً جداً . وقد ساد عليهم الاخلاص والهناءة ولم يمكثوا طويلا على المائدة ، وفكر توريل فى تعب ضيوفهم من وعثاء السفر فقادهم إلى أيسر منهم وذهب هو إلى سريره

وقد قام الخادم الذى ذهب إلى بافى بما عهد به إليه خير قيام . وبمجرد ما سمعت امرأته الخبر أنبأت أصدقاء زوجها وجهزت وليمة فاخرة ودعت أعيان المدينة ووجهاءها واشترت مختلف الحرائر والوشى الذهبى والسجاجيد والفراء وجهزتها حسب إشارة زوجها

وفى الصباح ركب توريل جواده واصطحب الأجانب إلى مخاضة قريبة وسرعان برؤية طيور صيده حينما تحلق فى الجو . ثم سأله صلاح الدين أن يرسل معهم أحد أتباعه ليدلهم على طريق بافى فأجابه :

« سأكون دليلكم فى هذه المرة لأنى مضطر لقضاء أعمالى هناك » ثم تابعوا السير فوصلوها فى الساعة التاسعة ، وظن السافرون أنهم سينزلون فى نزل عظيم ولكنهم دخلوا بيت توريل وشاهدوا نحو خمسين رجلا فى استقبالهم . وسار هذا الجمع أمامهم فقال صلاح الدين : « ما هذا الذى سألتك إياه . ولقد أكرمتنا البارحة أكثر من اللازم فنرجو منك أن تدعنا نتم طريقنا

— إننى مدين للحظ الذى أرسلك إلىّ البارحة ، وهو الذى أسلك طريقك ؛ ولكنى أرجو منك أن تتكرم بقبول تناول الغداء معنا اليوم ؛ وإن هؤلاء الأصدقاء سيشرفوننا إن سمحت بالجلوس إلى مائدتنا . فاضطر صلاح الدين إلى القبول ؛ فنزلوا ودخلوا دار مضيفهم فوجدوها منسقة بأبهى الأثاث وأفخر الرياش ؛ ثم غسلوا أيديهم وجلسوا إلى المائدة وقد جمعت أطيب الطعام وأفخر الصحاف . ولو كان الضيف نفس الأمبراطور لما استطاعوا أن يهيئوا له أفخر من هذه الألوان ولا أبهج من ذاك التنسيق . ومع أن صلاح الدين وصديقيه قد اعتادوا البذخ ولكنهم دهشوا من هذا الاستعداد لأنهم كانوا يظنون أن مضيفهم ليس إلا من أفراد الأهالى العاديين لا سيداً عظيما . وبعد تناول الغداء وتناول الحديث ذهب النبلاء الايطاليون ليستريحوا من عناء القيظ اللافح ، ولبث توريل وحده مع ضيوفه ؛ ثم دخل معهم إلى غرفة خاصة حتى لا يخفى عنهم أعز وأثمن ما عنده ؛ ونادى زوجه المحبوبة الفاضلة فأقبلت ترفل فى أفخر الأثواب مصحوبة بطفليها الجميلين الرشيقين وسلمت على الأجانب بكل لطف فقاموا وردوا التحية بأحسن منها

2017-11-14 15:29:49

وأجلسوها وسطهم وطفقوا يلاطفون الأطفال . وبعد تبادل الحديث سألتهم بكل تأدب عن صفتهم وعن الغرض الذى رحلوا من أجله فأجابوا بنفس الجواب الذى قالوه لزوجها . ثم قالت : « جيداً لو تفضلتم بقبول هذه الهدايا الصغيرة لأن النساء بطبيعتهن ضعيفات الارادة ، فلذلك يعطين الأشياء الصغيرة ؛ ولكنى قانعة بأنكم تقدرون حسن نيتى قبل كل شىء دون أن تعيروا الهدايا أقل اهتمام » وقد أحضرت لهم أفخر الثياب مما يلبسه الأمراء وقالت لهم : إن زوجى قد حصل اليوم على ثوب مماثل وأنتم اليوم بعيدون عن نسائكم ورحلتكم بعيدة والتجار يميلون عادة إلى النظافة . ورأى النبلاء أن توريل لم يفته شىء فأجاب أحد الضيوف : « إن هذه الحلل ثمينة جداً ولا يمكن قبولها بسهولة إذا كان فى استطاعتنا أن نرفضها أمام هذه المجاملة الحسنة واللطف الزائد »

وكان توريل قد تركهم منذ هنيهة ، ثم أقبل فودعتهم زوجه وقدمت كثيراً من الهدايا الفخم . ورجا منهم زوجها أن يقضوا بقية اليوم عنده . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة ركبوا الجياد للتريض فى المدينة وعند عودتهم جهزوا لهم عشاء فخماً ثم طفقوا يتسامرون إلى أن حان وقت النوم فذهبوا إلى مضاجعهم

ونهضوا فى الصباح إلى جيادهم ليسافروا فوجدوا مكانها خيلا قوية جميلة بعددهم حتى الخدم ، فدهش صلاح الدين وقال حينما عطف على أصحابه : « أقسم بالله إنه لا يوجد رجل كامل الفضائل حسن المجاملة بصير بالأمور مثل هذا الفارس فى شمائله ومكارم أخلاقه لما استطاع ملك بابل (صلاح الدين) أن يثبت أمام الذين يستعدون لمهاجمته ولا أمام واحد منهم . وقد رأى أن لا فائدة من رفض الهدايا الجديدة فشكروا له حسن صنعه وسافروا

وعزم صلاح الدين إن انتصر فى حروبه أن يرد جميل توريل وكرمه الحاتمى ، وطفق يتحدث طويلا عنه وعن زوجه وعمره الممتع وشريف سجاياه

وبعد أن طاف بجميع جهات أوربا الغربية رجع إلى الاسكندرية مزوداً بكل ما يلزمه من المعلومات وأنشأ يستعد للدفاع

وحينما حان الوقت لسفر المسيحيين وأضحى الاستعداد على قدم وساق فى كل مكان سمم توريل على اللحاق بجيوش الصليبيين رغماً عن توسلات زوجه وعبراتها المنهمرة . وبعد ما جهز نفسه واستعد لركوب جواده قال لامرأته : « سأتبع يا عزيزتى الفرسان المسيحيين لسعادتى واطمئنان نفسى وأوصيك برعاية أملاكنا ومصالحنا . إننى ممرض لكثير من الأخطار التى تحول دون عودتى ؛ وإنى أطلب منك منة واحدة وهى أن تنتظرينى مهما كان مصيرى عاماً وشهراً ويوماً من ابتداء سفرى »

— كيف أحتمل يا صديق الآلام التى يسببها لى سفرك ؟ وإن لم توافنى منيتى فأيقن أنى سأحافظ على عهدى وعلى ذكرى توريل فى حياتك ومماتك »

— إننى لا أشك فى إخلاصك ووفائك ؛ ولكنك مازلت فتية جميلة متحلية بجميع الفضائل . وقد عرف فيك الناس جميع تلك الشمائل ومن المحتمل أنه بمجرد إشاعة موتى يتقاطر إلى إخوتك وأهلك كثير من النبلاء لخطبتك ولا تستطيعين مقاومة أوامرهم ولهذا السبب طلبت منك الانتظار عاماً وشهراً ويوماً »

— سأعمل كل ما أستطيعه لتنفيذ وصيتك .

وإن أرغمت على الزواج فلا يستطيع أحد أن يمنعني من العمل بوصيتك . وإني أسأل الله أن يبقيك لنا ذخراً وسنداً » ثم بكى الزوجان ونزعت امرأته خاتماً من أصبعها وقدمته لزوجها قائلة : « إن مت قبل رؤيتك فليذكرك بي هذا الخاتم » ثم ودعهم توريل وسافر . ولما وصل إلى جنده ركب البحر مع فرقته . ولما بلغ عكا التحق بجيوش الصليبيين . ولقد كان نصيب أغلب هذه الجيوش الموت ونصيب الباقي الأسر وقادوهم إلى عدة مدن . وكان توريل في من لم ينجوا من حسن حظ صلاح الدين أو من مهارته . ولا يعرف السبب الذي يعزى إليه هذا النصر العام والنجاح السريع . ولقد اقتادوا توريل إلى سجن الاسكندرية ، وهناك لم يكن معروفاً لأحد ، وخشي أن يعرف . ولقد فكر في الطيور لأنه يحسن تربيتها وتدريبها

لم يعرف توريل هذا الأمير ولم يفكر إلا في وطنه الذي حن إليه ، وقد هم أن يهرب مراراً ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته

وفي هذه الأثناء حضر بعض السفراء الجنويين واقتادوا عدداً من مواطنيهم . وحينما تهيأوا للسفر أعطاهم خطاباً لامرأته يرجوها فيه أن تنتظره ورجا من الذي عهد إليه الخطاب أن يسلمه إلى عمه الأبيه سان بيير ليوصله بنفسه إلى عقيلته

وفي ذات يوم كان صلاح الدين يتحدث مع توريل في شئون طيور صيده فبدرت منه ابتسامة مصحوبة بإشارة كان لاحظها صلاح الدين عند مضيفه في بافي ، فخلق فيه فجأة الذكرى أنه رأى هذا الوجه يوماً ما . فقال له : « من أي البلاد أنت ؟ »

فقال له : « إني يا سيدي من لومبارديا من مدينة تسمى بافي » وقد رجح هذا الجواب ظن صلاح الدين ؛ وقال في نفسه : « لقد أتاح لي الله الفرصة لأعرفه بما تركه لطفه من الأثر في نفسي » وفي الحال أمر بتغيير جميع ملابسه في غرفة كبيرة وسحبه إليها قائلا : « انظر جيداً جميع هذه الملابس هلك تعرف منها شيئاً » فسرح الابطال طرفه في جميع الملابس فلمح الحلل التي منحها فيما مضى زوجه إلى ضيوفه وقال : « إني يا سيدي رأيت حلتين تشبهان ما أعطيته ثلاثة من التجار استضافوني » فلم يتمالك صلاح الدين من كبح نفسه وعانقه بحنو قائلا : « أنت مستر توريل ديستري وأنا أحد التجار الذين منحتهم امرأتك هذه الحلل . ولقد حان الوقت لأريك بضائعي كما قلت لك عند سفري »

شعر توريل في اللحظة بالفرح والخجل لمجيء مثل هذا السلطان في ضيافته والخجل لاستقباله استقبالاً عده غير لائق بمركزه

ثم قال له صلاح الدين بحماسة : « أيها الصديق العزيز ، أما وقد أرسلك الله إلينا فتيقن أنك أنت وحدك السيد هنا لا أنا » وبعد ملاطفته أليسه أفخر الحلل الملوكية واصطحبه أمام كبار رؤساء بلاطه وقدمه إليهم أحسن تقدمة ، ثم أثنى عليه أطيب أنواع الثناء وقال لهم : احترموه كما تحترمونني . فأطاع الكل إشارته ولا سيما الذين اصطحبوه في ضيافة توريل

إن سرعة انتقال توريل من الأسر إلى المجد أنمته عن أمور لومبارديا وظن أن عمه استلم رسائله

وصادف في اليوم الذي أسر فيه صلاح الدين آلافاً من الصليبيين أن مات منهم أحد النبلاء المسمى

« مسير توريل دو دبي وكان غير معروف في الجيش فظن الناس أنه توريل ديسترى لتشابه الاسم الأول وتأكد ظنهم بأسر توريل فأذاع بعض الايطاليين نبأه في بلادهم وأكدوا أنهم شيعوا جنازته

وكان لخبر موته الكاذب وقع سيء عند زوجه وأقاربه وأصدقائه . وظلت زوجه تندب العبرات الحارة أياماً طوالاً ، وبعد انقضاء عدة أشهر خطبها الزواج كثير من أعيان بلدها وألح عليها أهلها بالقبول فرفضت مدة طويلة وقالت لهم : لابد من احترام المدة التي اشترطها زوجها قبل سفره

وبينما هذه الحوادث تمر في باريس كان توريل يفكر في امرأته وفي قرب انتهاء المدة التي اتفق عليها مع زوجه فتقد سوابه من النبيط والحنق ، وأثناء الحزن حتى لزم فراشه وتمنى الموت ليتخلص من آلامه

وحينما سمع بمرضه صلاح الدين وكان يحبه حباً جماً أسرع لعيادته وتوسل إليه أن يخبره عن سبب مرضه، فاعترف له بالحقيقة، فلامه لتأخره في الاعتراف وطمأنه قائلاً : « تأكد أنك ستكون في باريس في الميعاد المحدد ، فرجا من الأمير أن يعجل التنفيذ . فدعا صلاح الدين ساحراً بارعاً جرب من قبل مهارته وكلفه بنقل توريل وهو نائم على سريره في سواد ليلة واحدة إلى باريس . فأجابه الساحر بأنه يلزم أن يعطيه أولاً شيئاً منوماً ثم يباشر عمله . وفي الغد أراد السلطان أن يسفر ضيفه فوضع في إحدى الغرف سريراً فخماً مزدانا بالحمل المزركش بأسلاك الذهب واللآلئ الكبيرة واللماس الثمين ، وكان هذا السرير آية في جمال الصنع والفخامة ، وأمر بإلباس توريل حلة فخمة وعمامة من أفخر الملابس . ثم ذهب صلاح الدين مع كثير من الأمراء إلى الجناح الذي أقام فيه ضيفه وقال له والدمع يترقرق من عينيه : « أيها الصديق العزيز ، قد اقتربت ساعة فراقنا ولا أستطيع أن أصحبك أو أرسل في صحبتك أحداً لطول السفر . ورجائي ألا تنساني وأن تزورني مرة ثانية حينما تنتظم أمورك ؛ وأملي أن تستمر المكاتبة بيننا » فخنقت توريل العبرات وقال بعض كلمات متقطعة من تأثره : « إنني لا أنسى معروفك وفضلك وشمائلك النادرة . ثم عانقه صلاح الدين مرات ثم ودعه باقي الأمراء وصحبوه إلى الغرفة المعدة له

ثم استعد الساحر لعمله وأقبل طبيب وبيده شراب فأتاه توريل : حينما لو شربه ليقويه. ثم شربه فنام بعد قليل. ثم حمل إلى السرير المعد له وأنجموه ووضع صلاح الدين بجانبه تاجاً فخماً لزوجه ووضع بيده خاتماً ثميناً بفص نادر، وقلد سيفاً مرصعاً بأجمل الأحجار الكريمة وصندوقين صغيرين من الذهب مملوءين بأندر الحلى التي لا يسع المقام وصفها ؛ ثم عانقه مرة ثانية وقال للساحر : هيا إلى العمل. فغاب السرير في الحال عن عيون الحاضرين ، وبعد لحظة كان توريل في كنيسة سان بيير في باريس

دقت النواقيس مؤذنة بطلوع النهار وكان توريل مافتئ نائماً . ولما دخل الكاهن وبيده مصباحه لمح فجأة هذا السرير الفخم الذي يأخذ الأبصار، فارتعدت فرائصه وأسرع يعدو هارباً وذهب إلى القس والرهبان وقص عليهم الخبر فقالوا له : إنها أوهام استحوذت عليك ، ثم ذهبوا جميعاً وأوقدوا كثيراً من الشموع فرأوا السرير وعليه رجل نائم وطفقوا يختبرون هذه الجواهر من بعيد دون الاقتراب منها

2017-11-15 Bibliotheca Alexandrina

ولسانها . ثم استيقظ توريل وتنهد تنهداً طويلاً فذعر القسس والرهبان وركضوا إلى الفرار . ثم فتح توريل عينيه فوجد نفسه في المكان الذي رجا صلاح الدين أن يرسله إليه ، ولمح بجانبه من صنوف الجواهر والحلى والتحف ما أكد له سمو أخلاق صلاح الدين وكرمه الحاتمي . وقد لمح القسس ومن يولون الأدبار ذعراً منه فنادى رئيسهم باسمه قائلاً : أنا توريل ابن أخيك ، فزاد ارتعاد الرئيس لأنه كان يظنه ميتاً ، ثم رسم علامة الصليب واقترب من السرير . فقال له توريل : « لم تخاف يا أبتاه ؟ إنني حي وأتيت من وراء البحار » فاطمأن عمه ورآه لابساً حلة عربية فخمة وعرفه جيداً وغماً من لحيته التي أرسلها ثم قال له : « أهلاً وسهلاً يا بني ومرحباً ، لقد ذعرنا في بادئ الأمر لأنه لا يوجد أحد في جميع المدينة لا يعرف خبر موتك . وقد هدد زوجك أقاربها فاضطرت للاذعان بالزواج وستكمل اليوم وقد تم الاستعداد للحفلة والعرس »

فأسر توريل للرئيس وجميع الكهنة ألا يخبروا أحداً بعودته ، ثم وضع جواهره وتحفه في مكان أمين وأخبر عمه بقصته من أولها إلى آخرها ، ثم قال له : إنني أحب أن أذهب إلى العرس لأختبر حالة زوجي وهيأتها . فأرسل إلى الخطيب يستأذنه في الحضور مع أحد أصدقائه فقبل بكل ارتياح . فذهب مع عمه بحلته العربية فاتجهت إليه الأنظار ولكن لم يعرفه أحد . ولما سئل رئيس الكنيسة من هذا ؟ قال : سفير صلاح الدين الذي ملك فرنسا ، ثم أجلسوه أمام زوجه بالمصادفة فتفرس فيها فوجدها عابسة مهمومة ، وكانت تطيل فيه النظر دون أن تهتدي إلى شيء بسبب حلته العربية وذبوع وفائه التي كان لا يشك فيها أحد

ثم فكر توريل أنه قد حان الوقت لاختبار زوجه إن كانت محافظة على ذكراه ، فوضع في أصبعه الخاتم الذي قدمته له عند سفره كتذكار منها ، ثم دعا الخادم الذي خدمه وقال له : « إذهب وقل للعروس عن لساني بأنه قد جرت العادة في بلادنا أن الأجنبي إن حضر عرساً فإن العروس تبرهن له على إكرام وفادته وحسن رعايته تقدم إليه كأساً مترعة من النبيذ فيشرب منه ما يشتهي ثم يعطيه ويرده إلى العروس فتشرب السؤر . ولتبرهن له على عطفها عليه أمرت أن تقدم إليه كأس كبيرة من النبيذ وكان توريل قد وضع الخاتم في فمه ثم شرب الكأس كلها وألقى من فمه الخاتم في الكأس دون أن يشعر به أحد وغطاها وردها إليها ، فكشفت الكأس ولمحت فيه الخاتم فعرفته ثم حدقت النظر في هذا الغريب وصرخت صرخة دوى لها المكان وقلبت المائدة التي كانت أمامها وانطلقت كالسهم وارتمت في أحضان النبيل قائلة : « هذا هو في الحقيقة سيدي وزوجي وعزيزي توريل » ثم عانقته عناقاً عنيفاً ولم تحسب حساباً للحاضرين . ثم قص كل منهما حديثه وأخباره من يوم سفره للآن وذهب الزوجان إلى منزلهما وتركا العروس وشواره وهو يقلب كفيه من الحسرة ، وهرع جميع من في العرس إلى بيت توريل بمظاهر الفرح والبشر ، وأقبل الأصدقاء والخلان يهنئونه بالعودة وسط احتفال عظيم وموائد نصبت عليها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ العيون ؛ ثم أعطى توريل جانباً من التحف لزاحمه عوضاً عن نفقات العرس وجانباً آخر لعمه رئيس الكنيسة وعاش مع زوجه في هناءة وسعادة أعواماً طوالا

محمد كامل مجاج

2017-11-15 09:09:09

من القصص العربي

المرأة المدبرة

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

كانوا جماعة من أصحاب الجلم والمنع ، ينتحلون الاقتصاد في النفقة ، والتنمية المال ، والتدبير اللازمين. وقد صار هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب ، وكالحلف الذي يدعو إلى التناصر . وكان من شأنهم أن يجتمعوا أصيل كل يوم في مسجد البصرة فهو مجمعهم وناديهم ، ينتحون منه ناحية ناثية ، ثم يجرون في شعاب الحديث ، ولا حديث لهم إلا ما يتصل بمذهبهم ، ويلائم مخايلهم من أخبار أهل التدبير والاقتصاد ، ونوادر أهل التنمية والإمساك للمال ، وهم في ذلك كله إنما يلتمسون الفائدة لشأنهم ، والصلاح لحالهم . فمما دار في ذلك قول الأول : « مذاكرة الرجال تلقح الألباب !! »

قال الراوي : ولقد رأيتهم في يوم وقد جلسوا مجلسهم ، والتفوا حلقة كما دتهم ، فما كاد يقر قرارهم ويطمئن بهم المكان حتى اندفع شيخ منهم يقول بصوت منهوك ونبرة مستلينة ولهجة آسفة : ما شأنكم اليوم يا قوم ؟ كأنكم ما شعرتم بموت «مريم الصناع» ، وقد كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، وهلم في التدبير شأن أي شأن

قال القوم : وما عندك من حديث هذه المرأة عليها رحمة الله ؟!

قال: حديثها طويل ، ونوادرها كثيرة ، ولكن أخبركم واحدة وأحسب فيها الكفاية ، فقد زوجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروي والوشي ، والقز والخز وعلقت المسفر ودقت الطيب ، وغطمت أمرها في عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها : أنى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله . قال : دعي عنك الجلة وهاتي التفسير . والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة في نفسك ، ولا في مال بعلك ، إلا أن تكوني قد وقعت على كنز . وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤونة ، وكفيتني هذه النائبة . قالت : إعلم أني منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ؛ وكنا كما قد علمت نعجن في كل يوم مرة ، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته !! قال زوجها : ثبت الله رأيك وأرشدك . ولقد أسعد الله من كنت له سكناً ، وبارك لمن جعلت له إلفاً ، ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من السؤدد إلى السؤدد إبل » وأني على عرفك الصالح وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبت الله في عقبي من هذه الطريقة الرضية !!

قال شيخ آخر يقرون له بالرياسة ، ويقدرون فيه الكياسة : حقاً يا إخوان ، إن موت هذه المرأة لمدبرة النافسة فاجعة فاقرة ، وخسارة لا تعوض ، وما أحسب زوجها إلا باخعاً نفسه على أثرها حزناً وحسرة . ومن فيكم ينكر أن « المرأة المدبرة » هي زوجها كل ما يطلب في هذه الحياة من صلاح الحال ، واستقامة الدنيا ؟ وإن لي شأناً مع زوجتي في ذلك أحب أن أفضكم به ؛ فقد اشتكيت أياماً صدري من سعال كان أصابني ، فأشار علي قوم بالحرية تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز

وأشباه ذلك ، فاستقلت المؤونة ، وكرهت الكلفة ، ورجوت العافية . فبينا أنا أضاحع الأيام إذ قال لى بعض الموقفين : عليك بماء النخالة فاحسه حاراً . فسوته ، فاذا هو طيب جداً ، وإذا هو يعصم ، فما جعت ، ولا اشتهيت الطعام فى ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر ؛ فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طويت العشاء . وعرفت بأبى من أبواب القصد ، فقلت للعجوز لم لا تطحنين لنا فى كل غداة نخالة ، فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ، ثم تجففين النخالة بعد ، فتعود كما كانت ، فتبيعين الجميع إذن بمثل الثمن الأول ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لنا بهذا السؤال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك؛ ومالأشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق!

قال القوم : صدقت ! فإن مثل هذا لا يكتسب بالرأى ولا يكون إلا سماوياً !

فأقبل شيخ من نهاية الحلقة يقول: حسبكم يا قوم حسبكم، فلم أر فى وضع الأمور مواضعها، وفى توفيتها غاية حقوقها « كسائة العنبرية »، فانها المرأة المدبرة بحق

قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟

قال : أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لى قيم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر إلى تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالمطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك ! وأما المصران فانه لأوتار المندفة وبنا إلى ذلك أعظم حاجة ! وأما الجف الرأس والقحبان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يسرف ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فور الناس وقوداً قط أسفى ولا أحسن لهباً منه ، وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة ما يخالطها من الدخان ! ! وأما الأهاب والجلد نفسه فجراب ، وللصوف وجوه لا تدفع ! وأما القرث والبعر فخطب إذا جف عجيب ! ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاع باللحم ، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وإن له مواضع يجوز ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كبّة فى قلبى ، وقذىً فى عينى ، وهمًّا لا يزال يعاودنى!

فانطلق بى الفكر فى ارتياد الحيلة ، ولكنى لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت ، فقلت : ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم ؟ !

قالت : أجل ! ذكرت أن عندى قدوراً شامية جدداً ، وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها ولا أصلح لحالها من التطليخ بالدم الحار الدسم. وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ! ثم لقيتها بعد ستة أشهر كاملة فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت : بأبى أنت ! لم يجىء وقت التقديد بعد ! لنا فى الشحم والألية والجنوب والعظم وغير ذلك معاش ، ولكل شىء يا صاحبى إبان

قال رئيس القوم : حقاً حقاً ! لا يعلم الواحد منا أنه من المسرفين ، حتى يسمع أخبار الصالحين !

محمد فهمى عبد اللطيف

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع عشر

وزير انكليزي يزور السفير

قضينا معظم الليلة في لندن بنير نوم لأنا كنا ننظر إلى كل شيء حولنا ونحاول أن نفهمه

وكان في غرفة نومي ستائر من قماش مماثل للأحزمة ولكنه أرق منها . وكانت أغطيتنا ثقيلة جداً لم نعتد مثلها في بلادنا ، وقد تعبنا في معرفة مواعيد الصلاة لأن الساعات عندهم لا تدار على الحساب العربي إذ الشمس لا تؤثر في جوهم مثل تأثيرها في جونا ، فقد تكون الشمس مشرقة منذ ساعة ولكن لون الليل لم يتغير . وقد يكون باقياً ساعة على الغروب ولكن الأصيل في لون الليل . وليس هناك مؤذنون ولا مساجد . ولاشك أن تقسيم النهار والليل عندهم ليس كما هو عندنا فان ليلهم طويل جداً ولا تهدأ الأصوات في أية ساعة من ساعات الليل . وكانت الأجراس تدق بين حين وآخر . وكنا نحسبها أناناً أفرنكياً فقط ، ولكننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك لأنه يستحيل أن تكون الساعات في بيوتهم بهذه الكثرة

ولما استيقظنا في الصباح قال لنا السفير إنه رأى مناماً وقصه علينا فسره محمد بك تفسيراً أرضاه . وأزال الهم عن نفسه . وذلك المنام هو أنه رأى ميرزا شافي رئيس الوزارة الفارسية مطروحاً على الأرض والجلادون يضربونه على قدميه . وقد فسر محمد بك هذا المنام بأنه دلالة على هلاك عدوه

وأرسل إلينا وزير الخارجية الإنكليزية مترجماً آخر غير الذي بعث به معنا السفير الانكليزي في فارس . على أن معرفة المترجم الثاني بلغتنا كانت معرفة صحيحة ، فهو فيها كأحسن المنشئين ؛ وقد قرأ كل كتبنا الشهيرة ، ويجري على لسانه أبيات حافظ والسعدي كما تجري آيات القرآن على لسان المسلمين

وكاد السفير يكون سعيداً برؤية مترجمه الجديد لولا أن محادثتهما دلت على جهل سفيرنا بشئوننا الخاصة وبلغتنا نحن وبتاريخنا بالقياس إلى معرفة المترجم ...

وأخبرنا ذلك المترجم بأن وزير الخارجية الإنكليزية ورئيس الوزارة سيزوراننا ، فقلنا في أنفسنا كيف يأتيان لزيارتنا دون اشتراط شروط فيما يتعلق باستقبالنا لهما وموعد هذه الزيارة ؟ إن هؤلاء الانكليز بلا ريب لا يحفظون كرامتهم ، فإن أحدنا لا يزور — وهو في مثل هذا المركز — إنساناً دون أن تسبق الزيارة مفاوضات طويلة . فعند ما وصل السفير الانكليزي إلى طهران أبى رئيس الوزارة أن يزوره إلا بشروط خاصة . وانتهى الأمر بينهما بعد المفاوضة على أن تكون الزيارة في منزل رجل ثالث محايد . أما الوزراء هنا فإنهم يلقون بأنفسهم في أفواهنا دون أن تتكلف فتح هذه الأفواه

لكننا قبل كل شيء فارسيون ومن الذي يتكر على الفارسي تفوقه !

وجاء الوزير الانكليزي وليس معه غير تابعين اثنين، وقد جلسا أمامه قبل أن يستأذناه، فقلنا ما أعظم الفرق بين وزرائنا وهؤلاء الوزراء ! إن الوزير عندنا رجل عظيم له روعة وصولة فهو لا يخرج من القصر إلا محاطاً بمئات من الخدم ولا يجرؤ موظف تابع له على الجلوس أمامه بغير إذنه ، ولا يحييه إلا بأن يقبل طرف ثوبه وهو جاث على ركبتيه ، وإذا جرؤ أناس على المشي أمامه ضربهم الفراشون حتى يتشقق لحمهم وسودت أملاكهم وتخربت منازلهم . إن الوزير عندنا يقول للشمس اشرق فتشرق، ويقول لها غيبي فتغيب

أما هذا الوزير الذي زارنا فإنه مسكين لا عظمة في نفسه ولا شم . وقد جاء فجلس في أقرب مكان . ولكن نظرات عينيه كانت شديدة التأثير ، فلو أنه في بلادنا لسميناه عين الدولة . وهو فصيح تتدفق الكلمات من فمه تدفق السيل ، فلو كان في بلادنا لسميناه لسان الدولة . ولكنه مع فصاحته وتأثير عينيه لا يصلح مطلقاً للحكم لفقدان هيبته . وقد أكد لنا أنه لا يفرق في المعاملة بين أحد الانكليز وبين أحد المنبوذين الهندوكيين ، ففهمنا من هذا التعبير أنه لا يفرق أيضاً بين الخطأ والصواب ولا بين الحق والباطل

طلب سفيرنا إلى وزير الخارجية الانكليزية أن يقدمه للشاه الانكليزي في أقرب الأوقات لكي يقدم إليه خطاب الشاه الفارسي والهدايا المرسلة إليه وقال إنه ما كان يظن أن يتأخر كل هذه المدة دون أن يقدم للشاه مع أنه مندوب ملك الملوك شاه إيران

فأكد الوزير الانكليزي للسفير أن كل شيء سيكون وفق رغباته مع رعاية التقاليد الانكليزية . ولكن بما أن مقابلات ملك الانكليز لا تكون إلا في أوقات محدودة فيحسن الصبر قليلاً حتى تمكن هذه المقابلة

دهش ميرزا فيروز من ذلك وقال : إن الشاه الفارسي مستعد للمقابلة كل يوم ، فهو يجلس كل صباح على عرشه فيقبل عليه العلماء والوزراء ورجال الدولة والأعيان وكبار الأجانب وكل من يشير عليهم المنجمون بأن الساعة ملائمة لمقابلة الشاه

قال الوزير الانكليزي : إنه يأسف لأن النجوم في سماء انكلترا لا تستطيع تحديد الساعات لمقابلة الملك ، فإن هذا ليس من شأن النجوم بل من شأن كبير الأمناء

وأدهشنا الوزير أكثر من ذلك بقوله : إن مقابلة الملك لا تطول ، وقد لا يستغرق استقباله دقيقتين أو ثلاثاً ، وإنه لا تلقى أمامه خطب ولا يقال شيء إلا بعد عرضه على كبير الأمناء ووزير الخارجية بالنسبة للسفراء ، فامتعض السفير من ذلك ولكنه كتم امتعاضه

وبعد أن خرج من عندنا الوزير قال : « ماهذه المصائب التي وقعت على رأسي ؟ إنني افتضحت مابين الرجال ، وسيبيع الشاه أبنائي إلى التركمان لو علم أنني سودت وجهه إلى هذا الحد ، وسيحرق قبر أبي وأمي » . ثم التفت إلينا وقال : « أشيروا علي ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لقد اسود وجهي . وشاهنا مستبد وهو لا يبالي برؤوس الرجال إلا كما يبالي الجزار برؤوس الغنم »

فقلت : « الحق في جانبك يا جناب السفير ،

ولكننا فارسيون مسلمون، فاذا حلت بنا نقمة فانما نفعل ؟ لا شيء ! ويجب ألاَّ نلوم أحداً فهذا هو القضاء والقدر . وإن شاهنا مستبد بغير جدال ، ولكن هل هو مع استبداده يستطيع أن يُنزل بنا ما لم يكتبه الله علينا في اللوح المحفوظ ؟»

قال محمد بك : « لقد أساب حاجي بابا يا جناب السفير فان القدر لا مناص منه . إننا نأكل ونشرب ونحيا ونموت بقَدَر سابق لا شأن لاختيارنا وأعمالنا فيه . وإذا كان مقدراً علينا ألاَّ نرى الشاه الانكليزي إلا بعد بضعة أيام فاذا في استطاعتنا غير الصبر ؟ »

فقال السفير : « وإذا كان في هذا التقدير أن تقطع رأسي فاذا إذن ؟ »

فقال محمد بك بهدوء : « لا يكون شيء ! لتقطع رأسك إذن »

قال السفير : « ما شاء الله ! ألا أحاول حفظ رأسي على الأقل ! قل كلاماً آخر وإلا فاني أقسم بذقن الشاه أن أجعل رأسك في مكان رجليك »

ولما رأينا حالته وصلت إلى هذا الحد تركناه لأننا نعلم ماذا يصدر عنه إذا انفجرت في صدره مراجل الغضب

الفصل العشرون

رئيس الوزارة الانكليزية

كانت زيارة وزير الخارجية قصيرة جداً ولم تكن منتظرة ، ولذلك لم نستطع القيام بواجب ضيافته . ولو أنهم أهملوا هذا الواجب فلم تقدم له غير القهوة الحلوة علامة على حسن الشعور والمودة بين البلدين ، ثم القهوة المرة علامة على انتهاء الجفوة التي قد تقع أحياناً بين الملوك . ونحن لا نعرف هل فهم الوزير ذلك أم لم يفهمه . ولكنه على كل حال لم يراع اللياقة، فانه لم يشرب إلا قطرة من الفنجان الحلو ثم رده ، فلما تقدم إليه الفنجان المر عافه وصار شكل وجهه مضحكا

لكننا علمنا بمجيء رئيس الوزارة قبل الزيارة بوقت كاف ، ولذلك استعددنا استعداداً كافياً، فصنع لنا حسن الطباخ أصنافاً متعددة من البقلاوة وأصنافاً أخرى من الحلوى فيها اللحم والخضار مصنوعين بالعسل والدقيق إشارة لامتزاج جميع المصالح بين فارس وبين بريطانيا، وأعدَّ كذلك عدة أنواع من الشراب الذي امتازت به فارس

وكانت بعض زجاجات الشراب قد كسرت في طريق السفر فأفرغ الطباخ ما بها في أوان من الساج بعضها أبيض اللون والبعض ذو ألوان أخرى . وقد وجدنا هذه الأواني بأما كن متعددة من المنازل الانكليزية التي نزلنا فيها . فلما رأى المترجم هذه الأواني وفيها الشراب أغرق في الضحك . ولما أخبرنا عن نوعها وما تستعمل له سترنا وجه الخجل بنقاب الجهل وحمدنا الله على أننا لم نشرب منها ولم نعرضها أمام رئيس الوزارة

أخيراً جاء رئيس الوزارة وهو في ثوب أسود كالذي يرتديه وزير الخارجية، وليس هناك أي فارق بين المرؤوس وبين رئيسه . وقد أخبرنا المترجم أن هذا الثوب هو الذي يرتدونه أمام شاههم . وإنهم يرتدونه الآن إجلالاً لسفيرنا

وكان شكل رئيس الوزارة كشكل الدراويش فهو متواضع رقيق . وانه ليدهشنا أن تدار شئون دولة كبيرة بيد درويش مثل هذا . ففي بلادنا يكون

2017-11-14 09:09:48

الشاه (كما يقول المترجم) رئيس وزارة نفسه وهو يضطر لتأييد نفوذه إلى سفك كثير من الدم فى أول عهده بالحكم لكى يُهاب . وفى تركيا عند ما يعين الصدر الأعظم وهو رئيس الوزارة عندهم ؛ فانه يبدأ عهده بإقامة المشانق وإعدام بعض أغنياء المسيحيين أو اليهود . ولكن رئيس وزارة الانكليز كما قال لنا بلسانه لم يقطع ولايد لص ، ولم يدق أذن بائع على باب حانوت

قدمنا إليه طعام الافطار وهو شهى كما وصفته ولكن العجيب المدهش أنه لم يواظبه فامتنع عن الأكل . وصار السفير يقدم له أحسن الأجزاء بأصابعه فيعتذر ؛ وقد ساءنا ذلك كل الاستياء لأنه من يصدق أن الذى يأكل لحم الخنزير لا تعجبه البقلاوة ؟

لكن هؤلاء الانكليز قوم مدهشون حقاً

زارنا بعد ذلك عدد من وزراء الانكليز على التتابع ؛ وقد ظهر لنا أنهم لا يعرفون مهمة الوزير ولا يعرفون أى شىء عن نظم الحكم ؛ فمن أمثلة ذلك أن لسيهم وزيراً للنبات !

وقد ضحكنا عند ما سمعنا ذلك ضحكا شديداً لأن النبات عندنا فى فارس لا تساوى أجر حفير يحرسها فضلا عن أن يخصصوا لحراستها وزيراً ! ولكنهم فقراء ، والوقود عندهم عزيز جداً لشدة البرد فى بلادهم فى الشتاء . وهم مع فقرهم مسرفون ، فلو أراد الشاه أن يجعل حكومته وفق نظام الحكومة الانكليزية لعين وزيراً للصحارى ليحصى ما فيها من النخيل والهضاب والذئاب

ولما قلنا ذلك للمترجم قال إن النبات فى انكلترا ضرورية لوجودها كضرورة الخيول والسيوف فى إيران : وقد صدقناه لما تذكرنا صناعة السفن فى انكلترا وما تستلزمه من الأخشاب ، مادامت سفنهم على الشكل الذى رأيناه

وفى جملة من زارنا من وزرائهم وزير البحرية ووزارته من أكبر الوزارات . وبالرغم من أن كثيراً من المدن الفارسية مثل بوشير وهرمز واستراباد ورشت وغيرها واقعة على البحر فاننا فى بلادنا لا نكاد نعرف ما هى السفن . وسيعتقد الفارسيون عند ما نعود إليهم ونحدثهم بما رأيناه أننا نتلو عليهم قصة من ألف ليلة وليلة

وزارنا موظفون آخرون لم نستطع فهم أعمال كل واحد منهم ، فقد قيل عن بعضهم إنه فى قصر الشاه ، وعن البعض أنه موظف بنير وظيفة ، وهو فضلا عن ذلك غير خاضع للحكومة بل رقيب عليها ، واسم هذا الصنف من الناس نواب البرلمان . ونحن نأمل فى المستقبل أن نعرف الفروق بين بعضهم والبعض الآخر فانهم فى نظرنا رجل مكرر ، فتحياتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وثيابهم كذلك

ومن بين الذين زارونا رجل اهتممنا به اهتماماً كبيراً بالقياس لمكانته بمكانة نظيره فى فارس وهذا هو رئيس التشريفات

لكنه تبين لنا أن الفارق عظيم بين الرجلين ؛ فرئيس التشريفات فى فارس يجب أن يكون من أسرة القاجار وهى الأسرة المالكة المشهورة بجسامة لحاها . وقد أنعم الله على رئيس التشريفات الموجود الآن فى فارس بلحية تكاد تكون أكبر من لحية الشاه نفسه . وهو يرتدى لباساً خاصاً ويتكلم بلهجة خاصة . ومعرفته بأنواع التحيات وضروب التملق لا تعدلها معرفة . ولكن التشريفاتى الانكليزى

2017-11-15 Egyptian Knowledge Bank

رجل لا مظهر له ولا وجاهة ، بل هو نحيف قصير

وقد كان السفير مدة زيارته ينتظر أن يقول شيئاً عن مقابلة ملك الانكليز ولكنه لم يقل شيئاً

وبعد ثلاثة أيام أخرى سمح لنا بتلك الزيارة فحمدنا الله على ذلك

الفصل الحادى والعشرون

ملك اونكليز

لما تحدد موعد الزيارة هيأنا الهدايا وحررنا قائمة بأنواعها وحمل السفير في جيبه خطاب الشاه وأمر بتهيئة الخيول فصبغنا بالحناء بطونها وذيولها ، ولكن محمد بك أجرى حساباً لتحويل التاريخ الافرنكي إلى تاريخ عربي فتبين أن اليوم المحدد لهذه الزيارة « يوم أربعاء سفر » وهو يوم مشئوم عندنا نحن الفارسيين

ولما طلبنا إلى المترجم تغييره قال إن ذلك ليس في الامكان ، فسأله السفير عن كيفية الاستقبال فقال إنه سيكون كاستقبال أى سفير آخر

قال السفير : « كيف ؟ » فقال المترجم : « ستذهب في عربتك إلى القصر الملكي فيقابلك رئيس التشريفات ووزير الخارجية فتقدم أوراق اعتمادك إلى الأخير أمام الملك

قال السفير : « وهل تظنني أكتفي بهذه المقابلة ؟ »

فقال المترجم : « لماذا لا تكتفي بها وهي التي يقابل بها جميع السفراء ؟ ثم ماذا تريد أن يكون غير ذلك ؟

قال السفير : «وماذا يهمني من سائر السفراء ؟ إن في العالم ملوكا كثيرين يمثلهم السفراء ويرضى هؤلاء بما يرضى به ملوكهم ، ولكنني أعرف الشاه الذى أمثله . إن شاهي يتربع على أقدم عروش العالم . وإذا كنت تريد أن تعرف من هم جدوده فإني أعدهم لك من عهد نوح . وكيف تقرن أسماء ملوكهم باسم ملك فارس ؟ إننا إلى الآن لم نسمع بأسمائهم فعليكم أن تعرفوا فضلنا عليكم وتكفوا عن حماقتكم

قال المترجم : « ما هذه الكلمات ؟ هل تريد أن تغير عوائد البلاد ؟ وإذا اختار شاهكم أن يرسل لحيته فهل هذا يلزم ملكنا أن يفعل مثله ؟ أليس لكل أمة عوائدها ؟ »

فقال السفير : « لما جاء سفيركم إلى طهران قابلناه مقابلة لا أتنازل عن مثلها . لقد ذهب إليه عم الملك لاستقباله . وكانت الجنود على الصفين تؤدى له التحية ما بين مسكنه وبين القصر ، وألقيت قطع السكر تحت حوافر جواده ، وصدحت الموسيقى ورفعت الأعلام في السوق وأمر الناس بأن يؤدوا له واجب الاحترام وسمح له بالوقوف أمام الشاه . وأنى لأقسم بذقن النبي عليه الصلاة والسلام لا أذهب إلى القصر الملكي إن لم أقابل هذه المقابلة . وكيف أذهب كما يذهب أى فرد من الأفراد مع أنى ممثل ملك الملوك . لا بل إنى سأعود هذا اليوم وأسأل الله أن يحفظني من الاهانة التي أردتم إزالها بي »

قال المترجم : « هذا مطلبك وقد يوافق عليه الملك . وسأبلغ أقوالك هذه لوزير الخارجية . ولكن الملك قد يرفض مقابلتك بتاتاً بسبب هذه الشروط»

هاج السفير ووقف وكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال :

« أجبني في الحال هل أنا سفير أم لا ؟ »

قال المترجم بهدوء وإن كان الغضب بادياً عليه : « وهل ملكي ملك أم لا ؟ »

ثم سمعناه يقول بصوت خافت كلمة باللغة الانكليزية هي (دمن) وهذه كلمة كنت سمعتها في السفينة بين بعض البحارة والبعض كما سمعها السفير

قال السفير : « هل تقول أني دم ؟ أأنا دم ؟ أنت دم وأبوك دم ! لماذا أبقى عنا ليقال عني دم ؟ إنني رجل كبير الأهمية في بلادي ، وسأحرق قبر والديك لتعلم أنني لست دمن . إنني لم أقطع كل هذه الأرجاء لأسمع منك هذه الكلمة »

ففتح المترجم عينيه وفه كالأبله ثم نظر إلى ساعته ، ووضع قبعته على رأسه ، وأدخل كفيه في قفازيه ، وأخذ عصاه وقال لنا : « أرجو ألا يقصر الله ظلكم » ثم ترك المنزل

ولما كنا معتادين رؤية السفير في أوقات غضبه فإننا لم نر فيما حدث شيئاً يخالف المعتاد لأنه كان يمثل دور المفاوض الماهر ، وهو يعلم أنه كلما زاد في التظاهر بالغضب كان أقرب إلى النجاح في المفاوضة حتى لا يشمت فيه خصمه ميرزا شافعي

وبعد خروج المترجم أطرينا السفير وقلنا : إن الانكليز في حاجة إلى من يفهمهم درساً في حقوق السفراء . وقلت له : « هم يظنون أنه ما دام فيهم عربات وليس لدينا شيء منها ، وما دام ملكهم ملكاً على الهند وليس لبلادنا بلاد أخرى تتبعها ، فهم أفضل منا . ويظنون أنهم بذلك قادرون على إكراهنا على مالا نريد . ولكنهم واهمون وسنعلمهم إن شاء الله بهمة سفيرنا كيف تكون النهاية بنا

وقال محمد بك : « نعم . نعم ! الله أكبر إن سفيرنا سيعلم الدين يا كاون لحم الخنزير أن أكلهم حرام ! »

ثم صار كل واحد منا يقول ما يلهمه الله إياه من مدح السفير وذم الفرنجستان لتؤيد عظمة شاهنشاهنا في هذه البلاد

ولكن النهار انقضى ولم يعد المترجم ، وظننا الانكليز لم يقبلوا المفاوضة . وخشي فيروز خان أن يبلغوا الشاه بواسطة سفيرهم أنهم لا يقبلون زيارتنا للملكهم ، فيشمت ميرزا شافعي ويفهم الشاه أننا أخفقنا لأننا أجهل من أبي جهل ، والتفت إلينا وقال : « ألم يكن ما قلته صواباً ؟ »

فأكدنا له أن ليس في الإمكان أحسن مما قال ، ولكنه صار يكرر هذا السؤال بين لحظة ، ولحظة ونحن نجيبه نفس الجواب

وأخيراً نفد صبره فأرسلني إلى منزل المترجم لأدعوه إلى تناول العشاء معه في هذه الليلة وكنت أعرف أن أحد هؤلاء الفرنجة إذا غضب فلا يزول غضبه إلا باتباع سياسة تدل على المهارة ... ولذلك كنت أمشي نحو داره مفكراً غير مقدر النجاح . ولكن العجيب أنني وجدته هادئاً كأي واحد بعد انتهاء المشاجرة أي كأنه لم يحدث شيء . وقد قبل الدعوة للعشاء مع السفير

وعند ما وصل كنت مع ميرزا فيروز وكانت مقابلتهما ودية كالعادة ، فوضع السفير يده على ظهر المترجم وقال : « ما شاء الله ! لقد برهنت على أنك رجل يا ميرزا . وهذا بلا ريب بعض ما استفدته من فارس . أما الذين لم يسافروا إليها من الفرنجستان فإنهم يغضبون غضباً حقيقياً . إنك رجل يا ميرزا وقد عرفت كيف تبدأ بالغضب وكيف تنتهي منه .

2017-11-15 Page 206

ولقد قال حافظ : « إن الحب الصادق كغضب الأحمق يستمر فى الغليان بعد أن تزول أسبابه »

فأجاب الترجمان : « أتمنى ألا ينتهى عهد صداقتنا، وقد أبلغت رغباتك إلى وزير الخارجية »

ظهر الاهتمام الفجائى على وجه السفير وقال : « ما ذا ؟ وما الذى قال ؟ » فقال الترجمان : « إن الوزير قال إنه لا يرى سموية فى استقبالك كما تريد، فعندنا جنود كثيرة لا بأس من اصطفاف بعضها على جانبى طريقك إلى القصر وعندنا عربات كثيرة وأعلام أكثر »

قال السفير : « إن هذا عجيب جداً ! إن هذا مدهش ! إننى لا أفهم عقولكم يا معشر الانجليز فأنتم لا تبرون المصاعب ولا تتركون مجالا للمفاوضات » فقال الترجمان : « ذلك فى الأمور الثانوية فقط »

قال السفير : « هل تعدون مقابلة السفراء أمراً ثانوياً ؟ إنكم لم تفعلوا عشر ما تفعله فارس . فهل كرامة الملوك عندكم لا تعد شيئاً ؟ »

قال الترجمان : « لقد كانت دول أوربا فى العصور الماضية تعنى بمثل هذه الأمور الثانوية . وكان المظهر عندهم أجل من معناه

ولكنهم بعد ذلك رأوا أن مخامة الاستقبال ليست هى الدليل على الود فتركنا كثيراً مما تمسكون به اليوم ، وقد كان أجدادنا أكثر تمسكا به منكم »

عند ذلك مشط السفير لحيته بأصابعه وفتل شاربيه وظهرت عليه علائم التفكير وشعر بأن مكانته عند الفرنجستان قلت ، مع أنه لم يكن يرجو بالتشبث إلا زيادتها

وأخيراً صاح « وهل أنتم : تظنون الآن أننا لسنا بحاجتكم إلا ألواحاً من الخشب ؟ إننا أمة متمدنة من عصر أنو شروان ومنا جامشيد وجانكيز خان ونادر شاه ومحمد أغان خان وفتاح على خان

أجابه الترجمان على أقواله جواباً أرضاه ثم جيء بالعشاء

الفصل الثانى والعشرون

ملك انكلتر

جاء اليوم الذى كنا نتمناه من عهد طويل ولكن لسوء حظى كنت مصاباً بمغص فى القلب فى ذلك اليوم ، فكانت مرافقتى للسفير فى هذه الزيارة من المحال واستأذنته فى تركى بالمنزل . وأذن لى بغير سموية . وأدهشنى منه أنه سر بتخلفى عن الحضور ودلنى ذلك على أنه لم يزل يعتبرنى جاسوساً عليه لرئيس الوزارة الفارسية

وكانت رؤية السفير فى ذلك اليوم من المناظر السارة فقد أتقن لبس ثيابه . والحق أن الفرنجة لا يفهمون كيف يكون إتقان اللباس فنحن نعرف ضروباً من لف الحزام ووضع الخنجر فيه بأشكال لائقة جميلة ، ولنا أساليب فى إمالة القلبق وإخراج خصل من الشعر من تحته ، وغير ذلك من التفنن فى الزى

وكان خنجر السفير وسيفه مرصعين بالجواهر وعلى قلبقه الريشة ، فقلنا عند رؤيته ما شاء الله ! »

ومشى السائس بمصاه الطويلة أمام جواد السفير ووراءه رجالنا تحيط بهم كوكبة من عساكر الانكليز وعلى الصفين جنود انكليزية كان ضباطها يضحكون، وقد كان بعض المصورين فى الطريق مستعدين لالتقاط هذه الصورة البديعة

وكان فى انتظار الموكب على باب القصر خان

2017-11-15 Babelcube

انكليزى كبير يقال له سكرتير الملك

لم أستطع مراقبة الموكب كما تقدم فا كتفيت بأن ألقى عليه من النافذة وهو ذاهب وسمحت وسف المقابلة من محمد بك . وقد أيقنت أن مقابلة الملوك فى تركيا وفى فارس أروع من مثلها فى هذا البلد . وقد لاحظت أن شكل جيادنا أجمل وأنق من شكل الجياد الانكليزية فان جياد إيران من جنس الجياد الروسية

انتظرت فى صبر نافد حتى رجع الموكب لأعرف تفصيل ما حدث فى القصر . فقال لى السفير عند عودته : « لقد فاتك منظر رهيب يا حاجى بابا . لقد فاتك رؤية الشاه الانكليزى ! إنه أطيب الملوك كما يقولون . ولذلك يتفانى شعبه فى محبته ، وقد أظهر لى من العطف ما ليس يظهره إلا الآباء لأبنائهم

ولقد اتضح لى أن العادات فى القصر تخالف أمثالها فى بلادنا . ولكن الملوك ملوك أينما كانوا وعلى أية حالة كانوا ، فالهيبة تتجلى على هذا الشاه الفرنجستانى كما تتجلى على ملك الملوك فى طهران

وقال محمد بك : « ولكن الفرق الوحيد أنك تقف أمام ملك الانكليز مطمئناً . أما الواقف أمام الشاه فانه يخشى على رقبته من السيف ، وعلى رجليه وظهره من العصا ، وعلى يديه من السلاسل . وقد رأينا الواقفين أمام ملك الانكليز كأنهم يقفون أمام زميل لهم

نظر السفير إليه وإلى سائر الأتباع الذين رافقوه فى الزيارة وقال : « وهل تكلمت أمامه كلاماً حسناً ؟ »

فصاحوا : « ماشاء الله ! إن أفلاطون ما كان ليقول أجمل من هذا » وقال السفير : « لقد عرفت كيف أمثل الشاه وأحافظ على كرامته

وقال محمد بك : « نعم فانك لما دخلت غرفته لم تخلع نعليك ولم تركع ، فذلك مالا يجب علينا لغير الشاه الفارسى »

فقال السفير : « نعم ، ويظهر أن أتباعه أنفسهم لا يفعلون ذلك فليس فى غرفته عرش ولا مكان لخلع النعال ولا مكان للسجود . وأنا وقفت على نفس البساط الذى كان الملك واقفاً عليه . وسلمته خطاب الشاه يداً بيد ، وقد وقف الملك على قدميه عندما دخلنا وكنا كلنا فى مجلس واحد . والحق أقول أن هذا الملك ليعد طفلا بالقياس إلى ملكنا ؛ فليس فى غرفته فلقة ولا مقرعة ولا سيف ولا فى حاشيته جلاد . بل فى اعتقادى أننا إذا أهنا الملك لما حوكمنا فى حضرته ، بل كانوا يسلموننا إلى من يحاكمنا فيما بعد كما لو كنا نهين أى إنسان

قلت : « إن مكانة الملوك حقيرة فى هذه البلاد »

فقال تق الدين : « نعم ويظهر أن عقوبة الضرب على القدمين غير مسموح بها هنا »

قال محمد بك : « نعم وقد أخبرنى المترجم الانكليزى بأنه وإن كان الذى يمتدى على ملك الانكليز لا يحاكم فى حضرته ولكنه يعرض رقبته لحبل المشنقة »

فقال المرياخور : « إذن فالحال عندنا أحسن ألف مرة . إننى أفضل أن أضرب كل يوم لو شئت الشاه على أن أعلق على المشنقة من أجل كلمة أقولها »

صاح السفير : « اسكت يا وغد ! لو سمعك الشاه لقطع لسانك ! أخرج من هنا »

وكان المرياخور أغا بك قد سمع كما سمعنا عند قدومنا إلى هذه البلاد ، أن الحرية مكفولة لكل إنسان وأنه لا يجوز القصاص إلا بوساطة القاضى ،

2017-11-14 Page 108

ولما طرده السفير أيقن أن العقوبة حالة به لا محالة ، فخرج مهرولاً إلى باب الطريق وهو يصيح : « أنا فى عرض ملك الانكليز »

وما كادت هذه الكلمة تبلغ آذان السفير حتى كاد يجن من الغضب وأمرنا باعتقاله وصاح : « أقسم بذقن النبي أنى أكلزك فى الحال ! كلزوه ! هاتوا المقص واحلقوا لحيته وشاربيه »

فانطلقنا وراء أغا بك وجئنا به وطرحناه أرضاً ، وقام السفير وجلس على صـــدره وهو يقول : «ساكلزك فى الحال وحق ذقن النبي ورأس الشاه» ثم أخذ المقص وقص لحيته وشاربيه وأغا بك يصرخ ويستجير . وإذا كان أغا بك يستجير بملك الانكليز فانه فارسى قبل كل شيء ، وقص اللحية أكبر شتمة عندنا نحن الفارسيين ذوى الشوارب الطويلة واللحى العريضة المرسلة

ولما رأى أغا بك أن الانكليز ومليكهم لم ينقذوا لحيته وشاربيه أخذ يلعنهم هم واليوم الذى زار بلادهم فيه . وكان حزنه أبلغ حزن رأيته منذ رأيت حزيناً إلى اليوم

وفى صباح اليوم التالى ركب جواداً عدا به ولا نظنه يقف فى الطريق حتى يصل إلى طهران

الفصل الثالث والعشرون

ملوك الهند

فى اليوم الذي عاد فيه السفير من مقابلة الملك زارنا أناس مختلفو الدرجات . وكان غرضهم الأول من الزيارة ترك قطع صغيرة من الورق عليها أسماؤهم وعمل إقامتهم ، والانكليز يعتقدون أن ذلك تكريم لنا وقد عجبنا من ترك هذه الأوراق التى لا يرجى منها أي نفع

ولكن المترجم أكد لنا أن كل ورقة من هذه الأوراق تعد فى مقام زيارة . وقال : إنه إذا كانت الزيارات فى انكلترا مثلها فى فارس بمعنى أن الرجل يبعث برسول يعلن أنه قادم ثم يذهب بعد رجوع الرسول ويمكث عنـد المزور حتى يدخن ثلاثة غليونات ويشرب فنجانين من القهوة ، فان أعمار الانكليز ما كانت تتسع لزيارتهم وأعمالهم

ولما سأله السفير عن الطريقة التى يرد بها هذه الزيارات قال : إنه سيطبع له مثل هذه القصاصات ثم يذهب معه لتوزيعها على بيوت الناس

فضحك السفير ملء شدقيه . ولشد ما كان سروره عند ما رأى اسمه مطبوعاً باللغة الانكليزية وعلى الأوراق الصغيرة التى جاء بها المترجم

وزارنا أناس آخرون يحمل كل منهم دفتراً فيه توقيعات أناس مختلفين ، وطلب إلينا أن نوقع على دفتره وأن نعطيه (بقشيشاً) كالأتراك ، ونحن لا نعرف مهمة هذا الرجل ولا فائدة دفتره . وجاءنا رجل آخر يطلب البقشيش لأنه دقق أجراس الترحيب بنا يوم وصولنا . وما كنا نعرف أن الأجراس تدق للترحيب فهى فى بلادنا تدق لسير القوافل ، وهى فى بلاد النصارى تدق للعبادة . ولكننا أعطيناه على كل حال ما أراده

ثم جاء رجل آخر يقول إنه مندوب جريدة وأن مهمته أن يسجل أسماء الذين يزورون قصر الملك وينشر هذه الأسماء فى ورقة كبيرة يبيعهـا ، ولا أعرف لماذا يشترى الناس هذه الأوراق ! وقال إن مهمته اختيارية فلم يكلفه أحد بها ، وأن من يدفع له مالاً يكافأ بكتابة اسمه فى الجريدة . ومن لا يدفع يعاقب بإهمال اسمه ، فدفع له السفير ما أراد

وقد كانت كل لحظة تمر تزيدنا خبرة بأحوال الانكليز وعاداتهم ، وكلها عجيب غريب ، وكنا نتناقش كل يوم مع الترجمان فى كل ما نراه . وفى يوم من الأيام جاءنا الترجمان مهرولا وقال : إن اثنين من ملوك الهند سيزورانا اليوم فكدنا نذهل ، وقلنا فى أنفسنا كيف يمكن أن يأتى الملوك للزيارة بغير مقدمة ولا سابقة إنذار . وقنا إلى النوافذ مسرعين ونحن نتوقع أن نراهما فى مواكب تركب الأفيال . ولكننا دهشنا وأينا عربة قذرة فيها رجلان ليس معهما حاشية ولا جنود . وسألنا الترجمان كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان من الملوك ، فقال إنه من الصعب تفسير الأمور فى وقت قصير وأنه سيشرحها لنا بعد انقضاء الزيارة

وأدركتنا الحيرة فى الطريقة التى يجب أن نستقبلهما بها ؛ فلما جاءا اتضح لنا أنهما فى نهاية البساطة ، ولا فرق بينهما وبين أى سوق فى بلادنا ، وهما يحملقان ذقنيهما كالكفار ويلبسان ثيابا عادية وليس عليهما أى مظهر من مظاهر الوجاهة

ولما انقضت الزيارة نظرنا من النافذة فلم نجد العربة فى انتظارهما ونظهر أنها عربة كراء . وسار الملكان على قدميهما ، فقلنا سبحان الله ! أهكذا يكون ملوك الهند القديمة التى يرجع إليها عهد حضارتنا .. الهند ذات الجواهر والأفيال بحكمها أمثال هذين المتشردين !

ثم قال لنا الترجمان إن ملوك الهند ليسوا مثل سائر الملوك فان إيراد بلادهم يأخذه الانكليز ، وهم مرؤوسون فى الهند لرجل انكليزى ينوب عن ملك انكلترا وهو مرؤوس هنا لوزير انكليزى لقبه وزير الهند . ولهذا الوزير مجلس يحضره ملوك الهند وهذان الملكان من أعضاء هذا المجلس ، والحق أن هذا الكلام لم يعجبنا ولم نفهمه ، والذى استطعنا أن نقتنع به هو أن الشاه الحقيقى فى الهند هو الانكليزى الذى يقولون عنه نائب الملك وأن هؤلاء الملوك ليسوا إلا سفراء له لدى الحكومة الانكليزية مثل فيروز خان سواء بسواء . ولما سألنا عن دينهم فهمنا أنهم يعبدون الشمس والنيران ويأكلون لحم الخنزير

الفصل الرابع والعشرون

حفلة الانكليز

أصبحت الهدايا التى أرسلها السفير إلى ملك الانكليز موضوعاً لحديث أهل المدينة . وعلمنا أن نساء الأمراء والوردات ذهبن إلى الملكة ليرين الشيلان والجواهر والمصوغات التى أهديناها لها . وعلمنا أن فى القصر الملكى رجلاً برتبة تمادل وتبة خان يؤدى وظيفة التشريفاتى للملكة فلا يقابلها أحد إلا باذنه ، فهو ليس مثل الأغا فى القصر الفارسى وقد وصلتنا دعوة من هذا الخان لزيارة الملكة

وقد كان سفيرنا خائفاً من الذهاب بالرغم من وصول الدعوة إليه ، وسأل الترجمان : أليس الواجب أن نستأذن ملك الانكليز ؟ فأكد له أنها تستطيع أن ترى كل من تريد رؤيته من الرجال ، وأنه لا داعى إلى الاستئذان . فلما رأى السفير أن هذه عوائدهم حقيقة قبل الدعوة التى موعدها فى اليوم التالى وأخذ الكتاب المرسل إليها من كبيرة زوجات الشاه

وقلنا نحن ذاهبون لنرى زوجة الشاه الانكليزى وبناته وأجل الجميلات فى الحاشية . وهذا الحظ لا يتفق إلا للقليلين ، فالحمد لله على ذلك . وإذا كان النساء العاديات اللواتى نراهن فى الطريق يحييننا

ويقتلنا كل يوم بروعة جمالهن فكيف تفعل بقلوبنا التي سبت قلب شاه الفرنجستان ؟ إن نظرة واحدة إليها وإلى الأقمار اللواتي حولها ستفتننا وتصيبنا

لبس السفير أجمل ثيابه ومشط شعر رأسه ولحيته وتطيب بالمسك . وفعلت مثل ذلك ورفعت شاربي حتى وصل طرفاها إلى عينيّ . وسكبت في الماء الذي اغتسلت به زجاجة من ماء الورد . وركبنا إلى القصر الملكي فلم يقابلنا إلا الرجال . ولم يبد أي دليل على أن بالمنزل نساء

وأجلسنا في ردهة مفروشة بأبدع الرياش . وبعد انتظار لحظات ظهرت الثياب النسوية تخطر فيها الجميلات من بعد ويهيئن أمير من أبناء الشاه

ولما وقفنا وتهيأنا لاستقبال الأميرات والأمير تبين أنهن وإياه في جملة الخدم وأن الأميرات لم يظهرن بعد

ولقد خجلنا من مسلكنا أشد الخجل وعدنا إلى الجلوس؛ ثم ظهر تشريفاتي الملكة ومعه امرأة عجوز قال إنها هي صاحبة الجلالة فدهشنا، لأنه ما الذي يحمل جلالة الملك على البقاء مع عجوز كهذه وفي بلاده آلاف من الصبايا الجميلات ؟ ولقد كانت نظراتها كنظرات الوزراء لا كنظرات النساء، فلا رقة ولا دلال ولكن سطوة وهيبة . وسألت السفير أسئلة لا يلقى مثلها إلا العلماء ، فهي أسئلة سهلة جديرة بأن تحير العالم الحصيف

ولما قدمنا لها خطاب كبيرة زوجات الشاه سألت هل هذا الكتاب مكتوب بخط يدها ؟ فرأيت علامات الخجل على وجه السفير لأن الكتابة ليست من شئون السيدات في فارس فماذا كان يستطيع سفيرنا أن يجيبه ؟

لقد أجاب بأن الخطاب حرره منشئ الدولة

فلما ترجم هذا القول للملكة ابتسمت، ولكننا لم نفهم هل كان ابتسامها ابتسام إعجاب أم سخرية ؟

ثم عرضت عليها الهدايا فلم يستلفت نظرها بوجه خاص إلا ثياب المرأة الفارسية ، وهي حقاً جديرة بالإعجاب، فهي مطرزة بالذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وأخذت الملكة تسأل عن أشياء كثيرة . واجتمع سيدات القصر حول السفير وهو يشرح للملكة كيف تلبس السيدة هذه الثياب ، وأبدى ملاحظات كثيرة عن القميص القصير والجبة النسوية . وقد تحكن كثيراً بالرغم من وجود الملكة بينهن عند ما رأين أجزاء من الثياب تحشى بالقطن ليظهر ما دونها من الجسم كبير الحجم . وأعجبت الملكة بمعرفة الفارسيين وحكمتهم عند ما قدم إليها السفير النصوص التي تمنع السحر واللين والنصوص الأخرى التي تمنع الأمراض والتي تجبر الكسر في أقل من شهر

ولقد استرعت الملكة اهتمامنا بكثرة أسئلتها حتى شغلتنا عن النظر إلى بناتها الجميلات اللواتي تأنس العين برؤيتهن ويستمتع الخيال بالتفكير فيهن . والحق أني لم أر عيوناً أشبه بعيون الغزلان من عيون هؤلاء الأميرات ولا أجساداً أشبه بالحرير من أجسادهن

ولما فرغت الملكة من أسئلتها بدأن يسألننا أيضاً ، وكنت كلما وقع نظري على إحداهن أقول في نفسي : « ماشاء الله ! عودت جمالك من عيني باسم الله ! » وأتساءل كيف يرضى رجال هؤلاء الجميلات بسفورهن ، ونصر نحن على إخفاء أوجه نسائنا ؟ وقد سألنا الملكة هل بناتها متزوجات

فأدهشنا حين قالت أنهن لم يتزوجن إلى الآن . وأني لأعجب من تأخر زواجهن وهن بنات الملك مع أن من تبلغ هذا العمر في بلادنا تعد بائرة ؟

وقال السفير للترجمان : « لماذا لا يفضل شاهكم مثل شاهنا فينعم على وزرائه ببناته ؟ إن أكبر مكافأة عندنا للوزير أن ينعم عليه الملك بعرس من الأسرة المالكة ، وإذا لم يسجد الوزير شكراً للشاه على هذه النعمة فان رأسه تجعل في الحال مكان رجليه . والحق أن ملوكنا يديرون هذه الشئون أحسن مما يديرها ملوككم

ولما استقصينا في السؤال وجدنا أن الزواج في الأسرات المالكة أقرب إلى الزواج عند المسلمين منه عند النصارى ، لأن المحبة ليست شرطاً في الزواج ولا ضرورة لسابقة المقابلة . ويكفي أن يقول الملك لبنته إنها أصبحت زوجة لأمير ما فتقبل طائعة أو مكرهة ؛ وهذا الزواج عندهم يدعونه بالزواج السياسي والحالة مثل هذه مع الزوج من البيوت المالكة

وهمس السفير في أذن المترجم سائلا : أليس في هؤلاء السيدات جارية رقيقة للملك فربما كانت الرقيقات توجدن سراً في قصور الملوك دون غيرهم ، فعاد المترجم إلى التأكيد باستحالة وجود الرقيق في هذه البلاد

سأله السفير : أليس فيهن سريات أو راقصات أو خادمات سرير أو وصائف حمام . فأجاب المترجم بالسلب وهو يبتسم ثم قال : إن هذه الضروب من النساء لا توجد إلا في القصور الملكية . وإن الرقص في انكلترا يخالف الرقص في فارس ، ففي انكلترا يرقص الرجال مع النساء ولا تأخذ الراقصة أجراً ...

ولما قمنا كانت الملكة في نظرنا أكبر كثيراً مما كنا نظن قبل أن نحادثها ، وكان كل يوم يمر بنا يعلمنا شيئاً . وما كان غامضاً أمامنا في شأن النساء أصبح الآن واضحاً جلياً

الفصل الخامس والعشرون

الصعود والأكل

شغلنا بمن نزورهم ويزوروننا حتى كدنا ننسى أننا مسلمون وأننا نعيش في بلاد غير مسلمة ، وأهملنا الوضوء والصلاة بالرغم من أن محمد بك كان ينبهنا كل يوم إلى هذا الواجب . ويؤنبنا على تركه ويحذرنا من أن نصبح مثل الذين يعيشون حولنا ، والذين لا يبدو عليهم أنهم يدينون بأي دين

وكان محمد بك مشتغلاً بالبحث عن الاتجاه الصحيح للكعبة الشريفة ، لأن مباحثه منذ وصولنا إلى انكلترا لم تقنعه . وكانت الأبرة المنطقة « البوصلة » قد كسرت منه . وأية فائدة ترجى من الصلاة إذا كانت وجوهنا مولاة نحو بقعة قذرة من الأرض لا نحو الكعبة المطهرة ؟

وكان من سوء حظنا أيضاً أننا لم نر الشمس مرة واحدة منذ وصلنا إلى هذه البلاد فتحقق لدينا ما كنا نسمعه في فارس من أن بلاد الانكليز لا تزورها الشمس

ولما كاد ييأس من معرفة القبلة وكنا جالسين مع السفير أقبل علينا محمد بك وهو يصيح : خبر سار ! لقد ظهرت الشمس . فأطللنا من النافذة ورأينا السحاب خفيفة في شكل بخار ومن ورائها قرص الشمس ولكنه ليس مشرقاً كالشمس التي تظهر في سماء فارس ، فان الأخيرة لا يجرؤ إنسان

2017-11-14 09:09:48

على التحديق فيها . أما تلك الشمس الانكليزية فان الانسان ينظر إليها ساعة أو ساعتين دون مبالاة كما ننظر فى بلادنا إلى القمر . ولكننا مع ذلك استبشرنا بطلعتها وأخذ بعضنا ينظر إلى البعض ويقول : « مبروك » وعرف محمد بك بالدقة موقع الكعبة !

لكن هذا الحادث دل على أن الانكليز يجهلون كل شىء عن ديننا ، فان الموجودين منهم فى مجلسنا فهموا من فرحنا بظهور الشمس أننا نعبدها . وقال أحدهم ذلك للسفير ، فتغضب والتفت إلى وقال : « ما لهؤلاء الانكليز كيف يفهمون ؟ إننا لو كنا نعبد الشمس كما يتصور ، فاننا نستنكف أن نعبد شمسهم هذه التى لا يقوى نورها على اختراق السحاب » والتفت إلى المترجم وقال : « أخبر هذا البيرزا بأن الله لم يرسل نبينا إلا لحماية الوثنية »

لكن هذا البيرزا الانكليزى لم يقنعه الجواب وأخذ يجادلنا مستشهداً بتاريخ فارس قبل الاسلام وقد تبين من مناقشته أنه يظن أن الفارسيين لا يزالون على عقائدهم القديمة مع خلاف يسير أدخله المسلمون فى بلادهم . وسألنا ألسنا نقطع رؤوس الخيل تكريماً لظهور الشمس ؟ »

فقال السفير مازحاً : « لو كنا نفعل ذلك فى شمسنا الحارة فاننا فى بلادكم لا نقطع إلا ذيول الخيل »

وقد لاحظنا أن الانكليز لا يتضيقون من المزاح فان هذا البيرزا الانكليزى ضحك وقال إن الشمس جديرة بأن تعبد على كل حال

ولما رأينا القوم يجهلون ديننا أصررنا على أن نباشر أمور الدين علانية ليفهموا أننا متدينون وأن ديننا محترم ، وعلى ذلك صار أتباعنا يذبحون الذبائح باسم الله على قارعة الطريق ليفهم الانكليز أننا لا نأكل لحم الحيوان الميت كما يأكلونه ، والطعامات قلوبنا إلى الطعام الذى نأكله أكثر من أى وقت آخر منذ غادرنا البلاد الاسلامية . وصار المؤذن ينادى فى أوقات الصلاة بالأذان الاسلامى . وقال محمد بك إن الصلاة فى هذه البلاد غير الاسلامية أقل بركة منها فى بلاد مسلمة . وأشار علينا بأن نضاعف عدد الصلوات حتى يقبلها الله من هذه الأرض غير الطاهرة

ولكن ملاحظته هذه منعت أكثرنا عن الصلاة بتاتاً ، وقلنا إنه ما دامت البلاد نجسة فما فائدة الصلاة فيها ؟ إذن فلنوفر صلاتنا حتى نعود إلى فارس

وعلى ذكر الصلاة أقول إنه من اليوم الذى ظهرت فيه الشمس فى بلاد الانكليز أمكننا أن نضبط ساعاتنا على الحساب العربى لأننا جعلناها اثنتى عشرة عند الغروب . ومواعيد الصلاة الأخرى معروفة ببعدها وبقربها من هذا الوعد . أما الانكليز فكل شىء عندهم عجيب . والساعات عندهم لها حساب آخر حيث يبدأ يومهم من منتصف النهار

اجترأنا على السير بغير دليل فى طرقات لوندرا بالرغم من استغراب الناس هيئة ثيابنا وتعجبهم منا ، فاننا كنا نبعد كثيراً عن مكان السفارة . وكثيراً ما ضللنا طريق العودة لأن الطرق عندهم كثيرة الشبه فكل البيوت مبنية على نظام واحد . وكل الشوارع باتساع واحد وطول واحد ، ولكننى اهتديت إلى طريقة نأمن بها الضلال فى أى طريق وذلك أنى كنت أحمل معى قطعة من الطباشير فأضع على كل ركن علامة أهتدى بها فى طريق العودة

2017-11-14 Darwish

وفي يوم من الأيام خرجت مع محمد بك وهو كما عرف القراء شديد المحافظة على شعائر الدين . فلما وصلنا إلى حديقة عامة في ناحية من نواحي المدينة ، وقف على الحشائش الخضراء ودعاني إلى الصلاة . وكانت الحديقة غاصة بالناديين والرائحين إذ يظهر أن ذلك اليوم كان عيداً من أعيادهم

فلما نادى محمد بك : « الله أكبر الله أكبر قد قامت الصلاة » اجتمع حولنا كل من في الحديقة وأخذوا يحملقون فينا ، فلما بلغنا من الصلاة السجود أخرج كل منا قطعة من الطين طاهرة من أرض (كربلاء) ليضع فوقها جبينه . والقراء يعرفون أننا معاشر الفارسيين لا نسجد فوق كل أرض . ولذلك يحمل كل منا في جيبه قطعة من أرض كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام ليسجد فوقها . وهذه القطعة تصب بشكل جميل وتكتب عليها أسماء الأئمة الاثني عشر

وإني أعترف لك بالحقيقة فأقول إني غير شديد الحرص على الصلاة فأنا لا أصلي إلا إذا كنت في خطر ، وإلا إذا رأيت من حولي ينتظرون مني أن أصلي . ومن أجل هذه الخلة كان سروري شديداً بالصلاة أمام هذا العدد الجم من الناس

لكنه لما عدنا إلى الوقوف بعد السجود تركنا قطعتي الطين على الأرض لنسيد السجود عليهما في الركعات التالية . وبلغ من وقاحة أحد المتفرجين أن مدّ يده فأمسكها وأخذ يريها لمن حوله ، وهو نصراني نجس ، والقطعة طاهرة مقدسة ، فلم يكن في وسع محمد بك إلا أن خرج من الصلاة ولطمه على وجهه . وخرجت أنا أيضاً من الصلاة وانتظرت ماذا يكون ، فرى الانكليزي قطعة الطين وخلع سترته وشمّر عن ذراعيه . وقد فهمت أن حركته هذه عدائية ، بالرغم من أن نزع القبعات علامة على الود بين هؤلاء القوم

وفي هذا الحين مرّ مترجم السفارة فناديته ليترجم بيننا وبين هذا الرجل . ولشد ما كانت دهشتي عند ما رأيت مترجمنا الانكليزي وقد خلع سترته وقبعته أيضاً وشمر عن ذراعيه ، وتلا كما ملاكمة دلت على الشجاعة من كليهما . فلم تمكن المترجم من إصابة الآخر في وجهه تصافحا وكأنه لم تكن بينهما حالة عدائية ، وأفهمنا المترجم أنه إنما فعل ذلك بالنيابة عنا ، فشكرناه . وقد كنا نسمع عن كرم العرب في قرى الضيف ولكننا لم نسمع أن أحداً بلا كم الناس بدلاً من ضيوفه . وهكذا قدر لمحمد بك أن يضرب ولكن على جسم المترجم

وعدنا دون أن تتم الصلاة إلى دار السفارة وأخبرنا السفير بما حدث فدهش من أخلاق المترجم

الفصل السادس والعشرون

البرلمان الانكليزي

في ذلك الوقت كان في المدينة حركة غير عادية . لم يبق فرد واحد من الانكليز لم يهتم بها ، فخلت البيوت ممن فيها وازدحمت بهم الشوارع حتى صار من الصعب أن يجد المرء لنفسه مكاناً بين الطرقات . فذكرتنا هذه الحالة بعودة الشاه إلى طهران من غزوة أو رحلة طويلة . وسألنا عن السبب فسمعنا إجابات مختلفة

قيل لنا إن أكبر مجلس في الدولة سيعقد اليوم ، وقيل إنه بالرغم من أن البلاد ألف كتاب وكتاب في القانون فانهم لا يزالون بحاجة إلى قوانين

2017-11-15 20:20:18

جديدة . وقد حدثنا الله عند ذلك على كمال ديننا فانه ليس لنا إلا قانون واحد هو القرآن وليس فيه تفريط فى شيء . فلسنا فى حاجة إذن إلى أى قانون آخر . وقيل إن هذا المجلس سيجتمع ليحاسب الشاه الانكليزى ووزراءه على النفقات التى ينفقونها. والحق أنه لو اجتمع فى بلادنا أناس ليحاسبوا الشاه على نفقاته لنصبت لهم المشانق ... وقيل بل اجتمع هذا المجلس للبحث فى مسألة ما زالوا يبحثونها منذ مائة عام دون أن يتقدموا خطوة واحدة ، وهذه المسألة هى هل تبقى إرلندا خاضعة لحكم الانكليز أم يتركونها ؟ وإرلندا هذه جزيرة أخرى تريد أن تنفصل عن حكمهم وهم لا يقررون تركها أو البقاء فيها بل يجتمع مجلسهم منذ مائة عام للنظر فى هذا الطلب . وفى هذه الجزيرة سبعة ملايين من الناس يموتون وينشأ بدلهم مثل عددهم وهم راضون عن إرجاء طلبهم كل هذا الأجل . ونحن لا نعرف لماذا يسلك الانكليز أو الارلنديون هذا المسلك ؟

وقد عول السفير على أن يعرف عن هذا المجلس كل ما تستطاع معرفته ليكتب عنه إلى الشاه ليدرك الفرق بين قوة سلطونه وضعف الملوك فى انجلترا

وأنى لأعجب كيف يستطيع القضاة مباشرة الحكم مع كثرة هذه القوانين ! وهل إذا انتقل قاض من بلدة إلى بلدة يأخذ معه عشرين أو ثلاثين جملا محملة بالقوانين

وإنى لأتساءل أيضاً ما فائدة الملك وما الحكمة من وجوده إذا كان لا ينفق شيئاً إلا بحاسبه الناس على ما أنفق ؟ وبالرغم من هذا المسلك السيء الذى يسلكه المجلس مع الملك فقد علمنا أنه سيذهب عند انعقاده راضياً ليلقى فيه خطبة العرش . ويقولون إن المجلس إذا لم يرض عن هذه الخطبة فان الملك يكون مضطراً عندئذ إلى طرد وزرائه

وصلت الدعوة إلى السفير لحضور هذا الاجتماع فقبلها مسروراً . ولكن الدعوة كانت قاصرة على اثنين فقط هو ومترجمه . وذلك حرمت أنا وسائر أعضاء السفارة من رؤية هذا الاجتماع . واكتفينا بأن نقف فى الطرق لنرى موكب الملك وهو سائر إلى هذا المجلس . وما كان أفخم هذا الموكب ! لقد كان فيه كل القواد والوزراء وعصبة من كل فرقة عسكرية برية أو بحرية . ولا أعرف كيف يمكن التوفيق بين إجلال الملك باظهار الولاء له وبين اضطهاده ومحاسبته على النفقات وحرمانه من سلطة الحكم ؟

وقفنا تحت ظل شجرة ، وكان الزحام حولنا شديداً فاسترعينا أنظار الناس حتى انصرف الكثير منهم عن النظر إلى الموكب إلى النظر نحونا

وقبل ظهور الملك سمعنا هتافاً غريباً يشبه نواح النساء عندنا ، ولكننا فهمنا أنهم يريدون به التحية . والغريب أن هذا الشعب متفان فى حب ملكه وأنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يترك له شيئاً من الحكم

ولما لم تبق إلا خطوات على عربات الملك صعدنا على الشجرة متسلقين لنتمكن من مشاهدته فأسرع الناس إلى إزالتنا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لو لا أن أحد الواقفين عرفنا — على ما يظهر — فشفع وقال إنه مهما يكن ما نفعله فانه صادر عن الجهل ، ثم شيعنا إلى المنزل وأفهمنا أن الذى فعلناه أمر كبير فى هذه البلاد . وسألناه لماذا يعامل الانكليز هذه المعاملة ؟ فقال إن الشعوب لا تدرك الحقائق كما هى فاذا حارب الجيش وانتصر نسبوا ذلك إلى

الملك، وإذا غلا الخبز نسبوا غلاءه إلى الملك، وإذا نشبت الحرب نسبوها إلى الملك. ولذلك كان واجب الحكومات يقضي بالحرص على عرش الملك ويمنع حدوث الثورة، وذلك إنما يكون بجعل سلطة الملك محدودة واضحة الحدود فلا ينسب إليه ما لا يمكن دفعه من الطوارىء وما ليس يجوز أن تنسب مسئوليته إليه

قلت: «هل ترى لحيتي هذه؟»

فقال: «نعم»

قلت: «إذن فأنا أقسم بها وما أقسم بشيء أقدس منها، إننا لو وضعنا شاهنا في مثل هذا المركز الذي وضعتم فيه شاهكم لحدثت مذبحة عامة لا يمكن أن تنتهي بخير»

فقال: «إن من الخطأ أن توازن بين انكلترا وبين إيران»

ولما عاد السفير من حفلة افتتاح البرلمان وصف لنا هذه الحفلة فقال: ان الملك ظهر في حلة مزركشة بالذهب وعلى صدره النياشين المجوهرة، وكذلك كان وزراؤه وأصحاب الألقاب، وكانوا كلهم حليق اللحى والشوارب كأنهم نساء. وأقسم أنني أحببتهم جميعاً وأن جلودهم أبيض من الثلج وعيونهم تقتل وابتساماتهم تفتن وتسحر

وقد كان بين المتفرجين سيدات لا أستطيع وصفهن. وبالرغم من معرفتنا بسفيرنا معرفة جيدة فاننا لم نسمعه قط يتكلم بمثل هذا اللسان. وقد كنا نسمع أنه إن أحب النار تشتعل عندئذ في فؤاده

وقد قال أحد شعرائنا متى أحب الانسان فانه يفيض رقة ولو كان من أغلظ الناس. وأقسم أن السفير عاد من حفلة افتتاح البرلمان وعيناه تنطقان بالرقة والوداعة

«يتبع»

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالطريقة الآتية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة.

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل سنون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٤ | ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — ١٥ يونية سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية

أهي مجنونة؟

أقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عد « أديب » من نزهته القصيرة مع حبيبته ، وفي صميمه منها ضحكها الفضية التي أذكرته الماء المنحدر في لين ورفق ، وأشعة الشمس تتكسر على ما يتموج منه ، وكان يخيل إليه وهو يمشي على مهل في الجزيرة أن هذه الضحكة المرحة يستطيع النسيم الوافي أن يحملها ويذيعها كما يحمل أرج الأزاهر ، أو كما يذيع تغريد القمري . بل خيل إليه أن هذه ضحكة يسع المصور الحاذق أن يرسمها ويشبها بالألوان . وتساءل وهو يفكر في هذا : لم لا يكون في الطوق أن يصور المرء الأصوات ؟ ؟ ألا يمكن أن نعبر عن مثل هذه الضحكة بخط أزرق متموج يجري فيه — كالمرقم — خيط ذهبي دقيق ؟ وابتسم وهو يسأل نفسه : ماذا ترى يسمي أهل الولع بالتعريف وضبط الحدود مثل هذه الصورة ؟ أترامم يسمونه تصويراً رمزياً أم يبتدعون له اسماً جديداً ويقولون مثلاً إنه التصوير « التعبيري » أي التعبير بالألوان وما إليها عما يقع في النفس من الشيء مادة كان أو صوتاً ؟

وكان « أديب » كاسمه أديباً ، فله من اسمه نصيب ، وكانت الفتاة التي يحبها في مثل سنه ، وكان أهلهما لا يعلمان من أمرهما شيئاً ، فهما يلتقيان سراً ، ويؤثران التمشي في الحدائق العامة ، وقد يتلاثغان إذا أمنا فضول العيون ، وإلا خشيهما أن تتلامس يداهما وهما يمشيان أو قاعدان . وكان يحس — دون أن يعلم — أن الطهر في الدنيا قليل ،

وأن كبح النفس فى الحياة ليس بسبيل كل حى . ويخطر له أحياناً أنه ليس من اللازم أو الواجب أن يمضى المرء على التوقى من الرياح الهوجاء التى تعصف بها الحياة . وكان يقول لنفسه إن هذا قد لا تكون له قيمة فى حياة الأكثرين ، ولكن رجل الأدب أو الفن ... ؟ آه ... هذا شأنه غير شأن الناس !! ويسأل نفسه : ولكن لماذا يختلف الحال ويتفاوت الأمر ، وهذا إنسان وذاك إنسان ؟ ويجيب نفسه فيقول — وهو يؤمن بما يقول ولا يخالجه شك فى صحته — إن الحقيقة عذراء ، فى جوهرها ، وإن الجمال طهر ، ومن الواجب أن يؤمن الانسان بصورة الكمال التى ترفعها العذرية والطهر والعصمة ، وقد يخفق المرء ، ولكن الاخفاق إنما تكون علته هذا الطين الضعيف الذى لا فكاك للنفس منه . وليس الأديب أو الفنان بحر كثيره من الخلق. وهل هو قدر رُزق موهبة الأدب أو الفن إلا ليتقى معانى من الجمال والحق فى الحياة؟

وكان على موعد مع حبيبته فى صباح اليوم التالى ، وكانت الساعة فى ذلك الوقت — وهو روح ويحيا فى أرض الجزيرة — التاسعة مساء ، فماذا عسى أن يصنع بهذا الليل الطويل إلى صباح الغد؟ النوم لا سبيل إليه ، والقراءة أو الكتابة ... أوه مستحيل هذا ... الهواتف كثيرة ، وكيف يطيب أو يتفتر النوم لمن تصافح مسمعيه كل هذه الهواتف من الجمال والحب ؟ وكيف يجوز أن يتناول ما بنفسه ويجمعه ويحزمه ويلفه فى ركن ويريح رأسه على وسادة وينمض عينيه ويروح ينعس؟! هذا الكنز الذى عثر عليه فى نفسه ، هذا الينبوع الفياض الذى تفجر ... متى ينعم به ويسعد إذا كان ينام أو يقرأ أو يكتب ؟!

وجلس على مقعد من الخشب ، وجعل ظهره إلى الشارع ووجهه إلى النيل، ولم يمن بأن ينظر بمنة أو يسرة ، وكان على مقعد قريب منه سيدة تراعيه ولا تحول عينها عنه ، وهو ذاهل عنها وعن سواها كأنما خلت الدنيا إلا من حبيبته ، ولكن ذهوله لم يمنع أن ترتسم فى ذهنه بغير جهد محسوس منه صورة وجه يبدو باهتاً ممتقع اللون تحت مصباح ، وعينين منحرفتين قليلاً ، وشفتين حمراوين ، وشعر وحف أسود ، وجيبين عال أشبه بجيبين الرجل منه بجيبين المرأة على الرغم من نعومته وتماعه . وكانت هذه الصورة التى انتقشت وحدها ربما خايلته بألوانها ومعانيها فيتعجب ، ويقطب ، وينمض عينيه كأنما يرجو بذلك أن يجلوها أوضح . وكان وجه العجب أن هذه الصورة التى تلح عليه ليس فيها مشابه من حبيبته . فمن أين جاءت ؟

وسمع — أو توهم أنه سمع — ما يشبه الزفرة الخافتة ، فرده هذا إلى الدنيا التى خرج منها بأحلامه وتلفت فاذا به يرى أسل الصورة المرتسمة فى ذهنه فسار عجبه أشد ، فما كان يدرى أنه رأى أحداً ، أو نظر إلى أحد ، وفرك جبينه ، فسمعها تقول :

« لقد بقيت أكثر مما كنت أريد »

فرفع رأسه وحول وجهه إليها ، فلم ير أحداً غيره يمكن أن يكون المعنى بكلامها فقال « نعم ؟ »

قالت : « كنت أنوى أن أبقى برهة قصيرة ، ولكنى رأيتك فاستغربت حالك ، وأظنك لم تشعر

أني أحدق فيك منذ نصف ساعة »

فلم يدر بأي كلام يجيب، وطال تردده، فقالت :

« من الواضح جداً أنك في دنيا غير هذه الدنيا »

فوجد لسانه وقال بلهجة أرق من عبارته : « هل يعنيك هذا ؟ »

قالت : « نعم ، إني أرى أنك تشعر بشيء من الوحدة ، وكذلك أنا ، لماذا لا تجلس إلى جانبي ؟ أنا أجلس إلى جانبك »

وانتقلت إلى مقعده ، فقال بلا لف : لماذا تقبلين هذا ؟ إني لا أعرفك

فابتسمت ابتسامة المتسامح وقالت : « تمر بي أحيان لا أطيق أن أكون فيها وحدي »

فسألها بجفوة : « هل من عادتك أن تكلمي الأغراب ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « الانسان في بعض الأحيان يقدم على أشياء قد يستغربها هو فيما بعد »

فزاد شكه فيها واسترابته بها وقال بصرامة وحشية :

« يا سيدتي إني فقير وليس معي فلوس »

فضحكت .. قهقهت .. ثم تناولت يده وجذبته إليها فمال عليها ثم اعتدل وسألها :

« يا سيدتي ، ولكن من أنت ؟ وماذا أنت ؟ هذا هو المهم »

فقالت : « لا بأس ... أقول لك من أنا ، وما ذا أنا ... مات الرجل الذي كنت أعيش معه ، وقد كنت أعايشه لأني كنت أحبه ... كنت ! فاهم ؟ ... وكانت له زوجة وبنون ، ولكن هذه حكاية أخري ... المهم أنه مات ، وأنه عوضني عما خسرت بفراري من أهلي وبنقمتهم علي ... وترك لي من المال ما يكفيني مع الاعتدال . وفي وسعي أن أتزوج الآن ، ولكني لا أريد ، لأن زواجي يحتاج إلى الاحتيال والتدبير ، ولست أطيقهما ؛ والطباع التي حملتني على الفرار من أهلي وأنا مفتوحة العين على ما أستقبل من حياتي ، هي الطباع التي تحملني الآن على إيثار الحرية في حدود الكفاية من المال ، والتنزه عن الاحتيال والتدبير لأفوز بزوج ... وماحاجتي إليه ؟ لقد أحببت رجلا لم يكن حبه لي كفاء حبي له ، ولكنه كان كيساً حكيما فترفق بي ، وأولاني العطف الصادق بدلاً من الحب الذي عجز عنه ، ولكن قلبي مات مع ذلك... كما مات هو ... غريب ... غريب أن يحيا الانسان بقلب ميت ! ! قبر متحرك ولكنه متنكر ! ! ومن يدري؟ لعلك تظنني ... محقق أنك تظنني من هؤلاء النسوة اللواتي يمن أجسامهن ... ولك العذر ... وهبني كنت المرأة التي توهمتها كذلك ... أواه ! لا أستطيع أن أقول ... ولكن لماذا لا أقول ؟ ماذا أخشى؟ ماذا تمنيني ظنونك وأنت شاب لا تدري شيئاً ولا تعرف من الحياة إلا اسمها ... ؟ ما عمرك ؟ عشرون ... ؟ أكثر أو أقل قليلاً ؟ وما عملك في الحياة ؟ بماذا تشتغل ؟ قل لي أولاً »

فتردد وحار ، ثم استطاع بجهد أن يخبرها أنه يشتغل بالأدب في أوقات فراغه ، فإن له عملاً في شركة ...

فقالت : « أديب ؟ يعني تنظم الشعر ؟ تؤلف روايات ؟ هه ؟ ؟ وتطبع ذلك وتبيعه ... تبيع ثمار عقلك ... والمرأة التي توهمتها تبيع جسمها ... هذا

2017-11-15 Dar al-Kutub

ما علمت ... فليكن ... فهل ترى أيها الأديب الأريب الحاذق فرقاً بين البيعين؟ هات سيجارة إذا كنت تدخن »

فأعرب لها عن أسفه لأنه لم يعتد التدخين ، فهزت رأسها هزة المتسامح ، وقالت وهي تبتسم : « كنت أتوقع ذلك »

وكأنما غير طلبها للسيجارة واعتذاره ، وتعقيبها عليه مجرى الحديث ، فأطرق اديب وعاد إلى مثل صمته وتحديقه في الماء ، قبل أن تنتقل إلى مقعده ، ولبثت هي لحظة صابرة عليه لا تحاول أن تخرجه من سكوته ، أو ترده عما بدا لها كالتسوية ، ثم قالت بغتة — وأصلة ما انقطع من حديثها — :

« لو شئت لناصرت ، ولوسعني أن أبسط لنفسي العذر إذا لم يعذرني الناس . وعلى أنه ما قيمة أن يعذر الناس أو لا يعذرون . ومتى كان الناس يعذرون بإخلاص ؟ أو يتقون أن ينتابوا الانسان على كل حرصه على السلوك القويم — أعني التقليدي ! — ولكني لا أغامر ، لا لأني لا أشتهي أن أفوز من دنياي بما يفوز به أمثالي ، بل لأني اقتنعت بأن الأمر لا يستحق عناء ، ولا يساوي ما يبذل في سبيله . ثم لأن آخرة الطاف ماذا ؟ آخرته أوله ... رحلة طويلة ولكن في دائرة ... فنلق أنفسنا بعد المشقة والجهد حيث كنا حين بدأنا ... ولا قناعة ولا رضى ولا ميراث إلا الحسرة ... أليس كذلك ؟ »

فقال — ولم يسعه إلا أن يقول — : « يظهر أنك جربت كثيراً »

قالت : « نعم . جربت ، إن اللذة ليست شفاء من القلق الروحي والاضطراب النفسي ... قد تكون مخدراً ... ولكنها لا تشفي ... »

فهز رأسه مبتسماً للمرة الأولى ، فقد وافقت هذه العبارة هواه وأحلام شبابه ، وسألها : « عسى أن تكوني راضية عن حياتك ؟ »

فابتسمت له — في عينيه — وقالت : « أين الحياة التي ترى صاحبها الذي يحياها راضياً عنها ؟ »

فشعر بأن به حاجة إلى أن يحميها — لا يدري لماذا ؟ — وقال : « ولكن لك عزاء على الأقل هو أن حياتك مطابقة لآرائك — أعني أنك تحيين على مقتضى اقتناعك — على قدر ما فهمت من كلامك — ولا شك أن قدرتك على ذلك من بواعث رضاك عن نفسك ؟ »

فلم تلتفت إلى هذا وقالت بلهجة فيها من الليل سجوه : « ستكبر يا صاحبي يوماً ما ، وستتاح لك فرصة تقص فيها على صديق لك ، ما سمعت ورأيت مني في هذه الليلة ، وقد تبالغ وتتفلسف ، وتحلل نفسك ما لم تقله ، وتهوّلي ما لم تسمع مني ... نعم ... من يدري ؟ »

واعتدلت بغتة في مقعدها ، ولوحت بيدها ، والتفتت إليه ، وأثارته النظر وقالت :

« انت عاشق . أراهن أنها فتاة ظالمة ولكنها جميلة كالزهرة التي بدأت تتفتح ، وعسى أن يكون شعرها فاحما لماعا ، وعينها ... ماذا يرى ؟ .. لا يهم .. »

فالتفت إليها مستغربا ولكنه لم يقل شيئا

ومضت في كلامها فقالت : « إني أسن منك وأخبر بالحياة والناس ، وقد أحببتُ ، ولكني لم ألتزم الأسلوب التقليدي ، ولم أجر على الخطة الرسومة في العرف الموروث ، فليس ما أرى من عينيك أنك تغيضه على حبك ... على الحب عامة ... من السحر والشعر بغريب عليّ ، ولكنك ستغيب عن هذا

الطوق ياساحي، وستلتف بقلبك وبعقلك لابيبنك وحدها ، إلى الأيام التي كنت فيها تحب الحب ... أيام كانت ألسنة المواقف تصب في أذنيك أنشودة سحرية... قد تحلم بمثلها فيما بعد في منامك ، ولكنك لن تسمعها مرة أخرى في يقظتك ، كما تسمعها الآن وأنت تحلم مفتوح العينين ... لست منجمة ، ولكنك لن تتزوج حبيبتك ... ولن يكون هذا أقوى حب لك في حياتك ... كلا ... في مثل سنك الغضة ؟؟ أوه . لا »

فابتسم ساخرا وقال منهكما : « هل تستطيعين أن تقرأي لي كفي ؟؟ »

قالت « لا تسخر ... سيجرفك حب المرأة التي تراك صالحا أن تكون وقودا للنار المتسعرة في جوانحها. وأحسبك ستظل حياتك كلها وقودا لنساء من هذا القبيل .. نساء لسن من طرازك، ولا أنت من طرازهن، ولا بينك وبينهن أي تجاذب روحي ... أراك لا تصدق ... (وهزت كتفيها) آه هذه الثقة ... إعان الشباب بنفسه ... لو كان أقل أو أضعف لكان نظره أبعد ، وأسدق أيضا ... »

ونهضت ومدت له راحة رخصة ، فوقف وتناول كفها قائلا « أستودعك الله »

قال: « ألا نلتقي مرة أخرى؟ »

قالت « ما الفائدة ؟ كل مايمكن أن يقول له أحدنا للآخر قد قيل في الليلة ... استفدنا كل حديث ... وليس أثقل من الكلام المعاد ، ولا أبغض إلي من الاجترار ... »

فقال: « ولكن يا سيدتي ، إن معرفتنا لم تكد تبدأ ؟ »

قالت « بل بدأت وانتهت لو التقينا ألف مرة ومرة لما زاد أحدنا علما بالآخر ... »

وابتسمت ، ومدت له راحتها الأخرى ، فتناولها بكفه الثانية وقالت وهي تهز يديه : « تصورأن لقاءنا الليلة كان حلما في حلم — الحياة على كل حال ليست أكثر من حلم ... ولا أحسن أو أطيب »

فسألها وهو مطبق على يديها :

« أني لك كل هذه المعرفة والنظر ؟ »

قالت « يا لغرور الرجال ! »

فاعتذر وقال: « ولكن الوداع كريه ، ولست أعرف حتى اسمك » قالت وهي تسحب يديها برفق: « الاسم علامة وعنوان ، وقد عرفت كل ما هو جوهري »

ودارت قمست عنه مسرعة واختفت في الظلام .

ولم يطق أن يبقى بعد أن تركته ، فمشى على مهل وهو مطرق يفكر فيما سمع ، ولا يستطيع أن يصدق أو يؤمن بحرف منه ، ولما بلغ بيته دخل وهو يحدث نفسه أن هذه السيدة لا شك مجنونة ، وأدركه العطف عليها ؛ فصار يتمتم وهو يخلع ثيابه: « مسكينة ... مسكينة ! »

ابراهيم عبد القادر المازني

إشـــتراك الصيف

تقبل ادارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهري في المجلتين أو في احداهما تسهيلا على حضرات القراء في زمن الصيف ومقدار الاشتراك في الرسالة أربعة قروش وفي الرواية قرشان ترفع سلفاً

المـــرآة

أقصوصة فرنسية من « ڤانول مينرى »

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

— ١ —

لم يكن هناك مرآة واحدة فى كل الملكة إذا أمرت الملكة فحطمت سائر أنواع المرايا ، حتى مرايا القصر الملكى الفيد لم تكن لتنجو من ذلك الأمر الصارم... وسنّت قوانين تقضى بأقسى العقوبات على كل من تحدثه نفسه باقتناء مرآة أيا سبب كل هذا فإنه كان للملكة وجه يعد مقياساً للقبح ومثالا فى الدمامة . ولم تصدر هذا الأمر مخافة أن ترى سورتها الدميمة منعكسة على إحدى المرايا إبان تجوالها فى طرق البلاد ، بل لأنها كانت تضن على الأخريات أن يرين جمالهن حقدا أعمى وحسدا . وليت شعرى ، ماذا تفيد المرأة من عينين تجلاوين ساحرتين ، وفم ياقوتى دقيق ، وجبين ناصع مشرق ، وشعر وحف ناعم ، إذا لم تتح بصرها بذلك كله منعكساً على إحدى المرايا ... كذلك كان مستحيلاً أن ترى حسناء سورتها على سطح نهر أو قناة أو غدير . فقد أصدرت الملكة أمرها باختفاء مجراها . أما الآبار فقد كان منسوب أمواهها منخفضاً واستبدلت فيها الدلاء بأحواض من الحجر تمنع انعكاس الصور بأية حال... وقد سرى الحنق والسخط إلى كل القلوب لتلك العاصفة الشاذة وهذا الحكم الغريب خصوصاً بين ناعمات الصدر السواحر

— ٢ —

كانت هناك فتاة — تدعى جاسنيث وتنوى بالريف من تلك الملكة — لم يداخل قلبها اليأس ولم يحوّم حولها الحنق والضيق كأترابها من الحسناوات الفوانى ، إذ كان لها عاشق مدلهم القلب أنحى مرآتها الصافية الأمينة. فارح منذ أن فتنه فتور لحظها الساجى ، يردد بين الحين والحين : « كم أنت جميلة فتاة ! ... أى قمرى الزاهر ! ... » وكان وجهها يتضرج خجلا أمام هذه المرآة الناطقة وكلما كانت جاسنيث تخافه ، هو أن يباغتها بأخطبها على فتاها مسامع الملكة فتسى للتفريق بينهما حباً منها فى تنغيص عيش الآخرين فضلاً عن أنها تكره جاسنيث خاصة لما أشيع من شدة جمالها وفتنها

— ٣ —

واقترب يوم زفاف جاسنيث على فتاها . فخرجت ذات صباح تتأود نشوى كالنسمن الرطيب ، وتنتقل فرحة باليوم القريب . خرجت تستنشق نسيم الصبح المعطار فاذا بها ترى عجوزاً مقبلة عليها تترنح فى مشيتها كأنها شبح الفناء يدب دبيبه المضطرب . وسقطت الحيزبون على حين غرة وقد انشق صدرها عن صرخة مفزعة . فأسرعت جاسنيث إليها تقيل عثرتها . غير أن العجوز ساحت تقول : يالهى ! ماذا أرى ؟

— ما خطبك ياأمى ! .. وماذا ترين ؟ أنبئينى .

— وجه هو القبيح بعينه

— لا إخالك تقصدينى بهذا الوصف

— والهفى عليك يامسكينة ! بل انت ما أقصد إنى لم أر طوال حياتى أقبح منك

واختفت العجوز — وهى إحدى صنائع الملكة ضاحكة ساخرة . فارتمت جاسنيث على مقعد تحت أشجار البرتقال وأنشأت تبكى بكاء اليائس المحروم

2017-11-15 Digitized by Google

— ٤ —

وأصبح مستحيلا إقناع جاسنيث بأنها جميلة

وحاول فتاها أن يدخل فى روعها أن العجوز الشمطاء قد كذبتها القول، وأنها شديدة الحسن فاتنة الجمال... فأعيته الحيل وإذا أسر على إتمام الزواج يراها تبكى وتقول :

— ما ذا ؟ هل أكون أنا الدميمة زوجك ؟ أبداً... إن حبى لك وحرصى على سعادتك يمنعانى أن أكون زوجاً لك

« إذن ما العمل ؟ » ليس من سبيل لإثبات كذب هذه الشيطان العجوز وتحويل جاسنيث عن وهمها إلا الحصول على مرآة... ولكن الملكة كلها ليس فيها مرآة

إذن يجب أن أقصد الملكة . فستأخذها رأفة بنا

— ٥ —

قالت الملكة القاسية الدميمة : ماذا هنالك . وما لهذين الشخصين قد أتيا ؟ فتقدم فتى جاسنيث قائلا :

— مولاتى، إن أمام جلالتك أشقى العشاق طرّا

— وهل أزعجتنى لتقول لى هذا القول ؟ وما شأنى أنا ونزاع جره الحب ؟

— عطفك يا مولاتى مرى جلالتك لتأجر آة

— كيف تجرؤ يا هذا على ذكر المرآة أمامى ؟

— عفوك يا صاحبة الجلالة . أتضرع إليك أن تصغى إلى قصتى ولا تقضى لقولى . . . هذه الفتاة التى تمثل أمام جلالتك قد استولى عليها وهم غريب أنها قبيحة الوجه

فقالت الملكة ضاحكة فى استخفاف وتشف :

— وإنها لكذلك . إنها محقة فى وهمها . وقد لا أذكر أنى رأيت من قبل أقبح منها وجهاً .

وفعلت هذه الكلمات الوئيمة فى قلب جاسنيث فعل السهام المسمومة . لم يعد هناك ريب فى أنها دميمة شوهاء . فقد شهدت بذلك الملكة كما شهدت به العجوز من قبل وامتقع وجهها حتى أضحى كوجوه الموتى، وسقطت بعد ذلك أمام العرش فاقدة الحس.

فصاح فتاها قائلا : إما أن تكون الملكة قد جُنّت . وإما أن يكون لديها من الأسباب ما يحملها على افتراء هذا الكذب . فلم يكد يتم هذه الجملة حتى قبض عليه الحراس وأشارت الملكة إلى الجلاد

— قم واجيك ... فرفع الجلاد حسامه البراق

وحينئذ دوت صرختان مختلفتان إحداهما من فم جاسنيث بعد ما لمحت صورة وجهها منعكساً على السيف اللامع وكانت صرخة فرح عظيم. والأخرى من فم الملكة الحاسدة حين لمحت هى الأخرى صورة وجهها المشوه منعكسة على هذه المرآة غير المنتظرة .

وكانت صرخة تتناوبها عوامل مختلفة من الخجل والعار والغضب

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لوسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

من ذكريات العراق

قصة حقيقية

للأستاذ علي الطنطاوي

كان ذلك في الربيع الماضي في أمسية حلوة ، اقترحت فيها على صديقي أنور ، أن نركب زورقاً من هذه الزوارق الجميلة ، ذات المقاعد الوثيرة والوسائد البيض المحشوة بريش النعام ، فنجول ساعة في دجلة نشهد غروب الشمس ، ونستمتع بالتأمل في هذا النهر الذي يحمل في كل قطرة منه ذكرى خليفة أو مغن أو شاعر أو عاشق ، ويحفظ بين أحنائه أوفى تاريخ لأجل عصر ذهبي نعمت في ظلاله البشرية .

وكان صاحب زورقنا شيخاً لطيفاً ، جميل الطلعة ، رائع المشيب ، له على شيبه سذاجة طفل ، ونظرات ملك ؛ وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب . فسمعنا من حديثه العجب العطرب ، ومال بنا الحديث إلى كل جميل ، حتى وقف بنا عند الكلام على دجلة ... فقال الشيخ :

أتنم لا تعرفون ما دجلة ؟ عندكم منه هذا المنظر الذي يبدو من الجسر ؛ وقد تتنبهون إلى بناء الجسر وعواماته التي يقوم عليها أكثر مما تنتبهون إلى النهر ! بل لقد تشتكي عن هذا وذاك هذه السيارات التي تركب متنه بثقلها وأهوالها وأحمالها ، فيستجير منها الجسر ويئن ، ويضطرب ويعيد ، فلا تحفل أنينه ولا تبالي اضطرابه ، ولا ترحمه ساعة من ليل أو نهار

قال أنور : لقد أنشئ الجسر لتمر عليه الماء الفاتنات ، لا لتركبه هذه السيارات ...

— قال الشيخ : أما أنا فاني أرى في النهر عالماً : أرى فيه دنيا واسعة ، لا تدرون بها بإسكان القصور ، وقطان البر . أرى فيه النهر الذي يستيقظ مع السحر ، ليستقبل أول وفد من خيوط النور ، فيبسم له ويرقص في استقباله أمواجه الصغيرة المائجة ، والنهر الذي تلهب أمواهه في أشعة الهواجر من تموز وآب ، والنهر الذي يسكر من ريق القمر الذي يرتشفه في ليالي الصيف ... لك الله بالليالي ببغداد ! .. فيشبه فتاة صغيرة تترنح نشوى ، والنهر الذي يحكي المقبرة الموحشة ، حين يمر في ليالي الشتاء المظلمة ، أسود كالحاً مرعباً ، والنهر الذي ينقلب معرض غرام حين تسرح فيه زوارق المحبين من أهل بغداد ، مدينة الجمال والجلال ، ومهبط الأعواد والقيثارات ، ومهبط ...

— قال أنور : شراب أبي نواس !

— قال الشيخ : لست أدري ما شراب أبي نواس ! ولكن ماذا يسنيني اسمه ؟ أليس هو الذي يخلق لك من الشقاء سعادة ، ومن الفقر غنى ، ومن الزلة عرشاً مكللا بالجواهر ، والذي يفتح الحناجر بأرق ما عرفت دجلة من الأغاني ، من أيام ...

— قال أنور : إسحق وإبراهيم

— قال الشيخ : ويعقوب ويوسف عليهم السلام فضحكنا لفاقته ، حين يظن اسحق الموصلي من الأنبياء ، وعاد الشيخ يقول :

— والنهر الذي ينقلب وحشاً كاسراً كاشراً عن أنيابه ، ويبدو (غراً) فتاكاً ، حين يفيض الزبد على شدقيه ، ويفتح فمه الهول ليبتلع بغداد وأهلها ويقذف بهذه الأطلال من الحديد التي

2017-11-14 Page 48

تثبت الجسر قذف الصبي بكرته .

هذا هو دجلة الذي أراه أجلّ من البحر ، وما البحر ؟ ما ذلك الملح الأجاج من هذا العذب الفرات ؟ أين البحر الذي تصطخب أمواجه وهوق مكانه ، كالطفل الذي يخبط الأرض برجليه من العجز ، من هذا النهر الذي يجري في سكون ، يجري دائماً وأبداً ؟ آه متى بدأ هذا النهر سيره ، وإلى أين يمشي؟ اما لطوافه نهاية ، اما لمسيرة غاية ؟ والله لابني لقد فكرت في ذلك ألف مرّة . إن هذا لعجيب! فما البحر ؟ البحر الذي يتمطيح على رمال الساحل مثل حوت ميت قد جرفته الأمواج ، وأين هو من دجلة الذي يجول في الأرض كسائح عالم ، أو عاشق هائم ، يسير بين القصور ، ثم ينزه وسط الحدائق ، ثم يمرّ على بساتين النخيل

فقاطعه أنور صائحاً : النخيل النخيل ... ألم تسمع ما قال المربّ ؟

وردنا ماء دجلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيلا

قال الشيخ : أي والله ، هو والله أشرف الشجر. لو رأيت ظلال النخيل في دجلة الساكن ، الذي يبدو عند الغروب كأنه المرآة المجلوّة ! فاذا مل القصور والحدائق والنخيل ذهب يمشي وحيداً في الصحراء . بالله اخبرني ماذا في نفسه من ذكريات ؟ لقد كان أمس يمشي في ظلال الايوان الشامخ ، ثم عاد اليوم يمشي على أطلاله الموحشة . ولقد كان يبصر قصر المتوكل العظيم في سرّ من رأى ، فرجع لا يرى إلا أنقاضا خالية فوق انقاض ... له الله كم يذكر وكم يتألم !

فقال أنور : آه لو كان دجلة شاعراً ...

قلت . أفليس على طرق دجلة شعراء ؟ فكم ديوانا في نظم دجلة ؟ أما لو كان دجلة جاريا في أرض الفرنسيين أو الانكليز ، إذن لملأوا به الدنيا شعراً

قال : هذا صحيح ، انا لا نصرف مقدار ما نملك . إنه لم يبق حادثة في تاريخ فرنسا أو انكلترا ، ولا بقعة في أرضهما إلا نظم فيها الشعراء ، وألف القصصيون ، ونحن نملك دجلة والنيل ولبنان ودمشق ، وعندنا تاريخ ثلاثة عشر قرنا ، يفيض بالبطولة والعظمة والمآسي والمباهج ، فاذا وصفنا وماذا ألفنا ؟ لاشيء يذكر !

فتألمت وحزّت في نفسي هذه الحقيقة ، فأحببت أن أبدّل مسرى الحديث ، فقلت للشيخ :

— ألا تخبرنا ما أمتع ذكرياتك في هذا النهر؟

فاهتز الشيخ ، وقال :

— تحب أن أحدثك عن أمتع ذكرياتي ؟ آه ... ماذا أذكر لك ؟ لقد قضيت سبعين سنة من حياتي أروح وأغدو في هذا النهر، منذ كان عمري.. منذ كان .. لقد كنت دون العاشرة ، حينما جربت أن أمسك الجداف بيدي الصغيرة، فكان أبي يشجعني ويستثير حماستي، ولم أخرج بعد ذلك من النهر. لقد شهدت فيه الخريف والربيع والصيف والشتاء، وأيام الصحو وليالي المطر ، ورأيت كثيراً حكومات مختلفة وثورات وحروباً ، ورأيت في زورقي آلاف مؤلفة من الناس، فرأيت الغني والفقير واليائس الذي يفر بآلامه إلى حضن النهر يلجأ إليه في ضيقه ، ويذيب ألمه في جماله، والعاشق الذي يبتغي الخلوة بمحبوبه بين الماء والسماء. ورأيت أشرافاً ومجرمين وكباراً وصغاراً ، وطربت وحزنت ، واستقبلت أولاداً وأحفاداً ، وودعت راحلين إلى حيث لا يعودون ... فمم أحدثك ؟ وماذا أذكر لك ؟

وسكت الشيخ يفكر ، ثم صاح وقد علت وجهه ومضة ، خطف نورها على جبينه المجعد قال :

لقد عرفت ، لقد عرفت ... إني مهما رأيت ومهما شاهدت فلن أنسى حادثة هي أعمق في نفسي من كل ما مرّ عليّ من حادثات الليالي . إنها أمتع ذكرياتي ...

لقد كانت ليلة من ليالي الخريف ، وقد بكر البرد فاعتزل الناس النهر . ولم يبق لنا من عمل ، فلففت بزورقي ، فانزويت حيال ذلك القصر أرتق زعير الليل . ألا ترى إلى هذا البناء الأحمر ؟

— قلت : البرلمان ؟

— قال : لقد كان فيه يومئذ مولانا الملك فيصل رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنانه ، فوقفت زورقي أنتظر رزق الله — حتى انتصف الليل — ولم يجيء أحد ، فتسرب الملل إلى نفسي فانطلقت أغني ... وإذا أنا بشباك يفتح فوق رأسي ويبرز منه رأس . فسكت وتأملته فاذا هو رأس رجل مهيب قد عدا طور الشباب . فانتظرت أن يؤنبني على أن أزعجته عن منامه بنشاتي ، وهل يليق بمثلي أن يغني تحت شباييك الملك بعد نصف الليل ...

ولكنه لم يعتب ولم يلم . وإنما قال لي بلهجة حلوة :

— مساء الخير يا عمّ !

— قلت : مسّاك الله بالخير يا بني . لا تعتب عليّ ، لن أغني بعد الآن . لقد كانت خطيئة من الملل . ما ذا أعمل يا بني ؟ دعْها لله ...

— قال : لا . أبداً . بالعكس لقد سررتني . إني مصاب بالأرق

— فضحكت وقلت : وأنا والله كذلك ولكني شيخ كبير والشيخ لا ينام . أما أنت فلا تزال شاباً

— قال : ولكنها الهموم ... هموم الحياة

— قلت : وما ذا تشتغل أنت هنا ؟

— قال : خادم . خادم لكل الناس ، وعندي عيال ...

— قلت : لعلك محتاج إلى مال ؟ لا تفكر يا بني . الرزق مقسوم . الذي لك سيأتيك

— قال : ولكن ... آه صحيح ! كله قسم ... الحمد لله

وأحسست كأن في صوته نغمة حزن أليمة ، ففهمت أنه محتاج وأخذتني الشفقة عليه ، وانتويت والله يا بني مساعدته ، (والبؤس يقرب بين الناس) فتلمست كيسي وجعلت أعد فلوسي في الظلام ، فاذا أنا أملك ستة وتسعين فلساً

قلت : هيه ؟ ما اسمك ؟

قال : لك أن تدعوني عبد الله

قلت : يا عبد الله ، نحن إخوان في الاسلام ، فلا تخجل مني ، خذ ، هذه خمسون فلساً ، انفقها على عيالك إلى أن يفرج الله وأنا آخذ منك عند ما أحتاج. لا تحمل همّاً . الرزق على الله

قد يده فأخذها ولم يقل شيئاً ، ولكني رأيت الدمع ... أي والله رأيت الدمع يترقرق في مآقيه

وانعقدت الصداقة بيننا وتوثقت ، فكان كلما أرق نادماني ، فأخرج رأسه من الشباك ، وطفقنا نتحدث ، فأبثه أحزاني ، وأنفض إليه وفاضي ، ويبثني ويشكو إلي . ورأيته قد يسر الله عليه ، فكان يعطيني العشار والخمسة والعشرة ، ثم يحتاج فيأخذ

منى ، ولكنى لم أكن أملك إلا عشرات من الفلوس فأدفعها إليه ، فيأخذها باسماً

وكنت مرة أناديه ، فما راعنى إلا شرطى نحيف الطلعة ، عابس باسر ، يقبل على وشواربه ترقص من الغضب ، وصوته ينلب صوت الزورق البخارى الذى يقله ، قال :

— أتسخر أمام قصر الملك أيها الوغد ! إذهب معى حتى أريك

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى دائرة الشرطة

قلت : إنى فى عرضك . أنا فى جوارك . عمرى ثمانون وما دخلت دائرة حكومة ، أفأدخل الشرطة مثل المجرمين بعد هذه الشيبة ؟

قال : إخرس (زمال) إمش معى بلا كلام فارغ

وجذبنى ، فجلست أبكى ولم أجرؤ على نداء عبد الله كيلا يطرد من عمله بسببى ، فأكون أنا الجانى عليه ؛ ولكنه سمعنى وفتح شباكه ، فلما رأيته خفت عليه ، فجلست أغمز بعينى وأشير إليه أن يدخل فلا يفهم ، فقلت له : أدخل

فانتبه الشرطى وقال : من هو الذى تخاطبه ؟

قلت : لا أحد

قال : والله لتقولن ، أو لأفعلن بك الأفاعيل

فخشيته والله على نفسى ، فقلت : أكلم عبد الله خادم القصر

فابتسم ابتسامة منكرة ، ثم حرّق الأرض علىّ وصرخ بى :

— لقد عرفت ، آه أيها اللص ! إنكما تسرقان من القصر . سأريك أنت وهذا الخادم الخائن . ماجزاء من يسرق مولاه الملك ورفعت رأسى . فوجدته فى الشباك فهمست به أن أدخل ، ادخل يا مغفل

فانتبه الشرطى ، ورفع رأسه . فلما رأى عبد الله بهت حتى صارت عيناه فى رأسه ، وفتح فمه من الدهشة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بعنف وشدة حتى مال به الزورق ، ووقف ينتظر

— فقال له : ماذا تريدون من صديقى : دعه واذهب

فعاد إلى التحية ، وأقبل علىّ يعتذر ويقبل يدى ويسألنى العفو عنه

— فقلت له وقد تأثرت لمشهد تذلله : اذهب يا بنى اذهب ، الله يسامحك !

فذهب المسكين وهو لا يصدق بالنجاة ، ووقفت حائراً لا أفهم من ذلك شيئاً ، حتى أخرج صديقى رأسه ، فقلت له :

— إيش هذا يا عبد الله ؟ إيش لون صرفته ؟ لقد خاف منك كأنك الملك

— قال : هذا من فضل الله

— قلت : ولكنه يريد أن يسوقك إلى السجن إنى أخشى عليك

— قال : لا . لا تخف !

وعدنا نتسامر ...

وكنت يوماً أسير فى شارع الرشيد ، وإذا أنا بصديق عبد الله يسير وحده ، ففرحت بلقائه وهرعت إليه فحييته وسألته إلى أين يمشى ، فقال بأنه يريد الباب الشرقى . قلت : ولم تمشى ؟ اركب (باصاً) . إذا لم يكن معك فلوس ، فخذ منى ، منى بحمد الله

فضحك وقال لى إنى أريد الرياضة . ولقد كانت

2017-11-15 15:15:48

مى سيارة أسوقها بنفسى ، فأصابها عطل عند (رأس القرية) فتركتها وسرت

— قلت : ألا تخاف أن يسرقها أحد ؟

— قال : لا . إن الشعب يحبنى كما أحبه

إي والله ، لقد كان الشعب يحبه ، وكيف لا يحبه وقد أنشأ له ملكاً ، وأقام له دولة ، وجعل له في الممالك المستقلة ذكراً ، رحمه الله . رحمه الله ...

— قلنا : ذلك هو الملك فيصل

— قال : وعمن إذن أحدثكم ! لقد كان الملك نفسه ، ولكنى — لنباوتى وغلظة قلبى — لم أعرفه . أو هل سمعتم بملك يكون مع مثلى فلا يشعره أنه فوقه ، وإنما يستدين منه فلساً ويعطيه ديناراً ، ثم يكون مع الملوك فيشعرون من أنفسهم أنه فوقهم ؟ رحمه الله ، رحمه الله !

سرت معه فى الشارع ، فما راعنا إلا الناس ، ينظرون إليه بعيون تفيض بالحب والاكبار ، ثم يحيونه ويفتحون له الطريق ويمشون خلفه وينظرون إلى فيمجبون منى ، إذ أتكئ على ساعد الملك . إنه يسندنى ويسيفنى لأنى شيخ كبير لا أطيق المشى ... فلما بلغنا الباب الشرقى رأيت الجند قد وقفوا لتحيته وصاح صائحهم بسلام الملك ، هنالك هوت رجلاى فلم تطيقا حملى ...

— قلنا : ثم ماذا ؟

— قال : لقد بقى يحدثنى من شباكه ، ولكنى لم أتنفع من نفسى بحديث ، إنى عرفت أنه الملك !

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، فترك الزورق يمشى مع الماء ، ساكناً هادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم ، وطفق يقول همساً ، كأنما يناجى نفسه :

— رحمه الله ، رحمه الله ، ذلك هو الملك العظيم !

على الطنطاوى

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال أو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المنزلية (على بأحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

2017-11-1

أجنحة الحب

عن الانكليزية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

« يارب ما هذا الكابوس ! »

ارتمى على المقعد بعد تناوله الغداء واستغرق فى النوم . وكان العرق ينصبب من جبينه وبداء ترتشان . ولما استيقظ بعد ذلك كانت حركته عنيفة يدل عنفها على عمق نومه

ولقد كان يحلم حلماً مزعجاً بدا فيه وجه زوجته وارتفع صوتها . وألقت عليه عدة أسئلة لم يحر جواباً على واحد منها . ولما فتح عينيه كان يصيح صيحة رعب تدعو إلى الاشفاق

وكان سبب هذا الازعاج كله شدة الحرارة فى تلك الغرفة لأن الموقد لم يطفأ ، وكانت النوافذ كلها مغلقة

على أن (هيلارى بنسون) عاد فأغمض عينيه مرة أخرى فعادت أفكاره إلى ذلك الكابوس البشيع الذى يعتاد أكثر من ينامون بالنهار . ورأى فى الحلم زوجته شيليا تنبئه بأعجب الأنباء وتخبره فى صراحة بأنها تبغضه وبأن حياتها معه مستحيلة وبأنها كانت ولا تزال تحب (جيلبرت راى) وبأن كبرياءها وسوء فهمها لمعنى الشرف قد جعلاها تذعن للرجل الذى يدعونه زوجها . وأنها لذلك حملت أعباء التعاسة خمسة أعوام

ما أفظع ذلك الحلم !

لكنه بحمد الله ليس إلا حلماً فقط ! ... على أنه رأى شيئاً آخر... كان على المنضدة أمامه خطاب رآه فى النوم، وها هو يراه الآن فى يقظته ، فدهش من توافق الحلم واليقظة . وكانت زوجته قد غضبت من شىء فكتبت إليه بأنها ذاهبة ولن تعود . وقرأ الآن هذا الخطاب فوجده بهذا النص :

« لا أستطيع أن أستمر على الحياة معك فقد سئمت من مغالبة طباعى، وعند ما يصل هذا الخطاب إليك سأكون قد فررت فلا تحاول البحث عنى »

ضحك هيلارى بنسون ضحكة عالية إذ ظن أنه لا يزال يحلم رغم يقظته، ثم ضحك مرة أخرى وتنبه فوجد الخطاب أمامه وأدرك أن معظم الأمر حقيقة، وقد يكون قد قرأ الخطاب قبل أن ينام ثم فقد الوعى قبل إتمامه . وهو رجل ضعيف البنية فالصدمات العصبية تأثير عنيف عليه

ذهبت شيليا إذن ؟

ولكن إلى أين ؟ هل ذهبت إلى جيلبرت راى؟ إن كانت الحقيقة كذلك فسيمر فاق ظرف ساعة . واستدعى الخادم وهو يعتزم استجوابها وتعرف كل شىء من ترقب وجهها وفحص ما يبدو عليه من العلائم

ولكن لما جاءت الخادم لم يجد فى نفسه القدرة الكافية على ملاقاة نظرها، وقال وهو ينظر إلى جهة أخرى : « أظن مسز بنسون قد خرجت ؟ »

فقالت : « نعم . بعد تناولها طعام الإفطار مباشرة »

قال : « وحدها ؟ » ، ثم لعن نفسه لأن هذا السؤال سخيف ، ولا بد أن تكون قد خرجت

2017-11-16

وحدها . وقال مصححاً سؤاله : « ألم تقل إلى أين ذهبت أو متى تعود ؟ »

وظن لهجته غريبة فى نظر الفتاة ، وقبل أن تجيبه عاد فقال ليخفف ما ظنه غريباً : « إن سبب سؤالى هو ظنى أنها ستسافر ؛ ولست أتذكر هل هذا هو اليوم الذى أخبرتنى بأنها ستسافر فيه أم لا ؟ »

وكانت النرزة تدفعه إلى إخفاء الحقيقة عن عينين متسائلتين . وكذلك أفجع الحوادث توحى بمثل هذه الرغبة فى الكتمان . فلو أن أمرها لم يصل إلى علم أحد غير أصحابها لما فكروا فى نشرها

وقالت الخادم : « إن سيدتها لم تأخذ معها شيئاً عند خروجها إلا حقيبة اليد التى اعتادت حملها . ولم تقل كلمة يفهم منها أنها ستغيب »

فشكرها وقال : « إن زوجته لا بد أن تعود فى وقت العشاء »

ثم مشى وهو ذاهل وقد ازداد ألمه . ولكن الفتاة لم تشعر بشىء غير عادى ، ثم عادت إلى المطبخ لتعد العشاء لسيدتها وسيدها

ولما بقى الزوج وحده فى الغرفة تحالك وعزم على الذهاب إلى بيت جلبرت ، فإن وجد زوجته هناك أمرها بأن تعود فى الحال إلى مسكنها الشرعى ، وإن لم يجدها الآن فانه سيجدها فى اليوم التالى أو فى غده أو فى اليوم الذى يليه . وعزم على عدم العود إلى المنزل حتى تعود ، وأقسم لا يجلس إلى مائدة الطعام إلا وهى بجانبه

— ٢ —

ذرعت عربته الأميال الواقعة بين منزله وبين منزل (جلبرت راى) وكان الزوج قليل الأمل فى بقائها هناك لأن شخصين مجرمين من هذا النوع يبعد وجودهما مطمئنين فى منزل أحدهما

لكنه عزم على البحث عنها فى كل مظنة من مظانات وجودها . ثم يتابع البحث وهو يشعرها بأنه لا يظل مطمئناً فى داره . وكيف الاطمئنان وهو زوج مخدوع !

وقال للخادم : « هل المستر راى هنا ؟ إن كان هنا فقدم إليه هذه البطاقة » وأعطاه بطاقته فقاده الخادم إلى غرفة الجلوس ، وفيها استقبله رجل مسن وقال : « أأنت المستر بنسون ؟ أتذكر أنى رأيتك منذ عدة أعوام . أتريد أن تكلمنى أم تكلم ابنى ؟ »

فقال هيلارى بنسون : « إننى أريد أن أكلم ابنك جلبرت . ومهمتى معه سريعة لا تحتمل التأخير وأرجو أن تخبرنى أهو الآن فى المنزل أم لا ؟ »

نظر الرجل المهرم إلى بنسون نظرة استغراب لما فى لهجته من الانفعال ، ودنا من مكتبه فأخرج منه بطاقة وقال : « إن ابنى لا يقيم معى الآن وأنا آسف لذلك لأن مسكنى مظلم فى غيابه ، ولأنه يؤلم من كان فى مثل سنى أن يقيم وحده . وإذا كنت تريد مقابلة جلبرت فستجده فى هذا العنوان » :

وقدم إليه بطاقة فتناولها هذا وهو يرتعش ، ولم تخف حالته على الرجل المسن . ولكنه كان وديعاً رزيناً فلم يبد ملاحظة . وحاول بنسون أن يتكلم ولكنه لم يستطع فخرج وهو يتلمس فركب عربته

ولو أن بنسون فكر قليلا بعد ما شمه من هذا الرجل لأدرك أن فتى مثل جلبرت لا يترك مسكن أبيه ليقيم فى ضاحية إلا إذا كان معه امرأة تسكنه ، ولم يخطر بباله قط أن جلبرت متزوج : لأن رغبته فى الانتقام لا تتفق وهذه الفكرة . ولكنه لما ذهب إلى المنزل ووجد صاحبه متزوجاً واستقبلته تلك

2017-11-1

الزوجة وأخبرته بأن زوجها جلبرت راى لا يعود إلا فى الساعة السابعة، وسألته هل الأمر الذى جاء من أجله يدعو إلى مخاطبة زوجها بالتليفون ؟

— قال بنسون إنه لا مدعاة إلى ذلك. وخرج وهو صاحب لأن مهمة ثانية ألقيت على عاتقه هى البحث عن رجل آخر تحبه شيليا غير جلبرت راى

لكن زوجة راى لم تتركه ينادر المنزل وهو متذمر يخاطب نفسه بصوت مرتفع وهو لا يدرك ذلك . فدعته وقالت : « أنت لا تعرفنى ولكننى أعرفك ، فأن زوجتك شيليا صديقتى وقد كانت طالبة معى فى المدرسة

ابتسم بنسون ابتسامة ارتياح ولم يجب فقالت : « إذا كنت أستطيع تأدية الخدمة التى جئت من أجلها لمقابلة زوجى فانى مستعدة لها » فلم يجد بنسون بداً من الكلام وقال : « أنا أعرف أنك صديقة شيليا ومن أجل ذلك جئت ، فانها خرجت اليوم من المنزل فظننت أنها جاءت إليك »

فنظرت كلارا إليه نظرة المرتاب ثم قادته إلى غرفة الجلوس وقالت : « إجلس فربما استطعت مساعدتك على وجودها . فهاهو التلفون قريب منى »

فاطمأن بنسون إلى هذه الهدنة وجلس وهو يلوم نفسه على خطئه الفظيع فى اتهام جلبرت بزوجته . وقالت كلارا : « لماذا جئت تسأل عن زوجتى فى أثناء بحثك عن زوجتك ؟ »

اضطرب بنسون وقال : « لأنى ... لأنى ... » فقالت مقاطعة له : « تريد أن تقول إنك تعرف صداقتى بها وأنها ... ربما جاءت لكى تقيم فى ضيافتى يوماً أو يومين ؟ »

قال بنسون وهو ينظر إلى العينين الجميلتين الحدقتين فى وجهه : « نعم هذه هى فكرتى » فقالت كلارا : « إننى لا أرى فائدة من الكذب؟ والحقيقة أنك لم تكن تعلم أن جلبرت متزوج . وقد أخبرتنى شيليا بأنك منعتها عن ذكر اسمه أمامك . وقد جئت اليوم وأنت تظن أن الخيانة هى السبب الوحيد الذى يدعو الزوجة إلى ترك زوجها » فقال بنسون وقد بدا عليه الخجل : « لقد كنت مخطئاً فقد بدا لى هذا الخاطر فى حدة الغضب . وأرجو عدم المؤاخذة يامسز راى؛ وسأخبرك بالقصة ثم أسعى إلى نصيحتك . إن شيليا تركت لى خطاباً بأنها غادرت المنزل ولن تعود إليه . ولست أستطيع أن أكتم عنك حقيقة هى أن جلبرت كان يحبها منذ سنوات »

قالت كلارا ببساطة تامة : « أنا أعرف هذه الحقيقة وأخبرنى بها زوجى » فقال بنسون : « إن ارتيابى اليوم كان خطأ ، ولكن لماذا تركت منزلى ؟ هل شكت إليك من أنى عجزت عن إسعادها ؟ »

قالت كلارا : « إنك ضغطت على جناحيها فلم تمكنها من الطيران » فقال : « إننى لم أفهم ما تقولين »

قالت : « هكذا أنتم أيها الرجال. فهل إستطاع رجل قبلك أن يفهم المرأة ؟ ان شيليا كالطائرة خفيفة القلب تريد أن ترفرف بجناحيها لحظة حول منزلها ثم تعود إليه كما تفعل الحمائم حول عشها . ولكنك تضطرها إلى الاقامة فى ظلمة الحياة المنزلية دون أن تفرج عن نفسها لحظة . إنها تحب الروح والموسيقى والألوان المبهجة ، فكم مرة أخذتها إلى المسرح ؟ »

قال : « عندما يعود الرجل متعباً إلى منزله بعد عمل يستغرق طول النهار فمن الطبيعى أن يظل فى

2017-11-1

المنزل » فقال كلارا : « وأنت لا تحب العزف على البيان ، فاذا عزفت شيليا أمامك طلبت إليها أن تسكت ؛ وإذا تكلمت رجوتها أن تترك الغرفة . هذا هو أنت ، وهذه هي شيليا التي أعرفها حق المعرفة »

فكر بنسون فيما سمع ثم قال : « بعض النساء يقمن واجباتهن المنزلية خير قيام ولا يطلبن المهر وأظنك واحدة منهن » فقالت : « نعم ولكن عندي من الترضيات ما ليس عند شيليا فانني ابناء ليس لها »

قال بنسون : « قد أكون مندفعاً أو أنانياً ، ولكن هذا ليس بصلح عذراً لترك المرأة منزلها . وقد كنت ألاحظ من شيليا هدوءاً في العهد الأخير فأظنه علامة على الرضى ... على أن البحث عن التفاصيل ليس بفيدني الآن ، وأنا أريد زوجتي يا سمر راي ولا أعرف كيف يقابل الزوج خدمه وأصحابه إذا تركته زوجته » فقالت : « أنت لا تفكر إلا في نفسك فهلا فكرت في شيليا ؟ »

قال : « لقد أقسمت لا أجلس إلى مائدة الطعام إلا وهي بجانبي ولا أعود إلى المنزل حتى تعود » فقالت كلارا : « لقد وعدتني باستماع نصيحتي فاذهب إلى منزلك وانتظر عودة شيليا فأنا أعرفها . إنها تحاول تجربة أجنحتها ، ولكن أجنحتها لن تستطيع حملها مدة طويلة ، وليس ابتعادها إلا تموجاً في الفضاء إلى أمد قصير

قال : « أهذا هو رأيك ؟ » فقالت : « نعم ، فاذهب إلى منزلك ولا تمد إلى الضغط على جناحيها »

قال : « ولماذا لم تخبريني بالمكان الذي ذهبت إليه ؟ » فقالت : « لأنك كنت تتبعها غاضباً صاخباً وتريد من الضغط عليها فلا يهمك أنها غابت ويجب أن تكون واثقاً منها

— ٣ —

عاد بنسون إلى منزله في هدوء فجلس في الغرفة التي يسميها غرفة مكتبه ، وكان الليل قد أقبل وابتردا الجو فانتشى أمام نار الموقد . وجاءت الخادم تخبره بأن العشاء قد أعد . ومع أنها لم تسأله عن سبب تغيب زوجته فقد كان عليه أن يخبرها متتحلاً أي عذر ، ولكنه أسرع على عدم الكلام فقال : « إذهبي فأعدي الطعام ولا تعودي إلى مرة أخرى حتى أدعوك . هل فهمت ؟ لا تعودي إلي ! »

وذهبت الخادم وأخذ بنسون يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة ، فلما زاد اضطراب أعصابه خرج من الغرفة وهو لا يعرف إلى أين يذهب ، ولكن الغريزة قادته إلى غرفة المائدة فجلس ناسياً قسمه بألا يجلس إليها حتى تعود زوجته . وتناول أول قطعة فتذكر قسمه واستمان بخياله على تحقيق مطلب الجوع فتخيل زوجته جالسة على الكرسي الذي بجانبه ، ووضع أمامها طبقاً وصار يقسم الطعام بين طبقه وبين ذلك الطبق . فلما هدأت ثورة الجوع قليلا أدرك أن عمله هذا مضحك ، وأن الخادم إن رأته فسوف تسخر منه . لكنه اطمأن إلى أنه أمرها بعدم المجيء

وفي هذه اللحظة فتح الباب الذي وراءه وسمع هفهفة ثوب ووقع قدمين فلم يجرؤ على الالتفات ، وقال وهو يحسب أنه يخاطب خادمه : « لماذا جئت ؟ ألم أقل لك لا تعودي ! »

لكن التي فتحت الباب استمرت تمشي والتفت مكررها فرآها زوجته فصاح : « شيليا ! »

على أنه لو كان لم يقابل كلارا في ذلك اليوم لاستقبل زوجته بمثل هذه الجفوة : « أيتها الحمقاء

2017-11-11

ما هذا السلك المزري ؟ لقد خرجت على ألا تعودي فنعمت في أقل من ساعة وأضحكت الناس على نفسك. إياك أن ترجعي إلى هذه الحماقة مرة أخرى »

لكن كلمات كلارا أثرت في نفسه تأثيراً حسناً فانفقد لسانه ثم ابتسم وبعد لحظة قال : « تعالي إلى عشك يا طائري الجميل . لقد كنت لا أعرف كيف أتناول العشاء في غيبتك فتصورتك بجانبي ، وقد كنت مخطئاً عند ما تعاودنا للمرة الأخيرة ، وكنت أجن عندما تسلت خطابك وأقسمت لا أعود إلى المنزل حتى تعودي ولا أجلس إلى المائدة إلا معك »

قالت شيليا : « وما الذي غير رأيك ؟ » فقال : « إن كلارا راي قد أرتني مبلغ أنانيتي »

قالت : « وما الذي جعلك تذهب إلى منزل راي ؟ » فرض على ألا يبوح لها بريته ، ولكن أي تعليل آخر كان مستحيلا لأن زوجته تعلم أنه يعتقد بأن جلبرت غير متزوج فقال : « لأني ... لأني ... » وتلعثم فقالت : « الواقع أني كنت هناك وقد ذهبت لزيارة زوجته لأنها زميلتي في المدرسة ولم أخبرك بأن جلبرت متزوج لأنك كنت تتعمدي من ذكر اسمه »

قال : « لقد كلمني كلارا بما تنبه ضميري »

وقالت كلارا : « هما جناحان ضعيفان لا يقويان على حمل يا بنسون ؛ وقد كنت أحاول تربية جناحين آخرين ، فلما جربت الفرار بهما من الحياة الزوجية لم أستطع ؛ ولذلك لن أعيد التجربة مرة أخرى »

فقال بنسون : « بل ستريدين ولي جناحين حتى إذا ملأنا العش طرنا سوياً في جولة قصيرة حول عشنا ثم عدنا إليه »

عبد اللطيف النشار

الصيف خفيف هـــذا العام
لأن
شركة مصر للغزل والنسيج
تقدم لكم المنسوجات القطنية
الخفيفة على اختلاف انواعها
معتدلة في أثمانها جميلة في الوانها
فبادروا بأخذ طلباتكم

سر مجهة القارة المظلمة

بقلم تونى كراوس

للأستاذ محمد لطفي جمعة

ما هو ذلك السر الذى يجعل الماضى فاتناً ، على الرغم من سواد بعض حواشيه ومرارة مذاق الكثير من أيامه ؟

ما هو ذلك السر الذى يمثل دور النقاش الماهر الذى يتناول الأقلام والألوان ليصبغ الحوادث بصبغة زاهية وردية وبنفسجية وخضراء رائعة ؟

ما هو ذلك السر الذى ينفخ من روحه فى أشباح الليالى والأيام الخالية فتنتفض مبعوثة من قبر الذكريات كالموتى التى تعاودها الحياة يوم النشور ، وقد خلعت عليها القوة الخالقة أثواباً قشيبة وحللا موشاة مزركشة ؟

بل ماهى القوة الخفية الماكرة الساحرة التى تنشر أمام عينيك لوحات مسلسلة متصله ، متحدة من تصاوير الحياة التى جرت وكرت وفرت . وقد أتقنت التقاطها وأكتنازها وعرضها ، حتى إذا تأملتها وأنمعت النظر فيها أذهلتك دقتها وبراعة الحرص عليها ، فلم يفتها شىء مما يكون قد فاتك ولم تنه فاكرتك فتراها ماثلا أمامك كأنك تراه وتسمعه لأول مرة

هل هذه «الفرجة» العجيبة نعمة أو نقمة؟

أهى هبة وموهبة تحمد الطبيعة عليها ، أم بلاء ووبال يسعد المرء بالخلاص منه ؟ الحق أننى لا أزال حائراً لا أدرى ما أقول لك ، وأنت التى حركت هذه الفكرة العميقة فى نفسى وأثرت كامن دائى

أهذه لوزان وبحيرة ليمان وأوسى التى غادرتها منذ عشرين عاماً ، بعد أن أرغمتنى طوارئ الحياة القاسية على قطع حبال الشباب ، وتبديد أواصر السعادة ، فهجرت غرفتى ودرسى فى ڤيلا بيانكا بأفنود بزاليب . لقد مات أبى فى جنوب أفريقيا ، هيرمان كراوس صاحب منجم الماس المنسوب إليه فى السبعين من عمره . ولم يكن مريضاً بداء سوى الشيخوخة المباركة السعيدة ولكن فقده كان ألماً علىّ وعلى والدتى لأننى أول أولاده وآخرهم .. نعم . نعم إنه لم يتزوج إلا بعد الخمسين من عمره بأشهر معدودة . وهو الذى جاء بى فى العاشرة من عمرى إلى ڤيلا بيانكا لأتلقى اللغات الحديثة على موسيو بروشيه وزوجته . كان يحب أن ينشئنى بعيداً عن بيئة المناجم

(تونى كراوس هو كاتب هذه القصة القصيرة ، وقد أثارت شكوكا كثيرة لأن بطلها يحمل لقب المؤلف نفسه . فتساءل القاد إن كان قريبه أو بعيد له برابطة من روابط الدم والنسب . وعلى كل حال فان القصة لاتنطوى على مايدين بطلها . . وليس الحذق فى اختيار الموضوع بقدر المهارة فى سرد الوقائع وبسطها ونشرها بعد طيها ، وانتخاذ العقدة من نوادر الأقضية والأقدار ، وحلها على طريقة سهلة لينة تغرى القارىء بتتبعها بالقصى الشوق . أما الراوية المزعوم — ولله الحقيق — دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس فلم يرث عن أبيه سوى اللالىء وتاريخ الحصول على الكنز . أما الخاطر ثم المغامرة وتجرع كؤوس الألم فلم يرث الولد منها شيئاً سوى الميل إلى الترف والاضطجاع على المقاعد المزازة فى الفنادق الكبرى فى جنب الخطيئات وقد سلك المؤلف مسلكا طريفاً فى سرد الحوادث الفاجعة بتسلسل وسلاسة يدهشان له بلو الكعب وطول الباع) . عن وايفورلد مجازين (مجلة أرض الله الواسعة)

(١) نجفة حالة الشموع من المعدن والبلور candelabrum ويمكن تعريبها بالثريا مجازاً وفى العربى النجف الاشرف Candelabre

الصاخبة المهلكة . ليس المال الذي تركه لوالدتي ولأمي هو الذي يهمنا . كان يهمنا أن يعيش ولو عشر سنين أخرى ، حتى أبلغ ختام العقد الثالث ، كانت هذه هي أمنيته . ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه . كان يزورني كل عامين مرة . . ومنذ سار الطيران مأمون المواقب كان يجيء إلى سويسرا مرة في العام مصحوباً بوالدتي . والمرة الأخيرة باقية صورتها في ذهني لا تزول كأنها شريط صورة متحركة ... كان يشعر المسكين أنها زيارة الوداع . وكان يقولها وقد أفضى إليَّ بسر حياته . إنه سرٌّ رهيب يأنطونيا . انت فرنسية ... فلاحة من شالون سيرسون ... ماذا تقولين ؟ قرية شوفاي ؟ . ربما ! أنت طبعاً أدرى باسم قريتك الذي لا يهمني بقدر ما يهمني جمال عينيك وسواد شعرك وتنضيد ثنايك . . أقول إنك فلاحة فرنسية فلا يمكن أن تدركي روحي وروح أبي . أي نفسيتنا — حالتنا النفسية — عقليتنا غريبة عنك وعن قومك . نحن هولانديون أصلاً ، ويهود عقيدة وانجليز وطناً ومغامرون هواية وباحثون عن المال في كبر في احتراف . وقبل كل شيء طلاب مال ، وقد حصلنا عليه مصادفة وتوفيقاً بعد أن فشلنا في اجتهادنا . . ليس النجاح حليف الاجتهاد أبداً . . لا تصدقي هذا الوهم . هذه خرافة اخترعها اتباع الفكر الحر والملاحدة .

المرء يا نينا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ... صدقيني ... إيه ؟ نعم ؟ تقولين إني قدري لأني يهودي ؟ ويدهشك أني أبدو أكثر ذكاء مما ينبغي لمثلي في مثل سني ! كذبت وأبيك ، أنا قدري ، أومن بالأقضية والأقدار ، لا لأني يهودي ، بل لأن حياة أبي صفحة من كتاب القدر ، والواقع يؤيدني وأبدو أكثر ذكاء مما ينبغي لمثلي . هذه محنة أو منحة ؟ نينات تفسر كلمتك . إن كان ما ترجمين صحيحاً ، فلأني عشت سنوات التكوين بعيداً عن حنان والدتي ، ولا سيما أمي ، فلم أتعود التدليل والملاينة فاعتمدت على نفسي في معظم الأحوال ، حنان بروشيه الرجل وبروشيه المرأة كحنان الإوز ، صوت يجلب الصداع ، بلا ندى ولا رضاع . فربيت نفسي وأدبتها . وأنت أيضاً لك الفضل في تعليمي . أنا أحبك منذ ثلاث سنوات وأخفي حبك عن العالمين . لو علم أبي بملاقاتنا لقطع أسباب رزق وتركني ضائعاً في شوارع لوزان المتحدرة ، كنت أبيع القطن شتاء والبنفسج صيفاً على متنزه مونبونون ، أنا دوجلاس ابن المكرم هيرمان كراوس صاحب منجم الماس بكيمبرلي . وحتى هذا الشيخ الطيب بروشيه ، لو لمحني في تلك الفترة لوكشى بي عند والدي لينال الحظوة والمكافأة . والحق يقال إن والدي أغدق عليه وأوساه بي . وحمل إليه هدايا كثيرة من كابتون وباموفونتين ولادي شيت ، خصوصاً ذكريات حرب البوير الأليمة التي دوختا فيها جيوش جلالة الملكة والأمبراطورة فيكتوريا ريجينا . نحن سلالة البوير الأماجد ، ورئيسنا كروجر قويل في مرسيليا بمظاهر التعظيم والفرح ولكن هذا تاريخ قديم . يهمني أن أقول لك إن قومك قوّالون لا فعّالون ، ضيف لا لبريتيه ! وبعد ذلك بقليل ضيف لا نجلتير . لا يهمكم إلا الفرنك ومستعمرات شمال أفريقيا وبعدكم الطوفان ولكن الله سلّم ! لم يرنا أحد ، لأني كنت أحتاط في رحلاتنا الصغيرة إلى مورجان وشاتيل جيون والآن يا نينا يمكنني أن أعيش معك في سراحة

2017-11-1

وعلانية ، بعد أن مات الوالد العزيز . لقد سلبنى موته سعادة الشباب وعدم الشعور بأعباء الحياة ، وجلب لى الحربة والملال . أى ؟ ... أنا لا أعبأ بها. إنها فى الخامسة والثلاثين من عمرها وغنية جداً ، وتملك قصوراً فى هولاندا وورثتها عن أبيها إيليا فان كيكوم أحد الشركاء فى مصنع قطع للناس فى استردام ، وشياعاً ومناجم فى جنوب أفريقيا وورثتها عن أبى فما حاجتها إلىّ . يمكنها أن تتزوج بمن تشاء فى أى وقت تشاء، وليس فى الوصية الكريمة شرط يمنعها ولا فى شريعتنا مانع يحرمها نعمة القيران .. أنا لا أذهب إلى جنوب أفريقيا إلا مرة واحدة كل عام لأقبض نصيبى وأشرف على مجلس إدارة المنجم الصغير الذى وقع فى سهمى . وهكذا هبطت من سماء التعليم الجامعى إلى حضيض الاتجار بالجواهر — كوهى نور — كوكب أفريقا — درة رودوسيا — ولكن أعظمها جميعاً نجمة القارة المظلمة . طبعاً أنت لا تعلمين شيئاً عن تاريخ تلك الجوهرة الفذة : نجمة القارة المظلمة . إن تاريخها هو تاريخ ثروتنا — ثروتنا وفقرنا — أعنى أننا بدونها لم نكن شيئاً مذكوراً . إننى تلقيت السر عن صاحب الشأن نفسه فى القصة ، عن والدى الناظر الدكر هيرمان كراوس . (فيرست هاند أنفورماشن) كيف أقولها لك بالفرنسية ؟ خير صحيح عن صاحبه مباشرة — حديث مباشر لا وسيط فيه بينى وبينه، لم لى به قبل أن يموت بمنصة أشهر . لقد قلت له بعد أن حكاه واضطجع منهوك القوى : بحق جيهوا ، إنك واسع الخيال يا والدى خصب المواهب . خسارة كبرى أنك لم تنل حظك من تأليف المرئيات(١) للصور المتحركة. وكنت جاداً لا هازلاً . فابتسم المرحوم ابتسامة صفراء ، ثم حرق الأرض وأبرز فكه الأسفل وبدت فى نظرته الشزراء شملة لم أر مثيلها وقال لى : حسناً تفعل إذ تشك فى صدق أبيك . وقفز فى أقل من لمح البصر وعد بالوثائق التى لا تقبل الشك فى إثبات صدق روايته . وإليك الآن خلاصة منها كما حدثنى أبى : « قال نشأت فى جنوب أفريقيا من والدين هولانديين ، وكنا نعيش فى ضيعة صغيرة على ضفاف نهر أورانج، وكنت منذ نعومة أظفارى أسمع الحديث عن الأحجار الكريمة ، والجواهر الثمينة ولاسيما الماس . فاعتقدت بكل قواى أن ثرائى وعزى ومستقبل حياتى فى الماس ، دون سواه . فى ذلك الحجر اللامع البرّاق الذى يشع منه النور بقوة سحرية . ولكن أبى كان يعترضنى ويوصينى بالأرض والزراعة ويقول : إن الطبيعة خير ضامن لحياة الانسان، وإنها إن ضنت عليك اليوم بخيرها ، لا بد أن تجود بأضعافه غداً. الأرض كالوالدة تغضب يوماً وترضى أياماً . ولكن قوله لم يقنعنى قتيلاً ، فهجرت المزرعة والاسطبل والمرعى ، ورحلت إلى رأس الرجاء وتاتال ودوربان ومدغشقر، واشتغلت فى كل صنعة وفن حتى ادخرت مالاً قليلا فشددت رحلى إلى مناجم الماس وشريت « أسهماً فى امتياز » ومعنى ذلك أننى نلت حقاً بالبحث والتنقيب ، فاستأجرت عمالا واستعنت الله فى بقعة من الأرض الموعودة . وأخذنا نعمل ليل نهار فى بطن الأرض نتلمس البريق من خبايا الطبقات المظلمة حتى إذا لمحنا ما يشبه اللمعة طارت نفوسنا شعاعاً ... ولكن أتعابنا ذهبت هباء ، وهكذا المال ... وهناك حول جيمستون وكيمبرلى وكونكوست لوك رجال يتجرون فى عقولنا ويعيشون

(١) فى الأصل سناريو

2017-11-1

على غفلتنا ، فيبيعون لكل راغب خرائط رثة ورموزاً عتيقة وورقاً مزيفة يزعمون أنها نتيجة فحص النقيبين وأنهم يملكون مفاتيحها بشرط أن تشتريها فيدلونك على نفس البقعة التي لا تحوجك إلى كثير عناء . ويزينون حديثهم بإبراز قصاصات من الصحف تؤيد مزاعمهم وتصمم ويدعمون خرافتهم بأسماء وألقاب وتواريخ . فلا يكاد أحدنا من المستجدين على قائمة الأطماع التي لاحد لها ، يسمع ويقرأ ويري وجه المهندس الجعد وحاجبيه الأيمنين وجبهته اللي ء بالخطوط والتنايا وعينيه الخارقتين كعيني العُقاب حتى تزول آخر شكوكه ، ويؤمن بصدقه ويجود بالمال في سبيل الحصول على « دليل المنجم » (وهم هكذا يسمون تلك الخرائط والرسوم) فيتوهم أنه حصل على عقد ملكية أو « حجة بيع » لأرض ثابتة الحدود والمعالم لا ينقصه إلا وضع اليد لاستغلالها ولم يخطر ببال أحد منا ونحن نبذل المال في سبيل هذه الخرائط الوهمية أنها لو كانت ذات قيمة أو تدل على مواطن المناجم لكان صاحبها الذي يبيعها أولى الناس بها . وحدث في يوم من الأيام أن عرض عليّ أحد هؤلاء المناجرين بالخيال والآمال فأخرجت الثمن مائة جنيه انجليزي وتناولت الورقة بيدي ثم وقفت فجأة وامتنعت عن الدفع وقلت له :

— إذا كان ما تقول حقاً فما يدعوك إلى التفريط في دليل المنجم بالبيع ؟

فابتسم الرجل ابتسامة عريضة ساخرة وكشر عن أنياب طويلة صفراء وقال :

— سؤال وجيه والجوابُ عليه أوْجَه . اعلم ياسيدي الباحث عن المال أن شراء العدد واستئجار الرجال وتأسيس مستعمرة للتنقيب وتسليح الحرس ونفقات العلاج وأنصبة التأمين على حياة العمال الذين قد يقضون نحبهم في جوف المنجم ، كل تلك النفقات تفوق مقدورى على الصرف . ولو وجدت رجلاً مثلك يقدم المال ليكون الأمر بيننا مشاركة بالنصف ما فرطت في هذا الدليل بالبيع . قلت: ولمَ لا تؤسس شركة مساهمة

قال : يطلب مجلس الأمناء قبل الاكتتاب برأس المال الوقوف على السر ، فاذا وقفوا عليه ضربوا بالشرف عرض الحائط واستئثروا بالمنجم لأنفسهم وهذا حدث بنصه وفصه لجون صاملسفلند وها كني كوتش سبرنج وكاپن كاندر دويست الهولندى وغيرهم .

فما كاد الرجل يفرغ من كلامه حتى دفعت المال وأخذت الخريطة

واعتدل المتكلم دوجلاس كراوس في مقعده على فيراندا فندق بوسيجور المطلة على بحيرة ليمان في في مدينة لوزان تلك المدينة التي تملح فيها على يد موسيو بروشيه وحرمه . وأفرغ نظراته الحارة الخارقة في عيني عشيرته أنطونيا شيتو (وكان يدعوها نينا تدليلاً) تلك الريفية من شوقاى سيرسون التي علمتها شالون . ومد ذراعه القوية المتينة حول خصرها ودعا بالخادم وقال له :

زدنا من ذلك الشراب الأخضر

فقالت نينا : پيرنو . ثم نظرت إلى عاشقها العملاق الحليق الشاوب والمارسين وقالت له : إنها قصة عجيبة عميقة ، يزيدها جمالاً أنك راويها ، وأنها حقيقة لاشك فيها

فقال : كما أنذكر أنه لولا ما قاساه أبي هيرمان كراوس من الآلام ووقع فيه من المخاطر، لم أكن

2017-11-11

لأتجع بشيء مما أنا فيه من ضروب النعم ، أشعر بلذعة الندم على أنني لم أكن قادراً على سموته .

وجاء الخادم بالقنينة الخضراء والكأسين فلأمها وأبرقت الخمرة الزمردية في ضوء الأصيل وانسكبت أشعتها على معدن الآنية البيضاء اللامعة . وانحنى دوجلاس على وجه نينا ليقبلها فرفعت رأسها وأدنت فمها من فمه في قبلة طويلة حالمة

— ومن العبث أن أقول لك ياولدي — هذا أبي الذي يتكلم وإنينا لاتفتقدني خيط القصة — حذارا — من العبث أن أقول لك ياولدي إن بائع الخريطة هو الذي فاز بالمنجم ، منجم الذهب أي المائة جنيه التي دفعتها . وهاهي ذي الخريطة عندي لم يقوَ أحد على حل رموزها . ولو كان الملك سليمان نفسه نبي عشيرتنا نحن بني إسرائيل حياً يرزق ما قدر على فك أسرارها . فلما فقدت ما كان مي عدت إلى العمل والكفاح حتى جمعت ألف جنيه — ومن يستطيع دخول باب الجنة أو جهنم بأقل من هذا القدر من المال ؟

وفي هذه المرة ابتسمت لي الدنيا فانى تعرفت إلى نقابة من الباحثين — يسمونها نقابة أبي نواة لشركة مساهمة — كنا أربعة ومع كل منا ألف جنيه، فبحثنا عن خامس يملك ألفاً آخر ، حتى وجدناه ، فانضم إلينا وهجمنا على منجم مهجور واصطنعنا عقد بيع صوري من أصحابه الأقدمين ولم نكن نعرفهم ولم نسمع بأسمائهم ، ولكن في ديامونديفيل وكلاء أعمال ووسطاء يقومون بهذا النوع من الخداع والتزييف . ثم سجلوا العقد وختموه بأختام أوراج ريشر كولاني وترنسفال ريبيليك — ولا يزال ختم هذا المسكين كروجر عندي على هذه الورقة البالية — أنت تعرفه في التاريخ ، إن لم يكن الانجليز عموا اسمه من دفاتر التلاميذ في المدارس ، هو الرجل البوري العجوز الذي وقف في وجه امبراطورية بريطانيا العظمى لحرية وطنه . ثم أخذنا في العمل على قدرما يسمح به رأس المال الضئيل . خمسة آلاف جنيه رأس مال ضئيل جداً كالقاية على أذن الفيل ، بالنسبة للأموال التي تجمع وتنفق بل تذوب . إن المال الذي يضيع كل عام في البحث عن الماس يكفي ثمناً لنصف الماس الموجود في العالم — تصور ياولدي دوجلاس . وأخيراً .. بعد جهاد دام ثلاثة أعوام دفنا فيها سعادة العيش ورضينا بشظف الحياة — عثرت أنا بالحجر الكريم في شكل فصوص صغيرة لا تزيد على قلامة الأظافر . فاحتفلنا ومزحنا وطمعنا وشربنا وأغدقنا على العمال والأحراس وضاعفنا قوة العمل مع أن الذي وجدناه لا تبلغ قيمته خمسين جنيهاً. ولكن من يدري لعل في المنجم ما قيمته خمسة ملايين.

ولكن فجأة تغير الجو في المنجم ، أي بيننا نحو الشركاء ، فحدثت شبه عاصفة ، فأدركت السر من أول الأمر ، ثلاثة من الأقوياء وهم شرار النقابة تواطأوا فيما بينهم على إقصائي وصاحبي ، ولهم في ذلك وسائل شتى — وإنهم والحق يقال ليقون على حيائك إذا تنازلت عن كل حقوقك في سمت وبدون مقاومة، فان ثُرتَ على هذا النظام الجائر يقدمون إليك ما شئت من المال نقداً وعداً حتى ترضى ، وتوقع بامضائك على سك تنازلك — واعلم أن هذا الصك يشمل أيضاً الحكم عليك بالاعدام فانهم يقنادون الورقة باليمين ويطلقون عليك الرصاص بالشمال . ولكن متى تقع هذه الفتنة ؟ عند ظهور الجوهر في المنجم ، لا قبل ذلك

فقال لى صاحبى وهو شريكى فى التنازل المحتوم والموت المنتظر : الأولى لنا أن نتعلق بأذيال الفرار ثم صمت قليلا وقال: هل لك فى مغامرة ؟ قلت نعم. قال تؤلب البال والأحراس عليهم فتتبدى بهم قبل أن يتعشوا بنا . قلت : ومن يضمن أن البال والأحراس لا يتعشون بنا ؟ قال : هى المغامرة كما قلت لك . ولم أكن غريباً عن جنوب أفريقا ، ولكننى غريب عن القاطنة، فقلت له : والحكومة ؟

فقال : الحكومة ... أية حكومة ؟ الحكومة هى المال : المنجم والمال ... (١)

وفى تلك اللحظة تمثلت لى حلاوة الحياة فقلت: أما أنا فألوذ بالفرار وأعجز بالبقية الباقية من عمرى

ولم نكد ننتهى من هذه المؤامرة الخائبة حتى دخل علينا الثلاثة الأوغاد وقالوا: «هاندزأب»وهى نذير الهلاك والفناء والقضاء المبرم ، فرفعنا أيدينا ثم أمسلنا تنازلنا ووقعنا عليه تحت أفواه المسدسات، فتناولوه المتآمرون ثم جلدونا بالسياط حتى أدموا جباهنا وشوهوا وجوهنا وساقونا أمامهم كما تساق الأنعام حتى أخرجونا من حدود المنجم الذى روينا أرضه بدماء قلوبنا وعرق جبيننا . وفى الظلام الحالك أطلقوا علينا الرصاص فأردوا صاحبى قتيلا ونجوت وحدى وكانت معجزة . فقالت لنا : كل هذا فى سبيل الماس ! فضحك دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس الذى قاسى هذا العذاب

— سبيل الماس وأين هو ؟ فى سبيل الأمل. ألا تعلمين أن كل قرط أو حلية أو خاتم من ذلك الحجر الثمين الملعون يحمل فى بريق أشعته دماء ألوف من الناس ودموع أرامل وأيتام وآهاتى لا عديدلهم؟

يقول أبى هيرمان كراوس : فجرت بليل ، وجست خلال الأدغال والحراج ، ولامست الأفاعى والحيات ، وكدت أقع فريسة لأنياب الضواوى ؛ وكان فى أذنى طنين ورنين ، وفى عينى بريق ، وفى صدرى زفير بئر شهيق . المال الضائع والأمل الخائب والغدر المبيت ومصرع الرفيق ووحشة الطريق .. كم يوماً فى الطريق ؟ لم أعد الساعات ولم أحص الأيام والليالى — كان صباح وكان مساء ، وكان برد ومطر وعاصفة وقيظ ، فتمزق وجهى وخلقت ثيابى ، وتبلدت نعال حذائى . فلما أمنت عاقبة الاقتضاء وأيقنت أن لا أحد يرانى ولا طاق يصيبنى ارتميت على ظهرى فى سفح جبل ... فى مكان جميل ولكنه موحش . نور ومجرى ماء وشجرة تفاح برى وحمياء ممهدة بلون الياقوت . وكنت فى أشد الجوع وأحر الظمأ ؛ ولكن تعبى وانهاكى قواى كانا أشد على نفسى من الجوع والعطش، فلم أمك طعاماً ولا شراباً وإن جرى الماء تحت قدمى ودنت الفاكهة من يدى . فنمت واستغرقت وحلمت كما يحلم الحيوان ورأيت فى الرقاد ما يرى القط والكلب والقهد .. ثم رأيت رؤى الرجال .. مخلوقات البشر . صاحبى الذى قتل برصاص الأوغاد الثلاثة ما زال حياً ، وما زلنا نجرى للفرار من أيديهم ، حتى بلغنا مكاناً قصياً فتصافحنا ثم تخاصمنا فنازلنى ولا كنى إلى أن عجز عن التغلب علىّ فتناول صخرة ضخمة وقذفنى بها ، فأصاب رأسى فصرخت ووقعت مغشياً علىّ

فى تلك اللحظة فتحت عينى على ألم فى رأسى لم أرَ مثله، فوضعت يدى مكان الألم فاذا سائل أزرق يجرى ويتدفق. فوقفت يدى أمام عينى فاذا بها ملطخة

(١) بالانجليزية «ماين أيضاً mine and maney

بدى فنهضت مذعوراً ، وإذا بى أرى حجراً ضخماً قد شج رأسى من خلف فتناولته ..

أنظر ! إصبح ! عجب . حجر من الماس لا يقل وزنه عن أقة ونصف أقة .. لو أنى عثرت به فى حالة الصحة والرضى والبحبوحة لنقدت عقلى . ولكننى وجدته وأنا قريب من الموت والجنون ، فلم يزدنى ذهولاً ولا ألماً ؛ والعم الذى كان يقتلنى لو غلا فى عروقى من شدة الفرح فصدته مصادفة . كيف تفسر تلك المصادفة ؟ يا دوجلاس ، هدية الروح ، روح صاحبى التى زهقت ، إلىّ أنا الشريك المخلص . أراد أن يثنينى ويقتلنى .. يثنينى قبل الموت بطرفة عين ، فتصيد تلك الماسة الضخمة وقذفنى بها ليشج رأسى وليهدينى — إن كانت الموتى تهدى الموتى — إلى أن ما لم يُنَل فى الحياة قد ينال قبيل الموت .. لا ، لقد عرفتها فى طرفة عين فى اليقظة القصيرة بين الموتة الصغرى والنوم العميق . أيُعقل أن مثلى يجهل الماس ، ذلك الحجر الذى قضيت بعض عمرى فى البحث عنه والتنقيب عليه ؟

نهضت مذعوراً وفرحاً . وبعد أن كنت آمناً فى الوحدة مطمئناً للسكون والخلوة ، أرحب بالأخطار التى قد تنقذنى من حياة القفر والفقر ، أمسيت مرعوباً من صحبة البشر أترقبها فى قلق وأدعو الله أن ينقذنى منها . وكان همى أن أفر من ذلك الوادى السحيق إلى الحضارة التى تصرف الجواهر وتقدرها . وفتحت عينى على الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظمأ . ولكن دبى كان يثرف غزيراً حاراً ثجاجاً ، تحمرة الجبن . فغسلت الجرح بماء الندى ثم ضمدته بأوراق الشجر وفكرت فى طريقة لاخفاء الماسة — وهى التى صارت بعد بضعة أشهر نجمة القارة المظلمة التى أمست أغلى علىّ من نفسى وأعز ، فلم يهدنى خيالى إلى خير من أن أشدها إلى جفوة رأسى التى جرحتها . وانتزعت أكمام سترتى وصنعت منها رباطاً متيناً ، صار والحجر الكريم تحته كعمامة مهراجاه هندى . ولكن مظهره يدل على منتهى الفقر

وكبت من الكنز الذى أحمله قوة عصبية وجلداً على السير . وتبلغت بمنع تفاحات وتزودت بمثلها واحتسيت الماء براحتى ووجدت فى ذلك الاناء لذة كبرى . كنت بالطبع أخبط فى الناب خبط عشواء لولا أن أشرق القمر ودلنى نوره على اتجاه الشمال الغربى الذى أقصد إليه . أتصدق يا ولدى دوجلاس — هكذا كان أبى يقول — أن الخراب أكثر من العمران بمراحل ، وأن الخراب أغنى من العمران بجماله واتساع أركانه ووفرة خيراته ؟ فكنت أسأل نفسى فى دُجى الليل — أنا ذلك اليهودى المتنصر — سبحانك يا يهوا ! هل خلقت كل هذا عبثاً ؟ حاشا وكلا ! لمن هذه المساحة الشاسعة من الأرض ، وتلك البطاح التى لا يحدها البصر ولا يبلغ مداها المنظار المقرب والمدسات المكبرة ؟ وكم مضى من القرون على تلك الأراضى الخصيبة الصالحة للزرع والضرع ، والأنهار الجارية والجبال الشاهقة والرياح المدوية والبساتين المشرقة بالأشجار والأزهار المخضلة اليانعة كالأبكار التى تقضى الشباب فى التبتل والحرمان الدائم ؟ أخلقت سبحانك هذا الغنى عبثاً ؟ إن الملايين من هذا الجنس البشرى النحس تعيش فى أماكن ضنكة متزاحمة متلاحمة متراصة كنماثيل الخشب وهى فى غفلة وجهالة عن هذه الساحات والمساحات ! تتنفس الأهوية القذرة

2017-11-11

اللؤلؤ وفى الكون ذلك الفضاء الواسع . وأنا .. أنا هيرمان كراوس .. أسير وحدى واحمل على رأسى ثروة تقدر بالملايين ، ولا يملم بى أحد من خلقك ، ولو علموا بى لزغردوا إربا ، ولو كانوا أقرب الناس إلىّ ، ليتناولوا تلك الجوهرة الثمينة التى أصابتنى فى يافوخى ... كما تملم يا جيهوا عند ما أردت أنت ، ولم أكن أريد ولا أشعر ولا أنتظر . إنى أكاد أجن من الفرح والدهشة والخوف والرهبة منك يا جيهوا ! رزقتنى بغير حساب ولا اجتهاد ولا انتظار .

— تك ! تك ! يا دوجلاس العزيز

— ماذا بك يا نينا ؟

— أبوك هذا كان خاتماً من الدرجة الأولى ؛ كان يتكلم كأنبياء بنى إسرائيل ، لا أذكر أننى سمعت مثل هذا الكلام إلا من فم جدتى وهى تقرأ بعض صفحات العهد القديم المرعبة . ماذا تسمونه عندكم ... التوراة ... نعم توراة . لقد صدق من قال: ضع اليهودى فى البئر الخربة أو ألق به فى غيابة الجب يخرج لك سبيعاً أو وزير مالية .. وهذا أبوك يصير رغم أنفه تاجراً عظيما فى رى دى لانيه[1] فضحك دوجلاس كراوس ملء شدقيه وقال : أو كما قال هذا الآخر : « كتب الغنى على رجالهم ، كما كتب الزنا على نسائهم » لما لا تجدينى متعجلا أمر الزواج

أبى يتكلم :

وكانت هذه التأملات وحدها وسيلة إنقاذى إلى أن بلغت الحدود بين ترنسفال و « جيرمان ويست أفريقا » وهناك تفتيش دقيق على الناس بصفة خاصة . فان كثيراً من عمال المناجم يغرون بفتات الموائد أو تراب إبر الذهب فيقبض عليهم ويشكل بهم ... ولما بلغت الحدود كنت فى حال يرثى لها من الجوع والتمزيق والضعف . ولم يكن يصلب عودى إلا أمل الفرار بثروتى . وكنت من التجرد بحيث أنف حرس الحدود أن ينظر إلى بدنى النحيف العارى . فثلث دور السائل واستجديت القوت . ولما سئلت عن عمامتى قلت جرح متعفن وهممت بفك أربطتى فعافوا النظر إليها وركبنى أقسام قلباً خارج الحدود ليقصى منظرى عن عينه ، فمضيت الله وساق هذا الكريم الذى رفسنى . وقطعت أرض المستعمرة الألمانية إلى أن بلغت مينا وندهوك بعد أن اخترقت صحراء كلاهاري ونصيباً كبيراً من بشوانا لاند. واشتغلت فى وندهوك سائقاً لسيارة تاجر غنى من جروت فونتين . وتعودت أن أخفى ذخيرتى فى مخزن أدوات التصليح وأنام بجوارها فى الجاراج فلا تغيب عنها عينى نهاراً ولا أفارقها ليلا . حتى استعدت بعض وجمعت مالا يكفينى للسفر إلى أمستردام مقر تجارة تلك التحف الفذة وموطن مصانع الناس ومجهزه ، وعلى ظهر الباخرة جمعت مالا وطاب من المعلومات النادرة عن تقدير الأحجار وقصها ، وطرائق عرضها وأسماء الخبراء فيها وكيفية الاتصال بالخبراء والوسطاء ورجال القانون المتخصصين لمسائل البيع والشراء وحيل المباسرة والتجار ، فى استبدال الصفقات أو تزييفها وتفويت الفوائد على أربابها وألوان الدسائس والمكايد و « المقالب » التى يتقنها الذباب والديدان البشرية التى تحوم حول الثروة

(٤)

(١) أشهر شارع لتجارة الجواهر فى باريس

لتلونها أو تخطفها أو تمص دماء أصحابها . لقد كانت الباخرة عُشّ زنانير ، ووكر عقارب . وقد صوروا في أسواق أمستردام كأنها مخابىء لصوص ومكامن قطاع الطرق ، ووالله حسناً فعلوا . وكنت أسمع طول النهار وطرفاً من الليل ثم أقضي الشطر الأخير في التدوين والتفييد حتى لا أنسى الأسماء والصفات والعنوانات . وكنت أصحب الرجل يوماً أو يومين أو ثلاثة حتى أعتصره عصراً فلا أترك في جوفه سراً ولا خبراً إلا وقد أفشاه لي وأطلعني عليه أو حدثني منه وهو يعلم أنني لا أسأل إلا مستطلعاً ولا أسمع إلا متلذذاً ولا مصلحة لي في شيء وإنه لو علم لي نفساً لضن بوزن الذرة من كلماته

وبلغت أمستردام وكنت أربط الكنز على بطني حيناً وأحمله في حقيبة قديمة بالية مع صحف قديمة أو فضلات الطعام ، وجست خلال البلد والمصانع و «بورصة الماس» وأخيراً أخبرت عالماً متواضعاً أنني وكيل نقابة تملك منجماً وأنهم عثروا بماسة كبرى يريدون بيعها . فلما جمعني بمعض التجار ووصفت لهم الحجر الموعود وصف خبير كادوا يجنون من الدهول والدهشة وقدروا ثمنه بثلاثة ملايين من الجنيهات الأسترلينية . ثم شكوا في الخبر ، وأنذروني بأنهم لا يدفعون شيئاً من الثمن مقدماً خشية أن أكون محتالا . فلما أنهم بأن الحجر قد نقل فعلا من المنجم وسيصل إلى البلد بعد بضعة أيام فتبادلوا نظرات العجب والريبة . وفي اليوم الذي اخترته لبيع الحجر بكرت إلى الحامي وأفضيت إليه بالسر في الطريق فقصدنا إلى مقر الشرطة واتخذنا حرساً واجتمعنا بالتجار ... وأظهرت الأمانة التي حملتها قسمة أشهر ، كأنها جنين آن أوان ولادته

ووزنت وقدرت بعد أن فحصت . وكتب عقد البيع وطلبت إلى رئيس الشرطة أن ينقل الصكوك والعقد وتحويل المال إلى خزانة بحي في أحد المصارف وخرجت من مجلس العقد لا أحمل إلا عشرين فلورين اقترضتها من الحامي ... ولكن بنك أمستردام فان هولاندبز سيفان كان يحتفظ لي بمليونين وثمانمائة ألف جنيه أسترليني »

وضحك دوجلاس كراوس ضحكة عالية وضم أنطونيا إلى صدره وقال لها : ما رأيك ؟ هذه قسمة ثروتنا . وقد مات أبي بعد أن تضاعف ماله وعاد إلى جنوب أفريقا فوجد منجم النقابة التي تصقبته وصاحبه خراباً وعلم بأنهم أفنى بعضهم بعضاً قتلا ، وبحث عن ورثة صاحبه الأمين الذي قتل بجواره وهو يفر ، فاهتدى إلى عمة له ، عجوز في بور كشير فأغدق عليها وأغناها . وتعرف إلى تاجر وندهوك الذي استخدمه سائقاً لسيارته . وأخيراً أوصى لي بالمال الذي سهل لي حبك وضمك إلى صدري هكذا !

فتنهدت أنطونيا من أعماق قلبها وقالت :

ولكن نجمة القارة المظلمة هذه ...

فقال دوجلاس كراوس : نجمة القارة المظلمة نقصت في عملية القطع بقدر ثلث وزنها . ولما كانت مستطيلة الشكل ، فقد خرطت على صورة الكمثرى وصار لها ألف وأربعمائة وتسعون وجهاً ، مساحة الوجه ثلاثة مليمترات مربعة ؛ وصارت تشع نوراً لا يقل عن خمسمائة ألف شمعة ، وقُدِّر القيراط فيها بثلثمائة استرليني ووزنها عشرة آلاف

قيراط . وقد قبض والدي ثلاثة ملايين من الجنيهات ، إلا مائتي ألف جنيه أنفقت في عملية القطع ورسوم التأمين والجمرك وأتعاب المحامين في تحرير العقود ، والنسبة المئوية للخبراء والوسطاء والمصورين. ولكن نقابة الماس التي اشترت الجوهرة في استردام قدرت لها ثمناً للسوق أربعة ملايين وأعلنت عنها في جريدة « دياموند ورلد » التي تصدر مرة في كل ثلاثة أشهر فكان لها عدد خاص ممتاز تمثل تاريخ هيرماس كراوس وجوهرته القديمة من خيال الحرير. فكان أول من تقدم للشراء الكولونيل هوب فان زيلاند الهولاندي صاحب معامل الجبن والكاكاو في روتردام ، وكان قد ورث عن أبيه القبطان البحري ماريك فان زيلاند عشرين مليون جنيه ريعها من مستعمرات هولاندا في أندونيسيا . وكان الوالد متعهد توريد الأغذية لألمانيا في حرب السبعين وأول من اخترع الجبن الفلمنك الأحمر ، وأدخل على الروكفور طريقة « التعفن الخالي من الجراثيم » فنمت أرباحه في عام واحد ثلاثة ملايين ومات الشيخ فان زيلاند في حديقة قصره في سكفنجن على شاطئ زايدر زي محاطاً بأغرب أنواع الأزهار ولا سيما الخزامى الزرقاء التي تخاطف بذورها ملوك الأرض . وتزوج ابنه الكولونيل هوب فان زيلاند من الأميرة جوهان بانتيرج فأراد أن يتقرب إليها بإهداء تلك الجوهرة وسدد ثمنها على ثلاثة أقساط متساوية في مدى سنتين

قالت انطونيا : ما أسعد هذه المرأة ! ولكن بالله قل لي كيف تحمل سيدة عبء هذه الجوهرة التي تزن أكثر من كيلو جرام ؟

فضحك دوجلاس كراوس وقال : إنها لا تحمل ولا تساغ ، ولكن تحفظ في القصور تحفة تزار وتعرض للأنظار ويتهالك على مشاهدتها الفقراء . ولكن لا تظني السعادة مقرونة بمثل هذا الثراء ؛ فان تحفة القارة المظلمة جلبت الهلاك والدمار على أسرة فان زيلاند فقضت الأميرة نحبها ، وانتحر الكولونيل وكادت المعامل تمحى من الوجود لولا تدخل الحكومة وتأسيس شركة مساهمة حلت محل الورثة وبيعت الجوهرة فيما بيع من مخلفات هذا البيت الكريم ، فاشتراها ولي عهد انجلترا الأمير هنري نجل ادوارد السابع وكان « برنس دي غال » ولم يزد ، وقد انتوى إهداءها لخطيبته التي صارت بعد وفاته ملكة انجلترا بقرانها بأخيه جورج الخامس . فقد أصيب بالحمى المالطية وكان مصاحباً للأسطول في البحر الابيض ، فانقلبت أفراح الأسرة أتراحاً . ولم يتنبه أحد إلى أن تحفة القارة المظلمة هي التي جلت البلاء إلى هؤلاء الأنجاد الناقلين عن شرها

وأودعت الجوهرة حيناً في قصر سندرنجهام فتصدع أحد أركانه فنقلت إلى خزائن « بنك أوف انجلند » واشتغل الوسطاء بالترويج لها والدعاية لبيعها حتى تمكنوا من إقناع ملك البرتغال بشرائها ... فاشتراها ولم يمض على دخولها لشبونة عام حتى قتل الملك والملكة وابنهما في شوارع المدينة بانفجار قنبلة فوضوي ، ولم ينج من المذبحة إلا عمانوئيل الذي توج ملكا يتيما وخلع وقضى نحبه في مقتبل الشباب منفياً في بلاد الانجليز . وكان صحفي إنجليزي اسمه ماكسويل يتتبع خطوات « النجمة » فسرد تاريخها بقطعة وإحكام في سلسلة مقالات في جريدة

دلى ميل، فسارع وسطاء الماس فى بورصة باريس ونيويورك إلى إسكانه بمشرين ألف جنيه، فترك التحرير والتحبير وعاش سعيداً فى قصر منيف فى مقاطعة كنت . وبذلوا له عشرة آلاف أخرى ليكذب نفسه عن شؤم الجوهرة، فأبى وقنع بما ربح

وكان مهراجا أندور فى الهند من أرباب الملايين أصابه جنون التبذير، وركبه شيطان الأهواء، فاشتراها وأهداها إلى عظيمة هندية اسمها ممتاز بيجوم فسقتها راجا آخر وحاول إغواءها ففشل فشرع فى خطفها فلم يفلح فكاد لها كيداً ذريعاً تمكن به من قتلها فى كين

فثار مهراجا أندور لمحبوبته باغتيال راجا خارستان وكان عقابه الخلع والتشريد والنفى، وانتقلت الجوهرة من الهند إلى الشاه محمد على فى طهران فاشتراها.. وضمها إلى جواهر أسرة كاشنار ووضعها فى خزانة فى قاعة عرش الطاووس حيث البساط المصنوع على نمط بساط كسرى مرصعاً بالجواهر، وممدوداً تحت أقدام العرش. ولعب شيطان الغرور بعقل الشاه فضاع ملكه وراح منفياً ومات فقيراً مقصيا فى مدينة أوديسا. وورثه نجله الشاه احمد. عرض الشاه محمد على قيصر اسبرج جوهرته على قيصر روسيا فاشترتها وهي لا تعلم من أمرها شيئاً. وكارثة آل رومانوف لا تزال ماثلة بالاذهان. فقالت أنطونيا:

— والآن أين تلك النجفة المنحوسة؟

— أرأيت أن النجفة لم تحمل لأحد سعوداً، غير أبي وما كسويل الصحفي والوسطاء الذين تدخلوا فى بيعها؟ ولكن من يدرى لعل أبى أخذ نصيبه بما أصابه من شج فى الرأس ومعاناة الآلام فى طريقه من المنجم إلى استردام. تسألين أين هي الآن؟ إنها فى نيويورك فى ملك مسز هاملتون درموند ملكة الفولاذ وقد جعلت عليها أحراساً من الأشداء المسلحين بالخناجر والمسدسات وجعلتهم على ستة فرق تسهر كل فرقة أربع ساعات فى الليل والنهار وأحاطت المكان بأسلاك الكهرباء الموصولة ببراكز الشرطة. وتدفع عنها عشرين ألف جنيه فى العام تأميناً ونفقة للحارسين

— إنها بلا ريب مجنونة فانها تنفق مثل ثمنها فى بضع سنين إن بقي لها المال وبقيت على قيد الحياة

— كلا؛ إنها جد حريصة فقد احتالت حتى جعلتها تدر إيراداً يربو على نفقات حراستها بأن فرضت جعلا قدره عشرة دولارات على كل من يريد مشاهدتها، فلا يقل عدد الزائرين عن خمسين مخبولا فى النهار الواحد. وأظن أن هذه الطريقة منعت نحس الجوهرة. كان أبي هيرمان كراوس يقول: الركود مجلبة الدمار، والحركة وسيلة البركة: ويقول: الريان ليق فى شرح التلمود: « يد البطالة نجسة » وأنا أقول: الجوهرة التى لا تدر خيراً على صاحبها تجلب له الشؤم والخراب. وهذه الأمريكية الماكرة عرفت سر نجفة القارة المظلمة كما عرفت أنا سرك

فقالت أنطونيا والنوم يداعب عينيها، فقد أقبل الليل وأضاءت أنوار المدينة وانعكست أشعتها على البحيرة الفاتنة:

— أنا؟ إنك مازح! ماذا أدر عليك؟

— تلك القُبَل الشهية هى أرباحى

— ورأس المال؟

— هو حبك الدائم واستمتاعى بك الذى لا ينقطع. هيا بنا فقد آن أوان اقتطاف الثمار

محمد لطفى جمعة

عواد كرمون

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ مصطفى كامل نجاح

يشاهد مصنع الآلات الموسيقية في القرن الثامن عشر وفي نهايته باب كبير من الزجاج يطل على طريق في المدينة وترى منه المنازل ، وتشاهد السكان والفيولونسيل والكونترباس وغيرها من الآلات الوترية مبعثرة داخل المصنع ، وفي اليسرة منضدة كبيرة ظاهرة للعيان وفي اليمنة كرسي كبير وبجانبه منضدة صغيرة ، وفي نهاية المصنع على اليمين حامل لكراسات القطع الموسيقية وللمصنع بابان من الجانبين .

المنظر الأول

(الرئيس فيراري — جانينا)

فيراري — (وقد تملكه نعسة خفيفة من النبيذ)

كلا لقد آليت بجانينا إلية شريف لا يحنث ، وسأحترم قسمي وأتمسك به كما يسميني الناس تاديو فيراري أستاذ وصاحب مصنع الآلات الموسيقية بكرمون وستديك أرباب هذه الصناعة وحامل لوائها في كل موكب ومحفل وستتزوجين بهذه الطريقة

جانينا — ولكنني يا أبتاه..

فيراري — إنني أتصرف بكل حكمة وبصيرة . ولقد تحمى شيخنا بودستا الذي توفي حديثاً ومن أطلب له من الله الرحمة والرضوان أن تستمر وتخلد شهرة الآلات التي تصدر من مدينتنا الشهيرة القديمة ، فأوصي بسلسلته الذهبية للصانع الماهر الذي يصنع أحسن كمان في المدينة ، وسنفتتح المسابقة ويحكم فيها اليوم . وإني وإن كنت صانعاً بسيطاً أقتدي به إذ وعدت في اجتماع الوادين أن أعطي ابنتي ومصنعي لمن يحرز هذه السلسلة . وهذا ما تم عليه الاتفاق وبت فيه ، فلا فائدة إذن في الجدال والنقاش ! !

جانينا — لقد عرفتك بأني أفضل فرداً

فيراري — ساندرو ! ستتسينه وقد أنبأته

جانينا — وقصارى القول إذا كان هذا الفنان المجهول شاباً خبيثاً وليس كفؤاً لك فما العمل ؟

فيراري — إن الصانع الماهر لا يكون في الغالب إلا شريفاً

تعريف بالقصة

فرنسوا كوبيه نابغة من شعراء وروائي الفرنسيين من نوع الرومانتيك ولد بباريس سنة ١٨٤٢ وكفاه فخراً أن يقال له مؤلف « جواب الآفاق » وهي من مميزات نظمه ودرة بديعة في نوعها لم يوفق أحد من الشعراء أن يأتي بمثالها وهي تفيض بالعواطف الناجمة والأخلاق السامية ودقيق الاشارات والرشاقة المتناهية والرقة النادرة و « في سبيل التاج » وهي رواية تاريخية سحرت النفوس ببلاغتها ومتانة فريضها وما اشتمل عليه من النفحات الحلوة و« سيفير وتورين » و « عواد كرمون » هذه وله من الدواوين الشعرية والروايات التمثيلية كثير لا يتسع المقام لسرده

سهر وجير شاعرنا هذا في أغلب أنواع الشعر لاسيما الرثاني واللاحم وكان من الشعراء المحظوظين وحاز القدح المعلى في الشعر القصصي المألوف وأنواع الشعر المبتكرة في إبانها ووصف المناظر الطبيعية

وكان مقتدراً في وصف أخلاق الفرويين وعاداتهم وصفاً صادقاً رقيقاً شجياً يهز القلوب طرباً حيثما يصف البؤس المتواصل والفقر المدقع والفضائل المجهولة . فلذلك أسموه « شاعر المساكين » لأنه في عقد الطبقة الصغيرة المختبرة استمد القريض بنفحات مدهشات فقدته زعامة هذا النوع الذي ابتكره

وقد توفي بباريس سنة ١٩٠٨ واحتفلوا بجنازته احتفالا شائقاً نجيا يليق بمقامه الرفيع وبكاه القريض الفرنسي قبل الشعراء

2017-11-16

جانينا — ... الكسول الذى لا يهتم مطلقاً بمستقبله ؟

فيراري — إنه يتقاضى أجراً كبيراً فيمكنه أن يعمل أقل من غيره .

جانينا — ... فظ غليظ القلب يضرب النساء ؟ وهذا النوع من الرجال موجود

فيراري — إذا لم يجد راحة فى داره فانى أبرر أداءه

جانينا — ... وإن كان سكيراً يثمل نبيذ الأحد رأسه ؟

فيراري — وماذا تكون حالى يا بنيتى يوم الاثنين ؟ فلتحترم هواة كروم توتى أكلها فى تشرين الأول ! والموسيقى الماهر لا يكون قنوعاً ولا يجوز أن نكذب الأمثال

جانينا — وفى النهاية إذا كان غريب الأطوار ورفض الزواج ؟ ... أواه

فيراري — إن ذاك الضحك يكون حقاً صعب المراس . ولكن حسنة النية مثلك يا جانينا يلزمها أن تكون على بصيرة ، فان هذا النوع من الرجال لا تصادفه كل يوم . وأن ألفين من الريالات الوميادية لمبلغ لا يستهان به وما هو إلا مهرك . وأنا التلميذ المحبوب لستراديفاريوس قد أقسمت ... فلا فائدة من الخوض فى هذا الموضوع . ولقد ذاك منى السنون ولا دواء ينجع فى الكبر وأصبحت أنشد خلفاً لى يساعدنى وسيتال الفائز ابنتى وعملى

جانينا — وفضلا عن ذلك يا أبتى العزيز ...

فيراري — حسبك أسباباً تبديها !

جانينا — وإذا كان الظافر — وإنى لأضحك حيناً أحلم بذلك — وإذا كان تلميذك الصغير فيليبو ؟

فيراري — فيليبو ؟

جانينا — وإن حاز الجائزة ؟

فيراري — إننى لن أدهش كثيراً لوقع هذا الخبر ، وإذا نال سلسلة بودستا فستتزوجين فيليبو فى الأسبوع القادم

جانينا — أتزوج فيليبو !

فيراري — ولم لا ؟

جانينا — الأحدب !

فيراري — ان نظرى لحادبصر حقيقة الأشياء، ولكن هل ازدوجت عامته ؟ فلا تضطربى من ذلك ولا تجزعى فكثيراً ما تظهر لى تلك الصفة حينما يضطرب نظرى وأرى الواحد اثنين — وقصارى القول سيكون لك زوجاً

جانينا — اللهم رحمتك !

فيراري — أليس فيليبو من خير الشبان ؟ أما هو طيب مخلص شريف ؟ ... إن الكآبة والحزن يرتسمان على وجهه وهو أحدب ، ولكنه فنان كبير وموسيقى مثل بالستريتا . ولا أنسى حفلة الطرب الصغيرة التى أقامها لنا — مع أنى تقاضيتاس — ولقد أصغيت إليه وأنا أمتع الطرف بالنظر إلى قدح من نبيذ استى المتقى فكانت الأوتار تئن تحت قوسه ، وكان عزفه حافلاً بأنواع الآلام فتاناً ساحراً ، وقد انحدرت من عينى دمعتان كبيرتان وحاولت أن أكفكفهما فلم أفلح ، ثم سقطتا فى الكاس ، وهذه أول مرة مزجت فيها النبيذ بالماء

جانينا — إنى أقدر مثلك فيليبو يا أبتى . إننى أرثى له ولم آل جهداً فى تبديد شجونه والعطف عليه حتى ينسى همومه وفقره وعاهته من يوم مجيئه إلى بابنا ليتسول . فهل أستطيع أن أحبه ؟

2017-11-1

فيراري — تا، را، تا، تا

إذا كنت لا تظنين أنك لم تمارسي قط بأشد من هذه الممارسة فلتقفي عند هذه النقطة فاني أريد أن أزور كمان ويلزمني أن أعد لهذا اليوم بعض القناني التي تساقبت عليها السنون فنطقها بنبارها ونسيج عنكبوتها ...

جانينا — وإذا كنت أذهب بدلاً منك ... فان السلم وعر وخطر تزل فيه القدم وإني أسرع منك ...

فيراري — لا ألاحظ تلك الصعوبة إلا في الصعود . فدعيني أذهب بنفسي فان أعظم السرور في انتخاب النبيذ قبل شربه

(ثم يخرج من جهة اليسار)

المنظر الثاني

جانينا — ساندرو

كانت جانينا وحدها لحظة فنهدت ، ثم يدخل ساندرو من اليسار حاملاً كماناً في صندوقها الأسود ثم يضعها فوق المنضدة

ساندرو (وهو يمسك يدي جانينا) ما وراءك من الأخبار ؟ هل لا يزال الرئيس مصمماً ألا يزوجك إلا أمير الصناع ؟

جانينا — بل مستمر في عناده أكثر من قبل

ساندرو — ما هذا الجنون الفظيع ! هل علم منك درجة حبك وإني إذا أخفقت مت وهلكت ؟ فما أجاب ؟

جانينا — أن أنساك

ساندرو — القاسي !

جانينا — (مشيرة إلى صندوق الكمان) هل أنعمت صقوة أعمالك ؟

ساندرو — هل أكون أكسل من الأمس ؟ إنني كنت حائماً على استعداد، لأن أعمل الأخير مساق بها . واليوم بت اختبراء في حفل إن كان سعيداً أو منكوداً

جانينا — هل أنت مطمئن وواثق من عملك ؟

ساندرو — إنني أجيد صناعتي وقد صنعت الكمان حسب قواعد الفن في أوكتافاتها الأربعة المضبوطة، نقية في أصواتها الحادة، عميقة في أصواتها الغليظة ؛ وقد بذلت في عملها جميع ما في وسعي وأجدت انتخاب خشبها وأوتارها ودعائمها وأظن أن هذه الآلة الجديرة بفنان عظيم

جانينا — (بلهجة فرح) أتؤمل أن تنال الجائزة ؟

ساندرو — ربما ...

جانينا — ولكنك ستنال الجائزة ! فلم يخالجك الشك ؟ أي منافس عظيم تخشاه ؟ إن أبي كما علمت أعظم فنان في كريمون ولقد تعلمت عنده ، وإني أود أن تنال الجائزة

ساندرو — إنني لا أخشى أي منافس خرج من مصنع آخر

جانينا — ممن تخاف إذن ؟

ساندرو — إن الذي أخشاه في مصنعنا

جانينا — وكيف يكون في مصنعنا ؟

ساندرو — نعم وما هو إلا الأحدب ! لعن الله اليوم الذي لاقيته فيه !

جانينا — هل دخل فيليو المنافسة ؟

ساندرو — إن الأقنوان الصغير قد جهر بذلك أمس أمام أبيك

جانينا — أبي الذي كان يقول في بعض

الأحيان مازحاً بأنه إذا نال الجائزة فانى أزوجه ابنتى

ساندرو — إنه يظنك خالية القلب فلذلك كان متقاداً للأمل

جانينا — إننى لا يخالجنى الشك من ناحية ذاك الفنى المسكين . إنه يطمح إلى السلسلة الذهبية ولقب الرياسة ، وأنا نسمح له أن يطمع إلى هذه الأمور ولكنه يكون مغروراً إذا زعم أنه يطمع فى زواجى

ساندرو — ولا أكتم عنك أنه إذا خرج من الامتحان ظافراً فانه يسبب لى آلاماً لم أرها فى حياتى وأشعر حين ذاك بعاطفة ممقوتة

جانينا — وماذا تكون ؟

ساندرو — الحسد !

جانينا — تكون حسوداً يا ساندرو ! هذا من المستحيل !

ساندرو — نعم نعم ، لأنى أعرف عمله وتقلقنى الغيرة منه ، وسيعرف الناس فضله مثلما عرفته — إننى لا أنسى تلك الليلة إذ كنت جالساً إلى كوخى وكنت أفكر فيك تحت سماء العيف الصافية وكان فى الحديقة عندليب يصدح فى سواد الليل فتصعد أنغامه الساحرة إلى عنان الزرقاء المتألقة بكواكبها ، فسمعت على حين غفلة فى الظلام غناء آخر فخلتنا بشجى القلوب أكثر من غناء ذاك البلبل ، ولمحت الأحدب فى غرفته أمام حاملة كراسات الموسيقى وقوسه فى يده وكأنه يخرج أنغاماً تعادل الأصوات الانسانية وهى تعبر عن حب مبرح امتزج بالألم ولا يقل فى حلاوته ورقته عن ذاك الطير الصادح ، وتبادل الصوتان فى الليل البهيم الأنغام البلورية وكنت أصغى إليهما ؛ وبعد دقيقة اختلط على الأمر فلم أدر أى الصوتين أفضل من الآخر : صوت البلبل أم صوت الكمان

جانينا — هل يحزنك بهذا المقدار نجاح منافسى؟

ساندرو — أواه ! إنها لعاطفة لا تليق بفنان، ولكنه إذا وجـد فى أبيك معيناً ومساعداً ، أو أصبح ظافراً ...؟

جانينا — إننى لا أحب إلا إياك وأعدك بأننى سأكون لك وإلا فانى أرفض زواج غيرك

ساندرو — أتقولين حقاً ؟

جانينا — حقاً وصدقاً !

ساندرو — يالله ! ما أطيبك !

جانينا — وهـذه يدى أضعها فى يدك ضماناً لقسمى

ساندرو (يقبل يدها) — أشكر لك !

(يسمع فى الخارج لغط)

جانينا — ما هذا اللغو ؟

المنظر الثالث

فيليبو — ساندرو — جانينا

(يدخل فيليبو متدفقاً ويقفل الباب بشدة وهو يلهث من الاعياء)

فيليبو — أف لهؤلاء الأوغاد الصغار ! لقـد ظننت أنهم سيلحقون بى

جانينا — ما الذى دهاك يا فيليبو ؟ وما الذى تخشاه ؟ ومن يطاردك ؟

فيليبو — صغار الأوباش الاشقياء وقد رجموني بالحصى وكانوا يريدون قتلى

جانينا — يقتلونك أنت ؟

فيليبو (وهو يمس رأسه بيده) — والدليل على ذلك أننى أشعر بجرح فى جبهتى

ساندرو — إن رأسك يسيل دما !

جانينا — على بالماء ... أسرعوا !

(ثم ذهبت لاحضار طست وأبريق)

2017-11-11

ساندرو — خبرنا كيف حصل لك ذلك

فيليو — إن المسألة لى غاية البساطة ، فقد كانوا خمسة عشر أو عشرين وهم خليط من المصاليك والتلاميذ وقد أحاطوا بكلب وطفقوا يرجمونه بجانب سور وقد أعيا المسكين ولم يستطع الدفاع ولا الحراك إذ كانت رجله مكسورة بل اكتفى بالتكشير عن أنيابه . ولما شاهدت تعذيب هذا الحيوان أشفقت عليه وتألمت له لأنه مسكين مثلى . فتوسطتهم وسألتهم أن يرحموه فاستشاطوا غضباً وتركوا الحيوان وتألبوا على رجمى فصدوت وهم يطاردونى ، ولولا هربى فى الأزقة لتناوبنى والحمد لله قد نجيت الكلب الأعرج المسكين

(ثم ارتمى على الكرسى خائر القوى)

جانينا (وهى تضع منديلها المبلل على جبينه) — ما أشقى هؤلاء المتشردين إذا لم يرأفوا منهم ، يالك من مسكين !

فيليو (على حدة) — يدها فوق جبينى ؟ يا ما أحلاها !

جانينا — هل حسنت حالك ؟

فيليو (ينهض ويتكلم بصوت خافت) — شكراً لك . لا أشعر بشىء مطلقاً

ساندرو (على حدة) — إن هذا التأثر لكثير جداً حيال شكر ! ولا أخطئ أنه يحبها

المنظر الرابع

من سبق ذكرهم وسهم فيراري

فيراري (وقد زادت نشوته وبيده سلة لحم القنانى)

— يا للغرابة ! لقد مضى على أكثر من عشرين سنة وأنا أصف صنى النبيذ فى مكان مقفل فترون الطابع الأحمر فى اليمنة والأخضر فى اليسرة ، ولم يطرق أحد هذا المكان وما فتئ مفتاحه فى جيبى وقد لاحظت أن ابنتى قد غيرت مواضعها فهل فسدت أخلاق القنانى أو أننى لا أميز يمينى من شمالى

جانينا — أبتاه ...

فيراري — ما أنت يابنيتى وأنا أبحث عنك إذ بعد قليل حينما يصرخ السكان وتصرف من سيكون لك زوجاً سأدعو الزملاء العشاء فيها جيلى بشعرى الأبيض المستعار وكسوتى الفاخرة فإن الاتسان إن أهمل زينته نقص احترامه . هيا بنا !

(ثم يخرج من اليمنة وتتبعه جانينا)

(يتبع) محمد كامل عجاج

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

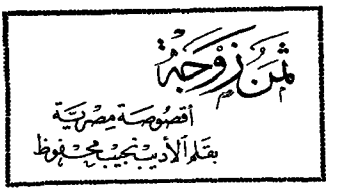
الإنسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً



جلس ينظر إلى صورته فى المرآة الكبيرة ويتابع بيسنيه يد الحلاق وهى تقص شعره بخفة ومهارة ، وكانت تبدو عليه آى الهدوء والنشطة كما ينبغى لشاب مثله فى أسبوعه الثالث من شهر العسل

ولاعجب فشهر العسل فى حياة الأزواج كالشباب الناضر فى الآجال المعمرة . وقد حبته الطبيعة بأقل المتع ودفعته مهراً لحياة الزوجية التى تستأديها الذكور من جميع الأنواع . وكان حضرة الفاضل حمدى أفندى المهندس واحداً من ذكور أمهى الأنواع كلها ، وقد تزوج من ابنة أحد زملائه وأساتذته المهندسين ، وهى فتاة جميلة مهذبة سمع عنها ورأى فيها ما علقه بها ورغبه فيها ، وهو الآن يستمتع بلذة اللذاذات التى تجزى بها الطبيعة الصادعين بأمرها الداخلين فى طاعتها ...

ولاحظ المهندس فى جلسته المعادة المتنبطة — أن « الأوسطى » لم يكن كعادته ذلك اليوم . رآه واجماً والعهد به نحوكا ، ووجده صامتاً والعادة أن يكون ثرثاراً لا يسكن له لسان ، فسبب لشأنه ؛ ولكنه لم تؤاته الشجاعة على سؤاله عن حاله ، ولاذ بالفرصة الجميلة التى كفته مشقة ثرثرة وشقشقة لسانه ، وتناضى عن شذوذه حتى انتهى من عمله فقام واقفاً ، ولم ير حرجاً فى إبداء ملاحظاته فسأله قائلا وهو يعقد رباط رقبته :

« مالك صامتاً واجماً كأنك لاتجد ما تقوله ؟ »

وبدا على الرجل الارتياح لفاتحة المهندس له بذلك السؤال وكان يرغب فى الكلام حقاً ، وتلح عليه الرغبة إلحاحاً شديداً ، ولكنه لايدرى كيف يلج الموضوع ، ورأى زبونه يكاد ينتهى من ارتداء ملابسه فأشفق من ضياع الفرصة وقال :

« الحق يا سيدى أن لدى كلمة أريد أن أقولها ولكن ... »

وتوقف عن الحديث فازداد عجب الشاب وسأله باهتمام :

« ولكن ماذا ؟ »

« إن بعض الظن إثم ، وكثيراً ما يخطئ الانسان فى تقديره . والحق أنى أدمت التفكير طويلا وقلبت المسألة على جميع وجوهها فرأيت أن الواجب يقضى علىّ بمصارحتك بظنونى مهما كانت الاحتمالات والعواقب ... »

وكان الشاب قد انتهى من عقد رباط رقبته وارتداء جاكتته وطربوشه فدنا من الحلاق وحدجه بنظرة اهتمام وانشغال وقال :

« إن كنت ترى حقاً أن الواجب يقضى عليك بمصارحتى فما معنى التردد والتلعثم ؟ »

فتنهد الرجل وقال :

« حسن يا سيدى ... إعلم أنى لاحظت أموراً ... »

« ؟ »

2017-11-1

« منذ أسبوعين أرى شاباً يتردد على العمارة التى تسكن فيها كل صباح بعد الساعة الثامنة مباشرة ... »

فزوى الرجل ما بين حاجبيه وقال باستهانة :

« نعم ... ؟ »

« لقد لفت نظرى بهيئته ومواظبته فشغلت فراغ الصباح بمراقبته ولاحظت أنه يحضر من شارع عاصم حوالى الساعة السابعة ويأخذ مكانه فى مقهى النجمة ، حتى إذا غادرت البيت وذهبت إلى الوزارة يدفع ثمن قهوته ويترك المقهى إلى العمارة رأساً ... »

وكان المهندس — على شبابه — رزيناً ثابتاً يمتجى أمين من الرعونة والطيش ، فمض على شفته السفلى كلما ارتبك أو أخذ ، وكأنما أراد أن يغالب القلق الزاحف عليه فسأله بلهجة التاعب

« ما الذى تعنى ؟ »

فاصفر وجه الحلاق وندم على خوض هذا الحديث الأليم ولكنه لم ير بداً من الاستمرار فقال:

« إنى أرجو أن أكون مخطئاً يا سيدى ، بل إنى لا أتمنى على الله أكثر من أن يكشف عن وجه الخطأ فى جميع ظنونى ، ولقد ترددت طويلاً قبل أن أبثك هذا الحديث، ولكنى رأيت أن المسارحة مع ما تنذر به أفضل عندى من التستر على العيب مع السلامة ... وقد كان مما أيقظ الشك فى نفسى أنى رأيته مرات يلاحظك خلسة — وأنت سائر فى طريقك — ويرمقك بنظرات لم ترتح إليها قلبى حتى إذا غبت منحنى الطريق قام بسرعة وانسل إلى داخل العمارة ... »

« ألم تره خارجاً منها ؟ »

« رأيته مرات وقد لبث فى الداخل ساعتين أو يزيد ... »

« ما شكله ؟ »

« هو شاب فى مقتبل العمر ، حسن الهندام ، نخنث الهيئة ، لولا تسكعه فى الصباح لقلت انه طالب ... »

ورأى الحلاق المهندس واجماً صامتاً ، تصرح سرائره بما يقهر نفسه من الاضطراب والقلق فقال بتألم : « لا تأخذ بظنى يا سيدى واسلك سبيل الحكماء فتحقق الأمر بنفسك ، والحق أنى غير آسف على قول ماقلت ولكنى ألمن الظروف »

فسأله المهندس وكأنه لم يسمع قوله :

« هل حضر هذا الصباح كعادته ؟ »

« نعم يا سيدى »

ألا ينقطع عن الحضور أحياناً ؟ »

« يوم الجمعة »

فمض الشاب مرة أخرى على شفته ولم يزد على أن قال وهو ينادر الصالون

« إنى أشكر لك مروءتك وأرجو أن تفتح عينيك حتى أعود إليك صباح الغد »

وكان البيت قريباً على قيد خطوات ولكنه لم يشخص إليه — مع أن الوقت كان ظهراً — وأحس فى نفسه برغبة طاغية فى المشى، فهام على وجهه بغير هدف معين

كان حمدى شاباً فى الثلاثين من عمره ، يلفت الأنظار لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه، ولكن كانت تلتمع فى عينيه نظرة تدل على حدة الذكاء ، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يعرف بها ذوو الإرادات الحديدية ، وكان أخص ما يعرف

به الهدوء والرزانة والبرود فلا يذكر أحد من معارفه أنه رآه مرة منفعلاً أو متهيجاً لحزن أو لفرح، ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفاً أو جبناً فإنه يغضب إذا اقتضى له الغضب ولكن على طريقته في الغضب، فلا هياج ولا سب ولا شجار ولكن عقاب صارم أو انتقام مهول، هكذا يتقدم في حياته « كوابور الزلط » بطيئاً رصيناً ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر . . .

وقد قال لنفسه وهو يسير على غير هدى : يلمح الرجل إلى خيانة زوجية، خيانة زوجية في شهر العسل ! لا شك أنها أول خيانة من نوعها، هي كالإجهاض سواء بسواء الذي يهلك الجنين قبل أن يكتمل ... كيف يستطيع أن يصدق هذا ... بل كيف يمكن وقوعه ؟ كيف استطاع ذلك الشاب أن يشق طريقاً إلى بيت عرسه ؟ هل كان يعرف زوجه من قبل أن يعرفها هو ؟ مهما كان الواقع فهو أمر بعيد عن التصديق ... وذكر حياته الزوجية القصيرة فذكر بها سعادة وصفاء ومتعاً لا تحصى ولا توصف، فلم يشك في أنه سيكشف في غده خطأ ممتحكاً لن ينفك يضحك كلما ذكره ما امتد به العمر . . .

ومع هذا . . .

ومع هذا فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه عن العاطفة العميمة التي تقاتل في قلبه . . . عاطفة الشك المذيبة . وها هي ذي تنشبث ببعض الذكريات التي مر بها من الكرام فتعرضها من جديد على مخيلته في إطار أسود مخيف فلا يملك إلا أن يتأملها متحيراً متفكراً . فهو يذكر كيف كانت زوجه تلقاه — على أيام خطوبتهما — بجمود ووجوم كأنها تلقي جداً لا خطيباً، وكيف أنها لم تحاول قط أن تفاتحه بحديث أو تشترك في أحاديثه بحماس، وكيف أنها كانت تقنع بالإجابات الضرورية تتحفظها في اختصار ساسة الإنجليز . . .

لقد حمل ذلك كله على محمل حسن وقال تخوراً إنه حياء جميل . ويجوز أن يكون قوله حقاً، ولكن يجوز أيضاً أن يكون وهماً وأن يكون الباعث شيئاً غير الحياء، من يعلم ؟ ربما كان نفوراً وكراهية وكان ينبغي له أن يدقق ويتحقق . . . !

ويذكر أيضاً أن الحال لم تتغير بعد الزواج، فلا تزال محافظة على رزانتها وتحفظها أو برودها — ولم يجرؤ كرهذه الكلمة على لسانه من قبل — وكم تمنى لو كانت عروسه لهوباً طروباً، أما الآن فمن يديه أنها ليست كذلك وأنها لا تصطنع البرود إلا في حضرته ؟ وا أسفاه . أي شقاء وأي تعاسة ! ولم يكن حدي خبيراً بالنساء ولا ذا حظوة لديهن، فانظر — في عزوبته — إلى الاستقامة والزهد وقضى تلك الأيام محزوناً مسدوم الثقة بنفسه، وقد ظن أن الزواج دواؤه ونجاته فاستنار به وأطمأن إليه وحمد الله على نعمته ؛ ولكن ها هو ذا يوشك أن يخيب في زواجه فيفقد الأمل الوحيد في السعادة والحياة المطمئنة، وها هي ذي الزوجة تكاد تنكشف عن امرأة كسكل النساء اللاتي لم يفز منهن بحظوة . . . فأي شقاء وأي تعاسة ! . . .

على أنه لم يستسلم للتشاؤم كل الاستسلام ولم ينغمس في اليأس كل الانغماس وتعلق بالأمل الباقي له وهو أن يكون الأمر غير ما قدر والظن غير ما أساء ... وتمنى لو يستطيع أن يبدد هذه السحابة القاتمة الناشبة على قلبه وأن يسترد بعض ما كان لهن من الصفاء والنشاط ...

على هذا النحو كانت تؤاتيه القدرة على تحليل أحزانه وأفراحه ، ولكنه كان إذا انتهى إلى عزم عرف كيف ينفذه بحذافيره لا يرده عن غرضه راد

وكان قد قطع شوطاً كبيراً وبدأ يشعر بالتعب فعاد أدراجه إلى مسكنه تحمى الرأس ملهب العواطف ، ودخل إلى شقته وهو يتكلف الابتسام والهدوء فرأى عروسه جالسة إلى المائدة ، والنداء جاهز ، والأطباق مصفوفة وسمعها تقول له عاتبة :

« تأخرت عن موعدك »

فنظر إلى وجهها نظرة سريعة لأنه خشى أن تقرأ فى عينيه ما يدعوها إلى التساؤل ، وجلس إلى جانبها ، بل وقبلها أيضاً كما ينتظر من شاب مثله فى شهر العسل ، ثم قال معتذراً :

« صرت فى طريقى بالحلاق وكان الصالون مزدحماً ... »

وفى صباح اليوم التالى خرج فى موعده المعتاد وسار فى طريقه المعهود ولهفى مروره بمقهى النجمة قاوم رغبة شديدة نازعته إلى تصفح وجوه الجالسين بها وخيل إليه أن عينين براقتين ترقبانه بحذر وسخرية فظل الدم فى رأسه وخضب وجهه الشاحب باحمرار الخجل والعار ، ولم يذهب إلى وزارته ولكن دار دورة فى الشوارع القريبة ، وكان يخرج ساعته من آن لآن وينظر إليها جزعاً مضطرباً ، فلما دارت فى منتصف الثامنة عاد أدراجه حذراً متيقظاً حتى انتهى إلى صالون الحلاق وانسل داخلاً ؟ وكان خالياً إلا من صاحبه الذى حياه تحية الصباح ، وابتدره قائلا :

« جاء كعادته وغاب داخل العمارة منذ ربع ساعة ... »

وجمد الشاب فى مكانه هنيهة لأنه أحس بأنه مقبل على دقيقة فاصلة فى حياته ستقرر حتماً مصير سعادته وكرامته ، فخان الهدوء أعصابه على رغم صلابتها وقوتها وشعر باضمحلال مخيف وسمع الحلاق يقول له : « أتريد أن أحييك ؟ » ؛ فأتمته عبارة الرجل وقال بحدة : « كلا » . وغادر المكان بسرعة وقد عما الغضب وديب الاضطراب الزاحف على نفسه ، ودخل إلى العمارة وصعد السلم بخطوات ثقيلة وجعل يرمق باب الشرفة الذى يدنو منه بعينين جامدتين ، وقد شل عقله عن التفكير ما يتجاذبه من الأفكار والخواطر التى تطلعو على سطحه بسرعة وتنيب بأسرع مما ظهرت غير تاركة من أثر سوى الهول فى النفس والحرارة فى الدماغ . ووجد نفسه واقفاً بإزاء الباب وكان يلهث كمن جرى شوطاً كبيراً وقلبه يخفق بعنف ويدفع الدم إلى رأسه فيدوى فى أذنيه ، وكأنه خشى على إرادته من التردد فدس يده فى جيبه وأخرج المفتاح وأولجه فى الباب وأداره بخفة وحذر ودفعه على مهل وأدخل رأسه ليلقى نظرة على الردهة ثم دخل وهو يكتم أنفاسه ورد الباب بلا إغلاق كيلا يحدث صوتاً

وكانت الردهة خالية وجميع الحجرات مغلقة... ترى أين الخادمة الصغيرة ؟ وانصرف نظره إلى حجرة النوم وخلع حذاءه ودنا منها على أطراف أصابعه حتى صار بإزاء بابها المغلق وانحنى قليلا ووضع أذنه على ثقب الباب وأرهف سمعه فخيل إليه أنه يسمع غمغمة خافتة وأصواتاً أخرى ، فذهب الشك بمذابه وآماله وسفرت أمامه الحقيقة الأليمة المخزية وقد لطفاً نور بصره ثواني

من شدة الغضب ولم يعد يحتمل الجمود فتراجع خطوتين وثنى ساقه وشد عليها بقوة جنونية ثم أطلقها بعنف فى الباب فارتج ارتجاجاً شديداً وانفتح بحالة تشنجية وخطا خطوتين فاجتاز عتبة الحجرة ، ودوت فى الحجرة صرخة جنونية وقفز من الفراش جسمان عاريان ، الزوجة وذاك الشاب ...

وكانت المرأة فى حالة جنونية من الرعب ، فجسدها يرتجف ووجهها يصفر وعيناها تلمعان ، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر إلى زوجها كأنما تنظر إلى شيطان رهيب .. أما الشاب فهمّ بالجرى إلى ثيابه الموضوعة على « الشيزلنج » ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه ، وجعل ينظر إلى الزوج نظرة ذعر ويأس مميتين ، ومد يده إليه بتوسل وقال بصوت مرتجف كأصوات الأطفال المتنحبين : « فى عرضك »

من العجيب حقاً أن الزوج لم ينشه الجنون ولم يندفع إلى الانتقام كما يحدث عادة ، بل هبط عليه جمود غريب وتلبسه هدوء غامض شبيه بتكسة الخمر التى ترد المنتشى الهائج إلى ثقل النوم ، فلبث واقفاً مكانه وجعل يقلب عينيه بين العاشقين فى هدوء تام كأنه يشاهد منظراً بسيداً عن مشاركة وجدانه ومشاعره ...

ورأى يد زوجه وهى تسحب اللحاف على جسمها فسألها ببرود قائلا :

« أتخجلين من الظهور أمامى عارية ؟ »

وتحول إلى الشاب ، فصاح به هذا بصوته المرتعش المهموم :

« الرحمة ... دعنى أرتد ثيابى وافعل بى ما تشاء »

فقال له ساخراً :

« هل يروقك أن تموت فى ثيابك ؟ »

فصاح الشاب مولولاً : « الرحمة ... أنا فى عرضك »

فقال له بلهجة رقيقة :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى »

فلم يطمئن العاشق إلى قوله وتوسل إليه بصوته الباكى المرتعب : « إرحمنى ... »

فقال له بطمأنينة ويشجعه :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى ... تقدم ، إنى أعنى ما أقول »

ولكنه لم يتحرك من مكانه واشتدت الرجفة بجسمه حتى خاله سيسمق سمقاً ، فسار بنفسه إلى الشيزلنج وأتى له بثيابه وقدمها إليه قائلاً بسخرية : « أتحب أن أساعدك على ارتدائها ؟ » ، وأسرع فى لهفة يحشر جسمه حشراً فى ثيابه ، فانتهى فى ثوان ، وكان شكله زرياً مضحكاً ، فشعر رأسه المدهون بالفازلين يبرز مبعثراً من حافة الطربوش ، وأزرار بنطلونه مفككة والقميص يتدلى من بينها ، والحذاء لم يعقد رباطه . ولكنه كان فى غيبوبة ذاهلة ، فنظر إلى الزوج نظرة تسليم ويأس وقال له :

— أنا تحت أمرك

وهز الرجل كتفيه استهانة وقال :

— وماذا أصنع بك ؟ لا فائدة فى فيك .. استأذن المأمور ـ فاذا أذنت لك انصرف مصحوباً بالسلامة »

فألقى إليه الشاب بنظرة كأنها تقول : لم التعذيب ... أقتلنى إن شئت ولكن بسرعة . وقد فهم معناها فهز كتفيه مرة أخرى بهزء وقال :

ألا تريد أن تذهب ؟ ألم تشبع بعد ؟ أما تزال لك رغبة فيها ؟ ..

2017-11-1

فاشتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق فتحرك بخطوات بطيئة وهو لا يصدق ما يسمع ويرى. وما سار بإزائه أحس يده توضع على كتفه فانتفض رعباً وتوقع شراً ولكن الرجل بادره قائلاً : لا تخف... ستذهب كما تشاء ولكن أين..؟

قال هذا وبسط إليه كفه فنظر إليه العاشق مرتبكاً متسائلا فقال :

— الثمن

فظل الشاب ينظر إليه ساعتا فقال الزوج بلهجة جدية

— مالك ! ؟ ألم تحظ بوصال هذه المرأة ؟ فلم لا تدفع الثمن ؟ هل تظن أن الوصال هنا بلا ثمن ؟

— سيدي ...

— يالك من عاشق بخيل ! ألا تريد أن تجود بشيء؟ بكم تثمن هذه المرأة ؟ مه ؟ إنها تستأهل ريالا فما رأيك ؟

ولما يئس من الشاب فتش جيوبه بنفسه حتى عثر على حافظة نقوده واستخرج منها ريالا ثم ردّها إليه وهو يقول « تفضل الآن فاذهب إلى حيث تشاء ... »

وانفلت الشاب خارجاً لا يصدق أنه فاز بالنجاة، والتفت الزوج إلى زوجه فقال لها « ارتدي ثيابك ياسيدتي واطردي عنك الرعب فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين »

كيف استطاع أن يسيطر على عواطفه ؟ كيف أمكن أن تطيعه أعصابه تلك الطاعة العمياء ؟ هذا سر من أسرار الطبيعة يعجز عن إيضاحه البيان ، وعلى كل حال فقد انقضى ذلك اليوم كما ينقضي الكابوس الأليم . ولم يشر إليه — بداهة ضاءة — بتلميح أو تصريح — ولا ذكره بخير أو شر ، ولا أجرى بسببه تحقيقا ولا أثار عنه سؤالا وطالما لوحه هادئ طبيعي كأنه شخص آخر غير الزوج الملعون، ولم ينقطع عن عمله أو يغير من عاده ولا كف عن أحاديثه أو فتر عن مداعباته. وكان يذهب ويعود ويعمل ويستريح ويأكل ويشرب وينام ويقوم وكأنه زوج سعيد يباشر زوجه الحبيبة أو رب بيت مطمئن يسهر على بيته وأسرته دون أن ينغص حياته منغص أو يكدر صفوها مكدر

وكانت المرأة في أول عهدها بالفضيحة كالمجنونة من شدة ما يعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب، وقد توسلت إليه ضارعة وهي تبكي أن يطلقها ويستر عليها، ولكنه قال وكأنما فقد ذاكرته : «أطلقك! له ؟ أجننتِ أنت ياعزيزتي ؟ » وأسقط في يدها وبقيت حائرة مذعورة ممذية تخشاه وتتوجس منه خيفة ويناق عليها أمره فلا هو يطلقها ولا هو ينتقم منها والأعجب من هذا جميعه سلوكه نحو عاشقها في ذلك اليوم الأسود ...

ومضت الأيام طويلة ثقيلة فلم تحقق مخاوفها ولم تصدق هواجسها وأخذت تخف عليها وطأة الخوف وتتناسى همومها فيا تقوم به من الواجبات البيتية، ووجدت نفسها — وهي لا تدري — تتفانى في خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطئ الذي يعالج جرح ضميره بالتكفير والتعذيب ، على أنها لم تطمئن إلى دعته كل الاطمئنان وكانت تسأل نفسها حيرى... ترى هل نسي وغفر ؟ أم هو يتناسى ويتمزى ، أو ما الذي تنطوي عليه حياته المبهمة وابتسامته الغامضة من النيات ...؟

وليثا على حالها والأيام تحث السير وكل منهما متظاهر بالألفة والاطمئنان ويجتر أفكاره فيما بينه وبين نفسه ، حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجه إلى مأدبة غداء ، ومثل لإعدادها فوق ما تحتمل قدرته حباً وكرامة . وأمّ بيته ذلك اليوم جميع أفراد الأسرتين نساء ورجالا ، فتيات وفتيانا وعلى رأسهم حماه وحماته ، فضاق البيت بالمدعوين وضج جوه بأحاديثهم وضحكاتهم وازداد سعادة بما تملهم من ود عائلي جميل ... وتشعب الحديث شعباً مختلفة فطرق موضوعات السمنة والنحافة والزواج والعزوبة وبنات الأمس وبنات اليوم ، ومس السياسة حيناً والدرجات والعلامات والأطفال أحياناً كثيرة ... وشارك المهندس في الأحاديث بشهية عظيمة ، وكان بادي المسرة والبهجة عظيم الاقبال على مجاملة ضيوفه والترحيب بهم

وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمراً مهماً ، ثم دس يده في جيبه فأخرج ريالا ، جعل يقلبه في يده ثم أعطاه حماه وهو يقول :

— أنظر إلى هذا الريال ياحماه ... أتراه مزيفاً ؟

فأخذه الرجل وجعل يقلبه بين يديه وقد اتجهت إليه الأنظار من كل صوب ثم قال :

— كلا يا بني إنه صحيح لا شك فيه ... هل رفضه أحد ؟

واختلس الزوج نظرة الى زوجه فرأى وجهها مصفراً يحاكي وجوه الموتى فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— لم يرفضه أحد يا سيدي ولكني أردت أن أطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعاً سماعها

فازداد اهتمام الحاضرين ودل تطلعهم إليه على شوقهم إلى سماع قصته ، فطلب إلى حميه أن يعطي الريال زوجه ثم قال :

— إن شوشو تعرف قصة هذا الريال خيراً مني ، وسأتنازل لها عن حق روايتها ... هيا ياشوشو قصي عليهم القصة العجيبة وهي حقيقة تفتح شهوتهم للطعام

وانصرفت الوجوه إلى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعاً قصة شائقة . أما شوشو فكانت في حالة يرثى لها من الذعر والارتباك ، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت واقفة وشقت طريقاً بين الجالسين إلى باب الحجرة ، فاحتجوا على قيامها وحاول بعضهم منعها ولكنها قاومت الأيدي وهي تقول بصوت خافت مضطرب « انتظروا دقيقة ... سأعود في الحال ... »

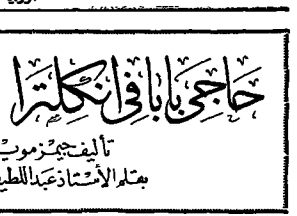
وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية

يستطيع القارئ أن يستنبط الخاتمة المروعة فانه لاشك يقرأ كثيراً في الصحف عن اللاتي يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيستقطن مهشمات مشوهات ، ولعله إذ يقرأ هذه الأخبار المقتضبة يتساءل عن أسبابها الخفية ويذهب به الحدس كل مذهب . فهذا سر واحدة من أولئك المنتحرات ، وإنه ليؤسفني أن تنتهي القصة إلى هذه النهاية المحزنة ولكن ما حيلتي وقد بدأت بتلك البداية الأسيفة ؟

والحق لا تقع على تبعة بدايتها ولا نهايتها فهكذا رويها بطلها المحزون الذي غدا لا يفارق الحانة ليل نهار . وكم تمنيت لو كان كاتبها كما كان راويها ، لأني وأسفاه لا أستطيع مهما أحاول أن أبلغ بعض ما يبلغ من صدق الرواية وقوة التعبير

نجيب محفوظ

2017-11-16



الفصل السابع والعشرون

أعضاء السفارة يحضرون وليمة

في اليوم التالي لافتتاح البرلمان جاء المترجم إلى السفير وقال له : «هذه خمس دعوات لتناول العشاء»

فقال السفير : الله الله ! من الذي يستطيع أن يأكل خمس مرات في ليلة واحدة؟ »

قال المترجم : « ليس من الضروري أن تأكل بتاتاً بل تحضر الاجتماع دون أن تتناول الطعام ؛ وهذا مسموح به في عوائدنا »

قال السفير : « هبني لا آكل شيئاً ، ولكن حضور خمس دعوات يستغرق جانباً عظيما من الليل فكيف ذلك ؟ إننا فارسيون ننام بعد صلاة العشاء ونستيقظ قبل أذان الفجر »

فقال المترجم : « ما دمت مقيما بيننا فانك ستعتاد عاداتنا ؛ ونحن لا نكاد نفرق بين الليل وبين النهار في هذا الفصل من العام »

فقبل السفير وذهب معه ومع المترجم . وكانت الوليمة الأولى في قصر وزير ، وقد لبس السفير كعادته في الحفلات ووضع الريشة على قلبقه والخنجر في حزامه وتقلد السيف المجوهر . وليست كذلك ما يلائم هذه الحفلة من الثياب

وصلنا إلى قصر الوزير فلم يقل لنا أحد « باسم الله ! » ولا دعانا أحد للأكل بل فتح باب ودق جرس فقام من أراد أن يقوم إلى غرفة المائدة ، وانتظر في غرفة الجلوس من أراد أن ينتظر

وكان صاحب المنزل كأنه أحد الزوار ، والزوار كأنهم في بيوتهم ، فلا خجل ولا احتشام ولا انتظار للترحيب . وكانت زوجة صاحب المنزل موجودة بيننا كأنها أحد الرجال ، وكأنه لا شأن لها بأعمال الطباخين ونظام الوليمة ! وكل الذي وجدناه من مظاهر الترحيب هو النظر إلينا والابتسام . وكان بيننا كثير من السيدات لو أن على وجه إحداهن نقاباً لتدلت غراماً بها ، ولكن لسفورهن ما كنت أفكر في أنهن نساء

وقد بدأت المحادثة عما إذا كانت الشمس قد ظهرت في هذا اليوم أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها ظهرت ، واشتد الخلاف على مدة ظهورها ، فقال البعض إنها خمس دقائق وقال آخرون بل عشر

وكان المتكلم في هذا الموضوع موجهاً الالتفات إلينا لما يظنه البعض من أن الفرس يعبدون الشمس . وسألتنا زوجة الوزير عن ذلك فأجابها السفير : « إن بلادكم ليست في حاجة إلى الشمس ما دام لنسائكم هذه الوجوه المشرقة . فلو ترجم هذا القول إلى اللغة الانكليزية قوبل بالاستحسان العام واعتبر فكاهة لطيفة

وقال الوزير : « ولكن إذا عبدتم هذه الشموس كما تعبدون الشمس في بلادكم ، فإننا سنفكر في إنشاء

مصنع البراقع فى لانكشير ونجعل فى كل بيت قسماً للحريم

وعلى أثر ذلك تبادل الحاضرون المزاح والفكاهة فى هذا الموضوع . وقد دلنا ذلك على شىء فى الخلق الانكليزي لم نكن نتوقعه لأن هذه الشفاء المطبقة التى لا تكاد أن تفتح للكلام برهنت على أن دونها روحاً فكاهية حلوة

وقد حضرت العشاء فلم أجد متسعاً من الوقت للتفكير فيما إذا كان اللحم لحم حيوان مذبوح أو ميت، بل أكلت كل ما وقعت يدى عليه . ورأيت أمامي أنواعاً من النبيذ ما راعيت فى الامتناع عنها إلا وجود السفير

ولقد خطر لى فى أثناء الطعام أن هذا اللحم لحم خنزير . ولكن يدى لم تقف عن تناوله بل قلت باسم الله ثم التهمته

وكان السفير أكثر حذقاً مني فى استعمال الشوكة والسكين وأعد إقبالاً على تناول الطعام . ولقد أخطأت بحكم العادة مرتين فاسترعيت لسوء الحظ أنظار من حولى . أما إحدى الغلطتين فإني قاسمت جاري خبزه ؛ وأما الغلطة الثانية فانى شربت من كوبه . وكدت آخذ شيئاً من الطعام بأصابعى ولكنني تمالكت نفسى قبل الوقوع فى هذه الغلطة

ولما انتهى الأكل وقف السيدات دون الرجال وبقى هؤلاء وحدهم على المائدة ، فقلت للمترجم : إن هذا هو الشىء الوحيد الذى وجدناه قريباً من عوائدنا ولا بد أن يكون مستعاراً من الاسلام

فقال المترجم : إن النساء يقمن قبل آخر الوليمة ليكون الرجال أكثر حرية فى شرب النبيذ وفى المحادثة

وقد شجعني التبسط فى الكلام أثناء ما جرى من الحديث على أن أتكلم باللغة الانكليزية فكان الجميع ينظرون إلىّ ويتسمون ولا أعرف هل فهموا ما كنت أقول أم لم يفعموه

الفصل الثامن والعشرون

المحاضرة

لما انتهت الوليمة الأولى ذهبنا مع المترجم إلى قصر آخر وهو الذى فيه الحفلة الثانية ، وهى حفلة راقصة . وقد جلس السفير إلى جانب زوجة اللورد وجلس كل رجل بجانب سيدة

وسأل السفير المترجم : لماذا يجعلون حفلاتهم بالليل ؟ أليس فى النهار متسع من الوقت لذلك ؟

فقال المترجم : إن الوقت لا يتسع الآن للشرح . فسكت السفير وقد كنت وإياه فى أشد الحاجة للنوم . ولولا احترام الموقف لأدركنا النعاس ونحن جالسون وإني أشك كل الشك فى تصديق الناس إياى لو وصفت لهم ما رأيته فى هذه الحفلة

لقد كان النساء يتحلين من الجواهر بما لا يوجد مثله عند الشاه . وكانت أجل فارسية تعد دميمة بالقياس إلى من رأيتهن من الحسان . ولئن كنا نصف أجياد السيدات وعيونهن بعيون الغزلان وأجيادها ، فإن هذا التشبيه يزرى بالجمال الذى رأيناه ، والذى ليس من حقه أن يشبه بشىء ما . وقلت فى نفسى إذا كان فى الدنيا لذة وسرور فهما فى الرقص دون غيره . وإذا كان النساء جديرات بالحب فهن نساء هذا البلد السافرات لا نساء فارس المحتجبات

هكذا كان مجال تفكيرى . ويظهر أنه كان

مرتسما على وجهي ؛ فان أحد الجالسين حدثني باللغة الفارسية وسألني ألست أفكر في المنظر الذي أراه ؟ فقلت: «بلى، ولكني أظن أن السيدات الانكليزيات يصرن أجمل مما هن الآن إذا وضعن على وجوههن البراقع ، فلماذا لا تفرضون عليهن ذلك ؟ »

فابتسم وقال: «قد يفعلن ذلك في يوم من الأيام إذا ظهر لهن أنه يبرز جمالهن . ولكن كل إنسان في هذه البلاد حر في وجهه يفعل به ما يشاء »

قلت : « ولكن المجائز قبيحات جداً ولست أعرف السبب في ذلك . فهل عند شاهكم طريقة للتخلص منهن؟ لقد كان الشاه عباس يقتل الخصيان إذا لم يموتوا من تلقاء أنفسهم في الوقت المناسب »

فضحك محدثي وقال : « إن قتل امرأة عجوز قد يؤدي إلى نشوب ثورة ، وليس من الممكن أن أن يقوم بيننا ملك كالشاه عباس »

ثم أخذ يشرح لي بعض عادات بلاده التي لم تكن لديّ فكرة عنها

وأشار إلى أحد الجالسين فقال إنه ولي العهد . وهو كسائر الموجودين يتحدث ببساطة ولا يعيره الناس التفاتاً عاماً سوى أنهم يحرصون بقدر الامكان على ألا يوليه أحد ظهره

قلت : « ألم تقدم إليه الهدايا عند مجيئه ؟

فقال : « لا أعرف أنه أخذ شيئاً غير ما شرب من اللبن والشاي

قلت : « هذا شيء غريب ! ان الملك وأبناءه ليس لهم أقل امتياز في هذه البلاد ، ولكن في بلادنا يعد الجلوس في مكان واحد مع أحد الأمراء نعمة كبرى »

وجدت بين الجالسين رجلا يحتفي به الجميع أكثر من احتفائهم بالأمير ويظهر له الأمير نفسه أكبر احترام

قلت لمحدثي : « أليس هذا أميراً أيضاً ؟ إننا معشر الفارسيين نلتفت كل الالتفات إلى مظاهر الوجاهة فلا يفوتنا شيء منها

فقال : « لقد أصبت ! إن هذا رجل كبير الأهمية عندنا وإن لم يكن أميراً . وقد نشأ جندياً بسيطاً وارتقى بنشاطه في صفوف الجيش فهو يعدل عندكم الملقبين بلقب « غازي »

قلت : « ولكنني أراه يسكب الشاي في فنجان امرأة عجوز وذلك ماليس يفعله عندنا غير الخدم . إن أحد القواد عندنا لو فعل مثل ذلك لمزله الشاه في اليوم التالي لأنه استخف بكرامة نفسه

فابتسم وقال : « دعنا من ذلك الآن وانظر إلى الخاصرة فهذا شيء جديد عليك » والخاصرة أن يشتبك كل رجل مع سيدة بيديه وبرجليه ويدور على نغمة ما . وليس في بلادنا من يرقص غير الأجيرات . ولكن هؤلاء أعلى طبقة من الناس ولا يرقصون إلا رغبة في السرور

فلما أبديت له هذه الملاحظة قال إن المأجورات على الرقص يوجدن هنا في مسارح عامة وستراهن في يوم من الأيام

قلت : « أليس عندكم من يرى الرقص غير لائق أو يحاول إبطال هذه العادة ؟ »

فقال : « هذه عادة حديثة وقد وجدت مقاومة في بدء ظهورها . ولكن عندنا مايقال له «المودة» وهي أقوى من شاهكم ألف مرة وأكثر استبداداً . وسبب التعلق بالمودة هو أن رغبتنا في التقدم لاتجد حداً تقف عنده

كان الراقصون إلى الآن من الشبان ولكنني رأيت فتاة ما هالني وأدهشني

فقلت لجاري : « ألا ترى ؟ هذا رئيس وزارتكم يرقص ! »

فابتسم وقال : « ماذا يهولك من ذلك ؟ إن ملكنا يرقص أيضاً وكذلك المفتي عندنا ورجال الكنيسة والحربية والبحرية والقضاة

قلت : « أقسم برأس الحسين لو أن الشاه علم أن أحد وزرائه يرقص لضربه على قدميه في الطريق العام إن لم يفصل به أكثر من ذلك »

في كل هذه المدة كان السفير غائباً عن نظري وأخيراً وجدته بين جماعة من النساء . وكان أكبر اهتمامه بواحدة منهن جالسة أمامه وهو لا يريد الانصراف عنها ولا الكف عن محادثتها . وكانت نظراته إليها كنظرات المجنون إلى ليلاه

ولما انتهت السهرة عدت مع السفير في عربة إلى دار السفارة ولم نذهب إلى سائر الولائم لأن الساعة كانت متأخرة من الليل

الفصل التاسع والعشرون

السفير يحب

لما كنا في العربة لاحظت أن السفير لا يطيق كتمان مابه من الهواجس . ولم يطل صمته حتى قال : « أقسم يا حاجي بابا أن فؤادي قد سلب ! هل رأيت مثل هذه العيون والثغور والأجياد ؟ هل رأيت شعوراً مثل هذا الشعور ؟ هل رأيت جلوداً أرق من هذه الجلود ؟ إن فؤادي يكاد يحترق ولكن ما الفائدة من هذا القول ؟ إننا فارسيون وهؤلاء النصارى لا يزوجوننا من بناتهم حتى ولو قبلنا أن نعلق لحانا وشواربنا . قل لي ما الذي أفعل ؟ تكلم يا حاجي بابا »

قلت : « ما الذي أستطيع أن أقول ؟ إنها جميلة حقاً . ولكن كيف عثرت عليها ؟ »

فقال : « إن شعورها نحوي مثل شعوري نحوها وقد نظرت إليها للمرة الأولى في مجلس النواب . ولما تبادلنا النظرات جاءت بها أمها إليّ وقد تمكن حبنا فما الذي أفعل ؟

قلت : « أرى أن تكتب إليها أبياتاً من الشعر ، فإن الحب بغير شعر أمر لن يكون »

قال السفير : « نعم يا حاجي بابا . ولقد قلت أبياتاً من الشعر منذ رأيتها ، ولكن من الذي يستطيع أن يفهم شعري الفارسي ؟ ولقد حاول المترجم أن يشرح لها ولأمها ولمن رأيتهم حولنا هذه الأبيات فبدل أن يطربوا أخذوا يضحكون . وهذا هو معنى مطلع القصيدة

« يا نسيم الحب قل للمروحة التي تحركك لماذا تطردنا نحن إلى الصحاري والجبال ؟ »

قلت : « إذا كان هذا الشعر لا يملك قلبها فإن قلبها يستحيل إذن أن يملك . وأرى على أية حال أن تبعث إليها بالهدايا من الشيلان والجواهر وأن تكتب إليها خطاباً بالمداد الأحمر »

فقال : « هذه بلاد شديدة الخطر على رجل مسلم . إن عيون نسائها تقتل يميناً ويساراً ولا أمل في الزواج لغير المسيحي »

ومن ذلك الوقت لم يصطحبني السفير ولم يصطحب أي رجل من أعضاء السفارة إلى الحفلات التي يحضرها سيدات من الانكليز . ولعل ذلك خوفاً من نقل أخباره إلى الشاه ، أو لعله لا يريد أن نشهد

2017-11-16

ضحك حبيبته وأعجابها منه ، أو لعله خشى أن تزاحمه فى حبه

ومهما يكن غرضه فانه صار لا يستطيع غير الترجم. وكانا يتردد ان على قصر كبير يكاد يكون أكبر من قصر الشاه . وهذا القصر لاحياء الموسيقى والرقص؛ وقد ذهبت معها مرة إليه لأنه من الأماكن العامة التى يستطيع أن يزوروها كل إنسان مقابل أجر معين ؛ ويطلقون على هذا القصر اسم «الاوبرا» ؛ وتكوينه من الداخل عجيب جداً ، ففيه أماكن تخلايا النحل ضيقة يجلس فيها الوجهاء ؛ أما المكان الفسيح فى صحن البناء ففيه كراسى يجلس عليها العامة

جلسنا فى خلية من هذه الخلايا التى يختلط فيها الرجال بالنساء . وكان عدد كبير من الناس لا ترى إلا رؤوسهم، والمكان مضاء بأنوار أسطع من التى فى معرض النور بقصر الشاه

واستقبل الكل منصة عالية كالتى يجلس عليها القضاة ويسمونها المسرح . وصدحت الموسيقى فلم تلائم أصواتها أذواقنا لأنها تخرج مثاث من الأصوات المختلفة ، يختلط بعضها ببعض فيجعل اللحن شديد الاضطراب ، ولكن الانكليز يطربون له كما نطرب نحن لسماع أغانينا الشجية

وعلى حين فجأة ارتفع ستار عظيم كان يغطى هذه المنصة فرأينا من المناظر مايعجز القلم عن وصفه

مثلت رواية محزنة كدنا نبكى عند مشاهدتها ، ثم تلاها رقص وغناء لم يعجبنا فى أول الأمر لقبح الطريقة ، ولكنه أطربنا بعد قليل لرخامة الأصوات . أما الرقص فإنه مدهش إلى غير حد ، وأقسم لو شاهده الشاه لنزل مهرولاً عن عرشه فجأ أمام هؤلاء الحور اللواتى لا يشبهن إلا حور الجنة

وقد عجزنا عن مفاخرة الانكليز فى هذا الشأن لأنه ليس لدينا موسيقيون أو ممثون نفتخر بهم وإن كان عندنا شىء من الغناء والموسيقى . أما التمثيل فهو إبداع ليس لنا فيه أقل نصيب

وقد استمر السفير يذهب إلى هذا المكان حتى توهم بعض الانكليز أنه مسروز من كل عوائدهم

وطلبوا إليه أن يسعى فى بلاده إلى رفع الحجاب عن السيدات وتمويد النساء والرجال الفارسيين عوائد الفرنجستان . فمتد ذلك غضب السفير وكف عن الذهاب إلى هذا المسرح إظهاراً لاقتناعه بفضل عاداتنا الشرقية . ولما جرى الحديث بينه وبين الترجم عن الملاهى قال الترجم إنها ضرورية لانشاش الناس وتجديد قواهم

فقال السفير : « يظهر أن الشعب الانكليزى من أبلد الشعوب لأنه محتاج دائماً إلى التنشيط والانشاش ، أما نحن فى إيران فحسبنا من ذلك النيروز وحفلة ذكرى الحسين

وحضرنا بعض حفلات التمثيل ، وبالرغم من أننا لم نفهم ما يقال على المسرح فقد كانت مجرد الرؤية كافية لافهامنا المعنى ، واقتنعنا بأن هذا هو شعب المجانين . وحمدنا الله على العقل والحكمة اللذين وهبهما للشعب الفارسى

الفصل الثلاثون

حاجى بابا يتكلم الانكليزية

بدأت أخاطب الناس باللغة الانكليزية التى كان فهمى لها أعمق منها أكبر من استعدادى للتكلم بها . ولقد وجدت كثيراً من كلامى لا يفهم بسهولة ، ووجدت ذاكرتى تخونى فى حفظ بعض الكلمات

2017-11-1

فانى أظن أنى نطقت بها كما سمعتها والحقيقة أنى حرفتها تحريفاً عظيما

وكذلك كان السفير يحاول الكلام باللغة الانكليزية مع حبيبته ومع الوسط الذى يلقاها فيه . وفى يوم من الأيام أقبل علىّ مزعجاً وهو يصيح : « هات القاموس ! يظهر أن الذين كانوا على ظهر السفينة خدعونى فأفهمونى معنى كلة على غير صحة . وقد نطقت بها أمام السيدات فضحكن وأخجلنى . والله لو رأيت هؤلاء البحارة لمزقت جلودهم

قلت له : « ماهى هذه الكلمة وما مناسبتها ؟ »

فقال : « لقد سألتنى الفتاة عن زوجتى فى فارس فوصفتها لها وتشجعت على الكلام باللغة الانكليزية ، فلما نطقت باحدى هذه الكلمات حملقت هى ومن حولها ثم تهامسن وتضاحكن وشعرت بالخجل لأنهن لم يطلعننى على غلطتى

وفى هذه اللحظة جاء المترجم فسردنا عليه الخبر فابتسم وقال للسفير : هذه الكلمة من أغلظ مافى لغتنا من الكلمات ، ولا بد أن تكون تسقطتها من البحارة أو السابلة . فأخذ السفير فى البحث عنها فى القاموس . وقدوجدها فيه ووجد لها معنى مناسباً فاطمأن وقال : يظهر أن ما يسميه المترجم (بالمودة) يعتبرى الكلمات عندهم أيضاً فما يجوز عندهم التكلم به اليوم لا يجوز فى الغد

وعزم على أن يكتب لتلك الفتاة فيخبرها بأنه وجد الكلمة فى القاموس

ولكن المترجم نفى ضرورة ذلك وقال : إن فطنتها ستدلها على أن السفير غير متعمد للخطأ . وإن الكتابة إليها قد تضطرها إلى الرد مع أنها تؤثر بالطبع أن تتجاهل حدوث هذه الغلطة »

قال السفير : « إذن هذه رقة فى طباعكم ! ألا تعود إلى ذكر هذه الغلطة ؟ هل قلت إنها تتجاهلها ؟ هذه هى نهاية التهذيب . إننا متهذبون فى فارس ولكننا لم نبلغ بعد هذه الدرجة »

فقال المترجم : « إن أصل معنى الكلمة عادى ، ولكن الكناية معروفة فى انكلترا كما هى معروفة عند الفارسيين ؛ وفى كل يوم تتجدد كلمات يكنى بها عن المعانى التى أصبحت كناياتها القديمة مبتذلة

قال السفير : « على ذكر الكنايات أسألك عن الكلمة التى يكنى بها عن كلة زوجة ؟ »

فقال المترجم : « هذه كلة لا تحتاج إلى كناية »

قال السفير : « ما أبعد الأذواق بين الأمم المختلفة ! هل يجرؤ أحدكم على سؤال الآخر عن زوجته دون أن يكنى عنها ؟ ألا تشير هذه الكلمة إلى ألف معنى من المعانى المبتذلة ؟ إننا لا نقول لأحد كيف زوجتك ولكننا نقول كيف بيتكم »

قال المترجم : « هذا الاصطلاح عندكم له ما يبرره لأنه ليس لأحدكم زوجة واحدة بل زوجات متعددات . أما نحن فما دام المرء لا يتزوج إلا من واحدة فقط فلا معنى لهذا التعبير الجامع

قال السفير : « أليس فى لغتكم تعبير يبتدىء به كل شىء مثل قولنا « باسم الله »

فقال المترجم : « لا »

قال السفير : « يظهر إذن أنكم من فصيلة كردية ، فان الأكراد لا يبدأون باسم الله . ونحن فى فارس نسميهم عباد الشيطان من أجل هذا السبب

فقال المترجم : « إن الألفاظ التى يطول تكرارها تفقد وقعها . وفى اللغات ألفاظ كثيرة يجب أن تصان عن الابتذال

قال السفير : « إذن لماذا لا تصونون بعض ألفاظكم مثل كلمة « دام » التي سمعتها من كل انسان قبلتها السيدة فضحكت مني ؟ » فلم يحر الترجمان جواباً ، ولكن عند انتهاء الحادثة صمم السفير على الاتفاق مع مدرس يعلمه اللغة الانكليزية ... وكذلك صممت تنفيذاً لأمر الشاه حتى أتمكن في وقت قصير من ترجمة الكتب الانكليزية

وقد نصحنا المعلم بأن نتعلم اللغة اللاتينية أيضاً فقال السفير : « وما هي اللاتينية ؟ إنني لم أسمع قط هذا الاسم »

قال المعلم : « إن الانسان لا يعرف شيئاً عن العالم حتى يتعلم اللغة اللاتينية »

فغضب السفير وقال : « إن بلادنا من عهد جمشيد تعيش بغير اللغة اللاتينية وقد أحرقنا قبور الروس مع ذلك »

قال المعلم : « إذا كنتم تجهلون اللاتينية فانكم تعرفون الفرنسية أو الايطالية فهما لغتان شائعتان » فقال السفير إننا لا نعرف الفرنسية ولا الايطالية ، ولكن عدداً قليلاً منا يعرف التركية أو العربية ؛ فأصر المعلم النبي على ضرورة تعلم اللاتينية . ومن ذلك اليوم وضعنا له اسما لنسخر به فدعوناه لاتيناجي

الفصل السادس والثلاثون

السيدات الانكليزيات بدير السفير

مضى علينا عدة شهور في بلاد الانكليز واعتدنا كثيراً من عوائدهم ، فكنا عند ما يسير اثنان منا معاً لا يمسك أحدهما بذراع الآخر في الطريق لأن هذه العادة خاصة في انكلترا بالرجل مع المرأة . وامتنعنا عن الأكل بأصابعنا واعتدنا شرب الجعة وامتنعنا عن جلوس القرفصاء وكثير زوارنا خصوصاً من السيدات اللواتي كن يستصحبن إلينا أزواجهن وإخوتهن . وكانت الواحدة منهن تأتي وحدها في بعض الأحيان وقد توطدت الصداقة بين السفير وبين الكثيرات منهن وكثرت هداياه إليهن . ولكن حبه ظل مقتصراً على واحدة منهن هي الأولى التي تقدم ذكرها

وفي يوم من الأيام وصلت رسالة من طهران فاهتاج السفير عند قراءتها وأخذ يسب رئيس الوزارة ويلعنه ، وقال إن هذا الخطاب من زوجته وإنها علمت بأن لديه جارية شركسية وإنها تؤنبه . وقال بصوت ملؤه الرقة : « لماذا تلومني وتؤنبني ؟ إن الجارية ستكون خادماً لها عند ما نعود إلى إيران . أليس يكفيها من العناية بها والحرص على رضاها أنني لم أجمع إليها زوجة أخرى ؟ » ثم عاد للغضب فاستولى عليه وصاح : « ولكن من الذي أبلغها ؟ هل يوجد هنا من يتجسس علي ؟ » وأخذ يلعن الساعة التي عين فيها بهذا المنصب وغادر بلاده المحبوبة وزوجته وابنه

ومن بين العادات التي اعتادها السفير شراء جريدة انكليزية كل يوم لأنه كان يجد بها أخبار انتقاله وأعماله . وكان بعضها يأتي محرفاً في كثير من الأحيان فينضب ويهتاج ويرسل تكذيباً للجريدة . وكان يقول قبل أن يفتح الجريدة : « سنرى ماذا قال عني الكذابون اليوم »

وكان يقول : « لو أن شاهنا يطلع على هذه الأخبار فانه بغير شك سيقابلني بالقرعة والفلقة » عند ما أعود إلى طهران

وكان من بين الأخبار التي كتبتها تلك الجريدة

عنه أنه يضرب جاريته الشركسية »

وحدث فى يوم من الأيام حادث مزعج جدير بأن يكتب فى قصة ألف ليلة . وذلك أنى كنت خارجاً من باب السفارة فقابلت سيدتين إحداهما أكبر من الأخرى . وكلتاهما جميلة جداً . ولكن الصغرى أجمل . وكان شكلهما لا يدل على أنهما من الانكليزيات

تقدمت منى الكبرى وطلبت إلىّ فى جرأة مدهشة أن أصحبها إلى منزلى أو منزلها لتقضى ساعة لهو . فتجاهلت الغرض وتبالهت ، ولكنها ألحّت علىّ وأكدت أنه لا خوف من ذلك . وعدت بهما إلى غرفة الجلوس فى دار السفارة وقدمت لهما الفاكهة والجعة وتسامرنا . ولكن الصغرى كانت أجمل فى عينى من الكبرى فخصصتها بمعلقى ، وقد رأيت علائم الغيرة على وجه الكبرى وأنا خبير ببثيرة النساء فى فارس ، ولكننى لم أر قط غيرة جنونية كثيرة هذه السيدة ، فلم أكد أقبل الفتاة التى أعجبت بها حتى انهالت على الكبرى بالضرب واللكم واللكز فأعطيتها ما سمى من القطع الفضية ولكن العينة رمت بها فكسرت المرآة . وأسرعت فخرجت من الغرفة ودخلت غرفتى الخاصة

وبعد قليل سمعت بواب السفارة يطلب الترجم ويقول له إن فى غرفة الجلوس سيدتين غريبتين إحداهما تبكى والأخرى تصيح فخرج المترجم وسمعت السيدة الكبيرة تقول له : « لا تخدعنى فانك حلقت ذقنك وجئت تتجاهلنى »

وسمعت المترجم يطردها ويتوعدها بأن يرسل فى طلب البوليس . فخرجت السيدة وعاد المترجم وسألته وأنا أتجاهل الحقيقة فأجاب بأن السيدتين من البرتغال . وأفهمنى أن الحقيقة لا تخفى عليه

ولما جاء السفير قال له المترجم ونحن موجودون إن لوندرا ليست مثل طهران ، فكل شخص فى طهران معروف إلى حد ما . أما فى لوندرا فالناس كثيرون وفيهم من يحصل على القوت بطريق غير شريفة وإنه لذلك ينصح لكل من فى السفارة ألاّ يسمحوا بدخول أحد إليها إلا إذا قدمه المترجم

الفصل الثانى والثلاثون

أقارب الانكليز

نسيت هذه الحادثة سريعاً وكان كل يوم يمر يزيد السفير انصرافاً عن السفارة ومن فيها إلى معاشرة الانكليزيات والانكليز . وقد كنا نعتقد أننا معشر الفارسيين أقدر الناس على الكذب . ولكن إقامتنا فى لوندرا دلتنا على أن الانكليز هم أكذب الناس حقاً . فمن أمثلة كذبهم أن أحد تجار العربات أهدى إلى سفيرنا سوطاً جميلا فقبله منه . وفى اليوم التالى وجدناه قد كتب على بابه وفى الصحف أيضاً أنه « متعهد لتوريد العربات إلى شاه إيران » وكنت مرة أمشى فى الطريق مع محمد بك فررنا بتاجر دعانا وقدم إلينا جوارب ومناديل فلم نقبلها ولكنه ألح وأكرهنا على أخذها فأخذناها . ولما مررنا بحانوته بعد ذلك وأيناه قد كتب أنه متعهد التوريد للسفارة الفارسية فعرفنا أننا لسنا وحدنا القادرين على الضحك على الذقون

وأرسل أحد المسارح دعوة إلى السفير ليحضر حفلة تمثيلية . فلما لم يردها وجدنا إعلانات كبيرة فى الشوارع مكتوباً عليها بالخط العريض أن السفير الفارسى هو الذى اقترح تمثيل الرواية وأنه سيحضرها

وفى الليلة المحددة لتمثيل هذه الرواية أرسلنى السفير مندوباً عنه فى حضورها ، وقد تصادف أن المقصورة التى جلست بها تجاور مقصورة أخرى بها ثلاث فتيات وأمهن وأبوهن

وكان هذا الأب مفرطاً فى السمن وزوجته نحيلة جداً . أما الفتيات فانهن زاهرات يانعات من زهر الجمال

وتصادف أن يدى لمست عن غير قصد منى يد إحدى الفتيات فكان ذلك داعياً للالتفات إلى والرغبة الشديدة فى التعرف على

قالت الأم لها : « قدمى إليه برتقالة » فخجلت الفتاة وهى سفراهن وقدمت إلى برتقالة على استحياء . فقلت فى نفسى هذه تحية فارسية وقبلتها منها مع الشكر ، وشكرنى الأب على قبولها وعدَّ ذلك منى ملاطفة وقال وهو يخاطب السفير : إنه يتمنى توثيق العلائق بين انكلترا وبين إيران

فتظاهرت بأبهة السفراء وأجبته جواباً ملائماً . وقد اتضح لى أن الرجل مشهور بوطنيته بين الانكليز . ثم سألنى هل فى فارس مسارح وهل أعرف اللغة الفرنسية وهل أنا متزوج ؟ فأجبته على ذلك

ولما سمعوا منى أنى لم أتزوج زاد اهتمامهم بى ولم تكف الأم عن النظر إلى ، وأخذت كل فتاة تعدل من ثيابها

قالت لى الأم : إن كبرى بناتها كريمة القلب تحب الفقراء ، وأنها تحوك الجوارب بيدها وتخيط الثياب وتعلم الأطفال ، وأن الفتاة الوسطى تجيد الرقص والعزف على البيانو وتتقن الايطالية ، وإن الصغرى لا تزال فى المدرسة ولم « تخرج من البيضة » إلى الآن — كما يقول الأتراك — ولمحت تلميحاً خفيفاً إلى أن الفتيات سيصرن من أغنى السيدات فى يوم من الأيام لأن لهن عمات وخالات كثيرات

ولقد استكشفت من حديثها السبب فى حرص الانكليز على الحجارُ من نسائهن فانها لما تكلمت عن زوجها لم تدع صفة من الصفات الحسنة إلا ونسبتها إليه بحيث لو اجتمعت فيه كل هذه الصفات لكان من الملائكة لا من الناس ، ووصفته بأنه غنى كريم حسن الأخلاق يحب أبناءه وبناته . فقلت ماشاء الله وهو سمين أيضاً فما اسمه ؟

قالت : اسمه يا صاحب السعادة المستر « هوج » وهو من أسرة اسكوتلاندية عريقة

ولما كانت كلمة « هوج » فى اللغة الانكليزية تعنى « الخنزير » فقد كتمت ابتسامى وقلت فى نفسى : « لو كان هذا الرجل فى فارس لكان اسمه « ميرزا خنزير » أو « خنزير خان » ولا بد أن يكون الخنزير محترماً جداً فى هذه البلاد حتى سموا أبناءهم باسمه وقلت لها : « وما اسمك أنت ؟ »

فقالت : « كلنا من أسرة هوج . وقالت إن اسم ابنتها الكبرى « ماوى » واسم الوسطى « بيسى » واسم الصغرى : « جمى »

ولما بدأ الفتيات يتكلمن معى أمطرنى وابلاً من الأسئلة . وكان بين أسئلتهن هل اليهود مضطهدون فى فارس كما هم مضطهدون فى روسيا ؟ وهل فى طهران تمثال للاسكندر المقدونى . ومثل ذلك من المفارقات . وقد فتنتنى الفتاة الوسطى بحديثها الحلو وصوتها الرخيم

ولما أرخى الستار وبدأ الناس ينصرفون قدم لى المستر هوج تلك القصاصة من الورق التى عليها

إسمه كما هي العادة عندهم وقال إنه سيزورني ومعه أسرته في اليوم التالي ...

لم يطل عهد ظلمهم أني أنا السفير لأن هؤلاء الانكليز يحبون ويتساهلون . ولكن بحثهم لم ينقص من مكانتي بل زادها كما سيظهر فيما بعد فقد علموا أن لقبي ميرزا وحسبوني لذلك أميراً . وبدل أن يتادوني في اليوم التالي بياصاحب السعادة صاروا يقولون لي يا سمو الأمير

وفي صباح اليوم التالي وقفت عربتهم على باب السفارة . ودعوني إلى تناول العشاء عندهم في يوم بعيد من الشهر المقبل فقلت في نفسي هؤلاء أول قوم من الانكليز أرامم يستقدون بالتنجيم وإلا فلماذا يحددون هذا اليوم البعيد ؟

ولم أشأ أن أعرفهم بالسفير لأنه شديد الغيرة وقد كنت أعرف أنه من حقي اختيار أصحابي . ولكني لمرفقي باخلاقه من جهة ، وحرصاً على ألا يرى المستر هوج وبناته خضوعي أمام رئيسي آثرت ألا أعرفهم به . والحق أن الانكليز يجهلون تمام الجهل هذا الخلق فينا ، فان أحدهم لا يتكلف في الوقوف أو الكلام أمام وزير أو أمير ، ولكننا نحن الفارسيين نقف بشكل مزر أمام من هو أرقى منا ولا يستطيع السفير ذو الكرامة أن يغير هذا الطبع لأن رؤساءه يتطلبونه وأقرانه لا يستدرونه

ومن العادات الغريبة عند الانكليز أن العروس هي التي تدفع المهر وأن مهرها في العادة أضعاف ما يدفعه الرجل عندنا لعروسه . وقد أخبرتني زوجة المستر هوج بأن مهر إحدى بناتها ثروة طائلة

قلت : لماذا لا أكون أول اصفهاني يتزوج من انجليزية ؟ إنني إن تزوجت في إيران فلن أتزوج من غنية ، فالفارسيون يحرصون على التناسب بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة خصوصاً بين الطبقات العالية . وفضلاً عن ذلك فاني لو تزوجت من فارسية غنية فاني لا آخذ مثل هذا المهر الكبير . والفتاة مع ذلك جميلة وفوق الجميلة ، وأنا لا أزال في ميعة الشباب فأنا كفء لها ، ولا تزال لحيتي سوداء كأول يوم نمت فيه لحية . وإذا ظهرت فيها شعرات بيضاء فالحناء موجودة ، وما ينقصني إلا أن أتقن الكلام المسهل باللغة الانكليزية كما أتقنه باللغة الفارسية

الفصل الثالث والثلاثون

أسرة المستر

سألت المترجم عن كل ما يلزمني من آداب الدعوة الولائم حتى لا أقع في مثل الغلطات التي طالما وقعت فيها منذ وصولي إلى انكلترا . وفي اليوم المحدد للدعوة ذهبت إلى ذلك المنزل وسألت البواب عن المستر هوج فأخبرني بأنه ليس في المنزل وبأن السيدات في انتظاري ، فصدمت ذلك من حسن الحظ لأن دخول الحرم في إنكلترا بمثل هذه السهولة أمر لم يكن ليخطر لي ببال . وعدلت من ثيابي وأتقنت لبس القلبق وساويت شعري ثم صعدت فوجدت الفتيات وأمهن ينتظرنني ، واعتذرت للسيدة عن جهل البواب لأنه لم يعرف أني ميرزا ثم قالت : « أليس لقب ميرزا عندكم هو لقب « برنس » عندنا ؟ لقد قرأنا ذلك في رحلات المستر فوبر »

قلت : إنه يخطئ حيناً ويصيب حيناً . فسألتني الفتاة الصغرى : « أليس لقب ميرزا هو لقب الأمراء ؟ »

فقلت : إن دولتنا دولة كل رجالها أمراء . فان كلمة ميرزا إذا كانت قبل الاسم كانت لقباً بسيطاً

2017-11-11

وإذا كانت بعد الاسم كانت لقب الامارة

وعلى الرغم من هذا الايضاح فانهن أصرين على مناداتى بلقب « سموكم » ولا أعرف لماذا تشبثن بأنى أمير . وقد سألت سفراهن عن أبيها فقالت : إنه مسافر وسيعود فى المساء وإن من عاداته أن يغسل ذلك كل يوم . فقلت : يظهر أنه تاجر وهذه عادة التجار عندنا أيضاً ، ولكن هل المستر هوج يبيع لحم الخنزير ؟

عند ذلك بدا الغضب على وجه السيدة وقالت : ما الذى دعاك إلى أن تظن هذا الظن ؟

فقلت : إن التجار عندنا يقبلون بما يبيعونه فى بعض الأحيان . ثم تبينت شدة سخطها ، فحاولت إصلاح غلطتى وقلت : إن التجارة ليست عيباً عندنا فهل هى عيب عندكم ؟ إننى لاأعرف عادات البلاد ، وإنى أسير هنا بنير دليل ، وإذا لم يكن زوجك تاجراً فما هى صناعته ؟ »

قالت : إنه مدير شركة الهند الشرقية . فوجدت الفرصة مناسبة كل المناسبة لإصلاح غلطتى خصوصاً أمام الفتيات وقلت : لعله من ملوك الهند ؟ فابتسمت وقالت : « إننا لا ننسى مديرى هذه الشركة ملوكاً ولكنهم فى حكم الملوك

وسألتنى مارى : هل فى بلادكم مبشرون من الانكليز ؟ فحمدت الله على تغيير الموضوع الذى كنا نتكلم فيه وقلت : نعم لقد كنت أعرف فيها رجلاً يدعى بادرى وهو يقول : إن نبينا غير نبى ، وإن البابا رجل كذاب . وقد رجمه الفارسيون وأظنه فر من بلادنا »

فقالت : « لقد أساء الذين رجموه ! لماذا ؟ أليس هناك مجال للمناقشة ؟

قلت : « ليست المناقشة سهلة خصوصاً مع المسيحيين فى إيران ، فهم ليسوا مثل المسيحيين فى هذه البلاد بل هم أناس فى نهاية الفقارة والشراسة ؛ وأفقر فقير من المسلمين فى إيران خير من أغنى غنى من المسيحيين فيها

ثم قلت : « إنا جاء الملك جورج إلى فارس وفتحها وأقام أهلها أن يكونوا مسيحيين فقد يصيرون كذلك . أما إذا جاء بادرى وجده وأراد أن يجعلهم مسيحيين فانهم يرجمونه . وليس يتم شىء فى فارس إلا بالسيف »

قالت : « لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الأناجيل إلى فارس ولا بد أن يكون لها تأثير بين أهلها

فقلت : إن الأناجيل كتب طيبة ، والفارسيون لا يقولون كلة واحدة ضدها ؛ ولكن القرآن الشريف أحسن منها ؛ والمسلمون يمدحون نبيكم فلماذا لا تمدحون نبينا أيضاً ؟ »

قالت مارى : « إننا سنجعلك مسيحياً قبل أن تفارقنا . هل زرت الكنيسة الانكليزية قبل الآن ؟

قلت : « إننى لم أزرها ولا أجرؤ على دخول معبد لا يناس يخالفون دينى خشية أن أعمل معاملة سيئة ، لأنه لو دخل أحد المسيحيين فى مسجد من مساجد إيران لما خرج منه سليا . ولست أشك فى انى أعامل هذه المعاملة لو دخلت الكنيسة فى بلاد الانكليز

فأكدت لى مارى بأن الكنائس مفتوحة الأبواب فى أوجه النصارى وغيرهم على حد سواء. وألحت على فى الذهاب معها إلى الكنيسة فى اليوم التالى فوافقت على ذلك

وعاملتنى الأم معاملة حسنة جداً فى ذلك اليوم

وفى الزيارات التى توالت بعد ذلك . وكانت بيسى التى طالما التقى نظرها بنظرى تقول لى بالغته الفارسية الفصحى : « خودا حافظ شوما » فأطرب لهذه التحية وترجمتها « أنت فى حفظ الله »

وأخبرتنى الأم بأن بنتها منذ قابلتنى فى المسرح لم يفكرن فى شىء غيرى ، وان أكبر أمانى مارى الآن أن تصلى مسيحياً ، وأن بسى قد خطت خطوات فى اللغة الفارسية ، وان « جسى » أصبحت لا تعنى بشىء مثل عنايتها بالتاريخ الفارسى

وقد سرتنى هذه الأخبار كل السرور وشجعتنى على الأمل فى صحبتهن . وكنت كلما خرجت من عندهن أقول فى نفسى : « الله أكبر ! انهن لسن سيدات فقط ولكنهن يصلحن أن يكن وزراء . أم كيف يتأتى للمرأة فى بلادنا أن تفكر فى دينها وأبناء البلاد الأخرى ؟ وكيف يتأتى لواحدة منهن أن تدرس لغة أو تاريخاً لأمة أجنبية ؟

الفصل الرابع والثلاثون

حياتى بابا فى الكنيسة

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى منزل صديقاتى ، وكان اليوم يوم جمعة الانكليز وهو يوم الأحد ، وكانت الأجراس تسمع فى كل مكان ؛ والشوارع مزدحمة بالذاهبين إلى الكنيسة على اختلاف درجاتهم وأعمارهم . وقالت مارى ونحن فى الطريق إن الحكومة هى التى تدير الكنائس فصحت وقلت ان شاهنا وإن كان مستبداً فلا سيطرة له على المسجد ولا يستطيع أن يضطرنى إلى الزيادة من الاستغفار أو التقليل من قراءة الفاتحة ، وليس له أن يتدخل فيما بينى وبين ربى من غسل اليدين والرجلين ومسح ربع الرأس والاستنشاق والمضمضة وقص الأظافر . فتلك كلها أمور دينية متروكة للضمير

وقبل أن ندخل الكنيسة مع مارى تصرفت على أنحيها الأكبر وقابلت أباها . ودخلنا الكنيسة جميعاً نساءنا والرجال . وما كان أشد الحاجة فى المعابد إلى وضع براقع على وجوه النساء لأنه يستحيل مع كثرة عددهن ألا تتجه إليهن العيون فى وقت الصلاة . ولقد كان من المحال علىّ أن أمر لحظة لا أزود فيها وجه بسى بنظرة

وفى أثناء الطريق دفعت إلىّ مارى بكتاب أسود لأقرأ فيه الصلاة وقد فهمت منه أجزاء وفى أوامره ونواهيه ما يشبه الأوامر والنواهى التى فى القرآن ، ولكن النصارى لا يحفظونه عن ظهر قلب كما نحفظ نحن كتابنا المقدس بل يفتحونه ويقرأون فيه وهم يصلون ويحسبون صلاة مثل هذه يقبلها الله ...

وصعد المنبر شاب صغير ثيابه كثياب الناس جميعاً وهو حليق اللحية والشاربين فقلت فى نفسى كيف يتمشى الناس من قول أسرد كهذا؟ إن الخطيب عندنا يجب أن يكون أبيض الشعر محدودب الظهر ليصغى الناس إلى كلامه وليضعوا رأيه فى موضع الاحترام . وقد بطل عجبى عند ما رأيت هذا الخطيب الناشئ يفتح كتاباً ويقرأ لهم فيه حتى تنتهى خطبته وهو لا يهز رأسه بحنة ولا يسرة ولا يمسك سيفاً .

وقد ظهر لى فى جلاء أن المصلين وأمامهم هذا غير جادين و ليس فى صلاتهم شىء من الاهتمام . فقلت ليتهم يذهبون إلى فارس ليروا كيف يكون احترام الدين . فانهم هنا يجلسون على الكراسى الفاخرة على الوسائد الحريرية ويلتفت أحدهم فى أثناء الصلاة كما يشاء إلى اليمين أو اليسار أو الخلف ولا يعرف إن

2017-11-1

ذلك يؤدى إلى الخروج من الصلاة . ونحن فى فارس نجلس كلنا على حصير واحد سواء منا الغنى والفقير ونولى وجوهنا وجهة واحدة ونخضع لله كما ينبغى أن يكون الخضوع له سبحانه ؛ وفى صلاتنا ركوع وسجود ، أما هؤلاء فصلاتهم جافة جافية كأنهم يعاملون الله معاملة الند للند . وهم لا يتوضأون قبل الصلاة ، ولكنى فهمت أن لهم قبلة كما لنا قبلة وان قبلتهم شطر بيت المقدس

وبعد أن أتم الخطيب تلاوة خطبته الكتوبة أنشد المصلون نشيداً كالذى ننشده نحن عقب صلاة العيد . ثم انفض الجمع وخرجنا ، وكنت شديد الاغتباط بخروجى سالماً لأنى لو كنت مسيحياً وحضرت مثل هذه الصلاة فى مسجد إسلامى لحمدت الله على خروجى دون أن تتكسر عظامى . ولكن الأمر هنا على النقيض ، فالناس لم يروا فى وجودى بالكنيسة عند أداء الصلاة أقل مانع . ولو أن الذين لم تسبق لهم رؤيتى بثياب الفارسية استغربوا هذا الشكل

ولم تدع زوجة المستر هوج وسيلة مباشرة أو غير مباشرة لإفهام الناس أنى أمير إلا فعلتها

ولما خرجنا من الكنيسة قالت لى :

« ما رأيك فى كنائسنا يا سمو الأمير ؟ »

فقلت : « لا بأس بها سوى أنكم لا تبذلون أقل عناية فى الصلاة »

قالت : « فما هو رأيك فى الواعظ ؟ »

فقلت : « هو جميل والنظر إليه يسمت السرور ، ولكنه لا يصلح للوعظ ؛ ولا يقبل وعظ ممن هو فى عمره ولو نصح الناس بحكمة سليمان وفقه الامام أبي موسى الأشعرى

وقد وافقنى المستر هوج على هذه الملاحظة وأخذ يتفلسف فى حكمة التجاريب ، وحاولت تغيير هذا الموضوع لأتكلم فى أى موضوع آخر تحبه يسى ولكن (مارى) أو (الشيخ مارى) كما تستحق أن تلقب كانت تأبى أن يخرج الموضوع عن الدين

وقد سألتنى الأم عما إذا كنت أعرف السيدة غلاثة أو غيرها من سيدات الطبقة الأنكليزية الراقية ، وعما إذا كنت أدعى إلى حفلات الرقص فى بيوت السفراء والوزراء . وفهمت من أسئلتها أنها تريد أن تعرف وتشتهر فى تلك الأوساط وأن أكون الوسيط بينها وبينهم . وطلبت إلىّ أن أعرفها بالسفير فوعدتها بذلك على غير إرادتى وإن كنت أعرف أنه الوسيلة الأولى للتقدم نحو البيوت الراقية

الفصل الخامس الثلاثون

شركة الهند الشرقية

عدت إلى دار السفارة فوجدت السفير يتأهب لزيارة رسمية ليؤديها فى اليوم التالى . وهذه الزيارة فى قصر الشركة الهندية وهو واقع فى جزء بعيد عن المدينة ، وفى هذا القصر كل الأموال التى ادخرها أمراء الهند والصين وسرنديب فى عصور متعددة . وقد أمرنا السفير بأن نتأهب جميعاً لهذه الزيارة . واختار الهدايا اللازمة بهذه المناسبة ومن بين هذه الهدايا ديوان شعر نفيس من نظم جلالة مولانا الشاه

وقد كنا نعرف أن ملوك الهند السابقين هم حماة الشعر وأنصاره فلا بد أن يكون خلفاؤهم المحدثون على غرارهم . وكذلك جعل السفير من بين هداياه هذه صورة كبيرة مرصعة باللؤلؤ وهى من صنع محمد ناجى الشيرازى أكبر مصورى فارس فى

2017-11-11

هذا العصر . وهذه الهدية ثمينة حقاً وهي أجل حتى من شعر الشاه

لبس السفير جبة عليها رسم الزهور بخيوط من الذهب وتقلد سيفاً مقبضه من العقيق وتسمم محمد بك بشال من الكشمير وتمنطق بحزام أحمر ؛ وكذلك ظهر كل منا بأحسن مظهر . ثم ركبنا العربات إلى ذلك القصر العجيب الذي يكاد يكون كمدينة من مدننا وقد كان في حديقته شوارع تجري فيها العربات وهي مزدحمة بالناس مثل ازدحام مدينة لوندرا . وبين باب المدينة وباب البناء الداخلي صفوف من أعمدة المرمر لم تر عيني شبيهاً لها . وكان القصر مزدانا بمناسبة قدومنا . وفي الشوارع التي في الحديقة جنود مصطفة تصدح بموسيقاها .

استقبلنا في هذا القصر أناس بالنيابة عن الحكومة ودخلنا غرفة فيها أربعة وعشرون رجلاً على مقاعد مذهبة ، وقيل لنا أن هؤلاء هم أعضاء الشركة التي تحكم الهند ، ووجدنا مقعد رئيسهم أعلى من سائر المقاعد . وحياه السفير وقدم إليه الهدايا

وكانت أولى الهدايا ديوان شعر الشاه . فلما سلمه السفير التفتت كل العيون ، ولكن سرعان ما سمعنا الأعضاء يتهامسون : ليس هذا إلا كتاباً

وكنا ننتظر أن يضع الرئيس الكتاب على رأسه ويقبله ، كما نفعل نحن في مثل هذه الحالة . ولكنه أخذه في صمت ثم أحنى رأسه ثلاث مرات. وانتقل الكتاب من يد إلى يد حتى رأوه جميعاً

وقد امتعض السفير من ذلك وقلنا في أنفسنا بقران الشاه كان يعلم أن كتابه سيقابل هذه المقابلة لما ألف بيتاً واحداً من الشعر

ثم كانت الهدية الثانية هي صورة الشاه وقد رأى السفير أن الواجب يقضي بالسجود أمام هذه الصورة كما لو كان الشاه نفسه موجوداً فسجد وسجدنا جميعاً وكنا ننتظر أن يحذو أعضاء الشركة حذونا ولكنهم لم يتحركوا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة استغراب

ولما تم تقديم الهدايا أخذنا بعض أعضاء الشركة إلى الغرف الأخرى ومنها مكتبة عامة فيها أحسن الكتب التي وضعت باللغة الهندية وتاريخ الهند باللغات المختلفة . وفي هذه المكتبة سيدات مختلفات ورجال وبينهم زوجة المستر هوج وبناه ؛ وقد أردت في بادئ الأمر أن أختفي وراء واحد من أصحابي حتى لا يرينني ولا يسلمن علي فيستثرن غيرة السفير ضدي ، ولكني وجدت هذه الطريقة غير مجدية ، وجاءت الأم فصافحتني . ولحسن الحظ لم يرنا السفير عند ذلك ولكن سائر زملائي دهشوا

وقد طلبت إلي هذه السيدة أن أعرفها بالسفير الآن . فاعتذرت في كلمات مقتضبة بأن هذا لا يتفق مع عوائدنا فأظهرت الاقتناع وتركتني مؤقتاً

وكان يدير هذه المكتبة رجل هرم قالوا إنه عالم كبير . وقد فهمت أن الكتب التي فيها تقدر بمئات الآلاف من الجنيهات ، وفيها قسم للآثار به سيوف ودروع وثياب ونفائس مما جمعه الانكليز في حروبهم مع ملوك الهند القدماء ، وفيها سيف لقائد تركي يجري يقال له قيودان باشا . وقلت للمستر هوج : «ماشاء الله ! إذا كان شركتكم قد تغلبت على كل هذا العدد من ملوك الهند فهي ليست شركة إذن ولكنها حكومة من أقوى الحكومات

وجدت بين الرجال شاباً ذا شارب قصير ينظر إلي حبيبتي بيسى نظرات تكاد تقضي على كل آمالي في الزواج منها والحصول على الثروة من مهرها ، وبدأت أشك في أن لحيتي على كثرة ما فيها من

الشمرات الطويلة وسوالف الممتدة كالنذير أفضل لدى الفتاة من ذلك الشارب المقصوص

ورأيت فى حذائى ذلك الشاب سهمازين من النحاس ولكنه لا يرتدى ثوب ضابط عسكرى فأيقنت أن السهماز وسيلة لاستجلاب هواها

وطفنا بسائر الغرف والأقسام فى هذا البناء المتعدد الأجزاء . ولما آن أوان انصرافنا دنت منى يسى وقالت لى : لا تنس أن تتمشى عندنا غداً يا سمو الأمير

فسمع السفير هذا اللقب وقال لى ونحن فى الطريق : كيف تدعوك تلك الفتاة أميراً ؟

قلت : لا علم لى ولكن يظهر أن كلمة ميرزا لا تفهم عندهم إلا بمعنى الامارة

الفصل السادس والثلاثون

أنباء من فارس

لما وصلنا إلى دار السفارة اجتمعنا حول السفير كالعادة فى الديوان وأخذنا نتحدث عما رأيناه فقال لى : « ما الذى رأيته اليوم ياحاجى بابا ؟ إنها لشركة عجيبة حقاً فهى كرأيك فيها حكومة من أقوى الحكومات ، وأرى واجبنا يقضى بأن نكتب إلى الشاه عن كل ما علمناه من أمر تلك الحكومة

قلت : « على العين والرأس يا سعادة السفير ، ولكننى لست أكتمك أن رجلا واحداً من رجالنا أعقل من هؤلاء الأسرة والمشرين مجتمعين إن كانوا كلهم مثل ذلك الرجل السمين الذى تمرف عليه من وقت قريب . فقال السفير : « ربما كان هذا الوصف منطبقاً على من عرفته أنت منهم ، أما الذين عرفتهم أنا فجديرون بالسيادة على العالم كله لا على الهند فقط ، وهم يعرفون عدد الشمرات فى لحية الشاه وإن كان كلانا لا يعرف هذا العدد . وألقوا علىّ من الأسئلة ماعجزت عن الإجابة عنه . ولست أعرف كيف حصلوا على كل مالديهم من المعلومات»

قلت : « أما الذين عرفتهم أنا فقد ألقوا علىّ من الأسئلة ما يخجل حمار الصحراء من إلقائه . وقد سألنى أحدهم : ألسنا نسيد البقر ؟ ولما استفكرت سؤاله سألنى : أليس الفارسيون هم الفرسيس فى الهند ؟ وقال لى رجل آخر : إن بطلنا الفارسى « ناجاس كولى خان » كان رجلا إرلنديا وحقيقة اسمه «توماس كالبجان» وإنه هو المعروف فى التاريخ باسم « نادرشاه »

فقال السفير : « لقد يكون فيهم جهلاء ولكن أمين المكتبة الذى رأيته اليوم لا نظير له بين علماء فارس . وقد قرأ من الكتب مالم تحو مثله مكتبة الشاه . وأخبرنى المترجم بأنه يعرف عشر لغات أجنبية

وقال محمد بك : « ولكن علماء بلادنا أكثر اطلاعاً منه ومعرفة . فهذا المبرزا الانكليزى لا يعرف شيئاً على الاطلاق فى علوم الحديث والفقه والأصول والفلك ؛ ولم أسمع عن انكليزى واحد يستطيع استخراج الطالع من رصد النجوم

فنظر إليه السفير نظرة طويلة وقال : « ما الذى يهم هذا العالم من علوم الحديث والفقه والأصول ما دام كافراً ؟ لكنه يعرف مقابل تلك العلوم مايتعلق بدينه . وهل من علماء إيران رجل واحد يستطيع أن يتكلم بعشر لغات أجنبية ؟ »

قال محمد بك : « وهل عرفت يا سعادة السفير انكليزياً واحداً يحفظ أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ويميز بين الصحيح منها والضعيف مثل الحاج محمد مجتهد مدينة قم ؟ »

فاحتد السفير وقال : « ألم أقل لك أيها الأحمق إن الانكليز مسيحيون وإن لهم ديناً غير ديننا يمرفون أحاديثه وأساتيذه ؟

فهز محمد باك كتفيه واستمر السفير يقول : « هل علمت أن المجتهدين فى فارس يخرجون من بلادهم ليقتنوا أبناء الغايات الأخرى باعتناق الدين الاسلامي كما يفعل المبشرون الانكليز الذين يطبعون كتبهم ويوزعونها على الناس بغير مقابل ويحرصون على تلقين الناس إياها ؟ هل تعلم أن الانكليز ترجموا القرآن إلى لغتهم وعرفوا من علوم المجتهدين ما ليس يعرفه المجتهدون أنفسهم ؟ »

فتدخلت فى الحديث وقلت : على كل حال فهذه أمة نالت مكانة مدهشة من الثروة والقوة والمعرفة

فضحك السفير وقال : « هل تعني حكومة الانكليز أم حكومة شركة الهند الشرقية ؟ » فقلت « أقسم برأسك يا سعادة السفير أن شركة الهند تدعو إلى الحيرة أكثر مما تدعو إليها الحكومة الانكليزية نفسها »

قال السفير : « نعم لقد صدقت يا حاجي بابا فانى لا أعرف كيف تمكن الأربعة والعشرون انكليزياً من إخضاع الهند الواسعة ! ولا أعرف كيف صارت مدينة أجرا أو مدينة دهلى العظيمتان خاضعتين لبناء الذى كنا فيه اليوم . ولست أعرف كيف زال ملك المغول أمام بناء الشركة فى شارع « ليدن هول ستريت »

فقلت : « هذا مدهش حقاً يا سعادة السفير وأرى أن نكتب الشاه أن يأمر بتحصين البلاد وتقوية الحدود لأنه من يدرى ربما قامت شركة أخرى بفتح فارس كما فتحوا الهند بواسطة شركة تجارية !

ولم أكد أتم جملتى حتى جاء رسول من قبل وزارة الخارجية يحمل إلينا خطابات من قبل الشاه الفارسى ، فتسلم سفيرنا الرسائل وسكتنا منتظرين اطلاعنا على ما فيها

ولما فتح السفير إحدى الرسائل صاح : « الحمد لله ! الحمد لله ! لقد مات عدونا اللدود « ميرزا شافى » رئيس الوزارة الفارسية »

ثم قام السفير إلى ركن من الغرفة وسجد لله سجدة الشكر

واضطر ناصر اغا لأن يقول : الحمد لله ! الحمد لله ! مع أنى كنت فى حاجة للبكاء فى تلك الساعة لأنى كنت مستظلاً بحمايته ، ولأن معاملة السفير لى ستتغير طبعاً بعد الآن

ولما فرغ السفير من صلاته أطلق لنفسه العنان فى إظهار الفرح وظل طول اليوم لا يفكر فى أمر آخر وهو بين لحظة ولحظة يقول : لقد مات ميرزا شافى !

وكنت أفكر فى مستقبلى بعد تلك النكبة فأتحسر . ولقد دلت التجربة على أن معاملة السفير لى تتغير تغيراً كلياً بعد وفاة رئيس الوزارة . فقد كان من قبل يعاملنى بشىء من الاحترام . أما الآن فانه يهزأ بى . ولقد قال لى مرة : « إن أباك قدمات . لقد مات هذا الكلب القذر ! ولكن لحسن حظك كنت موجوداً معنا فى هذا الحين . فان الشاه سادر أملاكه وباع عبيده وجواريه ؛ ولو كنت هناك لباعك أيضاً » فقلت له « أرجو ألا يحرمنى الله نعمة رضاك »

قال لى : « إذهب وكن مطمئناً فقد عفونا عن الماضى ولسنا نحمل أحدا ذات لونين »

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ٧

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-1


الرقيب

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ ق فى مصر والسودان
٥٠ فى البلاد الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٥ — ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ — أول يوليه سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٥٧٠	ثلاثون ألف دينار	من التاريخ الاسلامى	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
٥٧٨	عواد كريمون	الشاعر الفرنسى فرنسوا كوبيه ...	بقلم الأستاذ محمد كامل حسباج ...
٥٨١	أحزان الطفولة	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ
٥٨٥	الدخيل	الكاتب البلجيكى موريس ماترلنك .	بقلم الأستاذ محمد أمين
٥٩٥	الفتاة الغريبة	القصص الروسى بوشكين	بقلم السيد عز الدين عزوزى
٦٠٩	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

2017-11-16

من التاريخ الإسلامي

ثلاثون ألف دينار!

للأستاذ علي الطنطاوي

سرى في المدينة أن قد سال العقيق، فانتقلت المدينة بمساكنها وساكنيها، وزهوها وكبرائها، وطهوها وغنائها، وترفها ونعمائها، حتى استقرت في العقيق. ولقد كانت المدينة على عهد الخلفاء من بني أمية قلب الدولة الذي يخفق بالحب والشعر، كما كانت الشام رأسها الذي يفكر في السياسة والملك، والعراق يدها التي تلوّح بعلم (المعارضة)، وتهز سيف الثورة. وذلك أن فتيان قريش وشباب الأنصار ثقل عليهم المال الذي حمله آباؤهم الفاتحون الذين ورثوا كنوز كسرى وقيصر، ماحوى القصر الأبيض في المدائن، وما اشتملت عليه قصور الشام البلق، وكثر في أيديهم حتى ما يدرون فيم ينفقونه ... وكان من سياسة دمشق أن تقصيهم عن الولايات والأعمال، فانسع عليهم الوقت حتى ما يعلمون بم يملؤونه ... فانصرفوا إلى ترجية الأيام، وانتهاب اللذائذ، فجعلوا الحجاز دارة اللهو والترف ومثابة الشعر والغناء، وأهيك بالشباب والفراغ والجدة إذا اجتمعت على قوم من الأقوام؟!

وكانت ليلة مشرقة غسل البدر بنوره ظلماءها وأحالها مثل الغادة الناعسة بذلالها البيضاء، ثم ذهب ينتسل في العقيق، فطفا ضياؤه على وجهه، يعانق قطرانه وبراقش أمواجه الصغيرة، وكان منظراً عجباً، تحسب معه أن الوادي لا يجري بالماء، وإنما يجري فضة سائلة، ونوراً مذاباً ... وكان الناس منثورين في كل مكان، في القصور الشمّ التي يفيض بها الوادي، وتتلألأ بها التلال والصخور، وعلى سفوح الربا، وذُرا الهضاب، وجوانب الحرّة وفرش الرمال، حلقاً يستمعون إلى مغنٍّ أو شاعر، أو يدرون بينهم أطايب الحديث، أو يأكلون ويشربون، أو يلهون ويلعبون، ولم يكن فيهم إلا من ملأ الفرح قلبه وغمرت السعادة فؤاده. أما النساء فقد اعتزلن جانباً، يأخذن حظهن من ليالي العقيق، وقد بدوْن في شعاع القمر بثيابهن الملونة الزاهية، كالروض الزاهر الفاتن بكل ساحر أخاذ من الورد والياسمين والنرجس والبنفسج والزهر من من كل شكل ولون ... أما عطر الروض، فكان يفوح من أعطافهن وشعورهن وثيابهن المنفاضة..

ذلك هو العقيق!

كم شهد من أعراس الحياة ومباهجها! كم جال في أرجائه عمر بن أبي ربيعة ينضح حواشيه بشعره العطر الخالد! كم غنى فيه معبد وابن سريج ومالك بن أبي السمح وعزة الميلاء، فاستفاضت ألحانهم على صفحة الماء، وشطئان الأفق، وطفت على وجه النسيم فانقشت منها الطبيعة، وسكرت الجبال والربا، وسكر منها شعاع القمر فضلّ طريقه متربحاً في مسالك الجو... كم رأى العقيق من العلماء الزاهدين كعروة ومالك، والسمحاء الأكرمين كابن جعفر وسعيد بن العاص، والجبان والمختشين كأشعب وطويس والدلال! كم كتب في العقيق من تاريخنا الأدبي والفني! كم ألهم شعراءنا رائعات الشعر ومعجزات القصيد!

إذا جلت تلك الليلة أنحاء العقيق، رأيت على

طرف الحرة مما يلى بئر عروة وقصره ، حيث تتحدر الرمال الطرية حتى تبلغ الماء وتدلى فيه أقدامها ... رأيت سرباً من الظباء الفاتنات يتدافعن ويتراشقن بالماء ، وهن يتسابحن ويضحكن فرحات عابثات ، حتى إذا تعبن جلسن على الرمل يتأملن صفحة الماء — والماء الجارى فى الحجاز سحر ليس للفرات مثله ولا للنيل — وينظرن مأخوذات بجمال هـذه الليلة وفتونها ، وكنّ يتلفتن أثناء الحديث كأنهن يرقبن من يطلع عليهن من الثنية ، فلما طال الانتظار قالت واحدة منهن :

— لقد طال غياب سهيلة ، فياليت شعرى ماذا عاقها عنا هذه الليالى المقمرات ؟

فردت عليها فتاة سمراء قد تلفعت بثوب من الحرير الأحمر :

— ألا تدرين ماذا عاقها ؟ لقد شغلهـا هوى فرّوخ يا حبيبتى ، لقد خسرنا سهيلة إلى الأبد !

— ولم يا أمينة ؟ أهى أول فتاة تزوجت ؟ كلنا نعرف الزواج ، فما قصرنا فى حق الرجل ، ولا أهملنا حق أنفسنا

فأجابت أمينة ضاحكة :

— ولكن ما كل زوج فرّوخ ... أرأيت إلى جماله وشبابه ؟ إن له فوق الجمال والشباب ثلاثين ألف دينار ، أفليس من حق سهيلة أن تنسى مع العقيق وليالى المقمرات ؟

— إن تنس العقيق ، فليس لهـا أن تنسى صويحبات صباها

— لو كنت مكانها لنسيت أمك وأباك . إن الحب سكرة ، والمال مثلها ، فأنى لسهيلة أن تصحو من سكرتين ؟

فقالت فتاة من طرف المجلس قد آلمها غياب سهيلة:

— لتكن قد وجدت كنزاً ، أفيطير هذا الكنز من يدها إذا هى فارقت منزلها ليلة ؟ لم يبق فى المدينة أحد إلا أم العقيق هـذه الليلة ، أفتبقى سهيلة فى عزلتها الموحشة ، وهى الفتاة اللعوب ؟ لا . لا . إنى لا أستطيع أن أفهم هذا .

قالت أمينة :

— إنك لا تستطيعين أن تفهمى ، مسكينة أنت يا رفيدة .. تقولين إنها فى عزلة ؟ إنها فى جنة الحب يا صديقتى ، إن الدنيا على سعتها أضيق من هذا العش الذى تعيش فيه مع من تحبّ ...

وكان الفتيات فى غمرة الحديث حينما مرّ بهن فارس يحمل كلّ عُدته وسلاحه، قد أرخى عمته وتلثم فلم يعرفن من هو وإنما نظرن إليه وهو يخترق جماعات الناس حتى جاوز الجماء وغاب وسط النخيل فلم يحفلنه ولم يأبهن له ... وكان ذلك فروخ زوج سهيلة ...

وكان فروخ قد عزف عن اللهو ، ورغب عن المتع ، فتلفت إلى وجهة أخرى من وجهات الحياة فى العصر الأموى، إلى حياة الجد، حياة الجهاد فى سبيل الله . وكان جيش المسلمين يسيح فى الأرض يغمرها من كل جانب ، كأنه البحر ، لولا أنه بحر يمتد أبداً لا يعرف الجزر ولا يدريه ، وكان قد بلغ أواسط آسيا وأوائل أوربا ، ولا يزال يمضى فى وجهه لا يقف حتى يطوّق هذه الكرة ، ويرفع عليها علم الحق والهدى ، ويوحدها حتى تمشى كلها إلى الفضيلة والمجد والخير ، صفاً واحداً ترفرف فوقه راية القرآن ... فجفا فروخ منزله ، وترك زوجه الحسناء تتقلب وحيدة على فراش العرس الذى لم تجف أزهاره ، وأودعها ماله كله ثلاثين ألف دينار تحفظها له إلى أن يعود من جهاده ، وقد قضى حتى

الله عليه فيستأنف الحياة معها رغيدة سعيدة . لم يدر فروخ أن جهاده فى حفظ زوجه وعصمتها وإنشاء أسرة صالحة ، خير له من أن يدعها وحيدة ، وأن يهجرها بعد أن أذاقها من كأس الحب الرشفة الأولى ...

ومرت الأيام ، وليلت ليالى العقيق على أنسها وطربها ، ولكن سهيلة التى كانت تملأ الوادى أنساً وطرباً ، وتشيع فيه السرور والبهجة ، قد اختفت من سمائها كما تختفى النجوم فى الليلة الماطرة . أما رفيقاتها فلقد حرصن على أن يخفين من لوعتها ، ويغسلن آلامها ، وسقن عليها أمينة رفيقة صباها وصاحبة سرّها ، وأحب الفتيات إلى قلبها ، فكانت تعرض عنها ، ولا تنظر إليها ، وكن يسألن أمينة عنها كل ليلة ، فتقص عليهنّ ما رأت منها :

— لقد جزعت بها اليوم ، فاذا هى يا أسفى عليها قد تبدلت حتى كأنها لم تكن يوماً من الأيام سهيلة التى نعرفها . وجدتها قابعة فى زاوية المنزل تفكر هادئة وإن فى قلبها لناراً ما يقر قرارها ، تذيب الحشى ، وتأكل القلب ؛ فكلمتها فنظرت إلى بعينين ساهمتين كأنهما لا تبصران شيئاً ، فحاولت أن أعيدها إلىّ فسردت عليها أجمل ذكريات صباها . حدثتها عن ليالى العقيق ، وأطرفتها بنوادر أشعب ، وقصصت عليها أقاصيص الشاعر وعبثنا به ، بل لقد تلوت عليها أجمل أشعاره فلم تستمع . فحدثتها عن فروخ فرأيت جسمها يهتز ولونها يشحب شحوباً هائلا ، وألفيتها تحب حديثه لأنه رجع أحلامها ، وصدى أفكارها ، ولكنها تفزع من حديثه لأنه يذكرها بآلامها . لقد حدثتها عنه ... فقطعت علىّ حديثى وقالت بلهجة حسبتها تجمع كل ما فى الدنيا من آلام وأوجاع : كلا ... إنه لن يعود ! ثم قامت عنى ولو أن امرأة أخرى كانت فى مكانها لفسقت وانساقت فى طريق الفحشاء ، ولكن سهيلة فى دينها وتقواها وشرفها أمنع من أن يستهويها الشيطان ، وما أحسب إلا أنها ستجن إلا أن يتداركها الله برحمة منه

فيطلقن يفكرن فى سهيلة ، كيف يسعدنها وينتشلنها من قرارة آلامها ، فلا يجدن إلى ذلك من سبيل ...

وكانت سهيلة قد علقت من زوجها وهى لا تدرى ، فلم تكن إلا شهور حتى بدا عليها الحمل واضحاً ، فزادها ألماً على ألم ، فأمعنت فى الفرار من الناس ، والبعد عن صاحباتها ، فضاعف الانفراد هواجسها وشجونها فكانت تلتفت أبداً إلى الشرق البعيد ، علّ نسمة من زوجها الحبيب تنعش فؤادها ؛ وتسأل الغادين والرائحين عن فروخ (أبى عبد الرحمن) فلا تجد علماً عن أبى عبد الرحمن . فتناجى البدر وتسأله عنه عسّله يراه كما تراه هى وتحمل الرياح سلامها ، وتسائل الشمس إذا أشرقت لعل عندها من أخباره علماً . لا تفعل ذلك كما يفعله الشعراء ، فالشعراء يناجون البدر ويسائلون الرياح ، ليأتوك بالطريف العجيب من المعانى ، ثم ينامون آمنين مطمئنين ، وبهجون ملء عيونهم ، ولكن سهيلة لم يكن يطيب لها منام ، ولا تقبل على طعام ، وإنما كانت حياتها كلها فى هذا الماضى القصير الذى نعمت به حيناً ثم خسرته وهى أشد ما تكون حباً له وشوقاً إليه . وطغى عليها الفكر حتى كادت تجن حقاً . فلم يجد من يعنى بها من صديقاتها ، إلا وسيلة واحدة إلى نجاتها : هى أن يستعن عليها بأحد الأئمة من

2017-11-1

أصحاب رسول الله أو التابعين لهم بإحسان ، يهديها ويرشدها ويداوى أمراض قلبها . وليس يثلب الحب إلا الدين ، ولا يجد الحب راحة نفسه وأنس قلبه إلا فى اللجوء إلى الله ، عن نية صادقة ، وإيمان متين . ولقد وجدت سهيلة راحتها فى اللجوء إلى الله فكانت تقضى أكثر نهارها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى البقعة التى أذن الله أن تنقل من رياض الجنة ، فتستقر على الأرض بين محرابه وألا يرى أزهارها ، ويشم عبقها ويذوق نسيمها إلا من صفا قلبه من العلل ، وتنزهت بصيرته عن العمى وأنشأ له التقى جناحين يطير بهما فى هذه الروضة من رياض الجنة ..

ومرت الأيام ... وغدا رميسة طفلاً يدرج ، فصرفت سهيلة إلى تربيته همها ، ورضيت به نصيباً من الحياة . وكانت تحدثه عن أبيه ، وتصفه له كما كانت تراه بين الحب ، وترقب عودته داعماً فلا تسمع بركب قدم من الشرق إلا تمنت أن تجده فيهم ، وتخيلت أى مفاجأة ، وأى دهشة ، ونصورت لقاءه إياها ، وبالغت فى التصور فرأت نفسها بين ذراعيه تقبله وتشم ريحه ، ثم تقصيه عنها بدلال ، وتعاتبه عتاباً موجعاً . ثم تقدم إليه ابنه ... ولكن الركب يصل ولا تسمع عن فروخ خبراً من الأخبار . وكبر الصبى وضاق ما كان بيدها من المال ، فكانت تصبر وترتقب لا تمد يدها إلى الكنز الذى ائتمنها عليه ، حتى لم يبق معها شىء ، فكانت تصبر هى وابنها على الضيق ، وتبيت على الطوى ، وتسلى ابنها وتحدثه عن أبيه ...

— غدا يعود أبوك ومعه المال الوفير ، فنعيش فى رغد وهناء ، ونستمتع بما أحل الله من الطيبات

— ومتى يعود أبى يا أماه ؟

عما قريب . إنه سيأتى مع الركب

وتعود إلى إنتظار الركب ، وتخيل اللقاء !

وفى ذات صباح ذهبت تسأل القادمين من خراسان ، وتصف لهم زوجها . فدنا منها رجل من القافلة وخبرها أنه شاهده بعينه قتيلا فى معركة من المعارك ...

فرجعت محطمة يائسة ، ولجأت إلى الله ، فأراحها الله باليأس ، واليأس إحدى الراحتين ، فقنعت بابنها ، وندرت نفسها وماله لتربيته وتنشئته على العلم والتقوى ، ووضعت المال بين يديه ، ينفقه على نفسه وإخوانه فى طلب العلم ، ويرحل به إلى الآفاق ...

ومرت الأيام والسنون ...

وتبدلت الدنيا ، وتغيرت الدول ، وأفل نجم بنى أمية ... ولكن البحر لا يزال يموج ويمتد ، وينمر أرجاء من الأرض جديدة ، فيحمل إليها الحياة والخصب ، وتعيش فى ربيع دائم ، تحت راية القرآن ...

وبلغ الفتح فى الشرق ، أراضى الصين ، فرفرف عليها علم الاسلام أثر معارك هائلة اصطرع فيها الحق والباطل صراعاً عنيفاً ...

فى عشية معركة من المعارك ، خرجت منها الراية الاسلامية مظفرة منصورة ، وخفقت على بقاع جديدة طالما خفقت قلوب أهلها شوقاً إلى الحكم الاسلامى ، انصرف المسلمون إلى المعسكر يؤدون فى الليل واجب الذكر والعبادة ، كما أدوا فى النهار واجب الحرب والجهاد ، ويعطون أجسادهم حقها من الراحة ، كما أعطوا الأمة حقها من التضحية

والبذل ، ولقد كان هؤلاء المجاهدون جناً فى النهار ، رهباناً فى الليل ، وكانوا مثالاً للشرف والفضيلة والاخلاص . . .

ومضى الجزيع الأول كله ، ونام المجاهدون ولم يبق ساهراً إلا الحراس يجيئون ويذهبون من حول المعسكر ، ورجل آخر أصابه الارق فبقى مسهداً يحس كأن يداً خفية تهز قلبه فيخفق ويشتد خفقانه ، وتحمله على الرجوع إلى سالفات أيامه ، فإذا هو يذكر حالاً بعيداً متوارياً فى ظلام ثلاثين سنة ، فلا يطيق البقاء فى خيمته ، فيخرج إلى العراء ، فيجد الليل ساكناً موحشاً ، لايسمع فيه إلا نداء الحراس ، وأصوات الوحوش التى تزدحم على الجثث التى تنعس بها ساحة القتال ، فيبتعد عنها ويتأى عن المعسكر فلايعترضه أحد لأن الجيش كله يعرفه ، بل لعله أقدم جندى فيه ، لم يفارقه منذ سبع وعشرين سنة ، ينتقل فيها من ميدان إلى ميدان . .

ومضى يمشى وحيداً حتى بلغ الوادى الجبل يجول فيه ، حتى بلغ قرارته . وكان يجرى فى الوادى جدول ماء له خرير وزئير ، يبدو فى الليل مرعباً مخيفاً ، فتركه وتسلق الجبل ، حتى بلغ قمته فأشرف منها على الفضاء الواسع ، وكان الفجر قد كرب أن ينبلج ، فسرت خيوط ضعيفة من النور حيال المشرق فطفق يحدق فيها ، ويحس كأنه ينشق منها أريجاً يحيى نفسه وينعشها ، وجعل يحس بأن قلبه يرق رقة شديدة ، ونفسه يسمو ، وأن خيالات الحب تلوح لعينيه من وراء الأفق البعيد ، غائبة فى ظلام الماضى ، فجعل يتأملها ، فيبصر وجه سهيلة وقد وقفت على الباب تودعه ، وتسأله ألا يذهب ، فلا يبالى بها ويمضى لطيته ، وكانت ليلة قمراء — إنه يذكرها كأنها كانت أمس — ويذكر العقيق وأهله . . .

ثم يفكر فى حاضره . إنه سيموت وحيداً شريداً لا يدرى به أحد . إنه لا يسالى الدنيا ولا يحفل الناس ، وحسبه أنه سيموت مجاهداً فى سبيل الله ، ولكن ألا يسأله الله عن زوجته ؟

وأحس فى تلك الساعة بإرادته إليها ، وانطلق يفكر فيها ، هل هى حية لا تزال أم هى قد ماتت حزناً وكمداً ؟ وهل هى فى المدينة أم رحلت فلايدرى أى أرض تقلها ، وأى سماء تظلها ؟ وهل بقيت على العهد بها ، أم قد استهواها الشيطان ووطأ لها أكناف المعصية ، والثلاثون ألف دينار ، هذا الكنز ، ماذا صنعت به ، هل احتفظت به أم أنفقته ؟ وإن تكن قد ماتت فماذا جرى على المال ، وأى يد ألقيت عليه ؟

وطفق يذكر ، ويقلب صفحات سبع وعشرين سنة . . . هجرفيها زوجته ، وتركها تتقلب وحدها على الفراش ، تفكر فيه كل ليلة وتشتاق إليه ، وتمنى نفسها بعودته فى سباحها ، تسعة آلاف وسبعمائة وعشرين ليلة . . . غبرت عليها وهى تتجرع كل ليلة منها هذه الكأس فماذا حلت من هم ، وماذا ذاقت من ألم ؟ وهل بقيت بعد ذلك فى الاحياء ؟

وتمنى لو أن مخبراً يخبره عنها وعن ماله ، ثم يطلب إليه ما يشاء ، وأحس كأن رأسه سيصدع من التفكير . ولكنه طفق يذكر على الرغم منه . .

ذكر كيف لبث أياماً وليالى لا تفارق صورتها مخيلته حتى واجه العدو وانتهى فى القتال ، فلم يكن يذكرها إلا حين يأوى إلى فراشه ، ثم أمعن فى الجهاد ، فلم يعد يذكرها أبداً وظن أنه لم يبق لها فى نفسه أثر حتى انفجرت ذكراها كلها فى هذه الليلة انفجاراً . . .

2017-11-11

وجعل يتخيل هذه الدهشة اللذيذة التي ستتمرها حين تراه قد عاد إليها ، ولم يقو على البقاء ، وتمنى لو طار إلى المدينة طيراناً . لقد خرج منها وهو شاب مافي وجهه ولافي رأسه شعرة بيضاء .. فأسى وجهه ولحيته كالثغامة ؛ وتصور كرة أخرى أنه سيموت فاستفظع أن يموت ولا ير زوجته ، ولا يقبض ماله ، ولا ير العقيق ووادي النقا ومسجد الرسول . واشتد به الحنين ، فأسرع من فوره إلى القائد يستأذنه بالقفول ..

عاد يطوي البلدان لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد حتى يعاوده الحنين فيدعه يوالي مسيره ، لا ينقطع لحظة عن التفكير في زوجه وماله ، تلك الثلاثون ألف دينار ، ثروته كلها وكنزه الذي يبني عليه الأماني . إنه سيضم إليه هذه الأربعة من الآلاف التي جمعها من عطائه ومن نصيبه من الغنائم . وكان يتصور ألوان الممكنات لا يطمئن إلى صورة حتى ينتقل إلى غيرها ، لا يهدأ ولا يستريح ، وكان يخشى أن يدركه الأجل قبل أن يبلغ أمله ، فيكز نفسه ويعدوها عدواً شديداً ، كأنما كان يسابق الموت ...

حتى إذا بدت له طلائع الجزيرة ، وبدت رمالها الأزلية التي أعجزت الجبابرة والفاتحين فلم ينالوا منها منالاً ، وأعجزت الحياة فلم تقدر عليها ولم تدخل حماها ولم تخرج فيها نبتة مخضرة ، وأعجزت الملات فلم يبدلها ولم ينل منها ، فهي كائنة من الكائنات الهائلة التي تعيش فوق أنظمة الحياة والموت ... لابدت له هذه الرمال اطمأن إليها وأنس بها ، وأحس أن سموها روح لقلبه ونسم ، وأن شمسها المحرقة ظل عليه ظليل ، وأن جبالها الجرداء وبيدها القاحلة رياض في عينيه وجنات . وجعل ينذ السير فيها حتى بدت له جبال المدينة تلوح له على حواشي الأفق فلم يملك نفسه أن يصيح من الفرح ، ويطير إليها ...

رقص قلبه في صدره حين بدت له طلائع المدينة تحيي ، وأحس كأنه لم يرها قط بهذه البهجة وهذا الرواء . وكان ذهنه قد كل من التفكير فترك كل شيء للمقادير وانطلق يسد نفسه لكل ما تفجؤه به ، وكان قد صار حيال (أحد) فوقف يتأمله وهو مأخوذ برونقه وجماله ، وهذه الألوان التي تمتزج فيها حمرة الرمال بزرقة الصخور وبياضها ، فيكون منها صورة فاتنة لا يمل الناظر من النظر إليها . وكان فروخ يجد في النظر إليه لذة ويذكر فيه عالماً مبهماً من الذكريات والمتع أثناء غايته لحظات ، استدار على أثرها فترك العقيق عن يمينه وكان خالياً في تلك الساعة من النهار ... واستقبل (سلماً) الذي طلع عليه بسواده وظلامه فمال النظر إليه ، وساق راحلته فاجتازت به مسجد ذباب ، فانكشفت له المدينة ورأى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن قد أنشئت عليه هذه القبة ، لأن القوم لا يزالون إلى ذلك العهد على السنة الصحيحة ، ولم تكن هذه البدع وهذه المظاهر قد عرفت طريقها إلى نفوسهم ، فذهب يؤم منزله وهو بسلاحه على راحلته ، وكان يعرفه كأنه قد فارقه أمس ، ولم تتغير المدينة عن عهده بها كثيراً ، ولكنه آثر أن يغلب هواه ويقهر رغبته ويبدأ بمسجد الرسول . ومنذا الذي يدخل المدينة ولا يبدأ بالسلام على رسول الله

سلم على الرسول ، وصلى في الروضة ، ثم

تلفت فاذا هو بحلقة عظيمة ، تزدحم فيها الهائم ، فتطاول فلم يبصر وجه صاحبها ولم يعرفه ، فوقف يستمع صوتاً أنساه الدار والمال والزوجة ، فظل فى مكانه حتى أذّن المؤذن بالعصر فانفضت الحلقة ، وذهب فروخ يصلى مع الجماعة فشغلته الصلاة عن كل شىء

لم ير فروخ المدرس ولم يعرفه ، فذهب يسأل عنه جاره ، قال له :

— من صاحب الحلقة التى كانت هنا آنفاً ؟

فحدق فيه الرجل وقال له :

— ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ربيعة الرأى ؟ من أين أنت أيها الرجل ؟

— غريب ، قدم الساعة ، فمن ربيعة الرأى هذا؟

— هذا فقيه البلد واسامه . هذا شيخ مالك وسفيان الثورى وشعبة والليث بن سعد . الا تعرف هؤلاء ؟ هؤلاء هم علماء المسلمين ، وائمة الدنيا ، هذا الذى يجلس فى حلقته أربعون معمّا من شيوخ الحديث ..

لقد زاره أبو حنيفة . ألم تسمع باسم أبى حنيفة أيها الرجل فكان مجهوده أن يفهم ما يقول ربيعة . أعرفت من هو ربيعة الرأى ؟ هذا الذى انفق على نفسه وعلى طلبة العلم ثلاثين ألف دينار ، أرأيت مثل هذا ؟ أسمعت به ؟ إنه لم يجلس للناس حتى بلغ من العلم والعبادة مبلغ من يقول فيه عبيد الله ابن عمر هذا علمنا وأفضلنا وصاحب معضلاتنا ، أتعرف من هو عبيد الله بن عمر أم أنت لم تسمع به ؟ ..

فقال فروخ : بلى لقد عرفت ، لقد عرفت ، وقام إلى فرسه وقد ارتبطها بباب المسجد ، فركبها وحمل رحله وانطلق إلى داره ، وقد هاجت فى نفسه ذكريات وشكوك ، وعادت إليها صورة زوجته ، فاذا هو يبصرها للمرة الواحدة والسبعين بثيابها البيضاء تشير إليه ألاّ يذهب ، وصورة الثلاثين ألفاً . ماذا جرى عليها ، وأى جديد مفاجىء ستلقاه به المقادير ؟

ولم تكن داره نائية عن المسجد — فبلغها بعد قليل ونزل عن فرسه ورحمه بيده ، وهم بخفق الباب ، فاراعه الاشاب حسن الشباب ، مكتمل النضوّة ، يخرج منه ، تشيعه امرأته . نعم امرأته ، سهيلة ، لقد عرفها من النظرة الأولى ، برغم ما تغيرت ، ورآها بعينه تشيع هذا الشاب ثم تدخل وتغلق الباب فهاج دمه فى عروقه ، وأقبل عليه من عجل صارخاً ، فنحاه عن الباب وهم بدخول المنزل ، فحجب منه الشاب وصاح به :

— ياعدو الله ، أتهجم على منزلى ؟

— قال : بل أنت عدو الله ، تدخل على زوجتى ؟

وتواثبا وتلبب كل منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، وبلغ مالك بن أنس والشيخة ، فأتوا يسعون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول :

— والله لا أفارقك إلا عند السلطان .

وجعل فروخ يقول :

— والله لا فارقتك إلا بالسلطان ، وأنت مع امرأتى .

وكثر الضجيج . فلما أبصروا بمالك سكت الناس كلهم ، فقال مالك :

— أيها الشيخ ، لك سعة فى غير هذه الدار .

قال الشيخ :

— هى دارى وأنا فروخ مولى بنى فلان .

فسمعت امرأته كلامه ، فخرجت فقالت : هذا زوجى ، وهذا ابنى الذى خلفته وأنا حامل به ، فاعتنقا

2017-11-11

وبكيا جميعاً ، ودخل فروخ المنزل » (١)

قال فروخ لزوجته ، وقد خرج ربيعة وبقيا وحيدين :

— ساعيني ياسهيلة ، ساعيني ، لقد أسأت إليك . إني أحبك ، أحبك .

— أتحبني وقد صرت عجوزاً ؟

الجمال هو الاخلاص ياسهيلة ، أحبك دائماً ، إني أراك أجمل النساء .

وانطلقا يتحدثان ساعة ، فقال لها :

— هذه أربعة آلاف دينار ، فأخرجي المال الذي عندك ، لقد صرنا أغنياء ياسهيلة ! مالك تترددين ؟ ألا تخرجين المال ؟

— قالت : لم أتصل في مسجد رسول الله يافروخ؟

(١) تاريخ بغداد (٨ : ٤٢٠) وهذا كل ما روي التاريخ اعيذ أن أثبته كما هو والقصة في وفيات الأعيان

— قال : لقد صليت فيه ، ورأيت عجباً ، سمعت من رجل يدعونه ربيعة الرأي كلاما ما كنت أظن أحداً يقول مثله . لكأنه والله كلام الأنبياء ، لقد ندمت على أن أنفقت حياتي ولم أطلب علماً

— قالت : أيسرك أنك مثله وتخسر كل ما تملك؟

— قال : نعم إن ذلك ليسرني .

— قالت : فان كان ابنك مثله ، أيسرك أن تكون أنفقت عليه مالك كله ؟

— قال : ذلك آثر عندي .

— قالت : هو والله ابنك ، وقد انفقت عليه المال كله . ألا تشتريه بثلاثين ألف دينار ؟

فوثب الرجل ، وهو يصيح :

— إبني ؟ ربيعة الرأي ابني ؟

وخرج يفتش عن ابنه كالمجنون .

علي الطنطاوي

الجودة الفائقة و الذوق الجميل
والثمن المعتدل
تلك هي العوامل الثلاثة التي تسير عليها
شركة مصر لنسج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية
ألحوا في طلب منتجات
شركة مصر لنسج الحرير
إحدى مؤسسات بنك مصر

عواد كرمون

الشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ مخائيل حجاج

المنظر الخامس

فيليو — ساندور

ساندور — لقد اقتربت الساعة الفاصلة

فيليو — نعم يا زميلي

ساندور — هل هيأت كأنك للعرض ؟

فيليو — بلى

ساندور — هل أنت مسرور ؟

فيليو — نعم . وكيف حال كأنك ؟

ساندور — كأني ؟ ليست ذات أهمية

فيليو — لا يهمني ذلك ونجاحك هو الذي يعزيني إن سقطت في هذا المراك الأدبي الأخوي . أتريد أيها الزميل أن تناولني يدك ؟

ساندور (بعد سكوت) — لا

(ثم يخرج بجأة دون أن يفوه بكلمة)

المنظر السادس

فيليو وحده

— يا له من حسود ! وقد ابتدأت الهجوم ! إنه متألم ويلزم أن أصفح عنه . إنه لن الشه أن يعترف الإنسان لصديقه المسكين المنكود الذي لم يحسده قط على قوته وجماله ، بفضل ضئيل لا يمس حبه الذاتي ولا ينيظه . وما أحسن أن يكون الناس أصدقاء ومتنافسين في الوقت نفسه . إنه يجهل قدرك ولا يعرف لك فضلاً . بالقلب مفعم بالحنان والعطف ويتجنبه الناس . ولكن صفوة صناعتي هناك ولي فيها العزاء ! إنني أناشك أيتها الكأن العزيزة ! آلة رقيقة في ظرف غير منتظم الشكل

(ثم يخطف فيأخذ كأنه من خزانة وكانت موضوعة في ظرف أحمر ثم يضمها على المنضدة البيني)

تعالي فاني أريد أن أشاهدك للمرة الثانية . أي صنعي العزيز الذي نفحتني الشجاعة، أنا الصانع النحيل فريسة الضجر والضيق . لقد قضيت في صنعك أياماً وليالي . تعالي لتفجري من جوفك العميق أشجى الألحان السريعة والأنغام البطيئة المبكية . تعالي فاني أريد أن أشاهدك وألمسك . إنني لا أريد أن أوقظ صوتك الرنان ، بل أكتفي برؤية وجهي في خشبك الذهبي اللامع، لأنك سترافقينني لمجد ناسوتيًا!

ولربما وقعت بين النبلاء أو بين الأقاقين فأرقصت السوقة في الضواحي أو النبلاء في بلاط الأمراء وأنت ترتعدين من أصابع مهرة الضراب . وأنا الذي أعتقد بسذاجة في عقلية الأشياء، أتوسل إليك وأنا أودعك أيتها الآلة النبيلة العزيزة ألا تنسي الذي منحك هذا الصوت المذهب والأحدب المسكين الذي نفخ فيك من روحه (ثم يضع الكأن في ظرفها)

ما أنا الإ لطفل ! ثم ماذا ؟ لا، فاني أكذب على نفسي وأخدعها وأملأ بلاطائل . يالا أحمق المسكين مثلي ! لم أدخل هذه المسابقة للمجد وحده، ولكني أردت أن أنال هذا النصر لأجل اللطيفة الحسناء جانيتا لأنها التي اهتمت وحدها بالا لاي في هذه الدنيا . وحينما كنت طفلاً ضالاً متشرداً وقفت بباب المعلم فيراوي

2017-11-1

فقابلتني بكل طيبة ولطف دون أن تضحك ، وإن هذا الحب الصامت من صديق طفولتها لا تعده إهانة لها ، وإني أرغب أن أحصل على نصيب من الفخر يجعلني محبوباً يوماً ما . وإني واثق من النجاح الذي أنشده . إنني لا أتسلح بقسم والدها فربما يكون فؤادها خالياً ، وحينما أمنحها السلسلة الذهبية البديعة وتشعر أن من هذا الجسم النحيل قد تفجر النبوغ لأجلها ، إنها ابنة فنان وسيكون لها نصيب من العظمة ، وستفكر في الذكاء وتنسى الغمامة ، ولعدة أسباب تستطيع نفسها المخذولة أن ... آواه ! إنني أحلم بمحال تقال

المنظر السابع

فيليو — جانينا

جانينا (تدخل) — إنه وحده، وسأسأله إن كان سأندرو عنده بعض الأمل (ثم تتكلم بصوت مسموع)

فيليو — (منتبهاً من أحلامه)

إلهي ! إنها هي !

جانينا — يجب أن أسدد إليك سهام اللوم لأنني كنت أجهل ما يعلمه كل الناس كما أنني لم أعلم منك هذا النبأ

فيليو — وما الأمر ؟

جانينا — إنك ستدخل المنافسة لتحصل على الجائزة !

فيليو — كان من الواجب علي أن أعلمك أولاً، ولكني حينما عرفت ميل المعلم فراري والقسم الذي فاه به لم أجسر على ذلك، فعفواً يا آنستي !

جانينا — نعم ، ولكن دعنا من هذا . إنك تعلم أن أبي المعرم الذي يحبني لا يريد أن يتصرف في ولا أن يكلف المصادفات بالعناية بسعادتي . أما السلسلة الذهبية وشهادة الشرف فتختلف عن هذا بكثير ، وكل فرد له الحق في التنافس فيها ولا سيما أنت بعد ما سمحت بمهارتك

فيليو — وكيف ذلك ؟

جانينا — ولكنك صنعت كأناً يقولون إنها ستنال الجائزة بلا ريب لأنها تحفة فنية

فيليو — إنني أعترف أنني بذلت مافي الوسع ، ولربما نجحت أو سقطت في المسابقة ، ومن يا آنستي الذي سيهتم بذلك ؟

جانينا — من ؟ كثير من الأصدقاء الذين يهتمون بأمرك وقد برهنوا على ذلك

فيليو — عفواً فاني غبي ، وحينما يكون الانسان حيياً يظن أنه قليل الثقة ؛ وإني مدين لك بنصف أسراري ، وحينما تتملكني الهموم والأشجان لا أجد من يشفق علي إلا إياك ، لأنك تتنبطين حينما ترينني سعيداً . إنني مثل نبات « الست المستحية » إذا اقترب مني أحد تقهقرت بحركة آلية متصوراً أنهم يريدونني بسوء ، فعفواً يا آنستي !

جانينا — إذا كان الأمر كذلك فاني أنسحب

فيليو — كلا ! لا تبرحي مكانك فسأقول لك كل شيء لأني أنكرت جميلك وأهنتك ، واعلمي أني واثق من النجاح لأني أحكم على عملي بدون تسامح ، ولا أدري إن كان النجاح حليف الذكاء والمهارة أم حليف الحظ، ولكنني قد نجحت على كل حال (ثم يمرض كأنه)

وحينما ابتدأت عملي هذا بذلت ما في وسعي من العناية وصنعت قصعتها من خشب التنوب ورقبتها من الاسفندان، ولكن كل هذا لم يك شيئاً مذكوراً، بل العجب كل العجب ما عثرت عليه في ساعة من

الليل وهو الورنيش القديم أو السر المفقود ...

جانيتا — هل هو الورنيش المشهور الذى كان يستعمله الأساتذة الأقدمون ؟

فيليو — إنه فى حوزتى وأرغب كناقس كريم أن أذيع تركيبه بين المتنافسين . ولقد قارنت بين كمانى وكمان صنعها «إيتالى» المشهور فكانتا متشابهتين فى الصوت بالضبط . وإنى واثق من قولى . إنى أجزم من الأخشاب الأربع — كما كان يعمل الأساتذة الكبار — صوتاً عميقاً عظياً رنانا يملأ كنيسة كبيرة !

جانيتا (على حدة) — وا أسفا على ساندور المسكين !

فيليو — إنى منذ هذا اليوم السعيد وأنا أخفى سعادتى كالماشق ، ولا يهمنى الآن إن أخذت الجائزة أو حرمتها ، لأن حياتى عيد مستمر ، وإنى أتمتع بكنزى الثمين كالبخيل . أجتاز كريمون وأهلها نيام لأصل إلى مكان خلوتى هناك وكمانى على عباءتى وأجلس وحدى فى سفح الأكمة فوق الشعب الخضل بقطر الندى فأغرق فى أحلامى إلى أن تطلع الشمس ، وفى الختام حينما يتلألأ الأفق بهاسه ويلوح حولى اختلاج الطبيعة منبثاً باستيقاظها ، وتهتز الأعشاب ، ويسمع خفيف الذاب والحمائل ، وقد عاودتها نضارتها فى الليل وانطلقت من الأوكار ألحانها الشجية — أتناول كمانى ببشر وفرح ، وأرتجل من الألحان أعجاها ، وهذا هو خير الجزاء ، وأصطبح بقوس ظافرة للغط الفخم الذى ينبث من الشمس المشرقة والنهدات الطويلة لأوراق الأشجار ونقيق الدواجن المستيقظة ، كل ذلك يسعد نفحاتى فأسكر من نشوة الطرب ، وهذه الكمان الظافرة أشعر باختلاجها بجانب قلبى فتمتزج ألحانها بألحان الفجر فتغرق نفسى فى نشيد ساحر من شباب وفرح

جانيتا (على حدة) — وا أسفا على ساندور المسكين !

جانيتا (على مسمع منه) — إن ذلك لأجل مما وصفت

فيليو (وقد وضع كمانه على كتفه) — إصغى اليها وكيف تخرج صوت اللا La!

جانيتا — وقع لنا لحناً فإنى أحب أن أستوعب صوتها جيداً

فيليو (على حدة) — إنها تتكلم بلهجة حنان وهى ترجونى ، فهل تمنى لى أعظم الأمانى لنجاحى ؟ (على مسمع منها) هل ترغبين سماع صوتها حقاً ؟

جانيتا — نعم بلا شك (على حدة) سنرى إن كان يتملق أو يقول الحقيقة

فيليو — أترغبين أن أوقع لك السونات من مقام الصول لكوريللى

جانيتا — وقع ما يروق لك

فيليو (وهو واقف أمام حالة النوتة) — إصغى جيداً إلى هذا (يوقع فيليو المقاطع الأولى من لحن عظيم على كمانه فات الصوت الرخيم الرنان فيعبر وجه جانيتا التى كانت مصغية إليه عن إعجاب مصحوب بألم ثم تنكس رأسها بين يديها وتبكى بكاء مراً فيلمحها فيليو ويصيح قائلا :)

ما ذا أرى ؟ أتبكين ! وهل أنا الآن أبكى الناس بعد ما كنت أثير منهم الضحك ؟ أما يشبه صوتها النهدات ؟ أليس الفن سحرياً وجيلا ، لأن هذا الأحدب الذى كان يضحك منه الفلمان ويرشقونه بالحجارة قد استطاع أن يفجر الدمع من جفونك ؟ إنى لم أعد حقير الأمس ، فان لى الحق أن أرفع رأسى وأشمخ بأنفى . لقد أبكيتك ، وهذا ما يرضينى يا جانيتا عن الفخر والجزاء ، ولا أجد جزاء أثمن من اللآلئ التى تحدر من عينيك

(يتبع) محمد فاضل عجاج

أحزان الطفولة

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب بيرم محفوظ

مات أبوه فأحدث موته هزة عنيفة فى نفسه ، فجرّت بها ينابيع الحزن والألم والخوف ، وجاء الموت بنتة فلم يسبق بما يمهد له عادة من مرض مستفحل ، أو حادث أليم ، أو عمر بالغ فى الكبر .

وقد قابله صباح يوم الوفاة كعادته كل صباح وتناول معه طعام الافطار وقرأ عليه الصحف وجاذبه بعض الحديث ثم غادر البيت لقضاء بعض الشؤون فغاب ساعات معـــدودات ، ولدى عودته وجد البيت — الذى غادره ساكناً تظلله الطمأنينة — صاخباً فزعاً يمزق سكونه النحيب وبين فى تضاعيف جوه البكاء والعويل ، وتلقى الخبر الأليم بأن أباه العزيز — الذي كان يعادله منذ حين قصير ، والذى كان يبدو ممتلئاً صحة وعافية — انتقل فى دقيقة من الساعات التى غابها عنه إلى عالم آخر لا يبلغه حى فى ملايين السنين .. وأنه صنع هذه المعجزة الكبرى دون بذل أى جهد أو قوة ، بل إنه صنعها بسلب الجهود والقوى جميعاً ... فبلغ به الانحلال مالا يبلغه استجماع القوى وتوثب العزائم ، وغاب فى غمرات ذلك العالم المجهول الذي أعجزت حقيقته خيال العلماء والفلاسفة ...

على أنه لم يمن — فى تلك الساعات الرهيبة — بالتفكير فى كنه العالم الذى سعدت ، أو هبطت ، روح المتوفى إليه ، ولكنه وقف مبهوتاً ، ذاهل الحواس ، ذاهب النفس ، أمام حقيقة عجيبة لا يجهلها إنسان ولا يقبلها قبول الحقائق المسلم بها أبداً ، وهى أن ذلك الوالد العزيز الذى كان يملأ هذا البيت حياة وسيادة ، صار جثة هامدة ... هامدة جامدة كالتراب سواء بسواء ، وأن دبيب الفناء يدب الآن فى بقاياه ، وأنه سيظفر بها بعد حين قصير ويحولها إلى شىء تعافه النفس والحواس بل والحيوان والحشرات ، وأنه أصبح بالنسبة إليه ذكرى لا أمل فى رجوع صاحبها أكثر مما فى رجوع أول ميت من البشر ...

فلا لقاء ولا حديث ولا وجود له بعد اليوم ... ! وكبر عليه الأمر ، لأن عواطفه وآلامه طغت على عقله فتساءل جزعاً بسذاجة الطفل : « كيف أمكن أن يموت أبى ؟! » ثم بدا له تساؤله غريباً شاذاً ، فتنهد أسفاً وقال : « ليته امتد به العمر حتى أشبع منه وحتى يهون علىّ فقده » وثار على قول بعض المعزين : « إن الموت نهاية كل حى » أو قولهم : « الموت لا يسخط عاقلاً » . نعم ثار ثورة مكتومة على هذا التسليم المضحك وقال لنفسه : حقا إن الموت نهاية كل حى ، ولكنه نهاية حقيقية بأن تنحل الحى عن نفسه وإن كان يقع فى اليوم الواحد مئات المرات . كيف لا ؟ .. أيكون من الحكمة أن تثور لضياع حافظة نقود أو لسقوط نائب فى الانتخابات ولا تثور لأكبر حادث يقع لحياة الانسان ، فيدل روحها موتاً وأنسها وحشة وجمالها بشاعة ووجودها ذكرى ؟ ثم إنه رأى فى موت أبيه نذيرا مخيفا يتهدده بالموت . لقد مات أبوه فلم لا يموت هو أيضاً ؟ وقد كان بمأمن من هذه الفكرة فلاحت لعينيه سافرة عن وجهها البشع المخيف وملأت نفسه عذابا وسخرية ومرارة ...

2017-11-16

كان هذا الشاب أكبر ذرية أبيه — وهم ثلاثة ذكور وثلاث إناث — وقد أوفى حظه من حب والديه على حظ إخوته جميعاً، فكان فى صباه الطفل المدلل المحبوب الذى لا يقال له أبداً : «لا» ونادراً ما يقول «بلى» أو «نعم»، فنشأ على اعتقاد راسخ بأن الدنيا لعبة طيعة بين يديه، وأن جميع متعها قطوف دانية يجنيها أو يزهد فيها كيفما أراد، وأن الدهر لا يعصيه ولن يعصيه إلا بما يشاء، وأنه إذا كانت الدنيا — كما يزعمون — غاصة بالمتاعب والأحزان فهو بمنجى آمن منها. وكان إذا اعترضه صعب أو شاكسته مشقة هتف قائلا : «أبّاه» أو «أماه»، وسرعان ما يلين الصعب ويسلس الشاق، فلم يصعد مرة لشدة أو يتقلب على محنة، وكتب عليه ما يكتب عادة على أمثاله من الخيبة التامة فى الحياة المدرسية، فبقى فى حضانة والديه رغم تقدم العمر وبلوغ الثلاثين، وتنير الكثير من مظهره، أما نفسه فظلت متشبثة بالطفولة المقنعة...

ولما كان أله لموت أبيه غير ألم إخوته جميعاً — بما فيهم النساء — لأنه يعنى تهدم ركن من ركنى سعادته، وفقد قلب من القلبين اللذين يميش على عطفهما وحبهما...

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن موت أبيه كان يقضى عليه بالفقر أو التشرد، فقد ترك المتوفى لورثته عمارة كبيرة تدر عشرات الجنيهات كل شهر، ونصيبه منها يكفيه ويضمن له حياة رغد تعوضه عما فقد من عطف وما قامه من عمل أو وظيفة

وكان أشقاؤه الثلاثة موظفين ذوى مستقبل حسن وأرباب أسر سعيدة، وكانت شقيقاته أيضاً زوجات وأمهات يعشن فى كنف أزواج صالحين، فلم تخلف الوفاة له متاعب عائلية ولا حملته تبعات جديدة. والحق أنه كان من بين إخوته من يحسده على حياته الهادئة المطمئنة الخالية من المسئوليات والهموم، فكان ذلك كله حقيقاً بأن ينتبط ويتعزى ويحمد الله كثيراً، ولكنه على العكس جزع جزعاً لا حكمة فيه وتردى فى أهوال الألم والعذاب والتشاؤم حتى أشفى على الهلاك والفناء... والحق أن العالم كان ربيئاً مما حاق بنفسه من التغير والعذاب لأنا رأينا ظروفه حقيقة بأن يحسده عليها أغلب المصابين فى آبائهم، فلم يبق سوى عالمه الداخلى وحده الذى يتحمل تبعة آلامه، فقد أحدث المصاب فى نفسه هزة عنيفة هجزت عن تحملها أعصابه فتضعضعت واعتورها مرض طارئ انتقلت عدواه إلى العالم الخارجى فكسته لباساً أسود من الحزن والألم والبشاعة...

وكانت الأيام القلائل التى تلت يوم الوفاة أيام عذاب قاتل وألم مبرح ومخاوف مروعة، وقد قضاها فى عزلة موحشة فريسة الهواجس يحتر أفكار الحزن واليأس ليلاً ونهاراً، وقد بدت له الدنيا مظلمة حالكة الظلمة عاطلة من الجمال، شحيحة بالأمل، مليئة بالآلام والوحشية، ولاح لعينيه المحزونتين — فى الأفق القريب — وحش الفناء فاغراً فاه يبتلع كل ساعة المئين من الناس البائسين الذين يتعبون فى غير جدوى، ويتخبطون على غير هدى، ويشقون بالآمال ويأملون بالأوهام، ثم يهوون بين أنيابه الحادة غير مجزيين على تعبهم سعادة، ولا متعزين عن شقائهم بأمل، ولا مخلفين غير الحسرة والسخرية المريرة... فأى حياة هذه! وما الفائدة منها؟ وما الحكمة من وجودها؟... وأى عذاب

هذا وأى رعب ! وكيف يستطيع أن يطمئن على حياته فى هذه المركة الخاسرة ؟

حقاً إن دواعى الطمأنينة متوفرة لديه ، فهو طليق من متاعب الرجال ، وموفور الرزق، ولكن من يضمن له أن تظل العمارة — التى هى مصدر رزقه — آهلة بالسكان ؟ بل من يضمن له ألا تخلو من الند من جميع سكانها فيسلك مقهوراً فى عداد الساكنين البائسين ويطرق أبواب إخوته جائعاً خجلا فيطرده منهم من يطرده أو يطعمه من يطعمه وهو يضيق به ؟ ...

بل ما وجه الحال فى أن تمسى تلك العمارة أثراً بعد عين لحادث من الحدثان ؟ إن شرارة من نار حقيقة بأن تحولها فى دقائق إلى كوم من رماد ، أو هزة أرضية مباغتة قد تدكها دكا وتتركها خرائب وتلولا من أخشاب وأحجار ، وما الحريق ببعيد ولا الزلزال بمستحيل ، وهى — لو أمنت اليوم شر النار والزلزال — فما هى بآمنة غداً ويل الهرم والبلى وتناقص الغلة ، فالخراب واقع واقع ... والفقر آت آت ...

ومن الغريب أنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الفقر ليس هو البؤس الوحيد المدخر له ، وأن الدنيا لن تقنع فى تعذيبه بسلب موارد رزقه، بل ؟وتوجس خيفة من ناحية شقيقاته وخيل إليه خياله المريض أن رابطة الزوجية التى تخليه من تبعاتهن لن تدوم أبداً ، وأن شياطين الشقاء ستقصم عراها بالشقاق والنزاع وتحمل إلى بيته شقيقاته البائسات مع أطفالهن الصغار فيصبح مسئولا عنهن جميعاً بصفته الأخ الأكبر والأعزب أيضاً فينوء بمتاعب الأزواج وما هو بالزوج ويرزح تحت تبعات الآباء وما هو بالأب ، كأنه ليس حسبه ما ينتظره من الفقر والشقاء. وما يستطيع إنسان أن يشرك أشقاءه فى تحمل المسئوليات لأن لكل منهم أسرته ، ولأنه أخوهم الأكبر الذى خلف والده ...

على أنه لا يأمن شر ذلك الشقاء الطاغى على أشقائه أنفسهم؛ ولو أن الأمر كان يتعلق بهم وحدهم ما اهتم ولا قلق ، ولكنه كان يخشى أن تضيف المصيبة التى قد تنزل بأحدهم إلى حياته متاعب جديدة؛ فلو أن واحداً منهم لحق بوالده لأصبح هو مسئولا عن أولاده ، وهو لا يدرى ما كنه هذا الشعور القوى الغريب الذى يهمس فى أعماقه بأن أشقاءه هالكون لا محالة ، وبأنه سيأتيه نعيهم قريباً . أى شعور هذا ؟ إن أشقاءه مكتملو الصحة والعافية ، ولكن وا أسفاه لا الصحة ولا العافية بالضمان الآمن ضد الموت ... ألم يقض والده وهو يتحدث ويضحك ويتمتع بالصحة والعافية ؟ فالموت يتهددهم جميعاً ومتاعب الدنيا وهمومها تنتظره عن كثب ... وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تخدعه عن هذه الحقائق المخيفة ولا أن تحمو من نفسه الشعور بها، فهو يحس بدنوها منه ويتوقع حدوثها ساعة بعد ساعة ... الموت والمتاعب والفقر ...

ما أنكد وجه الحياة ! إنها لم تقنع باغتصاب والده منه، فهى تكيد لشقيقاته البائسات، وتتربص بحيوات أشقائه المنكوبين ، وتعد العدة للقضاء على مصدر رزقهم جميعاً ، وهى قوية بين يديها جميع الأسلحة المدمرة من موت وأمراض وشقاق وحرائق وزلازل ، وسيجد نفسه عما قليل ضحية لقساوتها فقيراً معوزاً مسئولا عن جمع غفير من المطلقات والأرامل واليتامى ...

كانت تلك الأيام كلها عذاباً دونه عذاب الجحيم لم يرتح فيها عقله ساعة من شر ذلك التفكير الوبيل الذى يفزع السموم والعذاب والمخاوف ، حتى تمكنت الأوهام الأثيمة من نفسه، وكدرت أوقات يقظته وأحلام نومه ، وجعل يتوقع كل ساعة أن يسمع عن انهيار العمارة أو ذهابها طعمة للنيران، أو أن يأتيه آت ينبى أحد أشقائه أو بنيهم جميعاً، وخال كل طارق لبابه أختاً من أخواته راجعة إلى بيته تسحب خلفها أطفالها ... وفاضت نفسه بالجزع فلم يستطع صبراً وضاق بعزلته فخرج هائماً وصار يتردد على بيوت أشقائه وشقيقاته ليطمئن عليهم وقد وجدهم جميعاً سمداء آمنين ، فسبب من جهلهم وغفلتهم ... وودّ لو يستطيع أن يقول للرجال منهم « خذوا حذركم من الأمراض والحوادث ... ولا تمرضوا أنفسكم لهواء الشتاء ولا لشمس الصيف . ولا تترددوا فى دعوة الطبيب لأتفه الأسباب . وإياكم والترام والسيارات» أو أن يقول للنساء « أطعن أزواجكن طاعة عمياء . وتعرفن مواضع إرضائهم وتحببن ما يضايقهم واحنين عليهم وإن طغوا وبجحوا عليكن . » ولكن يحدث نفسه كالراجع من إحدى زياراته: ألا سحقاً للذين يقولون أن الأهل عزة وقوة ! وياليتنى كنت وحيداً لا أعرف لى أخا ولا أختا ، فقيراً لا أملك ما يجوز أن آسف عليه .. واها ... ما أسعد أبناء السبيل ! إن اللقمة التى يلتقطونها من القمامة ويزدردونها وهم ينتون أشهى من الطعام الفخم الذى يهبط إلى جوف مع الهموم والأحزان التى لا تهضم !! ..

وتنيرت صورته وطباعه تنيراً نفسه، فهزل واعتل وعلت وجهه صفرة شديدة وغارت عيناه وأحاطت بهما هالة سوداء ، وتنيرت طباعه وعاش عيشة المذعور الخائف، فصد عن الدنيا وعزف عن الأصدقاء وهجر الطيبات والملاذ واستحال جوده شحاشديداً وتقتيراً قبيحاً ، لأنه رأى أن من الحكمة أن يدخر المال لتلك الأيام السود التى تنذره بالفقر والتبعات والمتاعب .

هذا ما سار إليه فى الأيام القلائل التى تلت وفاة والده. ولكن حمداً لله لم تدم هذه الحال، فمضت الأيام حثيثة وأخذ وقع الصدمة يهون على نفسه ونار اللوعة تبرد فى صدره ، واعتاد غيبة أبيه كما كان معتاداً لوجوده ، ولم يحدث الزلزال ولا ثبت النيران ، نعم ولا صدع الشقاق شمل أخواته ولا اختزم اللوث أشقاءه، ومضى يفيق من نحيبوبة الحزن والخوف وينفض عن قلبه أشباح الفزع والأوهام ، ويستروح الطمأنينة والسلام .. ثم طوى النسيان متاعبه فى زوايا منقلة الأبواب، فرأى مرة أخرى دنياه القديمة: دنيا الجمال والمتع التى يشرق حسنها فى السموات والأرض والانسان والحيوان والجماد ، لا دنيا الزلازل والحرائق والأمراض والفناء، فانطلق يسدو فى طريقه من حيث حبسته المخاوف حيناً ليس بالقصير

فكان فى مصابه — كما هو فى حياته — الطفل الغرير الذى قد يحزن حتى لينهله الحزن عن نفسه فيرى لعبته ويدعها تتحطم عند قدميه ويجهش بالبكاء ثم سرعان ما ينسى فيعود سريعاً إلى نشوته ويغرق فى الضحك ...

نجيب محفوظ

الدخيل

للكاتب العبقري موريس مارلنك

بقلم محمد أمين

اشخاص :

الجد (مكفوف البصر)
الأب
البنات الثلاث
الم
الخادم

حجرة كئيبة فى قصر ريفى قديم . باب عن يمين ، وباب عن يسار ، وفى ركن من الأركان باب صغير . من خلف نوافذ من زجاج ملون يغلب فيها الخضرة ، وباب زجاجى يؤدى إلى مشرف . فى إحدى الزوايا ساعة كبيرة هولاندية. مصباح يشتعل

البنات الثلاث — أقبل يا جدّى . اجلس تحت المصباح

الجد — كأنما الضوء هنا ليس بموفور

الأب — أنخرج إلى المشرف أم نبقى بهذه الحجرة ؟

الم — أليس من حسن الرأى أن نبقى هنا ؟ لقد انصل المطر الأسبوع كله ، فالليالى رطبة باردة

الابنة الكبرى — ولكن النجوم ساطعة

الم — النجوم ؟ ليست هذه شيئا

الجد — أرى البقاء هنا أولى ، فما يدرى أحد ماذا يحدث

الأب — لم يعد شىء يثير الجزع . فالخطر قد زال وقد نجت

الجد — فى اعتقادى أنها لم تصبح بعدُ

الأب — لم هذا القول ؟

الجد — تمت صوتها

الأب — ولكن مادام بعدنا الأطباء خيراً فلنسكن روعنا

الم — ألا إنّ حماك ليستهويه إزعاج أنفسنا بغير موجب

الجد — إنى لا أرى الأشياء كما ترونها

الم — اعتمد علينا إذن نحن أولى الأبصار . لقد بدت أحسن ما تكون عصر اليوم ؛ وإنها لناعمة قريرة الجفن ، فما لنا نكدر أول مساء هنىء صفت لنا فيه الحياة ؟! إنما حق لنا هذا المساء كل الحق أن نطمئن ؟ بل ونضحك يسيراً ولا خوف

الأب — حقاً . فانى آنس إلى أسرتى أول مرة، منذ كان هذا النفاس المروع

الم — إذا دخل المرض يوماً إلى البيت فكأنما اندس فيه غريب

الأب — وأنت تعلم كذلك أن لا اعتماد على غريب

الم — أجل

الجد — لم حُرمت اليوم رؤية ابنتى ؟

الم — ليس ينبغى عنك ولا ريب أن الطبيب قد منع رؤيتها

الجد — لا أدرى بماذا أفكر ...

الم — إن الجزع لن يجدى عنك فتيلا

الجد (يشير إلى الباب عن يمين) — ألا يحتمل أن تسمعنا ؟

الأب — لن تتحدث بصوت مرتفع ، والباب فوق ذلك سميك . وهناك الممرضة (أخت الرحمة) وإنها لكفيلة بتنبيهنا لو أثرنا نجمة عالية

الجد (يشير إلى الباب عن يسار) — ألا يحتمل أن يسمعنا ؟

الأب — كلا ، كلا

الجد — أهو نائم ؟

الأب — هكذا أظنّ

الجدّ — من الخير أن يذهب أحد غيري

الم — إن الوليد يثير إشفاق أكثر مما تثيره زوجك . لقد مضت الأسابيع منذ ولد ولا يكاد يتحرّك ! وما صاح صيحة واحدة فى هذه المدة ! ألا إنه ليشبه الدمية من الشمع

الجد — أحسب أن سيكون أصمّ — وقد يكون أبكم أيضاً — وتلك عاقبة الزواج بين أبناء العم ... (صمت استياء)

الأب — لكأنى أريد له الشرّ ؛ فقد سام أمه سوء العذاب

الم — تعقل ، فليس الذنب للكائن الشقىّ الصاوى . أو تراه فى الحجرة وحده ؟

الأب — نعم . فالطبيب يمنع أن يكون هو والأمّ فى حجرة

الم — ولكن المرضع معه ؟

الأب — لا ، بل ذهبت تستريح ، لشدّما جهدت هذه الأيام الأواخر . أرسولا ، اذهبي فانظرى أهو نائم

الابنة الكبرى — سمعاً يا أبت (تنهض البنات الثلاث ، ويصدرن إلى الحجرة عن يمين ، يداً فى يد)

الأب — متى تقبل أختنا ؟

الم — أحسبها تقبل فى نحو التاسعة

الأب — لقد مضت التاسعة . ليتها تقبل هذا المساء فزوجى تهفو إلى رؤيتها

الم — هى لاشكّ آتية . وستكون زيارتها هذه أول عهدها بهذا المكان

الأب — إنها لم تشهد البيت قط

الم — عسير عليها أن تبرح الدير

الأب — أتكون وحدها ؟

الم — أغلب الظنّ أن تصحبها راهبة فليس يؤذن لمن فى الخروج منفردات

الأب — لكنها الرئيسة

الم — الخطر واحد على الجميع

الجد — ألا تشعرون بإزعاج ؟

الم — ولم نشعر بإزعاج ؟ وأى خير فى ترديد هذا القول ؟ ألا إنه لم يعد أمر نخشاه ...

الجد — أختك أسنّ منك ؟

الم — هى أكبرنا سنّا

الجد — لا أدرى مالذا يؤلمنى ؛ إنى لأشعر باضطراب ، تمنيت لو أن أختك أقبلت !

الم — ستقبل ؛ إنها وعدت بالمجىء

الجد — آه ، لو انتهى هذا المساء !

(تعود البنات الثلاث)

الأب — أهو نائم ؟

الابنة الكبرى — أجل ، يا أبت . إنه مستغرق فى النوم

الم — بم نستعين على انتظارنا ؟

الجد — انتظار أى شىء ؟

الم — انتظار أختنا

الأب — أرسولا ، ألا ترين شيئاً مقبلا ؟

الابنة الكبرى (فى النافذة) — لاشىء يا أبت

الأب — ولا فى الشارع ؟ ألبصرين الشارع ؟

الابنة الكبرى — أجل يا أبت ، فضوء القمر

يسطع ، وإنى لأرى الشارع إلى مدى غاية السرو

الجدّ — ولا ترين أحداً ؟

الابنة الكبرى — لا يا جدّى ، لا أحد

الم — كيف ترين الليلة ؟

الابنة الكبرى — جدّ فاتنة ، أتسمع البلابل ؟

الم — أجل ، أجل

الابنة الكبرى — إن ريحاً واهنة تهبّ على الشارع

الجدّ — ريح واهنة على الشارع ؟

الابنة الكبرى — أجل ؛ فالأشجار تهزهزها

الم — أعجب لأختى ، كيف لم تأت بعد !

الجدّ — ما عدت أسمع البلابل

الابنة الكبرى — إخال أحداً يا جدّى قد دلف إلى الحديقة

الجدّ — من ؟

الابنة الكبرى — لا أدرى ، لست أرى أحداً

الم — إذن لا أحد

الابنة الكبرى — إنّ أحداً فى الحديقة لامراء ؛ فالبلابل أمسكت عن شدوها فجأة

الجدّ — ولكن لا أسمع أحداً يقبل

الابنة — إن أحداً يمر على البركة لا شك ؛ فالوزّ قد اضطرب

ابنة أخرى — كل الأسماك فى البركة تتقافز فجأة

الأب — ألا ترين أحداً ؟

الابنة الكبرى — لا يا أبت ، لا أحد

الأب — ولكن البركة فى ضوء القمر

الابنة الكبرى — أجل ؛ وإنى لأرى الإوزّ مهتاجة

الم — لا أرتاب فى أنها أختى التى راعتها .

وإنها لا بد قد دخلت من الباب الصغير

الأب — لا أدرى لم لا تنبح الكلاب ؟

الابنة — إنى لأرى الكلاب خلف مأواه ، وها هى ذى الإوز تسير إلى الضفة الأخرى !

الم — إنها لشفقة من أختى ! إنى ذاهب أستطلع . (يهتف) أختى . أختى ! أأنت هنا ؟ ... ما من أحد

الابنة — إنى على ثقة بأن أحداً ولج الحديقة ؛ ولسوف ترى

الم — ولكنها كانت تجيبنى !

الجد — أماعادت البلابل تصدح ، يا أرسولا ؟

الابنة — لا أسمع منها صادحاً فى مكان

الجد — ولكن لا نجمة

الابنة — ثم صمت مثل صمت الأمس

الجد — إن من روعها غريب لا شك ، فلو أنه من الأسرة لما كفت عن سجعها

الم — إلى متى تبحث عن رعناء البلابل ؟

الجد — أكل النوافذ مفتوحة يا أرسولا ؟

الابنة — إن الباب الزجاج مفتوح يا جدى

الجد — لكأن البرد ينفذ إلى الحجرة

الابنة — فى الحديقة يا جدى ريح واهنة ، والورود منتثرة أوراقها

الأب — خير . أوصدى الباب ، فالليل تقدم

الابنة — سمعاً يا أبت لا أستطيع إيصاد الباب

الجد — له ؟ ما الباب يا ولدى ؟

الم — ليس ما يدعو لمتافك على هذا النحو الغريب . إنى ذاهب أشد أزرهن

الابنة الكبرى — لا يتهيأ لنا أن نحكم إيصاده

الم — ذلك أثر الندى . فلندفئه جيداً ... لا بد أن شيئاً يسترعيه

الأب — فى غد يصلحه النجار

الجد — أيأتى النجار فى غد ؟

الابنة — نعم يا جدى . إنه آت ليؤدى فى القبو بعض الأعمال

الجد — إنه باعث فى البيت نجدة

الابنة — سأسأله الرفق فى عمله . (يسمع مجيء من الخارج صوت منجل يشحذ)

الجد (راجعاً) — واها !

الم — ما هذا ؟

الابنة — لا أدرى على الحقيقة ، وإنما أحسبه البستانى . لست أراه فى وضوح ، فإنه لفى ظل البيت

الأب — إنه البستانى ذاهباً يحصد

الم — أيحصد فى الليل ؟

الأب — أليس غدا الأحد ؟ أجل ، وقد تبين لى أن الكلأ فيا حول الدار جد طويل

الجد — إن منجله باعث للضجة ...

الابنة — إنه يشحذ قريباً من الدار

الجد — أتنظرينه يا أرسولا ؟

الابنة — لا يا جدى ؟ إنه لقائم فى الظلام

الجد — أخشى أن يوقظ ابنتى

الم — إنا لا نكاد نسمعه

الجد — كأنه يشحذ فى البيت

الم — لن تسمعه المريضة ؛ فليس ثمة ضير

الأب — لا أرى المصباح يشتعل هذا المساء اشتعالاً حسناً

الم — يعوزه أن يملأ

الأب — لقد رأيته يملأ فى هذا الصباح . إن اشتعاله قد ساء منذ غلّقت النافذة

الم — لعل الداخنة متسخة

الأب — سيشتعل أحسن مما كان فورا

الابنة — جدي أخذته سنة . إنه لم ينم سواد ليال ثلاث

الأب — لقد انزعج

الم — إنه منزعج أبداً . وإنه أحياناً لا يصيخ للعقل سمعاً

الأب — غفر هذا لمن كان فى سنه

الم — يعلم الله كيف نكون فى سنه

الأب — إنه قريب من الثمانين

الم — إذن حق له أن يبدو غريباً

الأب — إنه كسائر المكفوفين

الم — ما أكثر ما يطيلون التفكر !

الأب — إنهم ليجدون من الوقت فسحة

الم — إذ لا شىء آخر يأتونه

الأب — وليس إلى ذلك ما يشغلهم

الم — ذلك لا ريب هو أشد البلاء

الأب — إن المرء ليألفه فيا يظهر

الم — لا أحسب

الأب — إنهم لا شك يستحقون الرثاء

الم — ما أفظع ألا يعرف الإنسان أين يكون ولا من أين جاء ، ولا إلى أين يذهب ؛ وألا يستطيع تمييز الضحى من الليل والشتاء من الصيف ؛ ظلام على ظلام ! بلى إنى أوثر الموت عليه ، فإنه الماء الصال

الأب — فى الظاهر

الم — ولكن لم يُكفَّ بصره أجمع

الأب — ليس يلمح إلا ساطع النور

الم — فلنمن إذن بنواظرنا الضعيفة

الأب — محجبة خواطره على الأغلب

الم — وهو في بعض الأحيان أبعد ما يكون عن الظرف

الأب — إنه ليبدل كل ما هجس في خاطره

الم — ألم يكن ذلك دأبه ؟

الأب — كلا ، إنه حيناً من الأحيان كان مثلنا عاقلاً ، ولم يكن يلفظ من القول غريباً ، وأخشى أن تكون أرسولا تعمده إلى ذلك ، فهي تجيبه عن كل ما يسأل

الم — الخير ألا يسار قوله التفاتاً . إنها الشفقة تخرجه عن محجة الصواب

(تمق الساعة عشراً)

الجد (صاحياً) — ترى ! أوجهي شطر الباب الزجاج ؟

الابنة — لقد نمت يا جدّي نوماً حسناً

الجدّ — ترى ! أوجهي شطر الباب الزجاج ؟

الابنة — نعم يا جدي

الجد — أليس أحد لدى الباب ؟

الابنة — لا يا جدي ، لا أرى أحداً

الجد — حسبت أحداً ينتظر . أو لم يقبل أحد؟

الابنة — لا يا جدي ، لا أحد

الجد (لهم والأب) — وأختكما ألم تقبل؟

الم — إن الليل تقدم ، فلن تأتي . ألا إنها قد أساءت فعلاً

الأب — لقد أصبحت الآن مشغلتي الشاغلة

(ضجة ، كان أحداً يدخل البيت)

الم — إنها هنا ! أتسمعون ؟

الأب — أجل لقد ولج الطابق الأسفل أحدما

الم — هي لا شك أختنا ، لقد ميزت خطوها

الجد — سمعت خطى وئيدة

الأب — لقد دخلت في رفق

الم — إنها تعلم أن ثمة مريضة

الجد — لا أسمع الآن شيئاً

الم — إنها ساعدة رأساً فسيخبرونها بموضعنا

الأب — لقد سرني مجيئها

الم — لم تداخلني الشبهة في أنها مقبلة

الجد — لقد طال صعودها

الم — إنها لا ريب هي !

الأب — لسنا نتوقع زائراً غيرها

الجد — لا أسمع في الطابق الأسفل صوتاً

الأب — سأدعو الخادم فنحيط بكل شيء علماً

(يمد حبل الجرس)

الجد — أسمع صوتاً على الدرج

الأب — إنها الخادم ساعدة

الجد — لكأنها ليست بمفردها

الأب — إنها ساعدة رويداً ...

الجد — أسمع وطء أختكما !

الأب — لا أسمع غير الخادم

الجد — بل هي أختك ، إنها أختك .

(ثم طرق الباب)

الم — إنها تطرق باب السلم من خلف

الأب — إني ذاهب أفتحه (يفتح الباب الصغير بعض الشيء ، وتظل الخادم خلفه) أين أنت ؟

الخادم — ها أنا ذي يا سيدي .

الجد — أختك لدى الباب ؟

الم — لا أرى سوى الخادم

الأب — ليس إلا الخادم . (للخادم) من ذا دخل البيت ؟

الخادم — دخل البيت ؟

2017-11-16

الأب — أجل ؛ لقد دخل الآن أحد ما

الخادم — لم يدخل أحد يا سيدى

الجد — من ذا الذي تهد هذا التهد ؟

الم — هى الخادم ؛ إنها مبهورة النفس

الجد — أهى تبكى ؟

الم — لا ، ولم تبكى ؟

الأب (للخادم) — ألم يدخل الآن أحد ؟

الخادم — لا يا سيدى

الأب — ولكن سمعنا أحداً يفتح الباب !

الخادم — لا يا سيدى

الأب — ولكن سمعنا أحداً يفتح الباب !

الخادم — كنت أنا أغلق الباب ...

الأب — أكان مفتوحاً ؟

الخادم — أجل يا سيدى

الأب — ولم كان مفتوحاً هذه الساعة من الليل ؟

الخادم — لا أدرى يا سيدى . والحق أنى غلقته بنفسى

الأب — إذن من فتحه ؟

الخادم — لا أدرى يا سيدى . ولعل أحداً يا سيدى قد خرج من بعدى ...

الأب — احذرى . لا تدفئى الباب ، فأنت تعلمين كم يثير من ضجة

الخادم — ولكنى يا سيدى ما لمست الباب

الأب — بل تدفيئه ؛ وتدفيئه كما لو أردت دخول الحجرة

الخادم — ولكني يا سيدى أبعد كثيراً من الباب ...

الأب — لا يعل هكذا صوتك ...

الجد — أيطفئون النور ؟

الابنة الكبرى — لا يا جدى

الجد — لكأن حلكة الظلام قد انتشرت ، على حين بغتة

الأب (للخادم) — فتنزل الآن ، ولكن لا تمشى على الدرج ضوضاء عالية

الخادم — إنى لا أبث على الدرج أدنى الصوت

الأب — بل أقول إنك بعثت الضجة عالية ؛ فانزل فى هدوء حتى لا تصحو مولاتك . وإذا أقبل الآن أحد فقولى لسنا هنا

الجد (وابغا) — لا تقول هذا القول !

الأب — .. إلا أن تكون أختى ، أو يكون الطبيب

الم — متى يجىء الطبيب ؟

الأب — لن يستطيع المجىء قبل انتصاف الليل

(يوصد الباب ، وتسمع ساعة تدق الحادية عشرة)

الجد — دخلت ؟

الأب — من ؟

الجد — الخادم

الأب — كلا ، بل لقد نزلت

الجد — حسبتها جالسة إلى الخوان

الم — الخادم ؟

الجد — أجل

الم — كانت تكمل بهذا سعادتنا !

الجد — ألم يدخل الحجرة أحد ؟

الأب — لا ، لم يدخل أحد

الجد — وليست هنا أختك ؟

الم — أختنا لم تأت

الجد — تريدون خداعى

الم — خداعك ؟

الجد — يا أرسولا : خبرينى الحق نشدتك الله

الابنة الكبرى — جدى ! جدى ! مابالك ؟

الجد — إن أمراً قد حدث . أيعنت أن ابنتى سادت حالاً

الم — أتعلم ؟

الجدّ — بل تخفون عنى الحقّ ، فان أمراً قد حدث ، ما فى ذلك ريب

الم — أما هذا فأنت أبصر به منا !

الجد — يا أرسولا ، أصدقينى !

الابنة — ولكنى صدقتك يا جدى !

الجد — لست ناطقة بصوتك المعهود

الم — لأنك ترعبها

الجد — وصوتك أيضاً تغير

الأب — لقد أصابك الخبل ! (يتبادل الاعياء والم بأن الجد قد مسه الجنون)

الجد — أسمعكم حق السمع ، خائفين

الم — ولكن مم نخاف ؟

الجد — لم تريدون خداعى ؟

الم — من يفكر فى خداعك ؟

الجد — لم أطفأتم النور ؟

الم — ولكن النور لم يطفأ ، ولم يزل موفور الضوء مثلما كان

الابنة — كأنّ المصباح قد خمد

الأب — ولكن عينىّ كما كانتا من قبل تنظران

الجد — على عينىّ أحجار الرحى ! أخبرن يا صبايا ماذا يجرى هنا ؟ خبّرن بالله يا من تبصرن ! ألا إنى وحدى فى ظلام ما إن له من نهاية ، فلا أدرى من ذا يجلس بجانبى ، ولا أدرى ماذا يحدث حولى غير بعيد ! ولم يا ترى تتهامسون ؟

الأب — ما كان أحد يهمس

الجد — لقد تكلمت لدى الباب همساً

الأب — لقد سمعت كل حديثى

— الجد — لقد أدخلت أحداً إلى الحجرة !

الأب — ولكنى أنبئك أنه لم يدخل أحد

الجد — أهى أختك أم راهب . لا يحسن بك أن تخدعنى . من دخل ، يا أرسولا ؟

الابنة الكبرى — لا أحد يا جدي

الجد — لا ينبغى لك أن تخادعينى ، فانى لأعلم ما أعلم . كم نحن هنا ؟

الابنة — ستة يا جدى ، حول المائدة

الجد — أكلكم حول المائدة ؟

الابنة — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا بول ؟

الأب — نعم

الجد — أنت هنا يا أوليفر ؟

الم — أجل ، (بالطبع) إنى هنا فى مكانى المعهود . وليس ذلك مدعاة للروع أثراه قد روعك ؟

الجد — أنت هنا يا جنفياف ؟

إحدى البنات — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا جرترود ؟

ابنة أخرى — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا أرسولا ؟

الابنة الكبرى — نعم يا جدى ، إلى جانبك

الجد — ومن الجالس هنا ؟

الابنة الكبرى — أين تعنى يا جدى ؟

الجد — هنا ، هنا ، إلى الحوان

الابنة الكبرى — ولكن يا جدى لا أحد

الجد — بل ثمة أحد ، ثمة أحد !

الم — أراك تمزح

الجد — ألا فاعلم حق العلم أنى لم أهد فى المزاح

الم — إذن فصدق البصرين

الجد (مرتاباً) — حسبت أن ثم أحد . فى رأيى أن لن أعيش طويلا ...

العم — لم نخدعك ؟ أى نفع فى خداعك ؟

الأب — فرض علينا أن نفضى إليك بالحق

العم — أى خير فى أن يخادع بعضنا بعضاً ؟

الأب — إن المرء لا تطول خدعته

الجد (يحاول النهوض) — تمنيت لو أمزق من حولى حجب الظلام !

الأب — أين تقصد ؟

الجد — هناك ...

الأب — لا تعجز إلى هذا الحد

العم — ألا إنك لغريب هذه الليلة

الجد — إنما أنتم الأغراب تبدون

الأب — أريد شيئاً ؟

الجد — لا أدرى ما ذا يؤلمنى

الابنة الكبرى — جدى ! جدى ! ماذا تريد يا جدى ؟

الجد — هاتن يا بناتى أيديكن الصغيرة !

البنات الثلاث — لبّيك يا جدى

الجد — لم ترعدن جميعاً ؟

الابنة الكبرى — إنا يا جدى لم نرتعد قط

الجد — أتخّلكن جميعاً شاحبات

الابنة الكبرى — لقد تأخر المساء يا جدي وإنّا لمتعبات

الأب — غير لكن أن تذهبن إلى المضاجع وخير لجدكن لو استراح شيئاً

الجد — الليلة عز رقادى !

العم — سننتظر الطبيب

الجد — فهيأوا النعش !

العم — ليس هنالك حق !

الجد — إذن فلا أدرى ما هنالك !

العم — قلت لك ما من شىء قط

الجد — وددت لو أرى ابنتى التاعسة

الأب — تعلم أنك تروم عسيراً

العم — ستراها من غد

الجد — لا سوت فى حجرتها

العم — لو سمعت صوتاً لأشفقت

الجد — لقد طال عهدى برؤية ابنتى ! ... لقد تناولت يدها ليلة أمس ، بيد أنى لم أرها ! ... فما أعلم ماذا حل بها ... وما أعلم كيف هى ... وما أعلم كيف يبدو الآن وجهها — ولكن لا شك أنها تغيرت هذه الأسابيع ! فقد لست عظام وجنتيها الصغار تحت يدى . ولا غير الظلام بينها وبينكم أجمعين وبينى ! . ولعمر الحق أنى سئمت هذه الحياة وضقت بها ذرعاً ! بل ما هذه بالحياة ، فانكم لتجلسون جميعاً فتشخصون بأعين منيرة إلى عينىّ المكفوفتين ثم لا تأخذكم بى الرحمة ! ، أما أنا فلا تدرى نفسى ما ذا يؤلمنى ، ولا أحد ينبئنى بما أعلم علمه — وكل شىء مروع ما علقت به أوهام الانسان ولكن ما بالكم لا تلفظون ؟

العم — وماعسى أن نقول ما دمت لا تؤمن لنا ؟

الجد — إنكم لتخشون مخادعة أنفسكم !

الأب — مهلاً ، ألا ترشد !

الجد — إنكم تسرون عنى أمراً منذ بعيد ... ! لقد وقع فى البيت حدث ... ولقد بدأت اليوم أفهم بعد أن طالت خدعتى ... ! أو تحسبون أنى لا أعلم قط شيئاً ؟ ألا يا رُب لحظات عدت فيها أقل منكم عمى ؟ أو تحسبون أنى ما سمعتكم تهامسون أياماً وأياماً ، وكأنما ضمكم بيت إنسان مذنّب ؟ ألا يارُب حق علته ولا أجرؤ اليوم على الافضاء به ... ولكني

سأنتظر ، وسأنتظر حتى تبوحوا بما قد علمته منذ أمد طويل ! والآن فإني أنتظركم شاحبين كالموتى ، أو أشد اصفراراً

البنات الثلاث — جدى ! جدى ! ما بالك يا جدى ؟

الجد — ليس عنكن أتكلم يا ولدى . لا ليس عنكن ، فما كنتن بالحق بإخلاء وإن ضنوا به ! بل إنهم ليكرون بأنفسكن فى رأيي ولسوف تشهدن يا ولدى ... لسوف تشهدن ! ... ألا أسمعكم تبكون أجمعين

الأب — أزوجي إلى هذا الجد مريضة ؟

الجد — عبثاً تخادعني . لقد فات الأوان فانى لأعلم من جلية الأمر فوق الذى تعلمون

الم — ولكن لسنا مكفوفى البصر ؛ لسنا مكفوفين

الأب — أتحب أن ترى ابنتك ؟ فانه لا بد من حسم هذا الشك ... أتحب ؟

الجد (يعود لجأة إلى الشك) — لا ، لا ، ليس بعد . ليس بعد

الم — فانظر كيف لا تلقى السمع إلى العقل

الجد — هيهات أن يقدر امرؤ مدى إدراك الانسان فى هذه الحياة ... مَن أمار هذه الضجة ؟

الابنة الكبرى — إنه المصباح يرف يا جدى

الجد — إنى لأراه كثير التقلب ، كثير التقلب

الابنة — إنها الريح الباردة ؛ فهى تمايله

الم — ليس ثمة ريح باردة ، فالنوافذ موصدة

الابنة — أحسبه سينطفئ

الأب — لم يبق فيه من زيت

الابنة — لقد انطفأ

الأب — لا تستطيع البقاء على هذه الحالة ، فى الظلام

الم — ما يمنع ؟ إنى لآلفه كل الايلاف

الأب — ثم ضوء فى حجرة زوجى

الم — سنأخذه منها بعد ذهاب الطبيب

الأب — خير ؛ لا نزال نبصر ؟ ثم ضوء من الخارج .

الجدّ — أفى الخارج نور؟

الأب — أضوأ من هنا .

الم — أما أنا فأحب الظلام .

الأب — وكذلك أنا . (صمت)

الجدّ — يبدو لى أن الساعة عالى صوتها .

الابنة الكبرى — ذلك يجدى لنا شيئاً من الصمت

الجد — ولكن لم يشملكم الصمت جميعا ؟

الم — وفيم تريد أن تتحدث ؟ — ألا إنك هذه الليلة جد غريب .

الجد — أترى الظلام فى هذه الحجرة جد حالك

الم — لا ، نور وضيء .

الجد — إنى ضيق الصدر ، يا أرسولا ، فافتحى النافذة قليلا .

الأب — أجل يا بنتى ، افتحى النافذة قليلا ، فأنا الآخر أشعر بحاجتى الهواء . (تفتح الابنة النافذة)

الم — لقد احتبسنا طويلا ، فيما أرى .

الجد — هل فتحت النافذة ؟

الابنة — نعم يا جدى ؛ إنها مفتوحة على مصراعيها .

الجد — لكأنها لم تفتح ، فلا صوت فى الخارج .

الابنة — لا يا جدى ، ليس أدنى صوت .

الأب — إن الصمت لعجب !

الابنة — كاد يسمع المرء حفيف الملاك !

العم — ومن أجل ذلك لا أحب الريف .

الجد — وددت لو أسمع سوتا . كم الساعة يا أرسولا ؟ .

الابنة — سيكون منتصف الليل وشيكا يا جدى (هنا لك يندو العم فى الحجرة ويروح .)

الجد — من ذا يمشى حولنا هكذا ؟

العم — ليس غيرى ! فلا تخف ! لقد أحببت المشى قليلا (صمت) — ولكنى سأجلس ؛ فلست أري ممشاى . (صمت)

الجد — وددت لو أزايل هذا المكان !

الابنة — إلى أين تقصد يا جدى ؟

الجد — لا أدرى إلى أين — إلى حجرة أخري ؛ لا أبالى أين ؛ لا أبالى أين !

الأب — أين تذهب ؟

العم — إن الوقت جد متأخر ؛ فلا انتقال من هذا المكان . (صمت . يجلسون حول المائدة ، بلا حراك .)

الجد — ما هذا الذى أسمع يا أرسولا ؟

الابنة — لاشئ يا جدى ؛ إنها أوراق الشجرة منتثرة . أجل، إنها أوراق الشجرة منتثرة على المشرف

الجد — اذهبى فاغلقى النافذة يا أرسولا .

الابنة — سمعاً يا جدى . (تغلق النافذة وتعود فتجلس .)

الجد — إنى لأنتفض من البرد (صمت تقبل الأخوات الثلاث إحداهن الأخرى) ما الذى أسمع ؟

الأب — هؤلاء الأخوات الثلاث ، يتهادين القُبل

العم — أراهن الليلة جدّ شاحبات (صمت)

الجد — ماذا أسمع يا أرسولا ؟

الابنة — لا شئ يا جدى . إنما شبكت يدى (صمت)

الجد — وماذا ؟

الابنة — لا أدرى يا جدى ... لعل أختى راجتفتان هوناً ما

الجد — إنى كذلك خائف يا ولدي . (هناك ينفذ من خلال الزجاج الملون شعاع من القمر يلقى ومضات غريبة فى الحجرة . دقات ساعة تؤذن بانتصاف الليل ، ولدى الدقة الأخيرة يثبت صوت جد مهم ؟ وكان أحداً يسجل بالنهوض)

الجد — (يرتعد من فرط الروع) من ذا الذى نهض ؟

العم — لم ينهض أحد !

الأب — إنى لم أنهض

البنات الثلاث — ولا أنا ـ ولا أنا ـ ولا أنا

الجد — لقد نهض أحد من على المائدة !

العم — أضيئوا المصباح !

(يسع نجاة من غرفة الطفل عن يمين صيحات رعب وتصل هذه الصيحات مع الروع الذى يزداد إلى نهاية المنظر)

الأب — اسمعوا الطفل !

العم — ما سبق له قط أن صاح !

الأب — فلنذهب نره !

العم — النور ! النور !

(فى هذه اللحظة يسع فى الغرفة عن يسار خطى مسجلة تمثيل الوطء، وبعدها صمت هو صمت الموت. يصغون فى رعب لا ينبسون حتى يفتح وليداً باب الغرفة ويشيع منها الضوء إلى الحجرة التى يجلسون فيها ؛ ثم تظهر فى الباب أخت الرحمة فى كساها السود ، فتحني واسمة علامة الصليب تتبعى الزوج . يدركون ، وبعد لحظة من الذهول والفزع يدخلون حجرة الموت ساكتين ، بينما العم يقعى جانب الباب ليفسح الطريق للبنات الثلاث . أما الشيخ وقد غودر وحده فينهض مهتاجاً ، ويجلس الطريق حول المائدة ، وسط الظلام .)

الجد — أين تذهبون ؟ أين تذهبون ؟ لقد انفض من حولى الصبايا ، وليس من أحد !

(روما) محمد أنيس

الفتاة القروية

للقصصي الروسي بوشكين

بقلم السيد عزالدين عزوزي

يقع منزل « إيفان برستوف » في إقليم من أقاليم روسيا النائية ، وكان هذا الرجل يشتغل في أيام شبابه في حراسة القيصر ، ولكنه ترك هذا العمل في أوائل عام ١٧٩٧ ، وجاء إلى أراضيه وأخذ يعمل في إحيائها ويقضي فيها ما تبقى من أيام حياته

كانت زوجته سيدة نبيلة ، ولكنها فقيرة ، وقد توفيت أثناء رحلة كان رحلها في سهوله الواسعة. وبعد أن نسي الحزن الذي تركه فقدها في نفسه شيد منزلاً فخماً ومصنعاً للأقمشة ، وسار بذلك الرجل المحترم والسيد النبيل في ذلك الاقليم ؛ وكان نزول الجيران ضيوفاً عليه مع أولادهم وكلابهم مما يؤكد في نفسه هذه المنزلة ويثبتها

أما ما يلبسه طيلة الأسبوع فهي صدارة من القطيفة أرجوانية اللون ، وفي أيام العيد « رداء جوت » من صنع مصنعه

كان « برستوف » محبوباً من أهل قريته رغم مظهره المتكبر ، وتقطيبه الطويل ؛ ولكن « مورمسكي » أقرب جيرانه إليه لم يكن يحبه ، ولا يستطيع محادثته أو الاجتماع به ، لأن « مورمسكي » يرى أنه أرفع منه قدراً ، وأعظم جاهاً ، وهو الآن أرمل قد بذر القسم الأكبر من أمواله في « موسكو » وجاء الآن ليقيم في بيته القروي آخر ما تبقى له من العقار ؛ وكان في أخلاقه شذوذ غريب ، فهو ينفق كثيراً من دخله على حديقة يزرعها على « الطريقة الانكليزية » ولا يرضى بأن تكون مربية ابنته إلا آنسة انكليزية المحتد ، ولا يزرع حقوله الشاسعة إلا على الطريقة الانكليزية ، « ولكن القمح الروسي لا يؤتي أكله إذا زرع على الطريقة الانكليزية »(١) ومقابل هذا النقص المتواصل في أحواله فان مدخوله لم يزد مطلقاً على ما كان عليه منذ زمن بعيد . وهو رغم إقامته في تلك القرية المتواضعة لم يستطع العيش دون أن يستدين بالربا الفاحش ؛ وعلى كل حال فقد كان رجلاً محترماً يوقره الكبير والصغير

كان « برستوف » شديد القسوة في معاملة منتقدي عاداته وأخلاقه ، وكان يجد في عادات جاره المتفرنج مجالا واسعاً للهكم والسخرية ! وإذا أحب أحد ضيوفه البذخ والترف خاطبه وفي ثغره ابتسامة ماكرة خبيثة قائلا له : « إنك هنا غير ما لو كنت عند جاري مورمسكي ، فأنا لا أحب أن أقلل الانكليز في معيشتهم فأتلف بذلك أموالي . يكفيني ما أنا عليه ، وما كان عليه آبائي الكرام . » وكان بعض الجيران ينقل إلى « مورمسكي » ما يقوله عنه جاره ، ولكنهم لا ينقلون ما قاله « برستوف » فقط ، بل يزيدون فيه كثيراً ويجلون من الحبة قبة حتى إن « مورمسكي » تهيج ثائرة نفسه فيأخذ في سب جاره وشتمه ورميه بأبشع الصفات كأن يقول عنه إنه « دب » وإنه رجل قروي ابن قروي !

هكذا كانت العلاقات بين الجارين عند ما جاء

(١) مثل روسي

« الكسى » إلى قرية أبيه، بعد أن تخرج من الجامعة

وكان يميل إلى الدخول فى المدرسة الحربية رغم أن ذلك الميل كان مما لا يحبه أبوه ، وظل كل متمسكا برأيه لا يلين لإرادة الآخر ، وعبثا حاول والده إقناعه بأن العمل فى دواوين الحكومة خير من العمل فى الجندية ، ولكنه صمم أخيراً أن يترك الأيام تفعل ما تشاء ، فلم يذهب إلى المدرسة الحربية ولم يعمل فى دواوين الحكومة ، وإنما ظل فى منزل أبيه يحياحياة بوهيمية ، وترك العنان لشاربيه فنموا نمواً هائلا وانتشرا فى كل صوب .

كان « الكسى » ولد « ايفان برستون » شابا لطيفاً ذا قامة رشيقة متناسقة الأطراف جديرة بأن تمارس الأعمال الحربية ، ومانظر إليه أحد وهو على صهوة جواده إلا اختار له أن يكون فى الجيش أو فى ساحة الحرب . ولم يقل أحد من الناس إن هذا الشاب القوى خليق بأن يجلس وراء مكتب الديوان طيلة يومه . وكانت صبايا القرية لا يلقين النظر إليه والحديث عنه ، وهو غير مكترث بهن لا يلتفت إليهن ولا يلقى عليهن تحية، فزعمن أنه متأخوذ بحب فتاة فى موسكو . وقالت إحداهن : لقد رأيته يضع رسالة فى البريد مكتوبا على ظهرها « إلى الآنسة آكولينا بتروفنا كورنشكينا فى موسكو . »

إن الذين لم يسعدهم الحظ بأن يعيشوا زمنا فى القرى لا يمكنهم أن يدركوا ما عليه أولئك الفتيات من الجمال . انهن يعشن فى الهواء الطلق وفى ظلال الفلاح ولا يعرفن العالم والحياة إلا من وراء الكتب التى تصل إلى أيديهن ؛ وإن الوحدة والحرية والطبيعة تنمى فيهن شعوراً وأهواء ، وتخلق منهن فتيات أين منهن فتيات المدن فى تجاعيد الرذائل ، وشعورهن الذبل وأهواؤهن المتطرفة .

إن دقات الناقوس يوم الأحد تخلق فى خيالهن حوادث شتى ، وان رحلة يقمن بها إلى القرية المجاورة لقريتهن هى يوم من أيام فى حياتهن يؤرخن به حوادث المستقبل وسوالف الماضى ، وإن نزول ضيف عليهن يترك فى نفوسهن ذكرى خالدة تنزل معهن إلى القبر .

كثير من الناس من يجد فى عادات أهل القرى مجالا واسعاً للسخرية والتهكم ، ولكن رأى هؤلاء الناس سيظل دون أى تأثير على الحقائق الواقعية التى تواجهنا عند هذه النفوس البريئة : الأخلاق ، والسعادة الفردية التى لولاها لم يكن للانسانية عظمة تفاخر بها عن جدارة واستحقاق !

إنه لمن السهل أن تجد فى المدن والمواصم نساء هن على قدر عظيم من الثقافة ، ولكن الحياة سوت بين هذه الفوارق وجعلت قيمة المرأة بمقدار جمالها وزينتها

يا قارئى المحبوب ، من اليسير عليك أن تدرك أى تأثير كان لألكسى فى نفوس هؤلاء الفتيات، فقد كان أول شاب رأين فيه من النموض ما لم يستطعن فهمه ، ومن الكآبة ما لم يدركن كنهها. والمرة الأولى تحدث هؤلاء الفتيات عن الأفراح المولية ، والشباب الذابل ، والأمل المفقود !

كان الكسى يلبس فى خنصره خاتماً أسود عليه صورة رأس رجل ميت ، فكان ذلك الخاتم يسترعى أنظار أهل القرية ، ويجعل الفتيات أكثر تعلقاً به وشغفاً إلى معرفته . أما التى أولست به ولوعا

2017-11-1

جمّا فهى ابنة جاره الذى كان يحب أن يعيش على النمط الانكليزى واسمها « لبزا »

لم تر « لبزا » حتى الآن وجه ألكسى رغم أن الفتيات رأينه كلهن . كانت لبزا فى السابعة عشرة من عمرها ذات عينين فيهما دعج يزيد فى جاذبية وجهها الأسمر ، ولم يكن لأبيها خلف غيرها فكانت لذلك مدللة منه محببة إليه ، حتى أودى هذا الدلال بكثير من خصالها الحميدة . وكانت فى حيويتها تسحر والدها فلا يدرى بأى شىء يزجرها إذا أخطأت أو يكافئها إذا أحسنت ؛ وكادت مربيتها « مس جوكسون » تخرج عن طورها المتاد رغم وقارها المتلزم وسنها الكبيرة . كان وجه هذه الربية كأنه معلو بطلاء أبيض ، وعيناها كأن بهما كحلا أحمر ؛ وكان عمل هذه الربية أن تقرأ الـ Pamélat:(١) مرتين فى السنة ، وتتقاضى أجراً على هذا العمل مبلغاً قدره ألفان من « الرويلات » فى السنة ، وهى رغم ذلك تزعم أنها ستنفجر من الضجر لوجودها فى هذه البلاد البربرية

أما خادمة لبزا فاسمها « ناشيا » ، وهى فتاة تكبر بقليل سيدتها التى كانت تحبها حباً جماً وتبوح لها بكل أسرارها ، فلا تقوم بأى عمل دون أن تشاطرها رأيها فيه . وبالاختصار كانت « ناشيا » تمثل دوراً فى (أمانة السر) لم تقرأ مثيله فى أية مأساة فرنسية

قالت ناشيا وهى تلبس سيدتها ثوبها : أتأذنين لى بالخروج فى هذا اليوم يا سيدتى ؟

— نعم ولكن أين تريدين الذهاب ؟

— إلى قرية (نو چيلوشو) عند جيرانكا آل « برستوف » ، فاليوم حفلة زفاف زوجة الطاهى ، ولقد جاءت البارحة ودعتنا لتناول طعام الغداء عندها

— إن أصحاب المنزل سيختلون مع ضيوفهم فى غرف وحدهم ، وسيقرع الواحد منهم كأسه بكأس صاحبه ، فاذا كنت تودين الذهاب فاسألى والدى أن يسمح لك بذلك

— ما الذى يمنعنى مما سيفعله أصحاب المنزل ؟ وأنا لك وحدك ولست لأبيك ، لندع الشيوخ الكبار عند مضيفنا يتنازعون ويضاولون وحدهم ما يحبون

— لا بأس ، ولكن رجائى إليك أن تنظرى « الكسى برستوف » جيداً وأن تخبرينى عما ستجدين فيه من الصفات والخصال ساعة تعودين إلىّ

خرجت ناشيا وهى تعد سيدتها بأن تقوم بما طلبته منها . وظلت لبزا تنتظر عودتها طيلة النهار بفارغ الصبر . ولما عادت فى المساء إلى غرفة سيدتها قالت لها : لقد رأيت الكسى الشاب واجتمعت بعدة طويلة وظلت معه طيلة النهار

فأجابتها سيدتها : وكيف كان ذلك ؟ تعالى قصى على الخبر من أوله إلى آخره

— نعم يا سيدتى ، ذهبت فى الصباح أنا و « أنيا » و « نانيلا » و « دونكا » ...

— نعم ... نعم ، أعرف ذلك ، ثم ماذا حدث ؟

— اسمعى يا سيدتى ، إنى أحب أن أسرد عليك الحادثة من أولها . وصلنا عند الغداء تماماً ، وكانت الشرفة غاصة بالزائرين والزائرات وكان بينهم زوجة

(١) رواية شهيرة للأديب الانكليزى « ريكاردسن » تمتاز بالطرافة والأخلاق وتدور فى موضوعها على خادمة فتية تتصر فضيلة نفسها على مكايدها الماثلة ، وهى من أول ما وضع فى القصص الحديث

« كلبيتو » وزوجة « ز كهاريفو »

— والكسى برستوف ألم يكن بينكم ؟

— نعم ، ولكن لماذا تسجلين ؟ جلسنا إلى المائدة ، وجلست زوجة المدير فى الصدر وجلست أنا إلى جنبها فأخذ بنانها ينظرن إلى نظرات الحسد ولكننى لم أبال بهن

— إن هذه التفاصيل تزعجنى « يا نلشيا »

— ماأسرع ماتضجرين ياسيدتى ! ثم خرجنا من الغرفة بعد أن مكثنا فيها ثلاث ساعات ، حقاً لقد كانت مائدة فاخرة ، وبعد ذلك ذهبنا إلى الحديقة نلهو ونلعب وهناك رأيت الشاب ...

— هل هو جيل كما يقولون عنه ؟

— بل أكثر من ذلك ، إنه فوق ماتتصورين يا سيدتى ، إنه شاب جيل ، طويل القامة ممتلىء الجسم وردى الخدين ...

— وهل كنت أتصوره أسفر اللون هزيلا ؟ ولكن أريد أن تصفى لى مظهره ، هل هو حزين ؟ هل هو كثير التفكير والتأمل ؟

— أتظنين ذلك ؟ إننى لم أر فى حياتى كلها أكثر منه نشاطاً وحيوية . لقد ظل يركض ويلعب معنا طيلة اليوم ...

— ظل يركض ويلعب معكن طيلة اليوم ؟ إن هذا غير ممكن ! ...

— لماذا يا ترى ؟

— إذن قولى ماتريدينه « يا نلشيا » ماأراك إلا كاذبة

— ظنى بى ماتشائين ولكنى لا أكذب قط

— لماذا يقولون عنه إنه عاشق وإنه لا يلتفت إلى أحد وإنه وإنه ...

— هذا مالاأعرفه ياعزيزتى . كل الذى أستطيع أن أقوله لك هو أنه استرعى انتباهى وانتباه « تانيا » وابنة المدير

— إن هذا مما يثير فضولى يا عزيزتى نلشيا ، ماذا كان الناس يقولون عنه ؟

— كانوا يقولون إنه رجل طيب القلب كثير المرح ، نشيط ، ولم يلوموه إلا على شىء واحد : كثرة حبه للخادمات واتباعه لهن . ولكننى لا أرى فى هذا العمل ما يستحق اللوم . لا بد أنه سيهدأ فى يوم من الأيام

— « آه ... ما أشد تشوق إلى رؤيته » قالتها وهى تتنفس الصعداء

— ما الذى يمنعك من ذلك يا عزيزتى ؟ إن قرية « نوجيلوفسو » قريبة منا ، وإذا قمت بنزهة فى نواحى هذه القرية ، فأنا متأكدة من أنك تجتمعين به ، إنه يخرج كل يوم إلى الصيد فى الصباح الباكر وهو متأبط بندقيته

— أتظنينى أقوم بهذا العمل لكى يحسب أننى أحبه ؟ وهل نسيت ما بين أبى وأبيه من خلاف وعداوة ؟ أتدرين ماذا سأفعل يا نلشيا ؟

ما رأيك إذا لبست ثياب قروية وخرجت للاقائه ؟

— والله إنها لفكرة حسنة . البسى ملاءة من قماش سميك ، واذهبى دون أن تخافى إلى قرية « نوجيلوفسو » وأنا متأكدة من أن الكسى سيعجب بك ، وأنه سيحبك

— وأيضاً أستطيع أن أتكلم بلهجة هذه القرية ! إنها يا نلشيا فكرة حسنة

نامت « لبزا » ليلتها تلك وهى مصممة على تنفيذ ما اتفقت عليه مع خادمتها . وفى الصباح

أرسلتها إلى السوق لتشتري لها قماشاً سميكاً كالذى تلبسه القرويات ، أزرق اللون ، وأزراراً مصنوعة من قماش أصفر ، ثم ساعدتها ناشيا على تفصيل الملاءة ، وعملت جميع الخادمات فى خياطتها ، ولم يأت المساء حتى كان كل شيء جاهزاً

فأخذت «ليزا» ثوبها الجديد بين يديها وتأملته ثم لبسته ونظرت إلى نفسها في المرآة ، فوجدت أنها لم تكن فى حياتها أجمل مما هى عليه الآن ، وابتدأت تتمرن على تمثيل دورها فألقت تحية فى صوت خافت وهى سائرة ، ثم رفعت رأسها إلى جهة اليمين ثم إلى جهة الشمال وتكلمت كما تتكلم القرويات ، وأخذت تضحك ، وسترت وجهها بطرف كمها

كان يزعجها فى هذا التمثيل شيء واحد ، هو أنها لم تستطع أن تتحمل وخز الأعشاب الشائكة ولا وخز الحصى الدقيق فى حديقة القصر . وهنا أيضاً جاءت « ناشيا » لمساعدتها فقاست طول قدمها وأخذت تبحث عن « روفيم » الراعى ، وطلبت منه أن يصنع لها زوجاً من الأحذية بعد أن أعطته القياس

قامت « ليزا » فى الصباح الباكر ونظرت فيما حولها فوجدت أن الجميع نائمون ، وأن « ناشيا » واقفة أمام رتاج الباب تترقب قدوم الراعى . وبعد لحظة سمعت صوت مزماره ورأت القطيع يمر أمام القصر ، ثم تقدم الراعى فأعطى ناشيا زوج الأحذية القروية السميكة فناولته هذه خمسين « كوبك » ثمناً لها ، فانصرف إلى شأنه

أخذت « ليزا » ترتدى ثياب القرويات فى صمت وهدوء خشية أن توقظ أهلها النائمين ، وهمست فى أذن ناشيا كلمات تتعلق بمريبتها «مس جوكسون» ثم خرجت من باب القصر الكبير واجتازت الحديقة وانطلقت تسدو فى الحقول الشاسعة

كان الفجر يلمع فى الناحية الشرقية والنيوم الذهبية متراصفة على الأفق كأنما تنتظر مطلع الشمس ، والسماء الصافية ، وبرودة الصباح ، والندى والنسيم العليل وصداح الأطيار ، كل ذلك أخذ يملأ قلب « ليزا » سعادة أين منها سعادة العالم كله !

لما وصلت « ليزا » إلى منتهى حقول والدها أخذت تسير على مهل بعد أن كانت مسرعة حتى لو أن أحداً رآها لظنها تطير فى الجو ولا تسير على الأرض . لقد كانت تخشى أن يراها أحد ممن تعرف

وفى هذا المكان جلست « ليزا » تنتظر قدوم الكسى ، فأحست أن قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، ولم تستطع أن تجد لهذا الخفقان سبباً ، ولكن ، أليس هذا القلق الذى يصحب فراهة الشباب وطيشه هو السبب الأوحد فى جاذبية المرأة ؟

قامت ليزا من مكانها وسارت إلى ظل غيضة قريبة منها ، ثم شمرت كأنما حولها ضوضاء خفية تحيط بها من كل جانب ، فأخذت سعادتها الأولى تهدأ شيئاً بعد شيء ، ثم شرعت تحل حلماً عذباً ... ترى تستطيع أن تدرك فى أى شيء تفكر فتاة فى السابعة عشرة من عمرها وهى جالسة وحدها فى غابة من الغابات وفى صباح يوم من أيام الربيع ؟ !

سارت ، وهى فى هذه النمرة الجميلة ، فى طريق ظليل بما حوله من الأشجار الباسقة ، فظهر أمامها فجأة كلب صيد جميل ، وأخذ ينبح ويعدو وراءها ؛ فذعرت «ليزا» وصاحت ، ثم سمعت صوتاً يقول :

لا تخافى ، تعال إلى هنا يا « سبوچار » ، ثم رأت سيداً شاباً يخرج من بين الادغال ويخاطبها قائلاً :

— لا تخافى أيتها الفتاة ، إن كلبى هـذا لا يعض أحداً

شعرت ليزا بالسكون يعود إليها فأحبت أن تستفيد من هذه الصدفة فقالت للصياد بصوت فيه شيء من الخوف والحياء :

— إننى أخاف رغم كل هذا . إن كلبك هذا مخيف ، وأحسب أنه سيلقى بنفسه علىّ ثانية

أخذ الكسى ينظر إلى هـذه القروية نظرة متفرس ، وقال لها :

— إذا كنت تخافين فانى أماشيك إلى حيث تريدين ، أتسمحين لى أن أسير بجنبك ؟

— من الذى يمنعك من ذلك ؟ إنك حر والطريق مشاع للجميع

— من أين أنتِ ؟

— من « پريلوتشن » إننى ابنة الحداد « فاسيلى » ، وقد خرجت لأجمع لوالدى قليلاً من الكمأة !

كانت ليزا تحمل على كتفيها سلة صغيرة مدلاة على ظهرها بحبل ، وهى ممسكة بطرفه الآخر

— وأنت ؟ ألست من قرية « نوجيلوشو » ؟

— نعم ، إننى من هذه القرية وأنا خادم البارون فيها

كان ألكسى يريد من قوله هذا أن ينزل إلى مستواها ، ولكنها نظرت إليه نظرة وضحكت ثم قالت له : « إنك تكذب ؛ لست بلهاء إلى هذا الحد وإننى لا أشك فى أنك ابن البارون نفسه »

— ما الذى جعلك تعتقدين ذلك ؟

— كل ما أراه فيك يدل على أنك ولد البارون

— ... ولكن ... ؟

— أتحسب أننى لا أستطيع أن أميز السيد من الخادم ؟ إن لباسك غير لباسنا ، ولقد كلمت كلبك الآن بلغة غير اللغة الروسية

كان لهذه الكلمات وقع حسن فى نفس « ألكسى » فزاد شغفه بها وتقدم نحوها يريد أخذها بين يديه فارتدت إلى الوراء بسرعة ونظرت إليه نظرات حادة فلم يتمالك ألكسى من الضحك ثم سكت ، فقالت له وهى تلتزم الوقار :

— إذا كنت حقاً تريد أن تكون أصدقاء فكن سيد هواك

فقال لها ألكسى وعلى ثغره ابتسامة ودهش :

— من الذى علمك هذا ؟ هل هى ناشيا خادمة سيدتك ؟ إن أخلاقها العلية قد انطبعت فى نفسك صورة ثانية

شعرت ليزا أنها لا تستطيع كتم الحقيقة عنه ، فأرادت أن تخبره عن نفسها من تكون ، ولكنها امتنعت عن ذلك وقالت له :

— هل تحسب أننى لا أعرف كيف أسمع ولا كيف أرى عندما أكون بين أسيادى فى القصر ؟ ؟

ثم أردفت قائلة : ولكننى ما جئت هنا كى أمضى الوقت فى الكلام معك ، إذهب إلى شأنك ، ودعنى أنا أيضاً أذهب ... وداعاً !

نهضت ليزا من مكانها ولم تكد تبتعد قليلا حتى شعرت بأن ألكسى قد أمسك بيدها وقال لها : ما اسمك يا عزيزتى الصغيرة ؟

فأجابته وهى تحاول الافلات من يده :

— اسمى « أكولينا » ، دعنى أذهب يا سيدى ، لقد تأخرت

— إذن سأزور والدك « فاسيلى » الحداد فى الند

— ماذا تقول ؟ بالله عليك لا تذهب ، إن والدى إذا علم أننى تحدثت معك ، وأننا كنا وحدنا فى النابة ، فإنه سيضربنى ضرباً مبرحاً

— ولكنى سأبحث لأراك فقط

— إذن سأعود إلى هذا المكان لأجمع الكمأة ! !

— متى ؟ ؟

— إذا كنت تريد فإننى آتى فى الند

— فى الند ياعزيزتى ، أليس كذلك ؟!

— نعم... نعم .

— أحقاً ما تقولين ؟

— صدقنى ياعزيزى

— أقسمى بيمينك بالله لتأتين إلى هنا فى الند .

— أقسم لك بالله

* * *

افترقا . وخرجت ليزا من النابة واجتازت الحقول الواسعة وهى مسرعة جادة فى سيرها ، ثم دخلت الحديقة فوجدت خادمتها ماشيا فى انتظارها فبدلت لها ثيابها ، وأجابتها ليزا على أسئلتها التى كانت تلقيها عليها جواباً مقتضباً ، ثم دخلت الدار فوجدت الطعام حاضراً وأهلها ينتظرونها ، وكانت مربيتها « مس جوكسون » قد حمرت وجنتيها وشدت مئزرها فبدت كأن جسمها جسم نحلة ، وكانت تقطع الخبز قطعاً دقيقة ، ثم التفت « مورمسكى » والد « ليزا » إلى ابنته وامتدح زهتها التى قامت بها فى الصباح وقال لها : « ليس أحسن للجسم من القيام فى الصباح الباكر » ثم أخذ يسرد على ابنته أخبار المصرين الذين يقرأ عنهم فى المجلات الانكليزية وأن جلهم من الذين لا يشربون « الفودكا » ومن الذين يقومون باكراً فى الصيف وفى الشتاء ، ولكن ليزا كانت فى شغل عن حديثه فإن ماوقع معها فى الصباح أخذ يعود إلى ذهنها ، وكانت تفكر فى نجاحها ساعة خدعت الكسى وكيف صدق أنها ابنة حداد وأن اسمها « أكولينا » .. ؛ ولكنها شعرت بالندم رغم ذلك النجاح ، وعبثاً حاولت أن تقنع نفسها بأن ماحدث لها سوف لايتجاوز محله ، وأن ألوبتها التى قامت بها مع الكسى قد انتهت . لقد كان صوت ضميرها أكثر ارتفاعاً من صوت عقلها . إن موعدها فى الند يقلق فكرها ، وهاهى ذى تكاد تصمم على أن تخلفه ، لولا أنها ذكرت أن الكسى سوف يبحث عنها فى منزل الحداد ، بعد أن ينتظرها طويلاً فى النابة ، وأنه سيجتمع بابنة الحداد « أكولينا » صاحبة الوجه الدقيق والجسم النليظ ، وأنه سيقف على حقيقة هذه المهزلة ! كانت هذه الفكرة تخيف « ليزا » فتيقن بأن « أكولينا » ابنة الحداد ستخرج فى صباح اليوم التالى بدلا منها إلى النيضة وأنها ستنتظر « الكسى » وأنه سيجيء ..!

أما الكسى فقد كان مسروراً أى سرور وقد ظل طيلة يومه يفكر فى صديقته الجديدة ، ولما أقبل الليل ظلت صورة الفتاة ذات السمرة الجميلة تغمر أحلامه

لم تكد الشمس تشرق حتى كان الكسى على أهبة الخروج ، فاصطحب كلبه الأمين سيوچار وركض إلى المكان الذى تواعدا على أن يجتمعا فيه ظل الكسى ينتظر قدوم حبيبته نصف ساعة

وأخيراً شاهد ملاءة زرقاء تلمع بين الأدغال ، فوثب يريد ملاقاة عزيزته « أكولينا » ؛ فضحكت هذه لرؤيته ، ولكن الكسى لم يلبث أن تبين فى وجهها أمارات الاضطراب والحزن ، فأحب أن يعرف سبب ذلك ، فأخبرته ليزا بأن هذه الحرية التى تستعملها فى جميع شؤونها تسبب لها هذا الحزن ، وأنها ندمت على ما بدا منها ، وأنها لم تأت اليوم إلى هذا المكان إلا لتفى بوعدها ؛ وأنها تريد أن يكون هذا الاجتماع هو الاجتماع الأخير ، وقالت له : « أريد منك أن تقطع هذه الصلات التى ربما أوصلتنى إلى مالا أحبه وأرجوه »

لقد كان لهذه الكلمات على ما فيها من بساطة وقع شديد فى نفس الكسى ، فاستعمل كل ما أوتى من مقدرة وذكاء لكى يرد أكولينا عن عزمها ، وأكد لها أن كل ما قالته إنما مصدره قلبها الساذج وحبها البرىء ، ووعدها بأن يطيعها فى كل شىء وألا يكون بينهما من الصلات ما يجر إليها الندم ، ثم طلب إليها ألا تحرمه السعادة التى يجدها ساعة يجتمع بها ، وطلب إليها أن يراها مرة كل يومين أو على الأقل مرتين فى الأسبوع

كان الكسى فى حديثه هذا صادق السريرة شريف الهوى ، أوفى ما يكون محب لحبيبته ؛ وكانت ليزا مصغية إليه ، ثم رفعت رأسها وقالت : عدنى بأن لا تطلب منى موعداً غير الذى أضربه لك ؛ فهم الكسى بأن يقسم لها يميناً على ذلك ، ولكنها منعته وقالت له ، وهى تبتسم : « لست بحاجة إلى اليمين وإنما وعدك كافٍ يا عزيزى ... »

عندما أخذا يتحادثان وهما يسيران فى الغابة جنباً إلى جنب ، وبعد لحظة التفتت إليه ليزا وقالت له : « أريد الذهاب » فافترقا

ظل الكسى وحده فى الغابة فأخذ يسأل نفسه كيف أن هذه الفتاة القروية التى لم يجتمع بها أكثر من مرتين استطاعت أن تستحوذ على نفسه وتملك عليه إرادته

كانت علاقاته مع أكولينا لا تزال محتفظة بجدتها وبريقها ، فهو رغم تمنياتها الغريبة لم يخطر له يوماً من الأيام أن يخلف وعده معها . لقد كان ألكسى رجلاً ذا قلب تقى يقدر الفتاة البريئة حق قدرها رغم خاتمه الأسود ، ومراسلاته السرية ، ونظراته المبهمة ! !

* * *

لو أننى استمعت إلى ما يوحيه إلىّ ذوق لما تأخرت عن وصف اجتماعات هذين المخلوقين وصفاً شاملاً ، ووصف حبهما التواصل ، وثقة كل منهما بالآخر ، وأحاديثهما الشائقة ، ولكنى أخشى أن يوجد بين قرائى الأعزاء من لا يشاطرنى هذا الشعور ، ولكن الغالب فى هذه التفاصيل أنها نافهة ، فما علىّ إذن إلا أن أقول : إنه لم يمر على « ألكسى » و « ليزا » شهران حتى كانا متحابين حباً جمًّا ، وأن ليزا رغم ما تبديه من عدم اهتمامها بالموضوع كانت تحب « ألكسى » أكثر من حبه لها

لم يفكر أحد منهما فى المستقبل قط ، ولم يخطر لهما أن يحلا هذه المشكلة بالتفكير فى العاقبة ، فألكسى لا يستطيع أن يمحو من فكره أن هذه فتاة قروية ، وأنه سيد شريف ، رغم ما بينهما من حب ، و « ليزا » لم تنس شدة البغض بين والديهما ، وكذلك « ألكسى » ، فإنه ما فكر يوماً فى أن

يطلب يدها للزواج ، وهى ابنة الحداد ، وهو البارون النبيل ، إلا وشعر بألم يحز فى كبرياء نفسه ؛ ولكن حادثاً جليلا وقع فحسّن مابين هذين الجيلين من حال

فى صبيحة يوم من أيام الربيع الباردة خرج « إيفان برستوف » والد ألكسى إلى النزهة والصيد ممتطياً صهوة جواده ، وكذلك شاءت الأقدار فخرج جاره « مورمسكى » والد « ليزا » ، وأمر الخدم فأسرجت له بغلته الانكليزية وراح يطوف على قراه ومساكنه يتفقدها . ولما اقترب من الغابة ، وجد جاره على جواده منتظراً ظهور أرنب من الغابة ، ولو أن « مورمسكى » لمحه من مسافة أبعد من التى بينهما الآن ، لثنى زمام فرسه ، ولعاد أدراجه حتى لا يجتمع به ؛ ولكن أنى له ذلك وهو الآن على بعد خطوات منه ؟ فاضطر « مورمسكى » إلى التقدم نحو عدوه ، وإلى إلقاء التحية عليه ، ولكن رد « برستوف » على تحية جاره كان فيه من اللباقة والظرف أكثر مما فى تحية دب أبيض مطيع لأوامر صاحبه وهو يعرض على جماعة من المتفرجين . وفى هذه اللحظة خرج من الغابة أرنب بري ، وأخذ يعدو فى الحقل فصاح « برستوف » بخدمه وترك الكلاب تعدو وراءه ، ولكن بغلة مورمسكى التى لم تتعود الذهاب إلى الصيد رجعت إلى الوراء وشرعت تعدو ثم وقعت فى حفرة لم ترها فوقع مورمسكى عن ظهرها وسقط على الأرض الباردة بما عليها من جليد ، وظل مستلقياً هناك على ظهره يشم البغلة التى وقفت عن عدوها لما أحست أن صاحبها قد وقع عن ظهرها . عندها ركض « إيفان برستوف » إلى جاره وعدوه « مورمسكى » قبل أن يصيبه أذى ثم أمر خادمه الذي كان معه فأمسك بلجام بغلته وأعانه على الصعود فوق ظهرها ، ثم اصطحبه « برستوف » إلى قريته ، وهكذا دخل القرية مكللاً بالنصر يحمل معه أرنباً ويصطحب عدوه الجروح كما لو كان أسيراً من أسرى الحرب

كان حديثهما على المائدة فيه كثير من اللطف والمحبة ، وقال مورمسكى لجاره : إن آلامه لا تمكنه من العودة على بغلته فهو يفضل أن يعود إلى القرية فى عربة « برستوف » فاصطحبه « برستوف » إلى خارج منزله ، ولم يدعه مورمسكى يرجع حتى أخذ منه وعداً جازماً بأن يتناول طعام الغداء عنده وأن يصطحب معه ابنه ألكسى فى الغد . هكذا انهار صرح عداوة عميق الأساس بفضل نزوة من نزوات بغلة انكليزية خؤون !

فى المساء ، ركضت ليزا لاستقبال والدها وقالت بدهش : « ما ذا حدث لك يا أبى ؟ لم تتظلع فى مشيتك ؟ وأين حصانك ؟ هذه العربة لمن ؟ »

— « إن الذى حدث لى لا يمكنك أن تصدقيه يا عزيزتى » ؛ ثم أخذ يسرد على ابنته الحادثة بحذافيرها ولما انتهى قال : وسأنتظر أصدقائى آل « برستوف » فى ظهر الغد لتناول طعام الغداء معاً

فصاحت ليزا وقد امتقع لونها : « ما ذا تقول يا والدى ؟ إن آل « برستوف » سيجيئون فى الغد لتناول الطعام عندنا ؟ لا ... لا ... يا أبى افعل ما تحب ، أما أنا فانى سوف لا أظهر أمامهم مطلقاً

— لماذا ؟ هل أنت مجنونة ؟ ما إخالك إلا ورثت كثيراً من بغض لهم . دعى عنك هذه الوساوس الصبيانية يا عزيزتى

— لا يا والدى ، ليس إلى إتقاضي بالظهور أمامهم من سبيل

فرفع كتفيه ، وامتنع عن الحديث معها ، لأنه يعرف عناد ابنته حق المعرفة ، ثم قام إلى سريره ليستريح من عناء ما حدث له فى الصباح

دخلت لزا غرفتها ، ودعت خادمتها ناشيا ، وجلستا تتحدثان عن هذه الزيارة . كيف ترين لو أن ألكسى جاءني ورأى أن أكولينا ليست إلا لزا ابنة البارون؟ ما ذا سيكون موقفى منه ؟ إنه ليسرنى أن أرى وجه ألكسى مشدوهاً بهذه المفاجأة السارة. ثم قالت فجأة : « إننى أود أن أقوم بعمل غريب » وحدثتها به فسرت ناشيا كما سرت لزا واتفقتا على تنفيذه !

فى الصباح سأل « مورمسكى » ابنته لزا عما إذا كانت لا تزال مصممة على عدم الظهور أمام آل برستوف فأجابته قائلة : « بما أنك تريد ذلك يا والدى فانى سأظهر أمامهم ، على أن تقبلى فى أى شكل أظهر فيه ، وألا تعترض على ما سألبسه ساعة أجلس معكم فى الظهر » فأجابها ضاحكا من قولها : « وهل لديك غير هذا ؟ إفعلى ما تشائين . فانى راض عنك » ثم قبل ابنته فى جبينها وانطلقت إلى غرفتها تهيأ للمفاجأة

فى الساعة الثانية تماماً دخلت عربة قروية يقودها ستة من الخيول إلى داخل حديقة القصر ونزل منها برستوف العجوز فجاء إليه خادمان من خدام « مورمسكى » وراقاه فى صعود درجات السلم العريض . ثم جاء بعده بقليل ابنه « ألكسى » ممتطياً صهوة جواده ، فدخل الاثنان غرفة الطعام ثم دخل عليهم مورمسكى وتلقاهم بالترحيب وأخذ يطوف بهم فى حديقته الانكليزية الجميلة ، ويريهم مطبخه الفخم ، ويسير معهم على رقيق من الرمل الناعم جميل الهندسة . فقال برستوف وقد خفض من سوته احتراماً لشعور مضيفه : « ما أكثر الأوقات التى تضيعها فى هذه الأمور التافهة يا جارى العزيز » ، وكان ألكسى فى شغل عما هما فيه من الحديث ، كان يفكر فى ابنة مضيفه وما هي عليه من الجمال البارع الذى طالما سمع الناس يتحدثون عنه ، ورغم أنه محب كاف للزا ، فقد كان للجمال حظ أكبر من انتباهه

دخل الثلاثة غرفة الاستقبال ، وأخذ برستوف ومورمسكي يتحدثان عن ماضيهما وعن أيام الجندية وأخذ الكسى يفكر فى موقفه من ابنة مضيفه لزا ، فقر رأيه على أن يظهر أمامها فى صورة تنم عن عدم الاكتراث ، ثم هيأ نفسه لذلك ، وفجأة سمع الباب ينفتح فدار رأسه يبطء وتكبر حتى لو أن أكثر نساء الدنيا تطرفاً وأنوثة رأته فى هذه اللحظة لارتجف فؤادها . ولكن بدلا من أن تكون الداخلة لزا ، كانت مريتها « مس جوكسون » وقد تمطرت وطلت شفتيها وخديها بالأحمر وغضت من طرفها ، ولم تكد تجلس فى مكانها حتى انفتح الباب ثانية ، وكانت الداخلة هذه المرة هي « لزا » فوقف الجميع لاستقبالها وشرع والدها يقدمها إلى ضيوفه ، ولكنه وقف فجأة وعض على شفتيه ... لزا ، لزا الجميلة السمراء قد طلت وجهها حتى أذنيها بالأبيض ، وعيونها الجميلة أقبح من عيون مربيتها ، وهى مرتدية ثوباً كما كان يلبس الناس فى أيام

2017-11-11

« لويس الرابع عشر » فكانت فى جلتها كأنها حرف (×)، وقد وضعت فى جيدها وأصابعها وفى أذنيها حلى والدتها القديمة

أنى لصاحبنا الكسى أن يجد فى هذه الفتاة الضحكة عن بزته الجبلية أكولينا ؟ ثم قبل يدها العجوز برستوف وفعل مثله ابنه الكسى، ولكنه عند ما وضع أصابعه الرقيقة على شفتيه أحس أنها ترتجف، ولاحظ أن حذاءها ليس على تمام الانسجام مع بقية ما تلبسه

لم يستطع والد ليزا لما رأى ابنته على هذه الحال أن يمتلك نفسه، ولكنه ذكر وعده لها فكظم غيظه، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكا. وأما مربيتها الانكليزية المتصنعة فى ملبسها وفى كل شىء، فقد لاذت الصمت والوقار ولم تضحك، وكانت متأكدة من أن ليزا قد استهلكت فى فعلتها هذه كل ما فى خزانتها من طلاء فاشطرت واغتاظت، ولم يستر غيظها بياض الطلاء وكثافته فبدت وجنتاها حمراوين، وأخذت تلقى على ليزا — الساهية فى هذه اللحظة — نظرات ملؤها الحنق، ولكن ليزا لم تجبها، إنها كانت تريد أن تؤجل الكلام فى هذا الموضوع إلى ما بعد خروج الضيوف

ولما جلسوا إلى المائدة ظل الكسى على ما هو عليه من عدم الاهتمام والذهول، وأخذت ليزا تتمتع اللطف والتملق وتتكلم الفرنسية بأطراف شفتيها الرقيقتين، وعلى مهل. كان والدها لا يرفع نظره عن وجهها، وكان فى حيرة وذهول لا يدرى ما الذى دعا ابنته إلى تمثيل هذه المهزلة التى كانت رغم كل ذلك مسلية للغاية، ولم يكن أحد من الحاضرين مسروراً كسرور « إيفان برستوف » الذى شرع يأكل أكل أربعة من الرجال الأصحاء، ويشرب كثيراً، وهو فى كل ذلك مسرور! وأخيراً قام الجميع من حول المائدة، وذهب الضيوف إلى منزلهم وخلا الجو لوالد ليزا، فضحك ما شاء أن يضحك، وسأل ابنته ماذا تريد من هذه السخرية التى قامت بها ثم قال: « إن اللون الأبيض لا يوافق جمالك وينسجم مع تركيب قوامك الجميل يا ابنتى، وإن كان ليس لى حق التدخل فى زينة النساء، ولكننى إذا كنت مكانك لما ظهرت إلا فى الأبيض من الثياب أو الطلاء والزينة » ولكن ليزا لم تجب والدها على أسئلته بل أخذت تصغى لنجاحها، وتقبل والدها، وهى تعده بأن تفكر فى نصيحته ثم راحت تخفف من ثورة مربيتها «مس جوكسون» التى امتنعت طويلاً عن أن تدخل ليزا إلى غرفتها — أو أن تقبل معذرتها. قالت ليزا:

— إننى خجلت من أن يرى نيوفتانونى الأسمر، ولم أجد متسعاً من الوقت، فأطلب إليك السماح لى بتناول قليل من الطلاء، ولكننى كنت متأكدة من أنك يا عزيزتى « مس جوكسون » ستصفحين عن زلتى هذه. فسكتت «مس جوكسون» وأخذت تقبل ليزا، ثم أهدت إليها حقاً صغيراً من الطلاء الانكليزى الأبيض تقبلته مع إبداء الشكر الجزيل

أنا على يقين من أن القارئ سيوافقنى إذا قلت له إن ليزا خرجت فى الصباح التالى للافتاة « الكسى » ولما رأته قالت له: « هل كنت البارحة عند البارون يا عزيزى؟ كيف وجدت ابنته؟ »

فأجابها الكسى بأنه لم ينظر إليها طويلاً، وإنما لمحها لمحاً سريعاً؛ فقالت ليزا: « إن فى ذلك أذية وضرراً ». فسألها الكسى:

— لماذا يا ترى ؟

— لأنني أحب أن أسألك هل صحيح مايقولون؟

— وماذا يقولون ؟

— إنني أحبه فتاة البارون

— معاذ الله ، إنها مسخ بالنسبة إلى جمالك الزاهي يا عزيزتي

— آه ؛ إن في قولك هذا خطأ لا يغتفر ، إن فتاة السيد بيضاء ظريفة ، أما أنا ...

فأقسم الكسي بأنها أجمل من كل بيضاء في العالم ، ثم أخذ يصف فتاة البارون بلهجة الساخر ليرّ كد لها قبحها ، فلم تمالك ليزا من الضحك طويلا ثم تنفست الصعداء وقالت له : « كيفما كانت ياسيدي فانني أمامها فلاحة جاهلة لا أعرف الكتابة والقراءة »

— وإن كان ذلك فليس في جهلك القراءة والكتابة ما يحزن يا عزيزتي ، وأنا مستعد لأن أعلمك كل هذه الأشياء في وقت قريب

قالت ليزا : هل نستطيع أن نجرب ذلك الآن؟

— « نعم ، هيا بنا » . ثم جلسا على الأرض وأخذ الكسي قلماً ودفتراً بيده ، وابتدأ يلقن أكولينا مبادئ القراءة فوجد أنها تتقنها بسرعة مدهشة ، فسر من ذكائها ؛ وفي النية أحب أن يعلمها الكتابة فوضع القلم في يدها ، ولكنه وقع من بين أصابعها اليسرى ، وبعد مضي لحظات استطاعت أن ترسم الحرف رسماً لا بأس به ، فقال لها : « إنها لأعجوبة والله ، إنك تتعلمين بسرعة مدهشة يا أكولينا » ؛ وبينما كانت ليزا تقف عن القراءة لحظات تفكر في الكلمة التي تريد أن تقرأها كان الكسي يحس أنه في غمرة هدوء عميقة وسعادة لا تدرك . وبعد ذلك أخذا يتراسلان، وكان صندوق البريد الذي اتفقا على أن يضعا رسائلهما فيه هو عبارة عن حفرة صغيرة في سندباة عجوز ؛ وكانت ناشيا خادمة ليزا تقوم بوظيفة ساعي البريد

كان الكسي يودع في هذه الحفرة رسائل مكتوبة بأحرف كبيرة ، ويأخذ منها رسائل على ورق أزرق مكتوبة بخط مبهم ، ولكن كان يلاحظ أن كتابة أكولينا آخذة في التقدم ، وإن ذكاءها ينمو يوماً بعد يوم نمواً محسوساً . وكانت علاقات إيفان برستوف مع جاره مورمسكي تزداد وثوقاً حتى انقلبت إلى صداقة متينة

كثيراً ماكان مورمسكي يأسف لابن جاره سيرث أموال أبيه الطائلة ، وأنه سيصبح أغنى رجل في الاقليم ، وأنه لا عذر له إذا لم يتزوج ابنته ليزا ، كما أن برستوف العجوز كان يفكر مثل تفكير جاره. وكان من أقارب مورمسكي «الكونت برفسكي» وهو رجل نبيل ذو يد طولى عند الحكومة، وفي استطاعته أن يساعد الكسي . وكان إيفان برستوف على تمام اليقين من أن جاره مورمسكي سيستبشر عند ما يفاتحه بخبر زواج ابنه الكسي من ابنته ليزا !

فكرا في هذا الموضوع طويلاً حتى قبض لهما أن يتكلما فيه ، فوجد كل منهما أن صاحبه يريد مثل ما يريد هو ، فاتفقا على ذلك وتصافحا وهما يرجوان من الله أن يحقق أملهما السعيد . وأخذ كل منهما يمهد السبيل من الناحية التي تتعلق به ، فكان من الصعب على مورمسكي إقناع ابنته ليزا بضرورة التعارف مع الكسي الذي لم تره بعد ذلك الفتاء الجميل في قصرهم ، والذي يظهر لنا هو أن هذين الشابين لا يروق لهما أن يجتمعا سوية ، فان الكسي لم يعد إلى قرية ليزا مرة ثانية فيزورها في

2017-11-1

القصر ، كما أن ليزا كانت تختبئ فى غرفتها عند ما يزورهم « إيفان برستون » وكان مورمسكى يرى مجرد زيارات متواصلة يقوم بها ابن جاره الكسى كافية لأن تجعله محبباً من ابنته ليزا

أما إيفان برستوف فقد كان لا يشك فى نجاحه مع ابنه ، وفى مساء يوم دعاه إلى غرفته ، وبعد أن أشعل غليونه ، وصمت قليلا قال له :

— منذ زمن طويل وأنت لا تكلمنى فى موضوع دخولك فى الجيش . يخيل إلىّ أنك لم تعد تحب ذلك ؟! فأجابه الكسى باحترام : « لا يا والدى إننى لم أتنازل عن الدخول فى الجيش إلا لعلمى بأن ذلك مالا تحبه لى وإن من واجبى أن أطيعك » فأجابه والده إيفان : « حسن يا بنى إننى جد مسرور من إطاعتك لى ، ولكنى قبل ذلك أحب أن أزوجك » فسأله الكسى بدهش : « ممن تحب أن تزوجنى ؟ »

— « من ليزا مورمسكى . إنها خطيبة ليس لها مثل . أليس كذلك يا بنى ؟ »

— ولكننى يا والدى لا أفكر الآن فى الزواج

— فليكن ذلك ، لقد فكرت أنا فيه طويلاً فوجدت أن من الصالح لك أن تتزوج

— لك ما تريد يا والدى ، ولكن ليزا لا تعجبنى

— ستعجبك فى يوم من الأيام . إن الحب يا بنى ينمو مع الزمن

— أشعر بأننى لا أستطيع أن أسعدها يا والدى

— ومن الذى يكلمك فى سعادتها ؟ إنك بهذا الحديث ترفض إطاعة والدك

— سوف لا أتزوج منها ، ولن أتزوج مطلقاً

— بل ستتزوج منها رغم أنفك ، وإلا حل عليك غضبى ، وبعت كل ما أملكه من الأرض وأكلت الثمن ولم أترك لك درهماً واحداً . وإنى أدعك تفكر فى هذا الموضوع ثلاثة أيام على أن لا أواجهك أثناء ذلك مطلقاً

لم يكن الكسى يحسب أن والده سلب فى رأيه إلى هذا الحد ، ولكن هو أيضاً قد ورث عنه هذا العناد ، فكان من الصعب أن يتغير أحد رأيه الذى يراه . ثم دخل إلى غرفته ، وجلس يفكر فى سلطة الآباء على أبنائهم وكيف أنه يريد أن يدعه فقيراً يتسول ، ثم فكر فى ليزا ، وأخيراً فى أكوليا ، وشعر للمرة الأولى أنه مأخوذ بحبها ، ثم خطر له أن هذه فتاة قروية ، وإنه إن رفض ما يدعوه إليه والده ، سيضطر إلى العمل حتى يكسب قوته

أقبل الشقاء ، فاخطر ألكسى وأكوليا على الافتراق زمناً وكتب ألكسى إليها رسالة فياضة بالشعر والحب ، وحدثها فيه عما يشعر به من الوحشة والأسى وختم الرسالة بقوله : « سنعيش سوية يا عزيزتى »

ثم ركض إلى حفرة السنديانة وأودع فيها رسالته ثم عاد إلى غرفته ونام وهو مسرور بما قام به

فى صباح اليوم التالى ذهب ألكسى إلى قصر جيرانه آل مورمسكى ، وكان يود من زيارته أن يحدث البارون حديث قلبه ، ويفضى إليه بمكنون سره ، ويخبره بأنه لا يود الزواج من ابنته ليزا ؛ وكان يأمل أن يقنعه بما يريد ، فأخذ يستجمع فى نفسه عظمته وكبرياءه ، ليجعل منها تُكأة يستعين بها على النجاح ، ثم أوقف جواده أمام سلم القصر وسأل عن السيد هل هو فى غرفته ؟ فأجابه الخادم بأنه خرج باكراً وأنه لما يعد بعد . فقال فى نفسه :

2017-11-11

يا خسارتى ... إذن ليزا هل هى هنا ؟

— « نعم يا سيدى » فنزل ألكسى عن صهوة جواده . وترك زمامه فى يد الخادم ودخل دون استئذان، وخطر له وهو يتقدم من غرفة الاستقبال أنه فى هذه الغرفة سيحدد مستقبل حياته ، وعزم على مصارحة ليزا ، فلعل ذلك يكون أوقع فى نفسها وأيسر حلاً

ثم دخل ... ولكنه وقف حائراً ... ليزا ... لا ! أكولينا ياعزيزتى أكولينا ، يا سمراء اللون .أين الملاءة الزرقاء ؟ أين الطلاء الأبيض ؟ إنها جالسة أمام النافذة تقرأ رسالتى

كانت ليزا فى ذهول عميق حتى أنها لم تسمع وقع أقدام ألكسى وهو داخل عليها ، فلم يستطع ألكسى أن يخنق فى حنجرته صيحة ذعر وفرح، فوثبت ليزا فى مكانها ، وصاحت مذعورة ، ثم انطلقت تود الهرب، ولكن ألكسى ركض وراءها وقبض عليها وهو يقول :

— « أكولينا ... أكولينا » فأجابته هذه بالفرنسية : « دعنى ، مالك ، دعنى ، هل أنت مخبول ؟ » قالت ذلك وهى معرضة عنه بوجهها ؛ فأجابها وهو يقبل يديها : « أكولينا ، يا عزيزتى أكولينا ! »

كانت « مسز جوكسون » واقفة تشهد هذا الحادث الغريب، ولكنها لم تر ماذا تعمله . وفى هذه اللحظة انفتح باب الغرفة ، ودخل والد ليزا ، مورمسكى وهو يقول :

— آه ... آه ... يخيل إلىّ أن المشكلة قد انحلت !

واسمح لى يا قارئى المحبوب أن أتركك هنا ، وأن أدعك تفكر فى النهاية دون إرشادى

« يتبع »

عن العربية العزيزى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

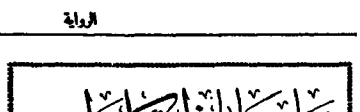
١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد



الفصل السابع والثلاثون

الشعر راقب

شغلت نفسي سائر اليوم بكتابة الخطابات التي كلفني بها السفير لكي أفرغ منها سريعاً فأتمكن من حضور العشاء في بيت المستر هوج

وأخيراً جاءت الساعة الميمونة التي تمكنت فيها من الذهاب ، فتزينت ولبست أجمل ثيابي وذهبت . وكان السفير قد أعطاني شيئاً من المال فلبست جورباً حريرياً لأول مرة في حياتي وقلت في نفسي : لو أسعدني الحظ بالزواج من حبيبتي يسن لاطمأنت على مستقبلي وصرت في غنى عن خدمة الملوك والحكومات

ولما وقفت بباب المستر هوج زلت قدمي فتشاءمت وطرقت الباب فلم يجبني أحد ، فتشاءمت مرة أخرى وسألت نفسي هل أخطأت الطريق وهل هذا منزل آخر أم ساعتي مختلة فكان مجيئي في غير الموعد المضروب ؟ وأخيراً فتح لي الباب رجل هرم فدخلت ولكنني لم أجد أحداً من أهل المنزل في انتظاري

جلست في غرفة الانتظار ورأيت بها سجادة كالتي نصلي عليها معلقة على الحائط فنزعتها وصليت عليها وقلت لعلي جئت مبكراً فعندما أنتهي من الصلاة يكون الموعد قد حان

وعندما فرغت من الصلاة سمعت طرقاً على الباب ففتحته ووجدت سيدة في ثياب فاخرة ومعها فتاة يافعة ورجل هرم وشاب آخر . وقد اختلفت نظراتهم إليّ : أما الفتاة فإنها أخذت تنظر إليّ من وراء منظارها الذهبي نظرة ازدهاش ، وأما السيدة فكانت نظراتها لا تدل على شيء من الاهتمام ، وأما الرجل الكبير فيظهر أنه رآني من قبل فلم يستغرب ، وأما الشاب فأخذ يطيل من نظراته . وبدل أن يتقدموا نحوي فيصافحوني اقترب بعضهم من بعض وأخذوا يتهامسون

وبعد قليل خرجت زوجة المستر هوج ومعها بنتاها فرحّبن بالزائرين . ووقع نظرهن عليّ فصحن : « الأمير هنا أيضاً ! ثم سألتني هل جئت من زمن ؟ ورحبن بي . وقد وجدت الزائرين ينظرون إليّ نظرة أخرى عند ما سموا أنني أمير ، فعرفت أن الرجل المتقدم في السن عضو من أعضاء الشركة ، وتذكرت أني رأيته بين الأربع والعشرين . وأما الشاب فمن أكبر العلماء بالأمور الشرقية . وهو يعرف لغات متعددة منها الفارسية وقد جاء به عضو الشركة ليترجم أقوالي . وهو نابغة في اللغة الصينية

وأما السيدة الكبرى فهي زوج عضو الشركة والفتاة بنتهما

وأخبرتني زوجة المستر هوج بأن عضو الشركة يلقب (بالنابوب) وهو لقب هندي أطلقوه عليه لأنه أقام في الهند مدة طويلة

وأخذ المترجم الذى معه يخاطبنى باللغة الفارسية فلم أفهم كثيراً ، إذ يظهر أن اللغة الفارسية التى يعرفها هى لغة الكتب الراقية

ولما استقر بنا الجلوس جاء ضيوف آخرون من بينهم حكيم وطبيب وضابط بالجيش برتبة كولونيل وجاء وقت العشاء ولكن أصحاب المنزل قالوا إنهم ينتظرون لورداً دعى إلى الوليمة . وبينما نحن فى انتظار اللورد إذ فتح الباب ودخل منه بدلا من اللورد ذلك الشاب البنيض الذى ينافسنى فى الحب والذى عرفه القراء بأنه حليق الشاربين ذو مهماز فى حذائه ، وكانت رؤية هذا الشاب تبعث فى نفسى من النيرة ما لم أعتده وما لم أكن أحب أن أوصف به ، وجلس إلى « بيسى » وأخذ يلاطفها بمثل ما كنت أتمناه لنفسى، ولكنى لا أجرؤ عليه، وكان مرتسماً على وجهه أنه يحب نفسه وأنه فرح بها وفى لسانه لثغة ، ولكنه مع ذلك يأبى أن يكون قليل الكلام .

وبعد نصف ساعة أخرى جاء اللورد الذى كنا فى انتظاره، وكان فرح الأسرة به زائداً عن الحد، وقدم له الأب بناته بعد أن قدمتهن الأم زيادة فى الحفاوة به . وزاد هذا اللورد من احترامه إياى عندما أخبروه بأنى أمير

وعلمت أن هذا اللورد من أكبر سادات الانكليز ، ولكنه كسائر من رأيتهم من اللوردات أشبه بالدراويش منه بأصحاب المكانة السامية ، وكان إذا تحدث سكت الجميع وأحسنوا الانصات

وأخيراً بدأت الوليمة فأجلسونى فى صدرها مع اللورد ويجانبى زوجة المستر هوج، ويجانب اللورد زوجة النايوب؛ وكانت الأطعمة والأشربة فى الوليمة أشبه بما فى قصور الملوك منها بأمثال هذه الدار ، وكانت الأضواء الوقدة مما يبهر الأنظار

وكنت منتبطاً بمكانى فى الوليمة إذ من الذى يصدق أننى أجلس بجانب صاحبة الدار على رأس المائدة ويجوارى أحد اللوردات

وكان العالم المترجم جالساً أمامى ليترجم ما أقوله ويجواره مارى ثم الحامى ، ويجواره بنت النايوب ثم قصير الشاربين ذو المهماز بين كرسى المستر هوج، وكنت شديد النبيط من جلوس بيسى بجانبه لأنى كلما أردت أن أمتع نظرى برؤيتها لم أستطع تجنب النظر إلى وجهه البنيض

وكان اللورد قليل الكلام ولكنه إن تكلم فبأدب نادر ، وقد اتجه إليه صاحب الدار بكلياته تاركا إياى للعالم المترجم . أما عضو الشركة فكان يكثر من الكلام ، ولكن كلامه كان قاصراً على الهند وعوائدها وأخلاقها وماليتها وصناعتها . وأما زوجته فكانت تردان من الحلى بأكثر مما يحمله الدرويش الفارسى من الأحجبة ، وكانت تكثر من شرب النبيذ . وعلى ذكر النبيذ أقول إن شربه هنا علامة على الود مثل أكل الخبز والملح عندنا

وقد شربت فى هذه الليلة مع كل الضيوف ، وكانت هذه أول مرة شربت فيها منذ خرجت من إيران

وكان الطبيب رجلاً واسع المعرفة فلم يدع من أصناف الطعام صنفاً إلا تكلم عنه من الوجهة الطبية

فقال عن بعض المآكل إنه شديد النفع وعن البعض الآخر إنه شديد الضرر ، ولكنه كان يأكل منها جميعاً سواء منها الممدوح والمذموم . ولاحظت أن سائر الموجودين كانوا يأكلون بلا رعاية لما يسمعونه من الطبيب رغم تسليمهم بصدقه

وقد سألني الطبيب أسئلة متعددة عن الطب في بلادي فلم أحر جواباً ، ولذلك اضطررت إلى استعمال الغموض والإبهام فلم يستطع المترجم الفارسي إفهامه ما أريد ، ولولا تدخل النابوب لخجلت وخجل المترجم

وقدمت لي صاحبة المنزل طبقاً به عيدان خضراء مستطيلة فلم أقبل تناول شيء منه . وألحت فزدت في رفضه ، فقالت لي لتحملني على القبول : إن هذا الطعام غالي الثمن . فقلت : « إذا كان غلاء الثمن يجعل الطعام شهيًّا فخير لك أن تأكلي الجنيهات والشيلان الكشمير »

فضحك الوارد من هذا القول ضحكاً عالياً ودعاني إلى شرب النبيذ معه . وسألني المحامي عدة أسئلة تتعلق بالقضاء عندنا . وقد دهش عند ما علم أن ليس عندنا من القوانين غير القرآن ، وقال على كل حال لا بد أن يكون لديكم محامون غير علماء الدين ، أم كيف تعيش دولة بغير محامين ؟ فقلت : « ليس لدينا سوى القضاة والعلماء » ، ثم سألته : « أليس القضاة في انكلترا يركبون حميراً بيضاء ؟ »

لم يعجبني المحامي على هذا السؤال وضحك البارون ضحكاً شديداً ، وأسلمت غلطتي فقلت : « إن الحمير البيضاء عزيزة لندرتها ولا يركبها عندنا إلا وجهاء الناس »

ولما انتهى الطعام قام السيدات كالعادة وظل الرجال يشربون الخمر ، ثم عدنا بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال . وكنت قد أعددت قصيدة من نظمي ضمنتها كل عواطف الحب فوضعت تلك القصيدة في يد حبيبتي (بيسي) وقلت لها : إن هذا درس في أدب اللغة الفارسية . وقلت : إنه إذا استعصى عليها فهم شيء منه فلترجع إلي

ففهمت موضوع ما سلمت إليها وقالت : إنها ستضعه في « ألبوم » ولما كنت لا أفهم معنى هذه الكلمة فقد قدرت أنها تعني بها القلب أو الصدر ؛ وذلك اغتبطت اغتباطاً لا مزيد عليه ، وظهر لي على عينيها علائم الحب الأكيد فلم أعد أبالي بصاحب الشارب القصير والمهماز

وتركتها وإياه واستأذنت في الانصراف فألحت على الأم في الانتظار ولكني اعتذرت وانصرفت

الفصل الثامن والثلاثون

لقب أمير

قضيت سحابة اليوم التالي مفكراً في الحب ناظماً لأشعار جديدة في موضوعه . وفي اليوم الثالث دعاني السفير فذهبت إلى غرفته ووجدته كالانكليز يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة وفي يده صحيفة ، فلما رآني صاح : « هل يوجد إيرانيون غيرنا في هذه المدينة ؟ »

فقلت : « من يدري ؟ ربما ! »

2017-11-16

فأعطاني الصحيفة التي في يده وقال : « من هو هذا المجنون الذي يدعو نفسه البرنس حاجي بابا ؟ إقرأ هذه الصحيفة »

فأخذت أقرؤها وأعجب من عوائد الانكليز كيف يفضحون من يأكل عندهم لقمة فيكتبون في الصحف ما أكل وما شرب . وحدث كرم العرب، فان أحدهم يذبح لضيفه أسمن الماشية ويكتفي لنفسه بحفنة من الشعير ثم لا يكتب ذلك في صحيفة سيارة ولا يتحدث به أمام الناس . وهذا هو المنشور في تلك الصحيفة :

« أمام المستر هوج وعقيلته وليمة شائقة لحضرة صاحب السمو البرنس حاجي بابا وكانت المأدبة جامعة لعظماء كثيرين من الانجليز منهم اللورد سوفنل والسير هنري كوري وعقيلته والفيلسوف هوهو وغيرهم ، وكان يخفق على قصر المستر هوج العلمان الفارسي والانكليزي. والغرض من هذه الوليمة توثيق علاقات الود بين انكلترا وفارس . وقد قدم الطعام المستر « بيتر بينز » الطباخ الشهير بشارع بوند

قال السفير : « هل قرأت ؟ » فقلت : نعم وإن عوائد الانكليز غريبة عجيبة فان الانسان لا يأكل عندهم لقمة إلا ليفضحوه من أعلى المآذن

قال السفير : « ألا تريد أن تعترف بأنك أنت صاحب السمو حاجي بابا الذي تناول العشاء في بيت المستر هوج ؟ »

فقلت : « إذا هم لقبوني أميراً وإذا اختار هؤلاء المجانين أن يلقبوني بالملاك جبريل فما هو الذي أستطيعه لنعمهم ؟ »

فوقف السفير مغضباً وقال : « إذهب من هنا ولا تزد في كلامك ! إن الذي يدعي لنفسه لقباً ليس له ، وينتفع بهذا اللقب كأن يجعله وسيلة للأكل عند الناس فانه يستحق أن يشنق . وإني والشاه نراقب أعمالك ولن نتركك تضحك على ذقون الناس وتدعي أنك أمير مع أنك ابن حلاق »

فصحت : « والله بالله يا ميرزا فيروز خان إني لم أفعل ما أستحق عليه هذا التأنيب . لقد أكلت عندهم ، ولكن هذه ليست غلطة ، وهم لقبوني أميراً ولكني لم أقل لهم إني أمير فلماذا تشنقني ؟ أليس عندكم شفقة ؟

ثم علت الأصوات بيننا فدخل سائر أعضاء السفارة ووقفوا بجانب الحائط ينظرون إلينا . أما الملم الانكليزي فانه لما رأى الحالة وصلت إلى هذا الحد أخذ قبعته وانصرف

ونظر السفير إلى أعضاء السفارة وقال : «ماشاء الله ! أنظروا إلى هذا الشاه زاده ! لقد كنا نعرفه ابن حلاق ؛ أما الآن فإنه أصبح أميراً على حين فجأة وبغير إنذار سابق »

قلت : «ما هذه الكلمات يا سعادة السفير ؟ إنني ابن حلاق، ولكن هذا ليس ذنبي، وأنا تنديت عندهم لأنك تهملنا وليس لي ملجأ في المدينة فلجأت إليهم

فصاح السفير : « أتجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة ؟ »

واحتدم غيظه وقال : «هل نسيت من أنا يا أقل من أي إنسان ؟ هل تظن أن ميرزا شافي الذي كنت تحتمي به لا يزال على قيد الحياة ؟ إن ابن

الحلاق فى انكلترا قد يصير أميراً ، ولكن ابن الحلاق الفارسى يظل طول عمره ابن حلاق . إذهب ولا ترنى وجهك بعد الآن »

قلت : « هذا هو كل ما أتمناه » ثم خرجت من عنده منغضباً فصاح بأعضاء السفارة أن يقبضوا علىّ فجروا ورائى وأمسكوا بى ، وأقبل علىّ السفير فضربنى على فمى وقال : « إذا تكلمت مرة أخرى فسأحرق قبر أبيك »

فتخلصت بقوة واندفعت خارج الدار فظلت أجرى فى الطريق وأنا لا أعرف إلى أين أذهب وليس فى لوندرا ملجأ آوى إليه كما هى الحال فى طهران . وفكرت فى الذهاب إلى منزل المستر هوج . ولكنى خشيت ألاّ يقبلونى لأنهم إنما اصطحبونى لاعتقادهم أنى أمير ، فان وجدونى شريداً طريداً فلا شك فى طردهم إياى وأحرم إلى الأبد حبيبتى ييسى

وبينما كنت أمشى فى الطريق رأيت فرقة من الجيش أمامها موسيقاها وحولها طائفة من أفذر الانكليز . وكان بعض الجمهور يرمى الجنود بالأحجار فدهشت لهذا المنظر وتوقعت أن يكون من بوادر الثورة . ثم سألت أحد الواقفين لمشاهدة المنظر فأخبرنى بأن هذا الجيش ذاهب ليلقى القبض على رجل سائر اسمه السيد فرنسيس برودت ، عضو البرلمان الانكليزى

فقلت مندهشاً : « أمن أجل القبض على رجل واحد تذهب كل هذه القوة ؟ كيف إذن لو أردتم الاستيلاء على مدينة ؟

ثم شعرت بأن هذه الحكومة ضعيفة جداً وبأنه قد لا تمضى إلا أيام قلائل ثم يقلب فيها نظام الحكم

ولما كان الخطاب الذى ورد أخيراً من الشاه يحث على إطلاعه على كل شىء مما نراه فقد وجدت من واجبى أن أعود إلى السفير وأخبره بما رأيت لأنه لا شىء أهم من وجود ثورة فى البلاد ، وإذا نحن لم نطلعه على ذلك فعلام نطلعه ؟

وخاطرت بأن يضربنى السفير مرة أخرى وعدت إلى دار السفارة راجياً أن يشغله هذا الخبر الجديد عن التفكير فيما جرى بينه وبينى

ولما وصلت إليها كان السفير غائباً ولم أر اهتماماً من زملائى بحادثة الضرب ، لأن ضرب الموظفين أمر عادى مألوف عندنا نحن الفارسيين ؛ وتكلمت معهم فى شأن ما رأيت فنهدوا ودعوا الله أن يجعل هذه الثورة سبباً فى عودتنا إلى إيران

وقال محمد بك : إن الحالة التى رأيتها دالة بغير شك على قرب حدوث حرب أهلية

وقال لى إن السفير ذهب ، وكان محمد بك يترقب مثل عودته بصبر نافد لنعد العدات للعودة إلى بلادنا وقال : « لابد أن تكون الساعة التى سافرنا فيها من أزمير ساعة شؤم . ولو أننا كنا انتظرنا أسبوعاً آخر لما حدثت هذه الثورة . لكن المترجم الملعون خدعنا وأعجلنا ليكون سفرنا مشئوماً وجازف بكل قانون سماوى وأرضى لحملنا على السفر فى غير الساعة الميمونة ! إنها ثورة من الكفار ضد الكفار ولكنها قد تودى بحياتنا فما الذى نفعله يا حاجى بابا ؟

حاولت أن أعزّيه باقناعه أن الخطر قد يكون

أقل مما يتوهم لأن ملك الانكليز قوى وعنده أساطيل ومدافع ولابد أن يتغلب على الثورة ويقتل هذا الثائر وأهله وأصحابه وأبناءه.

فهتف جميع أعضاء السفارة: «إن شاء الله!»

الفصل التاسع والثلاثون

الصلح مع السفير

ولما عاد السفير توسط محمد بك بينى وبينه فقال كلمات لينة ليسترضيه وقال إنى عدت بأخبار هامة

وعندما دخلت رأيت علامات الغضب التى كانت بادية عليه فى الصباح قد زالت ونظر إلىّ نظرة هادئة وقال: «ما الذى تريد يا حاجى بابا؟»

قلت: «لدى أخبار هامة بإسعادة السفير فإن الثورة قريبة. وقد رأيت بنفسى الجيوش تتأهب للسير ولا يعلم غير الله ماذا سيكون من نتائج هذه الثورة؟»

فقال: «أهذا هو كل ما عندك؟ بارك الله فيك يا سمو الأمير! هل تظن أن هذه دولة مثل دولتنا؟ هل تقيس الانكليز بأنفسنا؟ ألا تعلم أن حكومتهم ستطفئ الثورة كما يطفئ أحدنا الشمعة؟»

فتدخل محمد بك لمصلحتى وقال إن الثورة ثورة على كل حال، وإن رأس الانسان قد تطير بضربة سيف من كافر ثائر كما قد تطير بضربة سيف من ثائر مسلم

قال السفير: «اذهبوا إذن واطمئنوا فلن يصيبنا شىء مهما يكن حظ الانكليز من هذه الثورة.

وقد تحادثت طويلا مع وزير خارجيتهم فقال لى إن

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى: الحاج شلبى. الاطلال أبو على عامل أرتست. الشيخ عفا الله الوثبة الأولى. قلب غانية. نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب «فرعون الصغير وقصص أخرى»

يظهر فى نهاية العام

مؤلفات

الاستاذ محمد كامل عجاج

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (على باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بجيزان ابراهيم باشا

الحركة التي ظهرت اليوم لا تستدعي اهتماماً

قال محمد بك : « ولكننا يا سعادة السفير جئنا إلى هذه البلاد لنعقد معاهدات واتفاقيات ؛ فإذا كان مركز الملك مزعزعاً فإن الملك الذي يخلفه قد لا يصادق عليها ، ولذلك أرى أن نستوثق من حالة الحكومة ولا نتفق على أي شيء معها إلا إذا ثبت استقرارها »

فقال السفير : « أصبت يا محمد بك فأين الترجمان ؟ متى جاء فاسألوه عن كل شيء ترون السؤال عنه . واكتبوا كل كلمة يقولها ثم نبعث للشاه بتقرير عن حالة البلاد . وقلت : إنه من الضروري أن نتحرى كل التحري لأنه فضلا عن الثورة فقد علمت أن حكومة انكلترا مدينة بدين كبير وهذا يدل على أن حالتها من عزعزة وعمرها قصير

هنا التفت السفير وبدا عليه الاهتمام الشديد وصاح : « أصحيح أنها مدينة ؟ هل أنت واثق مما تقول ؟ إنني لا أتصور لماذا تستدين ؟ أليس في استطاعة الملك أن يأخذ من رعاياه كل ما يشاء ؟ تحروا عن هذه النقطة فهي أهم عندي من الثورة بكثير . وقد اشتدت دهشة السفير حتى نسي كل شيء غير هذا الموضوع

وعند ما جاء الترجمان انصب على رأسه وابل من الأسئلة ، وكان مما قاله السفير : « بالله أخبرني كيف تجري الأمور في بلادكم ؟ فإن كل يوم يمر يزيدني حيرة في فهمكم ، هل ثار عظماؤكم ؟ وهل جنت الحكومة حتى تعجز عن الوسيلة المؤدية لاطفاء الثورة ؟ هل صحيح أن الجيش تحرك بعدائه ومساندته لاعتقال رجل واحد ؟ وهل صحيح أن دولتكم مدينة ؟ بالله أخبرني فإن الشاه يقطع رأسي إذا لم أخبره بكل التفاصيل عن هذه الحالة .

فبدا أن يبدو الانزعاج على وجه الترجمان رأيناه يضحك كأنه لا يسيء أن تصاب بلاده بالخراب وقال : « نعم لقد كانت هذه الجيوش ناهبة القبض على رجل ثائر ، ولكن الثورات عندنا غير هاتي فارس ، فهناك رجل يثور فتثور معه قبيلته والقبيلة المحالفة وتتهيأ القبائل الأخرى المتذمرة هذه الفرصة فتحالف الثوار . والحال هنا ليست كذلك »

فقاطعه السفير قائلاً : « إنني أفهم هذه النقطة ولكن حدثني عما هو أهم . حدثني كيف استدنتم ؟ وما هو مقدار دينكم وما معنى استدانة الحكومات ؟ »

فازدادت دهشة الترجمان وقال : « ما رأيكم أنتم في الدين ؟ »

قال السفير : « هي فضيحة وإفلاس » فقال الترجمان : « ولكن إذا وفينا ديوننا دفعة واحدة فاتنا نعتبر ذلك نكبة وطنية ، ودولتنا لا تتأخر عن الاستدانة الآن لأنها تستغل أموالها في متاجر تكسب منها أضعاف الربا المستحق على الدين ، ولسنا ندفن أموالنا تحت الأرض كما يفعل الفارسيون

قال السفير : « إذن فما هو مقدار دينكم ؟ »

فقال الترجمان : « ألف ومائتا مليون جنيه »

فصاح السفير الله الله ! هل تحسب أنتا نصدق هذا الكذب ؟ إن هذا مستحيل ، ولسنا من البهائم حتى نصدق ذلك »

قال الترجمان : « ولكن هذه هي الحقيقة »

فقال السفير : « إن ثروة نادر شاه وكنوز

مدينة دلهي وأموال الشاه الحاضر ممثلاً إليها ثروة « خونخور » لاتكفي لسداد نصف هذا الدين. إننا قد نصدق أن دولتكم مدينة في مائة ألف جنيه أو نحو ذلك، ولكن ألفاً ومائة مليون مقدار لا يمكن تصوره. إنكم لن تستطيعوا وفاؤه الا إذا ملكتم جميع العالم وجعلتم كل موارده وقفاً على الدائنين » ثم أخذ يردد : « ألف ومائتا مليون ؟ إن فتاح على خان أكبر شعرائنا لا يستطيع أن يختلق أكذوبة أروع من هذه »

قلت : « إننا لانستطيع أن نبلغ الشاه مثل هذه الأكذوبة وإلافانه لا يعود إلى تصديقنا . لقد قلنا له من قبل ما هو أشبه بالصدق من هذا ولكنه لم يستطع تصديقه » وقال السفير : « لقد أصبت ياحبي بلبا ويجب ألاّ نكتب شيئاً عن ذلك إليه . ولا بد أن يكون اشتهرنا في فارس بأننا كذابون لما كتبناه عن الأسطول وعما شاهدناه منذ جئنا إلى هذه البلاد . وإن رؤوسنا لأعز علينا من هذه البلاد ومن كل من فيها

الفصل الاربعون

في مصنع انكليزي

ولما رأى المترجم أننا نخشى زوال ملك الانكليز جعل همه أن يرى السفير المصانع الكبرى . وقد رافقنا السفير في بعض هذه الزيارات .

توسط المترجم في دعوتنا دعوة رسمية لمشاهدة مصنع في مرفأ . وأقيمت لنا حفلة في هذا المرفأ وكنت قد نميت أسرة هوج منذ ضريبي السفير من أجلها فلما استصحبني في هذه الزيارة اعتبرت ذلك علامة على الرضى وعدت إلى التفكير في هذه الأسرة . وفي استبار حي

ذهبنا إلى المصنع وهو قصر في جبهة «والوش» فرأينا مالم يكن يخطر لنا ببال، ورأينا الحديد يصهرونه حتى يصير سائلاً مثل الماء ثم يأخذونه ويصبونه في قوالب فيصير بعضه مدافع والبعض مسامير والبعض قنابل والبعض على شكل الكرة . ورأينا المدافع التي في هذا المصنع لوصفت أحدها أمام الآخر لوصلت ما بين طهران وبين تبريز

قال السفير عند رؤيتها : « الله الله ! أبعد هذا تقولون إن دولتكم مدينة؟ ما الذي يحملكم على ذلك الدين ؟ اضربوا دائنيكم ببعض هذه المدافع فيصيحوا في القرار السحيق من جهنم ! كيف تكون دولتكم مدينة وكيف يقولون إنها على وشك الدمار؟ كلا كلا لا بد من توثيق العلاقات بين انكلترا وبين فارس فان التركمان لا يعودون إلى التمرد علينا متى علموا أننا حلفاء دولة فيها عشرة آلاف مدفع وعشر ملايين قنبلة »

وقد دهشنا أيما دهشة لما سمعناه من البيانات والتفاصيل، واتفقنا على ألا نكتب عن هذا الأمر أيضاً إلى الشاه لأنه من المستحيلات أن يصدق مثل هذا

وكان من بين الضباط الذين رأيناهم في المصنع شاب صغير لازمني . ورأيت زيادة اهتمامه بأمرى ثم تبينت سبب ذلك عند ما عرفني بنفسه فقال إنه من أسرة هوج . وعلمت منه أن أسرته مدعوة إلى حضور الوليمة التي ستقام لنا في هذا القصر بعد الفراغ

من مشاهدة المصنع . فاستولى عليّ القلق لأنه لا بد أن يخجلني السفير أمامهم فيفهمهم أني لست أميراً . ولذلك احتلت للأمر فقلت للسفير باللغة الفارسية : « إذا أردت أن تحرق قبور الذين يلقبونني أميراً فهذه فرصة سانحة لأن الضابط الذي تراه الآن واحد منهم »

ضحك السفير وقال لي برفق : «ما هذه الكلمات ياحجي بابا؟ لقد فات ما فات » فقلت : « ان هؤلاء القوم لايفهمون أحوالنا وعاداتنا وهم يحسبون أني عظيم مع أني كأتباع ابن كربلائي حسن حلاق اصفهان»

قال السفير : «لقد قلت فات ما فات فلا تفكر في شيء مضى »

ثم دعينا إلى الوليمة فوجدت بها أصدقائي من أسرة هوج ، وأقبلت الأم ووراءها فتياتها وسلمن عليّ فقدمتهن السفير وأنا أرجو همساً ألا يفضحني أمامهن ، فضحك السفير وقال باللغة الإنكليزية لزوجة المستر هوج : « إن سمو الأمير حاجي بابا قد استدعاكم كثيراً أمامي وهو رجل عظيم في بلاده وهو يحبكم حبًّا مفرطاً »

ولقد كان السفير يريد أن يضحك على ذقنها ويلقي بهذه الكلمات ؛ ولكنها اعتقدت صدق ما يقول واعتبرته جدًّا وأخذت وأمها أمامي عدة مرات ، ويظهر أنها فقدت قدرتها على الكلام فلم يمد في وسعها إلا أن تكرر : « سعادتك ... ! سموه ... ! من حسن الحظ ... ! »

وفي وسط هذه الحالة لاحظت أن السفير بهر بجمال الفتيات خصوصاً بيسي ، فقال لزوجة المستر هوج : إن سمو الأمير حسن الذوق ! ما شاء الله ! إنكم في نهاية الجمال وإن الفارسيين مولعون بالجمال

فقالت : « هذه ورقة من سعادتك وإن بيسي جميلة وماري محبة للخير » . فقال السفير : « بارك الله فيكم ! » . ثم رأى فتيات أخريات فقال لي بالفارسية : سأتركك لأصحابك وأذهب لأصحابي

ولقد شعرت في هذا الحين بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل لأن السفير أثنى على أكذوبتي أمامهن . وهنأت نفسي بحسن السياسة التي اتبعتها لأنها جعلت موقفي الحرج من أحسن المواقف ، وأهديت بيسي برقالة وتنهدت وجعلت طرف مطقي يلمس طرف فستانها ، وهذه عندنا في فارس علامة على الحب ؛ ولكني لا أعرف على أي شيء تدل عند الانكليز لأني أجهل الحب الانكليزي ، وعزمت على أن أتلقى هذا النوع من الحب على أحد الشبان المحبوبين ، على ألا أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل قبل أن أدرس الطريق

ونظرت إلى السفير والفتيات والسيدات المحيطات به ، فوجدته أمهرمني في فن الحب الانكليزي لأن عينيه كانتا تتحدثان بما تفهمه الفتيات ، فتحمر وجوههن خجلا . وما أشد وضاءة الوجوه التي تملوها هذه الحمرة ! لقد قلت في نفسي إنه متى جاء اليوم الذي أتمكن فيه من إخجال حبيبتي بيسي فانني في غده أصبح زوجاً لها . ولقد شاهدت الشبان الإنكليز يخجلون فتضيء وجوههم أيضاً فقلت : « من لي بأن أصبح مثلهم ! إنني

سأحلق ذقني لأنه من المستحيلات أن يضيء الوجه وفيه هذه اللحية اللعينة ! »

جلسنا حول المائدة وتبسط السفير كل التبسط مع الفتيات وأهمل السيدات كل الإهمال ، وبدت منه ضروب مختلفة من الحب الانكليزي ، فمن ذلك أنه كان ينحني ليلتقط المنفاز الذي يرميه عن عمد أمام إحدى الفتيات . ولقد تجاوز استياء السيدات حد الاحساس فتكلمن به

قالت إحداهن : « هذا تصرف عجيب ! »

وقالت أخرى : « هذا يعدل إلقاء المنديل عند الفارسيين »

وعلى أثر التحدث بهذه الكلمات قال لي أحد الضباط : « هل من علامات النزل عندكم أن يقذف الرجل بمنديله في وجه فتاة ؟ »

فقلت : « هذا غير صحيح ، فاننا لا نستعمل المناديل كما تستعملونها أنتم ، بل نمسح فيها أيدينا بعد الأكل ونغطي فيها الأرز عند السفر »

فاعتذر لي الضابط من سؤاله ، ولكن دهشته زادت ، وشكرني على هذه المعلومات وتحدث بها مع جاره

ولما قام السفير شمرت الفتاة التي كان يمازحها بأنها اقشلت من هاوية ، وقد كانت أمها تشمر في أثناء المنازلة بأنها في السماء السابعة

وعدت إلى دار السفارة وأنا أفكر في الوسائل الجدية المؤدية إلى نجاحي في الحب

الفصل الحادي والأربعون

حاجي بابا يتعلم في الحب

لما استيقظت في اليوم التالي ووقفت أمام المرآة فرأيت شعرات بيضاء تقلت في نفسي : « يستحيل أن أبقى هكذا في حالة شك ، ولابد من اتباع طريق حاسم في حبي فإن الشعر الأبيض قد ظهر ، وإذا تأخرت قليلاً استحال أن تقبلني إحدى فتيات الكفار ولو كنت علي بن أبي طالب . وتذكرت الحديث الذي دار للمرة الأولى بيني وبين الفتيات وأمعن قائبست في نفسي بريق من الأمل وقلت في نفسي : متى أصبح في جيبي المهر الكبير الذي ستدفعه بيسى أو إحدى أخواتها فانه لن يصير في وسع رجل فارسي مهما كانت منزلته أن يسيرني بأن أبي حلاق

ثم تناولت ديوان حافظ الشيرازي لأرى استخارة فيه أعرف منها بختي ، فوجدت بيتاً معناه : « اقتطف الوردة التي أعجبتك ، ولكن احذر أن تجرح الأشواك أصابعك » فقلت : « هذا فأل حسن وسأقتطف هذه الوردة . أما الشوك الذي يحذرني منه فاني لا أخشاه ، لأني كنت منذ نشأت ممرضاً أصابي له ، ومهما تكن المتاعب التي سأعانيها بسبب هذه الفتاة فانها لا تكاد تذكر بالقياس إلى ما عانيته من المتاعب في مختلف الشئون

بقيت طريقة العرض وهي أصعب الطرق هنا ، لأننا نحن الفارسيين نرسل خاطبة عجوزاً تستطيع التأثير على الفتاة ، وإذا ردت الخاطبة فان الشاب لا يتحمل خجلة الرد في وجهه . وأخذت أسائل

نفسي هل أقدم لها الهدايا أم لم يحن بعد وقتها ؟ وهل أسأل المترجم عن عوائد هذه البلاد فى مسألة الزواج أم لا أسأله ؟ وقد استقر بي الرأي على ألا أخاطبه فى هـذا الشأن حتى لا يرتاب فى أنى أريد الفرار ببعض بنات جنسه

وبعـد تردد طويل قلت فى نفسى إن عوائد الزواج لابد أن تكون مشتركة بين كافة الطبقات من جنس واحد ودين واحد . وبوابنا الانكليزى رجل بسيط ساذج ويمكنني أن أعرف منه ما أردت دون أن أستثير ظنونه . وكان هـذا البواب قد تزوج حديثاً واعتاد أعضاء السفارة أن يسخروا منه، ووجدت منه عطفاً ومودة بعد أن ضربني السفير ، فذهبت إليه وسألته هل هو مسرور بعد زواجه . ثم أخذت أسأله عدة أسئلة قفص على تاريخاً طويلا بعضه مفهوم والبعض غير مفهوم ، ولكن النقطة التى أريد معرفتها جاءت واضحة فى جوابه

قال إنه طلب يد خطيبته فى يوم ممطر ، والقصة أنه زارها وخرج معها وأبوها ، فلما أمطرت الدنيا وقف هو وخطيبته تحت شرفة ووقف أبواها تحت شرفة أخرى، فاجترأ وقال لها إنه يحبها ويريد الزواج منها فوافقته فى الحال

قال : « وما كنت أتشجع على هذا الطلب لولا تلك الظروف » فقلت فى نفسى هذه أحسن طريقة للخطبة . وإن شاء الله ستهيأ لى مثل هذه المصادفة وأكون ماشياً مع حبيبتى يسى ويكون أبواها وراءنا فتمطر الدنيا وأقف تحت شرفة ثم أقول لها أريد أن أتزوج منك فتوافق

سررت جداً من هذه المعلومات وأدركت أن جميع الانكليز يتزوجون فى الشتاء تحت الشرفة

وفى يوم من الأيام أمطرت الدنيا فانتهزت هذه الفرصة وهرولت إلى منزل المستر هوج فاستقبلتنى على الباب زوجته وبناته الثلاث ، وفيهن حبيبتى يسى . والغريب فى أمر الانكليز أن الشتاء لايموقهم عن نزهتهم اليومية لأن الدنيا تكاد تمتو عندهم كل يوم . وقد رحبن بى وسررن من مجيئى على غير انتظار . ودعونى إلى مرافقتهن فى التنزه . وبعد قليل جاء المستر هوج فوضع ذراعه فى ذراع زوجته ووضعت ذراعى فى ذراع يسى وسبقتهما . ومشت ماري وصغرى أخواتها وراء أبويهما، وكانت هى المظلة التى اشتريتها لهذا الغرض

سألت الأم : « إلى أين نذهب ؟ »

فقالت : « لسنا نريد الذهاب إلى مكان معين فامض حيث شئت ونحن نتبعك وهكذا عادة الانكليز إذا خرجوا للتنزه تسكعوا فى الطرقات لا إلى مكان معين !

فقلت لها: «هل نذهب إلى الكنيسة ؟» فابتسمت وقالت : «إن الكنائس لاتفتح إلا فى يوم الأحد» فاستغربت جداً وقلت : « إن المساجد عندنا تفتح كل يوم ليصلى فيها الانسان عندما يريد »

ثم مشيت واشتد المطر فوقفت مع يسى تحت الشرفة وقلت فى نفسى : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم هممت بأن أقول لها إنى أريد الزواج منها ولكن الأم أتت على غير انتظار وقالت : إن الوقوف هنا غير مناسب لأن تيار الهواء شديد فى هذه الجهة .

فتابعنا السير عائدين إلى المنزل

وفى هذه الأثناء وقفنا تحت شرفة أخرى ووقف الأبوان وبناتهما بالقرب منا تحت شرفة أيضاً واستمعت وسمعت وقلت لها : « يا بينانى الجميلة، أريد أن أتزوج منك» فقالت بحدة : « ماذا ؟» ثم امتنع لونها وسحبت يدها برفق من يدى ولم تقل كلمة أخرى

وتقدمت نحو أمها فمشيت إلى جنبها وأنا فى نهاية الخزى وقد تحطمتنا تتكلمان ولكن رأسى كانت مصابة بالدوار، فلم أفهم ما دار بينهما من الحديث

وقد كان سيرنا فى المرحلة الباقية من الطريق سريعاً جداً. ولما وصلنا إلى الباب لم أنتظر أن يدعونى أحد للدخول بل استأذنت وأسرعت إلى دار السفارة وأنا أعزى نفسى عن حبيبتى بما يقولى إنها ليست إلا امرأة كسائر النساء

الفصل الثانى والأربعون

شراء عاجى بابا

بسبب جهلى عوائد الفرنجستان لم أستطع الوثوق بما كنت أرجوه من التزوج بالفتاة ، فلم أفض ذلك السر ولم آمل ولم أيأس وإنما استسلمت للتفكير . وفى اليوم التالى لتلك النزهة طلبنى السفير فذهبت إليه ونفسى تحدثنى بالشر فقال عند ما رآنى : « تعال هنا يا رجل : ألا تريد أن تترك الناس وشأنهم ؟ لقد أسأت إلى سمعتنا فى هذه المدينة »

قلت : معاذالله ! لماذا ؟ فقال: « نعم لقد أسأت إلى سمعتنا فأنت لم تكتف بادعائك أنك أمير بل حدثتك نفسك بأن تتزوج من كل فتاة تصادفها فى الطريق ولو كانت نصرانية ، فقل لى كيف ذلك ؟

قلت : «إننا الآن فى دولة كل شئونها غريب ، فمن الذى يتهمنى بأنى أريد أن أتزوج؟ ومن أنا حتى

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الونسانية فى ستى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

أهم بالزواج فى هذه البلاد ؟ لقد رأيت فى بلادى من الزوجات والأصهار ما فيه الكفاية ولن أجرب حظى مرة أخرى » فقال لى السفير : « ألا تخجل من الكذب أيها الرجل ؟ لقد جاءنى اليوم رجل يسألنى عنك وقال لى إنك تخطب ابنته »

قلت : « بالله يا سعادة السفير من هو هذا الرجل وماذا قال ؟ » فأجابنى السفير : « لقد سألنى هل أنت من أسرة طيبة ؟ وهل أنت أمير ؟ وهل لقبك وراثى ؟ وهل لك ممتلكات وما هو إيرادك ؟ »

قلت : « وبالله ما ذا كان جوابك ؟ »

فقال : « بما ذا أجيبه ؟ لقد قلت له إنك لست أميراً وإنك ابن حلاق وإن كل ما ورثته عنه هو موسى وفرشاة. ماذا كنت تريدنى أقول غير ذلك ؟ »

قلت : « وهل هذا الرجل طويل أو قصير ، وسمين أم نحيل ؟ » فقال : « هو رجل سمين جداً هرم اسمه المستر هوج »

فوقفت أمامه مبهوتاً كأنى صنم وغضبت على نفسى وعلى العالم بأسره

قال السفير : « ما هذه الفضيحة التى جلبتها على نفسك يا حاجى بابا ؟ لقد أردت أن تعظم من قدر نفسك فما ازددت إلا حقارة . قل لى ما الذى فعلت ؟ ما الذى حدث ؟ » . فقلت : « والله بالله لم يحدث شىء يستحق الذكر ولقد قلت ما قلت »

قال السفير بلهجة بين الجد والسخرية : « تكلم يا حاجى بابا ! تكلم ! ماذا أصابك وأنت غريب فى هذه البلاد ؟ . أخبرنى ماذا قلت عن نفسك ولماذا ادعيت أنك أمير ؟ » . قلت : « لقد أقسمت أننى لم أدع الإمارة ، ويظهر أن أهل هذه البلاد يعفون كل إنسان بأنه أمير »

غضب السفير وقال : « هل تجيبنى بالحق أم أستجوبك رسمياً . إننى أقسم بذقن الشاه إذا لم تخبرنى بالحقيقة فانى أربطك بالحبال وأتركك مقيداً حتى تعترف »

فقلت : « إن قصتى بسيطة وهى أننى رأيت بنت هذا الرجل ، وإذا أذنت بأن أكون صريحاً فانى أعترف بأنى أحببتها وطلبت إليها أن تتزوج منى ؟ وأقسم بالخبز والملح الذى أكلته عند الشاه، وبالأئمة الاثنى عشر أن هذه هى الحقيقة »

وفى هذا الحين دخل محمد بك فأعاد السفير أمامه هذه القصة وأشركه فى السخرية منى والاستهزاء بى فقال محمد بك : « لقد أخطأت يا حاجى بابا وأساب السفير فى قوله إنك أسأت إلى سمعتنا فى هذه البلاد ونحن لسنا فى فارس حتى تستطيع الزواج من نصرانية ثم تدعوها إلى دين الاسلام »

فقلت وما يدريك أنها لا تسلم ؟ إن الحب يأتى بالعجائب والغرائب »

قال السفير : « ما هذه الكلمات التى تلقيها جزافاً يا حاجى بابا ؟ ألا تعلم أن مئات الآلاف من أهل هذه البلاد يشتغلون بالتبشير ليحولوا أهل بلادنا إلى المسيحية وفيهم من يؤلف كتب التبشير ومن يترجمها إلى لغتنا ومن يطبعها ومن يوزعها ومن يذهب إلى أقاصى الأرض ليبث تعاليمها، فهل تحسب فتاة من هذا الجنس تثير دينها من أجل سواد عينيك ؟ »

قال محمد بك : « وهب أنها أسلمت فكيف تثق

بأنها غيرت اعتقادها ؟ » فقلت : « انني أحني يديها وقدميها وألبسها ملاءة وأضع على وجهها برقعاً فتصير مسلمة »

قال محمد بك : ليعف الله عنا ! يظهر أن حاجي بابا أصيب بالجنون

وقال السفير : « لقد خدعك الشيطان ياحاجي بابا ألم يكف ما وجدته من حب زينب وشكر ليب ؟ »

وقال محمد بك : « صدقني ياحاجي بابا : لو نجحت هذه الأمنية فانك تشقى بها طول عمرك . أليس في فارس فتيات يصلحن للزواج ؟ »

قلت : « نعم ولكن ليس عندهن من المال مثل الذي عند الفتيات في هذه البلاد » فصاح السفير : « المال ! هل عند خطيبتك مال ! »

قلت : « نعم » فسألني الرجلان في وقت واحد عن مقداره

قلت : « مائة ألف جنيه » فقال السفير : « والله والله ان هذه صفقة رابحة ياحاجي بابا . في أي شارع تقيم ومارقم منزلها ؟ »

وقال محمد بك وهو ينتبه : « وهل في البلاد فتيات كثيرات يملكن مثل هذا القدر من المال ؟ »

فقلت : « إن الجزء الأعظم من فتيات القرنجستان يملك الأموال الطائلة لأن الآباء هنا يعنون بالبنات مثل عنايتهم بالبنين »

عاد محمد بك إلى تنهده وقال : إن المال أنفس شيء في الحياة . فقال له السفير : « أهكذا أيها المفلس الخاسر تغير رأيك على عجل لأنك سمعت ذكر النقود ؟ هل النقود تجعل النصرانية في حكم بنات الاسلام »

فقال محمد بك : « ولماذا نصير في حكم بنات الاسلام ؟ إن الزواج من النصرانية وهي على دينها جائز في الشرع الاسلامي ، وقد تزوج النبي عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية »

قال السفير : « مرحى لك يا محمد بك ! أنت أكبر العلماء والمفتين . إنني أطلتك في غد ستكحل عينيك وتزجج حاجبيك لتوقع في شراكك الفتيات النصرانيات . اطمئن ياحاجي بابا فانا جاء صهرك مرة أخرى فسأخبره بأنك ابن وزير كبير أصبح الآن في جهنم بحمد الله . فاعرف لي من أين طريق المال وتقاسم ، فلك العروس وأنا أكتفي بالمال »

قال ذلك ثم طردني من حضرته

الفصل الثالث والأربعون

رسيسة المترجم

لما خرجت من عند السفير وجدت في انتظاري بنرفتي ذلك الضابط الشاب الذي رأيته في مصنع (ولوش) والذي يمت بصلة القرابة لأسرة هوج فصافحته ، وبعد أن سألته عن صحته وسألني عن الجو قال إنه آت من قبل المستر هوج وزوجته ليتحدث معي في أمر الزواج الذي طلبته وأكد لي أن الأسرة شاكرة لي تشريفها بهذه العناية . فسررت من كلامه كل السرور وقلت له : « متى كانت الحقيقة كذلك فان بقية الأمر تصبح في نهاية السهولة

ثم تكلم عن اختلاف الجنس والدين وأشار إلى أنه لا بد من إتمام الطقوس في الكنيسة فلم أبد على ذلك أقل اعتراض ، ولكني سألته : ما هي هذه

المقدوس فنهمت أنهم ينادون علىّ فى الكنيسة كما تنادى نحن فى فارس على الخيل التى تباع بالمزاد، ثم أحصل على شهادة خاصة من بعض الأطباء ثم اذهب إلى الكنيسة مع قريبته فأضع فى أصبعها خاتماً من الذهب وإذا تم ذلك لم يبق إلا أن نبتعد عن وجوه الناس مدة شهر كامل ثم نعود زوجين

بيد أن سمت ذلك حاولت إقناعه بأن الزواج وفق عوائدنا أسهل ، وأكدت له أنى لا أريد أن يعقد الزواج فى مسجد لأن ذلك ليس من عوائدنا بل يتقابل وكيلى ووكيلها مع الشهود فى أى مكان ومتى تم الاتفاق بين الوكيلين يأتى أصحاب الزوج به راكباً جواداً . وقلت له إننى أعدل الشطر الأخير فتأتى العروس راكبة عربة

فلم يظهر على الشاب الرضى عن هذا الاقتراح وقال لى إن أبا الفتاة سيهديها مبلغاً كبيراً من المال وأنه يريد أن يعرف ممتلكاتى وإرادى . وعند هذا السؤال تذكرت أننى لما تزوجت للمرة الأولى فى فارس من شكر ليب كذبت على أهل زوجتى فقلت لهم : إنى أملك كيت وكيت مما لست أملك فى الواقع شيئاً منه . ورأيت نتائج الكذب فى هذا الموضوع سيئة العواقب جداً . ولذلك صممت على عدم التسرع الآن بما قد يكون سبباً للتنائج فى الند

وبالرغم من شدة رغبتى فى هذه الزيجة فقد قلت إنه لا بد من التفكير بصفة جدية فيما أجيب به . وقلت له « إننى راغب فى هذه المصاهرة أشد الرغبة ولكن الأمر جدي ولا بد فيه من التروى والتفكير فأشار بأنه لا بد من اعتناق الدين المسيحى، فأريته أنى فهمت الاشارة وأنى لا أعارض فى ذلك ولكنى أطلب مهلة للتفكير

قام لينصرف ولكنه عاد للكلام وكأنه ذكر شيئاً هاماً وقال : « أنت تعرف أن الأب يريد الاطمئنان على مستقبل بنته . ولذلك كان من حقه أن يتحرى بكل وسيلة . وقد أرسل إلى رجل يعرفك فجاءه هذا الخطاب وأنا أطلعك عليه وأرجو إن كانت عندك ملاحظة عليه أن تبديها وسننظر فى ردك نظرة اعتبار وتقدير . وهذا هو الخطاب »

فأخذته منه ولا كانت فيه كلمات كثيرة لا أعرف معناها فقد نسخته لأتفهمه مع البواب الانكليزى فيما بعد . وهذه صورة الخطاب :

إلى المستر الكسندر هوج :

تشرفت بتسلم خطابك الذى تسألنى فيه عما إذا كنت أعرف البرنس حاجى بابا ، وعما إذا كنت أستطيع إخبارك عن إراده وعما يملكه وعما إذا كانت معلوماتى عن أخلاق الفارسيين وعوائدهم تكفى لتشجيعك على تزويج كريمتك من رجل فارسي

وإنى أشكر لك حسن ظنك . أما عن السؤال الأول فإن حاجى بابا ليس أميراً ولكنه ابن حلاق فى أصفهان . وأما عن السؤال الثانى فانه لا يملك شيئاً غير الثياب التى على جسمه . وأما عن السؤال الثالث فلا أرى لك أن تزوج كريمتك من رجل فارسى، وقد أكون مخطئاً ، ولكنك على كل حال تسألنى عن رأيى . فالمرأة فى فارس ليس لها أى حق معترف به [1] ولا تسلم فى يوم من الأيام من

(١) ليذكر القارئ أن هذه الرواية كتبت منذ مائة عام

آلام الغيرة والغضب والانتقام التي يصب الزوج جامها على رأسها. وإن الخلق الأساسي في بلاد الشرق إغاظة الاستبداد. ويمتاز حاجي بابا نفسه عن أكثر جنسه بسمة الصدر ودماثة الخلق وسرعة الفهم ولكنه فقير مسرف . والفقر أساس كل رذيلة إن كان مصحوباً بالاسراف . وإن كثيراً من الرذائل التي تقدم ذكرها موجود هنا بين بعض الانكليز كما هو موجود في فارس ، ولكن الأمر نسبي

ومع ذلك فقد أعربت عن رأيي والرأي لك

مترجم السفارة الفارسية

وبعد أن نسخت صورة الخطاب دفعته إليه فاستأذن وانصرف . وذهبت إلى الباب الانكليزي فقرأت معه الخطاب وأفهمني معناه حرفاً فحرفاً فغضبت وكتبت هذا الخطاب باللغة الانكليزية إلى المترجم:

صديقي العزيز

أقسم بشرفي أن مترجم السفارة رجل سيء . لماذا يكتب خطاباً كله أكاذيب ؟ لقد قال إني ابن حلاق ولقد كنت كذلك في وقت من الأوقات ولكنني الآن ميرزا ... لماذا يكذب إذن ؟ يقول إنني لا أملك غير ثيابي ... ما شاء الله ! إن الشاه غني وأنا من أتباع الشاه وهذا يكفي . . . ما الذي يريده المترجم غير ذلك ؟ لقد كذب على الفارسيين وشتم نساءهم فأين رأى امرأة فارسية حتى يحكم عليها ؟ إن نساءنا محتجبات وهو يشتم كل الرجال الفارسيين ولكن هذه أكذوبة أخرى

سلامي إليك وإلى أهل منزلك

حاجي بابا

وبعد أن أرسلت هذا الخطاب إلى المسترهوج شعرت براحة الضمير وعزمت على إقناع السفير بأنه إن كانت سمعة الفارسيين قد ساءت في هذه البلاد الأجنبية فإن ذلك ليس نتيجة لنشاطي بل هو نتيجة لتشهير المترجم

وقد اقتنع السفير بذلك فيما بعد وعاتب المترجم ولكن هذا الثمين كان في كل يوم يختلق عذراً جديداً عن كتابة هذا الخطاب

(يتبع) عبد اللطيف النشار

إشتراك الصيف

تقبل ادارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهري في المجلتين أو في احداهما سواء على مضمرات القراء في زمن الصيف وسعر الاشتراك في الرسالة أربعة قروش وفي الرواية قرشان ترفع سلفاً

العدد الممتاز

أعدنا طبع العدد ٢٤٦ وهو العدد الممتاز فمن أراد اقتناءه فليطلبه من إدارة الرسالة بالسعر العادي وهو عشرة مليمات غير أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧)

FIN

DU

DOCUMENT

2017-11-15 15:26:28

الرسالة

مجلة الأسبوعية للآداب والفنون والثقافة

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

Volume 1

2017-11-15 Egypt